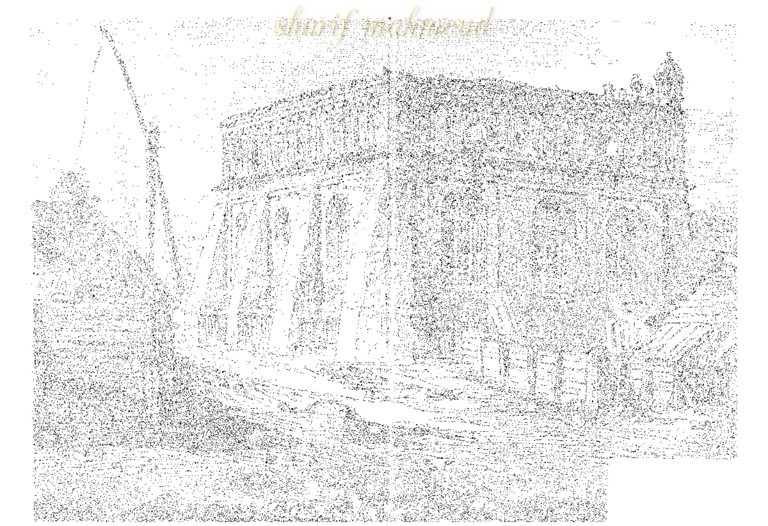
عبد الوهاب المسيرى

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية

دار الشروق



الغلاف الداخلي :
المعبد/ القلعة في لتسك . كان أعضاء الجماعة اليهودية موضع كراهية الجماهير لأنهم كانوا يمثلون النبلاء الإقطاعيين البولنديين في أوكرانيا ، ويستغلون شعبها لحساب هؤلاء النبلاء . ولهذا السبب كان عليهم أن يعيشوا في حالة تأهب دائم ، خوفاً من هجمات الفلاحين وفرسان القوزاق ، فاكتسبت حياتهم طابعاً عسكرياً تبدى بشكل مثير في المعبد/ القلعة .

اليهود
واليهودية
والصهيونية

الطبعـــة الأولـــى
١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٨/١٥٥٦٠
الترقيم الدولى : ISBN: 977 - 09 - 0515 -1

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

موسوعة

اليهود واليهودية والصهيونية

نموذج تفسيري جديد

عبد الوهاب محمد المسيري



دار الشروق



المجلد الثانى

الجماعات اليهودية

إشكاليات

حاخام بولندي يسير في أحد
شوارع وارسو ، عام ١٩٣٨ .

يضم المجلد الثامن دليلاً لاستخدام الموسوعة («آليات الموسوعة») ومفتاحًا للمفاهيم والمصطلحات («تعريفات المفاهيم والمصطلحات الأساسية [مرتبة موضوعيًا]»)، وثبتًا تاريخيًا بأهم الأحداث الإنسانية وتلك التي تخص الجماعات اليهودية وفلسطين. كما يضم المجلد فهرسًا موضوعيًا شاملاً بكل المجلدات والأجزاء والأبواب والمداخل، وآخر ألفبائي عربي، وثالث ألفبائي إنجليزي.

المحتويات

الجزء الأول : طبيعة اليهود في كل زمان ومكان

الجزء الثاني : يهود أم جماعات يهودية ؟

الجزء الثالث : يهود أم جماعات وظيفية يهودية ؟

الجزء الرابع : عداء الأغيار الأزلي لليهود واليهودية

الجزء الأول

طبيعة اليهود في كل زمان ومكان

١
إشكالية الجوهر اليهودي

الجوهر اليهودي ـ طبيعة اليهود ـ الأخلاقيات اليهودية ـ المادية اليهودية ـ
تهويد المجتمع ـ العرق اليهودي ـ الجنس (بمعنى عرق) ـ السلالة اليهودية

الجوهر اليهودي
Jewish Essence

«الجوهر» هو مجموعة الخصائص الثابتة في ظاهرة ما أو هو ما لا يتغيَّر بتَغيُّر المكان أو الزمان . وفكرة الجوهر اليهودي الخالص (الثابت) هي فكرة كامنة وراء عديد من المفاهيم والمصطلحات والنماذج التفسيرية المُستخدَمة في دراسة الجماعات والعقائد اليهودية، مثل : «التاريخ اليهودي» ، و«الشخصية اليهودية» ، و«العبقرية اليهودية» ، و«الجريمة اليهودية» ، و«الشعب اليهودي» ، و«العرق اليهودي» ، و«الإثنية اليهودية» . فكل هذه المصطلحات تفترض وجود هذا الجوهر اليهودي الخالص الثابت الذي يجعل من يهودية اليهودي النقطة المرجعية الأساسية لتفسير سلوكه . أما العناصر غير اليهودية ، مثل السياق الحضاري الإنساني الذي يوجد فيه أعضاء الجماعات اليهودية ، أو حركيات المجتمعات التي ينتمون إليها ، أو تفاعلهم مع أعضاء الأغلبية ، بل والعناصر الإنسانية المشتركة مع بقية البشر ، فهي عناصر يُفترَض فيها أنها عَرَضية تنتمي إلى السطح ولا تفيدنا كثيراً في تفسير الظواهر اليهودية ، حيث يتم تفسير هذه الظواهر من الداخل فقط .

ففي حالة دراسة تاريخ يهود بولندا ، على سبيل المثال ، يتم التركيز على ما جاء في التوراة والتلمود وعلى الحياة داخل الشتتل ، ولا يظهر العالم الخارجي غير اليهودي إلا على هيئة هجمات ومذابح ضد اليهود أو تسامح معهم . ولكل هذا ، تبدو حياة أعضاء الجماعات اليهودية وكأنها لا علاقة لها بحياة كل البشر ، وتختلف تماماً عن حياة الأقليات الأخرى . ويَبرُز الجوهر اليهودي باعتباره محركاً أساسياً للأحداث . وغني عن الذكر أن المعادين لليهود يتبنون النموذج نفسه ويرددون ، على سبيل المثال ، أن عزلة اليهود هي تعبير عن جوهرهم الانعزالي ، وأن اشتغالهم بالتجارة تعبير عن نزوعهم الطبيعي إلى الاشتغال بأمور المال ، وأن اتجاههم نحو الصحافة الإباحية هو تعبير عن نزوعهم الأزلي نحو الشر .

وهذا النموذج التفسيري الذي يفترض وجود الجوهر اليهودي، هو نموذج صهيوني بشكل واع أو غير واع حيث إن كلاً من الصهاينة والمعادين لليهود يُسقطون عن اليهود إنسانيتهم ولا يرونهم بشراً يتسمون بالقدر نفسه من الخير والشر الذي تتسم به بقية البشر . لكن مفهوم الجوهر اليهودي هو تعبير عن نموذج اختزالي عنصري ، مقدرته التفسيرية منخفضة للغاية ، إذ أنه يستبعد كثيراً من تفاصيل الواقع ومستوياته وبنيته . فلا يمكن فهم وضع اليهود في بولندا إلا بالعودة إلى حركيات التاريخ البولندي ابتداءً من تَوسُّع بولندا وضمها أوكرانيا ، مروراً بظهور الإمبراطوريات الثلاث المجاورة لبولندا (روسيا وألمانيا والنمسا) ، وانتهاءً بتقسيم بولندا . كما لا يمكن فهم الشتتل إلا في ضوء نظام الأرندا البولندي الذي كان يخدم مصالح طبقة النبلاء البولنديين (شلاختا) . كما أن علاقة يهود بولندا بمجتمعهم لا تختلف كثيراً عن علاقة أية أقلية بالأغلبية التي تعيش بينها .

وقد يكون هناك بعض الأنماط المتكررة والسمات المشتركة التي تسم وجود كثير من الجماعات اليهودية . ولكن هذه السمات ليست أساسية ، وبالتالي فإن مقدرتها التفسيرية ضعيفة . وهذه السمات مرتبطة بعشرات التفاصيل والسمات الأخرى النابعة من البيئات المختلفة التي يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية . وإذا كانت ثمة سمة أو سمات أساسية متكررة في معظم الجماعات اليهودية ، فهي اضطلاعهم بدور الجماعة الوظيفية وتَصاعُد الحلولية الكمونية داخل النسق الديني اليهودي . وهاتان السمتان ذاتهما تأخذان أشكالاً مختلفة . فهناك جماعة وظيفية قتالية استيطانية في جزيرة إلفنتاين في مصر الفرعونية ، وهناك جماعة وظيفية استيطانية في قبرص العثمانية ، وجماعة وظيفية وسيطة في أوربا حتى عصر النهضة . وهذه السمة بالذات ليست مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية وإنما هي سمة مشتركة تجمع بينها وبين أقليات أخرى (مثل الصينيين في جنوب شرق آسيا) .

وفيما يتصل بتَصاعُد الحلولية الكمونية داخل النسق الديني اليهودي وهيمنتها عليه تماماً ، حتى أصبحت اليهودية ، في معظم

أنحاء العالم ، ديانة حلولية كمونية واحدية ، فهذا بدوره ليس مقصوراً على اليهودية وإنما هو تعبير عن نمط أكثر عمقاً وكموناً ، إذ يُلاحَظ أن العقيدة المسيحية أيضاً قد بدأت تهيمن عليها الحلولية الكمونية بعد حركة الإصلاح الديني . كما أن لاهوت موت الإله (وهو تعبير عن حلولية كمونية بدون إله) هو اتجاه ديني طالما ساد في المجتمعات العلمانية الغربية ، وليس أمراً مقصوراً على اليهودية .

طبيعة اليهود

The Nature of the Jews

«طبيعة اليهود» عبارة تتواتر في كثير من الدراسات التي تُكتَب عن الجماعات والعقائد اليهودية ، وتفترض أن ثمة جوهراً يهودياً كامناً في أي يهودي يُعبِّر عن نفسه من خلال «طبيعة يهودية» ويتجلى في العقائد اليهودية ويحدِّد رؤية اليهود للواقع وسلوكهم . ولذا ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية ـ حسب هذا المفهوم ـ يعملون بالتجارة والربا والأمور المالية بسبب طبيعتهم ، وهم يعيشون في عزلة ويرفضون الاندماج للسبب نفسه . لكن هذا المفهوم تعبير عن نموذج تفسيري اختزالي عنصري يتبناه الصهاينة والمعادون لليهود ، ويُبرز اليهود كتجمع بشري يتمتع بقدر عال من الوحدة والاستقلال وله حركيات مستقلة عن بقية البشر . وغني عن القول أن هذا المفهوم يُفسِّر الواقع كله بصيغة واحدة بسيطة جاهزة ، ومن ثم فهو يتجاهل واقع أعضاء الجماعات اليهودية المُركَّب غير المتجانس ، وهو واقع لا يخضع لقانون عام ولا ينضوي تحت نمط متكرر واحد .

الأخلاقيات اليهودية

Jewish Ethics or Morality

«الأخلاقيات اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة أنماطاً سلوكية يهودية متكررة تُعبِّر عن جوهر يهودي وطبيعة يهودية وشخصية يهودية تنعكس في رؤية أخلاقية محددة . وهي أنماط متكررة باعتبار أن هذه الأخلاقيات ثابتة لا تتغيَّر ، وأينما وُجد يهود في أي زمان ومكان فإن المتوقع أن يسلكوا السلوك اللاأخلاقي نفسه الذي ينم عن الرغبة في تحطيم الآخرين والتآمر ضدهم . وبسبب هذه الأخلاقيات اليهودية المزعومة ، يتسم سلوك اليهود بحب العزلة عن الآخرين وعدم الولاء للدولة والانحلال الجنسي ، كما أنهم لهذا السبب ينخرطون بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية وينضمون إلى صفوف دعاة العلمانية الشاملة ، كما أنهم عادةً ما يعملون بالتجارة والربا والأعمال المالية . ومصدر هذه الأخلاقيات ، حسب هذه الرؤية ، هو كتب اليهود المقدَّسة كالعهد القديم والتلمود ، ويُضاف إليها الآن **بروتوكولات حكماء صهيون** ، وهي كتب تعبِّر عن طبيعتهم وجوهرهم . لكن هذا النموذج التفسيري متهافت تماماً ، فسلوك اليهود يختلف باختلاف الزمان والمكان . ومن هنا يجري حديثنا عنهم ، لا باعتبارهم أعضاء شعب يهودي ، وإنما باعتبارهم أعضاء جماعات يهودية .

ومن المعروف أن أعضاء الجماعة اليهودية لم يعزلوا أنفسهم في بابل ولا في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ولا في إسبانيا الإسلامية ، بل اندمجوا إلى حدٍّ كبير في محيطهم الحضاري . أما في آشور والصين ، فقد انصهروا تماماً . وكان العبرانيون القدامى بدواً رُحلاً ، وعملوا بالزراعة (وليس بالتجارة أو الربا) حين استقروا في كنعان . وكذلك ، فإن ولاء يهود ألمانيا في القرن التاسع عشر لدولتهم كان كاملاً إلى درجة أن نسبة مئوية ضخمة منهم تَنصَّرت حتى أنهم أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الشعب الألماني . كما أن ولاء الأمريكيين اليهود للولايات المتحدة من القوة بحيث إنهم يموتون من أجلها . أما عداء اليهود للأغيار فإنه ليس مطلقاً ، فقد ساعدوا المسلمين في الفتح الإسلامي ، سواء في فلسطين أو في إسبانيا . كما أن انحلالهم الجنسي غير مطلق أيضاً ، فظاهرة الطفل اليهودي غير الشرعي أو البغيِّ اليهودية كانت غير معروفة تقريباً في أوربا حتى منتصف القرن التاسع عشر . وأما الماسونية والعلمانية ، فإن اليهودية الأرثوذكسية تعاديهما بشراسة ، وهكذا . ولا يصعب على أي دارس مُتحيِّز أن ينتقي مجموعة من التفاصيل والقرائن مُنتزعة من سياقها الزمني والمكاني للتدليل على أية مقولة عامة ، كأن يأخذ قرينة من المدينة أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخرى من إسبانيا أثناء الغزو المسيحي ، وثالثة من روسيا في القرن التاسع عشر ، ثم يستخدمها جميعاً لإثبات مقولة ما مثل «عدم ولاء اليهود» متجاهلاً كل القرائن الأخرى ، كتلك التي ذكرناها .

والصورة العامة التي ترسخت في أذهان الكثيرين عن أعضاء الجماعات اليهودية تعود ولا شك إلى الرؤى الإنجيلية الخاصة بالشعب المختار الذي لا يسلك سلوكاً حراً وإنما يُعبِّر دائماً عن قصد إلهي . كما أن اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة في الغرب ، ساهم في ترسيخ هذه الصورة الإدراكية . فالجماعات الوسيطة لا تدين بالولاء للأغلبية ، وتستخدم عادةً المعايير الأخلاقية المزدوجة باعتبار أن أعضاء الجماعة يتمتعون بالقداسة ، أما أعضاء الأغلبية فهم مباحون لا قداسة ولا حرمة لهم . ولكن المصدر المباشر لهذه الصورة السلبية للأخلاقيات

اليهودية هو يهود اليديشية في مرحلة ضعفهم وتفسُّخهم في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر حتى ثلاثينيات القرن العشرين ، إذ تركزت نسبة كبيرة منهم في تجارة البغاء حتى أصبحت شخصية القواد اليهودي والبغي اليهودية أمراً شائعاً . كما أن نسبة المهاجرين منهم كانت مرتفعة للغاية . والمهاجر في كثير من الأحيان ، شخصية غير منتمية لا ولاء لها ، كما أن معدلات العلمنة بين المهاجرين مرتفعة للغاية . وهكذا ، فإن الصورة العنصرية النمطية السائدة عن الأخلاقيات اليهودية قد يكون لها أساس واقعي ، ولكنها تنتمي إلى زمان ومكان محدَّدين ، كما أنها فقدت كثيراً من فعاليتها إذ اختفى يهود اليديشية تقريباً وظهرت أنماط سلوكية جديدة بين أعضاء الجماعات .

وتنتشر فكرة الأخلاقيات اليهودية بين المعادين لليهود ، ولكنها شائعة أيضاً بين الصهاينة الذين يعطونها مضموناً إيجابياً . فالأخلاقيات اليهودية تعبير عن العبقرية اليهودية التي تجعل من اليهودي مبدعاً قادراً على التماسك الاجتماعي ، محباً لقومه وقوميته اليهودية وأرضه . . . إلخ . وغني عن القول أن رؤية المعادين لليهود لا تختلف في بنيتها عن رؤية الصهاينة ، فاليهود في نظرهم هم اليهود ، يسلكون دائماً السلوك نفسه أينما وُجدوا .

المادية اليهودية

Jewish Materialism

لمصطلح «المادية» معنيان :

١ ـ المعنى الفلسفي : الإيمان بأن العالم كله مادة تتحرك وأن كل ما يبدو وكأنه ليس مادة (العقل والروح والنفس والفكر والوعي) إنما هو في واقع الأمر مادة ويمكن تفسيره من خلال مقولات مادية ، وأن كل الظواهر الإنسانية العقلية والروحية ما هي إلا جزء من بناء فوقي يمكن أن يُرَد في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إلى المادة (البناء التحتي) . وأن كل شيء في الكون يمكن تفسيره تفسيراً مادياً لأن كل التغيرات لها سبب مادي . ولذا ، فإن التفسيرات المادية هي التفسيرات الوحيدة الممكنة ، كما أن العقل الإنساني ليست له أية فعالية سببية ولا علاقة له بحركة الكون الذي يتحرك بذاته ، والكون لا يوجد فيه غرض ولا سبب ولا هدف ولا معنى ولا يوجد إله ولا غيب (وراء الطبيعة) ، فالمادة وحركتها أزليتان ولا يوجد سبب أو محركٌ أوّل . وقد تتغير أشكال الظواهر المادية وقد تتبدل تجلياتها ولكن المادة لا تُخلَق ولا تُستحدَث من العدم ، ولا توجد حياة أزلية سوى المادة .

٢ ـ المعنى الدارج : وهو حب النقود (التي يشار إليها على أنها «مادة») . فيُقال «فلان مادي» بمعنى أنه يحب المال حباً جماً .

والمدلولان قد يغطيان رقعة مشتركة ، فالإنسان المادي (بالمعنى الفلسفي) قد يكون محباً للمال ، والمحب للمال قد يكون مادياً بالمعنى الفلسفي ، ولكنهما على أية حال مختلفان ، فالمادية بالمعنى الفلسفي رؤية شاملة للكون تغطي علاقة الإنسان والطبيعة والإله ، أما المادية بالمعنى الدارج فهي تنصرف إلى جانب واحد في الطبيعة البشرية وهو حب المال .

وإذا نظرنا إلى عبارة «المادية اليهودية» بالمعنى الفلسفي ، فإننا سنواجه صعوبات بالغة ، فاليهودية عقيدة دينية يؤمن كثير من أتباعها بالإله واليوم الآخر والملائكة والشياطين والثواب والعقاب ، ومن ثم لا يمكن الحديث عن المادية اليهودية بهذا المعنى . ومع هذا ، يمكن من قبيل التحفظ أن نقول إن الطبقة الحلولية الكمونية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي التراكمي تتبدَّى (في مرحلة وحدة الوجود) في شكل رؤية مادية ، كما أنها تخلق لدى المؤمن تَقبُّلاً للفكر المادي بالمعنى الفلسفي . ولعل هذا يفسر ظهور النزعات المشيحانية التي عادةً ما تصبح حركات عدمية بالمعنى الفلسفي ، كما يفسر ظهور كثير من الفلاسفة الماديين من أصل يهودي (من أهمهم إسبينوزا وماركس) .

ويمكننا الآن تَناوُل عبارة «المادية اليهودية» بالمعنى الدارج . وهنا أيضاً لا يمكننا أن نتحدث عن أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة في كل زمان ومكان باعتبار أنهم محبون للمال حباً جماً . ومثل هذه المقولات التحليلية معادية لليهود وصهيونية في آن واحد لأنها تفترض وجود جوهر يهودي واحد لا يتغيَّر بتَغيُّر الزمان والمكان .

والدارس لتواريخ الجماعات اليهودية سيكتشف أن حب اليهود للمال لا يختلف في معدله كثيراً عن حب أعضاء الأغلبية له . فيهود الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا يتصفون بصفات الكرم والسخاء (إلى درجة التبذير) ، شأنهم في هذا شأن العرب في عصرهم ، بينما نجد أن يهود الولايات المتحدة يتصفون بأنهم أكثر حرصاً وتقتيراً ، وهذا جزء من ميراثهم البروتستانتي التعاقدي الذي يؤكد على قيم التقشف الذي يؤدي إلى التراكم المالي (المادي) . وكان كثير من يهود شرق أوربا من يهود اليديشية يتهمون اليهود الأمريكيين بالبرود والحرص الزائد ، وهذا يعود إلى أن يهود شرق أوربا جاءوا من مجتمعات شبه زراعية ومن خلفية سلافية لا تعرف التقتير والتراكم أو لا تشجعه (على عكس اليهود الأمريكيين من أصل ألماني بروتستانتي) .

ومع هذا ، يمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يميلون ، أكثر من غيرهم ، إلى جمع المال ومراكمته . ولكن هذا لا يُفسِّره يهوديتهم وإنما يُفسِّره أنهم أعضاء في جماعات وظيفية لابد أن تقوم بمراكمة الخبرات والأموال وأن تمارس قدراً عالياً من ضبط النفس في عمليات الاستهلاك (وشيلوك مثل جيد على ذلك) . والدارس للجماعات الوظيفية (خصوصاً الوسيطة) ، سيجد أن أعضاءها (يهوداً كانوا أم باكستانيين أو صينيين) يتسمون بالصفات نفسها تقريباً . والصينيون في وطنهم غير معروفين بالبخل أو الحرص الشديدين ، ولكنهم حينما تحولوا إلى جماعات وظيفية ، أصبحوا «ماديين» يحبون المال حباً جماً . والباكستانيون مشهورون بكرمهم الزائد في بلدهم ، بينما نجد أن البريطانيين (المعروفون بحرصهم البالغ) يتهمون الباكستانيين المقيمين في بلادهم بأنهم بخلاء .

تهـــويد المجتمـــع

Judaization of Society

«تهويد المجتمع» عبارة استخدمها ماركس في كتابه **المسألة اليهودية** ، وهي تفترض وجود جوهر يهودي ثابت ، له ملامح معينة ، يتم تعميمه على المجتمع ، الأمر الذي يتناقض مع فكر ماركس ، ولذا فالأمر يتطلب قدراً من التعمق . وقد يكون من المفيد ألا نبدأ بالجوهر اليهودي وإنما بالإنسان الوظيفي ، عضو الجماعة الوظيفية ، الذي يدخل في علاقة تعاقدية نفعية باردة مع مجتمع الأغلبية ، ولا يكترث بقيم المجتمع ويعيش على هامشه أو في مسامه . هذا النمط الإنساني كان مُهمَّشاً ، شأنه في هذا شأن الجماعة الوظيفية . ولكن مع تحوُّل المجتمعات الغربية (ثم بقية المجتمعات في العالم) من الزراعة إلى الصناعة تم إشاعة نموذج الإنسان الوظيفي . وقد وصف كارل ماركس هذه العملية بدقة بالغة في **البيان الشيوعي** في إطار حديثه عن دور البورجوازية الثوري في التاريخ ، تلك البورجوازية التي سحقت تحت أقدامها جميع العلاقات الإقطاعية والبطريركية والعاطفية ، ولم تُبق أية صلة بين الإنسان والإنسان إلا صلة المصلحة الجافة والدفع الجاف نقداً وعداً . وأغرقت الحمية الدينية وحماسة الفرسان ورقة البورجوازية الصغيرة في مياه الحساب الجليدية المشبعة بالأنانية ، وجعلت الكرامة الشخصية مجرد قيمة تبادل لا أقل ولا أكثر ، وقضت على الحريات الجمة ، المُكتسَبة والممنوحة ، وأحلّت محلها حرية التجارة وحدها ، هذه الحرية القاسية التي لا تُشفق ولا تعرف الشفقة أو الرحمة .

فالمجتمع البورجوازي مجتمع تعاقدي تحل فيه قيمة التبادل محل القيم الإنسانية كافة ، ويُعرَّف البشر في ضوء نفعهم وتسود فيه النظم المعرفية والاقتصادية والأنانية التعاقدية . وقد أشار ماركس إلى التجربة الرأسمالية (البروتستانتية) الكبرى في أمريكا الشمالية بقوله : "إن مامون (إله المال) هو الوثن الذي يعبدونه هناك بجميع قوى أجسادهم وأرواحهم . فالأرض في نظرهم ليست سوى بورصة وهم موقنون بأنهم لا مصير لهم في الحياة الدنيا سوى أن يصبحوا أغنى من جيرانهم . لقد استولت المتاجرة على جميع أفكارهم وليس لديهم تسلية أخرى سوى تبديل أمتعتهم" ، وهم "لا يتحدثون إلا عن المنفعة والربح" و"النبوءة الدينية أصبحت سلعة تجارية" .

ورغم أن اليهود لم يكونوا وحدهم الضالعين في هذه العملية (كما يعرف ماركس تماماً) إلا أنه وصفها بأنها عملية «تهويد» . وحتى نفهم هذا التعميم الماركسي الكاسح ، يجب أن نشير إلى أن ماركس كان يرى أن روح الرأسمالية مُستمدة من اليهودية (لا البروتستانتية كما قال فيبر) . ولعله كان يعني أن النموذج المعرفي الذري المتفتت الأناني الذي يُشكِّل جوهر الرأسمالية - في نظره - يوجد في اليهودية بشكل أكثر تبلوراً منه في المسيحية ("جوهر اليهودية هو المتاجرة وأساسها المنفعة العملية والأنانية" - "تحتوي اليهودية على عنصر عام ومناهض للمجتمع") . وسيادة النمط المعرفي الكامن في اليهودية يعني في واقع الأمر الانتصار الكامل للرأسمالية . واليهودي ، بالنسبة إلى ماركس ، هو سيِّد السوق المالية ، وبواسطته أصبح المال (إله إسرائيل الطماع) قوة عالمية ، وأصبحت الروح العملية اليهودية هي الروح العملية للشعوب المسيحية .

ويمكن القول بأن ماركس كان لا يفرِّق بين كلمة «يهودي» و«تاجر» ، ومن ثم نجده يقرن بشكل ضمني بين "اليهودي" من جهة و"التاجر" و"البروتستانتي" من جهة أخرى وبين "اليهودية" من جهة و"المتاجرة" و"المنفعة العملية" و"الأنانية" من جهة أخرى . فهو يقول : "التبادل التجاري هو الإله الحقيقي لليهود وأمامه لا ينبغي أن يعيش أي إله آخر" - "المال هو إله إسرائيل الطماع ولا إله سواه" - "لقد أصبح المسيحيون يهوداً" أي بورجوازيين . وتاريخ التحوُّل التدريجي للمجتمعات الغربية وهيمنة العلاقات البورجوازية التعاقدية هو في واقع الأمر تاريخ التهويد التدريجي لأوربا ، وهو أيضاً تاريخ علمنة إله إسرائيل وتحويله إلى إله العالم ، فالبنكنوت (الرب العملي لإسرائيل) أصبح رب العالم الغربي

الرأسمالي . وهذا الترابط العضوي بين اليهودية والبورجوازية هو الذي أدّى إلى ظهور قومية اليهود الوهمية وقومية التاجر وقومية رجل المال (وربما كانت هذه الملاحظات هي أساس مفهوم أبراهام ليون عن الطبقة/ الأمة) . ومن ثم "لن يُحرِّر المجتمع نفسه إلا بتحرُّره من المتاجرة والمال ، وبالتالي من اليهودية الواقعية" ، وحين "ينجح المجتمع في إلغاء الجوهر العملي لليهودية ، [أي] المتاجرة وشروطها ، عندئذ يصبح وجود اليهودي مستحيلاً" .

لقد حوَّل ماركس الكينونة اليهودية إلى وظيفة ، ومن ثم يمكننا الحديث عن "التاجر" و"اليهودي" باعتباره «الإنسان الوظيفي» . والسمات الأساسية لهذا التاجر/ اليهودي/ الوظيفي هي أنه إنسان مجرد ، يوجد خارج إطار العلاقات الأولية المُتعيِّنة ، ويدخل في علاقة تعاقدية محايدة وباردة مع أعضاء المجتمع ، وتم تعريفه في إطار وظيفته أو دوره الوظيفي لا في إطار إنسانيته المُتعيِّنة ، أي أنه إنسان ذو بُعد واحد ، مُتشيِّئ ، مُتسلِّع ، لا قداسة له ، يدور في إطار المرجعية النهائية المادية وفي إطار نموذج الطبيعة/ المادة (وهذه هي السمات الأساسية لعضو الجماعة الوظيفية) . ومن ثم ، فإن تهويد المجتمع يعني في واقع الأمر تحويل كل أعضاء المجتمع إلى مادة بشرية تُوظَّف وتحوسل ، وتعني سيادة النظم المعرفية والاقتصادية البورجوازية إحلال المجتمع التعاقدي الذري المُفتَّت المبني على الأنانية (جيسيلشافت) محل المجتمع العضوي المترابط التقليدي (جماينشافت) .

وقد قام ماركس بعملية التعميم الكاسحة هذه وهو واع لها تمام الوعي ، ولذا فهو كان يتحدث عن «تهويد المجتمع» باعتباره مجازاً كاشفاً ، وليس باعتباره حقيقة إمبريقية . فماركس لم يكن يُفكر في اليهودي وإنما في الإنسان الوظيفي ، أي الإنسان الذي يتوحَّد تماماً مع وظيفته ويفقد إنسانيته وينظر للآخرين باعتبارهم وظيفة (مصدر ربح - مصدر متعة) فيفقدهم إنسانيتهم المركبة .

وماركس لا يختلف كثيراً عن كثير من المفكرين الاشتراكيين أو علماء الاجتماع الغربي . فألفونس توسينيل يُحذِّر قُرّاءه من أنه يستخدم كلمة «يهودي» لا بمعناها الشائع وإنما بمعنى «مصرفي» أو «مراب» أو «تاجر» . ومن قبله تحدَّث شكسبير عن **تاجر البندقية** وهو يعني في واقع الأمر "يهودي البندقية" . ويتحدثون في أدبيات علم الاجتماع الغربي عن الصينيين باعتبارهم "يهود جنوب شرق آسيا" واللبنانيين باعتبارهم "يهود أفريقيا" ، وهكذا . كما يشيرون إلى "المهن والحرف اليهودية" ، أي المهن والحرف التي عادةً ما يقوم بها أعضاء الجماعات اليهودية . وكل هذه الاستخدامات تبيِّن أن المعنيَّ هو «الإنسان الوظيفي» وليس «اليهودي» ، ولكن يُطلَق عليه «اليهودي» من باب إطلاق الجزء على الكل .

ولتوضيح وجهة نظرنا يمكن أن نضرب مثلاً عكسياً ، أي حين يُطلَق على اليهودي اسماً غير اسمه ، فيُلاحَظ أن كثيراً من المهاجرين العرب واليهود إلى أمريكا اللاتينية يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية ، ولكن بدلاً من أن يُطلَق على العربي عضو الجماعة الوظيفية كلمة «يهودي» يحدث العكس إذ يُطلَق على كل من اليهود والعرب - كجماعة وظيفية - لفظة «لوس توركوس los turquos» الإسبانية ، أي «الأتراك» . ويُسمَّى تجار بعض دول شرق أوربا (بغض النظر عن انتمائهم الإثني الفعلي) «اليونانيون» أو «الأرمن» . ونحن هنا أمام أربعة دوال أو أسماء مختلفة (يهودي - تركي - يوناني - أرمني) تشير إلى مدلول أو مُسمَّى واحد وهو عضو الجماعة الوظيفية المالية أو «الإنسان الوظيفي» . ولذا ، قد يكون من الواجب أن نضع في اعتبارنا أننا حينما نتحدث عن «الوظائف اليهودية» فإننا في واقع الأمر نتحدث عن وظيفة قد يقوم بها اليهودي في مكان وزمان ما ، ولكن قد يقوم بها شخص آخر في مكان وزمان آخر . فالوظيفة (وسماتها) يجب أن تكون المقولة التحليلية لا الجوهر اليهودي أو الشخصية اليهودية . وفي هذه الحالة ، فإننا سندرك الواقع بطريقة أكثر تركيبية وحركية ، إذ أننا لن نبحث طوال الوقت عن اليهودي الجوهري أو اليهودي الخالص (ذي الأنف المعقوف والظهر المحدودب الذي يرتبط بوظائف طفيلية أو مشينة ، حامل الأفكار العلمانية الشاملة الذي يفكك نسيج المجتمع لأنه لا ولاء له ، يقضي سحابة ليله في قراءة **البروتوكولات** ويقضي نهاره في تنفيذ خططه الشيطانية التي تعلمها في الليل) فمن الأجدى لنا أن نبحث عن «اليهودي الوظيفي» أو بالأحرى «الإنسان الوظيفي» الذي يضطلع بالدور الوظيفي ويتسم بصفات عضو الجماعة الوظيفية فيدخل في علاقة تعاقدية باردة مع المجتمع ويُعرَّف في إطار دوره ووظيفته ويُعرِّف هو المجتمع في إطار المنفعة . وهذا الإنسان قد يكون يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو بوذياً أو شخصاً لا ملة له ولا دين .

وفي تَصوُّرنا أن النظام العالمي الجديد سيقوم بتحويل قطاعات عديدة في المجتمعات الإنسانية (نخب ثقافية وسياسية محلية - قيادات ثورية سابقة - قطاعات اقتصادية) إلى جماعات وظيفية تعمل لصالحه ، وذلك في محاولته تفكيك مجتمعاتنا بعد أن فشل في عملية المواجهة وبعد تزايد نفقات المواجهة العسكرية . وهذه النخب تقيم بيننا وتتحدث لغتنا وترتدي زينا وتقيم الصلاة معنا في

مواقيتها ، وبعضهم مستمر في استخدام الخطاب الثوري أو الخطاب الديني ، حتى بعد أن تحولوا إلى جماعة وظيفية تعمل لصالح الاستعمار الغربي ، أي حتى بعد أن تم تهويدهم (بالمعنى الماركسي) . ومما يَجدُر ذكره أن بعض هذه العناصر التي تمت حوسلتها لصالح الاستعمار الغربي ستضطلع بالدور الوظيفي (اليهودي) المُوكَل لها ، أحياناً عن وعي وأحياناً أخرى بدون وعي . ولذا ، فإن البحث عن اليهودي الجوهري هو بحث عنصري لا طائل من ورائه ، ولا يؤدي إلا إلى عدم إدراك عملية التفكيك التي يضطلع بها اليهود الوظيفيون أو بالأحرى البشر الوظيفيون من أبناء العرب والإسلام . ولهذا ، فإن الأجدى هو أن نبحث عن الإنسان الوظيفي .

وقد ساهم وضع الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية في المجتمعات الغربية في توليد الصور الإدراكية النمطية التي تُشكِّل أساس معاداة اليهود في الغرب . فعداء كثير من الناس لليهود واليهودية هو في جوهره عداء للعلمانية الشاملة (المادية - الطبيعية - العدمية) ولوظيفيتها التي تحوِّل العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استعمالية ولا تكترث بقيم أو مطلقات ، ولا تعرف سوى قانون مادي واحد ، يدور حول ثنائية بسيطة : العرض والطلب ، والربح والخسارة ، والقوة والضعف ، والذكاء والغباء ، والبقاء والهلاك . ولا تعرف غايات سوى مراكمة الثروة وتحقيق المتعة واللذة ، دون تساؤل عن أي مضمون أخلاقي أو أي معنى كلي أو نهائي ، أي أنه عداء للإنسان الوظيفي الذي يدخل في علاقة نفعية تعاقدية مع المجتمع ولا يعرف التراحم ولا يعرف سوى وظيفته ولا يحترم حرمات أو محرمات ، والذي يؤدي وجوده في أي مجتمع إلى تفتُّت النسيج المجتمعي وتآكُل القيم .

كان ماركس - كما أسلفنا - يُسمِّي الإنسان الوظيفي «اليهودي» ، ويُسمِّي عملية الانتقال من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي الرأسمالي عملية «تهويد» . ولكن ماركس كان يفعل ذلك مدركاً الطبيعة المجازية لاستخدامه ، فهو كان يعرف الطبيعة الاجتماعية العامة لهذه العملية الانقلابية . ولكن الوجدان الشعبي غير قادر على إدراك ترابط الظواهر الاجتماعية ، ولذا فهو يُركِّز على العناصر المباشرة الواضحة . وأكثر العناصر وظيفية وروّاد الوظيفية هم أعضاء الجماعة اليهودية (فهو عنصر تعاقدي - نفعي - غريب معتزل . . إلخ) . ولذا فهم الجوهر الثابت والعنصر الواضح والسبب المباشر لعملية التحوُّل المؤلمة . وكان كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية ، ولكن لم يكونوا هم وحدهم الذين يضطلعون بهذا الدور . ومع هذا ارتبط الإنسان اليهودي بالإنسان الوظيفي في الوجدان الشعبي الغربي ، بل وتم التوحيد بينهما بحيث أصبح الإنسان اليهودي هو الإنسان الوظيفي بامتياز . ومن خلال عملية التعميم والاختزال ، تم استبعاد كل أعضاء الجماعات الوظيفية غير اليهودية وتم إدراك كل اليهود باعتبارهم جماعة وظيفية بحيث أصبح كل يهودي إنساناً وظيفياً وأصبح كل إنسان وظيفي يهودي ، إلى أن أصبح الإنسان اليهودي وحده ، دون غيره من البشر ، الإنسان الوظيفي .

ولذا بدلاً من إدراك ظواهر مثل تآكُل القيم وتزايُد الاغتراب وسيادة العلاقات التعاقدية وانتشار الإباحية باعتبارها نتاج عملية اجتماعية انقلابية كبرى . وبدلاً من إدراك أن الإنسان الوظيفي هو ذاته الإنسان العلماني (الشامل) والإنسان الطبيعي/ المادي الذي لا انتماء ديني أو إثني له وأن هذا الإنسان ليس ثمرة مؤامرة يهودية وإنما نتيجة عمليات اجتماعية لا يتحكم فيها اليهود ، فهم جزء صغير من كل أكبر ، بدلاً من كل هذا تم التركيز على اليهودي وحده دون بقية أعضاء المجتمع باعتباره مسئولاً عما يحدث من تفتُّت مجتمعي وإباحية وانتقال من التراحم إلى التعاقد . وأصبح اليهودي هو وحده المسئول عن كل الشرور من انحلال وتفسخ وتشيؤ وتآكُل مؤسسات الأسرة وغيرها من المؤسسات الوسيطة التي تحمي الفرد ، وزاد الحديث عن «الجوهر اليهودي» و«الخطر اليهودي» و«الثورة اليهودية» وغيرها .

والنموذج التفسيري المركب الذي نطرحه يدور حول ما نسميه «الإنسان الوظيفي» الذي يمكن أن يكون يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو بوذياً ، أو بدون ذمة ولا دين ، مادام يدخل في علاقة تعاقدية نفعية باردة مع المجتمع ويُعرَّف في إطار دوره ووظيفته ويضطلع بالوظائف التي يُفترَض أن اليهودي يضطلع بها . ولذا قد يكون من الأدق والأشمل تحليلياً أن نتحدث عن وظيفة ما ، قد يقوم بها اليهودي (في مكان ما) ، وقد يقوم بها شخص آخر (في مكان آخر) . فالوظيفة ، لا الجوهر اليهودي ، هي التي يجب أن تكون المقولة التحليلية .

وقد استخدمت سوزان هاندلمان تعبير «يهودي» بنفس طريقة ماركس ولكن في سياق جديد . فهي تذهب إلى أن المثقف اليهودي بسبب وضعه داخل الحضارة الغربية (طرد وتشتيت ونفي) أصبح عنصراً من عناصر الاستنارة المظلمة والتفكيك . فوجَّه كل طاقته ، في بداية الأمر ، نحو تفكيك وتقويض الشريعة اليهودية ثم توجَّه إلى ثوابت الحضارة الغربية نفسها يحاول تقويضها وتفكيكها .

ولكن المثقف اليهودي الذي يقوم بالتفكيك يدَّعي أنه يقوم

بالتفسير وحسب ، ولكنه في واقع الأمر يقوم بما سمته سوزان هاندلمان «الهرمنيوطيقا المهرطقة» ، ذات الطابع التفكيكي العدمي .

وتضيف سوزان هاندلمان أن أي مثقف يقوم بعملية تفسير تهدف إلى تقويض وتفكيك كتب حضارته المقدَّسة ، وفي نهاية الأمر كل مقدَّساتها وثوابتها ، هو يهودي بالمعنى الوظيفي .

العرق اليهودي

Jewish Race

«العرْق» هو جملة السمات البيولوجية (مثل حجم الجمجمة ولون الجلد أو العيون أو الشعر . . . إلخ) التي يُفترَض وجودها في جماعة بشرية وتَميُّزها بشكل حتمي (بيولوجي) عن غيرها من الجماعات . وكلمة «عرْق» ترادف أحياناً كلمة «سلالة» أو «جنس» أو «دم» . وهناك تقسيمات عدّة للسلالات أو الأعراق أو الأجناس البشرية المختلفة أو الدماء التي تجري في عروقها .

وهناك اتجاه صهيوني يؤمن بأن ثمة عرْقاً يهودياً مستقلاً ، وأن أساس الهوية اليهودية والشخصية اليهودية هو الانتماء العرْقي . ولعل المفكر الصهيوني موسى هس (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) مؤسِّس الفكرة الصهيونية (في ديباجتها الاشتراكية) هو أول من طرح تعريفاً لليهود على أساس بيولوجي أو عنصري حين ذكر أن العرْق اليهودي من الأعراق الرئيسة في الجنس البشري ، وأن هذا العرْق حافظ على وحدته رغم التأثيرات المناخية فيه ، فحافظت اليهودية على نقاوتها عبر العصور . وقد تنبأ هذا المفكر الصهيوني بأن الصراع بين الأجناس سيكون أهم الصراعات ، وأسهم في المحاولة الرامية إلى التمييز بين العنصرين الآري والسامي ، وهو التمييز الذي قُدِّر له أن يكون بعد عدة سنوات أحد المفاهيم الأساسية التي تبناها مُنظِّرو الفكر العنصري الأوربي . وقد داعبت هرتزل فكرة الهوية العرْقية ، فترة من الزمن على الأقل فاستخدم عبارات مثل «الجنس اليهودي» أو «النهوض بالجنس اليهودي» ، كما أنه كان يفكر في تمييز اليهود عن غيرهم على أساس بيولوجي . وعندما قام هرتزل بأول زيارة له إلى معبد يهودي في باريس ، كان أكثر ما أثار دهشته التشابه العرْقي الذي تصوَّر وجوده بين يهود فيينا ويهود باريس : « الأنوف المعقوفة المُشوَّهة ، والعيون الماكرة التي تسترق النظر » . كما يقول ماكس نوردو الذي يُعَدُّ واحداً من أهم مفكري العنصرية الغربية (حتى قبل تَحوُّله إلى الصهيونية) ، في لغة لا تقبل الشك وتخلو تماماً من الإبهام ، « إن اليهودية ليست مسألة دين وإنما هي مسألة عرْق وحسب » .

ولا يخرج مارتن بوبر في تعريفه لليهودي عن هذا الإطار ، رغم استخدامه مصطلحه الحلولي الكموني العضوي لنقل فكرته ، فقد تحدَّث عن : « أزلية الأجيال كجماعة يربطها الدم . فالدم قوة مُتجذِّرة في الفرد تغذيه ، والدم هو الذي يحدد المستويات العميقة لوجودنا ، ويصبغ صميم وجودنا وإرادتنا بلونه . والعالم من حوله إن هو إلا آثار وانطباعات ، بينما الدم هو عالم الجوهر » . ونظراً لأن الدم الذي يجري في عروق اليهود يربطهم بالتربة ، فقد كان بوبر يشير إلى اليهود باعتبارهم آسيويين « لأنهم إذا كانوا قد طُردوا من فلسطين ، فإن فلسطين لم تُطرَد منهم » .

ويبدو أن مسألة الدم هذه لم تكن شائعة في صفوف الفلاسفة والصهاينة المتأثرين بالتراث الألماني وحسب ، بل كانت شائعة في صفوف الصهاينة الأنجلو ساكسون أيضاً . فقد ادَّعى الزعيم الصهيوني نورمان بنتويتش ، في حديث أدلى به في عام ١٩٠٩ ، أن اليهودي لا يمكن أن يكون مواطناً إنجليزياً كاملاً مثل هؤلاء الإنجليز الذين وُلدوا « لأبوين إنجليزيين وانحدروا من أسلاف خلطوا دماءهم بالإنجليز لأجيال كثيرة » . وعرَّف الأمريكي لويس برانديز اليهودية ، في خطاب ألقاه في عام ١٩١٥ ، بأنها « مسألة تتعلق بالدم » . وذكر أن هذه الحقيقة لقيت قبولاً من جانب غير اليهود الذين يضطهدون اليهود ، ومن جانب اليهود الذين يُحسُّون بالفخر «عندما يُبدي إخوانهم من ذوي الدم اليهودي تفوقاً أخلاقياً أو ثقافياً أو عبقرية أو موهبة خاصة ، حتى إذا كان هؤلاء النابهون قد تخلوا عن الإيمان بالدين ، مثل إسبينوزا أو ماركس أو دزرائيلي أو هايني» .

ويبدو أن الصهاينة حاولوا ، على طريقة المفكرين العنصريين في الغرب ، أن يُثبتوا أنهم عرْق مستقل بطريقة « علمية » وليس فقط على طريقة بوبر الفلسفية . ولذا ، فإننا نجد في صفوفهم كثيراً من «العلماء» المهتمين بهذه القضية . وقد أشار عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين إلى "الكتابات المتعلقة بقضية الجنس اليهودي" وأورد في كتابه **اليهود في الوقت الحاضر** أسماء كثير من «المراجع القيمة» في ذلك الموضوع . ومن بين الأسماء التي يذكرها اسم عالم صهيوني هو إغناتز زولتشان (١٨٧٧ ـ ١٩٤٨) الذي وصف اليهود بأنهم « أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرف أو الانحلال الخلقي » . وقدَّم روبين نفسه تعريفاً عرْقياً لليهود بيَّن فيه أنهم «استوعبوا عناصر عرْقية أجنبية بدرجة محدودة ، ولكنهم في أغلبيتهم يمثلون جنساً متميِّزاً ، على عكس ما هو سائد في دول وسط أوربا» .

وكان اللورد بلفور ، الصهيوني غير اليهودي ، يفكر في اليهود

على أساس عرقي ، وربما كان من المهم هنا أن نتذكر أن إحدى المسودات الأولى لوعد بلفور كانت تدعو إلى إقامة «وطن قومي للجنس اليهودي» ، وهي جملة تحمل في طياتها تعريفاً بيولوجياً واضحاً للهوية اليهودية .

ثمة ، إذن ، إجماع صهيوني على التعريف العرْقي لليهودي . وهو أمر متوقع ومفهوم ، فقد كانت الصهيونية تبحث عن الشرعية من أوربا لا من اليهودية ، ولذا كان عليها أن تصبح عرْقاً مستقلاً لأن العرْق المستقل وحده هو الذي من حقه أن تكون له دولة مستقلة (حسب الإطار المعرفي السائد في أوربا العلمانية) . ولكن من الواضح أن تعريف اليهودي كعضو في عرْق مستقل أمر مغرق في الخيال والوهم ، إذ يدحض واقع الأقليات اليهودية بسهولة مثل هذه الأساطير . وكان على الصهاينة بالذات أن يتعاملوا لسوء حظهم مع يهود بيض ويهود سود وبضعة يهود صفر إلى جانب الكثير من الظلال اللونية . وكما أشرنا من قبل ، فقد كان هرتزل معجباً بالنظرية العرْقية ، ولكنه كان صديقاً لإسرائيل زانجويل (١٨٦٤ ـ ١٩٢٦) الروائي الإنجليزي والزعيم الصهيوني اليهودي ذي الأنف الطويل والشبيه بأنوف الزنوج والشعر الكث الحالك السواد ، وكانت نظرة واحدة إليه تكفي ، على حدّ قول هرتزل نفسه ، لدحض أي تصور عرْقي لليهود .

وثمة سبب آخر لاختفاء التعريف العرْقي لليهود يرتبط بالمجال الدلالي لكلمة «عرْق» ، إذ أنه بحلول الثلاثينيات كانت الحياة في الغرب قد تحولت عن العنصرية التي فقدت إلى حدٍّ كبير ما كانت تحظى به من قبول وتأييد في الأوساط العلمية . وكما يقول الزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف : بعد أن عشنا عصراً أصبحت فيه كلمة «عنصر» أو «عرْق» معادلة للقسوة والبربرية ، فإن معظم الناس يتفرون من استخدام هذا المصطلح . ويُضاف إلى هذا أن علم الأجناس قد أظهر أن هذا المصطلح لا يمكن أن يُطبَّق حقاً على اليهود، وذلك رغم أنه كان من المعتاد تماماً الإشارة إلى اليهود في عصر ما قبل هتلر على أنهم «جنس» ، وكان الكثيرون يعتقدون أن يهودية المرء مسألة تتعلق بمولده وسماته .

ولذا ، كان لابد من العدول عن استخدام كلمة «عرْق» . وبدلاً من ذلك ، بدأ تعريف اليهودي على أساس إثني ، أي على أساس التراث والثقافة المشتركة ، ومن ثم حلت الإثنية محل العرْقية كنقطة مرجعية وكأساس للهوية . لكن التعريف الإثني لا يختلف في جوهره عن التعريف العرْقي ، فكلاهما يفرز نظرية في الحقوق (العرْقية أو الإثنية) تعطي صاحب الهوية العرْقية أو الإثنية مزايا معينة وقوة مطلقة تنكرها على غيره من البشر . (انظر الباب المعنون «ثقافات أعضاء الجماعات اليهودية [تعريف وإشكالية]») .

الجنس (بمعنى عرق)

Jewish Race

انظر : «العرْق اليهودي» .

السلالة اليهودية

Jewish Race

انظر : «العرْق اليهودي» .



٢
إشكالية الوحدة اليهودية والنفوذ اليهودي

الوحدة اليهودية ـ الاستقلال اليهودي ـ الوعي اليهودي ـ عدم الانتماء اليهودي ـ الولاء اليهودي المزدوج ـ المصالح اليهودية ـ بيرنيكي ـ باسيفيكو ـ دزرائيلي ـ كرميه ـ يولي ـ فوجل ـ أيزاكس ـ قاراصو ـ صمويل ـ بلوم ـ منديس فرانس ـ كرايسكي ـ كيسنجر ـ المال اليهودي ـ النفوذ اليهودي والصهيوني ـ العجز اليهودي (بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة)

الوحدة اليهودية
Jewish Unity

«الوحدة اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة وحدة تربط بين أعضاء الجماعات اليهودية كافة في كل زمان ومكان ، وأن هذه الوحدة تتمثل في وحدة الهوية والشخصية والسلوك ، وفي أشكال مختلفة من التضامن ، وفي نهاية الأمر في القومية اليهودية وفي الشعب اليهودي الواحد ذي الهوية الواحدة المستمرة وكذلك في التاريخ اليهودي الواحد . ويذهب البعض إلى القول بوجود عرْق يهودي واحد . وينتهي هذا الافتراض إلى أن اليهود حافظوا على هذه الوحدة منذ خروجهم من مصر الفرعونية حتى يومنا هذا . وقد فُسِّر مصدر هذه الوحدة تفسيرات عدة ، فالصهاينة الدينيون يرون أن مصدر الوحدة هو حلول الروح الإلهية أو الشخيناه وكمونها في الشعب اليهودي ، فهي تَقْطُن وسطهم ، وهي التي تُحوِّلهم إلى شعب من الكهنة والقديسين ، بينما يرى الصهاينة اللادينيون أن مصدر وحدة اليهود هو الجوهر اليهودي الكامن في كل اليهود ، أو هو نزعة معاداة اليهود في مجتمعات الأغيار ، أو تَميُّز اليهود وظيفياً واضطرارهم إلى الاضطلاع بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة وبالأعمال التجارية والربوية . ويميل الخطاب الصهيوني في الوقت الحاضر إلى تأكيد أن هذه الوحدة هي تعبير عن تَطلُّع قومي في حالة اللادينيين ، وعن تَطلُّع قومي ديني في حالة الدينيين .

ولكن النموذج الصهيوني الاختزالي يختلف عن بنية الواقع التاريخي المركَّب المتعيِّن لأعضاء الجماعات اليهودية ، وهو واقع لا يتسم بالوحدة . فمن الناحية الدينية ، تأخذ اليهودية شكل تكوين جيولوجي تراكمي غير متجانس تتعايش فيه العناصر المختلفة جنباً إلى جنب أحياناً وتتفجر أحياناً أخرى . وقد حدثت تَفجُّرات وانقسامات كثيرة من البداية ، من أهمها ما كان يحدث داخل المملكتين العبرانيتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية) من صراع بين عبادة يهوه وعبادة بعل ، وصراع بين عبادة مملكة الشمال وعبادة مملكة الجنوب . وعند عودة بعض اليهود من بابل إلى فلسطين ، حدث انقسام حاد بينهم وبين اليهود المقيمين الذين جاء منهم فريق السامريين . وقد انقسم اليهود دينياً بعد ذلك إلى صدوقيين وفريسيين وأسينيين ، ثم ظهر الاحتجاج القرّائي على اليهودية الحاخامية ، كما ظهرت الحركات المشيحانية المختلفة (وآخرها الحركة الحسيدية) ، وهي حركات احتجاج ضد المؤسسة الحاخامية تنفي مفهوم الوحدة تماماً . كما انفصلت بعض الجماعات اليهودية مثل الفلاشاه ويهود الهند عن اليهودية الحاخامية ، وأصبح لها صيغ يهودية مختلفة جوهرياً عن الصيغة الحاخامية . وفي العصر الحديث، انقسمت اليهودية إلى فرق : اليهودية الإصلاحية ، واليهودية المحافظة ، واليهودية التجديدية ، واليهودية الأرثوذكسية ، واليهودية الأرثوذكسية الجديدة . وهناك ، بطبيعة الحال ، الانقسام بين الإشكناز والسفارد على المستوى الديني . وكثير من هذه الفرق قد تُكفِّر بعضها البعض وقد تجد أن الانقسام من الحدة بحيث تُقاطع الواحدة منها الأخرى ، وهو ما يجعل الحديث عن الوحدة اليهودية أمراً صعباً . ومما زاد من تعميق هذا التفتت ، غياب سلطة مركزية يهودية جماعية ، دينية أو دنيوية ، تُحدِّد المعايير لأعضاء الجماعات اليهودية .

والخاصية الجيولوجية التراكمية نفسها تسم أعضاء الجماعات اليهودية وهوياتهم المختلفة . فحتى قبل دخول العبرانيين إلى مصر ، يُحدِّثنا العهد القديم عن الخلاف بين يوسف وأعضاء أسرته . كما أن القبائل العبرانية تشترك جميعها في الثورة ضد الفلستيين وأعداء العبرانيين الآخرين إبَّان حكم القضاة . وقد اندلعت الثورات الأهلية داخل مملكة داود وسليمان ، ووصل التوتر إلى درجة عالية داخل المملكة المتحدة ، فانحلت بعد موت سليمان وانقسمت إلى مملكتين تتصارعان معاً . واستعانت المملكة الجنوبية بآشور ضد المملكة

الشمالية ، الأمر الذي أدَّى إلى تَدخُّل هذه القوة العظمى ، فقامت بتدمير المملكة الشمالية تماماً وتهجير نخبتها الحاكمة .

وقد حقق اليهود قدراً من الوحدة والاستقرار حينما سيطرت الدولة الفارسية على الشرق الأدنى القديم ، حيث كانت كل التجمعات اليهودية تحت هيمنتها . وقد انتهت هذه الوحدة المؤقتة بانحسار نفوذ هذه الإمبراطورية بعد غزو الإسكندر لكلٍّ من مصر وسوريا وفلسطين وغيرها من المناطق . وقد كانت الخصومات بين بعض قطاعات اليهود تتطور إلى حروب أهلية طاحنة يقتتل فيها اليهود ويتعرضون للإبادة الجسدية على أيدي بعضهم البعض كما حدث في العام الرابع الميلادي في عهد أرخيلاوس ابن هيرود الذي أباد ثلاثة آلاف يهودي ، أو كما حدث في تَمرُّد عام ٧٠م حين قتل المتطرفون من اليهود اثنى عشر ألف يهودي من الأثرياء . وقد كان هناك ، إلى جانب تيتوس ، جيش يهودي تحت قيادة أجريبا الثاني يحارب ضد المتمردين اليهود . وفي العصور الوسطى ، كان لسكان أي جيتو في أوربا حق تحريم استيطان اليهود الآخرين فيه (حيريم هايشوف) ، وهو حق كانت تمارسه كل الجيتوات . وكان الصراع بين أعضاء الجماعات اليهودية واضحاً في أوربا في القرن السابع عشر . أما في الدولة العثمانية ، فكان لكل مجموعة يهودية معبدها اليهودي وحاخامها الخاص ، وكانت كل مجموعة يهودية تستعدي السلطة على المجموعة الأخرى . وعندما هاجر يهود اليديشية إلى الولايات المتحدة ، ناصبهم اليهود ذوو الأصل الألماني العداء . وكان هؤلاء قد لاقوا رفضاً من جانب اليهود السفارد الذين سبقوهم . غير أن الولايات المتحدة قامت بصهرهم ضمن من صهرتهم من مهاجرين ، فحققوا شيئاً من الوحدة والتماسك لا بوصفهم يهوداً بشكل عام وإنما بوصفهم يهوداً أمريكيين تحولوا بالتدريج إلى أمريكيين يهود .

وقد تكررت الظاهرة في أمريكا اللاتينية . ولكن نظراً لأن الحضارة الكاثوليكية هناك لم تقم بصهر أعضاء الجماعات اليهودية الذين هاجروا إليها ، فقد احتفظوا بخاصية عدم التجانس ، وقامت كل جماعة يهودية تنتمي إلى هذا البلد أو ذاك بتنظيم نفسها بشكل مستقل . فنجد أن المكسيك تضم عشرات التنظيمات اليهودية ، من بينها تنظيمان ليهود سوريا : واحد للدمشقيين والآخر للحلبيين . والمعركة الدائرة بين اليهود الأرثوذكس واليهود غير الأرثوذكس حول تعريف اليهودي ، داخل وخارج إسرائيل ، أصبحت معركة أساسية تفوق في أهميتها الصراع بين الإشكناز والسفارد .

ويمكننا أن نقول إن أعضاء الجماعات اليهودية لم يحققوا وحدة عامة شاملة إلا حينما كانوا جماعة عرقية أو إثنية دينية متماسكة (عبرانيين) . ولكنهم ، حتى في تلك الآونة ، كانت تُمزِّقهم الخلافات السياسية ، وأحياناً الثقافية والدينية . ومع انتشار الجماعات اليهودية ، لم تَعُد الخلافات مجرد خلافات سياسية ، وإنما أصبحت خلافات حضارية قومية عميقة . وقد حققت بعض الجماعات اليهودية وحدة «قومية» داخل التشكيلات الحضارية المختلفة ، كما حدث ليهود شرق أوربا من يهود اليديشية ، ويهود الولايات المتحدة . ولكن أية وحدة بين هؤلاء هي وحدة يتمتعون بها داخل التشكيل القومي الذي ينتمون إليه ، ومن خلاله وبسببه ، لا من خارجه ورغماً عنه . كما أنها ، من ناحية أخرى ، لا ترقى ألبتة إلى مستوى الوحدة اليهودية العالمية الشاملة .

وقد تمتع أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية ، منذ العصور الوسطى ، بشكل من أشكال الوحدة ، وذلك من خلال علاقاتهم كجماعات وظيفية وسيطة تشكل ما يشبه النظام الائتماني العالمي ومن مصلحتهم الحفاظ على هذه العلاقات . ورغم أنها بدت كما لو كانت وحدة قومية ، فقد كانت علاقات مالية فحسب ، إذ أن كل جماعة وظيفية يهودية كانت مرتبطة ، في نهاية الأمر ، بالمجتمع الذي تنتمي إليه وتتفاعل معه وتستمد هويتها منه . ولكن الصهاينة يؤكدون، مع هذا، أن هناك وحدة أزلية لليهود، ويَخلُصون من هذا إلى أن الدولة الصهيونية في فلسطين أمر منطقي بل وحتمي .

الاستقلال اليهودي

Jewish Independence

«الاستقلال اليهودي» عبارة تفترض أن لليهود شخصيتهم اليهودية المستقلة وتاريخهم اليهودي المستقل عن تواريخ الأغيار . وتشير الأدبيات الصهيونية إلى مؤسسات الإدارة الذاتية ، مثل القهال ومجلس البلاد الأربعة ، باعتبارها مؤسسات الحكم الذاتي ، كما تشير إلى اللهجات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارها لغات اليهود . وتستند كل من العقيدة الصهيونية ونزعة معاداة اليهود إلى المفهوم الواحد نفسه ، فيتحدث أعداء اليهود عن حب اليهود للعزلة ورفضهم الاندماج وتفضيلهم الجيتو على الحياة مع الأغيار ، بل ويتحدثون عن سمات جوهرية داخل الطبيعة البشرية اليهودية تجعلهم مستقلين عن باقي البشر ومختلفين عنهم . ومن المفارقات أن القبَّالاه اللوريانية تذهب إلى درجة من التطرف حيث تطرح تصوراً لليهود باعتبارهم قد خُلقوا من عجينة مغايرة لتلك التي خُلق منها الأغيار ، وهذا يتناقض مع قصة الخلق في العهد القديم .

وغني عن القول أنه لا يوجد استقلال يهودي ، إذ تدل القرائن التاريخية على أن أعضاء الجماعات اليهودية اندمجوا وانصهروا في مجتمعاتهم ، وأن ما يتمتع به أعضاء الجماعات اليهودية من استقلال أو انفصال نسبي عن مجتمع الأغلبية لا يختلف بأية حال عما يتمتع به أعضاء أية أقلية دينية أو إثنية في أي مجتمع ، وخصوصاً في المجتمعات التقليدية . ويعود شيوع مفهوم مثل مفهوم استقلال اليهود إلى اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من المجتمعات ، خصوصاً في العالم الغربي ، بوظيفة الجماعة الوظيفية التي يعيش أعضاؤها في عزلة عن بقية أعضاء المجتمع .

ونحن نرى أن استخدام مصطلح كمصطلح «اليهود» يؤكد مثل هذا الاستقلال ، وقد يشي بدرجة من الوحدة والتجانس لم يتمتع بهما اليهود قط . ولذا ، فإننا نؤثر استخدام مصطلح مثل «الجماعات اليهودية» لأنه يؤكد التنوع وعدم التجانس والانفصال ولا ينفي في الوقت نفسه ذلك القدر من الوحدة والتجانس .

الوعي اليهودي
Jewish Consciousness

«الوعي اليهودي» عبارة تفترض أن ثمة هوية يهودية محدَّدة وشخصية يهودية لها خصوصية يهودية وتاريخاً وتراثاً مستقلين عن تاريخ وتراث الشعوب ، بل و تفترض أن ثمة جوهراً يهودياً وطبيعة يهودية . ويرى المعادون لأعضاء الجماعات اليهودية أن اليهود يتمتعون بوعي عميق لخصائصهم اليهودية هذه ، وأن هذا الوعي يتبدى في دفاعهم عن مصالحهم اليهودية ، وفي انعزالهم داخل الجيتو ، وفي نهاية الأمر في المؤامرة اليهودية الكبرى (وهي المؤامرة التي يقول البعض إن اليهود يحيكونها ضد الأغيار في كل زمان ومكان) . ومثل هذه النظرة تتجاهل عدم تجانس الجماعات اليهودية ، وخاصيتها الأساسية كتركيبة جيولوجية ، وانفصالها الواحدة عن الأخرى عبر التاريخ . كما تتجاهل الصراعات الحادة التي نشبت بين هذه الجماعات ، لا بسبب اختلاف المصالح وحسب وإنما بسبب اختلاف الهوية والرؤية . وفي الحقيقة ، فإن الصراع بين السفارد والإشكناز ، ذلك الصراع الممتد منذ القرن السابع عشر حتى الوقت الحاضر ، هو تعبير عن هذا الاختلاف الذي يجعل من مقولة الوعي اليهودي الواحد أمراً محالاً .

لكن الصهيونية تؤمن بأن اليهود شعب واحد ، ومن ثم فلابد أن يُقوَّى الوعي اليهودي للمحافظة على وحدة هذا الشعب وعلى هويته . ومن المفارقات أنه ، بعد إنشاء الدولة الصهيونية ، اتضح تهافت ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» وانقسامها إلى عشرات الهويات ، كما اتضح أن أبناء المستوطنين الصهاينة من جيل الصابرا لهم هوية جديدة مختلفة عن هوية أعضاء الجماعات الموجودين في العالم ، بل ويُكِنّ الكثير منهم الاحتقار ليهود المنفى ، أي معظم يهود العالم . ومن ثم ، فقد أُدخلت مادة الوعي اليهودي في مقررات الدراسة في المدارس الإسرائيلية .

ويؤكد المقرر الجوانب الإيجابية لوجود اليهود على هيئة جماعات منتشرة في العالم ، ويمجِّد إنجازاتهم الحضارية ، وهو ما يعطي صورة إيجابية لحياتهم في المنفى ، أي في أنحاء العالم خارج فلسطين . ولكن هذا التمجيد يتنافى مع العقيدة الصهيونية التي تصدر عن الإيمان بأن حياة اليهود خارج فلسطين إن هي إلا انحراف عما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» . ومن ثم ، فإن مثل هذه الرؤية لا تزيد ألبتة من الوعي اليهودي الأحادي . ولكن ، إن تم التركيز على الجوانب السلبية وحدها ، وصُوِّر تاريخ الجماعات على أنه تاريخ هجمات ومذابح ، كما تفعل بعض كتب التاريخ الصهيونية (وهو ما سميناه «التأريخ من خلال الكوارث») ، فإن هذا سيقلل من احترام الأجيال الصاعدة ليهود العالم ، وبالتالي سيقوض دعائم الوعي اليهودي . ولذا ، فإن هناك اتجاهاً الآن للتأكيد على عنصر المقاومة بين يهود المنفى . واليهود ، حسب هذه الرؤية ، كانوا دائماً معرضين للاندماج ، ولكنهم تصدوا له فأبدعوا وأبقوا على جوهرهم اليهودي . وعندما تعرضوا للمذابح ، ثاروا ضد من قاموا بذبحهم ، ومن هنا التأكيد على أهمية التمرد الحشموني والأحداث المماثلة في التاريخ اليهودي مثل : التمرد اليهودي الأول ، والتمرد اليهودي الثاني ضد الرومان ، وتمرد جيتو وارسو . بل ويصبح تاريخ الصهيونية هو تاريخ هذا الوعي اليهودي وتاريخ تلك المقاومة المستمرة . ويشكو اليهود السفارد والشرقيون من أن مادة الوعي اليهودي تركز على إسهامات اليهود الإشكناز وحدهم ولا تؤكد على إسهاماتهم الحضارية .

عدم الانتماء اليهودي
Jewish Rootlessness

«عدم الانتماء اليهودي» عبارة تفترض وجود انتماء يهودي مستقل للجماعة اليهودية يتبدّى في شكل ولاء كامل للشعب اليهودي وعدم انتماء للشعوب أو الأوطان الأخرى . ونحن نرى أنه إن كان ثمة انتماء يهودي فهو انتماء إلى العقيدة أو العقائد اليهودية ،

إذ لا يوجد تراث أو ماض يهودي مشترك ، فماضي أو تاريخ كل جماعة يهودية هو ماض أو تاريخ المجتمع الذي توجد فيه .

ومن الإشكاليات الأساسية التي تُثار في الأدبيات الغربية (اليهودية وغير اليهودية) إشكالية الانتماء اليهودي . وقد طُرح السؤال منذ البداية كما يلي : هل ينتمي اليهودي إلى الجنس البشري ككل أم إلى الشعب اليهودي المختار أو (المقدَّس) ؟ وهل الخالق هو إله اليهود وحدهم (كما يتصور بعض اليهود) أم إله العالمين ؟ والإجابة القاطعة عن هذا السؤال داخل النسق الديني اليهودي غير ممكنة ؛ فهناك من القرائن ما يؤيد النزعة العالمية والانتماء إلى الجنس البشري ، وهناك من القرائن ما يساند الرأي المناقض . ففي تراث القبَّالاه ، أصبح التمييز بين الشعب اليهودي والأغيار حاداً إلى أقصى درجة ، حتى أن القبَّاليين ذهبوا إلى أن اليهود قد خُلقوا من طينة مختلفة عن تلك التي خُلق منها بقية البشر وإلى أن الأغيار خُلقوا على شكل الإنسان حتى يمكنهم القيام بخدمة اليهود . وفي فكر الاستنارة ، وفي اليهودية الإصلاحية ، بل وفي التلمود ذاته ، ما يناقض هذا الموقف ، وذلك بالتأكيد على الانتماء الإنساني العالمي لليهود .

ولكن الانتماء اليهودي قضية ترتبط بالدور الذي لعبته الجماعات اليهودية في كثير من المجتمعات ، خصوصاً المجتمعات الغربية ، كجماعة وظيفية وسيطة . بيد أن أية جماعة وظيفية وسيطة داخل أي مجتمع لا تنتمي إليه ، وإنما تنتمي عاطفياً إلى الوطن الأصلي (الوهمي أو الفعلي) ، كما تنتمي فعلياً إلى الطبقة الحاكمة فهي أداتها وسوط العذاب في يدها . وقد نَجَم عن ذلك الوضع ابتعاد الجماعة اليهودية عن الجماهير الشعبية وهامشيتها بالنسبة إلى الحركات الجماهيرية الكبرى . ويرى ماكس فيبر ، على سبيل المثال ، أن الرأسمالية اليهودية رأسمالية منبوذة لم تساهم في نمو الرأسمالية الرشيدة ، كما أن الفكر الاشتراكي الغربي كان يرى أن انتماء اليهودي هو انتماء إلى رأسماله وحسب . وقد عبَّرنا عن هذه الإشكالية بمصطلح «الشعب العضوي المنبوذ» .

والواقع أن قضية الانتماء طُرحت بحدة مع ظهور الدولة القومية المركزية التي حاولت توحيد السوق وتوحيد الأمة حسب نموذج ثقافي أحادي موحَّد يستبعد الجيوب القومية الإثنية الأخرى ، ويتطلب انتماءً كاملاً من المواطن . وقد نجح كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في تحديد انتمائهم القومي بالاندماج في محيطهم الثقافي . ويرى الدارسون أن تَصاعُد معدلات العلمنة في العالم الغربي سيؤدي إلى ضعف الانتماء الديني للجماعات اليهودية ، وهو أمر تساهم الصهيونية في خلقه طارحةً نفسها كعقيدة علمانية تحل محل العقيدة الدينية .

وقد أكد الصهاينة والنازيون عدم انتماء أعضاء الجماعات اليهودية إلى التشكيلات الحضارية أو القومية التي يتواجدون فيها مفترضين أن ثمة انتماءً يهودياً خالصاً . وأكد البرنامج السياسي الصهيوني وجود مثل هذا الانتماء . ولكن السلوك الفعلي ليهود أمريكا ، على سبيل المثال ، يبين أنهم ينتمون إلى وطنهم الأمريكي ، ومن ثم لا يهاجر منهم إلى إسرائيل إلا نسبة ضئيلة جداً . وكذلك ، فإن انتماء يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان انتماءً إلى مصالحهم الاقتصادية أو السياسية . ولذلك ، فإنهم يحاولون الهجرة إلى الولايات المتحدة ولا يتوجهون إلى إسرائيل إلا عند الاضطرار . كما أن تَفجُّر قضية الهوية داخل إسرائيل يبين أن لليهود انتماءات مختلفة وليس انتماءً يهودياً واحداً . وترتبط قضية ازدواج الولاء بقضية الانتماء اليهودي ، إذ أن من يؤمن بأن اليهود لا انتماء لهم لابد أن ينظر إلى اليهود بعين الشك ويرى أن ولاءهم لأوطانهم أمر مستحيل ، أو يرى على الأقل حتمية ازدواج هذا الولاء ، باعتبار أن ولاءهم اليهودي شيء راسخ متأصل .

ويحاول الصهاينة في الوقت الحاضر أن يُعرِّفوا انتماء اليهود تعريفاً جديداً يتفق مع واقعهم كجماعات تعيش خارج فلسطين وترفض الهجرة . ومن ثم ، أصبح الانتماء السياسي والاقتصادي لليهودي إلى وطنه الفعلي ، أما انتماؤه الديني والثقافي فلوطنه المثالي أو الوهمي ، أي الدولة الصهيونية . وبهذا ، لا تصبح الترجمة العملية للبرنامج الصهيوني الهجرة إلى فلسطين المحتلة وإنما تعميق الأبعاد اليهودية الإثنية للهوية ، وهو ما يُسمَّى «صهيونية الدياسبورا» أو «الصهيونية الإثنية» .

الولاء اليهودي المزدوج

Jewish Double Loyalty

«الولاء اليهودي المزدوج» مصطلح يستخدمه المعادون لليهود والصهاينة الذين ينطلقون من الإيمان بأن اليهود لا يدينون بالولاء إلا لوطنهم القومي ومصالحهم اليهودية ، لأنهم لا جذور لهم في مجتمعاتهم ولا ينتمون إليها انتماءً حقيقياً ، فاليهود شعب عضوي مرتبط بأرضه . لذلك فهم دائماً موزعو الولاء ، يمارسون إحساساً عميقاً بازدواج الولاء .

وقد أكد الزعماء والمفكرون النازيون أثناء محاكمات نورمبرج ، الواحد تلو الآخر ، أنهم تَعرَّفوا إلى اليهود واليهودية

والمسألة اليهودية من خلال الكتابات الصهيونية التي تتحدث عن عدم انتماء اليهود إلى أوطانهم الواقعية وعدم ولائهم لها . وتنطلق التشريعات النازية من هذا الفهم ، ومن تَصوُّر أن اليهود لا ينتمون إلى الوطن القومي الألماني ، إذ أن لكل شعب عضوي وطنه ! وفي الوقت الحاضر ، يشير أعداء اليهود إلى قرائن عدة تدل على عدم انتماء اليهود مثل كمية الأموال التي تُرسل إلى إسرائيل من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وتحديد هذه الجماعات اليهودية لمواقفها السياسية بطريقة تتفق ومصالح إسرائيل ، ووقوف كثير من المفكرين اليهود الليبراليين والثوريين ضد حرب فرنسا في الجزائر وحرب الولايات المتحدة في فيتنام في الوقت الذي يؤيدون فيه إسرائيل في حروبها العدوانية ضد العرب .

ولا يمكن الحديث عن ولاء يهودي محدد ومطلق ، فولاء أعضاء الجماعات اليهودية يتحدد بحسب مركب تاريخي طبقي إنساني أخلاقي ، كما لا يمكن تحديد كيفية تصرف أعضاء الجماعات اليهودية مسبقاً ، وكأنهم كائنات بسيطة تعيش بمعزل عن التاريخ الإنساني . وتدل تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية على أن ازدواج الولاء ليس سمة أساسية أو لصيقة بهم ، وعلى أنهم في كثير من الأحيان أخلصوا لأوطانهم (التي يعيشون في كنفها) وانتموا إليها انتماءً كاملاً واندمجوا فيها ، وتمثلوا قيمها واستبطنوها تماماً . ومنذ أيام التهجير البابلي ، حيث ظهرت أول جماعة يهودية خارج فلسطين ، طوَّرت الشريعة اليهودية مفهوم «شريعة الدولة هي الشريعة» ، الأمر الذي يحدد ولاء أعضاء الجماعة بشكل صارم باعتبارهم جماعة بشرية لا تدين بالولاء إلا لقوانين الدولة التي يعيشون في كنفها . وقد التزم معظم أعضاء الجماعات اليهودية بهذا المفهوم عبر التاريخ الإنساني ، شأنهم في هذا شأن كثير من البشر من أعضاء الأقليات والأغلبية . وعلى كل حال ، لم يكن هناك احتمال لازدواج الولاء لعدم وجود حكومة أو دولة يهودية يدين لها اليهودي بالولاء . ويتحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعة وظيفية وسيطة داخل التشكيل الحضاري الغربي ، منذ العصور الوسطى وحتى الثورة الفرنسية ، توجه ولاء اليهودي إلى جماعته أساساً ، ثم إلى الطبقة الحاكمة التي تحمي هذه الجماعة وتضمن بقاءها . وهذه سمة أساسية تسم مثل هذه الجماعات وليست مقصورة على الجماعات الوظيفية اليهودية ، فنجد أن الصينيين في الفلبين ، والعرب في بعض البلاد الأفريقية وإندونيسيا ، يندرجون تحت هذا النمط . وعلى كلٍّ ، لم تكن مفاهيم الوطن (والولاء القومي له) واضحة أو متبلورة حتى نهايات القرن الثامن عشر وظهور الفكر القومي .

وقد طُرحت قضية الولاء في عصر التنوير في أوربا ، حينما وُصف اليهود بأنهم « دولة داخل دولة » بسبب خصوصيتهم وانعزاليتهم الحقيقية أو الوهمية ، وقد طُلب إلى أعضاء الجماعات اليهودية ، وكذلك إلى الأقليات الإثنية والدينية كافة ، أن يدينوا بالولاء للدولة القومية وحدها وأن يرفضوا أية ولاءات أخرى . وبالفعل ، كان اليهود من أكثر العناصر ترحيباً بهذه الدعوة ، فاندمجوا في مجتمعاتهم بنسبة عالية كلما سنحت لهم الفرصة . ولم يُعرقل هذه العملية سوى تَعثُّر التحديث سواء في روسيا أو في ألمانيا ، وهي المجتمعات التي طرحت تصوراً عضوياً لفكرة الولاء .

وفي العصر الحديث ، يشعر يهود الولايات المتحدة بالولاء العميق لبلدهم أمريكا ، فهم ينتمون إليه انتماءً كاملاً ويحاربون ويموتون دفاعاً عنه ، ومصيرهم مرتبط بمصيره . وحينما يشكك الدعاة الصهاينة في هذا الولاء ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يثورون . ويتضح ولاؤهم أيضاً في رفضهم الهجرة إلى إسرائيل وفي اندماجهم في مجتمعاتهم . أما يهود جنوب أفريقيا ، فهم لا يشعرون بالولاء تجاه وطنهم لأن وضعهم في بلادهم مقلقل ، وبالتالي فقد يكون ولاؤهم غير راسخ ، ولذا فهم يفكرون في الهجرة منها . ولكن عدم ولائهم لا ينبع من مصالحهم اليهودية أو من جوهرهم أو طبيعتهم أو شخصيتهم ، وإنما ينبع من أن المستوطن الأبيض في جنوب أفريقيا قد بدأ يتعرض لضغوط حقيقية من السكان الأصليين تهدد وجوده . وحينما يهاجر اليهود الروس من روسيا ، فهم لا يفعلون ذلك من باب الولاء اليهودي ، وإنما من باب الولاء الدنيوي للمستوى المعيشي المرتفع ، ومن ثم يتجهون إلى الولايات المتحدة بدلاً من إسرائيل . وقد اتخذت الولايات المتحدة من التشريعات ما يكفل إغلاق باب الهجرة لتحويلهم عنوة إلى الدولة الصهيونية . وفي هذا ، لا يختلف المهاجرون اليهود المرتزقة من روسيا أو أوكرانيا كثيراً عن معظم أعضاء المجتمعات العلمانية في الغرب . فماركس يتحدث عن ولاء الرأسمالي ، وهو ولاء يتجاوز الولاء القومي ، كما يتحدث بنتام (فيلسوف النفعية) عن المنفعة الشخصية ، وهي منفعة تتجاوز الصالح القومي .

ويَصدُر الصهاينة عن فكرة ازدواج الولاء ، شأنهم في هذا شأن النازيين والمعادين لليهود ، وينطلق برنامجهم السياسي منها . فيتحدث المفكرون الصهاينة ، كلاتزكين وجولدمان وبن جوريون ، عما يسمُّونه «الولاء القومي اليهودي» . وبالتالي ، فإن اليهودي الذي يعيش في بلد غير الدولة اليهودية لن يشعر تجاهه بأي ولاء ، أو سيكون ولاؤه له ضعيفاً إذ سيكون موزعاً بين وطنه الفعلي الذي يقيم

فيه ووطنه القومي الصهيوني ، وهو ما يُطلق عليه «ازدواج الولاء» . وقد كان هرتزل يتفاوض مع السلطات الإمبريالية المختلفة في إطار تصور أنه قادر ، حسب قوله ، على تحويل كل يهود العالم إلى عملاء يدينون بالولاء لا لأوطانهم وإنما لأية دولة تساند الفكرة الصهيونية . والعميل إما شخص عديم الولاء أو شخص ذو ولاء مزدوج .

وتنطلق الدولة الصهيونية من الإيمان بازدواج الولاء لدى أعضاء الجماعات اليهودية في العالم . ولذلك ، فهي تحاول دائماً تجنيدهم لخدمة مصالحها ومآربها ، بل إن بن جوريون قد صرح بأن السفير الإسرائيلي في كل عاصمة هو الممثل الحقيقي للجماعة اليهودية فيها .

وثمة قوانين في الكيان الصهيوني لتكريس هذا الاتجاه ، مثل قانون العودة وقانون الجنسية . وقد عُدِّل هذا القانون الأخير بحيث تستطيع الدولة الصهيونية أن تمنح أي مواطن يهودي جنسيتها وهو لا يزال بعد في وطنه الأصلي ، دون أن يتنازل عن جنسيته الأصلية ، ويكفي أن تكون لديه النية للهجرة . والصهيونية ، بوصفها حركة سياسية ودولة استيطانية ، تحاول ترجمة فكرة الولاء اليهودي ، أي ازدواج الولاء ، إلى واقع عملي . ومما له دلالته أن بيان إعلان قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ قد تم عن طريق مجلس قومي يتحدث باسم كل «الشعب اليهودي» ، سواء في فلسطين أو خارجها . وقد اكتشفت الدولة الصهيونية (بعد إعلانها) أنها لن تستطيع الوصول بسهولة ويُسر إلى جميع أعضاء الشعب اليهودي ، نظراً لضآلة سلطتها خارج حدودها . ولذا ، حوَّلت المنظمة الصهيونية نفسها إلى أداة موظفة في يد الدولة الصهيونية ، تصل عن طريقها إلى أعضاء الجماعات اليهودية .

وقد كانت حادثة بولارد ترجمة عملية لنظرة الصهاينة لأعضاء الجماعات اليهودية . فقد قامت المخابرات الإسرائيلية بتجنيده باعتبار أنه مزدوج الولاء ، ولكن أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة رفضوا هذا التعريف وأكدوا أن ولاءهم للولايات المتحدة أولاً وأخيراً ، واحتجوا على سلوك إسرائيل . ولكن حادثة بولارد ليست سوى جزء من نمط عام ، إذ قامت الحركة الصهيونية من قبل بتجنيد بعض يهود البلاد العربية للتجسس ضمن قسم خاص أُسِّس لهم في الوكالة اليهودية قبل عام ١٩٤٨ ، كما أن حادثة لافون تُبيِّن أن المخابرات الإسرائيلية قامت بتجنيد بعض يهود مصر للتجسس لصالح الدولة الصهيونية .

ولا شك في أن هذا الوضع يخلق كثيراً من المشكلات لليهود في العالم . وقد تنبَّه سير إدوين مونتاجو ، العضو اليهودي الوحيد في الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور ، إلى هذا البعد حيث احتج على إصدار هذا الوعد لأن الاتهام بازدواج الولاء ، بحسب رأيه ، اكتسب لأول مرة أساساً موضوعياً . وتحاول الصهيونية التوطينية التغلب على هذا الوضع الذي يسبب الحرج لأعضاء الجماعات اليهودية ، بأن تعود إلى الصيغة الصهيونية الإثنية التي ترى أن اليهود ينتمون سياسياً إلى الوطن الذي يعيشون فيه ، مع أنهم ، من ناحية القيم الدينية والثقافية والروحية ، ينتمون إلى مركزهم الروحي (أو الإثني) في إسرائيل . ويحاول الصهاينة في الولايات المتحدة أن يُذيبوا ازدواج الولاء داخل النمط الأمريكي العام بحيث تصبح علاقة الأمريكي اليهودي بإسرائيل مثل علاقة الأمريكي الإيطالي بإيطاليا ، وبالتالي يصبح لليهودي وطنان قوميان : الأول هو مسقط الرأس الذي هاجر منه ، والثاني هو البلد الذي هاجر إليه .

المصالح اليهودية

Jewish Interests

«المصالح اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة مصالح يهودية محددة متفقاً عليها بين «اليهود» (أعضاء الجماعات اليهودية) ، وأنهم يدافعون عنها علناً أو سراً متى وأينما سنحت لهم الفرصة ، وهو افتراض شائع في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود . وتذهب الكتابات التي تتبنى مثل هذا النموذج التفسيري إلى أن اليهود لا يدينون بالولاء إلا لما يُسمَّى «المصالح اليهودية» ، وبالتالي فهم لا يعملون إلا من أجلها .

ولكن من الثابت تاريخياً أنه لم تكن هناك مصالح يهودية واحدة ، بل إن الصراعات بين الجماعات اليهودية المختلفة حقيقة تاريخية . وكثيراً ما كانت تستعدي جماعة ما السلطات على جماعة أخرى وتطالب بطردها . ويظهر الصراع في حق حظر الاستيطان (حيريم هايشوف) ، أي حق أية جماعة يهودية في أن ترفض إيواء أي يهودي من جماعة أخرى ، وهو حق كانت تسعى الجماعات اليهودية في أوربا في العصور الوسطى للحصول عليه . ولعل أهم الصراعات عبر التاريخ هو الصراع بين الإشكناز والسفارد في العالم الغربي ، والذي لا يزال له أصداؤه في إسرائيل حتى الآن . وكذلك ، فإن مصالح الدولة الصهيونية تتعارض في كثير من الأحيان مع مصالح الجماعات اليهودية كما اتضح في حادثة بولارد على سبيل المثال ، أو في تَورُّط الإسرائيليين في تجارة المخدرات في

كولومبيا . وقد فجرت الانتفاضة قضية التعارض بين مصالح الجماعات اليهودية ومصالح إسرائيل ، إذ أن منظر الجنود الإسرائيليين (ممثلي الدولة اليهودية) وهم يكسرون أذرع الشباب الفلسطيني ، لم يُحسِّن الصورة الإعلامية ليهود العالم ، ولم يخدم مصالحهم ، مع أنه يخدم مصلحة الدولة التي يُقال إنها «يهودية» !

ونحن نرى أن أعضاء الجماعات اليهودية لهم مصالح مختلفة باختلاف الزمان والمكان ، ولتفسير سلوكهم لابد من العودة إلى سياقهم الحضاري والتاريخي والإنساني العريض ، لأن النموذج التفسيري الذي يُركِّز على المصالح اليهودية والمرجعية اليهودية سيعجز عن تفسير كثير من جوانب هذا السلوك .

وفي مجموعة المداخل التي تلي هذا المدخل سنتناول سيَر بعض مشاهير اليهود ممن شغلوا مواقع مهمة تجعلهم في موضع التأثير في صنع القرار (ابتداءً من بيرنيكي عشيقة الإمبراطور تيتوس وانتهاءً بكيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة) . وسنحاول أن نُبيِّن أن سلوكهم السياسي وغير السياسي (في معظم الأحيان) لم تكن تحكمه المصالح اليهودية وإنما مجموعة من العناصر الأخرى المرتبطة عادةً بمصالح الدولة التي ينتمي لها عضو الجماعة اليهودية .

بيرنيكي (٣٢م- ؟)

Berenice

«بيرنيكي» اسم يوناني معناه «حاملة النصر» ، وتُنطَق «بيرنيس» في اللغات الأوربية الحديثة . وهي حفيدة أخت هيرود الأعظم «ملك اليهود» وابنة أجريبا الأول . وُلدت عام ٣٣ ميلادية ، وكانت مشهورة بجمالها وبتعدد أزواجها وعشاقها . تزوَّجت وهي بعد في الثالثة عشرة من ماركوس ، ابن ألكسندر ليسيماخوس كبير موظفي (ألبارخ) الإسكندرية . وبعد موته ، تزوَّجت عمها شقيق أبيها هيرود حاكم كالخيس . وبعد موت هذا الأخير ، عاشت مع أخيها أجريبا الثاني . وقد انتشرت الشائعات بين الرومان أنها كانت على علاقة آثمة بأخيها هذا . ويُلاحَظ أن الجماع بالمحارم في فترة انحلال الإمبراطورية الرومانية لم يكن أمراً غريباً بين أعضاء الأرستقراطية التي كانت تنتمي إليها بيرنيكي وأخوها . وربما لإسكات الشائعات ، ونظراً لغيرتها من أختها دروسيلا التي تزوجت من ملك ، أقنعت بيرنيكي بوليمون الثاني ملك كليكيه بأن يتهود ويتختن ويتزوجها فتزوجها في عام ٦٩م . ولكن بيرنيكي لم تكن على مستوى عال من الأخلاق أو الوفاء الزوجي الأمر الذي أثار اشمئزاز بوليمون منها ومن عقيدتها فطلَّقها . وعادت بيرنيكي لتعيش مع أخيها ، ووقفت إلى جواره في محاولته تهدئة الجماهير اليهودية الحانقة مع بدايات التمرد اليهودي الأول (٦٦ـ٧٠م) ، ولكن الجماهير أضرمت النار في قصرها .

ومع سقوط القدس في يد المتمردين ، فرَّت بيرنيكي إلى الإسكندرية عند أقاربها (تايبريوس يوليوس ألكسندر ابن عم فيلون السكندري ، وغيره) . وهناك ، قابلت الجنرال تيتوس ابن الإمبراطور فسبسيان الذي كان يُعدُّ حملته لقمع التمرد اليهودي الأول وأصبحت عشيقته ، وأعلن هو عن حبه لها وكان عمرها (حينذاك) تسعة وثلاثين عاماً . وقد صاحبته هي وأخوها أجريبا الثاني (الذي كان يقود جيشاً يهودياً صغيراً) أثناء حملته التي انتهت بسقوط القدس وتحطيم الهيكل . وحين عاد تيتوس إلى روما ، انضمت إليه هناك عام ٧٥م ، واستمرا في علاقتهما ، بل وكان يشار إليها باعتبارها «زوجة تيتوس» . ويبدو أنه كان على وشك الزواج منها بالفعل ، ولكن الأرستقراطية الرومانية عارضت ذلك . وحينما عادت بيرنيكي إلى روما مرة أخرى عام ٧٩م ، بعد أن أصبح تيتوس إمبراطوراً ، وبعد أن بلغت هي الخمسين ، تجاهلها عشيقها السابق ، فعادت أدراجها إلى فلسطين حيث لم يُسمع عنها شيء بعد ذلك التاريخ .

ووجود بيرنيكي اليهودية (وجيش أخيها) إلى جوار تيتوس أثناء حملته على القدس لهدم الهيكل لم يُغيِّر شيئاً في خطته العسكرية التي كانت تمليها الاعتبارات الإستراتيجية الكبرى للإمبراطورية الرومانية . وربما لو كان تيتوس قد عدل عن تحطيم الهيكل في آخر لحظة (لاعتبارات خاصة بمصالح الإمبراطورية الرومانية) لانقض على هذه الواقعة أصحاب النماذج الاختزالية وتحدثوا عن نفوذ المرأة اليهودية ، وكيف أن اليهود يستخدمون الجنس في تنفيذ مخططاتهم . بل ولأضافوا أن بيرنيكي ، صاحبة الاسم اليوناني والسلوك الوثني والرؤية المنحلة ، ظلت مع هذا يهودية تخدم المصالح اليهودية ، وهو ما يدل (حسب رأيهم) على أن وظيفة اليهود ثابتة عبر الزمان والمكان . ولا تتحدث المراجع الصهيونية عن عبقرية بيرنيكي اليهودية في اصطياد الرجال بخاصة من فئة الملوك وقواد الجيوش .

ولم تكن بيرنيكي المرأة اليهودية الوحيدة التي لعبت دوراً في دهاليز النخبة الحاكمة . فقد تزوجت اختها دروسيلا من ملك يُدعَى عزيز في إميسيا (حمص) . ويبدو أن إيزاط ملك حدياب في بابل (٣٦ـ٦٠م) تهوَّد بسبب علاقته بامرأة يهودية .

ديفيد باسيفيكو (١٧٨٤-١٨٥٤)

David Pacifico

تاجر ودبلوماسي بريطاني يهودي وُلد في جبل طارق وأخذته أعماله التجارية إلى البرتغال حيث استقر عام ١٨١٢ . ورغم أنه ظل من رعايا بريطانيا ، إلا أنه نشط في السياسة المحلية البرتغالية وعُيِّن قنصلاً عاماً للبرتغال لدى المغرب في الفترة بين عامي ١٨٣٥ و١٨٣٧ ثم لدى اليونان في الفترة بين عامي ١٨٣٧ و١٨٤٢ ، ولكنه أُقيل من منصبه نتيجة خلافات مع الحكومة البرتغالية . كل هذا يدل على أن المارانو ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وحتى بعد ذلك التاريخ ، كانوا لا يزالون يضطلعون بدورهم كممثلين للبلد الذي طردهم والذي ينتمون إليه لغوياً وحضارياً .

وقد ظل باسيفيكو في اليونان أعوام ١٨٤٣ ـ ١٨٤٧ مشتغلاً بالتجارة ، ولكنه دخل عام ١٨٤٧ في مواجهة خطيرة مع الحكومة اليونانية أسفرت عن مجيء الأسطول البريطاني إلى شواطئ اليونان وهو ما أثار ضجة كبيرة في أنحاء أوربا وداخل بريطانيا . ففي هذا العام منعت الحكومة اليونانية الجماهير المسيحية من إجراء الطقوس التقليدية لعيد الفصح ، وهو إحراق تمثال خشبي يرمز إلى يهوذا ، وذلك احتراماً لوجود أحد أفراد عائلة روتشيلد المالية اليهودية في أثينا لإجراء مفاوضات مع الحكومة اليونانية بشأن قرض . وقد استثار ذلك غضب الجماهير التي تظاهرت وهاجمت منزل باسيفيكو ودمرته وأحرقت أوراقه . وقد طالب باسيفيكو الحكومة اليونانية بتعويض قدره أكثر من ٨٠٠ ألف دراخمة وأيده في ذلك ممثل إنجلترا لدى اليونان باعتبار أن باسيفيكو من رعايا بريطانيا . وقد رفضت الحكومة اليونانية طلبه بل قامت بمصادرة أملاكه . وإزاء ذلك ، أمر بالمرستون ، وزير الخارجية البريطاني آنذاك ، الأسطول البريطاني بفرض حصار على ميناء بيريوس اليوناني Piraeus كما استولى البريطانيون على ٢٠٠ سفينة يونانية . واستمر هذا الحصار من يناير ١٨٥٠ حتى أبريل من العام نفسه عندما رضخت الحكومة اليونانية ودفعت لباسيفيكو تعويضاً قدره ١٥٠ ألف دراخمة .

وقد أثارت هذه الحادثة ، التي تضمنت تحريك الأسطول البريطاني لمعاقبة حكومة مسيحية لصالح يهودي ، ضجة كبيرة في أنحاء أوربا وداخل بريطانيا ، فأعربت كلٌ من روسيا وفرنسا وبروسيا عن غضبها البالغ وتشكلت في إنجلترا جبهة معارضة لبالمرستون حاولت إقصاءه من منصبه . وكان من بين أفراد هذه الجبهة السياسي البريطاني دزرائيلي (اليهودي الأصل) . وقد دافع بالمرستون عن نفسه قائلاً : « إن أي إنسان من رعايا بريطانيا يجب أن يتأكد أينما وُجد أن ذراع إنجلترا الطويلة ستحميه من أية إساءة أو ظلم . وهذا الموقف يجب أن يسري على جميع الرعايا وضمن ذلك من يعتنق اليهودية منهم » . ورغم حديثه الليبرالي المعسول كانت لبالمرستون دوافع أخرى جعلته يُحرِّك الأسطول البريطاني ضد اليونان ، فقد كان يسعى لتأديب وإذلال الأسرة المالكة البافارية التي كان أفرادها يحكمون اليونان ، على حين مثلت قضية باسيفيكو ذريعة مواتية لتبرير هذا الإجراء . والواقع أن يهودية باسيفيكو أو عدم يهوديته لم تمثل أي اعتبار حقيقي في هذه الحادثة التي خضعت أولاً وأخيراً ، سواء بالنسبة إلى الحادثة نفسها أو بالنسبة إلى الاعتراضات التي أثيرت بشأنها ، لاعتبارات سياسية دولية أو لاعتبارات السياسة الداخلية البريطانية وصراعاتها . وقد تحرك الأسطول البريطاني دفاعاً عن باسيفيكو ، لا بسبب قوة اللوبي اليهودي (فلم يكن هناك مثل هذا اللوبي) وإنما دفاعاً عن المصالح البريطانية .

بنيامين دزرائيلي (١٨٠٤-١٨٨١)

Benjamin Disraeli

سياسي ورجل دولة بريطاني شهير . لعب ، بوصفه رئيساً لوزراء بريطانيا ، دوراً مهماً في رسم سياستها الخارجية والاستعمارية وترسيخ مصالحها في الشرق الأوسط ، وهو الدور الذي تحدَّد على أساسه فيما بعد مصير مصر وفلسطين ، وقد حظيت مهارته بمكانة بارزة في تاريخ السياسة البريطانية الاستعمارية . ومما له دلالته أن هذا الإمبريالي القح الذي وسَّع نطاق الإمبريالية الإنجليزية في الخارج ، قام في الوقت نفسه بتوسيع نطاق الديموقراطية والعدالة الاجتماعية في الداخل .

وُلد دزرائيلي لعائلة بريطانية يهودية ذات أصول إيطالية سفاردية (مارانية) . وكان اليهود السفارد في أوربا مختلفين عن الإشكناز ، فرغم أن كليهما كان جزءاً من جماعة وظيفية ، إلا أن السفارد كانوا يشكلون جزءاً من أرستقراطية مالية متقدمة مندمجة إلى حد ما في المجتمع ، على عكس الإشكناز الذين كانوا جماعة وظيفية تضطلع بالوظائف الاقتصادية الوضيعة (الربا والتجارة الصغيرة) وتقف على هامش المجتمع . لكن اندماج السفارد أضعف هويتهم تماماً . ورغم أن اندماجهم في المجتمع لم يكن كاملاً (فالمجتمعات الغربية كانت لا تزال تدور في إطار مسيحي) ، إلا أن عملية الاندماج ، التي أدَّت في نهاية الأمر إلى الانصهار في حالة السفارد ، كانت قد قطعت أشواطاً كبيرة . ويظهر ضعف الهوية في حادثة خروج والد دزرائيلي على اليهودية . فقد اختلف مع مجلس

الماهاماد ، الذي كان يتولى قيادة الجماعة اليهودية السفاردية في لندن، حول مقدار الضرائب المقررة عليه ، فاستقال منه واعتنق المسيحية . وكان بنيامين في الثالثة عشرة من عمره ، فعُمِّد ونُشِّئ تنشئة مسيحية .

وقد دخل دزرائيلي مجال السياسة وانتُخب عضواً في البرلمان عن حزب المحافظين عام ١٨٣٧ ، كما تزعَّم حركة إنجلترا الشابة ، وهي حركة رومانسية تستند إلى الإيمان بضرورة بناء قاعدة شعبية لحزب المحافظين الأرستقراطي واستقطاب الطبقات العاملة من خلال الإصلاحات الاجتماعية والسياسية . ومن الجدير بالذكر أن وضع دزرائيلي الاجتماعي والاقتصادي تَدعَّم بعد زواجه من أرملة مسيحية ثرية تكبره بنحو اثنى عشر عاماً وأصبح من ملاك الأراضي الأثرياء .

وفي عام ١٨٥٢ ، أصبح دزرائيلي رئيساً لمجلس العموم . وفي عام ١٨٦٨ ، أصبح رئيساً للوزراء ، وهو منصب تقلده مرة أخرى في الفترة ما بين عامي ١٨٧٤ و١٨٨٠ . وقد صدرت قرارات تشريعية عديدة في عهده ذات طابع ليبرالي مثل تنظيف الأحياء الشعبية والاعتناء بمؤسسات الصحة العامة وتحسين أحوال العمل في المصانع . وقد حقق دزرائيلي أهم إنجازاته في مجال السياسة الخارجية ، فقد كان وراء الصفقة التي اشترت بريطانيا بمقتضاها نصيب مصر من أسهم قناة السويس في عام ١٨٧٥ ، وذلك بمساعدة مالية من عائلة روتشيلد (اليهودية) . وتُعتبَر هذه الصفقة من أهم خدماته للإمبراطورية البريطانية حيث حققت لها السيطرة الإستراتيجية على أهم الممرات المؤدية إلى الشرق . كما أعطت هذه الصفقة أهمية خاصة لمصر بالنسبة لبريطانيا والتي احتلتها في آخر الأمر . وقد أعقب كل هذا موافقة البرلمان الإنجليزي على منح الملكة لقب «إمبراطورة الهند» . كما مُنح دزرائيلي لقب «إيرل أوف بيكونزفيلد» تقديراً لخدماته .

وقد تَبنَّى دزرائيلي سياسة تهدف إلى الحفاظ على الدولة العثمانية وإلى تأيدها في صراعها مع روسيا . وجاءت سياسته هذه في الواقع تعبيراً عن صراع القوى الأوربية الكبرى في تلك الفترة ، ومن بينها بريطانيا وروسيا ، للحصول على أكبر نصيب ممكن من تركة الإمبراطورية العثمانية . وبالتالي ، جاء دعم بريطانيا لتركيا بهدف صد التوسع الروسي باتجاه الجنوب والذي كان يشكل تهديداً للممرات الحيوية المؤدية إلى الهند . وقد نجح دزرائيلي في مؤتمر برلين (عام ١٨٧٨) في عدم المساس بوضع الدولة العثمانية ، كما حصل لبريطانيا على قبرص التي كانت تُعتبَر البوابة لآسيا الصغرى . كما حصل للجماعات اليهودية في دول البلقان على بعض الحقوق والامتيازات . وقد اعتبر دزرائيلي هذا المؤتمر تتويجاً لحياته السياسية . وقيل إنه قدَّم ، في هذا المؤتمر ، مذكرة غير موقعة حول المسألة اليهودية تدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين . وتبيَّن ، فيما بعد ، أن من قدمها شخص آخر .

لم تكن مسألة توطين اليهود في فلسطين غائبة عن ذهن دزرائيلي كما لم تكن غائبة عن أذهان الساسة البريطانيين المعاصرين له ، وقد كانت أهمية فلسطين لبريطانيا تزداد مع تزايد مصالحها الإمبريالية وأطماعها في ثروات الشرق ، ففلسطين كانت تشكل حلقة وصل برية بين الشرق والغرب ، وبين آسيا وأفريقيا . وقد زاد ذلك من الأطماع البريطانية فيها ، ومن ثم التوجه الصهيوني للسياسة البريطانية الخارجية ، حتى قبل ظهور الحركة الصهيونية بين أعضاء الجماعة اليهودية .

كتب دزرائيلي عدة روايات ومؤلفات ليست لها أهمية أدبية كبيرة ، ولا يتعرض معظمها للموضوع اليهودي مثل رواية **سيبيل أو الأمّتان** (١٨٤٥) التي تصف الهوة الساحقة التي تفصل بين الفقراء والأغنياء في عصره ويُبيِّن أوضاع العمل غير الإنسانية في المصانع في ذلك الوقت . ومن بين رواياته التي تتعرض للموضوع اليهودي **قصة داود الرائي المدهشة** (١٨٣٣) وهي عن ذلك الماشيَّح الدجال ، ورواية **كونينجسبي أو الجيل الجديد** (١٨٤٤) ويشرح فيها دزرائيلي أفكاره السياسية ويصف وضع اليهود (بشكل هامشي) . أما رواية **تانكريد أو الحرب الصليبية الجديدة** (١٨٤٧) فهي تدور حول حياة أرستقراطي بريطاني يسافر إلى القدس ليبحث عن شفاء لروحه من المادية الغربية . وفي السيرة التي كتبها دزرائيلي عن لورد جورج بنتيك (١٨٥٢) شرح نظريته الخاصة بتفوق العنصر السامي وروحانية اليهود التي تتبدَّى كلها في الكنيسة المسيحية ! ولدزرائيلي روايات أخرى مثل **إندميون** .

ويمكننا الآن أن نتناول قضية هوية دزرائيلي اليهودية . ومن المعروف أن بعض معاصريه وجهوا له بعض الانتقادات حول سياسته الخاصة بمصير الدولة العثمانية إذ اتهموه بأنه يحدد هذه السياسة (وسياسة بريطانيا الخارجية بشكل عام) في ضوء موقفها من الجماعات اليهودية . وقد ساعد دزرائيلي بنفسه على ترسيخ صورته اليهودية ، فقد كان يتباهى بأصله اليهودي العرْقي ، كما أن دفاعه عن قضية إعتاق اليهود أمام البرلمان البريطاني كان ينبع من اعتقاده بأن اليهود يمثلون جنساً أكثر سمواً بين سائر الأجناس الأخرى في كثير من الصفات . ومن جهة أخرى تتخلل كتابات دزرائيلي فكرة

صهيونية مبهمة تدور حول «الارتباط الأزلي لليهود بأرض فلسطين» . وقد اتهمه الروائي الروسي دوستويفسكي بأنه يُدبر مؤامرة يهودية لهزيمة روسيا ونصرة الدولة العثمانية . ومع هذا ، يمكن أن نشير إلى ما يلي :

١ ـ كان دزرائيلي مبتعداً تماماً عن العقيدة اليهودية وشعائرها ورموزها ، كما هو الحال مع بقية أعضاء الجماعة اليهودية في إنجلترا ، خصوصاً السفارد منهم . وقد خرج أبوه على الجماعة لسبب واه ـ كما تقدَّم ـ وعمَّد ابنه . ويُلاحَظ أن دزرائيلي يُعرِّف اليهود تعريفاً عرْقياً لا دينياً لا علاقة له بالدين اليهودي .

٢ ـ وكان دزرائيلي يرى اليهود شعباً عضوياً متماسكاً ، له شخصيته المستقلة وتفوقه (التجاري في العادة) وارتباطه الأزلي بفلسطين ، وهذا الخطاب الصهيوني لم يكن خاصاً بدزرائيلي وإنما كان جزءاً لا يتجزأ من الخطاب الغربي بشأن اليهود .

٣ ـ ولم تكن سياسة دزرائيلي تجاه الدولة العثمانية سوى تعبير عن المصالح الإمبريالية ودفاع ذكي عنها . وبالتالي ، فإن هوية من قام بتنفيذ هذه السياسة ليس أمراً مهماً على الإطلاق .

لكل هذا ، ورغم اتهام أعدائه له بتحيزه اليهودي (بل واتهامه بأنه «يهودي متخفي») ورغم إدعاءاته هو عن نفسه ، إلا أن سلوك دزرائيلي لا يمكن تفسيره على أساس يهوديته وإنما على أساس انتمائه للتشكيل الاستعماري الغربي . ولعل أدق وصف لدزرائيلي هو وصفه لنفسه بأنه يشبه الصفحة البيضاء التي تفصل العهد القديم عن العهد الجديد ، أي أنه فَقَد هويته اليهودية ولم يكتسب الهوية المسيحية رغم تَنصُّره . وهو في هذا لا يختلف عن كثير من يهود المارانو (السفارد) الذين فقدوا هويتهم الدينية وتحولوا إلى عنصر أساسي نافع في التشكيل الرأسمالي الغربي والتشكيل الاستعماري الغربي (بشقّيه العسكري والاستيطاني) .

ومما له دلالته أن **الموسوعة البريطانية (ماكروبيديا)** أفردت مدخلاً كاملاً طويلاً لتناول حياة دزرائيلي الخاصة والعامة ، ولم يُشر إلا بشكل عابر في بداية المدخل لأصوله اليهودية ، ثم أهملتها تماماً بعد ذلك ، لأنها ليست ذات قيمة تفسيرية تُذكَر .

إسحق كرمييه (١٧٩٦-١٨٨٠)

Isaac Cremieux

رجل دولة فرنسي . تلقّى تعليماً فرنسياً علمانياً في مدارس الليسيه الإمبراطورية حيث كان من أوائل الطلبة اليهود الدارسين بها ، ثم درس القانون بعد ذلك ، وأصبح خلال فترة دراسته من أشد المعجبين بنابليون . اشتغل عام ١٨١٧ بالمحاماة واكتسب سمعة طيبة في هذا المجال بفضل مهارته القانونية ، وكان من أشد المؤيدين لقضايا الليبرالية حيث ترافع في عديد من المحاكمات السياسية أثناء فترة عودة الملكية . وبعد قيام ثورة عام ١٨٣٠ ، انتقل إلى باريس حيث تعاون مع العناصر الليبرالية في نشاطها المعادي لحكم الملك لويس فيليب وطالب بحرية الصحافة . وفي الفترة بين عامي ١٨٤٢ و١٨٤٦ انتُخب نائباً في البرلمان الفرنسي حيث كان من قادة المعارضة . واشترك كرمييه في ثورة ١٨٤٨ ، وتولى منصب وزير العدل في الحكومة الجديدة لعدة أشهر حيث عمل على إدخال عدة إصلاحات من أهمها إلغاء نظام الرق في المستعمرات الفرنسية وإلغاء عقوبة الإعدام في القضايا السياسية . ودخل البرلمان مرة أخرى خلال الجمهورية الثانية وظل نائباً حتى عام ١٨٥٢ ، ثم ابتعد عن الحياة السياسية في فرنسا منذ ذلك العام نظراً لخلافه مع إدارة لويس نابليون ، وبقي كذلك حتى عام ١٨٦٩ حينما دخل البرلمان مرة أخرى . وقد تولى كرمييه منصب وزير العدل مرة أخرى عام ١٨٧٠ في الحكومة الانتقالية التي حلت محل حكم لويس نابليون بعد هزيمته العسكرية في العام نفسه . كما انتُخب كرمييه عام ١٨٧١ نائباً ممثلاً للجزائر ، ثم انتُخب عام ١٨٧٥ عضواً لمجلس الشيوخ مدى الحياة .

وظل كرمييه مهتماً بالقضايا الخاصة بالجماعات اليهودية سواء في فرنسا أو خارجها ، فعمل منذ عام ١٨٢٧ على إلغاء القَسَم اليهودي في فرنسا (الذي أُلغي بالفعل عام ١٨٤٦) ، وتعاون مع موسى مونتيفيوري عام ١٨٤٠ بشأن حادثة دمشق ، واشترك عام ١٨٦٦ في الدفاع عن بعض اليهود المتهمين في قضية قتل في روسيا ، كما اهتم بالقضايا الخاصة بحقوق يهود رومانيا ، وعمل من خلال مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ على دعم قضية إعتاق يهود دول البلقان . وقد اختير كرمييه عام ١٨٦٣ رئيساً للأليانس إسرائيليت يونيفرسل ، وعمل بها حتى عام ١٨٦٦ ، ثم مرة أخرى من عام ١٨٦٨ وحتى وفاته . كما أصدر كرمييه عام ١٨٧٠ ، عندما كان وزيراً للعدل ، قانون كرمييه الذي منح الجنسية الفرنسية لأعضاء الجماعة اليهودية في الجزائر .

ورغم اهتمام كرمييه بالقضايا اليهودية ، إلا أن هذا الاهتمام كان مرتبطاً في المقام الأول بمصالح الدولة الفرنسية . والواقع أن منحه الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر ، والذي اعتُبر من نجاحاته الكبرى في مجال القضايا اليهودية ، كان إجراءً يهدف إلى تحويل يهود الجزائر إلى جماعة وظيفية استيطانية تزيد الكثافة السكانية

الفرنسية ، ومن ثم تخدم مصالح الاستعمار الفرنسي في الجزائر . كما أن نشاط الأليانس إسرائيليت ، التي تولى رئاستها ، كان يهدف أيضاً إلى صبغ أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي بصفة عامة ، ودول المغرب العربي بصفة خاصة ، بالثقافة الفرنسية وتحويلهم إلى جماعات وظيفية وسيطة تعمل في مؤسسات الاحتلال الفرنسي وتدين له بالولاء وتخدم مصالحه في المنطقة . ومن الجدير بالذكر أن كريميه اضطر عام ١٨٤٥ إلى التخلي عن منصبه كرئيس للمجلس الكنْسي المركزي اليهودي في باريس بعد أن تبيَّن أنه سمح لزوجته بتنصير أبنائهما . وكان كريميه نشطاً في الحركة الماسونية في فرنسا وكان من أبرز قياداتها .

ديفيد يولي (١٨١٠-١٨٨٦)

David Yulee

سياسي أمريكي وأول عضو يهودي في مجلس الشيوخ الأمريكي . وُلد في جزيرة سانت توماس ببحر الكاريبي . وفي عام ١٨١٨ ، انتقل إلى الولايات المتحدة مع والده الذي كان من أوائل من استوطنوا ولاية فلوريدا الأمريكية . وقد أدار يولي إحدى مزارع والده ثم درس القانون وأصبح محامياً عام ١٨٣٢ ، ثم انخرط في السياسة وانتُخب عام ١٨٣٧ عضواً بالهيئة التشريعية الإقليمية . وفي عام ١٨٣٨ اشترك يولي في المؤتمر الذي وضع دستور فلوريدا . وشارك بحماس في الحملة المطالبة بانضمام فلوريدا إلى اتحاد الولايات الأمريكية . وبعد انضمامها عام ١٨٤٥ ، انتُخب يولي ليكون أول عضو في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية فلوريدا ، كما أصبح أول عضو يهودي به ، وظل عضواً بالمجلس حتى عام ١٨٥١ وأعيد انتخابه مرة أخرى عام ١٨٥٥ وحتى عام ١٨٦١ . وقد أيد يولي نظام العبودية في الولايات المتحدة بشدة ورفض إلغاءه ، كما رفض إلغاء عقوبة الجلد في البحرية الأمريكية ، وكان من أشد من دافعوا عن حق البيض في الاستيطان (وخصوصاً خلال حروب السيمينول ، وهي الحروب التي دارت بشكل متقطع بين عامي ١٨١٧ و١٨٥٨ والتي شنها الجيش الأمريكي ضد قبائل السيمينول من الهنود الحمر لإرغامهم على التخلي عن أراضيهم وإفساح المجال أمام استيطان الرجل الأبيض) . وقد أيَّد يولي انفصال فلوريدا عن الاتحاد عام ١٨٦١ ، واشترك في كونجرس اتحاد ولايات الجنوب أثناء الحرب الأهلية الأمريكية . وبعد هزيمة الجنوب، سُجن لمدة عام خرج بعدها ليعتزل السياسة ويتفرغ لأعمال إعادة بناء خطوط السكك الحديدية في فلوريدا ، وهي عملية حقق من خلالها مكاسب كثيرة .

وقد تزوج يولي عام ١٨٤٦ من ابنة حاكم سابق لولاية كنتاكي ، وبعد زواجه مباشرةً أضاف اسم يولي إلى اسمه الذي كان حتى ذلك الحين ديفيد ليفي فقط . وبرغم أنه لم يعتنق المسيحية بشكل رسمي ، إلا أنه كان يذهب إلى الكنيسة كما قام بتنشئة أبنائه على العقيدة المسيحية .

ولا يمكن الحديث عن ديفيد يولي في إطار المصالح اليهودية الخاصة . فسيرته السياسية لا تختلف عن سيرة كثيرين غيره من رجال السياسة الأمريكيين الذين راهنوا على الجانب الخاطئ في الحرب الأهلية الأمريكية .

جوليوس فوجل (١٨٣٥-١٨٩٩)

Julius Vogel

رئيس وزراء نيوزيلندا . وُلد في إنجلترا لأسرة يهودية ، واشتغل في تجارة جدِّه الثري ، ثم انتقل إلى أستراليا عام ١٨٥٢ بعد اكتشاف الذهب هناك . ولكنه لم ينجح في مجال التنقيب عن الذهب واتجهت اهتماماته بعد ذلك نحو السياسة والصحافة ، فهاجر عام ١٨٦١ إلى نيوزيلندا حيث قام بتحرير أول جريدة يومية في المستعمرة . وفي عام ١٨٦٣ انتُخب عضواً في مجلس مقاطعة أوتاجو ، كما انتُخب في العام نفسه عضواً في مجلس النواب ليصبح أول عضو يهودي به . وقد عارض خلال عضويته في المجلس تعليم الدين في المدارس . كما ظهرت كفاءته في الشئون المالية ، الأمر الذي أدَّى إلى تعيينه وزيراً للمالية بالمستعمرة عام ١٨٦٩ . وقد اكتسب مكانة واحتراماً كبيراً بفضل مفاوضاته الناجحة مع الحكومة البريطانية للحصول على القروض اللازمة لفتح البلاد للاستيطان وتمويل مشاريع بناء الطرق والسكك الحديدية . وفي عام ١٨٧٣ أصبح رئيساً للوزراء حتى عام ١٨٧٥ . وفي الفترة ما بين عامي ١٨٧٦ و١٨٨١ أصبح وكيلاً عاماً لنيوزيلندا في إنجلترا ، ثم عاد إلى نيوزيلندا عام ١٨٨٤ ليتولى وزارة المالية مرة أخرى ، ولكن سياسته تعرضت لانتقادات حادة الأمر الذي دفعه إلى الاستقالة عام ١٨٨٧ . وكان قد سبق أن تعرض للهجوم عام ١٨٨٠ (أثناء وجوده في إنجلترا) بسبب تَورُّطه في فضيحة خاصة بشركة نيوزيلندا الزراعية التي كانت تقوم ببيع الأراضي للراغبين في الهجرة . وفي عام ١٨٨٨ انتقل فوجل إلى إنجلترا حيث استقر بصفة دائمة حتى وفاته .

ويُعدُّ فوجل من أبرز رجال السياسة والدولة في نيوزيلندا ، حيث نجح في تطويرها اقتصادياً وفي توسيع رقعة الاستيطان بها ،

وقد مُنح فوجل لقب «سير» عام ١٨٧٥ . وهو نموذج جيد لليهودي الغربي الذي يفقد ما يُميِّزه كيهودي أو يُهمِّشه ليصبح جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الحضاري الاستعماري الغربي ، خصوصاً الأنجلو ساكسوني .

أيزاك أيزاكس (١٨٥٥-١٩٤٨)

Isaac Isaacs

رجل دولة أسترالي يهودي ، عمل حاكماً عاماً لأستراليا . وُلد في ملبورن لأبوين من أصل بولندي هاجرا إلى أستراليا بعد اكتشاف الذهب بها . ودرس القانون في جامعة ملبورن وتَخرَّج ليشتغل بالمحاماة واكتسب سمعة طيبة بفضل كفاءته القانونية . وفي عام ١٨٩٢ انخرط في العمل السياسي حيث انتُخب عضواً في البرلمان وظل عضواً به حتى عام ١٩٠١ . وفي عام ١٨٩٤ عُيِّن نائباً عاماً. وقد اشترك أيزاكس في المداولات التي مهدت لتشكيل الحكومة الفدرالية في أستراليا ، وكان عضواً في اللجنة التي وضعت الدستور . كما انتُخب عام ١٩٠١ عضواً في أول برلمان فيدرالي وساهم في تنظيم النظام القضائي الفيدرالي . وفي عام ١٩٠٦ عُيِّن قاضياً في المحكمة الفيدرالية العليا حيث خدم حتى عام ١٩٣٠ حينما عُيِّن في منصب كبير القضاة في أستراليا . وفي عام ١٩٣١ عُيِّن أيزاكس حاكماً عاماً لأستراليا ليصبح أول شخص أسترالي المولد يتولى هذا المنصب الذي احتفظ به حتى عام ١٩٣٦ . وحصل أيزاكس على لقب «سير» عام ١٩٢٨ .

وقد عارض أيزاكس الصهيونية بشدة واعتبر اليهودية عقيدة دينية رافضاً أي مضمون قومي أو سياسي لها ، ونشر عام ١٩٤٣ سلسلة من المقالات في جريدة يهودية أدان فيها الصهيونية السياسية وأكد أن اليهود مواطنون عاديون يتجه ولاؤهم إلى أستراليا أو إلى غيرها من الدول التي ينتمون إليها واعتبر كل من يخالف هذا الرأي خائناً . وقد أيَّد أيزاكس سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين واعتبر الاعتراضات التي أثيرت عام ١٩٤١ حول سياسة **الكتاب الأبيض** البريطانية في فلسطين عملاً يتنافى مع الانتماء لأستراليا . والبُعد اليهودي في تفكير أيزاكس وسلوكه كان قد تقلص تماماً واختفى ، إذ أن ما كان يحركه هو انتماؤه لكلٍّ من إنجلترا والتشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو ساكسوني في أستراليا .

عمانويل قاراصو (١٨٦٢-١٩٣٤)

Emmanuel Carasso

محام وسياسي تركي من يهود الدونمه ، من أعضاء حركة تركيا الفتاة وأحد قادة الحركة الماسونية . وُلد في سالونيكا ، وحاضر في جامعتها ، وانضم في عهد السلطان عبد الحميد إلى حركة تركيا الفتاة حيث كان واحداً من أبرز أعضائها ، وبعد استيلاء الحركة على السلطة عام ١٩٠٨ انتُخب نائباً في البرلمان التركي كما ترأس اللجنة الرباعية التي تولت مهمة إبلاغ السلطان عبد الحميد بقرار خلعه . وفي عام ١٩١٢ كان عضواً في اللجنة البرلمانية التي تولت إجراء مفاوضات السلام مع إيطاليا . وخلال الحرب العالمية الأولى، لعب قاراصو دوراً سياسياً مهماً في إستنبول ، ومُنح مقابل خدماته حق تصدير السلع التركية إلى ألمانيا ، الأمر الذي مكَّنه من جمع ثروة ضخمة . ومع وصول كمال أتاتورك إلى الحكم عام ١٩٢٣ ، فقد قاراصو مكانته ، ويُقال إنه لعب دوراً مهماً في مساعدة الاحتلال الإيطالي نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا واضطُر نتيجة خيانته للدولة التركية إلى أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية حيث عاش في فقر وعزلة حتى وفاته .

ويمكن ملاحظة ما يلي :

١ ـ أن قاراصو لم يكن يهودياً حاخامياً ، وإنما كان من يهود الدونمه وهم جماعة خارجة على اليهودية ، ولا يعتبرها الحاخاميون يهوداً ، كما أن معظم أعضاء الجماعة اليهودية الذين لعبوا دوراً نشطاً في حركة كمال أتاتورك كانوا من يهود الدونمه .

٢ ـ أن قاراصو فقد حظوته لدى كمال أتاتورك ، ثم مات فقيراً ، وهذا ما يُهمَل ذكره في كثير من الدراسات ، حتى يبدو أعضاء الجماعات اليهودية كما لو كانوا المحركين لكل شيء والمسئولين عن سقوط الخلافة العثمانية ، مع أن أسباب سقوطها كانت أسباباً تاريخية مركبة . ومما لا شك فيه أن ثورة الأقليات والجماعات العرْقية والدينية والإثنية على الدولة العثمانية كانت ضمن مركب الأسباب الذي أدَّى إلى سقوطها . ولكن الجماعة اليهودية لم تكن سوى أقلية واحدة ضمن أقليات أخرى أكثر عدداً وفعالية . كما أن موقف أعضاء الجماعات اليهودية من الدولة العثمانية لم يكن موحَّداً ، وإنما انقسموا بين مؤيد ومعارض ، تماماً مثل بقية أعضاء المجتمع العثماني وطبقاته .

هربرت صموئيل (١٨٧٠-١٩٦٣)

Herbert Samuel

سياسي بريطاني يهودي ، وأول مندوب سام بريطاني في فلسطين . وُلد لعائلة يهودية أرثوذكسية تعمل بتجارة الذهب والأعمال المالية (كان أبوه شريكاً في شركة صموئيل ومونتاجو) .

وقد تلقَّى تعليمه في جامعة أكسفورد ، وانضم إلى الحزب الليبرالي ورشح نفسه للانتخابات ونجح (عام ١٩٠٢) . وتدرج صمويل في عدد من الوظائف إلى أن أصبح وزيراً في الوزارة البريطانية ، وكان بذلك أول إنجليزي يهودي يشغل مثل هذا المنصب .

بدأ صمويل اهتمامه بالأمور اليهودية حين عيَّنته الحكومة البريطانية في بعثة خاصة لتقصي أحوال يهود اليديشية الذين كانوا يتوافدون على إنجلترا بأعداد متزايدة . كما دخل في نقاش على صفحات الجرائد مع السفير الروسي في إنجلترا بشأن تهمة الدم التي وُجِّهت لليهودي الروسي منديل بليس . وقد اهتم صمويل بالشئون الاجتماعية وكان مسئولاً عن إصدار قانون تعويض العمال ، كما كان مسئولاً عن إصدار ميثاق للأطفال .

كان صمويل ، باعتباره يهودياً مندمجاً ، يرى أن الحل الصهيوني حل غير عملي وضد مصالح اليهود ، ولذا كان مشهوراً بعدائه للصهيونية . ولكن ، مع ظهور تلك البوادر التي دلت على أن الدولة العثمانية ستُهزَم ، اكتشف صمويل ، شأنه شأن جميع الصهاينة اليهود غير اليهود ، إمكانية حل المسألة اليهودية عن طريق توطين اليهود في إطار الدولة الوظيفية التابعة للغرب ، وهو تَغيُّر في موقف صمويل لم يتوقعه أو يلحظه وايزمان . ولذا ، حين اقترح لويد جورج على وايزمان (بعد عودته من سويسرا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى) أن يجتمع بصمويل ، رفض وايزمان ذلك ظناً منه أن صمويل لا يزال معادياً للصهيونية ، ولكنه اضطر إلى أن يقبل على مضض ليفاجأ بأن صمويل يؤيد المشروع الصهيوني . بل والأدهى من ذلك أنه حينما تَقدَّم إليه وايزمان بالمطالب الصهيونية ، أخبره صمويل بأنها مطالب متواضعة للغاية وأن عليه أن يفكر بشكل أكبر ، وذُهل الزعيم الصهيوني (من شرق أوربا) وقال إنه لو كان مؤمناً بالعقيدة اليهودية لظن أن تَحوُّل صمويل هو إحدى علامات مَقْدم الماشيَّح .

وقد كتب صمويل مذكرة (عام ١٩١٥) مررها على أعضاء الوزارة البريطانية تنطلق من افتراض أن تركيا ستُهزَم ، واقترح فيها إنشاء محمية إنجليزية في فلسطين بعد الحرب وتشجيع الاستيطان اليهودي فيها ، وإعطاء الأولوية للهجرة اليهودية ولبناء مؤسسات استيطانية تساعد في نهاية الأمر على توطين جماعة يهودية يبلغ عددها ثلاثة ملايين تصبح مكتفية ذاتياً إلى أن تشكل دولة ذات سيادة تكون مركزاً لحضارة جديدة وتنظر في الوقت ذاته بعين الاعتبار للمصالح البريطانية في المنطقة . وقد جذبت المذكرة اهتمام لويد جورج ، لكن رئيس الوزراء إسكويث لم يكن متحمساً بقدر كاف .

وحين تولَّى لويد جورج رئاسة الوزارة (التي كانت تضم بلفور) ، قرر تَبنِّي هذا المشروع الذي سُمِّي «وعد بلفور» . وبسبب اهتماماته الاستعمارية ، عُيِّن صمويل أول مندوب سام بريطاني في فلسطين عام ١٩٢٠ (أي بعد وضعها تحت الانتداب) . وفي أغسطس من العام نفسه ، استصدر قانون الهجرة الذي سمح لـ ١٦,٥٠٠ يهودي بدخول فلسطين . ولكن ، بسبب رد الفعل العربي الرافض ، عدلت بريطانيا عن سياستها قليلاً وبدأت تتحرك في إطار مفهوم القوة الاستيعابية للبلد . ولكن ، ومع هذا ، زاد عدد السكان اليهود في الفترة ١٩١٨ ـ ١٩٢٥ من ١٠٥ آلاف إلى ١١٨ ألفاً . وقد ساعد صمويل النشاط الاستيطاني الصهيوني على مستويات أخرى عديدة من بينها الاعتراف بالمؤسسات السياسية الصهيونية في فلسطين والاعتراف باللغة العبرية كإحدى اللغات المحلية في فلسطين . وقد زاد عدد المستوطنات الصهيونية في عهده من ٤٤ إلى ١٠٠ مستوطنة .

وقد استمر اهتمامه بالمُستوطَن الصهيوني بعد تركه منصبه ، فكان رئيساً لشركة فلسطين للكهرباء ، ورئيساً للجامعة العبرية . وقد هاجم صمويل الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ ، كما هاجم سياسة بيفين المعادية للصهيونية .

وكان هربرت صمويل زعيماً للحزب الليبرالي في مجلس اللوردات بين عامي ١٩٢٤ و١٩٥٥ ، وله مؤلفات عديدة في الفلسفة الليبرالية .

وصمويل نموذج جيد للصهيوني اليهودي غير اليهودي الذي لا تختلف رؤيته لليهود عن رؤية أي منتم للحضارة الغربية ، فهو لا يهتم بالإثنية اليهودية ولا بالمصالح اليهودية ولا بالتاريخ اليهودي ولا بالعقيدة اليهودية : إنه يهودي مندمج تماماً يود الحفاظ على وضعه . ولكنه ، شأنه شأن أي سياسي غربي ، كان ينظر إلى اليهود من الخارج ويراهم كمادة بشرية نافعة يمكن أن تُوظَّف لصالح الحضارة الغربية .

ويبدو أن قطاعات من أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين وخارجها صنفت صمويل باعتباره أول حاكم يهودي لفلسطين منذ سقوط الهيكل . وهذا التصنيف لا يأخذ في اعتباره التكوين الثقافي أو السياسي لدى صمويل ولا الإطار الذي تم فيه تقليده منصبه . فقد كان صمويل ، في واقع الأمر ، مندوب الإمبراطورية البريطانية لدى اليهود ، وليس مندوب اليهود لدى الإمبراطورية البريطانية .

ليون بلوم (١٨٧٢-١٩٥٠)

Leon Blum

رجل دولة وكاتب فرنسي ، كان أول يهودي واشتراكي فرنسي يتولى رئاسة وزراء فرنسا . وُلد لعائلة يهودية تجارية ثرية في باريس ، ودرس القانون في جامعة السوربون ونجح في تحقيق مكانة مرموقة كرجل قانون حيث عُيِّن في مجلس الدولة عام ١٨٩٥ ووصل إلى أعلى المناصب فيه . كما كان يُعَدُّ ، وهو مازال في الثانية والعشرين من عمره ، من الكتاب والأدباء الفرنسيين اللامعين في تلك الفترة . وقد كتب عدة مؤلفات من بينها كتابه **في الزواج** (١٩٠٧) الذي أثار ضجة واسعة بسبب آرائه الجريئة حول الزواج وحقوق المرأة .

وقد تأثر بلوم بقضية دريفوس واشترك عام ١٨٩٦ في الحملة من أجل إطلاق سراحه . وكانت هذه القضية من العوامل التي دفعته إلى العمل السياسي حيث انضم عام ١٨٩٨ إلى الحزب الاشتراكي وساهم في جريدته **لومانيتيه** ككاتب وناقد أدبي . وقد أصبح بلوم بعد الحرب العالمية الأولى من الزعماء البارزين للحزب ، وانتُخب في البرلمان الفرنسي عام ١٩١٩ . وعمل بلوم على إعادة بناء الحزب بعد انشقاق العناصر الشيوعية عنه في عام ١٩٢٠ ، ويُعتبَر بذلك أحد المؤسسين الرئيسيين للحزب الاشتراكي الفرنسي الحديث . وقد أعيد انتخابه في البرلمان عامي ١٩٢٤ و١٩٢٩ . ونجح عام ١٩٣٦ في أن يصبح رئيساً لوزراء فرنسا بعد أن نجحت جبهة واسعة من الأحزاب اليسارية في الانتخابات . وقد أدخلت حكومته بعض الإصلاحات الاجتماعية الواسعة واتخذت إجراءات تأميمية في قطاعي المال والتجارة . وقد اتُّهم بلوم من جانب قوى اليسار الفرنسي بمهادنة دول المحور بسبب تَبنِّيه سياسة عدم التدخل في الحرب الأهلية الإسبانية ، كما واجه معارضة شديدة من رجال الصناعة بسبب إصلاحاته الاجتماعية والعمالية . وقد اضطُر بلوم عام ١٩٣٧ إلى الاستقالة من منصبه وعمل نائباً لرئيس الوزراء في حكومة الجبهة الشعبية ثم رئيساً للوزراء مرة أخرى عام ١٩٣٨ .

وقد أُلقي القبض عليه بعد سقوط فرنسا في أيدي الألمان عام ١٩٤٠ ، وظل في معسكر اعتقال ألماني حتى عام ١٩٤٥ . ولكنه عاد إلى فرنسا في العام نفسه ، وشكَّل عام ١٩٤٦ حكومة انتقالية اشتراكية ظلت في الحكم شهراً واحداً فقط . وابتعد بلوم بعد ذلك عن الحياة العامة فيما عدا فترة قصيرة (عام ١٩٤٨) عمل خلالها نائباً لرئيس الوزراء . ويُعتبَر بلوم من أبرز الشخصيات في الحركة العمالية الفرنسية ومن مؤسسي الدولية الاشتراكية خلال الفترة بين الحربين العالميتين .

وقد كان بلوم من مؤسِّسي اللجنة الاشتراكية من أجل فلسطين عام ١٩٢٨ ، وقَبِل دعوة وايزمان للانضمام إلى الوكالة اليهودية كممثل ليهود فرنسا ، ولعب بلوم دوراً مهماً في التأثير على تصويت الحكومة الفرنسية في الأمم المتحدة والمؤيد لقرار تقسيم فلسطين . ولا يمكن تفسير سلوك بلوم في إطار المصالح اليهودية الخالصة أو النفوذ اليهودي ، فباستثناء بعض التفاصيل اليهودية الهامشية في حياته ، نجد أن حياته السياسية وتوجهاته الفكرية لا تختلف عن حياة وتوجهات أي سياسي اشتراكي فرنسي آخر .

بيير منديس فرانس (١٩٠٧-١٩٨٢)

Pierre Mendes-France

رجل دولة فرنسي وُلد في باريس لعائلة يهودية من المارانو ، وتلقى تعليماً فرنسياً علمانياً . فدرس القانون في جامعة السوربون حيث كتب رسالته الجامعية عام ١٩٢٨ ، ووجَّه فيها انتقادات حادة للسياسات المالية للحكومة آنذاك ، وطالب باقتصاد أكثر عدلاً وبدور أكبر للدولة . وحظيت الدراسة باهتمام واسع بين رجال القانون والاقتصاد والسياسة في فرنسا كما نالت إعجاب الأحزاب اليسارية الفرنسية ، وأصبح منديس فرانس من المستشارين الماليين للحزب الراديكالي . واتسم فكره بالعقلانية الشديدة وبابتعاده عن أية تصورات مثالية ، كما تأثر بالفكر الاقتصادي لكينز . وقد انتُخب منديس فرانس عام ١٩٣٢ ليكون أصغر نائب في البرلمان الفرنسي ، وأُعيد انتخابه مرة أخرى في عام ١٩٣٦ . وعمل فرانس في حكومة الجبهة الوطنية تحت رئاسة ليون بلوم عام ١٩٣٨ نائباً لوزير الخزانة حيث عمل على تطبيق سياساته الاقتصادية .

وبعد سقوط فرنسا في أيدي الألمان عام ١٩٤٠ ، رحل منديس فرانس إلى المغرب حيث حاول تنظيم المعارضة ضد حكومة فيشي ، ولكن تم إلقاء القبض عليه وترحيله إلى فرنسا حيث نجح في الفرار عام ١٩٤١ إلى إنجلترا ، وانضم إلى حركة الفرنسيين الأحرار تحت قيادة ديجول الذي عينه فيما بعد في منصب المندوب المالي للجزائر . وقد تولى منديس فرانس منصب وزير الشئون الاقتصادية في الحكومة المؤقتة بين عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥ ، إلا أنه استقال بسبب الخلافات حول السياسات الاقتصادية . وعُيِّن عام ١٩٤٦ في منصب المدير الفرنسي للبنك الدولي للإنشاء والتعمير . وفي عام ١٩٥٤ ، نجح منديس فرانس في الوصول إلى رئاسة الوزراء وعمل

من خلال هذا المنصب على إنهاء الوجود الفرنسي في الهند الصينية بعد هزيمة قوات الاستعمار الفرنسي أمام قوى التحرر الوطني في المنطقة . ثم قدَّم استقالته عام ١٩٥٥ إثر فشل سياسته الخاصة بمنح الاستقلال للمغرب وتونس . وعاد منديس فرانس مرة أخرى وزيراً بلا وزارة في حكومة الجبهة الجمهورية عام ١٩٥٦ ، إلا أنه استقال بعد عدة أشهر بسبب خلافه مع رئيس الوزراء حول السياسة الفرنسية بشأن الجزائر إذ كان يرى ضرورة الاستمرار في ضم الجزائر إلى فرنسا .

وقد ظل منديس فرانس شخصية مهمة في السياسة الفرنسية ، كما كان من المؤيدين للصهيونية وإسرائيل . وقد أيَّد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، ولكن موقفه هذا كان ينبع في المقام الأول من كونه سياسياً فرنسياً حريصاً على حماية المصالح الفرنسية والغربية في فترة اتسمت بانحسار الاستعمار ونمو قوى التحرر الوطني في بلاد آسيا وأفريقيا والعالم العربي . وقد كان منديس فرانس من المؤيدين لفتح الحوار بين العرب وإسرائيل في الفترة ١٩٦٨ - ١٩٧٣ .

برونو كرايسكي (١٩١١-١٩٩٠)

Bruno Kreisky

رجل دولة نمساوي وأول يهودي يتولى منصب مستشار النمسا . وُلد في فيينا وكان والده تاجر منسوجات ثرياً . انضم كرايسكي في سن مبكرة إلى الحزب الاشتراكي . وعندما مُنع الحزب من مزاولة نشاطه عام ١٩٣٤ ، اشترك كرايسكي في نشاطه السري وتم إلقاء القبض عليه عام ١٩٣٥ وحُكم عليه بالسجن ستة عشر شهراً . وفي عام ١٩٣٨ ، تَخرَّج في جامعة فيينا . وبعد أن قامت ألمانيا النازية بضم النمسا إليها ، طُرد كرايسكي واستقر في السويد حيث عمل كمراسل أجنبي . ومع نهاية الحرب ، التحق بالسلك الدبلوماسي النمساوي واشتغل في سفارة بلاده في السويد . وفي عام ١٩٥١ ، عاد إلى النمسا حيث عُيِّن مساعداً للرئيس النمساوي الاشتراكي ، ثم أصبح عام ١٩٥٣ وكيل وزارة الخارجية ولعب دوراً أساسياً في المفاوضات التي جرت مع الاتحاد السوفيتي والتي أُبرمَت بمقتضاها معاهدة النمسا عام ١٩٥٥ والتي أعطت النمسا استقلالها مقابل تعهدها بالحياد الدائم . ومنذ عام ١٩٥٩ ، وحتى عام ١٩٦٦ ، أصبح كرايسكي وزيراً للخارجية . وفي عام ١٩٦٧ ، اختير رئيساً للحزب الاشتراكي وزعيماً للمعارضة ، فقاد حزبه للحكم عام ١٩٧٠ وتولى منصب مستشار النمسا . وقد حققت النمسا في ظل حكمه قدراً كبيراً من الرخاء الاقتصادي ، كما لعب دوراً متميِّزاً في السياسة الدولية ، خصوصاً في علاقة الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

كتب كرايسكي كتابه **النمسا بين الشرق والغرب** (١٩٦٨) ، الذي اتهم فيه إسرائيل باحتكار تعاطف الأحزاب الاشتراكية وتأييدها بسبب عقدة الذنب تجاه اليهود بعد الإبادة النازية ، وبيَّن أن الوقت قد حان لتتخلص هذه الأحزاب من هذا الاحتكار الإسرائيلي وهذا الإحساس بالذنب . كما حثّ كرايسكي أوربا على ضرورة القيام باتصالات مع العالم العربي لتحقيق حل سلمي للشرق الأوسط . ورفض كرايسكي مفهوم الأمة اليهودية الواحدة ، فاليهودية بالنسبة له عقيدة وليست انتماءً عرْقياً .

وقد لعب كرايسكي أيضاً دوراً بارزاً في قضايا الشرق الأوسط يتسم بقدر من التوازن ، وهو ما جعله هدفاً لانتقادات حادة من جانب إسرائيل . ففي عام ١٩٧٣ قَبِل كرايسكي مطالب مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين الذين استولوا على قطار نمساوي يحمل عدداً من اليهود السوفييت المهاجرين إلى إسرائيل وطالبوا بوقف الهجرة اليهودية المارة عبر فيينا إلى إسرائيل . وقد أثار ذلك غضب إسرائيل ووصفت جولدا مائير كرايسكي بأنه يهودي كاره لنفسه . وفي عام ١٩٨٠ ، كان كرايسكي أول زعيم غربي يلتقي بياسر عرفات ويمنح منظمة التحرير الفلسطينية اعترافاً دبلوماسياً على أرض الواقع (دي فاكتو) . كما عمل على تخفيف موقف الدولية الاشتراكية (المتحيِّز) لإسرائيل وعلى تبنيها موقفاً أكثر حياداً . وفي الوقت نفسه ، حثّ منظمة التحرير الفلسطينية على الاعتراف بوجود إسرائيل نظير اعتراف إسرائيل بحق الفلسطينيين في دولة مستقلة ، أي أن الحل الذي اقترحه هو الاعتراف المُتبادَل بين الدولتين على أساس قرار ٢٤٢ . كما ساهم كرايسكي عدة مرات في بعض المفاوضات التي جرت من وراء الكواليس للإفراج عن الرهائن والأسرى الإسرائيليين لدى بعض المجموعات الفدائية الفلسطينية .

وقد استقال كرايسكي من منصب المستشارية ثم من رئاسة الحزب الاشتراكي عام ١٩٨٣ بعد أن فشل حزبه في الحصول على أغلبية مطلقة في الانتخابات .

هنري كيسنجر (١٩٢٣-)

Henry Kissinger

عالم سياسة أمريكي ، وأول أمريكي يهودي يتولى منصب وزير الخارجية الأمريكية ، وكذلك أول أمريكي غير أمريكي المولد

يتولى هذا المنصب . وُلد في مقاطعة بافاريا في ألمانيا ، وقضى صباه في ظل الحكم النازي حيث طُرد مع أخيه من المدارس الحكومية ، كما طُرد والده من وظيفته كمعلم . وفي عام ١٩٣٨ ، رحل كيسنجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة حيث استقروا في نيويورك . وجُنِّد في الجيش الأمريكي عام ١٩٤٣ ثم عمل في المخابرات حتى عام ١٩٤٦ ، وخدم في ألمانيا كمترجم وكمدرس في المدرسة الأوربية لقيادة المخابرات .

وبعد الحرب ، درس في هارفارد ثم انضم إلى هيئة التدريس وتدرَّج في السلم الأكاديمي حتى حصل على درجة الأستاذية عام ١٩٦٢ . واكتسب كيسنجر مكانة مهمة كمفكر مختص في شئون الدفاع والأمن القومي وكتب عدة كتب مهمة في هذا المجال . وعمل كيسنجر مستشاراً لعدة رؤساء أمريكيين (أيزنهاور ، وكنيدي ، وجونسون) . وفي عام ١٩٦٨ ، عمل بصفة دائمة في شئون الرئاسة الأمريكية . وحين عمل مستشاراً للرئيس نيكسون للأمن القومي ، اتسمت علاقتهما بقدر كبير من التفاهم وأتاح نيكسون لكيسنجر مساحة كبيرة من حرية العمل . وقد اكتسب كيسنجر سمعة عالمية من خلال تمهيده للزيارتين التاريخيتين التي قام بهما الرئيس الأمريكي نيكسون إلى الصين والاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٢ ، وتدشينه سياسة الوفاق الدولي مع الاتحاد السوفيتي وتوَصُّله لمعاهدة الحد من الأسلحة الإستراتيجية الأولى (سولت) عام ١٩٧٢ .

ومع انتهاء حرب فيتنام ، وجَّه كيسنجر اهتمامه نحو الشرق الأوسط حيث كانت الإدارة الأمريكية تسعى إلى الحد من النفوذ السوفيتي في المنطقة وتقليصه في نهاية الأمر من خلال خلق وجود أمريكي متزايد في العالم العربي وضمان استمرار تدفق النفط العربي إلى الغرب . وبالفعل ، لعب كيسنجر دوراً بارزاً في ترتيب وقف إطلاق النار في أثناء حرب ١٩٧٣ ، ثم في عقد مفاوضات بين الجانبين العربي والإسرائيلي ، وأخيراً في إعادة العلاقات الدبلوماسية مع مصر ، الأمر الذي مهَّد بالفعل لتزايد الوجود الأمريكي بالمنطقة وتزايد دور أمريكا في قضية الشرق الأوسط وما انتهى إليه من معاهدة صلح بين مصر وإسرائيل .

وقد مُنح كيسنجر عام ١٩٧٣ جائزة نوبل للسلام ، كما عُيِّن في العام نفسه وزيراً للخارجية الأمريكية . ومع مجيء الرئيس كارتر إلى الحكم ، انتهى عمله بهذا المنصب . وقد تولى كيسنجر بعد ذلك، مواقع مرموقة في المؤسسات الأكاديمية والمالية والتجارية الأمريكية ، فعمل أستاذاً في جامعة جورج تاون ، وعُيِّن نائباً لرئيس اللجنة الاستشارية الدولية لبنك تشيز مانهاتن ، كما عمل مستشاراً للشئون العالمية لشركة إن . بي . سي . NBC وفي مؤسسة جولدمان ساخس للمال والسمسرة لتقديم المشورة حول تأثير التطورات السياسية الدولية على الشئون الاقتصادية والمالية للشركة وعملائها .

وفي عام ١٩٨٣ اختاره الرئيس الأمريكي ريجان لرئاسة اللجنة الخاصة بشئون أمريكا اللاتينية المنوط بها مهمة تقييم السياسة الخارجية الأمريكية في هذه المنطقة .

ويتمحور فكر كيسنجر الإستراتيجي حول مفهوم النظام الدولي الشرعي والمستقر . فالاستقرار يصنع السلام (وليس العكس) وهو لا يتحقق إلا بوجود شرعية دولية تقبلها الأطراف الأساسية في النظام الدولي . والشرعية والاستقرار لا يتحققان إلا من خلال أداتين لا انفصال بينهما هما الدبلوماسية والقوة المسلحة . وهذا النظام لا ينفي الصراع تماماً بل يخفضه إلى نوع من التنافس والتوتر المحكوم بإطار مقبول من الترتيبات والقواعد حول السلوك والأهداف والوسائل المسموح بها . والمعضلة الأساسية بالنسبة لكيسنجر هي كيفية الحفاظ على النظام الشرعي المستقر في ظل عصر الأسلحة النووية وفي مواجهة النظم الثورية التي ترفض الإطار القائم وتشكل مصدراً للصراعات التي تعيق (في نظره) التطور ، ومن هنا كان اقتراحه القائل بتَبَنِّي إستراتيجية تعتمد على التزاوج بين الدبلوماسية والمفاوضات من جهة ، والحرب المحدودة من جهة أخرى .

وقد كانت القضية الأساسية التي شغلت كيسنجر وحدَّدت مواقفه من القضايا الدولية كافة هي قضية العلاقة بين القوتين الأعظم والتوازن الدقيق بينهما . فأية مشكلة تمس هذا الميزان ، وتهدد المصالح الأمريكية والغربية ، كانت تثير اهتمامه وتَحرُّكه السريع ، مثل مشكلة الأمن الأوربي وحرب فيتنام وأزمة الشرق الأوسط بخاصة بعد حرب ١٩٧٣ ، في حين نجد أن اهتمامه يتراجع بمشاكل أخرى لا تمس هذا التوازن مثل غزو تركيا لقبرص عسكرياً عام ١٩٧٤ وتحديها لليونان ، رغم أن كلتا الدولتين عضو في حلف ناتو ، وكذلك إهماله التام لأفريقيا وعدم اهتمامه بقضاياها إلا بعد دخول الاتحاد السوفيتي طرفاً في حرب تحرير أنجولا ، فعندئذ جاء تَحرُّكه السريع لغلق الباب الأفريقي أمام السوفييت . وإلى جانب تَحدِّي الكتلة الشرقية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي كان كيسنجر يرى أن حركات التحرر الوطني والنظم الثورية الوطنية في العالم الثالث تشكل تحدياً آخر للولايات المتحدة والمعسكر الغربي ؛ فهي تنزع نحو فرض نظام عالمي جديد يتسم بقدر أكبر من المساواة ،

وترى القوة الأمريكية المالية نوعاً من الاستعمار الجديد ومن ثم كان اقترابها أكثر من الاتحاد السوفيتي وتأثير ذلك على العلاقات والتوازن بين القوتين الأعظم . وهو يرى إمكانية احتواء هذه النظم الثورية "بالغواية والتخويف وكذلك ضربها بالحروب المحدودة حتى بغير اشتراك الولايات المتحدة . وعلى الولايات المتحدة أن تتأكد أنه يوجد لها في كل منطقة من العالم الثالث سوط مستعد في كل لحظة لأن يهوي على أي ظهر يحاول أن يرفع رأسه بعد حد معيَّن" .

ومحاولة اكتشاف البُعد اليهودي في تفكير كيسنجر أمر لا طائل من ورائه ، فطريقة تفكيره وأولوياته وإدراكه لمصالح العالم الغربي وإدارته للأزمات الدولية (سواء في الشرق الأوسط أو غيرها من المناطق) هي جزء لا يتجزأ من التفكير الإستراتيجي العام في الغرب بمنطلقاته الصراعية الداروينية والتي تعود إلى عصر النهضة ، وفلسفة الدولة . وهو تفكير يسعى إلى حماية أمن الغرب والدفاع عن مصالحه من خلال استخدام كل أشكال القوة (من ضغط سياسي إلى نشاط استخباري إلى انقلابات عسكرية مُدبَّرة إلى استخدام القوة العسكرية بشكل مباشر) . وفي داخل هذا الإطار يرى كيسنجر أن الولايات المتحدة هي زعيمة العالم الغربي ويرى أن لمصالحها أسبقية على مصالح الدول الأخرى وضمن ذلك الدول الغربية واليابان . ومن هنا اهتمامه بالبترول العربي فهو أداة ضغط أساسية على الدول "الحليفة" التي تعتمد على البترول المستورد . وما يُحدِّد موقف كيسنجر من إسرائيل ليس يهوديته أو رغبته في الدفاع عن المصالح اليهودية أو زيادة النفوذ اليهودي أو حماية الدولة اليهودية ، وإنما حرصه على أن تكون إسرائيل حليفاً إستراتيجياً للولايات المتحدة وسوطاً رادعاً في يدها . ومن ثم لا يمكن تفسير مواقف كيسنجر السياسية على أساس يهوديته ، كما يفعل بعض المحللين العرب .

المال اليهودي

Jewish Money

«المال اليهودي» عبارة تتواتر في الأدبيات المُتداولة عن أعضاء الجماعات اليهودية ، وهي عبارة تفترض وجود ثروة (ضخمة) يمتلكها اليهود ويوظفونها بالطريقة التي تروق لهم . ولعل أساس العبارة هو دور اليهود كجماعة وظيفية تجارية تمتلك رأسمال توظفه في التجارة البدائية والربا ويدر عليها ربحاً (كان النبيل الإقطاعي يستولي على معظمه) . ونظراً لوجود هذا الرأسمال خارج العملية الإنتاجية الزراعية ، فقد بدا كما لو كان مستقلاً . أما في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، فقد تَركَّز أعضاء الجماعات اليهودية في قطاعات اقتصادية بعينها ، فكان يبدو كما لو كان اليهود عنصراً مستقلاً .

ويذهب البعض إلى أن هذا المال اليهودي هو سر قوة اليهود ، فهم يوظفونه في شراء النفوذ وفي ممارسة السلطة وفي تخريب الضمائر وإفساد العباد . وهذه أيضاً تهمة لها جذورها ، فأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يشترون المواثيق والحماية والمزايا من الملك أو الأمير ، كما أنهم تركزوا في كثير من القطاعات المشينة في المجتمعات الحديثة (البغاء - المجلات الإباحية) .

وكما هو واضح ، فإن ثمة أساساً موضوعياً أو مادياً لكل التهم، ومع ذلك يظل الواقع أكثر تركيباً من التهم الاختزالية البسيطة ومن الواقع المادي المباشر . فالمال اليهودي في المجتمع الإقطاعي كان بالفعل في قبضة أعضاء الجماعات اليهودية ، ولكنهم هم أنفسهم كانوا في قبضة الأمير الإقطاعي ، وكانت المواثيق الممنوحة لهم تتحدث عن تبعيتهم للأمير تبعية المملوك للمالك . وكانت بعض المواثيق تشير إلى هذا بشكل مجازي ، بينما كان البعض الآخر يشير إليه بشكل حرفي .

والمال اليهودي في العصر الحديث لا يختلف كثيراً عن المال اليهودي في العصور الوسطى في الغرب . فرأس المال اليهودي يتحرك حسب حركة رأس المال المحلي الذي يتحرك بدوره حسب حركة رأس المال العالمي . ولعله بعد عمليات التدويل المختلفة التي خاضها العالم ، وظهور النظام العالمي الجديد والشركات متعددة الجنسيات ، زادت تبعية المال اليهودي وتناقصت مقدرة الرأسمالي من أعضاء الجماعات اليهودية على التحكم في رأس ماله .

وكل هذا لا ينفي ما يلي :

١ ـ أن هناك رقعة من الحرية للرأسمال اليهودي يتحرك فيها ، خصوصاً إذا تماثلت الظروف .

٢ ـ أن كثيراً من القرارات السياسية التي اتخذها غير اليهود كانت تَصدُر عن الإيمان بوجود هذا المال اليهودي ، ومن ثم أخذه صانع القرار في الحسبان وهو يتخذ قراره ، أي أن المال اليهودي (في هذه الحالة) عنصر مؤثر تأثيراً لا يتناسب بتاتاً مع قوته الفعلية .

النفوذ اليهودي والصهيوني

Jewish and Zionist Influence

انظر : «اللوبي اليهودي والصهيوني (أو جماعات الضغط الصهيونية)» - «الصوت اليهودي» .

العجز اليهودي (بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة)
Jewish Powerlessness

«العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة» عبارة ظهرت مؤخراً في الأدبيات الصهيونية وغيرها ، وهي عبارة تحاول أن تفسر المسألة اليهودية على أنها تتلخص في افتقار اليهود إلى السيادة القومية وعدم مشاركتهم في صنع القرار . وتعود هذه الحالة (حسب التصور الصهيوني) إلى عام ٧٠م عندما قام تيتوس بهدم الهيكل رمز السيادة القومية وأصبح اليهود جماعات مشتتة ليست لها سيادة قومية مستقلة ، يوجد أعضاؤها خارج نطاق مؤسسات صنع القرار بعيداً عن أية سلطة ، وبالتالي أصبحوا غير متحكمين في مصيرهم .

ويستند هذا النموذج التفسيري إلى عدة افتراضات اختزالية من بينها تَصوُّر أن العبرانيين القدامى والعبرانيين اليهود ، أي اليهود حتى عام ٧٠م ، كانوا يمارسون سيادة قومية كاملة . وهذا أمر مشكوك فيه . فلقد كان العبرانيون ـ حسب ما وصلنا من معلومات ـ أقناناً أو عبيداً أو قبائل رحلاً . وبعد التسلل العبراني في كنعان ، ظل العبرانيون جيوباً متفرقة لا تمتلك كثيراً من السيادة القومية . والاستثناء الوحيد من هذه الصورة العامة هو حكم كلٍّ من داود وسليمان (المملكة العبرانية المتحدة) الذي لم يدم أكثر من أربعين عاماً بسبب الغياب المؤقت للقوى العظمى في الشرق الأدنى القديم . ثم ظهرت الدويلتان العبرانيتان اللتان كانتا تتبعان في سياستهما إما آشور وبابل أو مصر أو آرام دمشق . وقد دام حكم الحشمونيين فترة قصيرة لا تزيد على مائة عام ، بدأت بتوقيع معاهدة مع روما (القوة العظمى الصاعدة) وانتهت بتَدخُّل بومبي في تعيين الملك الحشموني .

ويفترض هذا النموذج التفسيري أيضاً وحدة المصير اليهودي ووحدة أعضاء الجماعات . وهذا أمر يتناقض تماماً مع الحقائق التاريخية ، فقد كان مصير كل جماعة يهودية يتحدد بآليات وحركيات التشكيل الحضاري والسياسي الذي تواجدت داخله .

ويُنكر هذا النموذج التفسيري أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا في كثير من الفترات ، شأنهم شأن أعضاء الجماعات الدينية والإثنية الأخرى ، يشاركون في السلطة من خلال المؤسسات التقليدية للحكم . فالمجتمعات التقليدية كان لها نظامها الخاص في تقسيم السلطة بحيث تسيطر السلطة الحاكمة على الجيش والسياسة الدولية . أما الشئون الأخرى ، وضمنها الأمن الداخلي ، فكان تسييرها يتم عن طريق مؤسسات الإدارة الذاتية .

ثم يفترض هذا النموذج التفسيري وجود إدارة وسيادة يهودية مستقلة ، وهو افتراض خاطئ تماماً . ففي العصر الحديث ، يشارك أعضاء الجماعات ، منفردين أو مجتمعين ، في السلطة وفي صنع القرار من خلال مؤسسات الدولة الحديثة (البرلمانات والأحزاب السياسية) . فعلى سبيل المثال ، يُعدُّ تعيين هنري كيسنجر وزيراً للخارجية الأمريكية ، وهو من أهم المناصب السياسية في العصر الحديث ، تعبيراً عن هذا الشكل من أشكال المشاركة في السلطة . وبالمثل فإن اللوبي الصهيوني شكل آخر لهذه المشاركة ؛ حيث يشكل بعض أعضاء الجماعة اليهودية قوة ضغط داخل الكونجرس الأمريكي تقوم بممارسة الضغط لصالح الدولة الصهيونية . وهذه هي إحدى الآليات الأساسية للنظام السياسي الديموقراطي في الغرب .

وسيجد الدارس المدقق لهذا النموذج التفسيري أن المفكرين الصهاينة ، ومعظمهم من أصول إشكنازية شرق أوربية ، حين يتحدثون عن العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة ، إنما يفكرون في تجربة أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا ابتداءً من العصور الوسطى حتى بداية القرن الحالي . ولذا ، فإن المقولة تحمل شيئاً من الصحة إن تَحدَّد مجالها الدلالي على هذا النحو .

ومن المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى في الغرب ، كانوا تجاراً ومرابين وأقنان بلاط وأرندا ويهود بلاط ، وكلها أشكال مختلفة من أنماط الجماعة الوظيفية ، وكانوا كذلك قريبين دائماً من الحاكم ملتصقين به ، كما كانوا يشكلون أدواته الطيعة في عملية الاستغلال وامتصاص فائض القيمة من الجماهير . ولكنهم ، مع هذا ، لم يشاركوا في صنع القرار ، فقد كانوا منبتي الصلة بالجماهير وتعوزهم القوة العسكرية ، وهذا ما جعلهم في حالة عجز واعتماد كامل على الحاكم الذي كانت ثقته بهم تتزايد لأنهم لا يشكلون أية خطورة عليه بسبب عجزهم عن الاستيلاء على السلطة أو لعدم وجود أساس من القوة يؤهلهم للمطالبة بنصيب فيها .

وقد طرحت الصهيونية نفسها على أنها الحركة التي ستحل هذه الإشكالية وتضع نهاية لعجز اليهود وعدم مشاركتهم في السلطة عن طريق تأسيس دولة يهودية مستقلة ذات سيادة . وذلك على اعتبار أنه ، مهما تكن مشاركة أعضاء الجماعات في صنع القرار ، فإن هذا القرار يظل في النهاية غير يهودي ، ويظل اليهودي بالتالي مهدداً في أية لحظة بسحب البساط من تحت قدميه . وفي هذا المقام ، يُشار دائماً إلى ألمانيا النازية حيث كان كثير من يهود ألمانيا يشغلون ، حتى ظهور النازية (عام ١٩٣٣) ، مناصب حكومية وسياسية قيادية . وينسى الصهاينة أن النظام السياسي الألماني لم يَحرم أعضاء

الجماعات اليهودية وحدهم من المشاركة في السلطة ، فقد حَرَم قطاعات كبيرة من الشعب الألماني والشعوب الأخرى التي سيطرت عليها القوات الألمانية من أية سلطة أو إرادة مستقلة .

والأهم من ذلك كله أن الاستعمار الصهيوني كان استعماراً عميلاً منذ بداية الاستيطان ، كما أن شرعيته لم تكن تستند إلى قوة اليهود أو إلى حركة جماهيرية وإنما استندت إلى وعد أصدرته القوة الإمبراطورية الصاعدة في الشرق وإلى الضمانات العسكرية التي قدَّمتها ، أي أن النمط الذي ساد أوربا حتى القرن التاسع عشر ، داخل التشكيل السياسي الغربي ، عاد وأكد نفسه بحيث أصبح المستوطنون الصهاينة عنصراً قريباً من القوة الإمبريالية الحاكمة لصيقاً بها ، ولكن القرار الخاص بالسياسة الاستعمارية الدولية ظل من اختصاص الحاكم الإمبريالي ، أي أن الصهاينة أسسوا في نهاية الأمر دولة وظيفية ليست لها إرادة مستقلة ؛ بل وعاجزة عن البقاء والحركة بدون الدعم الإمبريالي .

لكن الدولة ، بعد إنشائها ، تمتعت بشيء من الاستقلال النسبي نتيجة تَصارُع القوى الإمبريالية فيما بينها على مناطق النفوذ في الشرق الأوسط . ومع صعود قوة الولايات المتحدة وتزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على الدعم الأمريكي ، تناقص الاستقلال اليهودي وتضاءل تحكم الإسرائيليين في مصيرهم ، وأصبحت المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية تتخذ قراراتها وعيونها على الممول الموجود في واشنطن . ومن المتوقع أن يزداد هذا الاتجاه مع تزايد الرفض العربي للمُستوطَن الصهيوني .

وقد وجدت إشكالية العجز طريقها إلى التفكير الديني اليهودي ، فيذهب ريتشارد روبنشتاين إلى أن اليهودية الحاخامية قد ولَّدت لدى اليهود استعداداً كامناً للاستسلام والخنوع والخضوع والعجز . ولا يمكن تفسير تعاون المجالس اليهودية في أوربا مع القوات النازية واشتراكها في تسليم اليهود إلى النازي إلا بالتراث الحاخامي الذي يجعل من العجز والسلبية فضيلة . أما إرفنج جرينبرج ، فقد ساهم في تطوير ما يُسمَّى «لاهوت البقاء» الذي يجعل الحصول على السيادة هدف التاريخ اليهودي الزمني والمقدَّس، ويجعل دستور إسرائيل كتاب إسرائيل المقدَّس ، ويجعل دولة إسرائيل التجسد الحقيقي لهدف التاريخ اليهودي (تيلوس) .

وتجدر ملاحظة أن مصطلح «عجز اليهود» يُستخدَم في الكتابات الدينية ، وخصوصاً الأرثوذكسية ، للإشارة إلى أن اليهود شعب مختار ذو صلة خاصة بالإله ، وأن هذه العلاقة الخاصة تجعله يقف خارج التاريخ ليشهد على الأمم ، ولذا فإنه لابد أن يظل خارج نطاق السلطة والسيادة . والمصطلح ، في هذا السياق ، لا يحمل أية تضمينات قدحية ، بل العكس هو الصحيح إذ أن العجز هنا يصبح علامة من علامات الاختيار .



٣
إشكالية العبقرية والجريمة اليهودية

العبقرية اليهودية ـ العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية ـ بروز اليهود وتَميُّزهم ـ الجريمة اليهودية ـ المجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية ـ عتاة المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث ـ عباقرة ومجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية ـ بنيامين التطيلي ـ داهية الكاهنة ـ ابن نغريلة ـ لوبيز ـ أوبنهايمر ـ بريير ـ صنوع ـ هوديني ـ أينشتاين ـ لانسكي ـ ترير ـ كوستلر ـ كرايزر ـ ماكسويل

العبقرية اليهودية
The Jewish Genius

كلمة «عبقرية» تعني مجموعة من السمات الخاصة لا تفترض بالضرورة تَميُّزاً أو علواً مثلما نقول «عبقرية المكان» حيث لكل مكان عبقريته الخاصة ، أو «عبقرية اللغة الإنجليزية» حيث لكل لغة عبقريتها الخاصة . وحينما تُستخدَم العبارة بهذا المعنى في الكتابات الصهيونية (أو غيرها) كأن يُقال «العبقرية اليهودية» ، فهي تشير عادةً إلى «الخصوصية اليهودية» (انظر : «الخصوصية اليهودية») . ولكن هذا الاستعمال نادر ، والاستعمال الشائع هو أن تشير كلمة «عبقرية» إلى درجة من درجات التَميُّز إلى جانب الخصوصية . وعبارة «العبقرية اليهودية» تفترض وجود عبقرية يهودية مستقلة ، وأن العباقرة اليهود يتمتعون باستقلال عما حولهم ، وأن وجودهم مؤشر على تَميُّز اليهود ككل ، ولذا نجد حديثاً مستفيضاً عن فضل العباقرة اليهود على الحضارة الإنسانية وعن زيادة عددهم بالنسبة للعباقرة من الشعوب والأقليات الأخرى .

لكن الحديث عن «العبقرية اليهودية» لا يختلف بنيوياً ، في واقع الأمر ، عن حديث المعادين لليهود عن «الجريمة اليهودية» أو عن «عبقرية اليهود المتأصلة في ارتكاب الموبقات والسرقة والفساد» . فالحديث عن العبقرية اليهودية ، تماماً مثل الحديث عن الجريمة اليهودية ، يَصدُر عن تَصوُّر أن اليهودي «يهودي» وحسب أو يهودي بالدرجة الأولى ثم أمريكي أو روسي بالدرجة الثانية أو الثالثة ، وأن ما يحدد سلوكه (عبقريته في الخير والشر) هو البُعد اليهودي في وجدانه ورؤيته . كما يتفق الصهاينة والمعادون لليهود على اختزال اليهودي وتجريده من أي سياق اجتماعي أو تاريخي أو إنساني وعلى وضعه على هامش التاريخ أو خارجه ، حيث يقف ليساهم فيه بعبقرية فذة ، أو يحاول تخريبه بكل ما أوتي من قوة ودهاء وحيلة وعبقرية إجرامية .

ولو نظرنا إلى العباقرة اليهود ، بعد أن نضعهم في سياقهم التاريخي المتعيِّن ، سنكتشف على الفور أن مقولة «العبقرية اليهودية» لا تملك مقدرة تفسيرية عالية . وسيظهر قصورها التفسيري حينما نسأل عن تلك السمات "اليهودية المشتركة" بين عباقرة مثل فيلون (الفيلسوف الذي عاش في العصر الهيليني) ، وشعراء العرب اليهود (في الجاهلية) ، وموسى بن ميمون (المفكر الديني اليهودي الذي عاش في العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر) ، وفرويد (المفكر النمساوي اليهودي الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر) ، وشاجال (الفنان التشكيلي الذي عاش معظم حياته في النصف الأول من القرن العشرين) ، وبرنارد مالامود (الروائي الأمريكي الذي عاش في النصف الثاني من القرن العشرين) . والإجابة الوحيدة هي أن مثل هذه السمات المشتركة غير موجودة . وإن اكتشف أحد عناصر يهودية مشتركة بين كل هؤلاء العباقرة ، فإن تصنيفهم على أنهم يهود بالدرجة الأولى لا يفيد كثيراً في فَهْم فكرهم أو طبيعة مساهمتهم في التراث الإنساني . فيهوديتهم المشتركة ليست ذات مقدرة تفسيرية أو تصنيفية عالية ، ولابد لنا أن نعود إلى التقاليد الحضارية والظروف التاريخية التي شكلت فكر ووجدان كل واحد منهم حتى يتسنى لنا الإحاطة بها . فموسى بن ميمون كاتب عربي أندلسي كان يؤمن باليهودية وتفاعَل مع التراث العربي الإسلامي . ومن خلال هذا التفاعُل نضجت عبقريته العربية ، ولم تكن اليهودية سوى أحد العناصر في تكوين هذه العبقرية (وحتى هذه اليهودية كانت قد اصطبغت بصبغة إسلامية) . وقصص برنارد مالامود تنتمي إلى التراث الأدبي الأمريكي لأن كاتب هذه القصص تأثر بتقاليد هذا الأدب وأتقن اللغة الإنجليزية الأمريكية وكتب روايات أمريكية تعالج موضوعات أمريكية يهودية . وحين صرح شاجال ذات مرة لمجلة تايم بأنه غير مهتم باليهودية ، قامت الدنيا ولم تَقعُد ، وأرسل كثير من القراء برسائل احتجاج أوضحوا فيها تأثُّر شاجال باليهودية

الحسيدية . وقد يكون هذا أمراً صحيحاً ، ولكن شاجال يظل نتاج الحركات الفنية في أوربا في القرن العشرين ، وبخاصة في روسيا وفرنسا . وقد تكون لبعض لوحاته نكهة حسيدية ، خصوصاً أنها تعالج موضوعات يهودية مثل التوراة والحاخام ، ولكنها تظل مع هذا لوحات رسمها فنان روسي فرنسي متأثر وبعمق بالتراث المسيحي !

وإذا ما تركنا مجال الفنون والإنسانيات ، يصبح الحديث عن العبقرية اليهودية عبثاً وهراء لا طائل من ورائه . فبأي معنى يمكننا أن نقول إن نظرية النسبية قد تَوصَّل إليها أينشتاين من خلال عبقريته اليهودية ، وكأن أينشتاين كان من الممكن أن يصل إلى ما وصل إليه من اكتشافات باهرة دون جهود من سبقه من علماء مسيحيين وبوذيين ؟ وهل كان من الممكن أن يصل إلى ما وصل إليه من اكتشافات دون وجوده داخل الحضارة الغربية الحديثة ؟ وإلا فبماذا نفسر عدم ظهور علماء طبيعة متفوقين تَفوُّق أينشتاين بين يهود الفلاشاه الإثيوبيين ؟

ويُلاحَظ أن نسبة المتعلمين والمخترعين بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي مرتفعة . ولكن هذا أمر طبيعي وينطبق على كل أعضاء الأقليات في أي مكان حينما تتاح أمامهم الفرصة . لكن أعضاء الأقلية يخضعون ، مع ذلك ، في معظم الأحيان إن لم يكن كلها ، لدرجة تَقدُّم وتَخلُّف المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه ، فإن تَقدَّم تَقدَّموا وإن تخلف صاروا متخلفين . ولذا لم يكن هناك عباقرة يهود بين العرب إبَّان فترات الانحلال في الحضارة العربية حين أُغلقَت فيها الحلقات الفقهية والمدارس التلمودية العليا في العراق بسبب انتكاس الحضارة العربية ، بينما ازدهر الفكر العربي اليهودي في الأندلس بسبب ازدهارها .

وحتى لو رصدنا العبقرية اليهودية بشكل مطلق ، كما يفعل الصهاينة ، فإننا سنكتشف أن العبرانيين وأعضاء الجماعات اليهودية، لم يلعبوا دوراً كبيراً في خلق الحضارة الإنسانية . فحينما ظهر العبرانيون على مسرح التاريخ منذ عام ١٢٠٠ ق . م . رعاةً رُحَّلاً ، كانت الإمبراطورية الفرعونية في مصر قد شيدت مئات المعابد والأهرامات والسدود ، وكان الفن المعماري وعلوم الفلك المصريان قد وصلا إلى قمم شامخة . وحينما تأسست المملكة العبرانية المُوحَّدة على يدي داود وسليمان ، لم تكن هذه المملكة سوى مملكة صغيرة ازدهرت في غياب القوى الإمبراطورية العظمى في الشرق الأدنى القديم ، واعتمدت حضارياً على الدول والأقوام المجاورة اعتماداً كاملاً . أما في مجال الأدب والفن والفكر ، فلا توجد أية مساهمة حقيقية من جانب العبرانيين في تراث العالم القديم ، ولا نسمع عن عباقرة يهود في فن الهندسة المعمارية (على سبيل المثال) . ولا يأتي ذكر اليهود في الكتابات اليونانية أو الرومانية إلا بوصفهم شحاذين ومصدر ضيق لكُتَّاب مثل شيشرون . وإذا نظرنا إلى الحضارة العربية إبَّان فترة نهضتها ، فإننا نجد أن دور اليهود كان مقصوراً بالدرجة الأولى على الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية . وقد دفعهم اضطلاعهم بوظيفة الجماعة الوظيفية الوسيطة التي يعمل أعضاؤها بالتجارة الدولية في العالم القديم إلى معرفة العديد من اللغات ، كما جعلهم ناقلين لحضارات الآخرين . ولم يكن يوجد شاعر كبير أو مفكر فلسفي عربي مشهور يعتنق اليهودية ، فكنت ترى بينهم الأطباء والصيادلة والتجار حيث ظلوا مرتبطين بالإنتاج اليومي المادي ، ولكن لم يُوجَد بينهم الفنانون أو المفكرون . وبعد أن انتقل مركز الحضارة إلى الغرب ، ظل الأمر على ما كان عليه . ففي شرق أوربا ، التي كانت تضم غالبية يهود العالم (يهود اليديشية) ، ظلت الجماعات اليهودية غارقة حتى أذنيها في التأملات القبَّالية . وكانت الحياة العقلية في الجيتو منفصلة عن العالم الخارجي ، هذا في الوقت الذي كانت أوربا تعيش عصر نهضتها . ولذا لا نجد في أدب وحضارة العصور الوسطى أو عصر النهضة مفكراً أو رساماً أو أديباً يهودياً واحداً شهيراً . بل إن المفكرين اليهود الذين ظهروا خلال هذه الفترات الطويلة ، مثل الحاخام عقيبا أو راشي أو موسى بن ميمون ، كانوا مهتمين بأمور دينية يهودية ذات أهمية إنسانية محدودة . كما نعرف أنهم كانوا بلا ثقل يُذكَر داخل مجتمعاتهم ، فموسى بن ميمون لم يكن معروفاً باعتباره مفكراً دينياً ، وإنما باعتباره طبيباً ومؤلف كتب في الطب وحسب . وما من شك في أن اقتصار نشاط اليهود على نشاطات إنسانية معيَّنة دون غيرها أمر طبيعي للغاية من أقلية تلعب دور الجماعة الوظيفية الوسيطة المنعزلة اقتصادياً ووجدانياً بسبب وظيفتها .

ونحن لا نسمع عن العباقرة اليهود إلا مع بدايات ظهور الرأسمالية والعلمانية . وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن إسبينوزا ، أول فيلسوف يهودي غربي في العصر الحديث ، ظهر في هولندا مهد الرأسمالية الحديثة . ومما له دلالة بالمثل ظهور إسبينوزا من بين اليهود السفارد المتمتعين بمستوى حضاري مرتفع بسبب احتكاكهم بالحضارة الإسلامية ، على عكس اليهود الإشكناز الذين تَدنَّى وضعُهم الحضاري داخل الحضارة المسيحية . وقد كان إسبينوزا أيضاً من أوائل المفكرين العلمانيين الذين طرحوا انتماءهم اليهودي جانباً ، فلم يكن إبداعه وبروزه نتيجة انتمائه اليهودي ، وإنما تم هذا الإبداع وذلك البروز رغماً عن هذا الانتماء وبسبب رفضه (وذلك مع عدم

إنكار أن التراث اليهودي القبَّالي لعب دوراً مهماً في تحديد معالم فكره أو في تأكيد الواحدية المادية الكونية والاتساق الهندسي عنده واللذين يشكلان جوهر نسقه الفلسفي) .

العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية

Geniuses from the Jewish Communities

ظل العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية يساهمون في بناء الحضارة الأوربية باعتبارهم أوربيين علمانيين أولاً وأخيراً ، أي أن يهودية العبقري لم تكن العنصر الأساسي في إسهامه . وقد زادت هذه المساهمة بازدياد انتشار القيم الليبرالية ثم الثورية في الغرب والشرق ، إذ أن هذه القيم فتحت المجال أمام أعضاء الجماعات اليهودية .

ونحن لا نُنكر أثر البُعد اليهودي في تكوين العبقري اليهودي ، فأثر القبَّالاه اللوريانية واضح تماماً على تفكير إسبينوزا وفرويد وجاك دريدا فيلسوف التفكيكية . كما نرى أن للمدرسة التفكيكية (في النقد والفلسفة) علاقة قوية بمدارس التفسير الدينية اليهودية ، وأن اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تحوي داخلها عناصر كثيرة متناقضة (بعضها عبثي وبعضها عدمي أو غنوصي) تتيح للعبقري اليهودي استعداداً كامناً (أكثر من غيره) لاكتشاف مثل هذه التيارات في المجتمع والتعبير عنها بطريقة مباشرة . كما أن البُعد الحلولي الكموني القوي في اليهودية ولَّد استعداداً كامناً قوياً لدى أعضاء الجماعات اليهودية لتَقبُّل المنظومة العلمانية (وهي منظومة حلولية كمونية) . ولكن يجب أن نشير أيضاً إلى أن البُعد اليهودي ذاته هو نتاج تفاعل اليهود مع ما حولهم من حضارات ، فالغنوصية هي حركة سادت الشرق الأدنى القديم وتأثرت بها اليهودية . كما أن العبقري اليهودي قد يكون لديه استعداد كامن لاكتشاف شيء ما ، لكن هذا الشيء سيظل جزءاً من تشكيل حضاري غير يهودي ، بمعنى أن الحركيات النهائية هي حركيات الحضارة التي يعيش فيها اليهودي . فمهما كان علم فرويد مثلاً بتراث القبَّالاه ، لا يمكن تَخيُّل أن بوسعه التوصل إلى نظرياته وهو في اليمن (التي يعرف حاخاماتها القبَّالاه اللوريانية بطريقة تفوق فرويد وحاخامات أوربا في عصره) . ففرويد هو نتاج مجتمع فيينا في أواخر القرن التاسع عشر بكل ما كان يحويه من إبداع وانحلال وتركيب وتَخثُّر .

ويُلاحَظ أن بعض المؤلفين والرسامين اليهود في الحضارة الغربية بدأوا ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، في تناول مضامين يهودية في أدبهم وفنهم . ولكن مثل هؤلاء لا يختلفون البتة عن المؤلفين غير اليهود الذين يتناولون مضامين يهودية ، ذلك أن طريقة التناول ـ بكل مزاياها وعيوبها ـ تظل جزءاً من التشكيل الحضاري الغربي . إن سول بيلو وفيليب روث ـ وكلاهما كاتب أمريكي يهودي ـ يتناولان شخصيات أمريكية يهودية ، إلا أن أدبهما لا يمكن أن يُصنَّف أدباً يهودياً ، وعبقريتهما لا تُصنَّف كعبقرية يهودية إذ يظل هذا الأدب أدباً أمريكياً مكتوباً بالإنجليزية ، ينتمي إلى التراث الأدبي الأمريكي ولا يمكن فهمه خارج هذا التراث ، وتظل عبقريتهما نتاج تفاعلهما مع محيطهما الحضاري . وهما في هذا لا يختلفان عن جيمس جويس في رواية **يوليسيس** حينما جعل أحد أبطال روايته يهودياً ، ومع هذا لم يصنفها أحد باعتبارها من عيون الأدب اليهودي ، شأنها في هذا شأن رائعة شكسبير **تاجر البندقية** .

وفيما يتصل بالعبقريات التي تنتجها إسرائيل ، فإن الأمر يتوقف على جنسية العبقري ، فإن كان هذا العبقري إسرائيلياً فهو تعبير عن العبقرية الإسرائيلية ، أما إذا كان من أصل روسي أو ألماني فهو عبقري روسي أو ألماني ، أي أن العبقرية اليهودية تظل مقولة مجردة لا وجود لها إلا بين صفحات الكتب الصهيونية أو المعادية لليهود . وبدلاً من ذلك ، يتعيَّن علينا أن نتحدث عن «عباقرة يؤمنون بالدين اليهودي» ، أو عن «عباقرة ذوي بعد إثني يهودي» ، وينتمون إلى الحضارات الإنسانية المختلفة في مختلف الأماكن والأزمان .

ومن الأمور الجديرة بالدراسة نسبة العباقرة بين الإسرائيليين ومدى اختلافها عن مثيلتها بين الدول التي حققت معدلات التحديث والتصنيع والتقدم التكنولوجي والعلمي نفسها . وكل المؤشرات تدل على أنها غير مختلفة على الإطلاق ، وإن كان الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة .

بروز اليهود وتميزهم

Jewish Eminence and Distinctiveness

جاء في المعاجم العربية «تميَّز الشيء» بمعنى «بدا فضله وانفصل عن غيره» ، و«برز بروزاً» بمعنى «فاق الآخرين في فضل أو علم» ، و«برَّز الشيء» معناها «أظهره وبيَّنه» . ومن الموضوعات الأساسية التي تتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود ، موضوع «بروز أعضاء الجماعات اليهودية وتَميُّزهم» في كثير من مجالات النشاط والمعرفة الإنسانيتين بنسبة تفوق بمراحل نسبتهم إلى عدد السكان في المجتمعات التي يعيشون في كنفها . ودارس تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية سيجد قرائن على كلٍّ من البروز الإيجابي والتميز

في الخير والإبداع ، والبروز المشين والتميز في الشر والهدم والإجرام. أما البروز الإيجابي ، فعليه من الأدلة الكثير ، مثل : كثرة عدد العباقرة والمهنيين بين أعضاء الجماعات اليهودية ، ونسبة التعليم المرتفعة بينهم ، وارتفاع دخولهم . أما البروز المشين ، فهناك أيضاً مؤشرات كثيرة عليه ، مثل : اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالربا عبر العصور الوسطى في الغرب بل واحتكار هذه المهنة في بعض المناطق ، واشتغالهم بتجارة الرقيق في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ثم اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية في القرن التاسع عشر ، بتقطير الخمور والاتجار فيها ، وتهريب البضائع والرقيق الأبيض ، وبكثير من الأعمال الطفيلية غير المنتجة .

ويُلاحَظ أن أي مؤشر على بروزهم الإيجابي قد يُعدُّ مؤشراً على بروزهم المشين ، فالثراء (وهو عادةً مؤشر على حركية الإنسان وذكائه) يُعتبَر من منظور آخر دليلاً على عدم الانتماء وعلى الرغبة في الثروة وفي مراكمتها دون أية تحفظات أخلاقية . كما أن التميُّز الوظيفي لليهود هو أيضاً من علامات البروز الإيجابي والمشين ، بل إن الجيتو ذاته كان علامة من علامات البروز ، إذ كان اليهود يسعون للحصول على إذن بإقامته والإقامة فيه ليتمتعوا داخله بالمزايا الممنوحة للجماعة اليهودية والمقصورة عليهم وليعزلهم عن بقية السكان الأمر الذي يُسِّر لهم إدارة مؤسساتهم الدينية والقضائية والتربوية الخاصة . ولكن الجيتو أصبح بالتدريج هو المكان الذي يتعيَّن عليهم البقاء فيه ، وهكذا تحوَّل من ميزة إلى قيد .

ويذهب كثير من الدارسين إلى أن بروز بعض أعضاء الجماعات اليهودية من أهم الأسباب التي تجلب عليهم عداء أعضاء الأغلبية من غير اليهود ؛ وهو تعميم متعسف . فقد كان البروز يؤدي أحياناً إلى مثل هذه النتائج ، كما حدث في ألمانيا النازية . ولكن ، في إسبانيا الإسلامية أو أمريكا العلمانية ، لم يؤد البروز والتميز إلى أي عنف أو تمييز ضد أعضاء الجماعة اليهودية . أما في بولندا ، خصوصاً في أوكرانيا التي ضمت من منظور التطورات التاريخية اللاحقة أهم الجماعات اليهودية عبر التاريخ ، فإن بروزهم قد أدَّى دون شك إلى استجلاب السخط عليهم لا بسبب البروز في حد ذاته وإنما بسبب طبيعته ، إذ أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا قريبين من الطبقة الحاكمة عملاء لها ، في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا ، وبذا أصبحوا عنصراً استيطانياً تجارياً يمثل الأرستقراطية البولندية في وسط فلاحي ، وعنصراً يهودياً ينوب عن عنصر كاثوليكي في وسط أرثوذكسي أوكراني ، يتحدثون اليديشية أو البولندية في وسط يتحدث الأوكرانية ، أثرياء في وسط من الفقراء والمعدمين . وقد تَحوَّل أعضاء الجماعة اليهودية إلى أداة يمسك بها النبلاء في وارسو يعتصرون بها الفلاحين . وحينما يكون البروز على المستويات الطبقية والدينية والثقافية ، فإن الانفجار الشعبي يكون ساحقاً ماحقاً ، وهذا ما حدث مع انتفاضة شميلنكي .

وقد يتشابك التَميُّز المشين مع التَميُّز الإيجابي ، فمع نهاية القرن التاسع عشر كان يهود البلاد الغربية قد حققوا صعوداً طبقياً ومكانة اجتماعية عالية وهو ما يعني تَميُّزاً يهودياً إيجابياً . ثم وصل يهود اليديشية ، وكانوا متخلفين فقراء تتفشى بينهم الأمراض الاجتماعية المختلفة كما تَفشَّى التعصب الديني ، وكان هذا يعني تَميُّزاً يهودياً مشيناً ، وحدث تَشابُك بين الجماعتين أدَّى إلى إحساس المجموعة الأولى بالحرج ثم إلى فَزَعها . ومن هنا فقد كان من أهداف الصهيونية أن تُبقي ليهود الغرب تميزهم الإيجابي ، وأن تُريحهم من يهود اليديشية بتَميُّزهم المشين عن طريق توطينهم في فلسطين .

ويحاول الصهاينة تفسير بروز وتَميُّز بعض أعضاء الجماعات اليهودية على أساس طبيعة اليهود والخصوصية اليهودية والجوهر اليهودي والعبقرية اليهودية ، وهو منطق خطر للغاية لأن البروز والتميُّز اليهودي الإيجابي إن فُسِّر على أساس الطبيعة اليهودية ، فلابد من تفسير البروز والتميز المشين على الأساس نفسه أيضاً . وهذا ما لا يحجم عنه أعداء اليهود بل وبعض الصهاينة (خصوصاً العماليين) .

ويُلاحَظ أن اليهودي الذي يحقق اندماجاً في مجتمعه ويسلك سلوك الآخرين ، لا يرصد أحد سلوكه باعتباره سلوكاً عادياً . ولكن حينما ينخرط بعض أعضاء الجماعات اليهودية في أنشطة مشينة أو متطرفة كأن يصبحوا أعضاء في جماعات ثورية أو ماسونية أو يحققوا قدراً عالياً من الثراء ، فإن أعداء اليهود يتجاهلون اليهود العاديين والفقراء ويتناسون العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية ويرصدون بعناية فائقة الأنشطة المشينة وحدها . وحينما يحقق البعض الآخر من أعضاء الجماعات اليهودية بروزاً إيجابياً ، فإن الصهاينة يؤكدون ذلك ويستبعدون كلاً من اليهود العاديين وهؤلاء الذين حققوا بروزاً مشيناً. وربما إذا أخضعت الظاهرة للدراسة الإحصائية المتأنية لاكتشفنا أن بروز اليهود في الخير والشر إنما هو خاضع لآليات اجتماعية ليسوا مسئولين عنها ، وأن نسبة المتطرفين بينهم ، في الخير والشر ، قد لا تختلف كثيراً عن النسبة السائدة في المجتمع ، أو عن النسبة السائدة بين أعضاء الأقليات على وجه العموم في أي مجتمع .

ومما يُظهر عدد اليهود المتميِّزين أكثر من حقيقته أن دارسي الجماعات اليهودية ينظرون إليهم كما لو كانوا يُشكِّلون كلاً واحداً . ومن هذا المنظور ، فإن يهود اليمن والولايات المتحدة والصين وإثيوبيا وجنوب أفريقيا وجنوب أمريكا ، كلهم يهود في نهاية الأمر . ومن هنا ، فإن البحث عن البارزين فيهم داخل أية جماعة يتم دون أية دراسة إحصائية تبيِّن العلاقة بين نسبة هؤلاء البارزين إلى المعدل السائد في كل مجتمع . كما يتجاهل الدارسون أن تَركُّز اليهود في قطاعات وعلوم بعينها يؤدي إلى كثرة البارزين فيها (مهنة الطب والعلوم الطبيعة وعالم التجارة والموسيقى وعلم الاجتماع) . ولكن هذا يعني أيضاً غيابهم عن قطاعات وعلوم أخرى كثيرة أو ندرتهم فيها . كما أنهم يتجاهلون اللحظة التاريخية ، فبروز اليهود في مجتمع ما في لحظة تاريخية معينة لا يعني بالضرورة بروزهم الدائم في كل زمان ومكان .

ويتبنَّى أعداء اليهود منهجاً مماثلاً ، فهم يركزون على اليهود الذين حققوا بروزاً مشيناً في بعض المجتمعات ، وكأن جميع اليهود يُكوِّنون كلاً واحداً ولا يقارنون نسبة اليهود الذين حققوا مثل هذا البروز قياساً إلى المعدل الإحصائي السائد في المجتمع ، كما أنهم يهملون أخيراً اليهود الذين حققوا بروزاً إيجابياً . ونحن نذهب إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية يحققون البروز والتميز داخل الحضارة التي يعيشون في كنفها وبسبب عناصر موجودة داخلها لا على الرغم منها . وتعود معدلات إبداعهم (وإجرامهم) لا إلى التراث اليهودي وإنما إلى العناصر الحضارية والاجتماعية التي تكوِّن محيطهم الحضاري والاجتماعي .

ويمكننا أن نحاول رصد أسباب بروز وتَميُّز أعضاء الجماعات اليهودية ، مقسمين الأسباب إلى قسمين : أسباب عامة تسري على أعضاء معظم الأقليات في العالم ، وأخرى مقصورة على اليهود في الحضارة الغربية الحديثة . ولنبدأ بالأسباب العامة :

١ ـ يتسم أعضاء الأقليات في جميع المجتمعات بشيء من البروز نظراً لاختلافهم في بعض النواحي أو في كثير منها عن أعضاء المجتمع .

٢ ـ يتميَّز أعضاء الأقليات في المجتمعات التقليدية ، بل وأحياناً في المجتمعات الحديثة ، تَميُّزاً وظيفياً إذ يضطلعون بوظائف دون غيرها .

٣ ـ يسكن أعضاء الأقليات في المجتمعات التقليدية في أماكن مقصورة عليهم وهو ما يساعد على هذا البروز ، وقد قطن أعضاء الجماعات اليهودية في الجيتو .

٤ ـ تتسم المجتمعات الغربية بأنها مجتمعات لا تضم أقليات كثيرة ، وذلك على عكس المجتمعات الشرقية الفسيفسائية ، ولذا فإن أقلية تكاد تكون وحيدة مثل الأقلية اليهودية تحقق بروزاً غير عادي .

٥ ـ لا شك في أن من يوجد في المدينة يحقق بروزاً لا يحققه عادةً من يكون في الريف ، وقد تركزت الغالبية الساحقة من يهود العالم الغربي في العصر الحديث في المدن .

٦ ـ ولا شك أيضاً في أن ارتباط أعضاء إحدى الأقليات بالطبقات الحاكمة يساهم في زيادة بروزهم ، وقد ارتبط أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الوسيط في الغرب بالطبقات الحاكمة .

٧ ـ يكون أعضاء الأقليات دائماً واقعين تحت ضغط نفسي يدفعهم إلى إثبات تفوقهم أمام أنفسهم وأمام الآخرين ، ومن ثم فهم يجتهدون في أن يُساهموا في الإبداع الحضاري بدرجة تزيد عن المعدل السائد في المجتمع . ولذا يُلاحَظ في معظم الأحيان أن نسبة المتعلمين والمخترعين (في قطاعات معيَّنة) من بين أعضاء الأقليات مرتفعة نوعاً (ويُلاحَظ الشيء نفسه بالنسبة للإجرام والانحراف) .

٨ ـ عضو الأقلية عادةً ما تكون لديه عقلية نقدية في رؤيته للمجتمع (بسبب عدم إحساسه الكامل بالأمن والاستقرار) ، وهو ينظر لمنظومة المجتمع الدينية والقيمية نظرة شك . وهذه النظرة النقدية الحادة تخلق تربة خصبة للإبداع التفكيكي ، وربما التركيبي أيضاً .

٩ ـ عضو الأقلية يتسم بروح الريادة وبالحركية ، الأمر الذي يجعله سبَّاقاً إلى الخير والشر .

أما بروز أعضاء الجماعات اليهودية وتَميُّزهم داخل الحضارة الغربية على وجه التحديد فيمكن تفسير كثير من جوانبه من خلال مُركَّب من الأسباب والنماذج التفسيرية المترابطة :

١ ـ يُلاحَظ ارتباط تَميُّز أعضاء الجماعات اليهودية بتَصاعُد معدلات العلمنة في المجتمع . وليس من قبيل الصدفة أن أول عبقري يهودي حقق تَميُّزاً وبروزاً لا داخل سياقه اليهودي وإنما داخل سياق الحضارة الغربية ككل هو إسبينوزا ، فيلسوف الحلولية والكمونية . ويمكن القول بأن العباقرة اليهود في الغرب الحديث يحققون التميز والبروز لا بمقدار تعبيرهم عن يهوديتهم وإنما بمقدار تخليهم عنها . ولعل أصدق شاهد على هذا هو إسبينوزا نفسه الذي حقق بروزه وتَميُّزه بمقدار ابتعاده عن اليهودية ، ثم تبعه ماركس وفرويد وأينشتاين وكلهم يهود ملحدون ، أي يهود غير يهود ، تبرأوا من يهوديتهم .

ويمكن القول بأن الجماعات اليهودية في أوربا كانت تُعَدُّ ، مع اندلاع الثورة الفرنسية ، أكثر قطاعات المجتمع تَخلُّفاً وهامشية . إلا أن معظم يهود العالم الغربي كانوا مع انتصاف القرن من أكثر القطاعات علمانية وحداثة . وقد تبعهم وبسرعة يهود اليديشية من

شرق أوربا ، سواء من بقي منهم داخل الاتحاد السوفيتي أو من هاجر منهم إلى الولايات المتحدة .

٢ ـ يُلاحَظ أن علمنة النخب اليهودية (قيادات اليهود الثقافية) تمت بسرعة فائقة وبشكل كامل وجذري ، كما تمت علمنة الجماهير اليهودية بشكل كامل وقاس وفجائي ومخطط من قبَل الدول المطلقة المختلفة (الدولة الفرنسية أو النمساوية أو الروسية) . واستمرت هذه العملية حتى بعد أن حكمت هذه الدول نظم ليبرالية أو ثورية . وقد أدَّى هذا إلى انقطاع واضح بين انتمائهم الديني وتراثهم من ناحية ، ووجودهم في العصر الحديث من الناحية الأخرى ، ولذا فإنهم لم يحتفظوا بقيمهم الدينية التقليدية إلى جانب الرؤية العلمانية التي اكتسبوها . ويُلاحَظ كذلك أنهم لم يحتفظوا بأية رواسب دينية من خلال الرموز العلمانية ذات الأصول المسيحية ، إذ أنهم لا يشتركون أصلاً في هذه الرموز باعتبارهم يهوداً . كما أن غالبية أعضاء الجماعات اليهودية في غرب أوربا وجميع يهود الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية ، عناصر مهاجرة ، وبالتالي فهم عناصر حركية متحررة من القيم والمطلقات تبحث عن الحراك الاجتماعي .

وقد أدَّى كل هذا إلى علمنة اليهود بشكل حاد وبمعدل يفوق معدلات العلمنة بين معظم قطاعات المجتمع الأخرى . ولذا ، أصبح أعضاء الجماعات اليهودية من أكثر العناصر تَحرُّراً من القيم التقليدية وغير التقليدية في المجتمعات الغربية ، وأصبح الإنسان اليهودي في الغرب هو الإنسان الحديث بشكل نماذجي متبلور ، لا انتماء له ولا جذور ، لا يشعر بحرمة أي شيء وينزع القداسة عن الإنسان والعالم . ومن ثم أصبح أعضاء الجماعات اليهودية من أكثر العناصر مقدرة على التحرك في المجتمع العلماني الحديث وأصبح لديهم من الكفاءات اللازمة للتعامل مع المجتمع العلماني الجديد أكثر مما لدى بقية أعضاء هذا المجتمع من المسيحيين أو حتى العلمانيين ذوي الجذور المسيحية ، فاستطاعوا أن يحققوا بروزاً وصعوداً بدرجة تفوق ما يحققه أقرانهم من القطاعات البشرية الأخرى في المجتمع ، ولكنه صعود من يستطيع أن يسبح مع التيار بكل قوة ، لا أن يسبح ضده فيعوقه ويصده .

وقد لاحَظ أحد وزراء داخلية روسيا القيصرية وجود اليهود بأعداد كبيرة في الحركات الثورية ، فبيَّن له أحد الحاخامات أن الشباب اليهودي كان بعيداً كل البعد عن الحركات الثورية والفوضوية حينما كان يتلقى تعليماً دينياً تقليدياً ، وأن هذه الظاهرة لم تَبرُز إلا بعد أن انخرطوا في المدارس العلمانية التي أسسها القياصرة .

٣ ـ ويمكن أن نضيف إلى هذا أن اليهود كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة في المجتمع الغربي لعدة قرون ، فأصبحت سمات الجماعة الوظيفية من سماتهم الأساسية . ويوجد أعضاء هذه الجماعات داخل المجتمع وخارجه في وقت واحد ، فهم على هامشه لا يخضعون لقوانينه ، ولكن عليهم التعامل معه ، ولذا كان عليهم أن يفهموا هذه القوانين ، حيث إن علاقاتهم بالمجتمع علاقات موضوعية غير حميمة ، فهم ينظرون إلى المجتمع بطريقة تحليلية تفكيكية تعاقدية نقدية ، وخصوصاً أنهم من القرب بحيث يمكنهم فهم آلياته ، كما أنهم بعيدون بقدر يُمكِّنهم من الاحتفاظ بالمسافة النقدية . وأعضاء الجماعات الوظيفية هم من أولى القطاعات في المجتمع التي تتم علمنتها وتجريدها من القداسة ، وصبغها بالصبغة الموضوعية . وبالتالي ، فإن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة هم أول من يحمل الفكر العلماني النفعي الدنيوي وينشره ويذيعه .

٤ ـ يُقال إن النزعة المشيحانيّة عند اليهود ، والتي أخذت شكلاً علمانياً عند المثقفين اليهود الغربيين ، تساهم في إضعاف الأواصر التي تربط بين اليهودي وبين المعطيات التاريخية والاجتماعية ، الأمر الذي يجعله أكثر رفضاً للمجتمعات التي يوجد فيها ، وأشد عمقاً في نقده لها ، وأكثر موضوعية . ويُلاحَظ أن المثقفين اليهود من أكثر العناصر تطرفاً في الحركات الثورية والفوضوية والعدمية (تروتسكي ـ روزا لوكسمبورج . . . إلخ) .

٥ ـ ويمكننا هنا أن نحاول تقديم فرضية تلقي بعض الضوء على بروز المثقفين اليهود في الحضارة العلمانية ، وهذه الفرضية تستخدم نموذج الحلولية الكمونية (وتَصاعُد معدلاتها داخل النسق الديني اليهودي وداخل الحضارة الغربية) لتفسير هذا التَميُّز . ويمكن القول أن ثمة تشابها بنيويا شبه كامله بين وحدة الوجود الروحية (لا موجود إلا هو ، أي الإله) ووحدة الوجود المادية (لا موجود إلا هي ، أي المادة) . وهنا ، فإننا نذهب إلى أن بروز المثقفين اليهود في الحضارة الغربية بدأ حينما بدأت هذه الحضارة في تَبنِّي أنساق فكرية حلولية كمونية (البروتستانتية - النزعة الإنسانية الهيومانية - النزعة العقلانية المادية) . فهؤلاء المثقفون اليهود ، بخلفيتهم الحلولية ، وبإنكارهم إمكانية تجاوز المادة كانوا مهيئين بشكل كامل لامتلاك ناصية الخطاب الحضاري العلماني ، ومن ثم تحقيق البروز من خلاله . ولعل الأهمية المركزية لإسبينوزا تتضح من خلال هذا النموذج التحليلي . فهو أول مثقف يهودي حقق بروزاً واضحاً في العصر الحديث ، ويعود هذا إلى أنه ربط بين النسقين الحلوليين ، الروحي والمادي ، وعادل بين الإلهي والطبيعي ، ومن ثم فقد علْمَن الحلولية تماماً وجعلها تصب في الأنساق المادية والعلمية .

٦ ـ يُلاحَظ أيضاً تَركُّز اليهود في حقل الإعلام ، خصوصاً في الصحافة والإذاعة ، وهو ما جعلهم في موقع يُمكِّنهم من تسليط الأضواء على الأنشطة التي يقومون بها وإعطائها من الأهمية ما تستحق وربما أكثر مما تستحق . كما أن اليهود الجدد متمركزون في المدن ، وهي مراكز صنع القرار في كل أنحاء العالم . فضلاً عن أنهم بانتقالهم إلى الضواحي لم يبعدوا كثيراً عن هذه المراكز ، إذ أن معظم أعضاء النخبة في الولايات المتحدة يوجدون في هذه الضواحي . ويمكن أن نضيف أيضاً أن ارتفاع دخل المواطن الأمريكي اليهودي بالنسبة إلى المعدل القومي قد زاد من بروزهم ، وكذلك تمركزهم في بعض المهن البارزة ، مثل الطب والجامعات والمراكز العلمية .

٧ ـ ويجب التأكيد ـ كما أسلفنا ـ على أن بروز المثقفين اليهود في الولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، لا يعود إلى أنهم يهود ، بل إلى أنهم أمريكيون يوجدون داخل الحضارة الغربية ، وهي الحضارة المهيمنة على معظم المصادر الطبيعية في العالم ، والتي نجحت في تأسيس بنيتها التحتية ، وبالتالي بإمكان أي شخص ينتمي إليها أن يُحقِّق كل إمكانياته الفكرية والإبداعية .

كما أن الحضارة الغربية ، بسبب هيمنتها على معظم أرجاء العالم ، تنسب لنفسها صفة العالمية وتسلط عليها الأضواء . والمفكرون البارزون من أعضاء الجماعات اليهودية يتمتعون بهذه المزايا . ولعل ظاهرة العرب من أصل مصري أو لبناني أو فلسطيني وغيرهم (فاروق الباز ـ إدوارد سعيد) ممن يُحقِّقون بروزاً في الحضارة الغربية تُلقي بعض الضوء على الظاهرة نفسها بين أعضاء الجماعات اليهودية . فلو قُدِّر لهؤلاء البقاء في بلادهم فلربما أُجْهِضَت إمكاناتهم بسبب الحدود المادية . وربما حتى لو تحققت إمكاناتهم لما وُصفت بالعالمية ولما سُلطت عليها الأضواء .

هذه هي بعض العناصر التي تَصلُح في مجملها لتفسير معظم جوانب هذه الظاهرة . ومع هذا يجب ألا نَسقُط في الاختزالية والواحدية بألا نعطي أية قدرة تفسيرية للبُعد اليهودي في تَميُّز العباقرة (والمنحرفين) من أعضاء الجماعات اليهودية . وكل ما نفعله هنا هو أننا ننكر على مثل هذا البُعد أية أولوية أو مركزية تفسيرية . فالبُعد اليهودي لا يُفسِّر تَميُّز اليهود وبروزهم ولكنه يُساهم ولا شك في تفسير حدَّته ودرجته ونسبته .

ويمكننا أن نقول إن آليات المجتمع العلماني التي أدَّت إلى بروز اليهود هي ذات الآليات التي قد تؤدي إلى اختفائهم وانصهارهم ، فالمجتمع العلماني يزداد ترشيداً وتطبيعاً ويتطلب من أعضائه كافة أن يُعيدوا صياغة ذاتهم حتى تزداد كفاءتهم في الأداء العام ، وهو ما يعني ضرورة التخلص من كل الخصوصيات والنتوءات . فإنسان عصر الاستنارة والعقل المادي إنسان عالمي لا يتمتع بأية خصوصية . كما أن عملية الدمج في المجتمع العلماني لا تتم من خلال الدمج بين هويات دينية وإثنية مختلفة وإنما تتم من خلال نزع جميع الهويات أو إخفائها أو تهميشها حتى يكتسب الجميع هوية علمانية عامة تُزيد كفاءتهم في الأداء في رقعة الحياة العامة . وبما أن أعضاء الجماعات اليهودية ليسوا استثناء من القاعدة ، فنحن نتنبأ بأن يتزايد اندماجهم وانصهارهم في الغرب إلى أن يختفي بروزهم ويصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الآلة ذات الكفاءة الكبرى .

الجريمة اليهودية

Jewish Crime

«الجريمة اليهودية» مصطلح يفترض وجود جرائم ذات خصوصية يهودية (أي جرائم مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية وتتبع نمطاً بعينه وتأخذ أشكالاً بعينها) . ومن ثم ، فإن يهودية اليهودي هي النموذج الذي يمكن من خلاله تفسير وتصنيف السلوك الإجرامي لبعض أعضاء الجماعات اليهودية . وحيث إننا لم نعثر على مثل هذا النموذج ، فإننا نؤثر استخدام مصطلح «المجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية» باعتبار أن النموذج الكامن وراءه ذو مقدرة تفسيرية وتصنيفية أعلى ، كما أنه ينطوي على دعوة إلى أن يدرس الباحث كل حالة إجرامية يرتكبها عضو من أعضاء الجماعات اليهودية على حدة ، داخل ملابساتها الخاصة وإطارها الحضاري .

ولا يمكننا التحدث عن «الجريمة اليهودية» أو «خصوصية الإجرام اليهودي» تماماً كما لا يمكننا الحديث عن «الجوهر اليهودي» أو عن «التاريخ اليهودي» أو عن «العبقرية اليهودية» ، إذ أن الجماعات اليهودية في العالم لا تعيش تحت ظروف خاصة بها مقصورة عليها . ولذا ، فإننا نجد أن معدلات الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية لا تختلف بشكل جوهري عن المعدل السائد في المجتمع أو بين الأقليات الأخرى في المجتمع . ولذا ، فنحن نتحدث عن «المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية» .

المجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية

Criminal Elements from Jewish Communities

من المعروف أن النسق الأخلاقي الذي تطرحه العقيدة اليهودية (حينما تكون تعبيراً عن الطبقة التوحيدية الكامنة فيها) يشبه ، في

كثير من الوجوه ، الأنساق الأخلاقية التي تطرحها الديانات السماوية . فالقتل والزنى والسرقة والشذوذ الجنسي والجماع مع المحارم ، كلها أمور مُحرَّمة يعاقب عليها القانون الديني . ولتفسير السلوك الإجرامي لأحد أعضاء الجماعات اليهودية ، لابد من العودة لحركيات وقيم المجتمع الذي يعيش فيه هذا اليهودي ، ولابد من دراسة القوانين الاجتماعية والجنائية والظروف الاقتصادية والعناصر الأخرى كافة .

ومع هذا ، يمكن ملاحظة أن بعض الأنماط المتكررة يمكن تفسيرها على أساس أن الجماعات اليهودية تُشكِّل أقليات وجماعات وظيفية ، علماً بأن أعضاء الأقلية يخضعون عادة لحركيات المجتمع ولكنهم يشعرون بها بشكل أكثر حدة ، كما توجد بينهم دوافع وضوابط مختلفة إلى حدٍّ ما عن تلك التي توجد في المجتمع ككل . ولكن ، قبل الاستمرار في الدراسة ، تجب الإشارة إلى أن بعض الأرقام الموجودة لدينا غير موثوق فيها بسبب عنصرية النموذج الإحصائي والتفسيري الذي تم بمقتضاه جمع المادة . كما أصبح العكس صحيحاً الآن ؛ إذ ترفض كثير من الدول الغربية أن تكشف عن الانتماء الديني أو الإثني للمجرم خوفاً من إشاعة صورة عنصرية كريهة عن أعضاء الأقليات . وبعد هذا التحفظ ، يمكن القول بأنه قد لُوحظ ، على سبيل المثال ، أن نسبة الجريمة بين أعضاء الجماعة اليهودية تكون أحياناً أقل من النسبة العامة في المجتمع ، وقد تكون مساوية لها أو أعلى منها ، ولكن لكل وضع تفسيره . ويمكن استخدام الأحكام الصادرة ضد أعضاء الجماعة كمؤشر . ولكننا لن نقدِّم هنا عرضاً لأنماط الجريمة بين العبرانيين وأعضاء الأقليات اليهودية عبر التاريخ وفي مختلف المجتمعات ، ذلك لأن مثل هذا العرض سيشغل حيزاً ضخماً ، إلى جانب أن ما نهدف إليه في هذا المدخل هو أن نُبيِّن مدى الخصوصية أو العمومية في ظاهرة الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية . ولهذا ، فإننا سنركز على العصر الحديث وحسب .

ثمة تباين واضح بين معدل الجريمة بين أعضاء الجماعة اليهودية ومعدلها بين أعضاء مجتمع الأغلبية الذي يعيشون في كنفه ، فمعدلات الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية كانت منخفضة قبل منتصف القرن التاسع عشر ثم أخذت في التزايد بعده إلى أن وصلت إلى معدلات ضخمة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ثم أصبحت معدلات الجريمة بينهم لا تختلف كثيراً عن المعدلات السائدة في المجتمع . ولتفسير هذا التباين ، يمكن القول بأن أعضاء الأقلية يتمتعون عادةً بدرجة أعلى من التماسك العائلي والتضامن الاجتماعي ، وأن هناك مؤسسات دينية واجتماعية (وهي عادةً مقصورة عليهم) تقوم بعملية الرقابة الداخلية والضبط الاجتماعي والأخلاقي . كما أن أعضاء الأقليات يخضعون دائماً لرقابة شديدة من أعضاء الأغلبية ، خصوصاً في فترات التعصب والتمييز العنصري . وهذه الرقابة الخارجية الصارمة من شأنها أن تجعل عضو الأقلية حذراً يراقب سلوكه ولا يُقبل على ارتكاب الجريمة أو التفكير فيها إلا في أضيق الحدود وللضرورة القصوى . ولا شك في أن تَميُّز اليهود مهنياً ووظيفياً كان له دور في ذلك ، وكان هذا يعني المزيد من البروز ومن ثم المزيد من الرقابة .

لكل ما تقدَّم ، نجد أن تزايُد انعتاق أعضاء الجماعات اليهودية واندماجهم يؤدي إلى تَزايُد معدل الجريمة بينهم ، وهذه مفارقة لاحظها أيضاً دارسو وضع المرأة . فكلما ازدادت مساواة المرأة بالرجل ، في الحقوق والواجبات ، زاد معدل الإجرام بين النساء ، فكأن تحرير المرأة يعني أن تصبح مثل الرجل في الخير والشر ، وأن تُتاح أمامها فرص متساوية للخير والشر على حدٍّ سواء . وقد لُوحظ أن معدل الجريمة بين يهود المجر في أوائل القرن العشرين مرتفع عنه بين يهود روسيا مثلاً . ولا يمكن تفسير هذا إلا على أساس أن يهود المجر كانوا أكثر الجماعات اليهودية انعتاقاً واندماجاً . وقد لوحظ أيضاً أن معدل الجريمة بين يهود ألمانيا (الذي كان منخفضاً) تَساوَى تقريباً مع النسبة العامة في المجتمع في الفترة ما بين عامي ١٨٨٢ و١٩١٠ ، وذلك مع تَزايُد اندماج اليهود وازدياد معدل التعليم بينهم وتَحسُّن وضعهم الاقتصادي . وقد لاحَظ ليتشنسكي أن معدل الأحكام الصادرة ضد يهود النمسا من المتعلمين كان يزيد بواقع ٥٠٪ مقارناً بمعدل الأحكام الصادرة ضد يهود جاليشيا الفقراء الجهلاء . أما في هولندا ، فكان معدل الجريمة بين أعضاء الجماعة اليهودية أقل من المعدل على المستوى القومي في عام ١٩٠٢ . ومع تَزايُد انعتاقهم واندماجهم ، أصبح المعدلان متساويين . أما في البلاد العربية ، فيُلاحَظ أن معدل الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية قَلَّ بعد إعلان دولة إسرائيل ، ربما بسبب زيادة الرقابة وتشديد القبضة عليهم .

ولابد أن هناك استثناءات كثيرة من هذا النمط ، ففي الولايات المتحدة يُلاحَظ أن معدل الجريمة بين المهاجرين اليهود يصل أحياناً إلى نصف المعدل على المستوى القومي في الجيل الأول ثم يتزايد بالتدريج مع الجيل الثاني ، ومع الجيل الثالث يقترب معدل الجريمة من المعدل العام . ومن المعروف أن أعضاء الجيل الثالث في الولايات المتحدة من أبناء المهاجرين هم الذين يصلون إلى معدلات عالية من

الاندماج والأمركة بحيث يصبحون أمريكيين مائة في المائة . وهذا النمط ينطبق كذلك على معظم الدول الاستيطانية .

ومع هذا ، توجد ظاهرة عكسية وهي أن معدل الجريمة بين العناصر المهاجرة في قطاعات حرفية أو طبقية معينة قد يكون أعلى من نظيره بين أعضاء المجتمع المضيف . كما أن الجماعات المهاجرة تتخصص في أنواع من الجريمة غير معروفة في المجتمع أو كانت موجودة فيه بشكل جنيني وحسب . ويعود هذا إلى أن العناصر المهاجرة هي دائماً عناصر رائدة ، وأعضاء الأقلية المهاجرة الباحثون عن الحراك الاجتماعي لا يلتزمون بقيم خلقية ولا يشعرون بالولاء نحو المجتمع الجديد ، كما أنهم في العادة شخصيات حركية قادرة على إدراك الثغرات في المجتمع وعلى التسلل منها . وبالفعل ، نجد أن جماعات من المهاجرين اليهود كوَّنوا في الثلاثينيات عصابات جريمة منظمة (مافيا) في نيويورك تمارس نشاطات المافيا المختلفة من ابتزاز وتهريب مخدرات واغتيال نظير أجر والبغاء ، واستمرت في ذلك حتى الخمسينيات . (وقد كُشف النقاب مؤخراً عن أن عصابات الجريمة المنظمة اليهودية قد دعمت الحركة الصهيونية مالياً وسياسياً ، واشتركت في جمع التبرعات لها ، بل واستخدمت نفوذها مع بعض حكام أمريكا اللاتينية المتعاونين مع عصابات الجريمة المنظمة لتهريب السلاح للمستوطنين الصهاينة) .

وقد ظهرت الجريمة المنظمة أيضاً بين المهاجرين اليهود السوفييت والإسرائيليين في الولايات المتحدة ، وتُعَدُّ لوس أنجلوس من أهم مراكزها . ولعل تَفشِّي الجريمة بين المهاجرين السوفييت هو أحد الأسباب التي دعت أمريكا لإغلاق أبوابها أمام المزيد من المهاجرين السوفييت . ومن الطريف أن أعضاء هذه العصابات اليهودية قد تخصصوا في ابتزاز أعضاء الجماعة اليهودية إلى جانب ممارسة النشاطات الإجرامية العادية والعامة . ويبدو أن هذه العصابات بدأت تمارس نشاطها في إسرائيل وفي بعض دول الشرق الأوسط . ومن الظواهر التي يجب تسجيلها أيضاً أن أفراد عصابات المافيا في الولايات المتحدة (وهم من أصل إيطالي في العادة) يستعينون في الغالب بمحامين من بين أعضاء الجماعة اليهودية للدفاع عنهم في جرائمهم ولإدارة أعمالهم المشينة .

وقد فوجئ الصهاينة بأن المهاجرين اليهود قادرون على ارتكاب جميع الجرائم الخطيرة مثل القتل والاغتصاب والسرقة في بلدهم . ولكن هذا يعود دون شك إلى إحساس المستوطنين بأنهم مواطنون يتمتعون بكل الحقوق السياسية والضمانات القانونية ، ومن ثم تخف عمليات الرقابة الخارجية التي كانوا يخضعون لها كأعضاء أقلية .

ومما لا شك فيه أن العقيدة الصهيونية التي تشجع على العنف والاغتصاب تلعب دوراً في استثارة الاستعداد الكامن أو القابلية لدى المستوطنين الصهاينة لارتكاب الجرائم بمعدل يفوق نظيره في المجتمعات الأخرى التي تعيش تحت الظروف نفسها .

وداخل هذه الأنماط العامة ، يمكننا أن نكتشف نمطاً آخر وهو أن وضع أعضاء الأقليات قد يزيد قابليتهم لارتكاب جرائم دون أخرى . فعلى سبيل المثال ، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية يرتكبون الجرائم ضد الملكية وكذلك جرائم القتل بمعدل أقل من المعدل القومي . وربما يعود هذا إلى مستواهم التعليمي المرتفع وقلة استهلاكهم للمواد الكحولية ، وإلى عملية الضبط الاجتماعي التي تمارسها الجماعة مع أعضائها ويمارسها المجتمع مع الجماعة ككل . وعلى أية حال ، فالملاحَظ أن معدل الجرائم التي يرتكبها أعضاء الجماعة يرتفع مع تزايد معدلات الاندماج والعلمنة .

ولكن يُلاحَظ أن ثمة جرائم يزيد معدل ارتكابها بين أعضاء الجماعة عن المعدل العام السائد في المجتمع ، وهي الجرائم التي يتم فيها انتهاك الحرمات والتي تتطلب من صاحبها التخطيط وإعمال العقل وتحقِّق لمرتكبها عائداً سريعاً (أي تتطلب المهارات نفسها التي يتطلبها الاضطلاع بوظائف الجماعة الوظيفية) . ومن هذه الجرائم ما يُسمَّى «جرائم الآداب» . ففي تونس ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يمثلون ١,٧٪ من مجموع السكان ، ومع ذلك كانت نسبة النساء اليهوديات المسجلات في جرائم الآداب تفوق هذه النسبة كثيراً . وكانت نسبة الأحكام الصادرة ضد أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا لارتكاب أعمال غير أخلاقية تفوق كثيراً (مرتين ونصف) نسبة الأحكام الصادرة ضد أعضاء الأغلبية .

ومن الجرائم المماثلة ، جرائم التزييف والغش التجاري . ومن المعروف أن هذه الجرائم انتشرت بين أعضاء الجماعات اليهودية في القرن التاسع عشر في الغرب إلى درجة اضطرت معها الحكومات إلى استصدار تشريعات خاصة . ويبدو أن تَركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في القطاع التجاري من المجتمع التقليدي ساعد على ذلك ، فهو قطاع لم يكن يعرف نظام الضرائب ولم يكن يرتبط بشبكات الرأسمالية الرشيدة من مصارف ووسائل نقل أو غيرها . ولذا ، كان التهرب من الضرائب ، وكذلك تهريب البضائع ، جزءاً عضوياً من مثل هذا النشاط التجاري ، كما أن تَركُّز كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في المناطق الحدودية والمدن شجع على هذا الاتجاه . وقد استمر هذا النمط حتى الوقت الحاضر . ويبدو أن لأعضاء الجماعات اليهودية دوراً ملحوظاً في ترويج المخدرات في الولايات المتحدة ،

كما يوجد عدد لا بأس به من الجواسيس من بين أعضاء الجماعات اليهودية في الدول الغربية .

ويمكن هنا أن نسأل : ما الفعل الإنساني الذي يشكل جريمة؟ فعلى سبيل المثال ، تُعَدُّ الثورة ضد نظام مُستغل عملاً بطولياً من منظور الثوار ، ولكنها تُعَدُّ جريمة ضد أمن الدولة يعاقب عليها القانون من منظور القائمين على النظام . والعكس صحيح ، فدعم نظام مُستغل ظالم جريمة من منظور المدافعين عن العدالة ، ولكنه واجب وطني من منظور القائمين على النظام ، أي أن مسألة المنظور في غاية الأهمية في دراسة الجريمة .

ويمكننا الآن أن نتناول الجرائم المرتبطة بأمن الدولة والنظام العام . ويُلاحَظ أن معدل ارتكاب أعضاء الجماعات اليهودية لمثل هذه الجرائم يتناسب طردياً مع معدل التمييز العنصري ضدهم ، ومن ثم فإن الأحكام الصادرة ضدهم تَصلُح مؤشراً على نوعية المعاملة التي يلقاها أعضاء الجماعات اليهودية وعلى معدل الإعتاق والاندماج . ففي منتصف القرن التاسع عشر ، كان حوالي ٣٠٪ من المسجونين السياسيين في روسيا القيصرية من الشباب اليهودي . وفي عام ١٩٠٧ كان اليهود يشكلون ٤٪ من عدد السكان ، ومع هذا نجد أن ما يزيد على ١٧٪ من الجرائم التي ارتُكبت ضد أمن الدولة والنظام العام ارتكبها أعضاء في الجماعة اليهودية . وفي بولندا (١٩٢٤ ـ ١٩٣٧) ، كان ٤٣,٦٪ من الجرائم التي ارتكبها اليهود جرائم سياسية ، وتنخفض النسبة إلى ٢٥٪ في ألمانيا (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) ، وإلى ٢,٦٪ في هولندا (١٩٣١ ـ ١٩٣٣) . وقد لوحظ إبَّان الستينيات أن عدد الشبان اليهود في الولايات المتحدة الذين يشتركون في المنظمات اليسارية والتظاهرات يبلغ ٣٠٪ ، بينما كانت نسبتهم إلى عدد السكان لا تزيد عن ٢,٥٪ . ولكن هذه النسبة أخذت تتناقص مع زيادة هيمنة الجو المحافظ على يهود الولايات المتحدة .

ويمكن أن ننظر إلى المسألة من جانب آخر ، وهو مدى مساعدة أعضاء الجماعات اليهودية للنظم المستغلة والظالمة ، باعتبار أن ذلك أحد أشكال الجريمة . ففي جنوب أفريقيا ، في عصر التفرقة اللونية ، على سبيل المثال ، كان يُلاحَظ وجود أعضاء الجماعة اليهودية بشكل واضح في المؤسسات الأمنية . ويمكن أن نطرح هنا الدعم اليهودي للدولة الصهيونية باعتباره شكلاً من أشكال الإجرام . بل إن زيارة إسرائيل للسياحة ، وهي شكل من أشكال الدعم الاقتصادي والمعنوي لها ، تشكل دعماً للاستعمار الاستيطاني الذي استولى على أرض فلسطين ، ومن ثم يمكن تصنيفها على أنها عمل إجرامي .

ويمكن النظر إلى الإجهاض أيضاً باعتباره قضية أخلاقية ، فهو قد يكون (كما يرى البعض) حقاً مشروعاً للمرأة (إذا نظرنا إليها كفرد وحسب لا كأم وكائن اجتماعي) ، وقد يكون جريمة يعاقب عليها القانون (إن أُخذ البُعد الاجتماعي والأخلاقي في الاعتبار) . ويُلاحَظ هنا وجود عدد كبير من الأطباء اليهود بين أولئك الذين يجرون عمليات الإجهاض في الولايات المتحدة وفي غيرها من البلاد .

ولابد أن ارتكاب أعضاء الجماعة اليهودية جرائم الغش التجاري والآداب ، وهي جرائم بارزة تمس حياة الجماهير الشعبية مباشرة ، كان له أكبر الأثر في تغذية الأنماط الإدراكية السلبية التي تستند إليها أدبيات معاداة اليهود . ومما يجدر ذكره أن الأدبيات الصهيونية ، بتأكيدها خصوصية اليهود ، تَقبَل (نظرياً على الأقل) إمكانية أن تعبِّر هذه الخصوصية عن نفسها من خلال الجريمة اليهودية . ولابد أن نضيف هنا أيضاً أن الصهاينة يرون أن الشخصية اليهودية تصبح شخصية إجرامية مدمرة في المنفى لأنها شخصية مُقتلَعة لا انتماء لها ، ومن هنا فإن المفكرين الصهاينة يحذرون دول العالم من وجود اليهود فيها .

ويبدو أن المؤسسة الصهيونية تقوم في الوقت الحاضر بتصدير الجريمة إلى أنحاء العالم . فالشرطة الإسرائيلية تشجع المجرمين على الهجرة إلى خارج إسرائيل كوسيلة للتخلص منهم ، فيستقرون في كل أنحاء العالم ، خصوصاً في هولندا وألمانيا الغربية حيث يسيطرون على كثير من النشاطات الإجرامية التي من أهمها البغاء . وقد دخلت كلمات عبرية كثيرة على لغة الجريمة في العالم ، خصوصاً لغة القوادين السرية في أوربا . ويُقال إن لغة القوادين في أمستردام هي العبرية ، ولعلها لغة سرية خليط من الهولندية والعبرية . كذلك تُصدِّر إسرائيل مرتزقة إلى الخارج لتدريب قوات تجار المخدرات في كولومبيا أو حرس بعض رؤساء دول أمريكا اللاتينية .

وتوجد الآن مافيا إسرائيلية قوية مركزها لوس أنجلوس ، ولكنها منتشرة في كل أرجاء الولايات المتحدة . وقد بدأت هذه العصابات نشاطها بفرض إتاوات على فقراء اليهود (عادةً من بقايا يهود معسكرات الإبادة) ، ثم دخلت عالم المخدرات وجرائم الغش التجاري . ويبلغ عدد أعضاء قيادة المافيا الإسرائيلية نحو ١٠٠ عضو . وتعقد سلطات الأمن الأمريكية مؤتمراً قومياً كل عام لمناقشة نشاط المافيا الإسرائيلية .

عتاة المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث

Famous Criminals from Jewish Communities in Modern Times

يوجد الكثير من المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية ولا يمكن تفسير تَميُّزهم في الإجرام بناء على يهوديتهم ، ولنبدأ بإدوارد ديفيس (١٨١٦ ـ ١٨٤١) وهو لص أسترالي يهودي وُلد في إنجلترا، وأدين عام ١٨٣٢ بتهمة السرقة وحُكم عليه بالترحيل إلى أستراليا لمدة سبع سنوات . وفي أستراليا ، نجح في الفرار من سجنه عام ١٨٣٩ وكوَّن عصابة من السجناء الهاربين قامت على مدى عامين بالإغارة على المدن الصغيرة والقرى بقطع الطريق على المسافرين ، الأمر الذي أثار الرعب في نفوس الكثيرين . وقد اتخذت هذه العصابة لقب «عصابة الولد اليهودي» . وكان ديفيس يعتبر نفسه «روبين هود أستراليا» ، لأنه كان يسرق من الأغنياء ويعطي الفقراء، كما كان يرفض استخدام العنف إلا دفاعاً عن النفس . وجاءت نهايته بعد أن قتلت عصابته صاحب متجر في إحدى غاراتها ، الأمر الذي دفع السلطات لتكثيف البحث عنه . وقد ألقي القبض عليه ، وعلى عدد آخر من أفراد عصابته عام ١٨٤٠ ، وأدين بتهمة القتل وحُكم عليه بالإعدام .

وديفيس ينتمي إلى نمط من اللصوص يمكن تفسيره من خلال دراسة درجة السخط الشعبي والاستقطاب الطبقي ، فهو ليس مجرماً بالمعنى المألوف وإنما مجرم يسرق من الأغنياء ليعطي الفقراء . ولكن النمط الأكثر شيوعاً هو المجرم المتميِّز من أعضاء الجماعات اليهودية الذي يمكن تفسير سلوكه باستخدام نموذج العلمانية الشاملة والنيتشوية .

ولنبدأ باثنين من أهم المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية وهما رينشارد لويب (١٩٠٥ ـ ١٩٣٦) وفرويتال ليوبولد (١٩٠٤ ـ ١٩٧٥) . كان لويب وليوبولد من خريجي الجامعة ، وكانا أيضاً من أبناء الأسر اليهودية الثرية في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٢٤ ، قررا أن يرتكبا جريمة بلا دافع فقاما باختطاف صبيّ في الرابعة عشرة من عمره ثم قتلاه . وقد حُكم على أحدهما بالسجن مدى الحياة ، وحُكم على الآخر بالسجن لمدة تسعة وتسعين عاماً . وقد قُتل لويب في السجن وأُعفي عن ليوبولد . والجريمة التي ارتكبها لويب وليوبولد ليس لها مضمون يهودي واضح أو كامن ، فدوافع المجرمين ليست إنسانية تقليدية ، فهما لم يكونا مدفوعين بدوافع اقتصادية (فهما من أعضاء الطبقة الثرية في الولايات المتحدة) أو دوافع جنسية (فهما لم يغتصبا الصبي المخطوف) . ولفهم هذه الجريمة ، لابد أن نصنفها على أنها جريمة حديثة تماماً ، فمرتكباها افتقدا المعنى في حياتهما الرتيبة وقررا استرجاع شيء من المعنى عن طريق شكل من أشكال الإثارة الشديدة . وقد وجدا الإثارة في ارتكاب جريمة بلا دافع ، أي أن الأداء الإجرامي الكفء أصبح غاية في ذاته ، فهي جريمة محايدة تتم بلا حب أو كره أو غاية ، وهي جريمة كاملة ، يفترض فيها أنها من الدقة والإحكام بحيث يستحيل اكتشافها (أي أنها نسق مغلق تماماً) ، وكل هذا تعبير عن رغبة الإنسان الحديث في التحكم الإمبريالي الكامل في كل شيء بحيث يصبح الإنسان إلهاً يُحيي ويُميت دون مكافأة أو عقاب . وفي هذا لذة أيما لذة ، فهنا يصبح اللامعنى هو المعنى ، ويصبح العبث هو الغاية ، وتصبح الصورة المجازية الحاكمة الكبرى هي أن الحياة بأسرها إنما هي لعبة أو مباراة وأن ذَبْح الأطفال إنما هو جزء من هذه اللعبة المسلية .

ويمكن أن نشير أيضاً إلى أرنولد روثشتاين (١٨٨٢ ـ ١٩٢٨)، وهو من رواد الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة . وُلد في نيويورك لعائلة يهودية تجارية متوسطة الحال ، واتجه في سن مبكرة إلى القمار ثم المراهنات ، ونجح في إقامة أكبر إمبراطورية للقمار في الولايات المتحدة ، وامتد نشاطه إلى تهريب الخمور وتجارة المخدرات والابتزاز ، ونجح في حماية نفسه وأنشطته الإجرامية من خلال رشوة رجال الأمن والقانون والسياسة ومن خلال استثمار أمواله في بعض الأنشطة المشروعة . وقد تَمتَّع روثشتاين بنفوذ واسع ، وأصبح يُلقَّب بـ «قيصر عالم الجريمة» ، وقد تتلمذ على يديه عدد من مشاهير المجرمين الأمريكيين ، أمثال مائير لانسكي ، والذين تعلموا منه أهمية التعاون والتحالف في عالم الجريمة بغض النظر عن الانتماء الإثني أو الديني . فاللص هنا ، مثل الإنسان الطبيعي أو الأممي ، لا جذور له ولا حدود ، ولا تعوقه أية مطلقات غيبية أو إنسانية . وهو ، مثل عضو الجماعة الوظيفية والإنسان الاقتصادي ، لا يدين بالولاء إلا لصالح جماعته وما يحققه لها ولنفسه من ربح ، «وليس للدولار سوى قومية واحدة ودين واحد وهو الربح» على حد قول روثشتاين، الذي اغتيل في أحد فنادق نيويورك نتيجة خلاف حول سداد دين قمار .

أما لويس بوكالتر «ليبكي» (١٨٩٧ ـ ١٩٤٤) فهو أحد زعماء الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة . وُلد في نيويورك لعائلة من المهاجرين اليهود ، وانخرط في حياة الإجرام في سن الثامنة عشرة ، حيث انضم إلى عصابة من الأحداث تحترف النشل وسرقة الباعة المتجولين . وقد اشتهر بوكالتر باسم «ليبكي» ، وهو الاسم الذي أطلقته عليه والدته ويعني باليديشية «لويس الصغير» .

وقد أمضى بوكالتر ثلاثة أعوام في السجن بتهمة السرقة ، خرج بعدها ليتزعم عصابة من مائتي مجرم تخصصت في الابتزاز . ولم يكن بوكالتر يؤمن بالتخصص فحسب وإنما بالتنظيم والترشيد أيضاً . وقد استخدمت عصابته جميع أساليب الإرهاب للسيطرة على النقابات العمالية في قطاع صناعة الملابس والمأكولات في نيويورك ، ثم ابتزاز أصحاب الأعمال « لحمايتهم » من الإضرابات العمالية . وجمعت علاقة وثيقة بين بوكالتر ومائير لانسكي ، وكان من زعماء الإجرام الذين أسسوا الاتحاد القومي للجريمة ، والذي تأسس بغرض تنسيق وترشيد النشاط الإجرامي على مستوى الولايات المتحدة . وقد تولى بوكالتر رئاسة الجناح التنفيذي للاتحاد والذي أطلقت عليه الصحافة الأمريكية اسم « شركة القتل المساهمة » لأنه قام تحت إشرافه بتنفيذ مئات الاغتيالات وجرائم القتل .

وفي عام ١٩٣٣ ، ألقي القبض على بوكالتر بتهمة مخالفة القانون المناهض للاتحادات الاحتكارية ، وحُكم عليه بالسجن والغرامة ، إلا أن الحكم تم نقضه وأفرج عنه بكفالة . ثم قُدِّم للمحاكمة مرة أخرى عام ١٩٣٩ في جريمة مخدرات ، وحُكم عليه بالسجن لمدة أربع عشرة سنة . وأثناء ذلك ، قُدِّم (عام ١٩٤١) للمحاكمة بتهمة جريمة قتل ارتكبها عام ١٩٣٦ وحُكم عليه بالإعدام . ونُفِّذ فيه الحكم عام ١٩٤٤ .

ويمكن أن نشير أيضاً إلى بنجامين سيجل (١٩٠٦ - ١٩٤٧) الذي كان أعداؤه يلقبونه باسم «بجزي Bugsy» ، نسبةً إلى البجز (bugs) أي «الحشرات» . وقد كان سيجل أحد زعماء اتحاد الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة . وُلد في نيويورك ، وبدأ منذ سن الرابعة عشرة في الانخراط في الأنشطة الإجرامية . وكوَّن عصابة مع مائير لانسكي عُرفت باسم «عصابة بجز ومائير» قامت بحماية الملاهي الليلية نظير إتاوة منتظمة ، كما قامت بعمليات السطو المسلح والخطف والقتل بالأجر لحساب عصابات تهريب الخمور . وقد تَورَّط سيجل في عدد من قضايا التهريب والاغتصاب والسرقة والاغتيال ، حيث اتُّهم بقتل بعض شركائه القدامى . كما اشترك سيجل مع عدد من كبار المجرمين الأمريكيين في تأسيس الاتحاد القومي للجريمة . وفي الثلاثينيات ، انتقل سيجل إلى كاليفورنيا للإشراف على عمليات الاتحاد بها كما أشرف على عمليات القمار وتجارة المخدرات ، ومد نشاطه إلى مجال السينما حيث قام بعمليات ابتزاز عديدة .

وقد عاش سيجل حياة مُترَفة مع كثير من أصدقائه نجوم السينما ، جين هارلو وكلارك جيبل وكاري جرانت وغيرهم . وأثناء الحرب العالمية الثانية ، اكتشف سيجل إمكانات ضخمة في القمار المشروع في نيفادا ، فاقترض بعض النقود من اتحاد الجريمة وبنى فندق الفلامنجو الضخم في لاس فيجاس ، وقد حاول أن يُبقي كل الأرباح لنفسه دون أن يشرك الاتحاد فيها . وكانت فلسفته في الحياة عملية داروينية إذ كان يقول دائماً : « كل ما نفعله هو أن يقتل الواحد منا الآخر » ، وهذا ما حدث له في يونيه ١٩٤٧ إذ كلَّف اتحاد الجريمة قاتلاً صوَّب مسدسه إلى رأس سيجل وأفرغ فيه عدداً من الرصاصات .

أما فلاتو شارون ، فهو من كبار المجرمين الفرنسيين . تهرَّب من الضرائب في فرنسا باللجوء إلى إسرائيل مستفيداً من قانون العودة . ورشح نفسه لعضوية البرلمان (الكنيست) كي يحصل على الحماية البرلمانية ، ونجح مرتين في الانتخابات بشراء الأصوات صراحةً وعلانية ، حيث موَّل حملته الانتخابية أحد زعماء الجريمة المنظمة . وبعد أن فرّ يعقوب الله كوهين زعيم الجريمة المنظمة في إسرائيل (وهو يهودي من أصل إيراني) إلى البرازيل ، تردد اسم فلاتو شارون خلفاً له في الزعامة . ويوجد الآن في إسرائيل عطر ومساحيق تجميل تحمل اسم «فلاتو» ، وهو ما يدل على تغلغل المُثُل الإجرامية في المُستوطَن الصهيوني (ويُلاحَظ أن فلاتو شارون هذا كان شريكاً لعزرا وايزمان في تجارة السلاح مع جنوب أفريقيا) .

واستخدام نموذج الخصوصية اليهودية والعبقرية اليهودية والجريمة اليهودية في تفسير سلوك هذه الشخصيات الإجرامية لا يفيد كثيراً ، فقيمته التفسيرية ضئيلة . أما إذا وضعناهم في سياق المجتمع العلماني الحديث الذي يتسم بتَزايُد تهميش القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة وتَصاعُد معدلات النسبية والنيتشوية ، فيمكن إلقاء مزيد من الضوء على دوافعهم وسلوكهم .

عباقرة ومجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية

Geniuses and Criminals from Jewish Communities

في محاولة تفسير عبقرية العباقرة وإجرام المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية ، لابد أن يبتعد الدارس عن نموذج الخصوصية اليهودية العالمية . وبدلاً من ذلك يمكن أن تضبط مستوى التعميم والتخصيص للوصول إلى النموذج التفسيري الملائم . ومثل هذا النموذج لابد أن تتم صياغته من خلال دراسة السياق الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والديني الذي يوجد فيه العبقري أو المجرم من أعضاء الجماعات اليهودية . وفي المداخل التالية سنحاول أن نطبق هذا المنهج على مجموعة من العباقرة والمجرمين من أعضاء

الجماعات اليهودية عبر التاريخ مثل أينشتاين وتشومسكي ولانسكي، وعلى مجموعة من المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودي في العصر الحديث .

بنيامين التطيلي (القرن الثاني عشر)

Benjamin of Tudela

رحالة إسباني يهودي في القرن الثاني عشر الميلادي لا نعرف الكثير عن حياته الشخصية . ترك سرقسطة في عام ١١٦٠ ، وقام برحلة استغرقت ما بين خمسة وثلاثة عشر عاماً ، زار خلالها نحو ثلاثمائة موضع من بينها : إيطاليا واليونان وكيليكية وفلسطين وبلاد الرافدين وإيران والهند ، وعاد ماراً بعدن واليمن ومصر وصقلية . وقد دوَّن بنيامين التُطيلي ملاحظاته في كتابه **رحلات الحاخام بنيامين** وهي تتضمن عديداً من الروايات والتفاصيل الطريفة والمهمة . وقد انصب اهتمامه على حضارات البلدان التي زارها وعلى الجماعات اليهودية فيها من حيث أسلوب حياتهم ووظائفهم الأساسية وتنظيماتهم الاجتماعية وحياتهم الدينية . كما أورد إحصاءات عن عدد كل جماعة . ويُعَدُّ كتابه من المصادر الفريدة لعدد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، وإن كانت بعض الأعداد التي يوردها تبدو غامضة أو مبالغاً فيها . وقد تُرجم كتابه إلى معظم اللغات الأوربية وضمنها اللاتينية .

داهية الكاهنة (أوائل القرن الثامن الميلادي)

Dahiya Al-Kahina

«داهية الكاهنة» (ويُقال إن اسمها هو «ضميا» أو «ضحيا») هي محاربة من قبيلة الجراوة في جبال أوراس في الجنوب الشرقي للجزائر ، وهي فرع من قبيلة زناتة البربرية الكبيرة تَهوَّد في القرن السابع بعد الميلاد ، أي قبيل الفتوحات الإسلامية بقليل . قادت داهية القبائل البربرية وقامت بصد الزحف الإسلامي عام ٦٨٨م حين دمرت جيش حسان بن النعمان الغساني واضطرته إلى الانسحاب إلى طرابلس . وكانت الكاهنة تظن أن القوات الإسلامية هي مجرد جماعات من البدو المغيرين الطامعين في الثروة ، ولذلك قامت بحرق المدن والحقول حتى يرحلوا . ولكن أفعالها جعلت السكان يجأرون بالشكوى منها ويناصبونها العداء وانفض أتباعها من حولها وانضموا تدريجياً إلى جيش الإسلام . وفي الجولة الثانية مع القوات الإسلامية ، يُقال إنها تنبأت بهزيمتها ومقتلها ، وبالفعل نشبت المعركة في عام ٦٩٥ وهُزمت داهية الكاهنة ولقيت حتفها خلالها .

ولا يمكن رؤية مقاومة داهية الكاهنة للزحف الإسلامي باعتباره جزءاً من العداء الأزلي بين المسلمين واليهود ولا يمكن فهمه من خلال نموذج تفسيري يهودي . ففي مناطق أخرى ومدن أخرى ساعد أعضاء الجماعات اليهودية المسلمين . ولذا ، يجب أن تُوضَع هذه المقاومة في سياق أكثر عمومية وهو مقاومة القبائل الوثنية للزحف الإسلامي . ونحن لا نعرف كثيراً عن نوع اليهودية التي كانت تتبعها الكاهنة . بل إن بعض المؤرخين يشككون أصلاً في انتمائها اليهودي . لكل هذا يكون الحديث عنها باعتبارها عبقرية يهودية أمراً ليس ذا قيمة تفسيرية تُذكَر .

ابن نغريلة (٩٩٣-١٠٥٥)

Ibn Nagrila

هو صموئيل اللاوي بن يوسف بن نغريلة المشهور بين اليهود باسم «شموئيل هانجيد» . وقد عرفه العرب باسم إسماعيل بن يوسف بن نغريلة . وهو رجل سياسة وشاعر وعالم وقائد عسكري عربي يهودي ، ويُعَدُّ أهم شخصية يهودية في الأندلس .

وُلد في قرطبة من عائلة غنية ، وأتقن العبرية والعربية واللاتينية ولغات البربر ، كما درس القرآن الكريم والتوراة والتلمود على يدي حنوخ بن موسى في قرطبة . وكان يُشيع عن نفسه أنه من نسل داود . فرَّ من قرطبة في القرن الحادي عشر الميلادي بعد غزو المرابطين لها وفتح دكان توابل في ملقا ، ثم ألحقه الملك حبوس بخدمته حيث عَمل بجمع الضرائب ، ثم كاتباً ومساعداً للوزير أبي العباس . وبعد أن أيَّد باديس ، في معركته ضد أخيه على العرش ، كافأه الملك الجديد وقرَّبه منه وعيَّنه وزيراً له بحيث أصبح ابن نغريله من أهم الشخصيات في المملكة . وحيث إن باديس كان مستغرقاً في لذاته ومسراته ، فإن ابن نغريلة كان الحاكم الفعلي ، فقاد جيوش غرناطة في معاركها الدائمة مع أشبيلية ، وحقق انتصارات عسكرية عديدة فيها .

ألَّف ابن نغريلة عدة كتب في الشريعة اليهودية ، من بينها **مقدمة للتلمود** ، وحرَّر معجماً لعبرية التوراة . كما وضع كتاباً يطعن في الإسلام وكتابه الكريم ، فرد عليه أبو محمد بن حزم في كتاب سماه **الرد على ابن نغريلة اليهودي** . ومع هذا ، كان ابن نغريلة مندمجاً تماماً في الحضارة العربية الإسلامية ، فقلَّد أمراء عصره باجتذاب الشعراء وكوَّن لنفسه حاشية منهم ، وكان من بينهم عدد من الشعراء المسلمين . وكان هو نفسه يقرض الشعر باللغتين العربية والعبرية وله عدة دواوين . وتتناول قصائده العبرية موضوعات

شتى. وقد طعم الشعر العبري بفنون جديدة اقتبسها من الأدب العربي ، كالشعر القصصي والخمريات والغزل ووصف المعارك ووصف الطبيعة والرثاء . كما طرق فنون الشعر العبري التقليدية مثل قصائد البيوط والأدعية . ولم يكن الشعر الذي كتبه ابن نغريلة بالعربية أو بالعبرية متميزاً . ومهما كانت طبيعة إنجازاته فلا يمكن تفسيرها إلا من خلال نموذج تفسيري يضعه في سياق الحضارة العربية الإسلامية .

رودريجو لوبيز (١٥٢٥-١٥٩٤)

Rodrigo Lopez

طبيب برتغالي من يهود المارانو انتقل إلى لندن نحو عام ١٥٥٩ ، وتَخلَّى عن الكاثوليكية التي اعتنقتها أسرته منذ ستين عاماً لينضم إلى الكنيسة البروتستانتية الإنجليزية ولكنه ظل على يهوديته في حياته الخاصة . اكتسب سمعة طبية في مجال الطب نظراً لعبقريته الفائقة في هذا المجال ، وأصبح واحداً من أهم أطباء لندن ، ودخل في خدمة أحد النبلاء البريطانيين المقربين للملكة إليزابيث ، ثم أصبح رئيس أطباء الملكة عام ١٥٨٦ . ويُقال إن لوبيز حصل على احتكار استيراد العديد من السلع ، كما منحته الملكة سفينة ملأى بصكوك الغفران أصدرها البابا وكانت في طريقها إلى العالم الجديد لتباع هناك ، واستولى عليها الأسطول البريطاني وهي في طريقها . ولعل الملكة منحته حمولة هذه السفينة لأنه يهودي له اتصالات كاثوليكية ومن ثم ليست هناك مشكلة أخلاقية ولا عملية في بيعه هذه السلعة شبه المقدَّسة . ومع هذا ، لم ينجح لوبيز في تسويق سلعته .

ولم يقتصر نشاط لوبيز في بلاط الملكة على الطب ، إذ اتضحت عبقريته أيضاً في مقدرته على تدبير الخطط والمؤامرات بالاشتراك مع وزراء الملكة ، وساعدته على ذلك شبكة علاقاته بأقاربه من يهود المارانو في انتورب وليجهورن وإستنبول . فانضم إلى الدائرة البيوريتانية في بلاط الملكة التي كانت تسعى للحرب مع إسبانيا الكاثوليكية ، ونجح من خلال شبكة علاقاته في توفير معلومات ساعدت في هزيمة الأسطول الإسباني عام ١٥٨٨ . وقد كان صهره سليمان أبنايس من مؤيدي السياسة البريطانية داخل البلاط التركي ، حيث كان يعمل مستشاراً للسلطان . وعمل لوبيز على حث إنجلترا على تأييد دوم أنتونيو المطالب بعرش البرتغال ، وساهم في كسب دعم الملكة إليزابيث لخطة تقضي بغزو دوم أنتونيو للبرتغال عام ١٥٨٩ ، وهي خطة انتهت بالفشل .

ورغم كل ذلك ، يبدو أن لوبيز كانت له علاقة مشبوهة بالحكومة الإسبانية . فرغم أن هذه العلاقة تمت بمعرفة الحكومة البريطانية ولصالحها ، إلا أنه تبيَّن فيما بعد أنها كانت علاقة ذات أبعاد مريبة وغامضة ، أثارت الشكوك حول لوبيز ، ويبدو أن هذه العلاقة بدأت مع تَوسُّط لوبيز للإفراج عن أحد عملاء إسبانيا في إنجلترا ، والذي كان قد ألقي القبض عليه بعد أن حاول استدراج دوم أنتونيو وإيقاعه في أيدي الإسبان . ومن خلال هذا العميل أبلغ لوبيز الحكومة الإسبانية استعداده للتوسط بينها وبين إنجلترا في التفاوض من أجل السلام . وقد تمت هذه الخطوة على ما يبدو بعلم وزير الخارجية البريطاني بغرض الكشف عن خطط إسبانيا واستدراجها للتخلي عن حذرها . ومع ذلك ، اتُخذَت هذه الواقعة فيما بعد دليلاً على تورط لوبيز مع إسبانيا وعمالته لها . وقد فَقَد لوبيز صداقته مع دوم أنتونيو نتيجة توسطه للإفراج عن العميل الإسباني بسبب الخلاف الذي ثار بين دوم أنتونيو وسليمان أبنايس صهر لوبيز ، حيث اتهمه دوم أنتونيو بخداع الحكومة البرتغالية والإثراء من ورائها . وقد نجح دوم أنتونيو في الإيقاع بين لوبيز وأحد النبلاء البريطانيين وهو إيرل أوف إسيكس Earl of Essex ، وهو ما دفع هذا الأخير للبحث عن دلائل تؤكد عمالة لوبيز لإسبانيا . وبالفعل ، نجح إيرل أوف إسيكس في إلقاء القبض على ثلاثة من البرتغاليين من عملاء إسبانيا ، وقد تبيَّن من أقوالهم والخطابات التي وُجدت في حوزتهم أن لوبيز كانت له علاقة سرية بإسبانيا بل وكان عميلاً لها يُسرِّب لها المعلومات ويخطط لاغتيال دوم أنتونيو بالسم وإرغام وريثه على الخضوع لملك إسبانيا ، وأنه كان يعمل على دفع إنجلترا باتجاه السلام مع إسبانيا .

وعند تقديم هذه الأدلة للحكومة البريطانية ، لم تتخذ هذه الحكومة أية إجراءات ضد لوبيز ، حيث إنها كانت على علم باتصالاته بإسبانيا للأغراض التي سبقت الإشارة إليها . وقد رفضت الملكة إليزابيث هذه الاتهامات . ولكن ، في أعقاب ذلك ، ظهرت دلائل جديدة تشير إلى أن لوبيز كان يخطط لوضع السم للملكة إليزابيث نفسها ، فتم إلقاء القبض عليه . وقد أكد لوبيز في البداية أن علاقته بإسبانيا كانت بغرض الحصول على معلومات لصالح إنجلترا، ولكنه اعترف فيما بعد بأنه وعد بالفعل بوضع السم للملكة ، ولكنه في واقع الأمر لم يكن ينوي الإقدام على ذلك . وبرغم أنه سحب هذا الاعتراف فيما بعد ، إلا أنه كان كافياً للحكم عليه بالإعدام . وقد لُقِّب لوبيز طوال فترة محاكمته بـ «اليهودي الخسيس» . والتمس لوبيز العفو عدة مرات لدى الملكة إليزابيث ، كما تَدخَّل لصالحه سليمان أبنايس ولكن دون جدوى ، ونُفِّذ فيه حكم الإعدام عام

١٥٩٤ . وقد نالت قضية لوبيز اهتماماً جماهيرياً واسعاً في إنجلترا، واتخذها بعض الأدباء مادة لأعمالهم ، واتخذوا لوبيز نموذجاً لشخصيات روائية مثل مسرحية **يهودي من مالطة** لمارلو ومسرحية **تاجر البندقية** ، التي يُقال إن شكسبير كتبها نتيجة هذه المحاكمة وأن شخصية المرابي شايلوك اقتُبست عن نموذج لوبيز .

وقد بيَّنت الوثائق التاريخية فيما بعد صحة جوانب كثيرة من الاتهامات الموجهة للوبيز ، لكنها بيَّنت أيضاً عدم وجود دلائل قاطعة تؤيد تورُّطه في مؤامرة لاغتيال الملكة إليزابيث .

ولوبيز مثل جيد على العبقرية التي يتداخل فيها الشر مع الخير ، والإبداع البناء مع القدرة على التدمير (الإبداع التفكيكي) . وهو شخصية مكيافيللية كاملة كانت توجد بكثرة في بداية عصر النهضة في الغرب ، وقد تناولها أدباء العالم الغربي في أعمالهم الأدبية . ولا يمكن تفسير عبقرية لوبيز في الخير والشر بناء على يهوديته ، وإن كان انتماؤه ليهود المارانو يُفسِّر بعض الجوانب الخاصة ، مثل اتساع نطاق حركته وزيادة مقدراته بسبب شبكة الاتصالات الدولية المارانية ومعرفته بعدد كبير من اللغات .

جوزيف أوبنهايمر (١٦٣٥-١٧٠٣)

Joseph Oppenheimer

يُسمَّى أيضاً «يود سوس» أي «اليهودي سوس» . وهو يهودي بلاط ومموِّل ، وُلد في هايدلبرج (ألمانيا) ، لممثل يهودي متجول كان يقوم أيضاً بجمع الضرائب ، ويُشاع أنه كان الابن غير الشرعي لفارس ألماني . تلقى في طفولته تعليماً دينياً حتى أصبح حاخاماً ، ولكنه آثر العمل في الأمور المالية . ولم يكن مكترثاً كثيراً باليهودية ، إلا أنه لم يتنصَّر على عكس أخويه .

ويبيِّن أسلوب حياته مدى عمق التغير الذي طرأ على حياة الجماعات اليهودية في أوربا ، أو على الأقل على قيادتها ، وهي تغيرات لا تعدو أن تكون صدى للتغيرات التي لحقت بالمجتمعات الغربية . فأوبنهايمر لم يمارس أياً من شعائر اليهودية ، إذ كان ربوبياً أي يؤمن بالرب الذي يحل في الطبيعة دون أن يؤمن بأي دين ، شأنه شأن الكثير من مثقفي عصر الاستنارة . وكان يحيا حياة كبار نبلاء أوربا إبَّان عصر الملكيات المطلقة ويرتدي زي النبلاء المسيحيين . وكانت مكتبته مكوَّنة من أعمال ألمانية في السياسة والتاريخ والقانون . وكان له منزل في كلٍّ من فرانكفورت وشتوتجارت على الطراز الأوربي ، عُلِّقت على حوائطهما لوحات لرمبرانت وغيره من الفنانين الغربيين . وكان أوبنهايمر إنساناً حديثاً بمعنى الكلمة ، طموحاً ، يبغي أن يحقق حراكاً اجتماعياً سريعاً . وقد تقدَّم للإمبراطور بطلب الحصول على لقب النبيل ، ولكن لم يُستجَب لطلبه . ويبدو أنه كان إنساناً جسمانياً لا يكف عن ملاحقة النساء ، سواء كن من طبقة النبلاء أم من الخادمات . ورغم كل هذا ، كان أوبنهايمر يتباهى بيهوديته ، وهو ما يدل على أنه عرَّفها تعريفاً إثنياً خالياً من أي مضمون أخلاقي ، وهو التعريف الذي قُدِّر له الشيوع في العالم الغربي الحديث .

عمل أوبنهايمر مع قريبه يهودي البلاط صموئيل أوبنهايمر ، وجمع ثروة كبيرة إلى أن أصبح هو نفسه يهودي بلاط (وهي وظيفة تشبه وظيفة وزير المالية أساساً ، ولكن يدخل ضمنها أيضاً الشئون الخارجية والمخابرات) حينما أصبح الدوق كارل ألكسندر حاكماً لدوقية ورتمبرج ، وكان الدوق كاثوليكياً في حين كانت جماهير دوقيته لوثرية . وكان يود تطوير دوقيته على أسس مركنتالية تجارية ومطلقة ، ولكنه كان ، في ذات الوقت ، يحيا حياة شخصية فاسدة، ولذا نشأت عنده حاجة ماسة إلى المال . ومن هنا كان دور أوبنهايمر الذي كان إنساناً اقتصادياً بمعنى الكلمة يود تعظيم الربح بالنسبة للدولة ولنفسه ، وكان يُعدُّ عبقرية في اكتشاف مصادر جديدة للربح . وبعد أن قام الدوق بعزل كل مستشاريه ، أصبح أوبنهايمر مستشاره الوحيد تقريباً فبذل قصارى جهده لتقوية قبضة الدولة على كل المصادر المالية عن طريق فرض ضرائب جديدة . كما احتكر بيع الملح والجلد والخمور والتبغ ، وأسَّس مصنعاً للخزف وآخر للحرير ، وأنشأ داراً لصك النقود ، وأقام أول بنك في جنوب ألمانيا . ولم يتوان أوبنهايمر عن توظيف كل من المسيحيين واليهود لتحقيق الربح ، فضغط على الكنيسة لتودع أموالها في البنك المركزي ، الأمر الذي أثار حقد وغيظ الكنيسة ضده . وقد قام بتوطين جماعة من اليهود في ورتمبرج ، وأوكل إليهم حق توريد المعدات الحربية وحقق من خلال ذلك أرباحاً كثيرة .

وقد تسبَّب فساد الدوق في إفقار جماهير دوقيته وتزايد السخط ضده . وحينما مات الدوق ، أُلقي القبض في اليوم نفسه على أوبنهايمر الذي دافع عن نفسه بقوله إنه لم يفعل شيئاً دون أمر الدوق، ولكن المحكمة حكمت بإعدامه شنقاً . وقد كُتبت عدة روايات عن حياته . ويشير النازيون في دعايتهم إلى أوبنهايمر باعتباره نموذج المموِّل اليهودي العبقري ، ولكن عبقريته من النوع الإجرامي فهو يستغل المسيحيين وينهب أموال الدولة ويُفسد الإناث من جميع الطبقات .

وموقف النازيين من اليهود لا يختلف كثيراً عن موقف

الصهاينة. فكلاهما ينزع العبقرية اليهودية من سياقها ويؤكد البُعد اليهودي على حساب كل الأبعاد الأخرى. فلا يمكن فهم أوبنهايمر باعتباره يهودياً خالصاً يُعبِّر عن جوهر يهودي، وإنما باعتباره نموذجاً لإنسان العصر الحديث الذي بدأت تتحدد ملامحه منذ عصر النهضة الغربية. فأوبنهايمر ربوبي، يضع نفسه خارج أية منظومة دينية، ولكننا نكتشف أنه ليس ربوبياً وحسب بل كان إنساناً طبيعياً يضع نفسه خارج أية منظومة أخلاقية. فقد كان أوبنهايمر إنساناً اقتصادياً حقيقياً يحاول تعظيم الربح، وإنساناً جسمانياً يحاول تعظيم اللذة، وهو في هذا ليس نموذجاً فريداً على الإطلاق، وإنما شخصية نماذجية: إنسان طبيعي لا تحده حدود أو قيود يعيش حسب قوانين الطبيعة/المادة.

أما يهوديته التي كان يتباهى بها فإنها لم تحدد سلوكه الإجرامي ولا عبقريته المالية، فهو ابن عصره، أداة في يد الدوق/الدولة، لا يختلف في هذا عن أيخمان وبريا وغيرهما من جزاري العصر الحديث البيروقراطيين، الذين يذبحون بمنهجية شديدة وحسبما يَصدُر لهم من تعليمات لا يتجاوزونها.

جيكوب بريير (١٧١٥ - ١٧٨٠)

Jacob Periere

أول معلم للصم البكم في فرنسا. وُلد في إسبانيا عام ١٧١٥ لأب من يهود المارانو، وبعد وفاة والده، هربت أمه به إلى مقاطعة بوردو في فرنسا، وهناك أعلن يهوديته. ويُقال إن حب بريير لفتاة بكماء كان وراء محاولاته إيجاد وسيلة للاتصال بالصم البكم.

أمضى عشر سنوات في دراسة التشريح والفسيولوجيا وتجريب طرق مختلفة للاتصال بالصم البكم (خلقياً) إلى أن تَمكَّن من اختراع طريقة للاتصال معهم. واعتمدت طريقته هذه في تدريب الصم البكم على إصدار أصوات محددة واضحة وعلى حركة الشفاه وليس على الإشارات كما كان مُتبَعاً من قبل، ومن ثم كان أول من أحرز بعض النجاح معهم. ألهمت طريقته هذه كثيراً من المربين المهتمين بتعليم الصم البكم، ومن أهمهم أدوار سجوين. ولم تقتصر جهود بريير على تعليم الصم البكم، بل عمل الكثير من أجل أن ينالوا معاملة تليق بإنسانيتهم.

وقد ذاعت شهرة بريير، وتلقى كثيراً من الدعوات للتعليم في أنحاء أوربا. وفي عام ١٧٤٩، قدَّم إلى الأكاديمية الملكية في باريس بحثاً يشرح فيه طريقته في تعليم الصم والبكم. وفي العام الذي يليه نال منحة من الملك لويس الخامس عشر قدرها ثمانمائة جنيه لاختراعه آلة حسابية، كما أصبح عضواً في الجمعية الملكية في لندن عام ١٧٦٠، ثم عُيِّن مترجماً ملكياً للغتين الإسبانية والبرتغالية عام ١٧٦٥.

لعب بريير دوراً فعالاً تجاه اليهود السفارد في باريس، حيث تَطوَّع ليعمل كمستشار غير رسمي لهم منذ عام ١٧٤٩، إلى أن عُيِّن رسمياً في هذا المنصب عام ١٧٦١.

وقد تُوفي بريير عام ١٧٨٠ ودُفن في مدافن لافيليت، بعد أن حصل على قرار بذلك، ومن ثم فإنها تُعتبَر من المدافن القانونية الأولى لليهود في فرنسا. وفي عام ١٩٢٩، أقيم له نصب تذكاري في البرتغال.

ولم يكتب بريير كثيراً، إلا أن فكره كما نقله سجوين نال اهتمام التربويين في القرن العشرين، وأهم مؤلفاته هو **ملاحظات عن الصم البكم**.

ولا يمكن تفسير اهتمام بريير بالصم والبكم والاتصال بهم على أساس يهوديته. ومع هذا، يمكن الإشارة إلى أن الجماعات الوظيفية لها دائماً لغتها الخاصة، بل وأحياناً لغتها السرية، وهو أمر ينطبق على المارانو ولا شك. واللغة السرية هي لغة خاصة، لا تُفهَم إلا من خلال شفرة خاصة، ولعل من نشأ يتحدث لغة سرية تتولَّد داخله مقدرة غير عادية في تطوير مثل هذه اللغات.

يعقوب صنوع (١٨٣٩-١٩١٢)

Yaqub Sanu

كاتب عربي مصري يهودي وأحد رواد المسرح المصري والصحافة المصرية الساخرة. كان يعقوب الابن الوحيد لوالديه اللذين فقدا أربعة أولاد بعد ولادتهم، وحينما حملت به أمه نصحتها إحدى صديقاتها المسلمات (كما هو الحال في البيئة المصرية الصميمة في ذلك الوقت) أن تطلب بركة إمام مسجد الشعراني الذي كان يكتب التمائم والتعاويذ والأحجبة. ويَذكُر يعقوب صنوع أن الشيخ قال للأم: «إن ربنا سيبارك ثمرة أحشائك وستُرزَقين بولد» ثم أكمل نبوءته: «وإن نذرتيه للدفاع عن الإسلام فلسوف يعيش، اكسيه من حسنات المؤمنين ليكون متواضعاً، ولسوف يجد ما يريد بفضل بركة خالقه». وأطاعت المرأة ما أمرها به الشيخ، وأقرها زوجها على أن يَهَب ابنه للإسلام والمسلمين، غير أنه اعترض في أول الأمر على فكرة كساء الطفل المرتقب من حسنات المحسنين، واعتبر في ذلك مهانة لا تليق به، وهو يتمتع بالحظوة لدى البلاط ويستشيره الأمراء في مسائلهم الخاصة (أي أن المكانة الاجتماعية

داخل المجتمع المصري عنده كانت أكثر أهمية من الانتماء الديني) . غير أن الزوجة أصرت على أن تلبي نصيحة شيخ الضريح بحذافيرها لتضمن سلامة وليدها حين يرى النور ! (اعتمدنا في هذا المدخل بالدرجة الأولى على السيرة التي كتبها الدكتور إبراهيم عبده ليعقوب صنوع وعلى مقال للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى) .

يذكر أبو نظارة أنه حين كبر حفظ القرآن وعاهد والدته على أن يُوفِّي نذرها وأن يُجنِّد نفسه لخدمة الإسلام والمسلمين وأنه جعل رسالته « مكافحة الأباطيل التي تُفرِّق بين المسلمين والمسيحيين ، بإظهار سماحة القرآن وحكمة الإنجيل ، وهكذا تتسنى لي الملاءمة بين قلوب الفريقين » . ويقول كاتب سيرة يعقوب صنوع الدكتور إبراهيم عبده « إنه لم يشر قط في تاريخه إلى أنه وُلد لأبوين يهوديين» . فإذا أضفنا إلى هذا موقف والده من الانتماء الديني ، فإن هذا يعني أن أسرة صنوع كانت مندمجة حضارياً تماماً في المجتمع المصري وأن البُعد اليهودي (حتى من الناحية الدينية الشكلية) كان قد شارف على الاختفاء . وحينما بلغ يعقوب صنوع الثانية عشرة من عمره كان يقرأ التوراة بالعبرية والإنجيل بالإنجليزية والقرآن بالعربية . كما كان قد أجاد عدداً من اللغات منها : العربية والعبرية والتركية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية . ثم أرسل في بعثة دراسية إلى إيطاليا في مدينة ليجهورن (على نفقة الحكومة المصرية) . فمكث ثلاث سنوات درس أثناءها الاقتصاد السياسي والقانون الدولي والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة .

ولكن الأهم من هذا أن الحركة القومية الإيطالية (الهادفة إلى التحرر من السيطرة النمساوية وتحقيق الوحدة الإيطالية) كانت آنذاك محتدمة وظهرت جمعيات سرية وطنية مثل الكاربوناري وجمعية إيطاليا الفتاة .

ويرى الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن يعقوب صنوع قد تَشرَّب كثيراً من هذه الأفكار القومية ، إبان إقامته . وعند عودته اشتغل بالتدريس في مدرسة الهندسة ، كما قام بتعليم أبناء رجال البلاط . ولكنه لم يقنع بهذه الوظيفة المريحة فشخصيته كانت مبدعة حركية ، ففكر في إنشاء مسرح وطني يقدم تمثيليات عربية . وكانت أولى محاولاته المسرحية عام ١٨٦٩ إذ مثَّل مسرحية فودفيل قصيرة تتخللها أشعار مُلحَّنة تلحيناً شعبياً في القصر أمام باشوات وبكوات البلاط الخديوي الذين ضحكوا للتمثيلية من أعماق قلوبهم . وشجعوه على عرض مسرحياته في حديقة الأزبكية . فألَّف فرقة مسرحية من تلاميذه وكان هو مدير المسرح ومؤلف التمثيليات ، كما كان يقوم أحياناً بدور الملقن . وكان يُقدِّم تمثيليات مُترجَمة عن الفرنسية والإنجليزية والإيطالية . وقد أعجب به الخديوي في أول الأمر وخلع عليه لقب «موليير مصر» (ولكنه قام بتعنيفه حينما كتب مسرحية عن تَعدُّد الزوجات) .

ولكن يعقوب صنوع لم يكن يتحرك داخل دائرة البلاط الملكي والمسرح وحسب ، إذ بدأ يحتك بالدائرة الفكرية التي تَحلَّقت حول جمال الدين الأفغاني ، الذي شجعه هو والشيخ محمد عبده على الكتابة في الصحف ، بل وعلى إنشاء صحيفة عربية تُكتَب بالعامية . وحكى لنا يعقوب صنوع كيف وقع اختياره على اسم أبو نظارة . فبعد أن قرر تأسيس مجلة خرج من بيت الأفغاني فأحاط به المكارية (أصحاب الحمير) وكان كل واحد منهم يريد أن يختار يعقوب حماره ، ويقول : « ده يا أبو نظارة » ، فأعجبه النداء واختاره اسماً لصحيفته . وقد أعجب بهذا الاسم كثيرون من أصدقاء يعقوب ، حيث يوحي بأن صاحبه رجل يرى من بعيد ، وفي ذلك ما يعني أنه رجل ملهم (ذو نظر) لا تفوته فائتة . وكانت الصحيفة ذات تَوجُّه اجتماعي ناقد ؛ فنددت بزيادة الضرائب والتدخل الأجنبي وهاجمت الوزراء بأسلوب ساخر ملتو ونكات وفكاهات ، وشجعت المصريين على الشكوى وبصَّرتهم بحقوقهم .

وهنا لابد أن نتوقف عند علاقة يعقوب صنوع بالماسونية ، إذ يذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن يعقوب صنوع وجمال الدين الأفغاني قد نشطا في التنظيمات الماسونية ، وأن هذه التنظيمات لعبت دوراً « في دعم الحركة الوطنية المصرية الوليدة » . وقد بيَّنا في مدخل الماسونية في هذه الموسوعة أنه لا توجد ماسونية واحدة بل عدة ماسونيات . وكانت التنظيمات الماسونية في بلاد أفريقيا وآسيا تضم الأجانب بالدرجة الأولى ، حيث كانوا يتمتعون بمزايا وحقوق خاصة وبمساندة القناصل الأوربيين . وقد استخدمت كل دولة أوربية المحفل الماسوني التابع لها كأداة في صراعها الاستعماري بين بعضها البعض . وقد استفاد كثير من زعماء الحركات الوطنية من هذا الوضع ، تماماً كما يحدث الآن حين يتمتع زعيم حركة وطنية بدعم فرنسا على سبيل المثال فيُعطَى حق اللجوء السياسي للإقامة في باريس ، بل وممارسة نشاطه السياسي . ووجود مثل هذا الزعيم يمثل بالنسبة للدولة المأوى ورقة ضغط في صراعها مع القوى الغربية الأخرى . كما أن هناك دائماً احتمال أن يصل إلى الحكم ، ولذا فمن الحكمة أن تَبقَى الجسور مفتوحة معه . وفي هذا الإطار يمكن فهم انضمام يعقوب صنوع والأفغاني لمثل هذه التنظيمات وترحيبها بهما وبغيرهما من المثقفين والسياسيين الثوريين .

وقد أدَّى تَوجُّه مجلة **أبو نظارة** إلى مصادرتها المستمرة ولذا كان يعقوب صنوع يضطر لتغيير اسمها ، فهي مرة **أبو نظارة** ومرة أخرى **أبو نظارة زرقاء** وثالثة **رحلة أبي نظارة زرقاء** ورابعة **النظارة المصرية** . بل وكان يصدر ما يسميه إبراهيم عبده «مجلات الضرورة» (الضرورة التي فرضتها عليه القوانين المتعسفة) فكان يصدر المجلة تلو الأخرى فلا يُغيِّر سوى اسمها ، فهي **أبو صفارة** وحينما أغلقت **أبو صفارة** ظهرت **أبو زمارة** التي جاء في افتتاحيتها التي تعبِّر عن روح الدعابة المصرية ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أنبيائه أجمعين . أما بعد فيقول العبد الحقير أبو زمارة . لما بلغني بأن صدر أمر من ناظر الخارجية . بقفش وكسر الصفارة . الساعية في استحصال التمدن والحرية . قلت ياربي نور عقلي وفهمي . وانصرني على الواد الأمرد مصطفى فهمي . إللي أمر بتعطيل صفارتي البهية . العزيزة عند الشبان المصرية » .

وحينما أغلقت **أبو زمارة** صدرت مجلة **الحاوي** التي وصفها صاحبها بأنها «الحاوي الكاوي إللي يطلَّع من البحر الداوي عجايب النكت للكسلان والغاوي ويرمي الغشاش في الجب الهاوي» .

ويقول الدكتور عبد الرحيم مصطفى إن يعقوب صنوع قام بتأسيس جمعيتين علميتين أدبيتين أطلق على أولاهما اسم «محفل التقدم» ، وعلى الثانية اسم «محفل محبي العلم» وترأسهما بنفسه . وفي هاتين الجمعيتين كانت تُلقَى المحاضرات عن تَقدُّم الآداب والعلوم في أوربا مع الاهتمام بالتاريخ والسياسة والأدب والممارسات التعليمية والإشارة بوجه خاص إلى ما حققته فرنسا وإيطاليا في هذا المضمار . وأشار يعقوب صنوع إلى أنه كان يَحضُر اجتماعات كل من الجمعيتين المسلمون والمسيحيون واليهود ، وأن الجمعيتين لقيتا الإقبال من طلبة الأزهر وكبار ضباط الجيش ، كما ذهب إلى أنهما هما اللتان وفرتا الإطار فيما بعد لظهور الحزب الوطني (القديم) .

وقد أغلقت الجمعيتان ونُفي يعقوب صنوع إلى خارج البلاد عام ١٨٧٨ فاستقر في باريس إلى آخر حياته . وهناك التقى بأديب إسحاق والأفغاني ومحمد عبده وإبراهيم المويلحي وخليل غانم ثم مصطفى كامل وغيرهم ، وواصل دعايته للقضية الوطنية بعد الاحتلال البريطاني ، فأصدر العديد من الصحف بالعربية والفرنسية . وأخذ يتنقل في أوربا للدفاع عن وطنه واشترك في الحملات التي شُنَّت على الخديوي إسماعيل والاحتلال البريطاني ، وراسل عرابي في منفاه في سيلان ، وعبَّر عن ابتهاجه بانتصار اليابانيين على قوة غربية بيضاء مثل روسيا القيصرية .

وقد ظل يعقوب صنوع شأنه شأن كثير من رواد الحركة الوطنية في مصر يتصور أن بعض القوى الغربية (فرنسا على وجه التحديد) يمكنها أن تساعد المصريين ضد الاحتلال الإنجليزي ، ولكن خابت آماله عام ١٩٠٤ بعد توقيع صفقة الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا التي تم بمقتضاها حسم التناقضات بين القوتين الاستعماريتين . وقد ظل يعقوب صنوع يُعبِّر عن إعجابه بالسلطان عبد الحميد طيلة عشرين عاماً نتيجة مقاومته الأطماع الأوربية (وكان السلطان يبادله الإعجاب) . ومع هذا رحَّب يعقوب صنوع بدستور ١٩٠٨ ظناً منه أنه بداية حقيقية للإصلاح وللتصدي للنهم الاستعماري الغربي .

وقد كتب يعقوب صنوع قصيدة بالعربية الفصحى بعنوان «القول الوجيز في دخول الإنجليز» وكيف سلمها الخونة للغزاة جاء فيها :

مصر الفتاة أبو سلطان أسلمها
وإنما أسلم الإسلام بالذهب
هم رأسوه على النواب يرشدهم
فكان تائه من أكبر النوب
وقد أثارت لهيب النار ندوته
فصار أولى بأن يُدعَى أبا لهب
تبت يداه على ما جاء من عمل
لم يأته خائن في سالف الحقب

ولا يمكن القول بأن القصيدة من عيون الشعر العربي ، فهي لا تختلف كثيراً عن مثل هذه القصائد التي تُكتَب في المناسبات وتتبع قوالب لفظية ومجازية جاهزة . ولكن ما يهمنا هنا هو المصطلح العربي الإسلامي الواضح .

وتتبدَّى عبقرية يعقوب صنوع بشكل أوضح وأكثر بلورة حين يترك الخطاب البلاغي التقليدي ويستخدم روح الفكاهة المصرية ويُعبِّر عن الشخصية المصرية ، كما في مقاله الفكاهي عن الخديوي إسماعيل الذي يتحدث فيه عن « مناقبه » فقال : « وكفاك أنه لا يعرف معروفاً ولا ينكر مُنكَراً . ولا يُوجَد في وقت الصلاة إلا جُنُباً . وفي رمضان إلا مُفطراً . نعم يصوم ولكن عن الخيرات . ويستقبل الفجور متلطخاً بنجاسة الفحشاء . فاجر يقتات بالكبائر . ويتفكَّه بالصغائر . ويروح من مولاه شاكياً ولشيطانه شاكراً ، فكأنه عاهد إبليس فلم يَخُن له عهداً ، ووعده أن يجد عنده كل معصية فلم يُخلف له وعداً » .

ورغم أن المقال مكتوب بالفصحى إلا أنه كُتب على طريقة كُتَّاب هذه المرحلة ، كما أنه يتلاعب بالألفاظ ويترابطها بطريقة تُصعِّد حدة السخرية والفكاهة .

ولكن عبقرية يعقوب صنوع الحقيقية تظهر في استخدامه العامية المصرية للتعبير عن روحه الفكاهية فالخديوي هو « شيخ الحارة » ، والخديوي توفيق هو «توفيف» ، والفلاح المصري هو «أبو الغُلب » وهكذا ، وقد أشرنا من قبل إلى افتتاحيات **أبو زمارة والحاوي** . وتظهر روح الدعابة المصرية في القصيدة الساخرة التي كتبها يعقوب صنوع بعد نشوب الثورة المهدية في السودان والتي يُشيد فيها بشجاعة السودانيين ويُشهِّر بالإنجليز :

يا محلا لنجليزية
أم عين زرقا وشعر أصفر
ياخسارة دالصبية
في جوزها العسكري الأحمر
شفتها امبارح ياأسيادي
ماكنش حولها انجليز
فقلت لها ياميليدي (My lady) (١)
جيف مي إي كيس إيف يو بليز (Give me a kiss if you please) (٢)

◆◆◆

أنا في عرضك وان كيس (One kiss) (٣)
قالت جودام بلادي فول (Goddam bloody fool) (٤)
يلا فول بلا شعير
ماتتبغدديش علي
أنا ابن المهدي الكبير
احلمي علي شوية

◆◆◆

فشفنا المهدي منصور
والجردون في الشق مكتوم
تاني يوم جابوه أسير
في مصيدة سودانية
أمام المهدي الشهير
مع ضباطه لنجليزية

◆◆◆

(ومعنى العبارات الإنجليزية على التوالي هو : ١) سيدتي ـ ٢) أعطيني قبلة واحدة من فضلك ـ ٣) قبلة واحدة ـ ٤) لعنة الله عليك يا مجنون) . والقصيدة كما نرى مصرية تماماً ، تُعبِّر عن الروح الشعبية المصرية أحسن تعبير ، في محاولتها استيعاب الآخر المعتدي داخل منظومتها وتحويله إلى مجرد هدف للسخرية .

وحينما هُزمت الثورة المهدية بكَّت يعقوب صنوع المصريين على تَخاذُلهم وسخر من الإنجليز الذين مَثَّلوا بجثة المهدي بعد استرجاع السودان .

والآن ، هل يمكن ليهودي خالص ، صاحب عبقرية يهودية خالصة أن يأخذ مثل هذه المواقف الفكرية والسياسية ، وأن يستخدم الفصحى والعامية بهذه الطريقة ، وأن يترجم مواقفه السياسية اللاذعة المعارضة إلى مجموعة من النكت اللاذعة ؟ السؤال بطبيعة الحال خطابي غير حقيقي ، فلا يمكن أن يفعل هذا إلا مصري عاش في صميم المجتمع المصري (لا في مسامه) وتَشرَّب خطابه الحضاري المصري العربي الإسلامي ؛ مصري كتب له إمام المسجد الشعراني حجاباً ونذرته أمه لخدمة الإسلام والمسلمين فعاهد أمه على الوفاء بنذرها ، فهو ثمرة رائعة للمجتمع المصري (العربي الإسلامي) بتركيبيته وعراقته وتَسامُحه ! ومع هذا لابد أن نشير إلى أن البُعد اليهودي قد يُفسِّر حركية يعقوب صنوع الزائدة وقدرته الفائقة على التحرك داخل تشكيلات حضارية مختلفة واستيعابها وتَعلُّمه العديد من اللغات . ومع هذا يظل انتماؤه إلى مجتمعه المصري العربي المسلم هو العنصر الأكثر تفسيرية .

ويثير أبو نظارة قضية الهوية اليهودية والثقافة اليهودية ، إذ تصنفه المراجع الصهيونية باعتباره « مثقفاً يهودياً » وهو تصنيف لا يُفسِّر أياً من الجوانب المهمة من حياته ، أدبية كانت أم سياسية ، وهي حياة لا تُفهَم في كليتها إلا بالعودة إلى حركيات المجتمع المصري وتقاليد الفكاهة المصرية وحركة التحرر الوطني في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

هاري هوديني (١٨٧٤-١٩٢٦)

Harry Houdini

اسمه الأصلي إريك فايز . ساحر استعراضي أمريكي يهودي وُلد في الولايات المتحدة لعائلة يهودية من رجال الدين من أصل مجري . التحق في سن مبكرة بالسيرك لتقديم الاستعراضات البهلوانية ، ثم انتقل مع عائلته إلى نيويورك حيث بدأ في تقديم الاستعراضات السحرية واتخذ اسم هاري هوديني . وتميَّزت استعراضاته بالإبهار وبالحيل السحرية الفذة وتَخصَّص في عملية الهرب من السلاسل أو الحبال والأماكن المُحكَمة الإغلاق . وقد أصبح هوديني من أكثر مقدمي الاستعراضات شهرة في عصره وأعلاهم أجراً ، وقدَّم عروضه في العديد من الدول وأصبح يُشار إليه بلقب «أعظم ساحر في العالم» ، كما ساهم في تأسيس نادي السحرة في لندن وفي تأسيس جمعية السحرة الأمريكيين .

وقد اعتمد هوديني في تقديم عروضه على درايته بعلم الميكانيكا وعلى المؤثرات البارعة وعلى اللياقة البدنية الفائقة . كما اهتم بفضح الدجالين والمشعوذين وتحذير الجمهور ممن يدَّعون امتلاك قدرات خارقة للطبيعة أو اتصالهم بالأرواح . وقد ألّف كتابين في هذا الشأن: **تجار المعجزات وأساليبهم** (١٩٢٠) ، و **ساحر بين الأرواح** (١٩٢٤) .

ومن الصعب بمكان محاولة تفسير مقدرات هوديني بناءً على انتمائه اليهودي . والتفوق في مجال الرياضة التي تعتمد على القوة العضلية هو إحدى الطرق المفتوحة والسهلة التي يمكن لعضو الأقلية إثبات تَفوُّقه من خلالها ، وهو أمر ليس مقصوراً على أعضاء الجماعات اليهودية وحدهم . فمجال الملاكمة في الولايات المتحدة شهد في بداية الأمر تفوق الملاكمين من أصل إيطالي ثم الملاكمين من أصل أفريقي (وأشهرهم محمد علي كلاي) . وانتصار عضو الأقلية في حلبة المصارعة على ممثل الأغلبية يرفع معنويات أعضاء الأقلية بدرجة ملحوظة .

ألبرت أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥)

Albert Einstein

عالم طبيعة ، ومكتشف نظرية النسبية وحائز على جائزة نوبل . وُلد في ألمانيا ونشأ وتَعلَّم فيها ، وعمل بعد تَخرُّجه في مكتب براءات الاختراع بمدينة برن في سويسرا وأصبح مواطناً سويسرياً . تَمكَّن أثناء هذه الفترة من إنجاز عدة أبحاث . وفي عام ١٩٠٥ ، نشر دراسات عن : **النظرية الخاصة بالنسبية وعلم البصريات** ، وعُيِّن أستاذاً على أثر ذلك في عدة جامعات بألمانيا . وفي عام ١٩٢٠ ، نشر دراسته عن : **النسبية العامة والنسبية الخاصة** ، حيث بيَّن أن مبدأ النسبية ينطبق على الحركة وشرح فكرة البُعد الرابع وانثناء الفراغ .

ويُعَدُّ ألبرت أينشتاين أحد رواد الفيزياء الحديثة ، فهو صاحب نظرية النسبية الخاصة التي نجحت في التوصل إلى أساس لعلاج التناقضات بين نظرية نيوتن للحركة ونظرية ماكسويل للحركة الكهرومغناطيسية . وكان من أهم نتائج النسبية الخاصة مفهوم تَداخُل الزمان والمكان وتَرادُف الطاقة والكتلة . وقد تبع ذلك بالنظرية النسبية العامة التي تُعتبَر تعميماً للنسبية الخاصة حيث تتضمن حركة الأجسام تحت تأثير الجاذبية . وبالإضافة إلى نظرية النسبية ، ساهم أينشتاين في تطوير النظرية الكمِّية من خلال تفسير التأثير الكهروضوئي . وترتكز النظرية الكمية على مبدأ ازدواجية المادة ، وهو أن الجسيم يأخذ أحياناً شكل الموجة وأن الموجة تأخذ أحياناً شكل الجسيم .

وبعد أن فرغ من صياغة النظرية النسبية العامة ، انشغل أينشتاين في مسألتين : المسألة الأولى تفنيد مبدأ اللايقين الذي يفترض استحالة دقة قياس نقطة ما وسرعة جسيم في آن واحد من حيث المبدأ (لا من حيث قصور آلات القياس) ، أو بصياغة أخرى : مبدأ استحالة فصل التجربة عن المجرب . والمسألة الثانية هي وضع نظرية عامة واحدة تفسِّر أنواع القوى (التفاعلات) الأولية كافة ، ولكنه لم يكن موفقاً في محاولاته هذه .

وفي عام ١٩٣٣ ، اضطر أينشتاين إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة بعد أن استولى هتلر على السلطة . وأصبح أينشتاين مواطناً أمريكياً ، واستمر في بحوثه العلمية . ولكنه كان قد بدأ يدرك أن العلم أصبح مثل حدٍّ موسي في يد طفل في الثالثة من عمره ، إذ أدَّى امتلاك وسائل الإنتاج العجيبة في تَصوُّره ، إلى تزايد القلق والجوع بدلاً من الحرية .

وقد لعب أينشتاين دوراً مهماً في تطوير القنبلة الذرية أثناء الحرب ، ولكنه عارض استخدامها بل وطالب بتحريم القنابل الذرية والهيدروجينية . وأثناء الحقبة المكارثية (الإرهابية) طالب أينشتاين العلماء بألا يدلوا بشهادتهم أمام لجان التحقيق . وقد استمر أينشتاين في أبحاثه العلمية حتى وفاته .

وموقف أينشتاين من الإله والدين يستحق بعض التأمل ، وهو موقف يشبه موقف كثير من المفكرين العلمانيين الذين فقدوا الإيمان الديني ، ولنبدأ بموقفه من الإنسان . لقد أدرك أينشتاين أن الإنسان كيان غريب مليء بالأسرار ، فقد صرح ذات مرة أن «قانون الجاذبية غير مسئول عن الحب» ، أي أن القانون الطبيعي لا يُفسِّر الوجود الإنساني ، ولكنه اتجه في بعض تصريحاته إلى ما يمكن تسميته «الديانة الإنسانية» فعبَّر عن إعجابه بمقدرة الإنسان على فهم ما حوله ، ورأى أن هذه المقدرة شكل من أشكال التفوق اللانهائي على الطبيعة ، ومن هنا فإن الإنسان يقع عليه عبء أخلاقي ، ولكن مسئوليته الأخلاقية تكون تجاه نفسه وليس تجاه أي إله .

بيد أن هذه ليست نهاية القصة ، إذ يستمر تأرجحه دون تَوقُّف فيصرح بأن الإله لا يلعب بالعالم ، أي أن العالم يتبع نظاماً واضحاً يتجلى من خلال الإرادة الإلهية . ولكن هذا الإله يشبه من بعض النواحي إله إسبينوزا . فهو ليس إلهاً ذا إرادة يحب البشر ويعطف عليهم ، يُثيب الناس ويعاقبهم ، وإنما هو مبدأ آلي عام . ولكن العَالم الكبير ، صاحب نظرية النسبية ، يجد أن هذا الموقف لا يُعبِّر عن الحقيقة كلها ، ويؤكد أن العلم الحديث ألقى بظلال من الشك على السببية الآلية التي تشكل إطار الرؤية الإسبينوزية الساذجة .

ولم يكن موقف أينشتاين ، في بداية حياته على الأقل ، رافضاً للصهيونية . فقد نشأ وتعلَّم في ألمانيا . ولذا ، فإننا نجد أنه كان يؤمن بفكرة الشعب العضوي ، وبأن السمات القومية سمات بيولوجية تُورَّث وليست سمات ثقافية مكتسبة . وقد صرح أينشتاين بأن اليهودي يظل يهودياً حتى لو تخلى عن دينه ، وهذه مقولة أساسية في معاداة اليهود على أساس عرْقي . وليوضح فكرته ، شبَّه أينشتاين مثل ذلك اليهودي بالحلزون الذي يظل حلزوناً حتى بعد أن يُسقط محارته . وموقفه من معاداة اليهود ، في هذه المرحلة ، لا يختلف كثيراً عن موقف الصهيوني ، فقد كان يرى أن معاداة اليهود مسألة ستظل موجودة مادام هناك احتكاك بين اليهود والأغيار ، بل وأضاف أن اليهود مدينون لأعدائهم بأنهم استمروا عرْقاً مستقلاً .

وقد أدلى أينشتاين بتصريح ذي مضمون صهيوني عرْقي ، إذ صرح (قبل ظهور النازيين) بأنه ليس مواطناً ألمانياً ، ولا حتى مواطناً ألمانياً من أتباع العقيدة اليهودية ، وإنما يهودي ويسعده أن يظل يهودياً . وقد عبَّر أينشتاين في عدة مناسبات عن حماسه للمشروع الصهيوني وتأييده له ، بل واشترك في عدة نشاطات صهيونية .

ولكن موقف أينشتاين هذا لم يكن نهائياً ، وربما كان تعبيراً عن عدم نضج سياسي ، إذ عَدَل عن هذه المواقف فيما بعد ، فقد صرح بأن القومية مرض طفولي ، وبأن الطبيعة الأصلية لليهودية تتعارض مع فكرة إنشاء دولة يهودية ذات حدود وجيش وسلطة دنيوية . وأعرب عن مخاوفه من الضرر الداخلي الذي ستتكبده اليهودية ، إذا تم تنفيذ البرنامج الصهيوني ، فقال : « إن اليهود الحاليين ليسوا هم اليهود الذين عاشوا في فترة الحشمونيين » ، وفي هذا رَفْض للفكر الصهيوني ولفكرة التاريخ اليهودي الواحد . ثم أشار إلى أن «العودة إلى فكرة الأمة ، بالمعنى السياسي لهذه الكلمة ، هي تَحوُّل عن الرسالة الحقيقية للرسل والأنبياء » . ولهذا السبب ، وفي العام نفسه ، فسَّر انتماءاته الصهيونية وفقاً لأسس ثقافية ، فصرح بأن قيمة الصهيونية بالنسبة إليه تكمن أساساً في « تأثيرها التعليمي والتوحيدي على اليهود في مختلف الدول » . وهذا تصريح ينطوي على الإيمان بضرورة الحفاظ على الجماعات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم وعلى تراثها ، كما يشير إلى إمكانية التعايش بين اليهود وغير اليهود في كل أرجاء العالم . وفي عام ١٩٤٦ ، مَثَل أمام اللجنة الأنجلو أمريكية وأعرب عن عدم رضاه عن فكرة الدولة اليهودية ، وأضاف قائلاً : « كنت ضد هذه الفكرة دائماً » . وهذه مُبالَغة من جانبه حيث إنه ، كما أشرنا من قبل ، أدلى بتصريحات تحمل معنى التأييد الكامل لفكرة القومية اليهودية على أساس عرْقي .

والشيء الذي أزعج أينشتاين وأقلقه أكثر من غيره هو مشكلة العرب . ففي رسالة بعث بها إلى وايزمان عام ١٩٢٠ ، حذر أينشتاين من تجاهل المشكلة العربية ، ونصح الصهاينة بأن يتجنبوا «الاعتماد بدرجة كبيرة على الإنجليز » ، وأن يسعوا إلى التعاون مع العرب وإلى عَقْد مواثيق شرف معهم . وقد نبه أينشتاين إلى الخطر الكامن في الهجرة الصهيونية . ولم تتضاءل جهود أينشتاين أو اهتمامه بالعرب على مر السنين . ففي خطاب بتاريخ أبريل سنة ١٩٤٨ ، أيَّد هو والحاخام ليو بايك موقف الحاخام يهودا ماجنيس الذي كان يروج فكرة إقامة دولة مشتركة (عربية ـ يهودية) ، مضيفاً أنه كان يتحدث باسم المبادئ التي هي أهم إسهام قدَّمه الشعب اليهودي إلى البشرية . ومن المعروف أن أينشتاين رَفَض قبول منصب رئيس الدولة الصهيونية حينما عُرض عليه .

وإسهامات أينشتاين في علم الطبيعة لا يمكن تفسيرها إلا باعتباره جزءاً من المنظومة العلمية الغربية . وقد يكون ليهوديته دور في تَوجُّهه نحو النسبية ، ولكن المنظومة العلمية الغربية ككل تظل العنصر المحدد النهائي ، إذ كان قد طُرح داخلها بضعة أسئلة تتطلب الإجابة ، الأمر الذي جعل الجو مُهيَّأً لتَغيُّر النموذج .

ماير لانسكي (١٩٠٢ - ١٩٨٣)

Meyer Lansky

مجرم أمريكي يهودي اسمه الأصلي ماير سوشو لانسكي . وُلد في بولندا وهاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة عام ١٩١١ . وقد بدأ حياته الإجرامية بسرقة السيارات ثم قام بتهريب الخمور والقتل بالأجر . ثم انتقل إلى ممارسة نشاطه في عالم القمار ، وأصبح من كبار زعماء الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة . وقد كوَّن عصابة مع المجرم الأمريكي اليهودي بنجامين سيجل « بجزي » لحماية الملاهي الليلية نظير إتاوة منتظمة . وفي عام ١٩٣٤ ، ساهم لانسكي في تأسيس الاتحاد القومي للجريمة الذي جمع في إطاره جميع العصابات وزعماء الإجرام في البلاد ، وترأس مجلس إدارة هذا الاتحاد الذي عمل تحت قيادته على تحويل الجريمة في الولايات المتحدة إلى نشاط يتسم بقدر كبير من التنظيم والتنسيق والإدارة العلمية والترشيد ، وأصبح يشرف على جملة من الأنشطة الإجرامية مثل القمار والدعارة والمخدرات والابتزاز والرشوة والفساد السياسي . وحينما حاولت السلطات الأمريكية القبض عليه بتهمة التَهرُّب الضريبي في عام ١٩٧٠ ، تَمحَّك في أصله اليهودي وفرَّ إلى إسرائيل . ثم حاول الحصول على الجنسية بمقتضى قانون العودة ،

لكن طلبه رُفض . ومما يذكر ، أن لانسكي كان من كبار المساهمين في المنظمات اليهودية ، خصوصاً النداء اليهودي الموحَّد . وقد عاد إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٢ حيث حوكم ، ولكن تمت تبرئته من جميع التهم التي وُجِّهت إليه .

ولا يمكن اكتشاف أية خصوصية يهودية في عبقرية لانسكي الإجرامية . فبروزه وتَميُّزه مرتبط بتَضخُّم قطاع اللذة في المجتمع مع تَصاعُد معدلات العلمنة فيه وانتشار الدعارة والقمار والمخدرات . وقد ظهرت مؤخراً دراسة تذهب إلى أن لانسكي لم يلعب هذا الدور المحوري والمركزي في الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة ، وترى هذه الدراسة أنه في حين أن لانسكي كان بالفعل مجرماً وزعيم عصابة ذات صلة وثيقة بأهم رموز الإجرام في الولايات المتحدة وأخطرها ، إلا أنه لم يَظْهر أبداً أي دليل يُثبت أو يؤكد بشكل قاطع أن لانسكي كان العقل المدبر والمحرك الرئيسي وراء الجريمة المنظمة ، وأن هذه الادعاءات ليست سوى جزء من الأسطورة التي نُسجت من حوله .

ليوبولد تربير (١٩٠٤-١٩٨٢)

Leopold Trepper

عميل مخابرات سوفيتي سابق ، ورئيس شبكة الجاسوسية التي عملت ضد ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية والتي عُرفت باسم «الأوركسترا الحمراء» . وُلد في بولندا ، وكان نشطاً في حركة الشبيبة الشيوعية البولندية ، وسُجن عدة أشهر ثم انضم فيما بعد إلى المنظمة الصهيونية هاشومير هاتزعير ، وذهب عام ١٩٢٦ إلى فلسطين . وهناك ، ارتبط بالحزب الشيوعي ، واحتُجزَ عدة مرات بسبب نشاطه السري . ثم أصبح عضواً في الهستدروت ، وترأس داخله جناح إيحود ، أي الوحدة ، والذي كان ينادي بوحدة الشيوعيين من اليهود والعرب . وبعد المؤتمر الأول لإيحود عام ١٩٢٧ ، طُرد تربير من فلسطين ، فذهب إلى فرنسا ونشط هناك في القسم اليهودي للحزب الشيوعي الفرنسي . كما عمل أيضاً مع المخابرات السوفيتية ، ولكنه اضطر مرة أخرى إلى الرحيل بعد أن كُشف النقاب في فرنسا عن شبكة تَجسُّس سوفيتية .

وانتقل تربير إلى الاتحاد السوفيتي حيث درس في الجامعة الشيوعية للعمال الغربيين في موسكو ، ويبدو أنه تلقى إلى جانب ذلك تدريباً في الأعمال الاستخباراتية . وفي عام ١٩٣٨ أُرسل إلى فرنسا وبلجيكا حيث لعب دوراً مهماً وحيوياً لصالح المخابرات العسكرية السوفيتية ، ونجح في تأسيس وقيادة شبكة جاسوسية واسعة النطاق كان لها عملاء في مواقع مهمة داخل الجهاز العسكري الأمني في برلين . وقد أطلق جهاز مكافحة الجاسوسية الألماني على هذه الشبكة اسم «الأوركسترا الحمراء» . ويبدو أن تربير نجح إلى حدٍّ كبير في نشاطه ، فقد حذر موسكو عام ١٩٤١ من الهجوم الألماني الوشيك وتنبأ بالتاريخ المحدد له ، إلا أن ستالين تَجاهَل هذه التحذيرات حيث اعتبرها نوعاً من الإثارة البريطانية .

وقد كان لشبكة التجسس دور حيوي في الإستراتيجية والتكتيكات السوفيتية خلال الحرب مع ألمانيا . إلا أن الألمان نجحوا في إلقاء القبض على تربير عام ١٩٤٢ في باريس وحاولوا تجنيده ليعمل لصالح ألمانيا كعميل مزدوج . ويبدو أن تربير تَظاهَر بقبول هذا العرض بناءً على أوامر سابقة لقيادته تَحسُّباً لمثل هذا الاحتمال واستطاع خلال سجنه تهريب تقرير مفصل حول ظروف اعتقاله ومدى الاختراق الألماني لشبكة التجسس . وقد نجح تربير في الهروب بعد أقل من عام ، وعاود مرة أخرى نشاطه الاستخباراتي . ولكن يبدو أن بعض الشكوك والشبهات قد أحاطت به ، فعند عودته إلى موسكو عام ١٩٤٥ تم إلقاء القبض عليه وسُجن لمدة عشرة أعوام تَعرَّض خلالها لعديد من الاستجوابات ، وتم الإفراج عنه عام ١٩٥٥ ورُد له اعتباره . وقد كرس تربير مجهوداته بعد ذلك للشئون اليهودية . فقدَّم للقيادة السوفيتية خطة لإحياء المؤسسات والحياة الثقافية اليهودية في الاتحاد السوفيتي ، إلا أن هذه الخطة رُفضت ، فانتقل بعد ذلك إلى وارسو حيث ترأس ، تحت اسم ليبا دومب ، الجمعية الثقافية الاجتماعية اليهودية تحت رعاية الحكومة البولندية ، كما ترأس دار النشر اليديشية التابعة لها . وفي عام ١٩٦٨ ، قدم تربير طلباً للهجرة إلى إسرائيل حيث كان بعض أفراد أسرته قد استقروا فيها ، إلا أن السلطات البولندية رفضت طلبه . وقد أثارت الدوائر الصهيونية مسألة هجرته على المستوى العالمي ، كما تم استغلال قضيته لإثارة الرأي العام العالمي ضد حكومة بولندا الاشتراكية وضد الاتحاد السوفيتي الذي كان يسود اعتقاد بأنه وراء موقف الحكومة البولندية . وفي تلك الآونة ، قام عميل سابق للمخابرات الفرنسية هو جان روشيه باتهام تربير على صفحات جريدة **لوموند** بأنه تعاون مع النازيين خلال الحرب ، وبأنه خان رفاقه في المقاومة . ولكن تربير أقام دعوى قذف ضد روشيه واستطاع أن يكسبها .

وقد سمحت السلطات البولندية لتربير في آخر الأمر ، بالرحيل إلى إنجلترا لأسباب صحية ، وفي عام ١٩٧٤ استقر في إسرائيل . وفي عام ١٩٧٥ نشر مذكراته بعنوان **اللعبة الكبيرة** والتي

حاول فيها تأكيد دور شبكة «الأوركسترا الحمراء» في محاربة النازيين والدور البارز الذي لعبه اليهود في ذلك . وتُوفي تريبر عام ١٩٨٢ ودُفن في القدس .

وحياة تريبر المثيرة لا تختلف كثيراً عن حياة أمثاله من الجواسيس . أما هجرته لإسرائيل فهي لا تختلف عن هجرة المجرم لانسكي في دوافعها ولا علاقة لها بانتمائه اليهودي .

آرثر كوستلر (١٩٠٥-١٩٨٣)

Arthur Koestler

كاتب يهودي وُلد في المجر وتَعلَّم في النمسا وألمانيا . وغيَّر لغته من المجرية إلى الألمانية في سن السابعة عشرة ، ثم من الألمانية إلى الإنجليزية في سن الخامسة والثلاثين . وقد كان شيوعياً في الثلاثينيات ، ولكنه رفض بعد ذلك المبادئ الشيوعية ، ووصف تجربته (هو وآخرين) في كتاب **الإله الذي هوى** . وقد عبَّر كوستلر عن اشمئزازه من العصر الحديث في قصته الشهيرة **الظلمة في وقت الظهيرة** . وأظهر كوستلر أيضاً اهتماماً بالموضوعات اليهودية ، خصوصاً أنه عمل مراسلاً في فلسطين لإحدى الجرائد الألمانية . وقصته **اللصوص في الليل** تصف الصراع بين العرب والمستوطنين الصهاينة . وقد لاحَظ كوستلر في هذه الرواية الخليط العجيب من التصوف والاشتراكية الذي يُميِّز العقل الصهيوني . ولكن الرواية ، مع هذا ، تبدي تعاطفاً مع المستوطنين . وقد كتب كوستلر أثناء حرب عام ١٩٤٨ كتاب **الوعد والإنجاز : فلسطين ١٩١٧-١٩٤٩** يصف فيه فلسطين أثناء الانتداب وبعد إنشاء الدولة الصهيونية ، ويُعلن أن يهود العالم أمامهم اختياران لا ثالث لهما : الهجرة إلى إسرائيل أو الانتماء الكامل إلى أوطانهم والولاء لها . وقد اختار هو نفسه البديل الثاني . وكوستلر له مؤلفات قصصية وفلسفية أخرى مثل : **الشبح في الآلة** ، و **نفاية الأرض** ، و **اللوتس والقوميسار** ، و **السائرون نياما** ، و **اللوتس والإنسان الآلي** .

وفي آخر سني حياته ، انضم كوستلر إلى جمعية تُطلق على نفسها اسم «جمعية من أجل موت كريم» تدعو إلى الانتحار . وقد انتحر هو وزوجته بالفعل في مارس ١٩٨٣ .

وقد نشر كوستلر عام ١٩٥٥ كتاباً بعنوان **قافلة الديناصور** يضم دراسة بعنوان « يهودا في مفترق الطرق » والتي أشار فيها إلى عدم صحة القول بوجود تراث حضاري يهودي مشترك . وفي كتابه **القبيلة الثالثة عشرة : إمبراطورية الخزر وميراثها** (١٩٧٦) يناقش كوستلر ظهور إمبراطورية الخزر اليهودية وما يسميه «الشتات الخزري» . وقد أثار الكتاب ضجة في الأوساط اليهودية والصهيونية عند صدوره . فالكتاب يذهب إلى أن يهود بولندا ، الذين كانوا يشكلون أهم وأكبر تَجمُّع يهودي في العالم ، هم من نسل الخزر وبالتالي فهم مختلفون عرْقياً وثقافياً عن بقية يهود العالم وعن العبرانيين القدامى .

ومن ثم فإن كوستلر يهدم الاعتذاريات العرْقية والإثنية لنظرية الحقوق الصهيونية التي ترى أن فلسطين من حق اليهود بسبب أصولهم السامية ، أو بسبب تماسكهم الثقافي عبر التاريخ والتفافهم حول فلسطين كمركز للهوية الثقافية اليهودية .

ويرى بعض دارسي تاريخ الأفكار أن كوستلر من كبار الكُتَّاب والمفكرين وأنه نجح في أن يتناول في كتاباته بعض أهم القضايا الفكرية في القرن العشرين من خلال رؤيته الواسعة (البانورامية) والثاقبة ، ويرى البعض الآخر أنه مجرد ناقل للأفكار ومروج لها . بل ويرى البعض أن كتابه **الإله الذي هوى** قد كُتب بإيعاز من المخابرات الأمريكية . ومهما كان تقييم المرء لعبقرية كوستلر ، فمن الصعب القول بأن البُعد اليهودي هو أهم أبعادها أو أن له مقدرة تفسيرية عالية .

جيكوب كرايزر (١٩٠٥-١٩٦٩)

Jacob Kreiser

جنرال سوفيتي يُصنَّف أحياناً باعتباره يهودياً ، وأحد أبطال الحرب العالمية الثانية في الاتحاد السوفيتي . كان والده جندياً يهودياً ممن جُنِّدوا في الخدمة العسكرية تجنيداً إجبارياً لفترة طويلة في سن مبكرة واعتنقوا المسيحية إبان فترة الخدمة . وقد انضم كرايزر في سن مبكرة إلى الجيش الأحمر وتدرَّج سريعاً في صفوفه ليصبح جنرالاً في سن الحادية والثلاثين . وخلال الحرب العالمية الثانية ، تولى قيادة فرقة مشاة البروليتاريا التي تميَّزت في دفاعها عن موسكو ، وهو ما أكسبه لقب «بطل الاتحاد السوفيتي» . وقد خدم كرايزر بعد ذلك في عدد من المواقع المهمة خلال الحرب ، وتولى قيادة الجيوش السوفيتية في عدد من الجبهات ، وساهم في تدمير القوات الألمانية في غرب أوكرانيا ، وفي تحرير شبه جزيرة القرم ودول البلطيق . وقد أدَّى قيام ضابط يهودي بتحرير القرم إلى تسليط الضوء على مسألة تأسيس جمهورية يهودية ذات حكم ذاتي في القرم والتي كانت تخطط لها الحكومة السوفيتية لتحل محل مشروع بيروبيجان الفاشل . وقد كانت اللجنة اليهودية المناهضة للفاشية ، والتي كان كرايزر عضواً بها ، من المؤيدين لهذا المشروع الذي لم يسفر عن أي شيء في نهاية الأمر .

ومع انتهاء الحرب ، كان كرايزر قد حصل على أعلى الرتب في الجيش السوفيتي واكتسب مكانة وسمعة واسعتين ، ولكنه جُرِّدَ من منصبه خلال فترة الإرهاب الستاليني بعد أن رفض التوقيع على خطاب نُشر في صحيفة **البرافدا** ينفي وجود معاداة لليهود في الاتحاد السوفيتي . وبعد وفاة ستالين ، أعيدت له قيادته ، وعُيِّن عام ١٩٦٢ نائباً في مجلس السوفييت الأعلى . ثم تولى كرايزر القيادة في منطقة الشرق الأقصى ، وهي منطقة حدودية ذات أهمية خاصة ، وظل يشغل منصبه حتى وفاته .

ويمثل كرايزر نموذجاً متكرراً في أوساط العسكريين السوفييت اليهود ، وإن لم يتنبه إليه الكثيرون ، وهو نموذج يعود إلى أيام تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر والذي فتح المجال أمام أعضاء الأقليات للانخراط في صفوف هذا الجيش الجديد ، الذي كان يدعم نظاماً يدعو إلى تجريم أشكال التمييز العنصري والإثني (وضمن ذلك العداء لليهود) . وقد انخرطت أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية بنسبة تزيد عن نسبتهم على المستوى القومي . وكانت هناك نسبة عالية من اليهود في القيادة العليا للجيش السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية . ولكن يُلاحَظ أنه جرى العمل على إحالة أعداد كبيرة منهم إلى التقاعد .

روبرت ماكسويل (١٩٢٣ - ١٩٩١)

Robert Maxwell

ناشر بريطاني ، وُلد في تشيكوسلوفاكيا ، وكان اسمه الحقيقي يان لودفيج هوخ . وُلد لعائلة يهودية ريفية يُقال إنه قُضي على معظم أعضائها خلال الحرب العالمية الثانية ، وانضم إلى الجيش التشيكي عام ١٩٣٩ ، ثم فرَّ إلى بريطانيا مع الاحتلال النازي ، حيث انضم إلى صفوف الجيش البريطاني . وحاز في عام ١٩٤٥ ميدالية الصليب العسكرية . وقد بدَّل اسمه عدة مرات ، ثم استقر في عام ١٩٤٥ على الاسم الإسكتلندي الحالي إيان روبرت ماكسويل . عمل ماكسويل لحساب الاستخبارات البريطانية ، وترأس القسم الصحفي للقوات البريطانية المتمركزة في ألمانيا في الفترة بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٧ . وخلال وجوده في ألمانيا ، التقى بناشر ألماني كان تحت يده عدد ضخم من الوثائق والنشرات العلمية التي خلَّفها الحكم النازي ، وبالتالي لاحت أمام ماكسويل فرصة ذهبية للعمل في مجال النشر العلمي . وبالفعل ، أسس في عام ١٩٤٩ شركة برجامون برس التي جعلها من أكبر دور النشر المتخصصة في المطبوعات العلمية ، والتي شملت أعمالها برنامجاً واسعاً لترجمة الكتب والمجلات العلمية السوفيتية . وقد كانت دار نشر برجامون اللبنة الأساسية في إمبراطوريته الصحفية والإعلامية التي احتلت المرتبة التاسعة أو العاشرة في العالم على حد تقدير ماكسويل نفسه . وكانت إمبراطورية ماكسويل تضم عدداً كبيراً من الشركات القابضة والمؤسسات العائلية والهيئات الخيرية التي توزعت مقارها الرئيسية في بريطانيا والولايات المتحدة وإسرائيل وأوربا الشرقية وجبل طارق وليختنشتاين .

وقد امتلك ماكسويل حصصاً متفاوتة في عدد كبير من الصحف في ثلاث عشرة دولة . فمجموعة ميروزنيوز (التي امتلكها ماكسويل عام ١٩٨٤) تنشر عدداً من الصحف البريطانية المهمة مثل **ديلي ميرور** و**صاندي ميرور** . كما امتلك ماكسويل نسبة ستة في المائة من أسهم صحيفة **ذي إندبندنت** اليومية البريطانية . كما سيطر في عام ١٩٩١ على صحيفة **ديلي نيوز** الصادرة في نيويورك . وفي المجر ، امتلك حصة كبيرة في صحيفة **ماجيار هيرلاب** اليومية . وفي عام ١٩٨٦ ، أصدر صحيفة الصين اليومية **تشاينا ديلي** التي كانت تَصدُر بالإنجليزية في بكين ولندن ، إلا أنه تَوَقَّف عن نشرها بعد أحداث الصين عام ١٩٨٩ . كما أصدر عام ١٩٨٨ الصحيفة الأوربية الأسبوعية **ذي يوروبيان** . واشترى ماكسويل في العام نفسه دارين للنشر في الولايات المتحدة هما : دار ماكميلان التي كانت ثاني أكبر دار نشر أمريكية ، والدار التي تَنشُر الدليل الرسمي لشركات الطيران . وقد وضعت هذه الممتلكات الجديدة عبئاً كبيراً من الديون على كاهل ماكسويل تجاوزت عند وفاته ثلاثة مليارات جنيه إسترليني ، الأمر الذي دفعه إلى بيع بعض ممتلكاته ، ومن أهمها دار نشر برجامون لسداد ديونه . كما كان ماكسويل يمتلك ، منذ عام ١٩٨١ ، شركة للاتصالات هي ماكسويل كوميونيكيشن كوربوريشن .

وقد كان لماكسويل اهتمام خاص بأوربا الشرقية ، وكانت له علاقات مع عدد من رؤساء الكتلة الشرقية . وقد أسس عام ١٩٩٠ ، بالتعاون مع مؤسسة مريل لينش ، شركة للاستثمار في أوربا الشرقية رأسمالها ٢٥٠ مليون دولار . وكان ماكسويل قد أسس قبل ذلك ببضع سنوات شركة للاستثمار في الصين بالمشاركة مع وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر ، لكن أعمال الشركة توقفت بعد أحداث عام ١٩٨٩ في الصين . كما دخل ماكسويل حلبة السياسة البريطانية حيث تولى منصب نائب في البرلمان عن حزب العمال البريطاني في الفترة بين عامي ١٩٦٤ و١٩٧٠ .

ومن جهة أخرى كان لماكسويل اهتمام كبير وارتباط خاص

بإسرائيل . ومما يُذكَر أنه لم يكن يعلن عن أصله اليهودي في البداية، كما كان يذهب إلى الكنيسة مع زوجته الفرنسية البروتستانتية (أي أنه كان يهودياً متخفياً مثل عشرات الألوف الآخرين) . ولكنه حين عُرف أصله ، لم يستمر في إنكاره . وفي السنوات الأخيرة ، أصبح واحداً من أهم المستثمرين الكبار في إسرائيل وأحد كبار مؤيديها . ويُعتقَد أنه كان أكبر المستثمرين فيها على الإطلاق . فكان يمتلك ثلث حصص صحيفة معاريف الإسرائيلية التي تحتل المرتبة الثانية بين الصحف الإسرائيلية من ناحية التوزيع . واشترى عام ١٩٩٠ خمسين في المائة من حصص دار كيتر للنشر بمبلغ خمسة ملايين دولار وهي الشركة التي تُصدر **الموسوعة اليهودية (جوديكا)** . كما امتلك ماكسويل حصصاً في شركتين إسرائيليتين هما : شركة سايتكس وهي من الشركات الرائدة في مجال الرسوم البيانية بالكومبيوتر والطباعة بالألوان ، وشركة تيفا فارماسوتيكال للمنتجات الطبية . وقد ترددت أنباء عن أن ماكسويل كان ينوي استثمار مائة مليون دولار في تأسيس شركة قابضة في إسرائيل تجمع استثماراته القائمة والمتوقعة هناك .

وفي نهاية عام ١٩٨٨ ، أصبح ماكسويل رئيس شركة سندات إسرائيل في بريطانيا ، إذ اشترى سندات بملايين الجنيهات الإسترلينية أصبح بعدها أكبر مشترٍ للسندات الإسرائيلية في بريطانيا . وكانت الشركة تأمل في أن يساهم تعيين رئيس للشركة ذي شهرة واسعة في جذب أعداد كبيرة من المستثمرين لشراء السندات الإسرائيلية .

وقد كان ماكسويل من مؤيدي سياسات حكومة الليكود الإسرائيلية ، وصرح قبل وفاته ببضعة أسابيع بأن آراءه تتطابق تماماً مع آراء رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير . وأيَّد ماكسويل مبدأ إبعاد الفلسطينيين عن أرضهم وتوطينهم في البلدان العربية ، كما كان يصرح دائماً بأن الأردن هي الدولة الفلسطينية (كما يفعل الإسرائيليون والصهاينة) . وفي عام ١٩٨٩ ، وبَّخ ماكسويل رئيس تحرير جريدة **معاريف** لنشره مقالاً عرض فيه تقرير الاستخبارات الإسرائيلية ومؤداه أنه ليس هناك بديل عن الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية . كما بيَّن ماكسويل أن الدافع وراء محاولته الفاشلة شراء صحيفة **جيروساليم بوست** في عام ١٩٨٩ كان وقف النقد الذي كانت توجهه الصحيفة للحكومة الإسرائيلية .

وقد تورَّط ماكسويل قبل وفاته بقليل في قضية تَجسُّس وتجارة سلاح . فقد ذكر الصحفي الأمريكي سيمور هيرش في كتابه **الخيار شمشون** أن لماكسويل علاقات بالمخابرات الإسرائيلية (الموساد) ، وأنه تورَّط مع محرر الشئون الخارجية لجريدته **الديلي ميرور** في تسهيل عقد صفقات سلاح سرية لإسرائيل وفي تسهيل اختطاف موردخاي فانونو ، وهو أحد العاملين في مفاعل ديمونة والذي كشف عن وجود مائتي قنبلة نووية لدى إسرائيل . كما ادعى ضابط في المخابرات الإسرائيلية ، وهو آرييه منَسَّى ، أن ماكسويل كان متورطاً في مبيعات الأسلحة إلى إيران (أثناء حربها مع العراق) وهي مبيعات تمت بموافقة رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير ونائب الرئيس الأمريكي آنذاك جورج بوش ، فكان ماكسويل يتلقى عمولات عن هذه الصفقات ثم يُجري عملية «غسل» للأموال المتحصَّلة بهذه الطريقة غير النظيفة لتبدو كما لو كانت نظيفة وشرعية (وتتم عملية الغسل هذه بطرق عديدة مثل وضع النقود في المصارف من خلال منافذ عديدة أو استثمارها في مشاريع تجارية خاسرة ثم إعلان أنها حققت أرباحاً خيالية ، وتُودَع الأموال في المصارف بعد ذلك) .

وقد نفى ماكسويل أية علاقة له بالموساد أو بصفقات السلاح ، وأقام دعوى ضد هيرش يُوجِّه فيها إليه تهمة السب العلني . وبعد أقل من شهر من إثارته هذه الفضيحة ، لقي ماكسويل حتفه ، وقيل أنه سقط ميتاً وهو على ظهر يخته في البحر قرب جزر الكناري . وتراوحت الآراء حول ظروف موته بين التلميح إلى اتهام الموساد بقتله ، أو ترجيح انتحاره بسبب متاعبه المالية الكبيرة أو اتهامه بالعمالة لإسرائيل ، أو القول بأن موته كان مجرد حادث عادي . وقد دُفن ماكسويل في إسرائيل وفقاً لرغبته .

وقد تفجرت فضيحة مالية كبرى في أعقاب وفاة ماكسويل ، حيث تبيَّن أنه حوَّل أكثر من ٧٠٠ مليون جنيه إسترليني (١,٢٧ مليار دولار) من صناديق المعاش في مجموعة الشركات العامة ميرور جروب التي كان يديرها ، وذلك لتغطية خسائر شركاته الخاصة ولمساعدة إمبراطوريته الإعلامية التي كانت تنوء تحت ثقل الديون . وتبيَّن أيضاً أنه احتال على مؤسسة مالية سويسرية للحصول على قرض قيمته ١٠٠ مليون دولار ، وأنه استخدم الأصول نفسها لضمان أكثر من قرض . وكان ماكسويل قد تَعرَّض من قبل للمساءلة حول سلامة ممارساته ، حيث أجرى مجلس التجارة البريطاني تحقيقاً عام ١٩٦٩ حول أوضاع شركة برجامون برس وكشف بالفعل عن بعض المخالفات . وقد تَضمَّن التقرير الذي انتهى إليه المجلس أن ماكسويل « شخص لا يُعوَّل عليه في إدارة شركة مساهمة عامة » . وقد عمل ماكسويل منذ ذلك الحين على إسكات منتقديه وردعهم عن طريق مقاضاتهم وتوجيه تهمة التشهير به إليهم . وقد وُصف ماكسويل عقب تَفجُّر هذه الفضيحة بأنه «محتال القرن» ، الأمر الذي زاد التكهنات القائلة بأنه مات منتحراً . كما قُبض على ابنيه ،

اللذين توليا أمور بعض شركات والدهما بعد وفاته ، بتهمة التورط في الغش التجاري . ولكن لم يثبت ضدهما أي شيء ، فحُكم ببراءتهما .

ومن الواضح أن ماكسويل عبقرية حقيقية بالمعنى المحايد (أو النيتشوي) للكلمة ، أي أنه عبقرية لا تهتم كثيراً بالمعايير الأخلاقية أو الإنسانية ، فهو مثل الإنسان الأعظم (السوبرمان) يُسخِّر الآخرين لحسابه ، ولذا كان عبقرياً في عمليات التنظيم الإداري وتحقيق الأرباح وتعظيمها وعقد الصفقات الرابحة ، ولكنه كان عبقرياً أيضاً في نهب الآخرين والتجسس واستخدام النفوذ . وتحدثت كثير من الصحف عن ماكسويل باعتباره يهودياً مع أن هذه مسألة خلافية ، فقد أخفى يهوديته بعض الوقت ، وحين اكتُشفت اعترف بها بل ووظفها ، ولكن توظيفه مسألة هويته اليهودية لا يجعل منه يهودياً ، ولا يمكن تفسير عبقريته في إطار يهوديته ، وإنما في إطار النيتشوية الداروينية ، التي يشترك فيها مع مئات المموِّلين والمستثمرين الآخرين في القرن العشرين .



٤
إشكالية العزلة اليهودية والخصوصية اليهودية

العزلة اليهودية ـ اليهودي الخالص ـ نقاء اليهود عرْقياً ـ الأمراض اليهودية (الخصوصية اليهودية الطبية) ـ نقاء اليهود حضارياً (إثنياً) ـ الخصوصية اليهودية ـ الاندماج ـ الاندماج البنيوي ـ العزلة اللفظية والاندماج البنيوي ـ الاندماج السياسي والاقتصادي والحضاري : أشكاله المختلفة ـ اندماج الجماعات اليهودية : تاريخ ـ يوسيليفيتش ـ الانصهار أو الذوبان ـ دمج اليهود ـ الاندماج : الموقف الصهيوني ـ الزواج المختلط ـ الإبادة الصامتة ـ الشعب العضوي (فولك) ـ القومية العضوية ـ الشعب العضوي المنبوذ

العزلـة اليهوديـة

Jewish Isolationism

«الانعزالية اليهودية» عبارة تفترض أن اليهود يعيشون في حالة عزلة عن الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها . وتُفسَّر هذه الانعزالية في الأدبيات الصهيونية على أساس أنها فُرضت فرضاً على اليهود وأنهم غير مسئولين عنها . كما تُفسَّر أيضاً بأن اليهود لا يمكنهم الاندماج في مجتمعات الأغيار بسبب هويتهم أو شخصيتهم أو طبيعتهم أو تاريخهم أو جوهرهم اليهودي . ولا يختلف تفسير معادي اليهود لهذه الظاهرة عن تفسير الصهاينة ، فاليهود بحسب تصورهم يعزلون أنفسهم عن الأغيار لأن هذه هي طبيعتهم وشخصيتهم وهويتهم ، وتنعكس هذه السمة في سلوكهم وتاريخهم . يتفق الصهاينة والمعادون لليهود ، إذن ، على أن الانعزالية سمة أساسية وأنها لا علاقة لها بالحركيات الاجتماعية التي يوجد فيها اليهود ، وإنما يُسبِّبها شيء ما داخلهم .

ولا يمكن ، بطبيعة الحال ، إنكار أهمية بعض جوانب النسق الديني اليهودي مثل عقيدة الشعب المختار ، وكذلك كثرة الشعائر الدينية ، في تشجيع اليهود على العزلة . وقد وصل هذا الاتجاه في النسق الديني اليهودي إلى ذروته في القبَّالاه اللوريانية الدينية ، حيث تُطرح فكرة أن اليهود خُلقوا من طينة مغايرة للطينة التي خُلق منها البشر . ولكن علاقة الأفكار الدينية ، وأية أفكار ، بسلوك الإنسان ليست علاقة سببية بسيطة . فالأفكار لا تحدد سلوك الإنسان أبداً ولكنها تخلق لديه استعداداً كامناً أو قابلية ليسلك سلوكاً معيَّناً ويبتعد عن أنماط معينة من السلوك . كما أن من الصعب بمكان تحديد ما إذا كانت فكرة مثل فكرة الشعب المختار هي التي أدَّت إلى عزلة اليهود أو أن الفكرة هي نتيجة هذه العزلة ، أو أن العلاقة هي علاقة تأثير وتأثر ، وما مدى التأثير وما عمق التأثر .

وعلى أية حال ، لا يكمن الخلل الأساسي في النموذج التفسيري الصهيوني والمعادي لليهود في سببيته البسيطة وحسب وإنما في مستواه التعميمي المرتفع وفي تجريديته الزائدة ، إذ أن كلا الفريقين يتحدث عن « اليهود ككل » وبشكلٍ عام ويُفسِّر الظاهرة داخل هذا الإطار . ولو أننا تحركنا في إطار الجماعات اليهودية لأمكننا اكتشاف التنوع وعدم التجانس ، وأن أعضاء الجماعات اليهودية انعزلوا عن بعض المجتمعات واندمجوا في البعض الآخر ، وأنهم انصهروا في بعض المجتمعات وطُردوا من البعض الآخر ، وأن هذه الظواهر يمكن تفسيرها من خلال مُركَّب من الأسباب الحضارية والاقتصادية الخارجية التي تختص بمجتمع الأغلبية ، والأسباب الداخلية التي تختص بأعضاء الجماعة . ومن أهم هذه الأسباب ، في تَصوُّرنا ، اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة في كثير من المجتمعات ، خصوصاً المجتمع الأوربي ابتداءً من العصور الوسطى . والجماعة الوظيفية الوسيطة لا يمكنها أن تقوم بدورها إلا في حالة عزلة ، إذ أنها تضطلع بوظائف مشينة أو بوظائف تتطلب الحياد والموضوعية مثل البغاء أو التجارة .

ومن أشهر حالات عزلة اليهود ، وجودهم داخل الجيتوات القسرية في أوربا ابتداءً من أواخر عصر النهضة . ولكن العزلة وصلت قمتها في أوكرانيا ، حيث كان اليهود يشكلون جماعة وسيطة تمثل طبقة النبلاء (شلاختا) الحاكمة في بولندا . وكانت عزلة اليهود على عدة مستويات :

١ ـ طبقية : جماعة تجارية مالية تمثل النخبة الحاكمة في وسط زراعي فلاحي وتساندها القوة العسكرية البولندية .

٢ ـ لغوية : جماعة تتحدث اليديشية في وسط يتحدث الأوكرانية .

٣ ـ ثقافية : جماعة ترتدي أزياءً وتأكل طعاماً يختلفان عن أزياء وطعام الفلاحين .

٤ ـ دينية : جماعة يهودية تمثل النبلاء الكاثوليك في وسط أرثوذكسي .

وحينما تصبح العزلة على كل هذه المستويات ، فإنها عادةً ما تكون متطرفة ، إذ إن العزلة على مستوى ما تدعم العزلة على مستوى آخر . ولكن ، ورغم هذه العزلة ، فإن من المعروف أن الجماعة اليهودية تأثرت بوسطها الفلاحي السلافي ، وظهر هذا التأثر في انتشار الحسيدية التي نبعت من الفلكلور الديني المسيحي السلافي ، أي أنه لا يمكن أن تُوجَد عزلة مطلقة إلا في كتابات العنصريين الاختزاليين من الصهاينة والمعادين لليهود .

اليهودي الخالص

Quintessential or Pure Jew

«اليهودي الخالص» عبارة تفترض وجود هوية يهودية خالصة لا تشوبها أية شوائب حضارية ، فهذه الهوية تتمتع بنقاء عرقي وحضاري إثني . لكن هذا المصطلح لا يرد إلا نادراً في الكتابات الصهيونية ، مثل إشارة المفكر الصهيوني كلاتزكين إلى « النمط القومي الخالص » وإشارة بن جوريون إلى « اليهودي الذي هو يهودي مائة في المائة » . ومع هذا ، فإن هذا المفهوم كامن في كل الكتابات الصهيونية ، بل يمكن القول بأن اليهودي الخالص هو اليهودي المثالي الذي يحاول المشروع الصهيوني تحقيقه ، فباسم هذا «اليهودي الخالص» ترفض الصهيونية الموروث الثقافي لأعضاء الجماعات اليهودية بل وترفض وجودهم ذاته ، وباسمه تحاول تأسيس الدولة اليهودية حتى يتحقق هذا الجوهر . واليهودي الخالص ، بكل ما فيه من حيوية وإبداع وولاء يهودي مطلق ، هو نقيض اليهودي المنفي بكل ما فيه من هامشية وتَمزُّق وازدواج في الولاء . ويحاول الصهاينة تطبيع يهود المنفى لإعادة صياغتهم في صورة «اليهودي الخالص» .

نقاء اليهود عرقياً

Racial Purity of the Jews

«نقاء اليهود عرقياً» عبارة تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية قد حافظوا ، عبر التاريخ وفي كل زمان ومكان ، على نقائهم العرقي، فلم يختلطوا بالأجناس والشعوب الأخرى ، وهذه فكرة يروِّج لها المعادون لليهود ويسوقونها دليلاً على رغبة اليهود في عزل أنفسهم وعلى خطورة العرق اليهودي . فهوستون تشامبرلين يزعم أن ذلك النقاء العرقي هو سر قوة اليهود ، وأنه هو أيضاً ما يجعلهم «غرباء بين الأمم» .

وكان الصهاينة كذلك يروجون هذه الفكرة ويؤسسون عليها ادعاءهم حتمية إنشاء دولة يهودية مستقلة تكون يهودية مثلما أن إنجلترا إنجليزية وفرنسا فرنسية ؛ دولة يعيش فيها الشعب اليهودي المنفصل عرقياً عن بقية شعوب الأرض من الأغيار . ولذا ، بذل كثير من « العلماء » الصهاينة كثيراً من المحاولات التي ترمي إلى إثبات نقاء اليهود عرقياً . ومن أهم المحاولات في هذا المضمار محاولات عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين في كتابه **اليهود في الوقت الحاضر** حيث أورد أسماء كثير من المراجع في الموضوع من بينها اسم إغناتز زولتشان (١٨٧٧ ـ ١٩٤٤) الذي وصف اليهود بأنهم « أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرف أو الانحلال الخلقي الناجمة عن عدم النقاء » . وقد أكد زولتشان أن « حظر الزواج المُختلَط في اليهودية قد أدَّى إلى عدم اختلاط اليهود بأجناس لم تحافظ على نقائها بالدرجة نفسها » . وقد قدَّم روبين نفسه تعريفاً عرقياً لليهود فبيَّن أنهم « استوعبوا عناصر عرقية أجنبية بدرجة محدودة ، ولكنهم في أغلبيتهم يمثلون جنساً متميِّزاً ، على خلاف الحال في دول وسط أوربا » . وأضاف أن من الواجب الحفاظ بشكل واع على الاستمرار العرقي اليهودي الذي تحقق بشكل تلقائي عبر التاريخ ، وأكد أن أي جنس راق يتدهور بسرعة إذا ما تزاوج بجنس أقل رقياً ، ذلك لأن التزاوج بالأجناس الأخرى يضرُّ بمحاولات المحافظة على الصفات الممتازة للجنس ، ومن ثم فـ « لابد من محاولة منع التزاوج للمحافظة على انفصالية اليهود » .

ومن الواضح أن روبين وزولتشان حينما يتحدثان عن اليهود فهما يتحدثان عن اليهود الإشكناز وحسب أو يهود العالم الغربي ويستبعدان أعضاء الجماعات اليهودية الأخرى ويُروِّج المعادون لليهود المقولة نفسها . وما يُسمَّى «الصفات العرقية الشائعة عن اليهود» هو في واقع الأمر «الصفات العرقية الشائعة عن اليهود الإشكناز أو يهود العالم الغربي» . وفي كتاب المفكر المصري الدكتور جمال حمدان **اليهود** دراسة مستفيضة لبعض هذه الصفات مثل قصر القامة وضيق الصدر والسمنة والأنف المعقوف وشكل الرأس . ويشير الدكتور جمال حمدان إلى أن الدراسات المترية تُظهر اليهودي في أغلب الحالات أقصر من غيره بضع بوصات . ولكنه يبيِّن أن طول القامة لا يمكن اعتباره صفة جسمية أصيلة ، فمن الثابت علمياً أنها صفة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ، كما يُعَدُّ ضيق الصدر من هذه الصفات الشائعة ، الأمر الذي تؤكده الأدلة العلمية ، فمحيط صدر اليهودي (الإشكنازي) أقل كثيراً منه عند « الأغيار » . ولكن هذه الصفة ـ كما يبيِّن الدكتور جمال حمدان ـ نتيجة طبيعية

للبيئة والحرفة ، فالحرف التقليدية لليهود الإشكناز (خياطة ـ صباغة ـ صناعة أحذية) ترتبط بتلك الظاهرة . وتُعَدُّ صفة « السحنة » اليهودية أكثر هذه الصفات شيوعاً ، والمحقَّق علمياً أنها لا توجَد عند كل اليهود ولا تكاد تُعرَف في أشكناز أمريكا كما أنها معروفة بين غير اليهود . وسحنة الوجه تعبير اجتماعي مُكتسَب من البيئة أكثر من كونها صفة جسمية ، حتى سماها البعض «تعبير الجيتو» ، فهي من فعل الانتخاب الصناعي لا الوراثة .

أما مسألة الأنف المعقوف ، كصفة مميِّزة لليهودي في المخيلة الشعبية ، فهي أسطورة أخرى . فلقد أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية أن هذه الصفة غير موجودة إطلاقاً بين أنقى عنصر سامي وهم البدو ، ولكنها صفة غالبة بين القبائل القوقازية المختلفة ، وكذلك في آسيا الصغرى ، وتشمل العناصر المحلية في المنطقة مثل الأرمن والجورجيين . ونجده بين شعوب البحر المتوسط أكثر مما نجده بين يهود أوربا الشرقية ، ويكثُر انتشارها بين الهنود الحمر في أمريكا الشمالية!

ومن أهم المقاييس الأنثروبولوجية ، لتحديد الانتماء العرقي ، شكل الرأس . وقد بيَّن الدكتور جمال حمدان في كتابه **اليهود أنثروبولوجياً** أن من بين المجموعات الرئيسية الثلاث (الإشكناز والسفارد والشرقيين) يقع الإشكناز بين عراض الرؤوس وأحياناً عراض الرؤوس جداً ، هكذا هم في كل أوربا والعالم الجديد ابتداءً من الفولجا حتى كاليفورنيا . ولكن الأهم من هذا أنهم يشبهون السكان المحيطين محلياً ويقتربون جداً من شكل ونسبة رأسهم ، فمثلاً ليس ثمة فارق في شكل الرأس بين اليهود والمسيحيين في كل من روسيا وبولندا ، بينما في منطقة القوقاز تتحول رؤوسهم لشكل «قمع السكر» الشهير عند الأرمن والقفقاز بل ونجده حتى بين يهود التركستان .

وكان من الشائع أن السفارد على النقيض من ذلك تماماً ، أي أنهم طوال الرؤوس جميعاً . ولكن هذه المقابلة تبسيطية أكثر مما ينبغي ، فرغم أن طول الرأس يَغلُب بين السفارد فإن منهم جماعات استعرَضَت رؤوسهم كما في شمال إيطاليا وربما كانت بينهم جماعات أخرى من سفارد البلقان . ويُلاحَظ أن السفارد يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لا يمكن أن يغيِّر التزاوج شكل رؤوسهم بل على العكس يؤكده .

ويأتي اليهود الشرقيون في حدود التصنيف ، فجزء منهم طوال الرؤوس كالسفارد ويشمل يهود مصر والشام واليمن والعراق وجنوب إيران (والسكان المحيطون بهم طوال الرؤوس ، إلا أن حجم الرأس عندهم أطول بدرجة أو أخرى من حجم الرأس عند اليهود) . أما الجزء الآخر منهم ، كالإشكناز ، فقد استعرضت رؤوسهم كما في شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال إيران ويهود التركستان الروسية بكل شظاياها ، وأخيراً هناك اليهود القرّاءون في القرم وليتوانيا . ففي كل هذه الحالات يعيش اليهود في محيط واسع من العرض الشديد للرأس ، وقد استعرضت رؤوسهم بشدة فأصبحوا لا يختلفون عنه أبداً .

ويحاول بعض العلماء أن يجعلوا من اليهود طوال الرأس من السفارد وبعض الشرقيين وحدة إثنولوجية قائمة بذاتها ، قد تتباين فيما بينها من منطقة إلى منطقة ولكنها بعامة تتباين أكثر مع السكان المحيطين . ولذا فهم يصورون اليهود الإشكناز ومعهم بقية الشرقيين وحدة إثنولوجية أخرى . ومع هذا يعترف هؤلاء العلماء بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة في أوربا يمكن بسهولة أن تُلتَقط من بين يهود القارة ، وأن أغلب اليهود يمثلون بطريقة أو بأخرى خليطاً من عديد من تلك السلالات والأنواع ، ولذا من السهل جداً أن نلتقط من بين يهود الروسيا أفراداً يتميَّزون بالصدغ الواسع والأنف العريض القصير وعظام الوجنة البارزة بدرجة لا تفرق بينهم وبين جماعات الفن المغولية التي تَسكُن منطقة الفولجا ، بينما يُوجَد بين اليهود الألمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون .

ويمكن من ناحيتنا (والكلام لا يزال للدكتور جمال حمدان) أن نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايك [الفسيفساء] تكاد تغطي كل ما نعرف بين البشر من اختلافات في الصفات الجنسية ، فهناك اليهود السود في الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى ، وهناك اليهود المُلوَّنون في الهند ، بل والصفر أحياناً في التركستان ، وأخيراً اليهود الشقر في أوربا . وكما لاحظ دالبي في أواخر القرن الماضي ، هناك كل الأنواع والألوان بين اليهود البيض والسمر ، فهناك اليهودي الربعة غليظ الملامح عريض الرأس من الإشكناز واليهودي النحيف دقيق الملامح طويل الرأس من السفارد ، وهناك الأنف اليهودي المُحدَّب والأنف المُقعَّر بين كثير من يهود روسيا . وهناك العيون اللوزية في السفارد ، والمكتنزة الضخمة في الأشكناز ، والعيون المغولية المسحوبة في بعض يهود وسط آسيا . وبعامة ، فإن السفارد أشبه بعنصر البحر المتوسط والإشكناز أشبه بالصقالبة الشماليين ، وفضلاً عن هذا فإن الدراسات السيرولوجية أثبتت تماماً أن هناك بين اليهود معدل تَفاوُت كبير جداً في فئات الدم وهو ما ينفي تَجانُس الأصل . وأكثر من ذلك ، لا تُبدي تلك الفئات أية علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين الأمر الذي يؤكد عمق انفصالهم جنسياً عن الأصل القديم (إن كان هذا الأصل واحداً) .

فالحديث عن الوحدة العرْقية بين اليهود (كما بيَّن الدكتور جمال حمدان وغيره من العلماء) لا محل له من حقيقة أو علم على الإطلاق . واليهود لا يعرفون الوحدة العرْقية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية ، وثمة اتفاق بين الدارسين في الوقت الحاضر على أن نقط التشابه بين أعضاء الجماعات اليهودية وبين أبناء المجتمعات التي يعيشون فيها يفوق كثيراً أي تَشابُه قد يُوجَد بين أية جماعة يهودية وأية جماعة يهودية أخرى في مجتمع آخر .

وهذا أمر مُتوقَّع تماماً ، ورغم التشريعات اليهودية الخاصة بتحريم الزواج المختلط ، فمن المعروف أن اليهود تزاوجوا بغيرهم من الشعوب . بل وكان من الصعب عليهم أن يفعلوا غير ذلك لأنهم كانوا شعباً من البدو الرحل الذين يتنقلون من مكان إلى آخر . لقد جاء الآباء ، أسلاف العبرانيين ، من بابل ، فهم إذن من أصل سامي عربي . وحينما وصلوا إلى كنعان ، تزاوجوا مع الحيثيين الذين هم من أصل أرمني . ولا شك في أن العبرانيين تأثروا حضارياً وعرْقياً بالمصريين أثناء إقامتهم في مصر بعد هجرة يوسف ويعقوب . وقد خرجوا من مصر ومعهم « اللفيف العرْقي » الذي يشير إليه العهد القديم . وقد تزوج موسى أثناء الخروج أو الهجرة من مصر من امرأة مدينية (من مدين) ثم من كوشية . وتزاوج العبرانيون بالكنعانيين بعد تسللهم إلى أرض كنعان وبغيرهم من الأقوام السامية التي كانت تقيم هناك . ومن الطريف أن أم داود (الذي سيأتي من نسله الماشيَّح ملك اليهود) لم تكن ، حسبما ورد ، يهودية . أي أنه هو نفسه مشكوك في انتمائه إلى الشعب اليهودي . وفي العصر الهيليني ، كانت نسبة التزاوج بالأجانب مرتفعة إلى حدٍّ كبير .

ورغم أن اليهودية ليست ديانة تبشيرية ، فإن كثيراً من الشعوب قد تَهوَّدت . فقد فرض الحشمونيون اليهودية قسراً على بعض الشعوب المجاورة لهم ، مثل الأدوميين والإيطوريين . كما تَهوَّدت قبائل الخزر (أو نخبتها القائدة) في ظروف لا تزال غامضة . ويُلاحَظ أن الكنيسة ، في العصور الوسطى ، كانت تكرِّر من آونة لأخرى تحريم الزواج بين اليهود والمسيحيين ، وهو أمر يدل على استمرار الظاهرة . أما في العصر الحديث ، فإن معدلات الزواج المُختلَط في ألمانيا في الثلاثينيات ، في روسيا السوفيتية (سابقاً) وفي الولايات المتحدة وفي معظم البلاد التي تزايدت فيها معدلات العلمنة ، تصل إلى نحو ٥٠٪ في كثير من الأحيان . وكانت نتيجة الزواج المختلط هي عدم النقاء العرْقي .

وقد اتضحت الخلافات العرْقية بين اليهود في الدولة اليهودية بشكل مثير لا يمكن الجدل بشأنه : فاليهود الإشكناز الشقر ويهود الفلاشاه السود ويهود بني إسرائيل الداكنو اللون (الذين جاءوا من الهند) لا يمكن أن ينتموا إلى عرْق واحد مهما بلغت الادعاءات العنصرية (الصهيونية أو المعادية لليهود) من حنكة وموضوعية !

ولو كانت هناك سمات يهودية عرْقية واضحة لما ادعى بعض اليهود (أيام هيمنة النازية) أنهم ينتمون للجنس النوردي وأنهم لا علاقة لهم بالجنس السامي ، ولما طلب النازيون من أعضاء الجماعات اليهودية أن يُعلِّقوا نجمة داود ، حتى يستطيع الأريون التعرف عليهم . ولكن التفكير العنصري الاختزالي يمكنه التعايش ببساطة مع مثل هذه التناقضات ، فهو لا يشعر بالأمن أو الاستقرار إلا في عالم واحدي مادي كل الأمور فيه بسيطة ويمكن ردها لعنصر مادي واحد يُدرك بالحواس الخمس ، مثل العرْق وشكل الأنف وحجم الرأس .

الأمراض اليهودية (الخصوصية اليهودية الطبية)

Jewish Diseases (Jewish Medical Specificity)

«الأمراض اليهودية» ، هي تلك الأمراض التي يُفترض أنها تصيب اليهود وحدهم . وتذخر الكتابات الطبية المعنية بالمسألة الوراثية بالحديث عن إشارات إلى مناعة اليهود ضد أمراض مُعْدية معينة كالسل أو الطاعون . وتصل هذه الدراسات إلى حد الشطط حين تتحدث عن التفوق المعرفي والعلمي والعقلي لليهود وعن ارتفاع معدلات الذكاء الوراثي بينهم . والواقع أن مثل هذه الأفكار تفترض أن ثمة خصوصية بيولوجية وراثية يهودية ، أي خصوصية طبية ونفسية وعرْقية تسم اليهود كافة في كل زمان ومكان .

ولكن دراسة ظاهرة الأمراض اليهودية (أو الأمراض التي يُصاب بها أعضاء الجماعات اليهودية) بتعمق ، ومن خلال استخدام نموذج تفسيري أكثر تركيباً وثراءً من ذلك النموذج التبسيطي الاختزالي السائد في بعض الكتابات الغربية ، تبين لنا وبشكل قاطع عدم صحة هذا الافتراض . كما تبين لنا الدراسة المتأنية مدى التنوع والاختلاف في الأمراض التي تصيب الجماعات اليهودية المختلفة .

ويمكن تصنيف الأمراض التي تُصيب أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة إلى قسمين من منظور الخصوصية أو انعدامها :

١ ـ أمراض تصيب أعضاء الجماعات اليهودية دون غيرهم من سكان المجتمعات التي يعيشون بينها (ويندرج تحت هذا التصنيف زيادة مناعة أعضاء الجماعات اليهودية ضد بعض الأمراض بمعدل يفوق المعدل السائد بين أعضاء الأغلبية) . وهذه الخصائص الطبية يمكن تفسيرها من خلال نموذج تفسيري يؤكد أهمية العناصر الثقافية (بالمعنى العام للكلمة) المقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية .

ومع هذا يبيِّن هذا النموذج أن الخصوصية الطبية التي تسم جماعة يهودية ما ليست خصوصية طبية يهودية عالمية عامة ، أي أنها لا تشمل كل يهود العالم وإنما تقتصر على جماعة يهودية دون غيرها من الجماعات . ومن ثم لا يمكن الحديث عن خصوصية طبية أو بيولوجية عالمية عامة . ويُلاحَظ أن هذا التنوع وذلك الاختلاف نابعان أساساً من مُركَّب من العوامل البيئية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي نتج عنها ظهور بعض الأمراض الوراثية التي اختلفت من جماعة إلى أخرى ونتج عنها ارتفاع نسبة الإصابة ببعض الأمراض بين جماعة دون أخرى .

ثمة أمراض بعينها تكثر بين أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة من أصل يديشي أو إشكنازي ، وثمة أمراض وراثية تنتشر بينهم دون غيرهم من السكان . ومن بين هذه الأمراض مرض «جاوشر» ، وهو مرض وراثي يَنجُم عن صفة متنحية (والصفة المتنحية هي الصفة التي لا تظهر إلا عندما يكون الوالدان حاملين للصفة الوراثية نفسها) . ومن أهم أعراض مرض جاوشر ، انخفاض نسبة خميرة (إنزيم) تدخل في أيض نوع من أنواع الدهون في الدم ، وهو ما يتسبب عنه تراكم هذه المادة في كلٍّ من الكبد والطحال والجهاز العصبي ، مؤدياً إلى أعراض مرضية متلازمة في النمط المزمن الذي يظهر في البالغين ، أو إلى الوفاة في غضون عامين أو ثلاثة أعوام في النمط الحاد الذي يظهر بين الأطفال . وتبلغ نسبة حاملي هذه الصفة الوراثية بين يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي حوالي واحد بين كل ستين بينما تبلغ هذه النسبة بين غير اليهود حوالي واحد بين كل ستمائة .

وهناك أيضاً مرض «تاي ـ ساكس» ، وهو مرض يَنجُم عن غياب خميرة تدخل في أيض الدهون أيضاً ، ويؤدي هذا المرض إلى موت الأطفال المصابين به في غضون عامين أو ثلاثة أعوام . وتبلغ نسبة حاملي الصفة المتنحية المسببة لهذا المرض بين يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي نحو واحد بين كل ثلاثين ، بينما تصل هذه النسبة في غير اليهود إلى واحد بين كل ثلاثمائة ، ونسبة احتمال ولادة طفل مصاب بهذا المرض تصل إلى واحد بين كل ثلاثة آلاف وستمائة من اليهود من أصل يديشي بينما تنخفض إلى واحد بين كل ثلاثة ملايين وستمائة ألف بين غير اليهود .

وهناك أيضاً مرض «نيمان بيك» ، وهو مرض ينجم عن تطفُّر جيني له علاقة بغياب خميرة تدخل أيضاً في أيض الدهون ، ونسبة حاملي هذه الصفة عالية بين يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي . وهناك بالمثل ما يُسمَّى «متلازمة بلوم» (والمتلازمة» ، هي مجموعة من الأعراض المرضية المتلازمة ، والتي يُقال لها بالإنجليزية «سندروم syndrome» . وتتمثل متلازمة بلوم في انخفاض وزن المولود وضعف نموه وحساسية جلده للشمس وتَراكُم اللمف وظهور شكل الفراشة على الوجه .

ويُلاحَظ أيضاً ارتفاع نسبة إصابة يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي بنقص غير عادي في الخميرة ٢١ - هيدروكسيليز غير التقليدي . ويؤدي هذا النقص إلى تَراكُم مواد دهنية في الأنسجة العصبية والكبد والطحال .

ومما يلفت النظر في هذه المجموعة من الأمراض الوراثية ، والتي تزيد نسبة تواترها بين يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي ، أنها تتعلق أساساً بنقص خمائر أيض الدهون ! والواقع أن ثمة ظاهرة مماثلة تتعلق بقبائل الهوبي في أمريكا الشمالية حيث يزداد عدد الأفراد من «أعداء الشمس» ، أو الألبينو ، ونظراً لارتفاع قيمة هذا الشكل بين قبائل الهوبي ، يحدث ما يُسمَّى «الانتقاء الثقافي» ، أي أن الثقافة تفرض على المجتمع أو الجماعة نوعاً من الانتقائية الوراثية نظراً لأهمية عنصر معيَّن . وهذا العنصر ، في حالة اليهود ، هو الوصية التي تقول «لا تطبخ العجل بلبن أمه» ، والتي تتضمن تحريماً ضمنياً على استخدام الدهون . ويمكننا بالمثل رؤية الأمراض الوراثية التي تزداد نسبتها بين يهود الولايات المتحدة ، المهاجرين من مناطق اليديشية ، كنوع من الانتقاء الثقافي وأيضاً الطبقي ، ذلك أن معظم هؤلاء المهاجرين من أصول فقيرة ، ويصبح الامتناع عن تناول الدهون نوعاً من الالتزام الديني والذي قد يكون أيضاً بسبب عجز القدرة المادية .

ومن الأمراض العصبية التي ترتفع نسبة الإصابة بها بين يهود اليديشية في العصر الحديث (بخاصة بين المهاجرين) مرض ذهان الهوس والاكتئاب أو المرض الدوري ، وهو المرض الذي تنتاب المريض فيه حالات متعاقبة من الهوس ثم الاكتئاب ، وأحياناً تكون الحالات اكتئابية فقط أو هوسية فقط . ويُذكَر أن هذا المرض يكون مقترناً (لدى بعض اليهود غير اليديشيين المصابين به) بعمى الألوان وبنقص في الخميرة المسؤولة عن انتزاع هيدروجين الجلوكوز ٦ فوسفات من على الصبغية س ، ومن ثم يُفترض أن يكون لهذا أصل وراثي .

ومرة أخرى ، يُفسِّر نموذج الانتقاء الثقافي سبب تَفشِّي هذا المرض بين اليهود من أصل يديشي أو إشكنازي . وكما يقول رفائيل باتاي في كتابه **العقل اليهودي** ، تزداد نسبة إصابة فقراء اليهود والطبقة العاملة اليهودية التي تمثل نسبة ضئيلة من إجمالي الطائفة

بهذا المرض ، فذهان الهوس والاكتئاب هو من أمراض عدم التكيُّف ويزداد بشدة عندما تزداد الهوة الاجتماعية بين أفراد الطبقة الواحدة . واليهودي الفقير يزداد إحساسه بالغربة وعدم التكيف لإحساسه بأن اليهود الآخرين أكثر غنى منه ، ومن ثم تبدأ نوبات السخرية من الذات التي تتلوها نوبات الاكتئاب والإحباط .

وكذلك يُفسِّر لنا هذا النموذج انخفاض معدلات الخصوبة بين اليهود من أصل يديشي في الولايات المتحدة حتى أصبحت تساوي النسبة العامة للمواطن الأمريكي من الطبقة الوسطى . فالحراك الطبقي الذي حققه يهود اليديشية في الولايات المتحدة غيَّر نمط حياتهم وجعلهم أقرب إلى التمسك بقيم الطبقة الوسطى أكثر من المواطن الأمريكي العادي . فاليهودي اليديشي المنتمي إلى الطبقة الوسطى الأمريكية لن يَقبَل أن يحرمه الإنجاب من كل المزايا الفردية التي يتمتع بها ، وذلك على العكس من جده الفقير في بولندا الذي كان ينجب كثيراً لأن الأولاد يشكلون مصدراً للدخل (كقوة عمل) ، ولأن الثقافة السائدة لا تأبه كثيراً بالانتماء الفردي بقدر ما تحرص على الانتماء الجماعي .

أما اليهود القرّاؤن ، فيُلاحَظ أن من بين الأمراض الوراثية التي ترتفع نسبة ظهورها بينهم مرض فردبخ هوفمان ، وهو مرض أيضي يؤدي إلى تَحلُّل خلايا الدماغ ويؤدي إلى موت الأطفال المصابين به . وتبلغ نسبة الأشخاص حاملي المرض بين القرّائين نحو واحد بين كل ثلاثين .

ويُفترَض أن ليهود الولايات المتحدة من أصل يديشي مناعة خاصة ضد الإصابة بالسل . وقد ذكرت بعض المراجع التاريخية أنه إبَّان تَفشِّي وباء الطاعون في أوربا في القرون الوسطى وما بعدها ، كانت نسبة إصابة اليهود به أقل بكثير من نسبة إصابة الآخرين . والواضح أن المناعة النسبية ليهود الولايات المتحدة من أصل يديشي ضد السل يمكن فهمها في ضوء نموذج الانتقاء الثقافي ، فمعظم هؤلاء من أصول فقيرة عاشت في مناطق فُرضت عليها العزلة ، وبذلك تَفشَّى السل في أجدادهم ، والناجون هم أولئك الذين استطاعوا اجتياز المرض واكتسبوا مناعة نسبية ورثُّوها للأجيال التالية التي هاجرت إلى الولايات المتحدة وارتقت في السلم الاجتماعي إلى مستوى الطبقة الوسطى . أما بالنسبة إلى وباء الطاعون ، فقد استطاع كثير من يهود أوربا خلال العصور الوسطى تَجنُّب هذا المرض ، مثلهم مثل سائر الأثرياء ، لمقدرتهم على الابتعاد عن المناطق الموبوءة ، وكذلك لنظافتهم والطبيعة الخاصة لطعامهم .

وفيما يختص بيهود المشرق ، نجد أن نسبة الإصابة بأمراض نزف الدم (الهيموفيليا) تقل قياساً بغيرهم . ويمكننا في ضوء نموذج الانتقاء الثقافي أيضاً أن نرى انخفاض نسبة أمراض الدم بين اليهود الشرقيين ، حيث أن اتباع تعاليم التلمود يخلق هذا النوع من الانتقائية . فقد ورد في التلمود فقرة تدعو إلى عدم ختان الطفل المولود لامرأة مات لها طفل من النزيف بعد ختانه ، وإلى عدم تحبيذ زواج تلك المرأة من رجل من العائلة نفسها .

ومن المعروف أن ختان الذكور تقليد مصري اعتاد عليه اليهود وأخذوا معه جميع التعاليم المرتبطة به . وبذا ، يمكننا أن نقول إن هذا أدَّى إلى عملية انتقائية خاصة تؤدي إلى عزل جيني معيَّن يقلل من الإصابة بهذا المرض .

٢ ـ أمراض تصيب أعضاء الجماعات اليهودية بنسبة لا تختلف عن أعضاء الأغلبية :

يُلاحَظ أن هناك تشابهاً في النمط الوراثي أو في مسألة الإصابة بالمرض بين أعضاء الجماعات اليهودية وبين الشعوب التي يتواجدون بينها . فهم ينتمون إلى ثقافة هذه الشعوب ويعيشون ظروفها . وفي دراسة أجريت في إسرائيل أعوام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٦ ، يُلاحظ الباحث أن نسبة الإصابة بمرض ارتفاع ضغط الدم المصاحب للحمل ترتفع بين النساء اليهوديات من أصل إيراني . وكذا بين المسلمات العرب ، عنها بين النساء اليهوديات من أصل يديشي أو سفاردي . وهو يحاول أن يربط بين المرض وبين ما دعاه بـ «الأصل العرْقي» ، ولكنه يعود في فقرة أخرى ليتحدث عن العوامل الاقتصادية الاجتماعية ، وليس عن الأصل العرْقي ، دون أن يُلاحظ ما في قوله من تَنَاقُض ، فيقول : إن المرض أكثر انتشاراً بين الأمهات الفقراء وغير المتعلمات!

في هذا الصدد ، تَذكُر دراسة أجريت في إسرائيل بين عامي ١٩٥٢ و١٩٥٣ أن معظم حالات أمراض الجهاز الهضمي بين يهود اليديشية هي حالات قرحة المعدة والقولون العصبي ، وهي حالات عصبية جسمية . وعلى العكس من ذلك ، تزداد الأمراض المعدية بين اليهود الشرقيين . فيهود اليديشية القادمون من أوربا يعانون أساساً من أمراض الحضارة الغربية ، أما اليهود الشرقيون فيعانون من أمراض المنطقة العربية .

ونحن نلاحظ أيضاً أن غالبية الأمراض الوراثية ، التي تُعزَى إلى اليهود بشكل أو آخر ، ما هي إلا أمراض تزيد نسبتها بين صفوف يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي . ويرجع هذا أولاً وقبل كل شيء إلى ارتفاع مستواهم المادي مقارنةً بغيرهم من البشر في الولايات المتحدة حيث يحتلون مراكز قوية داخل صفوف الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة ، الأمر الذي يتيح لهم قدراً عالياً من

التعليم ، وبالتالي يمكنهم الاستفادة من عملية فحص الأبوين وفحوص ما قبل الزواج التي تتطلب تكاليف باهظة لا يقدر عليها المواطنون من أصل أفريقي مثلاً .

وعلى أية حال ، فإن هذه الدراسات لا تتطرق إلى الأمراض الوراثية العائلية التي تصيب العائلات اليهودية الثرية كعائلة روتشيلد على سبيل المثال . والملاحَظ أن النمط الوراثي هنا يختلف عن النمط العام لأمراض يهود اليديشية ويقترب من النمط الوراثي للعائلات الأرستقراطية الأوربية كآل رومانوف الروس مثلاً ، حيث تنتشر بينهم أمراض الدم مثل الهيموفيليا ، وهي أمراض تعني شدة انغلاق العائلة على نفسها ، وهو ما يؤدي إلى العزل الجيني أو التثبيت الوراثي لصفة مُتنحية .

لكن الحديث عن الأمراض اليهودية ، دون مقارنة هذه الظاهرة بالظواهر المماثلة في المجتمع ، يؤدي إلى نزع الظاهرة من سياقها ويفتح الباب على مصراعيه للنظريات العنصرية ، والمنطق نفسه الذي يحاول إثبات التفوق الوراثي لليهود يمكن أن يحاول أيضاً إثبات خطورتهم الوراثية وضرورة اتخاذ الإجراءات لوضع حد لهذا الخطر .

نقـــاء اليهـــود حضـــاريا (إثنـــيا)

Cultural (Ethnic) Purity of the Jews

«نقاء اليهود حضارياً (إثنياً)» هي عبارة تعني أن ثمة شعب يهودي ذو تقاليد حضارية يهودية خالصة ، احتفظت باستقلالها ووحدتها ونقائها .

والنقاء الحضاري هو المفهوم الأساسي الكامن في الكتابات الصهيونية عن اليهود . ومن ثم ، فهم يتحدثون عن «الخصوصية اليهودية» أو «التراث اليهودي» أو «الثقافة اليهودية» وعن «التاريخ اليهودي» وكأن هناك بنية تاريخية مستقلة يدور اليهود في إطارها بمعزل عن الأغيار ، وذلك برغم انتشارهم في كل أنحاء الأرض ، بل ويتحدثون عن «النظام السياسي اليهودي» و«الاقتصاد اليهودي» ، وهكذا ، باعتبارها كلها ناتجة عن هذا النقاء الحضاري اليهودي ، وباعتبارها الأطر التي احتفظ اليهود من خلالها بنقائهم .

ويُلاحَظ أن النقاء الثقافي غير منفصل عن النقاء العرْقي ، فاستناداً إلى فكرة الشعب العضوي (فولك) ، ترتبط حضارة أي شعب بالدماء التي تجري في عروقه . ومن ثم ، فإن هناك وحدة لا تنفصم عراها بين الحضارة والعرْق . وقد سادت هذه الفكرة أوربا في القرن التاسع عشر ، وكانت من أكثر الأفكار شيوعاً ، وأثَّرت في الفكر القومي الغربي وفي الفكر النازي والصهيوني وفي النظرية الإمبريالية الغربية .

ونحن نذهب إلى أن هناك ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيلات الحضارية التي يوجد داخلها اليهود - ومن هنا عدم نقاء الظواهر الحضارية اليهودية ابتداءً باللغة العبرية ذاتها ، وانتهاءً بالنشيد الوطني الإسرائيلي «الهاتيكفاه» (أي الأمل) - (انظر الباب المعنون «ثقافات أعضاء الجماعات اليهودية [تعريف وإشكالية]») .

والواقع أن الامتزاج مع الحضارات والشعوب الأخرى ليس أمراً معيباً أو مشيناً ، فهو قانون الوجود الإنساني . ولكن الصهاينة ، شأنهم شأن المعادين لليهود ، يحاولون خلع صفة النقاء الحضاري وأحياناً العرْقي على اليهود ، وفي هذا إنكار لإنسانيتهم لأنهم حين ينتزعون اليهود من سياقهم التاريخي المتعيِّن إنما ينتزعونهم من سياقهم الإنساني الوحيد .

الخصوصية اليهودية

Jewish Specifcity

«الخصوصية اليهودية» تعبير ينطلق من أن هناك سمات وخصائص ثابتة يُفترَض أنها مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية ومن ثم تمنحهم خصوصيتهم . وهذه الفكرة كامنة في جميع الأدبيات الصهيونية والأدبيات المعادية لليهود ، إذ أن كلاً منهما يرى أن ثمة طبيعة بشرية يهودية أو تاريخاً يهودياً خاصاً مقصوراً على اليهود . ولكن دارس الجماعات اليهودية في العالم سيرى أن مفهوم الخصوصية اليهودية ليس له ما يسنده في الواقع ، إذ يتسم أعضاء الجماعات اليهودية ، بل والنسق اليهودي الديني ذاته ، بعدم التجانس . ولذا ، فقد يكون من الأدق الحديث عن خصوصيات الجماعات اليهودية ، وهي خصوصيات أدَّت العناصر التالية إلى ظهورها :

١ ـ اضطلعت أعداد كبيرة من الجماعات اليهودية بدور الجماعات الوظيفية الأمر الذي أدَّى إلى عزلها عن المجتمع ، ومن ثم كان لهذه الجماعات لون خاص بها وشخصية شبه مستقلة . لكن هذه الخصوصية وظيفية أكثر منها حضارية ، أي مرتبطة بالوظيفة لا بالتراث المشترك .

٢ ـ ما يضفي على أعضاء الجماعات اليهودية ، (في معظم الأحوال) طابع الاستقلال النسبي الإثني هو ميراثهم من تشكيل حضاري سابق كانوا يتواجدون فيه ، وحملوا بعض عناصره وسماته معهم إلى

التشكيل الحضاري الجديد الذي انتقلوا إليه ، وتمسكوا بها وحافظوا عليها دون أن تكون هذه العناصر والسمات يهودية بالضرورة .

٣ ـ الخصوصية اليهودية التي تتمتع بها الجماعات اليهودية الوظيفية هي أقرب إلى الحالة الذهنية الافتراضية منها إلى الحالة الواقعية الفعلية ، فرغم العزلة التي يفرضها المجتمع على الجماعة الوظيفية فإن أعضاء الجماعة اليهودية يكتسبون كثيراً من خصائص هذا المجتمع ويندمجون فيه .

لكل هذا ، لا يمكن الحديث عن خصوصية يهودية واحدة عالمية مُستمَدة من معجم حضاري واحد ، بل يمكننا أن نقول إن هناك خصوصيات يهودية شتى اكتسبها أعضاء الجماعات اليهودية لا من تراث يهوديّ عالمي أو من خلال حركيات حضارية يهودية عامة ، وإنما من خلال التفاعل مع عدة تشكيلات حضارية ، ومن خلال التكيف معها بطرق مختلفة ، ومن خلال الاندماج فيها في نهاية الأمر . ومن ثم أصبح أعضاء الجماعة اليهودية في الصين يهوداً صينيين (أو صينيين يهوداً) تحددت خصوصيتهم داخل التشكيل الحضاري الصيني وبسببه ، لا خارجه وبالرغم منه . ولذا ، انضمت قيادة الجماعة اليهودية في الصين إلى طبقة كبار الموظفين العلماء (ماندرين) ، وتطبَّع أعضاء الجماعة اليهودية بطبائع الصينيين في كثير من النواحي . ويُقال الشيء نفسه عن يهود الهند ويهود إثيوبيا ويهود العالم العربي . بل ونجد ، داخل التشكيل الحضاري الواحد ، كالتشكيل الحضاري العربي ، أن يهود العراق يختلفون عن يهود اليمن بمقدار اختلاف العراق عن اليمن . وفي اليمن ، يختلف يهود صنعاء عن يهود الجبال (صعدا وغيرها) بمقدار اختلاف أهل صنعاء عن أهل الجبال .

وتختلف الأزياء التي يرتديها أعضاء الجماعات اليهودية باختلاف التشكيل الحضاري الذي ينتمون إليه . فالبنطلون الجينز أو الميني جيب (زي الفتاة اليهودية الأمريكية الحديثة) يختلف عن زي الفتاة اليهودية الأمريكية في الجنوب الأمريكي قبل الحرب الأهلية حيث كانت تلبس أزياء الأرستقراطية الإنجليزية . وزي كلتيهما لا علاقة له بالزي الذي ترتديه الفتاة اليهودية من قبائل البربر في المغرب وتونس . وكل هذه الأزياء لا علاقة لها بما ترتديه الفتاة اليهودية المحجبة في بخارى أو نساء السفارد الأرستقراطيات في شبه جزيرة أيبريا اللائي كن يرتدين ملابس الأرستقراطية الإسبانية (أو العربية) . ويُقال الشيء نفسه عن فلكلور المجتمعات اليهودية الذي هو في واقع الأمر فلكلورات الجماعات المختلفة التي ينتمون إليها ، فطاسة الخضة التي يستخدمها يهود مصر أمر غير معروف ليهود بولندا الذين تأثروا بالتراث الشعبي السلافي ، وكلاهما سيُصدَم حينما يعرف بعض العادات التي يمارسها يهود إثيوبيا مثل ختان الإناث وعزل المرأة في كوخ مستقل أثناء الحيض . والشيء نفسه ينطبق على الفنون الجميلة ، فرسوم شاجال تختلف اختلافاً جوهرياً عن الزخارف الهندسية التي تظهر على النحاسيات المملوكية التي لا يزال الحرفيون اليهود يصنعونها في دمشق ، وكلاهما يختلف عن الحلي الفضية التي يصنعها الصاغة اليهود في اليمن أو تونس .

وقد يُقال إن اللغة العبرية تشكل عنصراً مشتركاً بين أعضاء الجماعات اليهودية ، لكن من المعروف أن العبرية ظلت في معظم الأحيان لغة الصلاة التي كُتبت بها بعض الكتابات الفقهية ، ولم يكن يجيدها سوى أعضاء الأرستقراطية الدينية . وبعبارة أخرى ، كانت اللغة العبرية ، كعنصر مشترك مستمر ، مقصورة على فئة صغيرة من الجماعات اليهودية ، ولا تمتد إلى كل النشاطات الإنسانية . أما الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية ، فكانوا يتحدثون لغات ولهجات استقوها من الحضارات والمجتمعات التي وُجدوا فيها ، وهذه اللغات تحدِّد ولا شك جانباً كبيراً من رؤيتهم للعالم .

ولعل الصورة اللغوية بين يهود العالم توضح ما نرمي إلى تأكيده . فالغالبية الساحقة ليهود العالم في نهاية القرن التاسع عشر كانت تتحدث اليديشية (لا العبرية) . وفي الوقت الحالي نجد أن غالبية يهود العالم (الولايات المتحدة ـ إنجلترا ـ كندا ـ جنوب أفريقيا ـ أستراليا ـ نيوزيلنده) يشكلون جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو ـ ساكسوني ، ولذا فهم يتحدثون الإنجليزية لا العبرية (وفي تَصوُّرنا أن إسرائيل هي أيضاً جزء من هذا التشكيل ، ولكن الغرب رأى أن يحتفظ هذا الجيب ببعض السمات اليهودية مثل العبرية حتى يمكنه استيعاب الفائض البشري اليهودي من شرق أوربا والذي كان يتدفق على غرب أوربا في نهاية القرن التاسع عشر) . أما يهود الفلاشاه فهم يتحدثون الأمهرية ويتعبدون بالجعيزية التي لم يسمع بها كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، تماماً كما لم يسمع الفلاشاه من قبل بالعبرية أو اليديشية وربما الإنجليزية .

والواقع أن مصدر الاختلاف بين اللغات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية ، والأزياء التي يرتدونها ، والفنون التي يعجبون بها أو ينتجونها ، هو دائماً اختلاف التشكيلات الحضارية التي انتمى إليها أعضاء الجماعات اليهودية في الماضي ، أو التي ينتمون إليها في الوقت الحاضر ، وهذا ما حمل أحدهم على الإشارة إلى أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بأنهم «واسب

يهود» . وكلمة «واسب» هي اختصار لعبارة «وايت أنجلو ساكسون بروتستانت White Anglo Saxon Protestant» أي «بروتستانتي أبيض من أصل أنجلو ساكسوني» . ويشير يهود فرنسا الأصليون إلى المهاجرين المغاربة بوصفهم «كوشر كُسْكُس» ، أي أن يهودية يهود المغرب مرتبطة ولصيقة بهويتهم المغربية ، فطعامهم لا تقرِّره العقيدة اليهودية وحدها ، ولذا فهو ليس «كوشير» وحسب ، وإنما يقرره أيضاً انتماؤهم الإثني ، ولذا فهو أيضاً «كُسْكُس» . والخصوصية اليهودية هنا ليست سمة عامة وإنما هي سمة مرتبطة بانتمائهم المغربي . ولذلك ، يرى البعض أن هؤلاء لو فقدوا خصوصيتهم المغربية لفقدوا هويتهم اليهودية أيضاً .

وقد يُقال إن ثمة رابطة دينية قوية بين أعضاء الجماعات اليهودية ، وإن الخصوصية اليهودية تكمن في هذه العقيدة الفذة . ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن العقيدة اليهودية لا تختلف كثيراً عن الإثنية اليهودية ، فالعقيدة اليهودية ذاتها تأخذ شكل تركيب جيولوجي غير متجانس تتراكم داخله أنساق دينية مختلفة ، بعضها توحيدي وبعضها الآخر حلولي أو تشاوبي (انظر الباب المعنون «اليهودية باعتبارها تركيباً جيولوجياً تراكمياً») . والرؤية اليهودية في الصين اكتسبت مضموناً صينياً صريحاً ، وانغمس اليهود تحت تأثير الكونفوشيوسية في عبادة الأسلاف وكانوا يطلقون على الإله اسم «تاين» أي السماء ، أو «تاو» ، أي الطريق ، وكانوا يعبدونه في معبد يهودي يقف بجواره معبد آخر خُصِّص لعبادة الأسلاف . وكان بعضهم يأكل لحم الخنزير (مثل الصينيين) ولكنهم كانوا لا يضحون به لأسلافهم بل كانوا يقدمون لهم لحم الضأن وحسب . والأسلاف هنا ، بالمناسبة ، هم إبراهيم ويعقوب وإسحق . وفي الهند تأثرت اليهودية بنظام الطوائف المغلقة وبالعديد من الشعائر الخاصة بالنجاسة ، تحت تأثير الهندوكية . أما في إثيوبيا ، فقد تأثرت اليهودية هناك بكل من الإسلام والمسيحية ، فيهود الفلاشاه يخلعون نعالهم ويصلون في مسجد ، ولكنهم يتلون صلواتهم بالجعيزية ، لغة الكنيسة القبطية ، كما أن يهوديتهم دخلتها عناصر وثنية عديدة . وفي المحيط الإسلامي ، قام موسى بن ميمون بتطوير عناصر التوحيد في اليهودية وأكدها ، بل وحاول ابنه من بعده إضفاء الطابع الإسلامي على اليهودية . كما تأثرت اليهودية في المحيط السلافي الفلاحي بالمسيحيين الأرثوذكس ، وبحركات المتصوفة التي ظهرت بينهم ، وكانت هذه العناصر من بين الأسباب المهمة التي أدَّت إلى ظهور الحسيدية . أما في ألمانيا ، والولايات المتحدة فيما بعد ، فقد تأثرت اليهودية بالمحيط البروتستانتي وظهرت اليهودية الإصلاحية في بلد لوثر . أما في البلاد الكاثوليكية ، خصوصاً في أمريكا اللاتينية ، فقد تأثرت اليهودية بالعقيدة الكاثوليكية في كثير من جوانبها ، ولذلك لا توجد يهودية إصلاحية في أمريكا اللاتينية . وقد حدا هذا ببعض الدارسين إلى الحديث عن «يهودية كاثوليكية» ، و«يهودية بروتستانتية» ، و«يهودية إسلامية» ، ويمكن أن نضيف «يهودية كونفوشيوسية» وأخرى «هندوكية» وثالثة «أفريقية» ، فهذه كلها يهوديات تستمد خصوصياتها من محيطها الديني .

وهذا الأمر طبيعي وإنساني إلى أقصى حد . فالبشر ، شاءوا أم أبوا ، يتأثرون بمحيطهم الحضاري ويؤثرون فيه . كما أن أعضاء الأقليات عادةً يتأثرون بمحيطهم الحضاري أكثر مما يؤثرون فيه ، إلا إذا كانوا من الغزاة ، ففي هذه الحالة يصبح الغزاة نخبة عسكرية حاكمة يتقرب منها أعضاء المجتمع ويتعلمون لغتها ويتشبهون بها إلى أن يفقدوا لغتهم وهويتهم الأصليتين . وعلى أية حال ، لم يكن العبرانيون ولا أعضاء الجماعات اليهودية في مثل هذا الوضع في يوم من الأيام ، باستثناء فترة احتلال فلسطين على يد المستوطنين الصهاينة (وهم ، على أية حال ، جماعة غير متجانسة حضارياً ، كما أن الفلسطينيين العرب جماعة واعية ومتماسكة حضارياً إلى أقصى حد) .

هذا إذن أمرٌ طبيعي وإنساني ، لكن المشكلة تنشأ حينما يصرُّ المؤرخون الصهاينة وغيرهم على استخدام كلمة «يهود» للإشارة إلى أعضاء الجماعات اليهودية كافة ، كما لو كانوا كلاً واحداً متماسكاً متجانساً ، ومن ثم فإنهم يتحدثون عن «فن يهودي» و«أزياء يهودية» بل و«لغات يهودية» تُجسِّد كلها خصوصية يهودية مطلقة لا علاقة لها بالتشكيلات الحضارية المختلفة . والواقع أن حديث الصهاينة عن «الخصوصية اليهودية» ناجم عن ملاحظة أن الجماعات اليهودية منفصلة عما حولها من ظواهر مماثلة . فمما لا شك فيه أن كثيراً من الجماعات اليهودية ، خصوصاً في الغرب ، كانت معزولة عن محيطها الحضاري إلى حدٍّ ما ، وقد تركت هذه العزلة أثرها على أعضاء الجماعات اليهودية على شكل تَميُّز وخصوصية . ولكن معظم الجماعات الوظيفية ، يهودية كانت أم غير يهودية ، تُضرَب عليها العزلة أيضاً وتكتسب خصوصية ما مرتبطة بوضعها الاجتماعي الحضاري المحدَّد . وكما أشرنا من قبل ، فإن هذه الخصوصية ليست خصوصية واحدة ولا عالمية ، بل هي خصوصيات مختلفة مُستمَدة من تشكيلات حضارية غير يهودية مختلفة .

كما أن حديث الصهاينة متأثر بتجربة يهود شرق أوربا من يهود اليديشية ، الذين كانوا كتلة بشرية ضخمة (تشكل ٨٠٪ من يهود

العالم) تتميَّز بشكلٍ مباشر عن محيطها الحضاري . ولكن من الواضح أن هذا التميز ناجم عن عناصر حضارية حملها يهود اليديشية من الحضارات السابقة التي عاشوا في كنفها ، وأدخلوا عليها عناصر تبنوها من الحضارة التي انتقلوا إليها . فاليديشية (أهم مظاهر خصوصيتهم) هي ألمانية العصور الوسطى التي كانوا يتحدثون بها قبل هجرتهم بعد أن دخلت عليها بضع كلمات سلافية وعبرية ، ورداؤهم هو الكفتان (القفطان) رداء الأرستقراطية البولندية ، وهو من أصل تتري تركي . كما أنهم تأثروا بمحيطهم السلافي في معتقداتهم الدينية ، فالحسيدية هي نتاج الفكر الصوفي الفلاحي السلافي وعقائد المنشقين على الكنيسة الأرثوذكسية ، وقبعتهم المعروفة بالستريميل المزينة بالفرو هي ذات أصل سلافي . ويمكن القول بأن خصوصية يهود اليديشية تكمن في عدة عناصر مستمدة من عدة حضارات ، وأن وجودها مجتمعة فيهم هو ما قد يشكل خصوصيتهم . وقد كوَّن يهود اليديشية كتلة بشرية ضخمة مترابطة متميِّزة عن محيطها الحضاري مع تأثرها العميق به ، ولذا فإنها تُعدُّ أقلية قومية مثل كثير من الأقليات القومية الأخرى التي كانت توجد داخل الإمبراطورية القيصرية ، فهي لا تشكل شعباً يهودياً وإنما أقلية قومية شرق أوربية . وقد انطلق أعضاء حزب البوند من هذا المفهوم ، وطلبوا حل مشكلة الجماعة اليهودية في شرق أوربا باعتبارها أقلية قومية يهودية شرق أوربية لا شعباً يهودياً عالمياً . وينطلق فكر دبنوف من المفهوم نفسه ، فالحديث عن قومية الدياسبورا هو في واقع الأمر حديث عن الخصوصيات اليهودية ، وقومية الدياسبورا هي حديث عن أقليات قومية ، وعن أقلية قومية واحدة على وجه التحديد ، وهي يهود اليديشية . ومن هنا كان رفض هؤلاء اللغة العبرية ودفاعهم عن اليديشية ، لا باعتبارها لغة اليهود التي تُعبِّر عن خصوصية يهودية عالمية ، وإنما باعتبارها لغة يهود شرق أوربا ، التي تُعبِّر عن خصوصيتهم .

ولكن هذه الخصوصية اليهودية اليديشية وغيرها من الخصوصيات اليهودية ، تم اكتساحها مع ظهور العلمانية الشاملة في الغرب وعصر العقل والاستنارة . فالفكر العلماني والعقلاني ينظر إلى الكون في إطار فكرة القانون العام والطبيعة البشرية العامة والإنسان الطبيعي . وقد ظهر هذا الفكر قبل تَطوُّر الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية التي أدَّت إلى تَراجُع فكرة الإنسان الطبيعي والإنسانية العامة ، حيث حل محلها إدراك أعمق للطبيعة البشرية ولتَداخُل العناصر التاريخية والحضارية الخاصة مع بنية الطبيعة البشرية ذاتها . وقد طالب عصر العقل أعضاء الجماعة اليهودية وغيرهم بالتخلص من خصوصيتهم ليصبحوا بشراً بالمعنى العام للكلمة . وكان يُنظَر إلى اليهود الذين يُؤثرون الإبقاء على خصوصيتهم الدينية أو الإثنية على أنهم «دولة داخل دولة» . وقد شن الفكر العقلاني هجوماً شرساً على جميع الأقليات العرْقية واللغوية والدينية في المجتمع الغربي وضمن ذلك الجماعة اليهودية ، ودعاهم إلى التخلي عن انعزاليتهم وإلى إصلاح وتحديث هويتهم ، أي تطبيعها وتخليصها من أية خصوصية تكون قد علقت بها .

وقد استجاب اليهود إلى هذه الدعوة وبسرعة غير عادية لأسباب عدة ، من بينها عدم وجود خصوصية يهودية عالمية كما أسلفنا ، وعدم وجود سلطة مركزية يهودية تحدد الخصوصية اليهودية وتحدد معاييرها . ويُلاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية ، بسبب غياب هذه السلطة ، كانوا قد تشربوا قدراً كبيراً من الثقافة المحيطة بهم ، عن وعي أو عن غير وعي ، ولذا فلم يكن من الصعب إنجاز عملية التخلص من أية علامات على الخصوصية . كما ظهرت بين اليهود حركات إصلاح ديني وتنوير أسهمت في تخليص اليهود من أية خصوصية دينية أو غير دينية . ومع هذا ، يجب ملاحظة أن أشكال العلمنة ومعدلاتها ذاتها كانت تختلف من بلد إلى آخر حسب الخصوصية الدينية والحضارية لهذا البلد أو ذاك .

وأكبر دليل على الاختفاء السريع للخصوصية هو ما حدث للكتلة البشرية الشرق أوربية الضخمة من يهود اليديشية ، والتي كانت تشكل ٨٠٪ من يهود العالم . فقد اختفت اليديشية ، أهم مظاهر هذه الخصوصية بسرعة غير عادية ، ولم يعد هناك سوى بضعة جيوب وأفراد يتحدثونها . وتُعَدُّ تجربة المهاجرين اليهود مع الولايات المتحدة من أهم التجارب في التخلص من الخصوصية ، فقد كان أعضاء الجماعة اليهودية هم أسرع أقلية تمت أمركتها رغم كثرة الحديث عن انعزالهم وتطلعاتهم القومية ، وذلك لأن المجتمع الأمريكي هو المجتمع العلماني النموذجي . وفي الوقت الحاضر ، تدل الصورة العامة للخصوصيات اليهودية في العالم على تآكلها ، وعلى تزايد معدلات اندماج اليهود في مجتمعاتهم .

وبطبيعة الحال ، لا يمكن الحديث في الوقت الحاضر عن أية خصوصية إسرائيلية . ولكن ، حتى إن ظهرت مثل هذه الخصوصية ، فإنها لن تكون خصوصية يهودية عالمية وإنما خصوصية التجمع البشري الاستيطاني في الشرق الأوسط ، ذلك المجتمع الذي يتحدث سكانه اللغة العبرية مع أنهم جاءوا من تشكيلات حضارية شتى وأحضروا معهم خصوصياتهم الحضارية المختلفة . والنزاع القائم بين الأرثوذكس وغير الأرثوذكس ، وبين الدينيين واللادينيين ،

وبين السفارد والإشكناز ، هو أكبر دليل على عدم وجود الخصوصية اليهودية العالمية أو العامة .

الاندمــــــاج

Assimilation

«الاندماج» هو تَبنِّي أعضاء الأقليات عادات الشعوب التي يعيشون في كنفها ، وكذلك تراثها الحضاري من مأكل وملبس وطرق تفكير ولغة ، بحيث لا يختلفون في كثير من الوجوه عن بقية أعضاء المجتمع . والاندماج عكس الانعزال ، وهو مختلف عن الانصهار (أي الذوبان الكامل في المجتمع المضيف أو مجتمع الأغلبية واختفاء أي شكل من أشكال الخصوصية) . وأعضاء الجماعات اليهودية ، باندماجهم في محيطهم الحضاري وانصهارهم أحياناً أو بانعزالهم عنه أحياناً أخرى ، لا يختلفون عن بقية أعضاء الأقليات والجماعات الإثنية ، أو عن بقية البشر .

ولا يوجد قانون واحد يحكم ظاهرة اندماج أعضاء الجماعات اليهودية وانصهارهم أو انعزالهم ، وبالتالي لا يمكن القول بأن اليهود يميلون بطبيعتهم إلى الانعزال عمن حولهم . كما لا يمكن الأخذ بعكس ذلك ، كأن نقول إن اليهود يميلون بطبيعتهم إلى الاندماج فيمن حولهم ، وهكذا . ففي غياب حركيات تاريخية اجتماعية يهودية مستقلة ، لابد من العودة إلى أطر مرجعية مختلفة ، ومن ثم فإن من الضروري دراسة كل حالة على حدة بالإشارة إلى مرجعيتها التاريخية والثقافية غير اليهودية . ومع هذا ، سنحاول أن نصل في المداخل التالية إلى بعض التعميمات الفضفاضة بمقارنة الحالات المختلفة ومقارنة أوضاع الجماعات اليهودية بجماعات وأقليات أخرى .

الاندمــــــاج البنيــوي

Structural Assimilation

«الاندماج البنيوي» هو الاندماج النابع من حركيات المجتمع وبنيته وظروفه الموضوعية ، هذا في مقابل «الدمج المدني» وهو إعطاء اليهود حقوقهم الدينية والسياسية والمدنية من خلال تشريعات وقوانين تصدرها الدولة وتشرف مؤسساتها على تنفيذها . وينطبق هذا الاندماج المدني على معظم يهود العالم الغربي ، أي أغلبية يهود العالم .

وتتم عملية الدمج المدني على مستوى البنية الشكلية السطحية ، ولذا فهي لا تضرب بجذورها في الواقع المتعين ، ومن ثم فهي مهددة بالاختفاء في أية لحظة . وقد حدث شيء مماثل في ألمانيا في ثلاثينيات هذا القرن . فأعضاء الجماعة اليهودية كانوا قد حققوا درجات عالية من الاندماج المدني ، بعد أن حصلوا على حقوقهم السياسية والدينية كافة ، وبعد أن أُتيح لهم مختلف الوظائف وفتحت المؤسسات التعليمية أبوابها لهم . وقد تم ذلك بمقتضى القانون . ولكن حين وصل النظام النازي إلى الحكم ، فقدوا كل هذه الحقوق بسبب بنية المجتمع الألماني وعلاقة أعضاء الجماعة اليهودية بها ، والتي أدت في نهاية الأمر ، إلى وصول النازيين إلى سدة الحكم .

ويمكن القول بأن آليات الدمج والعزل ليست مسألة ذاتية أو إرادية تماماً ، وإنما مسألة لصيقة ببنية المجتمع ، ومن ثم فهي قد تتجاوز رغبة المؤسسة الحاكمة في دمج الأقلية أو عزلها ، بل وتتجاوز موقف أعضاء الأقلية من عمليتي الدمج والعزل . فمن المعروف أن الدولة الروسية القيصرية كانت راغبة تماماً في دمج اليهود ، لأن هذا كان يخدم مصلحتها ويتفق مع رؤيتها . وبالفعل أصدرت الدولة الروسية العديد من القوانين لحث اليهود على الاندماج . ولكن كانت هناك عناصر عديدة ذات طابع بنيوي تعوق عملية الدمج المدني مثل تَخلُّف وفساد البيروقراطية الروسية التي كانت تشرف على عملية الدمج . كما أن تَخلُّف أعضاء الجماعات اليهودية لم يساعد كثيراً على عملية الدمج .

ولنضرب مثلاً آخر من كوبا . حينما استولت قوات كاسترو على الحكم ، كانت الحكومة الثورية الجديدة متعاطفة تماماً مع أعضاء الجماعة اليهودية ، وأصدرت التشريعات اللازمة لمنحهم حقوقهم السياسية والمدنية ولتهيئة الجو اللازم لممارسة الشعائر الدينية اليهودية . ولكن على المستوى البنيوي كان الاقتصاد الاشتراكي يضطر الحكومة لتأميم العديد من المصانع التي كان يمتلكها أعضاء الجماعة اليهودية والاستيلاء على رؤوس أموالهم وتصفية كثير من الوظائف التي كانوا يشغلونها (فهم كانوا مرتبطين بالاقتصاد القديم والمصالح الأمريكية) . كل هذا يعني في واقع الأمر أن بنية المجتمع نفسها كانت تلفظهم ، رغم كل المحاولات المخلصة من جانب الحكومة الثورية أن تحافظ عليهم وتستفيد من خبراتهم .

وقد يكون من المفيد أن نتناول بعض آليات الاندماج والانعزال البنيويين فيما يلي :

١ - يُلاحَظ حينما يتحول أعضاء الجماعة الدينية إلى جماعة وظيفية ، أي حينما يضطلعون بوظائف تتطلب نوعاً من الحياد والانفصال عن المجتمع ، أنهم يحققون أقل درجات الاندماج ، إذ أن عُزلتهم تصبح أمراً وظيفياً مطلوباً . ومثال ذلك ، الجماعة

اليهودية في جزيرة إلفنتاين في مصر (قرب أسوان) والتي كانت تشكِّل جماعة وظيفية قتالية ابتداءً من عصر بسمتيك الثاني (٥٩٤ - ٥٨٨ ق.م) ، وكذلك الجماعات اليهودية في الغرب والتي عمل بعض أعضائها أقنان بلاط في العصور الوسطى ، وكذلك يهود الأرندا في بولندا ابتداءً من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر . وحينما يترك اليهود هذه الوظيفة ، فإن الأسباب الداعية إلى عزلتهم تنتفي ويبدأ أعضاء الجماعة في الاندماج في المجتمع بل والانصهار فيه ، تماماً كما حدث في حالة يهود الصين في مدينة كايفنج . ويمكن النظر إلى انخراط بعض يهود اليديشية (من يهود شرق أوربا) في صفوف الطبقة العاملة والوسطى داخل منطقة الاستيطان في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر ، أو تَحوُّل المهاجرين منهم في الولايات المتحدة إلى عمال ومهنيين وتجار في القرن العشرين ، بوصفه تعبيراً عن هذه العملية التي يتحوَّل من خلالها أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة المنعزلة والتي توجد في مسام المجتمع إلى طبقة وسطى أو عاملة توجد في صلبه .

٢ - يبدو أن أعضاء الجماعات اليهودية حينما ينخرطون في صفوف المهن الحرة ، فيعملون كأطباء ومحامين ومديرين وموظفين كبار ، تصبح معدلات الاندماج بينهم عالية للغاية شريطة وجود ظروف معينة أهمها ألا تكون المهنة مقصورة عليهم ، وألا يعمل بها أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية ، وإلا تَحولّوا إلى جماعة وسيطة . فحينما تضم مهنة ما أعداداً كبيرة من أعضاء الأغلبية ، فإن الانتماء إلى المهنة والاستفادة بشبكة الاتصال التي يتم تَبادُل أسرار المهنة من خلالها سيتطلب التخلي عن كل خصوصية قومية . وهذا ما حدث في الصين في كايفنج ، حين انخرط اليهود في سلك طبقة الماندرين من كبار الموظفين من خلال الامتحان الإمبراطوري في منتصف القرن السابع عشر ، فاندمجوا فيهم وأصبحوا صينيين تماماً . ونحن نرى أن ما يحدث للجماعات اليهودية في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (سابقاً) هو من هذا القبيل . فأبناء العمال اليهود وأعضاء الطبقة الوسطى يدخلون الجامعات بنسبة عالية ويتحولون إلى مهنيين وعلماء ، وهنا فإن ولاءهم ينصرف إلى أعمالهم وبالتالي إلى جماعتهم الجديدة . كما أنهم جزءٌ لا يتجزأ من المجتمع في ثقافته ولغته ، الأمر الذي يشجع اليهود على الاندماج الثقافي .

٣ - يُلاحَظ أنه إذا ظهرت الخصوصية ، وظهر التَميُّز والتمايز على المستويات الدينية والاقتصادية والثقافية ، تصبح درجة العزلة عالية للغاية ، إذ تدعم العزلة الاقتصادية العزلة الدينية التي تقوم بدورها بإضفاء القداسة على العزلة الاقتصادية . وربما كان وضع يهود الأرندا في أوكرانيا مثلاً متبلوراً يُجسِّد هذه الصورة ، حيث كانوا يمثلون الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا ، ويعملون بالأمور المالية والتجارية في وسط زراعي فلاحي ، ويتحدثون اليديشية والبولندية في وسط يتحدث الأوكرانية . كما كانوا يهوداً يمثلون نخبة كاثوليكية في وسط أرثوذكسي ، بل ويرتدون أزياء مختلفة عن تلك التي يرتديها الفلاحون ، ويقصون شعورهم بطريقة متميِّزة في شكل لحية وسوالف ، وبالتالي لم تكن تربطهم علاقات قوية بالمجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها . والصينيون ، في جنوب آسيا ، مَثَل آخر لهذا . وهذا يختلف عن تَميُّز الأقلية وتمايزهم على مستوى واحد فقط كما في حالة الأقلية القبطية في مصر ، فالتميز ديني وحسب (وحتى على هذا المستوى توجد أرضية مشتركة عريضة) ، أما على المستويات الثقافية والاقتصادية فهم جزء لا يتجزأ من التشكيل الحضاري العربي الإسلامي في مصر (يتحدثون العربية ولا يختلفون عن بقية أعضاء المجتمع في مأكلهم أو ملبسهم أو مشربهم) .

٤ - يزداد مستوى العزلة والخصوصية إن كان هناك وطن أصلي يتبعه أعضاء الأقلية ويشكل النقطة المرجعية النهائية لهم يستمدون منه هويتهم ورؤيتهم لأنفسهم . وربما كان الصينيون في جنوب شرق آسيا مثلاً جيداً لذلك ، فالصين هي دائماً وطنهم الأصلي ونقطة جذب حضارية ضخمة لها ثقلها ووزنها بالنسبة إليهم . وتزداد معدلات الاندماج باختفاء مثل هذا المركز ، إذ يستمد أعضاء الأقلية رؤيتهم لأنفسهم من المجتمع الذي يوجدون فيه أياً كانت درجة انعزالهم عنه . وغياب مثل هذا المركز يعني أيضاً غياب معايير مركزية دينية أو ثقافية ، وهو ما يعني أن كل أقلية لابد أن تتطور بحسب المعايير المحلية . وهذا ما حدث للجماعات اليهودية في كل أنحاء العالم ، فرغم انفصالهم النسبي عن الأغلبية ، فقد استمدوا هويتهم المستقلة منها (بسبب غياب ثقافة يهودية عالمية ومركز يهودي واحد) ، ومن ثم حققوا معدلات عالية من الاندماج (رغم استقلاليتهم الظاهرة) .

٥ - من الواضح أن ثمة علاقة بين معدلات الاندماج وحجم الجماعات اليهودية . فالجماعات الصغيرة تميل نحو الاندماج بسرعة على عكس الكتل البشرية الكبيرة ، ومن هنا فإن تَركُّز أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية أو غيرها في منطقة سكنية واحدة يساعدها على العزلة ويؤكد خصوصيتها ، إذ يُمكِّنها من ممارسة معظم الأنشطة الحياتية داخل نطاق الجماعة ومن خلال أعضائها ، أما إذا خَفَّت الكثافة السكانية فإن معدلات الاندماج تتزايد . كما أن

صغر حجم الجماعة يجعلها غير قادرة على المساهمة في صياغة الأفكار التي تسود المجتمع ، ولهذا فإنها تَتبنَّى الأفكار السائدة وتستبطنها تماماً . وربما كانت منطقة الاستيطان في روسيا (ثم الاتحاد السوفيتي) ، بكثافتها البشرية اليهودية ، هي أكثر المناطق التي ساعدت على انتشار الخصوصية اليهودية الشرق أوربية اليديشية ، حتى أن بعض مثقفي هذه الجماعة اليهودية كانوا يتحدثون عن قومية يهودية شرق أوربية يديشية . ولكن ، بعد الثورة البلشفية في الاتحاد السوفيتي ، فُتحت أمام اليهود أبواب الحراك الاجتماعي وسُمح لهم بترك منطقة الاستيطان . وقد ساهم هذا في نزوح اليهود وتَناثُرهم وزيادة معدلات الاندماج بينهم . والواقع أن انخراط أعضاء الجماعة في سلك المهنيين يساعد على هذه العملية إذ أن المهني يحاول أن يغتنم الفرص أينما وجدها ، فيترك المنطقة ذات الكثافة السكانية اليهودية وينتقل إلى مناطق نائية تجعل حفاظه على خصوصيته كعضو في الجماعة اليهودية أمراً صعباً بالنسبة له .

٦ - يُلاحَظ أن يهود العالم يوجدون الآن في مناطق حضرية كبيرة مثل نيويورك . ويُلاحَظ أن ذلك يشجع على الاندماج ، ذلك لأن هذه المناطق غير مقصورة على أعضاء الجماعة اليهودية ، وهنا فإنهم يجدون أنفسهم في محيط ثقافي غير يهودي يضطرهم إلى التعامل معه بشكل دائم ويومي والتكيف معه في نهاية الأمر ، خصوصاً إذا كانوا لا يعيشون داخل جيتوات مقصورة عليهم ، ومن الواضح أن نشوء مثل هذه الجيتوات في المدن الكبيرة الحديثة أمر صعب .

٧ - تتزايد معدلات الاندماج في وجود نظم ديموقراطية تمنح اليهود حقوقهم السياسية والمدنية ، وهو المناخ الذي يعيش فيه معظم يهود العالم الغربي ، أي أغلبية يهود العالم .

٧ - يُلاحَظ تزايد معدلات الاندماج مع وجود دولة قومية قوية ذات مؤسسات مركزية تُيسِّر عملية دمج كل المواطنين ، مثل : نظام تعليمي قوي ، ونظام شرطة بوسعه أن يكبح جماح المتطرفين من أعضاء الأقلية والأغلبية ، ونظام إعلامي يعمل على نشر الصورة القومية المطروحة . كما تَخلُق مثل هذه المؤسسات القومية المركزية فرصاً اقتصادية متزايدة يستطيع أعضاء الأقلية أن يحققوا من خلالها شيئاً من طموحاتهم . وبدون هذه المؤسسات ، تظل الصورة القومية مجرد فكرة وطموح عام .

٨ - يبدو أن العلاقات الاجتماعية كلما ازدادت قوة بين أعضاء الأغلبية قلَّت احتمالات الاندماج . بينما تتزايد فرص الاندماج بالنسبة لأعضاء الأقليات مع تَفكُّك النسيج المجتمعي واختفاء المعايير المركزية .

٩ - يؤدي وجود أقليات دينية أو إثنية أخرى في المجتمع إلى تزايد معدلات الاندماج في بعض الحالات ، إذ أن عضو الأقلية لا يصبح شيئاً فريداً مُحاصَراً وإنما يصبح عضواً في مجتمع ذي سلطة مركزية واحدة وأطراف متعددة . ولكن الوضع نفسه قد يؤدي إلى تزايُد الخصوصية . فمع وجود أقليات عديدة ، تَضعُف سلطة المركز وتستمر الأطراف في تطوير خصوصياتها المختلفة وفي إضفاء نوع من الشرعية على فكرة الخصوصية .

هذه بعض التعميمات التي يجب التعامل معها بحذر شديد ، ويجب ألا يركن الباحث لها وإنما أن ينظر لها باعتبارها مؤشرات عامة ، قد تكون مضللة في ظروف معينة . ولذا ينبغي عليه أن يطرح أسئلة محددة ، يحاول من خلال الإجابة عليها أن يصل إلى المنحنى الخاص للظاهرة . ولذا بدلاً من أن يتحدث عن " المهاجرين اليهود " بشكل عام ، عليه أن يسأل عن نوعية المهاجرين اليهود الذين يصلون إلى المجتمع (مستواهم الاقتصادي - مستواهم التعليمي - مرحلتهم العمرية . . . إلخ) . وبدلاً من أن يتحدث عن المجتمع المضيف بشكل مطلق عليه أن يتعامل مع هذا المجتمع في خصوصيته (درجة تقدُّمه - مدى احتياجه لخبرات معينة - نظام الحكم فيه . . . إلخ) .

ويمكن أن نضرب مثلاً لذلك باليهود السفارد الذين هاجروا إلى فرنسا في القرن السابع عشر بعد طردهم من إسبانيا . وكانت عملية اندماجهم سريعة بسبب صغر حجم الجماعة اليهودية ، ولأنهم كانوا ذوي خبرة بالشئون المالية المتقدمة التي كان المجتمع يحتاج إليها ، كما أن لهجة اللادينو التي كانوا يتحدثونها كانت لهجة إسبانية غير بعيدة عن الفرنسية . ومن ناحية أخرى ، لم يكن السفارد مختلفين كثيراً عن الفرنسيين في ردائهم وعاداتهم الثقافية . ويختلف هذا تماماً عن حالة اليهود الإشكناز الذين استوطنوا فرنسا وغيرها من بلاد أوربا في القرن التاسع عشر ، فقد جاءوا من بولندا وكانوا يتحدثون اليديشية ، كما أنهم كانوا يشتغلون بأعمال الربا والرهونات وتجارة التجزئة وكانوا مختلفين عن الفرنسيين في ردائهم وعاداتهم الثقافية ، وكان مستواهم الحضاري بالنسبة للمجتمع الفرنسي مُتدنياً . وهو ما جعل عملية دمجهم طويلة وصعبة ومُعقَّدة .

وقد استخدمنا هنا معيارين : واحد اقتصادي (درجة الثراء) والآخر حضاري (التقدم والتخلف) ، كما استخدمنا معياراً يتصل بالمجتمع المضيف (مدى حاجته للوافدين) . إذا طبقنا هذه المعايير المركبة على ظاهرة مماثلة ، فإنها قد تأتي بنتائج مختلفة تماماً . فقد تم توطين بعض أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا (مع التجار الألمان) لتشجيع التجارة . وكان يهود ألمانيا يتمتعون بمستوى حضاري أكثر

تركيباً بالقياس للوسط الفلاحي البولندي ثم الأوكراني ، وهنا نجد أن التقدم الحضاري قد أدى إلى الانعزال ، فاحتفظ المهاجرون اليهود الألمان بلغتهم التي تطورت وأصبحت اليديشية . وقد جاء اليهود بناء على حاجة المجتمع لهم ، وبدعوة منه ، وهو أمر يُفترض فيه أن يؤدي إلى اندماجهم ، ولكن العكس قد حدث ، لأن الدعوة لم تأت من المجتمع ككل وإنما من النخبة الحاكمة التي أرادت أن تستخدم العنصر اليهودي في تطوير البلاد من الناحية التجارية ، كما أنها استخدمته فيما بعد في استغلال الفلاحين وفي قمع البورجوازية ، الأمر أدى إلى عزلة شبه كاملة لأعضاء الجماعة اليهودية .

ومن المتصوَّر عقلياً أن يؤدي الاندماج إلى تقليل حدة التوتر ضد أعضاء الجماعات اليهودية ، وهو ما يحدث بالفعل في معظم الأحيان ، كما هو الحال في الولايات المتحدة وإنجلترا . ولكن من الثابت أيضاً أن اندماج أعضاء الجماعة اليهودية وتحرُّكهم من مسام المجتمع إلى مركزه وتواجدهم فيها بأعداد كبيرة قد يثير الحقد ضدهم . كما أن غياب الحدود والإشارات المميِّزة قد يؤدي إلى تصاعُد معدل التوتر بين أعضاء الجماعة اليهودية وأعضاء الأغلبية ، إذ تظهر الرغبة في تأكيد الحدود (بين أعضاء الأقلية والأغلبية) ، ثم تظهر النماذج التفسيرية العنصرية التي تتحدث عن المؤامرة اليهودية الخفية ، وعن تغلغل اليهود في كل مناحي الحياة وتَخفِّيهم وتآمرهم ضد المجتمع . ومن هنا كان النازيون يناصبون اليهود الاندماجيين العداء بسبب عدم وضوحهم ، بينما كانوا يتعاونون مع الصهاينة لأنهم يقبلون هوية يهودية متميِّزة وواضحة ومستقلة غير مندمجة في المجتمع . ولهذا ، ساهم النازيون في إحياء الثقافة العبرية وشجعوا النشاط الصهيوني . وإذا كان نظام الحكم شمولياً ، وأصيب الاقتصاد بكساد وزادت معدلات البطالة ، فقد يتحول الهمس العنصري إلى مُخطَّط للطرد والإبادة (كما حَدَث في ألمانيا النازية) .

ويتصور معظم الباحثين أن تصاعُد معدلات العلمنة في المجتمع يزيد روح التسامح تجاه أعضاء الأقليات ، ومن ثم تتزايد معدلات دمجهم . وهو افتراض سليم في بعض الأحيان ، ولكن هناك أمثلة تدل على أن العكس قد يحدث . فمع تصاعُد معدلات العلمنة في الغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ظهرت موجة من العنصرية ، تستند إلى محاولة تعريف الإنسان من خلال عنصر مادي كامن فيه (حجم جمجمته - لون جلده - لون شعره) وهو ما أدى إلى ظهور النظريات العنصرية الغربية التي خلقت التربة الخصبة للحركات الشمولية والفاشية التي قامت بعزل اليهود والحرب ضد دمجهم .

العـــزلة اللفظيـــة والاندمـــاج البنيـــوي
Verbal Isolation and Structural Assimilation

«العزلة اللفظية» هي أن يدَّعي أعضاء الجماعة اليهودية أن لهم هوية متميِّزة ، مختلفة بشكل جوهري عن الهوية السائدة في المجتمع ، في الوقت الذي تتآكل فيه هويتهم وتنتهي عزلتهم من خلال عمليات الدمج البنيوي . ولعل الولايات المتحدة أفضل مثل لذلك في الوقت الحاضر . فرغم أن النبرة الإثنية اليهودية عالية للغاية ، إلا أن الهوية اليهودية آخذة في التآكل وأكبر دليل على هذا معدلات الزواج المُختلَط العالية التي تزيد في بعض الولايات عن ٦٠٪ من مجموع الزيجات اليهودية . ولذا لا يكف الصهاينة عن التحذير من الاندماج ، باعتباره أكثر خطورة على اليهود من الإبادة النازية (الهولوكوست) .

ويركن معظم الدارسين العرب إلى اقتباس ادعاءات اليهود عن هويتهم باعتبارها حقائق ، ثم يدرسون واقع الجماعات اليهودية في إطار هذا الادعاء ، ويبدأون في مراكمة الشواهد على صدقه ، متجاهلين كماً هائلاً من المعلومات يدل على العكس . ومن الثابت تاريخياً أن الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة حققت أسرع معدلات الاندماج بالمقارنة بمعدلات اندماج الأقليات المهاجرة الأخرى .

الاندماج السياسي والاقتصادي والاندماج الحضاري : أشكالهما المختلفة
Political and Economic, and Cultural Assimilation : Their Different Forms

عملية الاندماج عملية مركبة يوجد فيها أساساً طرفان : أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقلية . ولكن الطرفين ليسا متساويين ، إذ أن مجتمع الأغلبية هو العنصر الحاسم في تقرير طبيعة العلاقة بين الأغلبية والأقلية ، فهو الذي يسم الأقلية بميسمه ، ومن هنا فالمسئولية (الاجتماعية والأخلاقية) تقع على عاتق الأغلبية بالدرجة الأولى .

ويمكن أن ننظر للعلاقة بين الأغلبية والأقلية من منظور سياسي واقتصادي مباشر ، كما يمكن أن ننظر إليها من منظور أكثر تركيباً ، وهو المنظور الحضاري :

١ - منظور سياسي اقتصادي :

أ) يمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية يندمجون في النخبة الحاكمة ويصبحون جزءاً منها وتصبح مصالحهم من مصالحها ، حينما يصبحون جماعة وظيفية وسيطة . وفي العصور الوسطى في الغرب ، اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في الطبقة الحاكمة

وأصبحوا أقنان بلاط ، ويهود أرندا في بولندا ، ويهود بلاط في وسط أوربا وفي نواح أخرى منها . وغني عن القول أن اندماج اليهود في الطبقة الحاكمة يعني انعزالهم عن بقية الشعب .

ب) واندماج أعضاء الجماعات اليهودية في الطبقة الوسطى يختلف عن ذلك تماماً ، وهذا ما حدث في أوربا بعد الثورة الفرنسية وفي الولايات المتحدة عند بدايات الاستيطان حينما جاء أعضاء الجماعات اليهودية بخبرات تجارية مهمة ورؤوس أموال كبيرة ، فانخرطوا في سلك الطبقة المتوسطة واندمجوا فيها وفقدوا كثيراً من ملامحهم الإثنية .

جـ) اختلف الأمر تماماً مع وصول يهود اليديشية في أواخر القرن التاسع عشر ، إذ تحوَّلت أعداد كبيرة منهم إلى عمال يعملون بصناعة النسيج على وجه الخصوص نتيجة ميراثهم الاقتصادي الأوربي . ولكنهم ، مع هذا ، لم يكوِّنوا طبقة عمالية مستقلة تماماً ، إذ كانوا جزءاً من الطبقة العاملة الأمريكية التي كانت تشكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الأمريكي . ومع منتصف القرن الحالي ، كان أبناء العمال من أعضاء الجماعة اليهودية قد دخلوا الجامعات وأصبحوا مهنيين وانخرطوا في صفوف الطبقة الوسطى بحيث أصبحت أغلبية يهود العالم أعضاءً في هذه الطبقة ، وهو ما يعني تزايد معدلات الاندماج .

د) يمكن أن يندمج أعضاء الجماعات اليهودية في المصالح الإمبريالية ، وهذا هو جوهر الحل الصهيوني ، إذ تذهب الصهيونية إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية في أوربا قد فشلوا تماماً ، كجماعات وظيفية أو كأفراد ، في الاندماج في التشكيلات الحضارية القومية الغربية . ولكنهم كدولة وظيفية قتالية استيطانية ، يمكنهم تحقيق ما فشلوا فيه كأفراد ، إذ أن هذه الدولة ستندمج في التشكيل الإمبريالي الغربي من خلال تمثيل مصالحه في الشرق الأوسط والدفاع عن هذه المصالح ، وذلك نظير أن يقوم هو بتمويلها والدفاع عنها . والواقع أن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عن وضع اليهود في العصور الوسطى في الغرب حينما اندمجوا في الطبقة الحاكمة في أوربا وانعزلوا عن بقية الشعب . فالدولة اليهودية أصبحت جزءاً من التشكيل الإمبريالي الغربي (وهو المقابل الموضوعي للنخبة الحاكمة) وانعزلت تماماً عن الدول المحيطة بها ، وبهذا حل محل عزلة الجماعة الوظيفية عزلة الدولة الوظيفية .

١ - منظور حضاري :

إن غياب التَجانُس بين الجماعات اليهودية في العالم هو أكبر دليل على معدلات الاندماج الحضاري العالية ، ذلك أن عدم التجانس يقف دليلاً على أنه لا توجد خصوصية يهودية عالمية بقدر ما توجد خصوصيات يهودية نابعة من المجتمعات المختلفة وتتحدد من خلالها وبسببها لا من خارجها ورغماً عنها . ويمكن أن نضرب العديد من الأمثلة على ذلك :

أ) خضع يهود كايفنج في الصين تماماً لحركيات المجتمع الصيني الحضارية ، وهو المجتمع الذي كان يتسم بالتعددية الدينية ورَفْض مفهوم القومية . فالإمبراطورية هي العالم ، وبالتالي فهي تضم أقواماً مختلفة . ولم يتم حصر اليهود داخل دور اقتصادي أو اجتماعي محدَّد بل أتيحت أمامهم كل الوظائف ، فبدأوا يتبنون لغة المجتمع الثقافية وفقدوا أية خصوصية جلبوها معهم ، وبدأت العناصر غير اليهودية تدخل اليهودية (وهذا تقليد صيني في حد ذاته : أن تستوعب العبادة عناصر من خارجها) ، فاختلطت العقيدة اليهودية بعبادة الأسلاف وأطلقت أسماء صينية على الإله ، وانتهى الأمر بأن فقد اليهود هويتهم تماماً .

ب) اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في الهند في مجتمعهم الهندي المبني على فكرة الطائفة المغلقة والفصل الحاد بين الجماعات ، فَتَبنَّى أعضاء الجماعات اليهودية هذه اللغة الثقافية وفصلوا بينهم وبين أعضاء المجتمع . بل وساد داخل الجماعات اليهودية نفسها هذا الفصل الحاد بين البيض والسود وبين اليهود البغدادية وغيرهم ، بحيث تكونت طوائف مغلقة داخل الجماعات اليهودية . وثمة مفارقة طريفة تستحق الملاحظة وهي أن عزلة أعضاء الجماعة اليهودية هي في الواقع تعبير عن الاندماج وتعبير عن تَقَبُّل لغة المجتمع الحضارية وعاداته وتقاليده .

جـ) اندمج يهود جمهورية جورجيا السوفيتية (سابقاً) تماماً في مجتمعهم ، وتَبنَّوا مأكله وملبسه ولغته ، وانخرطوا في شبكة العلاقات التقليدية التي ظلت قائمة بعد سنوات طويلة من الحكم البلشفي . وكانوا يشاركون الجورجيين في رفض الحكم السوفيتي المركزي . وحينما سنحت ليهود جورجيا فرصة الهجرة إلى إسرائيل ، فعلوا ذلك . فهجرتهم الاستيطانية ، هنا أيضاً ، تعبير عن اندماجهم لا عن رفضهم مجتمعهم .

د) تَحوَّل أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة إلى أمريكيين يهود ، وهم الأمريكيون الذين يكتسبون الهوية الأمريكية ويحتفظون بأبعاد إثنية خاصة لا تتناقض مع انتمائهم الأمريكي . والواقع أن الاستقلال النسبي الذي يتمتع به الأمريكيون اليهود في مجتمعهم هو ، بالمثل ، علامة على اندماجهم الكامل ، فهذه هي اللغة الحضارية السائدة والنمط المتكرر في المجتمع . فالعقد

الاجتماعي الأمريكي لا يمانع بتاتاً في أن يحتفظ المواطنون الأمريكيون برابطة ما مع وطنهم ، وأن يحتفظوا بقَدْر من إثنيتهم الحقيقية أو الوهمية ، ما دامت هذه الإثنية لا تتعارض مع انتمائهم لوطنهم الأمريكي ولا مع مصالحه . ولذا ، فإن المجتمع الأمريكي مُكوَّن من أمريكيين إيطاليين (أي من أصل إيطالي) وأمريكيين أيرلنديين (من أصل أيرلندي) وهكذا . ويظهر مدى اندماج يهود الولايات المتحدة في مجتمعهم في موقفهم من تجارة الرقيق والحرب الأهلية الأمريكية . فيهود الشمال عارضوا هذه التجارة ، شأنهم شأن أهل الشمال ، وتَبنَّوا موقفاً مناوئاً لهذه التجارة . أما يهود الجنوب ، فقد تَبنَّوا موقف أهل الجنوب ، فاقتنوا العبيد والمحظيات السود ، وكان منهم تجار الرقيق بمعدل يفوق المعدل على المستوى القومي . ولم تظهر شخصية يهودية واحدة في الجنوب عبَّرت عن تَحفُّظها على تجارة الرقيق ، كما لم يُثِر أي صحفي أو كاتب أو داعية يهودي أيَّ تساؤل بشأن العدالة الاقتصادية والاجتماعية لمؤسسة الرقيق . ولم يساهم اليهود في حركة تهريب العبيد إلى الشمال بهدف إعتاقهم ، فلا يوجد سوى سجل لحالة واحدة . فاليهود ، إذن ، كانوا بشراً يشكلون جزءاً لا يتجزأ من محيطهم الحضاري والإنساني بكل ما يتضمن من خير وشر .

وقد لاحظ بعض المراقبين أن يهود الجنوب الأمريكي حققوا حراكاً اجتماعياً أكثر من يهود الشمال وتم تَقبُّلهم من جانب المجتمع ومن جانب النخبة ، كما شغلوا تقريباً مختلف الوظائف المتاحة لأعضاء النخبة . وتُفسَّر هذه الظاهرة على أساس وجود العبيد في الجنوب . فالجنوب تَبنَّى اللون (أي العرْق) معياراً وحيداً لتعريف الآخر وأساساً للتضامن ، ومن ثم أسقط المعيار الديني أو الإثني ، وأصبح اليهودي (الأبيض) أيضاً جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الجنوبي ، وذلك على عكس الشمال حيث كانت النخبة بروتستانتية بيضاء وتَبنَّت المعيار الإثني العرْقي الديني الذي صُنفت على أساسه الجماعات . فكان البروتستانت البيض في أعلى الهرم ، والزنوج في أسفله ، أما الكاثوليك البيض فكانوا يأتون في مرتبة أقل من البروتستانت البيض ويليهم في المنزلة اليهود البيض ، وهكذا حتى نصل إلى قاع السلم . ويُلاحَظ ، مع تزايد معدلات العلمنة ، أن اللون أصبح الأساس الوحيد للتصنيف ، ومن ثم تزايد اندماج اليهود والتحامهم بالنخبة . ومن هذا المنظور ، لعبت مؤسسة الرقيق دوراً حاسماً في صياغة شكل الحياة العامة في الجنوب وفي العلاقات الاجتماعية والإنسانية فيه ، وضمن ذلك حياة أعضاء الجماعة اليهودية وعلاقاتهم ببقية طبقات المجتمع وقطاعاته . وقد حدث هذا رغم أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يلعبوا دوراً ملحوظاً أو مؤثراً أو فريداً في تأسيس أو تسيير هذه المؤسسة ولا في التصدي لها .

بل يمكننا القول بأن صهيونية الأمريكيين اليهود نفسها تعبِّر عن اندماجهم ، فصهيونيتهم تعبير عن الأبعاد الإثنية في شخصيتهم الأمريكية ، أي أنها نابعة عن حركية أمريكية خاصة لا حركية يهودية عامة . ولهذا ، فهي تأخذ شكل صهيونية توطينية تدعم إسرائيل (مسقط الرأس !) مالياً وسياسياً ولا تأخذ شكل صهيونية استيطانية تتطلب الهجرة . كما أن سلوك اليهود لا يختلف كثيراً عن سلوك الأمريكيين الأيرلنديين الذين يشكلون لوبي ضغط لصالح بلدهم الأصلي ، مع أنهم لا يفكرون أبداً في العودة إليه .

هـ) اندمج يهود جنوب أفريقيا في مجتمع يشجع الفصل بين الشعوب والأعراق . ولذا ، شكَّل أعضاء الجماعات اليهودية هناك جماعة عرْقية مستقلة ، وأصبحوا من أكثر الجماعات اليهودية صهيونيةً في العالم . وهنا يمكن القول بأن صهيونيتهم تعبير عن اندماجهم في مجتمعهم . لكن جنوب أفريقيا مجتمع استيطاني يعتبر الهجرة منه خيانة وطنية . ولذا ، فإن صهيونية يهود جنوب أفريقيا هي الأخرى من النوع التوطيني لا الاستيطاني ، وإن كانت توطينيتها تنبع من حركيات مختلفة تماماً .

و) يتجلَّى الاندماج في المؤسسات الاجتماعية والدينية للجماعات اليهودية المختلفة . فالقهال في بولندا ، الذي يتم انتخاب أعضائه من بين أعضاء النخبة ، لم يكن سوى صدى للسييم أو البرلمان البولندي الذي كان يضم النبلاء الذين كان من حقهم انتخاب الملك رئيساً لجمهورية بولندا الملكية . ويُلاحَظ أن إنجلترا التي يُوجَد فيها أسقف كانتربري باعتباره رئيساً للكنيسة الإنجليزية ، يُوجَد فيها أيضاً منصب الحاخام الأكبر الذي يُعَدُّ صدى لأسقف كانتربري . كما تَقبَّل المعابد اليهودية في بريطانيا التنظيم المركزي على نمط كنيسة إنجلترا . أما في الولايات المتحدة ، حيث لا يوجد تنظيم مركزي ينتظم كل الكنائس الأمريكية ، فإننا نجد أن المعابد اليهودية تَتبنَّى نوعاً من الوحدة الفيدرالية . ولا يوجد ، بطبيعة الحال ، منصب مثل الحاخام الأكبر .

ز) بل يمكن أن نرى الاندماج الحضاري متبدياً من خلال العقيدة اليهودية ، فهي في العالم الإسلامي تميل نحو التوحيد والفلسفة . أما ألمانيا ، بلد الإصلاح الديني ، فقد ظهرت فيها اليهودية الإصلاحية . وفي روسيا وبولندا ، حيث كانت توجد جماعات المنشقين والمتصوفة من الأرثوذكس ، ظهرت الحسيدية . وهكذا ، فإن العقيدة اليهودية تتبنى اللغة الحضارية السائدة . وفي الهند ، كان اليهود يظنون أن اليهودية تُحرِّم أكل لحم البقر . وفي الصين ، كانوا

يؤمنون بحُرمة التضحية للأسلاف بلحم الخنزير ، ولكنهم كانوا يأكلونه باعتباره لحماً مباحاً شرعياً ، وهكذا . أما في إثيوبيا ، فإن يهود الفلاشاه يصلون في مكان يُسمونه المسجد ، ولهم كهنة يُسمون القساوسة ، كما يوجد لديهم رهبان . ويتحدث يهود الفلاشاه الأمهرية ويتعبدون بالجعيزية ، لغة الكنيسة القبطية في إثيوبيا ، وهذا كله انعكاس للسياق الإسلامي المسيحي الذي يعيش الفلاشاه في كنفه .

اندمــــاج الجمـــاعات اليهـــودية : تاريــــخ

Assimilation of the Jewish Communities : History

ظواهر الاندماج والانصهار والانعزال بين اليهود قديمة قدم ظهور العبرانيين في التاريخ . فمن الواضح أن العبرانيين ، أثناء وجودهم في مصر ، تبنَّوا معظم مكونات الثقافة المصرية إن لم يكن كلها ، وربما كانوا يتحدثون لغة المصريين القدماء ، وفي فلسطين تبنوا لسان كنعان . أما العبادة اليسرائيلية ، وهي عقيدة العبرانيين قبل تبلور اليهودية (كنسق ديني) ، فقد تأثرت بالتراث الديني الكنعاني تأثراً عميقاً ، واندمج العبرانيون في المحيط الكنعاني وفي عبادة بعل ، ومن هنا سخط الأنبياء عليهم . وقد انصهر العبرانيون ، الذين هجَّرهم الآشوريون من فلسطين ، في محيطهم الثقافي إلى أن اختفوا تماماً ، في حين اندمج هؤلاء الذين هجَّرهم البابليون . ولذا ، حينما أصدر قورش الأخميني مرسومه الخاص بعودة اليهود ، رفضت أغلبيتهم التمتع بهذا الامتياز . ويُعَدُّ انتشار النزعة الهيلينية بين اليهود ، سواء في فلسطين أو في مصر ، تعبيراً آخر عن ظاهرة الاندماج . وبعد انحلال الدولة الرومانية ، اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في التشكيلين الحضاريين الإسلامي والمسيحي . وقد تَحدَّث يهود العالم العربي الإسلامي اللغة العربية ، واشتغلوا بمعظم المهن والحرف ، وتأثر تراثهم الديني بالفكر الديني الإسلامي . أما في العالم الغربي ، فقد كان وضع اليهود متميِّزاً ، إذ شكَّل اليهود فيه جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف لا يقوم بها أعضاء الأغلبية وتحتفظ بعزلتها لضمان قيامها بهذه المهن . وانعكس هذا الوضع على التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية للجماعات اليهودية ، مثل القهال والجيتو (في شرق أوربا أساساً) ، وهي تنظيمات كانت تهدف إلى الحفاظ على عزلة اليهود . وقد ازدادت عزلة اليهود في بولندا التي احتفظوا فيها برطانتهم الألمانية اليديشية التي هاجرت معهم .

ولم تكن عزلة أعضاء الجماعات اليهودية مسألة مقصورة عليهم . فالمجتمعات التقليدية كانت قائمة على الفصل بين الطبقات والأقليات والجماعات لتسهيل عملية إدارة المجتمع في غياب مؤسسات الدولة المركزية القومية . ولكن ، بتَفسُّخ النظام الإقطاعي في أواخر القرن الثامن عشر ، ظهرت الدولة العلمانية القومية المركزية ، وهي دولة تستمد شرعيتها من التاريخ المشترك ومن مقدرتها على إدارة المجتمع بكفاءة . كما أن هذه الشرعية تستند أيضاً إلى مدى تعبيرها عن روح الشعب وإرادته . وقد كانت الدولة القومية العلمانية دولة رأسمالية ، في العادة ، تحاول أن تخلق السوق القومية الموحدة التي لم تَعُد بحاجة إلى الجماعات الوظيفية الوسيطة ، إذ أنها تضطلع بمعظم مهامها . ولكل هذا ، تساقط النظام القائم على الفصل بين طبقات الشعب وفئاته ، وحل محله نظام يحاول دمج كل المواطنين الذين يدينون له وحده بالولاء ، على عكس النظام الإقطاعي حيث تستند الدولة إلى شرعية دينية أو شرعية تقليدية ، ولذا يدين الفرد بالولاء إما للكنيسة أو للنبيل أو للملك ، وهكذا .

وتكتسب الدولة القومية العلمانية قدراً كبيراً من شرعيتها من التاريخ والتراث المشترك (الحقيقي أو الوهمي) لمجموعة البشر التي تعيش داخل حدودها ، ولذا طالبت الثورة الليبرالية البورجوازية ، والدولة القومية ، أعضاء الجماعات اليهودية ، وغيرهم من الجماعات ، بأن يتخلوا عن خصوصيتهم الإقطاعية شبه القومية وأن يكتسبوا هوية عصرية متجانسة تعبِّر عن هذا التراث المشترك بين أعضاء المجتمع . وقد قال أحد خطباء الثورة الفرنسية في ديسمبر سنة ١٧٨٩ : " نحن نرفض أن نمنح اليهود كأمة أي شيء ، أما اليهود كأفراد فإننا نمنحهم كل شيء " . وتم إعتاق أعضاء الجماعات اليهودية في معظم أنحاء أوربا ، وبدأت عملية تحديثهم بحيث تم القضاء على تميزهم وتمايزهم الوظيفي والاقتصادي . وقد استجاب أعضاء الجماعات اليهودية لهذا النداء الذي شكَّل تياراً تاريخياً أفرز تحولاته الاجتماعية ، خصوصاً وأن اليهودية الحاخامية (وهي الإطار الفكري ليهود أوربا) كانت في حالة أزمة حادة منذ دعوة شبتاي تسفي المشيحانية وظهور الحسيدية ، فقامت بينهم حركة التنوير اليهودية الداعية إلى الاندماج . كما ظهرت اليهودية الإصلاحية التي حاولت تخليص اليهودية من الجوانب القومية فيها ، وهي الجوانب التي تدعم ما يُسمَّى «الخصوصية اليهودية» ، وتأكيد الجوانب الدينية الروحية حتى يتحقق للمواطن اليهودي الانتماء القومي الكامل والاندماج السوي . وقد حقق أعضاء الجماعات اليهودية بالفعل قسطاً كبيراً من الاندماج في فرنسا وإنجلترا .

وقد اتسمت محاولات الاندماج في بلدان شرق أوربا ووسطها

بالبطء والتعثر بسبب ظهور القوميات العضوية فيها وبسبب سرعة معدل تَطوُّر الرأسمالية المحلية ، الأمر الذي لم يتح لأعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا يلعبون دور الجماعة الوظيفية الوسيطة فرصة للتأقلم والتكيُّف .

وإلى جانب هذا ، كان يهود شرق أوربا من أكثر القطاعات الإنسانية تَخلُّفاً ، كما أن قيادتهم لم تُدرك أبعاد التحدي القومي العلماني الجديد ومدى جاذبيته بالنسبة لجماهيرهم ، الأمر الذي أعاق أعضاء الجماعة اليهودية عن الاستجابة الخلاقة للوضع الجديد في معظم الأحيان . ومن المفارقات أن هذا التخلف نفسه أدَّى إلى نتائج عكسية تماماً بالنسبة للشباب ، إذ كانوا يهرعون إلى عالم الأغيار وينصهرون فيه ، هرباً من الجو الخانق للجيتو .

ويركز الصهاينة على تَعثُّر محاولات التحديث والاندماج لتأكيد حتمية المشروع الصهيوني . ورغم كل الادعاءات عن فشل الاندماج ، فإن الوضع الثقافي لليهود يثبت أن هذا الواقع هو الحقيقة الأساسية في حياة معظم الجماعات اليهودية إن لم يكن الحقيقة الأساسية في حياتها جميعاً . فنسبة الزواج المُختلَط في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، اللذين يضمان أغلبية اليهود في العالم ، مرتفع للغاية (تبلغ في المتوسط ٥٠٪ وتصل في بعض المناطق إلى حوالي ٨٠٪) . والاندماج وحده هو الذي يفسر سلوك أعضاء الجماعات اليهودية المتعيِّن ، فهم يرفضون الهجرة إلى إسرائيل رغم تلويح الحركة الصهيونية لهم بخطر معاداة اليهود بل وبالإبادة . وفضلاً عن ذلك ، فإنهم يرفضون زيارة الدولة الصهيونية للسياحة حيث لم يزرها سوى ١٥٪ من يهود أمريكا الذين يفضلون قضاء إجازاتهم في جزر الكاريبي .

وفي نهاية الأمر ، لا تزال الغالبية العظمى من يهود العالم (٧٥٪) منتشرة في أنحاء العالم فيما يُسمَّى «المَهْجَر» أو «المَنْفَى» أو «الشتات» ، وهو في واقع الأمر ليس بمَهْجَر ولا مَنْفَى ولا شتات ، فهم موجودون في أوطانهم بشكل دائم لا مؤقت ، وهم يعيشون هناك بحُرِّ إرادتهم دون قسر أو إكراه . والغالبية الساحقة من أبنائهم (٩٠٪) لا تتلقى أي تعليم يهودي ولا علاقة لها بما يُسمَّى «الثقافة اليهودية» . وهذا الوضع ينهض دليلاً على اندماجهم وتَقبُّلهم مجتمعاتهم بكل محاسنها ومثالبها وتَبنِّيهم قيمها الحضارية والأخلاقية بشكل كامل . ويذهب بعض الدارسين إلى أن الدولة العلمانية (القومية الرأسمالية أو الأممية الاشتراكية) هي دولة تُعبِّر عن قوانين العقل ، ومن ثم فهي لا تتعامل إلا مع الإنسان العام (الطبيعي أو العقلاني أو الأممي) . ولذا، لابد من القضاء على أية خصوصية.

والواقع أن اندماج يهود العالم الغربي ، هذا الاندماج الكامل في مجتمعاتهم المتقدمة ، تعبير عن هذا الاتجاه .

بيريك يوسيليفيتش (١٧٦٨-١٨٠٩)

Berek Yoselewicz

ضابط بولندي يهودي . وُلد في ليتوانيا ثم عمل بالتجارة وأصبح يهودي بلاط أمير فلنا . وفي إطار مهامه التجارية ، سافر إلى باريس عام ١٧٨٩ عشية الثورة الفرنسية وتأثر بأجوائها وأفكارها، ثم عاد إلى بولندا لينضم إلى العناصر القومية البولندية التي كانت تناضل ضد تقسيم بولندا . وقد انضم يوسيليفيتش ضمن عدد كبير آخر من أعضاء الجماعة اليهودية إلى حركة العصيان المسلح التي اندلعت عام ١٧٩٤ ضد كلٍّ من روسيا وبروسيا . وقد تم تأسيس الفيلق اليهودي بقيادة يوسيليفيتش ، والذي ضم خمسمائة يهودي ناشدهم يوسيليفيتش القتال « مثل الأسود والفهود من أجل طرد العدو من أرضنا » . وقد شاركت قواته في الدفاع عن حيّ براجا في وارسو والذي كان يضم أغلبية من اليهود ضد القوات الروسية . وبعد فشل العصيان ، فرَّ يوسيليفيتش إلى النمسا ثم إلى فرنسا حيث انضم إلى الفيلق البولندي في الجيش الفرنسي ، ثم أصبح ضابطاً في سلاح الفرسان الفرنسي وشارك في حروب نابليون . وبعد تأسيس دوقية وارسو عام ١٨٠٧ ، انضم يوسيليفيتش إلى الجيش البولندي النظامي وتولى قيادة سرية خيالة ومُنح وساماً بولندياً ، كما سُمح له بالانضمام إلى محفل ماسوني أرستقراطي يحمل اسم «الإخوة البولنديون المتحدون» . وقد شارك يوسيليفيتش أيضاً في الحملة ضد النمسا عام ١٨٠٩ وتولى قيادة سريتي خيالة ، ولكنه قُتل في العام نفسه أثناء المعارك ليصبح بطلاً قومياً بولندياً .

وقد أشار كثير من اليهود الداعين للاندماج في بولندا إلى يوسيليفيتش باعتباره نموذجاً لليهودي المندمج المنتمي إلى وطنه البولندي . وهو في الواقع من النماذج النادرة ، إذ أن غالبية يهود بولندا كانوا مرتبطين بنظام الأرندا الذي جعلهم حلفاء الطبقة البولندية الحاكمة وأعداء لكل الطبقات الأخرى . كما أن ثقافة يهود بولندا اليديشية ساعدت على عَزْلهم لغوياً وثقافياً عن بقية الشعب البولندي . ولم ينجح يهود بولندا في الاندماج في الحركة القومية البولندية ، ولذا فقد ظل يوسيليفيتش الاستثناء الذي يُثبت صحة القاعدة . وقد وصلت هذه العزلة إلى ذروتها إبان الحرب العالمية الثانية ، حيث لم ينجح أعضاء المقاومة اليهودية في بولندا في التعاون مع المقاومة البولندية في نضالها ضد المستعمر النازي .

الانصهار (أو الذوبان)

Dissolution

«الانصهار» أو «الذوبان» هو تَزايُد معدلات الاندماج إلى درجة أن أعضاء الجماعات اليهودية يفقدون هويتهم الدينية أو الإثنية الخاصة فيذوبون أو ينصهرون تماماً في الأغلبية بمرور الزمن. ويمكننا تخيل ذلك على شكل مُتَّصل يُشكل أحد طرفيه الانعزال الكامل، وهي حالة نادرة وتكاد تكون مستحيلة، وفي الطرف الآخر الانصهار، وهي حالة ليست متكررة وإن لم تكن محالة. فثمة أمثلة عديدة، عبر تواريخ الجماعات اليهودية، للانصهار الكامل. فلا يمكن تفسير اختفاء أسباط يسرائيل العشرة الذين هجَّرهم الآشوريون إلا على أساس أنهم انصهروا في الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها. والحالة الكلاسيكية للانصهار الكامل هي حالة يهود الصين (في مدينة كايفنج) حيث انخرطوا في السلك الوظيفي الإمبراطوري فتفرَّق أعضاء الجماعة، خصوصاً النخبة، واكتسبوا سمات وخصائص صينية بشكل متزايد وتزاوجوا مع الصينيين. ومع حلول القرن التاسع عشر، لم يكن قد بقي منهم سوى عدة أفراد لا يزيدون على أصابع اليدين.

ومن حالات الانصهار الأخرى، حالة اليهود السفارد في الولايات المتحدة الذين استوطنوا بعد المستوطنين البيوريتانيين ثم انصهروا تماماً في فترة وجيزة. ويُلاحَظ أن ثمة أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية كانت تنصهر دون أن تنصهر الجماعة ذاتها، فتستمر الجماعة دون أن يتزايد عدد أعضائها، وهذا يُفسِّر قلة عدد اليهود في العالم. وكان قد وصل عددهم في القرن الأول الميلادي (بحسب بعض التقديرات) ما بين خمسة وسبعة بل عشرة ملايين. ولعل هذا يُفسِّر مقولة «موت الشعب اليهودي»، فمن أهم أسباب موته (أي تَناقُص عدده بشكل ملحوظ) انصهار أعداد كبيرة منه.

ويمكن أن نشير إلى ذلك الاندماج الذي يقترب من الانصهار. فالنزعة الهيلينية بين أثرياء اليهود في القرنين السابقين على الميلاد واللاحقين له هي شكل من أشكال الاندماج يكاد يكون انصهاراً، كما يمكن القول أيضاً بأن الصيغة الفريسية لليهودية هي نتاج تفاعل الفكر اليهودي مع الحضارة الهيلينية، أي أنها مَثَل من أمثلة الاندماج. ويبدو أن قطاعات كبيرة من يهود ألمانيا، في القرن التاسع عشر، كانت تنصهر تماماً في المجتمع المسيحي وتتخلى عن أي شكل من أشكال الهوية الدينية اليهودية. ويمكن أن نُصنِّف أمركة يهود الولايات المتحدة باعتبار أنها من قبيل الأشكال الحادة من الاندماج الذي يقترب من الانصهار، ومن هنا يُشار إليهم بأنهم «الهيلينيون الجدد». وتشكل أمريكا اللاتينية مثلاً فذاً يتخطى تعميمنا الذي يفترض أن الاندماج يزداد تدريجياً إلى أن يصبح انصهاراً. ومع هذا نلاحظ عدم وجود معدلات عالية من الاندماج في كثير من بلاد أمريكا اللاتينية، وفي الوقت ذاته أظهرت هذه القارة مقدرة فائقة على صهر اليهود وهضمهم مباشرة دون عملية دمج تدريجية.

وعادةً ما تساوي الصهيونية بين الانصهار والاندماج برغم اختلافهما. فالجماعات الدينية العرْقية يمكنها أن تندمج في المجتمع دون أن تفقد قسماتها الخاصة. ويمكن ضرب أمثلة عديدة من تواريخ الجماعات اليهودية في العالم على الاندماج الذي لم يؤد بالضرورة إلى الانصهار كما حدث مع يهود الأندلس في الماضي، وكما يحدث مع يهود الولايات المتحدة في الوقت الحالي. وإن كانت هناك مؤشرات وقرائن عديدة تدل على أن أعضاء الجماعة اليهودية سيأخذون في الاختفاء من خلال الانصهار مع تَعاظُم معدلات العلمنة في المجتمع الأمريكي.

دمج اليهود

Forcible Assimilation of the Jews

«دمج اليهود» هو جزء من عملية تحديث أعضاء الجماعات اليهودية وتحويلهم من جماعة وظيفية وسيطة إلى جزء لا يتجزأ من طبقات المجتمع الحديث، الذي ظهر بعد الانقلاب الصناعي الرأسمالي في الغرب. وهي عملية تَحوُّل اجتماعي ضخمة لم يكن أعضاء الجماعات اليهودية هم المسئولين عنها، ولم يكونوا الوحيدين الذين خاضوها، ويُشار إليها أحياناً بأنها «عملية تحويل اليهود إلى قطاع منتج».

وفي معظم الأحوال، كانت عملية الدمج تأخذ شكل القسر. والواقع أن عملية الدمج تتضمن نوعاً من الجهد الواعي والمُخطَّط، وهي بهذا المعنى مختلفة عن عملية الاندماج أو الانصهار التي تتم عادةً من خلال حركيات المجتمع وآلياته الكامنة التي ربما لا يدركها لا أعضاء الجماعة اليهودية ولا أعضاء مجتمع الأغلبية. ومع هذا، فإن عملية الدمج، بعد المراحل الأولى القسرية الواعية، تتحول عادةً إلى اندماج تلقائي غير واع. كما حدث في كثير من بلاد أوربا، ذلك لأن أعضاء الجماعة اليهودية عادةً ما يستبطنون المُثُل المفروضة عليهم، وتضبط سلوكهم من الداخل، وما كان قسرياً برانياً يصبح بعد قليل تلقائياً جوانياً.

الاندماج : الموقف الصهيوني

Assimilation : The Zionist Position

يتفق الصهاينة والمعادون لليهود على رفض الاندماج قولاً وفعلاً . أما المعادون لليهود ، فيرون اليهودي شخصية عضوية لا يمكن استيعابها في المجتمع ، ولو تم استيعابها فإنها تصبح مثل البكتريا التي تسبب تآكُله وتَخثُّره . واليهود الذين يَدّعون أنهم اندمجوا في المجتمع هم ، بحسب هذه النظرة ، أخطر العناصر اليهودية ، لأنهم يصبحون اسمياً جزءاً من المجتمع يستقرون داخله ، ولكنهم فعلياً (عن وعي أو عن غير وعي) يظلون جسماً غريباً عنه يشبه الخلية السرطانية التي تسبب انحلاله وتآكُله . ولذا ، فإن الحل الوحيد للمسألة اليهودية ، وفقاً لهذه الرؤية ، هو الحل الصهيوني ، أي استبعاد اليهود إلى رقعة خاصة بهم .

والموقف الصهيوني من الاندماج لا يختلف عن ذلك كثيراً ، فالصهاينة يرون أن الاندماج أمر مستحيل لأن الهوية اليهودية العضوية لا يمكنها أن تحقق ذاتها إلا في تربة يهودية وفي وطن قومي يهودي . وبالتالي ، فاليهودي الذي يدَّعي أنه اندمج هو شخصية كاذبة ومريضة نفسياً ، منقسمة على نفسها كارهة لها مثله مثل المتسول الباحث عن انتماء قومي . واليهودي المندمج يعاني ازدواج الولاء ، إذ ليس بإمكانه أن يَدين بالولاء إلا لوطنه اليهودي الذي تربطه به وشائج عضوية قوية . ويُشار إلى اليهود المندمجين في الأدبيات الصهيونية بوصفهم عبدة بعل إله الأغيار أو محبي بابل (أي المنفى) .

ويسوي الصهاينة بين الاندماج والذوبان الكامل ، أي الانصهار ، إذ يرون أن كلاً منهما يؤدي بالضرورة إلى الآخر . رغم أن الاندماج هو أن يصبح الإنسان جزءاً من كل دون أن يفقد بالضرورة بعض صفاته الخاصة ، أما الانصهار والذوبان فيفترضان فقدان الجزء لقسماته الخاصة . ولذا ، يُشار إلى الاندماج في الأدبيات الصهيونية بأنه خطر يتهدد الحياة اليهودية ، وجريمة وخطيئة وعار يحط من كرامة اليهود ، ووصمة في جبينهم . ويتم الربط بين الاندماج والإبادة إذ يُشار إلى الاندماج باعتباره الإبادة الصامتة ، مع أن الإبادة هنا روحية نفسية ، وليست جسدية فعلية . ومع هذا ، فإن الإبادة تؤدي في نهاية الأمر إلى اختفاء اليهودي المندمج فعلياً في مجتمع الأغيار ، وهي الوظيفة نفسها التي تؤديها أفران الغاز . ومؤخراً صرح يوسي بيلين (نائب وزير خارجية إسرائيل) بأن الاندماج (والزواج المُختلَط) يهددان يهود أمريكا أكثر من تهديد العرب ليهود إسرائيل .

ومع هذا ، تظهر فكرة الاندماج في الفكر الصهيوني ذاته بشكل آخر ، إذ يُطالب الصهاينة بتطبيع الشخصية اليهودية ، أي جعلها طبيعية مثل الشخصية غير اليهودية ، وفي هذا تَقبُّل لمعايير مجتمعات الأغيار . كما أن الصهيونية تطمح إلى خلق دولة يهودية تندمج في المجتمع الدولي حتى يصبح اليهود شعباً مثل كل الشعوب . لكن الاندماج ، كما يظهر في الفكر الصهيوني ، يُفترَض إمكانية تَحقُّقه على المستوى القومي وحسب ، واستحالته في ذات الوقت على المستوى الفردي . وقد أثبت الواقع التاريخي أن كلا الافتراضين خاطئ . فأعضاء الأقليات آخذون في الاندماج ، ولا تزال الدولة اليهودية مرفوضة من العرب .

ومن المفارقات التي يشير إليها دارسو الصهيونية أنها بدأت باعتبارها حركة تهدف إلى الحفاظ على الهوية اليهودية والخصوصية اليهودية ، ولكنها في نهاية الأمر أدَّت إلى زيادة معدلات الاندماج . فقد ساهمت الصهيونية ، ابتداءً ، في زيادة معدلات العلمنة بين اليهود حين طرحت تعريفاً قومياً أو عرْقياً لليهودي ليحل محل التعريف الديني الإثني ، وحين جعلت التزام اليهودي يتصبُّ على إثنيته أساساً ، بينما جعلت الالتزام الديني مسألة ثانوية مكملة للانتماء الإثني أو يُمثِّل تجلياً له . وقد أدَّى هذا بكثير من اليهود إلى التخلي عن عقيدتهم وعن كثير من شعائرها ، وكانت هذه مصدراً أساسياً لخصوصيتهم . وقد تساءل الحاخام موريتز جوديمان ، كبير حاخامات فيينا ، في رده على تيودور هرتزل وعلى الدعوة القومية فقال : «من هو أكثر ذوباناً وانصهاراً : اليهودي القومي الذي يتجاهل الشعائر الخاصة بيوم السبت وبالطعام أم اليهودي المؤمن الذي يؤدي الشعائر الدينية ويكون في الوقت نفسه مواطناً كاملاً مخلصاً لبلاده ؟» . وتبلغ معدلات العلمنة ذروتها بين أعضاء الجماعات اليهودية الذين توجد أغلبيتهم الساحقة في مجتمعات علمانية ، وهي تؤدي إلى مزيد من الاندماج والزواج المُختلَط ، وفي نهاية الأمر إلى الانصهار .

وقد ذكر أحد المفكرين اليهود أن الصهيونية وإسرائيل تريان أن بإمكان يهود فرنسا أن يصبحوا أكثر فرنسية (أي أكثر اندماجاً في مجتمعهم) . وهو يفسر عبارته هذه فيقول إن اليهودي بدأ بعد تحطيم الهيكل الثاني يحمل معه ما سماه فرويد «المبنى غير المنظور» ، وهو عبء الشك والإحساس بالنقص وعدم الانتماء ، فأينما ذهب اليهود وعملوا ، مثلهم مثل بقية البشر ، كانوا يشعرون بأن ثمة شيئاً ما ينقصهم . فجميع الشعوب الأخرى لها أرضها وقراها وشرطتها وجيشها ، أما اليهود فكانوا يعيشون دائماً في شك . ولأن ثمة مبنى

جديداً منظوراً يراه الجميع وهو إسرائيل ، فقد اختفى الشك والإحساس بالنقص ، ومن ثم يستطيع كل اليهود الآن أن يشعروا بالهدوء ويمكنهم الاندماج في مجتمعاتهم . وبرغم عدم اتفاقنا مع مقدمات الكاتب ، فيُلاحَظ من الناحية الفعلية أن انتشار الصهيونية هو غطاء براق يخفي معدلات الاندماج العالية . بل إن الصهيونية أصبحت هي الوسيلة التي يريح بها اليهودي المندمج ضميره ، إذ يمكنه أن يُجزل العطاء للدولة اليهودية ويحقق بذلك إحساساً زائفاً ومتضخماً بالهوية والانتماء ثم ينصرف بعد ذلك لحياته العلمانية الأمريكية اللذيذة بكل جوارحه . وقد لاحظ بن جوريون هذه الظاهرة وحَذَّر منها .

ويُعَدُّ الاندماج من أهم الأسباب التي تؤدي إلى ما يُسمَّى في علم الاجتماع في الغرب ظاهرة «موت الشعب اليهودي» ، أي تَناقُص أعداد اليهود بشكل ملحوظ الأمر الذي يؤدي إلى اختفاء بعض الجماعات اليهودية . وقد شُكِّلَت في إسرائيل لجنة صهيونية تهدف إلى مكافحة الاندماج بين أعضاء الجماعات اليهودية .

الـــــزواج المختلـــــط

Mixed Marriage; Intermarriage

تُحرِّم اليهودية الزواج بين اليهود وغير اليهود ، وهي في هذا لا تختلف عن كثير من الأديان . ولكن هذا الحظر في شكله المتطرف يُعبِّر عن الطبقة الحلولية الكمونية التي تفصل الشعب المقدَّس عن الآخرين الذين لا يتمتعون بالقداسة نفسها . فقد جاء في العهد القديم : « ولا تصاهرهم . بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك » (تثنية ٧/ ٣) . ولكن رغم هذا الحظر ، فإن أنبياء اليهود وزعماءهم كانوا يتزوجون من غير اليهوديات . فقد تزوج إبراهيم من هاجر المصرية ، وتزوج حفيده يعقوب من امرأتين من الأغيار ، وتزوج رءوبين وسيمون ويهودا من كنعانيات ، وتزوج دان من مؤابية ، وتزوج زبلون (وقبله موسى) من مَدْيَنية ، وتزوج يوسف من مصرية ، وتزوج داود من امرأة حيثية أنجبت له سليمان الذي تزوج من إناث من جميع الأجناس المعروفة في زمنه . ومع هذا ، منع يعقوب دينه من الزواج من شكيم ، وحذَّرت راحيل أولادها من الزواج من بنات كنعان . ومن الواضح أن الهدف من الحظر في هذه المرحلة لم يكن دينياً بقدر ما كان عرقياً . فراحيل ، مثلاً ، كانت حسب الرواية التوراتية وثنية تسرق الأصنام وتخبئها . ومع هذا ، يرد في العهد القديم أن تحريم الزواج مردّه أن اليهودي قد يعبد آلهة آخرين . وبعد العودة من بابل ، طبق نحميا وعزرا قوانين تحريم الزواج المُختلَط تطبيقاً صارماً وحرفياً ، وطالبا اليهود الذين تزوجوا من أجنبيات بأن يطلِّقوا زوجاتهم . ورغم أن التحريم كان يتجه أساساً ، كما يبدو ، نحو الأقوام الكنعانية السبعة (الوثنية) ، فإن الفقهاء اليهود وسّعوا نطاقه بحيث أصبح ينطبق على كل الأغيار دون تمييز ، بل امتد الأمر ليشمل القرّائين والسامريين .

وعلى هذا النحو ، كان زواج اليهودي من غير اليهودية يُعتبَر فجوراً وزنى مستمرين ، والأولاد الذين يُولَدون من هذه المعاشرة المرذولة يُعتبَرون أبناء زنى أو «مامزير» . وقد كان يُعَدُّ يهودياً من يُولَد لأم يهودية وأب غير يهودي . أما من يُولَد لأب يهودي وأم غير يهودية فلا يُعتبَر يهودياً .

وقد حاول فقهاء اليهود تبرير هذا الحظر الديني . فحاول موسى بن ميمون تفسيره تفسيراً عقلياً . أما راشي ، فقد اكتفى بتأكيد أنه بلا سبب . وتحريم الزواج المُختلَط ، حسب تَصوُّره ، أمر مَلَكي (باعتبار أن الإله هو الملك : ملك اليهود) ، ولذا يجب عدم التساؤل عن سببه كما يجب عدم التساؤل بشأن فكرة الشعب المختار . ومع هذا ، فقد استمر الزواج المُختلَط بين اليهود وغيرهم ، واختفى يهود الصين ، على سبيل المثال ، بسبب زواجهم بالمسلمين وبغيرهم .

وقد تزايدت معدلات الزواج المُختلَط بشكل ملحوظ في العصر الحديث للأسباب التالية :

١ ـ كان الذكور اليهود ، حتى عهد قريب ، هم الذين يتزوجون من إناث غير يهوديات . ولكن الوضع تغيَّر مؤخراً (خصوصاً بعد حركة التمركز حول الأنثى) ، إذ أن كثيراً من الإناث اليهوديات اخترقن الحاجز الديني والنفسي الخاص بحظر الزواج المُختلَط ، فتصاعدت نسبته بينهن حتى كادت تقترب من مثيلتها بين الرجال .

٢ ـ كان الزواج المُختلَط ظاهرة تكاد تكون مقصورة على المتعلمين، فهم أكثر انفتاحاً وتَقبُّلاً لبقية أعضاء المجتمع وأكثر معرفة بأسلوب حياته . ولكن لُوحظ مؤخراً أن معدلات الزواج المُختلَط بين غير المتعلمين بدأت تقترب من مثيلتها بين المتعلمين . ولا شك في أن الإعلام يلعب دوراً أساسياً في هذا، فهو يساعد على تحطيم كل الحواجز وعلى إزالة ما قد يحيط بعضو الأقلية (أو عضو الأغلبية) من أسرار، ويروِّج ثقافة شعبية عامة وأسلوب حياة عام يشارك فيه الجميع .

٣ ـ لُوحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين يتزوجون وهم في سن متقدمة نوعاً ما أكثر استعداداً للزواج المُختلَط . يرجع ذلك إلى أن مثل هؤلاء قد حققوا لأنفسهم استقلالاً اقتصادياً ، وهم عادةً جزء من شبكة علاقات وصداقات مركبة تضم يهوداً وغير يهود . وكل

هذا يعني أنهم لا يخافون من عَزْلهم عن الشبكة اليهودية . كما أن إمكان العثور على قرين مناسب داخل الجماعة اليهودية ، بالنسبة ليهودي متقدم في السن ، ليس مسألة متيسرة .

٤ ـ لُوحظ كذلك أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين يتزوجون للمرة الثانية أكثر استعداداً للزواج المُختلَط ، فهم يبحثون عن زوجة من «نوع مختلف» ، وعن «أسلوب حياة مختلف» ، ولذا فهم لا يمانعون في الانسلاخ عن الشبكة اليهودية ، بل ربما يرحبون بذلك.

٥ ـ لُوحظ أن اليهود العلمانيين أو الإثنيين يُقبلون على الزواج المُختلَط بمعدلات عالية تفوق كثيراً المعدلات السائدة بين اليهود الذين يعتبرون أنفسهم يهوداً بالمعنى الديني . ويعود هذا إلى أن اليهودي الإثني أو العلماني هو يهودي لا يكترث كثيراً بيهوديته كبُعد أساسي من أبعاد رؤيته للكون ، فهي شيء من قبيل الفلكلور (انظر : «الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات العلمانية الغربية الحديثة») .

٦ ـ لُوحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين يُعرِّفون هويتهم دينياً، ومع هذا لا ينتمون إلى أية فرقة يهودية ، هم أكثر إقبالاً على الزواج المُختلَط من اليهود الذين ينتمون إلى فرقة دينية محدَّدة ، فرغم أنهم يسمون أنفسهم عادةً «يهوداً متدينين» إلا أنهم في غالب الأمر غير مكترثين كثيراً بهويتهم الدينية (رغم ادعاء الانتماء الديني) ولا يمارسون إلا قدراً صغيراً من الشعائر .

٧ ـ فيما يخص اليهود المنتمين لإحدى الفرق الدينية ، لُوحظ أن الزواج المُختلَط يكاد ينعدم بين اليهود الأرثوذكس ويصل إلى معدلات عالية بين اليهود الإصلاحيين ويليهم اليهود المحافظون . فاليهود الأرثوذكس يعيشون حسب الرؤية والقيم اليهودية ويقيمون الشعائر اليهودية ، الأمر الذي يجعل مشاركة غير اليهودي أمراً صعباً بل من المستحيل في مثل هذه الحياة . أما اليهود المحافظون ، والإصلاحيون بدرجة أكبر ، فهم يؤمنون بأشكال مُخفَّفة من اليهودية لا تحكم العقيدة والشعائر اليهودية كل جوانبها ، ولذا يمكن لغير اليهودي المشاركة فيها بسهولة ويُسر .

٨ ـ لُوحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية حينما يتخلون عن دور الجماعات الوظيفية ويندمجون اقتصادياً في المجتمع ، تأخذ معدلات الزواج المُختلَط في الزيادة . فعضو الجماعة الوظيفية هو جزء من شبكة يهودية قوية تتحكم في جوانب حياته الدينية والزمنية وتضمن بقاءه، وفي ذات الوقت تقوم بضبط إيقاع حياته من الخارج ومن الداخل .

٩ ـ يؤدي وجود أعضاء الجماعات اليهودية في وظائف معيَّنة مثل المهن الحرة إلى تزايُد معدلات الزواج المُختلَط ، ويعود هذا إلى أن حياة من يشغل مثل هذه الوظائف تتسم بدرجة عالية من الحركية والتنقل والبُعد عن المراكز السكانية اليهودية . كما أن كثيراً من عملائه ليسوا بالضرورة من أعضاء الجماعة اليهودية .

١٠ ـ لُوحظ أن معدلات الزواج المُختلَط في العصر الحديث ترتبط ارتباطاً عكسياً بحجم الجماعة اليهودية ، فيَقل الزواج المُختلَط إذا كان حجم الجماعة كبيراً ، وهو ما يتيح فرصة العثور على القرين اليهودي المناسب ، ويزيد إذا كان حجمها صغيراً إذ تتناقص هذه الفرصة . ومن هنا يؤدي تَوزُّع اليهود في العديد من المراكز السكانية إلى زيادة معدلات الزواج المُختلَط .

١١ ـ قد يُقال ـ رغم تعدُّد المراكز ـ إن أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية مُركَّزة في المدن الغربية الكبرى ومن ثم لابد أن تتراجع نسبة الزواج المُختلَط حسبما ذكرنا في البند السابق . ولكن الأمر عكس ذلك ، فسكان المدن الكبرى هم أعضاء في الجيسيلشافت (المجتمع التعاقدي) حيث الوحدة الأساسية هي الفرد الحركي الذي يتنقل من مكان لآخر ولا يرتبط بالجماينيشافت (المجتمع التراحمي) ، ولذا ، فرغم وجود تجمعات يهودية كبيرة في المدن الغربية الكبرى إلا أنها في واقع الأمر مجرد تجمعات وحسب وليست جماعات أو مجتمعات ، ولهذا يَصعُب على اليهودي أن يصل إلى القرين اليهودي المناسب . كما أن سكان المدن يكونون عادةً أكثر انفتاحاً وحركية من سكان الريف . ولهذا ، ورغم وجود أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في المدن الغربية الكبرى ، فإن معدلات الزواج المُختلَط آخذة في التزايد بينهم .

١٢ ـ يؤدي تَزايُد اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمعات التي يعيشون فيها إلى ازدياد معدلات الزواج المُختلَط ، إذ تتاح لهم الفرص الاقتصادية والحراك السياسي والاجتماعي ، ويبدأ أسلوب حياتهم في الاقتراب من أسلوب حياة أعضاء الأغلبية ويتساقط كثير من المحظورات .

١٣ ـ وفي العصر الحديث ، فإن السبب الأساسي والحاسم في تَصاعُد معدلات الزواج المُختلَط في المجتمعات الغربية ، بدرجات ليس لها مثيل في تجارب أعضاء الجماعات اليهودية والتاريخية ، هو تصاعد معدلات العلمنة في هذه المجتمعات . ومن المعروف أن المجتمعات العلمانية يسود فيها قدر كبير من التسامح . ولكن التسامح العلماني لا يعني (في تصوُّرنا) التعايش بين الانتماءات الدينية المختلفة ، وإنما يعني ، في واقع الأمر ، التعايش بين أعضاء المجتمع بعد أن يُهمِّش كل منهم انتماءه الديني أو الإثني ويتجاوزه بحيث يتعايش الجميع فيما يُسمَّى «رقعة الحياة العامة» التي تتحكم

فيها القيم العلمانية مثل المنفعة وتعظيم الإنتاج واللذة . وعادةً ما تختفي في مثل هذه المجتمعات الرموز الدينية المقصورة على الجماعة الدينية ويحل محلها رموز المجتمع ككل (نشيد وطني - تاريخ مشترك - الانتماء لأرض الأجداد) أو رموز ذات مضمون اجتماعي طبقي (منازل من نوع خاص - رداء من نوع خاص - سيارات . . إلخ) . وهذه الرموز تُسقط الخصوصيات الدينية والإثنية . كما تسود هذه المجتمعات قيم ثقافية مشتركة من حب للموسيقى الشعبية أو فنان بعينه وهكذا .

١٤ ـ وقد واكبت هذا عملية ضخمة لإعادة تعريف الهوية اليهودية لتتفق مع الأوضاع (والحقوق والواجبات) الجديدة في عصر ما بعد الانعتاق ، بحيث يصبح بإمكان اليهودي أن يكون يهودياً ومواطناً عادياً في آن واحد . وكان التصور أن تعريف الهوية الجديد سيحفظ يهودية اليهودي (الدينية أو الإثنية) وسيحقق لها الاستمرار داخل مجتمعات ما بعد الانعتاق ، بخاصة المجتمع الأمريكي ، وهو مجتمع حقق الانعتاق تماماً لكل أعضاء الأقليات فيه ، كما أنه وطن نصف يهود العالم .

ولكن يبدو أن هذا الحلم تَبخَّر تماماً ، إذ ظهر أن تطوير الهوية اليهودية على هذا النحو أدى في واقع الأمر إلى ظهور ما يُسمَّى «اليهودي غير اليهودي» ، أي اليهودي الذي تم تهميش يهوديته بحيث أصبحت عنصراً ثانوياً في هويته العامة ، لا تُوجِّه سلوكه ولا تشكل إطاراً عقائدياً كلياً يضبط حياته من الداخل والخارج . فيهودية اليهودي غير اليهودي تظهر في تَمسُّكه ببعض الشعائر (إن كان متديناً) ولا تتجاوز قدراً من التمسك الرومانسي بما يُسمَّى «التراث اليهودي» (الذي لا يعرف عنه شيئاً) أو تأييد إسرائيل بشكل أكثر حدة من أقرانه الأمريكيين ، وإن كان ذلك لا يختلف في مُجمله عن الموقف الأمريكي العام .

وهذا التعريف للهوية اليهودية يجعلها هامشية تماماً لا تتدخل في ترتيب الأولويات الجوهرية . ولذا ، فإن دَخَل إنسان يهودي في علاقة رومانسية مع شخص غير يهودي وبدأ يفكر في الزواج منه فسيجد أن هوية الطرف الآخر (اليهودية) هوية هامشية لا تتدخل في تحديد الاختيارات الأساسية والقرارات المصيرية ، ولن يكون لها دخل كبير في حياتهما وأن بالإمكان تحقيق هذه الهوية الهامشية داخل الزواج مع تحييدها . فهذه الاختيارات والقرارات سيتم تحديدها على أسس علمانية لا دينية ، لا علاقة لها بالمسيحية أو اليهودية . فاقتناء عمل فني يهودي ودفع تبرعات لأحد صناديق الغوث اليهودية وتأييد إسرائيل لن يسبب مشاكل كبيرة . هذا على خلاف أن تكون الهوية اليهودية هي أساس ترتيب الأولويات والمعايير الأخلاقية التي يحكم بها اليهودي على حياته وأن تكون هي الإطار الذي يحدد من خلاله الهدف من وجوده ووَضْعه في المجتمع والتاريخ .

١٥ ـ لاحَظ أحد الباحثين أن هوية اليهود الجدد الهشة يمكن أن تكون حافزاً على الزواج المُختلَط . ففي المجتمعات العلمانية ثمة بحث دؤوب عن اللذة والمتعة والمغامرة والإثارة . ويُعَدُّ الزواج بين يهودي وغير يهودي شكلاً من أشكال الإثارة الذي لا يُكلِّف كثيراً باعتبار أن يهودية الطرف اليهودي (ومسيحية الطرف المسيحي) مُهمَّشة ، ومن ثم يمكن استدعاؤها للإثارة ويمكن تحييدها عند اتخاذ القرارات المصيرية .

١٦ ـ ومما يساعد على تَصاعُد معدلات الزواج المُختلَط أن معظم اليهود لا يعارضونه في الوقت الحاضر ، كما يوجد عدد لا بأس به من الحاخامات الإصلاحيين ممن تَقبَّلوا عقد الزيجات المُختلَطة ، ولذا فإن من يتزوج من غير يهودي لن يجد نفسه خارج الجماعة اليهودية .

ونسبة الزيجات المُختلَطة في العصر الحديث آخذة في التصاعد بشكل يثير قلق القيادات اليهودية (ويسمونه «الهولوكوست الصامت») . فقد وصلت نسبة الزيجات المُختلَطة في كوبنهاجن (بين عامي ١٨٨٠ و١٩٠٥) إلى ٦٨٪ من جملة الزيجات . ووصلت في ألمانيا (عام ١٩٣٢) إلى نحو ستين زيجة مُختلَطة بين كل مائة زيجة يهودية ، وفي أمستردام ٧٠٪ (عام ١٩٣٠) . وفي الولايات المتحدة تصل النسبة في الوقت الحاضر إلى أعلى من هذا في بعض المناطق ، ولكن النسبة العامة بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩٠ هي ٥٢٪ من كل الزيجات اليهودية التي تمت في هذه الفترة . وتصل النسبة في بعض المناطق إلى ٨٠٪ . وفي روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء لا يختلف الوضع عن هذا كثيراً .

ويحدث أحياناً أن يَتهوَّد الفرد الذي تزوج يهودياً أو يهوديةً . ولفظ «يهودي» ، بالنسبة لمثل هؤلاء الأفراد ، ذو مضمون ديني يُسقط الجانب الإثني والقومي تماماً ، ولكنه ديني من حيث الاسم فقط ، لأن اعتناق اليهودية خطوة يتخذها المتهود حتى لا يسبب حرجاً لرفيق حياته الجديد أمام أسرته . فالدافع وراء التهود هنا في غالب الأمر علماني وليس دينياً . ويبلغ عدد الذين تهودوا بسبب الزواج المُختلَط في الولايات المتحدة حوالي ١٨٥ ألفاً يسمون الواضح منهم في الوقت الحاضر «يهودي باختياره» (بالإنجليزية : جو باي تشويس Jew by choice) بدلاً من «كونفرت convert» أي «متهود» أو «مهتد» بسبب الإيحاءات القدحية لهذه الكلمة . وهذا

العدد صغير (بالنسبة لعدد من لم يتهودوا ، والذي يُقال إنه بلغ ٢١٠ ألف) كما أنه آخذ في التناقص مع تَصاعُد معدلات العلمنة في المجتمع ، لأن الضغوط الاجتماعية التي تدفع الطرف غير اليهودي نحو التهوُّد قد ضعفت . وقد ورد في تقرير لمركز كوهين للدراسات اليهودية الحديثة في جامعة برانديز أن العنصر غير اليهودي يتهود في زيجة واحدة من كل أربع زيجات مُختلَطة .

ويقول الحاخام آرثر هرتزبرج إن معدلات الزواج المُختلَط في المجتمعات المنفتحة ، مثل الولايات المتحدة وبلاد غرب أوربا (حيث تم فيها إعتاق اليهود) تصل منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى حوالي الثلث في الجيل الثالث (أحفاد المهاجرين أو اليهود الذين تم إعتاقهم) . ثم يأخذ هذا المعدل في الازدياد بعد ذلك (حدث ذلك في نيويورك وفيلادلفيا عام ١٨٤٠ ، وحدث في برلين وفيينا عام ١٩٢٠ ، وحدث مرة أخرى في الولايات المتحدة في الثمانينيات) . وقد كانت موجات الهجرة في الماضي هي التي تُقلِّل معدل الزيجات المُختلَطة ، ذلك لأن المهاجرين (وأغلبيتهم من شرق أوربا) كانوا من خلفيات يهودية تقليدية يُعَدُّ الزواج المُختلَط فيها جريمة أخلاقية . ومع التكيف التدريجي يزداد معدل الزواج المُختلَط .

وهذا يعني أن معدلات الزواج المُختلَط ستتزايد بشكل ملحوظ مع تَوقُّف الهجرة من خارج الولايات المتحدة (إذ أن مصدر المهاجرين الأساسي ، الاتحاد السوفيتي سابقاً ، قد بدأ يجف تماماً) . وإذا وصل مهاجرون فهم عادةً يتسمون بمعدلات عالية من العلمنة ، ويكون هناك عادةً طرف غير يهودي في الأسرة المهاجرة . أما أبناء الزيجات المُختلَطة فوضعهم لا يقل سلبية (من منظور يهودي) . فقد لُوحظ أن ٩٠٪ من أولاد الزيجات المُختلَطة في الاتحاد السوفيتي سابقاً يختارون ألا يُصنَّفوا «يهوداً» . ولا يختلف الوضع كثيراً في الولايات المتحدة ، فقد قيل إنه لو أن نصف كل أبناء الزيجات المُختلَطة نشأوا يهوداً ، لما حدث أي نقصان في أعداد اليهود ، ولكن الدراسات الأخيرة أثبتت أن هذا لا يحدث ، فنسبة من يُنشأون باعتبارهم يهوداً يصل إلى الربع (أو حتى الخُمس حسب بعض الإحصاءات) . ويوجد الآن في أمريكا الشمالية ٤١٥ ألف شخص فوق سن الثامنة عشرة من أصل يهودي ولكنهم نُشِّئوا على غير اليهودية . ويوجد ٧٠٠ ألف دون سن الثامنة عشرة لم يتم تعريفهم بوصفهم يهوداً ، رغم أن لهم أباً أو جداً يهودياً وهذا يؤدي إلى تَناقُص الأعداد . وحتى حينما يتقرَّر أن يُنشَّأ أبناء مثل هذه الزيجات على أنهم يهود ، فعادةً ما يكونون يهوداً اسماً وأبعد ما يكونون عن اليهودية بالمعنى الديني أو الإثني . وقد لُوحظ أنهم يصبحون عادةً من أكثر العناصر إقبالاً على الزواج المُختلَط .

ولا تعترف اليهودية الأرثوذكسية بالزيجات المُختلَطة . أما اليهودية المحافظة ، فتشترط على الطرف غير اليهودي أن يَتهوَّد . ومع هذا ، فهي لا تَطرُد من الأبرشية من يتزوج من خارج وسط اليهود ، بل وتسمح له بعض المعابد المحافظة بحضور الصلوات على شرط أن يوافق على أن يكون ثمرة الزواج يهوداً . أما اليهودية الإصلاحية ، فإنها توافق على الزيجات المُختلَطة (وتترك الأمر لكل حاخام لكي يقرر ما يراه مناسباً) ، وتشجع الطرف غير اليهودي على التهود ولكنها لا تشترطه ، وتعتبر أن اليهودي وزوجته غير اليهودية أعضاء في الأبرشية ، أي أنها تُقِر حق الطرف غير اليهودي في حضور الصلوات .

أما بالنسبة للموقف من أبناء هذه الزيجات ، فإن اليهودية الأرثوذكسية لا تعترف إلا بمن وُلد منهم لأم يهودية ، أما من وُلد لأب يهودي فليس يهودياً (على عكس موقف اليهودية الإصلاحية) .

ومن المشاكل الأخرى التي يُثيرها أبناء الزواج المُختلَط انضمامهم للمدارس اليهودية ، فبعض الأطفال غير يهود ومع هذا يسجلهم آباؤهم في مثل هذه المدارس ليُعرِّفوهم بالجذور الإثنية أو الدينية للطرف اليهودي في الأسرة أو ليطرحوا أمامهم البدائل الدينية المختلفة (ومن بينها البديل اليهودي) حتى يختار الطفل بنفسه فيما بعد . ويخلق هذا مشاكل لا حصر لها لهذه المدارس ، التي تُعدّ المقررات التي تلائم الدارسين اليهود وحسب .

والصهيونية تعتبر الزواج المُختلَط أكبر خطر يتهدد اليهود واليهودية . ومن المستحيل عقد مثل هذا الزواج في إسرائيل حيث تسيطر المؤسسة الأرثوذكسية . ويواجه المامزير ، أي أبناء الزيجات المُختلَطة ، مشاكل وتعقيدات كثيرة لأنهم أطفال غير شرعيين . وقد ازدادت المشكلة تفاقماً بعد هجرة اليهود السوفييت ، حيث إن معدلات الزواج المُختلَط بينهم مرتفعة بشكل ملحوظ .

الإبادة الصامتة

Silent Holocaust

«الإبادة الصامتة» مُصطلَح شائع في الولايات المتحدة (في الأوساط الصهيونية) يُستخدَم للإشارة إلى معدلات الاندماج والزواج المُختلَط المرتفعة باعتبارهما عناصر ستؤدي إلى إبادة اليهود وإلى «موت الشعب اليهودي» .

الشعب العضوي (فولك)

Volk

تعبير «الشعب العضوي» هو ترجمتنا للكلمة الألمانية «فولك Volk» التي تُستخدَم بمنطوقها الألماني في كثير من اللغات الأوربية. والشعب العضوي هو الشعب الذي يترابط أعضاؤه ترابط الأجزاء في الكائن العضوي الواحد والذي تربطه رابطة عضوية بأرضه وتراثه. ويُشار إلى الفكر القومي، الذي يَصدُر عن مفهوم الشعب باعتباره الفولك أو الكيان العضوي المتماسك، بعبارة «الفكر القومي العضوي» كما يُقال «القومية العضوية».

القوميـــــة العضويــــــة

Volk (Organic) Nationalism

«القومية العضوية» هي شكل القومية التي يُعبِّر الشعب من خلالها عن نفسه ككيان عضوي متماسك، يحوي داخله مركزه، فهو مرجعية ذاته، أي أنه يدور في إطار المرجعية الكامنة، والنموذج الكامن وراء هذه الفكرة هو نموذج عضوي مادي واحد. والشعب العضوي والقومية العضوية هما البديل والمقابل العلماني والحلولي الكموني الواحدي لفكرة الجماعة الدينية أو الأمة بالمفهوم الديني. ومفهوم القومية العضوية مفهوم رحمي تماماً يُلغي إرادة الإنسان الفرد وحريته. وقد ظهرت فكرة القومية العضوية في الغرب، خصوصاً في ألمانيا في القرن التاسع عشر، تحت تأثير الفكر المعادي للاستنارة. والقومية العضوية تدور في إطار الأفكار التالية:

١ ـ الشعب هو كلٌّ عضوي متماسك يشبه علاقة أعضائه، الواحد بالآخر وبمجموع الشعب، علاقة أجزاء الكائن الحي بعضه بالبعض الآخر، ومن ثم فإن الشعب الحقيقي لا يقبل التفتيت ولا يمكن فصل أحد أعضائه عنه. وإذا غيَّر أحد أعضاء الفولك مكانه وانتقل من ألمانيا إلى روسيا مثلاً فهو يظل ألمانياً.

٢ ـ الانتماء القومي لهذا الشعب ليس مسألة اختيار أو دعاية وإنما رابطة كلية عضوية حتمية تكاد تكون بيولوجية في حتميتها (إن لم تكن كذلك بالفعل) تربط بين الفرد والجماعة التي يتبعها، ولذا فإن الانتماء لشعب معيَّن مسألة تُورَّث ولا تُكتسَب.

٣ ـ لا تقتصر الرابطة العضوية على العلاقة بين الفرد والشعب وإنما تمتد لتربط بين الشعب ككل والأرض التي يعيش عليها وبها. فالشعب العضوي يستمد الحياة من أرضه وتربته، وهي أيضاً تستمد منه الحياة، فهو وحده القادر على تعميرها.

٤ ـ تمتد العلاقة العضوية لتشمل أيضاً الأشكال الثقافية والاجتماعية التي تسود بين أعضاء هذا الشعب العضوي والتي أبدعها أعضاؤه على مر التاريخ. فهذه الأشكال تُعبِّر عن عبقرية هذا الشعب وروحه (بالألمانية: فولكس جايست Volksgeist)، ولهذا السبب فإن الآخر الغريب لا يمكنه أن يمتلك ناصية الخطاب الحضاري لهذا الشعب مهما بذل من جهد، فثقافة الشعب العضوي مسألة موروثة تجري في الدم تقريباً ولا يمكن اكتسابها مهما بلغ الآخر من ذكاء ومهارة.

٥ ـ والشعب العضوي يحوي داخله (وداخل أرضه وتراثه) عناصر قوته وانحلاله وتَطوُّره ورُقيِّه، كما أن قوانين حركته التي ينمو على أساسها كامنة فيه أيضاً، أي أنه يدور في إطار المرجعية المادية الكامنة. ويُلاحَظ اختفاء كل المسافات بين الشعب ومصادر قوته وأرضه وتراثه، فالجميع يكوِّنون كُلاً متماسكاً مستمراً عضوياً لا ثغرات فيه ولا انقطاع.

٦ ـ ويمكننا أن نقول إن فكرة الشعب العضوي (والقومية العلمانية) ككل هي حلولية مرحلة وحدة الوجود المادية (من النوع الثنائي الصلب). فالمُطلَق حلَّ في المادة (الأرض والشعب والتراث أو الشعب المرتبط بأرضه وتراثه) وفقد تَجاوُزه وتنزهَّه وذاب في الشعب، بحيث أصبح الشعب هو ذاته القيمة المطلقة ومرجعية ذاته.

ولعل النمط الكامن الأساسي وراء فكرة الشعب العضوي هو النمط الذي ورد في أسفار موسى الخمسة، فالعبرانيون أمة أو قبيلة اختارها الإله وحل فيها أو سكن في وسطها، وهو إله مقصور على أعضاء هذه القبيلة، ولذا كان يتنقل معهم في ترحالهم (أو كانوا يحملونه معهم في سفينة العهد) وكان يساعدهم (وحدهم دون سواهم) ضد أعدائهم ويغار عليهم، وكانوا لا يترددون في الضغط عليه كي يستجيب إلى طلباتهم. وقد تعدلت هذه الصورة قليلاً بعد ذلك في كتب الأنبياء. ولكن أسفار موسى الخمسة ظلت أكثر أسفار العهد القديم قداسة، وأصبح تاريخها المقدَّس، وما جاء فيها من صُوَر حلولية كمونية عضوية من أهم مفردات الوجدان الغربي. ومع تَصاعُد معدلات العلمنة، أعيد إنتاج هذه الصورة القَبَلية العضوية الحلولية على هيئة الفكر العلماني القومي. وقد أَحَلَّ هذا الفكر، محل الإله الواحد المتجاوز (المُنزَّه عن الطبيعة والتاريخ، مركز الكون، المفارق له)، كياناً عضوياً متماسكاً هو الشعب أو الأمة التي تحوي مركزها داخلها، فهي موضع الحلول والكمون وفوق الجميع. وأصبحت الأمة، ذلك الكيان العضوي المُنغلق على ذاته، مصدر السلطات وموضع التقديس، وأصبحت الهوية القومية والحفاظ عليها (بغض النظر عن أية قيم) قيمة مطلقة

ومرجعية نهائية (تَوثُّن الذات كما سماها أحد المفكرين العرب) . بل وأصبح تراب الوطن أو أرضه موضع التقديس ، فهو الرقعة التي تتحقق عليها الذات القومية المقدَّسة . وقد تم التعبير عن هذا من خلال مفهوم الدم والتربة : الدم الذي يجري في عروق أبناء الشعب والتراب أو التربة التي يعيش عليها ، وهما العنصران اللذان يجسدان فكرة الوطن . وأصبح الصالح العام لهذا الوطن ، وهذه الدولة التي تمثله وتمثل الشعب ، هو المُطلَق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو الخير الأعظم والمُطلَق الأوحد ، ولهذا فإن العمل ضد صالح الدولة وإفشاء أسرارها (المقدَّسة المُطلَقة) خيانة عظمى عقوبته عادةً الإعدام . وباختصار شديد ، أصبح الوطن المقدَّس (والشعب المقدَّس) مرجعية ذاته وأصبحت مصلحته قيمة نهائية ، ومن ثم أصبح من المستحيل محاكمة أي شعب من منظور منظومة قيمية خارجة عنه .

٧ ـ أفرزت فكرة الشعب العضوي والقومية العضوية مجموعة شعارات ومفردات ذات طابع عضوي حلولي كموني واحدي (شبه صوفي) عنصري، مثل : «أمتنا فوق الجميع» ، و«الأمة ذات الرسالة الخالدة» ، «المصير القومي الواحد المحتوم» ، «المجال الحيوي للشعب» .

٨ ـ مفهوم الشعب العضوي مفهوم استبعادي ، نسق مغلق لا يسمح بأي شكل من أشكال عدم التجانس ويفصل بحدة بين أعضاء الشعب العضوي والشعوب الأخرى . كما أن أعضاء الأقليات الذين يعيشون بين أعضاء هذا الشعب يصبحون بالمثل شعباً عضوياً ، ولكنهم شعب عضوي منبوذ .

٩ ـ فكرة الشعب العضوي والقومية العضوية تُترجم عادةً إلى فكر عرْقي يؤكد التفاوت بين الناس والأعراق ، فينسب التَميُّز للأنا الجماعية العضوية والتدني للآخر . فالأنا هي تَجسُّد المركز الكامن في العالم ، والآخر مجرد مادة وحسب ، والأنا هو المرجعية النهائية والمقدَّس ، والآخر هو التابع المباح . ويشكل الفكر العضوي الاستبعادي الأرضية الفلسفية للرؤية العنصرية داخل أوربا والرؤية الإمبريالية خارجها . وقد حقَّق المفهوم شيوعاً كبيراً في أوربا ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر . وكانت الكتب العنصرية أكثر الكتب شيوعاً في أوربا في تلك الفترة . ومن هنا ، فإن الفكر الإمبريالي ، والفكر النازي والصهيوني ، وكذلك فكر أعداء اليهود ، فكر عضوي .

١٠ ـ يُعبِّر الشعب العضوي عن إرادته من خلال الدولة القومية المطلقة التي تكون مرجعية ذاتها ، ويُعبِّر عن هذه الإرادة في حالة النُظُم الشمولية من خلال إرادة الزعيم .

ويُميِّز بعض المؤرخين بين القومية العضوية من جهة والقومية الليبرالية (التعاقدية) من جهة أخرى . فإذا كان أعضاء القومية العضوية لا يختارون مسألة انتمائهم القومي بل يرثونه بشكل يكاد يكون بيولوجياً، فإن أعضاء القومية الليبرالية ـ حسب رأي هؤلاء المؤرخين ـ يختارون هذا الانتماء ويدخلون في تعاقد يمكن فكّه على الأقل من الناحية النظرية . ويُصنَّف الفكر القومي الألماني والسلافي بوصفه فكراً عضوياً يُبشر بقومية عضوية ، وذلك على عكس النظريات القومية في كلٍّ من فرنسا وإنجلترا . ونحن نرى أن التمييز قد يفسر بعض نقط الاختلاف التي لا أهمية لها ، ولكنه يُخبئ نقط تشابه ذات أهمية محورية . كما نذهب إلى أن الحضارة الغربية العلمانية العلمية ككل تدور في إطار عضوي وفي إطار المرجعية المادية الكامنة ، فالنموذج يحوي مركزه داخله ، وقد تَقلُّ درجة تَماسُكه واستبعاديته وحلوليته في حالة التشكيلين الحضاريين الفرنسي والإنجليزي (والقومية الفرنسية والإنجليزية) ، وقد تزيد هذه الدرجة في حالة التشكيلين الألماني والسلافي (الجامعة الألمانية والجامعة السلافية) وفي حالة الصهيونية . ولكن الإطار الذي يدور في إطاره الجميع هو المرجعية المادية الكامنة والحلولية العضوية ، فتصبح الأمة مرجعية ذاتها ، وتصبح هي ذاتها مصدر شرعيتها ، وتصبح إرادتها مصدر وحدتها وتَماسُكها (تماماً كما أن إرادة القوة في المنظومة النيتشوية هي مصدر تَماسُك الفرد ووحدته وهويته) .

الشعب العضوي المنبوذ

Pariah Volk

«الشعب العضوي المنبوذ» عبارة قمنا بصياغتها للتعبير عن نموذج تفسيري كامن في معظم الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود . ويعود هذا النموذج إلى الفكر الألماني الرومانسي الذي طرح فكرة الشعب العضوي (بالألمانية : فولك Volk) ، والتي ترى أن الانتماء القومي ليس مسألة اختيار أو إيمان ، وإنما هو رابطة كلية عضوية حتمية تكاد تكون بيولوجية في حتميتها بين الفرد والجماعة التي يتبعها والتربة (الأرض) التي تتواجد عليها هذه الجماعة ، ومن هنا الحديث عن التربة والدم . وحسب هذا النموذج ، تتسم الأشكال الثقافية والاجتماعية المختلفة التي تسود بين أعضاء هذه الجماعة بأنها هي الأخرى مترابطة ترابطاً عضوياً لا تنفصم عراه ، وبأنها فريدة تُعبِّر عن عبقرية الجماعة . ويؤكد نموذج الشعب العضوي الاختلافات بين الجماعات البشرية المختلفة على حساب المساواة بين أعضاء الجنس البشري . ولهذا نجد أنه أفرز مجموعة شعارات ذات

طابع عضوي عنصري شبه صوفي ، مثل : روح الشعب - أمة واحدة ذات رسالة خالدة ـ المصير القومي الواحد الحتمي والأمة فوق الجميع - المجال الحيوي للشعب . وقد استُخدم هذا النموذج لتبرير التوسع ولاستبعاد الآخرين بل وإبادتهم . كما تَحكَّم في إدراك الإنسان الغربي لكل المجموعات البشرية وضمنهم اليهود ، بحيث أصبح هناك شعب عضوي ألماني وشعب عضوي إنجليزي وشعب عضوي يهودي ، كل منها مترابط ترابطاً عضوياً ويضرب بجذوره في تربته . وقد تَبنَّى الفكر الصهيوني هذا النموذج التفسيري الذي عبَّر عنه مارتن بوبر في كتاباته حيث يجعل من الشعب العضوي ركيزة أساسية لرؤية العالم .

ومن مفارقات الأمور أن إحدى خصائص الشعوب العضوية أنها تَنبُذ العناصر الغريبة عنها والتي تُوجَد بين ظهرانيها مثل اليهود . ولهذا كان النموذج الذي أسبغ على اليهود هوية عضوية فريدة ، وحوَّلهم من مجرد أقلية دينية أو جماعة دينية إلى كيان مستقل ، يأخذ شكل شعب عضوي له صفات ثابتة محددة يضرب بجذوره في فلسطين ، هو نفسه الذي جعل منهم مادة بشرية غريبة لم تُشكِّل قط جزءاً من التاريخ الحقيقي للغرب وإنما وقفت دائماً على هامشه . بل إن وجودهم داخل الحضارة الغربية لم يكن دائماً أمراً إيجابياً ، ومن ثم فلا مكان لهم في هذه الحضارة ، أي أن «الشعب العضوي» تَحوَّل إلى «شعب عضوي منبوذ» . وقد أدَّى هذا النموذج إلى الهجوم على خصوصية الشعب العضوي اليهودي وإظهار مدى قبحها وضرورة القضاء عليها ، فظهرت الدعاوى المعادية لليهود ، كما ظهرت الدعوات إلى دمجهم في المجتمعات الغربية بعد إصلاحهم وتطبيعهم، أي بعد أن يتخلصوا من خصوصيتهم وسماتهم السلبية ، بأن يتخلوا عن يهوديتهم ، وهذا هو فكر عصر الاستنارة والتنوير .

ويمكن القول بأن نموذج الشعب العضوي المنبوذ هو الحلقة التي تربط بين العداء لليهودية والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . وتنطلق صهيونية غير اليهود من فكرة أن الفولك أو «الشعب العضوي اليهودي» لا مكان له حقاً في العالم الغربي (وهذه هي نفسها دعوى أعداء اليهود) ولكن يمكن الاستفادة منه كأداة يمكن توظيفها لصالح الغرب في مشروعاته المختلفة التي أصبح من أهمها، مع مرور الوقت ، المشروع الاستيطاني في فلسطين . ويستند نموذج الشعب العضوي المنبوذ إلى عنصرين أساسيين في الحضارة الغربية :

١ ـ موقف الحضارة الغربية المسيحية من اليهود . ويمكن القول بأن نموذج الشعب العضوي يعود إلى فكرة الشعب الشاهد ، أي اليهود بوصفهم أقلية دينية رفضت المسيح ، وتقف في ذُلّها وخضوعها وتَدنِّيها شاهداً على صدق العقيدة المسيحية وعلى عظمة الكنيسة . ولذا ، دافعت الكنيسة الكاثوليكية عن بقاء اليهود كجماعة مستقلة وحمتهم ضد الهجمات الشعبية حتى يقوموا بدورهم في الشهادة . ثم تحوَّلت هذه الفكرة إلى العقيدة الاسترجاعية أو الألفية في الفكر البروتستانتي ، وهي عقيدة تُحوِّل اليهود إلى أداة من أدوات الخلاص إذ أنه لا يمكن أن يتم الخلاص النهائي إلا بعودة اليهود .

٢ ـ الأمر الآخر الذي يعود إليه نموذج الشعب العضوي المنبوذ هو الدور الذي لعبه اليهود في المجتمع الغربي كجماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا والنشاطات المالية . ويمكن القول بأن الشعب العضوي المنبوذ ، في كثير من الأحوال ، هو الجماعة الوظيفية التي فَقَدت وظيفتها .

ويُلاحَظ أن كلا الأمرين يضع اليهود على هامش التاريخ الغربي لا في صميمه ، كما يجعلهم مجرد أداة إما للخلاص النهائي أو للربح .

ويمكن القول أيضاً بأن نموذج الشعب العضوي المنبوذ هو تعبير علماني عن فكرة الشعب المختار والشعب المقدَّس (الدينية) ، فالشعب المختار شعب مقدَّس ، والقداسة تعني الانفصال عن كل الشعوب ، فهو شعب عضوي ، ولكن إحدى علامات اختياره هي أن كل الشعوب ترفضه ، فهو شعب عضوي مقدَّس منبوذ .

وقد تداخل العنصران الديني والدنيوي لبعض الوقت . ومع تَزايُد علمنة الحضارة الغربية ، فَقَدَ النموذج كثيراً من ديباجاته الدينية ليصبح نموذجاً دنيوياً محضاً . ومن هذا المنظور ، تم الهجوم على اليهود لا باعتبارهم قتلة المسيح وإنما باعتبارهم شعباً عضوياً بالمعنى العرْقي . كما أن استخدام اليهود كوسيلة أخذ يفقد ديباجاته الدينية تدريجياً ، حيث أصبح اليهودي غير مُثقَل بأية قيمة وتَحوَّل إلى أداة محضة .

ويمكننا أن نَعُدَّ مارتن لوثر من أوائل المفكرين الذين تعاملوا مع اليهود من منطلق هذا المفهوم في صيغته الدينية ، فقد وصف اليهود انطلاقاً من عدائه العميق لهم بأنهم « عبء ثقيل علينا وبلاء وجودنا» ، وأشار إلى أكاذيبهم وطالب بمساعدتهم للعودة إلى أرضهم في يهودا « فالتخلص من اليهود هو الهدف الأسمى » . ومن الواضح أن لوثر لم يكن قد أدرك بعد إمكانية الاستفادة منهم وإمكانية نفعهم . ويُعَدُّ الفيلسوف إسبينوزا من أوائل المفكرين الذين بَلْوروا هذا المفهوم في صيغته العلمانية ، إذ شن هجوماً شرساً على اليهود وطالب بالقضاء على خصوصيتهم بدمجهم أو عودتهم إلى فلسطين .

وشهدت الفترة نفسها ظهور فكرة الاستفادة من «الشعب العضوي المنبوذ» كأداة . فقد دافع كرومويل عن عودة اليهود إلى إنجلترا بسبب نفعهم وإمكانية استخدامهم كجواسيس . وقد بدأت تظهر فائدة اليهود في تلك الفترة كعنصر استيطاني يمكن استخدامه في المشاريع الاستيطانية في سورينام وكايين وكوراساو .

ويُعَدُّ نموذج الشعب العضوي المنبوذ حجر الزاوية في فكر الاستنارة ، فقد هاجم كلٌّ من فولتير وهولباخ اليهود على أنهم شعب عضوي له صفاته السلبية الخاصة به . وعرَّف الفيلسوف هردر اليهود بأنهم غرس طفيلي في أوربا يلتصق بكل الشعوب الأوربية ويمتص نخاعها . ويُلاحَظ وجود المفهوم نفسه في كتابات فخته الذي أكّد أيضاً الفساد الأخلاقي عند اليهود وأكد أنهم يكوِّنون دولة داخل الدولة . ولذا ، عارض منحهم الحقوق المدنية والسياسية ، إذ أن ذلك لن يتحقق إلا بأن تُقطَع رؤوسهم ذات ليلة وتُوضَع مكانها رؤوس أخرى لا تحوي فكرة يهودية واحدة . وقد اقترح فخته ، ومن قبله فولتير ، حلاً صهيونياً لمشكلة الشعب العضوي المنبوذ ، فقال : "لا يوجد بديل إلا بغزو أرض الميعاد وإرسالهم إليها ، لأنهم لو حصلوا على حقوقهم المدنية في أوربا فإنهم سيدوسون على كل المواطنين الآخرين" .

وقد بدأت تظهر في هذه الفترة فكرة نفع اليهود . وقد عبَّر الكاتب الإنجليزي أديسون ، محرر مجلة **الإسبكتاتور** ، عن هذا الجانب من المفهوم بشكل دقيق للغاية في مقال بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٧١٢ قال فيه : « إن اليهود منتشرون في جميع المناطق التجارية في العالم حتى أنهم أصبحوا الأداة التي تتحدث من خلالها الأمم التي تفصل بينها مسافات شاسعة ، فهم مثل الأوتاد والمسامير في بناء شامخ . ورغم أنهم بلا قيمة في حد ذاتهم ، فإن أهميتهم مطلقة لأنهم يحفظون للهيكل كله تماسكه » . وما يهمه من اليهود كشعب عضوي ، إذن ، هو كونهم أداة مهمة وحسب . ولذلك فهو لا يَشُنُّ عليهم هجوماً ولا يُشهِّر بهم ، فما يهمه هو توظيف هذه الكتلة البشرية . وستتكفل عملية التوظيف هذه بتخليص أوربا منهم بالطرق السلمية ، أي أن نموذج الشعب العضوي المنبوذ تَحوَّل تدريجياً ليصبح نموذج الشعب العضوي المنبوذ النافع (وهذا هو جوهر الصهيونية) . وقد طُرحت في عصر الاستنارة إشكالية مدى نفع اليهود وإمكانية إصلاحهم حتى يتسنى الاستفادة منهم .

وهكذا أصبح نموذج الشعب العضوي المنبوذ نموذجاً تفسيرياً أساسياً في الوجدان العقلي والعاطفي في الغرب بما يؤدي إليه من حلول صهيونية واضحة أو كامنة . وقد أصبح هذا النموذج ، مع بداية القرن التاسع عشر ، بُعداً أساسياً في الفكر السياسي الغربي تجاه اليهود والشرق . كما تمت مزاوجة المسألة اليهودية (الشعب المنبوذ) بالمسألة الشرقية (الدولة العثمانية وتقسيمها) بحيث يمكن حل المسألة الأولى ، أي التخلص من اليهود ، عن طريق استخدامهم كمادة بشرية في المسألة الثانية . وكان نابليون من أوائل السياسيين الذين توصلوا إلى هذه الصيغة . فهو أول سياسي يدعو اليهود ، من حيث هم يهود ، إلى الاستيطان في فلسطين ، محاولاً الاستفادة منهم كمادة استيطانية في مشروعه الاستعماري . أما على مستوى فرنسا ذاتها ، فقد كان الأمر جدُّ مختلف . فقد أصدر نابليون من التشريعات ما قضى عليهم كشعب عضوي ، ووضع الخطط التي أدَّت في نهاية الأمر إلى دمجهم في الأمة الفرنسية .

ونموذج الشعب العضوي المنبوذ هو ذاته النموذج الرئيسي وراء فكر بول باستيل زعيم حركة الديسمبريين في روسيا ، فقد كان يرى أن اليهود « يحافظون دوماً على روابط وثيقة بدرجة لا تُصدَّق ، بسبب الدين والسيطرة الحاخامية على أوجه الحياة جميعاً » ، أي أنهم شعب عضوي . والحل هو « إما تخليص اليهود من خصوصيتهم ، واستيعابهم استيعاباً تاماً ، أو مساعدتهم على تأسيس دولتهم الخاصة المستقلة في منطقة ما من آسيا الصغرى . ولهذا يجب تعيين نقطة تَجمُّع الشعب اليهودي بمساعدة بعض الجنود . وإذا تَجمَّع في مكان واحد جميع اليهود الروس والبولنديين ، فإن عددهم سيبلغ أكثر من مليونين ، وبعد أن يجتازوا أوربا التركية فإنهم يستطيعون أن يعبروا إلى تركيا الآسيوية حيث يمكنهم بعد الاستيلاء على أرض كافية لتأسيس دولة يهودية مستقلة» . وبهذا ، فإن باستيل ينظر إلى اليهود باعتبارهم مادة استيطانية يمكنه استخدامها كوسيلة في الصراع الناشب بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية .

وقد أصبح النموذج أيضاً بُعداً أساسياً في الفكر الاستعماري الإنجليزي ، فنجد أن لورد شافتسبري يتحدث عن اليهود باعتبارهم عنصراً مستقلاً له سماته القومية المستقلة ، ولكنه عنصر طفيلي فاسد . وانطلاقاً من هذا ، فقد عارض مَنْحَهم الحقوق الدينية ، ولكنه بذل جهوداً كبيرة في سبيل اتخاذ الخطوات اللازمة لتوطينهم في فلسطين . وقد تبنَّت وزارة المستعمرات رأيه منذ عام ١٨٤٠ .

ويستمر هذا الخط ليصل إلى بلفور الذي كان يؤمن إيماناً جازماً بأن اليهود كيان تختلط فيه القومية بالدين . وأنهم كيان غريب على الحضارة الغربية التي لم تستطع استيعابهم . وكان بلفور يرى أن اليهود ، بطفيليتهم وعدم انتمائهم ، يشكلون عبئاً على الحضارة

الغربيـة ، فاستصدر عام ١٩٠٥ من القوانين ما يُوقف مد الهجرة اليهودية إلى إنجلترا . ولكن وزارته وافقت في العام نفسه على مشروع شرق أفريقيا . ثم ساهم بلفور ، بعد ذلك ، في استصدار الوعد الذي سُمي باسمه . والواقع أن كلا المشروعين يهدف إلى تخليص أوربا من اليهود ، وذلك عن طريق الاستفادة منهم في مكان آخر .

وفي الفكر الاشتراكي الغربي ، ظهر نموذج الشعب العضوي المنبوذ في فكر فورييه وتلاميذه ، خصوصاً توسينيل وأدولف إلايزا الذي شبَّه اليهود بالبكتريا القذرة التي تحمل العفن إلى أي مكان تحل فيه . ويُلاحَظ أن الصورة المجازية هنا عضوية ، تماماً مثل الشعب العضوي ، وهي صورة مجازية استخدمها الزعيم الصهيوني نوردو والزعيم النازي هتلر . وقد تَبنّى هؤلاء حلاً صهيونياً للمسألة اليهودية وطلبوا من اليهود أن يرحلوا إلى "بلادهم" !

وحينما ظهرت الصهيونية بين اليهود ، كان هناك تَلازُم أيضاً بين نموذج الشعب العضوي المنبوذ وبين الاستيطان الصهيوني . وقد تَقبَّل كثير من الصهاينة هذا النموذج التفسيري وأسسوا عليها نظريتهم الصهيونية ، فرددوا أن اليهود طفيليون ، كريهون لا أخلاقيون ، ويجب تطبيعهم عن طريق تطويعهم من أجل خدمة المشروع الاستعماري الغربي وتوطينهم في فلسطين . وفي أوائل القرن الحالي ، كانت الزعامة الصهيونية في ألمانيا تؤكد تَدنِّي اليهود ووضاعتهم وعدم انتمائهم لإسباغ الشرعية والمعقولية على المشروع الصهيوني . ولهذا فقد قَبلت المقولات الأساسية لمعاداة اليهود واستوعبتها في بناء النسق الفكري الصهيوني ذاته . وقد ظهر الفكر النازي في هذه التربة ، وهو فكر ينطلق من فكرة أن الشعب العضوي الألماني والشعب العضوي اليهودي المنبوذ يجب ألا يختلطا حتى يحتفظ كلٌ بهويته العضوية . وقد بيَّن ألفريد روزنبرج ، أهم مُنظِّري العقيدة النازية ، إبان محاكمته في نورمبرج ، أنه تَبنَّى رؤية بوبر حيث أعلن أن اليهود يجب يعودوا إلى أرض آسيا حتى يمكنهم (هناك فقط) العثور على جذور الدم اليهودي .

وقد وردت في قوانين نورمبرج الفقرة التالية عن الصهيونية ومبرراتها : "لو كان لليهود [أي الشعب العضوي المنبوذ] دولة خاصة بهم تضمهم جميعاً في وطن واحد ، لأمكن اعتبار المشكلة اليهودية محلولة حتى بالنسبة إلى اليهود أنفسهم" . ومن ثم ، فإن النازيين لم يكونوا ضد المشاريع الاستيطانية الصهيونية التي تهدف إلى التخلص من اليهود . ولكن ، لسوء حظ ألمانيا واليهود ، لم يكن لدى ألمانيا مستعمرات في آسيا وأفريقيا (بعد إجهاض مشروعها الاستعماري على أيدي الدول الاستعمارية الأخرى) . وربما ، لو وُجدت مثل هذه المستعمرات الألمانية ، لقام هتلر بكفاءته المعهودة بنقل فائض أوربا المنبوذ وانتفع منه ومن إمكانياته ، بدلاً من إبادته وحرقه . ولكن مجال ألمانيا الحيوي في أوربا كان آهلاً بالسكان ، ولذا ، لم يكن بوسع هتلر سوى إبادة اليهود بدلاً من نقلهم (حسب منطق أوربا العملي المادي) .

وقد لاحَظ كثير من المثقفين الألمان اللوثريين أعداء النازية ذلك التَطابُق بين الفكرة الغربية الخاصة بالشعب العضوي ونموذج الشعب العضوي كما عبَّر عنها الصهاينة ، وقال ريتشارد كودينهوف كاليرجي ، وهو من أكبر مناهضي العنصرية ، إن القوميتين اليهودية والنازية حركتان حولتا الدنيا والمادة إلى مقولات ميتافيزيقية ، أي إلى دين ، وكلتاهما تُضفي صفة نسبية على كل القيم باستثناء القيم العرْقية وعلاقات الدم والتربة ، بحيث تختفي جميع المعايير إلا معيار العرْق . ثم أشار كاليرجي إلى أن كلتا الحركتين قبلتا القول بأن ألمانيا لا يمكنها استيعاب اليهود .

وقد اختفى نموذج الشعب العضوي المنبوذ إلى حدٍّ كبير من كتابات الصهاينة والمفكرين الغربيين بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنه لا يزال النموذج الفعال الكامن في كل الكتابات والمشاريع الصهيونية . وقد ظهرت في الآونة الأخيرة فكرة الشعب المقدَّس بين أعضاء جماعة جوش إيمونيم . وعندهم ، كذلك ، أن هذا الشعب يعيش وحده ولا يُحسَب بين الأمم ، فهو شعب مقدَّس عضوي منبوذ . وتَنبُع أهمية فكرة الشعب العضوي المنبوذ من أنها تُبيِّن العلاقة العضوية الكامنة بين الصهاينة وأعداء اليهود .

٥
منفى وعودة أم هجرات وانتشار؟

إحساس اليهودي الدائم بالنفي الأزلي ورغبته الثابتة في العودة ـ المنفى والعودة ـ العودة ـ الشتات ـ الدياسبورا ـ المنفى القسري (الجالوت أو الجولا) ـ المنفى الطوعي (تيفوتسوت) ـ شريعة الدولة هي الشريعة ـ تجميع المنفيين ـ التعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس) ـ بداية الخلاص ـ الشتات السامري أو انتشار السامريين ـ الشتات الخزري أو انتشار يهود الخزر ـ البلد الذهبي (جولدن مدينا) ـ الدياسبورا الثانية ـ الخروج الثاني (أو خروج صهيون) ـ الدياسبورا الإسرائيلية ـ انتشار الجماعات اليهودية

إحساس اليهودي الدائم بالنفي الأزلي ورغبته الثابتة في العودة
The Jewish Sense of Exernal Exile and Permanent Desire for Return

«إحساس اليهودي الدائم بالنفي ورغبته في العودة» هي عبارة تُبلوِر النموذج الكامن وراء كثير من الدراسات التي تتناول الجماعات اليهودية في العالم، إذ يتم رصد أعضاء الجماعات اليهودية وتحركاتهم وكأن عندهم إحساساً بالنفي الأزلي ورغبة دائمة في العودة، وكأن هذا الإحساس وهذه الرغبة هما جزء من جوهر يهودي ثابت ومن المكونات الأساسية لطبيعة اليهود البشرية.

واليهودي حسب هذا النموذج التفسيري هو غريب ينتقل من مكان لآخر (ومن هنا صورة اليهودي المتجول)، الذي يحس بأنه في المَنْفَى، ومن ثم فعنده رغبة عارمة دائمة في إنهاء حالة النفي هذه والعودة إلى «وطنه الأصلي» فلسطين. ولذا أصبحت عبارات مثل «المَنْفَى» و«الشتات» و«الدياسبورا» و«العودة» كلمات متواترة مألوفة في الأدبيات الخاصة باليهود واليهودية (الصهيونية والمعادية لليهود وغيرها)، وتم تطبيعها تماماً، وكأنها مجرد وصف موضوعي ومحايد لأعضاء الجماعات اليهودية ولسلوكهم.

وفي مداخل هذا الجزء والذي يليه سنقوم بتفكيك هذه المفاهيم وإعادة تركيبها في ضوء دراستنا للتواريخ المتعينة لأعضاء الجماعات اليهودية حتى نبيِّن ضعف المقدرة التفسيرية لمثل هذه المفاهيم. وسنقترح اصطلاح «الانتشار» بديلاً عن «النفي والعودة» باعتباره أكثر تفسيرية.

المنفى والعودة
Exile and Return

تشير كلمة «جالوت»، أو «جولا» إلى المَنْفَى، والمَنْفَى القهري بالذات خارج إرتس يسرائيل أي فلسطين (مقابل المَنْفَى الطوعي أي «تيفوتسوت»)، ولذا فهي تُترجَم عادةً إلى العربية بكلمة «المَنْفَى». كما تُستخدَم كلمة «دياسبورا» أي «الشتات» للإشارة إلى الجماعات اليهودية التي تعيش مشتتة بين الشعوب الأخرى. وأحياناً تُستخدَم كلمة «دياسبورا» بشكل محايد بحيث تعني «الانتشار» بوصفه ظاهرة إنسانية عادية طبيعية. ويستخدم اليهود الإصلاحيون والاندماجيون المصطلح بهذا المعنى. وفي اللغة العربية، تُستخدَم كلمتا «الشتات» و«المَهْجَر» للإشارة إلى المكان الذي هاجر إليه اليهود أو هُجِّروا إليه. وتعني الكلمات السابقة («المَنْفَى» و«الدياسبورا» و«الشتات» و«المَهْجَر») وجود أعضاء الجماعات اليهودية المؤقت خارج إرتس يسرائيل (أي فلسطين) حتى تتحقق لهم الحالة الأصلية العادية والطبيعية بعودتهم إليها.

أما العودة فيُشار إليها في المصطلح الديني بكلمة «تشوفاه» (بمعنى التوبة أيضاً، على عكس «حزره» وهي عودة بالمعنى الدنيوي)، كما تُوجَد عبارة «كيبوتس جاليوت» أي «تجميع المنفيين» (بالإنجليزية: إنجاذرينج أوف ذي إكزايلز ingathering of the exiles).

وتشكل عقيدة المَنْفَى والعودة إحدى النقاط المحورية في الرؤية اليهودية إلى التاريخ والكون، وهي ترتبط، مثل كل العقائد الدينية اليهودية، بعقائد أخرى مثل عقيدة الماشيَّح والشعب المختار. وحسب هذه العقيدة، فإن إله اليهود حكَم على شعبه المختار بالنفي والتشتت في بقاع الأرض لسبب يختلف الحاخامات اليهود في تحديده. وستستمر حالة المَنْفَى هذه إلى أن يعود الماشيَّح المخلِّص. وكالمعتاد، أحاط بهذه العقيدة ضرب من القداسة والخصوصية، فنجد أن الشعور بالنفي ليس نتيجة حتمية للنفي ذاته وإنما هو إحساس مقصور على اليهود حينما يبتعدون عن أرض الميعاد، وذلك بسبب ارتباطهم الحلولي أو العضوي بها، أي أنهم يجعلون المَنْفَى سمة أساسية وخاصية مقصورة على ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي»، ويصبح الإحساس بالغربة أمراً ينفرد به اليهود وحدهم.

أما الفلسطينيون ، فليس من حقهم ممارسة هذه الأحاسيس السامية إن نُفوا من أرض فلسطين أو ابتعدوا عنها ، وذلك لانتفاء الصلة الحلولية أو العضوية بالأرض المقدَّسة . ونجد أيضاً أن «الشخيناه» (التجسيد الأنثوي للإله) قد نُفيَت مع الشعب خارج الأرض المقدَّسة، ولم يبق منها إلا جزء في حائط المبكى يذرف الدموع كل عام في ذكرى خراب أو هدم الهيكل .

وقد قامت القبَّالاه اللوريانية ، بمنحاها الحلولي المتطرف ، بتحويل النفي إلى صورة مجازية كونية شاملة . فبعد تهشُّم الأوعية (شيفرات هكليم) أصبحت كل المخلوقات في حالة تَبعثر وشتات دائم وسقطت من حالة التماسك العضوي الناجم عن الحلول الإلهي في الإنسان والطبيعة . ومن ثم ، فإن النفي حالة تنسحب على الكون بأسره ، وضمن ذلك الإله ذاته الذي تَبعثَّر وتَشتَّت بعد هذه الواقعة الكونية . ويمكن أن تتم عملية الخلاص ـ خلاص الإله والكون والإنسان ـ بالتدريج . وهي عملية يشارك فيها الإنسان ، ولكنها تعتمد بالدرجة الأولى على اليهود . فهم باتباعهم الوصايا الإلهية ، وتنفيذهم الأوامر والنواهي ، يمكنهم أن يساعدوا الرب والكون وسائر المخلوقات على العودة إلى حالة التكامل والتماسك الأصلية . وتحوُّل النفي إلى حادثة كونية (في القبَّالاه اللوريانية) هو صدى لحادثة الصلب في المسيحية .

وقد حار المفسرون اليهود في تفسير عقيدة وظاهرة النفي هذه والتي لا تتفق مع كونهم الشعب المختار . ولذلك فُسِّر النفي بأنه إحدى علامات التميُّز والاختيار . فاليهود الذين تقطن الشخيناه في وسطهم ، والذين يقطنون بدورهم وسط الأغيار ، لا يحملون أوزارهم وحدهم وإنما يحملون أيضاً أوزار الأمم كافة . ولذلك ، فإنهم بمثابة المشحاء (جمع «ماشيَّح») المصلوبين من أجل البشر ، وهم بمثابة الروح التي تُوجَد في المادة . وبالتالي ، فإن نفيهم تمهيد لخلاص البشر . وهكذا يصبح النفي عقوبةً على الذنوب وعلامةً من علامات التميز في آن واحد . وحينما يَحلُّ اليوم الموعود ، سيأتي الماشيَّح ويقود شعبه ويعود به إلى الأرض المقدَّسة . ولكن بعض الحاخامات ذهبوا إلى أن المَنْفَى والشتات عقاب حَلَّ على اليهود بسبب تَركْهم طُرُق الرب و بسبب تأغرقهم . ويذهب المسيحيون إلى أن الشتات عقاب لليهود على إنكارهم المسيح عيسى بن مريم .

وقد تركت عقيدة النفي أثرها العميق على الوجدان اليهودي ، فقد أضعفت إحساس اليهود بالزمان والمكان ، وأضفت طابعاً مؤقتاً على كل شيء . وربما ساعد اضطلاع اليهود بدور الجماعة الوظيفية واشتغالهم المستمر بالتجارة والأعمال المالية والربا ، وانتقالهم من مكان إلى مكان دون الانتماء الكامل لأي مكان (فالجماعة الوظيفية تُوجَد في المجتمع لكنها لا تصبح منه) ربما ساعد كل هذا على استمرار عقيدة المَنْفَى والعودة ، وعلى اكتسابها هذه المركزية .

ولكن الموقف الديني التقليدي من المَنْفَى والعودة ليس واضحاً ولا قاطعاً . فعلى سبيل المثال ، أكد الحاخامات أن محاولة العودة الفردية والفعلية ، دون انتظار مقدم الماشيَّح ، هو من قبيل التجديف والهرطقة ، ومن قبيل «دحيكات هاكتس» أي «التعجيل بالنهاية» ، أو من قبيل تَحدِّي الإرادة الإلهية . وقد عارض بعض اليهود الأرثوذكس الحركة الصهيونية بالفعل لأنها عودة مشيحانية دون ماشيَّح . بل إن هناك أوامر قاطعة في التلمود بألا يترك اليهودي بلده أو منفاه ليعود إلى بابل ، لأن من يعيش في بابل كأنه يعيش في أرض يسرائيل . وجاء في موضع آخر : « صلوا لسلامة الدولة ، فلولا خوف الناس منها لابتلع بعضهم بعضاً » . وقد أكد أحد الحاخامات أن مبدأ أو عقيدة العودة إلى فلسطين لا تُوجَد أية إشارة إليها في كافة المحاولات التي تمت في العصور الوسطى لصياغة عقيدة يهودية . وقد نادى دعاة حركة التنوير اليهودية بأن المَنْفَى واقع مؤلم ومؤقت يجب أن يزول عن طريق الاندماج . أما العودة إلى صهيون ، فهي مجرد فكرة روحية وليست رغبة حرفية . وقد حذفت اليهودية الإصلاحية الصلوات التي تُذكِّر اليهود بصهيون .

ولكن تُوجَد في اليهودية الحاخامية ، وفي التلمود ، نصوص ومواقف يُفهم منها أن هناك ضرباً من التَقبُّل أو التأييد لفكرة إنهاء المَنْفَى والعودة . وقد ذكر بعض الحاخامات أن كل يهودي يتعيَّن عليه أن يودّ (في قلبه) العودة إلى الأرض ، فإن لم يتمكن من العودة فعليه أن يساعد على الأقل في إرسال يهودي آخر ، أي أن كلاًّ من الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية كامنتان في النسق الديني اليهودي ذي الطبيعة الجيولوجية التراكمية .

وعلى وجه العموم ، يمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية قد قبلوا وجودهم في الأوطان التي كانوا يعيشون فيها ، وأن الحديث عن المَنْفَى أصبح جزءاً من الخطاب الديني ، وأصبحت العودة تَطلُّعاً دينياً وتعبيراً عن حب صهيون ، أي تعبيراً عن التعلُّق الديني بالأرض المقدَّسة وهو تَعلُّق ذو طبيعة مجازية ، لا يترجم نفسه إلى عودة حرفية إلى فلسطين ، حتى وإن خلق استعداداً كامناً لذلك . ولكن ، مع بدايات العصر الحديث والحركة الإمبريالية ، وظهور الفكر الوضعي والتجريبي والنماذج المادية العلمانية المعرفية وتفسيرات العهد القديم الحلولية والحرفية ، بدأ يظهر في صفوف المسيحيين البروتستانت فكر استرجاعي قوي تَرك أثراً عميقاً في

الجماعات اليهودية في أوربا ، وبدأت تظهر حركات مشيحانية تهدف إلى تحويل فكرة العودة من تَطلُّع ديني مجازي إلى عودة فعلية ، أي إلى استيطان . وقد تدعمت الفكرة مع ظهور الفكر القومي الغربي والتعريفات العرْقية للإنسان . ومع تَصاعُد الحركة الإمبريالية ، بدأت الأفكار الصهيونية تتغلغل بين اليهود ، خصوصاً وأن هذا قد تزامَن مع ضعف اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية التي تقبَّلت المَنْفَى كحالة نهائية . وأخيراً ، ظهرت الصهيونية بين اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأخذت من التراث الديني اليهودي ما يتفق مع أهوائها السياسية ، واستولت على الخطاب الديني ، وحولَّت كل المفاهيم الدينية المجازية إلى مفاهيم قومية حرفية .

وطرحت الصهيونية رؤية للتاريخ تَصدُر عن تَصوُّر أن اليهود في حالة نفي قسرية فعلية منذ هَدْم الهيكل ، وأنهم لو تُركوا وشأنهم لعادوا إلى فلسطين بدون تَردُّد . بل إن التواريخ الصهيونية ترى أن ثمة نمطاً متكرراً فيما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» : نفي من فلسطين ثم عودة إليها ، ونفي إلى مصر ثم عودة إلى فلسطين ، ونفي إلى بابل ثم عودة إلى فلسطين ، وأخيراً نفي إلى أرجاء العالم بأسره ثم عودة نهائية إلى إسرائيل ، أي فلسطين .

إن إحدى مقولات الصهيونية الأساسية هي أن وجود اليهود على هيئة جماعات في أنحاء العالم هو حالة مؤقتة ، وأن هذا الوجود إن هو إلا جسر يَعبُر عليه الشعب اليهودي إلى فلسطين . ومن دعاة هذا الرأي بن جوريون وممثلو الصهيونية الاستيطانية . ولكن ليس كل الصهاينة على هذا الرأي . فالصهيونية الإثنية ، على سبيل المثال ، ترى أن وجود الجماعات اليهودية خارج فلسطين ليس أمراً مؤقتاً وإنما حقيقة ثابتة ، وأن هذه الجماعات لا تحتاج إلى إسرائيل موطناً ، وإنما تحتاج إليها كمركز روحي لا كبلد يهاجر إليه جميع اليهود ، فالنفي هنا حالة ثقافية ومن ثم يتم علاجه بطرق ثقافية أيضاً !

وبعد إنشاء إسرائيل ، لم يهرْع اليهود إلى أرض الميعاد ، ولم يتم تجميع المَنْفيين كما كان يتوقع الصهاينة ، وهو ما اضطر بن جوريون إلى ابتداع مصطلح «منفيو الروح» ليصف اليهود الذين يحيون حياة جسدية مريحة في المَنْفَى ، ولكنهم بلا شك معذبو الروح . وهو بهذا يتبنَّى الصيغة الصهيونية الثقافية . ولكن المُلاحَظ أن منفيِّي الروح هم الأغلبية العظمى بين يهود العالم ، أي أن اليهودية حتى بعد إنشاء الدولة الصهيونية لا تزال يهودية دياسبورا . ولذلك فالجالوت ، أو «المَنْفَى القسري» أصبح يُسمَّى «تيفوتسوت» ، أو «المَنْفَى الاختياري» ، وهذا تَناقُض عميق في المصطلح . ويبدو أن الولايات المتحدة تشكل تحدياً عميقاً لفكرة المَنْفَى ، إذ أنها تشكل نقطة جذب هائلة للغالبية الساحقة من يهود العالم . وقد اتجهت لها الكتلة البشرية اليهودية من شرق أوربا (يهود اليديشية) وغيرها من أنحاء العالم . ولم تتجه سوى أقلية صغيرة إلى فلسطين ، لأن أبواب الولايات المتحدة كانت مُوصَدة دونها . وقد بدأ يهود الولايات المتحدة ينظرون إلى إسرائيل لا باعتبارها وطناً قومياً ، وإنما باعتبارها «الوطن الأصلي» أو «مسقط الرأس» ، تماماً كما ينظر الأمريكيون من أصل أيرلندي إلى أيرلندا . ولكن هذه النظرة تفترض أن الولايات المتحدة ليست بمَنْفَى وإنما البلد التي يهاجر إليها أعضاء الجماعات اليهودية بمحض إرادتهم ، بحثاً عن فرص جديدة . وإن كانت الولايات المتحدة ليست هي أرض الميعاد التي تُحقِّق أحلامهم الدينية ـ وهي أحلام أصابها الضمور على أية حال ـ فهي على الأقل «جولدن مدينا» أي البلد الذهبي التي حققت لهم معظم أحلامهم الدنيوية . وهذه الرؤية تعني أن يهود الولايات المتحدة لا يعتبرون بلدهم الجديد مَنْفَى . وبالفعل ، نجد أن كتاب هوارد ساخار الأخير الذي صدر بعنوان **الدياسبورا** لا يضم فصولاً عن الولايات المتحدة ، وذلك باعتبار أنها وطن قومي جديد . كما تعني هذه الرؤية أن يهود الولايات المتحدة لا يفكرون أيضاً في العودة لأن العودة لا تكون إلا إلى الوطن الأصلي . بل إن من الطريف أن الحاخام مناحم شنيرسون وحاخامات جماعة الناطوري كارتا (المعادية للصهيونية) يعتبرون دولة إسرائيل جزءاً من المَنْفَى .

أما في إسرائيل ، فقد ظهر جيل جديد من الصابرا لا يفهم سيكولوجيا يهود المَنْفَى ، وإن فهمها فهو لا يُكِنّ لها احتراماً كبيراً . وهذا الانقسام بين يهود العالم ويهود إسرائيل من الصابرا وغيرهم يمثل مشكلة ضخمة تواجه الفكر الصهيوني . بل يبدو أن الولايات المتحدة بجاذبيتها تُهدِّد المستوطن الصهيوني ذاته ، إذ أن أعداداً كبيرة من المستوطنين ، وضمن ذلك الصابرا يهاجرون إلى الولايات المتحدة فيتركون الوطن إلى المَنْفَى ! ويُطلَق على المهاجرين الإسرائيليين إلى الولايات المتحدة الدياسبورا الإسرائيلية .

وينطلق الصهاينة من افتراض وحدة الشعب اليهودي وضرورة تجميع المنفيين وصَهْرهم ومَزْجهم في شخصية نمطية واحدة (برغم تَعدُّد خلفياتهم الثقافية والحضارية) حتى يُشْفَوا من كل أمراض المنفى . ولكن ، كلما تم مَزْج أو صَهْر مجموعة من المهاجرين ، تأتي مجموعة جديدة من المَنْفَى فيستعيد من انصهر كثيراً من السمات الحضارية التي كان قد فقدها إما من خلال الالتحام بالمهاجرين الجدد ، إن كانوا من بني جلدتهم ، أو من خلال مجابهتهم إن كانوا

من تَجمُّع قومي آخر ، أي أن تجميع المنفيين يتعارض بشكل حادّ مع مَزْجهم وصَهْرهم . وتظهر هذه المشكلة في موقف جماعات السفارد واليهود الشرقيين من المهاجرين الأشكناز واليهود الغربيين وخصوصاً السوفييت .

ونحن لا نستخدم كلمات ذات طابع عاطفي عقائدي مُتحيِّز ، مثل «المَنْفَى» أو «الشتات» ، إلا إذا تَطلَّب السياق ذلك ، ونستخدم بدلاً من ذلك مصطلحات محايدة فنقول : الجماعات اليهودية في العالم وانتشارها فيه .

العــودة

Return

تشير كلمة «العودة» في الأدبيات اليهودية والصهيونية إلى عودة اليهود إلى فلسطين ، أي «إرتس يسرائيل» أو «صهيون» أو «أرض الميعاد» بعد نفيهم منها .

وقد تكون العودة تحت قيادة الماشيَّح ، وقد يقوم بها اليهودي بإرادته ، دون انتظار مشيئة الإله . انظر : «المَنْفَى والعودة» .

الشـــــــــتات

Dispersion; Diaspora; Exile

«الشتات» مصطلح يُستخدَم أحياناً للإشارة إلى «المَنْفَى» أو «الدياسبورا» .

الدياسبورا

Diaspora

«دياسبورا» كلمة يونانية تعني «الشتات» أو «الانتشار» . وقد كانت الدياسبورا نمطاً شائعاً في العالم الهيليني الروماني ، فلم يكن مقصوراً على اليهود بل كانت هناك جماعات من التجار اليونانيين الذين يؤسسون جماعاتهم ومجتمعاتهم الصغيرة في المدن التي يستقرون فيها ، فكانوا يبنون فيها معابدهم ويعبدون آلهتهم ، ويمارسون جميع مؤسسات حياتهم الهيلينية الأخرى مثل الجيمنازيوم . كما أن المدن اليونانية المختلفة خارج بلاد اليونان ، بسكانها من المستوطنين اليونانيين ، كانت تشكل دياسبورا . وبرغم أن الكلمة محايدة إلى حدٍّ كبير ، لأن الانتشار تم بإرادة المنتشرين ، إلا أنها في نهاية الأمر تعني تَشتُّتاً من مركز ما ، والمركز في العقل الإنساني أفضل من الأطراف . أما في الكتابات اليهودية والصهيونية ، فهي تحمل معنى سلبياً أكيداً ، باعتبار أن اليهودي الموجود خارج فلسطين أو «إرتس يسرائيل» أو «صهيون» (في المصطلح الديني) أو «الوطن القومي» (في المصطلح السياسي) موجود خارج وطنه رغم أنفه ، وبالتالي فهو في المَنْفَى . وتُميِّز هذه الكتابات بين المَنْفَى الاختياري والمَنْفَى القسري . ويتجلى ذلك في العبرية على وجه الخصوص إذ توجد كلمة «جولا» بمعنى المَنْفَى القسري ، كما حدث ليهود المملكة الجنوبية حينما هُجِّروا إلى بابل . وتوجد كلمة «تيفوتسوت» بمعنى «المَنْفَى الاختياري أو الطوعي» ، وهي تشير إلى اليهودي الذي يترك فلسطين بمحض إرادته ليستوطن بلداً آخر ، وإلى الجماعات اليهودية التي ترفض العودة إلى فلسطين رغم وجود سلطة سياسية يهودية مستقلة أو سلطة شبه مستقلة ، كما حدث ليهود بابل أيضاً بعد عودة نحميا وعزرا ، وكما هو حادث ليهود العالم الغربي بل ويهود العالم بأسره الآن .

وقد ظهر استخدام جديد لكلمة «دياسبورا» . فكثير من يهود الولايات المتحدة يرفضون استخدام الكلمة بمعنى «المَنْفَى المؤقت» ، فالولايات المتحدة أو كندا هي وطنهم النهائي وليس المؤقت . ولذا ، ففي كتاب هوارد ساخار الأخير **الدياسبورا** (عام ١٩٨٥) لا توجد أية إشارة إلى الجماعات اليهودية في إسرائيل أو أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة أو كندا) باعتبار أنهما لا يشكلان «مَنْفَى» ، وبالتالي لا يمكن الحديث عنهما باعتبارهما دياسبورا . فكأن كلمة «دياسبورا» تستبعد كلاً من فلسطين والولايات المتحدة وكندا !

ونحن نُفضِّل في هذه الموسوعة أن نشير إلى «الجماعات اليهودية في العالم وانتشارها فيه» باعتبار أن استخدام كلمة «مَنْفَى» ، أو حتى كلمة «دياسبورا» ، يفترض علاقة قومية ما بين أعضاء هذه الجماعات وفلسطين ، وهو ما تدحضه قراءة سلوكهم وأحداث التاريخ قراءة متأنية .

والواقع أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم قد يرتبطون عاطفياً أو دينياً بإسرائيل (فلسطين) ، ولكن حياتهم ككل تكون في العادة أكثر تركيباً ، ومحاولة تفسير جميع تجاربهم التاريخية (المتنوعة وغير المتجانسة) في ضوء عنصر واحد ، هو أمر تعسفي يَسقُط في الأحادية ويتجاهل منحنى الظواهر الخاص ويختزلها كلها داخل نمط واحد .

وقد نحت آرثر كوستلر مصطلح «الدياسبورا الخزرية» ، كما ظهر مؤخراً مصطلح «الدياسبورا الإسرائيلية» . وقد استُخدم من قبل مصطلح «الدياسبورا السامرية» .

انظر : «المَنْفَى والعودة» – «العودة» – «الشتات» .

المنفى القسري (الجالوت أو الجولا)

Galut

«المَنْفَى القسري» ترجمة للكلمة العبرية «الجالوت» أو «الجولا»، وهي مقابل كلمة «تيفوتسوت» أو «المَنْفَى الطوعي» . وكلمة «جالوت» ترجمة عبرية غير دقيقة لكلمة «دياسبورا» ذات المعنى المحايد إلى حدٍّ ما ، فهي تعني كلاًّ من التشتت والانتشار . والانتشار يمكن أن يكون تلقائياً ويمكن كذلك أن يكون إرادياً ، أما «الجالوت» فليس كذلك بل حالة يخضع لها الإنسان وتُفرَض عليه فرضاً .

المنفى الطوعي (تيفوتسوت)

Tefuzot

المَنْفَى الطوعي» ترجمة للكلمة العبرية «تيفوتسوت» المُشتَقة من فعل «هفّيتس» ، بمعنى «نثر» أو «بَعثَر» أو «فرّق» ، وهي مقابل كلمة «جالوت» ، أي «المَنْفَى القسري» ، وهما المقابل العبري غير الدقيق لكلمة «دياسبورا» اليونانية . فكلمة «دياسبورا» محايدة نوعاً، وتصف واقعاً قائماً ، أي انتشار بعض الجماعات اليونانية خارج اليونان في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهو انتشار لم يتم قسراً . أما «تيفوتسوت» و«الجالوت» فهما يُدخلان في الاعتبار عنصر الإرادة والحالة العقلية . وعلى أية حال ، فإن كلمة «تيفوتسوت» أقرب في المعنى إلى كلمة «دياسبورا» .

شريعة الدولة هي الشريعة

Dina de Malkuta dina

«شريعة الدولة هي الشريعة» هي الترجمة العربية للعبارة الأرامية الآتية : «دينا دي ملكوتا دينا» . وهي من أهم المبادئ في تاريخ الشريعة اليهودية . وقد ظهر المفهوم ، أول ما ظهر ، خارج فلسطين في صفوف الجماعة اليهودية في بابل أثناء حكم الأسرة الساسانية الفارسية ، إذ أن وضع الجماعة اليهودية تَطلَّب توضيح قضية نطاق الشريعة اليهودية مقابل نطاق قانون أو شريعة الدولة ، والعبارة في نهاية الأمر هي محاولة لحل قضية الولاء وازدواجه . وقد قلَّصت عبارة «شريعة الدولة هي الشريعة» نطاق تطبيق شريعة التوراة ، إذ أنها تتضمن اعترافاً بالقانون المدني غير اليهودي ، كما تعترف بأنه يَحلُّ محل الشريعة الدينية في الأمور الدنيوية ، وهو ما يعني وجوب اتباع شريعة الدولة حتى لو تناقضت مع الشريعة اليهودية . ولم يكن هذا المبدأ ينطبق بطبيعة الحال على الطقوس والشعائر الدينية . وينم تَبنِّي هذا المبدأ عن مقدرة أعضاء الجماعات اليهودية على التكيف مع محيطهم الحضاري والاندماج فيه ، وهو الأمر الذي هيأ البقاء لليهود والاستمرار لليهودية . وقد استُخدمت هذه المقولة أحياناً لتقويض دعائم الشريعة اليهودية ، كما حدث مع دعاة التنوير الذين آمنوا بالنظرية السياسية الغربية التي حوَّلت الدولة إلى مُطلَق ، فاستخدموا هذه المقولة لهدم سلطة الدين . ومعنى هذا أنهم ولَّدوا الفكر العلماني الإلحادي من داخل النسق الديني ذاته .

تجميع المنفيين

Ingathering of the Exiles

«تجميع المنفيين» ترجمة للعبارة العبرية «كيبوتس جاليوت» . وهو مصطلح ديني تبنته الصهيونية يشير إلى فكرة عودة كل أعضاء الجماعات اليهودية المنفيين أو المنتشرين في أنحاء العالم إلى فلسطين وتجميعهم هناك . لكن تجميع المنفيين (حسب التصور اليهودي الأرثوذكسي التقليدي) هو مَثَل أعلى ديني لا يتحقق إلا بعد عودة الماشيَّح كما لا يتحقق إلا بإرادة الإله ، وعلى المؤمن أن ينتظر بصبر وأناة إلى أن يأذن الإله بذلك . ولكن الصهيونية ، كعادتها ، فهمت الفكرة فهماً حرفياً وجعلتها أساس عقيدتها السياسية ، وجعلت من واجب اليهودي ألا ينتظر الإرادة الإلهية بل يعمل من أجل هذا الهدف بنفسه ، وهو ما يُسمَّى «التعجيل بالنهاية» . وأصبحت العبارة تعني استيطان اليهود في فلسطين (إسرائيل) . ورغم كل المحاولات الصهيونية الدائبة ، لم يتحقق هذا الهدف حتى الآن ، إذ تظل غالبية من يُقال لهم المنفيين من أعضاء الشعب اليهودي لا تَشعُر بحالة النفي الافتراضية . ومن ثم ، فإنهم يؤثرون البقاء في أوطانهم على العودة إلى أرض الميعاد .

التعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس)

Forcing the End (Dahikat ha-Ketz)

«التعجيل بالنهاية» ترجمة للعبارة العبرية «دحيكات هاكتس» ، ومعناها «الضغط على الإله لإجبار الماشيَّح على المجيء» ، ويُشار إلى المُعجِّلين بالنهاية على أنهم «دوحاكي هاكتس» . فاليهودية الحاخامية ، في أحد جوانبها ، تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت الذي يحدده الإله وبالطريقة التي يقررها ، وأن العودة ليست فعلاً يحدث بمشيئة البشر . وقد جاء في التلمود (سفر الكتبوت) : "لا تعودوا ولا تحاولوا أن تُرغموا الإله" .

وقد اتهم الحاخامات الصهيونية بأنها تسعى إلى التعجيل بالنهاية وتَحدِّي مشيئة الإله . والصهيونية ذاتها واعية بأن موقفها من

العودة مختلف عن الموقف الديني التقليدي الذي انتقده بن جوريون ووصفه بالسلبية والاتكالية .

بدايــــة الخـــــلاص

Beginning of Redemption

«بداية الخلاص» ترجمة للعبارة العبرية «هتحالات جئولاه» . وهي محاولة تستهدف تَجاوُز المفهوم التلمودي الذي يُحرِّم على اليهود العودة إلى أرض الميعاد ، ويفرض عليهم انتظار وصول الماشيَّح بمشيئة الإله . وقد وُصف من يحاول أن يأخذ الأمور في يديه بأنه يستعجل النهاية (دوحاكي هاكتس) . وقد كانت متتالية الخلاص كما يلي : نفي ـ انتظار ـ عودة الماشيَّح ـ عودة اليهود معه أو تحت قيادته .

ولكن ، بعد صهينة اليهودية ، بدأت قطاعات داخل اليهودية الأرثوذكسية ذاتها تحاول أن تصل إلى تَفاهُم مع الصهيونية ، فَعدَّلت المتتالية إلى ما يلي : نفي ـ عودة بعض اليهود للإعداد للخلاص ـ عودة الماشيَّح ـ عودة اليهود . وبالتالي ، فإن الاستيطان الصهيوني يصبح من قبيل العودة للإعداد لعودة الماشيَّح ، وتصبح الدولة الصهيونية بداية الخلاص ، أي أن عودة الماشيَّح تصبح نتيجة عودة اليهود لا سبباً لها . وهذا تكرار للنمط الحلولي الذي نلاحظه في اليهودية : تَوازي الإله والإنسان ثم تفوُّق الإنسان على الإله في الأهمية .

الشتات السامري أو انتشار السامريين

Samaritan Diaspora

يُشار إلى «الشتات السامري» أحياناً بمصطلح «الدياسبورا السامرية» . ويتمثل الشتات السامري في واقعة هجرة بعض السامريين من فلسطين وانتشارهم في مدن وبلاد مختلفة واستيطانهم فيها بشكل نهائي ودائم ، ثم تأسيس جماعات سامرية مختلفة ، وقد تأسست جماعات سامرية في كلٍّ من : سالونيكا وروما وحلب ودمشق وغزة وعسقلان ومصر . وقد بدأ انتشار السامريين من فلسطين مع الفتح اليوناني للمنطقة في عام ٣٢٣ ق . م .

الشتات الخزري (أو انتشار يهود الخزر

Khazar Diaspora

«الشتات الخزري» عبارة تُستخدَم للإشارة إلى شتات أو هجرة سكان إمبراطورية الخزر اليهودية منها بعد سقوطها إلى أماكن متفرقة من أهمها المجر ثم بولندا . وثمة نظرية تذهب إلى أن تَزايُد عدد يهود بولندا ابتداءً من القرن الثاني عشر لا يعود إلى هجرة يهود أوربا إليها أثناء حروب الفرنجة ، كما تقول معظم الدراسات التاريخية ، وإنما يعود إلى الشتات الخزري واستيطان بقايا يهود الخزر فيها . ولو صَدَقَت هذه المقولة ، فإن أصل معظم يهود العالم خزري تركي وليس سامياً . وعلى كلٍّ ، لم تَعُد هذه نقطة مهمة في الأدبيات الصهيونية ، باعتبار أن الصهاينة يؤسسون نظريتهم في الحقوق لا على أساس عرْقي وإنما على أساس إثني وعلى أساس الأمر الواقع ، الإرهاب والقوة .

البلد الذهبي (جولدن مدينا)

Golden Medina

«جولدن مدينا» عبارة يديشية تعني «البلد الذهبي» ، وكان يستخدمها المهاجرون اليهود من شرق أوربا (يهود اليديشية) للإشارة إلى الولايات المتحدة .

وبمعنى من المعاني ، لا تزال الولايات المتحدة هي « الجولدن مدينا» أو البلد الذهبي التي يتجه إليها يهود العالم ، ومنهم الإسرائيليون ، بدلاً من أرض الميعاد ، وهذا ما حدا بالبعض للإشارة إليها بأنها الـ «جولدن كاف golden calf» أي «العجل الذهبي» . والجولدن مدينا هي أرض الميعاد العلمانية ، التي لا تَعد أحداً بالخلاص الروحي ، ولكنها تَعد الجميع بخلاص الجسد من خلال السلع والترف والراحة . ولعل تَصاعُد معدلات العلمنة بين يهود العالم هو الذي يجعلهم يتجهون بهذه الصورة إلى الولايات المتحدة . وقد أثبت المهاجرون السوفييت أن ولاءهم الحقيقي يتجه نحو صهيون العلمانية هذه ، وأن دولة إسرائيل إن هي إلا مبيت مؤقت ينتظرون فيه وصول الإشارة على هيئة تأشيرة هجرة إلى الولايات المتحدة .

الدياسبورا الثانية

Second Diaspora

«الدياسبورا الثانية» مصطلح يتواتر في الخطاب الصهيوني للإشارة إلى هجرة اليهود السوفييت إلى الولايات المتحدة بدلاً من إسرائيل ، باعتبار أنهم ينتقلون من دياسبورا أولى (الاتحاد السوفيتي) إلى دياسبورا ثانية (الولايات المتحدة) . وقد قال أحد المتحدثين الصهاينة إن اليهود السوفييت حولوا الوكالة اليهودية والدولة الصهيونية إلى ما يشبه شركة رحلات سياحية متخصصة في نقل المسافرين اليهود السوفييت من منْفى إلى آخر .

الخروج الثاني (أو خروج صهيون)

Second Exodus (or Exodus of Zion)

«الخروج الثاني» مصطلح يُستخدَم للإشارة إلى عدة مدلولات متناقضة. والخروج الأول هو، في العادة، الخروج من مصر إلى أرض كنعان، أي فلسطين. أما مصطلح «الخروج الثاني»، فيُستخدَم للإشارة إلى هجرة الصهاينة من بلادهم واستيطانهم فلسطين، فهو خروج للتحرر من العبودية عن طريق الاستيلاء على الأرض الفلسطينية، وهو يشبه خروج جماعة يسرائيل من مصر تحت قيادة موسى واستيلاءهم على أرض كنعان، بل إن هذا الخروج الثاني يعد أهم من الأول إذ أنه خروج نهائي وأخير.

ويُستخدَم المصطلح مؤخراً للإشارة إلى نزوح كثير من المستوطنين الصهاينة من إسرائيل، فكأن خروجهم الأول كان من أوطانهم الأصلية أما خروجهم الثاني فهو من المُستوطَن الصهيوني. كما تتحدث الصحف الإسرائيلية عن «خروج صهيون»، أي خروج اليهود من وطنهم القومي.

الدياسبورا الإسرائيلية

Israeli Diaspora

«الدياسبورا الإسرائيلية» عبارة تُستخدَم للإشارة إلى المستوطنين الصهاينة الذين ينزحون عن إسرائيل ويستوطنون خارجها، في الولايات المتحدة عادةً. وهذا المصطلح ينطوي على تَناقُض عميق. فكلمة «دياسبورا» تشير عادةً إلى اليهود الموجودين خارج فلسطين برغم إرادتهم، ولذا فهم «منفيون». ولكن أن تكون الدياسبورا إسرائيلية، أي مجموعة بشرية يهودية كانت تقطن في أرض الميعاد ذاتها، في ظل الكومنولث اليهودي الثالث أي الدولة الصهيونية، وتقرر بكامل إرادتها أن تهاجر (بحثاً عن الرزق والحراك الاجتماعي غالباً)، فهذا أمر صعب، إذ كيف يمكن الحديث عن «دياسبورا» أو عن «مَنْفَى» إذا لم يكن هناك قسر؟ ويمكن أن نقول (لذلك) إن كلمة «دياسبورا» مُستخدَمة هنا بمعناها المحايد أي مجرد الانتشار.

والواقع أن الدياسبورا الإسرائيلية تتحدى نظامنا التصنيفي، فالمهاجرون الإسرائيليون ليسوا صهاينة استيطانيين بطبيعة الحال، إذ أنهم تخلَّوا عن المشروع الصهيوني. كما أنهم ليسوا بصهاينة توطينيين، إذ ليس من المُحتَمل أن يقوموا بتشجيع الآخرين على الاستيطان. ومجرد وجودهم في البلد الذهبي (جولدن مدينا)، أي الولايات المتحدة، يقف دليلاً على عدم جاذبية الدولة الصهيونية. وهم يسببون كثيراً من الحرج ليهود الولايات المتحدة وللصهاينة التوطينيين حين يُطرَح هذا السؤال: هل من الواجب إغاثة هؤلاء اللاجئين باعتبارهم «يهوداً» أم يجب مقاطعتهم باعتبارهم مرتدين أو هابطين تركوا أرض الميعاد ونكصوا على أعقابهم؟

ويبلغ عدد أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة حوالي ٥٠٠ ألف حسب التقديرات الرسمية. وحسب التقديرات غير الرسمية، يبلغ العدد ٧٥٠ ألفاً، ولكنه يبلغ مليوناً إن حسبنا أبناء المهاجرين. وقد أشارت إحدى الصحف الإسرائيلية إلى هذه الظاهرة باعتبارها «خروج صهيون». كما ذكرت صحيفة أخرى للإسرائيليين أن عدد سكان الدولة الصهيونية (عند إنشائها في عام ١٩٤٨) كان لا يتجاوز ٧٠٠ ألف، أي أقل من عدد المهاجرين منها، وهو ما يُفقدها كثيراً من الشرعية.

انتشار الجماعات اليهودية

Diffusion of the Jewish Communities

نحاول في هذه الموسوعة أن نستخدم الكلمة المحايدة «انتشار» (وأحياناً «هجرة» أو «تهجير») بدلاً من العبارات الشائعة مثل «المَنْفَى» و«الدياسبورا» و«الشتات» و«المَهْجَر»، فهي جميعاً مصطلحات وعبارات إما مُشتقَّة مباشرةً من المُعجم الديني اليهودي أو متأثرة به، فمقدرتها التفسيرية والتصنيفية والوصفية ضعيفة.



٦
هجرات وانتشار أعضاء الجماعات اليهودية

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية : مقدمة ـ الاستقرار ـ هجرات أعضاء الجماعات اليهودية حتى بداية العصر الحديث ـ هجرات أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث ـ انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وعلاقتهم بفلسطين ـ الدياسبورا الدائمة ـ الدياسبورا الإلكترونية

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية : مقدمة

Migrations of Memebers of Jewish Communities : Introduction

يُلاحَظ أننا في هذه الموسوعة لا نستخدم مصطلح «الهجرة اليهودية» قدر استطاعتنا وإنما نستخدم بدلاً من ذلك مصطلح «هجرة أعضاء الجماعات اليهودية» ، فالمصطلح الأول يعني أن ثمة حركيات مستقلة ذات طابع يهودي هي التي تحكم عملية الهجرة وتدفعها . ونحن نذهب إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة خاضعون لحركيات جذب وطرد لا تختلف كثيراً عما يخضع له سائر أعضاء المجتمع الذي ينتمون إليه . كما أننا نستخدم مصطلح «انتشار» لنصف ظاهرة هجرة أعضاء الجماعات واستقرارهم في أرجاء المعمورة . ويُلاحَظ أننا نُميِّز بين الاستقرار والاستيطان ، فالأول لا ينطوي على أي عنف أو اغتصاب أرض ، أما الثاني فهو على عكس ذلك .

وتذهب التواريخ الصهيونية والمعادية لليهود إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية لا يستقرون في وطن واحد ، فهم دائمو التنقل والترحال والهجرة (وهذا تعبير عن إحساسهم الأزلي بالنفي ورغبتهم الثابتة في العودة إلى أرض الميعاد !) . وتُجرِّد التواريخ الصهيونية هذه السمة وتعتبرها ، مثلها مثل سمات أخرى كالهامشية والطفيلية ، سمةً مُطلَقة تتصف بها «الهوية اليهودية» وما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» . ولكننا نرى أنه لا توجد «هوية يهودية» واحدة أو «تاريخ يهودي» وإنما هناك هويات يهودية وتواريخ يهودية (أو تجارب تاريخية) للجماعات اليهودية تختلف باختلاف الزمان والمكان . وإذا درسنا هذه التجارب في سياقها المتعيِّن ، فسوف نكتشف أن الهجرة ليست سمة مُطلَقة ولا تنطبق على اليهود أينما وُجدوا . فالجماعة اليهودية في إثيوبيا والمسماة بالفلاشاه مكثت مئات السنين في موطنها لا تتحرك منه ولا تغادره ، ولم تهاجر إلا في الثمانينيات حينما قامت الدولة الصهيونية بتهجير أعضائها في ظروف المجاعة في أفريقيا لتحرز انتصاراً مذهبياً أمام يهود العالم ، ولتظهر مرة أخرى بمظهر الدولة التي "تنقذ" اليهود . كما أن يهود بابل ظلوا في موطنهم منذ الألف الأول قبل الميلاد حتى عام ١٩٥١ ، حينما قام العملاء الصهاينة المتخفون بإلقاء المتفجرات عليهم ليبثوا الرعب في قلوبهم ولإيهامهم بأن حياتهم تحفها المخاطر . أما اليهود الذين هُجِّرو إلى آشور (أسباط يسرائيل العشرة المفقودة) ، فيبدو أنهم انصهروا تماماً واختفوا . وفي الوقت الحاضر ، فإن خروج يهود الاتحاد السوفيتي هو نتيجة حركيات داخلية خاصة بالمجتمع السوفيتي ولانهيار المنظومات الاشتراكية .

ومع هذا ، توجد جماعات إنسانية تتنقل بشكل دائم وتنتقل من مكان لآخر ، ويعود هذا التنقل إلى ظاهرة إنسانية لها آلياتها وحركياتها التاريخية والإنسانية المفهومة .

وقد قضت القبائل التركية مئات السنين في التجوال ، وكان من بينها قبيلة الخزر التي تهوَّد أعضاؤها فيما بعد . ويمكن الإشارة كذلك إلى المغول وحروب الفرنجة ، وإلى هجرة قبائل الهون الذين تُمثِّل غزواتهم جزءاً من عمليات التنقل التي تعود إلى أسباب اقتصادية وسكانية وحضارية مختلفة . وفي العصر الحديث ، يمكن الإشارة إلى هجرة الأرمن والأيرلنديين ومجموعات بشرية أخرى هاجرت من أوربا إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلدان لعدة أسباب مركبة .

ويُلاحَظ أن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية يتنقلون ويهاجرون لأنهم أعضاء في جماعات وظيفية ، قتالية أو استيطانية أو تجارية . ولهذا السبب ، انتقل بعض الجنود العبرانيين إلى مصر ليعملوا كمرتزقة ، كما وطَّن السلوقيون والرومان اليهود كعنصر استيطاني في بعض أرجاء إمبراطورياتهما . ومع حلول العصور الوسطى في الغرب ، خضع أعضاء الجماعات اليهودية لعمليات من الطرد والتهجير والتوطين كجماعة وظيفية وسيطة مرتبطة بحرفتي التجارة والربا . فالجماعة الوسيطة لا جذور لها في المجتمع ، تعيش في مسامه ، وهي دائماً على استعداد للرحيل لأن المجتمع يبقيها بمقدار نفعها وبمقدار اضطلاعها بوظيفتها . ولذا ، فإن أعضاء الجماعة الوسيطة دائمو التنقل ، لا يشتغلون بالأعمال الزراعية ولا

بالأعمال الإنتاجية التي تتطلب الاستقرار . ومع ظهور طبقات محلية ، واضطلاع الدولة القومية الحديثة بدور اليهود ، زادت عمليات الطرد وبالتالي التنقل . وصورة «اليهودي التائه» ، برغم إيحاءاتها الدينية والعنصرية المختلفة ، تضرب بجذورها في عملية التنقل هذه .

وإذا نظرنا إلى أهم فترتين تَنقَّل فيهما أعضاء الجماعات اليهودية (المرحلة العبرانية ثم المرحلة الحديثة في أوربا من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) ، فسنكتشف أن العبرانيين وأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يشكلون جزءاً من كلٍّ أكبر . لقد كان العبرانيون جزءاً من جماعات سامية ضخمة تتحرك في الشرق الأدنى القديم ، ابتداءً من الألف الثاني قَبْل الميلاد ، وتضم الخابيرو والأخلامو والآراميين والهكسوس وغيرهم . ونحن نسمِّي هذه المرحلة المرحلة السامية السديمية لأن معالم الأشياء لم تكن واضحة ولأن القبائل والأقوام المهاجرة المتنقلة كانت متداخلة . كما شهدت مرحلة الإمبراطوريات الكبرى ، البابلية والآشورية ثم الفارسية واليونانية والرومانية ، بدايات الهجرة التي تعاظمت بالتدريج حتى وصلت ذروتها مع نهاية الألف الأول قبل الميلاد وأصبح عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من ضعف عددهم داخلها . ويُلاحَظ أن الهجرة اليهودية تتعاظم داخل إطار الإمبراطوريات التي تُيسِّر لهم حرية الحركة .

وهجرة يهود شرق أوربا (يهود اليديشية) إلى الولايات المتحدة وكندا وفلسطين وغيرها من الدول الاستيطانية بأعداد هائلة ، حتى انتقلت الكتلة البشرية اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ، هي بالمثل هجرة تمت داخل إطار إمبراطوري . فقد تمت داخل التشكيل الاستعماري الغربي وتجربته الاستيطانية في أنحاء العالم ، تلك التجربة التي بدأت في القرن السابع عشر وزادت حدتها في أوائل القرن التاسع عشر ووصلت ذروتها في أواخره ، واستمرت بعد ذلك ثم بدأت تخبو بعد الحرب العالمية الثانية مع توَقُّف الانفجار السكاني في الغرب . لقد هاجر من سكان أوربا نحو ٦٥ مليوناً خلال قرن ونصف القرن (١٨٠٠ ـ ١٩٥٠) ، وكان من بينهم الإيطاليون والأيرلنديون والألمان وكثير من سكان شرق أوربا ، وكان من بين هؤلاء أعضاء الجماعات اليهودية . وقد هاجر إبان هذه الفترة أربعة ملايين يهودي ، أي ٦٪ من جملة المهاجرين ، كانوا لا يشكلون سوى ٥ , ١ ـ ٢٪ من سكان أوربا ، أي أن معدل الهجرة بين اليهود كان أربعة أضعاف معدلها العام . ولكن ، في الفترة من عام ١٨٠١ إلى عام ١٩٢١ ، هاجر نحو ثمانية ملايين أيرلندي ، ولاتزال عملية الهجرة مستمرة من بلد لا يزيد عدد سكانه على ثلاثة ملايين ونصف المليون . وكانت هجرة الأيرلنديين أكثر من هجرة اليهود كما أنها كانت محمومة . وبلغت نسبة اليهود الذين يرجعون إلى بلادهم الأصلية ٨٪ ، أما نسبة الأيرلنديين العائدين فكانت لا تزيد على ٧٪ . ويُلاحَظ أن الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة كانت تضم في الأساس عناصر إشكنازية .

وقد كانت الهجرة اليهودية تأخذ في الماضي شكل التقهقر من المناطق المتقدمة إلى المناطق الأقل تقدماً ؛ من الشرق القديم إلى أوربا التي كانت من أكثر مناطق العالم تخلفاً . وفي أوربا نفسها ، أخذت الهجرة في العصور الوسطى شكل التحرك من إنجلترا وفرنسا إلى ألمانيا ومنها إلى شرق أوربا أكثر المناطق تخلفاً . وابتداءً من القرن السابع عشر ، أخذت الهجرة شكلاً مغايراً وهو الهجرة من الأماكن الأقل تقدماً إلى الأماكن الأكثر تقدماً ؛ من شرق أوربا إلى وسطها وإلى إنجلترا والولايات المتحدة . وإذا كان هذا هو نمط الهجرة ، فإن الولايات المتحدة تصبح منطقياً نقطة الجذب المُطْلَقة ، وهذا هو الوضع القائم حتى الوقت الحالي .

ويُلاحَظ أن العنصر المشترك في كلتا الهجرتين (من البلاد المتقدمة إلى المتخلفة والعكس) هو أن اليهود كانوا عنصراً استيطانياً ريادياً يبحث عن الفرص الجديدة للاستثمار والحراك . وحينما كانت الفرصة موجودة في المناطق المتخلفة ، كانت الهجرة تتجه نحوها . ولكن ، مع الثورة التجارية ، تغيَّر الوضع تماماً وأصبح البحث عن الفرص الاقتصادية يدور في الدول الاستيطانية المتقدمة . ويُلاحَظ أن هجرة اليهود قلما كانت تتجه إلى فلسطين .

وهنا لابد من التفرقة بين الهجرة والاستعمار الاستيطاني . فالهجرة من بلد إلى آخر تعني قبول أهل البلد الجديد للقادمين نظراً للحاجة إليهم ، وهي تنتهي باستقرار المهاجر في بلده الجديد . ولكن إذا فَرَض القادمون الجدد أنفسهم عن طريق العنف ، فإن من الصعب أن نسمي ذلك «هجرة» . والواقع أننا يمكن أن نتحدث عن هجرة الأيرلنديين إلى الولايات المتحدة واستقرارهم فيها بعد أن استوطنها الإنسان الأبيض وأباد سكانها الأصليين ، حيث لم تَعُد هناك حاجة إلى العنف من جانب المهاجرين الجدد بعد أن تولى المستوطنون الأوائل هذه المهمة نيابة عنهم . أما في جنوب أفريقيا (حتى وقت قريب) وفي فلسطين ، فإن الوضع جد مختلف ، ذلك أن السكان الأصليين لا يزالون مستمرين في المقاومة ، وهو ما يجعل العنف ضدهم ضرورياً . وعلى هذا ، فيمكن الحديث عن استيطان الهولنديين في جنوب أفريقيا والصهاينة في فلسطين ، أو عن هجرتهم للاستيطان أو هجرتهم الاستيطانية .

ويُلاحَظ أن كثيراً من المهاجرين اليهود تم توطينهم في أمريكا

اللاتينية ، بل وفي روسيا السوفيتية ، بمعرفة مؤسسات يهودية توطينية كونها يهود العالم الغربي لتحويل تيار الهجرة عن بلادهم للحفاظ على وضعهم الطبقي ومكانتهم الاجتماعية . ولذا ، فنحن نفرِّق بين «الاستيطان» و«التوطين» . ويستطيع القارئ أن يعود إلى مداخل الباب المعنون «الصهيونية التوطينية» والباب المعنون «المؤسسات التوطينية» .

الاستقرار

Settlement

«الاستقرار» هو أن يهاجر شخص من بلده نتيجة ظروف موضوعية (عوامل طَرْد في الوطن الأصلي) أو ذاتية (رغبة في الحراك الاجتماعي) فيحمل متاعه ويذهب إلى بلد آخر يوافق على هجرته أو يرحب به . ويتم ذلك عادةً في إطار قانوني . ومن ثم ، فإن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية من أوربا إلى الولايات المتحدة هي عملية استقرار في الوطن الجديد . و«الاستقرار» ، بطبيعة الحال، غير «الاستيطان» . وفي اللغة الإنجليزية لا يُوجَد سوى كلمة واحدة هي «ستلمنت settlement» للتعبير عن المعنيين المختلفين .

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية حتى بداية العصر الحديث

Migrations of Memebers of Jewish Communities up to the Beginning of Modern Times

ينتقل بعض أعضاء الجماعات اليهودية من وطن إلى آخر بحثاً عن الرزق ولتحسين المستوى المعيشي بصفة عامة ، أو لأسباب أخرى مثل التهجير والطرد أو الاضطهاد أحياناً . وإن قبلنا الرأي القائل بأن الخابيرو الذين ورد اسمهم في لوحات تل العمارنة هم العبرانيون ، فإن أول إشارة إليهم كانت باعتبارهم شعباً متجولاً . وقد اتسمت حياة العبرانيين في عصر الآباء (منذ عام ٢٠٠٠ ق . م) بالتنقل البدوي من بلد إلى آخر وبالبقاء على حواف المدن أو على طُرُق التجارة . وفي هذه المرحلة ، استوطنت بعض العناصر العبرانية أرض كنعان وفي مصر دون أن تضرب جذوراً في أي منهما . وقد خرج العبرانيون من مصر أو هاجروا منها (عام ١٦٤٥ ق . م) ليبدأوا فترة أخرى من التجوال في سيناء انتهت بالتغلغل العبراني في كنعان (عام ١١٨٩ ق . م) الذي أعقبته فترة من الاستقرار النسبي بعد قيام اتحاد القبائل العبرانية في شكل المملكة العبرانية المتحدة ثم المملكتين العبرانيتين : المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية . وقد انتهت هذه المرحلة بالتهجير الآشوري ثم التهجير البابلي .

وبعد هذه المرحلة ، ينتهي التهجير ليبدأ اليهود في الانتشار في بقاع الأرض بوصفهم جماعات يهودية لا يربطها رابط سوى الانتماء إلى العقيدة الدينية الإثنية نفسها . وتبدأ هذه المرحلة حين فضلت أعداد كبيرة من اليهود الاستمرار في بابل مُكوِّنةً بذلك نواة أول جماعة يهودية تستقر خارج فلسطين بعد مرحلة التهجير البابلي . ومن الممكن أيضاً الإشارة إلى الجماعة الصغيرة في جزيرة إلفنتاين التي كانت تشكل حامية عسكرية تحمي حدود مصر الجنوبية .

ثم قامت الإمبراطورية اليونانية بفرض هيمنتها على أجزاء كبيرة من البحر الأبيض والشرق الأدنى القديم (٣٣٢ ق . م) ، وهو ما يسَّر عملية انتقال اليهود وانتشارهم ، فاستقرت أعداد كبيرة منهم (كجماعات وظيفية استيطانية وقتالية ومالية) في مصر ، وفي الإسكندرية على وجه الخصوص . كما استقروا في برقة وقبرص وآسيا الصغرى . وقد بدأ الانتشار في أوربا الغربية في تلك المرحلة أيضاً .

وحين قضى الرومان على فلسطين كإحدى نقاط تَجمُّع الجماعات اليهودية وأحد مراكزها ، وحتى حين هدم تيتوس الهيكل (عام ٧٠م) ، لم يؤثر ذلك كثيراً في حركة تَدفُّق اليهود أو على شكلها ، إذ أنها بدأت على أية حال قبل ذلك التاريخ ، حيث استمر تَدفُّق اليهود خارج فلسطين وإلى مختلف البلدان ، خصوصاً إلى أوربا وحوض البحر الأبيض المتوسط . ويُقال إن هجرة اليهود إلى الجزيرة العربية تعود إلى هذه الفترة أو بعدها ، وقد تم طَرْد اليهود منها مع ظهور الإسلام ، ولكن يبدو أن أعداداً كبيرة لم تغادرها . كما أن الجماعة اليهودية في اليمن لم تتأثر بقرار الطرد ، فقد بقيت أعداد منها واستمر وجودها حتى العصر الحديث . وفي أوائل القرن العشرين ، قام المستوطنون الصهاينة بتوطين عدد من يهود اليمن في فلسطين لسد حاجتهم إلى العمالة ، ثم هاجرت أغلبيتهم في عام ١٩٤٨ إلى فلسطين ، ولا تزال توجد بقايا من هذه الأقلية في صعدا وغيرها من المناطق .

وقد شهدت بداية العصور الوسطى في الغرب (القرن الرابع الميلادي) شيئاً من الاستقرار النسبي بالنسبة إلى الجماعات اليهودية في الغرب المسيحي ثم في الشرق الإسلامي بسبب استقرار الأحوال السياسية والاقتصادية فيها . وبدأ نمط الهجرة في هذه الفترة يتضح ، أي الهجرة من البلاد المتقدمة إلى البلاد المتخلفة ؛ وقد كانت أوربا من أكثر المناطق تخلفاً في العالم آنئذ . وكانت توجد ثلاثة خطوط أساسية للهجرة إلى أوربا : من فلسطين إلى جنوب إيطاليا ومنها عَبْر جبال الألب إلى فرنسا وألمانيا ، ومن الإمبراطورية الرومانية الشرقية

(بيزنطة) عَبْر وادي الدانوب إلى وسط أوربا ، ومن العراق ومصر عَبْر المغرب إلى إسبانيا . وهكذا انتقلت الكثافة السكانية اليهودية (بين عامي ٥٠٠ ق . م ١٠٠٠م) من الشرق الأوسط إلى أوربا .

ورغم أن نمط الهجرة إلى البلاد الأكثر تخلفاً هو النمط السائد، إلا أنه ليس النمط الوحيد ، فمع تدهور الخلافة العباسية في القرن العاشر ، هاجرت كذلك أعداد من اليهود المقيمين في العراق إلى الهند والصين . ولذا ، قد يكون من الأفضل أن نقول إن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تتجه حيث توجد فرص أكبر لممارسة نشاطهم الاقتصادي ، وأحياناً ما تتيح البلاد المتخلفة هذه الفرصة لهم أكثر من البلاد المتقدمة ، خصوصاً حين تبدأ هذه البلاد في التآكل والانهيار ويصبح عدم الاستقرار سمة أساسية فيها .

ومع إرهاصات التحول التجاري الرأسمالي في المجتمع الغربي في القرن الحادي عشر ، ومع ظهور طبقات من التجار والمموِّلين المسيحيين ، تم طَرْد اليهود من إنجلترا في عام ١٢٩٠ (ويُقال إن عددهم كان لا يتجاوز أربعة آلاف) ، كما طُردوا من فرنسا عامي ١٣٠٦ و١٣٩٤ ، فاستقروا في بادئ الأمر في ألمانيا وإيطاليا وشبه جزيرة أيبريا ، ولكنهم طُردوا أيضاً من إسبانيا في عام ١٤٩٢ ثم من البرتغال ، فهاجروا أساساً إلى شمال أفريقيا وإلى إيطاليا وصقلية . كما هاجرت أعداد كبيرة (نصفهم كما يُقال) إلى الإمبراطورية العثمانية التي كانت تشجع اليهود على الهجرة إليها لتنشيط التجارة . ولقد تدخلت الدول الغربية لمنع هجرة اليهود منها خشية أن يؤدي ذلك إلى انهيار النظام المصرفي والمالي والتجاري ، الذي كان اليهود يلعبون فيه دوراً أساسياً . وقد شهدت هذه الفترة سقوط مملكة الخزر اليهودية في القرن العاشر حيث هاجر سكانها إلى المجر ثم إلى بولندا .

ومع أواخر العصور الوسطى ، بدأت الإمارات الألمانية في طرد أعضاء الجماعات اليهودية . وقد ساهمت حملات الفرنجة ، وهي تعبير عن إرهاصات التحول التجاري الرأسمالي ، في اجتثاث جذور أعضاء الجماعات في وادي الراين وغيره من المناطق ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى بولندا . ومعنى هذا ، أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع نهايات العصور الوسطى (ابتداءً من القرن الرابع عشر) تأخذ مرة أخرى شكل هجرة من البلاد المتقدمة إلى البلاد المتخلفة نسبياً ؛ من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا إلى ألمانيا ومنها إلى بولندا ، أي أنها هجرة إلى الماضي . وكان شرق أوربا هو الجهة الأخيرة تقريباً بالنسبة إلى أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا يُطردون من البلاد المتقدمة نتيجة ظهور طبقات تجار محليين مسيحيين ، إذ لم تَعُد هناك جيوب متخلفة أخرى يستطيع اليهود التقهقر إليها في الغرب .

وتجب الإشارة إلى أن الهجرة كانت تتم في هذه المرحلة بالتدريج وببطء شديد نتيجة عدم وجود وسائل مواصلات سريعة وطرق ميسرة كما هو الحال في العصر الحديث . وكثيراً ما كان اليهود المحليون يتصدون لليهود الوافدين لأنهم يشكلون خطورة اقتصادية عليهم ، فكانوا يمارسون حق حظر الاستيطان ، كما كان يهود البلاط يمنعون هجرة أي يهودي إلى المنطقة التي يتولون قيادتها .

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث

Migrations of Memebers of Jewish Communities in Modern Times

تغيَّر اتجاه هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع بداية عصر النهضة في أوربا لثلاثة أسباب أساسية :

١ ـ شهد عصر النهضة بدايات الانقلاب التجاري الرأسمالي الحقيقية بما تبعه من اكتشافات جغرافية ومشاريع استعمارية غربية : إسبانية وبرتغالية ثم هولندية وإنجليزية . وكانت إسبانيا والبرتغال قد طردتا اليهود من أراضيهما ، أما هولندا وإنجلترا فقد فتحتا أبوابهما لهجرة اليهود نظراً لحاجتهما إلى أيد عاملة ورؤوس أموال وخبرات تجارية ، ثم تبعتهما فرنسا . وأدَّى هذا الوضع إلى تَدفُّق المهاجرين اليهود إلى هذه البلاد وإلى مستعمراتها فيما بعد .

٢ ـ كانت الدولة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة الجمود التي أدَّت إلى سقوطها في نهاية الأمر ، ولم تَعُد قادرة على استيعاب المزيد من اليهود .

٣ ـ وفي تلك المرحلة ، كان معظم يهود أوربا مُركَّزين في بولندا التي شهدت ثورة الزعيم الشعبي الأوكراني بوجدان شميلنكي عام ١٦٤٨ والذي قاد ثورة الفلاحين الأوكرانيين ضد الاحتلال البولندي ، وضد النبلاء البولنديين (شلاختا) المستفيدين من هذا الاحتلال ، وضد عمال النبلاء وممثليهم من يهود الأرندا الذين كانوا يقومون بجمع الضرائب وتوقيع العقوبات على الفلاحين . وقد هزت هذه الثورة جذور الدولة البولندية على وجه الخصوص ، ثم تبع ذلك غزو السويد وروسيا لها .

وقد أدَّى تَزامُن هذه الأحداث (طرد اليهود السفارد من شبه جزيرة أيبريا ، ثم اهتزاز الأساس الاقتصادي والسياسي لليهود الإشكناز في بولندا مع فَتْح أبواب الهجرة إلى أوربا الغربية ، ودخول الدولة العثمانية في طور الجمود) ، إلى تغيير مسار هجرة

أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا وظهور النمط الحديث ، أي هجرة اليهود من البلاد المتخلفة في شرق أوربا إلى البلاد المتقدمة في وسطها وغربها وإلى العالم الجديد . والهجرة اليهودية في العصر الحديث هي أساساً جزء من حركة الاستعمار الاستيطاني التي بدأت في القرن السادس عشر ، خصوصاً التشكيل الأنجلو ساكسوني (بعد بداية قصيرة مع الاستعمار الإسباني ثم الهولندي) . وما الهجرة الصهيونية إلا تعبير عن هذا النمط العام . ومع هذا ، ظلت الولايات المتحدة هي نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البداية حتى الوقت الراهن ، للأسباب التالية :

١ ـ تشكل الولايات المتحدة أهم وأنجح تجربة استيطانية غربية . وقد اجتذبت ثم استوعبت أعداداً كبيرة من المهاجرين من أوربا بلغت أكثر من ٨٠٪ .

٢ ـ الولايات المتحدة دولة علمانية لم تعرف أية تقاليد أو حتى أية رموز دينية إلا لفترة وجيزة للغاية من تاريخها ، كما أنها نجحت في إقامة مؤسسات علمانية لاستيعاب وصَهْر المهاجرين و«أمركتهم» وأتاحت لهم فرصة الانتماء الثقافي الكامل لوطنهم الجديد الأمر الذي زاد من جاذبيتها ، وذلك على عكس أمريكا اللاتينية التي احتفظت بكاثوليكيتها وبالتالي استبعدت البروتستانت واليهود .

٣ ـ كان اليهود يشكلون جماعة وظيفية مالية تعمل بالتجارة والمال ، وبالتالي لم تكن بينهم أعداد كبيرة من العمال أو الفلاحين . والمجتمع الأمريكي هو مجتمع الاقتصاد الحر الذي يشكل القطاع التجاري والمالي أكبر قطاعاته ، والذي سادت فيه القيم التجارية الموضوعية . ومن ثم فهو مجتمع ذو جاذبية خاصة بالنسبة إلى المهاجر اليهودي .

وقد تنبأ المؤرخ الروسي اليهودي دبنوف بأن مسار الهجرة اليهودية سيكون إلى الولايات المتحدة ، وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها .

ويمكن القول بقدر من التبسيط غير المخل بأن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور حول قطبين أساسيين هما : شرق أوربا (روسيا/ بولندا) كقوة طاردة ومصدر للمادة البشرية ، والولايات المتحدة كقوة جاذبة . وقد كان النمط الأساسي القديم للهجرة اليهودية هو تَحرُّك أعضاء الجماعات داخل أُطر الإمبراطوريات الكبرى (الفارسية أو الرومانية أو الإسلامية) ، أما في القرن العشرين فقد كانت هناك إمبراطوريتان أو قوتان عظميان تحددان من خلال سياستهما حركة هجرة أعضاء الجماعة اليهودية ، وقد تَطوَّر الأمر بعض الشيء بعد ذلك في منتصف القرن العشرين .

ولكن هناك مصادر أخرى ثانوية طاردة للمادة البشرية مثل أوربا الشرقية أو أمريكا اللاتينية أو جنوب أفريقيا أو بقايا يهود الشرق والعالم الإسلامي . كما أن هناك مناطق جذب ثانوية أخرى مثل كندا وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوربا . إلا أن النمط الأساسي الذي أشرنا إليه ظل سائداً . وتمثل إسرائيل نقطة مُبهَمة ، فهي مصدر طَرْد حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون ، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق حيث إنها تحقق حراكاً اجتماعياً . كما تمثل محطة انتقال لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الوصول إلى الولايات المتحدة مباشرةً أو أولئك الذين لا توجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها .

ويمكن تقسيم هجرات أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث إلى المراحل التالية :

أ) المرحلة الأولى : ابتداءً من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر .

وهي مرحلة البدايات الأولى للثورة التجارية الرأسمالية الصناعية في أوربا . وهي الفترة التي شهدت توطين السفارد من يهود المارانو في هولندا وفرنسا وإنجلترا ، كما شهدت بدايات الهجرة الاستيطانية اليهودية إلى العالم الجديد . وكانت الهجرة تتبع النمط التالي : تهاجر مجموعة صغيرة من السفارد (عادةً من كبار المموِّلين وعائلاتهم) يلحق بهم أعداد ضخمة من الإشكناز ، كما حدث في أمستردام بعد استقلالها عن إسبانيا ، وكما حدث في إنجلترا وفرنسا وبعض مدن ألمانيا . وقد زاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في أمستردام من ٢٠٠ سفاردي عام ١٦٩٠ إلى ٢٤٠٠ سفاردي و٢١ ألف إشكنازي عام ١٧٩٥ . أما لندن ، فقد كان يوجد فيها عام ١٦٩٥ نحو ٤٥٨ سفاردياً و٢٠٣ من الإشكناز . ومع حلول عام ١٧٢٠ ، زاد عدد الإشكناز عن عدد السفارد . وفي عام ١٨٠٠ ، كان يوجد ألفا سفاردي وحسب بين العشرين ألف يهودي . ولم يستوطن فلسطين أي عدد يذكر من اليهود في تلك المرحلة .

ب) المرحلة الثانية : من القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠ .

وهي المرحلة التي وقعت فيها الحروب النابليونية والاضطرابات السياسية التي أعقبتها ، الأمر الذي تَسبَّب في هجرة بعض الجماعات اليهودية من ألمانيا وبوهيميا والنمسا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأستراليا وغيرها . ولم يزد عدد المهاجرين اليهود إلى خارج القارة الأوربية على ٢٠٠,٠٠٠ . ويمكن تفسير ذلك بعدة أسباب ، من بينها أن الانفجار السكاني الذي حدث بين يهود اليديشية في شرق أوربا ، والذي أدَّى إلى تَزايُد أعدادهم بين عامي ١٨٠٠

و١٩٣٣ بنحو ستة أضعاف ، لم يكن قد ظهر أثره بعد ، كما أنه وصل إلى ذروته بعد عام ١٨٨٠ . وفضلاً عن ذلك ، كان معظم يهود العالم مُركَّزين في شرق أوربا وروسيا وبولندا التي كان قد تم ضمها إلى روسيا . ولم تكن معدلات العلمنة والتحديث قد ازدادت بينهم بعد ، الأمر الذي كان يعني أنهم لا يزالون جماعة متماسكة تَصعُب الحركة على أعضائها ، كما كان كثير من اليهود لا يزالون يلعبون دورهم الاقتصادي التقليدي كجماعة وظيفية . وحتى عندما تزايدت عمليات التحديث والعلمنة في روسيا ، وتركت تلك العملية أثرها على الجماعة اليهودية التي بدأت تفقد شيئاً من تماسكها وبدأ يختفي كثير من مؤسساتها التقليدية التي تربط بين الفرد والجماعة مثل الأسرة والدين ، فإن هذا لم يتسبب في أية هجرة خارج أوربا إذ لم تكن محاولات التحديث في الإمبراطورية الروسية قد كابدت من التعثر بعد ، وكان الاقتصاد الروسي قادراً على استيعاب اليهود الذين كانوا يتزايدون ويتركون قراهم وأماكن إقامتهم الأصلية . ولذا ، فقد كانت هجرة اليهود داخلية ؛ من المناطق الكثيفة سكانياً في منطقة الاستيطان إلى روسيا الجديدة على شواطئ البحر الأسود . كما هاجرت أعداد صغيرة إلى بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة .

وشهدت هذه المرحلة هجرة يهود المناطق البولندية التي ضمتها ألمانيا (١٧٧٢ ـ ١٨١٥) . وفي بروسيا بالذات ، كان يوجد عام ١٨٣٧ نحو ١٤٥,٣٦٤ يهودياً ٧٠٪ منهم (حوالي ١٠١,١٥٢) كانوا في المناطق البولندية ، أي أن أغلبية يهود بروسيا كانوا مُركَّزين هناك . ولكن ، مع عام ١٨٧١ ، تَناقُص عددهم عن طريق الهجرة إلى ألمانيا ذاتها ، وأصبحت نسبة اليهود في المناطق البولندية ٣١,٨٪ ثم انخفضت عام ١٨٩٠ إلى ٢٤,٨٪ وإلى ١٧,٤٪ عام ١٩١٠ . وقد اتجه هؤلاء اليهود إلى برلين التي ارتفع عدد اليهود فيها من ٤٧,٤٨٩ عام ١٨٧١ إلى ١٨١,١٤١ عام ١٩٢٥ . وقد ساهم هذا الارتفاع في تغذية الدعاية العنصرية النازية بشأن تكاثُر اليهود والخطر اليهودي ومحاولة سيطرة اليهود على كل شيء .

جـ) المرحلة الثالثة : من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٣٩ .

وهي مرحلة الهجرة الكبرى اليهودية وغير اليهودية ، والتي بدأت عام ١٨٨١ مع تَعثُّر التحديث في روسيا وتَزايُد العنصرية في كل أوربا ، وانتهت عام ١٩٣٩ بصدور قوانين عام ١٩٢٤ التي حدَّت من هجرة يهود شرق أوربا ، ثم بالكساد الاقتصادي وإغلاق أبواب الهجرة من روسيا تماماً .

ووفقاً لإحصاءات **الموسوعة اليهودية** ، بلغ عدد المهاجرين في هذه الفترة أربعة ملايين ، في حين يذهب آرثر روبين إلى أن العدد أكبر من ذلك ، فهو يرى أن الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٣٠ هاجر خلالها نحو ٣,٩٧٥,٠٠٠ . فإذا أضفنا إلى ذلك ، وفقاً لليستشنكي ، الرقم ٥٠٧,٨٤٥ وهو عدد الذين هاجروا من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٩ ، فإن العدد الكلي يصبح ٤,٤٨٢,٨٤٥ . ويجب أن نضيف إلى هذه الهجرة حركة اليهود داخل الإمبراطوريات العظمى في أوربا ، الأمر الذي قد يصل بالعدد إلى خمسة ملايين . وقد أخذت الحركة داخل الإمبراطورية النمساوية اتجاهها من الشرق (جاليشيا وبكوفينا وبوزنان) إلى الغرب ، وحدث الشيء نفسه في ألمانيا . أما في روسيا ، فقد اتجهت الهجرة نحو الجنوب ، إلى أوديسا ومناطق البحر الأسود . وكان عدد اليهود الذين انتقلوا في هذه الفترة من بلد أوربي إلى آخر هو ٣٥٠ ألفاً ، ويرى روبين أنهم ٤٩٠ ألفاً .

كما شارك اليهود في حركة الهجرة من القرية إلى المدينة ، فزاد عدد يهود فيينا (بلدة تيودور هرتزل مؤسِّس الحركة الصهيونية) ، على سبيل المثال ، من ستة آلاف في عام ١٨٥٧ إلى ٩٩ ألفاً في عام ١٨٩٠ ، وإلى ١٧٥ ألفاً عام ١٩١٠ ، وهي زيادة تمت أساساً عن طريق الهجرة حيث إن معدلات الزيادة الطبيعية كانت آخذة آنذاك في التناقص .

وربما يكون الدافع الأكبر وراء الهجرة في هذه الفترة هو تَعثُّر محاولات التحديث في روسيا ثم تَوقُّفها تقريباً ، وهو ما انعكس في شكل الاضطهاد الروسي القيصري ضد جميع الأقليات في الإمبراطورية . ولذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود الإمبراطورية الروسية إلى خارجها بحثاً عن مجالات جديدة للحراك الاجتماعي، وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية . وكانت الأغلبية العظمى من المهاجرين اليهود من بين يهود اليديشية ، ويهود روسيا على وجه الخصوص ، حيث كانوا يشكلون ما بين ٧٠٪ و٨٠٪ من جملة يهود العالم ، وقد كان عددهم نحو عشرة ملايين ، وهو ما يعني أن نصفهم تقريباً ، أي واحد من كل اثنين ، كان في حالة حركة وهجرة وانتقال في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين . وهذه نسبة عالية للغاية ولا شك في أنها أسهمت في تفتيت كثير من المؤسسات والروابط والأواصر . ومع أن نسبة الهجرة بين يهود اليديشية كانت أعلى من نسبتها بين الإيطاليين، فإنها كانت أقل من نسبتها بين الأيرلنديين . وقد كان عدد الأيرلنديين عام ١٨٣٠ ثمانية ملايين يشكلون نصف سكان إنجلترا ، وقد هاجر منهم أربعة ملايين بين عامي ١٨٣٠ و١٩٠٠ .

وهاجر معظم اليهود في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤، خصوصاً الأربعة عشر عاماً الأخيرة منها . وتذكر **الموسوعة اليهودية** أن عدد المهاجرين بلغ ٢,٧٥٠,٠٠٠ . فإذا أنقصنا من هذا العدد حوالي ٢٥٠ ألفاً هاجروا داخل أوربا ، وذلك على اعتبار أن عدد المهاجرين في الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩٣٥ هو حوالي ٤٩٠ ألفاً ، يكون عدد المهاجرين إلى خارج القارة هو ٢,٥٥٠,٠٠٠ بمعدل هجرة سنوية تصل إلى ١٣٥ ألفاً . وتُعَدُّ سنة الذروة هي ١٩٠٥-١٩٠٦ حيث هاجر ما بين ٢٠٠ و٢٥٠ ألفاً في ذلك العام وحده . لكن الهجرة توقفت أثناء الحرب . وعند استئنافها عام ١٩٠٧ ، تَدفَّق السيل مرة أخرى إذ هاجر في ذلك العام وحده ١٤١ ألفاً . ثم صدر أول قانون لتحديد الهجرة في العام التالي ، الأمر الذي أدَّى إلى تغيير الصورة .

وإذا كانت روسيا نقطة الطرد الكبرى ، فقد كانت الولايات المتحدة نقطة الجذب الكبرى في أواخر القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تَقدُّمها الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه . وفي هذه الفترة ، بدأت الرأسمالية الأمريكية تجربتها الإمبريالية في أمريكا اللاتينية والفلبين حيث كانت في حاجة ماسة إلى الأيدي العاملة التي لم يكن من الممكن تجنيدها من خلال الزيادة الطبيعية . وقد استوعبت الولايات المتحدة نحو ٨٥٪ من المهاجرين اليهود بل واستوعبت النسبة نفسها تقريباً من جملة المهاجرين في العالم . ولا توجد سجلات بأعداد المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة إلا ابتداءً من عام ١٨٩٩ .

وقد هاجر من روسيا في خلال ستة عشر عاماً (١٨٩٩ - ١٩٢٤) نحو مليون ونصف المليون يهودي . وفيما يلي جدول بأعداد اليهود الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة من روسيا وغيرها في الفترة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩١٤ :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٨٩٩	٣٧,٤١٥	١٩٠٧	١٤٩,١٨٢
١٩٠٠	٦٠,٧٦٤	١٩٠٨	١٠٣,٣٨٧
١٩٠١	٨٥,٠٩٨	١٩٠٩	٥٧,٥٥١
١٩٠٢	٥٧,٦٨٨	١٩١٠	٨٤,٢٦٠
١٩٠٣	٧٦,٢٠٣	١٩١١	٩١,٢٢٣
١٩٠٤	١٠٦,٢٣٦	١٩١٢	٨٠,٥٩٥
١٩٥٠	١٢٩,٩٠٠	١٩١٣	١٠١,٣٣٠
١٩٠٦	١٥٣,٧٤٨	١٩١٤	١٣٨,٠٥١

ليكون إجمالي عدد المهاجرين هو ١,٥١٢,٦٣١ .

ويُعَدُّ عام ١٩٠٦ عام الذروة بالنسبة إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة . ويبلغ متوسط عدد المهاجرين سنوياً ٩٣ ألفاً ، وقد استقر كل هؤلاء المهاجرين في الولايات المتحدة بشكل دائم ، ولم يهاجر منهم سوى نسبة ضئيلة تبلغ ٨٪ مقابل ٣٠,٧٦٪ من بقية الجماعات المهاجرة ، وكانت نسبة الأيرلنديين العائدين أقل إذ كانت لا تزيد على ٧٪ . وكان المهاجر اليهودي يصل إلى الولايات المتحدة ولديه النية في الاستقرار الدائم ، وليس ادخار بعض الأموال ثم العودة إلى الوطن الأم ، ومن ثم فقد كان يُحضر معه أسرته . وكانت نسبة النساء والأطفال بينهم عالية ، فكان نحو ٤٤٪ من جملة المهاجرين اليهود من الإناث مقابل ٣١,٧٪ بالنسبة إلى الجماعات المهاجرة الأخرى . وكان ٢٤٪ من المهاجرين اليهود أطفالاً تحت سن الثالثة عشرة ، أما في الجماعات الأخرى فكانت النسبة ١٢,٤٪ . وكان يوجد بين المهاجرين اليهود نسبة عالية من العمال الصناعيين تصل إلى ٦٦٪ من الأجراء ، على عكس الإيطاليين والأيرلنديين الذين كانوا من أصول فلاحية . وبحسب إحصاءات الهجرة الأمريكية (١٨٩٩ - ١٩١٤) ، كان المهاجرون اليهود يشكلون ٣١٪ من جملة العمال الصناعيين ، وكانوا يشكلون أحياناً الأغلبية المطلقة في بعض الفروع مثل صناعة الملابس . وكان عدد العمال الزراعيين بين اليهود هو ٢,٦٪ مقابل ٢٨,١٪ بالنسبة إلى جملة المهاجرين . وكان عدد العاملين في صناعة الملابس ٣٩,٦٪ وفي الصناعات الأخرى ٢٦٪ (أي ٦٥,٦ ٪ من الأجراء) مقابل ١٧,٨٪ بين غير اليهود . كما أن ٩,٢٪ من المهاجرين اليهود كانوا يعملون في التجارة والنقل مقابل ٦,٧٪ من جملة المهاجرين . وقد ساهم ذلك في سرعة اندماجهم في المجتمع وتحقيقهم حراكاً اجتماعياً أعلى مما حققته كثير من جماعات المهاجرين الأخرى . وهذا هو الذي ساهم في نهاية الأمر في «أمركتهم» الكاملة وفي تَركُّزهم في صناعات بعينها دون غيرها . وكان التركيب الإثني للمهاجرين اليهود خلال الفترة بين عامي ١٨٩٩ و١٩١٤ كما يلي حسب بلد الأصل :

روسيا	٧١,٧٪	بريطانيا العظمى	٤,٠٪
الإمبراطورية النمساوية والمجرية	١٦,٢٪	كندا	١,٢٪
		ألمانيا	٠,٧٪
رومانيا	٤,٢٪	بلاد أخرى	٢,٠٪

ولكن معظم اليهود الذين جاءوا من خارج روسيا هم من يهود اليديشية أيضاً . وقد توقفت الهجرة أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولكن أبوابها فُتحت مرة أخرى عام ١٩١٤ . وكان عدد المهاجرين في البداية ضئيلاً ثم أخذ في الازدياد إلى أن وصل إلى الذروة في عام ١٩٢١ ثم انخفض في أعوام ١٩٢٢ و١٩٢٣ و١٩٢٤ بسبب نظام النصاب . وفيما يلي بيان بأعداد المهاجرين :



السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩١٥	٢٦,٤٩٧	١٩٢٠	١٤,٢٩٢
١٩١٦	١٥,١٠٨	١٩٢١	١١٩,٠٣٦
١٩١٧	١٧,٣٤٢	١٩٢٢	٥٣,٥٢٤
١٩١٨	٣,٧٦٢	١٩٢٣	٤٩,٧١٩
١٩١٩	٣,٠٥٥	١٩٢٤	٤٩,٩٨٩

ليكون إجمالي عدد المهاجرين هو ٣٥٢,٣٢٤ .

ولنا أن نُلاحظ أن هذه الفترة الثانية هي فترة ظهور الصهيونية ونشاطها أيضاً . ولابد أن ندرك أن حركة أعضاء الجماعات اليهودية الضخمة كانت مصدر قلق الدول الغربية ، لخوفها على أمنها الداخلي ، وليهود الغرب المندمجين الذين كان وصول يهود الشرق يهدد مكانتهم الاجتماعية .

وينبُع تأييد الدول الغربية وأثرياء اليهود المندمجين للمشروع الصهيوني من مخاوفهم هذه . ومن هنا كان تَبنِّيهم لما نسميه «الصهيونية التوطينية» . ويمكن أن نضرب مثلاً على ذلك بإنجلترا التي اتجه إليها نحو ٢١٠ آلاف من المهاجرين اليهود في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٣٥ . وقد كان لوصولهم أثره في إثارة قلق السلطات البريطانية . وظهرت المحاولات الرامية إلى تحويل تيار الهجرة اليهودية بعيداً عن إنجلترا ابتداءً بمشروع شرق أفريقيا لإنشاء دولة صهيونية هناك ، مروراً بقانون الأجانب عام ١٩٠٦ للحد من دخول اليهود إلى إنجلترا (وهو المشروع الذي كان بلفور من أكبر المدافعين عنه) ، وانتهاءً بوعد بلفور الذي حوَّل فلسطين إلى أرض يُلقَى فيها الفائض البشري اليهودي ، كما كان يُطلَق على المهاجرين اليهود آنذاك .

ولم يتجه إلى ألمانيا في الفترة نفسها سوى مائة ألف يهودي ، ولكن هذا لا يتضمن اليهود الذين هاجروا من المقاطعات البولندية وهم من يهود اليديشية غير المندمجين . وبالتالي ، قام النازيون بالدعاية ضد اليهود وبث السموم عن خطر التكاثر اليهودي والهيمنة اليهودية في وقت كانت فيه أعداد اليهود آخذة في التناقص الفعلي . وإذا كان بلفور قد حل المسألة اليهودية في إنجلترا بالتخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين ، فإن هذا الحل لم يكن متاحاً لهتلر لعدم وجود مستعمرات لدى ألمانيا ، ولهذا تَخلَّص منهم بإبادتهم .

ونُلاحظ أن عدد المهاجرين إلى فلسطين كان في بداية الفترة ١,٨٠٦ ، وبلغ ٨,١٧٥ عام ١٩٢٣ ، أي بعد فتح أبواب الهجرة وإنشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية ، ثم قفز العدد إلى ١٣,٨٩٢ عام ١٩٢٤ . وشهدت الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية ، وهو ما أدَّى إلى خوف كثير من الدول من الأيدي العاملة المهاجرة لأنها قد تؤدي إلى تفاقم ظروف البطالة فيها ، فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بالقدر الذي تسمح به مقدرتها الاستيعابية ، ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب أفريقيا وأستراليا . وقد أدَّى تَصاعُد المقاومة العربية في فلسطين إلى الحد من الهجرة الاستيطانية ، ولكن فلسطين ظلت مع هذا مفتوحة الأبواب أمام الهجرة . ولعل أكبر مَثَل على محاولة الدول الغربية الحد من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التي أصدرت أولاً قانون النصاب في عام ١٩٢٣ وأعقبته بقانون جونسون في عام ١٩٢٤ ، حيث لم يكن يُسمَح - بحسب هذا القانون - إلا بهجرة ما يساوي نسبة ٢٪ من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش في الولايات المتحدة وفق إحصاء عام ١٨٩٠ . وقد عُرِّفت المجموعة القومية بنسبتها إلى البلد الأم وليس بنسبتها إلى الانتماء الديني أو الإثني . وكان العدد المسموح له بالهجرة من شرق أوربا وروسيا هو ١٠,٣٤١ مقابل نحو ٥٠ ألفاً عام ١٩٢٤ و١٥٣,٧٤٨ عام ١٩٠٦ . وكانت أعداد المهاجرين في تلك الفترة كما يلي :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٢٥	١٠,٢٩٢	١٩٣٠	١١,٥٢٦
١٩٢٦	١٠,٢٦٧	١٩٣١	١١٩,٦٩٢
١٩٢٧	١١,٤٨٣	١٩٣٢	٢,٧٥٥
١٩٢٨	١١,٦٣٩	١٩٣٣	٢,٣٧٢
١٩٢٩	١٢,٤٧٩		

أي أن الهجرة بلغت الحد الأقصى المسموح به حتى عام ١٩٣٠ . وهكذا ، فبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من جملة المهاجرين اليهود في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤ ، انخفضت النسبة إلى ٢٥٪ في الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠ ، وقد أغلق كثير من البلاد أبوابه . وكما يقول روبين ، أصبحت معظم البلاد مُغلَقة أمام المهاجرين عام ١٩٣٣ ، ولم يبق أمامهم سوى فلسطين (المُستعمَرة) ، بمعنى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بنيوية ، أي بنية قانونية وظروفاً موضوعية تفرض على اليهود الهجرة إلى فلسطين شاءوا أم أبوا . وبالفعل ، قفز عدد المهاجرين الاستيطانيين من ٤٠٠٠ عام ١٩٣١ إلى ١٢,٥٥٣ عام ١٩٣٢ وإلى ٣٧,٣٣٧ عام ١٩٣٣ . ولذا ، يمكننا القول إن عنصر الطرد من الولايات المتحدة وليس الجذب إلى أرض الميعاد هو الذي

حدد مسار الهجرة . ومع هذا ، يُلاحَظ أن الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠ ، حيث كانت أبواب أمريكا اللاتينية أكثر انفتاحاً ، هاجر إليها ٧٢,٣٨٧ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ١٧٢,٩٠٨ (أي ٤٢٪) ولم يهاجر في الفترة نفسها سوى ١٠,١٧٩ إلى فلسطين .

ورغم تَبَاكي الدول الغربية على مصير اليهود ، فإن معظمها أوصدت أبوابها دونهم . كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقاً من العقيدة الصهيونية التي تدعو إلى توطين اليهود في فلسطين وفلسطين فقط . ومن هنا ، كانت جهود الصهاينة المكثفة من أجل إفشال مؤتمر إفيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين ورَفْض أية عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين لخَلْق ما سميناه «الصهيونية البنيوية» . وفي الفترة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨ ، والتي يمكن أن تُسمَّى المرحلة النازية ، بلغ عدد المهاجرين من ألمانيا النازية والبلاد التي يهيمن عليها النازيون ، والمهاجرون من كل أوربا ٥٤٠ ألفاً ، بخلاف عشرات الألوف من اليهود الذين هجَّرهم الاتحاد السوفيتي إبان الحرب لإنقاذهم ، وعشرات الألوف الذين لجأوا إلى الاتحاد السوفيتي فراراً من النازي . وقد هاجر ٢٥٠ ألفاً (أي ٤٦٪) منهم إلى فلسطين بسبب سياسة إغلاق الأبواب ، وهاجر الباقون وهم ٢٩٠ ألفاً إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١١٠ آلاف (أي ٢٠٪) . وهاجر في الفترة من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٨ نحو ٣٠٠ ألف يهودي ، منهم ١٢٠ ألفاً (أي ٤٠٪) إلى فلسطين . والباقون ، وهم ١٨٠ ألفاً (أي ٦٠٪) ، هاجروا إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١٢٥ ألفاً (أي ٤٢٪) . وهكذا أصبحت الولايات المتحدة ، مرة أخرى ، بلد الجذب الأكثر ، حتى أثناء سنى الحرب والإبادة النازية . ويمكننا أن نقول إن المُستوطَن الصهيوني لم يشكل ملجأ ليهود أوربا ، فمن مجموع ٧٥٠ ألف مهاجر (ويمكن أن نضيف إليهم مئات الألوف من المهاجرين إلى الاتحاد السوفيتي) لم يهاجر إلى فلسطين سوى ٣٧٠ ألفاً ، أي أن مسار الهجرة لم يتجه إلى فلسطين رغم شراسة الصهيونية البنيوية ولا إنسانيتها .

وفيما يلي جدول بعدد المهاجرين ونسبهم المئوية – حسب **الموسوعة اليهودية** – بين عامي ١٨٨١ و١٩٤٨ .

جهة الهجرة	عدد المهاجرين ١٨٨١–١٩١٤	النسبة ٪	عدد المهاجرين ١٩١٥–١٩٤٨	النسبة ٪
الولايات المتحدة	٢,٠٤٠,٠٠٠	٪٨٥	٦٥٠,٠٠٠	٪٤١
كندا	١٠٥,٠٠٠	٪٤	٦٠,٠٠٠	٪٤
الأرجنتين	١١٣,٠٠٠	٪٥	١١٥,٠٠٠	٪٧
بقية أمريكا اللاتينية	١٤,٠٠٠	٪٠,٦	١٤٠,٠٠٠	٪٩
جنوب أفريقيا	٤٣,٠٠٠	٪٢	٢٥,٠٠٠	٪١,٦
فلسطين	٧٠,٠٠٠	٪٣	٤٨٥,٠٠٠	٪٣٠
بلاد أخرى	١٥,٠٠٠	٪٠,٦	١٢٥,٠٠٠	٪٨
المجموع	٢,٤٠٠,٠٠٠		١,٦٠٠,٠٠٠	

والجدول هنا يبيِّن أن الولايات المتحدة هي بلد الهجرة بلا منازع أو منافس . وتشغل الأرجنتين وكندا المرتبتين الثانية والثالثة ، ولا تأتي فلسطين إلا في المرتبة الرابعة – وهي مرتبة رابعة تَجاوُزاً لأن مجموع عدد المهاجرين إليها يظل أقل كثيراً من مجموع عدد المهاجرين إلى بلاد الاستيطان الأخرى . أما في الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩٤٨ ، فإن الولايات المتحدة كانت لا تزال تشغل المرتبة الأولى وكانت فلسطين تشغل مرتبة ثانية قريبة من المرتبة الأولى . ومن الطريف أن مجموع عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وكندا خلال الفترتين يساوي تقريباً عدد المهاجرين إلى فلسطين . ولكن أحد المصادر الأخرى يذهب إلى أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وحدها ، من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٤٨ ، يعادل مجموع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة نفسها . وإذا استبعدنا الولايات المتحدة ، وعقدنا مقارنة بين عدد المهاجرين إلى فلسطين من جهة وبقية بلاد العالم من جهة أخرى ، لوجدنا أن عدد المهاجرين إلى فلسطين هو ٥٥٥ ألفاً مقابل ٦٨٢ ألفاً هاجروا إلى بقية بلاد العالم ، أي أن عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين أقل من عدد المهاجرين إلى بقية البلاد . وحتى في الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٤٨ ، وهي الفترة التي شهدت قمة النشاط الصهيوني ، حيث فتحت حكومة الانتداب أبواب فلسطين أمام الهجرة الاستيطانية ، وحيث أغلقت بلاد العالم الحر أبوابها دون المهاجرين اليهود وغير اليهود ، كان عدد المهاجرين إلى فلسطين ٤٨٥ ألفاً مقابل ٤٦٥ ألفاً للبلاد الأخرى فيما عدا الولايات المتحدة . وكل هذه الإحصاءات تبيِّن أن فلسطين ليست نقطة الجذب لليهود كما تدَّعي الأدبيات الصهيونية وأن الحركة الصهيونية لم تُحرز نجاحاً فيما كانت تهدف إليه . ويُلاحَظ أن جميع البلاد التي يهاجر إليها اليهود هي بلاد شهدت تجارب استعمارية استيطانية أسسها الرجل الأبيض . ومن

ثم، فإن الهجرة اليهودية ليست ظاهرة يهودية بمقدار ما هي جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية .

د) المرحلة الرابعة : منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر .

وبانتهاء الأربعينيات ، أصبحت الكتلة اليهودية الكبرى موجودة في الولايات المتحدة ، مع وجود كتلة أخرى في أوربا آخذة في التناقص ، ومع وجود أقليات متناثرة في أنحاء العالم . وقد ظهرت الكتلة اليهودية الاستيطانية في فلسطين ، فأصبح هناك قطبان أساسيان يتنازعان هجرة اليهود هما الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ، وكلاهما بلد استيطاني يستطيع المهاجر اليهودي أن يحقق فيه الحراك الاجتماعي الذي فشل في تحقيقه في بلده . ومع هذا ، تشكل دول أخرى مثل أستراليا وفرنسا جاذبية خاصة بالنسبة إلى بعض المهاجرين اليهود .

ويمكن أن نضيف بُعداً آخر يساعد على اتجاه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ، ألا وهو ميراث الجماعات اليهودية الاقتصادي كجماعة وظيفية تَركَّز أعضاؤها في قطاعات المال والتجارة . والواقع أن هذا يعني تأثرهم السلبي بالثورات القومية أو الاشتراكية التي تستولي على هذه القطاعات فتؤممها ، أو تحاول صبغها بصبغة قومية ، أو تتدخل فيها بما يُقلل من فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية . ويمكننا في واقع الأمر أن نفسِّر حركة هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين (الحراك الاجتماعي وميراث الجماعة الوظيفية الوسيطة) باعتبارها هجرة إلى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسي من بلاد الاقتصاد الاشتراكي والفقر والثورات القومية الاشتراكية :

١ ـ فمثلاً يمكن تفسير الهجرة من الاتحاد السوفيتي على أنها تعبير عن ضيق يهود الاتحاد السوفيتي بالنظام الاشتراكي الذي يضيِّق الخناق على القطاع التجاري . وفي الإطار نفسه يمكن تفسير الظاهرة التي تُسمَّى في المصطلح الصهيوني «التَساقُط» ، أي خروج اليهود من الاتحاد السوفيتي بزعم الهجرة إلى إسرائيل ثم تغيير الاتجاه والذهاب إلى بلد آخر هو الولايات المتحدة في العادة . فهم يفضلون الهجرة إلى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعي ، في حين لا تشكل إسرائيل أية جاذبية بالنسبة لهم . وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة إلى إسرائيل فحققت مثل هذه الهجرة لهم قسطاً من الحراك الاجتماعي ، خصوصاً أن مؤهلاتهم لم تكن عالية ، بينما نجد أن نسبة التَساقُط بين يهود أوكرانيا تصل إلى ٩٠٪ لأن مستواهم المعيشي مرتفع . وإذا نجح يلتسين في تحقيق الإصلاحات الاقتصادية والانفتاح التجاري الذي يطمح إليه ، فإننا نتصور أن أعداد المهاجرين ستتناقص لأن فرص الحراك الاجتماعي ستتزايد أمامهم .

وبعد الانتفاضة الفلسطينية ، التي خلقت جواً من عدم الاستقرار السياسي ، وصلت نسبة التَساقُط بين اليهود السوفييت إلى ٩٠٪ من جملة المهاجرين . ومع هذا ، أدَّى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية وإغلاق الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت إلى زيادة خروجهم من الاتحاد السوفيتي واستيطانهم في فلسطين . ولكنهم ، على أية حال ، يذهبون إلى إسرائيل بنيَّة التوجه إلى بلد آخر يحقق لهم طموحهم في الحراك الاجتماعي ، وذلك عندما تسنح الفرصة .

٢ ـ وقد ظل يهود إيران يمارسون نشاطهم تحت حكم الشاه ، ثم خرجوا من إيران بأعداد هائلة بعد قيام الثورة الإيرانية لأنها حاولت أن تُوجِّه الاقتصاد وجهة لا تتفق مع معايير الاقتصاد الحر . وفي كوبا، كانت هناك جماعة يهودية ، ولكن حينما حدثت الثورة الاشتراكية انخفض العدد إلى العُشْر ، وذلك رغم أن الثورة الكوبية كانت تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع إسرئيل ولم تقف في طريق النشاط الصهيوني ولم تُسئ معاملة اليهود على الإطلاق باعتراف المراجع الصهيونية . والشيء نفسه يُقال بالنسبة إلى يهود شيلي الذين تركوها حينما وصل أليندي بتَوجُّهه الاشتراكي إلى الحكم ، وعادوا إليها مع بينوشيه ممثل الفاشية العسكرية . فارتباط أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من بلاد العالم بنمط إنتاجي معيَّن وعقلية تجارية محددة ، وامتلاكهم خبرات إدارية ومهنية معيَّنة ، جعل استمرارهم في المجتمع الجديد عسيراً ، فهم «ضحايا التأميم» كما يقول أحد المراجع الإسرائيلية . ومع تزايد الثورات وعدم الاستقرار السياسي في أمريكا اللاتينية ، يُلاحَظ زيادة هجرة أعضاء الجماعات . والوضع نفسه ينطبق على يهود جنوب أفريقيا ، فمع تَزايُد ثورات السود يتجه أعضاء الجماعة إلى الولايات المتحدة .

٣ ـ وربما تعود هجرة اليهود من البلاد العربية في الخمسينيات إلى مركب من الأسباب؛ منها قيام الدولة الصهيونية وما خلقته من مشاكل لليهود العرب ، ومنها ارتباط عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية . ومما لا شك فيه أن التحول البنيوي الذي خاضته بعض المجتمعات العربية ، مثل المجتمعين المصري والسوري ، وقيام تجارب تنموية تحت إشراف الدولة ، قد ساهما بشكل عميق في عملية خروج اليهود ، التي لا يمكن رؤيتها كظاهرة منفصلة عن خروج جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الإيطاليين

واليونانيين من مصر ممن لم يستطيعوا التلاؤم مع إجراءات التمصير والتعريب والتأميم . وإلى جانب هذا ، حققت إسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسطاً من الحراك الاجتماعي باعتبار أن المستوى المعيشي في البلاد العربية أقل منه في إسرائيل . كما أن يهود البلاد العربية لم يكن لديهم الخبرات الكافية المطلوبة في الولايات المتحدة . ويُلاحَظ أن عدداً كبيراً من أعضاء نخبتهم الاقتصادية والثقافية هاجرت إلى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشي المرتفع الذي يفوق نظيره في إسرائيل والتي تتميَّز باقتصاد متقدم ومن ثم تحتاج إلى خبراتهم ورأسمالهم . ومن ناحية أخرى ، هاجرت جماهير يهودية إلى فرنسا حينما سنحت لها الفرصة ، فقد هاجر إليها معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب .

٤ ـ وفي هذا الإطار ، يمكن تفسير ظاهرة هجرة يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا إلى الولايات المتحدة ، فالهجرة إلى إسرائيل لن تؤدي إلى أي تَحسُّن في مستوى معيشتهم . كما أن التجمع الصهيوني لن يمكنه استيعابهم بخبراتهم المهنية والإدارية المتقدمة .

٥ ـ ويُلاحَظ أن يهود البلاد الغربية (أوربا والولايات المتحدة وكندا) لا يهاجرون إلى إسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية ، فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وفق نموذجنا التفسيري ، وإن كان يُلاحَظ أن يهود إنجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة إلى الولايات المتحدة ، ربما لتفاقم الأزمة الاقتصادية في إنجلترا ، فهي بلد ذات مستقبل اقتصادي مظلم على حد قول أحد المهاجرين البريطانيين اليهود إلى الولايات المتحدة .

٦ ـ بل يُلاحَظ أن هناك هجرة إسرائيلية متزايدة إلى الولايات المتحدة ، شكلت ما يُسمَّى «الدياسبورا الإسرائيلية» يبلغ عددها في بعض الإحصاءات نصف مليون ومنهم عدد كبير من جيل الصابرا .

٧ ـ وفي الإطار نفسه أيضاً ، يمكن تفسير هجرة أو تهجير يهود الفلاشاه تحت ظروف المجاعة ، فهي هجرة سيحققون من خلالها حراكاً اجتماعياً كبيراً .

ويمكن القول بأن مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية آخذة في النضوب ، فأعضاء أكبر جماعة يهودية في العالم (في الولايات المتحدة) لا يهاجرون ، ويهود العالم الغربي إن هاجروا يتجهون إلى الولايات المتحدة . ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرهم النمط نفسه . وقد تمت تصفية يهود العالم الشرقي والإسلامي ، فلم يبق سوى أفراد قلائل . وتُساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط ، وكذلك عزوف اليهود عن الإنجاب ، في تَناقُص عدد اليهود الكلي وبالتالي تَناقُص عدد المهاجرين المحتمل ، وهو ما يعني أن الوقود البشري للكيان الصهيوني لم يَعُد متوافراً بالكثافة نفسها . ولم يبق سوى الاحتياطي البشري الوحيد للكيان الصهيوني في الاتحاد السوفيتي . إلا أن خروج اليهود السوفييت وتَوجُّههم إلى إسرائيل يخضع للنمط نفسه الذي اقترحناه : شرق أوربا مصدر المادة البشرية ، والولايات المتحدة مستورد لها . ولكن ، كما أسلفنا ، أدَّى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية ، وإغلاق باب الهجرة إلى أمريكا ، إلى تحويل هذه الأعداد إلى إسرائيل .

ولابد من التفرقة بين الهجرة والتهجير ؛ فالهجرة طوعية أما التهجير فهو قسري . ويمكن رؤية الحركة الصهيونية باعتبارها حركة تقف في وجه الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة وتحاول تهجير اليهود من كل أنحاء العالم إلى إسرائيل .

انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وعلاقتهم بفلسطين

Diffusion of Memebers of Jewish Communities in the World and Their Relation to Palestine

يدَّعي الصهاينة أن فلسطين التي يُطلقون عليها مصطلح «إرتس يسرائيل» أو «أرض الميعاد» ، أو ما شابه ذلك من مصطلحات دينية أخرى ، هي مركز الوجدان اليهودي ، وأنها النقطة التي يتجه إليها اليهود معنوياً حينما يعجزون عن الاستيطان فيها ، وهي الأرض التي «يعودون» إليها فعلياً وبمحض إرادتهم من «المَنْفَى» أو «الشتات» حينما تُفتَح أبوابها لهم . ويحاول الصهاينة أن يجدوا تبريراً دينياً أو عرقياً أو إثنياً لرؤيتهم هذه . كما يقدِّمون رؤية للتاريخ تساند هذه الرؤية ، ولذلك فإنهم يجتزئون من الوقائع والحقائق ما يدعم رؤيتهم ويستبعدون ما عدا ذلك .

وإذا نظرنا إلى الرؤية الصهيونية من الناحية الدينية ، لوجدنا أنها تتعارض مع واحد من أهم التيارات داخل اليهودية الحاخامية ، التي تُحرِّم على اليهودي أن يعود إلى صهيون (فلسطين) ، إذ أن عليه الانتظار حتى يأذن الرب له بذلك ، وأية محاولة للعودة هي بمنزلة الهرطقة والتعجيل بالنهاية . ولذلك ، فلا يوجد في يهودية العصور الوسطى ، أي في معظم التاريخ الديني لليهودية ، أي حديث عن العودة إلا باعتبارها حدثاً دينياً يتم بمشيئة الرب . ومع هذا ، يجب أن نشير إلى أن اليهودية ، بوصفها تركيباً جيولوجياً ، تحوي تياراً حلولياً قوياً يشجع على العودة الفعلية . وإذا كانت هناك نزعة صهيونية في النسق الديني اليهودي ، فهي نزعة كامنة مع مئات النزعات الأخرى .

هذا من الناحية الدينية . أما من الناحية التاريخية ، فالأمر أكثر

تمدُّداً وتعيُّناً ، إذ يدل تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية على أن المسرح الذي دارت فيه أحداث هذه التواريخ لم يكن فلسطين ، باستثناء فترة قصيرة للغاية . وحتى حينما كان يوجد في فلسطين حكم يهودي مستقل ، لم تكن فلسطين دائماً مركزهم وإطارهم المرجعي ، إذ كان لكل جماعة حركياتها المستقلة وتوجهاتها التي يُحتِّمها عليها وضعها الاجتماعي والثقافي المرتبط بوضع البلد الذي توجد فيه . ولذا ، يمكن أن نقول إن الحقيقة الأساسية في تواريخ الجماعات اليهودية هي انتشارها في كل أنحاء الأرض وليس تَمركُزها في فلسطين . والقراءة الصهيونية لتواريخ الجماعات اليهودية ، والتي ترى أن اليهود قد تم تشتيتهم قسراً من فلسطين ، وأنهم لو تُركوا وشأنهم لعادوا تلقائياً وبشكل طوعي إليها ، هي قراءة متحيزة ومغلوطة . فتاريخ العبرانيين في بداياته السديمية يبدأ بهجرة إبراهيم من أور إلى أرض كنعان ومنها إلى مصر . كما هاجر يعقوب ويوسف فيما بعد إلى مصر أيضاً . والهجرة من مكان إلى آخر نمط أساسي في حياة العبرانيين في فترة الآباء (٢٠٠٠ ق.م) التي تنتهي بالـ «خروج» ، أي هجرة موسى وقومه من مصر . وقد آثر بعضهم ، بحسب الرواية التوراتية ، الاستمرار في الحياة بمصر ، فخرج مع موسى «اللفيف» ، أي مجموعات عرْقية أخرى غير عبرية وغير متجانسة . وبعد التسلل العبراني إلى أرض كنعان ، وبعد اتحاد القبائل العبرانية فيما يعرف باسم «المملكة العبرانية المتحدة» والتي انقسمت إلى المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية ، تم تهجير أعداد كبيرة من العبرانيين إلى آشور (٧٢٠ ق.م) ثم إلى بابل (٥٨٠ ق.م) . ولكن أغلبيتهم العظمى آثرت البقاء خارج فلسطين ، حتى بعد أن أصدر قورش الأخميني مرسومه الذي سمح بعودة اليهود إلى فلسطين ، ولكن يبدو أن الفقراء فقط هم الذين عادوا . كما كانت هناك فرقة المرتزقة اليهود في جزيرة إلفنتاين التي استمرت في وجودها على حدود مصر الجنوبية .

ورغم إعادة بناء الهيكل وقيام السلطة الكهنوتية في فلسطين ، تحت رعاية الفرس أول الأمر ثم اليونانيين بعد ذلك ، حدثت هجرة يهودية طوعية كبيرة من فلسطين في عهد البطالمة ، وقد استعان هؤلاء بالجنود اليهود المرتزقة الذين استقروا في مصر مع أُسَرهم . كما هاجرت إلى مصر أعداد أخرى من اليهود لأسباب اقتصادية ، فكان منهم الفقراء والأغنياء والفلاحون والرعاة والجنود المرتزقة والقادة العسكريون . وقد أسس البطالمة مستعمرات في برقة كان يوجد فيها يهود . كما ظهرت جماعات من اليهود في مدن آسيا الصغرى بعد أن استولى السلوقيون على فلسطين بعد عام ٢٠٠ ق.م، فقام أنطيوخوس الثالث بنقل عدة آلاف جندي يهودي (هم وأُسَرهم) من بابل إلى آسيا الصغرى . وكانت توجد جماعات يهودية في اليونان ومقدونيا على شواطئ البحر الأسود والبلقان وبلغاريا وأرمينيا وقبرص وقرطاجة وبرقة . ويُلاحَظ أن قيام الأسرة الحشمونية اليهودية في فلسطين ، التي تمتعت بقدر من الاستقلال السياسي في بعض مراحلها ، لم يُغيِّر هذه الصورة العامة لانتشار أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين .

وحينما ظهرت روما بوصفها قوة عظمى وفرضت إطاراً سياسياً مُوحَّداً على منطقة البحر الأبيض المتوسط، يسَّر ذلك انتشار اليهود فظهروا أولاً عبيداً في العاصمة، ثم هاجرت أعداد منهم وأصبحت مدن جنوب إيطاليا مراكز يهودية مهمة. وكانت توجد جماعات يهودية في الغال (فرنسا)، وفي المدن الرومانية العسكرية على نهر الراين.

وكانت الإسكندرية تضم جماعة يهودية كبيرة (في العصر الهيليني ثم الروماني) تتحدث أغلبية أعضائها اليونانية أو اللاتينية . كما كانت أسماؤهم والنقوش التي على قبورهم يونانية ولاتينية في الغالب ، عبرية في النادر . أما وثائق الزواج والدفن الخاصة بهم ، فلم تكن تختلف عن الوثائق الخاصة ببقية المواطنين . وكان ليهود مصر هيكلهم الخاص في ليتوبوليس ، حيث كانت جماعتهم الدينية والفكرية مستقلة إلى حدٍّ كبير عن هيكل فلسطين ، ولذا استمرت هذه الجماعات اليهودية في حياتها الدينية والثقافية المستقلة بعد هدم هذا الهيكل . وربما كان أكبر دليل على أن الإسكندرية كانت مركز جذب أقوى من فلسطين ذاتها أنه حينما وقعت فيها بعض الاشتباكات بين اليهود والمواطنين الهيلينيين ، أصدر الإمبراطور الروماني قراراً يحذر فيه اليهود من تشجيع هجرة إخوانهم من فلسطين .

وقد قدَّر الفيلسوف السكندري اليهودي فيلون أن عدد يهود مصر في القرن الأول الميلادي كان مليوناً ، بينما كان يُقدَّر عدد اليهود في الأماكن الأخرى (ومنها فلسطين) بمليونين ونصف المليون . ويرى آرثر روبين أن عدد اليهود كان ، في واقع الأمر ، أربعة ملايين ونصف المليون ، يوجد منهم مليون في فلسطين والباقون خارجها . وقد لا تتسم هذه الأرقام بالدقة ، فهي في معظمها تستند إلى التقديرات التخمينية . وثمة إحصاءات أخرى ترى أن عدد اليهود في سوريا ومصر وآسيا الصغرى كان ثلاثة ملايين ، وأن مليوناً رابعاً كان يوجد في مناطق متفرقة أخرى داخل الإمبراطورية الرومانية ومليوناً خامساً في بابل . أما فلسطين ، فيُقال إنها كانت تضم مليونين فقط ، وأن نصف مليون من سكان فلسطين

كانوا مواطنين يونانيين وعناصر بشرية أخرى غير يهودية . وتذكر **الموسوعة اليهودية** أن عدد يهود العالم في تلك الفترة كان ثمانية ملايين ، لم يكن منه سوى مليونين ونصف المليون في فلسطين . ولكن ، أياً كان الأمر ، ثمة إجماع على أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين كان يفوق عدد اليهود داخلها قبل أن يقوم تيتوس بهدم الهيكل ، وأن عدد يهود الإسكندرية كان يفوق عدد يهود القدس وربما فلسطين كلها . ولهذا ، فإن محاولة ربط انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في العالم بواقعة هدم الهيكل وسقوط القدس ، واعتبار ذلك تشتيتاً قسرياً ، هي من قبيل التفكير الأسطوري المتحيز لآراء مسبقة .

وقد استمر انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في كل أنحاء العالم بعد ضمور واختفاء المركز الديني في فلسطين . وقد كان لهذا الانتشار أعمق الأثر في تمايز اليهود وظيفياً واقتصادياً وتَحوُّلهم إلى جماعة أو جماعات وظيفية تضطلع بوظائف التجارة والربا . ويمكننا أن نضيف أن علاقة الانتشار بعملية تَحوُّل اليهود إلى جماعات وظيفية هي علاقة سبب ونتيجة في آن واحد . فقد ساهم الانتشار ـ ولا شك ـ في تَحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات تجارية ومالية وسيطة ، ذلك أن الوظائف التجارية والمالية هي وظائف يضطلع بها الوافدون الجدد دائماً . وقد كوَّنت الجماعات اليهودية الوظيفية شبكة تجارية عالمية ضخمة في العالمين الإسلامي والمسيحي ، وكانت لهم مراكز في الغرب (في إسبانيا وغيرها من الدول) ، وفي معظم ربوع العالم الإسلامي . ولكن تَحوُّلهم إلى جماعة وظيفية وسيطة زاد بدوره من عملية الانتشار ودعمها وكرَّسها ووسع نطاقها .

ومثلما اتجهت الجماعات اليهودية إلى أنحاء العالم كافةً ، اتجهت بعض جماعات من اليهود إلى الهند والصين واستقرت فيها . وظل هذا الوضع من الانتشار قائماً خلال العصور الوسطى في الغرب ، فلا نسمع عن أية محاولات يهودية للعودة إلى فلسطين . ومع طَرْد اليهود من إسبانيا ، وجد يهود المارانو ملجأ لهم في الإمبراطورية العثمانية ، وفي بعض الدول الأوربية مثل هولندا . وكان اليهود من رعايا السلطان العثماني يتمتعون بحرية الهجرة إلى فلسطين أو منها ، إلا أن اللاجئين الأوربيين والرعايا اليهود كانوا يتجذبون إلى إستنبول والقاهرة ودمشق وغير ذلك من حواضر الإمبراطورية التي كانت تتمتع بأوضاع أفضل اقتصادياً وسياسياً بالمقارنة مع فلسطين . أما بالنسبة ليهود الخزر ، فقد اتجهوا نحو شرق أوربا (إلى المجر فبولندا) ، وذلك بعد تحطيم إمبراطوريتهم الصغيرة على يد الروس أولاً ثم على يد المغول في القرن الثاني عشر ، ولا نعرف أية جماعة منهم اتجهت إلى فلسطين .

ومع عصر النهضة والاكتشافات والاستعمار الغربي والإصلاح الديني ، بدأت في أوربا المسيحية إرهاصات الفكر الاسترجاعي ؛ أي إعادة توطين اليهود في فلسطين باعتبار أن عودتهم هي التمهيد لعودة المسيح . ولكن هذا الفكر لم يؤثر في الجماعات اليهودية في بادئ الأمر ، سواء في الشرق أو في الغرب ، بل ظل تفكيراً مسيحياً بروتستانتياً بالدرجة الأولى . ولا نسمع عن دعوات يهودية للعودة إلى فلسطين والاستيطان فيها إلا مع الانفجارات المشيحانية مثل حركة الماشيَّح اليهودي الدجال شبتاي تسفي في القرن السابع عشر ، وهي الانفجارات التي وقف ضدها حاخامات اليهود . ويظهر الفكر الصهيوني اليهودي لأول مرة ، في منتصف القرن التاسع عشر ، مع انتشار الفكر القومي والعنصري والإمبريالي . ولكن ، حتى بعد أن ظهرت الحركة الصهيونية اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر ، فقد عارضتها جميع المنظمات اليهودية المعروفة في ذلك الوقت ، ولم تتمكن من عقد مؤتمرها في ميونيخ حيث وُجدت واحدة من أكبر الجماعات اليهودية وبسبب احتجاج حاخاماتها ، اضطرت إلى نقله إلى بازل حيث كانت هناك جماعة صغيرة بلا أهمية تُذكَر .

لكل ما تَقدَّم ، يصبح من العسير الحديث عن «نفي» اليهود أو عن تَطلُّعهم الدائم للهجرة إلى فلسطين ، فحركة انتشارهم في العالم لا يمكن تفسيرها في إطار مركز جذب صهيوني في فلسطين ، مقابل أطراف هامشية في كل أنحاء العالم . ولمحاولة فهمها بعيداً عن التحيزات الصهيونية العميقة المسبقة ، سنحاول أن نرصد بعض الآليات التي تشجع على الانتشار وتساهم فيه وتُيسِّره . ويمكننا أن نقول أولاً إن انتشار أعضاء الجماعات اليهودية مرتبط أساساً بالإمبراطوريات العظمى التي توفر شبكة المواصلات والإطار القانوني الموحَّد ، وهما تعبير عن رغبة الإمبراطورية في تشجيع التجارة . وقد تأسست الجماعة اليهودية في بابل في إطار الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية ، واتسعت دائرة الانتشار مع الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية . وحدث الشيء نفسه مع الدولة الإسلامية ثم العثمانية . وقد كانت بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط الساحة الأساسية لانتشار الجماعات اليهودية ، وظلت مراكز اليهود الأساسية فيه هي : روما وإسبانيا والمغرب والدولة العثمانية وسالونيكا وإيطاليا وفرنسا . أما الجماعات التي وجدت في

الصين والهند وإثيوبيا والجزيرة العربية ، فهي جماعات صغيرة ليست ذات أهمية كبيرة .

وقد ظل هذا هو النمط الأساسي إلى أن استقر اليهود في شرق أوربا وحدث الانفجار السكاني بين يهود اليديشية في القرن التاسع عشر ، بحيث أصبحت أغلبية يهود العالم توجد داخل إطار الإمبراطورية الروسية التي كانت تعاني من تَعثُّر التحديث . ومن ثم فإنها لم تحقق لأعضاء الجماعات اليهودية وغيرها من الجماعات ما كانوا يطمحون إليه من حراك اجتماعي ، كما أنها لم تكن تشجع المواطنين على الحركة . وكان الاستثناء الوحيد هو تشجيع اليهود على الاستيطان في روسيا الجديدة على ساحل البحر الأسود . ومن هنا كانت أكبر حركات انتشار اليهود في التاريخ هي انتقال الكتلة البشرية اليهودية (بأكملها تقريباً) من شرق أوربا إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد . وقد استفاد أعضاء الجماعات اليهودية من حركة المواصلات ومن وجود بنية قانونية دولية . كما استفادوا من الحركة الإمبريالية الغربية ، خصوصاً الجانب الاستيطاني منها (والتشكيل الأنجلو ساكسوني على وجه الخصوص) . ومما يجدر ذكره ، أن الحضارة الغربية كانت تنظر إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية ، ولذا فإن الانتشار اليهودي الحديث يتبع حركة الاستيطان الغربي بمعنى أنها حركة داخل إطار الإمبراطورية الإمبريالية الجديدة ، ولا تختلف كثيراً عن حركة الجماعات اليهودية داخل الإمبراطوريات القديمة . وقد بدأ الاستيطان اليهودي في دول أمريكا اللاتينية ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وجنوب أفريقيا . ولكن الولايات المتحدة ، أهم التجارب الاستيطانية الغربية على الإطلاق ، كانت مركز الجاذبية الأكبر ، وقد اتجهت الجماهير اليهودية إليها أساساً حتى أصبحت تضم أكبر التجمعات اليهودية وأكثرها قوة . ويمكن القول بأن معظم الدول التي انتشر فيها اليهود هي دول ساد فيها الاقتصاد الحر والوفرة الاقتصادية وتُحقِّق نوعاً من الحراك الاجتماعي للوافدين إليها .

وتُعدُّ فلسطين آخر بلد للاستيطان اليهودي في العصر الحديث وأقلها جاذبية ، ربما لأنها لا تقع في وسط العالم الغربي الذي يتجه إليه معظم يهود العالم في العصر الحديث وإنما تقع على أطرافه ، أي أن نمط الهجرة من منظور المركز الفلسطيني لا يختلف في القرن الأول من الألف الأول الميلادي عنه في القرن الأخير من الألف الثاني ، فهي هجرة لا تتجه إليه وإنما هي هجرة تتجه بعيداً عنه .

حركة هجرة اليهود في العالم من ١٨٤٠ إلى ١٩٤٢
جدول (١)

السنة	الولايات المتحدة	كندا	الأرجنتين	البرازيل	أورجواي	الدول الأخرى في الأمريكتين	جنوب أفريقيا	فلسطين	الدول الأخرى	الإجمالي
١٨٤٠/ ١٨٨٠	٢٠٠,٠٠٠	١,٦٠٠	٢,٠٠٠	٥٠٠	–	١,٠٠٠	٤,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٢١,١٠٠
١٨٨١-١٩٠٠	٦٧٥,٠٠٠	١٠,٥٠٠	٢٥,٠٠٠	١,٠٠٠	–	١,٠٠٠	٢٣,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٤,٠٠٠	٧٦٤,٥٠٠
١٩٠١-١٩١٤	١,٣٤٦,٤٠٠	٩٥,٣٠٠	٨٧,٦١٤	٨,٧٥٠	–	٣,٠٠٠	٢١,٣٧٧	٣٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١,٦٠٢,٤٤١
١٩١٥-١٩٢٠	٧٦,٤٥٠	١٠,٤٥٠	٣,٥٠٣	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٥,٠٠٠	٩٠٧	١٥,٠٠٠	٥,٠٠٠	٨٩,٣١٠
١٩٢١-١٩٢٥	٢٨٠,٢٨٣	١٤,٤٠٠	٣٩,٧١٣	٧,١٣٩	٣,٠٠٠	٧,٠٠٠	٤,٦٣٠	٦٠,٧٦٥	١٠,٠٠٠	٤٢٦,٩٣٠
١٩٢٦-١٩٣٠	٥٤,٩٩٨	١٥,٣٠٠	٣٣,٧٢١	٢٢,٢٩٦	٦,٣٧٠	١٠,٠٠٠	١٠,٠٤٤	١٥,١٧٩	١٠,٠٠٠	١٧٢,٩٠٨
١٩٣١-١٩٣٥	١٧,٩٨٦	٤,٢٠٠	١٢,٧٠٠	١٣,٠٧٥	٣,٢٨٠	١٥,٠٠٠	٤,٥٠٧	١٤٧,٥٠٢	٢٠,٠٠٠	٢٣٨,٢٥٠
١٩٣٦-١٩٣٩	٧٩,٨١٩	٩٠٠	١٤,٧٨٩	١٠,٦٠٠	٧,٦٧٧	١٥,٠٠٠	٥,٣٠٠	٧٥,٥١٠	٦٠,٠٠٠	٢٦٩,٥٩٥
١٩٤٠-١٩٤٢	٧٠,٩٥٤	٨٠٠	٤,٥٠٠	٦,٠٠٠	١,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١٣٢,٣٥٤
المجموع	٢,٨٠١,٨٩٠	١٥٣,٤٥٠	٢٢٣,٥٤٠	٧١,٣٦٠	٢٢,٣٢٧	٥٩,٠٠٠	٧٥,٧٦٥	٣٧٨,٩٥٦	١٣١,٠٠٠	٣,٩١٧,٣٨٨

وجدول(١) يبيِّن حركة هجرة اليهود في العالم من ١٨٤٠ إلى ١٩٤٢ ، وهي أهم فترات الهجرة .

يُلاحَظ من جدول (١) أنه من مجموع ٣,٩١٧,٣٨٨ من المهاجرين ، لم يتجه سوى ٣٧٨,٩٥٦ إلى فلسطين في فترة مائة عام تمتد من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ ، وذلك رغم كل النشاط الاستعماري والصهيوني المكثف . ومن الطريف أن هذا العدد مساو تقريباً لعدد اليهود الذين اتجهوا إلى أمريكا اللاتينية في الفترة نفسها ، (٣٧٦,٢٢٧) بفارق ٢,٦٢٩ يهودياً . ولو استبعدنا الهجرة فيما بعد عام ١٩٣١ حيث أغلقت أمريكا اللاتينية أبوابها ، فسنكتشف أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية كان ٢٧٠,٦٠١ مقابل ١٢٥,٩٤٤ إلى فلسطين . بل إن بلداً واحداً مثل الأرجنتين هاجر إليه ١٩١,٥٥١ ، أي أكثر من كل الذين هاجروا إلى فلسطين في الفترة نفسها (وبحسب إحصاءات روبين ، كان يوجد في الأرجنتين في عام ١٩٣٠ نحو ٢٢٠ ألفاً و٢٩١ ألفاً في أمريكا اللاتينية كلها) . كما أن بلداً مثل كندا كان يضم ١٥٠ ألف يهودي في عام ١٩٣٠ ، بينما كانت فلسطين لا تضم سوى ١٧٠ ألفاً . ولكن التحدي الأكبر لأرض الميعاد كان يأتي من البلد الذهبي أو «الجولدن مدينا» ، أي الولايات المتحدة . ففي الفترة التي نشير إليها ، هاجر إلى الولايات المتحدة ٢,٨٠١,٨٩٠ مقابل ٣٧٨,٩٥٦ هاجروا إلى فلسطين .

عدد المهاجرين اليهود إلى كلٍّ من الولايات المتحدة وفلسطين
في الفترة ١٩١٥ - مايو ١٩٤٨ (جدول ٢)

السنة	الولايات المتحدة	فلسطين	السنة	الولايات المتحدة	فلسطين
١٩١٥	٢٦,٤٩٧	–	١٩٣٢	٢,٧٥٥	١٢,٥٥٣
١٩١٦	١٥,١٠٨	–	١٩٣٣	٢,٣٧٢	٣٧,٣٣٧
١٩١٧	١٧,٣٤٢	–	١٩٣٤	٤,١٣٤	٤٥,٢٦٧
١٩١٨	٣,٦٧٢	–	١٩٣٥	٤,٨٣٧	٦٦,٤٧٢
١٩١٩	٣,٠٥٥	١,٨٠٦	١٩٣٦	٦,٢٥٢	٢٩,٥٩٥
١٩٢٠	١٤,٢٩٢	٨,٢٢٣	١٩٣٧	١١,٣٥٢	١٠,٦٢٩
١٩٢١	١١٩,٠٣٦	٨,٢٩٤	١٩٣٨	١٩,٧٣٦	١٤,٦٧٥
١٩٢٢	٥٣,٥٢٤	٨,٦٨٥	١٩٣٩	٤٣,٤٥٠	٣١,١٩٥
١٩٢٣	٤٩,٧١٩	٨,١٧٥	١٩٤٠	٣٦,٩٤٥	١٠,٦٤٣
١٩٢٤	٤٩,٩٨٩	١٣,٨٩٢	١٩٤١	٢٣,٧٣٧	٤,٥٩٢
١٩٢٥	١٠,٢٩٢	٣٤,٣٨٦	١٩٤٢	١٠,٦٠٨	٤,٢٠٦
١٩٢٦	١٠,٢٦٧	١٣,٨٥٥	١٩٤٣	٤,٧٠٥	١٠,٠٦٣
١٩٢٧	١١,٤٨٣	٣,٠٣٤	١٩٤٤	١٥,٥٥٢	
١٩٢٨	١١,٦٣٩	٢,١٧٨	١٩٤٥	١٥,٢٥٩	
١٩٢٩	١٢,٤٧٩	٥,٢٤٩	١٩٤٦	١٨,٧٦٠	
١٩٣٠	١١,٥٢٦	٤,٩٤٤		٢٢,٠٩٨	
١٩٣١	٥,٦٩٢	٤,٠٧٥		١٧,١٦٥	

ويُلاحَظ من جدول (٢) أن الولايات المتحدة استوعبت نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ مهاجر يهودي من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٢,٦٥٠,٠٠٠ والذين أتوا أساساً من أوربا الشرقية ثم الوسطى ، أي أنها استوعبت حوالي ٨٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود . وقد استقر نحو ٣٥٠ ألف مهاجر يهودي في أوربا الغربية ، ونحو ٣٠٠ ألف في باقي بلدان العالم ، واستوعبت كندا نحو ٤٪ والأرجنتين ٥٪ وجنوب أفريقيا ٢٪ . ولم يستوطن فلسطين سوى ٥٠ ألفاً ، أي حوالي ٢٪ من مجموع المهاجرين . وقد استمر الوضع على ذلك في الفترة ١٩١٥ - ١٩٣١ ، أي قبل ظهور هتلر ، إذ استوعبت الولايات المتحدة ٥٥٪ من مجموع ٧٦٠ ألف مهاجر يهودي واستوعبت كندا ٦٪ ، والأرجنتين ١٠٪ ، واستوعبت بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى ٩٪ ، وجنوب أفريقيا ٢٪ ، والبلاد الأخرى ٣٪ . ولم يستوطن فلسطين سوى ١٥٪ على الرغم من أنه لم تكن توجد آنذاك قيود على الاستيطان فيها .

ولم يحدث أي تغيير إلا بعد إغلاق أبواب الهجرة إلى الولايات المتحدة ثم إلى بلاد الاستيطان الأخرى في أوربا وأمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا .

وقد بلغ الاستيطان اليهودي في فلسطين ذروته في الفترة بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٩ ، حيث استوطن فلسطين حوالي ٤٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٥٤٠ ألفاً ، ولم يستوطن الولايات المتحدة سوى ٢٠٪ . وقد بلغ عدد المستوطنين الصهاينة في الفترة ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ ، أي خلال أربعة أعوام ، حوالي ١٤٧,٥٠٢ (١٦٥,٧٠٤ بحسب تقديرات **الموسوعة اليهودية**) وهو عدد يساوي عدد كل المستوطنين الموجودين بالفعل والذين كانوا قد استوطنوا فلسطين خلال الفترة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٠ . وفي الفترة من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩ ، هاجر ٧٥,٥١٠ (تَذكُر **الموسوعة اليهودية** هذا الرقم على أنه ٨٦,٠٩٤) . وشهدت الفترة بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٨ تَحوُّلاً طفيفاً في نمط الهجرة إذ اتجه ١٢٥ ألف مهاجر يهودي من مجموع ٣٠٠ ألف ، أي ٤٢٪ من مجموع المهاجرين ، إلى الولايات المتحدة ، واتجه إلى فلسطين ١٢٠ ألفاً أي ٤٠٪ فقط . وقد أدَّى هذا إلى ظهور كثافة سكانية يهودية في فلسطين لم تكن موجودة قبل وصول هتلر إلى الحكم ، فكأن الفوهرر نجح خلال ثمانية أعوام ، عن طريق خَلْق الظروف الموضوعية لهجرة اليهود من أوربا ، في إنجاز ما لم تنجح الحركة الصهيونية والاستعمار العالمي في إنجازه خلال نصف قرن (١٨٨٢ ـ ١٩٣١) ، أي أن الصهيونية الموضوعية البنيوية أكثر كفاءة وفعالية من

الصهيونية العقائدية . فقد هاجر في تلك الفترة نحو ثلاثة ملايين يهودي من وطنهم الأصلي ولم تتجه سوى قلة منهم إلى فلسطين . ومع هذا ، لا يمكن إنكار دور الصهيونية والاستعمار في خلق هذا الموقف الصهيوني البنيوي . والواقع أن الدول الغربية ، ومنها الولايات المتحدة ، أوصدت بابها دون اللاجئين اليهود وغير اليهود بسبب ظروف الكساد الاقتصادي . أما الصهاينة ، فقد أبرموا مع النازيين معاهدة الهعفراه التي ساهمت في توجيه هجرة يهود ألمانيا إلى فلسطين بحيث يتحولون إلى مستوطنين . وقد سمحت لهم السلطات الألمانية بأخذ جزء كبير من ثرواتهم معهم .

ويمكننا أن نَخلُص من ذلك إلى أن فلسطين لا تمثل نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم ، وإلى أن اليهود هاجروا إليها بسبب عوامل الطرد الحادة في أوربا وعدم وجود منافذ أخرى لا بسبب عوامل الجذب فيها .

ولعل الاستثناء الأساسي الآخر من النمط العام لهجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث هو الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى أواخر الخمسينيات ، حيث قامت الحركة الصهيونية بحركة ضغط هائلة لنقل اللاجئين اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين . وفي الفترة نفسها ، أدَّى إعلان الدولة اليهودية ، ونشاط العملاء الصهاينة ، وجَهْل بعض الحكومات العربية ، إلى خَلْق وضع متوتر بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي الإسلامي ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم واستوطنت فلسطين . وعلى أية حال ، يمكن رؤية حركة الهجرة اليهودية من البلاد العربية إلى فلسطين أيضاً بوصفها حركة هجرة إلى فلسطين باعتبارها البلدة الذهبية اليهودية وليس باعتبارها أرض الميعاد . والهدف ليس خلاص الروح ، بطبيعة الحال ، وإنما تحقيق الحراك الاجتماعي . فالعرب اليهود لم تُمكِّنهم ظروفهم الحضارية والاقتصادية ، ولا خبراتهم ، من الهجرة إلى أوربا والولايات المتحدة ، فهاجروا إلى إسرائيل لتحقيق الحراك الاجتماعي الذي فشلوا في تحقيقه بالدرجة التي يطمحون إليها داخل مجتمعاتهم العربية . ويُلاحَظ أن عدداً كبيراً من أعضاء النخبة الاقتصادية والثقافية هاجروا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية ، كما هاجر يهود الجزائر إلى فرنسا لأن ظروفهم سمحت بذلك .

وبعد تصفية هذه الكتلة البشرية اليهودية ، يعود نمط الهجرة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى سابق عهده ، أي يتجه اليهود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة التي أصبحت نقطة جذب كما كانت من قبل . ومن ثم ، نجد أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي تواجه مشاكل عميقة ـ من المنظور الصهيوني ـ لأن المهاجرين يغيرون اتجاههم في النمسا أو أية محطات انتقالية أخرى ، وبدلاً من أن يتوجهوا إلى فلسطين المحتلة ليصبحوا مستوطنين صهاينة يتجهون إلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهاجرين . وحينما هاجر يهود الجزائر عام ١٩٦٥ ، ويهود أمريكا اللاتينية منذ الستينيات وحتى الآن ، ثم يهود إيران ، فإنهم لم يتجهوا إلى فلسطين وإنما إلى فرنسا والولايات المتحدة . ويُلاحَظ أن يهود جنوب أفريقيا يتجهون أيضاً إلى الولايات المتحدة ، وربما إلى جيوب استيطانية أخرى مثل أستراليا ، ولقد بدأ المستوطنون الصهاينة أنفسهم يتبعون هذا النمط . ويبلغ أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة نحو ٧٥٠ ألف ، حيث يزيد عدد النازحين من إسرائيل إلى الولايات المتحدة على عدد اليهود الذين يذهبون إلى الدولة الصهيونية للاستيطان .

ويدل تَدفُّق الهجرة اليهودية على وطن الاقتصاد الحر والفرص الاقتصادية بعيداً عن «أرض الميعاد» ، على أن حركيات التاريخ وتركيبة النفس البشرية تؤكد نفسها على الدوام وتكتسح في طريقها كثيراً من التحيزات العقائدية الاختزالية . ولتزويد الكيان الصهيوني بالمادة القتالية اللازمة لاستمرار اضطلاعه بدوره القتالي ، أغلقت الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت حتى يضطروا إلى التدفق صاغرين إلى الدولة الصهيونية . كما تمارس المنظمة الصهيونية شتى أنواع الضغط على ألمانيا لكي لا تفتح أبوابها أمام المهاجرين السوفييت الذين يقرعون أبوابها . كما أنها تعلن عن شتى المغريات المالية للمهاجرين الجدد . وعلى كلٍّ بعد تَدفُّق نصف مليون يهودي روسي على إسرائيل (وليس الملايين التي تَحدَّث عنها الإعلام العالمي ، أي الغربي ، والعربي) على مدار عشرة أعوام تقريباً ، نضبت منابع المادة البشرية الاستيطانية اليهودية في شرق أوربا ، خصوصاً العناصر الشابة الراغبة في الهجرة والقادرة عليها . وسيعود النمط القديم ليؤكد نفسه ، أي تَدفُّق اليهود على أرض الميعاد الذهبية الأمريكية ، أو أي أرض ميعاد أخرى تُحقِّق لهم الحراك الاجتماعي .

وبدلاً من تسمية الظواهر بأسمائها ، تشير الأدبيات الصهيونية إلى الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة أو العالم المتقدم أو الحر بما يسمونه «الشتات الجديد» ونشير إلى ذلك بأنه «الدياسبورا الدائمة» .

الدياسبورا الدائمة

Permanent Diaspora

«الدياسبورا الدائمة» مصطلح قمنا بصكه لنَصف وَضْع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، فرغم كل الادعاءات الصهيونية ،

ورغم استخدام مصطلح «الدياسبورا» لوصف وضعهم ، إلا أن غالبيتهم تؤثر البقاء خارج فلسطين في المَنْفَى . فالدياسبورا أو الشتات اليهودي مسألة طوعية وليست مسألة مرتبطة بعملية قسر خارجية . وحالة الدياسبورا أو الانتشار هي حالة دائمة بغض النظر عما يحدث في فلسطين . بل إن اتجاه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها أحياناً ، ينبع من حركيات لا علاقة لها بصهيون .

وفيما يلي جدول بأعداد أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين المحتلة والعالم ، يدل على أن الدياسبورا حالة دائمة ونهائية بالفعل .

أعداد اليهود في فلسطين المحتلة والعالم

السنة	عددهم في فلسطين	نسبتهم ليهود العالم
١٨٨٢	٢٤,٠٠٠	٪٠,٣
١٩٠٠	٥٠,٠٠٠	٪٠,٥
١٩٢٥	١٢٢,٠٠٠	٪٠,٨
١٩٤٠	٤٦٧,٠٠٠	٪٢,٨
١٩٤٨	٦٥٠,٠٠٠	٪٥,٧
١٩٥١	١,٤٠٤,٠٠٠	٪١٢,٢
١٩٦٥	٢,٢٩٩,٠٠٠	٪١٧,١
١٩٧٥	٢,٩٥٩,٠٠٠	٪٢٠,٩
١٩٨٠	٣,٢٨٢,٧٠٠	٪٢٥
١٩٨٥	٣,٥١٠,٠٠٠	٪٢٧

أي أن رُبع الشعب اليهودي وحسب قرر الاستيطان في فلسطين ، الأمر الذي يعني أن أغلبيته الساحقة آثرت العيش في «المَنْفَى» ، رغم أن الدولة الصهيونية فتحت أبوابها على مصراعيها أمامهم .

كل هذا يعني في واقع الأمر أن المنفى ليس بمَنْفَى ، وأن أرض الميعاد والعودة ليست أرض الميعاد أو العودة رغم كل الادعاءات الصهيونية .

الدياسبورا الإلكترونية

Electronic Diaspora

«الدياسبورا الإلكترونية» مُصطلَح صهيوني جديد ظهر مؤخراً يعبِّر عن أن المؤسسة الصهيونية قد قبلت الدياسبورا كحالة نهائية ، ولذا بدلاً من مطالبة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم بأن يهاجروا إلى إسرائيل ويستوطنوا فيها ، وبدلاً من النظر إليهم باعتبارهم " خونة " لعدم " عودتهم " إلى إسرائيل ، تقبل الحركة الصهيونية بقاء يهود العالم في أوطانهم وتحاول أن تربط الخبراء والفنيين منهم بمستقبل إسرائيل بحيث يساهمون في تقدُّم إسرائيل العلمي بخاصة في مجال الإلكترونيات ، وعلى أن تطوِّر إسرائيل شبكة للتعاون الإلكتروني يتحكم فيها يهود العالم تحت إشراف إسرائيل .

وهذا التصوُّر تعبير عن اليأس الصهيوني من "عودة" اليهود ، ولعل هذا يُفسِّر نغمته البروتوكولية (يهود العالم - الدولة الصهيونية - شبكة إلكترونية يهودية .. إلخ) .



الجزء الثاني

يهود أم جماعات يهودية؟

١
الجماعات اليهودية الأساسية

الجماعات اليهودية الأساسية ـ «سفارد وإشكناز» كمرادفين لمصطلحي «يهود شرقيون ويهود غربيون» ـ السفارد ـ الإشكناز ـ اليهود الغربيون ـ اليهود الشرقيون ـ اليهود المستعربة ـ الصابرا ـ حركة الكنعانيين

الجماعات اليهودية الأساسية
Major Jewish Communities

«الجماعات اليهودية الأساسية» هي الجماعات اليهودية التي يؤمن أعضاؤها باليهودية الحاخامية . وتعيش هذه الجماعات أساساً في العالم الغربي والعالم الإسلامي . وقد انقسمت هذه الجماعات على أساس قومي (فرنسي ـ أمريكي ـ إنجليزي) ، أو على أساس ديني (إصلاحي ـ محافظ ـ لاديني . . . إلخ) ، أو على أساس إثني (يهودي إثني ـ يهودي غير يهودي . . إلخ) . ونحن نضع الجماعات اليهودية الأساسية مقابل الجماعات المنقرضة (مثل الخَزَر) أو الهامشية (مثل يهود الهند) .

«سفارد وإشكناز» كمرادفين لمصطلحي «يهود شرقيون ويهود غربيون»
Sephardim and Ashkenazim as Synonymous with Oriental and Western Jews

شاع في الدراسات العربية استخدام مصطلحي «إشكناز» و«سفارد» باعتبارهما مرادفين لمصطلحي «يهود غربيون» و«يهود شرقيون» . وفي الدولة الصهيونية ، تُستخدَم عبارة «عيدوت مزراحي» للإشارة إلى الجماعات الشرقية بأسرها بغض النظر عن انتمائها الديني أو الإثني ، وهو استخدام غير دقيق في تَصوُّرنا ويطمس كثيراً من معالم التجمع الصهيوني التي لابد من رصدها .

لقد تكونت الدولة الصهيونية عند إنشائها من أعضاء ينتمون إلى جماعات يهودية كثيرة . ولتبسيط الأمر قليلاً ، يمكن تقسيمهم إلى قسمين أساسيين :

١ ـ اليهود الغربيون : وهؤلاء هم اليهود الذين ينتمون حضارياً إلى العالم الغربي بغض النظر عن أصولهم سواء أكانت إشكنازية أم سفاردية . ومن ثم يُشار إلى جميع المهاجرين من أمريكا أو من الاتحاد السوفيتي بأنهم «غربيون» ، وقد يُضم إليهم يهود من جورجيا وسفارد من هولندا .

٢ ـ يهود شرقيون : وهؤلاء يضمون يهود الشرق والعالم الإسلامي والعربي ، والجماعات اليهودية المتفرقة .

ومضمون المصطلحين ثقافي ، فيهود جنوب أفريقيا يُعتبَرون غربيين نظراً لانتمائهم إلى الجيب الاستيطاني الأبيض .

ولكن يبدو أن الأدبيات الصهيونية تُؤْثر استخدام مصطلحي «سفاردي» و«إشكنازي» على «شرقي» و«غربي» ، وذلك للأسباب التالية :

١ ـ كلمتا «شرقي» و«غربي» كلمتان عامتان ، أما مصطلحا «سفاردي» و«إشكنازي» فهما خاصان ومقصوران على اليهود ، كما أنهما مأخوذان من تراثهم اللغوي والديني . والحديث عن «سفارد» و«إشكناز» هو حديث عن « يهود في يهود » أما الحديث عن «شرقيين» و«غربيين» فيشير إلى اختلافات حضارية حقيقية وعميقة تتجاوز الإطار المرجعي اليهودي .

٢ ـ كلمتا «سفارد» و«إشكناز» ليس لهما حدود دلالية واضحة ، بل متداخلتان ، الأمر الذي يجعل استخدامهما كأدوات تحليلية أمراً صعباً .

٣ ـ وهذا التَرادُف التصنيفي الخاطئ ، «شرقي» و«سفاردي» من جهة و«غربي» و«إشكنازي» من جهة أخرى ، يعود إلى الرغبة المتزايدة في التصنيفات الثنائية (سالب وموجب ـ ذكر وأنثى ـ نعم ولا ـ أبيض وأسود) المرتبطة بتَغلغُل العقلية العلمية المادية . لكن الجنوح نحو التصنيف الثنائي يخدم الصهاينة بشكل خاص ، فهو يستبعد عشرات الجماعات اليهودية التي لا ينتمي أعضاؤها إلى أيٍّ من الفريقين ، مثل الفلاشاه وبني إسرائيل ، ويُبسِّط الأمر تماماً ، فيصبح اليهود جماعتين إثنتين كلٌّ منهما تشبه الأخرى في نهاية الأمر . أما إذا أخذنا بتصنيف تَعدُّدي ثلاثي أو رباعي أو خماسي ، أو بتصنيف يَتعدَّد بعدد الجماعات اليهودية في العالم فسيُمكننا إدراك التنوع ، وهذا ما يحققه مصطلحا «شرقي» و«غربي» . فرغم أن هذا التصنيف ثنائي أيضاً فإنه ليس مغلقاً وإنما هو تصنيف مفتوح ، فكلمة «شرقي» تشير إلى عشرات التشكيلات الحضارية الفعلية والممكنة ، وكذا كلمة «غربي» .

٤ ـ يُلاحَظ أن مصطلحي «سفارد» و«إشكناز» يصلحان إلى حدٍّ كبير لتصنيف يهود العالم الغربي، وبالتالي يمكن استخدامهما إذا كان اليهود داخل التشكيل الحضاري الغربي هم موضوع النقاش. ولذا، فحينما يتناول الدارس تاريخ الجماعة اليهودية في إنجلترا مثلاً، فبإمكانه أن يتحدث عن النخبة السفاردية والجماهير الإشكنازية (اليديشية) حتى أواخر القرن التاسع عشر. وينطبق الشيء نفسه على يهود هولندا وفرنسا وهكذا. والمصطلحان يستبعدان الجماعات اليهودية الأخرى في العالم كافةً، ولا غضاضة في هذا مادام مجال النقاش هو يهود الغرب. ولكن الصورة تتغيَّر إذا كان منظور التحليل هو العالم. وقد أصبح هذا هو الأمر الغالب بعد ظهور المنظمة الصهيونية التي تعطي نفسها صورة العالمية، وتَدَّعي الحديث باسم كل يهود العالم، وتجعل العالم كله ساحتها. عندئذ يصبح مصطلحا «سفارد» و«إشكناز» قاصرين عن تناول الظاهرة. وهنا، فلابد من استخدام مصطلحي «شرقي» و«غربي» للوصول إلى أعلى مستوى تعميمي، مع استخدام عدد آخر من المصطلحات إن أراد الباحث تناول الجماعات اليهودية على مستوى أكثر تخصيصاً. فاليهودية الغربية، أو الجماعات اليهودية في الغرب، لم تَعُد الإطار المرجعي الوحيد. وهذا التحول في مجال النقاش، من يهود الغرب إلى يهود العالم، هو ما أدَّى إلى تَداخُل المصطلحين وحدوث الخلل الذي نحاول تحاشيه.

٥ ـ كان مصطلحا «سفارد» و«إشكناز» صالحين بصفتهما أداتين تحليليتين حتى القرن التاسع عشر. ولكن، مع ظهور الدولة القومية الحديثة، واتساع نطاق الثورة العلمانية، لم يَعُد الانتماء الديني الإثني هو محك الهوية، وبدأ يهود الغرب يُصنِّفون أنفسهم بناء على انتمائهم القومي؛ فهذا يهودي إنجليزي وذلك يهودي هولندي، وهلم جرا. أما على الأساس الديني فهم يهود إصلاحيون أو محافظون أو أرثوذكس أو إلحاديون وعلى مستوى الهوية يمكن تصنيفهم على أنهم يهود إثنيون أو إندماجيون أو يهود غير يهود... إلخ. وهكذا ضمر الانتماء السفاردي أو الإشكنازي، ولم يَعُد المصطلحان صالحين.

لكل هذا، فإننا نستخدم هنا مصطلحي «سفارد» و«إشكناز» حين يكون موضوع النقاش هو يهود الغرب حتى منتصف القرن التاسع عشر، أو حينما نود الإشارة إلى السفارد أو الإشكناز بالمعنى المحدد. وفيما عدا ذلك، فإننا نستخدم مصطلحي «شرقي» و«غربي»، فهما مصطلحان عامان يغطيان كل التنويعات والهويات اليهودية المختلفة. كما أننا نستخدم مصطلحات أكثر تحدُّداً، مثل: يهود البلاد العربية والإسلامية، أو يهود اليديشية، أو يهود بني إسرائيل، أو يهود الفلاشاه. كما تستخدم مصطلح «الجماعات اليهودية» في صيغة الجمع ثم نشير، على سبيل المثال، إلى الجماعة اليهودية في هولندا في القرن التاسع عشر (مثلاً) من باب التخصيص المكاني والزماني.

السفارد

Sephardim

«سفارد» مصطلح مأخوذ من الأصل العبري «سفارديم». ويُشار إلى السفارد أيضاً بكلمة «إسبانيولي»، وباليديشية بكلمة «فرانك» التي تشبه قولنا بالعربية «الفرنجة» (ومن هنا تسمية جيكوب فرانك، أي جيكوب السفاردي). و«سفارد» اسم مدينة في آسيا الصغرى تم ربطها بإسبانيا عن طريق الخطأ فتُرجمت الكلمة في الترجوم (الترجمة الآرامية لأسفار موسى الخمسة) إلى «إسباميا»، و«سباميا»، أما في البشيطا (الترجمة السريانية لأسفار موسى الخمسة) فهي «إسبانيا». وابتداءً من القرن الثامن الميلادي، أصبحت كلمة «سفارد» هي الكلمة العبرية المستخدمة للإشارة إلى إسبانيا. وتُستخدَم الكلمة في الوقت الحاضر للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصلاً في إسبانيا والبرتغال، مقابل الإشكناز الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوربا. وقد استقر أعضاء الجماعة اليهودية في شبه جزيرة أيبريا في أيام الإمبراطورية الرومانية. ولكن أهم فترة في تاريخهم هي الفترة التي حكم فيها المسلمون شبه جزيرة أيبريا والتي يُشار إليها باسم «العصر الذهبي». وكان أعضاء الجماعة اليهودية يتحدثون العربية في تلك الفترة، ويفكرون ويكتبون بها. ثم جاء الغزو المسيحي لشبه الجزيرة واستردادها، فاكتسب اليهود الصبغة الإسبانية وتحدثوا باللادينو، وهي لهجة إسبانية، ثم تم طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢، ومن البرتغال عام ١٤٩٧، فاتجهت أعداد منهم إلى الدولة العثمانية التي كانت تضم شبه جزيرة البلقان وشمال أفريقيا. ويُعَدُّ ميناء سالونيكا (في شبه الجزيرة اليونانية) عاصمة السفارد في العالم حتى الحرب العالمية الأولى، فقد كانت هذه المدينة تضم أغلبية سفاردية. ومن أهم المدن الأخرى التي استقر فيها السفارد في الدولة العثمانية: أدرنة والأستانة وصفد والقدس والقاهرة.

وبعد قرن من الزمان، لحقت بجماعة السفارد جماعات المارانو، وهم من يهود السفارد المُتخفِّين (البرتغاليين)، فاتجهت جماعات منهم إلى هولندا وفرنسا، كما اتجهت جماعات أخرى إلى

أماكن أخرى في أوربا ، مثل : إنجلترا وألمانيا وإيطاليا والدنمارك والنمسا والمجر ، وإلى العالم الجديد (البرازيل والولايات المتحدة) ، حيث أعلنت أعداد منهم عن هويتهم الدينية ومارسوا العقيدة اليهودية بشكل علني . وكان المُبعَدون من السفارد إسبانيين أو برتغاليين في تراثهم وثقافتهم ولباسهم وطَهْوِهم وأسمائهم ، ولذا كان يُطلَق عليهم اسم «الأسبان» أو «البرتغاليون» . وقد احتفظ هؤلاء المُبعَدون بعلاقاتهم الثقافية بوطنهم الأصلي ، حيث كانوا معتزين بهذا التراث وبالمكانة العالية التي حققوها في هذه البلاد .

وقد ظهر في صفوف السفارد عدد كبير من المفكرين مثل أوريل داكوستا . وليس من قبيل الصدفة أن أول مفكر يهودي يُعتَدّ به في العصر الحديث كان سفاردي الأصل ، وهو إسبينوزا . كما أن قبَّالاة الزوهار ، وكذلك القبَّالاه اللوريانية التي اكتسحت أوربا الإشكنازية ، كانت من أصل سفاردي ، وكذا الشولحان عاروخ ، أهم المصنفات الفقهية اليهودية ، حيث وضعه يوسف كارو . وكان شبتاي تسفي (الماشيَّح الدجال) من أصل سفاردي أيضاً ، أي أن كل التطورات التي حدثت بين الجماعات اليهودية في هذه الفترة كانت ذات أصول سفاردية .

وقد كان السفارد يُصرّون على الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الإشكناز ، الذين كانوا يتسمون بقدر كبير من العزلة والتخلف الحضاريين . وأخذت هذه المسافة شكل مؤسسات دينية وتعليمية مستقلة ، ورفض الزواج المُختلَط من الإشكناز ، حتى أن السفاردي الذي يتزوج من إشكنازية كان يُطرَد من الجماعة السفاردية ولا يُدفَن في مدافنها . وحينما كانت الجماعة السفاردية تضطر إلى السماح لبعض الإشكناز بحضور الصلوات في معبدها ، فإن أعضاءها كانوا يصلون وراء حاجز خشبي يُقام بهدف الفصل بين أعضاء الجماعتين . وحينما كانت أية جماعة سفاردية تهاجر إلى أية مدينة ، فإنها كانت تحتفظ باستقلالها وبإحساسها بتفوُّقها وتفوُّق قيمها ، حتى أنها كانت تصبغ بقية الجماعة بصبغة سفاردية . هذا ما حدث على سبيل المثال في الدولة العثمانية ، حين امتزج اليهود الروم (الرومانيوت) واليهود المستعربة باليهود السفارد ، فأصبحت اللادينو هي اللغة السائدة بينهم . وقد حدث الشيء نفسه في شمال أفريقيا .

وفي العصر الحديث ، كانت الهجرة اليهودية في الغرب تأخذ الشكل التالي : يستقر أعضاء جماعة سفاردية تمتلك من الخبرات ورؤوس الأموال والاتصالات الدولية ما يجعل منها جماعة تجارية إدارية متقدمة ، ثم تأتي الجماهير الإشكنازية وتلحق بهم ، وكان السفارد يشغلون في معظم الأحيان قمة الهرم . ولذا ، لعب السفارد دوراً مهماً في تطوُّر الرأسمالية الغربية وبروز النظام الاقتصادي الجديد (في العالم) واتساع نطاق حركة الاكتشافات الجغرافية . وقد بدأ السفارد يستثمرون في كثير من المشروعات الاستعمارية الهولندية ، فامتلكوا عدداً كبيراً من أسهم شركة الهند الغربية الهولندية . في حين ظل الإشكناز على هامش هذا التطور ، فكان منهم صغار التجار وكان منهم المرابون المرتبطون بالنظام الاقتصادي القديم . ولعل هذا يُفسِّر بقاء المسألة اليهودية مسألة إشكنازية بالدرجة الأولى . ففي فرنسا مثلاً ، اصطدم النظام الجديد بعد الثورة بيهود الألزاس واللورين ، وهم من يهود اليديشية الإشكناز ، بينما لم تَحدُث أية مواجهة بين هذا النظام وبين يهود بايون وبوردو من السفارد . وفي إنجلترا ، لم تكن هناك مسألة يهودية إلا بعد هجرة يهود اليديشية بجحافلهم المتخلفة إليها .

وقد حقق السفارد بروزاً غير عادي في المجتمعات الغربية خصوصاً هولندا . وكان منهم أعداد كبيرة من يهود البلاط . كما اشتركوا في تمويل بعض الشركات الاستيطانية . وقد بلغ اليهود السفارد قمة نفوذهم المالي في نهاية القرن السابع عشر . ولكن وَضْعَهم أخذ في التدهور بعد ذلك التاريخ ، وذلك مع ظهور القوة البريطانية وانكماش القوة الهولندية ، ومع تزايُد حجم التجارة الدولية التي لم يتمكن رأس المال السفاردي من استيعابها ، ومع ظهور بورجوازيات محلية حلت محل يهود البلاط . وقد أدَّى وصول قوات الثورة الفرنسية إلى هولندا إلى قطع علاقة أعضاء الجماعات اليهودية فيها بالشبكة التجارية اليهودية في ألمانيا وبولندا والدولة العثمانية ، ومن ثم فَقَد السفارد ما تَبَقَّى لهم من قوة وثروة ، وحدث التراجع الذي رجَّح كفة الإشكناز .

والجدير بالذكر أن عبرية السفارد مختلفة عن عبرية الإشكناز . وهذا يعود إلى أن يهود العالم العربي كانوا منذ أيام الأندلس لا يتحدثون إلا العربية ، واقتصر استخدام العبرية على الكتابة الدينية المتخصصة . وقد كان لاحتكاك اليهود بالعرب أثر عميق في لغتهم ، فقد ازدادت عبريتهم فصاحة بمجاورتها اللغة العربية التي تُعدُّ أرقى لغات المجموعة السامية كلها . وقد تَرتَّب على ذلك أن دولة إسرائيل، التي قامت على أكتاف الإشكناز ، وجدت نفسها رغم كل شيء مُضطرَّة إلى اعتبار عبرية السفارد هي لغة المسرح الرسمية وكذلك لغة الإذاعة والتعليم في الجامعات والمدارس . وقد اضطر المؤلفون في الأدب العبري الحديث ، أو العاملون في مجال الدراسات اللغوية ، حتى وإن كانوا من الإشكناز ، إلى الخضوع المُطلَق للسان السفارد . ولكن هذا لا ينفي أن هناك مزيجاً لغوياً في

جبهة السفارد ذاتها ، فبعضهم (مثل المارانو) يتحدث اللادينو أو البرتغالية ، أما البعض الآخر فيتحدث اليونانية أو التركية وهم أقلية . وقد انعكس هذا التباين اللغوي على طريقة نطقهم للعبرية . بل إن هذا التباين يمكن ملاحظته في نُطْق العبرية بين اليهود الذين يتحدثون اللغة نفسها ، فثمة سمات محلية في النطق أصبحت تُميِّز اليهودي العراقي عن اليهودي اليمني أو المغربي ، ليست نتيجة احتكاكه باللغة العربية الفصحى وحسب بل ونتيجة احتكاكه العميق باللهجة التي يتحدث بها مواطنو بلده . وفي الوقت الحاضر ، بدأ السفارد يتحدثون (أساساً) لغة البلاد التي يتواجدون فيها .

ولا يوجد اختلاف جوهري بين السفارد والإشكناز في العقائد، فكلاهما يعتبر أن التلمود البابلي هو المرجع النهائي . ومع هذا ، كان ليهود إسبانيا طريقتهم الخاصة في الصلاة وإقامة الشعائر الدينية التي تُعَدُّ استمراراً للتقاليد الدينية اليهودية التي نشأت وتطورت في بابل . أما الإشكناز ، فتعود عبادتهم أساساً إلى أصول يهودية فلسطينية . وقد تعمَّقت الفروق بين الفريقين نتيجة تأثر السفارد في عبادتهم وتلاوتهم وترتيلهم وإنشادهم بالذوق العربي ، كما انفردوا بنصوص شعرية ونثرية في أدعيتهم وصلواتهم قريبة الشبه بما يماثلها عند المسلمين .

ويُلاحَظ أن السفارد ، بسبب مستواهم الثقافي العالي ، كانوا أكثر تَسامُحاً وأوسع أفقاً . ومن هنا نجد أن الشولحان عاروخ (المُصنَّف التشريعي الذي وضعه كارو السفاردي) أكثر ليبرالية من تلك الرؤية التي سادت بين الإشكناز عند صدوره . وهناك اختلافات بين السفارد والإشكناز تعود إلى اختلاف البيئات الحضارية التي عاش في كنفها أعضاء الجماعات اليهودية السفاردية والإشكنازية . ففي عيد الفصح ، يستخدم السفارد الخس باعتباره أحد الأعشاب المُرَّة التي تؤكل في هذه المناسبة بدلاً من الفجل الحار . أما الصلوات في المعبد ، فهي مختلفة في كثير من النواحي السطحية ، وعلى سبيل المثال ، يرفع السفارد مخطوطة التوراة قبل قراءتها على خلاف الإشكناز الذين يفعلون ذلك بعدها . كما أن الخط المستخدم في كتابة المخطوطة مختلف . وكذلك ، فإن معمار المعبد السفاردي يختلف ، في بعض التفاصيل ، عن معمار المعبد الإشكنازي .

وتختلف المصطلحات الدينية بين الإشكناز والسفارد على النحو التالي :

المصطلح	سفاردي	إشكنازي
صلاة العشاء	عربت	معاريف
تابوت العهد	هيكل	آرون
صلاة عيد الفصح	هاجاداه	سيدر
يوم الغفران	كيبور	يوم كيبور
حاخام	ربي/ راف	راباي
كتاب صلاة	تيفيلوت	سيدور

وبسبب هذه الاختلافات وغيرها ، اكتسب مصطلح «سفارد» دلالة دينية إلى جانب دلالته الإثنية الأصلية ، وأصبح يُطلَق على كل اليهود الذين يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة سواء أكان أصلهم يعود إلى شبه جزيرة أيبريا أم يعود إلى غير ذلك .

ويُطلَق المصطلح الآن على كل اليهود الذين لا ينتمون إلى أصل إشكنازي غربي في التجمع الإسرائيلي . ولكن مما يثير بعض المشاكل في التصنيف أن الحسيديين ، وهم من الإشكناز ، اقتبسوا كثيراً من التقاليد والطقوس السفاردية ، كما أن بعض اليهود الهولنديين والإنجليز يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة . ولذا ، فحينما نتحدث عن سكان التجمع الصهيوني من اليهود نقول : «اليهود الإشكناز» و«اليهود السفارد» ، و«يهود البلاد الإسلامية» ، أو نقول : «يهود شرقيون» و«يهود غربيون» بدلاً من «سفارد» و«إشكناز» حتى لا نَسقُط في التصنيفات الثنائية البسيطة والسهلة التي تُشوِّه الواقع .

وقد تَدهَور وضع اليهود السفارد ، كما أسلفنا ، بعد أن كانوا الأكثر عدداً والأعلى مكانة والأكثر ثقافة . ففي العصور الوسطى ، كانوا يشكلون نصف يهود العالم ، وكانوا على احتكاك بمؤسسات صنع القرار في بلادهم ، كما كانوا يشتغلون بالشئون المالية المتقدمة . ولكن ، ابتداءً من القرن السابع عشر ، بدأ صعود الإشكناز عددياً ثم ثقافياً . ورغم وجود أقليات سفاردية مهمة في لندن وأمستردام حتى القرن التاسع عشر ، زاد المد الإشكنازي وغطى الانفجار السكاني في صفوفهم على السفارد تماماً . ومع الحرب العالمية الثانية ، كان يهود العالم يبلغون ١٦,٥٠٠,٠٠٠ ، منهم ١٥ مليون إشكنازي ، والباقي سفارد بالمعنين الديني والعرْقي . وتُوجَد أغلبية السفارد في شمال أفريقيا (ما بين ٢٥٠ ألفاً إلى ٣٠٠ ألف) وأوربا (٢٥٠ ألفاً) . كما كان هناك عدد كبير في أمريكا اللاتينية (١٢٠ ألفاً) ، وتركيا (٧٣ ألفاً) ، وفلسطين (٤٧ ألفاً) ، وتوزَّع

الباقي على ثلاث دول أخرى . لكن هذه الأرقام غير دقيقة ، كما أنها تضم اليهود المستعربة ضمن السفارد ، وكذلك أعضاء الجماعات اليهودية الأخرى (مثل الفلاشاه وبني إسرائيل والدونمه) .

وقد أدَّت تَقلُّبات القرن العشرين ، من تحديث في اليونان والدولة العثمانية ، وحروب بين اليونان وتركيا ، إلى تشتيتهم من مراكز تَجمُّعهم الأساسية ، لا سيما وأن عاصمتهم سالونيكا كانت مدينة تركية في شبه الجزيرة اليونانية . وقد تم إخلاء سكانها وتهجيرهم إلى تركيا ، وضمن ذلك اليهود ، باعتبارهم أتراكاً ، خصوصاً وأن نسبة كبيرة من سفارد سالونيكا كانوا من الدونمه ، أي من اليهود المتخفين الذين أظهروا الإسلام ، ولذلك تم تصنيفهم باعتبارهم مسلمين . وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى أوربا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية حيث كان الجو الحضاري اللاتيني مواتياً لهم .

وقد انعكس الانقسام بين السفارد والإشكناز على الجماعة اليهودية في فلسطين ، إذ كانت هذه الجماعة تنقسم بدورها إلى إشكناز وسفارد ، ولكل جماعة حاخام خاص بها . وقد ارتبط اليهود غير الغربيين (المغاربة والمستعربة) بالحاخامية السفاردية ، ومن هنا كان اختلاط المجال الدلالي للكلمة بحيث أصبحت تشير إلى كل من ليس بإشكناز . وكانت السلطات الإنجليزية تُفضِّل السفارد واليهود المستعربة على الإشكناز ، نظراً لأن الفريق الأول كان يعرف تقاليد فلسطين أكثر من الوافدين الجدد .

وإذا كانت المسألة اليهودية مسألة إشكنازية ، فإن الصهيونية أيضاً ظاهرة إشكنازية . والواقع أن كل مفكري الصهيونية ، بدون استثناء ، إشكناز . وربما كان الاستثناء الوحيد هو الحاخام القلعي الذي تنبع صهيونيته من رؤاه القبَّالية ، وكان يعيش في أطراف الدولة العثمانية (في شبه جزيرة البلقان) . وقد كانت الصهيونية إشكنازية لدرجة أن كلمة «يهودي» في الأدبيات الصهيونية الأولى كانت مرادفة لكلمة «إشكنازي» بمعنى «يديشي» . كما أن المشروع الصهيوني كان مشروعاً غربياً لحماية مصالح الغرب في الشرق . ولكن بعد تأسيس الدولة ، هاجر الألوف من يهود الشرق إليها ، الأمر الذي أدَّى إلى زيادة العنصر غير الإشكنازي في الدولة . وقد أعطاها هذا الطابع الذي يُقال له «سفاردي أو شرقي» .

وتتسم العلاقات في المُستوطَن الصهيوني بين الشرقيين والسفارد من جهة ، والإشكناز من جهة أخرى ، بالتوتر الشديد ، فيشير الإشكناز للشرقيين بوصفهم «شفارتز» (أي «سود» أو «شحوريم» ، مع تحميل الكلمة إيحاءات قدحية) ، وهناك مَثَل يديشي يقول " فرانك كرانك " ، أي «السفارد مرض» ، والرد الشرقي السفاردي هو الإشارة إلى «الإشكي نازي» بكل تداعيات الكلمة في الذهن الإسرائيلي . ويبدو أن التميز العنصري مستمر بالنسبة لأبناء اليهود الشرقيين ممن وُلدوا ونشأوا في إسرائيل . وقد اتضح هذا في النظام الحزبي في إسرائيل ، فقد ظهرت فيه الأحزاب الإثنية بعد إعلان الدولة الصهيونية ، وقد أعلن الصهاينة حينذاك أن هذا أمر مؤقت وأن الصهيونية (أي القومية اليهودية) ستصهر الجميع في بوتقة واحدة . ولكن ظهر في التسعينيات أحزاب تعبِّر عن الانقسام الإثني فيضم حزب شاس (الديني) اليهود السفارد ، أما حزب إسرائيل بعالياه (العلماني) فيضم المهاجرين السوفييت .

الإشكناز
Ashkenazim

«الإشكناز» من «إشكنازيم» العبرية . و«الإشكناز» هم يهود فرنسا وألمانيا وبولندا . و«إشكناز» ، حسب الرواية التوراتية ، اسم أحد أحفاد نوح . ومن المحتمل أن تكون الكلمة قد استُخدمت للإشارة إلى قبيلة ظهرت في زمن أسرحدون تَحالَف أعضاؤها مع آشور . وهم الذين تشير إليهم المدونات الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد بلفظ «إشوكوزا» ، وهم الذين أشار إليهم اليونانيون بكلمة «إسكيثيانز Scythians» وهم الإسكيثيون . ويبدو أن هذه الأقوام كانت تشغل المنطقة الموجودة على حدود أرمينيا في أعالي الفرات ، وجزءاً من مملكة الميديين . ويقرن يوسيفوس كلمة «إشكناز» بمدينة في مركز ميديا . وفي بعض الكتابات الحاخامية ، يُشار إلى آسيا بأسرها باعتبارها «إشكناز» ، كما كان يُشار إلى الخَزَر باعتبارهم «إشكناز» ، بل واستُخدمت الكلمة للإشارة إلى حملات الفرنجة .

أما الاشتقاق الحالي لكلمة «الإشكناز» ، فهو من كلمة «إشكناز» بمعنى «ألمانيا» . ومن الصعب معرفة متى حدث هذا التَرادُف . وثمة آراء احتمالية عدة ، فهناك من يربط بين إشكناز وإسكندنافيا ، وهناك من يربط بينها وبين الساكسون ومن ثم بينها وبين ألمانيا . ومع زمن راشي ، أصبح هذا الترادف أمراً مقبولاً تماماً ، فهو يشير إلى «لشون إشكناز» ، أي «اللسان الألماني» أو «اللغة الألمانية» . وكان يشير إلى «إرتس إشكناز» أي «أرض ألمانيا» . ومن هنا ، أصبح المصطلح يشير إلى يهود فرنسا وألمانيا ونسلهم من اليهود الذين هاجروا إلى إنجلترا وشرق أوربا (بولندا وليتوانيا) بعد حروب الفرنجة . ويطرح آرثر كوستلر نظرية أخرى عن أصل أكبر كتلة بشرية

إشكنازية (أي يهود بولندا) ، فيرى أن الجماعات اليهودية في فرنسا وألمانيا قد أبيدت تماماً أو اختفت ، وأن يهود بولندا هم في الواقع بقايا يهود الخزر الذين نزحوا عن أراضيهم بعد سقوط دولتهم وأسسوا دولة المجر ثم هاجروا منها إلى بولندا . وبالتالي ، فإن الإشكناز عنصر تركي غير سامي .

وقد انتشر الإشكناز من بولندا إلى أوربا ، خصوصاً بعد هجمات شميلنكي في أوكرانيا (١٦٤٨) ، فاستقرت أعداد منهم في بولندا وألمانيا وإنجلترا والعالم الجديد . ثم هاجر الملايين منهم في نهاية القرن التاسع عشر إلى الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وأستراليا ونيوزيلندا ، بعد الانفجار السكاني الذي حدث في صفوفهم . كما أنهم توجهوا إلى آسيا وأفريقيا مع حركة التوسع الإمبريالي . ولما كان يهود شرق أوربا هم أهم كتلة بشرية يهودية ، فقد ارتبط المصطلح بهم ، ولكننا نُفضِّل أن نشير إلى هؤلاء باعتبارهم «يهود اليديشية» .

وتُذكَر كلمة «إشكناز» عادةً مقابل «سفارد» ، وبالتالي أصبحت كلمة «إشكناز» مرادفة لمعنى «غربي» وأصبحت «سفاردي» بمعنى «شرقي» ، وهو تَرادُف خاطئ لأن كثيراً من يهود الشرق (يهود الفلاشاه وبني إسرائيل) ليسوا من السفارد ، ولا علاقة لهم بالتراث السفاردي الإثني أو الديني . ولكن هذا الترادف التصنيفي الخاطئ ربما يعود إلى الرغبة المتزايدة في التصنيفات الثنائية (مثل : سالب وموجب ـ ذكر وأنثى) ، وإلى جَعْل مرجعية اليهود الوحيدة والأساسية هي تراثهم ، ومحاولة رؤيتهم داخل إطار يهودي مُوحَّد ، وهو أمر يصبح صعباً لو أخذنا بتصنيف تَعدُّدي ثلاثي يراعي وجود أقسام مختلفة من اليهود في العالم . ومما يزيد الأمور اختلاطاً ، أن الحسيديين ، وهم من أشد اليهود إشكنازيةً إن صح التعبير ، تَبنَّوا بعض الممارسات الدينية السفاردية في محاولة لتأكيد استقلالهم عن المؤسسة الحاخامية الإشكنازية . ومع تَزايُد فقدان الجماعات اليهودية سماتها الخاصة ، وتَزايُد اندماجها وتَحوُّل أعضائها إلى أمريكيين يهود أو فرنسيين يهود . . . إلخ ، يصبح من الأدق استخدام مصطلح «يهود غربيون» للإشارة لما يُسمَّى الآن «اليهود الإشكناز» .

وثمة اختلافات دينية غير جوهرية بين الإشكناز والسفارد تعود إلى اختلاف الأصول . فالإشكناز تَبنَّوا الصيغة الفلسطينية لليهودية ، مقابل الصيغة البابلية التي تبناها السفارد . ومع أن كلا الفريقين تَبنَّى التلمود البابلي ، في نهاية الأمر ، مرجعاً وحيداً في الأمور الدينية والفقهية ، فقد ظلت بعض نقط الاختلاف . فالسفارد ، على سبيل المثال ، يتسمون باتساع الأفق ، أما الإشكناز فلم ينفتحوا على الحضارات التي عاشوا بين ظهرانيها برغم تأثرهم بها ، وانغلقوا على الكتاب المقدَّس والتلمود وعلى تفسير النصوص الجزئية . كذلك لم يحاول الإشكناز جَمْع الشريعة وتقنينها والتوصل إلى مبادئها العامة .

والاختلافات بين السفارد والإشكناز في الأمور الدينية ليست عميقة ، وقد حصرنا بعضها في مدخل السفارد . ولكن يُلاحَظ أن تأثير السفارد الفكري الديني في الإشكناز كان عميقاً . فرغم أن بدايات القبَّالاه إشكنازية ، فإن تَحوُّلها إلى نسق متكامل في قبَّالاة الزوهار ثم القبَّالاه اللوريانية تم على يد السفارد ، بل إن الفكر القبَّالي ذاته يكاد يكون فكراً سفاردياً ، وهو الذي اكتسح الفكر الحاخامي الإشكنازي . كما أن أهم كتب الشريعة اليهودية (الشولحان عاروخ) كتاب سفاردي كتب عليه أحد الإشكناز شروحاً وتعليقات . وقد لاحَظ أحد المفكرين أثر الفكر المسيحي في الفكر الديني للإشكناز ، فظاهرة الاستشهاد فيما يُعرَف بمصطلح «تقديس الاسم» (بالعبرية : «قيدوش هاشيم») هي ظاهرة إشكنازية لعلها جاءت نتيجة تأثير واقعة الصلب في المسيحية على اليهود . أما المارانية ، وهي شكل من أشكال التَقية ، فهي ظاهرة سفاردية . ويمكن ملاحظة تأثير الفكر المسيحي في الحسيدية أيضاً ، على عكس الفكر السفاردي الذي تأثر في بعض جوانبه بالفكر الديني الإسلامي .

ومن الظواهر التي تستحق التسجيل أن المشيحانية (وهي المعبِّرة عن إحباط الجماهير) حركة إشكنازية بالدرجة الأولى رغم أن الفكر القبَّالي فكر سفاردي ، ورغم أن شبتاي تسفي (أول ماشيَّح دجال في العصر الحديث) سفاردي . كما أن قيادة هذه الحركات انتقلت إلى الغرب بعد حركة شبتاي تسفي . فجيكوب فرانك إشكنازي (رغم تَبنِّيه بعض الأساليب السفاردية ، ورغم أن أعداءه سموه «فرانك» ، أي السفاردي باليديشية) والحركة الحسيدية أيضاً حركة إشكنازية . ويُلاحَظ أيضاً أن الوضع تغيَّر بعد سنوات من التبعية للفكر السفاردي وبدأ الإشكناز في الإبداع في مجال الفكر الديني والدنيوي ، فظهرت حركة التنوير في صفوفهم ، كما ظهر بينهم علم اليهودية ، وكذلك جميع الحركات الدينية في اليهودية الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسية والتجديدية .

وكان معظم الإشكناز يتحدثون اليديشية التي اختفت بالتدريج مع عشرينيات هذا القرن ، وبالتالي فهم يتحدثون في الوقت الحاضر لغة البلد الذي يوجدون فيه . ولغتهم الأساسية الآن هي الإنجليزية باعتبار أن أغلبيتهم تُوجَد ضمن التشكيل الاستعماري الاستيطاني

الأنجلو ـ ساكسوني (الولايات المتحدة الأمريكية ـ كندا ـ أستراليا ـ جنوب أفريقيا) . والعبرية السائدة بين الإشكناز مختلفة عن عبرية السفارد حيث ينطقونها بطريقة مختلفة .

وكان أكثر من نصف يهود العالم ، في العصور الوسطى وحتى بدايات القرن الثامن عشر ، من السفارد ويهود العالم الإسلامي . ولكن ، بعد ذلك التاريخ ، أخذ الإشكناز في التزايُد إلى أن حدث الانفجار السكاني في صفوفهم في القرن التاسع عشر وأصبحوا يشكلون نحو ٩٠٪ من يهود العالم . ولا تزال نسبتهم عالية . ومع أنها قد هبطت قليلاً في الآونة الأخيرة ، بسبب تَناقُص معدلات الإنجاب بينهم ، فإن الأغلبية الساحقة من يهود العالم تظل إشكنازية (بمعنى : غربية) . كما أنهم نظراً لوجودهم في المجتمع الغربي ، فإن لهم بروزاً عالمياً . ولذا ، فإن معظم مشاهير اليهود الآن من الإشكناز ، ابتداءً بأينشتاين ومروراً بكيسنجر وانتهاءً براكيل ويلش .

ويُلاحَظ أن البناء الوظيفي والمهني للإشكناز مختلف عن بناء السفارد . فالإشكناز كانوا يقفون دائماً على هامش المجتمع الغربي، كشعب شاهد ، ثم كأقنان بلاط ويهود بلاط ومرابين وتجار ووسطاء في النظام الإقطاعي ، على عكس السفارد الذين كان بعضهم يضطلع بالوظائف الهامشية نفسها ، ولكنهم كانوا أكثر اندماجاً في النظام الاقتصادي الجديد في الغرب باعتبارهم من كبار المموِّلين الذين ساهموا ، في أمستردام وغيرها ، في تأسيس بعض الشركات الرأسمالية الجديدة ، كما استثمروا أموالهم في المشاريع الاستعمارية والاستيطانية . أما من الناحية الثقافية ، فقد كان السفارد أقل انغلاقاً على المجتمع الغربي وأكثر استيعاباً لثقافته وأسلوب حياته على عكس الإشكناز . ولذلك ، فإن المسألة اليهودية مسألة إشكنازية ، لم تُوجَد إلا في البلاد التي تُوجَد فيها أقلية إشكنازية . وحينما وُجدت أقلية سفاردية وأخرى إشكنازية في بلد واحد ، كما كان الحال في فرنسا ، فإن السفارد كانوا يندمجون في الاقتصاد الجديد دون أن يصادفوا عقبات كثيرة ، ودون أن يواجهوا مشكلة ازدواج الولاء . ولهذا ، فحينما تَوجَّه نابليون لحل مشكلة يهود فرنسا ، انصبت جُلّ جهوده على حل مشكلة يهود الألزاس واللورين من الإشكناز ، ولم يضم لهم يهود بوردو وبايون من السفارد .

لكل ما تَقدَّم ، نجد أن مصطلح «إشكناز» اكتسب دلالة حضارية وإثنية وعرْقية ودينية ، وأصبح هذا المصطلح يشير إلى مركب إشكنازي من العناصر والعلاقات ، وقد انعكس هذا على الوضع في فلسطين . وقد كان أعضاء اليشوف القديم (وهي مؤسسة دينية محضة) ينقسمون إلى إشكناز وسفارد ، وهذا الانقسام لا يزال قائماً في إسرائيل ، فهناك حاخامان يشرف كل منهما على الشئون الدينية لجماعته . وبشكل عام ، كان السفارد يُبقون مسافة اجتماعية واسعة بينهم وبين الإشكناز ، ويحاولون تأكيد نقط الاختلاف بين الفريقين . وقد كتب المفكر اليهودي السفاردي إسحق دي بنتو رسالة إلى فولتير يبين له فيها أن السفارد لا يتزاوجون مع الإشكناز ، وأن لهم معابدهم المستقلة ، وأن أزياء السفارد لا تختلف عن أزياء الأغيار على عكس الإشكناز ، وأن أثرياء السفارد يتسمون بالتحضُّر ولا يختلفون عن الأغيار إلا في الدين . وختم دي بنتو خطابه بقوله : «لو تزوج سفاردي من إشكنازية ، فإنه يفقد كل حقوقه ويُطرَد من المعبد اليهودي السفاردي ويُستبعَد تماماً من الجماعة السفاردية ولا يُدفَن في مدافنهم» . وفسَّر دي بنتو هذا الاختلاف على أساس عرْقي ، فالإشكناز لا تجري في عروقهم دماء يهودية نقية ، أما السفارد فهم من نسل كبار أسرة قبيلة يهودا الذين أرسلوا إلى إسبانيا أثناء التهجير البابلي .

وإذا كانت المسألة اليهودية مسألة إشكنازية ، فإن الحركة الصهيونية هي الأخرى حركة إشكنازية . بل إن جميع الظواهر اليهودية الحديثة تبلورت في صفوف الإشكناز ، فالحسيدية نشأت في بولندا وانتشرت منها ، والإصلاح الديني بدأ في ألمانيا وتبعه تزايد معدلات الاندماج والانصهار . وقد كان المؤتمر الصهيوني الأول يضم وفوداً إشكنازية بالدرجة الأولى . بل إن السفارد الذين حضروا ، كانوا من بلاد أوربية مثل بلغاريا أو فرنسا . وظل الاستيطان الصهيوني (أساساً) استيطاناً إشكنازياً . ومن ناحية أخرى، فإن مصطلح «يهودي» كان يعني في الأدبيات الصهيونية الأولى «الإشكنازي» . ولا تزال النخبة الحاكمة في إسرائيل إشكنازية ، كما أن المؤسسات الأساسية (مثل الكيبوتس) كلها إشكنازية . والواقع أن هذه المؤسسات تحاول أن تحافظ على توجه الدولة الإشكنازي ، لكن العنصر اليهودي الإشكنازي في الدولة الصهيونية قد أصبح ، مع ذلك ، أقل من ٥٠٪ بسبب هجرة اليهود السفارد واليهود الشرقيين . ويَتجلى التوتر الحاد ، بين اليهود الشرقيين والسفارد من جهة والإشكناز من جهة أخرى ، في إشارة الأولين إلى الآخرين باعتبارهم «أشكي نازي» . ويُقال إن الاهتمام المحموم ، من جانب المؤسسة الحاكمة في إسرائيل ، بالهجرة السوفيتية لا يعود إلى حاجة المُستوطَن الصهيوني إلى مادة بشرية قتالية وحسب وإنما إلى حاجته إلى مادة إشكنازية على وجه التحديد

تُوازن العنصر الشرقي السفاردي ، بعد أن انخفض عدد اليهود الغربيين في الدولة الصهيونية إلى أقل من النصف .

اليهود الغربيون

Western Jews

«اليهود الغربيون» مصطلح يُستخدَم للإشارة إلى اليهود الذين هاجروا من العالم الغربي إلى إسرائيل . ولما كانت أغلبيتهم من الإشكناز ، أي من يهود بولندا ذوي الأصول الألمانية ، فإن مصطلح «اليهود الغربيون» أصبح مرادفاً لمصطلح «الإشكناز» . ولكن مصطلح «اليهود الغربيون» يظل (مقابل «اليهود الشرقيون») هو المصطلح الأدق والأشمل لأنه يشير إلى الانتماء العرْقي والحضاري والإثني لهؤلاء اليهود ، في حين نجد أن مصطلح «الإشكناز» تداخله أبعاد دينية تطمس معالمه وتجعله أداة غير دقيقة . فيهود هولندا يُشار إليهم بلفظ «إشكناز» ، مع أن بعضهم يتبع التقاليد السفاردية في العبادة . وأغلبية اليهود الغربيين من يهود اليديشية (يهود شرق أوربا) ، إلا أنهم فقدوا هويتهم اليديشية هذه وأصبحت أغلبيتهم تتحدث الإنجليزية (في الولايات المتحدة وإنجلترا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا) وبقيتهم تتحدث لغات بلادهم . كما أن هناك جماعات من يهود الغرب ، مثل : يهود اليونان (الرومانيوت أو الجريجوس) ، ويهود إيطاليا ، ويهود جورجيا . لكن هؤلاء الغربيين لا ينتمون إلى التشكيل الإشكنازي (إن صح التعبير) من قريب أو بعيد . واليهود الغربيون في إسرائيل هم الأقلية العرْقية والحضارية المسيطرة على الحكومة والجيش والأحزاب والاقتصاد وعلى التوجه الحضاري العام ، وهو ما يسبب حالة اغتراب شديدة لليهود الشرقيين ، ويعمق الفوارق الاجتماعية . ويُلاحَظ أن مصطلح «اليهود الغربيون» مصطلح حضاري ثقافي ، ومن ثم يُشار إلى يهود جنوب أفريقيا بوصفهم غربيين ، مع أن أفريقيا جزء من الشرق .

اليهود الشرقيون

Oriental Jews

«اليهود الشرقيون» مصطلح كان يُطلَق على نسل أولئك اليهود الذين اتجهوا ، عندما غادروا فلسطين قديماً ، إلى العراق وإيران وأفغانستان وشبه الجزيرة العربية ومصر وبلدان شمال أفريقيا ، وعلى يهود القوزاق (يهود جورجيا والجبال) . ولكنه يشير الآن ، في التجمع الاستيطاني الصهيوني ، إلى اليهود الذين لا ينحدرون من أصل غربي ، وقد أصبح لفظ «سفارد» مرادف للفظ «شرقيين» لأن معظم اليهود الشرقيين ، في البلاد العربية على وجه الخصوص ، يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة . ولكن مصطلح «سفارد» غير دقيق ، فبعض اليهود الغربيين في هولندا وإنجلترا وإيطاليا من السفارد . كما أن الحسيديين يتبعون بعض التقاليد السفاردية في العبادة . لذا ، يجب أن نستخدم مصطلح اليهود الشرقيين باعتبار أنه الكل الذي يضم معظم السفارد كجزء ، وهذا الكل يضم يهود الفلاشاه ويهود الهند وغيرهم ، وباعتبار أن مصطلح اليهود الشرقيين ذو مضمون طبقي عرْقي ثقافي مُتعيِّن ، على عكس مصطلح «سفارد» ذي المضمون الديني غير المُحدَّد . كما يُستخدَم مُصطلَح «اليهود الغربيون» للإشارة إلى كل يهود الغرب .

ويبدو أن مصطلح «الشعب اليهودي» يستبعد هؤلاء الشرقيين على مستوى فعلي ، وذلك بعد أن كان يستبعدهم اسماً وفعلاً في الماضي . فاليهود الشرقيون ، وغيرهم من أعضاء الجماعات ، يهود بشكل عام وأعضاء في «الشعب اليهودي» ماداموا في الخارج . ولكنهم حينما يصلون إلى إسرائيل ، يصبحون مغاربة أو مصريين ، وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بل ووضعهم الطبقي حسب هذا التصنيف . ويلجأ بعض يهود المغرب العربي إلى ادعاء أنهم من أصل فرنسي حتى يُحسِّنوا صورتهم أمام الآخرين . وهذا يعني أن النقطة المرجعية لإدراكهم لأنفسهم ولغيرهم ليس الهوية اليهودية المجردة وإنما هويات يهودية مختلفة . ويُلاحَظ أن مصطلح «يهود شرقيون» مصطلح ذو بُعد حضاري ثقافي . ومن ثم ، يُشار إلى يهود جنوب أفريقيا بأنهم غربيون نظراً لانتمائهم إلى تشكيل حضاري غربي هو الجيب الاستيطاني الأبيض في جنوب أفريقيا . وتُصِّر النخبة الحاكمة في الدولة الصهيونية على الطبيعة الغربية (الإشكنازية) للدولة . وقد صرح شاعر الصهيونية الأكبر نحمان بياليك ، وهو إشكنازي من يهود اليديشية ، بأنه يكره العرب لأنهم يُذكِّرونه باليهود الشرقيين . ولعل خوف النخبة الإشكنازية من العزلة الحضارية هو ما يدفعها إلى إثارة الحروب من آونة إلى أخرى في المنطقة حتى لا يندمج الشرقيون في المحيط الحضاري العربي ، فهم في حقيقة الأمر ، ينتمون حضارياً وعرْقياً إلى هذه المنطقة . ولو تَحقَّق مثل هذا الاندماج ، لوجدت النخبة الحاكمة الإشكنازية نفسها في موضع الأقلية مرة أخرى ، وهو الأمر الذي خططت هذه النخبة وأنفقت كل أيامها من أجل الهرب منه . وعلى كلٍّ ، فقد تحولت الأغلبية الإشكنازية إلى أقلية عددية ، ولكنها لا تزال تملك ناصية الأمور وتحتكر صنع القرار .

وفي إطار هذا التصورُ ، يمكننا فهم الحملات الصهيونية التي وُجِّهت ضد الاتحاد السوفيتي (سابقاً) للسماح لليهود السوفييت بالهجرة ، فهي محاولة من جانب الإشكناز لاستعادة التوازن العرْقي والحضاري داخل إسرائيل لصالحهم ، خصوصاً أن الهجرة من أوربا قد توقفت ، كما أن نسبة التوالد بين الشرقيين أعلى منها لدى الإشكناز . ولكن الهجرة من روسيا وأوكرانيا تثير من المشاكل أكثر مما تحل . فالمهاجرون الروس والأوكرانيون يُعامَلون معاملة خاصة لتشجيعهم ، إذ أن هجرتهم غير عقائدية وتأتي في سياق بحثهم عن مكاسب اقتصادية لم يجدوها في وطنهم الأم . لكن هذه المعاملة الخاصة تثير حفيظة الشرقيين ، وتُصعِّد حدة التناقض بين «الأمتين» (وهو المصطلح المُستخدم في إسرائيل للإشارة إلى الإشكناز من جهة وغير الإشكناز [من السفارد والشرقيين] من جهة أخرى) . ويُقال إن علم الاجتماع الإسرائيلي يُؤثر ، في الوقت الحالي ، استخدام هذا المصطلح باعتباره مصطلحاً تحليلياً وصفياً للوضع القائم في إسرائيل . وتوجد أحزاب سياسية وقوائم انتخابية في المُستوطَن الصهيوني تحاول جميعاً تمثيل مصالح اليهود الشرقيين ، ومن بين هذه القوى حزب تامي وحزب شاس الديني .

ورغم أن اليهود الشرقيين يشكلون أقلية بين يهود العالم (كانت لا تتجاوز ١٠٪ عند بدء الحركة الصهيونية في نهاية القرن الماضي) إلا أن عددهم يزيد عن ٥٥٪ بسبب تدفقهم على الدولة الصهيونية وازدياد معدل الزيادة الطبيعية .

اليهود المستعربة

Arabized Jews

«اليهود المستعربة» هم يهود البلاد العربية الذين اكتسبوا خصائص الحضارة العربية فأصبحوا عرباً ، وهم أغلبية يهود العالم العربي ، ولا سيما قبل دخول الاستعمار الغربي الذي فرنج عدداً منهم . وهم يُسمَّون خطأً «السفارد» . والواقع أن كثيراً منهم يتبع المنهاج السفاردي في العبادة ، ولكن هذا لا يجعلهم من السفارد بالمعنى الإثني ، الذي لا ينطبق إلا على اليهود الذين خرجوا من إسبانيا والذين ينتمون إلى أولئك الذين كانوا يتحدثون اللادينو ومنهم المارانو (أو البرتغاليون) . واليهود المستعربة جزء ممن تُطلق عليهم الآن مصطلح «يهود الشرق والعالم الإسلامي» أو «اليهود الشرقيون» .

الصابرا: جيل ما قبل عام ١٩٦٧

Sabra : Pre 1967 Generation

«صابرا» كلمة عبرية مُشتقَّة من الكلمة العربية «الصبار» أو «التين الشوكي» ، وقد تَردَّد المصطلح بمعناه الاجتماعي ، لأول مرة ، في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة حيث أطلق في مدرسة هرتزليا الثانوية في تل أبيب على التلاميذ اليهود من مواليد فلسطين والذين كانوا يُحسّون نقصاً حيال أقرانهم الأوربيين الأكثر تَفوُّقاً في الدراسة مما كان يجعلهم يلجأون إلى تعويض هذا الشعور بتَحدِّي هؤلاء الأوربيين بنوع من النشاط الخشن يرد لهم اعتبارهم . وقد تمثل ذلك النشاط في الإمساك بثمرات التين الشوكي وتقشيرها بالأيدي العارية ، وهي مهارة يدوية تأتي بالمران والممارسة وليس من خلال الدراسة الفكرية . وقد أصبحت كلمة «الصابرا» تُطلَق اسماً على كل يهودي يُولَد في فلسطين . ومن المصطلحات الأخرى المرتبطة بها كلمة «شوتسباه» اليديشية التي تشير إلى مجموعة من الصفات مثل الجرأة الزائدة ، التي قد تصل إلى حد الوقاحة ، والسذاجة المختلطة بالذكاء . وحسب الرؤية الإسرائيلية الشائعة ، فإن جيل الصابرا يتسم بالشوتسباه ، أي الجرأ الزائدة هذه . ومن صفات الصابرا أيضاً ما يُسمَّى «تسيفتسوف إيحاد جادول» ، وهي عبارة عبرية تعني «تصفيرة واحدة كبيرة» ، وتشير إلى مقدرة جيل الصابرا على أن يسخر من كل المشاكل ويقابلها بهذه التصفيرة . ويُشار إلى لغة الصابرا بأنها لغة «الدوغري» ، وهي كلمة عامية مصرية شائعة معناها «مباشر ولا يحب اللف أو الدوران» .

ومصطلح «الصابرا» ، والمصطلحات المرتبطة به ، تؤكد صفات مُحدَّدة في شخصية صاحبها ، أي أبناء المستوطنين الصهاينة الذين وُلدوا ونشأوا في فلسطين ، ومن أهمها معاداة الفكر والمقدرة على التعامل مع الواقع بشكل مباشر . وهذه الصورة موضوع أساسي كامن في الفكر الصهيوني الذي يَصدُر عن نقد ما يُسمَّى «شخصية يهود المنفى» ، باعتبارهم شخصيات مريضة ضعيفة هزيلة حزينة شاحبة متغلقة هامشية قلقة يغمرها الإحساس بالذنب ولا تسيطر بأية حال على مستقبلها أو مصيرها مما يُسمَّى في الأدبيات الصهيونية «العجز وانعدام السيادة وممارسة السلطة» . وكانت الصهيونية تطرح فكرة تطبيع الشخصية اليهودية ، أي جعل اليهود شخصيات طبيعية عن طريق الاستيطان في فلسطين وأداء أعمال يدوية ، وعدم الاعتماد على العمالة غير اليهودية ، باعتبار أن هذه العملية ستؤدي في نهاية الأمر (حسب التصور الصهيوني) إلى نفي الدياسبورا ، أي القضاء على الجماعات اليهودية في الخارج . وقد

طرح الصهاينة ما سمّوه «اليهودي الخالص» ، وهو اليهودي مائة بالمائة الذي يُجسِّد القيم الصهيونية الجديدة ، بديلاً ليهودي المنفى . وكان من المُتوقَّع أن يكون المُستوطن الصهيوني هو آخر يهود المنفى وأول اليهود الخُلَّص الذين لا تشوبهم شائبة من عالم الأغيار ، وهذا هو ما عبَّروا عنه في قولهم : "فلتكن آخر اليهود وأول العبرانيين" . وقد تنبأ الشاعر الصهيوني نحمان بياليك بتطبيع اليهود، وأنهم سيصلون إلى هذا المستوى حين تظهر أول بغيّ عبرية ، وأول لص عبري في فلسطين !

وأخذ المستوطنون يحاولون وَضْع هذه الرؤية موضع التنفيذ بحيث يصبح الإنسان العبراني الجديد نقيض يهود المنفى . وكما قال الشاعر الإسرائيلي تسفي جرينبرج في قصيدة له : "الأمهات اليهود أحضرن أطفالهن إلى الشمس ليحترق الدم الذي يجري في عروقهم ويزداد حمرة ، بعد أن بهت في الجيتو وعالم الأغيار !" . والإنسان الجديد هو الصابرا ؛ هذا الإنسان العبراني المعادي للفكر ، القوي البسيط المباشر الذي يرفضه يهود المنفى ولا يفهم هو سلوكهم أو خضوعهم . والصابرا يدين بالولاء لدولته القومية ولا يعاني من أي ازدواج في الولاء ، ويحب أن يسير مع الجماعة (وقد جاء في إحدى القصائد الإسرائيلية أن الصابرا ، حينما يحلم ، يحلم بضمير جمع المتكلمين) ولا ينفصل عنها (جاء في إحدى النكات الإسرائيلية أن عضواً في الكيبوتس قد تركه أصدقاؤه بمفرده ، ففكر في الانتحار ، وحاول ذلك بالفعل ، ولكنه فشل لأنه كان بمفرده) . والصابرا لا يؤمن بالدين ، فقد تمت علمنته بشكل كامل على النمط الأوربي ، كما أن هويته العبرانية هوية قومية مرتبطة بالأرض لا بالقيم الدينية . وهو ، علاوة على كل هذا ، شخصية منتجة - حسب التصوُّر الصهيوني - تتحكم في مصيرها . وينعكس كل هذا في الأبعاد العسكرية لشخصيته، ولذا نجد أن ذروة هذه الشخصية وأقصى تَحقُّق لها هو الكيبوتسنيك ، أي عضو الكيبوتس الذي لا ينتمي إلى أسرة مُحدَّدة ويعيش في مجتمع شبه زراعي شبه عسكري في بيئة مختلفة تماماً عن الجيتو .

وقد وصف عالم الاجتماع الفرنسي جورج فريدمان أفراد هذا النموذج الجديد بأنهم "أغيار يتحدثون العبرية" ، فهم يتسمون بكل سمات الأغيار ، ومنها معاداة اليهود ، ولا يختلفون عنهم إلا في اللغة . وقد أشار آرثر كوستلر إلى النموذج الجديد باعتباره "طرزاناً يهودياً" ، أي إنساناً طبيعياً مجرداً من التاريخ والقيم يعيش بقيم الغابة الغربية الداروينية ، ولم يبق له من اليهودية سوى الشكل ، أي أنه علماني تماماً . ويُشار إليه أحياناً بوصفه «سوبرمان يهودي» قياساً على سوبرمان أو بطل نيتشه الأرقى الذي يُمجِّده الفكر النازي والصهيوني . وبالفعل ، نجد أن الصابرا يُجسِّد مجموعة من القيم النيتشوية التي تُعلي من شأن القوة والفعل مقابل الضعف والفكر .

ولكن هذه الرؤية المختلة للذات ، والتي لا تستند إلى التاريخ، تحوي داخلها عدة تناقضات نوجزها فيما يلي :

١ - صورة يهود المَنْفَى صورة كاريكاتورية ساذجة للغاية لا تُعبِّر عن ثراء حياتهم أو عن إنجازاتهم الحقة أو عن تواريخهم المتنوعة ، وخصوصاً أن تواريخ اليهود التي يُشار إليها باعتبارها «التاريخ اليهودي» لم تأخذ مسارها في أرض فلسطين وإنما خارجها في المَنْفَى.

٢ - حينما يلجأ أبناء جيل الصابرا إلى رَفْض يهود المَنْفَى ، فإنهم يرفضون الماضي الوحيد الذي يمكن أن تستند هويتهم إليه ، إذ لا يمكن إدراك الهوية دون ماض . ويُقال إن من صور الصابرا الأساسية المتواترة في الأدب الإسرائيلي أنه جيل يتيم لا أب له ؛ طفل أزلي غير قادر على النضوج لأنه لا يتفاعل مع الماضي .

٣ - ومع أن جيل الصابرا يرفض اليهود واليهودية ، فإن مشروعه الصهيوني يهدف إلى إنشاء دولة يهودية لحماية اليهود ولتحقيق الهوية اليهودية والجوهر اليهودي . ومعنى ذلك أن شرعية وجوده في فلسطين، والأساس الأخلاقي لطَرْد سكانها ، يستندان إلى أساس يهودي افتراضي: رؤى دينية (أو إثنية) يهودية مثل الميثاق أو أرض الميعاد .

وقد تبدَّت هذه التناقضات في شكل تناقص إحساس الصابرا بيهوديتهم . فحين تم استطلاع رأي جيل الصابرا (بعد إنشاء الدولة)، وُجد أن لديهم إحساساً شديداً بهويتهم المُخلَّقة الجديدة تأخذ شكل اعتزاز شديد بالنفس واحتقار عميق ليهود العالم ، وخصوصاً أن الملايين التي كان من المفترض قدومها للاستيطان في الأرض المحتلة آثرت البقاء في أوطانها التي يُشار إليها بلفظ «المَنْفَى» . كما أفاد الاستطلاع أن الرؤية المباشرة المعادية للفكر عند الصابرا تبدَّت في صورة رَفْض للفكرة الصهيونية ذاتها ، وذلك باعتبار أن الصهيونية ليست تجربة وجودية حية وإنما مجرد نظرية تُعبِّر عن استجابة يهود المَنْفَى لعالم الأغيار وعن تطلعاتهم للخلاص منه وبرنامج لإصلاحهم وتطبيعهم ، الأمر الذي لا ينطبق على الصابرا الذين يعيشون واقعهم الجديد . أما معاداة اليهود ، إحدى ركائز الصهيونية ، فهي بالنسبة للصابرا محض ذكريات الآباء والأجداد، لا يشاركون هم فيها . بل إن الفرد من جيل الصابرا ، حينما ينظر إلى هذه الذكريات أو «الماضي اليهودي» ، لا يُبدي سوى الازدراء له لاقترانه بالضعف والسلبية ، فهو لا يقبل مثلاً سلوك الستة ملايين الذين يُزعَم أنهم أبيدوا بغير مقاومة على يد النازيين .

لكل هذا ، أصبح الصابرا ، من منظور القائمين على المجتمع

الصهيوني ، مرادفاً للتحلُّل العقائدي ولازدياد الشك والنزعة العلمية على حساب الالتزام العقيدي . ومن هنا ، بدأت عملية إعادة تثقيف، أخذت شكل التأكيد على الإبادة النازية لليهود ، وبالذات عناصر المقاومة اليهودية ، والتأكيد على ما يُسمَّى «المصير اليهودي المُشترك» الذي يربط اليهود بعضهم ببعض أينما كانوا . كما تم تقرير مادة تُسمَّى «الوعي اليهودي» في المدارس حتى لا يبتعد جيل الصابرا تماماً عن الجذور اليهودية التي رفضتها الصهيونية .

ولكن هذه المحاولة التخليقية ، التي ترمي إلى الحفاظ على صهيونية العبراني الجديد ، قابلت هي الأخرى عدة صعوبات من أهمها أن تطبيع المجتمع الإسرائيلي أدَّى إلى تبنِّي جيل الصابرا قيماً علمانية أمريكية برجماتية ترفض الماضي وأية عقيدة أو نظرية ، الأمر الذي عمَّق رفضهم الفكر النظري أو العقائدي ، وإلى انتشار ما يُسمَّى بعقلية «روش قطان» وهي عبارة عبرية تعني «الرأس الصغير» وتشير إلى الإنسان العلماني الاستهلاكي الذي يهتم بمصالحه الخاصة ولا يهتم بالأهداف القومية (ولذا، فإن معدته كبيرة ورأسه صغير) . كما أن أزمة الصهيونية ، داخل وخارج المستوطن الصهيوني ، تجعل بعث هذه العقيدة ، التي لم تَعُد تَصلُح دليلاً للعمل ، مهمة صعبة . ولكل هذا ، يزداد الانصراف عن الصهيونية كعقيدة . وقد انعكس هذا الاتجاه البرجماتي الاستهلاكي العملي في تزايد معدلات العلمنة الشاملة وتَقبُّل قيم المنفعة واللذة بين الإسرائيليين ، وزيادة أمركة المجتمع الإسرائيلي ، فأصبحت الدولة الاستهلاكية العظمى في الغرب (الولايات المتحدة) هي المثل الأعلى لا الدولة الصهيونية الصُغرى في فلسطين المحتلة . ومن هنا ، تَزايُد نزوح الأفراد من جيل الصابرا عن إسرائيل ، بل تم تَقبُّل قرار النزوح اجتماعياً بعد أن كانت تلك مسألة مرفوضة تماماً تشبه الخيانة القومية . وقد أدَّى هذا إلى ظهور ما يُسمَّى «الدياسبورا الإسرائيلية» حيث هناك مئات الألوف من المرتدين أو النازحين الإسرائيليين من جيل الصابرا أو غيرهم (ويُقال إنهم يبلغون ٧٠٠ ألف ، أي أكثر من سكان التجمُّع الصهيوني عند إعلان الدولة ، وحسب بعض الإحصاءات يبلغ عددهم مليونًا) . وعلى المستوى العملي ، يتضح هذا الاتجاه البرجماتي المعادي للصهيونية بكل جلاء في واقع أن كثيراً من الصابرا لا يعتبرون الولايات المتحدة جزءاً من المنفى بل وطناً قومياً ثانياً !

وإلى جانب هذا ، تُوجَد في الوقت الحاضر عناصر أخرى في تجربة جيل الصابرا تدفعه أيضاً بعيداً عن الصهيونية ، لا إلى الاستهلاكية والبرجماتية والتأمرك فقط وإنما إلى أحضان الماضي اليهودي الذي كان يهرب منهم وكانوا هم يرفضونه بحثاً عن الجذور (بالإنجليزية : روتس roots) ، وهذا ليس بعودة إلى الماضي ، وإنما عودة إثنية إلى الذات الإثنية القومية ! ومن أهم هذه العناصر ، تفاقم أزمة العلمانية الشاملة في التجمُّع الصهيوني وظهور أزمة هوية بصورة حادة . فالصابرا بدون تاريخ هو في نهاية الأمر بدون هوية . كما أن الصابرا ، هذا العلماني الشامل البرجماتي ، يجد نفسه في دولة كل ما فيها رموز دينية ، مثل نجمة داود والمينوراه ، وحتى الاسم «يسرائيل» معناه «المدافع عن الإله» . كما يجد نفسه مضطراً لأن يخوض حروباً باسم هذه القيم الدينية التي يُفترض فيه أنه لا يؤمن بها إلا باعتبارها فلكلوراً شعبيًا ! وقد آتت مادة «الوعي اليهودي» أكلها ، إذ بدأ بعض أعضاء جيل الصابرا يدركون عناصر هذا الماضي ويفهمونها في سياقها . ومن ثم بدأوا ينظرون إلى عالم المَنْفَى بشيء من الإعجاب وبكثير من الشك في شخصية الصابرا المجردة التي لا جذور لها ولا تراث . وقد كان يهودي المَنْفَى - حسب هذه الرؤية - ذا هوية حدودها واضحة مُتعيِّنة على الأقل ، وله لغته وثباته وتراثه . كما كانت الجماعة اليهودية تتسم بالتماسك الشديد والتضامن ، على عكس المجتمع الصهيوني الذي يفتقد الهوية الواضحة وتُفتِّته النزعات الحزبية ويفتقد الاجماع القومي في الوقت الحاضر . (فكَّر سكان الكيبوتسات بالفعل في ذلك الوقت في الطرق المختلفة للانتحار) .

كما بدأ موقف أبناء جيل الصابرا يتغيَّر من الإبادة النازية (قصة الفشل اليهودي الأكبر) إذ بدأوا يسألون : هل كان بوسع اليهود أن يفعلوا شيئاً أمام قوة النازي وسطوته؟ ويجرى الآن طرح السؤال التالي: لو وصل روميل إلى فلسطين ، هل كان بمقدور المستوطنين أن يفعلوا شيئاً سوى الاستسلام أو الانتحار ؟

ومما عقد الأمور أن أزمة الصهيونية رافقها نجاح يهود المَنْفَى (وبخاصة في الولايات المتحدة) من إنجازات اقتصادية وثقافية واندماج في مجتمعاتهم وحراك طبقي وثقة بالنفس ، وهو نجاح أدَّى إلى أن الدولة الصهيونية وجدت نفسها معتمدة في بقائها على هؤلاء الذين ترفضهم من الناحية العقائدية أو تطلب تصفيتهم .

لكل ما تقدَّم ، تزايد ارتباط بعض أعضاء جيل الصابرا في الآونة الأخيرة بيهود المَنْفَى ، فوجدوا أنفسهم يعودون إلى شبكة المصير اليهودي والتراث اليهودي . والعودة هنا ليست عودة إلى الصهيونية وإنما إلى شيء يتصوروونه أكثر عمقاً ، عودة إلى ما يتصورون أنه «التراث اليهودي» ، فظهر ما يُسمَّى الاتجاه «اليهودي» الجديد ، لا «الصهيوني» الجديد ، ومن هنا كان النظر بإعجاب إلى عالم المنفى وتراثه الثقافي واللغوي ، والواقع أن هذا الموقف يُناقض

الموقف الصهيوني الذي ينطلق من رفض هذا العالم وهذا التراث .
كما أنهم بدأوا يتحدثون اليديشية ، ويرفضون عبرنة أسمائهم ، ويطلقون لحاهم وأحياناً سوالفهم . لكن العودة إلى التراث والجذور والسلف رد فعل لتعاظم العلمنة بكل ما تؤدي إليه من اغتراب وتَبعثُر (وإن كان اغتراب المستوطن الصهيوني أعلى كثيراً من اغتراب الفلاح الهندي الذي ينتقل إلى المدينة مثلاً ، ومن هنا حدة استجابة الصابرا) . وحينما يتحدث الصابرا عن «التراث اليهودي» ، فهم يتحدثون ، عادةً ، عن تجربة يهود اليديشية في شرق أوربا (في الشتتل وفي منطقة الاستيطان) لا عن تجربة اليهود السفارد أو يهود العالم الإسلامي . وقد أخذ هذا الاتجاه نحو التراث يتمثل في تَبَنِّي القيم الدينية الأرثوذكسية كمصدر من مصادر الشرعية والهوية .
ومن أهم شخصيات جيل الصابرا الممثل يوري زوهار الذي عبَّر عن كل سمات جيل الصابرا بشكل متبلور فكان يرتدي الصندل ويسير دون أن يأبه بالقيم أو التراث . وبالتدريج ، أخذ زوهار في التحول ، فلبس قبعة اليرملك ثم أطلق سوالفه ولحيته حتى أصبح في هيئة الحسيديين في الشتتل . ومن الصابرا من ينضم إلى الجماعات اليهودية الأرثوذكسية التي ترفض الدولة ، وترى أن حالة المَنْفَى نهائية لا تصل إلى نهايتها إلا حين يأذن الإله وذلك حتى لا يرتكب جريمة «دحيكات هاكتس» ، أي «التعجيل بالنهاية» ، أي أن الصابرا الذي كان يرفض يهود المَنْفَى ويهرب منهم ينتهي به الأمر في الآونة الأخيرة إلى معانقتهم والهرب إليهم !

ومن المهم جداً أن نشير إلى أن الدراسات السكانية الإسرائيلية ، في تصنيفاتها لسكان التجمُّع الإسرائيلي ، تعترف بالفروق العرْقية والإثنية بين اليهود المولودين في فلسطين والمهاجرين إليها . إلا أنها ، مع هذا ، تحاول إنكار وجود مثل تلك الفروق بين الأبناء المولودين في فلسطين ، وذلك بوضعهم جميعاً تحت اسم «الصابرا» . ويتسق ذلك مع حديث علماء الاجتماع وعلم النفس الإسرائيلي عن الصابرا باعتبارها كتلة واحدة متسقة لها خصائصها النفسية والاجتماعية المُوحَّدة . ومثل ذلك الموقف يعني تجاهُلاً تاماً لحقيقة أن أساليب التنشئة الاجتماعية (طرق التربية) التي يمارسها المهاجرون تتباين تبعاً لأصولهم الحضارية . وبالتالي ، فإن تكوينات هؤلاء الأطفال النفسية لابد أن تتباين ، ولفترة طويلة تبعاً لتباين أساليب التنشئة الاجتماعية التي اتُبعت معهم . ومن هنا ، فإن تعبير «الصابرا» يخدم في نهاية الأمر هدفاً سياسياً صهيونياً هو الإيهام بأن الصهر الاجتماعي لمختلف أصول اليهود الحضارية قد تَحقَّق في إسرائيل وتَمثَّل في جيل جديد هو جيل الصابرا الذي تتلاشى فيه مثل هذه الفروق الحضارية . وعلى أية حال ، فإن استقراء الكتابات الإسرائيلية في هذا الصدد بشكل دقيق يكشف عن أن الحديث عن الصابرا ينْصَبُّ عملياً على أولئك المنتمين إلى أصول إشكنازية فحسب . وكما قال الكاتب الإسرائيلي شيمون بلاس (من أصل عراقي) ، فإن كلمة «صابرا» لا تشير من قريب أو بعيد إلى يهود الشرق . ويوافقه في هذا ميلفورد إسبيرو حيث يرى في دراساته أن أهم ما يميِّز الصابرا من أبناء الكيبوتسات هو كراهية الغرباء عامة ، والمهاجرين من العالم الإسلامي على وجه الخصوص ، إذ ينظرون إليهم كمواطنين من الدرجة الثانية ، ويُطلقون عليهم لفظ «شحوريم» أي «السود» . كما أن هناك عدداً من الدراسات الأخرى تؤكد على أن أخطر ما يزعج الصابرا هو ارتفاع معدل تكاثر اليهود الشرقيين ، وهم يرون في ذلك أمراً يمكن أن يدفع بإسرائيل إلى أن تصبح شعباً متخلفاً أسود البشرة .

وتزداد أهمية الصابرا (بمعنى المولودين داخل إسرائيل) في استمرار تزايد نسبتهم إلى إجمالي السكان ، فبينما لم تتجاوز نسبة الصابرا إلى إجمالي السكان ٣٤٪ عام ١٩٦٢ ، وصلت هذه النسبة عام ١٩٦٤ إلى ٣٩,٤٪ . وقد استمرت هذه الزيادة في التصاعد بسبب انخفاض معدلات الهجرة الشرقية والغربية على السواء ، وهو ما جعل التركيب السكاني عام ١٩٨٩ مختلفاً تمام الاختلاف حتى أن نسبة المولودين داخل إسرائيل تصل إلى ٦٤٪ من إجمالي سكان إسرائيل اليهود ، أي أن الصابرا قد وصلت إلى حد التكافؤ مع العناصر المهاجرة الشرقية والغربية مجتمعة (وإن كانت هجرة اليهود من روسيا وأوكرانيا غيَّرت الصورة قليلاً فقد وصلت النسبة إلى ٦٠٪ عام ١٩٩١) ، مع العلم بأن مصطلح «المولودون داخل إسرائيل» أصبح يشير إلى المواليد من أصل غربي أو شرقي ولا يميِّز بينهما .

وقد نتج عن ازدياد إسهام الصابرا في التكوين السكاني ، عاماً بعد عام ، أمران في غاية الأهمية ، أولهما : ظهور ما يُطلَق عليه «الوطنية الإسرائيلية» مقابل «القومية اليهودية» ، بمعنى أن معظم سكان إسرائيل لا يعرفون الآن وطناً آخر لهم ، ومن ثم ، فهم لا يشعرون إطلاقاً بأي إحساس بالذنب إزاء ما وقع للفلسطينيين من اغتصاب أرضهم وطردهم منها . والأمر الثاني : ارتفاع نسبة من هم في سن الإنتاج والقتال بالنسبة إلى إجمالي السكان ، وهو ما يترتب عليه استمرار بل تَصاعُد روح المخاطرة والتطلع إلى التوسع والسيطرة على المنطقة . وعلى أية حال ، فإن ارتفاع نسبة العلمنة والاستهلاكية قد حيَّد هذا العنصر إلى حدٍّ ما . ومع هذا لابد أن نأخذ في الاعتبار التركيب النفسي لجيل الشباب (كما يُبيِّن مدخل «جيل ما بعد ١٩٦٧ [أو أزمة الخدمة العسكرية]») .

حركـــــــــة الكنعانيـــــــين

Canaanite Movement; Semitic Action

«حركة الكنعانيين» حركة سياسية ثقافية ذات نظرة خاصة لما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» . بدأت نشاطها في الأربعينيات في فلسطين . وينطلق دعاتها من أسطورة مفادها أن اليهود عندما عادوا من مصر إلى أرض كنعان لم يجدوا قبائل معادية لهم أو مختلفة عنهم من الناحية العرْقية ، وإنما وجدوا شعباً يتكلم العبرية ويُشبههم في الملامح والخصائص البدنية ، ولذلك فإن اليهود أو العبرانيين ليسوا إلا كنعانيين وما الإسرائيليون المحدثون سوى «الكنعانيين الجدد» ، وبهذا تكون للأمة الإسرائيلية الجديدة جذور راسخة في الأرض الفلسطينية ، وهي جذور تمتد إلى العبرانيين القدامى قبل أن تنتشر بينهم اليهودية ، وهم بهذا يؤكدون وحدة الشعب الإسرائيلي وتربة فلسطين ، أو كما يقول يتسوري (الذي اشترك في اغتيال اللورد موين في القاهرة عام ١٩٣٤) : «نحن لسنا صهاينة ، نحن الأبناء الطبيعيون لتربة إسرائيل» .

وعن طريق تأكيد هذه الوحدة ، يُسقط الكنعانيون من حسابهم تراث يهود الدياسبورا (أعضاء الجماعات اليهودية في العالم) بل والتراث اليهودي كله ، فيهود الدياسبورا ـ حسب تَصوُّرهم ـ ليست لهم أية سمات قومية متميِّزة ، فلغتهم وأنماطهم الثقافية وجنسيتهم أو مواطنتهم ، تنتمي جميعاً إلى البلدان التي يعيشون فيها ، فهم من البولنديين أو الإنجليز أو الأمريكيين ، ولهذا السبب فإن لهم أثراً ضاراً على الإسرائيليين لأنهم يعوقون تَطوُّر الأمة العبرانية الجديدة . وهذه الأمة الجديدة تتكون من كل المولودين في إسرائيل ، حتى ولو كانوا مسلمين أو مسيحيين، شريطة أن يَتقبَّلوا الهوية الكنعانية الجديدة .

ويمكن القول بأن فكر حركة الكنعانيين هو تعبير عن وجهة نظر إسرائيلية تختلف عن وجهة النظر الصهيونية ، فهو تعبير متطرف عن إحساس جيل الصابرا باختلافهم عن يهود العالم وانفصالهم النفسي والثقافي والعرْقي عنهم . ولعل أهم نقط الاختلاف بين وجهتي النظر تتلخص في محاولة الكنعانيين التملص من التصور الصهيوني لما يُسمَّى «الشعب اليهودي» و«القومية اليهودية» ذات الأبعاد الدينية القومية ، فالكنعانيون يحاولون إضفاء شيء من السواء على الظاهرة الإسرائيلية عن طريق إلغاء الجانب الديني من المقدَّسات القومية الإسرائيلية والإبقاء على الجانب القومي وحده ، آملين أن يتحوَّل النمط الإسرائيلي عن طريق ذلك إلى نمط قومي عادي يشبه بقية الأنماط القومية المعروفة ، أي أن فكرة الشعب المختار صاحب الحقوق المطلقة وموضع الحلول الإلهي والذي يضم اليهود أينما كانوا تحل محلها فكرة الشعب الإسرائيلي الموجود في الشرق الأوسط في فلسطين والذي له حقوق قومية عادية . وإذا كان المفكر الصهيوني يتباهى عادةً بأن الشعب اليهودي لا يُصنَّف ، فإن الكنعانيين يؤكدون أنهم أمة مثل كل الأمم . ويؤمن الكنعانيون بأن أمامهم بديلين لا ثالث لهما : إما أن يكونوا آخر اليهود أو أن يكونوا بداية لأمة جديدة (على حد قول بيرديشفسكي) وهم يفضلون البديل الثاني . ولذلك فالكنعاني يؤمن بأن الدولة الجديدة هي نهاية المنفى والجيتو بل ونهاية اليهودية ذاتها ، وأن أية سمات «يهودية» للدولة الجديدة هي سمات متخلفة ورواسب من الماضي الميت ، وأن على الإسرائيليين أن يخلقوا حضارة جديدة مستقلة تماماً عن التراث اليهودي ومرتبطة بحضارة الشرق الأدنى القديم (ولذلك كانوا يطالبون بعبادة عشتروت زوجة الإله بعل الكنعاني) . وفكر الحركة الكنعانية متأثر ببيرديشفسكي وأفكاره الكونية وبالنزعات النيتشوية الفلسفية ، وزعيم الحركة هو الكاتب يوناثان رطوش (اسمه الحقيقي : أوبل هالبرين شيلا) ، ومن بين أعضائها الكاتب آهارون أمير وبنيامين تموز . ورغم أن هذه الحركة لا تؤثر بأي شكل في الحياة السياسية في إسرائيل ، فإن لها بعض الأثر في الحياة الثقافية . كما أنها تُعبِّر عن مدى الأزمة التي يعيشها الوجدان الإسرائيلي وعن محاولة الإسرائيلي أن يتعامل بشكل ما مع الواقع الغريب الذي يحيط به . وقد انحلت حركة الكنعانيين ، وحلت محلها حركة العمل السامي (نسبة إلى الجنس السامي) ، والتي اختفت بدورها وحلت محلها جماعة «هاعولام هازه/ قوة حاداش» (هذا العالم/ القوة الجديدة) .

ويبدو أن الكنعانيين لم يختفوا تماماً ، إذ أنهم عاودوا الظهور عام ١٩٦٩ وطالبوا بتجنيد العرب في الجيش الإسرائيلي ، وتعليمهم اللغة العبرية باعتبارهم عبرانيين ، وتحقيق المساواة بينهم وبين العبرانيين ، وإلغاء كل المزايا التي يتمتع بها المواطنون اليهود لكونهم يهوداً . كما نادوا بضرورة إنشاء جيش قوي والاحتفاظ بالأراضي المحتلة ، وتصعيد الهجرة اليهودية ، وزيادة نسبة المواليد، وإنشاء علاقات قوية مع الأقليات الأخرى في المنطقة مثل الأكراد والدروز . وطالبوا أيضاً بإنشاء فيدرالية تضم إسرائيل وجبل الدروز والموارنة في لبنان .

ورغم اختلاف الكنعانيين مع الصهاينة في محتوى تفكيرهم ، فإن ثمة تشابهاً طريفاً بينهم من الناحية البنيوية . فكلا الفريقين يلغيان المنظور التاريخي ويُسطِّحان التاريخ ويختزلانه ويحولانه إلى أسطورة تخدم أهواء الحركة وبرنامجها السياسي وتُسهِّل لها التعامل مع الواقع دون مجابهته ، كما أن كلاً من الفريقين يقابل الوجود الفلسطيني مسلحاً بأسطورته الاختزالية المُسبَقة .

٢
الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية

الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية ـ اليهود المُتخفّون ـ أنوسيم ـ البرتغاليون ـ يهود المارانوا : تاريخ وعقيدة ـ جديد الإسلام ـ تشويتاس ـ الرومانيوت ـ يهود الهند ـ بني إسرائيل ـ يهود كوشين ـ يهود مانيبور ـ يهود البغدادية ـ يهود القوقاز ـ يهود جورجيا ـ يهود بخاري ـ يهود الجبال (يهود التات؛ يهود داغستان) ـ يهود الخَزَر ـ الكرمشاكي (تاريخ يهود شبه جزيرة القرم) ـ اليهود الأكراد ـ يهود الصين (يهود كايفنج) ـ اليهود الزنوج ـ العبرانيون السود ـ اليهود السود ـ الفلاشاه : تاريخ وهوية ـ تهجير الفلاشاه ـ الفلاشاه مورا

الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية

Extinct and Marginal Jewish Communities

«الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية» هي تلك الجماعات اليهودية التي لا تنتمي إلى أيٍّ من الجماعات الأساسية الثلاث :

١ ـ الإشكناز .

٢ ـ السفارد .

٣ ـ يهود العالم الإسلامي .

ويُلاحَظ أن الجماعات الثلاث الأساسية تُشكِّل ، من ناحية الكم ، ما يزيد على ٩٨٪ ، ويمتد وجودها إلى عدة قرون ويستمر حتى الوقت الحاضر . وتدور الجماعات الثلاث في إطار اليهودية الحاخامية . كما أنها تنتمي إما إلى العالم الغربي أو العالم الإسلامي. أما الجماعات المنقرضة والهامشية ، فهي جماعات كبيرة أو صغيرة اندثرت تماماً أو على وشك الاندثار (الخَزَر ـ المارانو ـ السامريين ـ الكرمشاكي ـ يهود الصين) ، أو جماعات صغيرة للغاية (العبرانيون السود ـ يهود كوشين) . كما نُلاحظ أن معظم هذه الجماعات الهامشية قد انفصل عن تيار الجماعات اليهودية الأساسي وأحياناً عن اليهودية الحاخامية (الدونمه ـ يهود مانيبور ـ يهود الصين ـ الفلاشاه ـ القرّائين) . ويُلاحَظ أن الجماعات الهامشية هذه ، نظراً لانفصالها عن المراكز الدينية والثقافية اليهودية الكبرى ، قد استوعبت عناصر إثنية ودينية من محيطها الحضاري بشكل ملحوظ وانفصلت عن أية معيارية يهودية . وتكمُن أهمية دراسة الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية في أنها تتحدى النظام التصنيفي الصهيوني والمعادي لليهود ، الذي يُصنِّف كل أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم «يهود والسلام» بطريقة اختزالية تبسيطية . كما يمكن القول بأن هذه الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية تشكل لحظة تَبلور النموذج (اليهود كجماعات غير متجانسة واليهودية كتركيب جيولوجي لا ككل عضوي أو شبه عضوي متماسك) ، ومن ثم فهي تلقي عليه الضوء وتبين طبيعته رغم أنها تشكل لحظة متطرفة من عدم التجانس والبُعد عن أية معيارية .

اليهود المتخفون

Crypto-Jews

«اليهود المُتخفّون» هم اليهود الذين يتظاهرون باعتناق دين آخر غير اليهودية ، بسبب الظروف المختلفة ، ويظلون على دينهم في الواقع . ومن أهم فرق اليهود المتخفين «المارانو» ، ويُشار إليهم أيضاً باسم «المسيحيين الجدد» و«الكونفرسوس» و«البرتغاليين» في شبه جزيرة أيبريا ، كما يُشار إليهم باسم «الدونمه» في تركيا ، وباسم «جديد الإسلام» في إيران ، وباسم «التشويتاس» في جزيرة مايوركا .

وقد لاحظ أحد المستشرقين أن ظاهرة اليهود المتخفين لم تظهر أساساً إلا داخل التشكيل الحضاري الإسلامي في إسبانيا التي كان سكانها من اليهود على علاقة وثيقة بهذا التشكيل ، وحاول أن يُفسِّر ذلك في إطار مفهوم الاستشهاد في الإسلام حيث لا يكون ذلك إلا أثناء الجهاد والمعركة (أما فيما عدا ذلك ، فإن المسلم يتعيَّن عليه أن يحمي نفسه بالتَقية) ، ومن هنا ظهرت فكرة التخفي . ويقف هذا على الطرف النقيض من الحضارة المسيحية حيث تُعَدُّ واقعة الصلب في منظورها واقعة أساسية ، وهي حضارة تشجع على الاستشهاد وتجعل منه قيمة في ذاته . ولذا ، نجد أن اليهود الإشكناز كانوا يقومون بما يُسمَّى «تقديس الاسم» (بالعبرية : قيدوش هاشم) أي تأكيد وحدانية الإله ، والاستشهاد بدلاً من الارتداد حتى ولو ظاهرياً .

ويُلاحظ المؤرِّخون أن المارانية هي شكل من أشكال الموسوية ،

أي الإيمان بالعهد القديم دون حاجة إلى حاخامات ، كما أنها عبادة تُركِّز على الجوهر وحسب ، وتتجاوز كل الشعائر والتحريمات ، ومن هنا التقاؤها باليهودية الإصلاحية .

ويجب التمييز بين يهود المارانو ويهود الدونمه ، من حيث أن المارانو اضطروا إلى أن يكونوا يهوداً متخفين، أما الدونمه فقد اعتنقوا الإسلام باختيارهم للتمويه على المسلمين واليهود على حدٍّ سواء .

وتقرن الدراسات بين المسيحيين الجدد والمارانو وتوحد بينهما ، وإذا كان المارانو هو الذي يُظهر غير ما يُبطن ، أي اليهودي المتخفي ، فإن كثيراً من المسيحيين الجدد كانوا مسيحيين بصدق . وقد تهوَّد بعضهم أو اضطروا إلى التهوُّد فيما بعد ، ومن ثم يكون من الخطأ أن نستخدم المصطلحين كما لو كانا مترادفين . ومع هذا نظراً لشيوع هذا الترادف ، فإننا نستخدم كلمة «المارانو» للإشارة إلى كلٍّ من «المارانو» و«المسيحيين الجدد» .

أنوسيم

Anusim

«أنوسيم» كلمة عبرية تعني «المُكرَهون» ، أو «المغلوبون على أمرهم» ، وهو اسم آخر ليهود المارانو واليهود المتخفين .

البرتغاليــــون

The Portuguese

«البرتغاليون» مصطلح يُستخدَم للإشارة إلى اليهود المتخفين من المارانو الذين خرجوا من شبه جزيرة أيبريا (إسبانيا والبرتغال) . ومن المُرادفات الأخرى «كونفرسوس» أي «المهتدون» ، و«المسيحيون الجدد» ، وبالعبرية «أنوسيم» أي «المُكرَهون» بل و«السفارد» . ولعل تسمية «البرتغاليون» تعود إلى أن أغلبية المارانو جاءت من البرتغال . كما أن مصطلح «برتغالي» كان أكثر تهذيباً من مصطلح «مارانو» ، وكذلك أكثر إبهاماً من مصطلح «المسيحيون الجدد» . وبالتالي ، كانت الدول (مثل إنجلترا) تسمح لليهود بالاستقرار فيها باعتبارهم «برتغاليين» (اسماً) وهي تعلم جيداً أنهم «مارانو» (فعلاً) . وكان هؤلاء يمارسون شعائرهم الدينية إما سراً وإما علناً . وكانت المؤسسة الحاكمة تغض النظر عن كل هذا . وقد لجأت بعض المؤسسات الحاكمة إلى هذا الحل لحاجتها الشديدة إلى اليهود بسبب نفعهم ولأنهم مادة استيطانية مهمة ، حيث لم يكن بوسعها استصدار التشريعات اللازمة لذلك بسبب المعارضة الشعبية وبسبب الهيكل القانوني ذاته الذي كان يستند إلى شرعية دينية . ومع نهاية القرن السابع عشر ، بدأت كثير من الدول تعترف بالبرتغاليين كيهود .

يهــود المارانـــو: تاريـــخ وعقــيدة

The Marranos History and Doctrine

كلمة «مارانو» أطلقت على أولئك اليهود المتخفين ، في إسبانيا والبرتغال ، الذين تراجعوا ظاهرياً عن اليهودية وادعوا اعتناق الكاثوليكية حتى يتمكنوا من البقاء في شبه جزيرة أيبريا مع تَراجُع الحكم الإسلامي وبعد طَرْد يهود البرتغال عام ١٤٨٠ وطَرْد يهود إسبانيا عام ١٤٩٢ . وقد أطلق عليهم أيضاً تعبير «كونفرسوس» ، أي «الذين اهتدوا إلى دين جديد» ، و«كريستاوس نوفوس» ، أو «المسيحيون الجدد» . وكلمة «مارانو» التي أحرزت شيوعاً في القرن السادس عشر ليست معروفة الأصل على وجه التحديد . وفيما يلي بعض الكلمات والعبارات التي قد تكون أصلاً للكلمة :

١ ـ «مارانو» كلمة باللهجة الإسبانية القديمة معناها «خنزير» .

٢ ـ «ماترانثا» كلمة إسبانية معناها «الملعون» .

٣ ـ «المُرائي» كلمة عربية معناها «منافق» .

٤ ـ «مارئيت عيين» عبارة عبرية معناها «ظاهر للعين» ، فهو يُظهر المسيحية ويبطن اليهودية .

٥ ـ «محورّام أتاه» كلمة عبرية معناها «أنت مطرود من حظيرة الدين» .

٦ ـ «مَارَن أث» عبارة آرامية معناها «أنت مولانا» ، والخطاب فيها موجَّه إلى المسيح . وكان محتوماً على اليهودي أن ينطق بها كثيراً لإبعاد الشبهة عن نفسه .

والأصل الإسباني للكلمة هو الأكثر رجوحاً .

ولم يكن المصطلح ذائعاً في الأوساط الرسمية ، ولم يرد في أي من الوثائق الرسمية الخاصة بمحاكم التفتيش . والمقابل العبري هو «أنوسيم» ، أي «المُكرَهون» أو الذين «قُسروا» على التنصر . ويُشار أحياناً إلى المارانو بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبريا واستيطانهم مختلف دول أوربا ، خصوصاً هولندا ، باسم «البرتغاليون» ، باعتبار أن أغلبيتهم جاءت من هناك ، كما يشار إليهم كذلك بكلمة «السفارد» باعتبار أنهم جميعاً من السفارد ، أي من شبه جزيرة أيبريا . ورغم أن الدراسات تُوحِّد بين المسيحيين الجدد ويهود المارانو وتقرن بينهما ، فإننا ، كما سنبين فيما بعد ، نرى أن هذا الترادف خاطئ . ولكننا ، مع هذا ، نضطر إلى استخدامه بسبب شيوعه وبسبب إبهام هوية المارانو كما سنبين لاحقاً .

وقد كانت هناك حالات متفرقة من التَنصُّر القسري في العالمين الإسلامي والمسيحي . وقد وقعت مثل هذه الحالات في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي ، وفي أوربا المسيحية مع حروب الفرنجة وغيرها . لكن مثل هذا التنصر ظل الاستثناء لا القاعدة ، لأن الكنيسة كانت تقف ضده ، نظراً لأن مثل هذه العملية تُفقد فكرة الشعب الشاهد مضمونها . فهذه الفكرة ، التي كانت تَحكُم علاقة الكنيسة بأعضاء الجماعات اليهودية ، تذهب إلى أن اليهود في ذُلِّهم وضعفهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة وانتصارها ، وسيكون تَنصرُّهم في نهاية الأمر أكبر قرينة على هذه العظمة . ومن ثم ، يكون التَنصُّر اليهودي طوعاً علامة على هذه العظمة . أما التنصُّر القسري فلا يضيف إلى أمجاد الكنيسة ، ولذلك كانت الكنيسة تسمح لليهود الذين نُصِّروا عنوة بالعودة إلى دينهم الأصلي .

ولكن الأمر يختلف بالنسبة للمارانو الذين يبدأ تاريخهم عام ١٣٩١ حين نشبت اضطرابات ضد يهود إسبانيا وقامت مظاهرات عرضت عليهم إما «الموت أو الصلب» . وقد أدَّت هذه الاضطرابات إلى تَنصُّر أعداد كبيرة من اليهود بشكل قسري . ولكن تبع هذا موجة تَنصُّر طوعي ، بسبب انكسار أعضاء الجماعات اليهودية وهبوط الروح المعنوية . فضلاً عن أن يهود إسبانيا كانوا مُستوعَبين في الثقافة العقلانية الرشدية (نسبة إلى ابن رشد) التي قوضت إيمانهم الديني . كما أن كثيراً من أعضاء النخب الثقافية والمالية اليهودية كانت لهم مصالح مالية متشابكة مع مجتمع الأغلبية (المسيحي) . ثم قامت حركة تنصير أخرى عام ١٤١١ - ١٤١٢ . ويمكن القول بأن تَنصُّر الغالبية العظمى كان حقيقياً ، ولكن ظلت هناك أعداد ممن مارسوا الطقوس اليهودية بشكل خفي . وقد عاش اليهود المتنصرون ومدَّعو التَنصُّر جنباً إلى جنب مع أعضاء الجماعة اليهودية ، بينما حاولت الدولة الإسبانية قَدْر استطاعتها أن تفصل بين الفريقين . وقد احتفظ كثير من المتنصرين بمهاراتهم الحرَفيَّة والإدارية واتصالاتهم التجارية كأعضاء في الجماعة الوظيفية اليهودية ، وقد حققوا بسبب ذلك حراكاً اجتماعياً غير عادي ، ولَّد الأحقاد ضدهم من قبَل بعض عناصر الأرستقراطية القديمة .

وبعد سقوط غرناطة (واستعادة كل شبه جزيرة أيبريا) واجهت الدولة الجديدة مشكلة سكانية ، وهي أن معظم سكان شبه الجزيرة كانوا إما مسلمين أو يهوداً أو من أصول مسلمة أو يهودية ، ولم تكن توجد سوى أقلية مسيحية ، ومن هنا لم يكن مفر من طرد العناصر غير المسيحية ، لخَلْق التوازن السكاني لصالح المسيحيين ، الأمر الذي يتطلبه أمن الدولة .

لهذا كان لابد من طرد المسلمين واليهود ، فعُرِض عليهم إما التنصر أو مغادرة البلاد . وقد تَنصَّرت أعداد كبيرة من اليهود انضمت إلى الأعداد التي تَنصَّرت قبل ذلك . لكن العناصر الدينية الصلبة قررت اللجوء إلى البرتغال التي قدَّمت لهم حق اللجوء المؤقت ، نظير ضريبة يدفعونها . ولكن حينما اعتلى مانويل الأول العرش عام ١٤٩٥ تغيَّرت السياسة تجاه اليهود . فمانويل كان يطمح إلى تحويل البرتغال إلى قوة تجارية عالمية ، ووجد أن السبيل إلى ذلك هو أن يحكم ابنه مملكة موحَّدة في كل شبه جزيرة أيبريا ، ولذا حاول أن يزوج ابنه من إبنة فرديناند وإيزابيلا ، فوافق الملكان شريطة أن يقوم بطرد اليهود من البرتغال . وقد سبَّب هذا حيرة حقيقية لمانويل ، فهو من ناحية كان حريصاً على إتمام هذا الزواج ، ولكنه في الوقت نفسه كان يهمه الحفاظ على أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية ليستفيد من خبراتهم التجارية في بناء إمبراطوريته التجارية . وقد حلّ مانويل هذه المشكلة بأن احتفظ باليهود وفرض عليهم التنصُّر القسري ، ولكنه منحهم في الوقت ذاته حريتهم الدينية والحصانة ضد محاكم التفتيش لمدة عشرة أعوام . وقد اندمج المتنصِّرون في مجتمع الأغلبية ، ولكن ، كما هو الحال في إسبانيا من قبل ، ظلت هناك عناصر تمارس الطقوس اليهودية سراً .

ويُلاحَظ أن اليهود المتنصرين في البرتغال كانوا يشكلون كتلة بشرية كبيرة (كانت تصل ، حسب بعض التقديرات ، إلى ١٠٪ من إجمالي عدد السكان) . وكان اليهود الذين فُرضت عليهم اليهودية في البرتغال من العناصر الصلبة ، كما أسلفنا ، ولذا احتفظوا بتماسكهم حتى أنهم كانوا يُسمَّون أحياناً «اليهود» بشكل علني أو «الأمة» أو «رجال الأعمال» (بالبرتغالية : أوميتز دي نيجوسيوس homens de negocios) ، كما كانت لهم اتصالاتهم التجارية والمالية المهمة . وقد أدَّى هذا إلى بروزهم في التجارة الدولية حتى أصبحت كلمة «برتغالي» مرادفة لكلمة «يهودي» في أنحاء أوربا . وقد كوَّنوا جماعة ضغط قوية داخل البرتغال نفسها وكان لهم سفير خاص في روما ، نجح في تقديم الرشاوى التي أخَّرت إنشاء محاكم التفتيش في البرتغال .

وتُشكل كل هذه العناصر مكونات مشكلة المارانو : عناصر يهودية تَنصَّرت قسراً وادعت المسيحية ، وعناصر أخرى تَنصَّرت طوعاً وآمنت بالمسيحية فعلاً ، وكلها عناصر ذات خطاب حضاري واحد (أيبيري كاثوليكي) ، يوحِّد بينها ، رغم اختلاف العقائد أو الادعاءات الدينية .

وقد تأخر إنشاء محاكم التفتيش في البرتغال بعض الوقت

ولكنها بدأت نشاطها بشكل رسمي عام ١٥٣٦ ، ثم مارست نشاطها بشكل فعال في منتصف القرن السادس عشر ، وبدأت في تَعقُّب اليهود المتخفين الذي تخفوا ما يزيد عن قرن ونصف القرن (١٣٩١ ــ ١٥٥٠) أي الذين كانوا قد دُمجوا حضارياً تماماً إن لم يكن دينياً أيضاً. ومما زاد الأمور تعقيداً صدور القرار الخاص بنقاء الدم (بالإسبانية : لاميثا دي سانجري limpieza de sangre) عام ١٥٦٦ الذي جعل من الأصول العرْقية (لا الإيمان الديني) معياراً للتمييز . وبعد أن كان التنقيب يتم عمن يمارسون الطقوس اليهودية خفية ، أصبح التنقيب عن ذوي الأصول غير النقية ، ومن ثم أصبح مصطلح «المارانو» لا يشير إلى اليهود المتخفين وحسب وإنما إلى ذوي الأصول اليهودية حتى ولو كانوا من المسيحيين الأتقياء (ولذا يميِّز البعض بين «المارانو المسيحيين» و«المارانو اليهود») .

وقد مارس المارانو (اليهود) جميع الشعائر التي تقتضيها الديانة المسيحية في العلن . ولكن بعضهم ظل ، في الوقت ذاته ، يمارس شعائر الديانة اليهودية سراً . فكان اليهودي المارانو يُعمِّد أطفاله ويذهب إلى الكنيسة يوم الأحد ويذهب للاعتراف دون أن يدلي بأية اعترافات حقيقية ، ويتناول القربان في الكنيسة ثم يبصقه خارجها . وقد تأثرت عقيدتهم اليهودية بطول التخفي ، فاختفت شعائر يهودية ، مثل : الختان ، والذبح الشرعي ، واستخدام شال الصلاة، وكثير من الأعياد . واكتسبت الشعائر ملامح جديدة ابتعدت بهم تماماً عن دينهم الأصلي . وكان أساس عقيدة المارانو هو الإيمان بأن الخلاص يتم من خلال شريعة موسى لا من خلال الكنيسة أو المسيح ، وكانوا يؤمنون بأن تنصيرهم القسري هو جزء من العقاب الإلهي الذي حاق باليهود ، تماماً مثل النفي (في حالة اليهودية الحاخامية) . وقد تبوأت إستير مكانة خاصة في فكرهم الديني ، فكان يُنظَر إليها باعتبارها صورة مُسبَقة لما يحدث لهم . فإستير ، هي الأخرى ، اضطرت إلى إخفاء هويتها الدينية مدة من الزمن حتى تحرز مكانة متميِّزة داخل البلاط الفارسي . وقد تمكنت خلال ذلك من إنقاذ شعبها من المذبحة التي كان يدبرها هامان لهم . وقد أنكر المارانو أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيَّح ، وأصبح هذا الإنكار ركناً أساسياً في عقيدتهم ، وهو ما زاد من أهمية العقيدة المشيحانية وانتظار مجيء الماشيَّح ، ولعلها أصبحت المبدأ الوحيد . وكان المارانو يحتفلون بشعائر السبت يوم الأحد ، وإن كان الاحتفال يأخذ شكلاً يسمح بالتخفي مثل : تنظيف المنزل ، وتغيير الملاءات والملابس ، والاستحمام ، وإعداد وجبة تُسمَّى «أدافينا» (وكانت تُعَدُّ قبل يوم السبت) . كما كانوا يحتفلون بأعياد اليهود المهمة الأخرى (مثل عيد الفصح وعيد الغفران) بعد العيد بعدة أيام حتى لا تتعقبهم محاكم التفتيش . وكان الصوم من أهم الشعائر التي يمارسونها لسهولة إخفائه ، كما أن صوم إستير كان أهم أعيادهم ، حيث كانوا يتلون مزامير داود أو قصائد من نظمهم باللغة الشائعة بينهم . وكانت هذه الصلوات تؤكد وحدانية الخالق (مقابل التثليث المسيحي) ، بل وكان لديهم طقس يهدف إلى محو أثر التعميد المسيحي .

وقد بهت انتماء يهود المارانو بالتدريج بعد أن ترك التخفي لمدة طويلة أثره العميق . فعلى سبيل المثال ، أصبحت عبادة الخالق في الخفاء جزءاً عضوياً من عقيدتهم ، وأصبح الإعلان عن عقيدة الإنسان أمراً لا يليق (ومن هنا ، استمر عدد كبير من يهود المارانو في التخفي حتى بعد أن أصبح من حق اليهود ممارسة شعائر دينهم علناً في إسبانيا والبرتغال) . وقد تأثر المارانو بالطقوس الكاثوليكية ، فهم يشيرون إلى «سانت إستير» ، كما تأثروا بتقاليد التصوف الكاثوليكية فكانوا يصومون من أجل الأحياء والموتى (وهو تقليد كاثوليكي) . وأصبحت لهم عبادات وأدعية خاصة بهم تختلط فيها الطقوس والعبادات الكاثوليكية بالطقوس والعبادات اليهودية . وكان المارانو لا يتزوجون إلا فيما بينهم ولا يتزاوجون مع غيرهم من اليهود . وكانت القيادة الروحية للجماعة في يد النساء العجائز ، وكان الأطفال لا يعرفون الهوية الدينية الحقيقية إلا بعد سن الخامسة عشرة . كما أن يهود المارانو كانوا يُشكلون شبكة متماسكة ، فكان التاجر المارانو يرفض أن يشارك تاجراً آخر إلى أن يتأكد من هويته . وقد أدَّى ذلك إلى تسهيل عملية التجارة والائتمان ، وساعد هذا التَماسُك على تسهيل الحراك الاجتماعي للمارانو .

ثم بدأت محاكم التفتيش نشاطها في كل شبه جزيرة أيبريا . ومما يجدر ذكره أن محاكم التفتيش لم تتعقب اليهود الذين أعلنوا عن هويتهم الدينية ، فهؤلاء لم يكن يُسمَح لهم بالبقاء أساساً ، وإنما تعقبت المسيحيين المشكوك في أمرهم والذين كان يُظَن أنهم مارانو ، أي «مواطنون يُظهرون المسيحية ويُبطنون اليهودية» ، فهؤلاء كانوا في رأي محاكم التفتيش يشكلون خطراً على العقيدة المسيحية وعلى أمن الدولة . ولكن هناك بعداً آخر بدأت الدراسات الحديثة تؤكده ، وهو أن محاكم التفتيش في إسبانيا لم تكن تابعة للبابا . بل إن روما كانت تعترض في كثير من الأحيان على تَطرُّف قضاة هذه المحاكم ، وعلى أن هذه المحاكم كانت تستخدم ديباجات دينية تستغل الشرعية الدينية لتَعقُّب من كانت تظنهم أعداء الدولة . وتبين هذه الدراسات أن رجال الدين الذين عُيِّنوا قضاة في هذه المحاكم نُصِّبوا من قبل

الدولة الإسبانية لا من قبل روما . وتذهب هذه الدراسات إلى أن الدولة الإسبانية كانت في الواقع أول دولة مطلقة تضع مصلحتها الدنيوية فوق أية مصلحة أخرى ، وهي ظاهرة بدأت تتضح في بقية أوربا في تاريخ لاحق ، وتذهب أيضاً إلى أن هذه الدولة طالبت رعاياها لهذا السبب بولاء مطلق . وتحل الدولة العلمانية الحديثة مشكلة الولاء عن طريق جعل الدين أمراً خاصاً ، على أن يتم التضامن داخل المجتمع على أساس مصلحة الدولة . ولكن في حالة الدولة الإسبانية ، لم يكن هذا ممكناً برغم تَوجُّهها الدنيوي لأن التحالفات في أوربا كانت تتم في إطار ديني ، ولم تكن العقيدة العلمانية قد تطورت أو أحرزت شيوعاً بعد . ومن هنا كان تَمسُّك الدولة الإسبانية بالديباجات الدينية برغم تَوجُّهها الدنيوي .

ويذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن عملية المطاردة أصبحت بعد قليل مثل مطاردة أجهزة المخابرات الحديثة لمن يُسمَّون « أعداء الدولة » . وهذه الأجهزة كثيراً ما تختلق الاتهامات ضدهم وتخترعها اختراعاً إن لم تجدها ، حتى يُكتَب لوظيفتها الاستمرار وحتى تُحكم قبضتها على الحاكم ويتزايد نفوذها وهيبتها . ومن هنا مطاردتها لبعض المسيحيين الجدد الذين تَنصَّروا عن صدق ، حتى يُكتَب لها الاستمرار وتحقيق الرسالة !

ويُضيف أصحاب هذه النظرية بُعداً اجتماعياً أخيراً ، وهو أن محاكم التفتيش لم تكن تهدف في واقع الأمر إلى القضاء على الهرطقة اليهودية بين المارانو كما كانت تدَّعي ، وإنما كانت تهدف إلى وقف الحراك الاجتماعي لكل المسيحيين الجدد . ولم تكن تميِّز بين من اعتنق المسيحية عن صدق وبإرادته من جهة وبين من ادعى الإيمان بها من جهة أخرى . فالمسيحيون الجدد كانوا يشكلون طبقة وسطى جديدة لها إمكانيات غير متوافرة لكثير من قطاعات النخبة الحاكمة . ومن المعروف أنه ، مع نهاية القرن السابع عشر ، لم يكن هناك فرق بين المسيحيين الجدد والمسيحيين القدامى . ولكن ، مع هذا ، تم تأكيد الفروق لتكون مسوِّغاً لمطاردة أعضاء الطبقة الجديدة . وقد استخدمت محاكم التفتيش معياراً دنيوياً غير ديني («درجة نقاء الدم») وبالتالي تكون محاكم التفتيش هي أولى علامات العنصرية العلمانية (مقابل التعصب الديني) والتي تعتمد العرْق (لا الدين) معياراً للتفرقة بين البشر . ولم تتوقف المطاردة إلا عام ١٧٧٣ حين تَقرَّر إحراق الوثائق التي تُفرِّق بين المسيحيين الجدد والمسيحيين القدامى .

ومن القرائن التي تُذكَر كدليل على أن هؤلاء المسيحيين الجدد قد تَنصَّروا فعلاً بإرادتهم وأنهم كانوا مسيحيين عن صدق ، موقف الشرع اليهودي منهم ، فكثير من الحاخامات كانوا لا يعتبرونهم يهوداً . بل ورفضت المؤسسة اليهودية البعض ممن تهوَّدوا وعاملت من قبلتهم باعتبارهم متهودين أو غرباء (بالعبرية : جير) اعتنقوا اليهودية ، أي أنها كانت تراهم مسيحيين تهودوا . ويُقال إن المؤسسة الحاخامية كانت سعيدة بملاحقة محاكم التفتيش للمسيحيين الجدد واضطهادها لهم ، على أساس أنهم تركوا دينهم عن قصد . وعلى وجه العموم ، كان اليهود يحتقرون المسيحيين الجدد (المارانو) الذين كانوا بدورهم لا يكنون أي احترام لليهود .

ومن القرائن الأخرى التي يجب ذكرها أن كثيراً من المسيحيين الجدد لم يعتنقوا اليهودية حتى بعد طردهم من شبه جزيرة أيبريا ، لأنهم كانوا مسيحيين بالفعل . كما يُفسِّر هذا اتجاه أغلبيتهم إلى العالم المسيحي وعدم تَوجُّههم إلى الدولة العثمانية الإسلامية . وقد جاء في إحدى الدراسات قصة تبيِّن غباء البشر في بعض الأحيان وعُمْق تعصبهم ، فقد قامت محاكم التفتيش بطرد فتاة بتهمة أنها مارانو تدَّعي المسيحية وتُبطن الإسلام . وعند وصولها إلى المغرب أكدت للناس هناك أنها مسيحية مؤمنة ، فقاموا بتعذيبها باعتبارها مرتدة فأصرت على موقفها وقُتلت ، فاحتُفل بها في شبه جزيرة أيبريا باعتبارها شهيدة مسيحية !

وقد لاحظ بعض الدارسين أن كثيراً من المارانو كانوا في واقع الأمر ملحدين أو بغير هوية دينية على الإطلاق . ولهذا طالب المفكر الهولندي الشهير جروتيوس بأن يؤكد كل يهودي (فوق سن الرابعة عشرة) إيمانه بالإله والأنبياء واليوم الآخر للتأكد من يهوديته .

تبقى بعد ذلك قضية المارانو أو «المسيحيون الجدد» الذين تهوَّدوا عند خروجهم . ولتفسير حالة هؤلاء ، نورد الأسباب التالية :

١ ـ لم يكن كل المسيحيين الجدد ، كما أسلفنا ، مؤمنين بالعقيدة المسيحية ، بل كان منهم بالفعل مارانو يتحينون الفرصة لإظهار ما يُبطنون .

٢ ـ يُعتقَد أن بعض المسيحيين الجدد ، الذين كانوا يؤمنون بالمسيحية عن حق ، اعتنقوا اليهودية نتيجة مطاردة محاكم التفتيش وملاحقتها لهم ، وهم في هذا يشبهون المتهم الذي يعترف بجريمة لم يرتكبها ، تحت وطأة التعذيب ، حتى يُريح نفسه . كما أن هناك أيضاً عنصر الانتقام من مؤسسة عنصرية غبية .

٣ ـ يُعتقَد أن كثيراً من المسيحيين الجدد تهوَّدوا بعد أن وصلوا إلى أمستردام وغيرها من البلاد ، حتى يحصلوا على عمل أو يمكنهم الالتحاق بإحدى النقابات الحرفية ، أو المهنية . إذ أن المارانو كانوا قد

وصلوا إلى بلد غريب ذي تنظيم ينتمي إلى العصر الوسيط ولا يسمح باستيعاب الغريب . وإذا أراد المرء أن يُكتَب له البقاء ، خصوصاً إذا كان وافداً جديداً ، كان عليه أن ينتمي إلى إحدى النقابات أو المؤسسات . ولكن لم يكن من المتوقع أن تقبله نقابات المهنيين أو إحدى التنظيمات الوسيطة الأخرى باعتباره مسيحياً . وهناك حالات رُفض فيها السماح لبعض المسيحيين الجدد بالتنصُّر الفعلي حتى لا يحصلوا على حقوق المسيحيين . وقد كان أمام هؤلاء فرصة الانضمام إلى إحدى النقابات اليهودية عن طريق التهوُّد .

٤ ـ ولقد أتى هؤلاء المسيحيون الجدد من شبه جزيرة أيبريا ، ومن ثم فإن من كان منهم مسيحياً حقاً كان يؤمن بالكاثوليكية ، ثم استقروا في هولندا ، وكانت حينذاك بلداً بروتستانتياً معادياً لإسبانيا ، يتسامح مع اليهودية ويقبلها ولا يتسامح مع الكاثوليكية . فالدول البروتستانتية الجديدة في أوربا كانت تنظر إلى الكاثوليكية والكاثوليك (لا اليهودية واليهود) باعتبارهم الخطر الأعظم . ومن ثم كان من المنطقي أن يَتبنَّى هؤلاء المطرودون من بلادهم البديل الوحيد المقبول وهو اليهودية .

وقد ظهرت نظرية مؤخراً تذهب إلى أن المارانية هي نتاج شكل من أشكال العبادة الشعبية التي كانت موجودة في شبه جزيرة أيبريا ، وهي عبادة اختلطت فيها العناصر اليهودية بالعناصر المسيحية والإسلامية (كما هو الحال مع العقائد الشعبية) . وقد شاعت هذه العبادة بين الجماهير اليهودية التي كانت تَشعُر بالاغتراب عن اليهودية الحاخامية الرسمية بنزعتها العقلية والعقلانية ، خصوصاً بعد تأثرها بالفلسفة العقلانية الرشدية . والديانات الشعبية عادةً ما يتم تَوارُثُها من خلال الأسرة ، ولذا كان اليهودي المتنصِّر عن صدق يصبح من المارانو إن كان من ممارسي هذه الديانة الشعبية . ومهما كانت الأسباب والدوافع لتَعقُّب محاكم التفتيش للمارانو وتهوُّدهم بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبريا ، وبغض النظر عما إذا كانوا مسيحيين عن صدق أم يهوداً ، فما يهمنا هنا هو تأكيد أن المضمون اليهودي لهوية المسيحيين الجدد ، والمارانو بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبريا ، إما أنه لم يكن موجوداً أساساً أو أنه قد ضعف تماماً أو اختفى كليةً . وقد انضمت أعداد كبيرة منهم إلى الجماعات اليهودية في أوربا ، الأمر الذي ترك أعمق الأثر في هذه الجماعات . فهوية المارانو كانت هوية هامشية بالنسبة إلى المجتمعات كافة . ذلك أنهم بعد انضمامهم إلى الجماعات اليهودية ، لا يكونون مسيحيين في المجتمع المسيحي ، ولا يهوداً من منظور اليهودية الحاخامية . ولذا ، قُدِّر لهم أن يلعبوا دوراً تحديثياً ضخماً بوصفهم «غرباء هامشيين» وكجماعات وظيفية داخل المجتمعات الغربية وبين الجماعات اليهودية .

وقد انتشر يهود المارانو في كل أنحاء العالم بعد طردهم ، فذهبت أعداد كبيرة منهم إلى الدولة العثمانية واستوطنوا سالونيكا ، فكان عدد يهود المارانو في هذه المدينة يفوق عدد اليهود بل وعدد غير اليهود فيها . ولذا ، كانت هذه المدينة تُعَدُّ عاصمة المارانو في العالم . كما اتجهوا إلى الأستانة والقاهرة وكونوا نخبة متفوقة ، الأمر الذي أدَّى إلى اندماج مختلف الجماعات اليهودية الأخرى فيهم ، وأصبحت اللادينو لغة يهود الدولة العثمانية .

وقد اتجه المارانو إلى الدول الغربية ، خصوصاً البروتستانتية ، حيث كانت محاكم التفتيش محط كراهية عميقة ، وكان كثير من البروتستانت من ضحاياها . فاستوطن المارانو في إنجلترا وأمستردام وهامبورج ، بل واتجه بعضهم إلى الدول الكاثوليكية فاستقروا في بايون وبوردو وليون في فرنسا ، وفي بعض المستعمرات الاستيطانية التابعة لإسبانيا أو البرتغال في العالم الجديد . وكانت بعض الدول مثل هولندا تعترف بالمارانو كيهود عند وصولهم . أما بعض الدول الأخرى ، فكانت تتسامح في وجودهم وحسب ، وتلجأ في ذلك إلى حيل قانونية أو غير قانونية . فكانت بعض الدول ، مثل إنجلترا ، تغض النظر عن هويتهم الحقيقية ، فيظلون مسيحيين اسماً ويمارسون عقيدتهم اليهودية سراً أو علناً ، ولكن دون اعتراف رسمي ، لأن الاعتراف الرسمي كانت تنجم عنه بكل تأكيد تعقيدات إدارية بالغة في مجتمع تستند كل مؤسساته إلى العقيدة المسيحية وإلى الإيمان بها . وكما أشرنا سالفاً ، فإن كلمة «برتغالي» كانت في كثير من الدول تعني «مارانو» أو «يهودي» .

وكان يهود المارانو عادةً يستوطنون في بلد ما لِيُشكِّلوا نواة سفاردية متقدمة تلحق بها عناصر إشكنازية تزيد من عددها . وقد ظل السفارد النخبة التي كانت تلعب دوراً قيادياً . أما الإشكناز فكانوا هم الجماهير ، أو الفائض غير المرغوب فيه . وقد زادت الهجرة الإشكنازية من شرق أوربا بعد هجمات شميلنكي في القرن السابع عشر ، ومع تَفاقُم المسألة اليهودية في القرن التاسع عشر ، حتى زاد عدد اليهود الإشكناز على عدد يهود السفارد من المارانو السابقين وأصبحوا هم الأغلبية العظمى .

وفي الأدبيات الصهيونية يتحدثون عن «المارانو الجدد» ، وهم اليهود المندمجون الذين يحاولون الاندماج في محيطهم الثقافي ويخفون يهوديتهم بقدر الإمكان . ولكن كما قال حاخام فيينا بعد لقائه بهرتزل : "من هو اليهودي الحقيقي : هل هو الذي يمارس

شعائر دينه ويندمج في مجتمعه ، أم هو الصهيوني الذي يتحدث عن العودة إلى فلسطين ولا يمارس أياً من الأوامر والنواهي ؟» . ويمكننا من هذا التساؤل أن نقول إن الصهيوني هو مقلوب المارانو ، فهو يتباهى بهويته اليهودية ولكنه في داخله إنسان غير منتم إلى الدين اليهودي . وقد لاحظ بن جوريون نفسه أن يهود أمريكا يستخدمون الصهيونية كغطاء يستترون به حتى يزيدوا من اندماجهم الفعلي في مجتمعاتهم ، وتنحصر يهوديتهم الظاهرة في إرسال التبرعات إلى إسرائيل لإخفاء باطنهم المندمج ، ومن هنا الإشارة ليهودية هؤلاء باعتبارها «يهودية دفتر الشيكات» .

وقد اختفى أثر المارانو في إسبانيا ، أما في البرتغال ، حيث كانت توجد أعداد كبيرة منهم ، فقد استمر وجودهم حتى القرن العشرين على هيئة جماعات متفرقة يبلغ عدد أعضائها نحو عشرة آلاف. ومن الطريف أن جيرانهم يعرفون أنهم مارانو وأنهم فقدوا الصلة تماماً بالجماعات اليهودية في العالم وإن كانوا يحتفظون بالصلة فيما بينهم. وقد أصبحت ممارستهم الخفية جزءاً أساسياً من عقيدتهم، كما أصبحت طقوسهم الباهتة التي توارثوها عبر الأجيال هي ممارستهم الدينية اليهودية الوحيدة. ورغم أن البرتغال أعلنت حرية العبادة عام ١٩١٠ ، فإن المارانو لم يغتنموا الفرصة وظلوا على ممارستهم .

ومن أهم جماعات المارانو جماعة مدينة بلمونت ، فهم يتصورون أنهم من نسل اليهود البرتغاليين مباشرةً ، وأنهم غير مُخلَّطين. كما أنهم لا يزالون يمارسون بعض الشعائر الدينية اليهودية، فهم يوقدون الشموع يوم السبت، ويصومون يوم الغفران، ويقيمون بعض شعائر عيد الفصح، فلا يأكلون لحم الخنزير في يوم السبت أو في الأعياد ولكنهم يأكلونه في الأيام الأخرى، وهم يحتفلون بهذه الأعياد في أيام غير تلك التي حددها التقويم اليهودي حتى يحولوا الأنظار عنهم. ويتم عقد الزيجات باسم الإله أبراهام وإسحق ويعقوب. كما احتفظوا ببعض شعائر الدفن مثل الطهارة ، أي تغسيل الميت. وقد اختفت اللغة العبرية في صلواتهم ، فلم يبق سوى عبارات مُحرَّفة تكاد تكون غير مفهومة. وقد أصبحت عقيدتهم بعيدة عن اليهودية وتتضمن خرافات كثيرة . ويبدو أن الممارسات الدينية مقصورة على النساء ، ربما لصرف الأنظار .

وتحاول بعض الجماعات اليهودية ، خصوصاً في إنجلترا حيث يوجد يهود كثيرون من أصل برتغالي ، أن يُهوِّدوا المارانو ويُدخلوهم حظيرة اليهودية العلنية . وقد بذلت الأليانس جهوداً كبيرة في هذا المضمار ، واتصلت بهم الوكالة اليهودية مؤخراً ، ويبدو أنها أقنعتهم بالتهود والهجرة إلى إسرائيل . وهذا يعني بالنسبة إليهم حراكاً اجتماعياً لأن معظمهم فقراء يعملون بائعين متجولين .

والمارانو يشبهون من بعض الوجوه ظاهرة الموريسكيين ، وهم العرب المسلمون الذين اضطروا إلى التنصُّر بعد استرداد المسيحيين لإسبانيا . وقد نسي الموريسكيون اللغة العربية وإن كانوا يتحدثون بلهجة يُقال لها «الألخميادو» (تحريف لكلمة «أعجمية») ، وهي اللغة القشطالية بعد أن دخلت عليها كلمات عربية ولاتينية ، وكانت تُكتَب بحروف عربية . وكان الموريسكيون صناعاً مهرة وفنيين في العديد من المهن ، مثل : صناعة الحرير ، والذهب والفضة ، والنقش والبناء، والفلاحة وأساليب الري الفنية . كما كانوا وراء تعميم زراعة البرتقال والموالح وقصب السكر ومختلف الأشجار المثمرة كالتوت ، ومن الواضح أنهم كانوا مُركَّزين في قطاعات الاقتصاد الإنتاجية ، على خلاف يهود إسبانيا الذين كانوا مركزين في التجارة والمال والأعمال الوسيطة . وقد حاولت الدولة الإسبانية صبغهم بالصبغة الإسبانية بعد تَنصُّرهم ، فكان يُحرَّم عليهم لبس الرداء العربي أو التحدث بالعربية أو اقتناء كتب عربية أو طبخ الكُسكُس (الطعام المغربي الشهير) . وقد اندلعت الثورات بينهم من أهمها ثورة الموريسكيين الكبرى في البشرات (قرب غرناطة) سنة ١٥٦٩ (وتُسمَّى ثورة البشرات الثانية) . وحينما فشل النظام الإسباني في إسقاط هويتهم العربية ، قام بطردهم سنة ١٦٠٩ (كان مجموع المسلمين الذين طُردوا يتراوح ما بين ٩٠٠ ألف و ٣٠٠ ألف ، وفي بعض التقديرات يُقال إن مجموع من طُرد من المسلمين يصل إلى ثلاثة ملايين) .

ومع هذا ، بقي كثير من المسلمين يمارسون شعائر دينهم في الخفاء ، ويتداولون الكتب الدينية المكتوبة بالألخميادو . وقد تعقبتهم محاكم التفتيش ، وبالفعل وُجد في غرناطة (عام ١٧٢٧) قساوسة من أصل موريسكي يمارسون شعائر الدين الإسلامي سراً . وكانت بعض الأسر الموريسكية تُشهر إسلامها بعد مغادرتها إسبانيا . وفي سنة ١٧٥٧ ، حُوكم موريسكي بتهمة اتباع شعائر الدين الإسلامي سراً . وقد لاحَظ بعض الرحالة الإنجليز في أواخر القرن الثامن عشر أن بعض الأسبان مازالوا يمارسون شعائر الدين الإسلامي سراً . ويقول بعض الأساتذة الأسبان إنه لا تزال توجد في إسبانيا قرى بأسرها موريسكية . وقد بدأ بعض دعاة القومية الأندلسية في إسبانيا الحديثة يصر على أن تراث أهل الأندلس هو التراث الإسلامي ، بل إن بلاسي إنفانتي بيريز (١٨٨٥ ـ ١٩٣٦) أبا حركة البعث الأندلسي ، وهو من نسل الموريسكيين القدامى ، اعتنق

الإسلام ، وقد أعدمته قوات فرانكو رمياً بالرصاص في ١٠ سبتمبر ١٩٣٦ .

جديد الإسلام

Jedid al-Islam

«جديد الإسلام» مصطلح إيراني بمعنى «المسلمون الجدد» ، ويشير هذا المصطلح إلى اليهود المتخفين الذين أُرغموا عنوة على اعتناق الإسلام في إيران في القرنين السابع والثامن عشر ، فأظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية . ويشير المصطلح على وجه التحديد إلى أعضاء الجماعة اليهودية في مشهد ، والذين اضطروا إلى اعتناق الإسلام إبان حكم أسرة الكاجار عام ١٨٣٩ .

ولا نعرف شيئاً عن مصير اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عنوة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . والظن الغالب ، أنه تم استيعابهم في المجتمع الإسلامي . أما جماعة مشهد ، فقد احتفظت بهويتها ولم يتزاوج أعضاؤها إلا فيما بينهم ، ثم هاجر بعضهم إلى القدس عام ١٨٩٠ . أما بقية الجماعة ، فقد ظلت في مشهد حتى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، وكونت جماعة اقتصادية مستقلة .

تشويتاس

Chuetas

«تشويتاس» من كلمة «تشويا» وتعني «لحم خنزير» بلهجة جزيرة مايوركا ، إحدى جزر البالياريك التابعة لإسبانيا . غير أن هناك نظرية أخرى تذهب إلى أن الكلمة مُشتقَّة من كلمة «تشوهينا» وتعني «يهودي» بلهجة الجزيرة . وهم من أهم جماعات المارانو التي استمر وجودها حتى الوقت الحالي في جزيرة مايوركا . وأعضاء هذه الجماعة يعملون أساساً بالتجارة وصناعة الحلي الفضية . وقد فقدوا كل علاقة باليهودية ، ومع هذا فهم لا يزالون يحتفظون بعزلتهم وهويتهم الخاصة الباهتة . ولا يُعرَف عددهم على وجه الدقة ، وإن كان لا يتجاوز مائتين أو ثلاثمائة . وقد هاجرت أعداد منهم إلى إسرائيل وتم تهويدهم واستوطنوا فيها ، ولكن التجربة فشلت فعادوا إلى مايوركا .

الرومانيوت

Romaniot

تُستخدَم كلمة «رومانيوت» للإشارة إلى الجماعة اليهودية داخل الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان . وكان الرومانيوت يُسمَّون أيضاً «الجريجوس» ، كما تُستخدَم الكلمة للإشارة إلى نسلهم ومن ورثوا تراثهم اللغوي والثقافي . وكان الرومانيوت يتسمَّون بأسماء يونانية ، كما كانت معابدهم تُعرَف بأسماء يونانية أيضاً . وقد تأثروا بعمق بالتراث اليوناني وباللغة اليونانية التي أصبحت لغة الصلاة في المعبد . وقد صدرت عام ١٥٤٧ ترجمة العهد القديم باليونانية الحديثة واللادينو . ومع بداية القرن السادس عشر ، بدأ يهود السفارد يصلون لاجئين إلى الدولة العثمانية ، وكان مستواهم الثقافي الرفيع وخبراتهم الإدارية والمالية واتصالاتهم العالمية تؤهلهم لاستلام قيادة الجماعات اليهودية في الدولة العثمانية ، الأمر الذي وضع يهود الرومانيوت في حالة دفاع عن النفس . وعلى أية حال ، فقد بدأت معابدهم في التناقص وأصبحت لهجتهم اليونانية مقصورة على بضعة تجمعات يهودية متناثرة . وقد انتهى الأمر باندماج معظمهم في السفارد وتَبنِّيهم اللادينو التي أصبحت لغة معظم يهود الدولة العثمانية في الكتابة والحديث .

يهود الهند

Indian Jews

توجد عدة جماعات يهودية في الهند من بينها بني إسرائيل في بومباي ، ويهود كوشين على ساحل مالابار ، في ولاية كيرالا ، واليهود البغدادية في بومباي أيضاً ، ويهود مانيبور على الحدود مع بورما . وقد بلغ عددهم عام ١٩٤٧ نحو ٢٦,٥٠٠ . أما في عام ١٩٦١ ، فقد بلغ عددهم ١٤,٦٠٨ في الهند ذاتها ، إضافة إلى ٢٣ ألفاً في إسرائيل ، و٢٠٠٠ في إنجلترا حسب إحصاءات عام ١٩٦٨ ، أي أن عددهم يبلغ نحو ٣٩,٥٠٠ ، وهو ما يعني أن نسبة التكاثر بين يهود الهند من أعلى النسب بين الجماعات اليهودية (إذا كانت الإحصاءات دقيقة) . وقد تأثرت كل هذه الجماعات اليهودية بالبيئة الهندية وبنظام الطوائف المغلقة . وهي لا تنتمي إلى أيٍّ من الكتل اليهودية الثلاث الكبرى : الإشكناز ، والسفارد ، ويهود العالم الإسلامي . ولذا ، فهم يُعَدُّون ضمن الجماعات الهامشية مثل الفلاشاه ويهود كايفنج .

ويُلاحَظ أن قبول اليهود في مجتمع ما ، واندماجهم فيه ، يؤدي إلى ذوبانهم وانصهارهم . ولكن يهود الهند يمثلون نمطاً مغايراً تماماً إذ أن اندماجهم أدَّى إلى الحفاظ على هويتهم . وهذه مفارقة واضحة تعود إلى حركيات المجتمع الهندي ذاتها ، فهو مجتمع تُعَدُّ

الوحدة الأساسية فيه القرية والطائفة المغلقة . وتستطيع أنواع مختلفة من البشر الاحتفاظ بهوياتهم فيه ، مادامو يقبلون الطائفة المغلقة إطاراً للتنظيم الاجتماعي ، وربما ببعض المعتقدات الهندوكية الأساسية . وتقوم عملية التضامن داخل الجماعة المغلقة بتقوية الهوية مادامت لا تهدد النظام الاجتماعي . وبالتالي ، فإن ثمة هويات هندية يهودية مختلفة ، بل ومتصارعة ، لكلٍّ سماتها الواضحة . وهذا ، بطبيعة الحال ، مختلف عن وجود هوية يهودية محددة داخل كل مجتمع ، وعن الافتراض الصهيوني القائل بوجود هوية يهودية عامة أو عالمية . ويُلاحَظ أن الهويات اليهودية الهندية آخذة في الاختفاء بسبب الهجرة من الهند سواء إلى إسرائيل أو إلى غيرها من البلدان . كما أن الأجيال الجديدة من الهنود اليهود بدأت تتمرد على نظام الطوائف المغلقة ، تماماً مثل جيل الشباب الهندي ككل .

ويعيش القسم الأكبر من يهود الهند الذين هاجروا إلى إسرائيل في مدن التنمية ، خصوصاً تلك الموجودة في النقب والمنطقة الجنوبية مثل : بئر سبع وعسقلان وعراد إضافة إلى بيسان في غور الأردن . ويعيش قسم آخر في المدن الكبرى الثلاث : القدس ، وتل أبيب ، وحيفا . ويعيش عدد قليل للغاية في بعض الكيبوتسات (وهي مؤسسات إشكنازية بالدرجة الأولى) والموشافات . ومن الظواهر التي تستحق التسجيل أن ثمة قائمة خاصة بمهاجري الهند ظهرت في انتخابات عام ١٩٨٤ .

بني إسرائيل

Bene Israel

«بني إسرائيل» اسم عَلَم يُطلَق على مجموعة من يهود الهند كانت تقطن أساساً في منطقة كونكان ، ولكنها ، ابتداءً من القرن الثامن عشر ، انتقلت إلى بومباي حيث أسست أول معبد يهودي عام ١٧٩٦ . ومع حلول عام ١٨٣٣ ، كان ثلثا يهود بني إسرائيل يعيشون في بومباي . ولا نعرف الكثير عن أصل يهود بني إسرائيل، إلا أنهم ، حسب روايتهم ، يعودون إلى ما قبل الميلاد . وقد انقطعت صلتهم باليهودية الحاخامية ، ولكنهم بعد احتكاكهم بيهود كوشين تعلّموا على أيديهم أصول عقيدتهم مرة أخرى ، كما انضم إليهم اليهود البغدادية في القرن التاسع عشر . ولون يهود بني إسرائيل أميل إلى البياض مقارنةً بلون بشرة الهنود العاديين ، وهم يرتدون الملابس الهندية ويتحدثون الماراثي (وهي اللغة الشائعة في المنطقة التي يعيشون فيها) ، ويتسمَّون أسماءً هندية . ونظراً لانفصالهم عن اليهودية الحاخامية لعدة قرون ، فإن شعائرهم الدينية تختلف عن شعائر باقي يهود العالم في كثير من النواحي ، فهم لا يعرفون التلمود ، بل كانوا قد نسوا التوراة بعض الوقت ولكنهم أعادوا اكتشافها من بعد . ولم يُترجَم العهد القديم إلى اللغة التي يتحدثونها إلا في بداية القرن التاسع عشر . ومع هذا ، فهم يعرفون صلاة عبرية هي صلاة الشماع ، وللنبي إلياهو مكانة خاصة في عباداتهم . ومن عاداتهم الدينية عادة تُسمَّى «ماليدا» وهي إعداد طعام خاص يقدم قرباناً . وتُتلَى بعض الصلوات اليهودية في مناسبات مهمة مثل الختان والزواج . وأعيادهم وأيامهم المقدَّسة هي : رأس السنة (ويُحتفَل به لمدة يوم واحد) ، ويوم الغفران ، وعيد الفصح . ولكنهم كانوا لا يعرفون عيد التدشين . كما كانوا لا يعرفون شيئاً عن هَدْم الهيكل على يد تيتوس . وهم يقيمون شعائر السبت والختان وبعض قوانين الطعام ، ويمارسون صيام رمزان (وقد يكون هذا الاسم تصحيفاً لكلمة «رمضان») . وكان يترأس الجماعة اليهودية من الناحية الدينية والدنيوية الكاجي (القاضي ؟) . وقد أصبحت الوظيفة وراثية حتى صارت كلمة «كاجي» هي اسم العائلة . وبعد احتكاك يهود بني إسرائيل باليهودية الحاخامية في بقية العالم وتأسيسهم معابد يهودية ، ظهرت وظيفة المقدَّم الذي اضطلع بالوظيفة الدنيوية للكاجي ، كما حل المرتلون (حزان) محل الكاجي في الجوانب الشعائرية . ولا يوجد عندهم حتى الآن حاخام مُعتَمد تَلقَّى التدريب الصحيح .

وكان يهود بني إسرائيل يعملون أساساً بالزراعة واستخراج الزيت وببعض الحرف اليدوية . وبعد احتلال الإنجليز للهند ، خدم يهود بني إسرائيل في الفرق العسكرية الإنجليزية وعملوا في المهن المختلفة وفي وظائف ذوي الياقات البيضاء وفي المهن التجارية والمالية الأخرى ، أي أنهم تحولوا إلى جماعة وظيفية في خدمة الاستعمار . وهناك ١٠٪ من يهود بني إسرائيل يعملون بالتجارة ، ولكن أغلبيتهم العظمى تعمل كَتَبة في الحكومة والمكاتب الخاصة . ولذا ، يُشار إليهم الآن بوصفهم «طائفة الكتبة المغلقة» ، كما تضم الجماعة بعض الأساتذة الجامعيين .

ويمكننا أن نقول إن يهود بني إسرائيل قد استطاعوا الحفاظ على هويتهم من خلال نشاطهم داخل المجتمع الهندي لا ضده ، أي من خلال اندماجهم فيه . ومن هنا ، فإن بعض أنماط سلوكهم يختلف عن أنماط سلوك يهود الغرب . ورغم أن سمعة الأطباء اليهود جيدة في الهند ، فإن أبناء الجماعة لا يترددون عليهم . ونادراً ما يستخدم أرباب العمل اليهود عمالاً يهوداً ، على عكس ما كان عليه الأمر في أوربا قبل الثورة الصناعية . ونادراً ما

يرسل أعضاء الجماعة أبناءهم إلى مدارس يهودية . كما لا تُوجَد نسبة كبيرة من التجار بينهم .

ولكن الاندماج يظهر ، أكثر ما يظهر ، في استيعاب نظام الطوائف المغلقة (الهندوكي) لأعضاء الجماعات اليهودية ، وكذلك في تأثيره العميق عليهم وعلى رؤيتهم للذات وللآخر . فأعضاء الجماعات اليهودية ينقسمون إلى قسمين : اليهود البيض (جورا إسرائيل) ، الذين يعتبرون أنفسهم اليهود الحقيقيين والأكثر رقياً (وهم حسب أسطورتهم أبناء العائلات السبع نقية الدم التي وصلت إلى الهند واستقرت في ساحل كونكان) ، واليهود السود (كالا إسرائيل) وهم هنود مُتهوِّدون أو نتاج زواج مختلط . ويُعتبَر الجورا إسرائيل أنفسهم في مكانة اجتماعية أعلى من الكالا إسرائيل ، ويحاولون الحفاظ على نقائهم ولا يتزاوجون معهم ، بل ولا يلمسون أدوات الطبخ الخاصة بهم . وقد انعكست الثورة على النظام الطائفي في الهند على بني إسرائيل إذ أن أعضاء الكالا إسرائيل يُظهرون الآن تَذمُّراً من عنصرية الجورا إسرائيل .

ويُطلق جيران اليهود عليهم مصطلح «شانو ارتيليس» ، أي «زياتو السبت» باعتبار أن أعداداً كبيرة منهم تعمل في استخراج الزيت وبيعه ، الأمر الذي يعني أنهم كانوا طائفة مُغلَقة متدنية في سلم الطوائف ، وبسبب مجرد لمس أحد أشخاص هذه الطائفة الدناسة . ولم يتأثر يهود بني إسرائيل بالملابسات الاجتماعية وحسب ، وإنما نجد أن بعض العقائد الهندوكية وجدت طريقها إلى يهوديتهم . فمثلاً كان يُحرِّم الزواج من الأرامل ، وكانوا يتصورون أن أكل لحم البقر مُحرَّم عليهم وأن ذلك منصوص عليه في التوراة !

وينقسم يهود بني إسرائيل في الوقت الحاضر إلى ثلاثة اتحادات دينية : أولها اتحاد الأبرشيات الأرثوذكسية ، وهو مرتبط بالاتحاد الذي يحمل الاسم نفسه في الولايات المتحدة . والثاني معبد الهند المتحد ، ويرتبط بالمجلس العالمي للمعابد المحافظة . وليس هناك فارق واضح بين هاتين الطائفتين (وقد يكون من قبيل المفارقات أن كلا الاتحادين قد أخذ بالطقوس السفاردية) . وهناك اتحاد ثالث هو الاتحاد اليهودي الديني ، وهو مرتبط بحركة اليهودية الليبرالية الإصلاحية في إنجلترا ويضم أعضاء بني إسرائيل الذين حققوا مكانة اجتماعية عالية . ولا تختلف شعائر هذا الاتحاد الثالث عن الاتحادين الآخرين . ولذا ، يظل الاختلاف هو الاختلاف في الانتماء الطبقي للأعضاء .

وعندما اتصلت الحركة الصهيونية بيهود بني إسرائيل ليرسلوا ممثلين لهم للمؤتمرات الصهيونية ، رفضوا في بداية الأمر إذ أنهم كانوا في انتظار «اليد المقدَّسة» لتقودهم إلى أرض الميعاد . وبعد عدة سنوات ، وتحت تأثير الوكالة اليهودية التي بدأت تُشرف على أمورهم الدينية والدنيوية ، هاجر بضعة آلاف منهم إلى إسرائيل حيث عانوا من التفرقة العنصرية وفشلوا في العثور على وظائف ، وهو ما اضطرهم إلى الإضراب والمطالبة بالعودة إلى الهند . وقد عاد بعضهم بالفعل . أما الفريق الذي استوطن إسرائيل نهائياً ، فقد وُطِّن في موشاف جديد يقطنه أساساً يهود عراقيون وهنود . وفي عام ١٩٦١ ، أصدر حاخام السفارد (الحاخام نسيم) قراراً (بإيعاز من اليهود البغدادية) بالتحقق من أصل يهود بني إسرائيل الذين يودون التزاوج من خارج جماعتهم الدينية الإثنية ، لأنه لم يكن متأكداً إن كان أسلافهم قد راعوا القوانين اليهودية في الزواج والطلاق ، وكذلك التحريمات الخاصة بالزواج المُختلَط ، وذلك حتى يتسنى للحاخامية أن تقرر إن كان أولادهم شرعيين أم غير شرعيين (مامزير) . وقد أدَّى هذا إلى إضراب عام من جانب بني إسرائيل عام ١٩٦٤ ، الأمر الذي اضطر الحاخامية إلى تغيير موقفها بالنسبة لهم .

ومن أشهر الإسرائيليين المنتمين إلى هذه الأقلية آبي نيثان ، وهو من الموافقين على حل الصراع العربي الإسرائيلي سلمياً ومن معارضي سياسة التوسع الإسرائيلية . وقد قابل آبي نيثان الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات وزُجَّ به في السجن لذلك السبب . وكان عدد بني إسرائيل في الهند : ٥٢٥٥ عام ١٨٣٧ ، و٧٠٠٠ عام ١٨٨١ ، و١٤,٨٠٥ عام ١٩٤١ . أما في عام ١٩٤٧ ، فقد بلغ عددهم ١٧,٥٠٠ ، ثم هاجرت أعداد منهم إلى الدولة الصهيونية . وهبط عددهم إلى ١٥ ألفاً عام ١٩٦٠ وإلى ١٣ ألفاً عام ١٩٦٨ . ثم هبط عددهم بعد ذلك إلى ١٢ ألفاً . ويبدو أن عدد يهود بني إسرائيل في الهند قد أخذ في التناقص بسبب الهجرة إلى إنجلترا وكندا وأستراليا إذ بلغ عام ١٩٨١ نحو أربعة آلاف .

يهود كوشين

Cochin Jews

«كوشين» مدينة هندية ، وتُسمَّى بهذا الاسم أيضاً منطقة على ساحل مالابار تقع جنوب غربي الهند ، وهي الآن جزء من ولاية كيرالا . وتضم كوشين جماعة يهودية متميِّزة تمثلت كثيراً من سمات الحضارة الهندية . وتعود أصول هذه الطائفة إلى عصور قديمة . ويدَّعي يهود كوشين أنهم من قبيلة منَسَّى ، وأنهم وصلوا إلى مالابار بعد هَدْم الهيكل . وفي حوزة يهود كوشين وثيقة مكتوبة على ألواح من النحاس تتضمن صك الانتماء إلى طائفة النبلاء ، وقد منحها

الراجا الهندي لليهودي يوسف رابان . وحسبما جاء فيها ، فإن الصك يعطي يوسف هذا عدة مزايا ، فقد أصبح من حقه أن يركب فيلاً ، وأن يُحمَل في محفّة ، وأن يُحمَى من الشمس بمظلة من مظلات الدولة ، ومن حقه أيضاً أن يفرض الضرائب ، وأن تسبقه الطبول والمزامير كلما خرج إلى الشوارع ، كما مُنح قرية انجوفانام على حدود كوشين يتوارثها أبناؤه من بعده . وقد كان يهود كوشين يساعدون الراجا في حروبه ضد الإمارات المجاورة ، وانضمت إليهم عناصر يهودية جديدة في القرن السادس عشر (مع وصول الاستعمار الغربي) ، فجاء يهود من هولندا وإسبانيا وألمانيا وحلب . وقد وقعت كوشين تحت حكم البرتغاليين (١٥٠٢ ـ ١٦٦٣) . ولكن الراجا حمى اليهود من ممارسات البرتغاليين العنصرية ، وعيَّن لهم رئيساً (مداليار) . وقد أعقب ذلك مرحلة هولندية (١٦٦٣ ـ ١٧٩٥) كانت تتسم باستقرار اليهود النسبي حيث تَحوَّل بعض أعضاء الجماعة إلى وسطاء تجاريين ، ونشأت علاقة بينهم وبين يهود هولندا. ثم جاء الاستعمار الإنجليزي بعد ذلك وعمَّق هذا الاتجاه .

ويُقسَّم يهود كوشين إلى :

١ ـ اليهود البيض أو «ميوحاسيم» ، أي «المنتسب إلى» ، ويُسمون أيضاً «بارناس» أي «شخص» . فهم من نسل يهود أوربا الذين جاءوا مع الاستعمار وتزاوجوا مع أثرياء اليهود المحليين ، وكونوا طائفة مغلقة متميِّزة عن اليهود السود .

٢ ـ اليهود السود أو «ميشواريم» .

٣ ـ اليهود المعتَقين أو «ميشو حراريم» .

ويشكل اليهود السود أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية . أما اليهود البيض ، فهم أقل عدداً ، ولون جلدهم مختلف ، وهم يدَّعون أنهم من نسل المهاجرين الأوربيين ، وأن جلدهم قد اكتسب لونه الداكن نتيجة تَعرُّضهم للشمس الاستوائية . أما الفريق الثالث ، فهو من سلالة عبيد الفريقين السابقين ، أو ثمرة العلاقة بين اليهود البيض والسود من ناحية والمحظيات أو الجواري من ناحية أخرى . ولذا ، يُقسَّم هذا الفريق أحياناً إلى مُعتَقين بيض ومُعتَقين سود .

ويهود كوشين مُستوعَبون تماماً في مجتمعهم الهندي ، فهم يرتدون الأزياء الهندية ويتحدثون لغة المالايالام (وهي لغة سكان الهند الأصليين) ، ويتحدث اليهود البيض منهم الإنجليزية إلى جانب هذه اللغة .

وقد ترك نظام الطوائف المغلقة فيهم أعمق الأثر . ولذا ، فإن الفرق الثلاثة أو الأربعة لا تتزاوج فيما بينها إلا نادراً . ويعيش كلٌّ في حيٍّ مقصور عليه ، ولا يسمح لأعضاء الفرق الأخرى بالسكنى فيه . ولم يكن من حق أعضاء الفريق الثالث ، حتى عام ١٩٣٢ ، أن يجلسوا في المعبد اليهودي أو يشاركوا في الصلوات . ويستخدم يهود كوشين العبرية في صلواتهم ، وشعائرهم سفاردية مع بعض الأشكال الإشكنازية نتيجة الهجرة المُختلَطة في القرن السابع عشر .

وكان عدد يهود كوشين عام ١٧٨١ نحو ٤٢٢ أسرة ، أي حوالي ٢٠٠٠ شخص . ونَقَص عددهم عام ١٨٧٣ إلى ١٠٣٩ ، وعام ١٩٣١ بلغ عددهم نحو ١٧٧٤ حيث كانوا مُقسَّمين على النحو التالي : ١٦٠٠ يهودي أسود ، و١٤٤ أبيض ، و٣٠ ميشوحراريم أو مُعتَقين . وفي عام ١٩٤٨ ، بلغ عددهم ٢٥٠٠ ، منهم مائة يهودي أبيض . وفي عام ١٩٦٨ ، هاجر اليهود السود ، ولم يهاجر من اليهود البيض أحد لأن الحكومة الهندية لم تسمح لهم بأخذ أموالهم .

ويبلغ عدد يهود كوشين الآن (في إسرائيل) ما يزيد على أربعة آلاف . وقد وُضعوا تحت الحجر الصحي بسبب انتشار مرض الفيل بينهم . ولا ندري هل اعترفت دار الحاخامية بهم يهوداً أم لا ، فهم لا يعرفون إلا القليل من التلمود وتراث التوراة الشفوية بشكل عام . ويُقال إن عدد يهود كوشين المتبقين في الهند لا يزيد عن ثلاثين فرداً .

يهود مانيبور

Mainpur Jews

«مانيبور» منطقة في الهند ، على حدودها مع بورما ، تُوجَد فيها جماعة يهودية لا يزيد عددها عن مائة شخص . ويرى يهود مانيبور أن أصولهم تعود إلى يهود الصين ، وأنهم هربوا من كايفنج منذ ثمانمائة عام أمام الغزو المغولي ، ثم استوطنوا الكهوف في الهند الصينية ووصلوا مانيبور في القرن الثامن عشر . وقد نسي أعضاء الجماعة تراثهم اليهودي . وهم لا يمارسون معظم الشعائر ، مثل الختان ، ولا يعرفون التلمود ، ونسوا حتى التوراة مثل يهود الصين. ولكن من المفارقات أنهم حينما احتكوا بالإرساليات المسيحية ، اكتشفوا التوراة وبدأوا يمارسون بعض شعائرها ، وإن كان بعضهم يمارس الشعائر المسيحية أو العبادات الوثنية السائدة في المنطقة مع الشعائر اليهودية جنباً إلى جنب . ويذهب يهود بني إسرائيل إلى أن يهود مانيبور ليسوا يهوداً ، ولذا فإن عليهم التهود إن أرادوا الانضمام للجماعة اليهودية .

اليهود البغدادية

Baghdadi Jews

«يهود البغدادية» مجموعة من يهود بغداد السفارد هاجروا إلى

الهند في القرن التاسع عشر ، وكانوا على مستوى ثقافي راق كما كانوا من الأثرياء . وأسسوا كثيراً من الصناعات التي خلقت عدداً كبيراً من الوظائف . وقد رحب بهم يهود بني إسرائيل في البداية حيث لم يكن بينهم كاهن يقوم بالطقوس الكهنوتية ، إلا أن اليهود البغدادية كونوا جماعة مستقلة عن يهود بني إسرائيل ويهود كوشين بسبب إحساسهم بالتفوق على أعضاء الجماعتين . ولذلك ، أقام اليهود البغدادية سياجاً من العزلة حولهم وادعوا أن الدماء اليهودية الخالصة لا تسري إلا في عروقهم وحدهم . وأصبح لهم مؤسساتهم الدينية والخيرية المستقلة ، وكانت لهم مدارسهم الخاصة التي يتم التدريس فيها بالإنجليزية . وقد بلغ إحساسهم بالتفوق أنهم كانوا لا يحسبون أعضاء بني إسرائيل ضمن النصاب اللازم لإقامة الصلاة في المعبد ، كما لم يكن يُنادى على أيٍّ منهم لتلاوة التوراة . وحاولوا استبعادهم من استخدام الأسرَّة المخصصة لليهود في بعض المستشفيات ، بل ومن العضوية في معبد رانجون . ولا يتزاوج اليهود البغدادية مع بني إسرائيل إلا في حالات نادرة . وقد بلغ تعداد اليهود البغدادية ٦٥٠٠ نسمة عام ١٩٤٧ ، لكن هذا العدد تناقص بسبب الهجرة بحيث أصبح لا يزيد على الألف . ويبدو أنه لم يهاجر منهم سوى أعداد قليلة للغاية إلى إسرائيل ، وربما يعود هذا إلى أن لديهم من رأس المال والخبرات ما يسمح لهم بالاستقرار في الغرب ، تماماً كما استقرت النخبة الثرية والمثقفة من يهود المغرب العربي في فرنسا ولم تتجه إلى إسرائيل .

يهـــود القوقـــاز

The Jews of the Caucasus

تُعَدُّ القوقاز من أكثر المناطق تنوعاً من الناحية العرْقية . ويحيط بمنطقة القوقاز روسيا الأوربية شمالاً ، والبحر الأسود غرباً ، وتركيا وإيران جنوباً ، وبحر قزوين شرقاً . وهي مقسَّمة إلى ثماني عشرة منطقة إدارية وهو ما يعكس ثراءها الحضاري . وقد احتفظت عناصر قومية كثيرة بهويتها المستقلة ، وذلك بسبب عزلتها في الجبال والوديان . ويبلغ عدد سكان القوقاز اثنى عشر مليوناً تشمل ما لا يقل عن ثلاثين قومية أساسية . وقد انعكس هذا على الجماعات اليهودية ، إذ توجد عدة جماعات يهودية في القوقاز منها يهود جورجيا الذين يختلفون عن يهود الجبال (أو يهود داغستان) ، أو يهود بخارى ، أو عن بقايا يهود الكرمشاكي .

ويبدو أن معظم يهود القوقاز جاءوا من إيران ، إذ يظهر أثر ذلك في لهجاتهم الخاصة . والواقع أن أول إشارة وردت عنهم كانت في كتب الرحالة العرب . وبعد أن ضمت الحكومة الروسية القيصرية القوقاز ، سمحت لهم بالاستمرار في حياتهم والتمتع بحقوقهم ، باعتبار أنهم كانوا مزارعين مندمجين في مجتمعاتهم ، لا جماعات هامشية غير منتجة مثل يهود اليديشية . وقد مُنع يهود اليديشية في بداية الأمر من الانتقال من منطقة الاستيطان إلى القوقاز . ولكن الحظر رُفع فيما بعد حتى بلغ عدد يهود القوقاز في عام ١٨٩٧ نحو ٥٦,٧٧٣ ، منه ٧,٠٣٨ من يهود الجبال و ٦,٠٣٤ من يهود جورجيا والباقي من يهود اليديشية . وقد زاد عدد اليهود في القوقاز ، فبلغ عددهم في عام ١٩٥٩ نحو ١٢٥ ألفاً ، منهم ٣٥ ألفاً من يهود جورجيا و٢٥ ألفاً من يهود الجبال . وقد انخفض عدد يهود القوقاز بسبب معدلات الاندماج المرتفعة وهجرة أعداد كبيرة من يهود جورجيا إلى إسرائيل . وقد بيَّن إحصاء عام ١٩٨٩ ، وهو أول إحصاء قُسِّم يهود الاتحاد السوفيتي فيه إلى جماعات يهودية إثنية مختلفة ، أن عددهم لا يتجاوز ٧٢,٦٩١ ، منه ١٦,١٢٣ في جورجيا و ٢٠,٠٠٠ من يهود الجبال و ٣٦,٥٦٨ من يهود بخارى .

يهود جورجيا

Georgian Jews

«جورجيا» هي إحدى جمهوريات دول الكومنولث (الاتحاد السوفيتي سابقاً) ، وتقع على الساحل الشرقي للبحر الأسود . ويعتقد يهود جورجيا أنهم من نسل قبائل يسرائيل العشر المفقودة التي هجَّرها شلمانصر . وهم يدعمون هذا بقولهم إنه لا يوجد بينهم كهنة . ومهما يكن الأمر ، فإن جذورهم في جورجيا موغلة في القدم ، وقد قامت علاقات ثقافية بينهم وبين يهود الخزر . وتوجد إشارات عديدة إليهم في الوثائق التاريخية ، وقد تحوَّل بعضهم (بعد الغزو المغولي) إلى أقنان يعمل بعضهم بالزراعة والحرف (النسيج والصباغة) والتجارة . وكان الأقنان يعيشون في ضياع أسيادهم وقراهم بمعزل عن يهود العالم ، الأمر الذي أدَّى إلى ضمور الهوية والانتماء الديني لديهم ، وكان الأقنان يُقسَّمون إلى : أقنان الملك ، وأقنان الإقطاعيين ، وأقنان الكنيسة . ومع ضم جورجيا إلى روسيا عام ١٨٠١ ، تحوَّل أقنان الملك إلى أقنان الخزانة إذ كان عليهم دفع ضريبة للخزانة . وقد اعترفت الحكومة القيصرية بحقوق اليهود في جورجيا (على خلاف يهود اليديشية الذين كانوا خاضعين لبعض القيود) . وألغيت القنانة في جورجيا في الفترة ١٨٦٤ ـ ١٨٧١ .

وبعد اندلاع الثورة البلشفية ، قامت حركة قوية للاستقلال في جورجيا اشتركت فيها عناصر يهودية معادية للصهيونية (وتحالف

معهم أعضاء جماعة حبد) . وقد هاجم الجيش الأحمر جورجيا ، وبدأت عملية دمج جورجيا في الدولة السوفيتية وهو ما تضمن دمج أعضاء الجماعة اليهودية . ولم تتدخل الحكومة في الشئون الدينية ، ففُتحت المعابد اليهودية ، بل وسمحت الحكومة بالنشاطات الصهيونية لبعض الوقت . ولكن ، بعد أن تزايدت النشاطات المعادية للسوفييت ، تغيَّر موقف السلطات السوفيتية . وفي منتصف العشرينيات ، بذلت هذه السلطات جهداً مضاعفاً لعلمنة يهود جورجيا ، ففتحت أبواب المصانع للعمال اليهود ، كما فتحت لهم المزارع الجماعية اليهودية . ولكن ، في منتصف الثلاثينيات ، قررت السلطات السوفيتية أن تحطم ما تصورته الانغلاق الإثني لليهود في المزارع الجماعية ، فأسست مزارع مختلطة (أممية) تضم يهوداً وأرمن. وقد فكرت السلطات السوفيتية في أن تُطوِّر ثقافة سوفيتية جورجية على نمط الثقافة السوفيتية اليديشية ، لكن المحاولة توقفت بعد فترة قصيرة من البدء فيها . ويعمل يهود جورجيا أساساً بالتجارة كما يعمل كثيرون منهم بالمهن الحرة ، فمنهم العلماء ومنهم المهندسون والمدرسون . ويوجد بينهم كذلك عمال مهرة .

والجو الحضاري في جورجيا تعددي متسامح . ولا يتَّسم تاريخ الجماعة اليهودية بظاهرة العزل أو الطرد أو المذابح ، كما هو الحال مع يهود اليديشية في أواخر القرن التاسع عشر .

ولا تختلف أسماء يهود جورجيا عن أسماء جيرانهم المسيحيين، بل إن لهم العادات نفسها ، ويرتدون الأزياء نفسها ، ويتبعون أسلوب حياة واحد . وهم يشاركون جيرانهم المسيحيين أعيادهم فيحتفلون بالكريسماس معهم ، في حين يشاركهم المسيحيون الاحتفال في عيد التصيب ، ويرقصون معهم في عيد نزول التوراة .

ويبدو أن يهود جورجيا فقدوا ، بمرور الزمن ، علاقتهم باليهودية الحاخامية . ولذا ، كان سكان المدن من المتمسكين بدينهم اليهودي يشيرون إليهم باسم «الكنعانيين» . ولا يأكل يهود جورجيا لحم الخنزير ، ولكنهم لا يحافظون على قوانين الطعام الأخرى . وهم يعرفون الذبح الشرعي ولا يمارسونه بصورة دائمة . وبشكل عام ، يُلاحَظ أنهم لا يعرفون كثيراً من الشعائر اليهودية ، وحينما يعرفونها فإنهم يتجاهلون معظمها . والفاصل الأساسي بينهم وبين جيرانهم من غير اليهود هو أنهم لا يتزاوجون معهم ، ولكن يُلاحَظ أن نسبة الزواج المختلط بينهم آخذة في الزيادة منذ الستينيات .

ويتحدث معظم أعضاء الجماعة اليهودية في جورجيا اللغة الجورجية (٩١٪) ويكتبونها بالحروف الجورجية (وهؤلاء هم اليهود الأصليون) ، كما تتحدث أقلية من يهود جورجيا اليديشية والروسية . ولم تكن العلاقة جيدة دائماً بين يهود جورجيا ويهود اليديشية الذين هاجروا من منطقة الاستيطان في أواخر القرن التاسع عشر (باعتبارهم عنصراً روسياً) ليستوطنوا المناطق الآسيوية التي ضمتها الحكومة القيصرية (فهم جماعة وظيفية استيطانية) . ورغم جو التسامح ، وعدم وجود معاداة لليهود ، ورغم معدل الاندماج العالي الذي حققه اليهود في جورجيا ، فإنهم حين فُتحت أبواب الهجرة إلى إسرائيل هاجر منهم ما يساوي نصف عددهم الكلي . والسؤال الآن : إذا كان يهود جورجيا مندمجين ومتساوين في الحقوق مع غير اليهود ، فلم هاجرت أعداد كبيرة نسبياً منهم إلى الدولة الصهيونية ؟ وللإجابة عن هذا السؤال ، لابد من العودة إلى حركيات المجتمع الجورجي حتى يتسنى لنا فهم العناصر التي أدَّت إلى الهجرة ، عناصر الطرد من الاتحاد السوفيتي ثم عناصر الجذب إلى إسرائيل .

يستند المجتمع الجورجي إلى شبكة اتصالات واسعة . وهذه الشبكة هي مؤسسة وسيطة تشبه علاقاتها علاقات القرابة أو العلاقات القَبَلية ، وهي تضم مجموعة من الأفراد يدخلون في علاقة متعيِّنة مباشرة ، فتزوِّد الشبكة العضو بالعون في لحظة حاجته ، وبالطمأنينة في لحظات الأزمة ، وتَشدُّ من أزره في كل الأحوال في مواجهة المجتمع ككل ، وبالذات في مواجهة الدولة الحديثة (بكل تجريديتها) وفي مواجهة البيروقراطية السوفيتية التي تتَّسم أفعالها بمستوى عال من العقلانية وعدم الاكتراث بالعناصر الشخصية . وليس بإمكان عضو أن يوجد خارج هذه الشبكة التي يُعَدُّ اعتماده عليها مصدر عزته وكرامته ، وعليه بالمقابل أن يقدم لها ما تريد . ويُلاحَظ أن اليهود ينتظمون في شبكات اتصال غير يهودية ، كما أن هناك مسيحيين ينتظمون في شبكات اتصال يهودية . وفي هذا الإطار ، يُعتبَر الولاء للدولة أمراً ثانوياً قياساً بالولاء إلى الجماعة/ الشبكة المباشرة . ويُنظَر إلى كل من الدولة والشبكة باعتبارهما طرفين متعارضين . فالدولة السوفيتية هي الكيان المجرد البيروقراطي ، والشبكة هي الجهاز المتعيِّن المحلي الذي يستطيع الفرد التعامل معه بشكل إنساني ومباشر .

وهذه الشبكة الهائلة المتطورة ، وهذا التمازج بين الفرد والأسرة ، هما أساس القومية الجورجية ، وهي قومية معادية للضغوط الخارجية التي تأتي عادةً من موسكو . ويتمثل رفض الحكومة المركزية فيما يُسمَّى «الاقتصاد الثاني» ، وهو القطاع الحر غير الشرعي الذي تديره الشبكة بطبيعة الحال لصالح أعضائها ، والذي يُعبِّر عن الهوية الجورجية القومية في وقوفها ضد تَدخُّل الدولة الحديثة ومحاولاتها في خلق اقتصاد موحَّد يُدار مركزياً .

ويشارك يهود جورجيا هذا الإحساس القومي الجورجي الرافض للدولة الحديثة ، والذي يتبدَّى في شكل الارتباط بالشبكة ، أي أن هوية يهود جورجيا هي هوية جورجية قوية ذات أبعاد يهودية خاصة تلعب دوراً حاسماً في تشجيع الهجرة إلى إسرائيل . غير أن هذه الهجرة لم تتم لأسباب يهودية عامة وإنما بسبب حركيات المجتمع الجورجي . وتحتوي كل عملية هجرة على عنصر جذب إلى الوطن الجديد وعلى عنصر طرد من الوطن القديم .

١ ـ عنصر الجذب :

عند نشوب حرب ١٩٦٧ ، وقف السوفييت إلى جانب العرب ضد إسرائيل ، الأمر الذي جعل الجورجيين (بعدائهم التقليدي للروس) يتعاطفون مع إسرائيل ضد العرب وحلفائهم الروس . وقد غذى هذا الشعور التراث الجورجي المحلي المعادي للإسلام . فتحولَّت الدولة الصهيونية إلى ما يشبه المثل الأعلى : الدولة الصغيرة التي يمكنها الحفاظ على هويتها والوقوف ضد السوفييت . وكان هذا الإحساس الجورجي المحلي قوياً للغاية عند يهود جورجيا . ولعل هذا يمثل عنصر الجذب .

٢ ـ عنصر الطرد :

حكم مجافنادزة (السكرتير الأول للحزب الشيوعي الجورجي) جورجيا مدة تسعة عشر عاماً ، وكان الفساد قد وصل في عهده إلى مستويات لم يسبق لها نظير ، إذ يبدو أن الشبكة الجورجية نجحت في التسلل والاستيلاء على مؤسسات الحزب الشيوعي ذاتها هناك ، وفي تسخيرها لصالح أعضاء الشبكة أو الشبكات ، وبعد إقالته ، عُيِّن مكانه شفارنادزة المشهور بنزاهته . ولذا ، كان من المتوقع أن يقوم بمناهضة الاقتصاد الثاني الذي كان يرتبط به عدد كبير من اليهود بنسبة تفوق نسبة غير اليهود . وقد شكلت هذه التحولات الاقتصادية عنصر الطرد .

ويُلاحَظ أن كلاً من عنصري الجذب والطرد محليان تماماً ، وأن اختلاف اليهود عن غير اليهود كان اختلافاً في الدرجة وحسب وليس في النوعية ، إذ أن استجابتهم للأحداث كانت استجابة جورجية أساساً وذات بعد يهودي يزيد من حدة الاستجابة عندهم . وقد كانت درجة تعاطفهم مع الدولة الصهيونية بطبيعة الحال أعلى ، كما أن درجة الضرر الذي لحق بهم نتيجة الإصلاحات الاقتصادية كانت أكبر كما بيَّنا . ويمكن أن نضيف هنا عناصر أخرى مساعدة ، فعلى سبيل المثال رأى يهود جورجيا أن الدولة الصهيونية زاخرة بفرص العمل الحر (الاقتصاد الثاني) الأمر الذي كان يزيد ولا شك من عنصر الجذب . ومن هنا تأتي معاداة معظم المهاجرين من جورجيا للصهيونية العمالية التي تؤيد تدخُّل الدولة في الاقتصاد . ومن العناصر المساعدة الأخرى ، أن عناصر الشبكة التي انتقلت إلى إسرائيل لعبت دوراً أساسياً في جذب أعداد كبيرة من يهود جورجيا . فالمهاجرون السوفييت ، كي يحصلوا على تأشيرة هجرة ، كان عليهم أن يحصلوا على دعوة من قريب لهم في الخارج . وقد حصل يهود جورجيا على أعلى نسبة من الدعوات وصلت إلى نحو ١١٨٪ ، حيث كان بعض اليهود يتلقون أكثر من دعوة . وحينما كان جزء من الشبكة اليهودية ينتقل إلى إسرائيل ، كان بقية الأفراد الذين تخلفوا يجدون الحياة صعبة للغاية ولا معنى لها خارج نطاق الشبكة ، فيهاجرون هم أيضاً ليلحقوا بإخوانهم .

وفيما يلي أعداد اليهود الذين هاجروا من جورجيا :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٧١	٤٣٠٠	١٩٧٣	٧,٧٥٠
١٩٧٢	١٠,٩٠٠	١٩٧٤	٢,٧٠٠

ولم يزد عدد المهاجرين بعد ذلك التاريخ على ألف ، مع أن السوفييت لم يتخذوا سياسة متشددة في منح تأشيرات الخروج إلا بعد عام ١٩٧٩ ، أي أن الأعوام الخمسة التالية للفترة التي شهدت الهجرة اليهودية المكثفة من الاتحاد السوفيتي شهدت أيضاً تراجعاً بين يهود جورجيا . ويمكن تفسير ذلك مرة أخرى في ضوء حركيات الجذب والطرد الخاصة بالمجتمع الجورجي ، فعنصر الجذب الأساسي ، وهو حرب ١٩٦٧ ، كان آخذاً في التضاؤل التدريجي ، وفقد كثيراً من بريقه في حرب الاستنزاف ، واختفى تقريباً بعد حرب ١٩٧٣ . أما عنصر الطرد، وهو التحولات الاقتصادية التي هزَّت الاقتصاد الثاني ، فيبدو أنه بدأ يقل، إذ أن مخاوف الجورجيين ، ومن بينهم اليهود، أخذت تهدأ قليلاً ، وظهر أن الأمر لم يكن مخيفاً كما توهموا في بداية الأمر ، ومن هنا تناقصت الهجرة .

ويشكل يهود جورجيا في إسرائيل مشكلة كبيرة ، فهم لا يشعرون بالسعادة هناك ، كما أنهم يعانون من التفرقة العنصرية التي تُمارس ضدهم . وقد أصبحوا من أهم مصادر الجريمة المنظمة في الدولة الصهيونية وتخصصوا في تزييف النقود . وهاجرت أعداد منهم إلى الولايات المتحدة وشكَّلوا هناك بعض عصابات الجريمة المنظمة ، والجريمة المنظمة هي أحد أشكال الاقتصاد الثاني .

وكان عدد يهود جورجيا ٥٢ ألفاً عام ١٩٥٩ (وجاء في إحصاء آخر أن عددهم كان ٨٠ ألفاً من الناحية الفعلية) ، وانخفض إلى ٤٣

ألفاً عام ١٩٧٠ . أما إحصاء عام ١٩٨٩ ، الذي يتميَّز بأنه يُقسِّم يهود الاتحاد السوفيتي إلى جماعات يهودية إثنية مختلفة ، فيذكر أن عدد يهود جورجيا ١٦,١٢٣ يعيش أغلبهم في تفليس عاصمة الجمهورية . ولا يزال الجو العام في جورجيا تعددياً، وإن كانت الوظائف الإستراتيجية تُحْجَب عن اليهود لأنهم سيهاجرون إلى إسرائيل . وقد أخذت معدلات الاندماج والعلمنة في التزايد ، وبدأ اليهود يصطبغون بالصبغة الروسية لا الجورجية. وإذا أضفنا إلى ذلك هجرة اليهود المتدينين، فليس من المستبعد أن يختفي يهود جورجيا في المستقبل. وقد أصبحت جورجيا جمهورية مستقلة، وهو ما يعني أن الإطار الذي يتحرك فيه أعضاء الجماعة اليهودية قد تغيَّر بشكل جوهري .

يهود بخارى

Bukhara Jews

«بخارى» إمارة إسلامية تركية ضمتها الإمبراطورية الروسية في القرن التاسع عشر . وتقع بخارى الآن ضمن جمهورية أزبكستان . وتعود جذور يهود بخارى إلى عصور قديمة ، فتقول أساطيرهم إنهم منحدرون من أسباط يسرائيل العشرة المفقودة . وهم متدمجون في الوسط الحضاري الذي يعيشون فيه ، ويتحدثون اللغة الطاجيكية ، وهي لهجة فارسية . وقد كان يهود بخارى وأفغانستان ووسط آسيا يُشكِّلون وحدة ثقافية واحدة ، ثم انقسمت هذه الجماعة في القرن السادس عشر ، مع بداية الحكم الشيعي في إيران ، إلى يهود إيران ويهود وسط آسيا ويهود أفغانستان الذين ظلوا تحت الحكم السني . ثم انقسمت الجماعة الأخيرة ، في القرن الثامن عشر ، وتفرَّع عنها يهود بخارى ويهود أفغانستان . ويبلغ عددهم ، حسب إحصاء ١٩٥٩ ، ثمانية وعشرين ألفاً يعيش ثلاثة وعشرون ألفاً منهم في أزبكستان ، في سمرقند وبخارى ، والباقون في طاجيكستان . أما إحصاء ١٩٨٩ ، فيحدد العدد بنحو ٣٦,٥٦٨ ألفاً . وإن صدقت هذه الأرقام ، تكون الجماعة اليهودية في بخارى هي الجماعة الوحيدة في كومنولث الدول المستقلة التي زاد عدد أعضائها .

وكان يهود بخارى يعملون بالتجارة والصباغة عشية الثورة وازدهر حالهم بعد ضم الإمارات الإسلامية إلى الإمبراطورية نظراً لفتح الأسواق أمامهم . ولكن ، مع قيام الثورة الاشتراكية ، تدهور وضع التجارة عامة ، وبدأت الحكومة السوفيتية في إنشاء مزارع جماعية لهم ، لكن التجربة فشلت .

ويبدو أنهم فقدوا ، في مرحلة من المراحل ، علاقتهم باليهودية الحاخامية ونسوا شريعة موسى . ولذا ، فإنهم كانوا لا يمارسون الذبح الشرعي بل ويأكلون اللحوم التي يذبحها المسلمون . وكانت زوجاتهم يلبسن الحجاب مثل نساء المسلمين . كما كانوا يمضغون الطباق ويدخنون النرجيلة .

ويظهر الأثر الإسلامي أيضاً على المعبد اليهودي الذي يشبه المسجد ويغطيه السجاد الفاخر . ويصلي فيه اليهود جالسين القرفصاء . وهم يُنادون بعضهم البعض بالاسم الأخير مع إضافة لفظة «أخ» أو «عم» ، كما يُنادَى العلماء بلفظ «ملاّ» . أما رجال الدين ، فيسمونهم «الحاخامات» وليس «الرابي» كما هو الحال في الغرب . وتشبه مدارسهم الدينية الكتاتيب .

يهود الجبال (يهود التات . يهود داغستان)

Mountain Jews (Tat Jews; Daghestan Jews)

«يهود الجبال» جماعة يهودية لها خصوصياتها الإثنية واللغوية ، يعيش أعضاؤها في مقاطعة داغستان السوفيتية وأذربيجان (ومن هنا يشار إليهم بلفظ «يهود داغستان») كما يُشار إليهم كذلك باسم «يهود التات» . ويُسمِّي يهود الجبال أنفسهم «جوهور» . ولكن مصطلح «يهود الجبال» ذاته هو مصطلح روسي صكته السلطات الروسية القيصرية في منتصف القرن التاسع عشر بعد ضم المنطقة إليها .

وتشير الدلائل اللغوية والتاريخية إلى الأصول الإيرانية ليهود الجبال ، فلهجتهم من أصول إيرانية شمالية دخلت عليها كلمات تركية وعبرية . وقد تكوَّنت الجماعة نتيجة هجرة اليهود المستمرة من شمال إيران (وربما من الإمبراطورية البيزنطية) لأذربيجان حيث استوطنوا بين متحدثي لغة التات التي أصبحت لغتهم . وقد بدأت هذه العملية في منتصف القرن السابع الميلادي مع الفتح الإسلامي للمنطقة ، واستمرت حتى غزاها المغول في القرن الثالث عشر . وفي هذه الفترة ، اتصل يهود الجبال بيهود الخزر . وقد انقطعت الصلة بعد ذلك بين يهود الجبال وبقية يهود العالم حتى بداية القرن التاسع عشر تقريباً .

وليهود الجبال عادات وقيم قَبَلية ، فهم يبجلون الشجاعة ، ويدافعون عن شرفهم مستخدمين السيف ، ويأخذون بالثأر ، وتنتشر بينهم الخرافات ، ويعيشون في بيوت طينية منخفضة تعلَّق على حوائطها أسلحتهم المصقولة ، وهو ما يدل على اندماجهم في الحضارة القوقازية الإسلامية في هذه المنطقة . وهم يتَّسمون بأسماء توراتية بعد إضافة النهاية الروسية «أوف» ، فيصبح «بنيامين» مثلاً «بنيامينوف» . وتشبه معابدهم المساجد من الخارج ، وكانت

تُستخدَم كمدرسة دينية على طريقة المسلمين حيث يجلس الأطفال على الأرض ويحفظون التوراة على يد الحاخام . وهم يحتفلون بالأعياد اليهودية ، وخصوصاً عيد النصيب وعيد الفصح ، وإن كانت الطقوس الخاصة بعيد الفصح مختلفة عن تلك المعروفة بين اليهود . كما أن طقوس الزواج عندهم مختلفة عن تلك الطقوس المعروفة لدى يهود أوربا ، إذ يدفع الزوج ما يُسمَّى «الكالين» أو «الفدية» . وهم يقسمون بالنار ويشعلون النار بجوار المرضى ، الأمر الذي يشير إلى أصولهم الإيرانية . والوحدة الاجتماعية الأساسية هي الأسرة الممتدة ، والتي تضم ثلاثة أو أربعة أجيال ويبلغ عددها نحو سبعين عضواً . وكان يهود الجبال يمارسون تعدد الزوجات . ويشكل كل سبع أو ثماني أسر قرية يهودية .

وقد تدهورت أحوال الجماعة اليهودية بتدهور المنطقة ككل نتيجة تحولها إلى ساحة صراع بين كلٍّ من روسيا وتركيا وإيران إلى جانب الصراع بين عدد من الحكام المحليين . وقد نجحت روسيا في نهاية الأمر في ضمها عام ١٨١٣ . وقد طلب يهود الجبال من السلطات القيصرية أن تضعهم تحت حمايتها . كما حدثت تحولات عميقة للجماعة اليهودية بعد ضم القوقاز لروسيا ، فانتقلت أعداد كبيرة من اليهود من المناطق الجبلية إلى المدن حتى أنه كان هناك في منتصف القرن التاسع عشر نحو ٤١٪ من أعضاء الجماعة في المدن ، ولكن ، مع هذا ، ظل حوالي ٥٨٪ منهم في القطاع الزراعي ، بل إن سكان المدن من اليهود كانوا يعملون في صناعات مرتبطة بالمحاصيل الزراعية مثل تقطير الكحول . وكان أثرياء يهود الجبال من أصحاب شركات تقطير الخمور وبيعها ، كما أن إحدى العائلات كانت تمتلك أهم شركة صيد في داغستان ، وكان الكثيرون من أعضاء الجماعة يقومون بزراعة نبات الروبيا Rubia وهو نبات كانت تُستخلص من جذوره صبغة حمراء ، كما كانوا يشتغلون بدباغة الجلود وبصيد بعض الحيوانات لاستخدام جلودها . وقد أصبح كثير من أعضاء الجماعة اليهودية عمال صيد أو عمالاً أجراء وانتقلوا إلى باكو ودربنت بعد أن تصاعدت معدلات التصنيع والتحديث في روسيا القيصرية ، وهو ما جعل الصناعات اليدوية غير قادرة على الاستمرار ، كما عمل كثيرون منهم تجاراً صغاراً .

وبعد الثورة البلشفية ، تغيَّر وضع يهود الجبال بشكل أعمق . وكما طلب يهود داغستان من السلطات القيصرية من قبل وضعهم تحت الحماية ، فإنهم تحالفوا تماماً مع السلطات السوفيتية ضد غالبية السكان . ولذا ، فحينما قامت حركة انفصالية ضد السوفييت ، كان ٧٠٪ من الحرس الأحمر في المنطقة من يهود داغستان . وكانت الأعمال الأدبية التي كتبها أدباء من يهود الجبال تتبنى خط الحزب بشكل كامل . وقد جلب كل هذا على أعضاء الجماعة اليهودية كره الجماهير .

وقد أدَّت حركة التصنيع في الاتحاد السوفيتي ، والخطط الخمسية المتتالية ، إلى فك التضامن القبلي بين يهود داغستان ، فتركوا الجبال وبدأوا يعملون بالمصانع . ومع هذا ، فإن أصولهم القبلية وترابطهم العائلي يساعدانهم على الاحتفاظ بقسط كبير من خصوصيتهم الجبلية .

وحسب إحصاءي ١٩٥٩ و١٩٧٠ ، كان عدد يهود الجبال يبلغ ما بين ٥٠ ألفاً و٧٠ ألفاً (وهو في تصورنا عدد مبالغ فيه) . وقد هاجر حوالي ١٢ ألفاً في الفترة بين عام ١٩٧٤ ومنتصف الثمانينيات إلى إسرائيل ، وبحسب إحصاء عام ١٩٨٩ (وهو أول إحصاء يُقسِّم يهود الاتحاد السوفيتي إلى جماعات إثنية مختلفة) ، يبلغ عددهم حوالي ٢٠ ألفاً ، ولعل انخفاض العدد بهذا الشكل الملحوظ يرجع إلى استبعاد يهود اليديشية المقيمين في داغستان . وأهم مراكزهم السكانية باكو عاصمة أذربيجان . أما في داغستان ، فإن معظمهم يعيشون في دربنت وفي عاصمة الجمهورية .

يهود الخَزَر

Khazar Jews

«الخَزَر» قبيلة من أصل تركي عاشت في منخفض الفولجا جنوب روسيا وكوَّنت مملكة كان حكامها وبعض سكانها يدينون بعبادات وثنية ولكنهم تحولوا إلى اليهودية . ويُنطق الاسم أحياناً «خازارا» كما هو الحال في العربية . ولكن ثمة دلائل على أن هناك طرائق أخرى للنطق ، فهو بالعبرية «كوزاي» وبالصينية «كوزا» . وربما يعود الاسم إلى الكلمة التركية «قزمق» بمعنى «يتجول أو يتنقل كالبدو» (المشتق منها كلمة «قوزاق») أو ربما يعود إلى كلمة «قوز» أو «جاز» بمعنى «جانب الجبل المتجه إلى الشمال» ، وقد يُفسِّر هذا الاشتقاق الأخير النطق العبري (كوزاري) .

وقد وصل الخَزَر إلى منطقة الفولجا والقوقاز من أقصى الشرق في تاريخ غير معروف ، وإن كان آرثر كوستلر يذكر نقلاً عن برسكس ، رسول الإمبراطور البيزنطي لقبائل اليهود في القرن السادس الميلادي ، أن الخَزَر ظهروا على المسرح الأوربي حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي باعتبارهم شعباً خاضعاً لسيادة قبائل الهون . ويمكن أن يُعتبروا هم والمجر وغيرهم من القبائل نسل قبيلة أتيلا زعيم البرابرة الشهير . وتُطلق التواريخ الروسية المعاصرة على الخَزَر مصطلح «الأوجاريين البيض» ، مقابل «الأوجاريين السود» ،

وهم الهنغار أو المجريون . وقد أدّى موت أتيلا إلى ظهور فراغ كبير وهو ما يسَّر عملية ظهور الخَزَر باعتبارهم قوة في المنطقة التي شغلوها، فقاموا بصهر واستيعاب وقهر بعض القبائل التركية الأخرى ، ثم هزموا البلغار في نهاية الأمر واضطروهم إلى الهجرة . ولكن ، قبل استقلال الخَزَر الكامل في المملكة ، كان الخَزَر يشكلون جزءاً مما كان يُسمَّى الإمبراطورية التركية الغربية أو المملكة التركية أو جزءاً من أتراك التركستان ، وكانوا يشكلون اتحاد قبائل تخضع لحاكم واحد هو الخاقان ، أو الكاجان ، أو الخاجان . ويُقال إن الخَزَر ساروا مع سنجيبو ، أول خاقانات الأتراك الغربيين ، ضد إحدى القلاع الساسانية الفارسية . وقد استمرت المملكة التركية مدة قرن (٥٥٠ـ ٦٥٠) ، وأصبحت كلمة «تركي» بعد ذلك تشير إلى الأتراك وحسب دون الشعوب التركية الأخرى .

كانت المملكة الخَزَرية تقع على المعبر الحيوي الواقع بين البحر الأسود وبحر قزوين ، بين القوتين الشرقيتين العظميين في ذلك الوقت : الدولتين الإسلامية والبيزنطية (دولة الروم) . وقد أصبحت تمثل عازلة حدودية تحمي بيزنطة من الغارات الهمجية التي تشنها قبائل الإستبس الشمالية مثل البلغار والمجر ، كما أنها أوقفت التقدم الإسلامي . فقد قامت بين الخَزَر والعرب عدة حروب كانت أولها بين عامي ٦٤٢ و٦٥٢ حينما أصدر الخليفة عمر (رضي الله عنه) أمره للقوات الإسلامية بالهجوم على عاصمتهم بالانجار ، ولكن المسلمين لم ينجحوا في مهمتهم واستُشهد قائدهم عام ٦٥٣ . وقامت الحرب الثانية بين عامي٧٢٢ و ٧٣٧ وانتهت بهزيمة الخَزَر على يد مروان بن محمد (مروان الثاني) وأسلم بعدها خاقان الخَزَر ، ولكنه عاد وتحوَّل إلى ديانته الأصلية . ويقول المسعودي إن الخَزَر قد نقلوا عاصمتهم (تحت ضغط الهجمات العربية) إلى أتل ، عند مصب نهر الفولجا ، بعد عام ٧٣٧ . ويبدو أنهم خلال الفترة بين اتخاذهم كلاً من بالانجار وأتل عاصمة لهم ، كانت لهم عاصمة ثالثة هي سمندر .

ومما يجدر ذكره أن كُتب الرحالة والمؤرخين العرب القدامى (مثل : ابن فضلان ، والأصطخري ، وابن حوقل ، والمسعودي ، وابن سعيد المغربي ، والبلخي ، واليعقوبي ، وابن رسته ، والمقدسي ، وابن النديم ، والطبري ، وابن مسكويه ، والبيروني ، وياقوت) لا تزال من أهم المصادر عن الخَزَر ، سواء فيما يتعلق بتاريخهم أو عاداتهم . ومع أنه توجد مصادر أخرى بيزنطية وروسية، فإن كُتب الرحالة العرب لا تزال المصدر الأساسي . ومن المفارقات التي يجب أن تسبِّب لنا ، نحن عرب القرن العشرين ، الإحساس بالحرج أننا لم نستفد بهذه الدراسات وإنما استفدنا بدراسات كتاب غربيين معظمهم من اليهود مثل آرثر كوستلر في كتابه **دولة الخَزَر وميراثها (القبيلة الثالثة عشرة)** (والذي استفدنا منه كثيراً في هذا المدخل) . وكتاب العالم اليهودي دنلوب ، والموسوعات اليهودية المختلفة ، في حين استمد هؤلاء الكُتّاب معلوماتهم من المصادر العربية بالدرجة الأولى .

ورغم انتصارهم ، لم يتمكن العرب من القضاء على مملكة الخَزَر ، بسبب المشاكل الداخلية للخلافة الأموية ، ولعل هذا هو الذي أنقذ الخَزَر في نهاية الأمر . وتشهد فترة الحرب الثانية قيام تحالفات مع الامبراطورية البيزنطية ربما للرد على الهجوم الإسلامي . وقد زوَّج الامبراطور البيزنطي ابنه من أميرة خزرية عام ٧٣٢ ، وكانت ثمرة هذا الزواج الإمبراطور ليو الخَزَري (٧٧٥ـ ٧٨٠) .

ولا يعرف أحد بالضبط مدى اتساع مملكة الخَزَر (خزاريا) ، فيجعلها بعض المؤرخين مملكة صغيرة على الفولجا والدون ، في حين يرى البعض الآخر أنها كانت في قمة اتساعها وتَطوُّرها ، في منتصف القرن الثامن حيث شكلت مملكة مترامية الأطراف تمتد حدودها بين سواحل البحر الأسود الشمالية ، ونهر الدنيبر في الغرب ، وبحر قزوين ونهر الفولجا في الشرق ، حتى حدودها الجنوبية وجبال القوقاز في الجنوب . كما اتجه الخَزَر شمالاً . ويُقال إن حدود المملكة وصلت إلى كييف ، لكن القرائن على ذلك ضعيفة. ويقول آرثر كوستلر إن الخَزَر ، في ذروة قوتهم ، فرضوا الجزية على ما يزيد على ثلاثين عشيرة وقبيلة مختلفة تقطن المساحات الشاسعة فيما بين القوقاز وجبال الأورال ومدينة كييف والإستبس الأوكرانية . ومن بين الشعوب الواقعة تحت سلطان الخَزَر : البلغار (بلغار الفولجا) ، والغز ، والمجريون (الهنغار) ، وسكان المستعمرات الجرمانية واليونانية في القرم ، وبعض القبائل السلافية . وكانت الجيوش الخَزَرية تشن غاراتها أيضاً جنوب المناطق الواقعة وراء مناطق سيادتها المترامية ، جورجيا وأرمينيا ، وتغلغلت في الأراضي العربية حتى شارفت الموصل . ولم يكن للخزر ، حتى القرن التاسع ، أي منافس لسيادتهم في المناطق الواقعة شمال البحر الأسود وما يلحقها من مناطق الإستبس والغابات على نهر الدنيبر . وقد ظلوا القوة العظمى في النصف الجنوبي من أوربا الشرقية مدة قرن ونصف قرن، وكانوا حاجز حماية منيع يسد ممر الأورال وقزوين فيما بين آسيا وأوربا . وقد صدُّوا طوال هذه الفترة غارات القبائل البدوية الزاحفة من الشرق . وقد بدأ تدهور الخَزَر في القرن العاشر بسبب تزايد قوة قبائل البيشنج في الشمال والغرب والروس في إمارة كييف .

وبرغم تدهورها وضعف نفوذها ، احتفظت مملكة الخَزَر باستقلالها حتى القرن العاشر ، حين قام حاكم كييف (الأمير سفياتوسلاف) بالهجوم على أتل عام ٩٦٥ وتحطيم قوتها وتدمير عاصمتها وكذلك قلعة سمندر وساكريل على نهر الدون . ولكن هذا لا يعني أن الخَزَر قد أبيدوا ، وإنما يعني تناقُص قوتهم وانكماش نفوذهم ، إذ أن ذكرهم يأتي في المدونات المختلفة حتى القرن الثاني عشر . ويمكن القول بأن الإمبراطورية الخَزَرية تهاوت تماماً باعتناق الأمير الروسي فلاديمير الديانة المسيحية ، فقد أدَّى هذا إلى ظهور تحالف مسيحي يضم بيزنطة في الغرب وروسيا في الشمال ، وهذا ما جعل مملكة الخَزَر اليهودية دون قيمة إستراتيجية كدولة عازلة ، وسقطت تماماً في نهاية الأمر تحت هجمات الروس أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر . ويُقال إن خاقان الخَزَر اعتنق الإسلام في تلك الفترة لعقد تحالف مع المسلمين . وقضى الغزو التتري على ما تبقَّى من الخَزَر في وادي الفولجا عام ١٢٤٧ حين اختفوا تماماً كجماعة مستقلة . ويُلاحَظ أن دولة الخَزَر تقع في المنطقة التي تلتقي فيها عدة إمبراطوريات ولم تحقق الازدهار إلا بسبب الفراغ الموجود في تلك المنطقة . وهي في هذا ، تشبه ، في كثير من الوجوه ، الدولة العبرانية المتحدة (في الماضي) ، والدولة الصهيونية (في العصر الحديث) .

وحضارة الخَزَر آسيوية قَبَلية بدائية احتفظت بكثير من الطقوس البدائية حتى بعد أن أحرزت قدراً لا بأس به من التقدم . وقد عرف الخَزَر نظام الملكية المزدوجة المعروف بين القبائل التركية وبعض الشعوب الآسيوية إذ كان يحكمهم الخاقان أو الكاجان الأكبر الذي لم يكن يظهر إلا مرة واحدة كل أربعة أشهر ولا يتحدث إلا إلى نفر محدود من الناس . وكان الخاقان موضع تبجيل كبير ، ويجري تتويجه في احتفال مهيب للغاية . وقد كان دائماً من سلالة ملكية ، وكان المنصب يُورَّث في العائلة نفسها ، حتى لو كان الوريث شخصاً عادياً فقيراً كما يُلاحظ الرحالة العرب . وكانت سلطة الخاقان مطلقة حتى أنه لو طلب إلى أحد أن يقتل نفسه لفعل . ولكن الخاقان كان في نهاية الأمر مبعداً معزولاً إذ كان نائبه ، كاجان بك أو البك وحسب ، هو الذي يصرِّف شئون الدولة شاملة إعداد الجيوش وقيادتها ، وهو الذي يظهر للعامة ويقودهم في الحروب ، وهو الذي كان يمتلك كل القوى ذات التأثير . ورغم أن البك كان يدين بالطاعة لحضرة الخاقان الأكبر ويأتيه كل يوم في إذعان وخضوع ، فإنه هو الذي كان يُعيِّنه كما يذكر الأصطخري ، أو ربما كان مؤثراً في اختياره . وربما كان هذا التقسيم للسلطة بين الخاقان والبك تقسيماً للسلطتين الدينية والدنيوية . فالخاقان الأكبر صاحب السلطة الروحية المطلقة ، والبك صاحب السلطة الدنيوية الفعلية . وهذه العلاقة تشبه إلى حدٍّ كبير علاقة الإمبراطور (أو الميكادو) بالحاكم العسكري (الشوجن) في اليابان ، فالأول هو صاحب السلطة المطلقة الذي يخضع له الشوجن ، ولكن هذا الأخير هو الذي يقدر على الحل والربط . وقد عُقدت مقارنة طريفة بين نظام الحكم لدى الخَزَر ولعبة الشطرنج ، الملكية المزدوجة ، تُمثَّل على رقعة الشطرنج بالملك (الكاجان) والوزير (البك) حيث يظل الملك في عزلة يحميه أتباعه ضعيف الحول لا يجد حراكاً لأكثر من خطوة قصيرة واحدة في كل مرة . أما الوزير فهو على النقيض من ذلك ، له الوجود الأقوى على الرقعة التي يسيطر عليها . وبرغم ذلك ، فإن من المحتمل أن «يموت» الوزير وتظل اللعبة قائمة في حين يكون «موت» الملك الكارثة العظمى التي تُنهي اللعبة . وإن أردنا استخدام المصطلح الذي نستخدمه في هذه الموسوعة لقلنا إن الملك هو اللوجوس أو المطلق ، وإنه ركيزة النسق النهائية أو المرجعية التي لا مرجعية بعدها .

وكانت التجارة المصدر المالي الأساسي لمملكة الخَزَر حيث كانت متحكمة في الطرق التجارية الموصلة بين الشرق الأقصى والإمبراطورية البيزنطية ، وكذلك في الطرق الموصلة بين العرب والبلاد السلافية . وقد كانت تفرض الضرائب على البضائع التي تمر فيها . كما كان الخراج من الدول الخاضعة لها مصدراً للريع .

وكانت ديانة الخَزَر في المراحل الأولى شامانية بدائية يهيمن عليها الشامان (الكاهن/ الساحر/ الطبيب) الذي يدَّعي المقدرة على شفاء المرضى والسيطرة على الأرواح الشريرة ويدَّعي معرفة الغيب . ويبدو أن الخَزَر أحرزوا قسطاً كبيراً من التحضر قبل تَهوُّدهم وبعده ، فقد تركوا خيامهم وبنوا البيوت من الحجر المحروق . وكان للمسلمين مساجد متعددة في مملكتهم ، منها مسجد كانت مئذنته ترتفع إلى ما يفوق ارتفاع القلعة الملكية . كما أنهم مارسوا الزراعة ، واتسع نطاق تجارتهم الدولية . وقد ازدهرت أيضاً الفنون والحرف ، ومنها صناعة الأزياء النسائية وصناعة الفضة . أما نمط الفن الخَزَري ، فقد كان متأثراً بالفن الفارسي . وقد تطوَّر نظامهم القضائي أيضاً بحيث كان في عاصمة الخَزَر سبعة قضاة ، اثنان منهم للمسلمين واثنان لليهود واثنان للمسيحيين وواحد للوثنيين .

وكما أسلفنا الذكر ، بلغت مملكة الخَزَر أوج عظمتها وقوتها بين القرنين الثامن والعاشر . وأثناء هذه الفترة ، اعتنق ملكها بولان (٧٨٦ ـ ٨٠٩) ، ومعه أربعة آلاف من النبلاء ، الديانة اليهودية وجعلها الديانة الرسمية ، وهو ما يؤكده المسعودي حين يشير إلى

أنهم تهودوا في عهد هارون الرشيد . ويبدو أنهم عرفوا اليهودية من خلال عشرات من المهاجرين اليهود الذين فرُّوا من اضطهاد الإمبراطورية البيزنطية بخاصة في عهد هرقل (في القرن السابع الميلادي) . وقد كتب أحد يهود الأندلس (حسداي ابن شبروط) ، حين عرف بقيام هذه المملكة ، إلى يوسف ملك الخَزَر ، فيما يُعرَف باسم «المراسلات الخَزَرية» ، يسأله عن القبيلة العبرية التي ينتمي إليها وعن أمور أخرى . وقد أكد له الملك أن أصل الخَزَر تركي وليس سامياً ، ولا علاقة له بأسباط يسرائيل العشرة المفقودة ولا بفلسطين . وفي رده على ابن شبروط ، يذكر الملك يوسف كيف اعتنق بولان اليهودية ، فيقول إنه بعث في طلب زعماء الديانات السماوية وأقام بينهم حواراً ليشرح كل منهم دينه ويناقش الأديان الأخرى ، وقد اقتنع الملك بعد هذه المناقشة بالدين اليهودي . وقد تخيَّل الشاعر الأندلسي اليهودي يهودا اللاوي هذا الحوار الفلسفي ورواه في كتاب له عن هذا الموضوع . وقام أحد أحفاد بولان بإصلاح ديني ، فترجم العهد القديم والتلمود (ربما بضعة أجزاء منه نظراً لضخامته) . ويقول كوستلر إن يهودية بولان كانت قرّائية تؤمن بالعهد القديم دون التلمود ، ثم تطورت إلى يهودية حاخامية . وقد ظهر مذهب القرائين في القرن الثامن في العراق ، وكان للقرّائين حركة تبشيرية قوية . ومن المعروف أن القرّائية ظلت في بلاد الخَزَر قائمة بشكل واضح حتى النهاية ، ولا تزال قرى اليهود القرّائين الناطقين بالتركية قائمة حتى الآن في روسيا . ولم تكن يهودية الخَزَر كاملة ، بل احتفظوا بكثير من العادات الشامانية من تراثهم التركي البدائي . فكانوا ، على سبيل المثال ، يقتلون الملك عادةً بعد أن يحكم أربعين عاماً ، وهذا دليل على استمرار عبادات الخصب حتى بعد اعتناقهم اليهودية ، كما أنهم كانوا يقتلون من يتولون حفر قبر الخاقان الأكبر (ولعل هذا يُفسِّر عدم اكتراث يهود العراق بهم ، فلم يكونوا من وجهة نظر المؤسسة الدينية يهوداً خُلَّصاً) . وقد رد يوسف ملك الخَزَر على سؤال ابن شفروط عن آخر الأيام رداً مبهماً للغاية . وليس من المعروف إن كان أعضاء قبائل الخَزَر كلهم قد تهوَّدوا ، أم أن الأمر ظل مقصوراً على الملك والنبلاء وأقلية من الشعب .

وقد حاول المؤرخون تفسير ظاهرة تَهوُّد الخَزَر ، فيُقال إنهم تهودوا لأسباب سياسية حيث كانوا واقعين بين الإمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية ، وكانت الإمبراطورية الروسية حينذاك فراغاً . ولكي يحتفظوا باستقلالهم ، تبنوا عقيدة دينية مختلفة عن عقيدة القوتين العظميين . ويُقال أيضاً إن التهود كان لأسباب اقتصادية إذ أن الخَزَر كانوا قد بدأوا في احتراف التجارة وكان على من يوّد ممارسة هذه المهنة في هذه المناطق وغيرها أن يتهود حتى يستفيد من شبكة الاتصالات اليهودية في العصور الوسطى ، والتي كانت تعتبر نظام ائتمان دولي . وقد أصبح بوسع الخَزَر ، بتهودهم ، أن يلعبوا دور الوسيط أو الدولة الوظيفية الوسيطة بين القوتين العظميين ، إذ كان لكل منهما قوانينها وشرائعها ، ولم تكن تُوجَد بينهما قنوات اتصال ولا يمكنُ لتجار كل طرف أن يَعبُروا إلى أرض الطرف الآخر إلا بصعوبة . ولذا ، كان من الضروري ظهور طرف ثالث هامشي محايد ، مثل الجماعة الوظيفية الوسيطة ، ليقوم بالنشاط التجاري بينهما . ويُقال إن النخبة الحاكمة الخَزَرية قد تبنَّت ديانة سماوية توحيدية مثل اليهودية ، وذلك حتى تضفي على نفسها هيبةً ووقاراً ، وتُوجد مسافة بينها وبين العبادات الشامانية البدائية السائدة ، وتربط بينها وبين النخب الحاكمة في العالمين الإسلامي والمسيحي .

ويرى بعض المؤرخين ، ومن بينهم العالم الإسرائيلي إ . ن . بولياك أستاذ التاريخ اليهودي الوسيط في جامعة تل أبيب ، وكذلك علماء الأجناس ، أن يهود شرق أوربا الإشكناز ليسوا من نسل يهود فلسطين وإنما من نسل الخَزَر الذين استوطنوا هناك بعد تشرذمهم . وقد وصفهم الجغرافيون العرب بأنهم ذوو بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر غزير ضارب للحمرة . ومن هنا ، فإن مقولة أن يهود أوربا الإشكناز من أصل خزري تركي ليست مقولة فكرية محضة ذات مقدرة تفسيرية عالية تستند إلى العقل والمنطق وحسب ، وإنما هي مقولة تستند أيضاً إلى المعطيات التاريخية المحسوسة . ومن أهم ما كُتب في هذا الموضوع كتاب المؤلف الإنجليزي المجري الأصل ، اليهودي العقيدة ، آرثر كوستلر ، والذي أسلفنا الإشارة إليه ، حيث يبرهن فيه على المقولة الخاصة بهجرة يهود الخَزَر إلى شرق أوربا ، بالإشارة إلى العلاقة الوثيقة بين الخَزَر والمجر وكيف أسهم خاقان الخَزَر في تأسيس دولة المجر بأن عيَّن لقبائل المجر ملكاً يخضع لسلطانه . وقد ظلت العلاقات قوية بين الشعبين إلى أن طُرد المجريون من بلادهم عام ٨٩٦ وعبروا سلسلة جبال الكربات وانتزعوا المنطقة التي أصبحت موطنهم الحالي . ويبين كوستلر كيف انضمت إلى المجريين في هجرتهم إلى هنغاريا قبائل خزرية معروفة باسم «الكابار» ، وقادتهم إلى موطنهم الجديد . وقد استمرت العلاقة الوثيقة بين المجر والخَزَر حتى استقرار للمجموعات الخَزَرية المجرية في الوطن الجديد . وقد دعا دوق تاكسوني المجري عدداً غير معلوم من الخَزَر ليستوطنوا بلاده ، ولا شك في أن نسبة كبيرة منهم كانت من اليهود . بل ويرى كوستلر أن تدفق اليهود لم يكن على المجر وحسب بسبب العلاقات المجرية الخَزَرية كما أنه لا يمثل حالة

خاصة ، فهذه الهجرة كانت جزءاً من هجرة أكبر وهي الهجرة الجماعية الشمالية من الإستبس الأوراسية تجاه الغرب ، أي تجاه أوربا الوسطى والشرقية . ولذلك ، فهو يتحدث عن «الشتات الخَزَري» أي انتشار اليهود من بلاد الخَزَر إلى أرجاء أوربا ، مقابل «الشتات» وحسب ، أي انتشار اليهود من فلسطين .

ويُلاحظ كوستلر أن اختفاء الشعب الخَزَري من موطنه التاريخي قد صاحبه الظهور المعاصر لأكبر تَجمُّع يهودي في الشمال الغربي من أوربا . ولهذا ، اتفق المؤرخون على أن الهجرة من خزاريا قد أسهمت بالتأكيد في نمو الجماعات اليهودية البولندية . ولكن يظل هناك سؤال يتصل بحجم هذا الإسهام ؟ وما إذا كان اليهود الخَزَر قد كوَّنوا مجرد نواة للجماعة اليهودية وحسب ، أم أنهم لم يكونوا مجرد نواة ؟

وهنا يستعرض كوستلر تاريخ يهود أوربا فيبين ضآلة عددهم ، ثم يستعرض تاريخ طرد اليهود من بلد أوربي إلى آخر ، ويشير إلى أن يهود حوض الراين (حتى القرن الحادي عشر) كانوا ضئيلي الأهمية قليلي العدد ، وقد تعرضت هذه الجماعات للإبادة وتناقصت أعدادها أثناء حروب الفرنجة . أما أعضاء الجماعات اليهودية التي كان يتم تدميرها تماماً ، فقد كانوا يتركون مكان إقامتهم بعض الوقت ثم يعودون إليه ، أي أنهم لم يكونوا يهاجرو ن منها . وقد ظهر الطاعون أو الموت الأسود الذي تَفشَّى في الفترة ١٣٤٧ ـ ١٣٥٠ وقضى على ثلث سكان أوربا . لكل هذا ، يرى كوستلر أن فكرة هجرة يهود غرب أوربا إلى شرقها يتعذر إثباتها تاريخياً ، بل إنها مجرد خرافة ، أو افتراض خلقه المؤرخون ، وكان عليهم اختلاقه لتفسير ظاهرة ازدياد عدد يهود أوربا الشرقية في القرن الخامس عشر ، خصوصاً في بولندا ، زيادة مفاجئة وهائلة ، حتى أن معظم يهود أوربا كانوا في القرن السادس عشر يقيمون في بولندا . واستمر هذا الوضع قائماً ، فنجد أن معظم يهود العالم (مع بداية القرن التاسع عشر) موجودون في بولندا بحيث يمكن القول بأن يهود العالم الحديث من أصل بولندي .

وفي محاولة تفسير تزايد عدد يهود بولندا ، اختلق المؤرخ الروسي اليهودي دبنوف وغيره فرضية هجرة يهود غرب أوربا إلى شرقها (بسبب المذابح التي ارتُكبت ضد الجماعات اليهودية إبان الحروب الصليبية) ، وذلك على الرغم من أن الحوليات المعاصرة لا تتحدث عن مثل هذه الهجرة ، بل ومن الصعب تَخيُّلها . ومردُّ ذلك جهل المؤرخين بتاريخ يهود الخَزَر ، وتاريخ هذه المرحلة السديمية التي كانت تنتقل فيها شعوب أوربا أو قبائلها من مكان إلى آخر . أما كوستلر ، فيهتم بقضية يهود الخَزَر باعتباره يهودياً رافضاً لفكرة الاستمرار العرْقي اليهودي والحقوق اليهودية في فلسطين ، وباعتباره مدافعاً عن حقه في أن يظل منتمياً (كيهودي إنجليزي) إلى وطنه إنجلترا . وهو يستخلص النتيجة التالية : " إن الدلائل المعروضة تدعم الحجة القوية التي قدمها أولئك المؤرخون المحدثون ، سواء النمساويون أو الإسرائيليون أو البولنديون ، أو أولئك الذين أثبتوا (مع استقلال كلٍّ عن الآخر) أن الأغلبية العظمى من اليهود المعاصرين ليسوا من أصل فلسطيني وإنما من أصل قوقازي وأن تيار الهجرات اليهودية الرئيسي لم ينبثق من حوض البحر المتوسط عبر فرنسا وألمانيا متجهاً نحو الشرق ثم عائداً أدراجه ثانية ولكنه تَحرَّك في اتجاه ثابت دائماً (نحو الغرب) بادئاً من القوقاز عابراً أوكرانيا إلى بولندا ومنها إلى وسط أوربا . وعندما حدث في بولندا هذا الاستيطان الضخم الذي لم يسبق له نظير ، لم يكن إلى جانبه (في الغرب) سوى عدد قليل ولا يُعْتدّ به من اليهود ، في حين أن شعباً بأسره (في الشرق) كان في سبيله إلى التحرك نحو حدود جديدة " .

وتحاول الصهيونية ، في أحد أشكالها ، أن تؤسس نظرية الحقوق اليهودية في فلسطين على أساس عرْقي . إذ تدَّعي أن اليهود ، بالمعنى العرْقي ، شعب ارتبط دائماً بفلسطين (أو أرض الميعاد) ، وأن هذا النقاء العرْقي وهذا الارتباط الأزلي بأرض الأجداد ، يبرران عملية الاستيلاء على فلسطين . ولكن تَهوُّد الخَزَر ، مثل تَهوُّد الأدوميين وغيرهم من الأقوام ، يمثل تحدياً لهذه الفكرة الخاصة بالنقاء العرْقي . فالأصل الخَزَري لمعظم يهود الغرب ، أي الأغلبية العظمى من يهود العالم ، يفند فكرة الحقوق اليهودية التي تستند إلى أساس عرْقي . ومع هذا ، يجب التنبيه على أن الصهيونية تُعرِّف الهوية اليهودية الآن تعريفاً إثنياً فضفاضاً ولا تركز إلا نادراً على النظرية العرْقية ونظرية النقاء العرْقي ، كما أنها تؤسس نظرية الحق اليهودي على الارتباط الإثني والديني والحضاري وليس على الارتباط العرْقي .

الكرمشاكي (تاريخ يهود شبه جزيرة القرم)

Krimchaki (History of the Jews of the Crimean Peninsula)

«يهود الكرمشاكي» جماعة يهودية صغيرة ذات سمات إثنية خاصة ، تسكن شبه جزيرة القرم ، ويتحدث أعضاؤها لهجة تترية دخلت عليها كلمات عبرية آرامية وكلمات قليلة من اللادينو واليديشية ، وهي تُكتَب بحروف عبرية . وكان الكرمشاكي يُطلقون على أنفسهم لفظ «يهودي» أو «سريلي بالالاري» (أبناء إسرائيل) .

ولكنهم ، مع نهاية القرن التاسع عشر ، بدأوا يستخدمون الكلمة الروسية «كرمشاك» أي «سكان شبه جزيرة القرم» . وقد ظهر هذا الاسم لأول مرة في السجلات الروسية عام ١٨٥٩ . ويبدو أن السلطات الروسية قد صاغت هذا الاسم للتمييز بينهم وبين القرّائين والإشكناز .

ويعود تاريخ اليهود في القرم إلى القرن الثاني قبل الميلاد (مع الاستيطان اليوناني فيها) . ويبدو أنهم كانوا يعملون بالتجارة وفي بعض الحرف ، كما عملوا في الدولة والجيش . وقد تغيَّرت هوية أعضاء الجماعة اليهودية عدة مرات ، ويبدو أن تتريكهم بدأ في حكم إمبراطورية الخَزَر ، ولكنهم اكتسبوا هويتهم التترية التركية مع الغزو التتري عام ١٢٣٩ ، فارتدوا الأزياء التركية الإسلامية وتبنَّوا اللغة التترية . وتأثر بناء الأسرة بينهم ببناء الأسرة التترية ، فظلوا يمارسون تَعدُّد الزوجات حتى بدايات القرن التاسع عشر . وكانوا بمعزل عن الحركات الفكرية التي اكتسحت يهود أوربا مثل الاستنارة والصهيونية والإصلاح الديني . وكانت غالبيتهم من الحرفيين ، واشتغلت أقلية منهم بالزراعة وعدد قليل جداً منهم في التجارة . ورغم تبنيهم الأنماط الحضارية التركية والتترية ، إلا أن أسماء عائلات الكرمشاكي تدل على تنوع أصولهم العرْقية ، فهناك أسماء تركية (لولباكش ـ ديمارجي ـ أزميرلي) ، وأسماء قوقازية (أبابيف) ، وإيطالية وإسبانية (كونفينو ـ مانتو) ، كما توجد أسماء من أصل إشكنازي (سيلزر ـ أووري) وهناك أسماء عبرية (كوهين ـ مزراحي) .

وبعد ضم روسيا القيصرية للقرم ، تغيَّر وضع الكرمشاكي تماماً إذ بدأت عملية تحديثهم وترويسهم ، ولكنهم لم يستجيبوا لذلك في بداية الأمر ورفضوا التزاوج مع يهود اليديشية الذين كانوا يُعَدُّون عنصراً روسياً ويُوطَّنون في القرم كعنصر استيطاني . وقد تصاعدت هذه العملية مع الثورة البلشفية ، وزاد المستوى التعليمي بينهم ، الأمر الذي نجم عنه تآكل أشكال الحياة التقليدية . وقد قام كثير من أعضاء الجماعة الذين عملوا مهنيين (مهندسين أو مدرسين أو أطباء) بقطع صلتهم بمجتمع الكرمشاكي .

وقد انخفض عدد الكرمشاكي عام ١٩٨٩ إلى ١٥٥٩ . ويمكن القول بأن الكرمشاكي يذوبون بسرعة في اليهود الروس والأوكرانيين ويتزاوجون منهم ، ولا يوجد منهم الآن سوى مائة أسرة في الولايات المتحدة . ويبدو أن أعضاءها خضعوا لحركيات المجتمع الأمريكي ، كما بدأوا يتزاوجون بأعضاء الجماعات اليهودية الأخرى .

اليهود الأكراد

Kurdish Jews

«اليهود الأكراد» جماعة يهودية لها سماتها الإثنية الخاصة ، يعيش معظم أعضائها في العراق ، رغم أن معظم الأكراد يعيشون في تركيا ، حيث تُوجَد ١٤٦ قرية يهودية في العراق و١٩ في إيران و١١ في تركيا ، كما تُوجَد أيضاً مجموعة في سوريا . وتُوجَد بين أكراد العراق أقليتان دينيتان : المسيحيون النسطوريون (الذين يُسمَّون أيضاً الآشوريين) ، واليهود . وقد تأثر أعضاء الجماعتين بالثقافة الكردية . ولكنهم ، مع هذا ، لم يتبنوا اللغة الكردية إذ أنهم يتحدثون الآرامية ويتحدث يهود الموصل العربية ، وهم بذلك لا يصنفون باعتبارهم أكراداً . ويُقال إن وجود اليهود في هذه المنطقة يعود إلى أيام التهجير الآشوري ومملكة أديابني .

وقد وضع أغوات الأكراد (أي كبار ملاك الأراضي) جماعة اليهود تحت حمايتهم ، فكان اليهود يُعَدُّون ملكية خاصة لهم يجمعون منهم المحاصيل ويُخضعونهم للسخرة ، بل وكان في مقدور الأغا أن يبيع ما يملك من يهود (وهذا أمر نادر في الحضارة الإسلامية وإن كان يشبه ما حدث في أوربا) . وفي منتصف القرن العشرين ، كان ٨٠٪ من يهود كردستان يعيشون في المدن ويعملون تجاراً صغاراً وبقالين ، وكان الحرفيون يعملون صباغين وترزية ونجارين ودباغين ومراكبية ينقلون الأخشاب في قوارب أنهار الموصل . وكان العشرون في المائة الباقية يعيشون في المناطق الريفية .

ولا تختلف عادات الأكراد اليهود عن عادات الأكراد بصفة عامة . وعلى سبيل المثال ، فإن عادات الزواج بينهم لا تختلف كثيراً عن عادات الزواج السائدة في المجتمع الكردي ، حيث تتزوج الفتيات في سن مبكرة ، وعلى العريس أن يدفع مهراً لوالد العروسة تعويضاً له عن تربيتها وتنشئتها . ولا تختلف طقوس الزواج بينهم عن الطقوس السائدة بين الأكراد من تَمسُّك بعذرية الفتاة عند الزواج إلى غير ذلك من القيم والشعائر . وفي ليلة الزفاف، يتم التحقق من ذلك وتُعلَن النتيجة على المدعوين ، وإن اكتشفوا أن الفتاة غير عذراء يقوم أبوها بقتلها . ويُعتبَر تَعدُّد الزوجات أمراً مباحاً . كما أن علاقة الزوجة بزوجها وأمه لا تختلف عما هو سائد بين أهل هذه المنطقة . وهذه مجرد أمثلة عابرة تُعبِّر عن مدى اندماج الجماعة اليهودية في محيطها الحضاري ومدى استيعابهم لها .

وكان تعداد الأكراد اليهود حوالي ١٤,٨٣٥ عام ١٩٢٠ ، زاد إلى ١٩,٧٦٧ عام ١٩٤٧ ، وهم يعيشون في ١٤٦ قرية . وبعد

إعلان دولة إسرائيل ، هاجر الأكراد اليهود جميعاً إلى إسرائيل (١٩ ألفاً من العراق وثمانية آلاف من إيران وثلاثة آلاف من تركيا) .

يهـــود الصــين (يهـود كايفنج)

Chinese Jews (K'aifeng Jews)

«يهود الصين» جماعة يهودية كبيرة كانت تعيش في مدينة كايفنج عاصمة مقاطعة هونان الواقعة على ضفاف النهر الأصفر ، ولذا يُقال لهم أيضاً «يهود كايفنج» . ويبدو أن تاريخهم يعود إلى القرنين التاسع والعاشر ، حيث هاجرت مجموعة من يهود إيران وربما الهند . ويبدو أن الجماعة اليهودية كانت مهمة نوعاً ، فقد عيَّن أباطرة أسرة تانج أحد أعضاء طبقة الماندرين (وهي الأرستقراطية الثقافية من الموظفين/ العلماء) مسئولاً عنهم ، فكان يزور معبدهم باسم الإمبراطور مرة كل عام ، ويحرق البخور أمام المذبح . وكان المهاجرون اليهود (في بداية الأمر) يتحدثون الفارسية ، وكانوا متخصصين في المنسوجات القطنية وصباغتها وطباعة الألوان عليها ، وهي صناعة كانت متقدمة في الهند . وكان سكان الصين يتزايدون في تلك المرحلة ، الأمر الذي أدَّى إلى نقص حاد في المنسوجات الحريرية ونشوء حاجة إلى المنسوجات القطنية ، وهو ما قد يُفسِّر استقرار اليهود في الصين في ذلك الوقت . ومن الناحية الاجتماعية والطبقية ، كان اليهود ينتمون إلى طبقة التجار والصناع التي تقع بين الفلاحين من جهة وطبقة الموظفين/ العلماء من جهة أخرى . ومن ثم كان طموحها الاجتماعي ، مثلها مثل الطبقات التي تقع في الوسط ، هو الاتصال بالطبقة العليا والابتعاد عن طبقة الفلاحين .

وقد تأسس أول معبد يهودي في عام ١١٦٣ ، حيث كان يُسمَّى معبد الطهر والحقيقة ـ وهو اسم ذو نكهة كونفوشيوسية . وكان يترأس الجماعة الحاخام وأحد الوجهاء الذين كانوا يحتفظون بكتب اليهود المقدَّسة المكتوبة بالعبرية ويقرأون أسفار موسى الخمسة مرة كل عام .

وقد اندمج يهود كايفنج بالتدريج ، وتزاوجوا مع الصينيين ، خصوصاً المسلمين . وفي مرحلة من المراحل ، كان اليهود يُصنَّفون بوصفهم مسلمين ، حتى اختفى أثرهم تقريباً .

ويُفسَّر اندماجهم ، ثم انصهارهم في نهاية الأمر ، على أساس انعزالهم عن يهود العالم وعدم وصول مهاجرين يهود إليهم ، وكذلك على أساس الزواج المُختلَط وعدم وجود معاداة لليهود في هذا المجتمع . ولكن هذه الأسباب الجاهزة لا يمكنها أن تفسر الظاهرة ، إذ أن السؤال يظل يطرح نفسه : لماذا تزايد الزواج المُختلَط؟ فهناك مجتمعات لا يوجد فيها عداء لليهود ، ومع ذلك لم ينصهر اليهود فيها مثل الهند . ولتفسير هذه الظاهرة ، لابد أن نعود إلى حركيات المجتمع الصيني . فمن المعروف أن الكونفوشيوسية ، وهي العقيدة الرسمية للدولة في الصين قبل الثورة ، كانت لا تعارض التعددية الدينية ما دامت هذه التعددية لا تهدِّد النظام السياسي ، فكان المطلوب من أعضاء أية جماعة دينية أن تعترف بعبادة الأسلاف والمكانة الدينية للإمبراطور . كما لم تكن تُوجَد أفكار دينية أو قومية تؤدي إلى عزل الأقليات الدينية ، ذلك أن مفهوم الأمة لم يكن مفهوماً أساسياً في الصين . فالإمبراطورية هي العالم ، وهي تتكون من دوائر متداخلة وتزداد درجة الهمجية فيها كلما ابتعدنا عن المركز الصيني ، وهكذا فإن اليهود (وكذلك المسلمين الذين كان اليهود يُقرَنون بهم) عاشوا في هذا العالم دون تمييز قانوني أو اقتصادي أو اجتماعي . كما أن تركيب المجتمع الصيني (من الأسرة الممتدة ، والعشيرة ، والحكم من خلال السلطة المركزية) قد ساعد على هذا النمط ، فهو يقلل الاحتكاك المباشر بين الأعضاء كما يقلل احتمالات الصراع ، فيتم الاحتكاك بين الجماعات من خلال مؤسسات الدولة ، وهو ما يساعد على تنظيم العلاقة وتقليل التوترات . وقد أدَّى كل هذا إلى اندماج اليهود تدريجياً وتَمثُّلهم كثيراً من عناصر العبادة الكونفوشيوسية التي تشكل أساس التعامل بين الجماعات . وبدأ أعضاء الجماعة اليهودية يتبنون كثيراً من الطقوس البوذية والطاوية مع الطقوس اليهودية جنباً إلى جنب . والواقع أن قبول عناصر غير يهودية في اليهودية أمر ليس بجديد على اليهودية ، بسبب تركيبها الجيولوجي ، كما أنه جزء من التقاليد الصينية الدينية التي لا تمانع في استيراد عناصر من الديانات الأخرى.

وكان من الممكن أن يظل الاندماج على هذا المستوى ولا ينصهر اليهود تماماً لو أن الجماعة اليهودية ظلت تتعامل مع الجماعات الأخرى من خلال مؤسسات الدولة . فربما ، لو حدث ذلك ، لكان من الممكن أن يحتفظ يهود الصين بهويتهم الصينية اليهودية ، كما حدث ليهود الهند ، من خلال نظام الطائفة المغلقة . ولكن ، ابتداءً من القرن الرابع عشر ، أعيد تنظيم طبقة العلماء/ الموظفين (بشكل أكثر انفتاحاً) من خلال نظام الامتحانات الإمبراطوري ، ذلك النظام الذي أتاح أمام يهود كايفنج فرصاً ضخمة للحراك الاجتماعي . فدخلت عناصر من قياداتهم الامتحانات ونجحت فيها وانضمت إلى البيروقراطية الحاكمة . وقد كان الانخراط في هذه الوظائف يُعَدُّ ، في نظر المجتمع الصيني ، أكثر أهمية وقيمة من الأعمال التجارية ، كما كان يعني نقلة طبقية كبيرة وإعفاءً من السخرة الجسدية ، فالعمل

كموظف بالحكومة كان يمنح الإنسان في الصين السلطة والمكانة والثروة .

لكن هذا النجاح أفقد أعضاء الجماعة اليهودية البُعد اليهودي في هويتهم الصينية اليهودية ، إذ أن العمل في مثل هذه الوظائف كان يتطلب دراسة الكلاسيكيات الصينية والتفقه فيها ، واستيعاب المُثُل الكونفوشيوسية واستبطانها تماماً . فالانخراط في سلك المثقفين الكونفوشيوسيين لم يكن مجرد عمل أكاديمي ، وإنما كان أمراً يؤثر في شخصية الإنسان نفسه وفي منظوره الفلسفي والديني . لهذا ، كان يُتوقَّع من اليهودي الذي ينخرط في سلك العلماء/ الموظفين ، أن يتصرف باعتباره كونفوشيوسياً داخل إطار الفكر الكونفوشيوسي ، أي أن الانتماء إلى الوظيفة كان يتطلب تحولاً جوهرياً داخلياً وخارجياً .

ورغم أن المؤسسة الدينية اليهودية في الصين نظرت بعين الشك إلى طبقة العلماء/ الموظفين من اليهود ، فإن هؤلاء أصروا على أن الكونفوشيوسية واليهودية لا تَعارُض بينهما . وبالتدريج ، تحولوا إلى النخبة القائدة في الجماعة ، وبدأت رؤيتهم الكونفوشيوسية تتسلل إليها ككل حتى امتزجت اليهودية بالكونفوشيوسية . والأمر الذي أسرع بهذا الاتجاه أن الانتماء إلى طبقة العلماء/ الموظفين كان يعني تَناقُص عدد أعضاء الجماعة ، إذ أن هذا النظام يمنع تعيين الموظف في محل ميلاده لمنع الوساطة والمحسوبية . ولذا كان على اليهودي الذي يُعيَّن عالماً/ موظفاً أن يترك كايفنج ، الأمر الذي كان يؤدي بالتالي إلى تَناقُص عدد الجماعة والعناصر القيادية .

وقد كانت طبقة العلماء/ الموظفين طبقة متآزرة مع أن التعيين فيها كان يتم عن طريق الامتحان الإمبراطوري . ولذلك ، كان على اليهودي الذي ينضم إليها أن يصبح واعياً بمكانته الاجتماعية وبوضعه الطبقي وبانتمائه إلى الطبقة الجديدة ، وهو ما جعل الزواج المُختلَط من داخل الطبقة مسألة شبه حتمية ، خصوصاً وأن العلماء/ الموظفين كانوا يعيشون بعيداً عن أسرهم وعشائرهم .

والواقع أن تَحوُّل القيادة ، وكذلك تَشتُّتها ، هو الذي ساعد على تحويل اليهودية من الداخل . فبدأ اليهود بالإشارة إلى الخالق بالمصطلح الكونفوشيوسي ، فكانوا يشيرون إليه بأنه «تاين» ، أي «السماء» ، أو «طاو» ، أي «الطريق» . ثم تَعمَّق الأمر وبدأ اليهود يتبعون عبادة الدولة التي تتضمن تبجيل بل وتقديس كونفوشيوس .

وتأثر اليهود كذلك بأهم مظاهر العبادة الكونفوشيوسية وهي عبادة الأسلاف . ومن ثم ، نشأت إلى جوار المعبد اليهودي صالات الأسلاف التي كانت تضم الآباء العبرانيين وأولاد يعقوب الاثنى عشر وموسى وهارون ويوشع وعزرا وآخرين من مشاهير اليهود . وتَبنَّى اليهود كذلك طقوساً كونفوشيوسية للاحتفال ببلوغ سن التكليف الشرعي والزواج والموت والدفن . كما أنهم حاولوا أن يجدوا أساساً لأعيادهم وشعائرهم الدينية في الكلاسيكيات الكونفوشيوسية لا في الكتاب المقدَّس . وراح اليهود يتصرفون عن كثير من أهم شعائرهم التي كانت تحفظ لهم عزلتهم وهويتهم مثل أكل لحم الخنزير الذي كانوا يمتنعون عن أكله في الأعياد . وكانوا ، عند تقديم القرابين إلى أسلافهم ، يقدمون لهم لحم الضأن . كما أن اليهود لم يُترجموا قط كُتُبهم المقدَّسة من العبرية إلى الصينية . ولهذا كان كيان الجماعة مهدداً دائماً بالاختفاء في حالة نسيان القيادة للعبرية ، ويبدو أن هذا هو ما حدث بالفعل قبل عام ١٧٢٣ إذ أن العبرية كانت قد نُسيت في ذلك التاريخ .

لكل هذا ، تقوَّضت هوية الجماعة اليهودية من الداخل تماماً . وحينما مات آخر حاخام في القرن التاسع عشر ، انتهى ما تبقَّى من اليهودية بحيث أصبح أعضاء الجماعة مع ستينيات القرن الماضي صينيين في ملامحهم وردائهم وعاداتهم ودينهم . وفي عام ١٩٠٠ ، قامت مجموعة من اليهود الإنجليز في شانغهاي بتأسيس «جماعة إنقاذ يهود الصين» التي حاولت إحياء اليهودية في كايفنج دون جدوى ، حيث كانوا قد اندمجوا تماماً وكان كل ما يعرفونه عن اليهودية هو أنهم يهود . ولا يزال هناك نحو مائتين وخمسين صينياً من سلالة يهود كايفنج ولكنهم منصهرون تماماً . ويشبه يهود كايفنج، من بعض الوجوه ، يهود الولايات المتحدة في نجاحهم وانتمائهم إلى طبقة المهنيين ، وفي استبطانهم القيم الأمريكية ، وفي تَوزُّعهم الجغرافي ، وتَزايُد معدلات الزواج المُختلَط بينهم وكذلك في انتمائهم الكامل إلى مجتمعهم .

اليهود الزنوج

Negro Jews

«اليهود الزنوج» مصطلح يُستخدَم للإشارة إلى الزنوج السود الذين يؤمنون باليهودية جميعاً . وبالتالي ، فإن المصطلح يضم الفلاشاه والعبرانيين السود ، وكذلك جماعات بشرية أخرى ذات هويات يهودية سديمية . وقد وجد أحد الباحثين في ساحل لوانجو في غرب أفريقيا جماعة تُصنَّف باعتبارها يهودية ويُسمِّي أعضاؤها أنفسهم «مافاميو» ويقيمون شعائر السبت . ومن المعروف أن ساحل لوانجو لا يبعد كثيراً عن جزيرة ساوتومي البرتغالية التي أحضر إليها الأطفال اليهود الذين تم تنصيرهم عنوة عام ١٤٩٣ ـ ولعل هذا هو

مصدر تسميتهم باليهود . وتُوجَد بالقرب من ساحل مدغشقر فرقة يهودية تُسمَّى «زافي إبراهيم» ، أي «نسل إبراهيم» ، يدَّعي أفرادها أنهم يهود ، ولكن ليس هناك أي شيء يميِّزهم عن بقية السكان .

وفي عام ١٧٥٠ ، أُسِّست مستوطنة بالقرب من سورينام (غينيا الهولندية) تضم أبناء اليهود الذين تزوجوا من العبيد الأفريقيين السود ، وكانوا يتحدثون لهجة «الدجو تونجو» أي «لغة اليهود» ، وهي خليط من البرتغالية والعبرية وبعض الكلمات المحلية .

العبرانيون السود

Black Hebrews

«العبرانيون السود» فريق من الأمريكيين السود الذين يؤمنون باليهودية ويلتزمون بتطبيق الشريعة اليهودية بتَشدُّد يفوق تَشدُّد اليهود البيض . ويدَّعي العبرانيون السود الانتساب إلى قبائل يسرائيل العشر المفقودة ، وأنهم هم وحدهم (وليس يهود الأرض المحتلة أو يهود العالم) سلالة اليهود القدامى الحقيقية . ويؤكد العبرانيون السود أن أنبياء اليهود من السود ، وأن إسرائيل القديمة كانت أيضاً دولة سوداء ، وأن قناة السويس ما هي إلا ثغرة صنعها الإنسان الأبيض لفصل إسرائيل عن أفريقيا السوداء .

وانطلاقاً من هذا ، كتب شاليح بن يهودا ، مساعد رئيس الجماعة ، إلى رؤساء الدول الأفريقية يحثهم على المطالبة بحقوقهم في إسرائيل والتي سرقها اليهود . ويطمح رئيس الجماعة ، بن عمي كارتر ، إلى أن يترأس الدولة الصهيونية . بل إنهم يقولون إن إسرائيل بأسرها ملك خالص لهم سرقها الإشكناز ، أي اليهود البيض . وقد بدأ العبرانيون السود في التوافد إلى إسرائيل ابتداءً من أغسطس عام ١٩٦٩ من شيكاغو ، احتجاجاً على أوضاع الزنوج هناك . ثم استمرت جماعات منهم في الاستيطان حتى بلغ عددهم ١٥٠٠ مهاجر (ويرتفع هذا العدد حسب التقديرات الأخرى إلى ٣٠٠٠) .

ويتركز تَجمُّع العبرانيين السود في إسرائيل في الأماكن التالية :

- ديمونة ويقيم فيها ١٥٠٠ .
- عراد حيث يقيم ٤٠٠ .
- متسبي رامون حيث يقيم ٨٠ .

وجميعها قرى في النقب . كما تتوزع عشرات الأسر بين رعنانا وعدة مناطق أخرى في النقب أيضاً . والمنطقة التي يقيمون بها في ديمونة معزولة ومحاطة بالأشجار والنباتات التي تفصلهم عن بقية المدينة . وفي البداية ، سمحت السلطات الإسرائيلية لهؤلاء العبرانيين السود بالإقامة المؤقتة ، إلا أنها سرعان ما حاولت التخلص منهم بدعوى أنهم مصدر للمشاكل ويمثلون عبئاً اقتصادياً . وفي ٨ ديسمبر ١٩٧١ ، وصلت إلى إسرائيل مجموعة مُكوَّنة من ٤٨ شخصاً ومُنعت من الدخول ووُجهت إلى الولايات المتحدة .

ولا يحمل العبرانيون السود أية بطاقة رسمية أو وثيقة تبين هويتهم ، الأمر الذي يُعَدُّ في حد ذاته مخالفة للقانون الإسرائيلي . ويحمل معظمهم تأشيرة سائح لمدة ثلاثة أشهر لا تُجدَّد بعد انتهائها . ويُعتبَر وضعهم في الزواج غير منتظم من الناحية القانونية . فالزواج والطلاق بالمعنى المألوف للكلمة لا وجود له بين أعضاء الجماعة ، كما أنهم يمارسون تَعدُّد الزوجات . وتتسبب كثافة العبرانيين السود المخيفة ، وانحطاط مستواهم المعيشي ، في تفاقم وتوتر العلاقات بينهم وبين جيرانهم اليهود . وللعبرانيين السود نظام تعليمي مستقل، وهم لا يقومون بتسجيل حالات الولادة أو الوفاة لديهم ، ويوفرون لأنفسهم كل الخدمات اللازمة حيث أقاموا مدارس وفصولاً مستقلة وعيادات وورش خياطة .

وليس من المتوقع أن تجد مجموعة بشرية مثل العبرانيين السود كثيراً من الاستقرار في مجتمع استيطاني عنصري استبعادي ، كما هو الحال في إسرائيل . وبالفعل ، ثار المستوطنون الصهاينة ضد توطين العبرانيين السود إلى جوارهم ، وهدد أولياء الأمور بالإضراب احتجاجاً على تسجيل أبنائهم في مدارس ديمونة ، كما هددوا سكان عراد بالقتل إذا باع أحدهم شقته لأي منهم ، بل وشكلوا لجنة قومية تُسمَّى «اللجنة الإسرائيلية لطرد الزنوج العبرانيين» .

وقد أثارت وسائل الإعلام الإسرائيلية الشك حول يهودية الزنوج ، كما أن المؤسسة الدينية أنكرت تماماً انتماءهم إلى الدين اليهودي وهو ما دفعهم إلى التظاهر أمام مقر دار الحاخامية الرئيسية كي تعترف بصفتهم اليهودية . وتَقدَّم قادتهم بشكوى إلى الأمم المتحدة اتهموا فيها حكام إسرائيل باستخدام أساليب الجستابو والقمع العنصري .

وتُسبِّب القضية الكثير من الحرج للكيان الصهيوني ، بخاصة أمام الأمريكيين السود في الولايات المتحدة . ولذا ، تحاول المؤسسة الصهيونية تشويه صورتهم إعلامياً ، فتشيع أن الجريمة تنتشر في صفوفهم وأن ما لا يقل عن خمسة وعشرين من أعضاء هذه الجماعة مطلوب القبض عليهم من قبل البوليس الفيدرالي الأمريكي . كما تقول السلطات الصهيونية إن زعيم الجماعة هو الزعيم المطلق الذي يقوم بجمع الأموال والتصرف فيها .

ومن الطريف أن المستوطنين الصهاينة يخفقون في التفرقة بين العبرانيين السود من جهة ويهود الفلاشاه من إثيوبيا من جهة أخرى . فهؤلاء جميعاً «سود» على العموم ، وهو ما يدل على أن عملية التصنيف والإدراك داخل التجمع الصهيوني تتم على أساس عرْقي بين اليهود أنفسهم ، فالأبيض يُوضَع مقابل الأسود ، والشرقي مقابل الغربي .

اليهود السود

Black Jews

«اليهود السود» هم العبرانيون السود ، وإن كان الإسرائيليون يخلطون بينهم وبين الفلاشاه . انظر : «العبرانيون السود» .

الفلاشـــاه : تاريـــخ وهـــوية

Falashas : History and Identity

«الفلاشاه» كلمة أمهرية تعني «المنفيين» ، كما أنها تعني أيضاً «غريب الأطوار» . وأصل الكلمة يعود إلى الجذر «فلاشا» في اللغة الجعزية ، ويعني «يهاجر» أو «يهيم على وجهه» . ويستخدم أهل إثيوبيا الكلمة للإشارة إلى جماعة إثنية أفريقية تدين بشكل من أشكال اليهودية ، وهي لا تنتمي إلى أيٍّ من الكتل اليهودية الكبرى الثلاث : الأشكناز والسفارد ويهود العالم الإسلامي . كما يستخدمون كلمة «إيهود» ، أي «يهود» ، أما الفلاشاه فيشيرون إلى أنفسهم بوصفهم «بيت إسرائيل» .

وأصول الفلاشاه ليست سامية خالصة وإنما هي حامية أيضاً ، إن قبلنا هذا التمييز العرْقي والحضاري ، فهم ينتمون إلى مجموعة القبائل المسماة «أجاو» التي كانت مستقرة في إثيوبيا قبل هجرة القبائل السامية إليها من جنوب الجزيرة العربية . ويُقال إن اليهودية انتشرت بينهم من خلال يهود الجزيرة العربية قبل الإسلام (ويُقال إن عبد الله بن سبأ من أصل فلاشي) .

وثمة رأي قائل بأن أصل الفلاشاه يعود إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ، وربما وصلتهم اليهودية عن طريق مصر وربما جاءوا هم أنفسهم من صعيد مصر . وقد كانت تُوجَد جماعة من الجنود المرتزقة اليهود على حدود مصر الجنوبية (في جزيرة إلفنتاين) بالقرب من الشلال الأول في أسوان . وثمة رأي آخر يذهب إلى أن أصلهم يرجع إلى جماعة من اليهود استوطنوا إثيوبيا بشكل دائم . ويُقال إن عدد الفلاشاه كان كبيراً قبل أن تعتنق أسرة إكسوم الحاكمة الديانة المسيحية في القرن الرابع . ولكن ، بعد هذا التحول إلى المسيحية ، نشبت صراعات حادة وحروب عديدة بينهم وبين جيرانهم المسيحيين .

واشترك الفلاشاه في التمرد الذي قامت به قبائل الأجاو ضد أكسوم في القرن العاشر ، حيث أسقطوا النجاشي وفتكوا بالرعايا المسيحيين وهدموا كنائسهم وأديرتهم . ولكن أسرة زاج ، التي حلت محل أسرة أكسوم ، كانت هي الأخرى مسيحية وحاولت تأكيد السلطة المسيحية .

وفي عام ١٢٧٠ ، وتحت تأثير الكنيسة ، اعتلى أحد أعضاء أسرة أكسوم القديمة العرش . وقرر ملوك الأسرة المالكة ، بعد استعادة الحكم ، أن يضعوا حداً لاستقلال الفلاشاه ، خصوصاً وأنهم كانوا يعتبرونهم عنصراً مشكوكاً في ولائه في حروبهم مع الممالك الإسلامية المجاورة . ولذلك ، قام ملوك أكسوم بتجريد مجموعة من الحملات ضدهم .

وأثناء حكم النجاشي ليناد نجل (١٥٠٨ ـ ١٥٤٠) ، غزا المسلمون إثيوبيا . وقد انضم الفلاشاه ، في بادئ الأمر ، إلى المسلمين تحت زعامة ملكهم جدعون وملكتهم جوديث (يهوديت) ، بل وتعقبوا النجاشي المهزوم الفار . ولكنهم انضموا بعد ذلك إلى الإثيوبيين ، فألحق المسلمون الهزيمة بهم وبحلفائهم الإثيوبيين ، ووقع ملك وملكة الفلاشاه في الأسر . وقد ظل هذا الشد والجذب قائماً حتى حكم النجاشي سوسينيوس (١٦٠٧ ـ ١٦٣٢) الذي ألحق بالفلاشاه هزيمة نكراء ، بفضل تجهيز جيشه بالأسلحة النارية ، وهَدَم قراهم ومعابدهم وصادر أراضيهم ، فتحولوا إلى عاملين أجراء . وقد ظلوا على هذا الوضع حتى القرن التاسع عشر حين وصلت الإرساليات المسيحية البروتستانتية التي حققت نجاحاً ملحوظاً بين صفوفهم . وقد يُفسِّر هذا النجاح التناقص الكبير في أعدادهم إن صَدَقت الإحصاءات .

ولا يُعرَف عدد الفلاشاه على وجه الدقة ، وإن كان قد قُدِّر عددهم في بداية القرن الثامن عشر بمائة ألف ، بل إن أحد أعضاء الإرساليات قدره بربع المليون . ولكن ، مع بداية القرن العشرين ، وصل عددهم إلى خمسين ألفاً على أحسن تقدير ، وإلى سبعة آلاف حسب أسوئها . وحسب تقديرات عام ١٩٧٦ ، وصل عددهم نحو ٢٨ ألفاً موجودين في ٤٩٠ قرية مختلفة .

ويتركز الفلاشاه أساساً في شمال إثيوبيا في المنطقة الواقعة بين نهر نازي في الشمال والشرق ، وبحيرة تانا والنيل الأزرق في الجنوب ، والحدود السودانية في الغرب . وهم يعيشون في قرى صغيرة مقصورة عليهم تضم كل قرية نحو خمسين أو ستين عائلة

وتوجد أهم القرى بجوار مدينة جوندار . كما يوجد داخل جوندار نفسها جماعة صغيرة من الفلاشاه تعيش في حي مقصور عليها . وتوجد قرى الفلاشاه عادة على قمة أحد التلال القريبة من النهر . وتتكون كل قرية من مجموعة من الأكواخ المستديرة يغطيها القش ، ويُخصَّص أحد الأكواخ معبداً لهم ، كما يُخصَّص كوخان آخران بعيدان عن القرية لعزل النساء وقت الطمث وبعد الإنجاب .

ولا تختلف ملامح الفلاشاه كثيراً عن ملامح غيرهم من الإثيوبيين ، كما لا يمكن الحديث عن نمط فلاشي متميِّز إذ اختلطت فيهم الدماء الحامية والسامية . ولذا ، لا توجد اختلافات في لون الجلد وملامح الوجه . ولا يختلف أسلوب حياتهم ، من معظم الوجوه ، عن أسلوب حياة جيرانهم ، كما أنهم يرتدون نمط الثياب نفسه ويأتزرون بالعباءة المسماة «الشامة» . وهم يعملون أساساً بالزراعة كعمال أجراء ، كما يعملون في بعض الحرف الأخرى مثل صناعة الفخار والغزل والنسيج وصنع السلاسل ، كما يعملون حدادين وصاغة وحائكي ملابس ، ويعمل كثير منهم الآن بحرفة البناء في المدن .

ولم تكن طريقة توزيع الأراضي في إثيوبيا تسمح للفلاشاه باقتناء الممتلكات ، لأنهم لم يكونوا من موظفي الدولة . فالحال هناك كانت أشبه بأوربا الإقطاعية حيث كانت الخدمة العسكرية الإلزامية للدولة أو الكنيسة شرطاً للتملك . وإذا كان بعض الفلاشاه، وخصوصاً أولئك الذين سكنوا أقصى الغرب ، يملكون الأرض ، فإنهم في المناطق الأخرى كانوا يعملون حرفيين . أما ممارستهم الزراعة ، فقد اقتصرت على زراعة الأرض لأصحابها المسيحيين . ولم ينطبق حظر التملك على الفلاشاه وحسب ، وإنما على مجمل الحرفيين بصرف النظر عن طوائفهم .

ويتحدث معظم الفلاشاه الأمهرية . وثمة أقلية منهم تعيش في تيجري وفي إريتريا وتتحدث اللغة التيجرينية . وهناك أقلية أخرى في الجزء الشمالي تتحدث لهجات قبائل الأجاو . أما أدبهم ، فكله مكتوب باللغة الجعزية أو الإثيوبية (لغة إثيوبيا الكلاسيكية) وهي أيضاً لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية .

ولكن ثمة نصوصاً تدل على أن الفلاشاه كانوا يتحدثون ويتعاملون بلغة قبائل الأجاو ، ولا تزال توجد بينهم بعض الصلوات بهذه اللغة . والفلاشاه يجهلون العبرية تماماً ، فمعرفتهم بها مقصورة على بضع كلمات لا يدركون هم أنفسهم أنها من هذه اللغة .

ويضم أدب الفلاشاه المكتوب بالجعزية عدة كُتب موجودة على هيئة مخطوطات . ومن الطريف أن بعض هذه الكتب مُتداوَل بين اليهود والمسيحيين في آن واحد . بل إن بعض الكتب اليهودية تضم أشعاراً من العهد الجديد (أهم الكتب المقدَّسة لدى المسيحيين) .

وفلكلور الفلاشاه ، كما هو الحال في أفريقيا ، ثري للغاية ، فلهم أغان ورقصات عديدة . كما أن لهم تاريخهم الأسطوري ، فهم يعودون بأصولهم إلى منليك ، ابن الملك سليمان ، الذي عاد إلى أمه بلقيس ليعتلي عرش إثيوبيا . ولما كان الإثيوبيون المسيحيون يؤمنون بالأصول الأسطورية نفسها ، فإننا نجد أن الفلاشاه قد أضافوا إلى القصة ما يفسر انفصالهم ، إذ يقولون إن ملكة سبأ سافرت إلى القدس واعتنقت اليهودية بتأثير ملكها سليمان وأنجبت منه منليك الذي عاد يوماً لزيارة أبيه فأكرم وفادته وأمر بعض رجال حاشيته وبلاطه الملكي بمرافقة الأمير عند عودته . وقد سرق منليك سفينة العهد وعبر نهراً يوم السبت الذي يُحرَّم فيه السفر والسير لمسافات طويلة . وقد تبعه بعض الخاطئين (مسيحيو إثيوبيا) ، أما الأتقياء الذين امتنعوا عن عبور النهر فهم يهودها ، أي الفلاشاه .

ويمارس الفلاشاه عادة الزار لطرد الأرواح . ويُقال إن هذه العادة بدأت في إثيوبيا وانتشرت منها إلى بعض بلاد الشرق الأوسط. كما أنهم يقومون بصنع الأحجبة والتعاويذ اتقاء للعيون الشريرة . وبسبب اشتغالهم حدادين يعتبرهم أهل القرى من السحرة .

ويمكننا هنا أن نثير قضية ما إذا كان يهود الفلاشاه يُشكِّلون جماعة وظيفية أم لا . الواقع أن أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب قد اضطلعوا بوظيفة الجماعة الوظيفية الوسيطة وعملوا بالتجارة والصيرفة في أماكن متفرقة من أوربا ، أما يهود إثيوبيا فكانوا يعملون بالزراعة ، ولم يشتغلوا بالتجارة والصيرفة ، كما أنهم كانوا أعضاءً في مجتمع قَبَلي مبني على الاقتصاد الطبيعي ، لا يُوجَد فيه نقد ولا قطاع تجاري أو مالي يُذكَر . فالفلاشاه لم يضطلعوا بدور الجماعة الوظيفية المالية والوسيطة ولكنهم مع هذا أصبحوا جماعة وظيفية تشتغل ببعض الحرف التي يعتبرها المجتمع إما وضيعة أو هامشية أو مشبوهة ، أو في غاية الأهمية ، أو تتطلب خبرة معينة لابد من تَوارُثها مثل الحدادة . ومن هنا كان اتهامهم بالسحر ، وهي تهمة كانت تُوجَّه إلى المرابي اليهودي في أوربا ، وتُوجَّه عادةً إلى الشخصيات الهامشية في المجتمع . لكن الهامشية لا تعني بالضرورة عدم الأهمية ، فالهامشية قد تَنتُج من التفرد والتميز .

وحتى الآن ، لم نطلق على الفلاشاه صفة «يهود» . وأرجأنا ذلك إلى أن نستعرض عقيدتهم الدينية . وتعريف الفلاشاه في

الموسوعة اليهودية يلقي كثيراً من ظلال الشك على انتمائهم الديني ، إذ جاء فيه ما يلي : « الفلاشاه جماعة إثنية في إثيوبيا تزعم أنها من أصل يهودي ، ومرتبطة بنوع من أنواع الديانة اليهودية يستند إلى العهد القديم والكتب الخارجية (أبوكريفا) ، أي الكتب غير المعتمدة والكتب الدينية الأخرى التي ظهرت بعد الانتهاء من تدوين العهد القديم » .

والواضح أن التعريف يرى أنهم من أصول إثنية ليست بالضرورة يهودية ، وأنهم ليسوا يهوداً وإن كانوا "يزعمون" أنهم من أصول يهودية . كما أن ما يعرفونه عن اليهودية يختلف عن اليهودية التي يتبعها معظم يهود العالم والسائدة في الدولة الصهيونية . ففي أي شيء تختلف يهودية الفلاشاه عن اليهودية الحاخامية ؟

تستند عبادة الفلاشاه إلى العهد القديم الذي لا يعرفونه إلا باللغة الجعزية لغة الكنيسة الإثيوبية . ويضم العهد القديم الذي يعرفونه كل الكتب المعتمدة وبعض كتب الأبوكريفا غير المُعتمدة مثل : **كتاب يهوديت** ، و **حكمة سليمان** ، و **حكمة بن صيرا** ، و**كتاب المكابيين الأول والثاني** ، و **كتاب باروخ** . ولم يصل التلمود إلى الفلاشاه . وغني عن الذكر أن التلمود هو عمود اليهودية الحاخامية الفقري وعصبها ، وعدم الاعتراف به ينطوي على عدم اعتراف بها .

والعناصر اللاهوتية والحضارية المُشتركة بين المسيحيين واليهود في إثيوبيا كبيرة . وقد أشرنا إلى أن بعض الكتب الدينية مُتداولة بين الفريقين معاً ، وإلى أن الجعزية هي لغة العبادة بين اليهود والمسيحيين هناك ، كما أن أسطورة الأصل مشتركة مع تنويعات خفيفة . ويمكن أن نضيف هنا أن الفلاشاه ليس لديهم حاخامات وإنما قساوسة يُطلَق على واحدهم لفظة «قس» . كما أنهم ينتسبون ، مثل الكهنة القدامى في يهودية ما قبل التهجير ، إلى هارون . وينتخب الكهنة في كل منطقة كاهناً أعظم لهم لكي يصبح زعيماً دينياً للجماعة ، ويصبح من صلاحياته ترسيم الكهنة .

ويُقدِّم الكهنة القرابين في المناسبات الدينية المختلفة . ويعيش بعض هؤلاء الكهنة في الأديرة رهباناً وراهبات على النمط المسيحي، ويُطلَق عليهم لقب «ناذيز» وهي لفظة عبرية تعني "الذي نَذَر نفسه للشعائر الدينية وانقطع لها" . كما أن البعض الآخر يعيش على طريقة النُسَّاك في الغابات والصحارى وعلى حواف القرى . ومن الطريف أن عادة الاعتراف المسيحية موجودة عند الفلاشاه فهم يدلون باعترافاتهم إلى الكاهن من آونة إلى أخرى وعند نهاية اليوم .

وإلى جانب الرهبان والكهنة ، يوجد علماء يستخدمون صحن المعبد لتعليم الدين .

ويُقيم الفلاشاه شعائر يوم السبت بصرامة غير عادية ، فيمتنعون عن الجماع الجنسي في ذلك اليوم ، ويقضي الرجال يومهم في الصلاة . لكن التحريمات الخاصة به مختلفة من بعض الوجوه عن تحريمات اليهود الأرثوذكس . فهم مثلاً لا يعتبرون استخدام النور الكهربائي من المحرَّمات . كما أنهم يحتفلون بعدد من الأعياد أكبر من المنصوص عليه في الشريعة اليهودية ، فعندهم أعياد شهرية لتُذكِّرهم بالأعياد السنوية . وفي العاشر من كل شهر قمري ، يُوجَد احتفال يُذكِّرهم بعيد يوم الغفران . وفي اليوم الخامس عشر من كل شهر ، يحتفلون بذكرى عيد الفصح وعيد المظال . ويُعَدُّ ثالث سبت في خامس شهر قمري هو سبت الأسبات يتلون فيه الصلوات والأدعية . وفي الثامن عشر من الشهر السادس القمري يحيون ذكرى وفاة إبراهيم وإسحق ويعقوب . وهم لا يحتفلون بعيد التدشين أو عيد النصيب فلم يرد لهما ذكر في التوراة .

وإلى جانب هذه الأعياد والاحتفالات تُوجَد أيام صيام أسبوعية وشهرية وسنوية ، فيصومون يوم الخميس إحياءً لذكرى طلب عزرا من المنفيين أن يصوموا . ويصومون كذلك في الفترة ١ ـ ١٧ آب (أغسطس) إحياءً لذكرى سقوط القدس (ولا يصوم اليهود الحاخاميون إلا في يوم التاسع من الشهر نفسه لإحياء هذه الذكرى) ويصومون في العاشر من أيلول (سبتمبر) تذكرة بيوم الغفران . وهم يحافظون على شعائر الزواج والختان اليهودية ، ولكنهم يختنون البنات على عادة بعض الشعوب الأفريقية . ويحافظون كذلك على التحريمات الخاصة بالطعام ، ولكنهم لا يستعملون أواني منفصلة للمأكولات من الحليب واللحم على غرار الجماعات اليهودية الأخرى .

ويختن المسيحيون الإثيوبيون (هم الآخرون) أولادهم الذكور، ويمتنعون عن تناول المأكولات المحرَّمة عند اليهود . كما أنهم ، ولفترة طويلة ، كانوا يتخذون السبت يوم راحة لهم بدلاً من الأحد . ومن الجوانب اليهودية الأخرى في المسيحية الإثيوبية ، التشديد على أهمية العهد القديم في الكتاب المقدَّس . وكذلك يُلاحَظ وجود الرموز المتعلقة بسفينة العهد في الكثير من الكنائس المسيحية الإثيوبية .

واشتهر الفلاشاه أيضاً بمغالاتهم في التَطهُّر ، ولذا فهم يمتنعون قدر الإمكان عن لمس الغرباء . وإذا حدث أن لمس أحدهم غريباً ، فإن عليه أن يَتطهَّر (ولذلك تُوجَد قراهم على مقربة من الأنهار حتى

يمكنهم التطهر دائماً) . ومن هنا ، فإن الفلاشاه الذين يعيشون في جوندار ، ويفرض عليهم أسلوب حياتهم الاحتكاك الدائم بالأجانب والغرباء ، يُعَدُّون «غير طاهرين» في نظر بقية الفلاشاه .

وتتبدَّى مغالاة الفلاشاه في قوانين الطهارة في تعامُلهم مع النساء . فبعد أن تلد المرأة ولداً ، فإنها تُعَدُّ غير طاهرة مدة أربعين يوماً . وإن وضعت بنتاً ، فإن المدة تتضاعف . وبعد نهاية المدة ، تحلق المرأة شعر رأسها وتغطس في الماء وتغسل ملابسها قبل أن تعود إلى منزلها . وأحياناً يُحرَق الكوخ الذي قضت فيه فترة العزل .

والمعبد هو مركز الحياة الدينية بين الفلاشاه ، والذي تُطلَق عليه كلمة «مسجد» أو «بيت إجزا بهير» أو «بيت الإله» . وهو يتكون من حجرتين ، يُطلَق على الحجرة الداخلية اسم «قدستا قدوسان» ، أي «قدس الأقداس» ، تماماً كما في هيكل سليمان القديم ، ولا يدخله إلا الكاهن والشماس . ويُحفَظ في هذه الحجرة التوراة وملابس الكاهن الشعائرية . ولا يُسمَح للنساء ، إلا غير المتزوجات والعجائز ، بدخول المسجد . وتُقام سبع صلوات في اليوم الواحد ، وإن كان معظم الفلاشاه يكتفون بإقامة صلاتين : واحدة في الصباح والأخرى في الليل . ويستخدم الفلاشاه اللغة الجعزية في الصلاة ، ويقضون معظم يوم السبت وأيام الأعياد في الصلاة داخل المسجد ، ويقفون لتناول الطعام في مأدبة جماعية . كما أنهم يغنون ويرقصون في الأعياد .

ويؤمن الفلاشاه بإله واحد ويؤمنون بالبعث والعالم الآخر والثواب والعقاب ، كما يؤمنون بعقائد اليهود الأخرى كإيمانهم بأنهم من الشعب المختار وأنه سيظهر بينهم ماشيَّح . وقد حدث عام ١٨٦٢ ، أثناء حكم الإمبراطور تيودور الثاني ، أن ظهر ماشيَّح دجال أقنع الفلاشاه بالعودة إلى أرض الميعاد سيراً على الأقدام ، ولكن معظمهم مات في الطريق .

ويبدو أن بعض الفلاشاه ممن تقع قراهم على مقربة من قرى المسلمين قد استوعبوا أيضاً عناصر إسلامية في عقيدتهم ، وربما كان بينهم مسلمون بالفعل . إذ ذكرت الصحف الإسرائيلية أن بعضهم قد اعتنق الإسلام في إسرائيل . كما أوردت أن بعضهم ، أثناء زيارة حائط المبكى ، سمع صوت الأذان فاتجه إلى المسجد لإقامة الصلاة . كما ذكرت إحدى الصحف الإسرائيلية أن بعضهم أقام الصلاة على طريقة المسلمين في المطار فور وصوله إلى إسرائيل وقد وصفتهم الصحيفة بأنهم «فلاشاه سُنِّيون» .

وقد احتفظ الفلاشاه بهويتهم المتميِّزة ، وهي هوية إثنية أفريقية استمدوها من بيئتهم ومن طبيعة التشكيل الحضاري الأفريقي .

ويرى بعض المتخصصين في مجتمع الفلاشاه أنهم من قبيلة الأجاو ، وأنهم عرْق إثيوبي صاف . أما تقاليدهم وعاداتهم فتشمل خليطاً من المعتقدات والطقوس الوثنية واليهودية والمسيحية وربما الإسلامية . وقد نفى أحد المؤرخين صفة اليهودية عنهم ووصفهم بأنهم مسيحيون تمسكوا لسبب أو آخر بالعهد القديم بدلاً من العهد الجديد . وهو يرى أن علاقات الفلاشاه الحضارية والعرقية مع جيرانهم المسيحيين الإثيوبيين ، تتخطى تلك التي يشاركون بها يهود العالم . وقد دَفَعت هذه الطبيعة المُختلَطة لهوية الفلاشاه هي ما حدا بأحد المسئولين في الوكالة اليهودية في أوائل الخمسينيات إلى أن ينصح الذين فكروا منهم في الهجرة إلى إسرائيل بالتنصُّر وحل مشكلتهم بهذه الطريقة بدلاً من الهجرة إلى إسرائيل .

ومع هذا ، تم تهجيرهم باسم الهوية اليهودية العالمية . ومن الواضح أنهم سيفقدون في إسرائيل هويتهم الأفريقية هذه ولن يكتسبوا هوية جديدة ، لأن المجتمع ينظر إليهم بعين الشك بسبب لون جلدهم وتوجُّههم الثقافي بل ومعتقداتهم الدينية . وقد شكَّكت دار الحاخامية في يهوديتهم .

تهجير الفلاشاه

Transfer of the Falashas

ابتداءً من عام ١٩٧٣ ، حدث تَحوُّل في الموقف الصهيوني تجاه الفلاشاه . فقد أعلن الحاخام شلومو غورن أن أعضاء هذه الجماعة اليهودية هم في الواقع من أحفاد قبيلة دان ، ومن ثم فهم يهود حقيقيون . وقد طُبِّق عليهم قانون العودة (بعد أن كانت الوكالة اليهودية تنصحهم بالتنصُّر) . وبدأت عملية التهجير حوالي ١٩٧٧ ، فكانت تصل بضع مئات . وحينما قامت الثورة الإثيوبية ، توقفت العملية ثم استمرت بشكل سرِّي . ثم وُضع مخطط التهجير في أواخر السبعينيات . وفي عام ١٩٨٤ ، نُفِّذ مخطط التهجير على نطاق واسع فيما عرف باسم «عملية موسى» إذ تم نقل حوالي ١٢ ألف إثيوبي في جسر جوي سرِّي عبر السودان (كان عدد المُهجَّرين الإجمالي في هذه الفترة ١٤,٠٣٧) . وقد تمت العملية في سرية كاملة حيث فُرِض تعتيم إعلامي كامل ، إلى أن نشرت إحدى نشرات المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية (**نكوداه**) أن معظم يهود إثيوبيا موجودون في إسرائيل . ويُقال إن تسريب نبأ هجرة يهود الفلاشاه قام به موظف كبير من حزب المفدال الديني بهدف وقف الهجرة ، وهو ما يدل على وجود انقسام في الأوساط الصهيونية حيال هذه العملية . وكانت حكومة الولايات المتحدة من أكثر

الحكومات حماماً ، بل وألحت صحيفة واشنطن بوست إلى أن الحكومة الأمريكية هي التي ضغطت على الدولة الصهيونية لتقبل الفلاشاه ، وقد خصص صندوق اللاجئين التابع لحكومة الولايات المتحدة ١٥ مليون دولار لاستيعاب المهاجرين . وعلى أية حال ، فقد بلغت تكاليف عملية موسى مائة مليون دولار قامت جماعات يهودية أمريكية بتغطيتها . كما تمت عملية أخرى باسم «عملية سليمان» في مايو ١٩٩١ بعد سقوط نظام منجستو ، وتم فيها نقل ١٩,٨٧٩ من الفلاشاه بواسطة جسر جوي بين أديس أبابا وتل أبيب شمل أربعين رحلة مكوكية . كما هُجِّر ٣,٥٠٠ عام ١٩٩٢ (إذا أضفنا لهؤلاء عدد ٦,٤٢٢ وهم أبناء الفلاشاه المولودون في إسرائيل فإن إجمالي عددهم يصل ٥١,٤٢٩) .

لقد أسلفنا أن الحاخامية في إسرائيل اعترفت بالفلاشاه كيهود تمهيداً لعملية التهجير . ومع هذا ، لم يكن الاعتراف بهم كاملاً ، فيهوديتهم حسب التصور الديني ناقصة . ولذا ، طُلبَ منهم عند وصولهم أن يُعاد تختينهم ، وأن يأخذوا حماماً طقوسياً لتطهيرهم . ولُوحظ أنه لا تصدر لهم بطاقة هوية إلا بعد هذه الطقوس ، بل ويتسلمها بعضهم دون تحديد الديانة حتى بعد الختان والاستحمام الطقوسي . ومن الطريف أن هؤلاء الفلاشاه ، المشكوك في يهوديتهم ، ذُهلوا من علمانية المجتمع الصهيوني وعدم حرصه على الشعائر اليهودية إذ لاحظوا أن يهود الكيان الصهيوني لا يلتزمون بشعائر السبت .

ولكن الرفض على أساس إثني وعرْقي كان أعمق وأشد حدة ، فعلى سبيل المثال رفضت مدينة إيلات (عدد سكانها عشرون ألفاً) تزويد المستوطنين الفلاشاه بالماء والكهرباء ، كما رفض المجلس المحلي لمستوطنة يروحام إدخال الفلاشاه إليها . وفي صفد تظاهر السكان ضد إعطاء المهاجرين من إثيوبيا بيوتاً ، كما هدد أولياء أمور الطلاب في المدارس الدينية بالامتناع عن إرسال أطفالهم إليها إذا استمر أطفال الفلاشاه معهم . وشكا رئيسا بلدية عكا ونهاريا من توطين الفلاشاه في بلدتيهما بحجة أن هذه مدن اصطياف سياحية ووجود الفلاشاه لا يساعد كثيراً على اجتذاب السياح ، فهو يخلق التوتر ويزيد تَفاقُم ظاهرة العنصرية في المدينة .

وليس من المتوقع أن تحقق محاولة استيعاب الفلاشاه في التجمع الصهيوني نجاحاً كبيراً . فمع تفاقم الأزمة الاقتصادية في المجتمع الصهيوني ، لن يمكن تدبير المبالغ اللازمة لاستيعابهم وتحقيق المستوى المعيشي العالي الذي يضمن سكوتهم . وقد انعكس الصراع بين الدينيين واللادينيين داخل التجمع الصهيوني عليهم ، فقد دأبت الوكالة اليهودية على إرسال أبنائهم إلى المدارس الدينية ، وهو أمر لا يقبله الصهاينة اللادينيون ، كما أن كثيراً من المهاجرين الفلاشاه الجدد (من سكان المدن) لا يتمسكون كثيراً بالدين ، وبالتالي فهم أيضاً يمانعون في إرسال أولادهم إلى المدارس الدينية . وقد بدأ يصل مع المهاجرين الفلاشاه نموذج جديد وهو الفلاشي المتعلم الذي لا يحتقر ثقافته الوطنية بالضرورة ويجيد التعامل مع المؤسسات الحديثة . وهذه العناصر بدأت تتولى القيادة بين المهاجرين والدفاع عن حقوقهم .

وأكبر دليل على فشل عملية الاستيعاب تلك الأخبار التي نشرتها الصحافة الإسرائيلية عن حوادث الانتحار الفعلية وعن محاولات الانتحار العديدة التي قام بها يهود الفلاشاه ، وعن تهديدهم بالانتحار الجماعي . وقد أنشأ بعض اليهود منظمة «مهاجري إثيوبيا» ، لا لتسهيل استيعابهم وتوطينهم بل للعمل على تهجير جزء منهم إلى كندا .

ويمكن طرح السؤال التالي : ما الذي يمكن أن تربحه الدولة الصهيونية من تهجير ما بين ٢٥ ـ ٣٥ ألف يهودي من إثيوبيا (العدد الكلي للفلاشاه في إسرائيل) ، خصوصاً أنها كانت تدرك بعض المشاكل التي ستنجم عن هذه الهجرة ؟ يمكننا ابتداءً استبعاد العنصر الإنساني ، فلو كان الدافع إنسانياً لانصب اهتمام الكيان الصهيوني على تحسين أحوالهم في بلادهم ، وعلى الدفاع عن حقوقهم هناك ، ولشمل كل ضحايا المجاعة في إثيوبيا . ولعل أول الدوافع الحقيقية هو الدافع المالي ، فالقصص المثيرة عن تَدهُّور حال يهود إثيوبيا تؤدي إلى تَدفُّق التبرعات . كما أن هناك مردوداً إعلامياً ، فإسرائيل دولة معروفة للعالم الغربي بعنصريتها . ولذا فإن إنقاذ يهود الفلاشاه (السود الأفارقة) قد يُحسِّن صورتها بعض الشيء .

وهذه الدوافع المادية ، المالية والإعلامية ، دوافع حقيقية ولكنها سطحية . أما الدافع الحقيقي الكامن وراء تهجير الفلاشاه فهو أزمة النظام الصهيوني العقائدية والسكانية العميقة . فالكيان الصهيوني يعاني من نضوب مصادر الهجرة اليهودية ، إذ أن يهود الغرب المتحمسين يكتفون بإرسال الشيكات وبرقيات التأييد الحارة ولا يهاجر منهم إلا القليل النادر . أما يهود الاتحاد السوفيتي فهم بالمثل يؤثرون الهجرة ، إن هاجروا ، إلى الولايات المتحدة . لكن العنصر البشري أساسي بالنسبة للاستعمار الاستيطاني الإحلالي ، والفلاشاه سيساهمون بلا شك في سد هذا العجز ، وسيساعدون آلة الاستيطان والحرب على الاستمرار . كما أن الفلاشاه زُرَّاع مهرة ، وقد يمكنهم زراعة الأرض الفلسطينية التي استولت عليها

الدولة الصهيونية ، خصوصاً بعد انصراف المستوطنين الصهاينة عن فلاحتها . وتعاني المؤسسات الزراعية الصهيونية من ندرة الأيدي العاملة اليهودية وتُضطر إلى استئجار عمالة عربية ، وقد يبطئ وجود الفلاشاه هذه العملية قليلاً .

ومن الواضح أن تهجير الفلاشاه هو تعبير عن مقدرة الصهاينة على الحركة والإنجاز ولكنه أيضاً تعبير عن أزمة صهيونية . وهي عملية قد تحل بعض المشاكل مؤقتاً ، ولكنها ستفجر بعض المشاكل الأخرى ، وبكل حدة ، داخل الكيان الصهيوني . وقد تفجرت مرة أخرى مع وصول الفلاشاه مسألة من هو اليهودي . كما أنها قد تساعد على التشكيك في المقولة الصهيونية الخاصة بوحدة الشعب اليهودي ، إذ يأتي الفلاشي بملامح وقيم وعادات مختلفة . ولنتخيل يهودياً أمريكياً أشقر من أصحاب المذهب الإصلاحي أو يهودياً علمانياً أو يهودياً ملحداً يقف بجوار يهودي من الفلاشاه أسود البشرة يرقص في "مسجده" اليهودي في الأعياد ، فهل سيقتنع الاثنان بأنهما ينتميان إلى شعب واحد ؟

وينتشر الفلاشاه في إسرائيل داخل أراضي فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، كما ينتشرون في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ . وأكبر تركيز لهم (في الضفة الغربية المحتلة) في مستوطنة كريات أربع قرب الخليل ، وفي مناطق الجليل والجليل الأعلى (مدينة صفد) . ويتركز عدد لا بأس به منهم في مدينة عسقلان ، أما الباقون فهم موزعون على الضواحي الاستيطانية حول مدينة القدس مثل راموت وبيت مئير وتلة زنيف .

وقد نشبت أزمة مؤخراً حين كُشف النقاب عن أن بنك الدم الإسرائيلي قد أخذ يتخلص بالتدريج من مخزون الدم الذي يتبرع به يهود الفلاشاه خوفاً من أن تكون هذه الكميات ملوثة بفيروس مرض الإيدز ، وأيَّد وزير الصحة الإجراءات التي يقوم بها البنك .

الفلاشاه مورا

Falasha Mura

«فلاشاه مورا» جماعة قَبَلية في إثيوبيا يُقال لها أيضاً «فلاس مورا» . وكلمة «فلاشاه» كلمة أمهرية تُطلَق على يهود إثيوبيا ، وتعني «الغرباء» . أما «مورا» ، فيبدو أنها تعني «الأغيار» ، أي غير اليهود . ويُطلَق الاصطلاح على يهود الفلاشاه الذين تَنصَّروا على يد المبشرين المسيحيين . وهم ينقسمون إلى قسمين :

١ ـ فلاشاه تَنصَّروا منذ حوالي قرنين من الزمان .

٢ ـ فلاشاه تَنصَّروا منذ ثلاثين عاماً .

ويمكن تقسيمهم أيضاً ، على أساس معدلات الاندماج إلى قسمين :

١ ـ فلاشاه تَنصَّروا واحتفظوا باستقلالهم كجماعة يهودية مُتنصِّرة .

٢ ـ فلاشاه تَنصَّروا واندمجوا في مجتمع الأغلبية .

وتميل الصحافة الإسرائيلية الآن إلى الإشارة إلى الفلاشاه مورا باعتبارهم «يهود مارانو» ، أي اليهود المتخفين ، وهو اصطلاح يُطلَق في الأدبيات اليهودية على يهود إسبانيا الذين يُقال إنهم أجبروا على تَرْك عقيدتهم وتَبنِّي العقيدة الكاثوليكية ، فتظاهروا بأنهم كاثوليك واستمروا في ممارسة شعائر دينهم في الخفاء ، وقد استمر بعضهم في ممارسة هذه الشعائر حتى الوقت الحاضر . ويبلغ عدد الفلاشاه مورا ١٧٥ ألفاً ، منهم ١٥ ألفاً ممن تَنصَّروا واحتفظوا باستقلالهم كجماعة فلاشيه مُتنصِّرة . وهناك ٦٠ ألفاً تَنصَّروا واندمجوا في المجتمع المسيحي ، وكل ما يربطهم باليهودية جذورهم الفلاشيه (الإثنية) .

ويبدو أن الفلاشاه أنفسهم يعتبرون الفلاشاه مورا (أياً كان نوعهم) غير يهود . ولذا ، فإن أحدهم إذا أراد العودة إلى حظيرة الدين اليهودي ، تُطبَّق عليه الشعائر الخاصة بمن يريد التهود ، فيُحلَق شعر رأسه وجسمه ، وهي شعائر لا تُطبَّق إلا على غير اليهود (ومهما يكن من أمر سخرية الصحافة الإسرائيلية من هذه الشعائر ، فإنها على أية حال الشعائر نفسها التي كانت تُطبَّق في الماضي قبل ظهور اليهودية الحاخامية) .

وقد بدأ الحديث عن تهجير الفلاشاه مورا إلى إسرائيل (مع حوالي ثلاثة آلاف يهودي من يهود الفلاشاه الذين لا يزالون موجودين في إثيوبيا) . لكن المؤسسة الحاخامية اعترضت ، بطبيعة الحال ، على تهجير هؤلاء لأنهم ليسوا يهوداً ، وذلك بعد أن كانت قد اعترضت في بداية الأمر على تهجير الفلاشاه ذاتهم ، بدعوى أن اليهودية التي يؤمنون بها غير تلمودية وغير حاخامية وتضم شعائر لا مثيل لها بين يهود العالم ، بل وتنطوي على عناصر مسيحية ووثنية . ومن المعروف أن قانون العودة في إسرائيل لا يسمح بهجرة من يعتنق ديناً آخر حتى ولو وُلد يهودياً . ولذا ، فحينما تجمع ثلاثة آلاف من الفلاشاه مورا ليهاجروا مع الفلاشاه ، لم يُسمَح لهم بالهجرة ونُصحوا بالعودة إلى ديارهم .

وتُشير المؤسسة الحاخامية (وكل من يعارض هجرة الفلاشاه مورا) إلى أن هؤلاء لم يتَنصَّروا قسراً ، وأنهم تحولوا عن يهوديتهم لتحقيق المغانم الاقتصادية والحراك الاجتماعي وللاستفادة من المعونات المالية التي يقدمها المبشرون . كما يؤكد أصحاب هذا الرأي أن الفلاشاه مورا يودون الهجرة إلى إسرائيل للأسباب نفسها . ومن

ثم ، فإن دوافعهم ليست دينية ولا أيديولوجية ، فهم إذن مرتزقة . ويحذر هؤلاء من أن عشرات الآلاف من الإثيوبيين ، خصوصاً من الأمهريين الذين فقدوا نفوذهم بعد سقوط منجستو ، قد يتحينون الفرصة ويدَّعون أنهم فلاشاه مورا حتى يهاجروا إلى إسرائيل .

ولكن يبدو أن المؤسسة الحاكمة في إسرائيل لا تُمانع في هجرتهم ، كما أن الولايات المتحدة بدأت تدعو إلى تهجيرهم . والدافع وراء هذا ، على ما يبدو ، هو تَعطُّش المُستوطَن الصهيوني للمادة البشرية . كما يُلاحَظ أن الوظائف الدنيا في الهرم الإنتاجي أصبحت شاغرة بعد أن حقَّق اليهود الشرقيون شيئاً من الحراك الاجتماعي . وبدأ العرب في ملئها ، الأمر الذي أدَّى إلى تزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على العمالة العربية ، وهو أمر يهدد أمنه . ولعل المادة البشرية الوافدة ، يهودية كانت أم غير يهودية ، تسد هذه الثغرة . فالدولة الصهيونية بدأت عام ١٩٤٨ دولة يهودية استيطانية إحلالية مبنية على طرد العرب أو إبادتهم لتُحل يهوداً محلهم ، ثم تحولَّت بعد عام ١٩٦٧ إلى دولة يهودية استيطانية مبنية على التفرقة اللونية التي تُمكِّن العنصر اليهودي من استغلال العنصر العربي . ويبدو أن الدولة الصهيونية بدأت تدخل مرحلة جديدة تبهت فيها يهوديتها لتصبح دولة استيطانية مبنية على التفرقة اللونية وتُصرُّ على استجلاب مادة بشرية غير عربية وليست بالضرورة يهودية (ويهوديتها هي إما مجرد ديباجات لفظية أو محض علاقة واهية اسمية) . وهي في هذا لا تختلف كثيراً عن جنوب أفريقيا التي بدأت دولة استيطانية إحلالية بيضاء مسيحية ، ثم أصبحت دولة استيطانية تمارس التفرقة اللونية لصالح البيض المسيحيين ، وتحولَّت المسيحية إلى مجرد ديباجة دون إصرار على المادة البشرية المسيحية . وقد تبدَّى هذا أيضاً في هجرة اليهود السوفييت حيث وصل مئات الألوف من أشباه اليهود ممن تآكلت علاقتهم العقائدية والإثنية باليهودية ، وبالتالي فهم ليسوا يهوداً بالعقيدة ولا بالإثنية وإنما بجذورهم البعيدة وحسب . وكما قال أحد الحاخامات ، فإن كل ما يربط هؤلاء اليهود باليهودية هو جد يهودي مدفون في موسكو . وقد وصل مع المهاجرين السوفييت أيضاً مئات الألوف من مدَّعي اليهودية ، إلا أن المؤسسة الإشكنازية الحاكمة غضَّت نظرها عن ذلك رغم احتجاج المؤسسة الدينية . وكما قلنا ، فقد غلَّبت المؤسسة الإشكنازية الاعتبارات العملية على الاعتبارات الأيديولوجية أو العقائدية الضيقة . ولعلها تفعل الشيء نفسه مع الفلاشاه مورا .



٣
إشكالية الهوية اليهودية

من هو اليهودي؟ ـ الشخصية أو الهوية اليهودية ـ الهويات اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً ـ تاريخ الهويات اليهودية حتى الوقت الحاضر ـ التعريف الديني للهويات اليهودية ـ الخريطة العامة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر ـ الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة ـ اليهود الجدد ـ يهودي غير يهودي ويهودى بشكل ما ـ ستاهل ـ لاسال ـ إيسنر ـ كون ـ راكوسي ـ ادعاء اليهودية ـ أغيار يتحدثون العبرية ـ أعضاء الجماعات اليهودية وقضية الهوية القومية ـ التعاريف الصهيونية للهويات اليهودية ـ الهويات اليهودية والتناقض بين الرؤية الصهيونية والممارسة الإسرائيلية ـ الأخ دانيال ـ شتاين ـ استجابة أعضاء الجماعات اليهودية للتعاريف الصهيونية للهويات اليهودية

من هو اليهودي ؟
Who is a Jew?

«من هو اليهودي؟» سؤال يُثار من آونة إلى أخرى داخل الكيان الصهيوني . ويُعبِّر هذا السؤال عن فشل الإسرائيليين في تعريف «الشخصية اليهودية» أو «الهوية اليهودية» .

الشخصية أو الهوية اليهودية
Jewish Character or Identity

مصطلح «الشخصية اليهودية» في اللغة العربية مأخوذ من لفظ «شخص» ويعني مجموعة الصفات التي تميِّز هذا الشخص . أما في الأصل الأوربي ، فإن المصطلح مأخوذ من اللفظ اللاتيني «بيرسونا Persona» ، وهو القناع الذي يرتديه الممثل ليُعبِّر عن السمة الأساسية للشخصية التي يؤديها . و«الشخصية» هي صيغة منظمة نسبياً لمجموعة من الخصائص الجسمية والوجدانية والنزوعية والإدراكية التي تميِّز الفرد عن غيره من الأعضاء . ويُفترَض أن الشخصية الفردية، في جوانب عديدة منها ، هي نتيجة عملية تَفاعُل مركبة بين الإنسان الفرد من جهة ، وبنيان مجتمعه وثقافته وتاريخه وبيئته الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى . ومن هنا ، يتحدث بعض العلماء عن الشخصية القومية ، وهي شخصية تَنتُج من عملية تَفاعُل تمتد ردحاً من الزمن بين جماعة من الجماعات البشرية من جهة وتشكيل اجتماعي وتاريخي وبيئة طبيعية من جهة أخرى . ومن خلال الامتداد الزمني تكتسب هذه الجماعة سمات معيَّنة وهوية محددة تصبح ثابتة أو شبه ثابتة يُفترَض أنها تُميِّزها عن غيرها من الجماعات البشرية الأخرى . ومصطلح «الشخصية اليهودية» مصطلح يفترض أن ثمة شخصية قومية يهودية ذات سمات مميَّزة وثابتة .

أما كلمة «هوية» فهي اسم منقول من المصدر الصناعي «هوية» المأخوذ من كلمة «هو» ، وتعني : مجموعة الصفات الجوهرية والثابتة في الأشياء والأحياء . فكأن مصطلح «هوية يهودية» يعني أن ثمة جوهراً يهودياً ثابتاً يسم أعضاء الجماعات اليهودية أينما كانوا ويمنحهم شخصيتهم اليهودية المحددة ، ويفرقهم عمن سواهم من البشر . وغني عن القول إن هذا المصطلح ، مثل مصطلح «الشخصية اليهودية» ، يُعبِّر عن نموذج اختزالي لا يتفق كثيراً مع الحقيقة التاريخية المتعيِّنة ولذلك فمقدرته التفسيرية ضعيفة للغاية . ويشكل استخدام مصطلحات مثل «شخصية يهودية» و«هوية يهودية» تبنِّياً غير واع للنماذج التفسيرية الاختزالية ، الصهيونية والمعادية لليهود ، التي تفترض وجود طبيعة يهودية ثابتة وعبقرية يهودية وجريمة يهودية ووجود سمات أساسية للشخصية اليهودية . فهي من منظور المعادين لليهود شخصية متآمرة عدوانية استغلالية ومنحلة ، وهي كذلك شخصية تجارية بطبعها ، أما الصهاينة ، فينسبون إلى هذه الشخصية اليهودية المستقلة سمات إيجابية ، فاليهودي يتسم بالإبداع والمقدرة على الانسلاخ من مجتمع الأغيار ، وهو يدافع عن نفسه ضد العنف لكنه لا يرتكب العنف أبداً ضد الآخرين ، وهكذا . ومن السمات الأخرى التي تُنسَب إلى الشخصية اليهودية حبها للنكتة ، ومقدرتها النقدية أو حسها النقدي . ويؤسس الصهاينة نظريتهم في القومية اليهودية والشعب اليهودي انطلاقاً من تأكيد وجود هذه الشخصية اليهودية . كما أن الصهيونية العمالية تصف الشعب اليهودى بأنه شعب طفيلى من السماسرة .

وإذا اختبرنا النموذج الكامن وراء مقولات مثل «الشخصية أو الهوية اليهودية الثابتة الواحدة» فإننا سنكتشف مدى قصوره ، فأعضاء الجماعات اليهودية ليسوا تجاراً بطبعهم ، إذ عمل العبرانيون بالزراعة في فلسطين ، كما كان منهم الجنود المرتزقة في

الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية ، ومعظمهم الآن من المهنيين في الغرب . وهم ليسوا متآمرين بطبعهم ، بل وسقط منهم ضحايا للتآمر ، لكن هذا لا يمنع وجود متآمرين وتجار بينهم . وهم ليسوا منحلّين في كل زمان ومكان ، إذ كانت هناك أزمنة وأمكنة استمسك فيها أعضاء الجماعات اليهودية بأهداب الفضيلة ولم تُعرَف بينهم ظواهر مثل ظاهرة الأطفال غير الشرعيين .

وهناك خلل يتمثل في الحديث عن اليهود بشكل مجرد، فمن يود أن ينسب العبقرية إلى الهوية أو الشخصية اليهودية سيجد قرائن على ذلك في مكان وزمان معيَّنين، ومن يود أن ينسب إليهم التآمرية سيجد أيضاً قرائن على ذلك في مكان وزمان آخرين، ثم يتم تعميم الجزء على الكل. وهذا ما يقوم به الصهاينة، عن وعي أو عن غير وعي، حينما يتحدثون عن الشخصية اليهودية أو عن الهوية اليهودية.

ولكن الشخصية (أو الهوية) ، كما أسلفنا ، هي بنية مركبة ، نتاج تَفاعُل بين مجموعة من البشر ومُركَّب من الظروف التاريخية والبيئة الثابتة على مدى زمني معقول ، وهو الأمر الذي لم يتوفر إلا للعبرانيين ، ولم يتوفر للجماعات اليهودية التي انتشرت في بقاع الأرض المختلفة وعاشت تحت ظروف اجتماعية مختلفة . ولذا ، نرى أنه يجب الابتعاد عن التعميم المتعسف والكف عن استخدام صيغة «الشخصية اليهودية» لنتحدث بدلاً من ذلك عن «الشخصيات اليهودية» و«الهويات اليهودية» . وصيغة الجمع لا تنكر الخصوصيات اليهودية، ولكنها لا تجمع بينها وكأن هناك صفة جوهرية أو عالمية كامنة في كل اليهود . ومن هنا ، يمكننا أن نتحدث عن الشخصية (أو الهوية) اليمنية اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر ، أو الشخصية الخَزَرية اليهودية في القرن التاسع ، أو الشخصية الإشكنازية في إسرائيل ، أو الشخصية السفاردية من أصل سوري في أمريكا اللاتينية . ويمكن دراسة تَطوُّر هذه الشخصيات اليهودية المتنوعة والمختلفة بدراسة سماتها المُستمَدة من أزمنة وأمكنة مختلفة . وفي هذه الحالة ، سنكتشف أن حب النكتة ليس خاصية لصيقة بالشخصية اليهودية . فالفقه اليهودي (حتى القرن التاسع عشر) يُحرِّم النكات ، كما أن هجاء الحاخامات أمر لم يكن مسموحاً به . ونجد أن حب النكتة هذا ظاهرة مقصورة على يهود أوربا في القرن التاسع عشر ومرتبط بضعف مؤسساتهم الدينية والاجتماعية . ولم يكن الحس النقدي ولا المستوى العلمي الرفيع معروفاً بين أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا حتى القرن الثامن عشر ، إذ حرَّمت قيادتها الدينية قراءة كتب الفلاسفة اليهود ودواوين الشعر العبري الدنيوي ، كما حرَّمت دراسة اللغات الأجنبية ودراسة الرياضيات والجغرافيا والتاريخ ولم تستثن من ذلك تواريخ الجماعات اليهودية . وكان الجهل بالجغرافيا عميقاً إلى درجة أن الحاخامات كانوا عاجزين عن تحديد اتجاه القدس . ولكن ، مع دَمْج اليهود في الحضارة الغربية وتَزايُد معدلات العلمنة بينهم ، وانفكاك قبضة المؤسسة الحاخامية التقليدية ، تَملَّك أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب في العصر الحديث ناصية العلوم الحديثة ، فظهر العلماء وظهر الحس النقدي ، وظهر الإحساس بالنكتة .

ومما تَجدُر ملاحظته أن كثيراً من الأدبيات الصهيونية والغربية ، حينما تتحدث عن الشخصية اليهودية أو الهوية اليهودية ، تشير عادةً إلى تجربة تاريخية محددة هي تجربة يهود اليديشية ، أي الجماعة اليهودية في شرق أوربا والتي كانت تشكل جماعات وظيفية يتحدث أعضاؤها اليديشية ، ويعيشون في الظروف الاقتصادية والاجتماعية نفسها ، وفي المحيط الحضاري السلافي (المسيحي) نفسه ، وهو ما أفرز شخصية يهودية شرق أوربية يمكن أن تُسمَّى «الشخصية اليديشية» تتحدد ملامحها لا من خلال تشكيل تاريخي يهودي عالمي وإنما من خلال التشكيل الحضاري الشرق أوربي . وقد أكد آرثر روبين في كتابه **اليهود في الوقت الحاضر** أن كلمة «يهودي» تعني بالنسبة إليه «إشكنازي» ولا تضم اليهود السفارد أو الشرقيين . ورغم أن يهود اليديشية كانوا يشكلون الغالبية الساحقة من الجماعات اليهودية في العالم في نهاية القرن التاسع عشر (حوالي ٨٠٪) ، إلا أن هذا لا يجعل منهم شخصية يهودية عالمية ، إذ أن هذه الشخصية اليديشية (القومية) هي ثمرة تَفاعُل الجماعة اليهودية مع المجتمع الشرق أوربي في بولندا وروسيا داخل تركيبة اجتماعية وثقافية مُحدَّدة . وينبع مشروع حزب البوند السياسي من الإيمان بوجود شخصية يهودية قومية شرق أوربية ، لا شخصية يهودية عالمية ، ولذا كان الحل المطروح هو تطوير هذه الشخصية اليديشية دون الانزلاق إلى أبعاد تعميمية تجريدية . وقد تبنت روسيا السوفيتية هذا الحل في نهاية الأمر بعد أن رفضه لينين في بدايته ، كما تتجلى ملامحه في تجربة بيروبيجان .

وقد اختفت الشخصية اليديشية مع التحولات الاجتماعية الضخمة التي حدثت في مجتمعات شرق أوربا ، ولم يُكتَب لها الاستمرار . ويبدو أن المكوِّن الأساسي لهذه الشخصية مرتبط تمام الارتباط بالوظيفة الاجتماعية للجماعات اليهودية كجماعات وظيفية تنمي شخصيتها المستقلة ليضمن المجتمع عزلتها ومن ثم مقدرتها على أداء وظيفتها . وقد تحوَّل يهود اليديشية من جماعات شبه قومية

متماسكة إلى جماعات مختلفة: يهود روسيا ويتحدثون الروسية ، ويهود بولندا ويتحدثون البولندية ، ويهود أوكرانيا ويتحدثون الأوكرانية ، أما يهود اليديشية الذين استقروا في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة فقد اندمجوا في مجتمعاتهم وتحدثوا لغاتها .

ومن المفارقات المهمة أن الصهاينة الذين يمجدون الشخصية اليهودية يقومون في الوقت نفسه بالهجوم عليها ورفضها ، فهم يرون أن هذه الشخصية مريضة وهامشية . وعند هذه النقطة أيضاً ، يلتقي الصهاينة مع المعادين لليهود ، بل إن الصهاينة استمدوا نقدهم للشخصية اليهودية من أدبيات معاداة اليهود . ويطرح الصهاينة فكرة الشخصية اليهودية الحقيقية بوصفها شخصية يهودية خالصة عبَّرت عن نفسها من خلال الكيان اليهودي القومي سواء في الكومنولث الأول أو الثاني ، وهي تُعبِّر عن نفسها من خلال الكومنولث الثالث، أي الدولة الصهيونية . لكن دارس هذه الدولة يعرف أن علم الاجتماع الإسرائيلي قد تَقبَّل ، كحقيقة شبه نهائية ، انقسام أعضاء التَجمُّع الصهيوني إلى جماعات يهودية لكلٍّ شخصيتها المستقلة التي تكونت عبر مئات السنين في المنفى ، أي في أنحاء العالم .

ورغم استخدامنا مصطلح «شخصية» في هذا المدخل ، إلا أننا سنناقش الإشكالية مستخدمين كلمة «هوية» بسبب شيوعها في الأدبيات التي تناقش الموضوع ، إذ أن كلمة «شخصية» عادةً ما تعني «شخصية قومية» ، بينما تُستخدَم كلمة «هوية» دائماً في عبارات مثل «هوية إثنية» . ولا شك في أن الصهاينة يفضلون كلمة «هوية» لإمكان استخدامها في الإشارة إلى يهود إسرائيل وإلى أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، فهي كلمة لن تسبب حرجاً ليهود الولايات المتحدة التي تقبل الهويات الإثنية طالما أنها لا تتعارض مع الانتماء القومي . أما كلمة «شخصية» ، فهي باستدعائها فكرة الشخصية القومية ، ستسبب الكثير من الحرج والفرقة .

الهويات اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً

Jewish Identities as a Cumulative Geological Construct

موضوع الهوية/ الهويات اليهودية في غاية التركيب لأسباب عديدة يمكن أن نورد بعضها فيما يلي :

١ ـ تم تعريف الهويات اليهودية على أساس ديني ، وعلى أساس قومي ديني ، وعلى أساس قومي وحسب . وقد دارت معارك بين أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً منذ نهاية القرن التاسع عشر) حول رؤيتهم لهويتهم وتعريفهم لهذه الهوية .

٢ ـ لا تتفق رؤية الإنسان لهويته ، بصورة حتمية ومباشرة ، مع ممارساته العملية وبنية واقعه وأفعاله . فالرؤية قد تكون تعبيراً عن مثل أعلى أو عن مجموعة من الرغبات ، أما الواقع فإنه يتطور بطريقة لا تتفق بالضرورة مع رغبات الإنسان . ومن ناحية أخرى ، فإن رؤى أعضاء الجماعات اليهودية للهوية اليهودية لم تكن تتفق بالضرورة مع تطوُّر واقعهم التاريخي ، بل وكانت تتناقض أحياناً الواحدة مع الأخرى .

٣ ـ ولكن هذا لا يعني أن رؤية الإنسان لهويته لا تتدخل البتة في تحديد سلوكه ، إذ تظل الرؤية ، برغم عدم اتفاقها مع الواقع ، عنصراً مهماً ومؤثراً في هذا السلوك ، دون أن تكون بالضرورة العنصر المحدد الوحيد له .

٤ ـ تحددت الهويات اليهودية المختلفة في غياب سلطة يهودية مركزية ، دينية أو دنيوية ، عبر الاحتكاك مع عشرات التشكيلات الحضارية ومن خلالها ، الأمر الذي نجم عنه تنوُّع هائل في الهويات اليهودية . وتتسم هذه الهويات باستقلال نسبيّ عن سياقها الحضاري، شأنها شأن هويات الجماعات الإثنية والدينية ، ولكنها في الوقت نفسه لا تنتمي إلى هوية يهودية واحدة عالمية . ومع هذا ، فقد استمر الجميع (اليهود وغير اليهود) في الحديث عن اليهود كما لو كانوا كلاً واحداً .

لكل هذا ، ظهر ما نسميه «التركيب الجيولوجي التراكمي» للهويات اليهودية . وفي حديثنا عن النسق الديني اليهودي ، نشير إلى أنه ليس كلاً واحداً يتسم بقدر من الاتساق ، وإنما هو عبارة عن تركيب جيولوجي تراكمي مُكوَّن من طبقات تراكمت الواحدة فوق الأخرى ، ولم تُلغ كل طبقة جديدة ما قبلها . وقد تكون هذه الطبقات متشابهة أو متناقضة ، ولكنها مع هذا تعيش متجاورةً ومتزامنة وغير متفاعلة ، وسُمِّيت كل هذه الطبقات «النسق الديني اليهودي» .

ويمكننا أن نقول إن الهويات اليهودية أيضاً تركيب جيولوجي تراكمي ولكنه لم يكن ملحوظاً بسبب انفصال أعضاء الجماعات اليهودية ووجودهم في أماكن متفرقة من العالم . فيهود اليديشية نتاج مجتمعاتهم ، وكذا يهود اليمن ويهود فرنسا ، وهكذا . ومع ذلك ، كان يُشار إليهم جميعاً باسم «الشعب اليهودي» ، مع افتراض وجود وحدة ما دون أن يختبر أحد مدى صدق هذه المقولة . ولكنها حين وُضعت موضع الاختبار ، بعد تأسيس الدولة الصهيونية ، ظهرت الخاصية الجيولوجية التراكمية ، وتفجرت قضية من هو اليهودي تعبيراً عن اكتشاف أن ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» ليست كلاً

يتسم بقدر من التجانس وإنما هي في واقع الأمر تركيب جيولوجي تراكمي . وقد أظهرت مجتمعات كلٍّ من أمريكا اللاتينية وجبال القوقاز هذه الخاصية الجيولوجية التراكمية في الهويات اليهودية بشكل واضح .

ومن ثم ، فلابد من نموذج تفسيري أقل عمومية ، يمكنه أن يصف المتغيرات التاريخية والثقافية والدينية التي دخلت على هذه الهوية وحولتها إلى هويات مختلفة . ولذلك ، فإننا سوف نتحدث بصيغة الجمع فنشير إلى «الهويات اليهودية» (كما نتحدث عن «أعضاء الجماعات اليهودية») فهو مصطلح يعبر عن نموذج أكثر تركيبية ومن ثم أكثر تفسيرية لواقع أعضاء الجماعات اليهودية ، يؤكد استقلالهم النسبي عن محيطهم دون أن ينسبهم إلى تاريخ يهودي عالمي أو جوهر ثابت ، بل ينسبهم إلى مجتمعاتهم وحسب . ومن هنا محاولتنا فَهْم هذه الهويات لا من خلال العودة إلى ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» ، أو العودة إلى كُتب اليهود المقدَّسة أو شبه المقدَّسة ، أو إلى **بروتوكولات حكماء صهيون** ، وإنما بالعودة إلى التشكيلات الحضارية والتاريخية المختلفة التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية والتي تفاعلوا معها وأثروا فيها وتأثروا بها ، وإن كانت درجة تأثرهم تفوق كثيراً درجة تأثيرهم كما هو الحال عادةً مع أعضاء الأقليات . فهناك هوية بابلية يهودية ، وأخرى فارسية يهودية ، وثالثة أمريكية يهودية ، ورابعة عربية يهودية .

ولكن نموذجنا التفسيري لا يُهمل البُعد اليهودي في بناء هذه الهويات ، فالدين اليهودي (بخاصيته الجيولوجية التراكمية) عنصر أساسي فيها ، كما أن الرؤية الدينية بُعد حيوي ومهم . وكل ما نفعله أننا لا نجرده وإنما نراه في تفاعله مع الأبعاد الحضارية الأخرى . كما أننا لا نرى أن له مركزية تفسيرية . ولذا ، فنحن لا نتحدث عن «هوية يهودية» عامة مُطلَقة ، ولا نتحدث عن غياب أية هوية يهودية، وإنما نتحدث عن هويات يهودية مُتعيِّنة متنوعة .

والفكر الصهيوني يَصدُر عن نموذج اختزالي يُنكر واقع الجماعات اليهودية الحضاري الفسيفسائي الجيولوجي التراكمي ، ويطرح فكرة الهوية اليهودية العالمية الواحدة ، وتتم عملية تسمية الواقع وتصنيفه من هذا المنظور . ومن ثم ، فإن هناك مصطلحات مثل «يهود الدياسبورا» و«يهود المنفى» و«الشعب اليهودي» ، وهي جميعاً مصطلحات تفترض وحدة اليهود وتَجانُسهم . ولكن حين يصل أصحاب هذه الهويات إلى إسرائيل ، يتضح للجميع أنهم ليسوا مجرد يهود ، إذ يصبحون مرة أخرى مصريين ومغاربة وروس! وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بحسب ذلك . ولذا ، ينكر كثير من المغاربة هويتهم العربية ، ويصرون على أنهم فرنسيون وليسوا يهوداً وحسب ! وكذلك فإن يهود العالم العربي ، الذين تم تهجيرهم باعتبارهم يهوداً بشكل عام ، يصبحون مرة أخرى يهوداً شرقيين يقبعون في آخر درجات السلم الاجتماعي الإسرائيلي ، كما يصبح يهود روسيا إشكنازاً أو غربيين ، ويُعطَون المنح والقروض وأفخر المنازل ، ثم يشغلون قمة السلم الاجتماعي . ومن هنا تظهر الهويات اليهودية المختلفة ، وهو ما يؤدي إلى طرح قضية «الهوية اليهودية» على بساط البحث .

تاريخ الهويات اليهودية حتى الوقت الحاضر

History of Jewish Identities till the Present

تاريخ الهويات اليهودية طويل ومُركَّب ويغطي عدة أزمنة وأمكنة لا يربطها رابط في كثير من الأحيان . وأولى الهويات اليهودية هو ما نسميه «الهوية العبرانية» أي هوية العبرانيين قبل أن يتم تهجيرهم إلى آشور وبابل . وكانت الهوية العبرانية تستند إلى تعريف ديني قومي ، كما كان الحال في الشرق الأدنى القديم . ونحن نستخدم مصطلح «قومي» لعدم وجود مصطلح أدق ، ونظن أن مصطلح «أقوامي» (نسبة إلى كلمة «أقوام») قد يكون أكثر دقة (مع قُبحه) لأنه مُستمَد من الواقع التاريخي القديم إذ تشير الدراسات التاريخية إلى «الأقوام الكنعانية» التي سكنت فلسطين (التي كان يُقال لها آنذاك كنعان) وإلى «الأقوام الآرامية» ، وهي مجموعات بشرية متماسكة على نحو فضفاض ، تتصف ببعض السمات القومية ، مثل اللغة المشتركة والثقافة المشتركة والدين المشترك ، ولكنها ليست شعوباً ولا قوميات بالمعنى الحديث للكلمة . ولم يكن التعريف الديني القومي للهوية العبرانية منغلقاً تماماً ، فثمة إشارات عديدة في الكتابات العبرية التي تعود إلى هذه الفترة أو تتحدث عنها إلى الأجنبي أو الغريب (جير) الذي بوسعه أن ينتمي إلى الجماعة العبرانية عن طريق التهود . وجاء في سفر التثنية « لا تظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من إخوتك أو من الغرباء الذين في أرضك في أبوابك، في يومه تعطيه أجرته ولا تغرب عليها الشمس لأنه فقير وإليها حاملٌ نفسه لئلا يصرخ عليك إلى الرب فتكون عليك خطيَّة » (تثنية ٢٤/ ١٤ ـ ١٥) . وعند الحديث عن هجرة العبرانيين من مصر ، أو ربما طردهم ، ترد إشارة إلى أن بعض العبرانيين قد تَخلَّفوا فيها ، كما خرج معهم « اللفيف » (خروج ١٢/ ٣٨) ، وهي إشارة إلى جماعات ليست متجانسة عرقياً ولا تنتمي إلى العبرانيين ، ولكنهم على أية حال أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الجماعة العبرانية .

وبعد التغلغل العبراني في أرض كنعان ، امتزج العبرانيون بالكنعانيين وتزاوجوا معهم . ولكن الحظر التوراتي على الزواج من الأجانب ، وعلى ذرية مثل هذا الزواج ، لا ينطبق على الأدوميين أو المصريين ، وإنما ينطبق على العمونيين والمؤابيين وحسب . « لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر ، لايدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد . . . لا تكره أدومياً لأنه أخوك ، لا تكره مصرياً لأنك كنت نزيلاً في أرضه . الأولاد الذين يُولَدون لهم في الجيل الثالث يدخلون منهم في جماعة الرب » (تثنية ٢٣/٣ ، ٧ ـ ٨) . فالحظر هنا ليس مُطلقاً ولا ضَيِّقاً . ومع هذا، فإن ثمة إشارات إلى أن الغريب ليس مقبولاً قبولاً كاملاً بأية حال (تثنية ١٤/٢١) . وبذا ، يمكننا أن نقول إن رؤية العبرانيين لهويتهم وتعريفهم لها كان مرناً منفتحاً إلى حدٍّ ما .

أما على مستوى الممارسة ، فقد كانت الهوية العبرانية منفتحة تماماً . فعند التهجير إلى بابل ، كان العبرانيون يشكلون جماعة شبه قَبَلية تتحدث العبرية ، كما كان لهم نسقهم الديني المقصور عليهم . ومع هذا ، كانت هذه الجماعة مندمجة إلى حدٍّ كبير في المحيط الثقافي والسياسي الذي تواجدت فيه ، متأثرة به أكثر من تأثيرها فيه . فالعبرانيون الذين تسللوا إلى كنعان كانوا قد أحضروا معهم من مصر (وأرض مدين) فكرة الإله الواحد . ولكن اليهودية (كنسق ديني متماسك) لم تكن ، مع هذا ، قد اكتمل تكوينها بعد واستوعبت عناصر كثيرة من عبادات الخصب الكنعانية ، كما أن «يهوه» ذاته لم يكن قد اصطبغ بعد بصبغة كنعانية . وتَبنَّى العبرانيون كثيراً من أعياد الكنعانيين وعباداتهم ، واكتسبوا الثقافة الكنعانية ، وتحدثوا بإحدى اللهجات أو اللغات الكنعانية والتي أصبحت تُدعَى «العبرية» . وحينما تم تأسيس المملكة المتحدة في عهد داود وسليمان ، لم يتوقف دخول العناصر الأجنبية . ولقد كانت سيرة داود هي سيرة تحالفه مع الفلستيين ، ثم تَنَكُّره لهم ، ثم تَحالُفه مع دويلات أخرى مجاورة ، وهكذا . وحينما فتح داود القدس التي كانت لا تزال في يد اليبوسيين (وهم بطن من بطون كنعان) ، تم استيعابهم في الجماعة العبرانية حسبما يُقال .

وبعد موت سليمان ، انحلت المملكة المتحدة إلى دويلتين عبرانيتين : المملكة الشمالية ، والمملكة الجنوبية . وكان لكلٍّ مركز ديني مستقل عن الأخرى . ومسألة المركز الديني في العبادات القربانية القديمة ، التي تدور حول المعبد ، مسألة شديدة الأهمية ، فالمعبد هو مصدر الشرعية السياسية ومصدر الدخل الأساسي للدولة، وهو في نهاية الأمر مصدر الهوية القومية وأساسها . وقد كان ملوك الدويلتين العبرانيتين يتزوجون ، كنوع من التحالفات السياسية ، من أميرات أجنبيات كن يحضرن آلهتهن معهن ويقمن المعابد لهم وينشرن العبادات الخاصة بهم بين الأثرياء وفي البلاط ، الأمر الذي كان يزيد التعددية الدينية وعدم التجانس القومي . والزواج من أجنبيات هو عادة ترجع إلى سليمان الذي لم تكن أمه عبرانية . وثمة رأي يذهب إلى أن العبرانيين كانوا يتحدثون في تلك المرحلة بلهجات مختلفة ، ولم تكن هناك بالتالي هوية لغوية موحَّدة. وكانت الدويلتان اليهوديتان في حالة حرب وصراع دائمين، كما كانتا تستعينان بالدول والدويلات الأجنبية في صراعهما (الواحدة ضد الأخرى) . فقد قامت آشور بالهجوم على الدويلة الشمالية ، وفعلت ذلك بناء على طلب من دويلة يهودا الجنوبية التي طالبت بحمايتها من الضغوط التي كان يمارسها عليها الحلف المعادي لآشور ، والذي تَشكَّل بين الدويلات الآرامية والمملكة الشمالية .

وفي هذا الإطار ، يكون الحديث عن هوية عبرانية متسماً بالتجاوز ، ولكنه مع هذا يَصلُح إطاراً أو تعريفاً إجرائياً ضرورياً لتقسيم تَطوُّر ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» عبر المراحل التاريخية .

ونستخدم أحياناً مصطلح «الهوية العبرانية اليهودية» للإشارة إلى الهوية اليهودية بعد العودة من بابل بتصريح من قورش الأخميني إمبراطور فارس . وقد بدأت ملامح الدين اليهودي في التحدد في تلك المرحلة ، وظهر نسق ديني يهودي أخذ شكل عبادة قربانية مرتبطة بالهيكل الذي أعيد بناؤه بأمر من قورش ، وبأرض فلسطين ، وبالتراث العبراني . ومن هنا تسميتنا الهوية اليهودية في هذه المرحلة بأنها «هوية عبرانية يهودية» ، فهي عبرانية في جانبها الإثني المحدد ويهودية في جانبها الديني الآخذ في التحدد . وقد ظهر مصطلح «يهودي» بعد التهجير إلى بابل . ومع هذا ، يمكن القول بأن هذا المصطلح فيه شيء من التجاوز أيضاً ، إذ أن معظم العبرانيين كانوا قد فقدوا لغتهم إبّان الإقامة في بابل ، وبدأت أغلبيتهم تتحدث الآرامية . ولذا ، فإن كلمة «عبرانية» تشير هنا إلى الانتماء الإثني العام وليس اللغوي . كما أن النسق الديني اليهودي لم يكن قد تَحدَّد تماماً إذ كانت تدخل عليه مؤثرات بابلية وفارسية قوية ، ثم هيلينية فيما بعد . وكما هو واضح ، تُعَدُّ هذه المرحلة مرحلة انتقالية من منظور الهوية . ولذلك ، فإننا نستخدم مصطلح «هوية يهودية» على سبيل التبسيط .

ولم يكن تعريف الهوية العبرانية اليهودية في فلسطين يتسم بكثير من المرونة ، إذ أن أعضاء الجماعة العبرانية العائدة من بابل

كانوا يشعرون بأنهم أقلية تتهددهم الأقوام التي سكنت فلسطين ، خصوصاً أن العبرانيين الذين لم يهاجروا تزاوجوا مع نساء تلك الأقوام ورجالهم . ولذلك ، طالب عزرا كل من يود أن ينتمي إلى الجماعة اليهودية العبرانية بأن يطلق زوجته الأجنبية . « إنكم قد خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل ، فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم ، واعملوا مرضاته ، وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة » (عزرا ١٠/ ١٠ـ ١١) . وعند هذه النقطة ، ظهرت جماعة السامريين التي شكلت جماعة دينية مستقلة ذات هوية دينية قومية مستقلة ، ورفض أعضاؤها الخضوع لأوامر عزرا (لكن التفسير السامري للانفصال عن الجماعة اليهودية يخالف ذلك تماماً ، إذ يرى السامريون أنهم أتباع موسى الحقيقيون الذين لم يُفسدوا أسفار موسى الخمسة بتعاليم الحاخامات وتفسيراتهم ، أي التلمود) . وقد ظل تعريف عزرا (الديني الإثني) الصارم للهوية سائداً حتى العصر الهيليني .

لكن أهم التطورات ، في هذه المرحلة ، كان انتشار الجماعات اليهودية خارج فلسطين . فهذه الجماعات كانت تشكل في معظم الأحيان جماعة وظيفية . وحتى يَتسنَّى لأعضاء هذه الجماعة الاضطلاع بالوظيفة الموكلة إليها بكفاءة وعلى أحسن وجه ، كان لابد لها أن تحتفظ بعزلتها الإثنية والدينية عن مجتمع الأغلبية . وتُعبِّر هذه العزلة عن نفسها في صورة التمسك الشديد بالهوية والاحتفاظ بقدر من الاستقلال عن المحيط الحضاري الذي يعيش فيه أعضاء الجماعات اليهودية ، في الرؤية والمأكل والملبس واللغة والعقيدة (مجتمعة أو منفردة) . ولكن يجب أن نشير إلى أن هوية الجماعة الوظيفية تكون عادةً حالة عقلية أكثر من كونها أمراً واقعاً ، فأعضاء الجماعة الوظيفية يستبطنون الدور المفروض عليهم ويتوحدون به ، ويجدون أن العزلة أمر طبيعي بل ومرغوب فيه ، وأن تَحقُّق الذات والهوية لا يمكن أن يتم بدونه . ويُلاحَظ أن أعضاء الجماعة الوظيفية لا يعيدون صياغة هويتهم من خلال عناصر مُستمَدة من التراث اليهودي أو العقيدة اليهودية وحسب ، وإنما من عناصر مُستمَدة (وربما بالدرجة الأولى) من المجتمع المضيف الذي يعيشون في كنفه أو من مجتمع مضيف سابق ، أو من خلالهما مجتمعين . ولكن الحالة العقلية الانعزالية تخبئ أحياناً معدلات عالية من الاندماج في المجتمع ، فهم يحتفظون بقدر من الاستقلال عن محيطهم الحضاري، ولكنهم يكتسبون سماتهم ورؤيتهم لأنفسهم ولغيرهم من محيطهم الحضاري (شأنهم في هذا شأن أعضاء الجنس البشري كافة) وذلك رغم استقلالهم عن هذا المحيط . فهويتهم (الوظيفية) اليهودية لا تتحدد من خارج التشكيل الحضاري الذي ينتمون إليه أو رغماً عنه ، وإنما من خلاله ومن داخله وبسبب تفاعلهم معه . وفي الحقيقة ، فإن تَفرُّد الهوية اليهودية في أي مجتمع لا تعود إلى تَفرُّد العناصر التي تُكوِّن الهوية وإنما تعود إلى وجودها مجتمعة . كما أن حركيات المجتمع الذي يعيشون فيه يمكن أن تُفسِّر هذا الاختلاف . وهذه التركيبة المزدوجة (قدر من العزلة الفعلية والعقلية مع قدر من الاندماج الفعلي) هي التركيبة المثلى للجماعة الوظيفية . فثمة ضرورة لقدر من الاندماج لأنهم يتعاملون يومياً مع أعضاء المجتمع ويتحركون داخله وبحسب قواعده ، ولكن ثمة ضرورة أيضاً لقدر من العزلة لضمان الحياد واستمرار العلاقة التعاقدية بين أعضاء الجماعة الوظيفية وأعضاء المجتمع المضيف ، أي أن التركيبة المزدوجة تضمن أن يظل أعضاء الجماعة الوظيفية في المجتمع دون أن يكونوا منه .

وأولى الجماعات الوظيفية اليهودية التي ظهرت خارج فلسطين هي الحامية العبرانية في جزيرة إلفنتاين ، التي وَطَّنها فراعنة مصر هناك (في أسوان) كجماعة وظيفية استيطانية قتالية لحماية حدود مصر الجنوبية . وقد فَقَد هؤلاء علاقتهم بفلسطين ونسوا شعائر دينهم أو ربما احتفظوا ببعض العناصر الوثنية من العبادة اليسرائيلية واختلطوا بالمحيط المصري . فعندما أراد الفرس استخدامهم كجماعة وظيفية قتالية تابعة لهم ضد المجتمع المصري ، أرسل الإمبراطور الفارسي رسالة يشرح لهم فيها طقوس عيد الفصح ليؤكد هويتهم اليهودية ويضمن عزلتهم عن محيطهم المصري ، ومن ثم ولاءهم . ومع هذا ، يرى بعض المؤرخين أن هوية هؤلاء اليهودية أو حتى العبرانية أمر مشكوك فيه ، فقد كانوا يتحدثون الآرامية ، كما كانت عبادتهم مشوبة بعناصر وثنية عديدة . ويمكن القول أيضاً بأن الجماعة العبرانية في مصر ، قبل خروجها منها ، كانت جماعة وظيفية ، فقد عمل يوسف مديراً لمخازن فرعون ، كما كان يضطلع بالأعمال المالية .

أما أهم هذه الجماعات طراً فهي الجماعة اليهودية في بابل والتي رفضت العودة إلى فلسطين (فيما عدا قلة صغيرة) . وقد بدأ أعضاء هذه الجماعة في الاشتغال بالتجارة والربا والانصراف عن الزراعة والتركز في المدن ، أي أنهم تحولوا بالتدريج إلى جماعة وظيفية وسيطة تجارية ومالية ونسوا العبرية . وقد كان لهذا التجمع اليهودي علماؤه ومدارسه الدينية وتَوجُّهه الثقافي الذي أخذ يزداد قوة واستقلالاً ، حتى أصبح في مرحلة من المراحل مركز اليهودية الأساسي في العالم . ويتضح تَفتُّت الهوية اليهودية في ظهور المفهوم

الديني القائل بأن شريعة الدولة هي الشريعة التي يجب أن يتبعها اليهودي في حياته العامة ، أي أن نطاق الشريعة اليهودية تم تقليصه بحيث أصبح مقصوراً على حياة اليهود الدينية الخاصة وتعاملاتهم فيما بينهم ، ولا يضم حياة اليهود العامة أو القومية . وأصبحت اليهودية (على مستوى الممارسة) ديناً ، وتَحوَّل الجانب القومي فيها إلى مجرد رموز وتطلُّعات دينية وانتماء إثني يضمن للجماعة الوظيفية الوسيطة اليهودية العزلة اللازمة لها . وهذا هو المبدأ الذي لا يزال سائداً بين أعضاء الجماعات اليهودية رغم كل الادعاءات .

ومما زاد من استقلال يهود بابل عن بقية الجماعات اليهودية في فلسطين أو خارجها ، أن اليهود ، حتى عام ٣٣٣ ق . م ، كانوا يعيشون داخل إطار إمبراطورية واحدة يدورون في فلكها ويستمدون هويتهم منها ، وهي الإمبراطورية الفارسية . أما بعد ذلك ، فقد كان الجيب البابلي يدور في فلك فارسي (أخميني ثم فرثي ثم ساساني) ، بينما كان يهود فلسطين والبحر الأبيض المتوسط يدورون في فلك هيليني ثم روماني . وقد واكب ظهور الجماعات اليهودية خارج فلسطين تَفتُّت الهوية العبرانية اليهودية في فلسطين . فقد شهد العصر الهيليني ، خصوصاً في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي ، تخلخلاً في الهوية العبرانية اليهودية في فلسطين (في الرؤية والممارسة) من المنظورين الديني والقومي لأسباب عديدة :

١ ـ أدَّى تسامُح الحضارة الهيلينية ، وجاذبيتها الشديدة ، واستعدادها للاعتراف بأي يهودي على أنه هيليني ، متى أجاد اللغة اليونانية ومارس أسلوب الحياة اليونانية ، إلى انجذاب العبرانيين اليهود (في بلدان البحر الأبيض المتوسط ومن بينها فلسطين) بأعداد متزايدة إلى تلك الحضارة ، وإلى تَبنِّيهم طرق تفكيرها وزيها واحتفالاتها ، وفي نهاية الأمر لغتها . وسُمح للعبرانيين اليهود الذين طرحوا هويتهم جانباً (مثل تايبريوس الإسكندر ، ابن أخي فيلون الفيلسوف السكندري ، وكثيرين غيره) بأن يصبحوا مواطنين يونانيين تماماً . أما بقية أعضاء الجماعة اليهودية الذين احتفظوا بعقيدتهم ، فلم يكتسبوا المواطنة اليونانية لعدم استطاعتهم المشاركة الكاملة في نشاطات المدينة (البوليس polis) ، إذ كانت الحياة في المدينة تدور حول العبادة اليونانية الوثنية . وكانت القيادة اليهودية في فلسطين ذاتها مصطبغة بالصبغة الإغريقية ، الأمر الذي أدَّى إلى تشوب الثورة الحشمونية ضد السلوقيين . ولكن القيادة الحشمونية ما لبثت ، هي ذاتها ، أن تأغرقت بعد استيلائها على الحكم واصطنعت أسماء إغريقية مثل أنتيجون والإسكندر .

٢ ـ لم تكن الهوية العبرانية اليهودية ، داخل فلسطين ذاتها ، محددة بشكل صارم ، حيث كانت تعيش في فلسطين أعداد كبيرة من أقليات غير يهودية (يونانيون وفينيقيون وبقايا الفلستيين وبقايا الأقوام السامية) . ويتضح عدم التحدد في فرض الملوك الحشمونيين اليهودية بالقوة إذ فُرضت بالقوة على الأدوميين (في شرق الأردن) وعلى الإيطوريين (في الجليل) . وكان هيرود (ملك اليهود) من أصل أدومي ، وكان هؤلاء المتهوِّدون يشكلون هوية جديدة أيضاً .

٣ ـ كانت اليهودية ، كنسق ديني ، تخوض تحولات عميقة في تلك المرحلة ، نتيجة احتكاكها بالفكر الهيليني وانتشار اليهود في حوض البحر الأبيض المتوسط . وظهرت فرق يهودية كثيرة من بينها الصدوقيون (من طائفة الكهنة) الذين كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر ، والأسينيون (من أبناء الشعب) الذين كانوا يحيون حياة تَقشُّف ورهبنة . بالإضافة إلى الفريسيين (من أبناء الطبقة الوسطى أساساً) الذين كانوا يؤمنون باليوم الآخر وإليهم يرجع الفضل في إعادة صياغة اليهودية ، وهو ما جعلهم أهم هذه الفرق . كما كان هناك أبناء الطبقات الثرية المتأغرقون ، فضلاً عن الفرق الشعبية المتطرفة مثل الغيورين (قنائيم) ، وعصبة الخناجر (سيكاري) ، وكُتَّاب «كتب الرؤى» (أبوكاليبس) ، وكُتَّاب «الكتب الخفية» (أبوكريفا) . وكان لكل فريق رؤيته وعقيدته . ومن ثم ، كانت كلمة «يهودي» في تلك المرحلة التاريخية ، تضم تعريفات كثيرة متضاربة الأمر الذي زاد من خلخلة الهوية على مستوى الرؤية والممارسة .

٤ ـ وفي هذا الإطار ، طرح الفريسيون رؤية جديدة للهوية تُحررها من المفهوم القديم المرتبط بالمجتمع القَبَلي العبراني أو المجتمع الزراعي الملكي ، أو المجتمع الكهنوتي المرتبط بالهيكل والعبادة القربانية . فأعيد تعريف الهوية بحيث أصبحت أساساً هوية دينية روحية ذات بُعد إثني مُتقلِّص ، ليس بالضرورة قومياً متضخماً ، وهي علاوة على هذا غير مرتبطة بالهيكل . وواكب هذا التعريف الجديد استعداد للتصالح مع الدولة الحاكمة أو القوة العظمى في المنطقة ، وعدم الاكتراث بنوعيتها مادامت لا تتدخل في حياة اليهود الدينية . وقام الفريسيون بنشاط تبشيري خارج فلسطين ، الأمر الذي يفسر زيادة عدد اليهود في الإمبراطورية الرومانية في تلك المرحلة .

٥ ـ كما شهدت تلك المرحلة الصدام بين الإمبراطورية الرومانية والقيادات الشعبية العبرانية اليهودية في فلسطين ، التي أجهدها دفع الضرائب للإمبراطورية ، فاندلعت الثورة في صفوفها . وعارض الصدوقيون والفريسيون التمرد ضد الرومان ، ولم يكترث أعضاء الجماعة اليهودية في بابل به . ووقفت بعض المدن ذات الأغلبية اليهودية الواضحة ، مثل صفد وطبرية ، موقف التأييد من الرومان .

وانضم اليهود المتأغرقون إلى الرومان وحاربوا في صفوفهم ، فكان هناك جيش يهودي تحت قيادة أجريبا الثاني أثناء حصار القدس وكانت أخته بيرنيكي هي عشيقة القائد الروماني تيتوس . وكانت جهود الرومان موجهة لإخماد التمرد وحسب ، وليس للقضاء على اليهودية كدين أو على اليهود كإثنوس أو قوم (كما تزعُم التواريخ الصهيونية أو المتأثرة بها) .

٦ ـ وفي هذه المرحلة ، ازداد انتشار الجماعات اليهودية في العالم نتيجة الهجرة من فلسطين والتهوّد ، بحيث أصبح عدد اليهود المقيمين خارج فلسطين يفوق عدد المقيمين فيها . وكما بيّنا ، كانت أعداد متزايدة من يهود فلسطين تفقد صبغتها العبرانية لتكتسب صبغة هيلينية . أما خارجها ، فقد نسي يهود حوض البحر الأبيض المتوسط، ولا سيما في مصر ، العبرية تماماً ، وتمت ترجمة العهد القديم إلى اليونانية (الترجمة السبعينية) بتشجيع من البطالمة حتى يفهم يهود مصر معانيه . وبتشجيع منهم أيضاً ، تم تشييد هيكل في مصر (في ليونتوبوليس) وهو هيكل أونياس ، وذلك حتى يستقلوا عن هيكل القدس ، ويبتعدوا عن نفوذ السلوقيين ، وحتى يمكن الاستفادة منهم كجماعة وظيفية ، مقاتلة وسيطة ، وهو ما كان يعني ظهور هوية يهودية في مصر الهيلينية مستقلةً عن الهوية اليهودية في فلسطين .

وهكذا كانت الهوية اليهودية ، داخل فلسطين وخارجها ، تخوض عملية تَفَتُّت على المستويين الديني والقومي . ولذلك ، يمكن القول بأن تحطيم الهيكل على يد تيتوس لم يكن سبباً مباشراً في القضاء على الهوية العبرانية اليهودية ، وإنما كان تجسيداً لعملية تاريخية مركبة أدَّت إلى القضاء على هذه الهوية وإلى تفتيتها ، ولم يكن تحطيم الهيكل سوى تعبير نهائي عن هذه العملية . فأثناء الحرب الرومانية ، استسلم قائد قوات الجليل يوسيفوس فلافيوس للرومان ثم انضم إليهم ، كما فرَّ يوحنان بن زكاي من القدس أثناء حصارها، وكلاهما كان من الفريسيين الذين انضموا إلى صفوف المتمردين على مضض . وقد سمح الرومان ليوحنان بن زكاي بتأسيس مدرسة يفنه الدينية التي تمت فيها صياغة اليهودية المعيارية أو اليهودية الحاخامية المنفصلة تماماً عن العبادة القربانية ، وهو النسق الديني الذي نعرفه ، بينما اختفت القوى الأخرى مثل الأسينيين (الذين استُوعبوا في المسيحية) والصدوقيين وغيرهم .

ويمكن القول بأن الهوية العبرانية والهوية العبرانية اليهودية ذات التوجه القومي قد اختفت تماماً عند هذه النقطة التاريخية وظهرت مراكز عديدة في بابل والإسكندرية . ولا يمكننا التحدث منذ ذلك التاريخ عن «عبرانيين» ولا عن «عبرانيين يهود» ، وإنما عن «أعضاء الجماعات اليهودية» ، وعن هوياتهم المختلفة . وقد حدث تمرُّد يهودي وهو تمرد بركوخبا ، فقضى عليه الإمبراطور هادريان وأصدر مرسوماً بهدم القدس . ولكن ، ومع ذلك ، حينما مُنحت المواطنة لكل سكان الإمبراطورية عام ٢١٢م لم يُستثن اليهود من ذلك ، وأصبحوا مواطنين رومانيين .

ويمكننا أن نحصر هنا بعض الهويات اليهودية مستخدمين معيارين : أحدهما ديني والآخر قومي أو إثني . فعلى المستوى الديني ، كان هناك السامريون ، كتَجمُّع ديني ، مقابل بقية اليهود الذين كانوا ينقسمون بدورهم إلى عدة فرق لكلٍّ فهمه الخاص لليهودية ، ومن أهمها الصدوقيون والفريسيون .

وإذا ما أخذنا بالمعيار الإثني ، فيمكن الإشارة إلى يهود فلسطين المتأغرقين ، وكانوا يتركزون أساساً داخل المدن وفي أوساط الأثرياء . رغم أن التأغرق معيار إثني ، إلا أنه يحمل تضمينات دينية ، إذ أن اليهود المتأغرقين كانوا يقفون ضد كثير من الطقوس الدينية ، ويحاولون التملص منها بل والقضاء عليها بالتعاون مع الدولة السلوقية الهيلينية . وهناك يهود فلسطين (الساميون) ، الذين كانوا يتحدثون الآرامية ويتركزون في الريف . كما كان هناك يهود فلسطين (المتهودون) من أبناء الإيطوريين والأدوميين . وهناك يهود مصر المتأغرقون (ويبدو أنه كانت هناك جماعة يهودية خارج الإسكندرية اكتسبت أيضاً الهوية المصرية المحلية ولم يكن أعضاؤها يُصنَّفون ضمن المتأغرقين) . وهناك أيضاً يهود جزيرة إلفنتاين وكانوا يتحدثون الآرامية ، وأخيراً يهود روما (الذين كانوا يتحدثون اليونانية واللاتينية) . كما كانت تُوجَد جماعات يهودية في آسيا الصغرى وفي ليبيا (برقة) ، وفي أنحاء متفرقة من أوربا . ويمكن أن نذكر أخيراً أهم هذه الجماعات طراً ، وهي الجماعة اليهودية في بابل التي انفصلت عن يهود الإمبراطوريات الهيلينية ثم عن الدولة الرومانية . وقد اكتسب أعضاء هذه الجماعات كثيراً من السمات الإثنية من المحيط الحضاري الذي كانوا يعيشون فيه ، الأمر الذي أدَّى إلى قَدْر هائل من التنوع وعدم التجانس . وستظل هذه هي السمة الأساسية والعامة للهويات اليهودية المختلفة التي ظهرت عبر العصور وفي مختلف المناطق .

ومما زاد من عدم تجانس الجماعات والهويات اليهودية ، انتشار اليهود في كل أنحاء العالم دون وجود سلطة مركزية دينية أو قضائية في فلسطين أو في غيرها من الأماكن . كما لم تكن تُوجَد في العالم القديم وسائل مواصلات أو إعلام تقرب بين أطراف العالم كما

يحدث الآن . لكل هذا ، تطوَّرت كل جماعة يهودية على حدة ، بمعزل عن الأخرى ، على المستويين الديني والقومي . وقد ظلت هذه الفسيفساء قائمة إلى أن انحلت الإمبراطورية الرومانية وانتشرت المسيحية في الغرب وانتشر الإسلام في الشرق ، فظهرت فسيفساء أخرى احتفظت بعناصر من الفسيفساء القديمة ، كما دخلت عليها عناصر جديدة . وقد انقسمت اليهودية ودخلت مدارين أساسيين : المدار الإسلامي والمدار المسيحي . وازدادت اليهودية توحيدية داخل المدار الإسلامي . ومن ثم ، ظهر ما يمكن تسميته «هوية يهودية عربية إسلامية» ، وهي التي أنتجت موسى بن ميمون . وقد حَدَث ، داخل هذا الإطار ، الانقسام الخطير الثاني ، وهو الانقسام القرّائي . أما في الغرب ، فقد ازدادت اليهودية غيبية ، ودخلت عليها عناصر صوفية متطرفة . وازدادت الهوة اتساعاً بين الهويات اليهودية في الشرق والغرب . فيهود الأندلس والعالم العربي كانوا يتحدثون العربية ويكتبون بها ، بينما كان يهود فرنسا يتحدثون برطانة فرنسية ويكتبون بالعبرية . ثم ظهرت اليديشية (لغة الإشكناز في شرق أوربا) ، واللادينو (لغة يهود السفارد في حوض البحر الأبيض المتوسط) . وكانت هناك بقايا يهود الرومانيوت الذين يتحدثون اليونانية ويهود إيطاليا الذين يتحدثون الإيطالية . كما ظهرت هويات يهودية مختلفة في أماكن متفرقة ، مثل : الخَزَر في منطقة القوقاز ، والفلاشاه في إثيوبيا ، وبني إسرائيل في الهند ، ويهود الصين في كايفنج ، ويهود مانيبور ، والتشويتاس ، واليهود السود . ولم يكن انتماء هؤلاء الديني إلى اليهودية الحاخامية ، وإنما كان انتماؤهم إلى تقاليد دينية مختلفة دخلت عليها عناصر دينية وإثنية محلية . وكان يُوجَد كذلك يهود إيران وأفغانستان الذين يتحدثون اللغة الفارسية وغيرها من اللغات ، وبعض اليهود الأكراد الذين يتحدثون الكردية . وظهر عدد ضخم من الجماعات اليهودية الصغيرة في القوقاز مثل : يهود الجبال ويهود جورجيا ويهود الكرمشاكي ، وظهرت جماعات يهودية في جبال الأطلس تتحدث البربرية . ومن الانقسامات الدينية المهمة ، ظهور الحركة الشبتانية وظهور يهود المارانو في حوض البحر الأبيض المتوسط ويهود الدونمه في الدولة العثمانية .

هذه هي الفسيفساء التي كانت قائمة حينما ظهرت العلمانية في المجتمعات الغربية والتي زلزلت اليهودية الحاخامية وعمَّقت عدم التجانس .

التعريف الديني للهويات اليهودية

Religious Definition of Jewish Identities

في العصور القديمة ، كانت اليهودية ديانة توحيدية في محيط وثني ، وكانت تكتسب هويتها من هذا التعارض الواضح والبسيط . أما في العصور الوسطى الغربية وفي العالم الإسلامي ، فقد اختلف الأمر تماماً ، إذ وجدت اليهودية نفسها في محيط توحيدي (إسلامي أو مسيحي) أدَّى إلى انطماس معالمها . ولذلك ، حاول علماء اليهود أن يخلقوا هوة بين اليهود وأعضاء الديانات التوحيدية الأخرى ، وكان التلمود هو ثمرة هذه المحاولة . وخلال هذه الفترة ، ظهر تعريف الشريعة (هالاخاه) للهوية اليهودية ، فعُرِّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية أو من تهوَّد . وهذه التعريف هو الذي ساد منذ ظهور اليهودية الحاخامية مع بدايات العصور الوسطى في الغرب حتى بداية القرن التاسع عشر ، وبالتالي فهو التعريف الذي يُعَدُّ الإطار المرجعي لكثير من الكتابات والإشكالات التي تُثار حول الهوية اليهودية . وهو تعريف ديني إثني مُغلَق يشبه إلى حدٍّ ما تعريف نحميا وعزرا ولكنه مُتحرِّر من الارتباط بالهيكل . ولذا ، نجد أن الحاخامات عارضوا أية محاولة للعودة الفعلية ووقفوا ضد أي ماشيَّح دجال من أمثال شبتاي تسفي ، باعتبار أن العودة لا يمكن أن تتم إلا بأمر إلهي سيأتي في آخر الزمان ، أي أن العنصر القومي للهوية تم تسكينه وتحويله إلى تَطلُّع ديني ، ولكنه مع هذا ظل كامناً .

وقد كانت هناك إشكالية أساسية داخل هذا التعريف تتعلق بالجانب القومي أو العرْقي للتعريف ، حيث يتضمن أن من يُولَد لأم يهودية يظل يهودياً حتى ولو لم يمارس تعاليم الدين اليهودي ، فهو يهودي بالمعنى الإثني . أما اليهودي المتهود ، فكان عليه أن يقوم بتنفيذ جميع الأوامر والنواهي ، أي يجب أن يكون يهودياً بالمعنى الديني . لكن هذه الإشكالية كانت ، هي الأخرى ، في حالة كُمون لأن عدد اليهود المتهودين كان صغيراً إلى حدٍّ كبير ، كما أن تَرابُط الجماعات الدينية والإثنية ، في العالمين الإسلامي والمسيحي ، كان قوياً للدرجة أن أي يهودي يترك دينه كان عادةً ما يتبنى ديناً آخر ويندمج في المجتمع الخارجي وينصهر فيه تماماً ، الأمر الذي يحلّ الإشكالية . وكان الفيلسوف إسبينوزا أول يهودي يترك الدين اليهودي ولا يتبنى ديناً آخر ، أي أنه كان أول يهودي إثني وعلماني .

وعلى أية حال ، فإن المشكلة كانت تظهر عند إقراض النقود بالربا ، فاليهودية تبيح لليهودي أن يقرض غير اليهودي بالربا ، لكنها تُحرِّم إقراض بني ملته . فإذا ما طلب يهودي مُتنصِّر قرضاً من أحد المرابين اليهود ، كانت قضية يهوديته تطرح نفسها . وقد أفتى بعض

الحاخامات بأن مثل هذا اليهودي المتنصر يجوز إقراضه بالربا لأنه ليس يهودياً على الإطلاق، ولكن أغلبية الحاخامات أفتوا بأنه يهودي حسب الشريعة اليهودية، لأنه وُلد لأم يهودية (أي أنه يهودي بالمعيار العرقي) .

وفي القرن الثامن ، شهدت اليهودية حركة إصلاح ديني من جانب القرّائين الذين تأثروا بالتراث الديني الإسلامي وعلم الكلام والنزعة العقلانية في التراث الديني الإسلامي ، فرفضوا الشريعة الشفهية التي جُمعَت معظم أحكامها في التلمود ، ونادوا بأن لا قداسة إلا للتوراة وحسب . أما الشريعة الشفوية ، فهي مجرد تفسيرات واجتهادات غير مُلزمة . وهو موقف مختلف تماماً عن موقف اليهودية الحاخامية التي ترفع الشريعة الشفوية (أي تفسيرات الحاخامات) إلى مرتبة التوراة ، بل إلى مرتبة أعلى منها أحياناً . ومن ثم ، حدث انقسام كامل بين الفريقين . وكان الفقه اليهودي يواجه دائماً مشكلة ما إذا كان القرّاءون يهوداً أم لا ؟ وهل يحلّ الزواج بهم أم يُعدُّ زواجاً مُختلَطاً ؟ .

ومن أهم المشاكل الأخرى التي واجهها الفقه اليهودي ، مشكلة يهود المارانو (اليهود المتخفون) الذين لم يتركوا شبه جزيرة أيبريا وتظاهروا باعتناق المسيحية بعد استرداد المسيحية لهذه الجزيرة ، واحتفظوا بانتمائهم اليهودي سراً . ويرى الفقه اليهودي أن اليهودي الذي اضطُر إلى اعتناق دين آخر يظل يهودياً ، ويمكنه أن يعود إلى حظيرة الدين متى سنحت له الفرصة . ولكن كثيراً من المارانو اعتنقوا المسيحية بإرادتهم للاحتفاظ بممتلكاتهم وثرواتهم ، كما أنهم لم يفروا من شبه جزيرة أيبريا حينما سنحت لهم الفرصة . بل إن انتماءهم اليهودي ضعف بشكل واضح بمرور الزمن ، ولم يبق منه سوى قشرة رقيقة أو بضعة طقوس . وفي النهاية ، أصبح من الصعب عليهم التأقلم مع اليهودية الحاخامية أو المعيارية كما حدث لإسبينوزا (ولأوريل داكوستا من قبله) . بل إن ثمة نظرية حديثة تذهب إلى أن المارانو كانوا مسيحيين صادقين في مسيحيتهم ، وأن بعض العناصر داخل الدولة الإسبانية هي التي قامت بتوجيه تهمة المارانية لهم لوقف حراكهم الاجتماعي ، إذ أن هؤلاء المسيحيين الجدد ، كما كانوا يُسمَّون أحياناً ، كونوا طبقة وسطى صاعدة وقوية كانت تهدد مصالح بعض الطبقات المهيمنة .

وقد شكل يهود الدونمه من أتباع شبتاي تسفي مشكلة أخرى ، فقد اعتنقوا الإسلام علناً ، وأبقوا على انتمائهم اليهودي سراً . ولم يكن الفقه اليهودي ، منذ أيام موسى بن ميمون ، يعتبر اعتناق الإسلام من جانب اليهود شركاً أو إنكاراً لوحدانية الله (على خلاف التنصر) . وبالتالي لم تكن هناك مشكلة من الناحية النظرية على الأقل . لكن الدونمه لم يُرغَموا على اعتناق الإسلام ، كما أن الادعاءات المشيحانية لقائدهم قُوبلت بحرب شرسة من جانب الحاخامات الذين أعلنوا أنها هرطقة وتجديف . ومع هذا ، كان يهود الدونمه في الدولة العثمانية يدرسون التلمود مع بقية أعضاء الجماعة اليهودية حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وظلوا محتفظين بكثير من طقوسهم اليهودية سراً دون أن يرغمهم أحد على ذلك ! ولهذا كان من الصعب تقرير ما إذا كان المارانو والدونمه يهوداً أم لا ، وهي مشكلة لم يحسمها الفقه اليهودي .

وقد ازداد انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في أنحاء العالم ، وازداد بشكل واضح غياب التجانس الثقافي والديني بينهم مع الثورة العلمانية الكبرى التي بدأت تترك أثرها التدريجي في الجماعات اليهودية (ولعل ظهور الحركات الشبتانية المختلفة هو تعبير عن تزايد معدلات العلمنة) .

ولكن رغم كل المشاكل والتوترات الداخلية والخارجية ، فإن تعريف الشريعة لليهودي (من وُلد لأمٍّ يهودية أو تَهوَّد) ، وهو التعريف الحاخامي الأرثوذكسي ، كان تعريفاً مقبولاً ويَصلُح أساساً للتفرقة بين اليهود وغير اليهود . ولكن الوضع اختلف تماماً مع ظهور العلمانية التي بدأت تترك أثرها التدريجي في الجماعات اليهودية إلى أن دخلت اليهودية في الغرب مرحلة الأزمة ، فظهر فكر حركة التنوير ثم ظهرت اليهودية الإصلاحية ومن بعدها اليهودية المحافظة واليهودية التجديدية ولا تعترف اليهودية الأرثوذكسية بأتباع هذه الفرق أو بحاخاماتها يهوداً . هذا إلى جانب انتشار نزعات الإلحاد والشك الديني بين اليهود ، وظهور ما يُسمَّى «اليهودية الإثنية» (في الولايات المتحدة وروسيا وأوكرانيا وغيرهما من كومنولث الدول المستقلة) وهي يهودية من لا يؤمنون بالعقيدة اليهودية وإن كانوا يمارسون بعض شعائرها باعتبارها شكلاً من أشكال الفلكلور الذي يدعم إثنيتهم اليهودية ويرفع روحهم المعنوية . كما ظهرت اليهودية الإنسانية التي تحاول أن تؤسس عقيدة يهودية لا تستند إلى الإيمان بالشريعة المُوحَى بها وإنما بالقيم الإنسانية العامة . وظهرت أيضاً جماعات يهودية أخرى مثل العلماء اليهود الذين يؤمنون بأن الطب الحديث لا طائل من ورائه ، وبأن سر الشفاء يوجد في العهد القديم ، وكانوا في الواقع متأثرين بفرقة دينية مسيحية تُسمَّى «العلماء المسيحيون» . وانضم كثير من اليهود إلى فرقة الموحدانيين (يونيتريان Unitarian) المسيحية ، واحتفظوا في الوقت نفسه بيهوديتهم . بل وظهرت جماعة تُسمَّى «اليهود من أجل المسيح» ، وقد اعتنق هؤلاء المسيحية ، واعتبروا المسيح عيسى بن مريم هو الماشيَّح اليهودي ،

ولكنهم لم يعترفوا ببنوته للرب ، وهكذا . وقد أصر كل هؤلاء (رغم إلحادهم الكامل أو رفضهم معظم مقولات الشريعة اليهودية) على أن يُسموا «يهوداً» ، الأمر الذي ولّد موقفاً غريباً إلى أقصى درجة وهو أن الغالبية العظمى ليهود العالم لم تَعُد تلتزم بالشريعة اليهودية ، ولم يَعُد ينطبق عليها مصطلح «يهودي» ، حسب التعريف الحاخامي ، ولكن هذه الغالبية تصرّ في الوقت نفسه على الاحتفاظ بلقب «يهودي» ، بينما لا توجد سوى أقلية صغيرة للغاية ملتزمة بالشريعة تحتفظ هي الأخرى بلقب «يهودي» وتدَّعي لنفسها حقّ أن تقرر من هو اليهودي ، ولذا فهي تذهب إلى أن أغلبية اليهود الساحقة ليسوا يهوداً ! وقد صرح آفي بيكر ، محرر إحدى التقارير التى أصدرها المؤتمر اليهودى عن أوضاع الجماعات اليهودية فى العالم ، أن الانفصال بين اليهود الأرثوذكس واليهود العلمانيين قد خلق شعبين مختلفين لا يتفاعلان .

الخريطة العامة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر

General Map of Jewish Identities at the Present

لاحظنا التطور التاريخي للهويات اليهودية المختلفة والذي نجم عنه ظهور هويات لا حصر لها ولا عدد . كما لاحظنا أن تعريف الشريعة اليهودية لمن هو اليهودي كان تعريفاً يعاني من الخلل ، فلا هو بالديني ولا هو بالعرْقي ، بل يجمع عناصر دينية وعرْقية دون تعريف حدود كل عنصر . وقد زادت الصورة اختلاطاً وسوءاً مع ظهور الفرق اليهودية الحديثة ، وظهور اليهودية الإثنية والإنسانية ، وإصرار كل هؤلاء على أن يسموا أنفسهم يهوداً .

كل هذا يعني أن كلمة «يهودي» تشير إلى أشخاص يؤمنون بأنساق دينية متعارضة من بعض النواحي ، وينتمون إلى تشكيلات حضارية مختلفة ، أي أنها دال يشير إلى مدلولات دينية وقومية مختلفة . ولتوضيح الصورة قليلاً ، يمكن القول بأن مصطلح «يهودي» كان يشير ، منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى عشية ظهور الدولة الصهيونية ، إلى عشرات الهويات والانتماءات الدينية والوثنية والطبقية :

١ ـ يهود اليديشية ، ويُطلَق عليهم عادةً يهود شرق أوربا أو الإشكناز . وهم أكبر القطاعات اليهودية في العالم . وكان هؤلاء يوجدون في أوكرانيا ومنطقة الاستيطان اليهودية في روسيا وبولندا . وكانوا ينقسمون بدورهم إلى قسمين أساسيين :

أ) يهود متدينون يعرِّفون يهوديتهم على أساس ديني .

ب) يهود تمت علمنتهم ويعرِّفون يهوديتهم على أساس إثني .

وكان معظم أعضاء هذا التجمع اليهودي يتحدثون اللغة اليديشية ، وقد حملوها معهم إلى إنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا ، ولكن كانت بينهم قطاعات تتحدث البولندية والأوكرانية والروسية والألمانية .

٢ ـ يهود العالم الغربي المندمجون الذين كانوا يتحدثون لغة بلادهم . وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى عدة أقسام ، فمنهم يهود متدينون يعرِّفون أنفسهم على أسس دينية مختلفة (إصلاحي ـ محافظ ـ تجديدي ـ أرثوذكسي) ومنهم أيضاً يهود لادينيون . وأكبر تَجمُّع لهؤلاء يُوجَد في الولايات المتحدة . وقد تزايد عددهم بوصول يهود اليديشية الذين اندمجوا بدورهم في المجتمعات التي وصلوا إليها ، واكتسبوا سماتها الإثنية والحضارية ، وفقدوا هويتهم السلافية اليديشية وظهر ما نسميه «الهوية اليهودية الجديدة» . كما أن العناصر السفاردية في المجتمعات الغربية اندمجت هي الأخرى في محيطها الحضاري ، خصوصاً أن أعدادهم كانت صغيرة .

٣ ـ يهود أمريكا اللاتينية الذين يتحدثون الإسبانية والبرتغالية أساساً . وقد انضم إليهم آلاف من يهود اليديشية واليهود السفارد من العالمين الغربي والعربي . وقد احتفظت كل جماعة يهودية مهاجرة بلغتها وهويتها التي أحضرتها من بلدها الأصلي لأن المجتمع الكاثوليكي اللاتيني كان محتفظاً بهويته ، فكان التعبير عن الهوية اليهودية هو ذاته صدى لبنية المجتمع المضيف . وحينما بدأ المجتمع اللاتيني يفقد هويته بالتدريج ، وبدأت تتصاعد فيه معدلات العلمنة ، أخذ أعضاء الجماعات اليهودية يفقدون هم أيضاً هويتهم ويندمجون ، ولكن في محيطهم اللاتيني .

٤ ـ يهود الشرق والعالم الإسلامي والعالم العربي ، وكان من بينهم اليهود العرب (اليهود المستعربة) ، واليهود السفارد الذين يتحدثون اللادينو ، وكانت توجد جماعات كبيرة منهم في العالم العربي ، وقد انضمت إليهم أعداد كبيرة من يهود اليديشية ، ويهود البلاد الغربية (خصوصاً فرنسا) . كما تم صبغ كثير من اليهود المحليين العرب بالصبغة الغربية ، وحصلت أعداد كبيرة منهم على جنسيات أوربية .

٥ ـ الجماعات اليهودية المتفرقة (مثل الفلاشاه وبني إسرائيل) التي استمر معظمها في البقاء ، ولم يختف في واقع الأمر سوى يهود الخزر ، إذ لا يزال يُوجَد بعض أعضاء من يهود كايفنج ومئات وربما آلاف من يهود المارانو والدونمه ، وإن كان ثمة نظرية تذهب إلى أن اليهود القرّائين الذين يتحدثون التركية هم من بقايا يهود الخَزَر .

٦ ـ تم تصنيف جميع الجماعات السابقة إلى يهود غربيين يُسمَّون

«الإشكناز» ، ويهود شرقيين يُسمَّون «السفارد» (أحياناً) برغم خطأ التسمية .

٧ ـ نحن نرى أن كل التقسيمات السابقة آخذة في الاختفاء وأن ثمة ثلاثة أقسام أساسية الآن في العالم :

أ) خارج فلسطين ، ظهر ما يمكن تسميته «الهوية اليهودية الجديدة» وهي هوية ظهرت في المجتمعات الغربية الحديثة ، وهي ذات ملامح يهودية إثنية أو دينية ، ولكن البُعد اليهودي فيها هامشي ، لا يؤثر في سلوك أعضاء الجماعات اليهودية ، إذ أن ما يحكم هذا السلوك هو الرؤية العامة السائدة في المجتمع (المتعة واللذة) والتي تُوجِّه سلوك المسيحيين واليهود والبوذيين والملحدين . . . إلخ .

ب) داخل المُستوطَن الصهيوني ظهرت هوية جديدة تماماً لا علاقة لها بكل الهويات السابقة ، وهي جيل الصابرا ويتنبأ الدارسون بأن هؤلاء الصابرا سيكونون أغيارا يتحدثون العبرية لاتربطهم بأعضاء الجماعات اليهودية فى العالم سوى روابط واهية لاتختلف كثيرا عن علاقة اليونانيين المحدثين بالاغريق القدامى. ويميل كثير من علماء الاجتماع إلى أن اليهود المولودين في إسرائيل ينقسمون أيضاً إلى شرقيين وغربيين ، ومن ثم يُطلَق مصطلح «الصابرا» في واقع الأمر على أولاد اليهود الغربيين وحدهم .

جـ) يهود متدينون (أرثوذكس) وهم أقلية صغيرة خارج إسرائيل وأقليه كبيرة داخلها .

والصورة ، كما نرى ، مركبة وغير متجانسة على جميع المستويات . فهذه الجماعات التي كانت تفصل بعضها عن البعض هوة من الخلافات الدينية ، وكانت تتحدث عشرات اللغات واللهجات ، تقع ضمن تشكيلات اجتماعية وثقافية لا حصر لها ، ابتداءً من يهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم الرأسمالية ومروراً بيهود اليمن الذين يشكلون جزءاً متكاملاً من مجتمعهم العربي بكل فنونه وتقاليده ومزاياه وعيوبه ، وانتهاء بيهود الفلاشاه (في إثيوبيا) الذين ينتمون إلى تشكيل قَبَلي بسيط ويتحدثون الأمهرية لغة أغلبية أهل إثيوبيا ويتعبدون بالجعزية لغة الكنيسة القبطية فيها! ويُلاحَظ هنا كيف يتداخل الانتماء الإثني مع الأبعاد الدينية . وربما كان هذا التداخل هو ما جعل مندوب الوكالة اليهودية في الخمسينيات لا يتردد في أن ينصح الفلاشاه بحل مشاكلهم كلها لا بالهجرة إلى إسرائيل وإنما عن طريق التنصر والانضمام إلى الكنيسة القبطية في إثيوبيا !

وهذه الهويات اليهودية المختلفة لا وجود لها خارج محيطها الحضاري . فإن فقد يهود الفلاشاه الأمهرية والجعزية والشعائر الدينية المختلفة التي استقوها من محيطهم الحضاري ، فإنهم يفقدون هويتهم التي يُقال لها «يهودية» . ويسري الشيء نفسه على يهود الولايات المتحدة ، فخصوصيتهم نابعة من انتمائهم إلى المجتمع الأمريكي ، ولا يمكن تَخيُّلهم خارج هذا المحيط الثقافي .

وإذا كانت هناك هوية يهودية مستقلة نسبياً عن محيطها الحضاري ، فهذا لا يعني بالضرورة أن هناك هوية يهودية عالمية واحدة مترابطة . والواقع أن هناك هويات يهودية مختلفة متعددة بعدد المجتمعات التي تتواجد فيها هذه الهويات ، إذ أن انفصالها النسبي لم يؤد بالضرورة إلى ترابط الواحدة مع الأخرى . فيهود شرق أوربا كانوا يكتسبون هويتهم الشرق أوربية اليهودية من خلال اليديشية . وكان اليهود السفارد يكتسبون هويتهم الإسبانية من خلال اللادينو . وكانت كل من اليديشية واللادينو تعزل أعضاء الجماعة عن محيطهم . ومن ثم كان الصدام بين السفارد والإشكناز حاداً دائماً في جميع نقط التماس ، سواء في أوربا في القرن السابع عشر أو في العالم الجديد في القرن الثامن عشر أو في المُستوطَن الصهيوني في القرن العشرين .

الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة

New Jewish Identity in Modern Western Societies

«الهوية اليهودية الجديدة» مصطلح قمنا بصكه لوصف الهوية اليهودية الجديدة التي نشأت تدريجياً في العالم الغربي بعد عصر الانعتاق وتَصاعُد معدلات العلمنة حتى أصبحت النموذج السائد فيه . واليهود الجدد هم أصحاب هذه الهوية الجديدة . ويمكن القول بأن الهويات اليهودية المختلفة ، بعامة ، قد تحدَّدت معالمها وتَشكَّل مضمونها في المجتمعات التقليدية (قبل الرأسمالية) بطريقة مختلفة عن تَشكُّلها في المجتمعات العلمانية الحديثة . فالمجتمعات التقليدية هي مجتمعات تدور حول منظومة عقيدية تستند إلى ميتافيزيقا ومطلقات معرفية وأخلاقية ويأخذ تقسيم العمل فيها شكل الفصل الحاد بين الطبقات والأقليات والجماعات . وبذا اضطلع اليهود فيها بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة (وأحياناً العميلة) المنغلقة على نفسها، شأنهم في هذا شأن الأرمن في تركيا والصينيين في جنوب شرقي آسيا .

لكن يهود العالم الغربي ، شأنهم شأن بقية قطاعات المجتمع الغربي ، خضعوا بعد القرن التاسع عشر لعملية ضخمة من العلمنة والتحديث ، ووجدوا أنفسهم يتفاعلون مع بيئة حضارية وسياسية مختلفة تماماً عما ألفوه من قبل ، فقد تزايد معدل العلمنة في

المجتمعات الغربية إلى أن أصبحت المجتمعات تُهيمن عليها العقيدة العلمانية (الشاملة) التي لا تتبنى أية معايير دينية أو أخلاقية للحكم على الفرد . فهي مجتمعات تدور حول مبدأي المنفعة واللذة وحول مفهوم الإنسان الطبيعي (الاقتصادي والجسماني) ، ولا تحكم على الفرد إلا على أساس كفاءته ومدى نفعه وتكيفه مع قيم المجتمعات بحيث يصبح مواطناً يتوجه ولاؤه نحو الدولة وخدمة مصلحتها ، قادراً على البيع والشراء والبحث عن اللذة وتعظيم الإنتاج والإشباع والقتال حينما يُطلَب منه ذلك .

وتتسم هذه المجتمعات بتَراجُع العقيدة المسيحية وعدم الاكتراث بها وبكل الأديان والمقدسات والغيبيات . ففي الماضي ، أي حتى منتصف القرن التاسع عشر وربما أواخره ، كان على اليهودي الذي يود الاندماج الكامل في مجتمعه أن يُغيِّر دينه ويعتنق ديناً آخر ، أي المسيحية ، كما فعل هايني ووالدا كلٍّ من ماركس ودزرائيلي . ولكن المسيحية دين له رموزه المركبة والمعادية لليهود واليهودية ، ولذا كانت تجربة التنصر مريرة ولا شك . أما يهود العالم الغربي في الوقت الحاضر ، فيمكن لمن يريد منهم أن يتخلَّى عن دينه أن يفعل ذلك ببساطة شديدة دون أن يُضطر بالضرورة إلى التنصر أو اعتناق أي دين آخر (كما فعل الفيلسوف إسبينوزا أول يهودي إثني) ، وبوسعه بعد ذلك أن ينتظم في صفوف الملايين التي تدخل الآلة الرشيدة اليومية والتي يتم تنميطها من الداخل والخارج بشكل دائم من خلال البنية التحتية المادية والمؤسسات الإعلامية والتربوية . وهذه الملايين لا تكترث بالخصوصية ، إلا باعتبارها مصدراً متجدداً للمتعة والإثارة . وهذه المجتمعات الغربية التي يعيش فيها اليهود الجدد لا تهتم كثيراً بالدين (أو أية أبعاد معرفية كلية نهائية) ، ولذا فهو لا يُوجِّه سلوك أعضائها ولا رؤيتهم لذاتهم أو للواقع ، وإن كان هناك بُعد ديني فهو عادةً هامشي ضامر . وهي مجتمعات لا ترى اليهودي باعتباره قاتل المسيح أو عدو الإله ، ولا ترى اليهود باعتبارهم الشعب الشاهد . وأعضاء هذه المجتمعات قد يتحدثون عن التراث اليهودي/ المسيحي ولكن الإنسان بالنسبة لهم ، في التحليل الأخير ، هو الإنسان الاقتصادي، المنتج والمستهلك، والإنسان الجسماني، الباحث عن المتعة. وهي مجتمعات لم تَعُد تكترث كثيراً بالشعائر المسيحية ولا بالأعياد المسيحية باستثناء الكريسماس الذي فُرِّغ من مضمونه الديني وأصبح مناسبة اجتماعية وموسماً للبيع والشراء. وبدلاً من العقيدة المسيحية ، ظهرت مجموعة من العقائد العلمانية المختلفة (مثل الوجودية والماركسية والنازية والليبرالية أو حتى الاستهلاكية) يمكن أن يؤمن بها كل من يشاء .

ولا تمارس هذه المجتمعات أي تمييز ضد اليهود أو ضد أية أقلية أخرى، فرقعة الحياة (العلمانية) العامة مفتوحة أمام الجميع ، وبإمكان الجميع الالتقاء فيها بعد أن يطرحوا جانباً خصوصياتهم الثقافية والدينية، أو بعد أن يتركوها في منازلهم في رقعة الحياة الخاصة (وقد طلبت حركة الانعتاق من اليهودي أن يكون يهودياً في المنزل مواطناً في الشارع) . وفي رقعة الحياة العامة يمكنهم أن ينخرطوا ، ما حلا لهم الانخراط، في البيع بأعلى الأسعار ، والشراء بأرخصها ، والبحث الدائم (المنهجي أو التلقائي) عن اللذة وعن التخفيضات والأوكازيونات ، دون أي تمييز على أساس العقيدة أو الجنس أو اللون . ومن ثم لا يوجد أي تمايز ثقافي أو وظيفي أو مهني لليهود في مواجهة غيرهم ، وإن كان هناك مثل هذا التمايز فهو من رواسب الماضي ، فالجميع يلتقي على أرض علمانية صلبة .

هذه صورة المجتمع العلماني النماذجية ، أي أنها صورة غير واقعية ولكنها ، مع هذا ، ممثلة للواقع . وداخل هذا الإطار ، ظهرت الهوية اليهودية الجديدة ، التي نطلق على أصحابها مصطلح «اليهود الجدد» لنميزهم عن يهود ما قبل القرن التاسع عشر وعن يهود مرحلة ما قبل الانعتاق . وفي بعض الدراسات المتخصصة ، يُقال لليهود الجدد «يهود ما بعد مرحلة الإعتاق» ، كما يمكن أن يُشار إليهم ببساطة بوصفهم «يهود العالم الغربي» ، أو «اليهود الغربيين» ، مع إسقاط المصطلحات التي تشير إلى هويات إثنية أو إثنية دينية مختلفة، مثل : «يهود اليديشية» أو «السفارد» أو «الإشكناز» ، لأنها لم تَعُد تَصلُح إطاراً مرجعياً . فاليديشية اختفت تقريباً ، كما اختفت أية ملامح إثنية أتى بها المهاجرون اليهود من أوطانهم الأصلية . وأهم كتلة يهودية بين اليهود الغربيين تتمثل في الأمريكيين اليهود (وليس اليهود الأمريكيين) الذين استُوعبوا في الحضارة الأمريكية تماماً ولا وجود لهم خارجها ولا يمكن فَهْم سلوكهم دون الرجوع إليها .

والأمريكيون اليهود هم أهم قطاعات هؤلاء اليهود الجدد وأكبرها ، إذ يشكلون نحو ٩٠٪ منهم ، ويمثلون جماهير الصهيونية الغربية وعمودها الفقري ويؤثرون في صنع القرار الأمريكي ، وحيث إن يهود أوربا الغربية بل ويهود أوربا الشرقية أيضاً آخذون في التلاشي (باستثناء يهود فرنسا التي هاجر إليها يهود المغرب) ، فإننا نستخدم أحياناً مصطلح «اليهود الجدد» كمرادف لمصطلح «الأمريكيون اليهود» . وقد ساهمت خصوصية الولايات المتحدة الأمريكية في سرعة ظهور الهوية اليهودية الجديدة وفي بلورتها ، وتتمثل هذه الخصوصية في العناصر التالية :

١ ـ المجتمع الأمريكي مجتمع استيطاني يتكون من فسيفساء إثنية .

ورغم أن ثمة نواة بروتستانتية بيضاء أسست المجتمع وشكلت أغلبية أعضاء النخبة ، فإن المجتمع لا تُوجَد فيه أغلبية متجانسة . ولذا ، لا يشكل اليهود الأقلية الإثنية أو الدينية الوحيدة ، وإنما توجد بالإضافة إليهم عشرات الأقليات الأخرى ، مثل الإيطاليين والأيرلنديين والمهاجرين ذوي الأصل الإسباني من بورتوريكو وأمريكا اللاتينية ، إلى جوار العرب والسلاف . كما تُوجَد الآن أعداد كبيرة من الآسيويين من الهند والصين واليابان ، وهناك أيضاً أعداد كبيرة من الأقليات الدينية من كل شكل ولون .

٢ ـ المجتمع الأمريكي مجتمع جديد منفتح يوجد فيه مجال للريادة والاستثمارات والحراك الاجتماعي ، الأمر الذي يسَّر لأعضاء الجماعات اليهودية أن يحققوا كل إمكانياتهم الاقتصادية وأن يستثمروا كفاءاتهم ورؤوس أموالهم بشكل كامل . والمجتمع الأمريكي الرأسمالي ، الذي تشتغل فيه قطاعات ضخمة بالتجارة والبيع والشراء والأعمال المالية ، لم يفرض على أعضاء الجماعات اليهودية دور الوسيط ، ولم يُحرِّم عليهم أي نشاط اقتصادي .

٣ ـ لم يمارس المجتمع الأمريكي أي تمييز ضد أعضاء الجماعات اليهودية في الحقوق السياسية أو المدنية ، بل منحهم هذه الحقوق كاملة منذ البداية . ولم يُظهر هذا المجتمع سوى أشكال طفيفة من التفرقة الاجتماعية (هي شكل من أشكال التحامل أكثر من كونها تفرقة عنصرية) مثل حرمان اليهود من عضوية النوادي الاجتماعية الأرستقراطية أو التعيين في بعض المناصب الحيوية . وقد تهاوت هذه الحواجز ذاتها في أوائل السبعينيات حين عُيِّن كيسنجر وزيراً للخارجية عام ١٩٧٣ ، وإرفينج شابيرو مديراً لواحدة من أكبر الشركات الأمريكية (شركة دي بونت) عام ١٩٧٤ .

٤ ـ المجتمع الأمريكي مجتمع ليس له تاريخ طويل أو تراث مُركَّب ، ومن ثم لا تسيطر عليه أية أساطير عرقية أو مفاهيم دينية قديمة ذات امتداد زمني أو ذات جذور تاريخية راسخة . وإن كانت هناك رواسب حملها بعض المهاجرين معهم ، مثل الأيرلنديين أو الألمان وغيرهم ، فهي مجرد رواسب لم تكتسب أية مركزية ولم تضرب بجذور عميقة . ويقول بعض علماء الاجتماع إن التعصب الأمريكي عادةً ما يستهدف السود بالدرجة الأولى ، ثم الكاثوليك بالدرجة الثانية ، ولكنه لا يستهدف أعضاء الجماعات اليهودية إلا بالدرجة الأخيرة .

٥ ـ المجتمع الأمريكي هو أكثر المجتمعات علمانية على وجه الأرض، حيث تم فصل الدين والأخلاق وكل القيم عن الدولة وعن رقعة الحياة العامة (أي عن ٩٠٪ من حياة الإنسان الأمريكي) .

لكل هذا ، وجد المهاجرون اليهود أنفسهم في وضع حضاري جديد تماماً ، إذ أن المجتمع الأمريكي مجتمع منفتح بمعنى الكلمة ، بخلاف المجتمعات الغربية المنغلقة المثقلة بالأساطير القديمة والتقاليد التاريخية والقيم التي ورثتها . ولذلك اندمجوا فيه بسرعة وتهاوت أسوار العزلة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية عنهم ، فلم يُضطروا إلى السكنى في أماكن خاصة بهم (الجيتو) ، ولم يُفرَض عليهم أن يرتدوا أزياء مُميَّزة . ولهذا ، اختفت بقايا ثقافة يهود اليديشية الإثنية من شرق أوربا ، كما اختفت تقريباً اللغة اليديشية ذاتها بسرعة ، وكذلك الأمر مع المدارس ذات الطابع اليهودي التقليدي بل وغير التقليدي .

ومع هذا ، يمكن القول بأن الهوية اليهودية الجديدة في الولايات المتحدة ، رغم تبلورها بسرعة وبشكل حاد ، فإنها لا تشكل سوى حالة متقدمة من متتالية نماذجية آخذة في التحقق . فالهوية اليهودية الجديدة هي ثمرة التفاعل التلقائي واليومي بين أعضاء الجماعات اليهودية ومجتمعاتهم العلمانية ، إلا أنها في الوقت نفسه ثمرة تخطيط واع . فبعد انهيار أسوار الجيتو ، وفتح أبواب الانعتاق ، والاندماج ، أدرك بعض قيادات الجماعات اليهودية الفكرية ضرورة تحديث الهوية اليهودية لتتفق مع الأوضاع الجديدة ، بكل ما تعطيه لليهود من حقوق جديدة ، وبكل ما تُلزمهم به من واجبات جديدة أيضاً . وقد كان مُتصوَّراً أن تحديث الهوية اليهودية هو السبيل الوحيد لاحتفاظ اليهودي بيهوديته (الدينية أو الإثنية) وتحقيق الاستمرار لها داخل مجتمعات ما بعد الانعتاق ، لأن الاصطدام بالمنظومة العلمانية أمر لا جدوى له . ولكن ما حدث كان عكس المتوقع . إذ اندمج اليهود تماماً في مجتمعاتهم بحيث أصبحت أنماط سلوكهم وأسلوب حياتهم لا تختلف كثيراً عن الأنماط والأساليب السائدة في مجتمعاتهم ، كما أن أحلامهم وطموحاتهم لا تختلف عن أحلام وطموحات معظم أعضاء مجتمعاتهم التي ارتفعت فيها معدلات العلمنة . أما البُعد اليهودي في هويتهم فقد أصبح هامشياً للغاية ، وظهر أن الهوية اليهودية الجديدة (من منظور خصوصيتها اليهودية الدينية أو الإثنية) هوية هشة رخوة تنتمي يهوديتها إلى المظهر والقشرة لا إلى المخبر والجوهر .

فعلى المستوى الديني ، نجد اليهودي الجديد « المتدين » (باستثناء قلة صغيرة) ينتمي عادةً إلى فرقة من الفرق اليهودية الجديدة (الإصلاحية أو المحافظة أو التجديدية) التي تؤمن بصياغة مخففة للغاية من اليهودية . وهو قد يُصنِّف نفسه يهودياً متديناً ومع هذا لا ينتمي إلى أي من الفرق . وهذا الانتماء الديني يأخذ شكل الإيمان

ببعض الأفكار الغامضة عن وجود الإله وبعض المبادئ الأخلاقية العامة الموجودة في معظم الأديان والمنظومات الأخلاقية . وهو إيمان منفصل تماماً عن الشعائر الدينية والإثنية اليهودية ، فقد اختفت ، بشكل كامل تقريباً ، الشعائر الدينية اليومية التي تنظم حياة اليهودي بل واختفت الشعائر الأسبوعية والشهرية ولم يبق سوى الشعائر السنوية ذات الطابع الاحتفالي والتي لا تتطلب أية عملية ضبط للذات . بل ، على العكس ، يتحول الاحتفال بالشعائر إلى فرصة لتأكيد الذات والإفصاح عنها وإدخال قدر من المتعة عليها . ولذا ، تم التركيز على تلك الشعائر ذات القيمة الجمالية أو الإثنية أو تلك التي تشبه بعض الطقوس والشعائر (المسيحية) بحيث يستطيع الجميع الاحتفال بشعائرهم في ذات الوقت وفي رقعة الحياة العامة . وانطلاقاً من هذا ، نجد أن الشعائر تأخذ شكل تناول العشاء أو وجبة مطبوخة بطريقة معينة في بعض الأعياد أو إيقاد شموع السبت (لا يقيم شعائر السبت كلها سوى ٥٪ من يهود أمريكا) أو إيقاد شمعدان الحانوخاه في ديسمبر أو تزيين المنزل بشجرة الحانوخاه التي ليس لها أي مضمون ديني (وتشبه تماماً شجرة الكريسماس) . بل وهناك العم ماكس رجل الحانوخاه ، بديل بابا نويل أو سانتا كلوز . وهذا اليهودي الجديد قد يذهب إلى المعبد اليهودي ولكنه يفعل ذلك مرة أو مرتين في السنة (عادةً في يوم الغفران وربما في عيد الفصح) . والشعائر تُقام لا باعتبارها شعائر دينية وإنما باعتبارها حدثاً اجتماعياً إذ تحوَّل الزمان الديني المقدَّس (بالإنجليزية : سيكريد تايم sacred time) إلى احتفال عائلي ، أي إلى زمن عائلي (بالإنجليزية : فاميلي تايم family time) ، ثم تحول الزمن العائلي بدوره إلى "وقت الفراغ" أو "الويك إند" .

ويمكن أن يغالي اليهودي الجديد قليلاً ويصر على ضرورة ممارسة شعائر الطعام الشرعي ولكنه عادةً ما يقيم بعضها لا كلها ، كما يمكنه أن يُصر على إقامة احتفال بلوغ سن التكليف (بارمتسفاه) لأطفاله (حتى لا يختلف عن أقرانه المسيحيين ممن يحتفلون بتثبيت التعميد) . ولكن هذا الاحتفال ، تماماً مثل الاحتفال بالحانوخاه ، مُفرَّغ تماماً من أي مضمون ديني أو حتى أي مضمون إثني حقيقي . فهو حَدَث بورجوازي استهلاكي ضخم يُشبه الاحتفال بعيد الميلاد حين يحتفل الإنسان بميلاده البيولوجي لا بميلاده الديني . وبدلاً من أن يتذكر اليهودي أنه قد وصل إلى السن الذي يجب عليه أن يحمل فيها نير العهد ويُنفذ الوصايا والأوامر والنواهي ، فإنه يعقد حفلة فاخرة مكلفة وسوقية (تثير حفيظة كثير من الحاخامات) . وقد لخص أحد الحاخامات الموقف الديني في الولايات المتحدة بقوله : « إن يهود أمريكا قد أصبحوا أقل تديناً وأصبحت يهوديتهم أكثر تأمركاً» . ويمكن إعادة صياغة هذا القول لينطبق على يهود المجتمعات الغربية ككل فنقول : « إن يهود العالم الغربي العلماني قد أصبحوا أقل تديناً وأصبحت يهوديتهم أكثر علمانية » .

أما من الناحية الإثنية ، فيُلاحَظ أن اليهود الجدد يتحدثون لغة البلد الذي ينتمون إليه وقد يستخدمون كلمة عبرية هنا وكلمة يديشية هناك من قبيل التظاهر الإثني ، ولكن هذا لن يعوق عملية التواصل الرشيد البرجماتي . وتُعَدُّ الإنجليزية ، وليس العبرية ، لغة معظم يهود العالم إذا أضفنا يهود أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا وإنجلترا وكندا إلى الأمريكيين اليهود ، وهي اللغة التي يتحدثون بها ويحبون ويكرهون ويتعبدون ويدبجون مؤلفاتهم الدنيوية والدينية بها .

ومن الواضح أن الحضارة الغربية الحديثة قد بهرت الكثيرين من اليهود وحلت محل ثقافتهم اليهودية التقليدية تماماً . وكما قال أحد المعلقين ، فإن يهود العالم الغربي يعرفون موتسارت ومايكل جاكسون ، ولكنهم لم يسمعوا قط بموسى بن ميمون ولا يعرفون عن مضمون التلمود شيئاً ، وبعضهم يصاب بصدمة عميقة حينما يعرف عن بعض جوانب التلمود المظلمة والسلبية . وغني عن القول أن النسق القيمي الذي يتبناه عامة اليهود الجدد والأمريكيون اليهود هو نسق مادي استهلاكي ، شأنهم في هذا شأن عامة جماهير المجتمعات الغربية . والواقع أن الإسهامات الثقافية المتميِّزة ليهود العالم الغربي ، في مجالات الأدب والفنون التشكيلية والعلوم ، تُعَدُّ من أكبر الشواهد على مدى اندماجهم في هذه الحضارة وتَملُّكهم ناصية مصطلحها . فهي إسهامات غربية علمانية بالدرجة الأولى ، وقد تكون لها نبرة يهودية حين تتناول أحياناً موضوعات يهودية ، ولكن المجتمعات الغربية لا تُمانع في هذا بتاتاً ما دامت هذه النبرة لا تتعارض مع أداء اليهودي في رقعة الحياة العامة . والعقد الاجتماعي الأمريكي يسمح للأمريكيين بأن يحتفظوا بشيء من عقائدهم الدينية وثقافتهم الأصلية بشرط ألا يتناقض ذلك مع الانتماء الأمريكي الكامل .

ولذا ، يستطيع اليهودي أن يُعبِّر عن إحساسه بالانتماء للتراث اليهودي (دون إلمام به) ، وأن يتباهى أمام الجميع بذلك ، وأن يشعر بالفخر بالإنجازات اليهودية ، ويشتري أعمالاً فنية يهودية (نجمة داود ـ شمعدان المينوراه ـ أعمال شاجال ـ أفلام وودي آلن) ، ويشتري أيضاً بعض الهدايا التذكارية (سوفينير) من إسرائيل ، ويُساهم في المناسبات والمؤسسات الخيرية والثقافية اليهودية أكثر من

أقرانه من غير اليهود . ولكن كل هذه أمور هامشية بالنسبة لانتمائه لمجتمعه ولأدائه في رقعة الحياة العامة .

ولا يتفاعل اليهود الجدد مع ثقافة إسرائيل العبرية إلا باعتبارها ثقافة أجنبية يربطهم بها اهتمام خاص ، تماماً مثلما يتفاعل المهاجر الإيطالي مع الثقافة الإيطالية حينما يدفعه الحنين الرومانسي إليها (نوستالجيا nostalgia) وذلك دون أن يضحي بهويته الأمريكية .

ويُعَدُّ تزايد معدلات الزواج المُختلَط من أهم علامات تآكل الهوية اليهودية وهشاشتها . فقد أصبحت هذه الهوية اليهودية الجديدة ، بسبب هامشيتها بالنسبة لسلوك اليهودي في المجتمعات الغربية ، لا تُشكِّل عائقاً أمام الزواج المُختلَط . فحينما يقرر شخص غير يهودي ، مثلاً ، أن يتزوج من يهودي رجلاً كان أو امرأة ، فإن انتماء هذا الأخير لا يمس جوهر رؤيته للكون أو لنفسه ولا يؤثر في سلوكه بشكل كبير . فاليهودي ، شأنه شأن المسيحي ، يؤسس حياته على أسس علمانية ، ولذا لا يتردد اليهودي في الزواج من شخص غير يهودي . بل ويُقال إن إعادة تعريف الهوية اليهودية لم تَعُد تشكل فقط حاجزاً أمام الزواج المُختلَط ، بل وأصبحت حافزاً على مثل هذا الزواج في المجتمعات العلمانية ، حيث يبحث الجميع عن مغامرات جديدة ومغايرة وعن أساليب حياة مختلفة ، واليهودي يتيح هذه الفرصة ويُحقق مثل هذه الأمنية لمن يقترن به .

ومن أكبر العلامات الأخرى على الاندماج الكامل ما يُعرَف بالاندماج الاقتصادي . فلم يَعُد اليهود يشكلون كتلة اقتصادية مستقلة داخل المجتمعات الغربية . ولم يَعُد لهم هرم وظيفي مستقل عن الهرم السائد في المجتمع (إلا من بعض الجوانب فقط) . كما لا يمكن الحديث عن «رأسمالية يهودية» أو حتى عن «رأسمالية يهودية أمريكية أو إنجليزية» ، فرؤوس الأموال التي يملكها الرأسماليون اليهود إنما هي رؤوس أموال أمريكية أو إنجليزية ليس لها حركية مستقلة أو اتجاه مستقل ، أي أنها جزء صغير من كلٍّ أكبر . والرأسمالي أو المهني أو العامل اليهودي لا يواجه مشاكل خاصة به ، بل يواجه المشاكل نفسها التي يواجهها أقرانه في الشريحة الاجتماعية نفسها أو في المهن نفسها . ويُلاحَظ أن الأمريكيين اليهود يتركزون في الوقت الحالي في المهن (الطب والجامعات والإعلام . . . إلخ) وهو اتجاه آخذ في التعمق باعتبار أن عدد الشباب اليهودي في الجامعات الأمريكية يتزايد على مر الأيام . ولكن هذا هو الاتجاه العام في المجتمعات الاستهلاكية ، إذ يزيد قطاع الخدمات تدريجياً بازدياد الرفاهية . ومع تزايد اعتماد المجتمعات الحديثة على الآلات العلمية والإلكترونيات ، يزداد احتياج المجتمع إلى المهنيين . وإذا كانت نسبة اليهود المهنيين أعلى من النسبة العامة في الولايات المتحدة ، فهذا ليس دليلاً على التمييز العنصري وإنما هو دليل على أن اليهود ، باعتبارهم أقلية ، يتسمون بقدر من الحركية أعلى من تلك التي يتسم بها بقية أعضاء المجتمع ، فيسارعون باغتنام الفرص التعليمية المتاحة ويحققون درجة من الحراك الاجتماعي تزيد عن تلك التي يحققها بقية أعضاء المجتمع ، وهم في هذا لا يختلفون عن أعضاء الأقليات الأخرى .

ويهود الدول الغربية الحديثة لا يعيشون في جيتوات مقصورة عليهم وإنما يتقرر مكان معيشتهم بحسب دخولهم وبحسب ما تمليه مصالحهم (الطبقية والمهنية والحرفية) . وقد نجم عن هذا أن اليهود الجدد ، والأمريكيين اليهود على وجه الخصوص ، يعيشون إما في المدن الكبرى أو في مدن صغيرة أو جديدة قريبة من المدن الكبرى (الضواحي) . ويتسبب هذا التوزيع في تشتيت اليهود الجدد ، وفي ابتعادهم عما تبقى من مراكز الثقافة اليهودية وعن أقرانهم ، وفي اقترابهم من غير اليهود ، الأمر الذي يزيد معدل اندماجهم والزواج المُختلَط بينهم . ومن المفارقات التي تستحق الذكر أن الحراك الاجتماعي يُعتبَر من أهم أسباب تَشتُّت اليهود الجدد ، وارتقائهم في سلم المجتمع وفي مراحل التعليم العالي ، وفي بحثهم الدائب عن أفضل المؤسسات التعليمية وأحسن الفرص الاقتصادية . وتكمن المفارقة في أن القيمة الإيجابية التي يعلقها اليهود الجدد على التعليم هي نفسها التي تسبب انتشارهم ، بكل ما يتضمنه هذا الانتشار من سلبيات من منظور التماسك الاجتماعي .

وفي هذا الإطار ، سنجد أن توجهات يهود العالم الغربي السياسية (بما في ذلك تأييدهم لإسرائيل والصهيونية) لا يختلف عن الأنماط السياسية السائدة في المجتمع ، وأن طريقة تصويتهم في الانتخابات لا تختلف (إلا في بعض التفاصيل) عن النمط السائد في المجتمع . فيُلاحَظ مثلاً أن يهود الولايات المتحدة كانوا يتجهون حتى عهد قريب اتجاهاً ليبرالياً وكان أغلبيتهم يصوتون لصالح الحزب الديموقراطي . وهم ، في هذا ، لا يختلفون كثيراً عن أعضاء الأقليات الأخرى أو عن سكان المدن . وهم يكونون جماعات ضغط تتحرك داخل النظام السياسي ولكنها لا تختلف في هذا عن الأقليات وجماعات الضغط الأخرى (فالديموقراطية الأمريكية لم تَعُد ديموقراطية انتخابية وإنما صارت ديموقراطية جماعات الضغط) .

وقد أدَّى تَزايُد معدلات الاندماج إلى الابتعاد عن التراث أو الموروث الثقافي التقليدي ، وبالتالي إلى ضعف الهوية الإثنية الخاصة . ومن المُلاحَظ أن أزمة الهوية والإحساس بالاغتراب ،

وهما من الموضوعات الأساسية في الأدب الغربي الحديث وفي المجتمعات الغربية ، قد أصابا اليهود الجدد أيضاً ، ومن هنا بحثهم الدائب عن هوية . والواقع أن هذا البحث ترجم نفسه إلى حاجة نفسية لافتراض وجود ظاهرة معاداة اليهود في كل مكان . ففي غياب أي مضمون إيجابي للهوية ، يصبح الآخر المعادي عنصراً ضرورياً لوجودها ومصدراً أساسياً لها . وقد ذكر أحد المعلقين الأمريكيين أن سارتر يرى أن المعادي لليهود إن لم يجد يهوداً لاخترعهم اختراعاً . ولكن الوضع أصبح معكوساً بالنسبة للأمريكيين اليهود واليهود الجدد ، فهم إن لم يجدوا أعداء اليهود لاخترعوهم . والمؤسسة الصهيونية تدرك هذه الحاجة النفسية للأمريكيين اليهود ، فتقوم بتعميق إحساسهم بالمخاطر الحقيقية أو الوهمية المحيطة بهم والمؤامرات التي تُحاك ضدهم ، وتؤكد على الهولوكوست أو الإبادة النازية باعتبارها موضوعاً أساسياً فيما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» وعلى إمكانية قيام أفران الغاز في بروكلين (نيويورك) أو في كولومبوس (أوهايو) أو حتى في باريس (فرنسا) أو موسكو (روسيا) .

ولكن الشكل الأساسي للهوية المعلنة بين الأمريكيين اليهود واليهود الجدد بشكل عام هو إعلان انتمائهم الصهيوني بشكل متشنج حتى يضفوا ما يشبه المضمون الإيجابي الصلب على هذه الهوية اليهودية الجديدة الهشة السطحية ، فهي تجعل الأمريكي اليهودي فرداً من الشعب اليهودي القديم فخوراً بتراثه ورموزه القومية ، خصوصاً الرمز القومي الأكبر ، أي الدولة الصهيونية . ولكن ، بشيء من التحليل المتعمق ، سنكتشف أن يهود العالم الغربي والأمريكيين اليهود قبلوا الصهيونية حسب شروطهم هم . ونحن نقسم الصهيونية إلى نوعين : صهيونية استيطانية ، أي أن يهاجر المواطن اليهودي من بلده ويتحول إلى مستوطن صهيوني في فلسطين، وصهيونية توطينية أو صهيونية الغوث والمعونة والهوية ، وهذه صهيونية تترجم نفسها إلى تبرعات مالية لإسرائيل للمساعدة في توطين اليهود الآخرين ، وإلى تأييد وضغط سياسيين من أجلها ، وإلى مصدر من مصادر الهوية ، بحيث تصبح إسرائيل بالنسبة لهؤلاء الأمريكيين اليهود هي البلد الأصلي (مسقط الرأس) مثل إيطاليا بالنسبة إلى الإيطاليين وأيرلندا بالنسبة إلى الأيرلنديين ولبنان بالنسبة إلى اللبنانيين ، فكأن الأمريكيين اليهود قد تَقبَّلوا الصهيونية بعد أمركتها ، تماماً مثلما فعلوا مع اليهودية !

لكل هذا ، لا يهاجر اليهود الجدد إلا بأعداد صغيرة ، فمعدل هجرة الأمريكيين اليهود في السنة هو ١٢٥٠ فقط (ولعل هذا العدد قد تزايد قليلاً مع انتشار البطالة في المجتمع الأمريكي) ، ولكنهم دائماً على استعداد لإحداث الضوضاء والتظاهر من أجل إسرائيل والكتابة إلى الكونجرس ودفع التبرعات الآخذة في التناقص (لا يُساهم سوى ٢٠٪ من يهود أمريكا في الجباية اليهودية الموحَّدة ، كما لُوحظ مؤخراً أن ما تحصل عليه الجمعيات الخيرية غير اليهودية من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة يزيد على ما تحصل عليه الجمعيات اليهودية) . وقد لاحظ أحد الدارسين أن الهجرة إلى إسرائيل تتناسب تناسباً عكسياً مع تَصاعُد نبرة هذه الصهيونية التوطينية وازدياد حدتها .

لكن الأهم من هذا كله أن هذه الصهيونية لا تشكل رؤية متكاملة للحياة ، فهي لا تتحكم إلا في جانب واحد وسطحي من الشخصية ، إذ تظل قيم اليهودي الجديد وهويته المتعيَّنة غربية علمانية استهلاكية . ومما ييسر الأمر بالنسبة إلى اليهود الجدد أنه لا يوجد أي تعارض أو تناقض بين مصالح بلادهم ومصالح إسرائيل التي تمثل هذه المصالح في الشرق الأوسط . فتأييدهم للمُستوطَن الصهيوني لا يختلف في أساسياته (وإن اختلف أحياناً في نبرته) عن تأييد غير اليهود للمشروع الصهيوني . وهو تأييد مؤسَّسي عام تشترك فيه الحكومات الغربية والمؤسسات الإعلامية والثقافية . وحين يُشارك اليهودي الجديد في هذا لا يعدو أن يكون صوتاً في جوقة ، يسبح مع التيار لا ضده . ويمكن الزعم بأن تأييد يهود أمريكا لإسرائيل ينبع أساساً من أمريكيتهم ، أي من انتمائهم الأمريكي وليس من خصوصيتهم اليهودية .

ولكن هذا الانتماء الصهيوني يخبئ كثيراً من التناقضات والمفارقات . فأولاً : إذا كانت إسرائيل هي حقاً البلد الأصلي ، فإن هذا يعني أنها البلد الذي هاجر المهاجر منه لا البلد الذي يهاجر إليه ، أي أن الأسطورة الصهيونية في محاولة التكيف مع الواقع الأمريكي قضت على نفسها . وثانياً : يساعد هذا الانتماء الصهيوني السطحي على مزيد من الاندماج والانصهار ، فهو انتماء إثني لا ديني يُفقدهم ما تبقَّى لهم من انتماء ديني . وحيث إنهم يكتسبون سماتهم الإثنية الحقيقية من مجتمعاتهم ، فهم يزدادون في واقع الأمر تأمركاً وعلمنة وتظل الاختلافات بينهم وبين بقية المواطنين باهتة وطفيفة ، ويصبح مضمون الحياة اليهودية الوحيد هو دفع التبرعات إلى إسرائيل وحضور المظاهرات التي يتصرف اليهودي الجديد بعدها إلى بيته الوثير في الضاحية ، بعد أداء واجبه تجاه هويته اليهودية الجديدة الهشة ، ليتمتع بحياة استهلاكية هنيئة ويلتهم كل أنواع الطعام ، المباح وغير المباح شرعاً . وقد لاحظ بن جوريون نفسه هذا الوضع

حينما ذكر أن صهيونية يهود أمريكا (والعالم الغربي) ليست إلا غطاء لعملية الاندماج السريعة . ويمكن تلخيص الموقف بالقول بأنه من منظور الهوية بين اليهود الجدد ، يُوجَد سطح صهيوني لامع تزدهر فيه الهوية الإثنية الوهمية السطحية ، وباطن غربي علماني تتآكل فيه الهوية الدينية أو التقليدية وتتشكل داخله الهوية اليهودية الجديدة . وإذا كان الصهاينة قد وصفوا اليهود المندمجين بأنهم المارانو الجدد (أي اليهود المتخفون ، مثل يهود إسبانيا الذين اضطروا إلى التنصر ، فأظهروا مسيحيتهم وظلوا في الباطن يهوداً) ، فيمكننا أن نصف اليهود الجدد بأنهم مقلوب المارانو ، أي أنهم يظهرون اليهودية بطريقة صاخبة ولكنهم يبطنون العلمانية والاستهلاكية والأمريكية .

ولكن كل هذا لا يعني عدم وجود تناقضات بين اليهود الجدد والمجتمعات التي ينتمون إليها ، كما لا يعني أن كل أشكال التفرقة ضدهم قد اختفت تماماً . فهناك التوتر المتزايد بين الأمريكيين اليهود والسود ، وبينهم وبين الكثير من أعضاء الجماعات المهاجرة . وهناك أشكال من التفرقة الاجتماعية غير الملحوظة (نسميه «تحامل») . ولكن مثل هذه التناقضات ومثل هذه التفرقة هي جزء من أي كيان اجتماعي . ويشبه وضع اليهود الجدد ، في كثير من نواحيه ، وضع أية أقلية في أي مجتمع غربي حديث منفتح ، وهذا الوضع شيء جديد تماماً بالنسبة إلى يهود العالم الغربي .

اليهود الجدد

Neo-Jews

انظر : «الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة» .

يهودي غير يهودي ويهودي بشكل ما

Non-Jewish Jew and Jewish in Some Way

«اليهودي غير اليهودي» هو عنوان أحد كُتب المؤرخ والمفكر التروتسكي إسحق دويتشر . ويذهب دويتشر إلى أن ثمة جانباً عالمياً في اليهودية تَبدَّى في الفكر الثوري العالمي للمفكرين اليهود أمثال إسبينوزا وماركس ، فهذا الجانب العالمي دفعهم لأن يطوروا أنساقاً فكرية ثورية عالمية تجاوزت حدود اليهودية بل وحدود كثير من الأنساق الفكرية الأخرى . ومعنى ذلك أن تَحقُّق النزعة العالمية الكامنة في اليهودية يؤدي إلى نفي اليهودية . وهؤلاء المفكرون ، في تَصوُّر دويتشر ، يمثلون كل ما هو عظيم في الفكر الحديث سواء في الفلسفة أو علم الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة في القرون الثلاثة الأخيرة . ويرى دويتشر أن السمات الأساسية لهؤلاء المهرطقين اليهود هي ما يلي :

١ - الإيمان بالحتمية ، وبأن العالم يحكمه قانون .

٢ - الإيمان بأن الواقع في حالة حركة دائمة وليس جامداً .

٣ - عدم انفصال النظرية عن الممارسة .

٤ - الإيمان بتضامن البشر في عملية انعتاق إنسانية كاملة .

والعناصر الثلاثة الأولى تعني ، في واقع الأمر ، الإيمان بالمرجعية المادية الكامنة ونموذج الطبيعة/ المادة ، أما الرابع فهو الإيمان بعقيدة التقدم . ويضيف دويتشر أن هؤلاء المثقفين اليهود المهرطقين يعيشون على حدود الحضارات ، وهذا يعمق إيمانهم بصيرورة العالم وبالتضامن الإنساني العالمي .

ويمكن القول بأن المثقفين اليهود غير اليهود لا يختلفون كثيراً عن المثقفين المسيحيين غير المسيحيين . فاليهودي غير اليهودي ، هو فرد من أصل يهودي وحسب ، فَقَد إيمانه بمنظومته العقيدية ، وهو مع هذا لا يختلف عن المثقف من أصل مسيحي الذي فَقَد إيمانه بالعقيدة المسيحية ، فالجميع يلتقي في رقعة الحياة العامة والرؤية الأممية العالمية الكوزموبوليتانية . وهذا على كلٍّ هو ميراث عصر الاستنارة الذي يسعى إلى ظهور الإنسان الأممي الذي لا يرتبط بأية خصوصيات قومية أو دينية أو طبقية ، وإن ارتبط بشيء فهو شيء أممي عام مثل الحفاظ على البيئة أو مصالح الطبقة العاملة التي ستلغي كل الطبقات وتُحقِّق المجتمع الشيوعي الذي سيسير حسب قوانين الاشتراكية العلمية .

وهناك كثير من النشطاء السياسيين في الأحزاب الشيوعية والحركات الثورية الغربية من أصل يهودي ، ولكنهم فقدوا علاقتهم باليهودية وتحولوا إلى ثوريين متطرفين يعملون من أجل المثل الثورية الأممية العالمية التابعة (كما يتصورون) من قوانين الحركة المادية الكامنة والتي تتبدَّى في جدلية التاريخ ، ومن ثم فهي مُثُل لا تعرف أية خصوصيات . وقد جعل هؤلاء الثوريون همهم القضاء على ما تبقَّى من جيوب إثنية يهودية (يديشية في معظمها) تحت شعار دمج اليهود في مجتمعاتهم وحل المسألة اليهودية من خلال الطرح الثوري . ومن أهم هذه الشخصيات فرديناند لاسال وكارل ماركس وروزا لوكسمبورج وليون تروتسكي وإيسنر كورت وبيلا كون وراكوس ماتياس وأرنو جيرو ورودولف سلانسكي وآنا بوكر .

ورغم العداء الشرس من قبل هؤلاء المثقفين اليهود غير اليهود لليهود واليهودية ، ظلت الجماهير الشعبية تصنفهم على أنهم «يهود» ، حتى أن الثورة البلشفية كانت تُدعَى «الثورة اليهودية» .

ويعود هذا إلى أن أعداد هؤلاء اليهود غير اليهود في صفوف الحركات الثورية والاشتراكية ، بل وفي قياداتها ، كان أمرا ملحوظًا . ولكن هناك بُعداً خاصاً للقضية في شرق أوربا (حيث كانت تُوجَد غالبية اليهود وحيث استولت الأحزاب الشيوعية على نُظُم الحكم) . فأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يلعبون دور الجماعة الوظيفية في مجتمعاتهم التقليدية ، وكانوا أداة قمع في يد الطبقة الحاكمة (فكانوا جامعي الضرائب وكانوا وكلاءهم الماليين والتجاريين) . ووجود اليهود غير اليهود الملحوظ في الأحزاب الشيوعية في شرق أوربا ، خصوصاً في النظم الستالينية ، جعل الناس يدركون مرة أخرى أنهم جماعة وظيفية يهودية جديدة تلعب مرة أخرى دور العميل لحساب القوة الشيوعية الروسية أو المحلية التي تقوم بابتزازهم . ورغم أن هؤلاء المفكرين والمواطنين الثوريين من اليهود غير اليهود لم يميِّزوا بين اليهود وغير اليهود ، وكانوا أداة أمينة في يد نظمهم الحاكمة في عملية القمع ، إلا أن العقل الشعبي لا يميل إلى التمييز بين الظلال المختلفة بل يميل إلى إدراك الواقع من خلال نماذج مختزلة له ، خصوصاً أن هناك تراثاً تاريخياً يدعم هذا النموذج . ولذلك ، فهناك مفارقة تستحق التأمل وهي أنه رغم اختفاء اليهود من هذه البلاد ، إلا أن شعوبها لا تزال تمارس عداءً حقيقياً لليهود .

ويمكن أن نوسِّع نطاق مصطلح «يهودي غير يهودي» لنشير إلى أي مواطن من أصل يهودي تآكل انتماؤه اليهودي (سواء من الناحية الإثنية أو الدينية) أو اختفى تماماً ، فهو إنسان مندمج تماماً في محيطه يُقبل على الزواج المُختلَط ولا يعيش في جيتو أو في أي قسم من أقسام المدينة مقصورة عليه ، كما لا يتسم بأي تَميُّز وظيفي أو مهني أو ثقافي فهو من اليهود الجدد أصحاب الهوية اليهودية الجديدة ، ورغم كل هذا يُصنَّف على أنه «يهودي» إما من قِبَل ذاته أو من قِبَل الآخرين ، ومن ثم تصبح يهوديته إما شيئاً مفروضاً عليه من الخارج أو ادعاء ليس له ما يسانده لا في سلوكه ولا رؤيته .

١ ـ وإذا كان «اليهودي غير اليهودي» قد صُنِّف يهودياً رغم أنفه (وهذا ما كان يحدث في العالم الغربي حتى الحرب العالمية الثانية) ، فهو عادةً لا يكترث بجوانب سلوكه أو شخصيته التي يسميها الآخرون «يهودية» ، بل يحاول قدر استطاعته أن يبيِّن أنها هامشية ويُحس بالاستياء إن أصر الآخر على مركزية انتمائه اليهودي .

٢ ـ يمكن أن نُصنِّف اليهود الخفيِّين (بالإنجليزية : إنفيسيبل جوز invisible Jews) ضمن هؤلاء ، ففي أثناء الحرب العالمية الثانية آثر الكثير من اليهود أن يخفوا هويتهم خوفا من الاضطهاد النازي ، كما أن الفاتيكان أعطى الألوف شهادات تعميد لتسهل لهم عملية الهجرة أو التخفي . وفي الاتحاد السوفيتي كان من حق المواطن اليهودي أن يسجل نفسه روسياً أو أوكرانياً إن شاء ، أو يهودياً إن فضَّل ذلك . وقد آثر مئات الألوف تسجيل أنفسهم روساً . ومن أشهر هؤلاء مادلين أولبرايت ، وزيرة الخارجية الأمريكية ، التي اُكتشف أمرها ؛ وكذلك روبرت ماكسويل ، الناشر الإنجليزي .

٣ ـ ولا شك في أن اليهودي الكاره لنفسه هو أيضاً يهودي غير يهودي .

٤ ـ بل وعلى المستوى العميق ، يمكن القول بأن كل الصهاينة هم «يهود غير يهود» ، فالمضمون اليهودي لحياة معظم صهاينة الغرب يكاد يكون منعدماً ، وهم يهود كارهون ليهوديتهم ويودون إلغاء الوجود اليهودي في العالم ليُحلوا محله نمطاً إنسانياً جديداً (طبيعياً) لا يتسم بأي شذوذ أو طفيلية ، وهو ما يُسمَّى الإنسان العبري الجديد .

٥ ـ بلغ الاختلاط درجة كبيرة حتى أنه ظهرت في الاحصاءات الخاصة بالجماعات اليهودية في العالم مقولة جديدة كل الجده وهي «يهودي بشكل ما» (بالانجليزية : جويس إن سم وِي Jewish in some way) وهي مقولة كوميدية لاتختلف عن تعريف سارتر لليهودي بأنه «هو من يشعر في قرارة نفسه بأنه كذلك» .

٦ ـ أما «اليهودي غير اليهودي» الذي يدعي اليهودية ويتباهى بها (وهذا هو النمط السائد بعد وعد بلفور والحرب العالمية الثانية) ، فهو على العكس من ذلك ، حيث يتباهى بانتمائه اليهودي مع أن حياته وسلوكه وهويته تكاد تكون خالية تماماً من أي مضمون يهودي ديني أو إثني . وهو يسعى دائماً إلى إبراز جوانب شخصيته التي يتصور أنها يهودية .

فريدريك ستاهل (١٨٠٢-١٨٦١)

Friedrich Stahl

اسمه الأصلي يوليوس شلسنجر . وُلد في بافاريا الكاثوليكية . وهو رجل سياسة وقانوني ألماني محافظ وأحد قادة البروتستانتية اللوثرية الألمانية . وُلد لأسرة يهودية وتلقى تعليماً أرثوذكسياً يهودياً ، ولكنه تَنصَّر ثم دخل الكنيسة اللوثرية عام ١٨١٩ ، أي وهو بعد في سن السابعة عشرة . وقد كان في هذا مثل عدد كبير من اليهود الألمان في عصره الذين تَنصَّروا لأسباب مختلفة .

درس ستاهل القانون في عدة جامعات ألمانية ، وكان نشطاً في الحركات الطلابية ، وعمل أستاذاً للقانون الروماني والكنسي . وعُيِّن عضواً في المجلس التشريعي في بروسيا ، وعضواً في مجمع الكنيسة البروسية ، كما ساهم في إنشاء مجلس الشيوخ في بروسيا وعين عضواً فيه مدى الحياة ، وكان قائداً للحزب المحافظ .

ويتناول أهم أعمال ستاهل الذي نُشر عام ١٨٢٩ فلسفة القانون، حيث ينكر في هذا العمل كل العقائد العقلانية وينادي بأن أساس القانون والسياسة هو الوحي المسيحي وأن العرش الزماني لابد من ربطه بالعرش السماوي ، أي مُلْك الإنسان بمُلك الإله ، كما ينادي بتجنيد الجماهير ضد الليبرالية والديموقراطية .

وباعتباره قائداً للحزب المحافظ ، كان ستاهل مسئولاً عن صياغة برنامجه السياسي الذي يُسمَّى برنامج تيفولي ، والذي كان ينادي بعدم إعتاق اليهود . وكان ستاهل يؤكد دائماً أن اليهودية متدنية أخلاقياً بالقياس إلى الفولك (الشعب العضوي) الألماني . وقد تأثر بسمارك والمؤرخ الألماني ترايتشكه بأفكار ستاهل الذي يعده بعض المؤرخين المُنظِّر الحقيقي للفكر المحافظ الرجعي الألماني .

وُلد ستاهل ونشأ يهودياً أرثوذكسياً في مقاطعة كاثوليكية ، وتنصَّر ودخل الكنيسة اللوثرية البروسية وأصبح أحد قادتها ومن قادة الحزب المحافظ ، وأخذ موقفاً معادياً تماماً لليهود لا من قبيل الانتهازية وإنما انطلاقاً من رؤية محافظة ساهم في صياغتها . ومع هذا ، كان المعادون لليهود يشيرون إليه وإلى غيره من المفكرين من أصل يهودي بوصفهم يهوداً ، الأمر الذي يُبيِّن مدى سذاجة مثل هذه التصنيفات ومدى عدم جدوى الإصرار على أن المفكر من أصل يهودي يظل بصورة حتمية يهودياً مهما تغيَّرت آراؤه ومواقفه وأفعاله . فمثل هذا الإصرار يؤدي إلى تكوين صورة عن المفكر لا علاقة لها ببنية فكره أو بمواقفه المتعيِّنة . وقد يكون من التعسف إنكار أن أصول المفكر اليهودية تترك أثرها في فكره ، ولكن لا يمكن ، بأية حال، رد فكره بقضه وقضيضه إلى أصوله اليهودية .

فرديناند لاسال (١٨٢٥-١٨٦٤)

Ferdinand Lassalle

زعيم وفيلسوف اشتراكي ألماني يهودي . وُلد في براسلاو لتاجر ثري ، وانضم إلى الحركة اليهودية الإصلاحية وأصبح من أشد المؤمنين بها . وقد درس لاسال في جامعتي براسلاو وبرلين ، وتأثر بكتابات هيجل ، وانضم لفترة قصيرة لحركة الشباب الهيجلي وعمل على استخدام اليهودية الإصلاحية لضرب اليهودية الأرثوذكسية . وخلال الفترة ١٨٤٣ ـ ١٨٤٥ ، طوَّر لاسال مفهومه حول الاشتراكية الديموقراطية والصناعية التي تستند إلى حكم القانون . وفي عام ١٨٤٥ ، انتقل إلى باريس حيث التقى بالشاعر هايني ، وتوطدت علاقتهما برغم خلافاتهما العميقة اللاحقة . وقد اشترك في ثورة ١٨٤٨ وسُجن لمدة ستة أشهر . وتأثر لاسال بماركس ودارت بينهما مراسلات عديدة . إلا أن رؤاهما تباعدت في كثير من الأمور ، فتَبَنَّى لاسال نهجاً إصلاحياً ونادى بحق الاقتراع العام وبالملكية الدستورية كما أيد القومية ورفض اعتبار الحركة القومية السلافية في روسيا معادية للثورة .

وقد أسس لاسال عام ١٨٦٣ الجمعية العامة للعمال الألمان والتي تطورت فيما بعد لتصبح الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني . وكانت زعامته لهذه الجمعية ومعاداته للحركة الليبرالية أحد أسباب التقارب بينه وبين بسمارك الذي كان أيضاً معادياً لليبراليين . وقد أدَّت هذه العلاقة إلى اتهام لاسال بخيانة الطبقة العاملة وبالانتهازية السياسية .

وبرغم اهتمام لاسال في شبابه بالعقيدة اليهودية ، وخصوصاً اليهودية الإصلاحية ، إلا أنه رفضها فيما بعد واعتبرها مرحلة ضرورية في التطور الإنساني في الماضي ، ولكنها لا تُعتبَر ذات قيمة أو نفع في الوقت الحاضر ، وكان في رأيه هذا متأثراً بهيجل . كما أشار لاسال أنه لا يعتبر نفسه يهودياً ، ولا يرى في اليهودية سوى البقايا الفاسدة لماض عظيم غابر ، وأن اليهود بعد قرون من العبودية اكتسبوا خصائص العبيد . وقد لقي لاسال مصرعه في مبارزة دفاعاً عن شرفه حين رفضت أسرة خطيبته الكاثوليكية قبوله زوجاً لها بسبب أصوله اليهودية وماضيه الثوري .

كورت إيسنر (١٨٦٧-١٩١٩)

Kurt Eisner

زعيم اشتراكي ألماني يهودي ومؤسس الجمهورية البافارية وأول رئيس وزراء لها . وُلد في برلين لأب ثري يعمل بالتجارة ، واشتغل في الصحافة فساهم في تحرير عدد من الصحف الألمانية . وأظهر كورت إيسنر اهتماماً شديداً بالفلسفة فدرس مع هرمان كوهين وله دراسة عن نيتشه . وفي عام ١٩١٠ ، أصدر جريدة نالت شعبية كبيرة . ومع اندلاع الحرب العالمية ، عارض بشدة الأطماع الإمبريالية للحكومة الألمانية وسياستها الحربية . وفي عام ١٩١٨ ، حُوكم وسُجن بتهمة الخيانة بعد مشاركته في إضراب عمالي مطالباً بالسلام في ميونيخ ، وقد أُفرج عنه بعد عدة أشهر فقام بترشيح نفسه عن الحزب الاشتراكي الديموقراطي المستقل في الانتخابات البرلمانية . وفي نوفمبر من العام نفسه ، تَزَعَّم كورت إيسنر الانتفاضة الثورية التي جرت في ميونيخ ثم اختير رئيساً لمجلس الوزراء في الجمهورية البافارية الجديدة . ولكي يفضح مسئولية الحكومة الألمانية عن

الحرب، قام بالكشف عما جاء في تقارير الحكومة البافارية وسفارتها في برلين . وقد أدَّى ذلك إلى اتهامه من قبل أعدائه بالتعاون مع دول الحلفاء وتَلقِّي الرشاوى منهم لإشعال الثورة في ميونيخ . وفي عام ١٩١٩ ، اغتيل كورت إيسنر وهو في طريقه إلى البرلمان لكي يقدم استقالة حكومته بعد أن أحرز حزبه (الحزب الاشتراكي المستقل) نتائج ضعيفة في الانتخابات ، وكان قاتله من أصل يهودي . ومما يُذكَر أن إيسنر نفسه كان ملحداً ، أي يهودياً غير يهودي . ومع هذا، استفادت الدعاية النازية المعادية لليهود من وجود إيسنر وغيره في صفوف الحركة الاشتراكية لتتحدث عن المؤامرة اليهودية ضد الشعب الألماني .

بيلا كون (١٨٨٦-١٩٣٥)

Bela Kun

مؤسس الحزب الشيوعي المجري ، وأحد أهم الزعماء الشيوعيين . وُلد لأسرة يهودية من الطبقة الوسطى إذ كان أبوه من صغار التجار ، ولكنه كان علمانياً تماماً ولا علاقة له باليهودية . وانضم إلى الحزب الديموقراطي الاشتراكي وهو بعد في السادسة عشرة من عمره . فعمل صحفياً في جريدة الحزب وكاتباً في الحزب ومديراً في قسم التأمينات الخاص بالحزب ثم فُصل لسوء سلوكه . انضم للجيش وكان يعمل ضابطاً برتبة ملازم في جيوش الإمبراطورية النمساوية المجرية فأسَرته القوات الروسية عام ١٩١٦ . وحين نشبت الثورة ، انضم إلى البلاشفة وأصبح تابعاً متحمساً للينين وقام بتجنيد الأسرى لصالح الحركة الثورية .

عاد بيلا كون إلى المجر عام ١٩١٨ وساهم في تأسيس الحزب الشيوعي المجري وجريدته وكتب العديد من الكتيبات الثورية ، واشترك في الثورة التي أتت بالحزب الديموقراطي الاشتراكي وبالحزب الراديكالي للحكم . وقد حاول بيلا كون أن يطيح بالنظام الحاكم ولكنه سُجن في فبراير ١٩١٩ . ثم أُفرج عنه في ٢١ مارس ١٩١٩ وهو اليوم نفسه الذي أُعلنت فيه المجر جمهورية سوفيتية ، فعُيِّن قوميساراً للشئون الخارجية والعسكرية وأصبح القائد الحقيقي للوزارة والدولة . وكانت الوزارة (التي كان ثلثا أعضائها من اليهود) عبارة عن ائتلاف من الاشتراكيين والبلاشفة ، فعمل بيلا كون على القضاء على العناصر المعتدلة وأعلن ديكتاتورية البروليتاريا ، وأمم البنوك ورؤوس الأموال الكبيرة والملكيات الزراعية الكبيرة . وقد نجح بيلا كون في بادئ الأمر إذ كوَّن جيشاً شيوعياً أحمر قوياً صد هجوم التشيك والرومانيين واستعاد الأراضي المجرية التي كانت قد استولت عليها كلٌّ من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا . ولكن الضربات بدأت تتوالى بعد ذلك ، فامتنع الفلاحون عن تزويد المدن بالمحاصيل الزراعية بعدما رفض بيلا كون توزيع الأرض عليهم بعد أن أممها ، وتحالف ملاك الأراضي والطبقة الوسطى ضد تأميم الملكية وضد الإجراءات الثورية المختلفة (مثل تقويض دعائم الثقافة القومية وإقامة محاكم ثورية) وضد سوء سلوك البيروقراطية الثورية . وعلى مستوى الجبهة الخارجية ، طالبه كلمنصو بسحب قواته . وانهارت شبكة توزيع الطعام تماماً ، ورفض الجيش أن يحارب ضد الرومانيين مما أدَّى إلى هزيمته ، ففرَّ في أغسطس من العام نفسه إلى النمسا (حيث سُجن ووضع في مصحة عقلية بعض الوقت) ومنها ذهب إلى موسكو حيث عُيِّن قوميساراً سياسياً للجيش الأحمر في الجنوب ، ثم عُيِّن قوميساراً مدنياً لشبه جزيرة القرم حيث تَعامَل بصرامة بالغة مع العناصر المعارضة للبلاشفة . وقد كان بيلا كون عضواً في المجلس التنفيذي للكومنترن حيث ساهم في تشجيع النشاط الشيوعي العلني في ألمانيا والنشاط السري في المجر . ويبدو أنه عارض في عام ١٩٣٧ سياسة الجبهة المتحدة وطالب باتباع الطرق الثورية على طريقة البلاشفة الأصليين ، فقُدِّم للمحاكمة واتُّهم بالتروتسكية وسُجن ، ويُقال إنه أُعدم (ولكن الأرجح أنه كان مصاباً بالسكر ، فأُفرج عنه وعُزل عن الحياة العامة) . ولبيلا كون مؤلفات عديدة عن الشيوعية ، كما أنه كتب عدة مقالات أثناء إقامته في فيينا ، وحرَّر إحدى المجلات الشيوعية أثناء إقامته في موسكو ، وعُيِّن مديراً لإحدى دور النشر أثناء وجوده في موسكو .

وبيلا كون ليست له أهمية تُذكَر من منظور يهودي ، لأنه كما أسلفنا فَقَد انتماءه الديني والإثني (مثل كثيرين من يهود المجر)- فهو ، إذن ، يهودي غير يهودي . ولفهم سلوكه ، لابد من فهم حركيات التاريخ الغربي والحركة الثورية فيها وكذلك موازين القوى بين الدول المختلفة وتطورات الفكر السياسي السوفيتي . أما يهوديته، فهي لا تمثل سوى دور ثانوي للغاية . وقد قدَّمنا سيرته هنا لا باعتباره يهودياً وإنما باعتباره نموذجاً متطرفاً لشخص يُصنَّف بوصفه يهودياً مع أن سلوكه لا يمكن تفسيره إلا بالعودة للحركيات الاجتماعية العامة .

ماتياس راكوسي (١٨٩٢-١٩٧١)

Matyas Rakosi

سياسي وزعيم مجري شيوعي يهودي درس في بودابست ثم اشتغل كاتباً في بنك . وعاش لفترة قصيرة في إنجلترا حيث انضم إلى

الحركة الاشتراكية . وخلال الحرب العالمية الأولى ، قاتل في صفوف الجيش النمساوي المجري ولكنه وقع في أسر القوات الروسية عام ١٩١٥ وأمضى عاماً في معسكر لأسرى الحرب .

وبعد اندلاع الثورة البلشفية انضم للحزب الشيوعي وعاد عام ١٩١٩ إلى المجر مع الحكم الجمهوري السوفيتي الجديد بها تحت قيادة بيلا كون . وبعد سقوطه في العام نفسه ، هرب إلى الاتحاد السوفيتي . وفي عام ١٩٢٤ ، عاد إلى المجر سراً لتنظيم وإحياء الحزب الشيوعي المحظور ولكنه وقع في أيدي السلطات وحكم عليه بالإعدام . وكان لتدخُّل بعض المفكرين الأوربيين البارزين لصالحه الفضل في تخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة .

وفي عام ١٩٤٠ ، تم الإفراج عنه وانتقل إلى موسكو حيث تزعَّم المنفيين المجريين . وفي عام ١٩٤٤ ، عاد إلى المجر حيث عمل على إعادة تنظيم الحزب الشيوعي المجري . كما تولى في الفترة ما بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٨ منصب نائب رئيس الحكومة الإئتلافية . وقد نجح خلال هذه الفترة في إخراج العناصر غير الشيوعية من الائتلاف الحاكم ، وعمل بعد ذلك على إبعاد وإسكات جميع التيارات والاتجاهات المعارضة للحكم حتى بين صفوف الشيوعيين. وقد تولى عام ١٩٥٢ رئاسة الوزراء ، وتبنَّى سياسة ستالينية صارمة . وبعد وفاة ستالين ، تعرض لانتقادات حادة من جانب القيادة السوفيتية الجديدة ، خصوصاً بسبب فشل سياسته الاقتصادية ، الأمر الذي دفعه للاستقالة عام ١٩٥٣ ، ولكنه عاد مرة أخرى لرئاسة الوزراء عام ١٩٥٥ واستمر في ذلك حتى عام ١٩٥٦ حينما استقال قبل اندلاع أحداث الانتفاضة المجرية بفترة قصيرة . وقد اضطر راكوسي إلى الفرار مرة أخرى إلى الاتحاد السوفيتي في أعقاب هذه الأحداث ولم يَعُد إلى المجر حتى بعد قمع الانتفاضة إلا قبل وفاته بقليل . وقد طُرد من الحزب الشيوعي عام ١٩٦٢ .

لم يُبد راكوسي أي اهتمام بالشئون اليهودية ، بل وحاول إخفاء أصله اليهودي ، كما أنه كان مناهضاً للصهيونية ، وقدم الكثير من الصهاينة للمحاكمة ، فهو إذن «يهودي غير يهودي» على حد تعبير إسحق دويتشر . وقد لعب هؤلاء اليهود غير اليهود دوراً كبيراً في نشر الشيوعية في شرق أوربا وفي حكوماتها الشيوعية بعد ذلك . وقد تأثر كثير من أعضاء الجماعة اليهودية في المجر تأثراً سلبياً من سياسات راكوسي الاقتصادية التي أدَّت إلى تأميم المؤسسات التجارية الخاصة وإلى نقل آلاف السكان خارج العاصمة وغيرها من المدن الكبيرة . ولكنه ، مع هذا ، ظل يُصنَّف على أنه «يهودي» .

ادعاء اليهودية

Claiming Jewishness

«ادعاء اليهودية» هو أن يدَّعي شخص غير يهودي ، وليست له أية جذور يهودية على الإطلاق ، أنه يهودي . والمصطلح نفسه ينطبق على يهودي مندمج تماماً (يهودي غير يهودي) نسي يهوديته ، ولكنه تحت ظروف معيَّنة يدَّعي أنه يهودي . وهذه الظاهرة ظاهرة حديثة تماماً ، فعبر التاريخ كان «التهوّد» يعني الانضمام لأقلية لها طقوسها وشعائرها ووظائفها التي تعزلها عن المجتمع ، والتي لها وضع مختلف عن وضع الأغلبية ، ولذا لم يكن هناك أي مبرر لادعاء اليهودية .

وقد ظل الوضع كذلك إلى أن ظهرت الحركة الصهيونية وأُقيمت دولة إسرائيل التي فتحت أبوابها للمهاجرين (بخاصة من الدول الغربية) وقدَّمت لهم هي والحركة الصهيونية تسهيلات مادية وعينية مختلفة ومنحاً مالية مباشرة . وقد شجع هذا بعض العناصر اليهودية ممن فقدوا علاقاتهم باليهودية على إعادة اكتشاف هذه العلاقة حتى يمكنهم عن طريقها تحقيق المزايا المادية . ولكن الظاهرة ظلت هامشية إلى حدٍّ كبير .

ومع هجرة اليهود السوفييت في بداية التسعينيات (والتي تزامنت مع تآكُل الاتحاد السوفيتي ثم سقوطه) ، تفاقمت الظاهرة حتى أن كثيراً من «اليهود المتخفين» ، أي المواطنين السوفييت من أصل يهودي ، الذين سجلوا أنفسهم على أنهم غير يهود (وهو أمر كان يسمح به القانون السوفيتي) ، بدأوا يؤكدون هويتهم اليهودية المزعومة ، وانضمت لهم بأعداد متزايدة عناصر غير يهودية على الإطلاق (من بينها عناصر مسيحية بل ومسلمة) . ويُقال إن ما بين نصف أو ثلث المهاجرين اليهود السوفييت في التسعينيات غير يهود (مدعو اليهودية أو زوجات وأزواج غير يهود) .

ولا يقتصر الأمر على الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، فمن المعروف أن عدد اليهود في مدينة مكسيكوسيتي كان يبلغ حوالي عشرة آلاف ثم قفز إلى ٣٥ ألفاً في عام واحد بعد أن بدأت بعض المنظمات اليهودية الأمريكية تقديم العون للجماعة اليهودية في المكسيك .

وقد تكررت الظاهرة مرة أخرى في إثيوبيا ، فالفلاشاه ليسوا يهوداً بالمعنى الحاخامي ، ومع هذا سُمح لهم بالهجرة إلى إسرائيل . ثم بدأ الفلاشاه موراه بالمطالبة بالهجرة باعتبارهم يهوداً ، مع أنهم فلاشاه تنصَّروا منذ قرنين من الزمان .

ويرى الإسرائيليون أن العبرانيين السود أو اليهود السود (من الولايات المتحدة) مدَّعو اليهودية . وفي الأعوام الأخيرة ، بدأت

الظاهرة تأخذ شكلاً حاداً إذ بدأ أفراد بعض القبائل في آسيا وأفريقيا يعلنون أنهم «يهود» (من نسل القبائل العبرانية العشر المفقودة) ومن ثم يحق لهم الهجرة إلى إسرائيل بمقتضى قانون العودة . وبعض هذه القبائل تُوجَد في شعائرها بالفعل عناصر عبرية أو يهودية ، ولكنها لا تجعل عقيدتهم عقيدة يهودية (بأقصى المعايير تسامحاً بل ونسبية) ومن ثم لا يمكن تصنيف أعضائها على أنهم يهود . ولكن معظم أعضاء الجماعات اليهودية لا يعترفون بمعيارية اليهودية الحاخامية . وقد عرَّفت المحكمة الإسرائيلية العليا اليهودي بأنه من يرى نفسه كذلك . وهذا يخلق ورطة حقيقية للمُستوطَن الصهيوني . ولذلك، فقد تعالت الأصوات ولأول مرة في تاريخ الصهيونية مطالبة بإلغاء قانون العودة .

أغيار يتحدثون العبرية

Heberw-Speaking Gentiles

«أغيار يتحدثون العبرية» مصطلح صكه عالم الاجتماع الفرنسي (اليهودي) جورج فريدمان في كتابه **موت الشعب اليهودي** ويستخدمه للإشارة إلى جيل الصابرا الإسرائيلي ، فهم من وجهة نظره يختلفون تماماً عن يهود العالم (يهود المنفى) ، وهويتهم لا علاقة لها بما يُسمَّى «الهوية اليهودية» . ولذا ، فهم ليسوا يهوداً وإنما أغيار وحسب ، حتى وإن كانوا يتحدثون العبرية . والمصطلح تعبير عن إشكالية الهوية أو الهويات اليهودية .

أعضاء الجماعات اليهودية وقضية الهوية القومية

Members of Jewish Communities and the Issue of National Identity

ما يُقال له «المسألة اليهودية» هو ، في جانب أساسي منه ، مشكلة «الهوية اليهودية» في التشكيل الحضاري الغربي . وتعود بجذورها إلى العصور الوسطى في الغرب إذ أن أعضاء الجماعات اليهودية لعبوا هناك دور الجماعة الوظيفية الوسيطة كتجار ومرابين ، الأمر الذي أدَّى إلى عزلهم عن بقية أعضاء المجتمع . ومما دعم هذه العزلة ، علاقات الجماعة الوظيفية اليهودية (في كل بلد أو مدينة أوربية) مع الجماعات الوظيفية اليهودية الأخرى في أنحاء العالم الغربي والإسلامي ، وهي علاقات كانت تشكل ما يشبه النظام المصرفي والائتماني العالمي . وقد خلقت هذه العلاقات وهم الوحدة، بحيث كان المراقب الخارجي يتصور أن اليهود يشكلون وحدة قومية بسبب علاقاتهم التجارية والمالية ، وهُم في الواقع جماعات غير متجانسة تنتمي إلى تشكيلات حضارية مختلفة ويربطها رباط الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية (وهذا ما سماه أبراهام ليون «الطبقة/ الأمة») . ومن أسباب تدعيم العزلة ، أيضاً ، التصور المسيحي لهم باعتبارهم قتلة المسيح والشعب الشاهد (على عظمة الكنيسة وصدقها) . وقد تَبدَّى كل هذا في شكل استيطان وتوطين اليهود في الجيتو . وهذه بالطبع صورة نموذجية مثالية تختلف كثيراً عن الواقع الحي الذي كان أكثر تماوجاً وتركيباً .

وقد ظل هذا الوضع قائماً في أوربا ، بصور مختلفة ، حتى القرن السابع عشر ، حين بدأت تظهر الطبقات البورجوازية المحلية (المسيحية) ثم الدول المطلقة وورثتها الدولة القومية الحديثة التي بدأت تضطلع بكل وظائف الجماعات الوظيفية ، وهو ما أدَّى إلى الاستغناء عنها ، وانهيار الهيكل القانوني والسياسي الذي كان يجسد عملية الفصل بين الطبقات من ناحية ، والجماعات الدينية والإثنية التي كانت تدار على أساسها الدولة في المجتمع التقليدي من الناحية الأخرى . وقد طالبت الدولة القومية الحديثة أعضاء الجماعات اليهودية وكل الأقليات بالتخلص من خصوصيتهم الدينية أو الإثنية أو العرْقية ، وبأن يقوموا بإعادة تعريف هويتهم بشكل يتفق مع ما تتطلبه من ولاء قومي كامل من كل المواطنين ، وحاولت تخليصهم من تمايزهم الوظيفي والاقتصادي . وهذه عملية يمكن أن نطلق عليها مصطلح «تحديث الهوية» أو «علمنة الهوية» . وتتم هذه العملية وتكتمل حينما يتحول أعضاء الجماعة اليهودية من جماعة وظيفية وسيطة إلى أعضاء في الطبقة الوسطى ، أو أيٍّ من الطبقات الأخرى في المجتمع .

ومن منظور التحديث ، يمكننا أن نقول إن هويتين يهوديتين أساسيتين ظهرتا في التشكيل الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر ، أولاهما ، الهوية اليهودية في مجتمعات غرب أوربا ووسطها، في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وفي ألمانيا بدرجة أقل ، ثم في الولايات المتحدة ، وهي مجتمعات تتسم بأنها لم تكن تضم أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعات وبأن عملية التحديث نجحت فيها إلى حدٍّ كبير ، وتم إعتاق أعضاء الجماعات وإعطاؤهم حقوقهم السياسية والمدنية ، كما تم دمجهم في المجتمع اقتصادياً وثقافياً ، حيث أصبح الاندماج هو المثل الأعلى . وقد نشأت ، في هذا الإطار الاندماجي، اليهودية الإصلاحية التي فصلت الهوية الدينية عن الهوية القومية أو الإثنية تماماً ، وعرَّفت الهوية اليهودية تعريفاً دينياً خالصاً . وقد أنجزت اليهودية الأرثوذكسية أمراً مماثلاً بأن جعلت هوية اليهودي مسألة دينية أساساً ، وجعلت تحقيق الجانب القومي من

العقيدة اليهودية مرتبطاً بالإرادة الإلهية ، وهو كما تقدَّم الحل التقليدي الذي طرحته اليهودية الحاخامية للإشكالية المشيحانية . وقد اندمج يهود هذه المجتمعات اندماجاً كاملاً ، وكانوا يتحدثون الفرنسية في فرنسا والإنجليزية في كلٍّ من إنجلترا والولايات المتحدة . والهوية اليهودية في ألمانيا ، وفي كثير من بلاد وسط أوربا ، تنتمي إلى النمط نفسه رغم اختلاف الظروف ، ولا يمكن فهم هوية الجماعات اليهودية في هذه البلاد إلا في السياق الحضاري لكلٍّ منها . وبالتدريج تراجع البُعد الديني مع تَصاعُد معدلات العلمنة فأعيد تعريف الهوية اليهودية على أساس إثني علماني ولكن البُعد اليهودي (الإثني والديني) ظل هامشياً للغاية . ولذلك ، تأخذ التطلعات القومية اليهودية ليهود الغرب ، إذا وُجدت ، شكل حنين ديني للعودة إلى صهيون (الروحية) إن كان اليهود من المتدينين . أما إذا كانوا من العلمانيين ، فإنها تأخذ شكل حماس عاطفي لهويتهم الإثنية ، لا يترجم نفسه أبداً إلى هجرة استيطانية وإنما يأخذ شكل صهيونية توطينية ، أي ينصرف إلى توطين اليهود الآخرين حتى يحموا مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية . وهذه هي هوية ما بعد الانعتاق أو الهوية اليهودية بعد تحديثها أو الهوية اليهودية الجديدة .

أما الهوية اليهودية الثانية ، فقد نشأت في مجتمعات شرق أوربا بين يهود اليديشية ، خصوصاً في بولندا وروسيا . وهذه مجتمعات دخلت العصر الحديث متأخرة وسادت فيها (في القرن التاسع عشر) ظروف تشبه الظروف السائدة في العالم الثالث في الوقت الحاضر ، إذ تعثَّر فيها التحديث لسنوات طويلة ابتداءً من عام ١٨٨٢ ، كما أنها كانت تضم أعداداً ضخمة من أعضاء الجماعات اليهودية ، بل معظم يهود العالم . وكان أعضاء الجماعات اليهودية في هذه المجتمعات يتحدثون اليديشية في محيط سلافي ، ويؤمنون باليهودية في محيط مسيحي أرثوذكسي محافظ . كما أن روسيا كانت تأخذ شكل إمبراطورية مكوَّنة من قوميات لكل منها لغتها وثقافتها . ولذا ، لم يكن اليهود ، كتَجمُّع له ثقافته ولغته ، يمثل استثناءً كبيراً . وقد بُذلت محاولات ، في نهاية القرن التاسع عشر ، لصبغ اليهود ، وغيرهم من الجماعات ، بالصبغة الروسية أو البولندية . ولكن ، مع تَعثُّر التحديث ، توقفت هذه المحاولات .

وداخل هذا الإطار ، وفي هذه المرحلة (أواخر القرن التاسع عشر) طُرحت في شرق أوربا عدة تصورات للهوية اليهودية تستند إلى تجربة أعضاء الجماعات اليهودية في تلك المنطقة . فكان هناك التصور الاندماجي الذي يشبه تَصوُّر يهود الغرب للهوية . ولكن ، كان هناك تصوران آخران هما اللذان قُدِّر لهما الشيوع في صفوف يهود شرق أوربا .

أ) قومية الدياسبورا :

حاول دعاة قومية الدياسبورا (سيمون دبنوف ، وحزب البوند)، المتأثرون بتجربة يهود شرق أوربا وتراثهم ، أن يعرِّفوا الهوية اليهودية تعريفاً ثقافياً أو تراثياً وحسب ، بإسقاط الجانب الديني تماماً ، إذ رأوا أن الهوية اليهودية هي أساساً انتماء إلى التراث الثقافي اليهودي . كما لم يربطوا هذا التراث بفلسطين أو بأي مركز محدَّد آخر ، فهم يرون أن مركز اليهودية الثقافي ينتقل من بلد إلى آخر . كما أنهم يرفضون أي إطار عالمي لليهودية ، ولا يعترفون بوجود ثقافة يهودية عالمية ، ويرون أن كل جماعة يهودية مرتبطة بحركيات تاريخية مختلفة ولها هوية مختلفة وتراث يهودي مختلف، ولذا فإن كل جماعة تبحث عن حلول لمسألتها داخل حدود تاريخها الخاص والمتعيِّن وخارج أية رؤية تاريخية عالمية . ولهذا ، يمكن القول بأنهم لا يتحدثون في واقع الأمر عن «قومية الديسبورا» (كما يتوهمون) ، وإنما عن هوية يهودية شرق أوربية (يديشية) متفاعلة مع التشكيل الحضاري الذي تُوجَد فيه . وانطلاقاً من تلك الرؤية ، يرى دعاة قومية الدياسبورا أن اللغة التي تُعبِّر عن هذه الهوية اليهودية ليست العبرية (اللغة الدينية العالمية لليهود) ، وإنما اليديشية . وحينما استأنفت الثورة البلشفية عملية التحديث في روسيا ، ناصبت حزب البوند العداء لأسباب سياسية في البداية ، كما رفضت تَصوُّره للهوية اليهودية المحدودة الشرق أوربية ، ولكنها عادت في الثلاثينيات واعترفت بها وبلغتها المستقلة وبشخصيتها الثقافية المستقلة التي يمكن أن تتحقق داخل الإطار السوفيتي . وانطلاقاً من ذلك ، حددت مقاطعة بيروبيجان ، كمقاطعة مستقلة ، لغتها الرسمية اليديشية . وكان بإمكان هذه المقاطعة ، من الناحية النظرية ، أن تتحوَّل إلى جمهورية مستقلة (داخل اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية) لو هاجر إليها عدد كاف من اليهود . وقد ظلت الهوية اليديشية مزدهرة في الفجوة الزمنية بين تَعثُّر التحديث واستئنافه في الاتحاد السوفيتي وبين هجرة يهود شرق أوربا إلى الولايات المتحدة واندماجهم فيها ، وهي تقع على وجه التقريب بين بداية القرن الحالي وأواخر الأربعينيات . ولكن مع تَصاعُد معدلات التحديث والعلمنة بدأت الهوية اليديشية في التآكل السريع ، وساهم النازيون في القضاء على البقية الباقية من هذه الهوية ، ومع الستينيات لم يَعُد للهوية اليديشية من أثر في العالم .

ب) الحل الصهيوني :

حاول الصهاينة العلمانيون ، أو اللادينيون ، إعادة تعريف الهوية اليهودية تعريفاً يؤكد الجانب القومي ولا يُعنى بالجانب الديني إلا بمقدار تعبيره عما يُسمَّى «القومية اليهودية» . وقد أسس هؤلاء مجتمعهم الصهيوني استناداً إلى هذه الرؤية . ومع هذا ، ظهرت داخل الحركة الصهيونية جماعات من الصهاينة المتدينين الذين يرون أن الدين اليهودي والقومية اليهودية هما شيء واحد ، وأن الهوية اليهودية هويةٌ قومية دينية ، الأمر الذي أدَّى إلى تصعيد التفجرات داخل الكيان الصهيوني .

التعاريف الصهيونية للهويات اليهودية

Zionist Definitions of Jewish Identities

تُعَدُّ الصهيونية ، في أحد جوانبها ، محاولة لإعادة تعريف اليهود تعريفاً يتفق مع وضعهم الجديد في الغرب بعد ظهور الدولة القومية العلمانية وعصر الإعتاق وسقوط الجيتو . وهي ، من هذا المنظور ، واحدة من كثير من المحاولات اليهودية الأخرى ، مثل : اليهودية الإصلاحية ، واليهودية الأرثوذكسية ، وقومية الدياسبورا . وينطلق الصهاينة اللادينيون من تعريف للهوية هو في جوهره علمنة لكثير من الأفكار القومية الكامنة في التراث الديني اليهودي . فهم يرون أن ثمة هوية قومية يهودية واحدة متميزة متجانسة تفرق بين اليهود وسواهم من أقوام وشعوب في كل زمان ومكان ، وأن ثمة مصدرين لها . أما المصدر الأول ، فهو الضغوط من الخارج ، أي أن مصدر الهوية اليهودية ليس من داخل اليهودية ذاتها وإنما هو مجرد رد فعل لهجمات أعداء اليهود عليهم ، باعتبار أن اليهود جسم قومي غريب في أوطان الآخرين . ومن جهة أخرى يرى بعض الصهاينة المتأثرين بالخطاب الاشتراكي أن مصدر الهوية اليهودية هو الوضع الطبقي المتميِّز لليهود في المجتمع الغربي كجماعة وظيفية وسيطة . واليهودي ، بحسب الرؤية السابقة ، يكتسب هويته من الغير ، وهو تعريف أخذ به معظم الصهاينة الأوائل مثل : تيودور هرتزل ، وماكس نوردو ، وأهارون جوردون ، وغيرهم . ويبدو أن هذا كان الاتجاه السائد في أوربا . فعلى سبيل المثال ، صرح كارل ليوجر (المرشح المعادي لليهود لمنصب عمدة فيينا) بأنه هو الذي يحدد من هو اليهودي .

لكن معظم الاتجاهات الصهيونية لا تأخذ بهذا الرأي الآن ، وتطرح تصوراً للهوية اليهودية على اعتبار أنها شيء نابع من مصدر آخر هو حركيات ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» المرتبط بفلسطين (إرتس يسرائيل في الخطاب الديني) . وهذا المجال الزماني المكاني هو المجال الوحيد الذي تستطيع فيه هذه الهوية أن تُعبِّر عن نفسها تعبيراً كاملاً ، مثلما حدث تحت حكم المملكة العبرانية المتحدة (أو الكومنولث الأول) وحكم الدولة الحشمونية (أو الكومنولث الثاني)، إلى أن تم هدم الهيكل .

ويرى الصهاينة أن هويات يهود المنفى المندمجين ليست إلا انحرافاً عن مسار هذا التاريخ . ولذا ، فهم ينطلقون في تعريفهم الهوية اليهودية «الحقة» من انتقاد جذري لهذه الهويات ، مستخدمين كثيراً من أطروحات أدبيات معاداة اليهود . فاليهود المندمجون شخصيات مريضة مصابة بالازدواج والانقسام ، مشوهة وهامشية ، وهم يحاولون إخفاء هويتهم اليهودية الحقة المتأصلة ويبذلون قصارى جهدهم في إظهار هويتهم غير اليهودية المُكتسَبة والإعلان عنها بشكل مُقزِّز ، الأمر الذي يجعلهم يشبهون القردة التي تقلد ما لا تعي . وستُلغَى كل هذه الأوضاع الشاذة حالما يؤسس الصهاينة وطناً قومياً تتمكن الشخصية اليهودية من خلاله التعبير عن نفسها بشكل سوي تعبيراً كاملاً ، بحيث يصبح اليهود شعباً مثل كل الشعوب . وسيحقق اليهود من خلال الدولة ، وبوصفهم شعباً ، ما فشلوا في تحقيقه بوصفهم أعضاء في مجتمعاتهم . وهذا ما يُسمَّى في المصطلح الصهيوني «تطبيع الشخصية اليهودية» . وبحسب الرؤية الصهيونية ، فقد بدأت هذه العملية بالفعل في عام ١٩٤٨ـ عام إعلان الدولة الصهيونية (الكومنولث الثالث) . لكن تطبيع اليهود لا يعني تصفية الهوية اليهودية وإنما يعني منحهم هوية يهودية جديدة سوية ؛ هوية اليهودي الخالص (اليهودي مائة بالمائة على حد قول بن جوريون) . وقد طُرحت تصورات عدة لمصدر يهودية هذا اليهودي الخالص ولسماته وجوهره :

١ ـ التعريف العرْقي :

يُصِرُّ المدافعون عن هذا التعريف على رؤية اليهود كعنصر عرْقي متميِّز ، ولذا فهم يتحدثون عن «الجنس اليهودي» وعن اليهود باعتبارهم «جنساً متميِّزاً» . وقد عرَّف كثير من الزعماء الصهاينة اليهودية بأنها «مسألة تتعلق بالدم» . وانطلاقاً من ذلك ، يرى الصهاينة أن التزاوج مع الأجانب سيؤدي إلى تدهور العرْق اليهودي ، وأنه لابد من تأسيس وطن قومي (لهذا الجنس الفريد) ودولة مستقلة يُعبِّر فيها عن عبقريته ويمارس فيها إرادته . ولكن تم التخلي عن هذا التعريف تماماً في هذه الأيام ، إذ أن النظريات العرْقية لم تَعُد مقبولة في الغرب ، خصوصاً بعد أن نجح هتلر في تدمير أعداد كبيرة من اليهود باسم هذه النظريات والاعتذاريات .

٢ ـ التعريف الإثني أو التراثي:

يرى فريق من الصهاينة أن اليهود جماعة مترابطة ذات تاريخ مُشترك منفصل ومحدَّد، وأن ثمة روابط تراثية (وليست عرْقية) فريدة بقيت على مدى قرابة أربعة آلاف سنة بين اليهود، وأن ثمة تماثلاً في أوضاع اليهود الإثنية والتاريخية، والمختلفة من بلد إلى بلد. وهم يرون أن ما حفظ وحدة اليهود هو الدين اليهودي، لا من حيث هو عقيدة وإنما من حيث هو إطار رمزي وبُعد أساسي من أبعاد التراث اليهودي. فالدين هو الوعاء الوحيد الذي ضمن الاستمرار والتجانس الإثني. وبناءً عليه، تكون الدولة الصهيونية هي الإطار الأمثل لكي تُعبِّر هذه الإثنية عن نفسها.

٣ ـ التعريف الديني:

لم يقبل الصهاينة الدينيون التعاريف اللادينية السابقة، وحاولوا استرجاع قداسة الهوية اليهودية. وهكذا، فهم يرون أن هوية اليهود القومية مصدرها الدين، إذ لا يمكن التفرقة بين القومية اليهودية والعقيدة اليهودية. فاليهود أمة مقدَّسة وكيان منعزل غريب مقدَّس يكتسب هويته من علاقته الخاصة مع الرب، ومن رسالته الخالدة بين الشعوب الأخرى. والتعريف الديني لا يستبعد العنصر الإثني، فالهوية اليهودية (بحسب تعريف الشريعة كما تقدَّم) ذات أساس ديني إثني. كما أن الهوية اليهودية (كما يُعرِّفها الصهاينة المتدينون) لا تحمل معها أية أعباء أخلاقية، بل تمنح اليهود حقوقهم القومية كاملة دون أية مسئولية تجاه الأغيار. ولذا، لا يوجد أي تناقض جوهري بين التعريف الإثني اللاديني والتعريف الإثني الديني. ومع هذا، يظل مصدر الشرعية في كلا التعريفين مختلفاً، فمصدر الشرعية والقداسة في القول الصهيوني العلماني هو الشعب اليهودي ذاته. أما في القول الديني، فإن مصدر الشرعية هو الحلول الإلهي في هذا الشعب. وحينما يتحدث المتدينون عن اليهودي، فإنهم يستخدمون، كما هو متوقَّع، معياراً أرثوذكسياً.

والتعريف السائد الآن في المُستوطَن الصهيوني هو التعريف الصهيوني اللاديني الإثني بالدرجة الأولى، ويليه التعريف الصهيوني الديني الإثني. ومن الملاحَظ أن التعريف الديني أخذ في الشيوع والانتشار منذ نهاية الستينيات. كما أن الصراع بين التيارين يفجر قضية الهوية التي يُشار إليها بسؤال «من هو اليهودي» ؟.

ومن الضروري أن نتنبه إلى أن مقولة الهوية اليهودية في السياق الصهيوني الاستيطاني ليست مجرد مقولة نفسية أو فلسفية أو دينية، فهي مقولة قانونية تحمل مضموناً سياسياً واقتصادياً محدَّداً. فلليهودي، في الدولة الصهيونية، مزايا وحقوق معينة لا يتمتع بها غير اليهودي. كما أن ثمة وكالات ومؤسسات صهيونية عديدة يمولها يهود الخارج وتُعدُّ الترجمة الفعلية والمؤسسية لمقولة اليهودي هذه، فهي مؤسسات تمد يد المساعدة لليهود وحسب، وتحجبها عن غير اليهود. وأهم هذه المؤسسات الصندوق القومي اليهودي الذي يمتلك معظم أراضي فلسطين المحتلة باسم الشعب اليهودي، والذي تُحرِّم قوانينه بيع هذه الأراضي أو تأجيرها لغير اليهود، أو حتى استخدامهم للعمل فيها. وبذلك يمكننا أن نقول إن التعريف الصهيوني للهوية اليهودية هو الأساس النظري للممارسات الصهيونية العنصرية ضد العرب، بل إن عمليات ضم الأراضي تتم باسم هذه الهوية. وبالفعل، حذَّر الحاخام آرون سولوفاشيك (زعيم اليهودية الأرثوذكسية في الولايات المتحدة) من أن قبول التعريف العلماني لليهودي سيقوي عناصر الضغط على إسرائيل لأن تتنازل عن الأراضي المحتلة وعن أجزاء من القدس وحائط المبكى، حيث إنها ضمتها باسم الهوية اليهودية وباسم الحقوق التي يتمتع بها اليهود.

الهويات اليهودية والتناقض بين الرؤية الصهيونية والممارسة الإسرائيلية

Jewish Identities and the Contradiction Between the Zionist Outlook and Israeli Practice

كانت كل جماعة يهودية تمارس تجربتها التاريخية والدينية بمعزل عن الجماعات الأخرى، وكانت كل منها تُطوِّر هويتها الدينية والإثنية من خلال التشكيل الحضاري الذي تُوجَد فيه وتتعامل معه وتُسمِّي نفسها «يهودية»، وذلك دون البحث عن خاصية جوهرية ما تربط كل أعضاء الجماعات معاً، ودون الحاجة إلى تعريف دقيق وعالمي وشامل لليهودي.

وكان الصهاينة اللادينيون، حتى عام ١٩٤٨، يتحدثون بحرية شديدة عن «الشعب اليهودي الواحد» (بالألمانية: أين فولك Ein Volk)، وبالتالي عن «الهوية اليهودية الواحدة» و«القومية اليهودية». كما كان الصهاينة المتدينون قانعين بدورهم الثانوي في الحركة الصهيونية، ولكنهم كانوا يتحينون الفرصة ليفرضوا تعريفهم القومي الديني الأرثوذكسي. وقد تم إعلان قيام الدولة الصهيونية لا باعتبارها دولة مستقلة وحسب، وإنما باعتبارها دولة يهودية ليست مقصورة على مواطنيها، فهي أيضاً دولة الشعب اليهودي بأسره داخل فلسطين وخارجها. وترى هذه الدولة أن مصدر شرعية وجودها هو يهوديتها، ومن هنا محورية تعريف الهوية اليهودية، ومن هنا أيضاً حتمية ظهور التناقضات الكامنة.

وقد أصدرت الدولة الصهيونية عدة قوانين تعطي حقوقاً لصاحب الهوية اليهودية . وكان أول هذه القوانين قانون العودة (عام ١٩٥٠) الذي يعطي لأي يهودي الحق ، أينما كان ، في الهجرة إلى إسرائيل (فلسطين المحتلة) ، والاستيطان فيها . ثم صدر عام ١٩٥٢ قانون تكميلي هو قانون المُواطَنة الإسرائيلية ، والذي يمنح الجنسية الإسرائيلية لكل المهاجرين اليهود . ولكن كلا القانونين لم يُعرِّف من هو اليهودي ، وتُركت القضية معلقة . وقانون العودة ليس القانون الوحيد الذي يتطلب تعريف اليهودي ، إذ تتم الإشارة إلى اليهودي في الدولة الصهيونية في سياقين آخرين . فقانون تسجيل المواطنين يتعرض لهذه القضية إذ تتضمن الهوية في إسرائيل البنود المعتادة مثل الجنسية (إسرائيلي) ، والديانة (يهودي أو مسلم أو مسيحي) ، ولكن هناك بنداً ثالثاً خاصاً بالقومية (عربي بالنسبة للعرب المسلمين والمسيحيين ويهودي بالنسبة للإسرائيليين اليهود) . ولابد أن يتفق البندان الخاصّان بالديانة والقومية في حالة الإسرائيليين اليهود باعتبار أن الصهيونية في أحد تعاريفها للهوية تُوحِّد بينهما .

أما السياق الثالث الذي تتم الإشارة فيه إلى اليهودي ، فهو المحاكم الحاخامية التي تمارس السلطة المُطلَقة في أمور الزواج والطلاق . والتعريف الذي تأخذ به هذه المحاكم هو التعريف الديني القومي (الأرثوذكسي) وحسب ، وهو يستبعد أي تعريف آخر . ويمكننا أن نتحدث عن عدة تناقضات أساسية ، واجهها الصهاينة في محاولتهم تطبيق المُثُل الصهيونية ، ولكنهم فضلوا إرجاءها وعدم التعرض لها :

١ ـ التناقض بين الدينيين واللادينيين :

التعريف الديني الأرثوذكسي لليهودي أمر معروف أقرته الشريعة اليهودية الحاخامية . أما التعريف القومي (غير الديني) ، فهو مسألة غامضة للغاية ، إذ أن من الصعب تعريف هذه الخاصية القومية الفريدة التي تُميِّز هذا الحشد الهائل من الجماعات اليهودية التي تتمتع بهويات متعددة . ومن الصعب كذلك ، بل وربما من المستحيل ، تعريف اليهودي الملحد أو اليهودي الإثني ، أو اليهودي غير اليهودي . وفي نهاية الأمر ، تصبح المسألة مسألة إحساس داخلي غامض يمارسه اليهودي بوجود هذه الخاصية اليهودية داخله . ولذلك ، يشير بعض المعلقين إلى التعريف الديني بأنه تعريف موضوعي ، أي يستند إلى مقاييس خارجة عن الذات ويمكن الاحتكام إليها . أما التعريف العلماني ، فهو تعريف ذاتي يستند إلى حالة شعورية تتفاوت في حدتها وعمقها من شخص إلى آخر . وبالفعل ، تُعرِّف الأوساط العلمانية اليهودي بأنه من يشعر في قرارة نفسه بأنه يهودي ويعلن ذلك بإخلاص دون الحاجة إلى قرائن خارجية ، وهو تعريف يخلق من المشاكل أكثر مما يحلّ .

ولإيضاح هذه النقطة ، يمكن أن نشير إلى العاهرات وتجار الرقيق الأبيض والقوادين من أعضاء الجماعة اليهودية ممن تركزوا في الأرجنتين ، وكونوا قطاعاً اقتصادياً كبيراً وجماعة ضغط ، وأصبحت لهم مؤسساتهم الخاصة من نواد ومسارح ونظام رفاه اجتماعي . وهذه مسألة مفهومة تماماً في إطار علماني مادي حيث يقوم من لهم مصالح مشتركة بتنظيم أنفسهم . ولكن المشكلة ظهرت حينما أصر هؤلاء المشتغلون بهذه المهنة الشائنة على انتمائهم أو هويتهم اليهودية ، ومن ثم كانت لهم معابدهم الخاصة وحاخاماتهم الذين يفون باحتياجاتهم الروحية ، بل وكانوا يخرجون في استعراضات أو مواكب في الأعياد الدينية اليهودية ! وغني عن القول أن هذا كان يسبب حرجاً شديداً لأعضاء الجماعة اليهودية ، فظلوا يحاربون هذا الجيب الذي يُصرّ على يهوديته حتى نجحوا في القضاء عليه تماماً . وكل ما تَبقَّى من هذا الجيب هو ملجأ للبغايا اليهوديات العجائز في بيونس أيرس .

٢ ـ التناقض بين السفارد والإشكناز :

يمكن القول بأن الصهيونية ، على مستوى الممارسة منذ أول أيامها وحتى عام ١٩٤٨ ، قد عرَّفت اليهودي بأنه اليهودي الأبيض (الإشكنازي) . وكانت ، في هذا ، متسقة تماماً مع نفسها ، فقد كانت تُقدِّم نفسها باعتبار أنها تجربة تتم داخل إطار التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي ، ولذا كان على الصهاينة إثبات بياض بشرة اليهودي حتى يتسنى للمستوطنين أن يشاركوا في حَمْل عبء الرجل الأبيض ، ويستفيدوا في الوقت نفسه من الأمن العسكري والدعم الاقتصادي الذي يوفره القائمون على المشروع الاستعماري ، ويحلوا محل أحد شعوب آسيا وأفريقيا . وقد بذل آرثر روبين ، أحد أهم علماء الاجتماع الصهاينة والمسئول عن الاستيطان في فلسطين لفترة طويلة قبل إنشاء الدولة ، جهداً «علمياً» فائقاً لإثبات أن اليهودي هو الإشكنازي وحده وأن الشرقيين ليسوا يهوداً . وهناك العديد من البيانات والتصريحات تُعبِّر عن هذا الموقف . لكن هذا الموقف يتناقض تماماً مع موقف الصهيونية الأصلي ، فالصهيونية تكتسب شرعيتها من زعمها بأنها حركة الشعب اليهودي بأسره .

٣ ـ التناقض بين التعاريف الدينية المختلفة :

لا تنحصر المسألة في التناقض بين الدينيين والعلمانيين وحسب ، أو بين الإشكناز والسفارد فقط ، وإنما تمتد لتشمل مجال

الدينيين ذاته . فالأرثوذكس لا يعترفون بالحاخامات الإصلاحيين ولا بالحاخامات المحافظين كيهود . ولذا ، فهم لا يعترفون بالمتهوّدين على أيدي مثل هؤلاء الحاخامات . وفي معرض دفاعهم عن وجهة نظرهم ، يذكر الأرثوذكس أن الشريعة ، بحسب اليهودية الحاخامية، حدّدت الخطوات اللازمة للتهوّد بشكلٍ واضح تماماً كما حدّدت من هو اليهودي . فلكي يَتهوَّد إنسان ما ، يجب أن يتم ختانه إن كان ذكراً ، أما الأنثى فعليها أن تأخذ حماماً طقوسياً وهي عارية أمام ثلاثة حاخامات (وهو الأمر الذي يسبب الحرج للإناث المتهوّدات) . وعلى المتهوّد أن يَتقبَّل نير المتسفوت (الفرائض أو الأوامر والنواهي) ، أي أن يعيش حسب قانون التوراة . أما الحاخامات الإصلاحيون ، فلا يلتزمون بهذه الخطوات ، إذ يكفي عندهم أن يحضر راغب التهود محاضرة عن التاريخ اليهودي ، أو يقرأ مقطوعة من العهد القديم . ويقر الحاخامات الإصلاحيون بأن مراسم التهويد التي يقومون بها لا تتّبع الشريعة ، ولكنهم يصرون في الوقت نفسه على أن هذا لا يمنع كونها مقدَّسة . أما المحافظون ، فيرون أنهم يتبعون الشريعة ، لكن الأرثوذكس لا يوافقونهم على ذلك .

ومن المشاكل الأخرى التي ظهرت داخل المعسكر الديني مشكلة قيام اليهودية الإصلاحية بإعادة تعريف اليهودي بحيث أصبح من يُولَد لأب يهودي أو أم يهودية ، وهو ما لا توافق عليه اليهودية الأرثوذكسية واليهودية المحافظة .

٤ ـ تناقضات أخرى :

هناك تناقضات يصعب تصنيفها لأنها ذات طابع ديني إثني ، وقد نشأت هذه التناقضات أساساً بين المؤسسة الدينية وبعض الجماعات اليهودية الصغيرة بشأن انتمائهم الديني والإثني وما إذا كان هذا الانتماء خالصاً أم أنه هجين .

وكانت أولى المشاكل التي واجهها الصهاينة التناقض بين السفارد والإشكناز ، وهو انقسام سبق إعلان الدولة . وقد لجأت السلطات البريطانية لطرق عملية غير عقائدية لحله ، إذ سمحت بوجود حاخاميْن : واحدة سفاردية ، والأخرى إشكنازية ، بكل ما ينطوي عليه ذلك من انقسام أساسي وجذري . والانقسام بين الإشكناز والسفارد انقسام عميق ذو طابع ديني ، ولكنه ذو أبعاد طبقية وإثنية . وهو من العمق بحيث يتبدَّى من خلال تَنوُّع الأحزاب الإسرائيلية وبنيتها وأنماط التصويت في الانتخابات التي تجري في المُستوطَن الصهيوني . ومع هجرة اليهود الشرقيين من العالم العربي والعالم الإسلامي وبلاد الشرق الأخرى ، مثل الهند ، زاد العنصر الشرقي على حساب العنصر الغربي ، وأصبح الشرقيون أغلبية في المجتمع ، الأمر الذي اضطر المؤسسة الحاكمة إلى إخفاء تعريف الهوية الذي يعادل بين الإشكنازي واليهودي ، وكفت المؤسسة عن إطلاق التصريحات العنصرية ضد اليهود السفارد ويهود البلاد الإسلامية . لكن الرؤية الكامنة التي تُوجِّه الدولة الصهيونية لا تزال، أولاً وأخيراً إشكنازية ، وهي تحاول القضاء على الأشكال الحضارية الشرقية التي أحضرها اليهود الشرقيون معهم ، ولا تزال النخبة الحاكمة في إسرائيل غربية بوجه عام وإشكنازية بالدرجة الأولى .

ومن الأمثلة الأخرى التي انفجرت فيها قضية الهوية من منظور ديني ، قضية يهود الهند المعروفون باسم بني إسرائيل . فالحاخاميتان، السفاردية والإشكنازية ، لم تعترفا بهم كيهود ، لأنهم يمارسون الزواج المُختلَط ولا يعرفون التلمود . وقد استمرت مشكلتهم قائمة إلى أن اضطرت المؤسسة الدينية إلى الرضوخ لضغط المؤسسة السياسية . ولم تعترف الحاخاميتان أيضاً بيهود الفلاشاه ، ولم تشجع هجرتهم طيلة الأعوام الثلاثين الماضية لعدة أسباب ، من بينها أنهم هم أيضاً لا يعرفون التلمود ، ولكن حينما طُلب إليهم التهود ، رفضت أعداد كبيرة منهم ذلك . فاقترحت الحاخاميتان صيغة مخففة للتهويد تتضمن عملية تختين رمزية (حين قبل بعضهم ذلك سارع ممثل الحاخامية السفاردية بتختينهم قبل أن يقوم ممثل الحاخامية الإشكنازية بهذه العملية . ولكن حينما حضر الأخير قام هو الآخر بالعملية نفسها ، أي أنهم تم تهويدهم وتختينهم مرتين خلال عدة أيام) . وتثار قضية اليهود القرّائين واليهود السامريين من آونة إلى أخرى ، خصوصاً حينما يتم زواج مُختلَط بين أحد أعضاء إحدى هاتين الجماعتين وفرد ينتمي إلى اليهودية الحاخامية . ولم تضطر الدولة الصهيونية ولا المؤسسة الدينية إلى الدخول في صراع عميق مع أيٍّ من هذه الجماعات بسبب صغر أحجامها وقلة نفوذها داخل وخارج إسرائيل . ولم تأخذ المؤسسة السياسية موقفاً حاسماً في هذه القضية ، بل تركت الأمر للمؤسسة الدينية تصرفه بطريقتها .

ومع منتصف الخمسينيات ، ظهرت التناقضات بين الدينيين واللادينيين ، وكذلك بين الأرثوذكس من ناحية وبقية الفرق الدينية من ناحية أخرى ، وذلك حينما بدأت المؤسسة الأرثوذكسية في الخارج تضغط على المؤسسة الدينية في إسرائيل حتى تتبنى موقفاً أكثر تشدداً من مسألة تعريف اليهودي . وقد تزامن ذلك مع موجة من الهجرة من شرق أوربا ضمت عدداً كبيراً من الزيجات المُختلَطة . وفي عام ١٩٥٧ ، قرر رئيس قسم تسجيل الهوية في وزارة الداخلية (وهو عضو في الحزب الديني القومي) ألا يقبل وصف المهاجر لنفسه

بأنه يهودي باعتباره المقياس الوحيد معتبراً أنه معيار علماني ذاتي ، وأصدر أمراً إدارياً للموظفين في إدارته بذلك . ورداً على ذلك ، أصدر وزير الداخلية (وكان علمانياً من حزب اتحاد العمال «أحدوت هاعفودة») قراراً في مارس ١٩٥٨ يؤكد فيه التوجيهات القديمة التي تقبل المعيار الذاتي . فانسحب الحزب الديني القومي من الائتلاف الحاكم احتجاجاً . فقام بن جوريون بالكتابة إلى خمسين شخصية يهودية (دينية وفكرية) في أنحاء العالم يطلب إليهم الفتوى في هذا الأمر (وكان يشار إليهم بعد ذلك بوصفهم «حكماء إسرائيل» !) . وجاءت الإجابات مشتملة على سائر التناقضات المتوقعة والتي لم يحسمها الفكر الصهيوني قبل قيام الدولة . فقد عرَّف القسم الأكبر منهم (٣٧) الهوية اليهودية على أساس الشريعة ، ولكن نفراً منهم تَبنَّى معيار الاختيار الشخصي (اليهودي هو من يعتبر نفسه كذلك)، وتَبنَّى نفر آخر معيار القسر الخارجي ، أي أن اليهودي هو من يعتبره الأغيار كذلك . ومع هذا ، صدر عام ١٩٥٩ توجيه إداري ينص على تعريف اليهودي بأنه الشخص الذي وُلد لأم يهودية ، وذلك لاسترضاء الحزب الديني القومي حتى يعود إلى التحالف .

وقد ضمت الوزارة التالية وزيراً للداخلية من الحزب الديني القومي ، فأصدر توجيهات إدارية عام ١٩٦٠ يُعرِّف فيها اليهودي بأنه من يثبت أن أمه يهودية أو أنه تَهوَّد حسب الشريعة وعلى يد حاخام أرثوذكسي . وقد وعد الحزب الديني بأن التعديل ستتم الموافقة عليه ، ولكن الرأي العام الإسرائيلي أفشل هذه المحاولة .

ثم تفجرت القضية مرة أخرى بهجرة الأخ دانيال (أوزوالد روفايزين) الذي وُلد لأبوين يهوديين في بولندا ، وانضم إلى المقاومة ضد النازية وأنقذ كثيراً من اليهود . وبعد أن قُبض عليه فرَّ إلى دير راهبات وعاش فيه متخفياً في زي راهبة حتى انتهت الحرب ، فاعتنق المسيحية ودخل سلك الرهبنة ، وهاجر إلى إسرائيل بموافقة الفاتيكان، وطلب اعتباره يهودياً بمقتضى قانون العودة . وقد عُرضت عليه الجنسية الإسرائيلية على أساس التجنس ، ولكنه رفض وأصر على أن يحصل على الجنسية بموجب قانون العودة ، أي باعتباره يهودياً . وقد ذكر في طلبه أن الشريعة اليهودية تقرر أن اليهودي لا ينسلخ بتاتاً عن دينه اليهودي مهما بلغت ذنوبه وذلك بحسب ما جاء في كتاب السنهدرين في التلمود . وقد ذكر الأخ دانيال أنه إذا كان بوسع الملحد أن يظل يهودي القومية ، فمن باب أولى أن يُعتبَر هو (المسيحي) يهودياً !! وقد رفضت المحكمة العليا طلبه عام ١٩٦٦ ، وقالت في حكمها إنه وفقاً للعرف المعمول به فإن كل من يغير دينه بدين آخر يُعَدُّ غير يهودي لأنه اختار أن ينفصل عن مصير الشعب اليهودي وتاريخه (ويُلاحَظ أن فكرة المصير هذه ستصبح بالتدريج ركيزة التعريف اللاديني الأساسية) . وقد بيَّنت المحكمة أن حكمها هذا مناف للشريعة اليهودية وأكثر تشدداً منها ، وأن الأخ دانيال قد يكون يهودياً بحسب الشريعة ، ولكن لا يمكن اعتباره يهودياً من منظور قانون العودة ، أي أن المحكمة أخذت بتعريف لا ديني لليهودي ، وجعلت أساس اليهودية الانتماء القومي .

ومن المفارقات ، أن المؤسسة الدينية الأرثوذكسية كانت تقف ضد طلب الأخ دانيال ، أي أنها أخذت موقفاً أكثر تشدداً من الشريعة ذاتها بل ومنافياً لها . وقد قيل في معرض نقد هذا الحكم إنه يتعلق بتعريف من هو غير اليهودي ولكنه لا يعرِّف اليهودي من قريب أو بعيد . ولم تترك القضية أثراً عميقاً في الدولة الصهيونية لأنها لم تؤثر على علاقتها بيهود العالم . بل وشعر كثير من الإسرائيليين بأنها لا تخصهم .

وأثيرت القضية مرة أخرى وبحدة عام ١٩٦٨ حينما طلب الضابط بنيامين شاليط (المتزوج من إنجليزية غير يهودية رفضت التهود بسبب لا أدريتها) تسجيل أولاده باعتبارهم إسرائيليي الجنسية يهوديي القومية ، على أن يُكتَب في بند الدين عبارة «لا يوجد» ، أي أنه طلب الأخذ بالتعريف الإثني دون الديني . وحينما رُفض طلبه ، رفع قضية في المحكمة العليا التي حكمت لصالحه عام ١٩٧٠ ، وذكرت المحكمة في حكمها أن مصطلح «قومية» خاضع للتفسير العلماني ، فأولاد شاليط ارتبطوا بمصير الشعب اليهودي وتاريخه . ومع هذا ، أكدت المحكمة أن حكمها ينصب على الوضع المدني ، أي على قانون العودة وقانون المواطنة والإجراءات الخاصة بالتسجيل، ولا ينصرف إلى الأحوال الشخصية (مثل الزواج والطلاق) التي تختص بها المحاكم الحاخامية . وقد رفض اليهود الأرثوذكس الأخذ بهذا الحكم ، لأنه في تَصوُّرهم سيُقسِّم اليهود إلى قسمين : يهود مؤمنين ويهود غير مؤمنين . ولذا ، صدر عام ١٩٧٠ تعديل لقانون العودة ، وعُرِّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية بشرط ألا يكون على دين آخر . ونص أيضاً على أن اليهودي هو المتهوِّد ، وهو تعريف يعتمد الجانبين الإثني والديني ، ولا يزال هذا التعريف هو المعتمد .

ومع هذا ، أثار التعريف غضب الدينيين واللادينيين . كما أن جورج طامارين ، المحاضر في جامعة تل أبيب ، أثار جانباً آخر غير مُتوقَّع للقضية . فقد رأى أن التعريف الأخير تعريف ثيوقراطي ، أي يستند إلى أساس ديني . ولذا ، طالب بأن يُسجَّل في بند القومية لفظ «إسرائيلي» بدلاً من «يهودي» . وقد رُفض طلبه بطبيعة الحال ، لأن ذلك يعني رفض الصهيونية من أساسها .

أما الأرثوذكس ، فلم يعجبهم التعريف الجديد إذ أنه يعترف ضمناً باليهود المتهوِّدين على يد حاخامات إصلاحيين ومحافظين ، وهم في نظر الأرثوذكس ليسوا يهوداً ، أو على الأقل مشكوك في يهوديتهم ، ولذلك فهم يطالبون بإضافة عبارة «تهود حسب الشريعة» (بالعبرية : كاهالاخاه) أي على يد حاخام أرثوذكسي . وتحولَّت القضية ، من ثم ، إلى من هو الحاخام ؟ وقد قُدِّم إلى الكنيست مشروع قرار بهذا المعنى ، رُفض في ١٦ يناير ١٩٨٥ ، وتَسبَّب المعراخ أساساً في إسقاطه . والملاحَظ أن هذا التعديل الأخير المُقترَح سيثير من المشاكل أكثر مما يحلّ ، فهو على سبيل المثال سيهز أحد الأسس التي يستند إليها التجمع الصهيوني ، وهي فكرة «الوضع الراهن» . والعبارة تشير إلى الوضع السائد في فلسطين إبان حكم الانتداب . وقد تَوصَّل الصهاينة الدينيون والصهاينة اللادينيون، عشية إنشاء الدولة ، إلى اتفاق على أن الدولة الصهيونية ستلتزم بالشعائر والأعراف السائدة في ذلك الوقت في المجال الديني . ولا يزال الاتفاق يحكم مدى التزام الدولة بتنفيذ الشعائر الدينية .

وقد أثيرت عام ١٩٨٧ قضية شوشانا ميلر المواطنة الأمريكية التي اعتنقت اليهودية على يد حاخام إصلاحي ثم هاجرت عام ١٩٨٥ إلى إسرائيل ، حيث رفضت وزارة الداخلية الإسرائيلية منحها الجنسية بمقتضى قانون العودة . وطلب إليها وزير الداخلية أن تتهوَّد مرة أخرى على يد حاخام أرثوذكسي ، فرفضت طلبه وتقدمت بشكوى إلى القضاء . ولحسم المسألة ، اقترح الوزير أن يُكتَب على بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالمتهوِّدين لفظة «متهوِّد» بدلاً من «يهودي» ، سواء أكان التهود قد تم على يد حاخام إصلاحي أم على يد حاخام محافظ أم أرثوذكسي ، فرفضت المواطنة ذلك أيضاً باعتبار أن هذا سيحولها إلى يهودية من الدرجة الثانية . وقد حكمت المحكمة لصالح الشاكية ، فاستقال وزير الداخلية واتهم اليهود الإصلاحيين بأنهم « يقودون أمة إسرائيل إلى التهلكة » . ولكن الوزارة اضطرت في نهاية الأمر إلى تسجيل بعض مَنْ تهوَّدوا على يد حاخامات غير أرثوذكس باعتبار أنهم يهود .

وهناك حالات قامت فيها المحاكم الحاخامية بالتشكيك في يهودية بعض ضحايا الإبادة النازية الذين استقروا في إسرائيل ، بل وهناك حالة قامت فيها السلطات الدينية بالرجوع إلى الأرشيف النازي للتأكد من هوية أحد اليهود .

وكأن مشاكل الهوية لا تنتهي ، فقد طُرحت القضية من جديد وبحدة بالغة في فبراير ١٩٨٨ ، حين حضر يهوديان اسمهما جيري وشيرلي بيرسفورد ، ينتميان إلى جماعة دينية مسيحية تبشيرية اسمها رامات هاشارون ، ويشبه وضعهما وضع الأخ دانيال من بعض الوجوه ، ويختلفان عنه من البعض الآخر . فهما يهوديان بالمعنى الإثني وهما يؤمنان بالمسيح ، تماماً مثل الأخ دانيال ، ولكنهما يختلفان عنه في أنهما لم يتنصرا ، أي لم يعتنقا الديانة المسيحية . ولا يبيِّن المصدر ما معنى هذه العبارة ، وإن كان من الواضح أنها تعني أنهما آمنا بأن عيسى هو المسيح أو الماشيَّح المُنتظَر دون الإيمان ببنوته للرب .

وقد طُرح حل صهيوني للمشكلة باعتبار أن قانون العودة قانون سياسي صهيوني لمن يشاء ، وقانون ديني لمن يشاء ، ويمكن لكل فريق أن يفسره بالطريقة التي يراها ، على أن تحتفظ السلطة الأرثوذكسية بسلطتها كاملة في أمور الأحوال الشخصية وفي عمليات التهويد التي تتم داخل إسرائيل . وتحاول بعض الأحزاب الدينية تَبنِّي موقف مماثل ، لكنهم بدلاً من المطالبة بتغيير قانون العودة يطالبون بتغيير قانون المحاكم الحاخامية بحيث يصبح من صلاحياتها أن تقرر من هو اليهودي ومن هو غير اليهودي ، بدلاً من وزارة الداخلية . وفي هذه الحالة ، سيمكنها أن تسقط صفة اليهودية عن الحاخامات الإصلاحيين والمحافظين . ولكن جماعة حبد الأرثوذكسية ترفض مثل هذا الحل .

وفي تَصوُّرنا أن أزمة الهوية اليهودية ستتعمق ولن تُحسَم في المستقبل القريب لأسباب عديدة تتصل بالتطورات داخل المُستوطَن الصهيوني وخارجه . أما داخل المُستوطَن الصهيوني ، فقد لوحظ ، على عكس ما تَوقَّع المفكرون الصهاينة ، أن التطورات والآليات الاجتماعية لم تؤد إلى صهر العناصر اليهودية الدينية واللادينية والإشكنازية والسفاردية وغيرها ، وإنما ازدادت الصورة استقطاباً وتطرفاً . وإذا ما ركزنا على الجانب الديني مقابل العلماني ، نُلاحظ ظهور هوية يهودية جديدة بالإضافة إلى عدم التجانس ، وهي هوية الصابرا من الإشكناز التي يتسم أصحابها بسمات خاصة ، كمعاداة العقل والفكر وحب العنف والتحلل من القيم الأخلاقية ، بل إنهم يكنون احتقاراً عميقاً ليهود المنفى ، أي يهود العالم كله (وقد كان المؤمَّل في الصابرا أن يكونوا الترجمة العملية لليهودي الخالص) . وإلى جانب ذلك ، يُلاحَظ تَزايُد معدلات العلمنة في التجمع الصهيوني (الذي وصفه أمنون روبنشتاين بأنه من أكثر المجتمعات إباحية على وجه الأرض) . وبحسب بعض الإحصاءات ، يبلغ عدد المواطنين الذين لا يؤمنون بالخالق ٨٠٪ من كل الإسرائيليين . وهؤلاء ينظرون إلى الشعائر الدينية باعتبارها فلكلوراً قومياً . وتُعدُّ

الأعياد الدينية بالنسبة إليهم أعياداً قومية ، والعبرية ليست لغة الصلاة (اللسان المقدَّس) وإنما هي لغة البيع والشراء والجماع . وقد أصبح يوم السبت ، وهو يوم راحة وتَعبُّد من الناحية الدينية ، يوم صخب ولهو في الدولة التي يُقال لها «يهودية» . ولا يراعي كثير من الإسرائيليين قوانين الطعام الشرعي ، ويُقال إن نصف اللحم المستهلك في إسرائيل من لحم الخنزير .

لكل هذا ، حينما عُرضت قضية جيري وشيرلي بيرسفورد على الرأي العام الإسرائيلي ، قال ٧٨٪ منهم إنه يجب منحهما الجنسية الإسرائيلية إن كانا صهاينة ، وعلى استعداد لأن يرتبطا بالمصير اليهودي . ومعنى هذا أن الإسرائيليين استخدموا معياراً قومياً لا دينياً صرفاً ، ولو تم الأخذ به سيظهر نوع جديد من اليهود الذين يؤمنون بالمسيح عيسى بن مريم ، ولأصبح الأخ دانيال يهودياً برغم حكم المحكمة العليا .

مقابل هذا التعاظم في معدلات العلمنة ، هناك تعاظم أيضاً في النزعة الدينية يتضح في هجوم المؤسسة الدينية على الصور والمظاهر الإباحية في إسرائيل ، وإصرارها على إقامة شعائر السبت ، وفي إصرارها على تعديل قانون العودة . وينعكس هذا الاستقطاب القومي في واقعة حرق اللادينيين معبداً يهودياً احتجاجاً على نشاط المتدينين . ويتضح الاستقطاب أيضاً في ظهور عاصمتين للتجمع الصهيوني ؛ إحداهما علمانية تماماً في تل أبيب ، والأخرى في القدس يتزايد فيها نفوذ الأرثوذكس . وفي مثل هذا الإطار ، يصبح الإجماع القومي ، أو حتى الهدنة الاجتماعية القومية بشأن تعريف الهوية اليهودية ، أمراً مستبعداً . ومما يعمق المشكلة أن ثمة استقطاباً مماثلاً يحدث بين يهود العالم الذين تزداد بينهم معدلات العلمنة والزواج المُختلَط .

ويُلاحَظ أن مشكلة السفارد قد ازدادت تفاقماً ، خصوصاً مع ازدياد عددهم وازدياد ثقتهم بأنفسهم . فالتجمع الصهيوني يعتبرهم يهوداً وحسب ماداموا في بلادهم ، وهذا جزء من حملته الإعلامية ، ولكنهم يصبحون يهوداً شرقيين فور وصولهم إلى إسرائيل ، إذ أن التجمع الصهيوني يحتاج إليهم باعتبار أنهم مادة بشرية قادرة على حل أزمة المصادر البشرية التي يعاني منها ، وعلى العمل في قاعدة الهرم الاقتصادي الإنتاجية . لكن إصرار السفارد على الحراك الاجتماعي ، باعتبارهم يهوداً بشكل عام ، سيجعلهم يشغلون الدرجات العليا من الهرم، ويتركون قاعدته خالية يشغلها العرب . وبهذا تشتبك مشكلة الهوية مع واحدة من أعمق مشكلات التجمع الصهيوني، وهي مشكلة الإنتاجية، خصوصاً أن الصهاينة يدَّعون أن اليهودي الجديد شخصية منتجة على خلاف يهود المنفى الهامشيين المرابين .

وقضية الهوية اليهودية قضية محورية . فالدولة الصهيونية تكتسب شرعيتها ، أمام نفسها وأمام الكثيرين ، من ادعائها أنها دولة يهودية، لكن استمرار تَفجُّر هذ القضية يقوض دعائم هذه الشرعية . كما أن تعديل قانون العودة سيؤدي إلى استبعاد ما يقرب من ٨٠٪ من يهود العالم (وربما أكثر) ممن يُعرِّفون اليهودي على أسس دينية ذاتية أو على أسس إصلاحية ومحافظة ولا يقبلون اليهودية الأرثوذكسية .

ومن القضايا الأخرى المرتبطة بقضية «من هو اليهودي ؟» قضية «من هو الصهيوني ؟» ، وهل هو اليهودي الذي يهاجر إلى إسرائيل، أي من يمارس الصهيونية الاستيطانية أم اليهودي الذي يدعم المستوطن الصهيوني دون أن يهاجر ويكتفي بالصهيونية التوطينية ؟ وهي قضية تمس الهوية ولكنها لا تصل في عمقها إلى قضية «من هو اليهودي ؟» .

وكل هذه العناصر والتوترات والتناقضات تجعل من العسير على اليهود أنفسهم تصديق مقولة الشعب اليهودي الذي يتجاوز الأزمنة والأمكنة والذي يحمل داخله جوهراً يهودياً . فقد أثبت الواقع العملي أنه لا يوجد جوهر واحد ، بل هي سمات عديدة متنوعة بتنوع التشكيلات الحضارية والتاريخية التي يتواجد فيها اليهود . وقد أُثيرت القضية مرة أخرى مع وصول المهاجرين اليهود السوفييت . وكما بيَّنت المؤسسة الدينية ، فإن معظمهم ليسوا يهوداً، فهم إما من أصل مسيحي تزوجوا من يهود أو هم من مدعي اليهودية . بل واتضح أن اليهودية بالنسبة لليهودي منهم لا تمثل سوى أصداء خافتة للغاية . ومع هذا ، رحبت المؤسسة الصهيونية بوصولهم ، فهي في حاجة ماسة للمادة الاستيطانية . والحاجة نفسها هي التي تُفسِّر الترحيب بالفلاشاه موراه (وهم أشباه يهود تَنصَّروا بكامل إرادتهم منذ قرنين من الزمن) . وكل هذه المؤشرات تدل على أن المؤسسة الصهيونية ، نظراً لحاجتها للمادة البشرية الاستيطانية ، قد تجعل من اليهودية قشرة رقيقة للغاية (مثل الانتماء المسيحي في جنوب أفريقيا) إذ أن المطلوب هو مادة استيطانية غير عربية يضمن الكيان الصهيوني لنفسه الاستمرار من خلالها .

الأخ دانيـــال (١٩٢٢ -)

Brother Daniel

راهب كاثوليكي وُلد لأبوين يهوديين ، وكان يُدعَى عند مولده أوزوالد روفايزين . لجأ إلى دير كاثوليكي أثناء الاجتياح النازي لبولندا ، ثم اعتنق المسيحية وعُمِّد وأصبح راهباً من الطائفة

الكرملية. وفي عام ١٩٥٨ ، أُرسل إلى دير جبل الكرمل في حيفا . وعند وصوله إلى إسرائيل ، طلب منحه الجنسية الإسرائيلية بمقتضى قانون العودة الذي يُعرِّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية (دون إشارة إلى العقيدة) . وقد بيَّن الأخ دانيال أنه إذا كان الشرع اليهودي يعترف بالملحد يهودياً ، فمن باب أولى أن يعترف بالكاثوليكي يهودياً ! وعندما رفضت وزارة الداخلية طلبه ، رفع قضية في المحكمة العليا التي أيَّدت قرار وزارة الداخلية (خمسة أصوات ضد أربعة) . وفي حكمها ، اعترفت المحكمة بأن الشريعة اليهودية تُعرِّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية وأن المرتد عن اليهودية يظل يهودياً ، ولكنها بينت أن قانون العودة قانون علماني ، ومن ثم يجب تفسيره بما يتفق مع الفهم العام للكلمة ، ولذا فالكلمة لابد أن تُفهَم بالطريقة التي يفهمها بها المواطن العادي ، الذي يرى أن كون الإنسان يهودياً يتعارض مع الإيمان بعقيدة أخرى . ويستند هذا المعنى العادي اليومي، في تَصوُّر المحكمة ، إلى التاريخ اليهودي والأهداف الصهيونية والرغبة الجماعية في الإبقاء على الصلة بين إسرائيل ويهود العالم (الدياسبورا) . وقد عُدِّل قانون العودة بعد ذلك ليصبح تعريف اليهودي «من وُلد لأم يهودية ولم يَتبنَّ عقيدة أخرى» . وقد حصل الأخ دانيال على الجنسية بمقتضى قانون التجنيس ، وهي عملية لا تستند إلى قانون العودة .

وقد أدَّت حادثة الأخ دانيال إلى طرح قضية «من هو اليهودي؟» وهي قضية لم تجد حلاً حتى الوقت الحالي . ولعل الذين أثاروا قضية الأخ دانيال لم يدركوا أن الفيلسوف « اليهودي » ليف شستوف والمفكرة الدينية « اليهودية » إتي هلسوم والروائي «اليهودي» بوريس باسترناك كلهم كانوا يؤمنون بالمسيحية أو كانوا يؤثرونها كنسق ديني على اليهودية ، ومع هذا تظهر أسماؤهم في الموسوعات اليهودية باعتبارهم يهوداً .

إديث شتاين (١٨٩١-١٩٤٢)

Edith Stein

مساعدة الفيلسوف الألماني هُسرل . وُلدت لأم يهودية أرثوذكسية لم توفر تعليماً دينياً لأولادها ، ولذا ألحدت إديث وهي في سن صغيرة . ثم قرأت السيرة الذاتية لحياة سانت تيريزا ، وتأثرت بها تأثراً عميقاً ، فتكثلكت وغيرت اسمها إلى تيريزيا بنديكتا . ويبدو أنها كانت تشير إلى نفسها على أنها يهودية (بمعنى أن اليهودي هو من وُلد لأم يهودية) . وقد قبض عليها الجستابو عام ١٩٤٢ وماتت في أوشفتس بعد ثمانية أيام من القبض عليها .

وقد أعلنت الكنيسة الكاثوليكية عام ١٩٩٠ أن إديث شتاين قديسة ، فثارت ثائرة المؤسسة اليهودية لأن هذا ـ من وجهة نظرهم ـ يُعَدُّ محاولة للاستيلاء على أوشفتس باعتبارها رمزاً يهودياً (يحتكره اليهود وحدهم) . كما أن المؤسسة اليهودية أشارت إلى أن إديث شتاين تم القبض عليها لأنها يهودية . والطريف في الموضوع أن الأخ دانيال ، وهو يهودي تكثلك (تماماً مثل إديث شتاين) ، وذهب إلى إسرائيل باعتباره يهودياً وطالب بالحصول على الجنسية الإسرائيلية حسب قانون العودة ورُفض طلبه . فكأن المؤسسة اليهودية في العالم الغربي هي التي تقرر من هو اليهودي ، دون الالتزام بأية معايير إلا مصالحها وأهوائها .

استجابة أعضاء الجماعات اليهودية للتعاريف الصهيونية للهويات اليهودية

Response of the Members of the Jewish Communities to the Zionist Definitions of Jewish Identities

طرحت الصهيونية (في صيغتها اللادينية) نفسها كحركة لتطبيع اليهود ، وطرحت مفهوم «اليهودي الخالص» صاحب الهوية اليهودية الحقيقية ليحل محل «يهودي المنفى» الذي يخفي هويته ويتقمَّص هوية الآخرين . والدولة الصهيونية التي يُقال لها «يهودية» ستكون هي المسرح الذي تتحقق عليه هذه الهوية . وقد قبل بعض الصهاينة الدينيين المشروع الصهيوني وتحالفوا مع اللادينيين على أمل أن تُتاح لهم الفرصة بعد ذلك أن يفرضوا رؤيتهم الدينية بحيث يصبح «اليهودي الحقيقي» هو اليهودي حسب التعريف الأرثوذكسي . وقد أدَّى هذا إلى توترات عميقة بين الدولة الصهيونية من جهة والجماعات اليهودية في العالم ، بكل ما تتسم به من تنوُّع وعدم تجانس ، من جهة أخرى .

والصهيونية ، كما بيَّنا ، ترى أن الهوية اليهودية خارج المُستوطَن الصهيوني هوية ناقصة مريضة يجب إلغاؤها ، وهذا ما يُسمَّى «نفي الدياسبورا» في المصطلح الصهيوني (أي تصفية الجماعات اليهودية أو استغلالها) . وقد نجم عن ذلك صراع حاد بين أعضاء الجماعات اليهودية والمُستوطَن الصهيوني ، إذ أن أعضاء الجماعات يرون أن هويتهم ، أو هوياتهم اليهودية ، ليست مريضة وإنما هي جديرة بالحفاظ عليها وتنميتها ، في حين تحاول المؤسسة الصهيونية أن تقلل من شأنها وأن تجعل منها وقوداً يغذي الدولة الصهيونية . ولذا ، فهي تجعل من الهجرة إلى فلسطين المحتلة والاستيطان فيها ، المعيار الوحيد لتقييم مدى صهيونية اليهودي

ومـدى يهـوديتـه . وهذه المشكلة تنفـجـر دائمـاً داخل المؤتمرات الصهيونية وخارجها .

١ ـ وانطلاقاً من المفهوم الصهيوني للهوية اليهودية الحقيقية ، تتصرف الدولة الصهيونية أحياناً بطريقة لا تخدم صالح أعضاء الجماعات اليهودية وإنما تخدم مصالحها هي على حسابهم . وربما تكون حادثة بولارد نقطة مهمة في هذا الصراع ، فهي تمثل تصادماً بين رؤيتين للهويـة : واحدة صهيونية والأخرى أمريكية يهودية . فتذهب الرؤية الصهيونية إلى أن الأمريكي اليهودي يهودي أولاً وأخيراً ، ولذا لابد أن يخدم الدولة الصهيونية ، في حين تذهب الرؤية الأمريكية اليهودية إلى أن الأمريكي اليهودي هو أمريكي في المقام الأول وله مصالح تختلف عن مصالح الدولة الصهيونية .

٢ ـ عندما ينظر يهود العالم ، خصوصاً المتدينين منهم ، إلى الدولة التي يُقال لها «يهودية» ، يكتشفون أن هويتها وهوية سكانها ليست يهـودية على الإطلاق . فـمـعـدلات العلمنة عـاليـة للغاية بين الإسـرائيليين ، وهو الأمـر الذي يصـدم الزوار اليـهـود للدولة الصهيونية الذين يهربون من مجتمعاتهم الاستهلاكية ويحضرون إلى إسرائيل فيفاجأون بمجتمع إباحي مفتوح أكثر علمانية من المجتمعات غير اليهودية التي تركوها وراءهم . والواقع أن المجتمع الإسرائيلي بدأ ، منذ السبعينيات ، يتوجه توجهاً استهلاكياً حاداً لا يضبطه أي ضابط أخلاقي أو حضاري أو عقائدي . وهذه التساؤلات ليست مقصورة على المتدينين ، فاليهود اللادينيون ، أو المندمجون الذين لا يقيمون شعائر دينهم ، يحاولون التمتع بشيء من الهوية والتجربة الدينية عن طريق إسرائيل . فبرغم أنهم يتمتعون تماماً بالاستهلاك والحضارة العلمانية في بلادهم ، فإنهم يذهبون إلى إسرائيل ويدفعون لها الإعانات ليعيشوا تجربة دينية قومية (ولو بشكل مؤقت ، وكأن إسرائيل ديزني لاند يهودية ، على حد قول أحد الحاخامات) . ولكن العلمانية الصريحة للدولة اليهودية تحرمهم من هذه المتعة وتلك الإثارة .

٣ ـ كما يسأل اليهود المتدينون : بأي معنى يمكن إطلاق تسمية الدولة الصهيونية على الدولة اليهودية وهي تُسوِّي كل خلافاتها مع الآخرين عن طريق العنف العسكري ولا يمكن محاكمتها بمعايير أخلاقية يهودية ؟ كما أن الطريقة التي يتم بها قمع الانتفاضة يصعب تسميتها «يهودية» مهما تحلى الإنسان بالكرم والخيال .

٤ ـ يشكو اليهود المتدينون من أن التعريف الصهيوني للهوية اليهودية قد صادر الرموز والمصطلحات الدينية ، بحيث يتصور كثير من اليهود الآن أن اليهودية والصهيونية أمران مترادفان ، وأن المرء يمكنه أن يحقق هويته اليهودية عن طريق التبرع للدولة الصهيونية وعن طريق شراء سندات إسرائيل . وكما قال الحاخام ألكسندر شندلر : «يتصور بعض اليهود الآن أن إسرائيل هي معبدهم اليهودي ، وأن رئيس وزرائها هو حاخامهم الأكبر ! » .

ولكن نقطة الاشتباك الكبرى بين أعضاء الجماعات والدولة الصهيونية هي في مجال تعريف هوية اليهودي والمعيار المُستخدَم في هذا التعريف ، إذ تُصرُّ المؤسسة الدينية ، ممثَّلة في أحزابها الدينية ، على تَبنِّي تعريف أرثوذكسي . وقد حدثت مواجهة سريعة بين يهود العالم والمؤسسة الدينية في حالة يهود الهند (بني إسرائيل) في الخمسينيات ، وفي حالة يهود الفلاشاه في الثمانينيات ، ومع القرّائين والسامريين عبر كل هذه السنوات . وكان جوهر المواجهة دائماً هو إصرار المؤسسة الدينية على التمسك بتعريفها لليهودي ، والذي يستبعد أعضاء هذه الجماعات . وقد حُسمت هذه المواجهات إما بتهود أعضاء هذه الجماعات مرة أخرى حسب الشريعة ، وإما بتراجعهم وقبولهم مرتبة ثانوية في الهرم الديني اليهودي . كما أن المؤسسة أبدت من جانبها شيئاً من المرونة تجاههم . ولكن كل هذه المواجهات كانت مع جماعات صغيرة لا نفوذ لها انفصلت منذ قرون طويلة عن اليهودية الحاخامية ، ولذا لم تتسبب المواجهة في تفجير أزمة عامة ذات أثر عميق . أما المواجهة مع يهود الولايات المتحدة وروسيا وأوكرانيا وغيرهم من الجماعات اليهودية بشأن الموضوع نفسه ، فهي مواجهة مهمة وعميقة لها أعمق الأثر في كل من الدولة الصهيونية وأعضاء الجماعات .

ولنفـهـم مـدى عـمـق هذه المواجـهـة ، لابد أن نتناول وضع الجماعات اليهودية في العالم . فلو نظرنا إلى الهويات اليهودية في أنحاء العالم الغربي ، خصوصاً في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي حيث يتركز معظم يهود العالم ، لوجدنا أن ثمة هويات متعددة غير متجانسة ، مندمجة في مجتمعاتها تتفاعل معها ، بحيث أصبح الإطار المرجعي لهويتهم وأساسها هو تجربتهم التاريخية في أوطانهم وليس التعريف الصهيوني أو اليهودي . وإن كان ثمة عنصر مشترك بينها فهو المرجعية العلمانية النهائية التي أدَّت إلى ظهور «الهوية اليهودية الجديدة» . فهوية يهود أمريكا ، على سبيل المثال ، هوية أمريكية ذات أبعاد إثنية دينية يهودية هامشية . والحديث الصارخ عن بعث الإثنية في الولايات المتحدة والتمسك بها إنما هو من قبيل الادعاءات اللفظية المريحة للغاية . فمفهوم الهوية في الإطار الأمريكي لا يختلف أبداً عن مفهوم الدين ، وكل من الدين والهوية شيئان يمكن تَقبُّلهما شريطة أن يتم تهميشهما حتى لا يتعارضا مع أداء

اليهودي في رقعة الحياة العامة ولا يهددا الانتماء إلى المجتمع الأمريكي . ولكن إذا استبعدنا الهوية والدين من الحياة العامة ومن الإحساس بالانتماء ، فلا يبقى شيء سوى زخارف أو تسلية تُمارس في أوقات الفراغ من آونة لأخرى ، ولا تشكل بعداً حقيقياً في بناء شخصية المرء ولا في رؤيته للكون .

كما أن أوضاع أعضاء الجماعات في إنجلترا وفرنسا وجنوب أفريقيا لا تختلف في أساسياتها عن الصورة العامة السائدة بين أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة . بل إن وضع يهود روسيا وأوكرانيا ينطبق عليه أيضاً مصطلح «يهود ما بعد الانعتاق» أو «الهوية اليهودية الجديدة» ، فقد حصلوا على حقوقهم السياسية والمدنية ، وتوجد أطر ومنابر يمكنهم من خلالها التعبير عما تبقَّى من هويتهم الشرق أوربية . كما ينتشر بينهم الزواج المُختلَط (وهو من أهم معايير الاندماج) بدرجة تفوق أحياناً درجته في الولايات المتحدة. وقد صرح شارنسكي ، بطل الصهاينة في الاتحاد السوفيتي، حينما أُفرج عنه واستقر في إسرائيل ، بأن درجة اندماج اليهود في المجتمع السوفيتي « درجة مَرضية » ، والمقصود أنها «عالية» . ورغم أنه يستخدم معياراً صهيونياً للهوية ، إلا أنه يعترف ضمنياً بحقيقة ارتفاع معدلات الاندماج . وإذا كانت بين يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) أعداد كبيرة ترغب في الهجرة ، فإن هذا يعود إلى بعض المشكلات الخاصة بالمجتمع الاشتراكي وبمجتمعات كومنولث الدول المستقلة . وعلى أية حال ، فإن أغلبية من تتاح له فرصة مغادرة روسيا وأوكرانيا ، يهاجر إلى الولايات المتحدة ، ولا تهاجر سوى أعداد صغيرة إلى إسرائيل . وحتى هؤلاء الذين يصلون إلى هناك يكتشفون أن هويتهم وطموحاتهم تختلف عن الهوية اليهودية كما عرَّفها الصهاينة . بل إن يهود روسيا وأوكرانيا الذين يصلون إلى الولايات المتحدة يكتشفون أنهم روس ، ومن ثم لا يختلطون باليهود في الولايات المتحدة ولا يندمجون فيهم وإنما يندمجون في المجتمع الأمريكي . بل ويُقال إن الإسرائيليين المهاجرين إلى الولايات المتحدة يظلون أيضاً بمعزل عن يهود الولايات المتحدة ولا يتزاوجون معهم ، إذ يكتشفون أنهم إسرائيليون وليسوا مجرد يهود .

وبشكلٍ عام ، يمكن القول بأن القيم العلمانية تنتشر في الوقت الراهن بين أغلبية يهود العالم ، فهم إما منصرفون عن الدين تماماً وإما يتبنون الصيغ المخففة منه والمتمثلة في اليهودية الإصلاحية والمحافظة ، ولم يَعُد بينهم سوى أقلية أرثوذكسية . ففي الولايات المتحدة ، يبلغ عدد اليهود الإصلاحيين والمحافظين مليونين ولا يوجد سوى ٤٠٠ ألف أرثوذكسي . أما بقية اليهود ، فهم إما لاأدريون أو غير مكترثين باليهودية ، ولكنهم يلجأون إلى حاخامات إصلاحيين أو محافظين في أمور الزواج وغيره . وربما تكون درجة علمنة يهود روسيا وأوكرانيا أعلى من ذلك بكثير . ومع هذا ، وبرغم علمنة هؤلاء اليهود ، وبرغم ابتعاد المتدينين منهم عن الأرثوذكسية ، فإنهم يتمسكون ببقايا هويتهم الإثنية ، ربما بتأثير الصهيونية . ولذا ، فهم يصرّون على تسمية أنفسهم «يهود» برغم انصرافهم عن العقيدة ، ثم يطالبون بتبني تعريف تعددي لليهودية ، أي بأي تعريف يروق لهم بحيث يتم قبول أي يهودي يرى أنه يهودي . وهم ينظرون إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة تعددية يهودية ، بالمعنى الإثني ، يمكنهم تحقيق هويتهم من خلالها . وفي هذا الإطار ، ليس من المستغرب أن يؤدي التعديل المقترح لقانون العودة (بحيث يعرَّف اليهودي بأنه «المتهوِّد بحسب الشريعة» أي على يد حاخام أرثوذكسي) إلى تفجير التناقضات الكامنة إذ أنه ، في واقع الأمر ، يستبعد أغلبية المتهوِّدين وعائلاتهم في الولايات المتحدة . ومن المعروف أن عشرة آلاف أمريكي يتهوَّدون سنوياً نظراً لزواجهم من أقران يهود ، ولا يتهود سوى ألف منهم أمام محاكم أرثوذكسية ، أما الباقون فيتهوَّدون على يد حاخامات إصلاحيين ومحافظين ، ولا تعترف الحاخامية في إسرائيل بهم كيهود .

وهناك مشكلة أخرى أُثيرت عدة مرات ولن يحسمها التعريف الجديد حتى لو تم تبنيه . فالحاخامات الأرثوذكس يطلبون ما يُسمَّى «جيط» من كل يهودية مُطلَّقة ، أي شهادة طلاق من محكمة شرعية يهودية ليصبح الطلاق شرعياً ، وهو تقليد أبطله الحاخامات الإصلاحيون . ولذا ، فإن أية يهودية مُطلَّقة تتزوج دون أن تحصل على شهادة طلاق شرعي ، يُعتبَر أطفالها (بحسب التصور الأرثوذكسي) غير شرعيين ، حتى لو كانت هي يهودية معترفاً بيهوديتها من المؤسسة الأرثوذكسية . ولهذا ، فمن المتوقع أن تتفاقم المشكلة بسبب ازدياد معدلات الطلاق غير الشرعي بين اليهود في الخارج ، سواء في الولايات المتحدة أو في كومنولث الدول المستقلة (الاتحاد السوفيتي سابقاً) ، وبسبب جهل كثير منهم بقضية الجيط هذه!

ويدرك أعضاء الجماعات اليهودية ، خصوصاً في الولايات المتحدة ، المضمون الخفي الكامن وراء تعديل قانون العودة تماماً ، والمحاولة الرامية إلى ذلك . ومن هنا كانت حدة استجابتهم لهذه المحاولة إلى درجة أدهشت القيادات في اجتماع لمجلس الفيدراليات الأمريكية الذي خُصِّص لمناقشة هذه القضية (١٩٨٨) ، ومجلس

الفيدراليات هو التنظيم الذي يضم سائر التنظيمات اليهودية الأمريكية . فعندما حاولت القيادة التقليل من أهمية التعديل المقترح والتهوين من شأنه ، ثارت القاعدة وأعلنت سخطها وأعلنت كذلك عن نيتها أن تترجم هذا السخط إلى فعل ضد إسرائيل . بل إن بعضهم اشتكى إلى نوابهم في الكونجرس الأمريكي من التعديل المزمع ، وقام هؤلاء النواب ، وبعضهم من غير اليهود ، بنقل شكوى ناخبيهم من اليهود إلى حكومة الدولة اليهودية . وتتحدث الصحف الإسرائيلية عن احتمال أن تُناقَش المسألة في الكونجرس الأمريكي عند مناقشة المعونة الأمريكية لإسرائيل . وهكذا ، فبدلاً من أن تستخدم الدولة الصهيونية الدياسبورا أداة للضغط على الولايات المتحدة لتحقيق مصالحها ، يقوم أعضاء الجماعة الأمريكية اليهودية بالضغط على الدولة الصهيونية من خلال الولايات المتحدة للحفاظ على مصالحهم . ويُقال إن استجابة يهود الولايات المتحدة لتعديل قانون العودة يشبه في حدته استجاباتهم لحرب ١٩٦٧ ، حين أحسوا بالفخر الشديد لانتصار القوات الإسرائيلية ، أي حين تضخمت هويتهم اليهودية المزعومة بسبب انتصار جيوش الدولة اليهودية . وقانون العودة يمس هذه الهوية ، ذلك أن تعديله ينزع عنهم هويتهم هذه ويجعل منهم مجرد يهود إصلاحيين أو محافظين، أي يهود من الدرجة الثانية . ويجب ملاحظة أنه بينما أصبحت اليهودية ، بالنسبة إلى معظم سكان المُستوطَن الصهيوني مسألة قومية وليست دينية محضة (ولهذا فهم لا يكترثون بموقف المؤسسة الأرثوذكسية) ، فإن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى يهود العالم ، فيهوديتهم برغم علمانيتهم الواضحة لا يمكن أن تُعرَّف تعريفاً قومياً وحسب ، حيث يتنافى هذا مع انتمائهم القومي . ولذلك ، يظل البُعد الديني ، برغم شكليته وضموره ، أكثر أهمية بالنسبة إليهم من أهميته بالنسبة إلى الإسرائيليين .

ومن إنجازات الانتفاضة أنها ، بوصولها إلى الإعلام الخارجي، قد حولَّت النضال الفلسطيني من قضية سياسية أو أخلاقية إلى قضية إعلامية تمس صورة اليهودي وبالتالي هويته ورؤيته لها . ولعل الأفلام اليومية على شاشة التليفزيون الأمريكي قد ساعدت على تهيئة الجو لثورة الأمريكيين اليهود ، وغيرهم من أعضاء الجماعات ، على القيادات الصهيونية ورفضهم تعديل قانون العودة .

وثمة تَطوُّر ثالث شديد الأهمية يتمثل في البقعة التي يلتقي فيها يهود العالم بالمُستوطَن الصهيوني : أي المنظمة الصهيونية العالمية . فقد شهد العقدان السابقان صهينة قطاعات كبيرة من يهود الولايات المتحدة كانت ترفض الصهيونية من قبل . فاليهودية الإصلاحية التي تشجع الاندماج ، كانت ترفض الصهيونية بشكل عقائدي عند نشأتها ، كما كان بعض مفكري اليهودية المحافظة يرفضونها . ولكنهم ، بمرور الزمن ، تناسوا هذه الاعتراضات وانتهى بهم الأمر إلى الانضمام إلى المنظمة الصهيونية العالمية . هذا ، بينما يُلاحَظ أن الجماعات اليهودية الدينية ، وضمن ذلك بعض الأحزاب الدينية في إسرائيل ، إما معادية للصهيونة وإما غير صهيونية وغير مُمثَّلة في المنظمة الصهيونية .

وقد انعكس هذا الوضع على انتخابات المؤتمر الصهيوني الحادي والثلاثين (١٩٨٧) التي أسفرت عن فوز أغلبية من حزب العمال الإسرائيلي وممثلي اليهود الإصلاحيين والمحافظين والعلمانيين . وهذه هي المرة الأولى التي لا يعكس فيها تكوين المنظمة الصهيونية موازين القوى داخل الدولة الصهيونية . وقد قضى المؤتمر (٢٩١ صوتاً ضد ٢٧١ صوتاً) بضرورة المساواة الكاملة بين جميع اتجاهات اليهودية ، الأمر الذي أدَّى بحركة المزراحي (الصهيونية الدينية) إلى التهديد بإعادة النظر في وضعها داخل الحركة الصهيونية . والواقع أن هذا الوضع يناقض الوضع داخل الدولة الصهيونية حيث يتنامى نفوذ الأحزاب الدينية .

وقد أثار وصول المهاجرين السوفييت مشكلة الهوية مرة أخرى. فعدد اليهود السوفييت حسب آخر إحصاء هو ١,٥٠٠,٠٠٠ وحسب ، فمن أين أتت الأعداد الضخمة ، خصوصاً ونحن نعرف أن اليهود السوفييت حققوا معدلات عالية من الاندماج وأنهم جماعة مسنة ؟ ولتفسير هذا نذهب إلى أن اليهود الذين يهاجرون إلى إسرائيل يضمون في صفوفهم عدداً كبيراً من اليهود المتخفين الذين كانوا قد فقدوا علاقتهم باليهودية تماماً ولم يسجلوا أنفسهم كيهود ، ولكنهم اكتشفوا مؤخراً أن مسألة الانتماء اليهودي مسألة مربحة وأنها ستضمن لهم تأشيرة خروج من الدولة السوفيتية وتأشيرة دخول إلى الدولة الصهيونية . ولعل هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يظهر فيها مثل هذا الموقف : أن يكون في صالح المرء أن يكتشف جذوره اليهودية ويعلنها ويوظفها . وأشباه اليهود هؤلاء غير مختتين وغير متزوجين من يهوديات وأولادهم غير يهود ولا يربطهم باليهودية سوى أن لهم جداً مدفوناً في موسكو (على حد قول أحد الحاخامات الإسرائيليين) . كما أن هناك فريقاً آخر ممن نسميهم مدَّعي اليهودية ، وهؤلاء ليسوا يهوداً ويشترون شهادة ميلاد تثبت أنهم يهود . وهذه الآلاف تصل إلى إسرائيل وتطالب بالجنسية حسب قانون العودة . ويُقال إن نسبتهم بين

المهاجرين يمكن أن تصل إلى ٣٠٪ . وقد بدأت المؤسسة الحاخامية تحذر من أن إسرائيل قد تصبح دولة غير يهودية . ولكن المؤسسة الإشكنازية الحاكمة (اللادينية) لا تجد أية غضاضة في استقبال هؤلاء المهاجرين ماداموا سيحلون المشكلة السكانية لإسرائيل ، ولا تمانع في تَقبُّل التعريف العلماني الذي وضعه شارانسكي لليهودي باعتباره من يشعر أنه يهودي مُضطهَد . وهو تعريف لا تأخذ به ، بطبيعة الحال ، المؤسسة الحاخامية . ولهذا أُسِّست محكمة شرعية في موسكو للتحقق من الهوية اليهودية للمهاجرين ، الأمر الذي يثير حفيظتهم ويؤدي إلى احتجاج العناصر اللادينية في إسرائيل .

وتُعتبَر الأزمة التي تعتمل داخل الدولة الصهيونية ، وفي صفوف الجماعات اليهودية في العالم ، نتيجةً لمحاولة تَبنِّي التعريف الديني أو التعريف اللاديني الصهيوني للهوية ، أمراً طبيعياً ومتوقعاً . فهذا التعريف لا يأخذ في الاعتبار تموجات التاريخ وتعرجاته ولا ينبع منها ، ويتجاهل التركيب الجيولوجي للعقائد والجماعات اليهودية ، كما أنه مجرد تعريف عقائدي يفرض نفسه فرضاً على واقع متنوع . فهو يفترض وجود هوية يهودية واحدة رغم وجود هويات يهودية عديدة متنوعة أهمها «الهوية اليهودية الجديدة» التي تُهمِّش العنصر اليهودي . والتعريف الصهيوني يرى أن اليهود شعب واحد له تاريخ واحد ، وهم في واقع الأمر جماعات منتشرة لها تجارب تاريخية متنوعة ذات انتماءات قومية وإثنية وطبقية ودينية متعددة . كما أن أعضاء هذه الجماعات ، حين يستوطنون فلسطين المحتلة ، يحملون معهم انتماءاتهم وتجاربهم التاريخية ، شاءوا أم أبوا . وحينما يتبنون تعريفاً صهيونياً لهويتهم ، تنفجر الأزمة إذ تكتشف أغلبيتهم العظمى أنهم ليسوا يهوداً أو أن يهوديتهم مشكوك فيها بل ومرفوضة ، كما حدث ليهود بني إسرائيل والفلاشاه ، وكما سيحدث ليهود الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لو تم تعديل قانون العودة .



٤
اليهود والجماعات اليهودية

اليهود : مشكلة التعريف ـ اليهود بوصفهم كُلاً متماسكاً ـ الشعب اليهودي ـ الشعب ـ الجماعات اليهودية ـ طائفة ـ عبري ـ يسرائيل ـ بنو إسرائيل ـ شعب يسرائيل ـ جماعة يسرائيل ـ عَم هآرتس ـ اليشوف ـ يهودي ـ صهيوني ـ إسرائيلي

اليهـــــود : مشكلــــة التعريـــــف
The Jews : The Problem of Definition

كلمة «يهودي» هي من أكثر الدوال إشكالية رغم بساطتها ، فكلمة «يهودي» يمكن أن تُستخدَم للإشارة إلى العبرانيين القدامى باعتبارهم جماعة عرْقية أو إثنية (قوم) أو باعتبارهم جماعة دينية (شعب مختار) . ثم تُستخدَم الكلمة للإشارة إلى اليهود الحاخاميين والقرّائين والسامريين ويهود الصين وإثيوبيا .

ويُشار إلى اليهود باعتبارهم شعباً مقدَّساً في التراثين الدينيين المسيحي واليهودي . وبعد ظهور العلمانية ، أصبحوا شعباً عضوياً يُشار إليهم بوصفهم «الشعب اليهودي» أو بالمعنى اللاديني مجرد «اليهود» (بالإنجليزية : جوري Jewry) . ويُشار إلى السفارد والإشكناز والصابرا ويهود الولايات المتحدة على أنهم «يهود» . وتزداد الأمور اختلاطاً حينما يُستخدَم الدال «يهودي» للإشارة إلى يهود العالم وإلى صهاينة العالم والمستوطنين الصهاينة في إسرائيل . ولعل المصدر الأساسي لهذا الخلط هو التراث الإنجيلي الذي يتحدث دائماً عن اليهود ككل باعتبارهم «الشعب» ، وهي طريقة للرؤية ورثها العالم الغربي ككل . ولذا ، نجد أن المحايدين العلميين والمعادين لليهود والصهاينة المتحيزين كلهم يتحدثون عن اليهود ككل .

وغني عن القول إن استخدام الدال «يهودي» بهذه الطريقة يجعله عديم الفائدة ، إذ يشير إلى حقل دلالي متضارب ومدلولات مختلفة . وسنحاول في مداخل هذا المجلد أن نحدد الحقل الدلالي لبعض المصطلحات السائدة وأن نقترح مصطلحات جديدة لتحل محل مصطلح «يهودي» .

اليهود بوصفهم كلاً متماسكاً
Jewry

«اليهود بوصفهم كُلاً متماسكاً» هي ترجمتنا للكلمة الإنجليزية «جوري Jewry» ، والتي كانت تُستخدَم أصلاً للإشارة إلى الجيتو أو الشارع أو الحي الذي يسكنه اليهود . وهي تشير إلى اليهود من حيث هم كُلٌّ متماسك لا من حيث هم جماعات شتى لكل منها انتماؤها العرْقي أو الإثني أو الحضاري وتضم في صفوفها أعضاءً يهوداً لكلٍّ طموحاته وتصوراته الخاصة به . والكلمة تفترض أن هناك علاقة عضوية بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، وأنهم يخضعون للحركيات نفسها التاريخية التي تَجُبُّ الانتماءات المختلفة والتناقضات الكامنة والظاهرة . وتُوجَد كلمات مماثلة في اللغات الأوربية الأخرى ، مثل جويفيري Juiverie الفرنسية ، وجويديتشا Guidecca الإيطالية .

ويحبذ الصهاينة استخدام هذا المصطلح لأنه يُعبِّر عن رؤيتهم ونموذجهم التفسيري . وهذا المصطلح لا يختلف كثيراً في تضميناته عن مصطلحات مثل «الشعب اليهودي» أو «الشعب العضوي» ، فهي جميعاً تشير إلى كلٍّ عضوي متماسك .

الشــعب اليهـودي
The Jewish People

«الشعب اليهودي» عبارة تفترض أن اليهود شعب بالمعنى القومي أو العرْقي للكلمة ، كما تفترض أن لديهم قوميتهم اليهودية المستقلة . ويستطيع القارئ أن يعود إلى مدخل «القومية اليهودية» و«الجماعات اليهودية» .

الشـــعب
The People

«الشعب» كلمة تتواتر في الأدبيات الدينية اليهودية والمسيحية وفي الدراسات الدنيوية أيضاً . ويختلف معنى الكلمة في السياق الديني عنه في السياق الدنيوي والتاريخي . فهي في السياق الديني تعني «جماعة دينية» ترتبط بميثاق بينها وبين الإله وتنتفي عنها صفة الشعب بعدم تنفيذها العهد . وهذا الشعب قد يرى نفسه شعباً

مختاراً أو شعباً مقدَّساً أو أمة الروح أو الأمة المقدَّسة أو الشعب الأزلي أو المفضل على العالمين ، ومن أسمائه «بنو يسرائيل» و«شعب يسرائيل» . وترى الكنيسة المسيحية أن المسيحيين هم الشعب الحقيقي وأن اليهود قد تحولوا إلى مجرد «شعب شاهد» .

أما في السياق الدنيوي ، فالأمر أكثر تركيباً ، حيث يعني «الشعب» مجموعة القبائل العبرانية التي تسللت إلى كنعان ثم اتحدت في المملكة العبرانية المتحدة ثم انفكت إلى مملكتين : المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية . وقد اعتبره اليونانيون والرومان «إثنوس» أي قوماً يترأسهم رئيس القوم (إثنآرخ) ، ثم تحولوا إلى جماعات يهودية مختلفة منتشرة . وفي العصر الحديث ، عاد الحديث بين الصهاينة عن «الشعب اليهودي» أو «الشعب العضوي (فولك)» . وقد قمنا بوضع مصطلح «الشعب العضوي المنبوذ» لوصف رؤية العالم الغربي للجماعات اليهودية .

الجماعـات اليهوديـة

Jewish Communities

«الجماعات اليهودية» مصطلح نستخدمه في هذه الموسوعة بدلاً من مصطلح «اليهود» . ونحن نذهب إلى أن العبرانيين (والعبرانيين اليهود) ، أي اليهود القدامى ، كانوا يشكلون وحدة ثقافية وإثنية تتسم بقدر من التماسك والتجانس والوحدة . ولكن ، مع انتشار اليهود في أرجاء العالم في مجتمعات مختلفة ، لكلٍّ تقاليدها الحضارية والدينية ، وتواريخها ، تَفاعَل اليهود مع هذه التقاليد والتواريخ وخضعوا لمؤثراتها ، شأنهم شأن كل الأقليات والبشر . وقد بدأت عملية الانتشار مع التهجير البابلي ، ولكن وتيرتها تصاعدت مع ظهور الحضارة الهيلينية والرومانية . وقد اكتملت عملية الانتشار والتَفرُّق مع هدم الهيكل في عام ٧٠م على يد تيتوس، وكذلك سقوط العبادة القربانية المركزية وأية سلطة دينية مركزية يهودية . وقد تَحوَّل اليهود نتيجة هذه العملية إلى جماعات مختلفة متفرقة غير متجانسة . ونحن نفضل استخدام مصطلح «جماعات يهودية» على مصطلح «يهود» لأن المصطلح الأخير يؤكد التَماسُك والتَجانُس والوحدة حيث لا تَماسُك ولا تَجانُس ولا وحدة .

وإذا حاول الدارس أن يدرس أعضاء الجماعات اليهودية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين كيهود وحسب فإنه سيحاول دون شك أن يرصد عناصر الوحدة بين هؤلاء اليهود . ومع أن هناك عناصر مشتركة قد تجمع بين هذه الجماعات ، إلا أنها ليست في أهمية العناصر غير المشتركة من الناحية التفسيرية والتصنيفية . ولعل الاستعراض التاريخي الجغرافي للجماعات اليهودية يوضح هذه النقطة ، فقد كانت الجماعات اليهودية في كل أنحاء العالم ، في القرنين العاشر والحادي عشر ، تُوجَد داخل عدة تشكيلات حضارية سياسية مستقلة وسمت كل جماعة بميسمها . وقد أصبح أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا أقنان بلاط وتجاراً ومرابين داخل النظام الإقطاعي ، بل وبدأوا يواجهون مشكلة ظهور طبقات تجارية ومالية محلية . أما يهود العالم الإسلامي فلم يتسموا بتَميُّز وظيفي حاد بل وشاركوا في الثورة التجارية التي ظهرت آنذاك ، وكانوا من الناحية الثقافية جزءاً لا يتجزأ من محيطهم الحضاري كما هو واضح في العصر الذهبي في الأندلس . وقد كانت أعداد من يهود فارس (وربما الهند) قد بدأت تستقر في الصين لأسباب تتصل بالحضارة الصينية (وهو تَزايُد الحاجة إلى المنسوجات الحريرية) . وكان يهود الخزر قد تبعثرت دولتهم بسبب صعود القوة السلافية الروسية وتَنصُّرها ، ولكنهم كانوا يشاركون في تأسيس المجر . وكان يهود الفلاشاه قد أصبحوا جزءاً من التشكيل الحضاري الأفريقي في إثيوبيا ، وكونوا قبيلتهم بل ومملكتهم وانخرطوا في الحروب القَبَلية المختلفة . ولا يمكن لإطار واحد أن يشمل كل هذه الظواهر . ولفهم سلوك هذه الجماعات وحركتها ومصيرها ، لابد من العودة إلى التشكيلات الحضارية التاريخية التي كانوا يُوجَدون فيها ، لا إلى جوهر يهودي يتجاوز الزمان والمكان ويشكل وحدتها الجوهرية أو إلى تاريخ يهودي يتطور حسب قوانينه الداخلية ويتطور اليهود في إطاره منعزلين عن تواريخ الجماعات التي يعيشون بين ظهرانيها .

وقد ازداد عدم التجانس بين الجماعات اليهودية بعد القرن الحادي عشر على المستويين الديني والاجتماعي ، حيث تَعمَّق التوحيد في النسق الديني اليهودي في العالم الإسلامي ، بينما تَعمَّق العنصر الحلولي الكموني في اليهودية الغربية وظهرت عناصر الثنوية والشرك مع هيمنة التراث القبَّالي . بينما كان يهود العالم الإسلامي يزدادون اندماجاً وتَحضُّراً ، كان يهود العالم الغربي يزدادون انعزالاً وتَخلُّفاً . ولكن ، مع الصعود الاقتصادي للعالم الغربي بعد الثورة التجارية والصناعية والرأسمالية ، نجد أن يهود الغرب مارسوا تحولاً عميقاً ولعبوا دوراً في هذه العملية التي لم تترك أي أثر في يهود الدولة العثمانية أو يهود كوشين في الهند على سبيل المثال .

وفي العصر الحديث ، نجد أن اليهود الأرثوذكس يُكفِّرون الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين . ويوجد الآن فريق من اليهود المسيحيين الذين يؤمنون بالمسيح باعتباره الماشيَّح دون الاعتراف

بألوهيته . كما أن غالبية يهود العالم إما ملحدون أو لاأدريون أو غير مكترثين بالدين . ويهود الفلاشاه لا يعرفون التلمود ويتعبدون بالجعزية ، مع أن التلمود يُشكل العمود الفقري لليهودية الحاخامية (أي اليهودية الأرثوذكسية) .

وكل جماعة يهودية لها مشاكلها الخاصة النابعة من وجودها داخل بناء تاريخي مستقل ، فيهود الفلاشاه يواجهون مشكلة المجاعات التي تجتاح أفريقيا في الآونة الأخيرة كما بدأوا يواجهون مشكلة التحديث في إسرائيل . أما يهود اليمن ، فهم يواجهون مشكلة عدم توافر المعلمين الدينيين والكتب الدينية بسبب انقطاع صلتهم بمراكز الدراسات الحاخامية في الغرب ، كما يواجهون مشكلة أن اليمن بلد عربي في حالة صراع سياسي حاد مع دولة تُسمِّي نفسها «الدولة اليهودية» . وهم يعانون أيضاً من التَدخُّل الدائم من المنظمة الصهيونية التي تحاول إنقاذهم شاءوا أم أبوا . واليهود القرّاءون في إسرائيل يواجهون مشكلة وجودهم في مجتمع تسيطر عليه المؤسسة الحاخامية التي لا يعترفون بها ، وكذلك مشكلة تَزايُد معدلات العلمنة . أما القرّاءون في الاتحاد السوفيتي ، فيواجهون مشاكل مختلفة . ومشاكل كلا الفريقين تختلف عن تلك التي يواجهها اليهود القرّاءون في مصر أو في الولايات المتحدة . واليهود السامريون في نابلس يواجهون مشاكل فريدة باعتبارهم أصغر أقلية دينية في العالم لا تزال محتفظة بعبادتها القربانية المرتبطة بجبل جريزيم . ومشاكل يهود جورجيا تختلف عن مشاكل يهود الكرمشاكي أو يهود أوكرانيا أو يهود بيروبيجان . ويواجه يهود الولايات المتحدة مشاكل من بينها الخوف من الاندماج (الهولوكوست الصامت) نتيجة تقبل المجتمع لهم ونجاحهم فيه . وهذا التقبل والنجاح يسبب لهم مشاكل مع السود ، فالسود متركزون في المدن نفسها التي يوجد فيها اليهود وعادةً ما يشغلون «الجيتو» الذي كان يشغله المهاجرون اليهود قبل أن يحققوا الحراك الاجتماعي وينتقلوا إما إلى جيرة أفضل أو إلى الضواحي . فحي هارلم الشهير كان حياً يهودياً يجعل من « المالك اليهودي » ممثلاً للرأسمالية الأمريكية المستغلة أمام الأمريكيين السود ، الأمر الذي يسبب كثيراً من المشاكل للجماعة اليهودية ككل . كما أن تَزايُد وعي السود بأنفسهم ، وبقوتهم ورغبتهم في المشاركة في السلطة ، يجعل احتكاكهم باليهود أكثر حدة بسبب تَركُّز الجماعتين في الأماكن نفسها . ويواجه يهود هولندا مشكلة عدم الامتزاج بين الإشكناز والسفارد حتى أن كل طائفة لها مدارسها . وكلا الفريقين يواجه مشاكل ناجمة عن تَصاعُد معدلات العلمنة في هولندا . ويجابه أعضاء الجماعة اليهودية في فرنسا مشاكل الانقسام ، فالمهاجرون اليهود من البلاد العربية لا يتزوجون في كثير من الأحوال من يهود فرنسا الأصليين ، وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت تقل .

كما نجد أن الجماعات اليهودية لا تعترف أحياناً الواحدة بالأخرى . وتتضح هذه الظاهرة بحدة في أمريكا اللاتينية حيث حافظت كل جماعة يهودية على هويتها وبالتالي كان الصدام حاداً بين الجماعات ، خصوصاً بين السفارد والإشكناز . وفي سويسرا ، يجابه اليهود مشكلة أن الذبح الشرعي محظور منذ أمد طويل مع أن سويسرا هي مقر كثير من المنظمات اليهودية . وفي إنجلترا ، يجابه الجيل اليهودي القديم مشكلة انصراف اليهود عن التعليم اليهودي والتقاليد اليهودية ، فخمسة في المائة فقط من الأطفال اليهود يدخلون مدارس يهودية و٧٥٪ يدرسون موضوعات اليهودية في مدارس الأحد و٢٠٪ لا يتلقون أية ثقافة يهودية على الإطلاق . والواقع أن مشكلة التعليم و «الانتماء اليهودي» على وجه التحديد هي مشكلة تواجهها جميع الجماعات اليهودية في الغرب ، وسببها ازدياد علمانية هذه المجتمعات وانتشار العقلية الاستهلاكية التي لا تهتم كثيراً بالتاريخ أو التراث أو الهوية . ومما يزيد المشكلة حدة أن الجيل الجديد يدخل طرفاً في زيجات مُختلَطة ، الأمر الذي لابد أن يؤدي إلى تَناقُص عدد أعضاء الجماعة . كما أن أعضاء الأجيال الجديدة يحجمون عن الزواج بشكل عام ، وإن تزوجوا فهم يُحجمون عن الإنجاب . ومن الملاحَظ أن متوسط أعمار اليهود في كثير من بلدان الغرب أعلى من متوسط العمر في هذه البلدان بسبب اختفاء العناصر الشابة . وكل هذا يهدد بموت الشعب اليهودي وهي مشكلة لا يعاني منها اليهود الشرقيون بعد .

إن مشاكل الجماعات اليهودية متنوعة ونابعة من وجودها في مجتمعات مختلفة ذات مستويات مختلفة من التقدم والتخلف . ولكن استخدام اصطلاح «يهود» على إطلاقه لن يساعد كثيراً على التحليل والتفسير . ومن هنا ، فإننا نرى أن كلاً من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية هما ، في واقع الأمر ، عقائد وهويات تأخذ شكل تركيب تراكمي جيولوجي يحوي داخله طبقات غير متجانسة تعيش بعضها فوق بعض . (وإذا ما أطلقنا على هذا اسم «يهود» و«يهودية» لكان في الأمر تعسف وليّ لعنق الواقع لا يساعدان كثيراً على فهم الظاهرة) . ولذا ، فنحن نشير إلى العقائد وإلى الجماعات اليهودية ، بحيث تؤكد كلمة «جماعات» على استقلال كل جماعة وعلى خضوعها لحركيات تاريخية وحضارية مختلفة .

كما أن لفظ «جماعة» أفضل من لفظ «طائفة» أو «أقلية» . فلفظ

«طائفة» يشير عادةً إلى طائفة دينية ، بينما يؤكد لفظ «أقلية» الجانب الكمي للظاهرة . أما كلمة «جماعة» ، فهي وإن كانت لا تؤكد الجانب الكمي (أي عدد اليهود كأقلية) ، إلا أنها لا تستبعده تماماً . كما تتضمن فكرة أنها جزء من كل أكبر ، كما أن كلمة «جماعة» ، وهذا هو الأهم ، تؤكد أن ثمة عناصر تُميِّز هذه المجموعة البشرية وأن هذه العناصر ليست دينية وحسب ، فقد تكون حضارية أو ثقافية أو وظيفية . ونحن حين نستخدم اصطلاح «جماعة وظيفية» ، فإننا نربط على مستوى المصطلح بين «الجماعة اليهودية» و«الجماعة الوظيفية» . ومما يجدر ذكره أن العرب ، في شبه جزيرة أيبريا ، استخدموا لفظ «الجماعة» للإشارة إلى اليهود ، وقد استبقاه المسيحيون من بعدهم . والمقدرة التفسيرية لمصطلح «الجماعة اليهودية» أعلى بكثير من مصطلح «اليهود» الذي يجعل الباحث يواجه اليهود ككتلة متماسكة لها قوانينها الخاصة المقصورة عليها ولها منطقها الداخلي . أما مصطلح «أعضاء الجماعات اليهودية» ، فيؤكد عدم التجانس وعلى استقلال كل جماعة عن الأخرى ، ويؤكد أن هذه الجماعات قد تكون خاضعة لقوانينها الخاصة ومنطقها الداخلي (من حيث هي يهودية) ولكنها مع ذلك خاضعة أيضاً لقانون أكبر ومنطق أشمل من حيث هي «جماعات» تشكل جزءاً من كل ، فهو إذن مصطلح يعيِّن الظاهرة باعتبارها ظاهرة يهودية ولكنه لا يجعل هذا الأمر النقطة المرجعية الأساسية بل مجرد نقطة فرعية ، إذ تظل الحقيقة الأساسية المرجعية أنها جماعة بشرية في مجتمع الأغلبية ، وأنها جزء من كل تاريخي حضاري أكبر تستمد منه هويتها وتَرَقّي حركيتها برقيه وتنحدر وتهوى بانحداره وسقوطه ، شأنها في هذا شأن الجماعات المماثلة .

ومن المفيد أن نؤكد أن مصطلحاً مثل «الجماعات اليهودية في مصر» قد يكون مضللاً رغم أنه يشير إلى يهود مصر ، فلابد من تأكيد البُعد الزمني إلى جانب البُعد الجغرافي . والواقع أن يهود مصر ، على سبيل المثال ، يبدأ تاريخهم منذ أن كانوا في مصر عبيداً عبرانيين يتحدثون لغة المصريين القدماء أو ربما لغة أخرى لا نعرف ما هي (ثم حينما تسللوا إلى كنعان اكتسبوا لسان كنعان) . وكانت حامية إلفنتاين العبرانية ، في عهد الأسرة ٢٦ ، تتحدث العبرية والآرامية ، وتتعبد حسب صيغة وثنية يهودية إذ كانوا يعبدون يهوه وآلهة أخرى . ثم نجد أن يهود مصر راحوا يتأغرقون بعد ذلك ويتخذون من اليونانية لغةً لهم ، كما اكتسبت عبادتهم بُعداً هيلينياً . وأخيراً ، بعد الفتح الإسلامي ، استعرب يهود مصر وأصبحت يهوديتهم أكثر توحيدية . وفي العصر الحديث ، تم علمنتهم وتغريبهم . إن هذه الجماعات المختلفة إثنياً ودينياً يُطلَق عليها جميعاً «يهود مصر» كما لو كانت كُلاً واحداً مستمراً بلا انقطاع ، مع أن من الواضح أن ثمة انقطاعات عديدة .

ومن أكثر الأمثلة دراميةً وطرافة يهود القرم ويهود شبه جزيرة تامان المجاورة لها . ويعود تاريخ استقرار اليهود في هذا المكان إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، حينما استجلب مثراديتيس الأكبر مستوطنين يهوداً من آسيا الصغرى ووطنهم ذلك الجزء من مملكته (حول مضيق البوسفور) . ومن المؤكد أنه ، في القرن الأول الميلادي، كانت توجد مستوطنات من اليهود المتأغرقين في المملكة البوسفورية . ولذا ، كانت شواهد قبورهم تُكتَب بكل من اليونانية والعبرية ، كما كان الحال في مصر بعد تأغرقهم . وهناك وثائق تدل على وجود جماعة استيطانية قتالية من عَبَدة الإله الأعظم . وقد حطمت قبائل الهن هذه المملكة في عام ٣٧٠ مما ساهم في نَزْع الصبغة الإغريقية عن الجماعة اليهودية . ثم غزت الإمبراطورية البيزنطية هذه المنطقة في القرن السادس ، ولابد أن هوية اليهود في هذه المنطقة قد تَغيَّرت بتَغيُّر التشكيل الحضاري الذي ساد فيها . وفيما بعد ، غزت قبائل الخَزَر شبه جزيرة القرم في منتصف القرن السابع ، وهو ما أدَّى إلى دخولها في فلك إمبراطورية الخَزَر فتترَّك اليهود فيها وتهوَّدت النخبة الحاكمة . وبعد سقوط دولة الخَزَر ، التي اختفى آخر أثر لها في القرم في القرن الحادي عشر ، اكتسح التتار شبه الجزيرة عام ١٢٢٧ . وقد اندمج اليهود في التتار أيضاً وتَبنَّوا لغتهم وأزياءهم . وهؤلاء هم أسلاف يهود الكرمشاكي الذين انتقلت بقاياهم مؤخراً من الاتحاد السوفيتي إلى الولايات المتحدة . وتحت حكم التتار ، بدأ القرّاءون يدخلون القرم . وقد قامت مدينة جنوة بتأسيس بعض مستعمرات تجارية على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة في منتصف القرن الرابع عشر . ويبدو أن بعض أعضاء الجماعة اليهودية اكتسبوا الثقافة الإيطالية أو انضم إليهم يهود من إيطاليا . ونحن نعرف أن الجماعة اليهودية في تامان كان يرأسها (عام ١٤١٩) يهودي إيطالي يُدعَى سيمون دي جويزولفي .

ومع سقوط القسطنطينية عام ١٥٤٣ ، أصبحت القرم تابعة للدولة العثمانية . ولابد أن هذا ترك أيضاً أثره الثقافي في اليهود . ثم ضمت روسيا القرم في عام ١٧٨٣ ، وبدأت هجرة العناصر الإشكنازية ، كما بدأ تحديث يهود القرم .

ورغم كل هذه التحولات اللغوية والحضارية ، يُشار لهم باسم «يهود القرم» بكل ما ينطوي عليه المصطلح من استمرار وتَجانُس وعدم انقطاع حيث لا استمرار ولا تَجانُس ، وإن وُجدت عناصر

استمرار فإنها لا تكون في أهمية عناصر الانقطاع وعدم الاستمرار . ولذا ، نقترح أن نقول «يهود القرم في العصر الخزري» و«يهود مصر في العصر البطلمي» وهكذا .

وأخيراً ، يجب ملاحظة أن إحدى الدول قد تضم جماعة يهودية واحدة متجانسة حضارياً و تضم دولة أخرى عدة جماعات . فالجماعة اليهودية في إنجلترا ، مثلاً ، جماعة واحدة يتصف معظم أعضائها ببعض السمات الأساسية ، وغالبيتهم الساحقة يتحدثون الإنجليزية . والأمر نفسه ينطبق على يهود الولايات المتحدة ، حيث تُوجَد جماعة يهودية رئيسة يتحدث أعضاؤها الإنجليزية وجماعات أخرى صغيرة للغاية مهملة إحصائياً ، خصوصاً أن أعضاءها في طريقهم إلى الاندماج والاختفاء . هذا على عكس يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، فقد كانت أغلبيتهم الساحقة من يهود اليديشية الإشكناز الذين اصطبغوا بالصبغة الروسية ، ولكن كانت هناك جماعات أخرى (تُشكل حوالي ١٥٪) لها هويات أخرى . والشيء نفسه ينطبق على أمريكا اللاتينية ، فما نقوله عن الجماعة اليهودية في إنجلترا والولايات المتحدة ، وكذلك ما يُقال عن الجماعات اليهودية في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، يَصدُق على الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية .

طائفـــــــــة

Community; Taifa

كان يُشار لكل جماعة يهودية بأنها «طائفة» ، فكان يُشار إلى «طائفة اليهود» وإلى «الطائفتين» (القرّائين والحاخاميين) وإلى «رئيس الطائفة اليهودية» . ويقوم بعض الدارسين العرب في الوقت الحاضر باستخدام هذا المصطلح . وقد آثرنا استخدام «جماعة» لأنه أكثر عمومية من طائفة ، فكلمة «طائفة» مرتبطة بالتشكيل الحضاري والسياسي الإسلامي وكان المطلوب هو التوصل إلى مصطلح أكثر عمومية ليضم كلاً من طوائف اليهود في العالم الإسلامي والجماعات اليهودية في بقية العالم ومن هنا استقر اختيارنا على هذا المصطلح . هذا وقد استُخدم لفظ «الجماعة» للإشارة إلى الجماعة اليهودية في كلٍّ من إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية .

عـبري

Hebrew

«عبري» هي أقدم التسميات التي تُطلَق على أعضاء الجماعات اليهودية ، ويُقال أيضاً «عبراني» ، وجمعها «عبرانيون» . وهناك تسمية أخرى هي «بنو يسرائيل» أو «جماعة يسرائيل» أو «يسرائيلي» ، ثم يأتي بعد ذلك لفظ «يهودي» للتعبير عن المسمى نفسه .

والكلمة ذات معان ومدلولات عديدة ، فيرى بعض الكُتّاب أن الكلمة ترادف كلمة «عبيرو» التي ترد في المدونات المصرية ، و«خابيرو» التي ترد في المدونات الأكادية . ولكن البعض الآخر يُشكك في هذا الاشتقاق باعتبار أن كلمة «عبري» صفة تدل على النسب أو الانتماء لوجود ياء النسب في آخرها ، في حين أن كلمة «خابيرو» أو «حبيرو» لا تعني غير المزامَلة والمرافقة .

ومن الآراء المطروحة أيضاً أن كلمة «عبري» مشتقة من «العبور» من عبارة «عبر النهر» : «فهرب هو وكل ما كان له وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد» (تكوين ٣١/ ٢١) . ويرى البعض أنه حين يقول السامريون «عبر النهر» دون ذكر اسم هذا النهر فإنهم يعنون نهر الفرات ، والإشارة هنا إلى عبور يعقوب الفرات هارباً من أصهاره . ويرى بعض الباحثين أن عبور يعقوب النهر هو أساس اسم العبرانيين ، حيث ينتسبون إلى من قام بهذا العبور ، أي يعقوب الذي سُمي «يسرائيل» .

وربما كان الاسم إشارة إلى جماعة قَبَلية إثنية كبيرة . ويظهر هذا الاستعمال في العلاقة بين المصطلح «عبري» واسم «عابر» حفيد سام (تكوين ١٠/ ٢٤_٢٥ ، ١١/ ١٥_١٦) الذي تنتسب إليه مجموعة كبيرة من الأنساب . ولكن أول شخص يُشار إليه بأنه عبري هو إبراهيم (تكوين ١٤ ، ١٣) في سياق لا يدل على أن الإشارة إشارة إثنية ، وإنما إشارة تدل على الوضع الاجتماعي باعتباره غريباً أو أجنبياً ليست له أية حقوق . وتشير كلمة «عبري» في التوراة إلى العبرانيين أيضاً باعتبارهم غرباء . والعبري «غريب في منزلة الخادم» ويدل هذا على أن كلمة «عبري» هنا تشير إلى غير اليهودي في حكم التوراة ، ويظهر هذا في الأحكام الخاصة بشراء عبد عبري (خروج ٢١/ ٢) .

وثمة رأي يذهب إلى أن العبرانيين كانوا غرباء في مصر مدة طويلة ، وبالتالي ارتبط الاسم بهم ، وتَحوَّل من صفة لوضع اجتماعي إلى وصف لجماعة إثنية . ولذا ، فإن ثمة إشارات إلى يوسف على أنه غلام عبراني (تكوين ٤١/ ١٢) ، أو رجل عبراني (تكوين ٣٩/ ١٤) . كما أن ثمة إشارة أيضاً إلى النساء العبرانيات (خروج ١/ ١٩) . ورغم أن الإشارة ذات طابع إثني واضح ، فإنها لم تفقد بعدها الاجتماعي تماماً . وفي سفر التكوين نجد إشارة إلى يوسف كعبد عبراني (٣٩/ ١٨) وهي إشارة ذات دلالة تخلط العنصرين الإثني والطبقي .

وترد كلمة «عبري» أحياناً مرادفة لكلمة «يهودي» على نحو ما جاء في سفر إرميا (٣٤/ ٩) : «أن يُطلَق كل واحد عبده وكل واحد أمته ، العبراني والعبرانية ، حُرَّين حتى لا يستعبدهما ، أي أخويه اليهوديين ، أحد» . كما كانت الكلمة مرادفة لكلمة «يسرائيلي» (خروج ٩/ ١ ـ ٤) : «هكذا يقول الرب إله العبرانيين . . . ويميِّز الرب بين مواشي يسرائيل ومواشي المصريين» . وفي صمويل الأول (٩/٤) ، يقول أحد الفلستيين : «تشددوا . . . وكونوا رجالاً لئلا تُستعبَدوا للعبرانيين» وهو يتحدث عن جماعة يسرائيل .

ويُفضل بعض الصهاينة العلمانيين أن يستخدموا كلمة «عبري» أو «عبراني» على استخدام كلمة «يسرائيلي» أو «يهودي» باعتبار أن الكلمة تشير إلى العبرانيين قبل اعتناقهم اليهودية ، أي أن مصطلح «عبري» يؤكد الجانب العرْقي على حساب الجانب الديني فيما يُسمَّى «القومية اليهودية» . بل إن بعض أصحاب الاتجاهات الإصلاحية والاندماجية ، في مرحلة من المراحل ، كانوا يفضلون كلمة «عبري» على كلمة «يهودي» بسبب الإيحاءات القدحية للكلمة الأخيرة . وقد ظهرت في هذه الآونة كلية الاتحاد العبري Hebrew Union College وجماعة هياس (وهي اختصار Hebrew Immigration Aid Society ، أي الجمعية العبرية لمساعدة المهاجرين) . كما أنهم في إسرائيل ، يشيرون عادةً إلى اللغة العبرية والأدب العبري والصحافة العبرية ، ولكننا نفضل استخدام «عبراني» للإشارة إلى اليهود القدامى من حيث هم تَجمُّع بشري حضاري ذو خصائص متميِّزة . أما لفظ «عبري» ، فنقصر استخدامه على الناحية اللغوية والأدبية ، كما نستخدم كلمة «جماعة يسرائيل» (أو «يسرائيلي») للإشارة إلى العبرانيين القدامى من حيث هم تَجمُّع ديني ، تمييزاً لهم عن الصهاينة المستوطنين في فلسطين ، وعن أبنائهم الذين يمكن أن نطلق عليهم مصطلح «إسرائيليين» ، على أن تظل كلمة «يهودي» مصطلحاً يشير إلى المؤمنين باليهودية ، بغض النظر عن انتمائهم العرْقي أو الإثني أو الحضاري ، ويشير إلى كل من يطلق على نفسه هذه الصفة .

ونحن في هذا لا نختلف كثيراً عن الاستعمال الشائع للكلمة . ويقول الدكتور ظاظا : «بعد العودة من بابل في القرن الخامس قبل الميلاد ، اقتصر استخدام مصطلح «عبرانيين» على الإشارة إلى الرعيل الأول من اليهود حتى عصر التهجير البابلي ، واستُخدمت كلمة «يهود» أو «يسرائيلي» للإشارة إلى الأجيال التي أتت بعد ذلك ، والتي لم تَعُد تستخدم اللغة العبرية وإنما تتحدث الآرامية وتكتب بها» .

ولعل الدقة الكاملة كانت تتطلب أن نستخدم اصطلاح «عبراني يهودي» للإشارة للعبرانيين في الفترة ما بعد العودة إلى بابل (٥٣٨ ق . م) حتى سقوط الهيكل (٧٠م) ، فإبان هذه الفترة بدأت ملامح النسق الديني اليهودي كما نعرفه في التحدد مع بداية الفترة واكتملت مع نهايتها . ومع هذا ، كانت العبادة القربانية المركزية لا تزال الإطار الديني المرجعي الأساسي للعبرانيين اليهود . ولكننا ، مع هذا ، نستخدم كلمة «يهودي» وحدها للإشارة إلى العبرانيين اليهود من قبيل التبسيط ، وحتى لا يصبح هيكل المصطلحات مركباً لدرجة يصعب معها استخدامه . ويستطيع القارئ أن يعود إلى مدخل «الهويات اليهودية (تاريخ)» .

يسرائيل

Israel; Yisrael

«يسرائيل» كلمة عبرية قديمة غامضة المعنى ، يمكن تقسيمها إلى «يسرا» ، أي الذي يحترب أو يصارع ، و«إيل» وهو الأصل السامي لكلمة «إله» . والكلمة تعني حرفياً «الذي يصارع الإله» أو «جندي الإله إيل» ، وفي كل التفسيرات معنيان أساسيان هما معنى الصراع والحرب ومعنى القداسة .

ومما يجدر ذكره أن كلمة «يسرائيل» وردت في الكتابات المصرية في عهد مرنبتاح في عام ١٢٣٠ ق . م بوصفها اسماً لإحدى المدن ، أو ربما لبطن من بطون القبائل في جنوبي كنعان . ولعل هذا يدل على أن الكلمة كنعانية الأصل ، وأنها كانت ذات ارتباطات مقدَّسة بين سكان المنطقة آنئذ . وهناك نظرية تذهب إلى أنها كانت اسم بطن من بطون القبائل العبرانية .

وقد اكتسب يعقوب هذا الاسم بعد أن صارع الإله في حادثة غامضة لا يُفهَم مكنونها أو دلالتها «فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه . وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك إن لم تباركني . فقال ما اسمك ، فقال يعقوب . فقال لا يُدعَى اسمك فيما بعد يعقوب بل يسرائيل ، لأنك جاهدت مع الإله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك . فقال لماذا تسأل عن اسمي ، وباركه هناك» (تكوين ٣٢/ ٢٥ ـ ٢٩) . والقصة متأثرة بعناصر الملحمة الأكادية ، حيث يكتسب البطل بصراعه المادي مع الإله صفات تجعله فوق البشر أو نصف إله ، وتكسبه بانتصاره على الإله حق نصرة الإله له دائماً في علاقاته مع الآخرين . وهذا الصراع مع الإله يشبه وقائع مماثلة في الأساطير اليونانية .

وكلمة «يسرائيل» تشير أيضاً إلى نسل يعقوب ، ثم أصبحت تشير إلى المملكة الشمالية «يسرائيل» قبل التهجير الآشوري . ثم استُخدمت الكلمة للإشارة إلى سكان المملكة الجنوبية «يهودا» بعد سقوط مملكة يسرائيل إلى أن حلت كلمة «يهودي» محلها .

وللكلمة في دلالتها الاصطلاحية معنيان أساسيان : فهي تعني اليهود بوصفهم شعباً مقدَّساً ، وتعني فلسطين بوصفها أرضاً مقدَّسة . وهي ترد مضافة إلى كلمات أخرى ، مثل : «عام يسرائيل» أي «شعب إسرائيل» و«بنو يسرائيل» أي «بنو إسرائيل» ، و«بيت يسرائيل» أي «بيت إسرائيل» . و«كنيست يسرائيل» أي «مجمع إسرائيل» أو «جماعة يسرائيل» . وقد بُعثت كلمة «يسرائيلي» مرة أخرى ، في عصر الانعتاق ، في القرن التاسع عشر الميلادي ، كما بعثت أيضاً كلمة «عبراني» لأن كلمة «يهودي» كانت تحمل إيحاءات سلبية .

وفي العصر الحديث ، تُستخدَم عبارة «مدينة إسرائيل» العبرية للإشارة إلى الدولة الصهيونية وكلمة «إسرائيليين» للإشارة إلى أعضاء التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين . ولكننا ، إذا أردنا التفرقة ، فمن المستحسن أن نطلق كلمة «إسرائيليين» على سكان التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين وحدهم ، وأن نسمِّي اليهود القدامى ، من حيث هم تَجمع بشري له خصائص إثنية مُتميِّزة ، «عبرانيين» (ومفردها عبراني) وأن نسميهم «جماعة يسرائيل» (وأحياناً «اليسرائيليين») لنصفهم من حيث هم جماعة دينية ، على أن تظل كلمة «يهودي» مصطلحاً يشير إلى كل من يعتنق اليهودية وهي العقيدة التي اكتسبت ملامحها الرئيسية في القرن الأول قبل الميلاد . مصطلح «عبري» فيَصلُح في الناحيتين اللغوية والأدبية وحسب .

بنو إسرائيل

Banu Israel

«بنو إسرائيل» عبارة ترد في القرآن الكريم (وفي كثير من الكتب الفقهية الإسلامية) للإشارة إلى اليهود . كما تُوجَد كلمات أخرى ، مثل : «أهل الكتاب» و«الكتابيون» و«أهل الذمة» و«الذميون» لتشير إلى كل من اليهود والمسيحيين . وقد عُرِّف النطاق الدلالي لكلمة «بني إسرائيل» إسلامياً بشكل واضح ومحدد ، فهي تشير إلى جماعة محددة الأوصاف يؤمن أصحابها بالإله والتوراة . ومن ثم ، فإن هذا المصطلح لا ينطبق على غالبية يهود العالم في الوقت الحالي . لكن هؤلاء هم موضع الدراسة في هذه الموسوعة ، ومن ثم فإننا لا نستخدم هذه العبارة . وترد عبارة «بني إسرائيل» للإشارة إلى الجماعة اليهودية التي تُوجَد في الهند وتحمل هذا الاسم .

شعب يسرائيل

The People of Yisrael

«شعب يسرائيل» هو أحد الأسماء التي تُطلَق على العبرانيين من حيث هم جماعة دينية قديمة تسبق تَبلوُر اليهودية ، وهو مرادف للكلمات «بني يسرائيل» و«اليسرائيليين» ، وكذلك «كنيست يسرائيل» أي «جماعة يسرائيل» .

جماعة يسرائيل

Israel; Yisrael

«جماعة يسرائيل» مصطلح قمنا باشتقاقه من كلمة «يسرائيل» ، وهي كلمة من المعجم الديني اليهودي وتعني «الذي يصارع الإله» . ونحن نستخدم الكلمة لتشير إلى العبرانيين القدامى من حيث هم جماعة دينية مقابل العبرانيين القدامى كجماعة عرْقية أو إثنية . ومن ثم نشير إلى عقيدتهم باعتبارها «عبادة يسرائيل القربانية المركزية» لتميزها عن اليهودية التي هي ثمرة تطورات مختلفة دخلت على هذه العبادة في بابل وبعد العودة منها وخلَّصتها من جوانبها الوثنية . كما نَستخدم كلمة «يسرائيل» للإشارة إلى مملكة يسرائيل الشمالية العبرانية (مقابل مملكة يهودا الجنوبية) لتمييزها عن دولة إسرائيل الحديثة . أما المستوطنون اليهود من مواطني الدولة الصهيونية ، فنحن نشير إليهم على أنهم إسرائيليون .

ونحن نفعل ذلك حتى لا نخلط بين النسق الديني اليهودي والواقع الاستيطاني في فلسطين المحتلة ، ولا نخلط بين العبرانيين القدامى والمستوطنين الصهاينة ، وهو خلط تحرص كلٌّ من الإمبريالية الغربية والمؤسسة الصهيونية عليه باستخدام دال واحد يشير إلى مدلولين مختلفين للإيهام بوجود استمرار وتَرادُف بين النسق الديني والواقع الاستيطاني ، وبالتالي إكساب عملية الاغتصاب الصهيوني لفلسطين شرعية بل وقداسة ، وكذلك تصوير الهجوم على المستوطنين الصهاينة على أنه معاداة لليهود ونوع من التعصب الديني!

ونستخدم كلمة «يهودي» للإشارة إلى أعضاء الجماعات اليهودية بعد صدور مرسوم قورش بعودة المهجَّرين إلى بابل . أما كلمة «صهيوني» فهي تشير إلى كل من يؤمن بالعقيدة الصهيونية بغض النظر عن انتمائه الديني .

عَم هآرتس

Am Haaretz

«عَم هآرتس» عبارة عبرية تعني حرفياً «شعب الأرض» ، أي «أبناء الأرض» . وقد وردت هذه العبارة في العهد القديم بمعنيين ، الأول للإشارة إلى سكان فلسطين الأصليين مثل الحيثيين الذين اشترى منهم إبراهيم مغارة مكفيلة (تكوين ٢٣) مقابل العبرانيين . أما المعنى الثاني ، فيشير إلى السامريين والأقوام الأخرى التي كانت تسكن فلسطين وعارضت استيطان العبرانيين العائدين من بابل (عزرا ٤) .

وكانت العبارة تُستخدَم كذلك للإشارة إلى عامة العبرانيين مقابل الأسرة المالكة والنبلاء والطبقة العسكرية والكهنة والأنبياء ، وذلك قبل التهجير البابلي . ولكن بعد العودة من بابل ، حيث صارت النخبة الحاكمة هي الكهنة أساساً ، أصبحت العبارة تشير إلى الشعب مقابل الكهنة الأثرياء . وقد أخذت الحواجز بين الفريقين في التحدّد والتبلور ، فكانت طبقة الكهنة تقيم جميع شعائر الطهارة الخاصة بالعبادة القربانية ، كما كانت تتلقى العشور من المصلين ولا تأكل طعاماً إلا إذا دُفعت ضريبة العشور عنه . وقد قام الفريسيون والفرق اليهودية الأخرى ، مثل الأسينيين ، بإقامة شعائر الطهارة رغم أنهم لم يكونوا من طبقة الكهنة ، وكانوا أيضاً لا يأكلون من محاصيل لم تُدفَع عنها العشور . وحتى يضمنوا أن يظلوا ضمن النخبة الحاكمة الطاهرة ، كانوا حريصين على الإبقاء على الحواجز الفاصلة بينهم وبين العامة .

ولكن رغم توسيع نطاق النخبة ليضم الفريسيين وغيرهم ، ظلت أعداد كبيرة من اليهود غير قادرة على إقامة شعائر الطهارة بسبب تزمتها وصرامتها ، خصوصاً في المناطق التي ضمها الحشمونيون وهوَّدوا أهلها عنوة (الإيطوريون والأدوميون الذين أصبحوا يهوداً ولكنهم باتوا ينوءون تحت نير هذه الشعائر) . وقد توجهت المسيحية إلى هؤلاء فانضموا إلى صفوفها ، إذ أن الدين الجديد لم يثقل المؤمن بقيود شعائر الطهارة والعبادة القربانية .

ومع هدم الهيكل ، فقدت العبارة معناها القديم حيث اختفت قوانين الطهارة والعبادة القربانية مع اختفاء الهيكل . ومع ظهور المعبد كمركز للعبادة اليهودية ، أصبحت العبارة تفيد معنى قدحياً وتشير إلى اليهودي الذي لا يرتدي تمائم الصلاة (تيفلين) ، ولا الشال (طاليت) ، ولا يضع تمائم الباب (مزوزاه) على منزله ، ولا يعلِّم أولاده التوراة . بل وتشير العبارة إلى العامة الذين لا يتفرغون لدراسة التوراة مقابل النخبة الحاخامية التي تفرغت لها . ويبدو أن الهوة قد اتسعت بين الفريقين حتى أن الحاخام عقيبا ، الذي بدأ دراسته في سن متأخرة ، قال إنه حين كان ضمن عم هآرتس (أي العامة) كان من الممكن أن ينهش لحم أي حاخام يقابله في طريقه . وقد جاء في التلمود أن العالم يجب ألا يتزوج من ابنة أحد من العم هآرتس فهم كريهون وزوجاتهم مثل الديدان وينطبق على بناتهم ما جاء في التوراة " ملعون من يضطجع مع بهيمة " (تثنية ٢٧/ ٢١) . فعبارة عم هآرتس تعني ببساطة «الإنسان الجاهل» ولو أنها ، عند الحسيديين ، كانت تعني «الساذج وطيب القلب» .

وقد استمر التمييز الحاد بين النخبة والعامة من يهود اليديشية ، فهم يميِّزون بين «شيد يدين» ، وهي عبارة يديشية تعني «الرجال الذين يتحلون بالجمال» ، وبين «بروست يدين» ، أي الرجال العاديون ، وهي تكاد تكون مرادفاً يديشياً لعبارة «عم هآرتس» . وفي العصر الحديث ، تُطلَق كلمة «عم هآرتس» أحياناً على اليهود السفارد والشرقيين والفلاشاه .

اليشوف

Yishuv

«يشوف» كلمة عبرية تعني «التَوطُّن» أو «السكَن» ، وهي تشير إلى الجماعات اليهودية التي تستوطن فلسطين لأغراض دينية . ويُستخدَم اصطلاح «اليشوف القديم» للإشارة إلى الجماعات اليهودية التي كانت تعيش على الصدقات التي ترسلها لهم الجماعات اليهودية فيما يُعرَف باسم «حالوقة» . وكان اليشوف القديم يتكون من جماعتين منفصلتين تمام الانفصال : الأولى إشكنازية والأخرى سفاردية ، وكانت كل جماعة تنقسم بدورها إلى أقسام فرعية مختلفة حسب مصدر الصدقة التي تأتي لها (وهذا يذكرنا بعض الشيء بالنظام الحزبي في إسرائيل ونظام تمويله عن طريق مساعدات يهود الدياسبورا ، فحزب حيروت مثلاً يحصل على أكبر قسط من المعونة من اليهود اليمينيين وبالذات في جنوب أفريقيا ، أما حزب الماباي فيموله اليهود الليبراليون في الغرب) .

ولم يكن عند أعضاء اليشوف القديم أية مطامع سياسية لأن الغرض من وجودهم كان دينياً محضاً ، ولذلك كانت علاقاتهم بالعرب طبيعية وطيبة للغاية . وعلى العكس من هذا كان أعضاء اليشوف الجديد (وهو الاصطلاح الذي يطلقه الصهاينة على التجمع الاستيطاني الصهيوني ابتداءً من عام ١٨٨٢) ، إذ كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جماعة «قومية» ذات برنامج سياسي محدَّد يتلخص في إنشاء الوطن اليهودي . ولذلك ، ركزوا جهدهم في

تأسيس أبنية اقتصادية سياسية حضارية منعزلة تمام الانعزال عن العرب (بل وعن أعضاء اليشوف القديم) ، كما كانوا يدورون في إطار مفاهيم انعزالية مثل اقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج . وقد تَسبَّب هذا في حدوث توتر ثم صراع حاد أدَّى إلى نشوب القتال بينهم وبين العرب ، وهذا الصراع هو الذي يُعرَف الآن باسم الصراع العربي الإسرائيلي .

والملاحَظ أن الكتابات الصهيونية تستخدم كلمة «يشوف» لتوحي بأن ثمة استمراراً يهودياً عبر التاريخ ، وأن الوجود اليهودي في فلسطين كان مستمراً ومتصلاً ، وفي الوقت نفسه مستقلاً ومنفصلاً عن تاريخ المنطقة العربية .

يهودي
Jew

كلمة «يهودي» كانت تشير إلى الشخص الذي يعتنق اليهودية ، وقد ظهرت بعد الكلمتين الأخريين «عبراني» و«يسرائيلي» أو عضو «جماعة يسرائيل» . و«يهودي» كلمة عبرية مشتقة من «يهودا» وهو اسم أحد أبناء يعقوب والذي سُمِّيت به إحدى قبائل العبرانيين الاثني عشرة .

والاسم مُشتَق من الأصل السامي القديم «ودي» التي تفيد الاعتراف والإقرار والجزاء مثل كلمة «دية» عند العرب . وقد اكتسبت هذه المادة معنى الإقرار والاعتراف بالجميل . وقد استوحت ليئة زوجة يعقوب اسم ابنها الرابع من هذا المعنى : " هذه المرة أحمد الرب لذلك دعت اسمه يهودا " (تكوين ٢٩/ ٣٥) . فكلمة «يهوه» تعني الرب و«دي» تعني الشكر ومنهما «يهودي» .

وكانت الكلمة ذات دلالة جغرافية تاريخية في بادئ الأمر ، إذ كانت تشير إلى سكان المملكة الجنوبية (يهودا) وحسب ، ولكن دلالتها اتسعت لتشمل اليهود كافة ، خصوصاً بعد انصهار سكان المملكة الشمالية (يسرائيل) بعد التهجير الآشوري ، واختفائهم من مسرح التاريخ ، واستمرار مملكة يهودا قرنين من الزمان .

وهكذا أصبحت كلمة «يهودي» عَلَماً على كل من يعتنق اليهودية في أي زمان ومكان بغض النظر عن انتمائه العرْقي أو الجغرافي . ومن هنا ، فإن فيلون السكندري يهودي ، وموسى بن ميمون العربي يهودي . ولكن المسألة ليست بهذه البساطة ، فكلمة «يهودي» متسعة الدلالة تختلف دلالتها باختلاف الزمان والمكان .

ومع أن الشرع اليهودي قد عرَّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية أو تَهوَّد ، فإن الشرع الإسلامي لم يقبل ، في جميع مراحله التاريخية ، بهذا التعريف العرْقي ، فكان يُعرِّف اليهودي تعريفاً دينياً وحسب ، أي أنه عرَّفه بأنه من يعتنق اليهودية سواء كان من الحاخاميين أو القرّائين أو السامريين . وثمة اختلاف جوهري بين التعريفين ، فأحدهما عقائدي محض والآخر ديني عرْقي ، وبالتالي تنشأ مشكلة من هو اليهودي ، وهل اليهودي هو الذي يعتقد أنه كذلك من منظور يهودي أم أنه اليهودي الذي نسميه نحن كذلك انطلاقاً من عقيدتنا ؟

أما في العالم الغربي ، فقد مرت الكلمة بعدة تطورات دلالية . ففي العالم الهيليني والدولة الرومانية ، كانت كلمة «يهودي» تشير إلى الفرد في الإثنوس أي القوم اليهودي ، وكانت مسألة العقيدة ثانوية . وفي العصور الوسطى الكارولينجية في الغرب ، حتى القرن الحادي عشر الميلادي ، أصبحت كلمة «يهودي» تعني الانتماء إلى الجماعة اليهودية ، كما كانت مرادفة لكلمة «تاجر» . وبعد القرن الحادي عشر الميلادي ، أصبحت كلمة «يهودي» مرادفة لكلمة «مرابي» . ولم تتخلص اللغات الأوربية تماماً من تلك التضمينات التي كانت تُحمِّل كلمة «يهودي» معنى قدحياً ، مثل «بخيل» أو «غير شريف» أو «عبد للمال» وغير ذلك من المعاني التي ارتبطت بأعضاء الجماعات اليهودية ، نظراً لاضطلاعهم بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة التي هي محط كراهية أعضاء المجتمع المضيف . وهذا ما كان يعنيه ماركس حينما تَحدَّث عن انتشار العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في المجتمع بوصفه " تهويد المجتمع " . ويساوي الفكر الاشتراكي الغربي ، خصوصاً كتابات فورييه ، بين اليهودي والمرابي . وفي اللغة الإنجليزية ، ارتبطت الكلمة باسم يهوذا Judas الإسقريوطي الذي باع المسيح بحفنة قطع من الفضة .

ولذا ، أسقط بعض اليهود ، في القرن التاسع عشر الميلادي ، مصطلح «يهودي» واستخدموا مصطلحات مثل «عبراني» و«إسرائيلي» و«موسوي» حتى أصبحت كلها مترادفة . ولكن حدث تَراجُع عن ذلك بعد الحرب العالمية الثانية وأصبح مصطلح «يهودي» أكثر شيوعاً . وكثير من المعاجم الأوربية لا تورد الآن المعاني القدحية لكلمة «يهودي» بل وتوصي بعدم استخدامها . ويُلاحَظ أن كلمة «يهودي» بدأت ، منذ القرن التاسع عشر الميلادي ، تحمل إيحاءات بالقداسة مع بَعْث أسطورة اليهودي التائه وإعطائها مضموناً إيجابياً .

ومع ظهور حركة التنوير وضعف اليهودية الحاخامية ، ترك كثير من اليهود عقيدتهم الدينية واستمروا في تسمية أنفسهم «يهوداً» ، وهذا ما يُطلَق عليه «اليهودي غير اليهودي» . وبين هؤلاء نجد «اليهودي الملحد» و«اليهودي العلماني» و«اليهودي الإثني» ممن

نطلق عليهم نحن «اليهود الجدد» . وغني عن القول أنه حينما كان مصطلح «يهودي» يُستخدَم للإشارة إلى هؤلاء ، فإن محيطه الدلالي كان يختلف تماماً عن محيطه الدلالي حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث كان الانتماء اليهودي يعني الإيمان بالعقيدة اليهودية . أما هؤلاء ، فإنهم لا يتبعون تعاليم دينهم بل ويرفضها بعضهم تماماً ويُسمي نفسه يهودياً استناداً إلى ما يتصور أنه موروثه الثقافي . ويوجد الآن تعريفان لليهودي : أحدهما ديني يعتمد الشريعة ويأخذ به نحو ١٨٪ من يهود العالم ، والآخر علماني ويأخذ به نحو ٦١٪ . والباقون مترددون متضاربون في الرأي . فإن شعر أحدهم في قرارة نفسه بأنه يهودي ، فإنه يمكن اعتباره يهودياً .

وقد حاول جان بول سارتر تعريف «اليهودي» فأخذ بهذا التعريف الذاتي ، وقال إن اليهودي يكون يهودياً أصيلاً حينما يصبح واعياً بحالته كيهودي ويشعر بالتضامن مع سائر اليهود . ولكن سارتر نفسه كان قد عرَّف اليهودي من قبل بأنه من يراه الأغيار كذلك . وفي كلتا الحالتين ، لا يُوجَد معيار موضوعي للتعريف . وقد انتهى الأمر به إلى القول بأن اليهودي هو رجل يبحث عن هويته . وهذا ليس بتعريف أيضاً ، وإنما إشارة إلى حالة عقلية . وقد علق أحد المثقفين الفرنسيين على الوضع قائلاً : « إنني مثل جميع اليهود الفرنسيين ، فأنا يهودي من الناحية الخيالية ولكني فرنسي من الناحية الفعلية » .

ويمكن القول بأن كلمة «يهودي» في الوقت الحالي لها معنيان :

١ ـ يهودي بالمعنى الديني الإثني .

٢ ـ يهودي بالمعنى الإثني المحض .

فهي تشير إذن إلى الكتل اليهودية الثلاث الأساسية ، وهي الإشكناز والسفارد ويهود العالم الإسلامي ، وإلى الجماعات اليهودية الأخرى التي انفصلت عن الكتل الثلاث الكبرى مثل الفلاشاه ويهود الهند . وهي تشير أيضاً إلى اليهود من شتى الفرق التي نشأت في العالم الغربي : الإصلاحيين والمحافظين والأرثوذكسيين والتجديديين حتى ولو كفَّر أعضاء هذه الفرق بعضهم بعضاً . ويُستخدَم المصطلح للإشارة إلى المستوطنين الصهاينة مع أن مسألة من هو اليهودي لا تزال دون إجابة داخل الدولة الصهيونية ، أي أنها كلمة ذات مجال دلالي مُختلَط وغير محدَّد .

ونحن نستخدم كلمة «عبراني» للإشارة إلى اليهود القدامى كتَجمُّع إثني ذي خصائص متميِّزة . وكلمة «جماعة يسرائيل» تشير إلى المجموعة البشرية نفسها كتَجمُّع ديني . وتُستخدَم كلمة «إسرائيل» للإشارة إلى المُستوطَن الصهيوني أما السكان ، فهم «إسرائيليون» . كما أننا نستخدم عبارة «أعضاء الجماعات اليهودية» للإشارة إلى يهود العالم بعد المرحلة البابلية ، ولا نستخدم كلمة «يهود» أو «يهودي» إلا إذا تَطلَّب السياق ذلك ، كأن ننقل وجهة نظر أحد الباحثين أو إن كان الحديث عن اليهود كجماعة دينية . وبسبب اختلاط المجال الدلالي للكلمة ، فإننا نضطر إلى استخدام كلمة «يهود» للإشارة إلى اليهود ممن لا يؤمنون بالتوراة أو الإله والذين يصنفون أنفسهم يهوداً .

وغني عن البيان أن مصطلح «صهيوني» لا علاقة له بمصطلح «يهودي» ، فليس كل اليهود صهاينة وليس كل الصهاينة يهوداً ، وهناك صهاينة مسلمون وصهاينة مسيحيون وصهاينة بوذيون وصهاينة لا دين لهم ولا ملة .

صهيوني

Zionist

«الصهيوني» هو من يؤمن بالعقيدة الصهيونية (إما في شكلها الاستيطاني أو في صورتها التوطينية) . ولذا ، فإن هناك اختلافاً عميقاً بين الصهيوني واليهودي ، وبينهما من جهة وبين الإسرائيلي من جهة أخرى . ويستطيع القارئ أن يعود للمجلد السادس من هذه الموسوعة والذي يتناول موضوع الصهيونية .

إسرائيلي

Israeli

«الإسرائيلي» هو مواطن الدولة الصهيونية . وهو يختلف عن «اليسرائيلي» أو عضو «جماعة يسرائيل» وهم العبرانيون كجماعة دينية . وليس كل الإسرائيليين صهاينة ، تماماً كما أن كل الصهاينة ليسوا بالضرورة إسرائيليين . ولا يوجد أي تَرادُف بين «إسرائيلي» و«يهودي» ، بل إن هناك إسرائيليين كثيرين يرفضون العقيدة اليهودية . ويستطيع القارئ أن يعود إلى المداخل المختلفة عن إسرائيل .

٥
إشكالية التعداد

أعداد الجماعات اليهودية في العالم: بعض الإشكاليات ـ أعداد الجماعات اليهودية وتوزُّعها في العالم حتى الوقت الحاضر ـ أعداد الجماعات اليهودية وتوزُّعها في العالم، وبعض معالمها السكانية في الوقت الحاضر (١٩٩٢) ـ أعداد الجماعات اليهودية وتوزُّعها في العالم عام ١٩٩٦ ـ موت الشعب اليهودي

أعداد الجماعات اليهودية في العالم: بعض الإشكاليات
Worldwide Number of the Jewish Communities (Some Problematics)

ثمة مشاكل عديدة تحيط بمحاولة تناول موضوع تعداد الجماعات اليهودية عبر التاريخ .

١ ـ يُلاحَظ أن معظم الأرقام المُستخدَمة (حتى عام ١٨٠٠) تخمينية إلى حدٍّ كبير، وتقريبية حتى عام ١٩٠٠ (وهذه مشكلة عامة بالنسبة لأي تعداد) .

٢ ـ ثمة تحيزات عقائدية عميقة تجعل كثيراً من الدارسين يفرضون عليها دلالات لا تحتملها . ومن أكبر الأمثلة على التحيز المذهبي في المراجع الصهيونية عدم تعرُّضها لقضية يهود الخَزَر وهجرتهم إلى بولندا، إذ تدل بعض الدراسات على أن التفسير الوحيد المقبول للتزايد الفجائي لتعداد يهود بولندا ابتداءً من القرن الرابع عشر (حتى أصبحوا أكبر جماعة يهودية في العالم) هو هجرة بقايا يهود الخَزَر إلى شرق أوربا . فمناقشة مثل هذه القضية، أو حتى مجرد ذكرها، يفتح الباب على مصراعيه لقضية أكثر أهمية وهي مدى انتماء يهود أوربا للعرْق السامي وللحضارة السامية وحقيقة هويتهم العرْقية أو الإثنية وحقوقهم الأزلية المفترضة .

٣ ـ من الأمثلة المهمة الأخرى، مسألة «الستة ملايين» يهودي الذين يُفترض أن النازيين قاموا بإبادتهم، إذ يتحول هذا الرقم إلى رقم سحري، وإلى أيقونة عقائدية ترمز إلى الشعب الشاهد الذي أصبح الشعب الشهيد . وإذا ناقش أحد مصداقية هذا الرقم، فإنه يُتهم فوراً بانتهاك الحرمات وإنكار الهولوكوست! ورغم أن رقم «الستة ملايين» حالة متطرفة من التحيز، إلا أنها الاستثناء الذي يثبت القاعدة .

٤ ـ لعل من أهم المشاكل التي تقابل دارس تعداد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم مفهوم «اليهودي»: هل اليهودي من يتبع تعاليم دينه أم أنه من يرى نفسه يهودياً أم هو من يراه الآخرون كذلك؟ وفي هذا العالم الذي تزايدت فيه معدلات العلمنة، يسود التعريف العلماني للهوية اليهودية (اليهودي هو من يرى نفسه كذلك) . ولا توجد مؤسسة دينية مركزية تقوم بعملية التعريف والفرز، فتتداخل الحدود ويصعب تحديد من هو اليهودي . ولذا، نجد أن بعضاً من غير اليهود قد يغيِّرون قناعاتهم فجأة ويقررون أنهم يهود، والعكس أيضاً ممكن (انظر: «ادعاء اليهودية») .

ولإيضاح المشكلة التي يجابهها دارسو تعداد الجماعات اليهودية، يمكن أن نشير إلى بعض الأمثلة :

١ ـ الولايات المتحدة الأمريكية :

أ) يضم **الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي** (١٩٩١) دراسة عن تعداد يهود العالم . وقد رأى كاتب المقال أن يتناول موضوعه من خلال ثلاثة تعريفات أو مستويات :

* القطاع الأساسي من السكان اليهود (بالإنجليزية: كور جويش بوبيوليشن core Jewish population) ويضم كل يهودي يعلن أنه يهودي، بغض النظر عن كون مضمون يهوديته حقيقياً أو وهمياً، دينياً أو إثنياً، قوياً أو ضعيفاً . وعادةً ما توضع هذه المجموعة مقابل القطاع الهامشي من السكان اليهود (بالإنجليزية: بريفيرال جويش بوبيوليشان peripheral Jewish population)، وهي تضم القطاعين التاليين :

* القطاع الموسع من السكان اليهود (بالإنجليزية: إكستند جويش بوبيوليشن extended Jewish population) ويضم القطاع الأساسي إلى جانب اليهود الذين تخلوا عن دينهم (وتبنوا أو لم يتبنوا ديناً آخر) ولكنهم من أصل يهودي .

** القطاع الممتد من السكان اليهود (بالإنجليزية: إنلارجد جويش بوبيوليشن enlarged Jewish population) وتضم إلى جانب القطاعين السابقين كل من يعيش في بيت يهودي (سواء أكان يهودياً أم غير يهودي) .

وبطبيعة الحال، تتزايد الأعداد وتتناقص حسب المعيار

المُستخدَم . وفي عصر وصلت فيه نسبة الزواج المُختلَط إلى ما يزيد على ٥٠٪ ، فإن القطاع الثالث يضم عدداً كبيراً للغاية ، مع أن تَضخُّم هذا القطاع هو في واقع الأمر دليل على تزايد اندماج اليهود واختفائهم . وقد بلغت الحيرة بأحد المراجع حداً جعله يستخدم اصطلاح «يهودي بشكل أو آخر» «يهودي بشكل ما» (بالإنجليزية : جويش إن سم وي Jewish in some way) لحل مشكلة التعريف .

ب) نُشرت مؤخراً دراسة ذكرت أن عدد يهود الولايات المتحدة هو ٦,٨ مليون . ثم أضافت الدراسة أن ١,٢ مليون منهم يهود لا يؤمنون باليهودية ويندمجون في مجتمعهم بسرعة (ومن المؤكد أن أعداداً كبيرة منهم ينضمون للعبادات الجديدة مثل البهائية وهاري كريشنا) . ومنهم ٢,٣ مليون يمارسون عقيدة أخرى هي المسيحية ، أي أنه بين ٦,٨ مليون يهودي يوجد ٢,٥ مليون يمارسون عبادات أخرى . وورد في دراسة ثانية أن عدد يهود الولايات المتحدة ٨,٤٠٠,٠٠٠ وهو رقم أعلى بكثير من الرقم السابق . ولكن الدراسة تضيف أن من بينهم ٢,٧٠٠,٠٠٠ من "أصول يهودية" ولا يعتبرون أنفسهم يهوداً (أي أن العدد هو ٥,٧٠٠,٠٠٠) . والسؤال الذي يطرح نفسه هو : إن كان هؤلاء ليسوا يهودا من منظور الشريعة اليهودية ، ولا من منظور الإثنية اليهودية ، ولا من منظور أنفسهم أو جيرانهم ، فلماذا تضمنهم التعداد أساساً ؟ وهل الهدف هو خلق إشكاليات حيث لا إشكاليات ؟

جـ) من المشاكل الكبرى التي تواجه دارسي تعداد اليهود في العالم ، بخاصة في الولايات المتحدة ، أعضاء الزيجات المُختلَطة وأبناؤهم . فأحياناً ، يدخل يهودي في علاقة زوجية مع طرف غير يهودي ، ثم يتهود الطرف الآخر بشكل صوري ، ويعتبر نفسه يهودياً إرضاءً للطرف اليهودي أو لعائلته . ثم قد يُصر الطرف اليهودي على أن يكون الأطفال يهوداً ، فيوافق الطرف غير اليهودي . ولكن ما يحدث في معظم الأحيان أن الأطفال ينشأون يهوداً اسماً دون أن يكونوا يهوداً فعلاً . ولأن اليهودية الأرثوذكسية لا تعترف بأبناء الزيجات المُختلَطة ، أو بالمتهوِّدين على يد حاخام إصلاحي أو محافظ ، أو بمن وُلد لأب يهودي ، فإن هناك عدداً كبيراً من اليهود في الولايات المتحدة يهود اسماً وحسب ، أو يهود من وجهة نظر إصلاحية أو محافظة أو إثنية ، ولكنهم غير يهود من وجهة نظر أرثوذكسية .

٢ ـ الاتحاد السوفيتي :

ثمة مشاكل عديدة تواجه محاولة إحصاء تعداد يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) :

أ) كان القانون السوفيتي يعطي أعضاء الجماعات اليهودية الحق في أن يصنفوا أنفسهم كما يشاءون ، فكان بوسع اليهودي من أوكرانيا أن يُصنِّف نفسه «يهودياً» أو «أوكرانياً» ، وهذا يعني أن هناك عدداً كبيراً من المواطنين السوفييت كانوا من أصل يهودي ولكنهم لم يُصنِّفوا يهوداً . وقد أدى هذا إلى ظهور ما يُسمَّى «اليهود المتخفين» ، وهم المواطنون السوفييت من أصل يهودي الذين يخفون أصولهم اليهودية .

ب) حينما فُتحت أبواب الهجرة إلى إسرائيل بما كانت تتيحه من فرص للحراك الاجتماعي والطبقي ومكافأة مادية مباشرة ، ومع تَزايُد تفكك النظام السوفيتي ، أظهر كثير من هؤلاء اليهود المتخفين أصولهم اليهودية . كما أن أعداداً كبيرة من غير اليهود ممن لهم أصول يهودية قديمة للغاية (جدٌّ مدفون في موسكو ، على حد قول أحد الحاخامات) ، أو حتى ممن ليست لهم أصول يهودية على الإطلاق ، ادعوا أنهم «يهود» حتى يستفيدوا من الفرص الاقتصادية المتاحة .

٣ ـ ألمانيا :

أ) بلغ عدد يهود ألمانيا ٢٨,٢٠٢ حسب تعداد عام ١٩٨٣ .

ب) بدأت بعد ذلك التاريخ حركة هجرة من الاتحاد السوفيتي ، ولم تتمكن المصادر اليهودية من الحصول على أرقام محدَّدة ، ولذا تم اللجوء للتخمين . وقُدِّر عدد المهاجرين في هذه الفترة ، أو مقدار الزيادة على وجه العموم ، بحوالي ١١ ألفاً وهذا يعني أن عدد اليهود بلغ حوالي ٤٠ ألف يهودي .

جـ) كان يوجد ٥٠٠ يهودي مسجلون في ألمانيا الشرقية .

د) ولكن كان يوجد ٣٥٠٠ شخص يأخذون تعويضات باعتبارهم ضحايا للاضطهاد النازي دون أن يعلنوا عن انتمائهم الديني والإثني، ولكن من المرجح أنهم من اليهود . هذا يعني في واقع الأمر أن هناك ٤٠٠٠ يهودي .

هـ) يضيف بعض الإحصائيين القطاع الهامشي من السكان اليهود ، ويبلغ عددهم ٥٥ ألفاً ، وبذا يكون مجموع أعضاء الجماعة اليهودية في واقع الأمر ١٠٠ ألف يهودي ، أي أربعة أضعاف عدد اليهود في عام ١٩٨٣ .

٤ ـ كندا :

بلغ عدد اليهود في كندا عام ١٩٨١ حوالي ٢٩٦,٤٤٥ . ولكن إحصاء عام ١٩٨٦ لم يُدخل في الاعتبار إلا الانتماء الإثني ، مهملاً الانتماء الديني . وبلغ عدد الذين صرحوا بأن أصلهم الإثني يهودي نحو ٢٤٥,٨٥٥ ، بينما ذكر ٩٧,٦٥٥ أن أحد أصولهم الإثنية يهودية ، فكأن هناك ٣٤٣,٥١٠ من «اليهود بشكل أو آخر» .

وقد عبَّر كاتب الدراسة عن شعوره بأن الرقم الذي تَوصَّل إليه والذي يضم اليهود من فئة «يهود بشكل أو آخر» غير مقنع .

٥ ـ جنوب أفريقيا :

كان عدد يهود جنوب أفريقيا عام ١٩٩٠ هو ١١٤ ألفاً ، ولكن الإحصاء الذي أُجري بعد ذلك جعل تحديد الديانة مسألة اختيارية . ولأن خُمس السكان البيض لم يحددوا انتماءهم الديني ، فقد انخفض تعداد اليهود إلى ٥٩ ألفاً . وحسب التقديرات الإحصائية ، فإن العدد الحقيقي يتراوح بين ١٠٤,٥٠٠ و ١٠٧ آلاف .

أعداد الجماعات اليهودية وتوزُّعها في العالم حتى الوقت الحاضر

Worldwide Number and Distribution of the Jewish Communities to the Present

بلغ تعداد العبرانيين في عام ١٠٠٠ ق.م ، حسب بعض التقديرات التخمينية ، نحو ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة ، منهم ٤٥٠ ألفاً في المملكة الجنوبية ومليون وثلاثمائة وخمسون ألفاً في المملكة الشمالية . ولكن ثمة رأياً يذهب إلى أن هذا العدد مُبالَغ فيه ، حيث أن الإمكانات الطبيعية لفلسطين واقتصادها ما كان يمكن لهما في تلك المرحلة بمستوى التطور التكنولوجي السائد آنئاك أن يُمدا مثل هذا العدد الضخم بأسباب الحياة ، مع ملاحظة أن عدد سكان مصر كان نحو ستة ملايين بكل إمكاناتها ومعدل نموها .

وعلى أية حال ، فقد تناقص التعداد بسبب تدهور الأحوال السياسية والاقتصادية في المملكتين ، حتى بلغ خلال الفترة بين عامي ٧٣٣ و ٧٠١ ق.م نحو مليون ومائة ألف نسمة ، منهم ٣٠٠ ألف في المملكة الجنوبية و ٨٠٠ ألف في المملكة الشمالية . أما في عام ٥٦٨ ق.م ، بعد التهجير البابلي ، فقد بلغ عدد اليهود ١٥٠ ألفاً يعيشون جميعاً في المملكة الجنوبية ، ولم يبق أحد في المملكة الشمالية إذ أن اليهود الذين هُجِّروا إلى آشور انصهروا وذابوا في سكانها ، أما من تَبقَّوا فقد انصهروا في السكان المحليين أو فقدوا هويتهم العبرانية من خلال آليات مختلفة ، بعضها معلوم لدينا ، وبعضها لا يزال مجهولاً . ويبدو أن عدد سكان مقاطعة يهودا لم يتجاوز فيما بعد مرسوم قورش ما بين ٦٠ و ٧٠ ألفاً .

وتختلف الصورة السكانية لليهود مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد . وقد وصل بعض الدارسين إلى أن عدد يهود العالم في تلك الفترة كان ٨,٠٠٠,٠٠٠ ، عاش منهم ما بين ٢,٣٥٠,٠٠٠ و ٢,٥٠٠,٠٠٠ فقط في فلسطين ، وذلك قبل هدم الهيكل على يد تيتوس عام ٧٠ ميلادية ، و ٣,٢٠٠,٠٠٠ في سوريا وآسيا الصغرى وبابل (أكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠ في كل منها) ، وتوزع الباقون في أماكن أخرى مختلفة . ويُقال إن الإسكندرية وحدها كانت تضم ما يتراوح بين نصف مليون ومليون يهودي ، أي نحو ٤٠٪ من كل سكانها وأكثر من سكان القدس من اليهود . ويبدو أن هذه الأعداد مُبالَغ فيها ، إذ أن ثمة تقديراً تخمينياً آخر يرى أن عدد اليهود لم يزد على خمسة ملايين : ثلاثة ملايين في سوريا وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى ، ومليون في أماكن أخرى متفرقة من الإمبراطورية الرومانية ، ومليون في بابل التي كانت تابعة للفرس ثم للفرثيين ومن بعدهم الساسانيين .

ويبدو أن ازدياد العدد يرجع إلى عدة أسباب من بينها قيام الدولة الحشمونية بتهويد بعض السكان غير اليهود داخل حدودها ، مثل الإيطوريين وبعض الشعوب المجاورة مثل الأدوميين الذين حكمت أرضهم . وقد قام الفريسيون بحركة تبشير ضخمة لاقت نجاحاً غير عادي بسبب أن الوثنية الرومانية بدأت تدخل مرحلة الأزمة التي أدَّت في نهاية الأمر إلى سقوطها وإلى تَبنِّي الرومان للمسيحية ديناً رسمياً . و قد انتشرت اليهودية بين أعداد كبيرة من الرومان ، من بينهم بعض أعضاء النخبة الحاكمة ، في الفجوة الزمنية التي تفصل بين بداية الضعف والاضمحلال وبين السقوط النهائي وتَبنِّي المسيحية من حيث هي دين وعقيدة تفسر الكون لأتباعها وتمنحهم الإجابات للأسئلة الكونية الكبرى التي تجابههم .

ويبدو أن ما يُسمَّى «السلام الروماني» (باللاتينية : باكس رومانا pax romana) ، الذي ساد المناطق التي كان يعيش فيها أعضاء الجماعة اليهودية ، قد وفر من الأمن والطمأنينة ما شجع اليهود على التزايد . وربما كانت بداية اشتغال اليهود بالأعمال التجارية تعني ارتفاع مستوى المعيشة والابتعاد عن المهام القتالية ، وهو ما كان يعني تناقص نسبة الوفيات .

وأخيراً ، يُقال إنه بعد سقوط قرطاجة ، انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرطاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية اليهودية باعتبارهم جميعاً ساميين ينتمون إلى التشكيل الحضاري نفسه وباعتبار أنهم يضطلعون بالوظيفة نفسها .

وقد بدأت الصورة تأخذ شكلاً مغايراً مع بدايات العصور الوسطى في الغرب والعصر الإسلامي في الشرق ، حيث اختفت أعداد كبيرة من اليهود من خلال عمليات الاندماج والانصهار . فمع ظهور المسيحية ، تَنصَّرت أعداد ضخمة من اليهود ، كما حدث في الإسكندرية على سبيل المثال . ومع انتشار الإسلام ، تبنت أعداد كبيرة منهم الدين الجديد ، وتحولت الجماعات اليهودية إلى جماعات

صغيرة متناثرة . وكان من الصعب تخمين عدد اليهود في العالم آنذاك إذ أن الإحصاءات كانت متناقضة للغاية ، ففي العالم الإسلامي كانت الإحصاءات غير موثوق بها ، وفي أوربا لم تكن هناك سجلات إحصائية . ومع هذا ، ترى معظم المراجع أن عدد اليهود في العالم كان يتراوح بين مليون ومليونين ، وأن أغلبهم (٨٥ـ ٩٠٪) قد تركز في العالم الإسلامي مع نهاية القرن الثاني عشر . ولكننا نفضل الأخذ بالرقم مليون ، خصوصاً في ضوء الأعداد اللاحقة ، حيث أن عدد يهود أوربا لم يكن يزيد على نحو ١٠٠ - ٣٥٠ ألفاً (من مجموع سكان أوربا البالغ ٥٣ مليوناً) في حين وصل العدد إلى ٤٥٠ ألفاً في عام ١٣٠٠ (٣٠٠ ألف فقط عند روبين) من مجموع ٥٣ مليوناً كان معظمهم مُركَّزاً في إسبانيا . وقد بلغ تعداد يهود العالم في القرن الخامس عشر حسب أحد التخمينات الإحصائية نحو مليون وخمسمائة ألف .

وحتى ذلك التاريخ ، كانت أغلبية يهود العالم من السفارد المستقرين في حوض البحر الأبيض المتوسط : روما ـ الإسكندرية ـ إسبانيا ـ المغرب (التابعة للدولة العثمانية) ـ سالونيكا ـ إيطاليا ـ فرنسا ، ومن يهود العالم الإسلامي ، ولم يكن الإشكناز من يهود أوربا سوى أقلية صغيرة . ثم تغيَّرت الصورة بالتدريج ابتداءً من تلك الفترة حتى أصبح الإشكناز هم الأغلبية العظمى .

ولتفسير ذلك الوضع ، يجب الوقوف عند ظاهرة تزايد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا وتَحولُها إلى أكبر الجيوب اليهودية في العالم . وتقول الإحصاءات إن عدد يهود بولندا (في عام ١٥٠٠) كان يبلغ نحو ١٠ - ١٥ ألفاً ، ولكنه زاد فجأة إلى ١٥٠ ألفاً بين عامي ١٥٠٠ و١٦٤٨ . وتقول **الموسوعة اليهودية** إنهم أصبحوا بذلك أكبر تَجمُّع يهودي في العالم إذ كان قد تم طرد يهود إسبانيا .

واستمرت الزيادة حتى بلغ عدد اليهود في العالم في أواخر القرن السابع عشر نحو مليونين ، حسب رأي آرثر روبين ، نصفهم سفارد ويهود من العالم الإسلامي والنصف الآخر إشكناز (في أوربا) إذ أن عدد يهود أوربا كان أساساً في بولندا وبلغ ٥٠٠ ألف حسب هذه التقديرات . ولكن ، مع العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر (عام ١٧٧٠) ، بلغ عدد يهود العالم مليونين و٢٥٠ ألفاً ، غالبيتهم العظمى (١,٧٥ مليون) في أوربا ، منهم ١,٢ مليون في بولندا وحدها ، أي أن يهود أوربا أصبحوا يهود بولندا . وفي عام ١٨٠٠ ، بلغ عدد يهود العالم وفقاً لتقديرات روبين ، مليونين ونصف المليون ، منهم مليون وخمسمائة ألف في أوربا ومليون في الشرق .

وقد بيَّن آرثر كوستلر في كتابه عن يهود الخَزَر أنه لا يمكن تفسير هذا الانقلاب السكاني إلا بما يسميه «الشتات الخَزَري» ، أي انتقال يهود الخَزَر ، بعد سقوط مملكتهم ، إلى شرق أوربا وخصوصاً بولندا . ولا يختلف المؤرخون الآن في أن أعداداً من يهود الخَزَر استقرت في بولندا ، ولكنهم يختلفون حول حجم هذا العدد . ونحن ، على أية حال ، نميل إلى الأخذ برأي كوستلر لأنه ، على الأقل ، يفسر ظاهرة محيِّرة لا يمكن تفسيرها من خلال أية فرضية أخرى .

وقد صاحب زيادة يهود أوربا انخفاض تعداد يهود العالم الإسلامي الذين بلغ عددهم ٦٠٠ ألف في عام ١٨٠٠ . ويذهب روبين إلى أن عددهم لم ينخفض وإنما ظل على ما كان عليه . ولذا ، فهو يرى أن عددهم ظل يدور حول المليون . وفيما يلي جدول مقارن بأعداد اليهود الإشكناز واليهود السفارد والشرقيين في الفترة بين عامي ١١٧٠ و١٩٧٠ .

السنة	اليهود الإشكناز		السفارد والشرقيين		العدد الإجمالي
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	
١١٧٠	١٠٠,٠٠٠	٦,٧٠	١,٤٠٠,٠٠٠	٩٣,٣٠	١,٥٠٠,٠٠٠
١٣٠٠	٣٠٠,٠٠٠	١٥,٠٠	١,٧٠٠,٠٠٠	٨٥,٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
١٥٠٠	٥٠٠,٠٠٠	٣٣,٣٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٦٦,٦٠	١,٥٠٠,٠٠٠
١٦٥٠	٧٠٠,٠٠٠	٤٠,٠٠	١,٠٥٠,٠٠٠	٦٠,٠٠	١,٧٥٠,٠٠٠
١٧٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٥٠,٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٥٠,٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
١٨٠٠	١,٥٠٠,٠٠٠	٦٠,٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٤٠,٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠
١٨٤٠	٣,٦٠٠,٠٠٠	٨٠,٠٠	٩٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠	٤,٥٠٠,٠٠٠
١٨٦٠	٥,٢٠٠,٠٠٠	٨٦,٦٠	٨٠٠,٠٠٠	١٣,٤٠	٦,٠٠٠,٠٠٠
١٩٠٠	٩,٥٥٠,٠٠٠	٩٠,٥٠	٩٥٠,٠٠٠	٩,٥٠	١٠,٥٠٠,٠٠٠
١٩٣٠	١٤,٦٠٠,٠٠٠	٩١,٨٠	١,٣٠٠,٠٠٠	٨,٢٠	١٥,٩٠٠,٠٠٠
١٩٣٩	١٥,٠٠٠,٠٠٠	٩٠,٩٠	١,٥٠٠,٠٠٠	٩,١٠	١٦,٥٠٠,٠٠٠
١٩٤٥	٩,٥٠٠,٠٠٠	٨٧,٦٠	١,٣٥٠,٠٠٠	١٢,٤٠	١٠,٨٥٠,٠٠٠
١٩٥٠	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٨٦,٩٦	١,٥٠٠,٠٠٠	١٣,٠	١١,٥٠٠,٠٠٠
١٩٦٠	١٠,٩٠٠,٠٠٠	٨٥,١٦	١,٩٠٠,٠٠٠	١٤,٨٤	١٢,٨٠٠,٠٠٠
١٩٧٠	١١,٧٠٠,٠٠٠	٨٣,٥٧	٢,٣٠٠,٠٠٠	١٦,٤٣	١٤,٠٠٠,٠٠٠

وقد ظهرت في تلك المرحلة (القرن الثامن عشر) نواة الجماعة اليهودية في العالم الجديد ، وتراوح عدد أعضائها بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً .

ولكن ، بعد انعقاد مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥ ، بدأت مرحلة جديدة تماماً إذ حدث انفجار سكاني بين اليهود . فإذا كان عدد اليهود في عام ١٨٠٠ هو مليونان وخمسمائة ألف ، فقد بلغ هذا العدد عشية الحرب العالمية الثانية نحو ١٦,٧٢٤,٠٠٠ . ومعنى ذلك أنهم زادوا ستة أضعاف في أقل من ١٥٠ عاماً . وفي الفترة من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٢٥ ، كان عدد اليهود ٣,٢٨٠,٠٠٠ ، وزاد إلى ١٠,٦٠٢,٥٠٠ مع عام ١٩٠٠ . وبهذا ، فقد زادوا ثلاثة أضعاف خلال ٧٥ عاماً . ويُلاحَظ أن الزيادة كانت بين يهود العالم الغربي فقط ، ذلك أن تعداد يهود الشرق لم يزد بل انكمش إلى ٩٠٠ ألف عام ١٨٤٠ ، وإلى ٨٠٠ ألف عام ١٨٦٠ ، ثم زاد إلى ٩٥٠ ألفاً بسبب هجرة بعض يهود اليديشية من الغرب عام ١٩٠٠ .

ولكن هذا النمو لم يكن مقصوراً على أعضاء الجماعات اليهودية ، ففي الفترة نفسها تقريباً (من عام ١٨١٥ إلى عام ١٩١٤) زاد سكان أوربا من ١٩٠ مليوناً إلى ٤٠٠ مليون . وزاد سكان الولايات المتحدة من ٧,٢٤٠,٠٠٠ عام ١٨١٠ إلى ٩١,٩٧٢,٠٠٠ عام ١٩١٠ ، وإن كانت الزيادة في الولايات المتحدة يمكن تفسيرها على أساس الهجرة ، فهذا هو عصر الهجرة الأوربية الكبرى (اليهودية وغير اليهودية) . وقد استوعبت الولايات المتحدة نحو ٨٥٪ من المهاجرين ، لكن الزيادة في أوربا لا يمكن تفسيرها إلا على أساس زيادة نسبة المواليد وقلة نسبة الوفيات . ومع هذا ، يُلاحَظ أن نسبة زيادة أعضاء الجماعات اليهودية كانت أعلى من النسبة العامة في أوربا ، ولعل هذا يعود إلى أن أعضاء هذه الجماعات كانوا يعيشون تحت الظروف نفسها التي أدَّت إلى زيادة سكان أوربا ، وتحت ظروف أخرى خاصة بهم ساهمت في رفع النسبة عن النسبة العامة في أوربا . فيُلاحَظ أن تَحسُّن الأحوال الصحية ، نتيجة الثورة الصناعية في أوربا ، قد ترك أثره الإيجابي في أعضاء الجماعات اليهودية ، ولكن يبدو أن المستوى الصحي داخل الأحياء اليهودية كان أعلى من المستوى الصحي العام بسبب الرقابة على اللحوم والأطعمة نظراً لتطبيق قوانين الطعام .

وفي شرق أوربا ، حيث تَركَّز معظم اليهود ، كان دخل أعضاء الجماعة اليهودية أكثر ارتفاعاً وكان أسلوب حياتهم أكثر راحة ووفرة من دخل وأسلوب حياة معظم الجماهير الفلاحية ، كما كان أعضاء الجماعة يتمتعون بمستوى ثقافي أعلى . وقد انعكس هذا ، بطبيعة الحال ، على نوعية الطعام الذي يستهلكونه وأدَّى إلى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية . وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية للغاية من التماسك ، الناجم عن التمسك بالقيم الدينية والتقليدية ، بقدر يفوق كثيراً تَماسُك الأسر غير اليهودية . ويظهر هذا في إحصاءات الأطفال غير الشرعيين ، حيث كانت نسبتهم بين اليهود في كثير من الأحيان أقل بدرجة ملحوظة من نسبتهم بين غير اليهود . والعنصران السابقان يسهمان معاً في خفض نسبة الوفيات بين الأطفال كما يشجعان على الإنجاب .

ومن أهم العناصر الأخرى التي ساعدت على هذا الانفجار زواج اليهود في سن مبكرة للغاية . فقد كان من الشائع أن يتزوج الشبان من سن ١٥ إلى ١٨ بفتيات من سن ١٤ إلى ١٦ . وكانت الحكومات المركزية القومية المطلقة في روسيا والنمسا تلجأ أحياناً إلى تحديد سن الزواج وعدد المسموح لهم بالزواج (نتيجة شيوع آراء مالتوس ولغير ذلك من الأسباب) . وحينما كانت الشائعات تنطلق حول أحد القوانين وشيكة الصدور ، كان اليهود يسرعون بتزويج كل صغار السن قبل صدوره . وفي إحدى الإحصاءات البولندية (في القرن الثامن عشر) ، ورد ذكر لزوجة عمرها ثماني سنوات . وفي عام ١٧١٢ ، منعت السلطات في أمستردام زواج طفلين يهوديين تحت سن الثانية عشرة . ومن العناصر الأساسية التي ساهمت في تزايد عدد اليهود أن الفترة من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٩١٤ لم تشهد الأماكن التي يوجد فيها أغلبية يهود العالم أية حروب ، بل إن معارك نابليون وقعت بعيداً عن مراكز التجمع اليهودي . وعلاوة على كل هذا ، لم تكن هناك دول كثيرة تقوم بتجنيد اليهود ، ففي روسيا القيصرية ، لم يبدأ تجنيدهم إلا عام ١٨٢٧ ، ولم يُجنَّدوا في بولندا حتى عام ١٨٤٥ ، ولا في الدولة العثمانية حتى عام ١٩٠٨ . وفيما يتصل بالمذابح التي تطنطن بها المراجع الصهيونية ، فلم يقع ضحيتها سوى بضع مئات طيلة هذه الفترة .

لكل هذه الأسباب ، حدثت الطفرة السكانية التي أشرنا إليها في الفترة من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٢٥ حيث بلغ عدد يهود العالم ٣,٢٨١,٠٠٠ نسمة ، منهم ٢,٧٣٠,٠٠٠ في أوربا (١,٦٠٠,٠٠٠ في روسيا ومعها بولندا ـ ٨٠ ألفاً في رومانيا ـ ٥٦٨ ألفاً في الإمبراطورية النمساوية/ المجرية - ٢٢٣ ألفاً في ألمانيا ـ ٥٠ ألفاً في فرنسا ـ ٤٥ ألفاً في هولندا) . وكانت البقية موزعة على أنحاء العالم ، فلم يكن يوجد سوى عشرة آلاف في الأمريكتين منهم ثمانية آلاف في الولايات المتحدة .

وفي عام ١٨٥٠ ، بلغ عدد يهود العالم ٤,٧٥٠,٠٠٠ ، منه ٧٢٪ في شرق أوربا (٢,٣٥٠,٠٠٠ في روسيا وبولندا) و١٤,٥٪ في غرب أوربا ، و١,٥٪ في الولايات المتحدة ، و١٢٪ فقط في

الشرق الأوسط . وقد قفز هذا العدد قفزة كبيرة عام ١٨٨٠ (تاريخ ظهور الصهيونية بين اليهود) إلى ٧,٥٠٠,٠٠٠ موزعاً على النحو التالي : أربعة ملايين في روسيا وبولندا (٥٦,٢٪) ، ومليون وخمسمائة ألف في الإمبراطورية النمساوية (٢٠٪) ، وفي دول أوربا الأخرى مليون (١٣,٣٪) ، ومائتان وخمسون ألفاً في الولايات المتحدة (٣,٣٪) ، والبقية في آسيا وأفريقيا وغيرها من المناطق . ومما لا شك فيه أن زيادة حجم الكتلة البشرية اليهودية في العالم الغربي ، في روسيا وبولندا على وجه التحديد ، قد ساهم في تَفاقُم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لأعضاء الجماعات اليهودية، وهو ما يُطلَق عليه «المسألة اليهودية» . وإذا لاحظنا تناقص يهود العالم الإسلامي والسفارد ، قياساً إلى تعداد اليهود في العالم، إلى أقل من ٨٪ ، يصبح من الدقة العلمية ألا نتحدث عن المسألة اليهودية بشكل مطلق وإنما عن المسألة اليهودية الأشكنازية في روسيا وشرق أوربا .

وقد قفز عدد اليهود إلى ١٠,٦٠٢,٠٠٠ عام ١٩٠٠ ، ثم بلغ عشية الحرب العالمية الأولى ١٣ مليوناً . وهذا يمثل ، مرة أخرى ، قفزة كبيرة . وكان هؤلاء موزعين على النحو التالي : ٥,٥٠٠,٠٠٠ في روسيا (من نحو ١٢٧ مليون روسي) ويمثلون ٤٢,٣٪ من يهود العالم . وقد قفزت الولايات المتحدة إلى المرتبة الثانية نتيجة الهجرة اليهودية الضخمة إذ بلغ عدد اليهود فيها ٢,٥٠٠,٠٠٠ ، أي ١٩,٢٪ من يهود العالم . ويُلاحَظ أن هذه الهجرة لم تسهم كثيراً في تخفيف حدة التوتر بالنسبة إلى يهود روسيا وبولندا ، نظراً لأن أعدادهم كانت تتزايد بسرعة تفوق أعداد المهاجرين . أما بقية الجماعات اليهودية في العالم ، فقد كان عدد أعضائها على النحو التالي :

الإمبراطورية النمساوية : ٢,٥٠٠,٠٠٠ ، أي ١٩,٢٪ من يهود العالم . دول أوربا الأخرى : ١,٧٠٠,٠٠٠ ، أي ١٣,١٪ ، موزعين على النحو التالي :

٣٠٠,٠٠٠ رومانيا ـ وزاد العدد إلى ٨٥٠ ألفاً بعد أن ضمت رومانيا بعض المناطق التي تضم جماعات يهودية .

٦٠٠,٠٠٠ ألمانيا .

٢٥٠,٠٠٠ إنجلترا .

١٠٠,٠٠٠ هولندا .

١٠٠,٠٠٠ فرنسا .

٤٧,٠٠٠ إيطاليا .

٧٥٠,٠٠٠ في الشرق أي ٥,٨ ٪ .

٨٥,٠٠٠ في فلسطين أي ١,٠ ٪ .

وتذكر **الموسوعة اليهودية (جوديكا)** أن تعداد يهود العالم عام ١٩٣٩ بلغ ١٦,٧٢٤,٠٠٠ ، منهم ٩,٤٨٠,٠٠٠ في أوربا (من مجموع تعداد السكان البالغ ٥١٢,٨٤٩,٠٠٠) ، و ٢,٨٢٥,٠٠٠ في الاتحاد السوفيتي (من مجموع تعداد السكان البالغ ١٣٢,٥١٩,٠٠٠) ، وفي بولندا ٣,٢٥٠,٠٠٠ (من مجموع السكان البالغ ٣٢,١٨٣,٠٠٠) . ويُلاحَظ أن بولندا استقلت عن روسيا ، وبالتالي أصبح اليهود يشكلون نسبة ١٠,١٪ من السكان ، وهي أعلى النسب التي وصل إليها تعداد اليهود في أي بلد في التاريخ الإنساني . وبلغ عدد اليهود ٨٥٠ ألفاً في رومانيا (من

نمو أعداد بعض الجماعات اليهودية في العالم

السنة	الولايات المتحدة	كندا	الأرجنتين	فلسطين	جنوب أفريقيا	البرازيل	مصر	أستراليا ونيوزيلندا
١٨٠٠	٢,٠٠٠	–	–	١٠,٠٠٠	–	–	–	–
١٨٥٠	٥٠,٠٠٠	٥٠٠	–	١٢,٠٠٠	١٠٠٠	–	–	–
١٨٨٠	٢٣٠,٠٠٠	٢,٤٠٠	–	٢٥,٠٠٠	–	–	–	–
١٨٩٠	٥٠٠,٠٠٠	٦,٤٠٠	١٠٠٠	٣٥,٠٠٠	–	–	–	–
١٩٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	١٦,٤٠٠	٣٠,٠٠٠	٥٥,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	٣٠٠٠	٢٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠
١٩١٠	٢,٢٠٠,٠٠٠	٧٠,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٥٠٠٠	٤٠,٠٠٠	١٨,٠٠٠
١٩٢٠	٣,٢٠٠,٠٠٠	١٢٠,٠٠٠	١٣٠,٠٠٠	٧٥,٠٠٠	٦٠,٠٠٠	٧٠٠٠	٦٠,٠٠٠	٢٤,٠٠٠
١٩٣٠	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠	٢٢٠,٠٠٠	١٧٠,٠٠٠	–	٤٠,٠٠٠	٦٥,٠٠٠	–
١٩٣٣	٤,٥٠٠,٠٠٠	١٧٠,٠٠٠	٢٤٠,٠٠٠	٢٢٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠	٤٥,٠٠٠	٧٠,٠٠٠	٣٣,٠٠٠

المصدر : آرثر روبين

مجموع عدد السكان البالغ ١٨,٠٥٣,٠٠٠) و٢٥٤,٥٦٠ في الجمهوريات البلطيقية : ليتوانيا ولاتفيا وإستونيا (من مجموع عدد السكان البالغ ٥,١٠٦,٠٠٠) . كما كان يوجد ٣٥٧ ألف يهودي في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٠ ، و٤٤٥ ألف يهودي في المجر عام ١٩٣٠ ، و٥٠٤ آلاف يهودي في ألمانيا من مجموع عدد السكان البالغ عددهم ٦٥,٩٨٨,٠٠٠ . وكانت الولايات المتحدة تضم ٤,٩٧٥,٠٠٠ يهودي ، وبذلك أصبحت الولايات المتحدة مركزاً لأكبر جماعة يهودية في العالم ، إذ أن يهود اليديشية في شرق أوربا كانوا مقسَّمين بين عدة دول من أهمها روسيا السوفيتية وبولندا ورومانيا . وكان يوجد ١٥٥,٧٠٠ في كندا ، و٢٧٥ ألفاً في الأرجنتين . وكانت الأمريكتان تضمان ٥,٥٣٧,٠٠٠ . أما آسيا ، فكانت تضم ١,٠٤٧,٠٠٠ بسبب تَزايُد حجم الجيب الاستيطاني الصهيوني الذي كان يضم ٤٧٥,٠٠٠ . أما الباقون ، فكانوا موزعين على النحو التالي : ٩٠ ألفاً في العراق و٢٦ ألفاً في سوريا ولبنان و٥٠ ألفاً في اليمن والجزيرة العربية و٥٠ ألفاً في إيران و٢٤ ألفاً في الهند و١٠ آلاف في الصين وألفان في اليابان وكان اليهود الموجودون في بلاد مثل الصين من يهود اليديشية في الغالب . وقد بلغ عدد اليهود في أفريقيا ٦٢٧,٥٠٠ حيث كانت أكبر جماعة منهم في المغرب إذ بلغت ١٦٢ ألفاً ، تليها الجزائر التي كان بها ١١٠ آلاف ، وجنوب أفريقيا حيث كان بها ٩٠ ألفاً ، فمصر ٧٠ ألفاً ، ثم تونس وضمت ٥٩ ألفاً ، وأخيراً إثيوبيا التي ضمت ٥١ ألفاً . وبلغت الجماعة اليهودية في أستراليا ٢٣,٦٠٠ . ويُلاحَظ أن حوالي ٥,٥٣٧,٠٠٠ يهودي ، أي نحو ثلث يهود العالم ، يوجدون في دول استيطانية ، هي : الولايات المتحدة ، وكندا ، وجنوب أفريقيا ، وفلسطين ، وأستراليا ، ونيوزيلندا ، وأمريكا اللاتينية . ويمكن أن نضيف إليهم كذلك المستوطنين اليهود في الجزائر ، لأن اليهود الأصليين كانوا أقلية . ومن ثم يمكننا القول بأن الجماعات اليهودية في العالم أصبحت جزءاً من التجربة الاستيطانية الغربية (والأنجلو ساكسونية على وجه التحديد) . وقد أورد آرثر روبين الجدول السابق عن الأماكن التي استوطن فيها أعضاء الجماعات اليهودية وأعدادهم .

ومن الجدول السابق ، يُلاحَظ أن الولايات المتحدة أصبحت تضم أكبر تَجمُّع يهودي في العالم . كما يُلاحَظ أنه برغم استمرار الأعداد في التزايد إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، فإن العوامل التي أدَّت إلى هذا التزايد قد اختفت تماماً ، كما ظهرت عناصر لم يكن من شأنها تشجيع اليهود على الإنجاب ، بل وأدَّت إلى تناقص أعدادهم ، ومن أهم هذه الأسباب تَصاعُد معدلات العلمنة بين أعضاء الجماعات اليهودية . ففي بداية القرن التاسع عشر ، كانت هذه الجماعات من أقل الجماعات علمنة ، ولكن معدلات العلمنة تزايدت بالتدريج من خلال محاولات الحكومات الأوربية المختلفة دمجهم وإصلاحهم وتشجيعهم على الاندماج ، بحيث كانت معدلات العلمنة بينهم مع نهاية القرن من أعلى المعدلات على الإطلاق . وقد كان ٣٠٪ من السجناء السياسيين من اليهود ، كما ازدادت نسبة الأطفال غير الشرعيين وأصبحت نسبة العاهرات اليهوديات والقوادين اليهود من أعلى النسب .

ويُلاحَظ أن هذه الفترة هي فترة الهجرة اليهودية الكبرى التي شملت ٥٠٪ من يهود شرق أوربا ، ومن المعروف أن الجماعات المهاجرة تحجم عادةً عن الإنجاب بسبب تقلقل وضعها . والعناصر المهاجرة هي عادةً العناصر الشابة ، بل ويُقال إن الهجرة اليهودية قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية ٢٠ - ٤٠ سنة وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل أية جماعة قادرة على أن تُعيد إنتاج نفسها . ويُلاحَظ كذلك أنه بعد اندماج اليهود في مجتمعاتهم ، بدأت قطاعات منهم تحقق حراكاً اجتماعياً وتَحسُّناً في مستوى المعيشة ، ومن المعروف أن تَحسُّن مستوى المعيشة يؤدي إلى تَبنِّي سلوك حذر تجاه الإنجاب .

وإلى جانب ذلك ، فإن أغلبية يهود العالم بدأت تستقر في المدن الكبرى والعواصم . فقبل الحرب العالمية الثانية ، كان ما يزيد على نصف يهود العالم ، أي نحو ٥٢٪ منهم ، يعيشون في ٤٢ مدينة في كل منها ٥٠ ألف يهودي أو أكثر ، وكان ما بين ٣٥٪ و٤٠٪ يتركزون في عشرين مدينة في كل منها ما يزيد على ١٠٠ ألف يهودي . وهذا يدل على أن معدل التركز في المدن كان آخذاً في التزايد ، حيث كانت النسبة في بداية القرن ١٨٪ في المجموعة الأولى و١٣٪ في المجموعة الثانية . وفي عام ١٩٣٣ ، كان يعيش مليون يهودي روسي ، أي ثلث يهود روسيا ، في مدن سوفيتية لا تضم سوى ٥٪ من أعضاء الأغلبية ، ويعيش بقية اليهود في مدن صغيرة . أما في الولايات المتحدة (عام ١٩٢٧) ، فقد كان ٨٤٪ من اليهود يعيشون في ١٨ مدينة كبيرة (وكانت نيويورك تضم نصف الجماعة اليهودية) . وفي الثلاثينيات ، كان يعيش في كوبنهاجن نحو ٩٣٪ من يهود الدنمارك ، وكان نحو ٩٢٪ من يهود النمسا في فيينا ، ونحو ٧٠٪ من يهود فرنسا في باريس ، ونحو ٦٥٪ من يهود إنجلترا في لندن ، وهكذا . ومن المعروف أن التركز في المدن لا يشجع على الإنجاب ، وأن المدن لم يمكنها في الماضي (في روما

واليونان القديمة) أن تحافظ على العدد المناسب من السكان من خلال التزايد الطبيعي .

وقد أسلفنا أن المنطقة التي تَرَكَّز فيها اليهود ، إبَّان القرن التاسع عشر ، كانت منطقة لم تَدُر فيها أية معارك كبرى أو حروب حتى الحرب العالمية الأولى . ولكن ، مع الحرب العالمية الأولى ، تغيَّر الموقف تماماً حينما تحوَّلت بولندا وجاليشيا وليتوانيا ورومانيا وسالونيكا إلى مسرح للعمليات العسكرية . ولم يتوقف الأمر مع نهاية الحرب ، إذ أصبحت أوكرانيا مسرحاً لعمليات عسكرية عديدة التحمت فيها القوات البلشفية مع قوات الروس البيض (حيث انضم الأوكرانيون إلى الفريق المعادي للثورة) ، وتم الهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية الذين كان يُنظَر إليهم باعتبارهم عملاء للبلاشفة ، إذ أن هؤلاء كانوا قد وضعوهم تحت حمايتهم ، كما كان ميراث يهود الأرندا جزءاً من تجربة الأوكرانيين التاريخية . وكان تجنيد اليهود في القوات المسلحة يتم بصورة كاملة ، بعدما أصبح عتق اليهود حقيقة مستقرة ، فبلغ مجموع عدد المحاربين اليهود في الجيش الروسي والنمساوي والألماني وفي قوات الحلفاء نحو نصف مليون يهودي ، وهو عدد ضخم في واقع الأمر . وقد سقط من اليهود العديد من الضحايا ، فقُتل نحو ١٢ ألف جندي ألماني يهودي . ولنا أن نتخيل نسبة القتلى بين المقاتلين اليهود في كل الأطراف ، ولكن يجب أن نشير إلى أن هذا العنصر لا ينقص من عدد اليهود بصورة مباشرة فقط ، أي من خلال الوفاة ، فذلك يتم بصورة غير مباشرة أيضاً من خلال العزوف عن الإنجاب . ففي مناطق وفترات الحروب والثورات ، بكل ما تسببه من حركة وعدم طمأنينة ، يجد البشر أن من السخف بمكان إنجاب طفل ليعيش في هذه الدنيا .

ومن الظواهر الأخرى التي أدَّت إلى تَناقُص أعداد اليهود الزيجات المُختلَطة . فبعد الحرب العالمية الأولى ، كان نحو ٥٠٪ من الزيجات اليهودية في ألمانيا (عام ١٩١٥) زيجات مُختلَطة زادت إلى ٦٠٪ في عام ١٩٣٢ . وفي كوبنهاجن ، وصلت نسبة الزيجات المُختلَطة إلى نحو ٦٨٪ في الفترة بين عامي ١٨٨٠ و١٩٠٥ . وفي أمستردام ، وصلت النسبة إلى نحو ٧٠٪ (١٩٣٠) . ومن المعروف أن معدلات الاندماج المرتفعة تؤدي إلى تَزايُد الزواج المُختلَط . وفي نهاية القرن التاسع عشر ، كانت عملية الاندماج في أوربا تأخذ شكل التنصُّر . وكانت نسبة التنصُّر تتفاوت من بلد إلى آخر ، ووصلت إلى حدِّها الأقصى في ألمانيا حيث حقق اليهود أعلى معدلات الاندماج ، وهو ما أدَّى إلى انصهارهم . ولكن الانصهار يأخذ شكلاً مغايراً تماماً في العصر الحديث ، ففي الماضي كان على اليهودي الذي يود الهرب من هويته أن يعتنق المسيحية ، أما في المجتمعات العلمانية فيستطيع اليهودي أن ينكر هويته اليهودية ويتخلى عنها دون أن يضطر إلى تَبنِّي هوية دينية أخرى . وربما حدث شيء من هذا القبيل بين أعداد المهاجرين الروس إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد . ونحن نعرف أن كثيراً من اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية بشهادات تعميد مزيفة أصدرها الفاتيكان لتسهيل عملية هربهم من الإرهاب النازي ، قد آثروا الإبقاء على هويتهم المسيحية ولم يعيدوا تأكيد انتمائهم اليهودي حتى بعد زوال الخطر .

لكل هذه الأسباب ، تَناقص تعداد اليهود وتناقص معدل الإنجاب بينهم . وقد بدأ هذا الاتجاه في منتصف القرن التاسع عشر بين يهود غرب أوربا الذين كانوا يشكلون أقلية ، ثم انتقل إلى وسطها وشرقها مع نهاية القرن ، وتَزايُد معدل التناقص واستمر حتى الوقت الحالي حيث وصل إلى معدلات عالية للغاية . أما في الجيب البولندي ، حيث المناطق التي تَركَّز فيها معظم يهود العالم وحكمت روسيا معظمها وحكمت النمسا جزءاً آخر منها وحكمت ألمانيا الجزء الثالث ، وهو الجيب الذي كان مركزاً ليهود اليديشية وكان يسميه هتلر «البنية التحتية البيولوجية للشعب اليهودي» ، فقد تناقصت نسبة المواليد بشكل مذهل . ففي منتصف القرن التاسع عشر ، كان أعضاء الجماعة في روسيا القيصرية يتمتعون بواحدة من أعلى نسب الخصوبة والتكاثر بين شعوب الإمبراطورية ، ولكن مع عام ١٩٢٦ انخفضت النسبة إلى أقل النسب على الإطلاق إذ بلغت ٢٤,٨ في الألف بعد أن كانت ٣٥,٩ . وقد ظلت نسبة التكاثر عالية بين الروس إذ وصلت ٤٣,٦٥ في الألف بفارق قدره ١٩,٥٧٥ في الألف بين شعوب الدولة السوفيتية وأعضاء الجماعة . ويُلاحَظ أنه رغم وجود جماعات يهودية أخرى في الاتحاد السوفيتي ، من بينها اليهود الجورجيون ويهود القوقاز وغيرهم ممن لم يمروا بالظروف نفسها التي مرَّ بها يهود اليديشية ، فإن هذه الجماعات كانت صغيرة وربما لا تتجاوز ٥٪ ، ومن ثم فإنها لم تؤثر بتاتاً في الصورة العامة . وفي بولندا ، نجد الاتجاه نفسه . فقد انخفضت نسبة المواليد في وارسو من ٢٨,٦ في الألف عام ١٩٠٠ إلى ١٢,٣ في الألف عام ١٩٢٥ . وفي لودز ، انخفضت نسبة المواليد بين اليهود خلال سبعة أعوام إلى ١١,٦ في الألف . وفي جاليشيا ، كانت الإحصاءات مثيرة ، فبعد أن كانت نسبة المواليد بينهم من أعلى النسب في أوربا مع بداية القرن الحالي إذ وصلت إلى ٣٨,١٦ في الألف (ولذا كان يهود النمسا يسمونها «فاجينا جودايوروم» أي «فَرْج اليهود») ، انخفضت النسبة فيها إلى ١٩,٣ في الألف عام ١٩٣٤ ، أي إلى نحو ٥٠٪ . وكانت

نسبة المواليد بين يهود المجر ٩١ ,٣٣ في الألف في بداية القرن الحالي وانخفضت إلى ١٠,٥ فقط ، أي أنها انخفضت بنسبة ٢٣,٤ ، أي بنحو ٦٦٪ . وكانت معدلات العلمنة بين يهود المجر من أعلى النسب في أوربا كلها ، كما كانت نسبة عدد الأطفال غير الشرعيين في بودابست وكذلك نسبة الانتحار بين أعضاء الجماعة من أعلى النسب بين أعضاء الجماعات . وفي رومانيا ، كانت نسبة المواليد بين اليهود عام ١٩٠٠ نحو ٣٢,٦ في الألف ، ولكنها انخفضت مع عام ١٩٣٤ إلى ١٤,٨ في الألف . وبلغت نسبة المواليد ٢ في الألف في لندن مع عام ١٩٣٢ .

وفيما يلي جدول بتغيّر نسبة المواليد بين يهود بروسيا ، نقلاً عن آرثر روبين ، كمثل على تناقُص نسبة اليهود .

السنة	النسبة في الألف
١٨٣٢	٣٥,٥
١٨٤١ - ١٨٦٦	٣٤,٧
١٨٧٨ - ١٨٨٢	٣٠,٧
١٨٨٨ - ١٨٩٢	٢٣,٧
١٨٩٨ - ١٩١٢	١٩,٧
١٩١٣	١٥,٠
١٩٢٤	١٤,٦
١٩٢٦	١٢,٠
١٩٢٨	١٠,٥
١٩٢٩	٩,١

ومعنى ذلك أن نسبة المواليد عام ١٩٢٩ كانت أقل من ثلث نسبتهم منذ خمسين عاماً .

وقد أورد آرثر روبين الجدول التالي عن معدل زيادة اليهود :

الفترة	معدل المواليد (نسبة تقريبية)	معدل الوفيات (نسبة تقريبية)	المعدل التقريبي للزيادة
١٦٥٠ - ١٧٥٠	٤٥	٤٠	٥
١٧٥٠ - ١٨٠٠	٤٠	٣٠	١٠
١٨٠٠ - ١٨٥٠	٤٠	٢٥	١٥
١٨٥٠ - ١٩٠٠	٣٥	٢٠	١٥
١٩٠١ - ١٩٠٥	٣٣	١٥	١٨
١٩٠٦ - ١٩١٠	٣٢	١٥	١٧
١٩١١ - ١٩١٤	٣٠	١٤	١٦
١٩٢١ - ١٩٢٥	٢٤	١٣	١١
١٩٢٦ - ١٩٣٠	٢١	١٢	٩
١٩٣٢ -	١٨	١٠	٨

ويُلاحظ آرثر روبين أنه خلال خمسة وعشرين عاماً (بين عامي ١٩٠٥ و١٩٣٠) هبطت نسبة الزيادة من ١٨ إلى ٨ في الألف ، كما يُلاحظ أن التقدم الذي أحرزه اليهود خلال ١٥٠ عاماً (من عام ١٧٥٠ إلى عام ١٩٠٥) فُقد خلال ٢٥ عاماً !

وقد لاحظ يوريا إنجلمان في كتابه **ظهور اليهود في العالم الغربي** (١٩٤٤) أن نسبة المواليد لا تُعوِّض نسبة الوفيات ، وأن معدلات المواليد بين اليهود في شرق أوربا وجنوب شرق أوربا (دول البلقان وربما النمسا) وصلت إلى نقطة الخطر (قبيل العدوان النازي) . وقد حذر ثايلهابر في دراسته **اختفاء اليهود الألمان** (١٩٠٨) مما سماه «الضعف السكاني» حيث بيَّن أنه ، إذا لم يُوقَف هذا الاتجاه، فسيختفي يهود ألمانيا تماماً .

وبالفعل ، نجد أن الوفيات بين يهود بودابست عام ١٩٣١ ، حيث كان يعيش نصف يهود المجر ، قد زادت عن المواليد بنحو ١٥٠٧ ثم هبطت إلى ١٤٦٩ عام ١٩٣٢ ، واستمر هذا النمط حتى الحرب العالمية الثانية . وقد حدث الشيء نفسه في بروسيا حيث فاق عدد الوفيات عدد المواليد بمقدار ٢٩,٢ عام ١٩٣١ ، ثم زاد إلى ٢٣٩٩ عام ١٩٣٢ وإلى ٣٤٨٠ عام ١٩٣٥ . وفي عام ١٩١٦ ، سجلت الجماعة اليهودية في برلين ٤٩٤ مولوداً مقابل ٢٤٨٣ حالة وفاة ، أي أن الوفيات كانت خمسة أضعاف المواليد . وفي عام ١٩٣٩ ، كانت المسألة مخيفة ، فمن مجموع سكان برلين البالغ عددهم ٩٠ ألفاً سُجل ستة مواليد فقط طيلة العام في مقابل ١٩٤٤ حالة وفاة ، أي مولود واحد مقابل كل ٣٢٤ حالة وفاة . ولم يكن الأمر مختلفاً في فيينا حيث كان يعيش ٩٢,٩٪ من يهود النمسا ، فقد ظل معدل المواليد في انخفاض مستمر لمدة عشرة أعوام . وفي عام ١٩٣٦ ، سُجِّل في فيينا ٦٧٣ مولوداً يهودياً مقابل ٢٠٦١ حالة وفاة . ويقول يوريا إنجلمان تعليقاً على الإحصاءات السابقة : إذا لم توقَف العملية ذات الأبعاد الثلاثة [تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج] فسوف يؤدي ذلك في النهاية إلى تَفسُّخ السكان اليهود الكامل ، وأكبر دليل على أن هذا ليس مجرد افتراض وإنما هو تجربة السكان اليهود في فيينا وبودابست وبرلين وهامبورج وباريس ولندن وبادوا وتريسته ومدن أخرى .

وأثناء فترة الحرب العالمية الثانية ، وصلت هذه الاتجاهات إلى ذروتها ، إذ زادت حركة أعضاء الجماعات اليهودي واضطُر كثير منهم إلى إخفاء انتمائه اليهودي ، كما أن ظروف الحرب لم تشجع كثيراً على القيام بالأفعال الإنسانية العادية مثل الزواج والإنجاب . بالإضافة إلى أن عدداً كبيراً من اليهود لقوا حتفهم بسبب الجوع

والمرض . ففي عام ١٩٤١ ، تُوفي نحو ١٠٪ من يهود وارسو بسبب الجوع والمرض ، ثم زادت النسبة إلى ١٥ ٪ . وقد تَفشَّت بعض الأوبئة بعد عام ١٩٤٢ حسب تقرير البوند ، وتُوفي الكثيرون بسبب عمليات الحرب . ويُقدَّر عدد الذين لقوا مصرعهم حتى عام ١٩٤١ بنحو ٢٥٠ ألفاً . وهرب الألوف إلى الاتحاد السوفيتي وهلك بعضهم أثناء هروبهم . وكما جاء في **الموسوعة اليهودية العالمية** ، فإن كثيرين ممن وصلوا لم يكترثوا كثيراً بإعلان هويتهم اليهودية .

والبيانات السابقة تجعلنا نعيد النظر في قضية الستة ملايين يهودي (ضحايا الإبادة النازية) إذ من الممكن أن تكون هناك نسبة كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية قد اختفت لا من خلال الإبادة وإنما من خلال التناقص الطبيعي . ونحن نذكر هذا لا من قبيل التقليل من حجم الجريمة النازية الأوربية ضد يهود أوربا وغيرهم من الجماعات الإثنية والدينية ، وإنما من قبيل تقديم صورة دقيقة لأعداد اليهود في العالم ، وحتى لا يحتكر أحد لنفسه لقب «الضحية الوحيدة» ثم يؤسس على هذا نظرية في الحقوق اليهودية المطلقة في بقعة من الشرق . فالجريمة النازية ضد الجماعات اليهودية والسلاف والغجر وغيرهم تُعَدُّ من أبشع الجرائم التي ارتكبتها الحضارة الغربية الحديثة ضد بعض الأقليات والجماعات البشرية التي تعيش في كنفها . وقد ارتكبت هذه الحضارة الكثير من البشاعات ضد الشعوب الأفريقية والآسيوية ، ولكن الفضيحة اتضحت هذه المرة لأن ضحايا الجريمة كانوا من الجنس الأبيض .

أما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد ظهرت الصورة السكانية التي لا تزال سائدة حتى الآن ، حيث أصبحت الولايات المتحدة هي وطن اليهود بلا منازع ، إذ بلغ عددهم ٥٠٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤٨ ، و ٥,٨٧٠,٠٠٠ عام ١٩٦٧ من مجموع يهود العالم البالغ عددهم ١١,٣٧٣,٠٠٠ عام ١٩٤٨ ، و ١٣,٨٣٧,٥٠٠ عام ١٩٦٧ ، أي أن نصف يهود العالم تقريباً موجود في الولايات المتحدة . ولكن عدد اليهود في البلاد الاستيطانية هو ٩,٥٨٣,٠٠٠ ، فيوجد ٦,٩٥٢,٠٠٠ في الأمريكتين و ٢,٤٣٦,٠٠٠ في إسرائيل و١١٥ ألفاً في جنوب أفريقيا و ٥,٥٠٠ في روديسيا و٧٥ ألفاً في أستراليا ونيوزيلندا . ومعنى هذا أن أعضاء الجماعات اليهودية انتقلوا من أوربا ، حيث كانوا متركزين حتى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى الدول الاستيطانية ، خصوصاً الولايات المتحدة وإسرائيل ، مع التسليم بأن الولايات المتحدة تحتل مركز الصدارة . وقد انكمش يهود اليديشية ، الذين كانوا قد فَقَدوا شخصيتهم اليديشية (وأُطلق عليهم بسبب ذلك مصطلح «يهود الاتحاد السوفيتي») ، فلم يبق منهم في الاتحاد السوفيتي سوى مليونين في عام ١٩٤٨ ، لكن عددهم زاد إلى ٢,٦٥٠,٠٠٠ عام ١٩٥٩ . وهم ، بذلك ، يكوِّنون أكثر من نصف يهود أوربا في ذلك الوقت . ولا توجد جماعات يهودية كبيرة في إنجلترا أو فرنسا . وقد أورد **الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي** (١٩٨٣) الإحصائية التالية لأكبر الجماعات اليهودية في العالم (لعام ١٩٣٠) وبجوارها الإحصاءات الخاصة لعام ١٩٨٣ وقد عدلناها حسب إحصاء ١٩٨٩ .

السنــــة	١٩٣٠	١٩٨٩
المجموع العالمي	١٥ مليونـــاً	١٢,٢١٠,٧٠٠
الولايات المتحدة	٤,٢٢٨,٠٠٠	٥,٥١٥,٠٠٠
الاتحاد السوفيتي (سابقاً)	٢,٩٢٧,٠٠٠	١,٣٧٠,٠٠٠
بولندا	٢,٨٤٥,٠٠٠	٤,١٠٠
رومانيا	٩٠٠,٠٠٠	١٩,٠٠٠
ألمانيا	٥٦٤,٠٠٠	٣٥,٠٠٠
المجر	٤٧٧,٠٠٠	٥٨,٠٠٠
تشيكوسلوفاكيا	٣٥٤,٠٠٠	٧,٩٠٠
بريطانيا	٣٠٠,٠٠٠	٣٢٠,٠٠٠
النمسا	٢٥٠,٠٠٠	٦,٣٠٠
فرنسا	٢٢٠,٠٠٠	٥٣٠,٠٠٠
الأرجنتين	٢٠٠,٠٠٠	٢١٨,٠٠٠
فلسطين/ إسرائيل	١٦١,٠٠٠	٣,٧١٧,٠٠٠
كندا	١٢٦,٠٠٠	٣١٠,٠٠٠
جنوب أفريقيا	٧٢,٠٠٠	١١٤,٠٠٠
البرازيل	٣٠,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
أستراليا	٢٢,٠٠٠	٨٥,٠٠٠

ويُلاحَظ أن الكتلة البشرية اليديشية في كلٍّ من الاتحاد السوفيتي وبولندا ورومانيا والنمسا والمجر قد صفِّيت تقريباً ولم يبق في عام ١٩٨٣ سوى ١,٦٣٠,٠٠٠ في الاتحاد السوفيتي ، ولكنهم على أية حال لم يعودوا يتحدثون اليديشية . وقد انخفض هذا العدد إلى ١,٣٧٠,٠٠٠ في عام ١٩٨٩ ، وازداد انخفاضاً بعد هجرة اليهود السوفييت الأخيرة وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي . ولأول مرة في التاريخ الحديث ، أصبح عدد أعضاء الجماعات اليهودية في غرب أوربا يفوق عددهم في شرقها . ولا تزال الولايات المتحدة تتصدر القائمة منذ عام ١٩٣٠ وإن كانت أهميتها ازدادت بشكل حاد بسبب تناقص أعداد الجماعات اليهودية في بقية أنحاء العالم . وشهدت هذه الفترة ظهور التجمع الصهيوني في فلسطين كنواة كبيرة بلغت نحو ٧٥٠ ألفاً ، أي ٨٪ تقريباً من يهود العالم . وقد أخذت هذه الخلية في التضخم فأصبحت تضم ٢,٤٣٦,٠٠٠ عام ١٩٦٧ في حين كان الجسد الأكبر آخذاً في الانكماش .

أعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم ، وبعض معالمها السكانية في الوقت الحاضر (١٩٩٢)

Recent (1992) Worldwide Number and Distribution of the Jewish Communities and Some of Their Demographic Features

يُقدَّر عدد سكان العالم من اليهود طبقاً لإحصاءات عام ١٩٨٧ بنحو ١٣ مليوناً (١٢,٩٣٤,٦٠٠) وصل إلى ١٢,٩٦٣,٨٠٠ عام ١٩٩٢ (حسبما ورد في **الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي** لعام ١٩٩٤) . وهو يقل قليلاً عن عددهم عام ١٩٨٢ والبالغ ١٢,٩٨٨,٦٠٠ أو عددهم عام ١٩٨٤ وهو ١٢,٩٦٣,٣٠٠ (وهو ما يدل على أن يهود العالم قد وصلوا إلى نقطة الصفر في النمو) . وقد تناقص هذا العدد عن عددهم في عام ١٩٦٧ حيث كان ١٣,٨٣٧,٥٠٠ ، أي أن عدد اليهود نقص بنحو المليون في الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٨٢ دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعي . والجماعات اليهودية موزعة في الوقت الحاضر من الناحية الجغرافية في كل أرجاء العالم على النحو التالي :

أوربا (بما في ذلك روسيا الآسيوية والبلقان وتركيا)	١,٩٢٤,٢٠٠
آسيا (فلسطين المحتلة أساساً)	٤,٣٧٨,٦٠٠
أفريقيا (جنوب أفريقيا أساساً)	١٠٦,٧٠٠
أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية (الولايات المتحدة أساساً)	٦,٤٠٩,٧٠٠
أستراليا ونيوزيلندا	٩٤,٦٠٠
المجموع	١٢,٩١٣,٨٠٠

وأكبر تسع جماعات يهودية هي :

الدولـــة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية	نسبتهم إلى يهود العالم
الولايات المتحدة	٥,٦٢٠,٠٠٠	٤٣,٥٪
إسرائيل	٤,٢٤٢,٥٠٠	٣٢,٨٪
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٤,١٪
روسيا	٤١٥,٥٠٠	٣,٢٪
كندا	٣٥٦,٠٠٠	٢,٨٪
بريطانيا العظمى	٢٩٨,٠٠٠	٢,٣٪
أوكرانيا	٢٧٦,٠٠٠	٢,١٪
الأرجنتين	٢١١,٠٠٠	١,٦٪
جنوب أفريقيا	١٠٠,٠٠٠	٠,٨٪

وإذا نظرنا إلى توزُّع أعضاء الجماعات اليهودية من منظور التشكيلات الحضارية والسياسية ، فإن الصورة سوف تختلف تماماً . فلو استبعدنا سكان المُستوطَن الصهيوني ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون أساساً في أمريكا الشمالية حيث توجد أغلبيتهم الساحقة التي تبلغ ٤٦,٢٤٪ ، وفي أوربا الغربية حيث تبلغ ١٤,٩٪ ، وروسيا وأوكرانيا حيث نسبتهم ٥,٣٪ ، أي أن ٦٩,٨٪ من يهود العالم يوجدون في أمريكا الشمالية وأوربا ، ويعيش معظمهم في الوقت الحالي في البلدان الناطقة بالإنجليزية (الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا) . ولذا ، فيمكننا أن نقول إن اللغة التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية هي الإنجليزية وليست العبرية أو اليديشية . ومن الملاحَظ أن الجماعات اليهودية في أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي وأوربا آخذة في الذوبان ، وأن عددهم في أمريكا اللاتينية آخذ في التناقص السريع . ولذا يمكننا التنبؤ بأن يهود العالم أو ما يُقال له «الشعب اليهودي» سيصبح جزءاً لا يتجزأ من الشعب الأمريكي بعد أن كان جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستيطاني الغربي ومن شعوب شرق أوربا . ونلاحظ في الجدول السابق ، الذي يبين أكبر تسع جماعات يهودية في العالم ، أن ٩٣,٢٪ من يهود العالم يعيشون في تسعة مراكز رئيسية ومنها الدولة الصهيونية ، وأن ٧٦,٣٪ يعيشون في دولتين اثنتين (الولايات المتحدة وإسرائيل) . ونلاحظ أن البلاد التي يُوجَد فيها أعضاء الجماعات اليهودية تتمتع بمستوى معيشي مرتفع ودخول مرتفعة ، كما أنها تنتمي إلى ما يمكن تسميته بالتشكيل العرْقي الأبيض ، ففي الأرجنتين ، حيث تُوجَد أعلى نسبة من البيض في أمريكا اللاتينية ، توجد أيضاً أعلى نسبة من اليهود .

وهناك عنصر آخر يرتبط بالعنصر السابق وهو أن نسبة ١٥٪ من يهود العالم توجد في أوربا . وتوجد الأغلبية العظمى في دول استيطانية : الولايات المتحدة وكندا اللتين تضمان ٥,٩٧٦,٠٠٠ (٤٦,٢٧٪ من يهود العالم) . وإسرائيل التي تضم ٤,٢٤٢,٥٠٠ (٣٢,٨٥٪ من يهود العالم) . وجنوب أفريقيا التي تضم ١٠٠,٠٠٠ (٠,٨٪) . والبرازيل والأرجنتين وبقية دول أمريكا اللاتينية ٣٨٢,٠٠٠ (٢,٩٪) . ويمكن أن نضيف كذلك أستراليا ونيوزيلندا التي تضم ٩٤,٦٠٠ (٠,٧٪) . أي أن الجماعات اليهودية مرتبطة بأوربا وبتجربتها الاستيطانية جغرافياً وتاريخياً . إذ يُوجَد في هذه البلاد ٩١٪ من يهود العالم . وكذلك فإن الدياسبورا اليهودية ، أي انتشار أعضاء الجماعات في أنحاء العالم ، ليست انتشاراً عشوائياً وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعماري

الغربي ، خصوصاً في جانبه الاستيطاني . وبالتالي ، فإن إسرائيل لا تشكل استثناءً من القاعدة بل هي جزء من نمط غربي عالمي . وارتفاع الدخول ليس منفصلاً تماماً عن العنصر الاستيطاني إذ أن التجربة الغربية الاستيطانية كانت تهدف أساساً إلى حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الغازية وكانت إحدى أهم المشاكل هي الفائض البشري . وقد كان المجتمع الغربي ينظر إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية نافعة فتحركوا أو تم تحريكهم داخل هذا الإطار .

وفيما يلي تَوزُّع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم في الوقت الحاضر حسب إحصاءات ١٩٩٢ :

الأمريكتان :

١ ـ الشمالية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
كندا	٢٧,٧٥٥,٠٠٠	٣٥٦,٠٠٠	١٢,٨
الولايات المتحدة	٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠	٥,٦٢٠,٠٠٠	٢١,٨
المجموع	٢٨٥,٥٩٥,٠٠٠	٥,٩٧٦,٠٠٠	٢٠,٩

٢ ـ الوسطى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
الأنتليز الهولندية	١٧٥,٠٠٠	٤٠٠	٢,٣
بنما	٢,٥٦٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢,٠
بورتوريكو	٣,٦٢٦,٠٠٠	١,٥٠٠	٠,٤
جامايكا	٢,٤٩٥,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
جزر البهاما	٢٦٨,٠٠٠	٣٠٠	١,١
جواتيمالا	١٠,٠٢٩,٠٠٠	٨٠٠	٠,١
الدومينكان	٧,٦٢١,٠٠٠	١٠٠	ـ
فيرجن أيلاند	١٠٧,٠٠٠	٣٠٠	٢,٨
كوبا	١٠,٩٠٧,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
كوستاريكا	٣,٢٧٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٦
المكسيك	٨٩,٩٩٨,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٠,٤
بلاد أخرى	٢٥,٣٣٠,٠٠٠	٣٠٠	ـ
المجموع	١٥٦,٣٨٩,٠٠٠	٥١,٧٠٠	٠,٣

٣ - الجنوبية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
الأرجنتين	٣٣,٤٨٧,٠٠٠	٢١١,٠٠٠	٦,٣
إكوادور	١١,٣١٠,٠٠٠	٩٠٠	٠,١
أوروجواي	٣,١٤٩,٠٠٠	٢٣,٨٠٠	٧,٦
باراجواي	٤,٦٤٣,٠٠٠	٩٠٠	٠,٢
البرازيل	١٥٦,٥٧٨,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٠,٦
بوليفيا	٧,٧٠٥,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
بيرو	٢٢,٩١٣,٠٠٠	٣,٠٠٠	٠,١
سوريتام	٤٤٦,٠٠٠	٢٠٠	٠,٤
شيلي	١٣,٨١٣,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,١
فنزويلا	٢٠,٦١٨,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١,٠
كولومبيا	٣٣,٩٨٥,٠٠٠	٦,٥٠٠	٠,٢
المجموع	٣٠٨,٦٤٧,٠٠٠	٣٨٢,٠٠٠	١,٢
للمجموع الكلي للأمريكتين	٧٥٠,٦٣١,٠٠٠	٦,٤٠٩,٧٠٠	٨,٥٣

أستراليا ونيوزيلاندا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
أستراليا	١٧,٨٤٣,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٥,٠
نيوزيلاندا	٣,٤٨٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	١,٣
بلاد أخرى	٦,٦١٧,٠٠٠	١٠٠	ـ
المجموع	٢٧,٩٤٧,٠٠٠	٩٤,٦٠٠	٣,٤

آسيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إسرائيل	٥,١٩٥,٩٠٠	٤,٢٤٢,٥٠٠	٨١٦,٥

الدول الآسيوية في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
أذربيجان	٧,٢٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٢,٩
أرمينيا	٣,٥٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
أوزبكستان	٢١,٦٠٠,٠٠٠	٤٥,٢٠٠	٢,١
تركمانيا	٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٥
جورجيا	٥,٥٠٠,٠٠٠	١٨,٠٠٠	٣,٣
طاجكستان	٥,٧٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٠,٩
كازاخستان	١٧,٢٠٠,٠٠٠	١٤,٥٠٠	٠,٨
قرغيزيا	٤,٦٠٠,٠٠٠	٣,٧٠٠	٠,٨
المجموع	٦٩,٣٠٠,٠٠٠	١٠٩,٦٠٠	١,٦

بلاد آسيوية أخرى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إيران	٦٣,١٨٠,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٣
تايلاند	٥٦,٨٦٨,٠٠٠	٢٠٠	–
سنغافورة	٢,٧٩٨,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
سوريا	١٣,٧٦٢,٠٠٠	١,٢٠٠	٠,١
العراق	١٩,٩١٨,٠٠٠	٢٠٠	–
الفلبين	٦٦,٥٤٣,٠٠٠	١٠٠	–
كوريا الجنوبية	٤٤,٥٠٨,٠٠٠	١٠٠	–
الهند	٨٩٦,٥٦٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	–
هونج كونج	٥,٨٤٥,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,٢
اليابان	١٢٤,٩٥٩,٠٠٠	١,٠٠٠	–
اليمن	١٢,٩٧٧,٠٠٠	١,٦٠٠	٠,١
بلاد أخرى	١,٩١٨,٥٠٦,١٠٠	٣٠٠	–
المجموع	٣,٢٢٦,٤٣١,١٠٠	٢٦,٥٠٠	–
المجموع الكلي للبلاد الآسيوية	٣,٣٠٠,٩٢٧,٠٠٠	٤,٣٧٨,٦٠٠	١,٣

أفريقيـا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إثيوبيا	٥٤,٦٢٨,٠٠٠	١,٥٠٠	–
تونس	٨,٥٧٩,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٢
الجزائر	١٩,٥٩٠,٠٠٠	٣٠٠	–
جنوب أفريقيا	٤٠,٧٧٤,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٢,٥
زائير	٤١,١٦٦,٠٠٠	٤٠٠	–
زامبيا	٨,٨٨٥,٠٠٠	٣٠٠	–
زمبابوي	١٠,٨٩٨,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,١
كينيا	٢٦,٠٩٠,٠٠٠	٤٠٠	–
مصر	٥٦,٠٦٠,٠٠٠	٢٠٠	–
بلاد أخرى	٤٢٧,٩٩٠,٠٠٠	١,٠٠٠	–
المجموع	٦٦,٨٥٧,٠٠٠	١٠٦,٧٠٠	١,٦

أوربا :

الجماعة الأوربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إسبانيا	٣٩,١٥٣,٠٠٠	١٢,٠٠٠	٠,٣
ألمانيا	٨٠,٦٠٦,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٠,٦
أيرلندا	٣,٤٨١,٠٠٠	١,٨٠٠	٠,٥
إيطاليا	٥٧,٨٢٦,٠٠٠	٣١,٠٠٠	٠,٥
البرتغال	٩,٨٧٠,٠٠٠	٣٠٠	–
بلجيكا	١٠,٠١٠,٠٠٠	٣١,٨٠٠	٣,٢
الدنمارك	٥,١٦٩,٠٠٠	٦,٤٠٠	١,٢
فرنسا	٥٧,٣٧٩,٠٠٠	٥٣٠,٠٠٠	٩,٢
لكسمبورج	٣٨٠,٠٠٠	٦٠٠	١,٦
المملكة المتحدة	٥٨,٠٣٩,٠٠٠	٢٩٨,٠٠٠	٥,١
هولندا	١٥,٢٧٠,٠٠٠	٢٥,٦٠٠	١,٧
اليونان	١٠,٢٠٨,٠٠٠	٤,٨٠٠	٠,٥
المجموع	٣٤٧,٣٩١,٠٠٠	٩٩٢,٣٠٠	٢,٩

باقي دول أوربا الغربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
جبل طارق	٣١,٠٠٠	٦٠٠	١٩,٤
السويد	٨,٦٩٢,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,٧
سويسرا	٦,٨٦٢,٠٠٠	١٩,٠٠٠	٢,٨
فنلندا	٥,٠٢٠,٠٠٠	١,٣٠٠	٠,٣
النرويج	٤,٣١٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,٢
النمسا	٧,٨٠٥,٠٠٠	٧,٠٠٠	٠,٩
بلاد أخرى	٧٧١,٠٠٠	١٠٠	٠,١
المجموع	٣٣,٤٩١,٠٠٠	٤٤,٠٠٠	١,٣

الدول الأوربية في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إستونيا	١,٦٠٠,٠٠٠	٣,٤٠٠	٢,١
أوكرانيا	٥١,٩٠٠,٠٠٠	٢٧٦,٠٠٠	٥,٣
روسيا	١٤٩,٠٠٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٢,٨
روسيا البيضاء	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	٤,٥
لاتفيا	٢,٦٠٠,٠٠٠	١٣,٥٠٠	٥,٢
ليتوانيا	٣,٨٠٠,٠٠٠	٦,٥٠٠	١,٧
مولداڤيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٩,٤٠٠	٤,٤
المجموع	٢٢٣,٦٠٠,٠٠٠	٧٧٩,٨٠٠	٣,٥

أوربا الشرقيـة :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
بلغاريا	٨,٩٢٦,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٢
البوسنة والهرسك	٤,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
بولندا	٣٨,٥١٨,٠٠٠	٣,٦٠٠	٠,١
تركيـا (بما في ذلك المناطق الأسيوية)	٥٩,٥٧٧,٠٠٠	١٩,٥٠٠	٠,٣
تشيك	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٤
رومانيا	٢٣,٣٧٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٧
سلوفاكيا	٥,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٧
سلوفينيا	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠	–
كرواتيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠	٠,٣
المجر	١٠,٤٩٣,٠٠٠	٥٦,٠٠٠	٥,٣
يوغسلافيا	٩,٨٠٠,٠٠٠	١,٧٠٠	٠,٢
المجموع	١٧٦,٦٩١,٠٠٠	١٠٨,١٠٠	٠,٦
المجموع الكلي لأوربـا	٧٨١,١٧٣,٠٠٠	١,٩٢٤,٢٠٠	٢,٥

ويُلاحَظ أنه تُوجَد دولتان اثنتان (الولايات المتحدة وإسرائيل) تضمان الغالبية الساحقة من يهود العالم (٧٥٪) . ولا يزيد عدد اليهود عن نصف مليون إلا في دولة واحدة (فرنسا) . وينقص عن النصف مليون في دولة أخرى (روسيا) ، وتوجد دولتان (جنوب أفريقيا والبرازيل) يزيد عدد اليهود في كلٍّ منهما على مائة ألف . وباستثناء المجر وفيها ٥٦ ألفاً ، والمكسيك ويوجد فيها ٤٠ ألفاً ، لا توجد دولة واحدة أخرى يزيد فيها عدد اليهود على ٣٥ ألفاً . ففي بلجيكا يوجد ٣١,٨٠٠ ، وفي إيطاليا ٣١,٠٠٠ ، وفي أوروجواي ٢٣,٨٠٠ ، وفي رومانيا ١٦,٠٠٠ .

ويُلاحَظ أن جميع الدول السابقة تنتمي أيضاً إلى التشكيل العرْقي الأبيض أو التشكيل الاستيطاني ذي الجذور الغربية البيضاء . والواقع أن كل هذا يدعم رأينا الخاص بأن اليهود لا يوجدون في العالم بأسره وإنما ضمن تشكيل محدَّد ، وأن وجودهم في بعض الدول أقرب إلى الغياب ولا يمكن أخذه في الاعتبار من الناحية الإحصائية ، فلا يمكن أن نتحدث عن الوجود اليهودي في الهند

حيث لا يوجد بها إلا نحو ٤,٥٠٠ يهودي ، أو الوجود اليهودي في اليونان حيث يوجد ٤,٨٠٠ يهودي ، أو بولندا وفيها ٣,٦٠٠ يهودي ، أو النرويج التي يوجد فيها ألف يهودي ، أو زائير التي يوجد فيها ٤٠٠ يهودي ، أو الفلبين وفيها ١٠٠ يهودي ، أو بورما حيث يوجد عشرون يهودياً وحسب .

وتشكل الجماعات اليهودية قلة سكانية بالنسبة إلى سكان العالم ، وهم كذلك أقلية صغيرة قياساً إلى حجم السكان في الدول التي يوجدون فيها . فأكبر تَجمُّع يهودي في العالم في الولايات المتحدة لا يُشكِّل سوى ٢,١٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠ حسب إحصاءات عام ١٩٩٢ . وثاني تَجمُّع يهودي في العالم كان يتركز في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، وهو بدوره لا يُشكِّل سوى ١,٠٧٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦٧,٥١٦,٠٠٠ . أما في كندا ، فإن النسبة هي ١,٢٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦,٧٥٥,٠٠٠ . وتقل النسبة في البلاد الأوربية الأخرى ، فهم في فرنسا مثلاً لا يُشكِّلون سوى ٠,٩٢٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٧,٣٧٩,٠٠٠ . أما في إنجلترا فإنها ٠,٥١٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٨,٠٣٩,٠٠٠ ، وفي روسيا ٠,٢٨٪ من مجموع ١٤٩,٠٠٠,٠٠٠ ، وفي أوكرانيا ٠,٥٣٪ من مجموع ٥١,٩٠٠,٠٠٠ .

ولا يُشكِّل اليهود أغلبية إلا في إسرائيل وحدها ، ومع هذا فإنهم يحسون بإحساس الأقلية نظراً لوجودهم في صورة مجتمع استيطاني منعزل داخل الكثافة السكانية العربية ، ولخوفهم الدائم من العرب الموجودون في فلسطين . وبعد ضم الضفة الغربية وقطاع غزة، وتكاثر العرب مقابل تَناقُص الهجرة ، وتزايد النزوح بين المستوطنين ، وعقم الأنثى اليهودية في إسرائيل ، فإن العرب سيصبحون هم الأغلبية العددية لا النفسية وحسب ، وهذا ما يُسمَّى «مشكلة إسرائيل السكانية» .

ومن الظواهر التي تستحق الإشارة ، تَركُّز اليهود في العواصم والمدن الكبرى . فالواقع أن حوالي نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية (٢٠٠ ألف) يوجدون في بوينس أيريس ، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا (٦٣ ألفاً) يوجدون في جوهانسبرج ، وأكثر من نصف يهود فرنسا (٣٥٠ ألفاً) في باريس ، وأكثر من نصف يهود إنجلترا (٢٠٠ ألف) يوجدون في منطقة لندن الكبرى ، وأكثر من نصف يهود هولندا (١٥ ألفاً) في أمستردام ، وأكثر من نصف يهود كندا في مونتريال (١٠٠ ألف) وتورنتو (١٧٥ ألفاً) ، وثلث يهود روسيا (٢٠٠ ألف) يوجد في موسكو . أما في الولايات المتحدة ، فهناك خمس مدن تضم أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة إذ تضم نيويورك (الكبرى) ١,٤٥٠,٠٠٠ ولوس أنجلوس ٤٩٠,٠٠٠ وفيلادلفيا ٢٥٤,٠٠٠ وشيكاغو (الكبرى) ٢٤٨,٠٠٠ وبوسطن ٢٠٨,٠٠٠ وواشنطن (الكبرى) ١٦٥,٠٠٠ وميامي ١٩٩,٠٠٠ . والواقع أن تَوزُّعهم على كل هذه المدن ، بدلاً من تَركُّزهم في العاصمة ، هو انعكاس للتركيبة الفيدرالية للولايات المتحدة . وإذا كان نصف الجماعات اليهودية يتركز في كثير من البلاد في العاصمة، فإن النصف الثاني يوجد موزعاً على مدن كبرى أخرى ، أي أن الأغلبية العظمى من الجماعات اليهودية تُوجَد في مراكز حضرية . وهذا أمر مُتوقَّع باعتبار أنهم عملوا كجماعة وظيفية وسيطة في الحضارة الغربية كما أنهم مهاجرون إلى البلاد التي يوجدون فيها . والمهاجرون يتركَّزون عادةً في المدن حيث تُوجَد فرص أكبر للعمل ، وحيث توجد مراكز التجارة والمال . ولم يكن الحال مختلفاً في العالم العربي ، فقد تَركَّزت أغلبية يهود لبنان في بيروت كما تَركَّز يهود مصر في القاهرة بحي المعادي وحي الظاهر . وتتركز المعابد اليهودية بشكل ملحوظ في العواصم ، فمثلاً يوجد في القاهرة والإسكندرية عدة معابد ، ويقع أحد معابد القاهرة في شارع عدلي على مقربة من البنوك ومراكز التجارة . كما يوجد معبد يهودي في الإسكندرية في شارع النبي دانيال على مقربة أيضاً من بنوك الإسكندرية وعلى بعد خطوات من الغرفة التجارية . ومن المعروف أن ٩٨٪ من العاملين بالبورصة في مصر كانوا من أعضاء الجماعة اليهودية . وفي تصوُّرنا أن هذا الوضع هو نتيجة الاستعمار الغربي والهجرة الإشكنازية إلى العالم العربي في أواخر القرن الماضي والتي وسمت معظم الجماعات اليهودية العربية في بلاد المتوسط (مصر والجزائر والمغرب ولبنان وسوريا) بميسمها بحيث تحوَّل أعضاء الجماعات إلى جماعات وسيطة للاستعمار الغربي . كما يُلاحَظ (مثلاً) أن يهود اليمن الذين ظلوا بمنأى عن الهجرة الإشكنازية ، ظلوا محتفظين ببنائهم الطبقي القَبَلي وبوجودهم في الجبال . أما في العراق ، فإن يهود كردستان الذين ظلوا بمنأى عن هذه التحولات ، لم يستقروا في المدن على خلاف بقية أعضاء الجماعة الذين تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة وتَركَّزوا في العاصمة وفي أعمال التجارة والمال بالذات .

ولم يشذ سكان التجمع الاستيطاني الصهيوني عن هذا الاتجاه . ففي إسرائيل ، يتكدس ٧٥٪ من المواطنين في المدن . ويُلاحَظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لا يزال آخذاً في التناقص ، وهو ما يُطلَق عليه ظاهرة موت الشعب اليهودي .

أعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم عام ١٩٩٥
Current (1995) Worldwide Number and Distribution of Jewish Communities

وصلت الإحصاءات الخاصة بتعداد اليهود في العالم عام ١٩٩٥ والموسوعة ماثلة للطبع (المصدر : المسح الديموجرافي وتقارير الجماعات اليهودية إلى المؤتمر اليهودي العالمي) ، وقد وجدنا أن الصورة العامة لم تختلف كثيراً عما كانت عليه عام ١٩٩٢ .

وفيما يلي بعض التغيرات الأساسية :

الدولة	عام ١٩٩٢	عام ١٩٩٥
الولايات المتحدة	٥,٦٢٠,٠٠٠	٥,٨٠٠,٠٠٠
إسرائيل	٤,٢٤٢,٥٠٠	٤,٤٢٠,٠٠٠
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
روسيا	٤١٥,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
أوكرانيا	٢٧٦,٠٠٠	٤٤٦,٠٠٠
الأرجنتين	٢١١,٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠
جنوب أفريقيا	١٠٠,٠٠٠	١١٤,٠٠٠
المجر	٥٦,٠٠٠	٨٠,٠٠٠
مولدافيا	١٩,٤٠٠	٤٠,٠٠٠
روسيا البيضاء	٤٦,٠٠٠	٣٤,٠٠٠
أوروجواي	٢٣,٨٠٠	٣٠,٠٠٠
إيران	١٦,٠٠٠	٢٥,٠٠٠
أذربيجان	٢١,٠٠٠	٢٥,٠٠٠

ويمكن القول بأن التغيرات في الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لا يُعتد بها ، ولكن الزيادات في البلاد الأخرى تحتاج إلى وقفة . فزيادة ٧٠ ألفاً في فرنسا (أي بنسبة ٢, ١٣٪) و٣٩ ألفاً في الأرجنتين (بنسبة ٤٨, ١٨٪) و٢٤ ألفاً في المجر (بنسبة ٨, ٤٢٪) و٦ آلاف في جنوب أفريقيا (بنسبة ٠٦٪) وتسعة آلاف في إيران (بنسبة ٥٦٪) ليس لها سبب واضح ، فالاتجاه العام في هذه البلاد في السنين السابقة كان نحو النقصان لا الزيادة ، ولعل الزيادات هنا راجعة لاختلاف النماذج الإحصائية بين المصدر الذي استخدمه **الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي** (وهو من إصدار البعثة اليهودية الأمريكية) ومصدر تعداد عام ١٩٩٦ وهو تقرير أصدره المؤتمر اليهودي العالمي .

ولا ندري هل ينطبق التفسير نفسه على الزيادة الملحوظة في دول الاتحاد السوفيتي سابقاً (دول الكومنولث المستقلة وغيرها من الدول) ، إذ نلاحظ أن يهود روسيا زادوا ١٣٥ ألفاً (حوالي ٥, ٣٢٪) وزاد يهود أوكرانيا ١٢٤ ألفاً (حوالي ٩, ٤٤٪) وزاد يهود مولدوفا ٦, ١٠ آلاف (أكثر من ٦, ٥٤٪) بينما زاد يهود روسيا البيضاء ١٤ ألفاً (أي بنسبة ٤, ٣٠٪) .

ومن المحتمل أن تكون حركة عودة قد بدأت من الدولة الصهيونية ، كما أن أعداداً كبيرة من يهود لاتفيا واستونيا وليتوانيا والجمهوريات الإسلامية السابقة وُطّنوا فيها باعتبارهم عنصراً روسياً استيطانياً ، ولعل أعداداً منهم بدأت هي الأخرى في العودة ، وهناك بطبيعة الحال مشكلة تعريف اليهودي ومن يُضَم إلى التعداد ومن يُستبعَد .

وعلى كلٍّ فإن هذه القضايا ليست جوهرية ولا تُغيِّر الأنماط العامة التي درسناها . كما يلاحظ أن أعداد اليهود في عامي ١٩٩٦ و ١٩٩٧ لم تتغير عنه في عام ١٩٩٥ .

مــوت الشــعب اليهــودي
Death of the Jewish People

«موت الشعب اليهودي» عبارة وضعها عالم الاجتماع الفرنسي (اليهودي) جورج فريدمان . وهي تشير إلى ظاهرة تَناقُص أعضاء الجماعات اليهودية في العالم إلى درجة اختفاء بعض هذه الجماعات وتَحوُّل بقيتها إلى جماعات صغيرة لا أهمية لها من الناحية الإحصائية . وهذه الظاهرة ليست غريبة على أعضاء الجماعات ، فعدد العبرانيين القدامى انخفض من ١,٨٠٠,٠٠٠ عام ألف قبل الميلاد إلى ١,١٠٠,٠٠٠ خلال الفترة من عام ٧٣٣ إلى عام ٧٠١ ق.م ، وذلك قبل التهجير الآشوري والبابلي . وبعد التهجير البابلي، بلغ عددهم ١٥٠ ألفاً . وبعد مرسوم قورش ، تراوح العدد في مقاطعة يهودا بين ٦٠ و٧٠ ألفاً .

وقد حدث انفجار سكاني في الفترة من عام ١٠٠ ق.م إلى عام ١٠٠ ميلادية حتى بلغ عدد اليهود ما بين خمسة وثمانية ملايين حسب رأي بعض المؤرخين ، وإن كان هناك مؤرخون يعتقدون أن هذا العدد مُبالَغ فيه . ومع نهاية القرن الثاني عشر ، كان عدد يهود العالم ما بين المليون والمليونين . ثم حدث في العصر الحديث الانفجار السكاني في القرن التاسع عشر حيث أدَّى ـ حسب بعض الإحصاءات ـ إلى تَزايُد عدد اليهود من ٢,٥٠٠,٠٠٠ في أوائل القرن التاسع عشر إلى ١٦,٧٢٤,٠٠٠ عشية الحرب العالمية الثانية .

ومن الواضح أن الجماعات اليهودية في العالم تمرُّ بمرحلة بدأت في نهاية القرن التاسع عشر وتتسم بتناقص أعدادهم بسبب اختفاء العوامل التي أدَّت إلى تَزايُدهم (مثل وجود أعضاء الجماعات اليهودية في مناطق لم تنشب فيها معارك حربية ، وعدم تجنيد اليهود في القوات المسلحة) . وعلى العكس من ذلك ظهرت عناصر تؤدي إلى تناقص اليهود إما من خلال اختفاء أعداد منهم ممن وُلدوا يهوداً بالفعل أو من خلال انخفاض نسبة المواليد . ويمكن أن نورد الأسباب

التالية التي تؤدي إلى اختفاء اليهود (دون حدوث مذابح أو انتشار أوبئة) :

١ ـ تزايد معدلات الاندماج . فكثير من اليهود الذين يندمجون يخفون هويتهم اليهودية وانتماءهم اليهودي ويسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود . ويبلغ عدد اليهود الذين أخفوا هويتهم في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) نحو مليون ونصف ، كما يوجد الألوف من اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية بشهادات تعميد مزيفة أصدرها لهم الفاتيكان أثناء الإرهاب النازي ثم آثروا أن يحتفظوا بهويتهم الجديدة .

٢ ـ يُلاحَظ أن هناك أعداداً لا بأس بها من أعضاء الجماعات اليهودية يتنصرون أو ينخرطون في سلك العبادات الجديدة ، ومن ثم يسقطون عن أنفسهم تسمية «يهودي» .

٣ ـ من أهم أسباب اختفاء اليهود الزواج المُختلَط ، والذي وصل إلى درجة لم يشهدها يهود العالم من قبل . وقد بلغت معدلات الزواج المُختلَط ما يزيد على ٥٠٪ في الولايات المتحدة والعالم الغربي على وجه العموم (بما في ذلك روسيا وأوكرانيا) . بل وتصل النسبة أحيانا في روسيا وأوكرانيا إلى ٨٠٪ ، خصوصاً في الأماكن التي تُوجَد فيها أقليات يهودية صغيرة بعيدة عن مراكز التجمعات اليهودية الكبرى . وفي كثير من الأحيان ، يسقط الزوج اليهودي في الزيجة المُختلَطة هويته حتى لا يسبب الحرج لزوجته ، ولا شك في أن هناك من يتهوَّد من أجل الزواج . ولكن عدد المتهوِّدين من أجل الزواج لا يعوض عدد المتنصِّرين للسبب نفسه .

٤ ـ يُلاحَظ ، بتأثير حركة التمركز حول الأنثى ، أن الأنثى اليهودية التي كانت تُعدُّ العمود الفقري للهويات اليهودية في الماضي ، بدأت هي الأخرى تندمج في المجتمع الذي تعيش في كنفه ، وذلك بمعدلات عالية تقترب من معدلات الذكور ، وهي تُقبِل الآن على الزواج المُختلَط بعد أن كان ذلك مقصوراً تقريباً على الذكور وحدهم . ويُلاحَظ أن أبناء الزواج المُختلَط يكونون عادةً إما غير يهود أو غير مكترثين باليهودية .

ويمكننا الآن أن نتناول العوامل التي تؤدي إلى انخفاض نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية ، مع ملاحظة أن بعض هذه الأسباب ليس مقصوراً على أعضاء الجماعات اليهودية ، فهي ظاهرة عامة في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» :

١ ـ تفشِّي قيم المنفعة واللذة والفردية والأنانية في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» ، وهي قيم تتناقض مع فكرة الأسرة والزواج وإنجاب الأطفال وتنشئتهم بكل ما يتضمن ذلك من قيد على الحرية وتخلٍّ عن المتعة الحسية المباشرة .

٢ ـ الزواج المتأخر . وهي ظاهرة عامة في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» تنجم عن تَصدُّع مؤسسة الأسرة وامتداد الوقت الذي تستغرقه العملية التعليمية وتأخُّر الاستقلال الاقتصادي للأبناء .

٣ ـ تزايد عدد الشواذ جنسياً في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» (بنسبة تصل في بعض المدن في الغرب إلى ٣٠٪) ، وتُوجَد بينهم نسبة عالية من اليهود . ومعظم الشواذ ينتمون إلى المرحلة العمرية النشطة جنسياً ، وهذا يعني أن عدداً كبيراً من الذكور والإناث ينسحبون من عملية الإنجاب .

٤ ـ انسحاب كثير من النساء من عملية الإنجاب في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» بتأثير حركة التمركز حول الأنثى التي تجعل أي نشاط أنثوي خاص (مثل الإنجاب) أمراً سلبياً أو معوقاً لنشاط المرأة في الحياة العامة . ومن المعروف أن معظم قيادات هذه الحركة من اليهوديات ، وأن نسبة اليهوديات المنخرطات فيها يفوق المعدل القومي .

٥ ـ تَفسُّخ الأسرة اليهودية وتزايد نسبة الطلاق ، وهو ما يزيد من الإحجام عن الإنجاب .

٦ ـ تركز اليهود في المدن . ومن المعروف أن المدن لم يمكنها عبر التاريخ أن تحتفظ بكثافتها السكانية من خلال التزايد الطبيعي .

وقد أدَّى كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية ، وأصبحت واحدة من أقل النسب في العالم . ومن المعروف أن المطلوب هو أن تنجب الأنثى ٢,١ طفل في المتوسط حتى يتسنى لأي جماعة إنسانية إعادة إنتاج نفسها بيولوجياً . والمرأة اليهودية في إسرائيل تقترب من هذا المعدل بالكاد ، فهي تنجب ٢,٩١ (وهو أقل معدل منذ تأسيس الدولة إذ وصل إلى مستواه الحالي عام ١٩٩١) . لكن المرأة اليهودية في الولايات المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوبة في العالم ، فالإناث في المرحلة العمرية ٣٥ ـ ٤٤ ينجبن ١,٥٧ ، أما في المرحلة العمرية ٢٥ ـ ٣٤ فإن المتوسط هو ٠,٨٧ أي أقل من طفل واحد .

كما أن مستوى العناية الصحية آخذ في التحسُّن الأمر الذي يؤدي إلى زيادة معدلات العمر وإلى زيادة نسبة كبار السن وهي شريحة غير خصبة من السكان . ويُلاحَظ أن ١٦٪ من أعضاء الجماعات اليهودية تتجاوز أعمارهم ٦٥ عاماً ، والنسبة السائدة في مجتمعاتهم هي ١٢٪ . ويصل عدد المسنين إلى ٢٩٪ أحياناً . أما الأطفال حتى سن ١٤ عاماً ، فلا يشكلون سوى ١٥٪ ، وستصل النسبة في عام ٢٠٢٥ إلى ١٠٪ فقط . وفي عام ١٩٨٩ ، كان يهودي

واحد من بين كل ستة يهود فوق سن الخامسة والستين. وبعد عشرة أعوام، سيكون هناك ٧٢٠ ألف يهودي تتجاوز أعمارهم الخامسة والسبعين. والواقع أن هذه السمات ليست مقصورة على الجماعات اليهودية وإنما هي سمة عامة تسم المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» والتي تتزايد فيها معدلات العلمنة. وعلى كلٍّ، فإن الأغلبية العظمى من يهود العالم متركزة في هذا العالم الغربي، كما أن نسبة الخصوبة بين يهود الشرق والبلاد العربية لا تختلف كثيراً عن الخصوبة في مجتمعاتهم. ومع هذا، فإن هذه الظواهر تأخذ شكلاً أكثر حدة بين أعضاء الجماعات اليهودية، ربما بسبب تزايد معدلات العلمنة بينهم عن معدلها في المجتمع وكذلك لارتفاع مستواهم المعيشي.

لكل هذا، يتنبأ الديموجرافيون بأن تعداد يهود العالم سينخفض إلى ثمانية ملايين نسمة عام ٢٠٠٠ في أحسن الأحوال، وإلى سبعة ملايين ونصف المليون في أسوئها، وقد يصل في عام ٢٠٢٥ إلى ما بين خمسة أو ستة ملايين.

ولا يمكن فصل إشكالية موت الشعب اليهودي عن التركيب السكاني لإسرائيل، فحسب آخر إحصاءات يبلغ عدد سكان إسرائيل ٤,٢٤٢,٠٠٠ مليون (وهو رقم مُبالَغ فيه قليلا). كما أن هذا الرقم يضم عدد المرتدين (أي الإسرائيليين المقيمين بشكل دائم خارج إسرائيل) الذي يبلغ ٦٠٠ ألف حسب التقديرات المحافظة (ومليون حسب العديد من التقديرات). أما بالنسبة للفلسطينيين فعددهم هو ٣,٣ مليون، وهذا يضم ٩٠٠,٠٠٠ فلسطيني في فلسطين التي احتُلت قبل عام ١٩٤٨ و ٢,٤٠٠,٠٠٠ مليون فلسطيني في الضفة والقطاع. وقد ذكرنا من قبل أن معدل خصوبة المرأة اليهودية في إسرائيل هو ٢,٩. أما معدل خصوبة المرأة الفلسطينية في الضفة الغربية فهو ٥,٧، وهو في القطاع ٧,٩ (وتكاد تكون أعلى نسبة في العالم، وقد قال أحد المعلقين إن هذه النسبة هي أقرب إلى البيان السياسي). وهذا يعني أن عدد الفلسطينيين سيتجاوز عدد الإسرائيليين من اليهود خلال بضعة أعوام. ولا يمكن تجاوز هذا الموقف الآن خلال هجرة يهودية مكثفة وهو أمر غير مُتوقَّع، فالهجرة السوفيتية الأخيرة قد أفرغت آخر مصدر من مصادر المادة البشرية اليهودية. ولا تزال الولايات المتحدة تشكل مركز الجذب الأكبر ليهود العالم وكذلك للإسرائيليين، ومن المتوقع أن تتزايد الهجرة المضادة من إسرائيل للولايات المتحدة.

أما بالنسبة لعلاقة يهود إسرائيل بيهود العالم، فمن المتوقع أن يرتفع عدد سكان إسرائيل من اليهود إلى أربعة ملايين ونصف المليون، أي أن ٣٧٪ من يهود العالم سيكونون في الدولة الصهيونية عما قريب (كان يهود إسرائيل يشكلون ٦٪ من يهود العالم عام ١٩٤٨، و١٣٪ في عام ١٩٥٥، و٢٥٪ عام ١٩٨٠، و٢٧٪ عام ١٩٨٤). ويُقال إنه إذا استمر الوضع الديموجرافي الحالي (وهو أمر ليس من الصعب تَصوُّره) فإن تعداد اليهود في إسرائيل سيكون ٦,٥ مليون يهودي بينما سيكون عددهم في بقية أنحاء العالم ٥,٥ مليون مع منتصف القرن الحادي والعشرين، أي أن معظم يهود العالم سيكونون في إسرائيل، لا بسبب الهجرة وإنما بسبب تقلُّص أعداد الجماعات اليهودية في الخارج.

ويتناقص تعداد اليهود لا قياساً إلى مجموع سكان دول العالم وإنما بفقدان وزنهم النسبي إلى التعداد العام في كل بلدة على حدة. ففي الفترة بين عامي ١٩٣٠ و١٩٨٠، ازداد مجموع سكان الولايات المتحدة بأكثر من ثلاثة أرباع في حين لم يزد عدد اليهود فيها أكثر من الثلث خلال الفترة الزمنية نفسها. وفي عام ١٩٣٧، كان اليهود يشكلون ٣,٦٪ من مجموع السكان، أما في عام ١٩٧٩ فقد انخفضت هذه النسبة إلى ٢,٧٪. وإذا أضفنا إلى ذلك أن عدد الوفيات بين يهود أمريكا تزيد على عدد المواليد، وأنهم يحافظون على تحديد النسل ويكثرون من الزواج المُختلَط وتزداد بينهم معدلات الطلاق والانفصال، لاتضح لنا أن معدل التناقص سيأخذ في الارتفاع. والشيء نفسه ينطبق على يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) الذين كان تعدادهم في عام ١٩٥٩ نحو مليونين و ٢٦٨ ألفاً وبلغ عددهم عام ١٩٨٩ مليوناً و٤٠٠ ألف. وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي، هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى إسرائيل والعالم الغربي ويتوقع هجرتهم أو تفتيتهم في محيطهم الحضاري. ولذا، يمكننا القول بأن يهود العالم ينقسمون إلى قسمين أساسيين:

١ ـ جماعة تتحدث العبرية في إسرائيل ليس لها سوى علاقة واهية بالعقيدة اليهودية أو التاريخ اليهودي (أي تواريخ الجماعات اليهودية) تعتمد في وجودها على حكومة الولايات المتحدة وتَوجُّهها الحضاري الاستهلاكي المتأمرك. ويمكن أن نستخدم هنا اصطلاح جورج فريدمان للإشارة إلى الإسرائيليين باعتبارهم «أغياراً يتحدثون العبرية».

٢ ـ جماعة يهودية في الولايات المتحدة تنقسم بدورها إلى قسمين:

أ) قلة صغيرة متمسكة بتعاليم الدين اليهودي وتحاول قدر استطاعاتها أن تنفذ تعاليمه وتفهم شعائره.

ب) أغلبية باهتة الهوية لا تمارس الشعائر الدينية وإنما تقيم بعضها باعتبارها شكلاً من أشكال الفلكلور والهوية الإثنية، وهي تحاول

رغم تزايد معدلات أمركتها أن تحافظ على بقايا الموروث الثقافي اليهودي الذي يعود بجذوره إلى شرق أوربا .

وهذا يعني أن الدياسبورا ستصبح أساساً الدياسبورا الأمريكية أو الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، أي أن أعضاء الجماعات اليهودية سيصبحون جزءاً لا يتجزأ من الشعب الأمريكي بعد أن كانوا جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستيطاني الغربي . وإذا ما أخذنا في الاعتبار اعتماد إسرائيل شبه الكامل على الولايات المتحدة ، فيمكننا القول بأن يهود العالم في القرن القادم سيعيشون داخل الولايات المتحدة أو سيدورون في فلكها الحضاري والاقتصادي والسياسي .



الجزء الثالث

يهود أم جماعات وظيفية يهودية؟

١
الجماعات الوظيفية اليهودية

يهود أم جماعات وظيفية يهودية ؟ ـ الجماعات اليهودية والانتماء الطبقي ـ أسباب تَحوُّل بعض الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية ـ علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة ـ الجماعات الوظيفية اليهودية في العالم الغربي ـ علاقة الجماعات اليهودية بالصناعة ـ الرأسمالية والاشتراكية والجماعات اليهودية ـ تحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية : تاريخ ـ السمات الأساسية للجماعات اليهودية كجماعات وظيفية ـ الجماعات الوظيفية اليهودية : أنواعها المختلفة

يهود أم جماعات وظيفية يهودية ؟
Jews or Jewish Functional Groups?

تميل معظم الدراسات التي تتناول أعضاء الجماعات اليهودية إلى النظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متجانساً مستقلاً ، له آلياته وحركياته وأنماط تطوره الخاصة به والمقصورة عليه ، والتي يمكن فهمها من خلال إدراك ما يُسمَّى «الخصوصية اليهودية» ومن خلال دراسة ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» . ولكننا نرى أن كثيراً من جوانب حياة أعضاء الجماعات اليهودية لا يمكن تفسيرها إلا من خلال دراسة سياقهم التاريخي والإنساني العام ، ومقارنتهم بأعضاء الأقليات (الدينية والإثنية) الأخرى .

أي أنه لفهم أعضاء الجماعات اليهودية ، لابد من العودة إلى أطر ومرجعيات إنسانية عامة . ونحن نذهب إلى أن خصوصية الجماعات اليهودية هي ، في واقع الأمر ، خصوصيات مستمدة من المجتمعات التي تعيش أعضاء هذه الجماعات بينها ، ومن ثم فهي لا تختلف عن الخصوصيات التي يتسم بها أعضاء الأقليات ، كلٌّ حسب سياقه ، وأنه لا توجد خصوصية يهودية (واحدة) أو جوهر يهودي أو عبقرية يهودية أو جريمة يهودية .

ولتوضيح هذا الجانب استخدمنا مجموعة من النماذج التفسيرية المتداخلة : الحلولية الكمونية ـ العلمانية (الشاملة) والإمبريالية ـ اليهودية والهوية اليهودية كتركيب أيديولوجي ـ الجماعات الوظيفية . وفي هذا المجلد من الموسوعة سنستخدم كل هذه النماذج مع التركيز على نموذج الجماعات الوظيفية .

الجماعات اليهودية والانتماء الطبقي
Jewish Communities and Class Affiliation

كلمة «طبقة» هي المقابل العربي لكلمة «كلاس class» الإنجليزية وهي من الكلمة اللاتينية «كلاسيس classis» التي كانت تُطلَق على كل قسم من سكان روما حسب ملكيتهم . وقد عُرِّفت الطبقة بأنها فئة في المجتمع تتميَّز عن الفئات الأخرى وفقاً للتشابه في عوامل مادية ومعنوية مثل مستوى الدخل ومصادره وطبيعة المهنة ونصيب أفراده في ثروة المجتمع والقوة والسلطة الاقتصادية والمهنية . وفي المصطلح الماركسي ، تُعبِّر كلمة «طبقة» عن الأشكال الأساسية للعلاقات ذات الصلة بوسائل الإنتاج ، فالطبقة الرأسمالية هي التي تتحكم في أدوات الإنتاج أما الطبقة العاملة فهي التي لا تملك شيئاً سوى قوة أذرعها .

ويُفرِّق ماكس فيبر بين الطبقة من حيث إنها تشير إلى الوضع الاقتصادي والطبقة الاجتماعية من حيث إنها تؤكد معاني النفوذ وأسلوب الحياة والتداخل الوثيق بين عناصرها ، كما يميِّز أيضاً بين الطبقة والمكانة أو ما يُسمَّى «طبقة المكانة» ، أي الطبقة التي تتكون من أشخاص على مستوى متشابه من رموز الهيبة المشتقة من طريقة الحياة أو نموذج المهنة أو الأنشطة الاجتماعية أو السلالة أو الأسرة أو أية عوامل أخرى تُعتبر ذات أهمية خاصة في المجتمع .

وإذا ما حاولنا تحديد الطبقة أو الطبقات التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية عادةً ، فسنجد أن هذا أمر مستحيل بطبيعة الحال ، لأنهم ينتمون إلى مجتمعات مختلفة تمر بمراحل تطور مختلفة ، مما يعني قدراً عالياً من عدم التجانس . وقد يمكن التوصل إلى تعميمات ما ، ولكنها ستكون ذات طابع مجرد للغاية بحيث تصبح بلا قيمة تفسيرية . ولعل التعميم الوحيد الممكن هو أن أعضاء الجماعات اليهودية خاضعون للحركيات المختلفة للمجتمعات التي ينتمون إليها . ولذا ، فإن العبرانيين القدامى كانوا ، حتى عصر القضاة ، رعاةً رحلاً . وبعد الاستقرار في عصر الملكية ، انقسم المجتمع العبراني إلى طبقة حاكمة تضم الملك وكبار الملاك والنخبة

العسكرية ، وطبقات أخرى مثل الحرفيين والأرقاء . وبعد سقوط الدولة ، كان منهم الفلاحون والحرفيون والجنود المرتزقة وكبار ملاك الأراضي والكهنة . وفي الصين ، انضمت قيادتهم بأعداد متزايدة لطبقة الماندرين (نخبة المثقفين والعلماء التي حكمت الصين) . وفي إنجلترا ، في بداية القرن العشرين ، كان منهم كبار الرأسماليين والبروليتاريا في آن واحد .

وأعضاء الجماعات اليهودية جزء لا يتجزأ من مجتمعاتهم ، فالجماعات اليهودية تعرف الصراع الطبقي فيما بين أعضائها والذي قد يصل إلى حد التطاحن والقتال كما حدث في فلسطين إبان التمردات المختلفة ضد الحشمونيين والرومان ، إذ أن أثرياء اليهود كانوا جزءاً من المؤسسة اليونانية (السلوقية) أو الرومانية ، ولهذا كانت الثورات تندلع ضدهم . كما أن مختلف مؤسسات الإدارة الذاتية ، مثل القهال ، كان يدور داخلها الصراع الطبقي وبحدة . وفي منطقة الاستيطان ، كان العمال من أعضاء الجماعات اليهودية ينظمون إضرابات ضد الرأسماليين اليهود الذين كانوا يستغلونهم . كما أن الرأسماليين من أعضاء الجماعات اليهودية بدورهم كانوا يرفضون استئجار العمال اليهود حتى لا يخضعوا للضغوط الاجتماعية . وفي الولايات المتحدة قام الرأسماليون اليهود من أصول ألمانية باستغلال المهاجرين من يهود اليديشية .

ولكن من الممكن الوصول إلى تعميمات ذات مقدرة تفسيرية معقولة لو تخلينا عن الرؤية البانورامية العالمية الواسعة ومفهوم الطبقة وخفضنا مستوى التعميم واقتصرنا على الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية . ويُلاحَظ أن انتماءات اليهود الطبقية داخل هذه الحضارة مُركَّبة إلى أقصى حد ، ومع هذا يمكن القول بأن أحد أهم الأنماط المتكررة هو نمط الجماعة الوظيفية المالية والحِرَفية . والجماعة الوظيفية ليست لها علاقة مباشرة بالبناء الطبقي والاجتماعي للمجتمع ، إذ تقف على هامشه وتتحدد علاقتها بالدور الذي تلعبه والوظيفة التي تضطلع بها . واليهود ، كجماعة وظيفية (أقنان بلاط ـ يهود بلاط ـ يهود أرندا) ، كانوا هم أنفسهم أداة إنتاج في يد الحاكم ، وكانت المواثيق التي يمنحها لهم تنص على أنهم ملكية خاصة له . وبهذا ، لم يدخل أعضاء الجماعة اليهودية في علاقات إنتاج وإنما كانوا أداة تتحدد من خلالها علاقات الإنتاج ؛ أداة لجمع الضرائب ولزيادة الفوائد على الربا . وقد كان وجود أعضاء الجماعة اليهودية داخل الجيتو ، بمعزل عن بقية طبقات المجتمع ، تعبيراً عن هذا الوضع الذي يتحدَّد من خلال الوظيفة خارج السلم الطبقي . وكان المجتمع ككل ينظر إلى أعضاء الجماعة اليهودية لا باعتبارهم أثرياء أو فقراء أو فلاحين أو نبلاء وإنما باعتبارهم مادة بشرية تضطلع بوظيفة التجارة والربا وغير ذلك من الوظائف المتميِّزة أو المشينة .

وكان أعضاء الجماعة اليهودية الوظيفية ، بسبب طبيعة وضعهم ، يضطرون إلى التلاحم فيما بينهم ، الأمر الذي كان يقلل من حدة الصراع الطبقي بين أعضاء الجماعة .

ومع ظهور الدولة الحديثة ، اختفى هذا الوضع إلى حدٍّ كبير ، وتم استيعاب أعضاء الجماعة داخل البناء الطبقي والاجتماعي للمجتمعات الغربية ، ولم يبق سوى صدى خافت لوضعهم السابق كأعضاء في جماعة وظيفية ، ويتجلى ذلك في تَركُّزهم في صناعات ومهن بعينها دون غيرها ، وفي كثير من القطاعات التي تُعدُّ هامشية مثل الإعلام والإعلان والسينما ، وفي غيابهم عن قطاعات أولية مثل التعدين والزراعة .

ويمكن القول بأن عدم انتماء أعضاء الجماعات اليهودية إلى طبقة محددة ، وتَحوُّلهم إلى جماعة وظيفية ، هو الذي يُفسِّر سبب عدم مساهمتهم في بناء الرأسمالية الغربية الرشيدة وسبب عدم ظهورهم حركة استعمارية يهودية مستقلة ، ويُفسِّر أيضاً لماذا تعيَّن على الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني أن يكون استعماراً عميلاً ، امتداداً للجماعة الوظيفية العميلة .

أسباب تحول بعض الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية

Reasons for the Transformation of Some Jewish Communities into Functional Groups

يمكن تفسير ظاهرة تَحوُّل كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية بمركب من الأسباب ، تاريخي واجتماعي وديني . ويمكننا أن نبدأ بالعودة إلى الدولة العبرانية القديمة ، وهي دولة لم تكن تتمتع بمستوى تكنولوجي أو حضاري متقدم ، ولهذا كانت غير قادرة على تشغيل كل سكانها . كما أنها كانت دولة ضعيفة غير قادرة على حمايتهم الأمر الذي أسفر عن أسر عشرات وربما مئات الألوف منهم ، حيث هُجِّروا إلى بابل وآشور فتحولوا إلى جماعات بشرية غريبة يمكن تجنيدها كمرتزقة أو مستوطنين ، كما أنهم تخصصوا هناك في وظائف بعينها دون غيرها . ومما عمَّق هذا الاتجاه ، وجود كثير من الجماعات اليهودية في الشرق الأوسط وفي حوض البحر المتوسط ، وهي منطقة سيطرت عليها عديد من الإمبراطوريات ، الواحدة تلو الأخرى ، وكانت القوى الإمبراطورية الصاعدة تتحالف مع أعضاء الجماعات اليهودية نظراً لعدم خشيتها منهم وتجندهم في صفوفها كمرتزقة أو مستوطنين أو حتى جواسيس .

وكانت فكرة الوطن الأصلي ، مركز اهتمامهم الديني ، تساعد على إضعاف علاقتهم بوطنهم الجديد ، وعلى عزلتهم عن مجتمعاتهم ، وعلى انغلاقهم على أنفسهم . وكان من الممكن أن تختفي هذه الجماعات تماماً بسقوط الهيكل ، ولكن الذي حدث أن فكرة الوطن الأصلي (الحنين إلى صهيون) حلت محل الوطن الأصلي ذاته ، وهو ما أعطى أعضاء الجماعات اليهودية تَماسُكاً إثنياً - ولكنه تَماسُك وهمي لأنه لم يَعُد هناك مركز قومي فعلي يحدد المعايير الدينية أو القومية . وبينما كانت الهويات اليهودية تتشكل في الواقع من خلال تشكيلات حضارية مختلفة ، كان أعضاء الجماعات اليهودية يدورون في إطار فكرة الهوية اليهودية الإثنية الدينية الواحدة . وهذه التركيبة مناسبة إلى أقصى درجة للجماعات الوظيفية ، ففكرة الوطن تضمن تماسكهم وعزلتهم وتَجرُّدهم اللازم للاضطلاع بوظائفهم المختلفة ، بينما يساعد تكيفهم الفعلي على زيادة كفاءتهم وعلى أن يصبحوا في المجتمع دون أن يكونوا منه . وقد دعَّم تدوين التلمود هذه الازدواجية : الاستقلالية الإثنية النفسية من ناحية ، والتكيف والاندماج الفعلي من ناحية أخرى . فالتلمود يضم التفاصيل الخاصة بشعائر الصلوات في الهيكل وكل التفاصيل الخاصة برداء الكاهن الأعظم والشعائر الخاصة بسنة اليوبيل والسنة السبتية ، كما يضم أدق التفاصيل الخاصة بما سيحدث بعد عودة الماشيَّح إلى صهيون وكل الشعائر الخاصة بحياة اليهودي خارج مجتمع الأغيار ، أي أن التلمود كرس عزلة أعضاء الجماعة وقتنها وزود فكرة الهوية اليهودية بإطار واضح وتَحوَّل هو ذاته إلى « وطن اليهود [الوهمي] المتنقل » الذي يشكل نقطة مرجعية نفسية دون أن يكون مأوى حقيقياً لهم .

ولكن أهم العوامل التي أدَّت إلى تَحوُّل كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية ، هو طبيعة المجتمع الإقطاعي في الغرب . وقد أشرنا إلى أن ظهور مثل هذه الجماعات يعود عادةً إلى وجود ثغرة في المجتمع بين رغباته و حاجاته من جهة ، ومقدرته على الوفاء بها من جهة أخرى . وقد كانت مثل هذه الثغرة قائمة في المجتمع الإقطاعي الغربي ، حيث كان يُوجَد نبلاء وفرسان من ناحية وفلاحون من ناحية أخرى . وكان النشاطان الأساسيان هما القتال والزراعة ، أما القتال فكان مغلقاً تماماً بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية لأنها وظيفة كانت مرتبطة تمام الارتباط بطبيعة المجتمع الاقطاعي الغربي المسيحية . ورغم أن الزراعة كانت بديلاً مفتوحاً أماما أعضاء الجماعات اليهودية إلا أنه تم استبعادهم منها تدريجياً لأسباب سنبينها في مدخل آخر (انظر : «علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة») . أما بخصوص النشاطات التجارية والمالية وبعض الحرف فكانت نشاطات هامشية وأحياناً وضيعة تحتاج لعنصر محايد غريب للاضطلاع بها . وقد قامت كلٌّ من المدن المختلفة وأعضاء الجماعات اليهودية بسد هذه الثغرة . لكن بينما كان اندماج المدن في الاقتصاد القومي يتزايد على مرّ الأيام ، حتى أصبحت جزءاً عضوياً منه وقامت بتغييره وقيادته في نهاية الأمر ، كانت غربة أعضاء الجماعات اليهودية وعزلتهم وانفصالهم تتزايد ، وكان وضعهم كجماعة وظيفية غير ملتحمة بالاقتصاد الوطني يتعمق . وكان أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون ، في كثير من الأحيان ، الأقلية الوحيدة . وقد ساهمت عمليات الطرد المختلفة (التي استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر ووصلت إلى ذروتها مع وعد بلفور) في تدعيم هوياتهم كجماعات وظيفية لا تضرب بجذورها في أية رقعة جغرافية . ثم ظهرت الإمبريالية الغربية والاستعمار الاستيطاني ، وكان أعضاء الجماعات اليهودية من أهم العناصر المهاجرة ، فانتقلت كتلتهم البشرية من شرق أوربا إلى الولايات المتحدة وبعض الدول الاستيطانية الأخرى . وعادةً ما تتحول جماعات المهاجرين إلى جماعات وظيفية .

علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة

Relationship between Jewish Communities and Agriculture

من أهم أسباب تَحوُّل الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية علاقتهم بالزراعة وملكية الأرض الزراعية ، ومن ثم فإن العرض التاريخي لتطور هذه العلاقة يلقي الضوء على آليات تكون الجماعة الوظيفية . كان العبرانيون ، في الأساس ، شعباً من البدو الرعاة . ولكن ، بعد استقرارهم في كنعان ، تحوَّلت أعداد منهم من الرعي إلى العمل بالزراعة . ويبدو أن عبارة «أرض اللبن والعسل» هي إشارة إلى اختلاط وظائفهم : فاللبن هو إشارة إلى مهنة الرعي . أما العسل ، الذي يتطلب إنتاجه الاستقرار ومعرفة عالم الحيوان والنبات ، فهو يرمز إلى الزراعة . وقد جاء في كلٍّ من التوراة والتلمود تعليمات كثيرة بشأن زراعة الأرض وتقديم القرابين في مواسم الحصاد .

وكانت الزراعة ، في بادئ الأمر ، بدائية تعتمد على مياه الأمطار والينابيع . ولكن العبرانيين أخذوا يتعلمون مهنة الزراعة بالتدريج من الكنعانيين . ولعل هذا هو الذي أدَّى إلى الابتعاد عن يهوه (إله الصحراء والرعي) والاقتراب من بعل (إله الزراعة والخصب) ، بحيث أصبحت عقيدتهم خليطاً من التوحيد اليهودي

والتعددية البعلية . وكانت ملكية الأرض محدودة ، ولم تظهر إقطاعيات زراعية ضخمة في بادئ الأمر . ولهذا ، نجد أن الملاك الزراعيين كانوا يعملون هم أنفسهم بالزراعة لصغر ملكياتهم . ثم ظهرت بالتدريج طبقة صغيرة من كبار (الملاك) الزراعيين ، وطبقة كبيرة من الفلاحين المعدمين . وبدلاً من الزراعة العائلية ، ظهرت الضياع الكبيرة التي يعمل فيها هؤلاء المعدمون . ولعل ظهور مؤسسة الملكية كان تعبيراً عن هذا الوضع وتكريساً له ، فهي مؤسسة كان لها بيروقراطيتها الكهنوتية والعسكرية والمهنية ، وكان القائمون عليها يستولون على ريع الأراضي وعلى المحاصيل فيزدادون ثراء وتتركز الملكية الزراعية في أيديهم ، وقد انتهت هذه المرحلة بهدم الهيكل علَى يد نبوختنصر .

وعند عودة المُهجَّرين من بابل ، وجدوا أن الأرض الزراعية قد أقفرت . ومن ثم أصبح النمط السائد هو الزراعة العائلية ، ولكن بدأت تظهر مرة أخرى طبقتان : أقلية من كبار ملاك الأراضي ، وأغلبية ساحقة من الفلاحين المعدمين . إلا أنه يُلاحَظ هذه المرة بداية التشققات الحضارية التي ساهمت في القضاء على الوجود العبراني في فلسطين ، إذ أن كبار ملاك الأراضي كانوا يتبنون ثقافة الإمبراطورية الحاكمة فتأغرقوا في العصر الهيليني وتحولوا إلى جماعة وظيفية تجمع الضرائب من الفلاحين لصالح الدولة الحاكمة وتشتغل بالتجارة المحلية والدولية ليصبحوا مُستوعَبين تماماً في البنية الإدارية والثقافية للإمبراطورية ، بينما ظل الريف زراعياً سامياً آرامياً .

وهذا يعني ، في الواقع ، أن غالبية اليهود في فلسطين كانوا يعملون بالزراعة ، وذلك على عكس يهود الإسكندرية وبرقة ، الذين كانوا جماعات وظيفية استيطانية أو قتالية أو مالية . وقد أدَّى الاستقطاب الطبقي والثقافي في فلسطين إلى التمرد الحشموني ثم التمردين الأول والثاني ضد الرومان . وقد أخمدت كل هذه التمردات مما عجَّل بانتشار اليهود على هيئة جماعات وظيفية .

وفي العصور الوسطى في الغرب ، على عكس ما هو شائع ، كان من حق اليهود في كثير من بقاع أوربا امتلاك الأراضي الزراعية . ولكن بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي ، ضاقت الرقعة الزراعية في أوربا وظهرت قوانين تمنع اليهود (والأديرة والكنائس) من ملكية الأرض . وربما شكَّل اليهود بالذات خطراً على الرقعة الزراعية لأنهم عنصر تجاري متحرك ، ولذا ظهر الخوف من أن يحوز اليهودي أرضاً زراعية وهو غريب متنقل ، فتنتقل ملكيتها إلى غرباء ويصب ريعها خارج الإمارة التي توجد فيها الأرض .

وكان محرماً على أعضاء الجماعات اليهودية استئجار أرقاء مسيحيين لزراعة الأرض . وفي الوقت نفسه ، حرَّمت عليهم الشريعة اليهودية استئجار أرقاء يهود ، الأمر الذي جعل الملكية الزراعية شيئاً غير مثمر بالنسبة لليهودي . كما أن تحريم العمل على اليهودي في يوم السبت وتحريمه على المسيحيين يوم الأحد ، جعل من المستحيل التعاون بينهما لأن هذا يعني إجازة أسبوعية مدتها يومان ، مما جعل النشاط الزراعي غير مربح ، بل مستحيلاً ، في بعض الأحيان . ويبدو أن الطبيعة الطائفية للجماعة اليهودية ، وضرورة القيام بالشعائر الدينية ، جعلت من الأفضل لليهود الإبقاء على الصلات الدائمة فيما بينهم للقيام بالشعائر التي لا يسهل القيام بها في ظروف الوحدات الريفية المتباعدة . وقد أوجد هذا البنيان المتميز اتجاهاً بين القادمين الجدد للبقاء في التجمعات التي أقامها أبناء ملتهم .

كل هذه الأوضاع اضطرت أعضاء الجماعات اليهودية لبيع أراضيهم الزراعية ، وصدرت التشريعات التي تحرِّم عليهم امتلاكها فزاد تركزهم في التجارة وتبلور وضعهم كجماعة وظيفية تجارية أو مالية .

ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادي ، أصبح ذلك هو الوضع القانوني والاقتصادي لمعظم الجماعات اليهودية في أوربا الإقطاعية . لكن هذا لم يكن يعني عدم وجود فلاحين يهود يعملون بالزراعة ، فقد كان يوجد ، في البلقان وبلاد الخزر والصين وبولندا وإسبانيا المسيحية ، يهود يعملون بهذه المهنة .

أما العالم الإسلامي ، فلم يحدث فيه ، في تلك الفترة ، تَمايُز وظيفي أو اقتصادي كبير لأعضاء الجماعة اليهودية عن بقية السكان ، وإن كان يُلاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية فيه لم يعملوا بأعداد كبيرة في الزراعة . والجدير بالملاحظة أن كثيراً من التجار والمموِّلين اليهود كانت لهم علاقة بالقطاع الزراعي ، لا كمزارعين وإنما كتجار وجامعي ضرائب . فنظام الأرندا هو في جوهره نظام لتأجير الأراضي الزراعية . كما أن ارتباط اليهود ببيع الخمور هو نتيجة علاقتهم بالقطاع الزراعي . فضلاً عن أن كثيراً من التجار اليهود كانوا يتاجرون في المحاصيل الزراعية .

وثمة نظرية تذهب إلى أن بقاء اليهود واستمرارهم هو نتيجة عدم اشتغالهم بالزراعة . فحينما يبتعد أعضاء الجماعات اليهودية عن الزراعة فإنهم يتحولون عادةً إلى جماعة وظيفية يتم عزلها ثقافيا وفعلياً عن المجتمع ، ومن ثم تتطور لها هوية مستقلة الأمر الذي يضمن استمرارها . هذا على عكس وضع أعضاء الجماعات اليهودية حينما يعملون بالزراعة ، فهم يختلطون بالسكان

ويكتسبون ملامحهم وخطابهم الحضاري ويذوبون فيهم ، ومن ثم فإن الفارق بين القبائل العبرانية التي هُجِّرت إلى أشور وانصهرت واختفت وتلك التي هُجِّرت إلى بابل وبقيت هو أن الأولى عملت بالزراعة فذابت واختفت أما الثانية فقد اشتغل بعض أعضائها بالتجارة فتم عزلهم وتَحقَّق استمرارهم .

ولم تنقطع صلة المموِّلين اليهود بالقطاع الزراعي في العصر الحديث ، فكثير منهم استثمروا أموالهم باعتبارهم جزءاً من الرأسمالية الغربية الناشئة . وكان كثير من أصحاب الضياع الكبيرة في جزر الهند الغربية من اليهود ، وهي ضياع كانت جزءاً من الاقتصاد الرأسمالي الاستعماري والاستيطاني ، تخصصت في زراعة السكر وتصديره ، ومن ثم كانت جزءاً من المثلث اللعين الذي تُشكِّل تجارة الرقيق أحد أهم أضلاعه . وكان هناك عدد من المموِّلين اليهود (في ألمانيا وروسيا) تركزوا في صناعة الأخشاب والصناعات المرتبطة بالقطاع الزراعي .

ويُلاحَظ أن هذه النشاطات هي نشاطات تجارية في القطاع الزراعي ، ومن ثم فهي تعني أن أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب كانوا لا يعملون بالزراعة . وقد ظهر منذ عصر الاستنارة في الغرب نقد للشخصية اليهودية باعتبارها شخصية طفيلية هامشية تعيش على رزق الآخرين وكدهم ولا تبذل جهداً ولا تنتج شيئاً . وكان عدم اشتغال اليهود بالزراعة يُعَدُّ شاهداً على ذلك . ومن ثم ، حاولت الدولة الحديثة التي اضطلعت بمعظم مهام الجماعات الوظيفية تشجيع أعضاء الجماعات اليهودية على الاشتغال بالزراعة والابتعاد عن التجارة والربا . وكان يُنظَر إلى هذه العملية باعتبارها عملية تطبيع لليهود (أي تحويلهم من أعضاء في جماعات وظيفية يرتبط نشاطها الاقتصادي بإثنيتها وعزلتها إلى شخصيات طبيعية سوية حديثة يمكن دمجها في المجتمع) . كما كانت هذه العملية تُسمَّى تحويل اليهود إلى قطاع منتج ، ولذا صدرت تشريعات عديدة في فرنسا بعد الثورة لتحقيق هذا الهدف ولفتح المجال الزراعي أمامهم .

وقد كان شرق أوربا هو المسرح الأساسي لهذه العملية التاريخية . فالتحديث الفجائي وظهور الدولة المركزية التي اضطلعت بكثير من أعمال الجماعات الوظيفية ، ثم الانفجار السكاني بين يهود اليديشية ، خلقا معاً فائضاً بشرياً يهودياً ، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور ما يُسمَّى «المسألة اليهودية» . وقد طُرح العمل بالزراعة باعتباره أحد الحلول ، وخصوصاً أن روسيا كانت تضم أراضي زراعية كثيرة خالية من السكان يمكن توطين أعضاء الجماعات اليهودية فيها . كما ساهمت عقيدة النارودنيك (الشعبويين) في إضفاء غلالة من الرومانتيكية على مهنة الزراعة التي كانوا يعدونها أشرف المهن انطلاقاً من أن روح روسيا توجد بين الفلاحين لا بين سكان المدن . وقد أدَّى تَعثُّر التحديث في روسيا إلى فشل كثير من هذه المحاولات ، خصوصاً أن جهاز الدولة القيصرية لم يكن كفئاً ولا أهلاً للاضطلاع بالمسئولية .

وبعد الثورة البلشفية ، قامت عدة محاولات لتحويل اليهود إلى القطاع الزراعي في أوكرانيا وشبه جزيرة القرم ، ولكن أهم المحاولات كانت تجربة بيروبيجان .

ويتمثل أحد أهداف الحركة الصهيونية في تشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة لتطبيعهم . ولكن الزراعة الصهيونية كانت ذات طابع شبه عسكري لأنها تُوطِّن اليهود على أرض يشغلها شعب آخر ، فالزراعة (هنا) هي إحدى آليات الاستيطان الإحلالي والتي تتجسد في بناء المزارع الجماعية والكيبوتسات التعاونية والموشافات ، وفي طريقة تحديد مواقعها ، أي أن الزراعة في الإطار الصهيوني لم تَعُد الآلية المُستخدَمة في تحويل أعضاء الجماعات اليهودية من جماعات وظيفية إلى أعضاء في مجتمع ، وإنما هي آلية تحويلهم من جماعة وظيفية مالية إلى جماعة وظيفية استيطانية قتالية . ورغم كل الادعاءات الصهيونية بشأن نجاح الصهاينة في تطبيع اليهود ، فإن نسبة عدد اليهود العاملين بالزراعة في الوقت الحالي لا تختلف كثيراً عن عدد من كان يعمل منهم بالزراعة في روسيا في عام ١٨٨٢ ، أي قبل الاستيطان الصهيوني في فلسطين . وهو عدد ، على أية حال ، آخذ في التناقص ، مع تغلغل العمالة العربية في القطاع الزراعي من الاقتصاد الإسرائيلي . ومع هذا ، كان عدد اليهود الذين يعملون بالزراعة في العالم عام ١٩٣٥ ، حسب تقديرات روبين ، حوالي ٦٠٠,٠٠٠ ، أي ٣,٦٪ من مجموع يهود العالم البالغ عددهم نحو ستة عشر مليوناً ، أكثر من نصفهم من يهود روسيا وبولندا (٢٥٠ ألفاً في روسيا و١٠٠ ألف في بولندا) . كما ظهرت تجربة استيطانية زراعية يهودية في الأرجنتين برعاية البارون هيرش ، وقد نتج عن ذلك وجود أعلى نسبة من اليهود العاملين في الزراعة في الأرجنتين عام ١٩٣٥ (٤,٣٪ من يهود بولندا ، و٤,٢٪ من يهود روسيا ، و٢,٢٪ من يهود الولايات المتحدة ، بالمقارنة مع ٥,٨٪ من يهود الأرجنتين) . ولكن ، مع حلول عام ١٩٦٠ ، هبطت نسبة العاملين بالزراعة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى ٢٪ ، وهذا العدد يضم العاملين في القطاع الإداري في الريف .

الجماعات الوظيفية اليهودية في العالم الغربي

Jewish Functional Groups in the Western World

عرفت جميع المجتمعات البشرية تقريباً ظاهرة الجماعات الوظيفية (فهي تعبير عن شيء أساسي في النفس البشرية) ، ومع هذا نميل إلى القول بأنها ظاهرة أخذت شكلاً أكثر حدة في الحضارة الغربية منها في الحضارة الإسلامية . وإذا نظرنا إلى وضع الجماعات اليهودية في الحضارة الإسلامية ، بالمقارنة بالحضارة المسيحية الغربية ، فإننا نجد أن عملية الحوسلة بالنسبة لهم لم تتم على نفس المستوى ولا بنفس الحدة ، وأن تركيبتهم الطبقية والمهنية لم تكن تختلف كثيراً عن تركيبة بقية أعضاء المجتمع . كما يمكن أن نضرب مثلاً بأقباط مصر ، فرغم أنهم يشكلون الأقلية العددية الهامة الوحيدة في المجتمع المصري (فالنوبيون وسكان الصحراء لا يشكلون قوى اجتماعية أو بشرية مهمة) إلا أننا نجد أن خطابهم الحضاري لا يختلف عن الخطاب الحضاري للمسلمين ، كما أنهم لا يختلفون عنهم لا في الزي ولا في اللغة ولا في العادات أو التقاليد ولا في الانتماءات الطبقية أو في التَوزُّع الوظيفي أو السكاني . ومما لا شك فيه أن بعض قطاعات من أقباط مصر تمت حوسلتها في وظائف بعينها (مثل الربا في بعض قرى مصر ، أو جمع القمامة لارتباط ذلك بتربية الخنازير) ، إلا أن الحوسلة لم تكن كاملة أو جوهرية بل ظلت هامشية ، وظل أقباط مصر جزءاً لا يتجزأ من مجتمعهم لا يمكن التعرف عليهم إلا من خلال أسمائهم المتميِّزة في بعض الأحيان .

وقد قام المجتمع الغربي بحوسلة اليهود داخله تماماً على هيئة جماعة وظيفية مالية حتى ارتبط اسم اليهود بدور المرابي والتاجر الطفيلي والذي اضطلع به اليهود وحدهم تقريباً . وقد أصبحت كلمة «تاجر» أو كلمة «مرابي» مرادفة لكلمة «يهودي» ، وأصبح يُطلَق على هذه الوظائف اسم «الوظائف اليهودية» حتى أن الصينيون حينما يضطلعون بدور التاجر والمرابي في جنوب شرق آسيا يُطلَق عليهم «يهود جنوب شرق آسيا» ، وحينما يضطلع الهنود بنفس الدور في أفريقيا (ومن بينهم مسلمون) يُسمون «يهود أفريقيا» ، فكأن هناك مفهوماً كامناً لفكرة «اليهودي الوظيفي» أي الإنسان الوظيفي الذي يضطلع بالوظائف التي يُقال لها يهودية ، وكل من يضطلع بها يصبح يهودياً (بالمعنى الوظيفي) .

ومع هذا ، ينبغي الإشارة إلى أن هناك جماعات من اليونانيين والأرمن كانت تقوم بهذه الوظائف في بعض الدول الغربية (في بولندا وفي بعض دول أوربا الشرقية الأخرى) . كما أنهم لعبوا نفس الدور في الدولة العثمانية . ولذا ، كانت تُطلَق كلمة «يوناني» أو «أرمني» على كل من يعمل في هذه الوظائف ، سواء كان يونانياً أو أرمنياً أو لم يكن .

ويبدو أن نموذج اليهود كجماعة وظيفية مُتجذِّر تماماً في الوجدان الغربي ، ولذا حينما طُرحت المسألة اليهودية في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر كان الحل هو تأسيس الدولة الصهيونية الوظيفية ، وهو إعادة إنتاج الجماعات اليهودية على هيئة دولة وظيفية بدلاً من جماعات وظيفية ، كما أن النظام العالمي الجديد ، وهو ثمرة من ثمرات الحضارة الغربية ، يميل إلى تحويل كل البشر إلى عناصر وظيفية .

علاقة الجماعات اليهودية بالصناعة

Relationship between Jewish Communities and Industry

يستطيع القارئ أن يرجع للباب المعنون «التحديث والمسألة اليهودية» (المجلد الثالث) ، وذلك للإحاطة بجذور علاقة أعضاء الجماعات اليهودية (كجماعات وظيفية) بالصناعة في الحضارة الغربية . وتتناول المداخل الخاصة بالتراث اليهودي (الموروث الاقتصادي) في الباب المعنون «ثقافات أعضاء الجماعات اليهودية» (المجلد الثالث) والمداخل الخاصة بتاريخ الجماعات اليهودية في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة (المجلد الرابع) تَطوُّر علاقة أعضاء الجماعة اليهودية بالصناعة وأثر الميراث الاقتصادي لأعضاء الجماعات اليهودية على وضعهم الاقتصادي والمهني في الوقت الحالي .

الرأسمالية والاشتراكية والجماعات اليهودية

Capitalism, Socialism, and Jewish Communities

يستطيع القارئ أن يعود للباب المعنون «الرأسمالية والجماعات اليهودية» و«الاشتراكية والجماعات اليهودية» (المجلد الثالث) ليدرس كيف أثَّر تَحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية على علاقتهم بالرأسمالية وتَطوُّرها والاشتراكية وتَطوُّرها وفي موقف المفكرين الرأسماليين والاشتراكيين منهم .

تحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية : تاريخ

Transformation of Jewish Communities into Functional Groups : History

يبدو أن العبرانيين ، منذ بداية ظهورهم في التاريخ ، كانوا

يشكلون جماعة وظيفية . فقد كانوا بدواً رُحَّلاً تجندهم المجتمعات المختلفة للاضطلاع ببعض الوظائف التي يأنف أعضاء الأغلبية عن القيام بها . وكلمة «خابيرو» ، التي يُقال إنها أصل كلمة «عبري» ، تعني العبد الذي أصبح كذلك بمحض اختياره (أي مرتزق) . ثم أخذ العبرانيون يستقرون تدريجياً منذ عصر القضاة وحتى عصر المملكة العبرانية المتحدة ، حيث أصبحوا شعباً رعوياً تشتغل بعض قطاعاته في الزراعة والحرف البدائية ، ولم يعملوا بالتجارة على نطاق واسع . وفي هذه الفترة بدأ يعمل بعض العبرانيين جنوداً مرتزقة . وقد استمر العبرانيون في العمل بالزراعة بعد التهجير البابلي ، وإن بدأت تظهر بينهم قطاعات من الأثرياء الذين بدأوا يعملون في التجارة وأعمال الصيرفة ، كما تزايد عدد اليهود المرتزقة وبدأت بعض الجماعات اليهودية تتحول إلى جماعات وظيفية استيطانية وقتالية وتجارية . ومع ظهور التجمعات اليهودية المختلفة خارج فلسطين ، بدأ أعضاء الجماعات اليهودية يبتعدون عن الزراعة ويعملون في التجارة والحرف المختلفة . ويمكن القول بأن أول دياسبورا يهودية حقيقية هي الجماعة العبرانية الاستيطانية القتالية التي وطّنها فراعنة مصر في جزيرة إلفنتاين ، لحماية حدود مصر الجنوبية ، وهو تقليد استمر بعد ذلك في مصر البطلمية وفي سوريا السلوقية .

ويُلاحَظ أن الجماعات اليهودية بدأت تتحول بالتدريج إلى جماعات وظيفية . ولكن ، مع حلول العصور الوسطى في العالم الغربي، ابتداءً من القرن التاسع الميلادي على وجه الخصوص ، تسارعت هذه العملية وتبلورت حيث ملأ اليهود الفراغات بين طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين وأصبحوا أقنان بلاط ، أي جماعة وظيفية مالية تابعة للبلاط الملكي تضطلع بدور التجارة والربا وجمع الضرائب ، وكلها مسميات مختلفة للجماعة الوظيفية التي تُستخدَم كأداة نافعة . ونظراً لوجود جماعات يهودية في العالمين الإسلامي والمسيحي ، فقد استفاد أعضاؤها من شبكة الاتصالات الدولية وأصبحوا يشكلون ما يشبه الجماعة الوظيفية المالية على المستوى الدولي ، واشتغلوا بالتجارة الدولية (مثل تجارة الفراء والمنسوجات والتوابل والرقيق) وأعمال الصيرفة . وبدأ تَركُّزهم في الحرف التي تتطلب مهارة فنية فائقة مثل صناعة الزجاج والصباغة أو ترتبط بسلع معينة مثل الذهب ودبغ الجلود والخمور (وهي عادةً سلع نادرة أو نفيسة أو غير عادية وذات طابع استهلاكي) أو بالحرَف التي يمكن لصاحبها أن يحمل أدواته ورأسماله معه (السجاد - الجواهر - أدوات إنتاج خاصة) .

ويُلاحَظ أن ظاهرة تَحوُّل اليهود إلى جماعة وظيفية لم تكن مقصورة على العالم الغربي وإنما امتدت لتشمل العالم الإسلامي ، ولكن لم يكن اليهود هم الجماعة الوظيفية الوسيطة الوحيدة فيه . كما كان ثمة تنوُّع في حرف ووظائف أعضاء الجماعات اليهودية ونشاطهم الاقتصادي في العالم الإسلامي ، حتى أن هرمهم الاقتصادي والحرَفي كان لا يختلف أحياناً عن الهرم الاقتصادي والحرَفي في المجتمع ككل . ومن جهة أخرى ، كان لأوضاع أعضاء الجماعات اليهودية ، في الصين والهند وإثيوبيا ، خصوصيتها المختلفة النابعة من الخصوصيات والحركيات المختلفة للمجتمعات التي يوجدون فيها . ولذا ، فنحن لا نقترح نمطاً يهودياً عاماً وعالمياً ، وإنما نقترح نمطاً خاصاً مقصوراً على أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية .

لقد بدأ انسحاب أعضاء الجماعات اليهودية التدريجي من التجارة (الدولية والمحلية) في الغرب ، حتى تخصصوا في الإقراض الربوي في الفترة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين . وبدأوا يعملون أيضاً ملتزمي ضرائب في أوربا الشرقية ، حتى أصبحت هذه هي إحدى الوظائف الأساسية ليهود بولندا وليتوانيا ، خصوصاً في أوكرانيا في القرن السادس عشر الميلادي (يهود الأرندا)، إذ قاموا بتمثيل النبلاء في إقطاعياتهم داخل إطار نظام الأرندا والإقطاع الاستيطاني . ولكن هذا النظام نفسه فتح لهم مجالات جديدة في الاستثمار والعمل ، فظهرت طائفة من الحرَفيِّين اليهود يعملون في قطع الأخشاب وتقطير الخمور والصباغة ودبغ الجلود . وبرز في وسط أوربا يهود البلاط الذين كانوا عادةً من كبار المموِّلين وذوي الخبرة الإدارية والاتصالات الدولية والمعرفة بالشئون الاقتصادية ، ولذا كانوا في منزلة وزراء اقتصاد وخارجية ومخابرات لأمراء الإمارات الألمانية وغيرها من دول وسط أوربا التي كانت ترغب في تنمية نفسها اقتصادياً . ويُلاحَظ أن الإقراض الربوي الذي كان يقوم به أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية قد تدهور ، فبدلاً من إقراض كبار النبلاء والكنيسة ، أصبح إقراض الفلاحين والحرَفيِّين نظير رهن أشياء مثل الملابس المستعملة والمجوهرات . ومن هنا ، بدأ الحرفيون يعملون في حرف رتق الملابس والخياطة والصباغة . ومع القرن الثامن عشر الميلادي ، صار معظم أعضاء الجماعات اليهودية في شرقي أوربا بورجوازيين صغاراً : بقالين وباعة جوالين وبائعي ثياب قديمة وخياطين . كما كان من الوظائف الأخرى المهمة لأعضاء الجماعات اليهودية قيامهم بعمليات الاستيطان والريادة . ولكن الاضطلاع بهذه الوظيفة كان يعني ،

ابتداءً من القرن السابع عشر ، الخروج من المجتمع الغربي والاستقرار في مجتمعات جديدة في إطار الاستعمار الاستيطاني الغربي .

ويُلاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية ، بوظائفهم هذه ، كانوا دائماً أصحاب أعمال مستقلين ، وكان مستواهم المعيشي أحسن حالاً من الفلاحين والأرقاء المسيحيين . وكان أعضاء الجماعات اليهودية بمهنهم المختلفة (بوصفهم تجاراً دوليين ومرابين) يعملون في مهن غير منتجة ، فهي مهن لا تهدف إلى إعادة صياغة المادة وإنما هي وظائف إدارية وعملها شكل من أشكال المضاربات ، ومن هنا يجري وصف أعضاء الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي بالهامشية والطفيلية .

وقد بدأ هذا الوضع في التغير بعد الثورة التجارية وظهور المركنتالية ونظام الاتجار والإقراض اللذين يشكلان قلب النظام الاقتصادي الجديد . وداخل هذا الإطار الجديد ، تغيَّر البناء الوظيفي لأعضاء الجماعات اليهودية . وحينما دخل يهود المارانو الاقتصاد الغربي في القرن السابع عشر الميلادي ، لم يكونوا التجار أو الممولين الوحيدين ، كما لم يقفوا على هامشه ، وإنما أصبحوا مموِّلين داخل اقتصاد تجاري مالي نشط له مشروع استعماري استيطاني عالمي ، فأصبحوا جزءاً منه واستثمروا في شركاته الاستيطانية المختلفة . وظهر يهود البلاط الذين أداروا ميزانيات كثير من الدول الملكية والإمارات المطلقة ، خصوصاً في سط أوربا ، وساهموا في تحديثها . ومع القرن التاسع عشر الميلادي وتَصاعُد الثورة الصناعية ، بدأ تحديث البناء الوظيفي لليهود في أرجاء العالم الغربي غربه ووسطه وشرقه . وقد تم دمج أعضاء الجماعات اليهودية مهنياً ووظيفياً في غرب أوربا بسرعة . ولكن عملية الدمج في شرق أوربا ووسطها استغرقت وقتاً أطول بسبب تَعثُّر التحديث ، ولأن محاولة تحديث البناء الوظيفي كانت تتم بقرارات قانونية ودون إتاحة فرص أخرى حقيقية للعمل . وفي إحصاء عام ١٨٩٧ في روسيا ، حيث كان يعيش أغلبية يهود العالم ، نجد أن اليهود كانوا موزَّعين وظيفياً على النحو التالي :

٣,٥٥٪	يعملون في الزراعة .
٣٨,٦٥٪	في التجارة .
٣٣,٤٥٪	في الصباغة والصناعات اليهودية .
٣,٩٨٪	في النقل .
١١,٧٦٪	في الأشغال العامة والمهن الحرة .
٦,٦١٪	في الأعمال المنزلية .

لقد كان أعضاء الجماعات اليهودية في الأساس جماعة الوسطاء والحرَفيِّين ولم يكن بينهم عمال أو فلاحون ، وهذا ما أسماه بوروخوف الهرم الوظيفي المقلوب . ولم يكن الوضع مختلفاً في الإمبراطورية النمساوية التي كانت تضم جماعة يهودية كبيرة .

وبالنسبة لروسيا السوفيتية ، ونظراً لتأميم التجارة، فقد تغيَّر الوضع الوظيفي عام ١٩٣٠ كليةً ، فنجد أن ٤٢٪ من اليهود كانوا يعملون في مهن إنتاجية : في الصناعة ٢١,٥٪ ، وفي الحرَف اليدوية ١٤,٣٪ وفي الزراعة ٧,١٪ . ومع هذا ، تَركَّز عدد كبير منهم (نحو ٣٧,٢٪) في الأعمال الكتابية ، ونحو ١٢,١٪ في المهن الحرة . ولعد أن هاجر اليهود إلى العالم الجديد ، خصوصاً الولايات المتحدة ، تغيَّر وضعهم . فنجد أنه ـ حسب إحصاء عام ١٩٠٠ ـ كان ٥٩,٦٪ منهم عمالاً وفي صناعة الملابس على وجه الخصوص . ولم يكن يعمل في التجارة سوى ٢٠,٦٪ حسب الإحصاء نفسه . وقد تَحوَّل كثير من يهود الولايات المتحدة في الثلاثينيات إلى التجارة فبلغت نسبة العاملين بها نحو ٥٠٪ ، في حين بلغت نسبتهم في الصناعة نحو ٢٨٪ ، وفي المهن الحرة نحو ١٠٪ . ومع السبعينيات ، تَركَّز معظم اليهود في المهن الحرة .

ويمكن القول بأن النمط الأساسي للحراك الوظيفي للمهاجرين اليهود كان يأخذ الشكل التالي : يصل المهاجر فيصبح عاملاً أو رأسمالياً صغيراً . ولكن العمال بوسعهم (بسبب خلفيتهم الثقافية والاجتماعية) الانسلاخ عن الطبقة العاملة أو مساعدة أولادهم على تَلقِّي التعليم ، وهو ما يجعلهم يحققون حراكاً اجتماعياً وينسلخون عن الطبقة العاملة ويتحوَّلون إلى مهنيين . أما الرأسمالي الصغير ، فيتحوَّل إما إلى رأسمالي كبير أو إلى مهني . ومن ثم ، نجد أن غالبية يهود الولايات المتحدة (وغيرها من الدول الاستيطانية) من المهنيين .

ومع هذا ، ترك ميراث اليهود الاقتصادي ، كجماعات وظيفية وسيطة وكمهاجرين ، وكذلك الكفاءات التي اكتسبوها عبر تواريخهم بسبب وظيفيتهم هذه ، أثرها في التركيب الوظيفي ليهود أمريكا ، إذ أن هذه الخبرة التي حملوها معهم أينما هاجروا استمرت في تحديد نشاطاتهم الاقتصادية حتى بعد أن زالت الوظيفة . فيُلاحَظ مثلاً أن اشتغال يهود العالم الغربي بالربا وأعمال الرهونات ، جعلهم يتخصصون في حياكة الملابس ، ذلك لأن كثيراً من الأشياء المرهونة كانت ملابس قديمة . ولذا ، يُلاحَظ أن يهود العالم الغربي يتخصصون في صناعة النسيج والملابس الجاهزة . وقد أدَّى بهم هذا إلى أن يحققوا ثروات أثناء الحروب ، لأن القوات المحاربة ، خصوصاً في العصر الحديث ، تحتاج إلى زي رسمي . وقد حدث

هذا في حروب عديدة من بينها الحرب الأمريكية الأهلية حيث حقق أثرياء اليهود أرباحاً هائلة بسبب تركزهم في صناعات النسيج .

وكذلك ، فإن الميراث الاقتصادي لأعضاء الجماعات اليهودية في الغرب (باعتبارهم جماعات وظيفية وسيطة تقف دائماً على الهامش) يجعلهم يتخصصون في الصناعات القريبة من المستهلك ويبتعدون عن الصناعات الثقيلة ، إذ أن عضو الجماعة الوظيفية الوسيطة لا يحب الاستثمار في المنقولات الثابتة (مثل الأرض والصناعات الثقيلة) أو قد لا تُتاح له الفرصة أساساً في أحيان كثيرة . ولذا يفضل الاستثمار في الصناعات الخفيفة وفي المشاريع التجارية التي تتطلب قدراً عالياً من المهارة الإدارية ، ومن هنا كان تخصصهم في التجارة وصناعة الأثاث والأحذية وقطاع الخدمات والطباق والكحول والسينما ، وهي كلها صناعات قريبة من المستهلك، بعيدة عن الزراعة وعن الصناعات الثقيلة مثل المناجم (وجميعها صناعات مرتبطة بالأرض) . كما يُلاحَظ أنهم يتركزون في تجارة التجزئة والأعمال العقارية ويعملون وكلاء مستشارين ووسطاء . كما أن تركزهم في المهن والمصارف هو أيضاً نتيجة هذا الميراث الاقتصادي . ويُقال إن هذا أيضاً يرجع إلى أن يهود العالم الغربي عنصر مهاجر ، والعناصر المهاجرة تشغل دائماً المراحل العليا من الهرم الإنتاجي ولا تشغل قاعدته . ومن ثم ، لا يوجد عمال أو فلاحون يهود ، ونتج عن ذلك هامشية اليهود ، أي أن نشاطاتهم الاقتصادية ليست في قلب العملية الإنتاجية . ولا يزال العدد الأكبر من يهود أمريكا اللاتينية يشتغلون بالأعمال التجارية .

ويمكن القول بأن الحل الاستعماري للمسألة اليهودية (والذي يقبله الصهاينة) ينبع من تعريف العالم الغربي للجماعة اليهودية كجماعة وظيفية استيطانية قتالية . فهي إذن مجموعة بشرية تُعرَّف من خلال وظيفتها ، وهي مجموعة نبذتها الحضارة الغربية ، ولكنها ستحل مسألتها عن طريق الاضطلاع بوظيفة الدفاع عن مصالح الحضارة الغربية بحيث يصبح الاستيطان والقتال هما وظيفة اليهود الأساسية .

ويُلاحظ أمنون روبنشتاين أنه ، في عام ١٩٤٥ ، كان نحو ٢٤٪ فقط من اليهود المهاجرين إلى فلسطين يعملون في وظائف إنتاجية مثل الزراعة والصناعة والبناء والنقل ، وهو ما يعكس هامشيتهم الاقتصادية وطفيليتهم . وبعد استيطانهم في فلسطين ، أصبح ٦٩٪ منهم يعمل في مجال الأعمال الإنتاجية . ولكن ، بحلول عام ١٩٧٥ ، انخفضت نسبة العاملين في القطاعات الإنتاجية إلى ٢٣٪ ، أي أن الدولة الصهيونية لم تنجح في تحقيق أحد أهدافها الأساسية المعلنة وهو تطبيع اليهود وتحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج . وقد أدَّى دخول العمالة العربية في الاقتصاد الإسرائيلي إلى حدوث نوع من المفارقة ، إذ يقوم العرب بشغل قاعدة الهرم الإنتاجية تاركين قمته الإدارية لليهود . وقد ظهرت هامشية المُستوطَن الصهيوني مع اندلاع الانتفاضة وانسحاب العمالة العربية من قاعدة الهرم ، الأمر الذي ترك أعمق الأثر في الاقتصاد الصهيوني .

السمات الأساسية للجماعات اليهودية كجماعات وظيفية

Main Traits of Jewish Communities as Functional Groups

يمكننا القول بأن السمات الأساسية للجماعات الوظيفية وطبيعة علاقتها بالمجتمع المضيف تتضح بشكل متبلور في الجماعات اليهودية في العالم الغربي وفي طبيعة علاقتها به :

١ ـ التعاقدية (النفعية والحياد والترشيد والحوسلة) :

تتسم علاقة الجماعات اليهودية بالمجتمع الغربي بأنها علاقة نفعية تعاقدية لا تتسم بالتراحم . فقد نظر العالم الغربي إلى أعضاء الجماعات اليهودية منذ البداية باعتبارهم وظيفة تُؤدَّى ودوراً يُلعَب وعنصراً موضوعياً مُجرَّداً ومحايداً ، مجرد مادة بشرية ، فكانوا يُستجلَبون ليؤدوا وظيفة التاجر والمرابي . وكان أعضاء الجماعة اليهودية عادةً من الغرباء ، ولذا كانوا يُعَدون ملكية خاصة للملك (أقنان بلاط) الذي كان له حق امتلاك اليهود (باللاتينية : «جودايوس هابيري judaeos habere») ، أو حق الاحتفاظ باليهود (باللاتينية : «جودايوس تنيري judaeos tenere») . وكان من حقه بيعهم كما تبيع أية مدينة حق استعمال مناجمها أو طرقها العامة . ولذا ، كان اليهود أقرب ما يكونون إلى ممتلكات تُفرَض عليها ضرائب أو أدوات إنتاج ، فكان يُشار إليهم بوصفهم عبيداً أو ملكاً منقولاً كالأثاث (بالإنجليزية : «تشاتيل chattel») ، وكانت كثير من المواثيق تشير إليهم باعتبار أنهم يخضعون للملك وملك له ، يرثهم من يرث العرش ! ولعل السبب في وقوع قدر كبير من الخلل التحليلي هو أن كثيراً من الدارسين لم يدركوا طبيعة وضع الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي من حيث هي وظيفة تُؤدَّى، واستمروا في اعتبارها طبقة أو أعضاء في طبقة . وكان أعضاء الجماعات اليهودية يُعطَون حقوقاً ومزايا تضمنها مواثيق يشترونها من الحاكم . ولكن المواثيق التي كانت تُمنَح لهم لم تكن قط نهائية وإنما كانت تُجدَّد دائماً . وكان يتعيَّن عليهم أحياناً دفع مبلغ للإمبراطور كل عام لتأكيد حقه في أنهم ملك له (وهو استمرار

للفيسكوس جواديكوس أو ضريبة اليهود التي فُرضت عليهم بعد سقوط الهيكل) . ولعل حدة هذا الوضع قد خفتت قليلاً عبْر القرون والسنين ولكنها ظلت قائمة حتى أوائل القرن التاسع عشر في كثير من أنحاء أوربا (وقد تعيَّن على الفيلسوف الألماني اليهودي موسى مندلسون أن يدفع ضريبة انتقال ، حينما كان ينتقل من مدينة ألمانية إلى أخرى ، تساوي ما كان يُدفَع لانتقال ثور) . وقد نُوقشت المسألة اليهودية في الحضارة الغربية في إطار مدى نفع اليهود ، وهو مفهوم استمر حتى الوقت الحاضر ، ويتجلى في الحديث عن إسرائيل باعتبارها كنزاً إستراتيجياً ! ويجب ملاحظة أن العلاقة بين الطرفين (الجماعات اليهودية والعالم الغربي) علاقة نفعية ، فكلاهما يحاول الاستفادة قدر المستطاع من الطرف الآخر ، وكلاهما يحوسل الآخر ، ولا يمكن الحديث في مثل هذه العلاقة المركبة عن مُستغِل ومُستغَل .

٢ ـ العزلة والغربة والعجز :

حينما استجلب المجتمع الغربي بعض أعضاء الجماعات اليهودية ليضطلعوا بدور الجماعة الوظيفية ضرب عليهم العزلة ، فكان أعضاء الجماعة اليهودية يعيشون في جيتو خاص بهم يرتدون أزياء خاصة مقصورة عليهم ويؤمنون بعقيدة مختلفة عن عقيدة مجتمع الأغلبية . بل كانوا ، في حالة يهود اليديشية ، يتحدثون لغة مختلفة عن لغة المجتمع المضيف . وقد انغلقت الجماعات اليهودية على نفسها فكونت شبكة عالمية واسعة مهمتها ضمان انتقال السلع والعملات والمعلومات بكفاءة عبر البلاد والقارات ، وهذا هو سبب معرفة أعضاء الجماعة اليهودية بعديد من اللغات ، وهو تعبير عن الغربة والحركية في ذات الوقت . وقد سيطرت القيادات الدينية والدنيوية ، التي كانت تتمتع بدعم النخبة الحاكمة ، على هذه الشبكة المغلقة التي كانت بمثابة الوسيط بين الجماعة اليهودية والمجتمع المضيف . كما تزايد اعتماد أعضاء الجماعات اليهودية على النخبة الحاكمة حتى أصبحوا في بعض الأحيان جماعات وظيفية عميلة ، كما هو الحال مع المرابين ، وأداة قمع في يد الحاكم لقمع الجماهير واستغلالهم .

وقد أدَّى هذا إلى تزايد ابتعاد أعضاء الجماعات اليهودية عن جماهير المجتمع المضيف ، أي أن أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية لم يكونوا مشاركين في السلطة (فهم مجرد أداة) يعيشون في عزلة عن الشعب (في مسام المجتمع لا في صميمه) ، وهم موضع كرهه وسخطه . وهذا ما يُسمَّى «إشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة» . لكل هذا أصبح أعضاء الجماعات الوظيفية عرضة للهجمات الشعبية لأنهم أداة الاستغلال الواضحة والمباشرة . ومن ثم ، فإن اضطلاع أعضاء الجماعة اليهودية بدور الجماعة الوظيفية هو الذي يفسر الهجمات الشعبية عليهم ، كما يفسر كثيراً من اتهامات أعداء اليهود بأنهم مصاصو دماء (ومن هنا تهمة الدم) أو أنهم يقومون بتسميم الآبار . فهذه جميعاً صور مجازية حاول عن طريقها الإنسان العادي في الغرب فهم طبيعة العلاقة بينه وبين اليهود كجماعة وظيفية ، إذ أن أداة القمع الماثلة أمامه تقوم بامتصاص دمه وتسميم مصدر حياته . ويمكن القول بأن الهجوم على اليهود كان يشبه الانتفاضة الشعبية حينما يقوم الثائرون بتدمير أدوات القمع والاستغلال (ولعل هذا ما دفع بأحد المفكرين إلى تسمية معاداة اليهود «اشتراكية المغفلين» ، أي اشتراكية من لا يفهم الآليات الاقتصادية المركبة) . كما أن اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية هو الذي يفسر اتهام الجماعات الشعبية لهم بأنهم سحرة . ففي المجتمع الإقطاعي مثلاً ، كان أعضاء المجتمع يُنتجون من الأرض بصورة مباشرة ، أما أعضاء الجماعة الوظيفية المالية (التجارية أو الربوية) فكانوا يحققون الثراء من خلال تحريك السلع وحسب في حالة التجار . بينما كان الأمر أسوأ بكثير في حالة المرابين ، إذ كانوا يحققون الثراء من خلال تحريك الأموال وحسب .

وقد أدَّت هذه العزلة إلى ما نسميه «حدودية» أعضاء الجماعات اليهودية ، أي وجودهم على حدود المجتمعات أو على هامشها ، وفي الشقوق والثغرات . ولعل إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بعدم الأمن (رغم النجاح الذي يحققونه) هو جزء من ميراث الجماعة الوظيفية ، التي تُعَدُّ حركيتها مصدر أمن أساسياً لها . وقد أدَّى إحساسهم بعدم الأمن وعدم الانتماء إلى زيادة الرغبة في مراكمة الثروة لأنها الوسيلة الوحيدة لشراء الحماية من الحاكم . ولكن يُلاحَظ أنه رغم تزايد ثروات كثير من أعضاء الجماعات اليهودية إلا أنهم ظلوا بعيدين عن السلطة وعن مؤسسات صنع القرار . ولهذا السبب كانت هذه الثروات معرضة دائماً للتصفية .

ويُقابل عملية العزل البرانية من قبل المجتمع إحساس عميق جواني بالغربة لدى أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية ، فيظهر لديهم إحساس بقداستهم (مركب الشعب المختار) . ثم يحتفظون بهذه الغربة من خلال عقائدهم وشعائرهم الدينية ومن خلال ارتباطهم الوهمي بالوطن الأصلي الذي لم يَعُد له وجود والذي سيعودون إليه في نهاية التاريخ .

٣ ـ الانفصال عن المكان والزمان والإحساس بالهوية (الوهمية) :

يشعر أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية بالانتماء إلى وطن

أصلي (صهيون/ فلسطين) سيعودون إليه في آخر الأيام . وقد ترجم هذا نفسه إلى العقيدة المشيحانية التي أضعفت أواصر ارتباط أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية بالمكان الحالي (أوطانهم وتاريخها) باسم المكان السابق الذي نُفوا منه ، وهو أيضاً المكان الذي سيعودون إليه في المستقبل .

ويُقابل الإحساس العميق بالغربة والعزلة والعجز والانفصال عن المكان تَعمُّق إحساس عضو الجماعة الوظيفية اليهودية بهويته ، فهي إحدى آليات العزل غير الواعية . ومع هذا ، فإن الهوية هنا حالة عقلية إذ أن هوية عضو الجماعة الوظيفية اليهودية تتشكل داخل حدود المجتمع الذي يعيش فيه لا خارجه ، ومن خلال تفاعله اليومي المتعيِّن مع الخطاب الحضاري لمجتمعه لا رغماً عنه . ولذا فرغم ادعاءات أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية عن تَميُّزهم ، إلا أنهم في واقع الأمر يندمجون في مجتمعاتهم . وثنائية ادعاء التميز وواقع الاندماج والذوبان مسألة أساسية لعضو الجماعة الوظيفية اليهودية حتى يتسنى له أن يلعب دوره الوظيفي ، وحتى يظل «في المجتمع دون أن يكون منه» ، يتعامل مع أعضاء المجتمع بكفاءة عالية لا يمكنه أن يحققها إلا بمعرفة المجتمع وتَملُّك ناصية خطابه الحضاري ، ولكنه في الوقت نفسه لا يتعاطف معهم ويحتفظ بمسافة عقلية وعاطفية كبيرة بينه وبينهم بسبب هويته الوهمية .

٤ ـ ازدواجية المعايير :

تظهر ازدواجية المعايير بشكل حاد في حالة أعضاء الجماعات اليهودية ، فقد قسمت العقيدة اليهودية العالم في كثير من الأحيان إلى اليهود من جهة والأغيار من جهة أخرى . وكان بإمكان اليهودي أن يقرض الأغيار بالربا ، ولكنه يُحرِّم على نفسه أن يفعل ذلك مع اليهود . وكان اليهود يعتبرون أنفسهم شعباً مقدَّساً (وهذا يعني أن أعضاء المجتمع مباحون) . ولعل هذا يُفسِّر وجود أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في جرائم انتهاك الحرمات مثل البغاء ونشر المجلات الإباحية وغير ذلك . وحتى لا يتم استخلاص أية تعميمات عنصرية من ذلك ، لابد أن نشير إلى أن أعضاء الجماعة الوظيفية يتسمون أيضاً بالأمانة الشديدة نظراً لحيادهم وخوفهم من النخبة والجماهير على حدٍّ سواء .

٥ ـ الحركية :

كان أعضاء الجماعات اليهودية من أكثر الجماعات حركية داخل التشكيل الحضاري الغربي ، فهم لم يكونوا مرتبطين بالأرض مثل الفلاحين أو النبلاء ، ولا حتى بالمدن مثل سكانها ، وإنما كانوا يتنقلون بحرية كبيرة في المجتمع الوسيط تحت حماية الملك الذي يمنحهم المواثيق . وقد ساعدت عمليات الطرد المستمرة ، ثم الهجرة ، على تعميق هذه الحركية . وقد تَركَّز أعضاء الجماعات اليهودية في قمة الهرم الاجتماعي وابتعدوا عن قاعدته (وهذا هو أهم أسباب المسألة اليهودية) .

٦ ـ التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع (الحلولية) :

مركب الشعب المختار هو تعبير عن التمركز المتطرف حول الذات والذي يُيسِّر لأعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية أن يقوموا باستغلال الآخر وحوسلته وأن يقوموا كذلك بعزل أنفسهم كما يبرر غربتهم . ولكن عضو الجماعة الوظيفية اليهودية يتمركز أيضاً حول وظيفته الموضوعية ويقبل أن يكون أداة متحوسلة تضطلع بوظائف محدَّدة تُوكل له .

ويُعبِّر هذا التمركز حول الذات وحول الموضوع عن نفسه من خلال الإحساس المتطرف بالحرية الكاملة والحتمية الكاملة ، ومن خلال مفهوم الاختيار والنفي والعودة ، وهي مفاهيم تجسد هذه الازدواجية المتطرفة المتبلورة : فاليهودي حر تماماً لأنه مَنْفيٌّ عن أرضه لا جذور له ، وهو يتمتع بمزايا عديدة لأنه مختار من قبل الإله، إرادته من إرادة الإله . ولكنه في الوقت نفسه لا حرية له لأنه مَنْفيٌّ من أرضه التي لا يقدر على تحقيق ذاته إلا فيها وحدها . كما أن الاختيار يعني التكليف أيضاً ومن ثم عدم القدرة على الحركة .

وتتضح علاقة الجماعات الوظيفية اليهودية بالحلولية الكمونية في تَصاعُد معدلات الحلولية الكمونية داخل اليهودية إلى أن سيطرت عليها تماماً .

وعلاقة الجماعات اليهودية بالتحديث والعلمانية علاقة مركبة وعميقة ، ذلك أن مسار الهجرة اليهودية قد تأثر بشكل عميق بالتحديث . فالجماعات اليهودية كانت جماعات وظيفية تتحرك أفقياً من مجتمع إلى آخر ، لا رأسياً داخل المجتمع الواحد نفسه . فكانوا في البداية يُستجلَبون إلى المجتمعات المتخلفة كعنصر تحديثي أو استيطاني ، ومن هنا كانت الهجرة اليهودية تتم دائماً من البلاد الأقل تَخلُّفاً إلى البلاد الأكثر تَخلُّفاً ، من البحر الأبيض المتوسط إلى وسط أوربا ومنها إلى شرق أوربا . ولكن ابتداءً من القرن السادس عشر وبداية ظهور الرأسمالية والحركة الاستعمارية الغربية وبدايات التحديث في الغرب ، نجد أن الهجرة تأخذ شكلاً مغايراً ، فهي تنطلق من البلاد المتخلفة إلى البلاد الأكثر تقدماً . وقد اشترك اليهود في حركات الهجرة الاستيطانية وغير الاستيطانية .

ورغم أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا من حملة الفكر التحديثي والعلماني ، إلا أنهم سقطوا ضحية عمليات التحديث

والعلمنة . فهويتهم وإثنيتهم كانت مرتبطة تماماً بعزلتهم كجماعة وظيفية . ولكن ، مع تَصاعُد معدلات التحديث ، وظهور نُخَب محلية تتولى زمام الأمور ، وكذلك ظهور الدولة القومية العلمانية المركزية ، لم تَعُد هناك وظيفة لهم ، وبدأت التحولات الوظيفية والطبقية العميقة تدخل على الجماعات اليهودية ، فتحولوا إلى بروليتاريا وشحاذين وأصحاب مصانع وبورجوازية كبيرة وصغيرة ، وفقدوا تماسكهم الإثني وعقيدتهم اليهودية . وتساقطت كل رموز العزلة ، وتساقطت أسوار الجيتو ، وتم تحديث أزيائهم ولغتهم ، وبدأ التعليم بين أعضاء الجماعات اليهودية يتحول من أداة لنقل الخبرات الخاصة وأسرار المهنة والحفاظ على الهوية والعزلة في المجتمع إلى وسيلة من وسائل تصفية الهوية شبه القومية ودمجهم في المجتمع وتدريبهم على الحراك الاجتماعي داخل طبقات المجتمع .

ورغم أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا يُشكِّلون العمود الفقري للقطاع المالي والتجاري للمجتمع الغربي الوسيط ، كما كانوا يشكلون جزءاً مهماً منه منذ عصر النهضة ، إلا أنهم لم يساهموا في بناء الرأسمالية الحديثة الرشيدة ، فقد نشأت هذه الرأسمالية داخل المدينة الغربية . أما رأسمالية أعضاء الجماعات اليهودية فكانت رأسمالية الجماعة الوظيفية المرتبطة بالمجتمع التقليدي ، وقد سماها فيبر الرأسمالية المنبوذة (مقابل الرأسمالية الرشيدة) .

ومع تَصاعُد معدلات التحديث ، يختفي اليهود كجماعات وظيفية . ومع هذا ، يبقى هناك امتداد لدورهم التقليدي ولميراثهم الوظيفي إذ لا يكاد يُوجَد يهود في المهن الإنتاجية الأولية (الزراعة والتعدين) ، بينما يتركزون في مجال الملكية العقارية وفي مهن الطب والتمثيل ، وهي مهن تُوجَد كلها عند قمة الهرم الإنتاجي أو على هامشه في معظم أنحاء العالم ، ولا يُوجَد أي تمثيل لليهود بين العمال والفلاحين ومختلف القطاعات الموجودة في قاعدة الهرم الإنتاجي .

ولعل حالة يهود كايفنج في الصين تلقي بعض الضوء على ما قد يحدث لليهود في العالم الغربي بعد عملية تحديث وضعهم ووظائفهم . فبعد أن انضمت أعداد متزايدة من القيادة اليهودية إلى طبقة كبار العلماء/ الموظفين (الماندرين) ، فَقَد اليهود وضعهم كجماعة وظيفية ، وزادت معدلات الاندماج بينهم حتى اختفوا تماماً . وقد تمت هذه العملية عبر مئات السنين في الصين . ومن الممكن أن نتصوَّر أن شيئاً مماثلاً سيحدث في العالم الغربي ، لكن معدلات التحديث في الغرب تتفاوت سرعة وبطئاً من بلد لآخر ، كما أن العملية تتعثر أحياناً بل تتوقف أحياناً أخرى . ولعل التعثر هو الذي أدَّى إلى عدم اختفاء كثير من الجماعات اليهودية أو تناقص أعدادها بشكل ملحوظ . كما أن التشكيل الاستعماري الغربي ، بتأسيسه الدولة الصهيونية ، أعاد إنتاج نمط الجماعة الوظيفية على مستوى الدولة .

الجماعات الوظيفية اليهودية : أنواعها المختلفة

Jewish Functional Groups : Different Kinds

اضطلع أعضاء الجماعات اليهودية بأدوار وظيفية عديدة من بينها ما يلي :

١ ـ الجماعات اليهودية الوظيفية الاستيطانية القتالية .

٢ ـ الجماعات اليهودية الوظيفية المالية الوسيطة (التجارة ـ الربا ـ جمع الضرائب ـ المتعهدون العسكريون ـ تجارة الرقيق ـ تجارة الخمور) .

٣ ـ جماعات وظيفية متنوعة (الطب ـ الجاسوسية ـ قطاع اللذة ـ البغاء وتجارة الرقيق الأبيض) .

وإذا كانت الجماعات اليهودية الوظيفية الاستيطانية القتالية هي أوَّل ما ظهر من الجماعات اليهودية ، فإن أهمها هي الجماعات اليهودية الوظيفية الوسيطة أو المالية .





٢
الجماعات الوظيفية اليهودية القتالية والاستيطانية والمالية

جماعة يهودية وظيفية قتالية استيطانية (المرتزقة) ـ جماعة يهودية وظيفية تجارية ـ الراذانية ـ جماعة يهودية وظيفية مالية (الربا والإقراض) ـ جماعة وسيطة ـ التجارة اليهودية ـ الربا اليهودي ـ الضرائب التي يدفعها أعضاء الجماعات اليهودية ـ أعضاء الجماعات اليهودية كمحصلي ضرائب ـ المتعهدون العسكريون ـ بافيا ـ الأرندا والإقطاع الاستيطاني ـ الخمور (النبيذ والكحول) والاتجار فيها ـ الإعلان ـ تجارة الرقيق

جماعة يهودية وظيفية قتالية استيطانية (المرتزقة)

Jewish Military Settler Functional Group (Mercenaries)

«الجماعة الوظيفية الاستيطانية» هي الجماعة البشرية التي تُستجلَب من خارج المجتمع أو تُجنَّد من داخله ثم تُنقَل من مكان إلى مكان آخر لتُوطَّن فيه بغرض أن تؤدي وظيفة محددة ذات طابع قتالي عادةً ، ولكن ليس ضرورياً أن تكون كذلك دائماً ، فقد تكون ذات طابع زراعي أو تجاري ، أو ذات طابع مُختلَط ؛ زراعي قتالي ، أو تجاري قتالي ، أو زراعي تجاري ، وهكذا .

أما «الجماعة الوظيفية القتالية» فهي الجماعة التي يضطلع أعضاؤها بدور قتالي وحسب ، فالجندي المرتزق هو الجندي الذي يُستجلَب من خارج المجتمع ، أو يُجنَّد من داخله (عادةً من صفوف أقلية إثنية أو دينية معينة لها علاقة خاصة بالمجتمع) . وهو يقوم بالقتال من أجل المال بالدرجة الأولى ، فالدوافع هنا يجب ألا تكون دوافع داخلية مركبة (الانتماء ـ حب الوطن ـ الانتقام) ، بل لابد أن يكون الدافع خارجياً بسيطاً وهو الربح المادي الذي يأخذ صورة أجر مادي عاجل ومباشر (راتب شهري) أو آجل (إقطاعية أو غيرها من العوائد المالية) . وكل من العنصر الاستيطاني والقتالي يشكل جماعة وظيفية ، فهو عنصر متحرك غير منتم لا يدين بالولاء لأحد إلا لراعيه الذي يقوم بتمويله ، وهو عنصر لا يُعرَف من خلال سماته الإنسانية وإنما من خلال وظيفته ، فهو وسيلة لا غاية ، وأداة لا هدف ، والمجتمع ينظر إليه من ناحية مدى نفعه ومدى احتياجه إليه ، ويدخل معه في علاقة تعاقدية محايدة . والجندي المرتزق والمستوطن هما وسيلة من وسائل الإنتاج ، أو بتعبير أدق إحدى أدوات الفتك التي تنظم علاقات الإنتاج وعملية توزيع الثروة لصالح من يسيطر على هذه الآلة أو الوسيلة . وعادةً ما يعيش الجنود المرتزقة ، وكذلك أعضاء الجماعات الاستيطانية ، على مقربة من أعضاء الأغلبية ، ولكنهم مع هذا يظلون في عزلة عنهم فهم منبتو الصلة بالجماهير مرتبطون بالنخبة الحاكمة التي تسخرهم لمصلحتها ، دون أن تخشى بأسهم أو تخاف من أن يقوموا بمحاولة المشاركة في السلطة أو القرار السياسي ، فهم بلا قاعدة ولا شرعية ولا سلطات إلا ما يستمدونه من الراعي ، وذلك على عكس المقاتلين من أعضاء الأغلبية ، فهؤلاء عادةً ما يطالبون بنصيبهم في السلطة إن قويت شوكتهم ، كما أنهم يستندون إلى قاعدة جماهيرية يستمدون منها الشرعية .

وفي تقديرنا أن الجندي الذي يدافع عن وطنه ويتقاضى أجراً عن ذلك ليس بمرتزق ، لأن دوافعه للقتال والاستيطان أكثر تركيباً من الجندي المرتزق ، كما أنه أقل حركية لارتباطه بوطنه . والشيء نفسه ينطبق على المواطن الذي يرابط في مناطق حدودية دفاعاً عن الوطن، فهو مرتبط بوطنه ولا يتسم بأية حركية إلا في إطار رؤيته .

وهنا يمكن أن تثار قضية الغارات التي يشنها البدو أو القراصنة على المدن والسفن من أجل الغنائم ، أي من أجل الربح المادي ، وهل يمكن اعتبارهم مرتزقة . ونحن نميل إلى عدم تصنيفهم كمرتزقة، فرغم وجود عنصر مشترك أساسي بين المرتزقة من جهة والبدو والقراصنة من جهة أخرى (الحركية والقتال من أجل المال) إلا أن هناك عنصراً أساسياً آخر غائباً في حالة الفريق الثاني وهو الراعي أو الحامي الذي يصدر الأوامر للعنصر المرتزق ويوجهه ويوظفه . ومن هنا تظهر مشكلة تصنيف المماليك ، فقد تم استجلابهم كرقيق ليقاتلوا نظير أجر أو نظير التمتع بمستوى معيشي مرتفع . ولكنهم ، بالتدريج ، أصبحوا يقاتلون لصالح أنفسهم كجماعة إثنية مُستجلَبة مستقلة . ولتحديد الأمور ، يمكننا أن نتخيل مُتصلاً أحد أطرافه المجاهد الذي لا يقاتل إلا ابتغاء مرضاة الله والمقاتل الذي يموت من

أجل الوطن أو العقيدة ولا يستهلك إلا ما يضمن له الاستمرار في الجهاد والقتال دون الحصول على أية مكاسب مادية ، والطرف الآخر للمُتصل هو المرتزق الذي لا يقاتل إلا ابتغاء الأجر ، ويمكننا أن نضع بينهما الجندي الذي يدافع عن قضية ويأخذ أجراً ويحقق مكاسب مادية وطبقية تزيد عن حاجته ، ثم نضع بعد ذلك المماليك بعد أن تحولوا إلى طبقة مقاتلة تقاتل من أجل زيادة مكاسبها وتدافع في الوقت نفسه عن الوطن (مصدر المكسب) . ويجيء بعد ذلك جماعات البدو والقراصنة الذين يشنون الغارات من أجل الربح ، ثم يجيء أخيراً الجندي المرتزق .

ويبدو أن كثيراً من المجتمعات (عبر التاريخ) نظرت إلى العبرانيين وإلى أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم مادة بشرية استيطانية وقتالية . وهذا لا يعني أن سائر المجتمعات كانت تنظر إلى سائر العبرانيين وإلى الجماعات اليهودية كافة في كل زمان ومكان من هذا المنظور ، كما لا يعني أنها كانت تنظر إلى اليهود فقط من هذا المنظور (إذ تُوجَد عناصر بشرية استيطانية وقتالية أخرى كاليونانيين على سبيل المثال) . ولا يعني هذا أيضاً أن اليهود بطبيعتهم مادة بشرية استيطانية وقتالية أو أن عندهم قابلية طبيعية ليصبحوا كذلك . فمن المعروف أن الغالبية الساحقة من العبرانيين ومن أعضاء الجماعات اليهودية لم تضطلع بأيٍّ من هاتين الوظيفتين . فالقضية ، إذن ، هي قضية مجموعة أو مجموعات من البشر عاشت تحت ظروف تاريخية اقتصادية وثقافية معيَّنة أدَّت إلى اضطلاع قطاعات منها بهذه الوظيفة . وما سنتناوله في هذا المدخل هو نمط تكرَّر بشكل لافت للنظر في عدد من المجتمعات في العالم القديم ، ثم تكرَّر في بلاد الغرب بشكل أكثر وضوحاً في العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ، وترجم نفسه في نهاية الأمر إلى وعد بلفور ثم إلى الدولة الصهيونية في العصر الحديث . ولكن الطبيعة الاستيطانية والقتالية للدولة الصهيونية (التي نسميها «الدولة الوظيفية») ، وهيمنة هذه الدولة على أذهان الغالبية الساحقة ليهود العالم في الوقت الحالي ، يُكسب هذا النمط أو النموذج أهمية غير عادية ويضفي عليه مركزية لم يكن يتمتع بها من قبل . ومن ثم يصبح من اللازم لنا اكتشاف جذوره وسُبُل تَشكُّله في ماضي العبرانيين والجماعات اليهودية .

لقد تَعمَّق هذا الاتجاه بسبب مانسميه «المسألة العبرانية» ، أي قلة عدد العبرانيين وتَخلُّف المجتمع العبراني الحضاري والتكنولوجي والعسكري مع وجوده في واحد من أهم المواقع الإستراتيجية في العالم . فلم يتمكن المجتمع العبراني من استيعاب الطاقات البشرية داخله ، ومن ثم كان لابد من تصديرها . وإلى جانب هذا ، كان هذا المجتمع عُرضة لغزوات جيوش الإمبراطوريات الكبرى التي كانت تقوم بأسر أعداد كبيرة من العبرانيين ثم تُهجِّرهم إلى أماكن أخرى أو تُجنِّدهم في صفوفها .

ويبدو أن العبرانيين القدامى كانوا من المرتزقة منذ بداية ظهورهم في التاريخ ، فكلمة «عبراني» ذاتها تشير إلى العبد الذي أصبح كذلك برضاه وحوَّل نفسه إلى أداة في يد الآخر . ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن كلمة «خابيرو» (التي يذهب البعض إلى أنها تعني العبرانيين) تعني «الجندي المرتزق» ، وأن الكلمة كانت تُطلَق على أية جماعات من الرحل أو الغرباء أو الأشقياء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش لقاء أجر أو بدافع الحصول على الغنائم . ولكن يبدو أن الخابيرو ، كانوا بدواً مرتزقة يغيرون لاستلاب الغنائم أو ربما جماعة كانت تنضم بشكل مؤقت لقوة محاربة نظامية أو غير نظامية من أجل تحقيق الربح . ولعل اشتراكهم مع الهكسوس في غزو مصر كان شيئاً من هذا القبيل . وعلى كل ، ومهما كانت اشتقاقات الكلمة ، فإن هناك مؤشرات عديدة على أن العبرانيين القدامى ، مع استقرارهم في كنعان ، كانوا يعملون كمرتزقة ، كما أنهم حاربوا في صفوف الفلستيين كمرتزقة ضد بني جلدتهم .

وقد قام الملك العبراني أمصيا (٧٩٨ ـ ٧٦٩ ق.م) ، تاسع ملوك المملكة العبرانية ، بجمع جيش من المرتزقة من المملكة الشمالية وحاول إخضاع أدوم للهيمنة العبرانية . كما تم تجنيد العبرانيين كمرتزقة في جيوش مصر الفرعونية حينما بدأ ملوك المملكة الجنوبية مبادلة الأحصنة بالجنود . وفي الأسرة السادسة والعشرين استعان بهم بسماتيك الأول (٦٦٣ ـ ٦٠٥ ق.م) الذي كوَّن جيشاً من المرتزقة كان يضم في صفوفه يهوداً ، وقام بسماتيك الثاني (٥٩٤ ـ ٥٨٩ ق.م) من بعده بتوطين جماعة استيطانية في جزيرة إلفنتاين . وحينما سقطت المملكة الجنوبية ، فرت جماعات من العبرانيين إلى مصر واستقرت في أماكن معروفة بأن فيها حاميات عسكرية . ويُلاحَظ أن الدياسبورا هنا (أي انتشار اليهود في بقاع الأرض) مرتبطة بنشاطين متلازمين هما في واقع الأمر نشاط واحد : الاستيطان والقتال كمرتزقة . والانتشار لا علاقة له بتحطيم الهيكل كما يدَّعي الصهاينة . ومما يجدر ذكره أن التهجيرين ، الآشوري والبابلي ، لم يكن الهدف منهما تأديب العبرانيين وحسب وإنما نقلهم ليصبحوا جماعة وظيفية استيطانية ، إذ تحوَّل المُهجَّرون إلى العمل بالزراعة والشئون المالية ، وليس هناك ما يدل على تَحوُّلهم إلى جماعة وظيفية قتالية . وقد استخدم الفُرس العبرانيين كجماعة استيطانية قتالية ، فأقاموا جماعات يهودية موالية للدولة الفارسية على هيئة

مستعمرات في أرجاء الإمبراطورية ، كما عمل اليهود جواسيس وجنوداً مرتزقة . وقد حوَّلت حامية إلفنتاين ولاءها من السلطة المصرية إلى السلطة الفارسية الفاتحة ، فالمرتزقة كما أسلفنا يتبعون من يدفع لهم . وأسس دارا الأول جيشاً قوياً يضم جنوداً يونانيين ويهوداً مرتزقة .

وحينما فتح الإسكندر الشرق الأدنى القديم ، تصاعدت ظاهرة تحويل اليهود إلى جماعات استيطانية قتالية بالدرجة الأولى خصوصاً أن الحكم البطلمي والسلوقي كان مبنياً أساساً على المرتزقة . وقد أبقى الإسكندر على المزايا التي منحها الفرس لليهود ، فانضموا إلى الجيوش اليونانية كمرتزقة . ولم تكن هناك فرقة قومية خاصة باليهود، ولذا انضم المرتزقة اليهود إلى فرق الآسيويين الذين تكاثر عددهم بين عامي ٢٠٠ و١٥٠ ق. م . وكان يُشار إلى اليهود أحياناً بوصفهم «فُرساً» ، ويذكر يوسيفوس أن المرتزقة من يهود الإسكندرية كان يُشار إليهم بوصفهم «مقدونيين» .

وكان البطالمة ينظرون إلى اليهود كجماعة استيطانية قتالية وتجارية يتوقف أمن أعضائها على رضا النخبة الحاكمة الأمر الذي يجعل منهم عنصراً مأمون الجانب ، ولذا شجعهم البطالمة على الهجرة إلى مصر للعمل فيها مرتزقة وتجاراً ومزارعين وأفراد شرطة وموظفين وملتزمي ضرائب . وحينما أسر سوتر الأول عدداً كبيراً من اليهود في إحدى حملاته على فلسطين ، وطنهم في مصر ليستخدمهم أداة لقمع المصريين . وقد قام بطليموس الثاني (فيلادلوفوس) (٢٨٣ ـ ٢٤٤ ق. م) بإعتاق العبيد العبرانيين الذين أسرهم ثم وَطَّنهم في معسكرات باعتبارهم وحدات قتالية استيطانية (باليونانية : كليروخوا) . وحينما فتح البطالمة برقة في عام ١٤٥ ق. م ، وَطَّنوا اليهود فيها ليشددوا قبضتهم عليها (على حد قول يوسيفوس) . وفي العام نفسه ، شيَّد أونياس الرابع معبداً يهودياً في ليتوبوليس كانت تُرابط حوله فرقة من المرتزقة اليهود .

وقد خدم اليهود في فرق المشاة والفرسان على حدٍّ سواء ، خصوصاً إبان حكم بطليموس السادس (١٨٠ ـ ١٤٥ ق. م) الذي سلَّم مملكته تقريباً إلى المرتزقة اليهود الذين وصلوا إلى أعلى المراتب العسكرية بما في ذلك القيادات . ويُقال إن الملكة كليوباترا الثالثة اعتلت العرش بفضل مساعدة قواد الجيش من اليهود . وكان من بينهم خلكياس وأنانياس ولدا أونياس اللذان قادا جيشها في فلسطين . وكان المرتزقة اليهود من أرباب الإقطاعات ، وكان في وسعهم تأجير أرضهم وتوريثها لأبنائهم دون عناء كبير . وانخرط اليهود أيضاً في سلك الشرطة وحراسة الممتلكات وتحصيل المكوس الجمركية على ضفتي النيل ، وهو عمل ذو طابع عسكري ، ولذا كان يُطلَق على المحصلين اسم «حراس النهر» لكن هناك من يذهب إلى أنهم كانوا موظفين من قبل الإدارة المالية ولا شأن لهم بأعمال الحراسة .

ولم يختلف موقف السلوقيين كثيراً عن موقف البطالمة ، فقد نقل أنطيوخوس الثالث ألف أسرة يهودية من بابل (التي كانت تابعة للإمبراطورية السلوقية) ، مع أجهزتها الحربية ، إلى ليديا وفريجيا في آسيا الصغرى في عام ٢١٠ ق. م . ، وذلك لتأسيس حامية منهم موالية للسلوقيين ، ولقمع حركات السكان ضد الحكم السلوقي . ويبدو أن مثراديتيس قد وَطَّن بعض هؤلاء أو غيرهم في شبه جزيرة القرم .

ومع وصول الرومان إلى المنطقة ، تم تسريح الجيش البطلمي ، فانهار الوضع الاقتصادي المتميِّز لليهود والذي ارتبط بوظيفتهم كمرتزقة ، لا سيما أن الرومان كانوا لا يُجنِّدون سوى اليهود الذين تخلوا عن دينهم . ومع هذا ، انخرط اليهود في سلك الجندية كمرتزقة واستمروا يعملون في الجيوش الرومانية حتى القرن الرابع الميلادي . وهذا يعني أن الرومان كانوا أيضاً يوطنونهم كعنصر استيطاني قتالي . ونحن نعرف أن أول توطين لليهود في أوربا كان مع الحامية الرومانية التي وُطِّنت في مدينة (كولونيا) والتي اشتُق اسمها من كلمة لاتينية تعني «مستعمرة» (وكلمة «كولونيالية» مشتقة من الجذر نفسه) . ولكن يبدو أنهم لم يُوطَّنوا كعنصر قتالي وإنما كعنصر مالي . ومع هذا ، يمكن القول بأن الاستيطان والقتال كانا متلازمين في معظم الأحوال في العالم القديم .

وقد اختلف الأمر بشكل جوهري مع انتشار المسيحية والإسلام . فالقتال لم يَعُد يُمارَس من أجل الكسب المالي وتحقيق المغانم الاقتصادية وحسب وإنما أصبح يتم أيضاً من منطلق عقائدي ديني ، الأمر الذي نجم عنه استبعاد غير المؤمنين . ولذا لم يَعُد بإمكان المرتزقة اليهود الاستمرار في ممارسة مهنتهم ، فانخرطوا في وظائف أخرى وأصبح أعضاء الجماعات اليهودية من الجماعات الوظيفية المالية الوسيطة التي تعمل بالتجارة والربا . ولابد هنا من ملاحظة أن حامل رأس المال الربوي لا يختلف كثيراً عن حامل السلاح نظير أجر ، فكلاهما عنصر متعاقد غريب لا ينتمي للجماهير التي يضربها أو يستغلها ، تم حوسلته تماماً ، أي تحويله إلى وسيلة ، تستخدمها الطبقة الحاكمة . وكلاهما عنصر حركي لا ولاء له (إلا إلى أرض بعيدة أو وطن وهمي أصلي يحلم بالعودة اليه ولا يعود له أبداً) ومن هنا تسميتنا للجماعة الوظيفية المالية «المماليك المالية» حتى يتبيَّن

التواصل بين وظائف أعضاء الجماعات اليهودية الاستيطانية والقتالية ووظائفهم المالية (التجارية الربوية) .

وقد صنِّف اليهود في الحضارة الغربية على أنهم غرباء ، والغريب في العرف الألماني (الذي حل محل القانون الروماني في كثير من المجالات) كان تابعاً للملك تبعية مباشرة ، ومن ثم أصبح اليهود أقنان بلاط . ولكن من الصعب الحديث عن أقنان البلاط باعتبارهم جماعة استيطانية .

ومع هذا ، فهناك حالات محددة من الاستيطان اليهودي في العصور الوسطى . فقد قام شارلمان بتوطين اليهود في جنوب فرنسا في ماركا هسبانيكا لتكون حاجزاً على حدود العالم المسيحي لوقف التوسع الإسلامي . ويمكن أن نستخدم عبارة «جماعة استيطانية» بشيء من التجاوز للإشارة إلى أعضاء الجماعة اليهودية الذين دعاهم شارلمان للاستيطان في فرنسا ذاتها بهدف تشجيع التجارة ، وإلى أولئك الذين صاحبوا الغزو النورماندي لإنجلترا في القرن الحادي عشر ، وإلى أولئك الذين استقروا فيها باعتبارهم مادة استيطانية تجارية .

وقد عرفت شبه جزيرة أيبريا الاستيطان اليهودي سواء في إسبانيا الإسلامية (الأندلس) أو المسيحية . فأثناء الفتح الإسلامي ، كان المسلمون يُوطِّنون اليهود في المدن التي يفتحونها ، مثل قرطبة وغرناطة وطليطلة وإشبيلية حتى يتفرغ المسلمون للعمليات القتالية . وقد ثار المسيحيون في إشبيلية ، وفتكوا بأعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم عنصراً استيطانياً قتالياً . كما لجأت القوات المسيحية إلى النهج نفسه أثناء حرب الاستعادة ، فكانت تسمح ، من الناحية الاسمية ، لكل من اليهود والمسلمين بالاحتفاظ بمنازلهم والبقاء فيها ، ولكنها من الناحية الفعلية كانت تسمح لأعضاء الجماعة اليهودية وحسب بالاستيطان والبقاء في المناطق المفتوحة (مثل بالينسيا ولامنشا والأندلس وغيرها) .

ولا ندري هل كانت الفرق المسماة «تشاليزيان» في المجر في القرن العاشر جماعة استيطانية قتالية أم كانت جماعة قتالية وحسب . فكلمة «تشاليزيان» مشتقة من الجذر نفسه الذي اشتُقت منه كلمة «حالوتسيم» العبرية (بمعنى رواد) ، وهي الكلمة التي استخدمها الصهاينة فيما بعد لوصف طلائع المستوطنين الصهاينة . والرائد هو الجندي الذي يُوضَع في مقدمة الصفوف . ويبدو أن جنود التشاليزيان كانوا من بقايا يهود الخزر ، إذ أن مملكة المجر اجتذبت أعداداً كبيرة منهم عند تأسيسها ، فعملوا بالقتال نظير المال ، أي أنهم كانوا جماعة قتالية وربما استيطانية ولكنهم تحولوا بالتدريج إلى جماعة وظيفية مالية .

ومن المعروف لنا أن الدولة العثمانية قامت ، حينما ضمت أجزاء من المجر في عام ١٥٢٦ ، بتهجير ٢٠٠٠ يهودي إليها ليكونوا عنصراً استيطانياً موالياً للسلطان العثماني . ولعل هذا كان ضمن نظام السورجون العثماني ، و«سورجون» كلمة معناها «نفي أو ترحيل أو تهجير عنصر بشري ما ، إما كشكل من أشكال العقاب أو لتحقيق خدمة للدولة العثمانية» . وقد وطَّن العثمانيون اليهود في قبرص لموازنة العنصر المسيحي فيها ، كما وطنهم ملوك بولندا في المدن البولندية لتشجيع التجارة .

ولكن أهم التجارب الاستيطانية شبه القتالية للجماعات اليهودية على الإطلاق (قبل التجربة الصهيونية) هي تجربتهم كجماعة استيطانية تجارية شبه قتالية في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا ، حيث اضطلع بعض أعضاء الجماعة اليهودية بوظيفة الأرندا (دفع مقابل عائد الأراضي الزراعية) منذ أواخر القرن السادس عشر ، فقاموا باستئجار ضياع النبلاء البولنديين (شلاختا) في أوكرانيا وإدارتها لحسابهم . وكان الأرنداتور (المديرون أو الوكلاء) اليهود يستأجرون مناطق ومدناً بأكملها فيعتصرون الأقنان الأوكرانيين لحساب النبلاء البولنديين . ولحماية هؤلاء الوكلاء وأسرهم ، شيَّد النبلاء مدناً صغيرة تُسمَّى «شتتل» كانوا يعيشون فيها تحت حماية القوة العسكرية البولندية ، كما كان عليهم هم أنفسهم أن يتدربوا على حمل السلاح .

ومن التجارب الاستيطانية الأخرى للجماعات اليهودية تجربة يهود رومانيا الذين كان يُطلَق عليهم اسم «هرسوفلتسي» (وهو مُشتق من كلمة «هرسوف» الرومانية وتعني «ميثاق»)، والذين وَطَّنهم النبلاء الإقطاعيون (البويار) في رومانيا بعد منحهم ميثاقاً حصلوا بمقتضاه على ميزات معيَّنة ، من بينها الإعفاء من الضرائب لعدة سنين والحصول على أرض فضاء دون مقابل لإقامة معابدهم ومدارسهم وحمَّاماتهم ومقابرهم . وكانت علاقة الهرسوفلتسي بالبويار تشبه إلى حدٍّ كبير علاقة يهود الأرندا بالنبلاء الشلاختا ، فقد أسس البويار لليهود مدناً صغيرة تشبه الشتتل من أوجه كثيرة . ويُلاحَظ أن اليهود هنا كانوا عنصراً استيطانياً تجارياً غير قتالي . ورغم أن التجربة الاستيطانية لليهود في رومانيا استمرت أساساً في الفترة من منتصف القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، إلا أننا ذكرناها مع تجارب الجماعة اليهودية الاستيطانية في العصر الوسيط في الغرب لأنها من ناحية البنية تقع داخل إطار الاستيطان الوسيط . وعلى كلٍّ ، فقد كانت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الروماني تشبه إلى حدٍّ كبير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في أوربا الوسيطة .

ويمكننا الآن الدخول إلى العصر الحديث ، لنقول إن كثيراً من أساطير وديباجات الاستيطان الغربي وُلدت مع الإصلاح الديني البروتستانتي . وقد ظهرت الأسطورة الاسترجاعية التي تذهب إلى أن الخلاص لن يتحقق إلا بعودة اليهود إلى صهيون كجماعة وظيفية استيطانية دينية يسهم توطينها في صهيون في الإسراع بعملية الخلاص . وبالتدريج ، مع تَطوُّر مراحل الإمبريالية الغربية من الأطوار المركنتالية الأولى إلى المراحل التالية (المرحلة الصناعية وغيرها) ، أخذت معالم الأسطورة تتكشف وتتحدد بحيث تحولت صهيون إلى فلسطين البلد الواقع في وسط بلاد الشرق ويطل على بوابات مصر والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وقناة السويس (بعد افتتاحها) . ويبدأ اليهود يتحولون من شعب مقدَّس أو شعب شاهد أو شعب منبوذ إلى جماعة وظيفية تجارية وقتالية نشطة . وبعد سنوات طويلة من المقاومة والرفض من جانب أعضاء الجماعات اليهودية ، تلقفت الحركة الصهيونية الأسطورة وتحولت من أسطورة بروتستانتية إلى أسطورة يهودية . وهكذا أصبحت صهيون المكان الذي تَخرُج منه جيوش المستوطنين اليهود «حالوتسيم» الذين يسيرون في المقدمة مسلحين أمام الرب .

وإذا كانت الأسطورة الاسترجاعية تجعل من اليهود جماعة استيطانية ، فإن الأساطير الأخرى كانت تجعل من سائر المستوطنين الغربيين البيض يهوداً . فالبيوريتان ، أي المُتطهِّرون ، وهم المستوطنون الأوائل في الولايات المتحدة ، كانوا يتوحدون تماماً بالعبرانيين القدامى . فهم ، في خروجهم من أوربا ودخولهم الأرض العذراء ، كانوا يتصورون أنهم يشبهون تماماً العبرانيين القدامى حينما خرجوا من مصر ودخلوا كنعان ، وأن استيلاءهم على أرض أمريكا العذراء وإبادة سكانها يشبه استيلاء العبرانيين على المدن الكنعانية وإبادة سكانها (حسب الرواية التوراتية) . ومن ثم ، نجد أن أرض أمريكا كان يُشار إليها بوصفها صهيون الجديدة ، وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم بأنهم أبناء العهد (بل لقد اقترح أحدهم ، لدى التفكير في اختيار لغة للولايات المتحدة بعد استقلالها ، أن تكون العبرية لغة الدولة الجديدة) . ونجد أن الأسطورة نفسها تسيطر وبشكل درامي على المستوطنين البيض في جنوب أفريقيا (الأفريكانر) .

هذا من ناحية الإطار الفكري أو التصوري . أما من ناحية الممارسة التاريخية الفعلية ، فيمكننا القول بأن الاستيطان أصبح البُعد الأساسي في تجارب أعضاء الجماعات اليهودية . بل ويمكننا الذهاب إلى أنه لا يمكن فهم تفاعلات هذه التواريخ وحركياتها إلا بإدراك مدى استيعاب أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي (أي غالبية يهود العالم) في تجربته الاستيطانية . فقد اشترك أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من النشاطات الاستيطانية (خصوصاً في البلاد البروتستانتية) إما كممولين أو كجماعة وظيفية استيطانية . ومع بداية العصر الحديث ، كانت أهم جماعة يهودية في العالم تُوجَد في هولندا التي كانت من أنشط الدول الاستيطانية . وقد ساهم اليهود في كثير من النشاطات المرتبطة بالاستيطان الغربي ، مثل : شركتي الهند الشرقية والغربية الهولنديتين وغيرهما من الشركات ، وفي تجارة العبيد . كما اشترك عدد من أعضاء الجماعات اليهودية في عملية الاستيطان ذاتها . في بداية الأمر ، كان أعضاء الجماعة جزءاً من النشاط الاستيطاني الهولندي ، فاستوطنوا (ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر) في الهند الغربية في ترينيداد والمارتينيك وجامايكا وجزر الباهاما وكوراساو وسورينام .

وكوراساو هي إحدى جزر الهند الغربية الهولندية على مقربة من ساحل فنزويلا ، مساحتها ٢١٢ ميلاً مربعاً ، احتلها الأسبان عام ١٥٢٧ ، ثم استولى عليها الهولنديون عام ١٦٣٤ . وتعود أهميتها إلى أنها من التجارب الأولى للجماعات اليهودية الاستيطانية ، وإلى أنها تندرج في إطار الاستعمار الاستيطاني الغربي الذي بدأ نشاطه في العالم الجديد واستمر في التوسع إلى أن وصل إلى آخر حلقاته في فلسطين في العصر الحديث . وقد جرى أول استيطان يهودي في كوراساو عام ١٦٥٠ حين وصلت ١٢ عائلة يهودية يحمل أفرادها خطاباً من مجلس هولندا يطلب من حاكم الجزيرة أن يمد لهم يد المساعدة ، بأي صورة من الصور ؛ بالعبيد أو بالأرض أو بالأحصنة أو القطعان أو الأجهزة . ويبدو أن اليهود كانوا جماعة استيطانية زراعية ، على حين أن المستوطنين الهولنديين كانوا يهملون الزراعة لأن تجارة البضائع المهربة كانت أكثر ربحاً . ومع هذا ، يبدو أن التجربة لم تنجح تماماً بسبب بعض القيود التي فُرضت على حركتهم (ربما بسبب جو محاكم التفتيش الذي ساد العالم الجديد والذي وجد طريقه إلى كوراساو رغم أنها كانت تابعة لهولندا) . ولذا ، حينما طلب مجلس هولندا إلى أحد أعضاء الجماعة اليهودية أن ينقل مزيداً من الأسر اليهودية إلى كوراساو وعرض منحهم حقوقاً وامتيازات استثنائية (مثل الإعفاء من الضرائب لمدة عشرة أعوام ، وحق حيازة الأراضي التي يجدونها ملائمة ، وحق الامتناع عن العمل يوم السبت) ، لم يجد هذا الطلب أذناً صاغية . وحينما استولت البرتغال على البرازيل من هولندا ، عام ١٦٥٤ ، فرت مجموعة من اليهود إلى كوراساو وأخذت رأس

مالها معها . وقد كان ضمن نشاطاتهم الأساسية تجارة العبيد . وفي تلك الأونة ، أُزيلت كل القيود عن الجماعة اليهودية . وفي عام ١٦٩٣ ، رحلت مجموعة من اليهود إلى الولايات المتحدة ، فكانت أول جماعة يهودية تستوطن فيها .

ولكن سورينام كانت أهم التجارب الاستيطانية الأولى ، وقد بدأ وصول اليهود إليها عام ١٦٣٩ من هولندا ثم من إنجلترا عام ١٦٥٢ ، فكُفلت لهم كل الحريات والمزايا ، ومُنح اليهود الجنسية الإنجليزية . وبعد أن ضم الهولنديون سورينام مرة أخرى ، عام ١٦٦٧ ، حاول بعض اليهود عام ١٦٧٤ الرحيل مع الرعايا البريطانيين ، ولكن الهولنديين أرغموهم على البقاء فيها باعتبارهم جماعة استيطانية نافعة . وقد تَركَّز اليهود فيما يُسمَّى «يودين سافان» ، أي «سافاناه اليهود» ، وأسسوا مستوطنة يهودية في برزديتس أيلاند عام ١٦٧٠ كانت تتمتع بما يشبه الاستقلال الكامل (ومن ثم فهي أول دولة أو شبه دولة يهودية استيطانية قتالية في العصر الحديث) . وكان اقتصاد المستعمرة يعتمد على العبيد الذين راحوا يشقون الطرق ويزيلون الغابات والأعشاب ، حتى أقاموا مدينة جديدة محاطة بالطرق . وقد بلغ عدد سكان المستعمرة عشرة آلاف نسمة عام ١٧١٩ ، غالبيتهم الساحقة من العبيد بطبيعة الحال . وكان العبيد المُستجلَبون من أفريقيا يهربون ويلجأون إلى الأحراش ويختلطون بسكان الجزيرة الأصليين ، فيضطر سكان المستوطنة إلى استجلاب المزيد من العبيد من أفريقيا ، ولكنهم كانوا يهربون بدورهم وينضمـون إلى السكان الأصليين . ثم بدأ تحـالف من جماعات العبيد الأفارقة والسكان الأصليين في شن هجمات على المستوطنة في الفترة من ١٦٩٢ ـ ١٧٧٤ ، وكوَّن المستوطنون البيض ميليشيات عسكرية وجردوا الحملات ضد الثوار (تماما كما تفعل الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين) ، ولكن الإرهاق من الحرب وانتشار الأمراض أدَّى إلى انتصار تَحالُف السود السكان الأصليين وإلى سقوط أول دولة يهودية في العصر الحديث .

كما استوطن اليهود معظم بلاد أمريكا اللاتينية ، خصوصاً الأرجنتين التي وطَّن فيها المليونير هيرش آلاف اليهود ، فيما يُعدُّ أهم تجربة استيطانية زراعية في العصر الحديث بخلاف تجربة إسرائيل .

ويُلاحَظ أن هذه النشاطات الاستيطانية تدور إما في إطار الاستعمار الهولندي (البروتستانتي) أو الاستعمار الإسباني والبرتغالي (الكاثوليكي) . والمادة البشرية الأساسية هنا هي يهود السفارد (المارانو) . ولكن المادة الاستيطانية الحقيقية كان مصدرها يهود اليديشية (الإشكناز في روسيا وبولندا في شرق أوربا) الذين كانوا يشكلون الغالبية الساحقة ليهود العالم مع نهاية القرن التاسع عشر ، وهي أيضاً الفترة التي شهدت الهجرات الاستيطانية الغربية . ويمكننا أن نترك التسلسل التاريخي قليلاً ، لنركز على حركة يهود اليديشية داخل إطار التشكيل الاستعماري الروسي (الأرثوذكسي) في عصر القياصرة ثم في عصر البلاشفة . وقد تحكمت في السياسة الاستيطانية عند الروس والبلاشفة عدة عوامل متداخلة :

١ ـ المسألة اليهودية ، ومحاولة دمج اليهود ثقافياً واقتصادياً .

٢ ـ المشكلة السكانية في روسيا باعتبارها دولة مترامية الأطراف .

٣ ـ محاولة الدولة الروسية ترويس المناطق التي ضمتها من الدولة العثمانية وغيرها من المناطق ، وخَلْق كثافة سكانية روسية فيها (وهنا كان اليهود يُعَدّون جماعة وظيفية استيطانية روسية) .

وفي محاولة دمج الجماعة اليهودية ، كان التصور السائد أن المسألة اليهودية يمكن حلها ، أو التخفيف من حدتها ، بتحويل اليهود إلى جماعة وظيفية استيطانية تُنقل إلى أماكن مختلفة فتستفيد الدولة الروسية بتعمير الأراضي وتتخلص في الوقت نفسه من الفائض اليهودي (وهذا هو المنهج الغربي الصهيوني نفسه ، أي حل المسألة اليهودية لدول أوربا عن طريق نقل اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فيها ، وبذا تصبح فلسطين قاعدة للغرب) .

وفي الفترة بين عامي ١٨٠٧ و١٨٠٨ ، خصَّص القيصر بعض أراضيه لتوطين بعض أعضاء الجماعة اليهودية فيها لتحويلهم إلى عنصر نافع ، ولدمجهم في المجتمع . وبعد ضم الخانات التركية حول البحر الأسود ، سُميِّت المنطقة المحتلة باسم «روسيا الجديدة» ، وتم تشجيع اليهود على الاستيطان فيها بهدف تعميرها وتأكيد الوجود السكاني الروسي فيها . وقد استمر البلاشفة في الاتجاه الاستعماري الاستيطاني نفسه والذي يرمي إلى حل المسألة اليهودية وتعمير المناطق التي تم ضمها في آن واحد . وفي إطار هذا ، تم توطين اليهود في بيروبيجان ، وجرى التفكير في توطينهم في القرم . ويجب أن نشير هنا إلى أن كثيراً من اليهود الموجودين في الجمهوريات السوفيتية (غير الروسية) السابقة ، مثل جورجيا وأوزبكستان وبخارى وليتوانيا ولاتفيا ، يوجدون فيها في إطار الاستعمار الاستيطاني الروسي السوفيتي الذي كان يرمي إلى خَلْق كثافة سكانية روسية .

ولكن النشاط الاستيطاني الأكبر ليهود اليديشية كان داخل التشكيل الاستيطاني الأنجلو ساكسوني (البروتستانتي) ، فاتجه ملايين اليهود إلى جنوب أفريقيا وكندا ونيوزيلندا وأستراليا وهونج كونج ، واتجهت غالبيتهم (٨٥ ٪) إلى الولايات المتحدة أهم التجارب الاستيطانية الغربية . وقد يُثار هنا سؤال : بأي معنى يمكن استخدام

اصطلاح «جماعة وظيفية استيطانية» في حالة المهاجرين اليهود ، مع أنهم كانوا ضمن جماعات أخرى من المهاجرين الغربيين الذين هاجروا بكامل حريتهم ، علماً بأن الولايات المتحدة لم تعد دولة استيطانية بعد إعلان استقلالها ؟ وسنقر ابتداءً بأن استخدام المصطلح في هذا السياق فيه شيء من التجاوز وقَدْر من المجاز ، ومع هذا يمكن أن نشير إلى مايلي :

١ ـ لم تفقد الولايات المتحدة طابعها الاستيطاني إلا مع بداية القرن العشرين ، بل إن عملية طرد السكان الأصليين وإبادتهم لم تبدأ إلا عام ١٨٣٠ . وقد ضمت الولايات المتحدة أراضي شاسعة من المكسيك وغيرها بعد ذلك التاريخ ، وهي أراض احتاجت إلى مستوطنين . كما أن رعاة البقر (أو الكاوبوي) في الغرب الأمريكي ظلوا ملمحاً أساسياً في الحضارة الأمريكية ، ورعاة البقر هم الرواد (حالوتسيم) الأمريكيون البيض .

٢ ـ لم يكن اليهود أحراراً تماماً في عملية الهجرة ، فقد صنفتهم أوروبا باعتبارهم فائضاً بشرياً منبوذاً .

٣ ـ كانت الولايات المتحدة تسمح ليهود اليدشية بالهجرة إليها والاستيطان فيها بقدر حاجتها إليهم ، وبما يتفق مع أمنها القومي .

ويجب ملاحظة أن الدول الاستيطانية التي استقرت فيها غالبية اليهود ، بدأت تفقد طابعها الاستيطاني وتتحول إلى دول مستقرة ذات بنية سكانية ثابتة واضحة . ومع اختفاء السكان الأصليين ، تلجأ هذه المجتمعات إلى الحصول على المادة البشرية بطرق قانونية (عن طريق الهجرة) ، وتقوم بدمج وصهر العناصر الوافدة . كما أنها دول ذات مستوى اقتصادي متقدم استوعب أعضاء الجماعات اليهودية فيه دون تمييز أو قيود ، وهي مجتمعات ذات أصول بروتستانتية وصلت إلى درجة عالية من العلمنة والتعاقدية . لكل هذا ، فهي مجتمعات لا تحتاج إلى أي متعاقدين غرباء أو جماعة وظيفية تجارية أو زراعية أو استيطانية أو قتالية ، إذ يتم تجنيد العاملين (والخبراء والمقاتلين) من داخل المجتمع ذاته . ولعل هذا يُفسِّر سر اختفاء اليهود باختفاء الوظيفة التي كانت سبباً من أسباب استمرارهم .

من كل ما تَقدَّم يتبين مدى ارتباط الجماعات اليهودية في العالم (الغربي بالذات) بالاستيطان وبالقتال . ويمكن أن نشير هنا إلى ظاهرة أخرى وهي أن العالم العربي بدأ ، منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، في تحويل اليهود المستعربة ، أي يهود العالم العربي المحليين ، إلى جماعة وظيفية استيطانية تدين له بالولاء بغض النظر عن أصولهم العرقية والحضارية . وقد تم هذا من خلال عدة قنوات :

١ ـ منح الجنسيات الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها لأعضاء الجماعة اليهودية .

٢ ـ فرنسة يهود العالم الغربي من خلال مدارس الأليانس .

٣ ـ هجرة عناصر يهودية غربية إلى العالم العربي تولت قيادة الجماعات اليهودية في العالم العربي .

ومع انتصاف القرن العشرين ، وظهور الدولة الصهيونية ، تم تحويل الغالبية العظمى من يهود العالم العربي إلى مادة استيطانية لاجذور لها في المنطقة وعلى استعداد لأن تُنقل إلى أي مكان وأن تُوظَّف لصالح من يقوم بعمليات النقل والتوظيف والتمويل .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن أعداداً كبيرة من المستوطنين الفرنسيين في الجزائر كانوا يهوداً أتوا من فرنسا أو تم تجنيدهم من بين صفوف اليهود المحليين الذين كان يتم فرنستهم ، كما كانت الفرقة الأجنبية (الفرنسية) تضم أعداداً كبيرة من اليهود .

ونحن نرى أن من الأفضل تفسيرياً أن ننظر إلى الدولة الصهيونية لا باعتبارها دولة عادية لها نمط إنتاجي مما هو معروف (إقطاعي ـ رأسمالي . . . إلخ) وإنما باعتبارها دولة وظيفية ، فهي إعادة إنتاج لنمط الجماعة الوظيفية الاستيطانية القتالية على هيئة دولة . وقد تم توقيع عقد بلفور بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية العالمية والذي جرى بمقتضاه نقل من يرغب من اليهود إلى فلسطين ليصبح عنصراً استيطانياً قتالياً يدافع عن المصالح الغربية نظير مستوى معيشي مرتفع ، وهذا هو نمط القتال نظير المال . ولذا ، فإن إسرائيل ، بالنسبة للراعي الإمبريالي الجديد (الذي حل محل البطالمة والسلوقيين والرومان والنبلاء البولنديين [شلاختا]) ، هي أساساً ، وظيفة تُؤدَّى ودور يُلعَب .

ولم يُطلَق مصطلح «مرتزقة» على الصهاينة لأن هذا المصطلح لا يترك انطباعاً طيباً في النفس البشرية ، ولذا يُطلق الصهاينة على أنفسهم اسم «حالوتسيم» ، أي «المنخرطون في السلك العسكري في مقدمة الصفوف» ، ومن هنا تأتي ترجمتها بكلمة «الرواد» . ويُشار إلى إسرائيل بأنها قلعة على حدود أوربا في الشرق وحصن ضد الهمجية الشرقية . ومن المعروف أن المرتزقة ، في العصور الحديثة ، كانوا يوضعون دائماً في مقدمة الصفوف ، أي على الحدود الأمامية ، كما حدث على سبيل المثال عام ١٩٥٦ عند إنزال القوات البريطانية أثناء العدوان على مصر ، حيث أُنزل الأفارقة والهنود في بداية الأمر باعتبارهم مادة بشرية رخيصة ، ثم أُنزلت المادة البشرية البريطانية الثمينة فيما بعد . وهذا هو وضع الدولة الصهيونية ، والرواد

الصهاينة ، حيث يوضعون في المقدمة ، فهم الشعب المختار للاستيطان والقتال .

ولا يُنظَر إلى الدولة الصهيونية إلا من منظور مدى نفعها : فهي تارة ثروة إستراتيجية ، وهي تارة أخرى حاملة طائرات وحارس للمصالح الغربية . ولكنها ، في جميع الأحوال ، أداة ووسيلة وحسب لا غاية أو هدف . وتتسم الدولة الصهيونية الوظيفية أيضاً بالعزلة عما حولها حتى يتسنى لها الاضطلاع بوظيفتها بكفاءة .

وبعد أن ضمت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة ، تبلورت الأمور تماماً . وأدرك المستوطنون الصهاينة هويتهم كجماعة وظيفية استيطانية قتالية . وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته في فكر جماعة جوش إيمونيم التي ترى أن الاستيطان والقتال عبء مقدَّس ملقى على عاتق الشعب المختار ، وأن على اليهودي أن يقبل مصيره الإلهي إذ لا خيار له .

ويمكننا أن نقول إن الدور الذي تلعبه الدولة الصهيونية ، والوظيفة التي تضطلع بها ، هما السلعة الأساسية التي تنتجها ، وهما مصدر دخلها الثابت . ولذا ، يمكننا الحديث عن هذا الدور باعتباره إحدى علاقات الإنتاج مع الإمبريالية (وعلاقات الفتك مع الشعب الفلسطيني المُستَهْدَف) . وقد سمينا المستوطنين الصهاينة «المماليك الاستيطانية القتالية» تمييزاً لهم عن «المماليك المالية» وهم الجماعات اليهودية الوظيفية المالية . ونحن نرى أن هذا النموذج التحليلي أكثر تفسيرية لأنه يفسر كثيراً من جوانب الاقتصاد الإسرائيلي والسياسة الخارجية الإسرائيلية . ومع هذا ، فإننا نذهب إلى أن دور الدولة الوظيفية الصهيونية سيتغير ، مع ظهور النظام العالمي الجديد ، حيث سيتراجع دورها القتالي (المرتبط بوضعها الاستيطاني) وسيتحول «المماليك الاستيطانية القتالية» إلى «المماليك المالية» مرة أخرى ، وسيحل رأس المال العالمي محل السيف والمدفع ورأس المال الربوي ، وسيحمل الجنرال الإسرائيلي السابق السامسونايت بدلاً من المدفع الرشاش ، وسيحضر بالطيران المدني المكيف بدلاً من الطيران العسكري وبالليموزين بدلاً من الدبابة ، ولن يمطرنا بالصواريخ والنابالم ، كما كان يفعل حتى عهد قريب ، وإنما بعقود الصفقات التجارية المريبة والرشاوى الخفية التي تفسد العباد وتفلس البلاد .

وكما قال شمعون بيريز : « الشعب اليهودي لا يهدف إلى السيطرة وإنما يهدف إلى البيع والشراء » ، أي أن الجنرال أصبح إنساناً اقتصادياً يمثل شعباً مختاراً لعمليات البيع والشراء والأعمال المالية . ومثل هذا الإنسان لا يحب ولا يكره فهو يبحث عن الربح ، كما أنه لا يصدع رأسه بالحديث عن القيم أو المطلقات أو الهويات ، ولا يكنُّ احتراماً للآخر لأنه لا يكنُّ احتراماً لذاته ، وهو في النهاية عنصر حركي طرح عن نفسه تراثه وقيمه ونزع نفسه من وطنه ليستوطن أرض الآخرين . وعلى هذا ، فإن هدف العمليات القتالية والاستيطانية والمالية واحد في كل هذه الحالات ، ضمان تدفق خيرات هذه الأرض لقوى خارجها .

وقد لُوحظ أن أعداداً كبيرة من الإسرائيليين تعمل مرتزقة في بعض دول العالم الثالث . وتشير بعض التقديرات إلى أن أكثر من ٢٠٠٠ فرد من الجيش الإسرائيلي عملوا كمرتزقة ومدربين في أفريقيا على مدى الأعوام الثلاثين الماضية بدءاً بالطيارين في أوغندا وانتهاءً بالمظليين في زائير . وتُوجَد شركات خاصة (مثل شركة ليفدان) يديرها جنرالات سابقون ويشغل صفوفها أفراد سُرِّحوا حديثاً من الجيش الإسرائيلي . ويتلقى المرتزق الإسرائيلي مبلغ ٢٥٠٠ دولار علاوة على بدلات أخرى . وقد صرح مسئول من الشركة بأن ما تفعله هذه الشركة لا يختلف عما كانت تفعله الحكومة الإسرائيلية لسنوات طويلة .

جماعة يهودية وظيفية تجارية

Jewish Trading Functional Group

«الجماعة الوظيفية التجارية» هي الجماعة التي يضطلع أفرادها بالتجارة والنشاطات التجارية . وقد ارتبط أعضاء الجماعات اليهودية بمهنة التجارة في كثير من المجتمعات الإنسانية . ويُفسِّر أعداء اليهود هذه الظاهرة بصيغهم اللفظية الجاهزة ، مثل : « الطبيعة اليهودية الخاصة » أو « خصوصية الشخصية اليهودية » أو « النزوع الأزلي عند اليهود نحو استغلال الآخرين » . وهناك أيضاً التفسير الصهيوني الذي لا يقل تهافتاً عن الصيغ السابقة ، وهو « أن المجتمعات التي عاش فيها اليهود فرضت عليهم مهنة التجارة ثم الربا فرضاً ومنعتهم من الاشتغال بالزراعة أو ملكية الأراضي الزراعية » . وهكذا ، فبينما يرى التفسير الأول (المعادي لليهود) أن الأغيار ضحية عنف اليهود ، يرى التفسير الصهيوني أن اليهود هم ضحية عنف الأغيار . وهذه الأقوال السابقة كلها لا قيمة لها من الناحية التفسيرية ، ولولا شيوعها لما كلفنا أنفسنا عبء ذكرها أو الرد عليها .

ولكن ، بدلاً من استخدام النماذج التفسيرية العنصرية الجاهزة التي تختزل التفاصيل وتعفي الإنسان من مشقة التفكير والتمحيص ، يمكننا أن نستقرئ أحداث التاريخ المتعيِّن وبعض تفاصيله الدالة لنصوغ منها نماذج أكثر تركيبية وتفسيرية . لقد ورد ذكر العبرانيين

لأول مرة في التاريخ المدوَّن على أنهم بدو رحل يقومون بالرعي والتجارة . ولكن ، عند استقرارهم في أرض كنعان عملوا بالزراعة أساساً وظل نشاطهم التجاري محدوداً بل يكاد يكون منعدماً . ويُلاحَظ أن لفظ «كنعاني» كان مرادفاً للفظ «تاجر» (هوشع ١٢/ ٨ وأشعياء ٢٣/ ٨ وأمثال ٣١/ ٢٤) . ولعل هذا يُفسِّر خلو العهد القديم من الإشارة إلى التجارة باعتبارها نشاطاً اقتصادياً مهماً ، بعكس الإشارات الكثيرة إلى الزراعة والقوانين والطقوس والشعائر والأعياد المرتبطة بها . وإن كان ثمة رأي يذهب إلى أن هذا لا يعكس بالضرورة حالة المجتمع العبراني قبل قيام المملكة المتحدة وإنما يعكس ، في واقع الأمر ، الموقف السلبي الذي اتخذه كُتَّاب العهد القديم المحافظون ضد التجار وشئون المال . ولكن مما له دلالته أن التلمود يضم كتاباً كاملاً يُسمَّى «زراعيم» يتناول أمور الزراعة .

ومهما تكن حقيقة الأمر ، فقد تغيَّر الوضع مع ظهور المملكة العبرانية المتحدة التي كانت تشكل وحدة سياسية كبيرة نوعاً ما ولها سلطة مركزية أكثر مما كان عليه الحال إبان عصر القضاة . فقد كانت دولة في حاجة إلى تمويل المشروعات المعمارية الكبرى مثل هيكل سليمان ، ووجدت أنه قد يكون من الممكن توفير الاعتمادات اللازمة من خلال النشاط التجاري . ومما شجع على هذا الاتجاه موقع فلسطين باعتبارها ممراً رئيساً بين التشكيلين الحضاريين الأساسيين في الشرق الأدنى القديم (مصر وبلاد الرافدين) ، فضلاً عن وقوعها على واحد من أهم طرق التجارة في العالم القديم ، بحيث كان بإمكان من يحكمها أن يحقق أرباحاً كبيرة من خلال التجارة . وبالفعل ، قامت الدولة العبرانية بتطوير العلاقات التجارية مع مدينة صور إحدى أهم القوى التجارية الاقتصادية آنذاك . واشتركت الدولتان في إنشاء أسطول في عتسيون جابر ، ونشطت تجارة وصناعة التجميع ، فكانت المملكة تشتري العربات الحربية من مصر وتُجمِّعها وتشتري الأحصنة من مصادر أخرى وتبيعها للملوك سوريا من الحيثيين والآراميين . وقد تكون قصة ملكة سبأ وزيارتها لسليمان دليلاً على ازدهار التجارة الدولية للمملكة العبرانية المتحدة . ومما يجدر ذكره أن الدولة احتكرت هذه التجارة . أما التجارة الداخلية ، فيبدو أنها ظلت ضئيلة الشأن وبدائية تأخذ شكل المقايضة . ولم يتغيَّر الوضع كثيراً بعد انقسام المملكة المتحدة إلى المملكتين الشمالية والجنوبية .

ولكن الصورة تبدأ في التغير قليلاً مع التهجير البابلي ، حيث اشتغل بالتجارة كثير من أعضاء الجماعة اليهودية المهجَّرين ، خصوصاً أن الإمبراطورية البابلية كانت لديها تجارة دولية نشطة في ذلك الوقت . وقد تحوَّلت الجماعة اليهودية في بابل إلى جماعة وظيفية وسيطة ، وأصبح هذا هو النموذج السائد مع ازدياد انتشار الجماعات اليهودية في العالم القديم خارج فلسطين ، إذ ظهرت جماعات يهودية وسيطة في أرجاء الدولة الفارسية وفي الإسكندرية وروما وفي أنحاء أخرى من العالم القديم . لكن هذا لا يعني أن جميع اليهود ، في جميع أنحاء العالم ، كانوا يعملون بالتجارة منذ التهجير البابلي ، إذ أن من الثابت تاريخياً أن قطاعات كبيرة منهم ظلت تعمل بالزراعة في بابل وفي بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد تبلور تماماً هذا الاتجاه نحو العمل بالتجارة مع سقوط الدولة الرومانية وبداية العصور الوسطى في القرن الخامس الميلادي ، إذ تعرضت أوربا بعد سقوط الإمبراطورية لهجمات القبائل البربرية ، مثل : الوندال والفرنجة والهن والقوط والسكسون والتيوتون وغيرهم ، وهو ما أدَّى إلى تَحوُّل مركز الحياة ثانيةً من المدينة (التي كانت تمر بالمراحل الأولى من نموها) إلى الريف . وأدَّى هذا بدوره إلى حدوث تراخ شديد في عملية تَحوُّل الاقتصاد من إنتاج طبيعي استهلاكي يستند إلى القيمة الاستعمالية إلى إنتاج بضاعي يستند إلى القيمة التبادلية . ونتيجة ذلك ، ظلت القارة الأوربية كياناً استهلاكياً بصورة أساسية ، يُصدِّر العبيد والنساء والصبيان والفراء والسيوف ويستورد الأقمشة والحبوب والتوابل وغير ذلك من المنتجات التي تستهلكها بالدرجة الأولى طبقة الإقطاعيين والنبلاء . ونجم عن هذا استقطاب المجتمع الأوربي إلى طبقتين : طبقة السادة ملاك الأراضي وطبقة الفلاحين . وكانت أولاهما تحتكر التجارة ، أما الثانية فلم تكن قادرة على الاضطلاع بها لعدم تَوفُّر رأس المال أو الخبرة لديها . لكن النشاط التجاري لم يكن من الاتساع بحيث يستدعي ظهور طبقة تجارية محلية . وأدَّى هذا الوضع إلى اتساع الهوة بين الطبقتين ، ومن هنا كان من الطبيعي أن يضطلع بوظيفة التجارة جسم غريب مثل أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يقطنون المدن والموانئ مع التجار الفينيقيين . ويقول الحاخام آجوس : « لقد ورثت المسيحية القانون الروماني المعادي للتجارة والربا ، بينما ورث اليهود المدن والحياة في المدينة وتقاليدها القانونية والحضارية » . وهذا قول يتسم بكثير من المبالغة ولكنه ، مع هذا ، يصف جانباً مهماً من الواقع .

وبعد الفتح الإسلامي وضم منطقة سوريا وفلسطين ، تبلور دور اليهود كتجار داخل التشكيل الحضاري الغربي بصورة نهائية . وبالتالي اختفى التجار الفينيقيون ، وفُتح المجال على مصراعيه أمام اليهود ليصبحوا الجماعة الوظيفية الوسيطة الوحيدة تقريباً في

الغرب . بل وأصبحت الجماعات اليهودية ، بانتشارها في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي العالمين الإسلامي والمسيحي ، تشكل أول نظام ائتماني عالمي يُسهِّل عملية انتقال التاجر من بلد إلى آخر ويُيسِّر عمليات التبادل التجاري وينظمها . وبذلك ، أصبح أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون الجسر التجاري والمالي بين العالمين الإسلامي والمسيحي مع بداية العصر الوسيط في الغرب ، ولعبوا دوراً خطيراً في التجارة الدولية بينهما . ومما يجدر ذكره أن التجارتين الدولية والمحلية كانتا مرتبطتين تماماً ، إذ كان التاجر يحمل السلعة من بلد إلى آخر أو من سوق إلى آخر ويبيعها بنفسه أو يبيعها لتاجر يهودي آخر مقيم في المدينة . ويُقال إن أعضاء النخبة الحاكمة في مملكة الخَزَر كانوا يرغبون في تطوير التجارة بمملكتهم ، ومن ثم اعتنقوا اليهودية حتى يمكنهم التمتع بالتسهيلات الائتمانية التي يتمتع بها اليهود في شتاتهم ، أي انتشارهم .

ومن العناصر التي ساهمت في تحوُّل الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية ، علاقتها الخاصة بالزراعة في أوربا إبَّان العصور الوسطى (انظر : «علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة») .

ولعل العنصر الحاسم في عملية تحويل أعضاء الجماعة اليهودية إلى جماعة وظيفية وسيطة هو اكتمال ملامح النظام الإقطاعي ، فهو مجتمع يقوم على التفرقة بين الطبقات والجماعات ويحافظ على استقلال كل واحدة منها وعلى هويتها ، كما أنه مجتمع يستند إلى التضامن المسيحي . وقد كان على الفلاح أن يقسم يمين الولاء الديني ، كما كان الملوك يحكمون بالحق الإلهي للملوك . ولهذا ، لم يَعُد بإمكان اليهودي أن ينتمي إلى مثل هذا المجتمع بعد تبلور هويته المسيحية ، فلم يَعُد بوسع اليهودي ، على سبيل المثال ، أن يؤدي الخدمة العسكرية أو يمتلك الأراضي أو يزرعها لأن كل هذا يتطلب يمين الولاء المسيحي . ولمَّا كانت الزراعة والقتال هما الوظيفتان الأساسيتان في المجتمع الإقطاعي الغربي فقد تَحوَّل اليهودي بالدرجة الأولى إلى غريب ، كما استُبعد على المستوى الاقتصادي والديني والحضاري ، أي على جميع المستويات تقريباً . ولذا لم يكن أمام أعضاء الجماعات اليهودية سوى أن يملأوا الفراغات في المجتمع ويضطلعوا بالوظائف التي ليست من صميم بنيته ، أي أنهم تَحوَّلوا إلى وسطاء عليهم شراء المواثيق من الملوك والأمراء ، وتوثقت علاقتهم بالسلطة الدنيوية الحاكمة حتى أصبحوا أقنان بلاط يتبعون التاج الملكي والخزانة الملكية ويُوضَعون تحت حماية الملك ويشكلون ما يشبه الملْكية الخاصة له ، يحققون له الأرباح عن طريق التجارة والقيام بنشاطات مالية وإدارية أخرى مثل : جمع الضرائب والعمل في بعض الصناعات ، أي أنهم أصبحوا جزءاً من الطبقة الحاكمة وأداة طيعة لها .

وقد يكون من المفيد هنا أن نحذر من افتراض وجود نموذج عام يُطبَّق بأسلوب واحد وعلى مستوى العالم الغربي من مرحلة زمانية إلى مرحلة زمانية أخرى . فالنموذج الذي طرحناه عام للغاية ويصلح إطاراً تصورياً متحرراً إلى حدٍّ ما من الزمان والمكان ، وذا قيمة تحليلية وحسب ، ويظل التطور التاريخي ذاته مختلفاً ومليئاً بالتعرُّجات والنتوءات . ويمكننا أن نقول إن النموذج ينطبق إلى حدٍّ كبير على إنجلترا ، وبدرجة أقل على فرنسا حيث كان يوجد يهود يعملون بالزراعة . وفي ألمانيا ، استولى النبلاء على حق ملكية اليهود إذ أصدر تشارلز الرابع مرسوماً بذلك في عام ١٣٥٦ يسمح لهم بامتلاك وحماية اليهود . وكان هناك يهود يعملون بالحرَف ، مثل الصباغة وصناعة الحرير والدباغة والصياغة ، خصوصاً في إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية . ويختلف الوضع في إيطاليا من مقاطعة إلى أخرى ومن مرحلة زمنية إلى أخرى . ويمكن أن نضيف أن شرق أوربا كان وثنياً حتى القرن العاشر الميلادي ، أي أنه ظل خارج هذا الإطار تماماً لفترة زمنية طويلة . وحينما انضوى تحت هذا الإطار ، فإنه ظل تشكيلاً اقتصادياً له خصوصيته ، ولعب اليهود داخله دوراً مغايراً بعض الشيء عن الدور الذي لعبوه في غرب أوربا ووسطها .

وبعد كل هذه التحفظات ، يمكننا أن نبدأ في عرضنا التاريخي ، ونشير إلى أن اليهود أصبحوا ـ منذ القرن الخامس الميلادي ـ تجاراً دوليين ومحليين وازدادت أهميتهم مع الفتح الإسلامي . وقد أشار ابن خرداذبة إلى التجار الراذانية باعتبارهم تجاراً دوليين يمتد نشاطهم في كل أرجاء العالم القديم . وقد احتكر أعضاء الجماعات اليهودية معظم التجارة الدولية ، سواء في حوض البحر الأبيض المتوسط أو في الطريق البري الشمالي عبر القارة الأوربية من خلال بلاد السلاف ، في الفترة بين عامي ٨٠٠ و١٢٠٠ . وكانوا يقومون بتجارة الأنسجة والفراء والعقاقير والسلع التَرَفيَّة التي يأتون بها من الشرق والرقيق الذي يأتون به من بلاد السلاف التي اشتُق اسمها من كلمة من لاتينية العصور الوسطى إسكلافوس «scelavus» أي «عبد» ، ومن هنا أيضاً تسميتهم «الصقالبة» . ولهذا ، أصبح اليهودي المتجول معروفاً في كل مدينة وبلدة وفي كل سوق ومولد . وكانت الدول التي تريد إنعاش حركة التجارة فيها ترسل في طلب بعض اليهود وتوطنهم كي يقوموا بدور الوسيط وينشطوا الحركة التجارية التي يعجز المجتمع الزراعي بتنظيمه الجامد التقليدي عن القيام بها . ولهذا

السبب ، كان يُنص في المعاهدات أحياناً على تَبادُل اليهود . فقد اشترطت مدينة رافنا في معاهدة عُقدت مع البندقية في أواخر العصور الوسطى أن ترسل المدينة الأخيرة بعض اليهود ليقوموا بالأعمال المصرفية والتجارية فيها . كما كان الملوك يحاولون الحفاظ على اليهود ضمن اهتمامهم بالتجارة والحركة التجارية . وقد ارتبط أعضاء الجماعات اليهودية بالتجارة إلى درجة أن كلمة «تاجر» أصبحت مرادفة لكلمة «يهودي» تقريباً . ففي أحد المواثيق الألمانية الصادرة في القرن العاشر الميلادي (٩٦٥) ترد إشارة إلى « اليهود والتجار الآخرين » . غير أنه ينبغي التنبيه إلى أن التجارة التي اشتغل بها أعضاء الجماعات اليهودية تتسم بصفتين أساسيتين ، أولاهما أن التجارة اليهودية هي ما يعرف باسم «التجارة البدائية» ، وهي تجارة تختلف عن التجارة الحديثة من عدة وجوه . فالتجارة الحديثة هي جزء عضوي وأساسي من نظام المجتمع الرأسمالي والرأسمالية الرشيدة ، أما التجارة البدائية فتلعب دوراً ثانوياً وهامشياً في مجتمعات ما قبل الرأسمالية (العبودي والإقطاعي وغيرهما) ، حيث يتميَّز الإنتاج في هذه المجتمعات بأنه إنتاج لقيمة استعمالية وليست تبادلية ، أي أن الإنتاج كان موجهاً نحو إشباع حاجات المجتمع وحسب ، وإذا ما تَبقَّى فائض من السلع بعد أن يستهلك المجتمع ما يريد ، يقوم التاجر البدائي بنقله من هذا المجتمع إلى مجتمع آخر . كما كانت تنشأ داخل مجتمعات ما قبل الرأسمالية ، حاجة إلى بعض السلع الكمالية مثل التوابل والذهب ، فكان التاجر البدائي يقوم بتوريدها وسد الحاجة التي تنشأ إليها . وبهذا المعنى ، يمكن اعتبار التجارة البدائية تجارة هامشية دون أن يضفي هذا الاعتبار إيحاءات سلبية ، فهي لا تلعب أيَّ دور في حركة الإنتاج وإنما تظل على هامشها .

والصفة الثانية للتجارة اليهودية وثيقة الصلة بالأولى . فالتجارة اليهودية ، على خلاف التجارة التي تطورت بين المسيحيين ، كانت منذ البداية مرتبطة بالطبقة الحاكمة في المجتمع الإقطاعي ، حيث كان التاجر اليهودي (وكذلك المرابي اليهودي) ، كما أسلفنا ، ملكية للأمير أو الإمبراطور أو النبيل الإقطاعي ، وكان يقوم بالتجارة ليحقق أرباحاً لا تتحول إلى رأسمال مستثمر في المجتمع وإنما تصب في خزائن النبيل الإقطاعي من خلال الضرائب والإتاوات التي كان على اليهود دفعها . ومن هنا ، كانت التجارة اليهودية تعبيراً عن العلاقات القائمة في المجتمع الإقطاعي ولا تشكل نقيضاً لها على الإطلاق . ولعل هذا ما كان يعنيه ماركس حين أشار إلى وجود اليهود في مسام المجتمع الإقطاعي ، فهم فيه وليسوا منه ، وهم هامشيون في وجودهم لا يشكلون أي تحدٍّ له .

ولكن حركيات التطور داخل المجتمع الغربي ، التي جعلت اليهود يضطلعون بدور التجارة الدولية والمحلية ، هي ذاتها التي جعلت استمرارهم فيها مستحيلاً . وبعد أن كان وضعهم القانوني مستقراً ، بدأ هذا الوضع في الانهيار مع تضاؤل أهمية دورهم الاقتصادي . ويمكن أن نورد بعض الأسباب التي أدَّت إلى هذا الوضع :

١ ـ سيطرت المدن الإيطالية في القرن العاشر الميلادي على التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط . ومما عقَّد الأمر بالنسبة للتجار اليهود ، عدم وجود الإمكانات المالية أو العسكرية الكافية لامتلاك الأساطيل البحرية ، وهو أمر كان متاحاً لمدينتي البندقية وجنوة اللتين كانتا تمتلكان أساطيل تجارية قوية وكانتا من أوائل المدن/ الدول الأوربية التي ظهرت فيها طبقة تجارية نشطة . وقد حاولت هاتان المدينتان قدر استطاعتهما أن توقفا التجارة اليهودية . ومما عوض اليهود لبعض الوقت عن فقدانهم تجارة المتوسط تنشيط تجارتهم من خلال الطريق البري الذي يمر عبر الدول السلافية ابتداءً من إسبانيا وانتهاءً بالبحر الأسود .

٢ ـ ساهمت حروب الفرنجة التي يُطلَق عليها اسم «الحروب الصليبية» ، وهي تعبير عن الإرهاصات الأولى لولادة الرأسمالية الأوربية ، في القضاء على كثير من مراكز التجمع التجاري اليهودي في أوربا . وإلى جانب ذلك ، دعمت هذه الحروب العلاقات بين الدول الأوربية المختلفة وبدأت تظهر شبكة علاقات بينها . كما أصبح الطريق إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وغيره من الطرق ، مفتوحاً بعد أن أخذ التجار المسيحيون يتحركون بسهولة خلف جنود حملات الفرنجة . وقد ظهرت شبكة طرق في القارة الأوربية استخدمها التجار المسيحيون ، ولكنها لم تكن آمنة بالنسبة للتجار من أعضاء الجماعات اليهودية ، حتى أن السلطات سمحت للتجار اليهود بالتظاهر بأنهم مسيحيون حتى يمكنهم الانتقال بسهولة والاستمرار في تجارتهم .

٣ ـ بدأت تظهر هياكل مركزية حكومية في بعض الدول الأوربية مثل إنجلترا وفرنسا مع القرن الثالث عشر الميلادي ، وفي إسبانيا بعد ذلك التاريخ . وهذه الهياكل لم تجد في أعضاء الجماعات اليهودية ـ من حيث هم أقنان بلاط ـ فائدة كبرى ، ولذا طُرد اليهود في تلك المرحلة . ورغم عدم قيام سلطة مركزية في ألمانيا ، فإن وضع اليهود تخلخل تماماً هناك .

٤ ـ بدأت تظهر في أوربا طبقة تجارية محلية بلغت شيئاً من القوة في القرن الحادي عشر الميلادي . وقد أخذت قوة هذه الطبقة في

التعاظم، فبدأ التجار والحرَفيون في تكوين نقابات تضمهم وتقوم بالضغط لصالحهم ، وتحاول طرد التاجر اليهودي المنافس الذي كان يحظى بالدعم من السلطة الإقطاعية . وبدأت المدن تكتسب شيئاً من القوة والاستقلال ، ووصلت حركة استقلالها إلى ذروتها مع القرن الثالث عشر الميلادي ، واستولى التجار من الطبقة الوسطى بصورة متزايدة على المجالس المدنية والحكومات المحلية .

ومما يجدر ذكره أن الرأسمالية الحديثة أو الرشيدة في الغرب وُلدت على يد هؤلاء التجار المسيحيين وداخل جدران هذه المدن المستقلة الجديدة لا بين صفوف أعضاء الجماعات اليهودية أو داخل الجيتو أو الشتتل . حيث قام هؤلاء التجار بالاستثمار بعيد المدى في إنتاج سلعة ما وتخصصوا فيها وفي تصنيعها وتسويقها ، أي أن العملية الإنتاجية لم تَعُد تهدف إلى إشباع الرغبات كما هو الحال داخل النظام الإقطاعي ، بل إلى إنتاج سلع بهدف بيعها . وقد قام هؤلاء التجار المسيحيون بتضييق الخناق على التجار اليهود بدرجات متفاوتة من النجاح . وبدأت تسقط معاقل التجارة اليهودية في غرب أوربا ووسطها حتى اختفت التجارة اليهودية تماماً مع القرن السادس عشر الميلادي ، باستثناء بعض الجيوب في إيطاليا ووسط ألمانيا حيث تَركَّز نشاطهم بالدرجة الأولى في الربا وأعمال الرهونات ، وإن ظلوا يقومون بدور تجاري أيضاً .

وبالتدريج ، أخذ أعضاء الجماعات اليهودية في تحويل مدخراتهم إلى النوع السائل الذي يَسهُل حمله من بلد إلى بلد ، وتَحوَّل اليهودي إلى مبادلة النقد ثم إلى إقراضه بالفائدة العالية ، أي أنه وجد نفسه خارج النشاط الزراعي ثم خارج النشاط التجاري فَتحوَّل من تاجر إلى مراب ، وتَحوَّل اليهود ككل من جماعة وظيفية وسيطة تقوم بدور الوساطة بين طبقات المجتمع إلى جماعة وسيطة عميلة تقوم بدور الوساطة ولكنها في الوقت نفسه أداة في يد الطبقة الحاكمة أولاً وقبل كل شيء .

ولكن معدلات النمو لم تكن متساوية في أوربا ، فلم تكن البنية الاقتصادية لشرق أوربا تشبه البنية الاقتصادية لغربها مع بداية العصور الوسطى . ولذا ، رحبت النخبة الإقطاعية الحاكمة في بولندا وليتوانيا في أواخر القرن الثالث عشر بالعناصر التجارية ، مثل اليهود والأرمن والتجار الألمان ، لتطوير القطاع التجاري الدولي والمحلي فيها ، دون اللجوء إلى بورجوازية محلية لها جذور في المجتمع ولها قاعدة جماهيرية فيه قد تطالب بقدر من الاستقلال بعد أن يقوى ساعدها ، وقد تطالب بالمشاركة في صنع القرار وتُصرُّ على تَبنِّي سياسة تهدف إلى حماية الصناعة والتجارة المحلية ، الأمر الذي قد يُضرُّ بمصالح كبار الملاك الإقطاعيين الذين كانوا يُصدِّرون محاصيلهم إلى الغرب ويحتكرون التجارة في بعض السلع الحيوية . ومن ثم ، وجد النبلاء الإقطاعيون البولنديون في التجار اليهود ضالتهم المنشودة لأنهم أكثر العناصر بُعداً وغربة عن البيئة ، وبالتالي يمكنهم القيام بالنشاط التجاري والمالي والصناعي دون تشكيل أي خطر على انفتاح الاقتصاد الإقطاعي البولندي ، فأصبحوا أداة هذا الإقطاع . وقد ظهر في بولندا يهود الأرندا الذين لعبوا دوراً أساسياً في تصدير المحاصيل البولندية إلى أوربا ، ولاسيما إبَّان حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) .

وقد اضطلع يهود الأرندا بأنشطة مالية وصناعية أخرى مثل تحصيل الضرائب واحتكار تجارة الملح ، وساهموا بذلك في ملء خزائن النبلاء وفي ضرب البورجوازية المحلية .

وبعد سقوط التجارة اليهودية في غرب أوربا ووسطها وانسحاب التجار اليهود منها ، ظهر عنصر جديد هو يهود إسبانيا والبرتغال من المارانو السفارد الذين طُردوا من شبه جزيرة أيبريا مع نهاية القرن الخامس عشر وانتشروا في أوربا والدولة العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي . وكان يهود المارانو يمتلكون الخبرات اللازمة ورأس المال اللازم للأعمال المالية الكبرى ، وهو ما جعلهم يمولون كثيراً من الشركات الاستعمارية الجديدة وعمليات الاستيطان والاستثمار في العالم الجديد . فاستقروا في البرازيل واشتركوا في تجارة السكر والرقيق والمنسوجات حيث استفادوا بعلاقاتهم بالحكومة البرتغالية التي كانت تملك مستعمرات في أفريقيا مثلت مصدراً جيداً للعبيد .

وشهد منتصف القرن السابع عشر الميلادي ذروة تطوُّر الدور الاقتصادي للجماعات اليهودية في أوربا والعالم ، حيث اكتملت حلقة ما يمكن تسميته «التجارة الدولية اليهودية» ووصلت إلى قمتها وأصبحت عالمية بشكل لم يسبق له مثيل . وكان يهود المارانو هم حلقة الوصل الأساسية في هذه التجارة ، فتركزوا في المدن الأوربية الكبرى ، خصوصاً في تلك البلاد التي يتبعها إمبراطوريات مثل هولندا وإنجلترا وإسبانيا والبرتغال ، حيث احتفظ المارانو بعلاقتهم مع أقاربهم الذين لم يُطرَدوا من شبه جزيرة أيبريا . وبذلك أصبحوا يلعبون دوراً أساسياً في تجارة الأطلسي والعالم الجديد . كما تركز المارانو في هامبورج وبوردو وبايون ، وظهر من بينهم (ومن صفوف الإشكناز) يهود البلاط الذين لعبوا دوراً أساسياً في تجارة الإمارات الألمانية ووسط أوربا بشكل عام . وكانت تساعد هذا المركز الأوربي قاعدة ضخمة من صغار التجار اليهود وتجار العملة ، حيث كان يهود

الأرندا الإشكناز في بولندا ، الذين امتدت نشاطهم من بحر البلطيق إلى البحر الأسود ، يشكلون أحد أجنحتهم المهمة . أما الجناح الآخر ، فتمثَّل في يهود الدولة العثمانية الذين تمركزوا في موانئ البحر الأبيض المتوسط . بل وكان للمارانو - كما أشرنا - قاعدة في المغرب وفي المستعمرات البرتغالية في أفريقيا وفي المستعمرات الهولندية والإسبانية والبرتغالية والإنجليزية في العالم الجديد . وهكذا اكتملت هذه الحلقة التجارية الدولية الضخمة . ومع أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، بدأ يهود الإشكناز انتشارهم مرة أخرى في أنحاء العالم إلى أن أصبحوا أغلبية يهود العالم .

ويُلاحَظ أن عودة اليهود إلى دول غرب أوربا ، في القرن السابع عشر الميلادي ، كانت عودة إلى دول لها مشروعها الرأسمالي الاستعماري الضخم المتكامل . ولكن ، رغم أنهم كانوا يمثلون عنصراً تجارياً نشطاً ، إلا أنهم لم يشكلوا عنصراً مستقلاً يمثل تجارة يهودية ملتصقة بالإقطاع ، بل أصبحوا تجاراً يدينون باليهودية ويشكلون جزءاً من كلٍّ غربي لا يتحكمون فيه ولا يشكلون فعالية مستقلة داخله ، حتى وإن تمتعوا بقدر من الاستقلال ، لأنه في النهاية قَدْر صغير لا يؤثر على الاتجاه العام للرأسماليات التي ينتمون إليها . وقد ظلت التجارة اليهودية الهامشية قائمة في وسط أوربا وشرقها بدرجة أكبر حتى عصر الإعتاق (في القرن الثامن عشر) ، فظهرت بورجوازيات محلية في ألمانيا ثم بولندا أخذت تزاحم التجار اليهود وتطردهم . وقد تدهور وضع التجار اليهود ، خصوصاً في بولندا بعد تقسيمها وبعد تَدنِّي وضع اليهود الاقتصادي فيها . ومن هنا ظهرت مسألة يهودية في كل من هذه البلاد .

وكان للتجارة اليهودية دائماً بُعد سلبي أو مظلم ، فقد كانت تجارة هامشية طفيلية " تعيش على تَخلُّف المجتمع " على حد قول ماركس ، وتتسلل دائماً إلى الشقوق الناجمة عن التخلف ، وإلى الأطراف التي تحفّ بها المخاطر ولا تجد من يعمل فيها ، ولذا نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية اشتغلوا بتجارات مشينة مثل : تجارة الرقيق والمشروبات الكحولية والرقيق الأبيض ، وهي جميعاً تجارات كريهة للنفس البشرية . فكانت تجارة المشروبات الكحولية في شرق أوربا من النشاطات التجارية الأساسية بينهم ، وكانت مشكلة السكْر مشكلة أساسية تواجه الفلاحين والأقنان في شرق أوربا ، وهو ما زاد سخط الجماهير عليهم . كما أن احتكار أعضاء الجماعات اليهودية لبعض السلع الأساسية ، مثل الملح (لحساب النبلاء الإقطاعيين) ، جعلهم في حالة احتكاك وتوتر دائمين مع الفلاحين وكل عملائهم ، رغم أن أرباح تجارة الكحول والملح كانت تَصبُّ أساساً في خزائن النبلاء ولم يكن اليهود سوى وسطاء فيها . ومنذ عام ١٨٨٠ ، ومع تدهور دورهم التجاري ، اشتغل بعض أعضاء الجماعات اليهودية بتجارة الرقيق الأبيض ، فكانوا يُصدِّرون الفتيات اليهوديات من منطقة الاستيطان عبر جاليشيا إلى العالم الجديد ، خصوصاً إلى الأرجنتين . وقد وصل نشاط تجار الرقيق الأبيض من اليهود إلى مصر والهند والصين أيضاً .

كما أدَّى التدني التدريجي لوضع أعضاء الجماعات اليهودية ، وتضييق الخناق عليهم ، إلى اشتغالهم بأنواع من التجارة غير المشروعة مثل تهريب السلع دون دفع جمارك عليها . وساعدهم في ذلك تَوفُّر شبكة الاتصالات الضخمة لديهم ، وتَحدُّثهم باللغة اليديشية التي لم يكن يفهمها سواهم . وكانت مثل هذه النشاطات مسئولة عن ظهور الصورة السلبية التي أشاعها عن اليهود المعادون لهم ، وعمموها بعد عزلها عن الظروف الاجتماعية التي أدَّت إلى ظهورها ، بحيث تحوَّلت هذه الصورة إلى نموذج يُعبِّر عن الطبيعة الأزلية لليهود ! وقد حاربت مختلف الحكومات بقايا التجارة اليهودية وعزلتها ، وحاولت دمج أعضاء الجماعات اليهودية عن طريق تحويلهم إلى عناصر اقتصادية منتجة ، إلى أن قضت الثورات الشيوعية والإبادة النازية لبعض يهود الغرب على البقية الباقية من التجارة اليهودية الشرعية وغير الشرعية .

ويُلاحَظ أنه لا يوجد أثر للتجارة اليهودية في الولايات المتحدة ، إذ أن اليهود هاجروا مع ملايين المهاجرين إلى مجتمع تجاري علماني نفعي يحكم على الأعضاء بمقدار مدى نفعهم ومدى إسهامهم الاقتصادي في مجتمعهم .

ومع هذا ، تركت التجارة اليهودية أثرها في يهود روسيا السوفيتية حيث تواجدت أعداد كبيرة منهم في قطاع تجارة التجزئة والسوق السوداء . أما في الولايات المتحدة ، فيظهر أثر الميراث الاقتصادي للمهاجرين اليهود في تَركُّز رأس المال اليهودي في الصناعات القريبة من المستهلكين ، مثل السينما والملابس ، وفي بُعدهم عن الصناعات الثقيلة التي تتطلب استثماراً بعيد المدى وتنطوي على مخاطر كبيرة . ولكن ميراث التجارة اليهودية آخذ في الزوال تماماً .

وقد ترك اشتغال يهود العالم الغربي بالتجارة والأعمال المالية أثره العميق فيهم ، إذ يُعَدُّ اشتغالهم بالتجارة سبباً في « استمرارهم » واحتفاظهم بنوع من الاستقلال العرقي والقومي ، وهذه سمة أساسية في الجماعات الوظيفية .

والتجارة اليهودية التي تفترض انعزال التاجر عن مجتمعه هي

الأساس الاقتصادي للجيتو ولكثير من التصورات الدينية والفكرية التي يُقال لها «قومية» والتي تتحدث عن «الشعب اليهودي» و«الشعب المختار» الذي يُوجَد على هامش التاريخ أو ربما خارجه ، شأنها شأن التاجر اليهودي .

والتجارة اليهودية مسئولة عن تحديد صورة اليهودي في أدبيات معاداة اليهود . فاليهودي يظهر على أنه التاجر والمموِّل الشره والرجعي المحافظ في آن واحد . وربما يعود هذا إلى أن التجارة اليهودية نشاط شبه رأسمالي ولكنها تجارة مرتبطة بالنظام الإقطاعي، ولذلك فهي شيء مُبهَم يَصعُب تصنيفه . بل ويُقال إن الفلاحين كانوا ينظرون إلى التجارة اليهودية باعتبارها ضرباً من السحر ، نظراً لطبيعتها الهامشية والطفيلية . فالنبيل الإقطاعي والفلاح يعملان بالزراعة ، ولا غرابة إذا ظهرت ثمرة جهدهما ، لأنهما يقومان بجهد في تحويل مادة ما (الأرض) إلى شيء آخر (الثمرة) من خلال الجهد الإنساني ، أما اليهودي فكان لا يملك سوى رأسماله الذي يقوم بتحريكه (شراء السلع وبيعها) فيراكم الثروات دون جهد أو عمل دون أن ينتج شيئاً ملموساً وكأنه ساحر يخرج الأرنب من القبعة بتحريكها .

والفكر الصهيوني ذو بُعد تجاري واضح ، فهرتزل والصهاينة يتحدثون باستمرار وجدية عن شراء حائط المبكى بل وعن شراء فلسطين ذاتها . وانطلاقاً من التصور التجاري نفسه ، لا يزال الإسرائيليون يتحدثون عن دفع تعويضات للفلسطينيين نظير أن يبحثوا لأنفسهم عن وطن آخر ، كما تُقدِّم الحركة الصهيونية ما يشبه الرشوة لليهود السوفييت ليهاجروا إلى الأرض المقدَّسة . وأخيراً ، فإننا نميل إلى تسمية الدولة الصهيونية بالدولة الوظيفية ، فهي تلعب دوراً يشبه في كثير من النواحي دور التجارة اليهودية في أوربا . كما أن الدولة الصهيونية هامشية ترتبط مصالحها بمصالح الإمبريالية الغربية مثل ارتباط التجار اليهود بالطبقات الحاكمة التي كانت تستخدمهم أداة لضرب القوى الوطنية المحلية .

الراذانيـــة

Radhanites

«الراذانية» جماعة من التجار اليهود ، وورد اسمهم في صيغتين : الراذانية عن ابن خرداذبه و الرادانية عند ابن فقيه . ويُقال إن الاسم مُشتق من كلمة «ردن» الفارسية بمعنى «عرف الطريق» . وهناك من يذهب إلى أنه من الكلمة «رادنوس» اللاتينية (نهر الرون) . ويختلف الباحثون في أصلهم فيقول البعض إنهم من جنوب فرنسا ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أنهم أصلاً من العراق . وقد وصف ابن خرداذبه في كتابه **المسالك والممالك** نشاطهم في المجال التجاري ، قائلاً إنهم يتكلمون « العربية والفارسية والرومية [اليونانية] والإفرنجية [لغة الفرنجة أي الفرنسية القديمة] والأندلسية [الإسبانية] والصقلبية [اللغات السلافية] » . وهم يسافرون من الغرب إلى الشرق براً أو بحراً ، من فرنسا إلى السند والهند والصين ثم يعودون حاملين من الصين المسك والعود والكافور . وهم في رحلتهم هذه يسلكون عدة طرق . يجلبون من الغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف . وقد استمر نشاط التجار الراذانية حتى القرن التاسع الميلادي حين سيطرت المدن/ الدول الإيطالية على التجارة الدولية .

جماعة يهودية وظيفية مالية (الربا والإقراض)

Jewish Financial Functional Group (Usury and Money Lending)

«الجماعة الوظيفية المالية» هي الجماعة التي يضطلع أعضاؤها بوظائف مالية مختلفة مثل الربا وجمع الضرائب . ويُفرِّق علم الاقتصاد الحديث والمؤرخون الاقتصاديون في الغرب بين الربا والإقراض بفائدة . ففي الإطار الربوي يتم الإقراض لسد حاجة أو لدفع ضريبة أو جزية أو لبناء قصر أو كنيسة أو لتجريد حملة عسكرية . والقرض الربوي لا يصبُّ في أية عملية إنتاجية ، كما أن سعر الفائدة يكون عالياً جداً وغير محدَّد ، وغالباً ما يُحدَّد في ضوء مدى حاجة المدين إلى القرض . أما الإقراض بفائدة ، فقد عُرِّف بأنه إقراض مبلغ من المال بهدف استثماره في شراء البضائع أو في مشروع صناعي لتحقيق ربح ، والقرض هنا يصبُّ في العملية الإنتاجية وعادة ما يتم تحديد نسبة فائدة معقولة . لكن هذه التفرقة لم تكن معروفة أو معمولاً بها في العصور القديمة حتى الثورة الصناعية في الغرب . ولذلك ، فسوف نستخدم مصطلح «الربا» للإشارة إلى عملية الإقراض بفائدة أياً كان الهدف وأياً كان سعر الفائدة ، خصوصاً وأن الإقراض اليهودي كان في معظمه ربوياً بالمعنى الاصطلاحي للكلمة . وقد ارتبطت صورة اليهودي بشخصية المرابي في العقل الغربي وعَبْر التاريخ الغربي ، وهي الصورة التي خلدها شكسبير بشخصية شيلوك في مسرحية **تاجر البندقية** . وقد فسر المعادون لليهودية اشتغال اليهود بالربا ، مثلما فسروا اشتغالهم بالتجارة ، على أنه جزء من طبيعتهم الأزلية ونزوعهم الأبدي نحو

امتصاص دم الآخرين ، في حين فسره المؤرخون الصهاينة بأنه وظيفة فُرضت على اليهود فرضاً باعتبارهم ضحايا أزليين لذئاب الأغيار . وليس لهذين التفسيرين أية علاقة بالواقع المتعيِّن للجماعات اليهودية .

فقد كان العبرانيون ، حين ظهروا لأول مرة في التاريخ ، بدواً رُحَّلاً لا يتعاملون بالنقود ، ولذا لم يكن هناك مجال للإقراض أو الاقتراض . ولم يكن اقتصاد المملكة العبرانية المتحدة متقدماً بما فيه الكفاية ليتطلب السيولة النقدية اللازمة لعمليات الاستثمار أو حتى لشراء السلع التَرَفيّة ، حيث كان الاقتصاد الداخلي بدائياً مبنياً على المقايضة والتبادل . أما الإنشاءات المعمارية التي قامت بها الدولة ، فتم تمويلها من خلال التجارة الدولية التي احتكرتها .

واشتغل العبرانيون المُهجَّرون إلى بابل بالزراعة ، ولكن أعداداً منهم بدأت تقطن المدينة حيث اشتغلوا بالتجارة الدولية والمحلية ، وظهرت بيوتات مالية تجارية ـ مثل بيت موراشو ـ كانت تُقدِّم القروض نظير فوائد . ويبدو أن بعض يهود الإسكندرية اشتغلوا بأعمال الربا ، فيَذكُر يوسيفوس أن كبير الموظفين (ألبارخ) الإسكندري أقرض الملك أجريبا مبلغاً من المال . ولكن حالة يهود الإسكندرية كانت الاستثناء وليست القاعدة ، ولذا لا نجد حتى القرن الرابع الميلادي أي هجوم على اليهود باعتبارهم مرابين .

ومع القرن السادس الميلادي ، بدأ اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالربا في الإمبراطورية الفرنجية . كما ظهر مرابون يهود في العالم الإسلامي ، ولكنهم لم يحتكروا هذه المهنة إذ اشتغل بها أعضاء الأقليات العرْقية والدينية الأخرى كما اشتغل بها بعض أعضاء الأغلبية . ولم تتركز أغلبية اليهود في هذه المهنة بل كانوا يعملون في معظم الحرف والمهن الأخرى . وبدأ تَركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي في مهنة الربا ابتداءً من القرن العاشر الميلادي . وفي محاولة تفسير هذه الظاهرة ، تُساق عدة أسباب ربما كان أهمها اضطرار اليهود إلى اعتزال التجارة الدولية والمحلية ، وظهور المدن/ الدول الإيطالية ، وحروب الفرنجة ، وتشكيل نقابات الحرَفيين . ومن ثم اضطر اليهود إلى تحويل ممتلكاتهم إلى رأسمال سائل يَسهُل حمله ، وإلى الاشتغال بأعمال الصيرفة واستبدال العملة ثم الربا . وقد شجعت على هذه العملية عدة أسباب أخرى أهمها :

١ ـ كان أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون جماعة وظيفية وسيطة في التشكيل الحضاري الغربي . والجماعة الوسيطة هي التي تضطلع بوظائف (مثل الاتجار والإقراض بالربا) لا يقبل أعضاء المجتمع القيام بها بسبب ارتباطهم بأواصر قرابة أو صداقة أو جيرة تجعل دخولهم في علاقات موضوعية باردة محايدة أمراً عسيراً . ومن هنا كان من المنطقي أن يعمل أعضاء الجماعة اليهودية الوسيطة ، الذين يقومون بمهنة التجارة ، بالربا حينما تضطرهم الظروف إلى تغيير وظيفتهم .

٢ ـ ولعل التنظيم الجامد للمجتمع الإقطاعي الغربي لعب دوراً أساسياً في هذا المضمار ، فلم يكن أمام التاجر اليهودي الذي كانت تُغلَق أمامه فرص التجارة بدائل كثيرة مطروحة ، إذ لم يكن بمقدوره أن يعمل في الزراعة أو القتال أو في كثير من الحرف الأخرى ، خصوصاً بعد تشكيل نقابات الحرفيين التي كانت تُعَد أكثر القطاعات عداء لليهود .

٣ ـ تُحرِّم الكنيسة الربا على المسيحيين حيث صدرت عدة قرارات في هذا الشأن . وكان أولها قرار اتُّخذ في مجمع نيقيا في عام ٣٢٥ ثم في مجمع أورليان في عام ٥٣٨ ، ولكن هذه القرارات كانت تُحرِّم الربا على رجال الدين لا على جميع المسيحيين ، إلى أن صدر قرار شارلمان عام ٧٨٩ . ووصل التحريم قمته في المجمع اللاتراني الثالث عام ١١٧٩ حيث شمل التحريم كل المسيحيين (« إن الذين يجهرون بالربا لا يُقبَلون في العشاء الرباني وإذا ماتوا وهم على إثمهم لا يُدفَنون دفن المسيحيين ، وليس لقسيس أن يقبل صلواتهم») . أما اليهودية فلم تُحرِّمه ، ولكنها حرَّمت إقراض اليهودي لأخيه اليهودي بالربا ، فقد جاء في سفر التثنية (٢٣/ ١٩ ـ ٢٠) « لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يُقرَض بربا للأجنبي . تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها » . ومن المعروف أن الجماعات الوظيفية تتبنى مقاييس أخلاقية مزدوجة ، مقاييس تنطبق على عضو الجماعة وأخرى تنطبق على أعضاء المجتمع المضيف . ومع هذا ، يجب الإشارة إلى أن الفقه الديني اليهودي لم يتقبل بسهولة مسألة الإقراض بربا . وقد قال راشي في القرن الحادي عشر الميلادي : «إن كل من يقرض أجنبياً بفائدة سيهلك» .

وقد أصبح التحريم أقل حدة في القرن الحادي عشر الميلادي عندما أصدر أحد الحاخامات فتوى مفادها أن اليهودي ينبغي عليه ألا يقرض الأغيار بربا ، حين يكون بوسعه أن يكسب رزقه بطريقة أخرى . كما أصدر الحاخام أليعازر بن ناثان (من ألمانيا) فتوى مماثلة جاء فيها : « حينما لا يملك اليهود حقولاً أو كروماً يمكنهم العيش من ريعها ، يصبح إقراض المال بربا ضرورياً لكسب رزقهم ومسموحاً به » . وقد جاء في المشناه « بإمكان الإنسان أن يُقرض

ويقترض بربا من الكفار » . ولكن وردت إلى جانب ذلك تحفظات بحيث لا تصبح المسألة مطلقة ، فأورد التلمود اقتباساً من المزمور ١٥ الذي جاء فيه « فضته لا يعطيها بالربا » ، كما جاء في سفر الأمثال (٢٨/ ٨) ما يبيِّن أن الإقراض بالربا ليس مُحرَّماً ولكنه مع هذا مكروه ، ثم ذُكر أن الإقراض بالربا مباح إذا كانت الفائدة ضرورية لحياة الإنسان وليس الهدف منها الحصول على الثروة والترف .

٤ ـ تزامنت عملية تَحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية عن التجارة مع ظهور حاجة ماسة إلى المال السائل اللازم لتجريد حملات حروب الفرنجة ولبناء الكاتدرائيات والكنائس . بل وبدأت تظهر في أوربا ، بسبب التحولات الاقتصادية العميقة التي كانت تخوضها آنذاك ، حاجة ماسة إلى اقتراض النقود ، لا لسد الحاجة الشخصية وإنما للاستثمار التجاري ، أي أن عملية الاقتراض بدأت تصبح مسألة أساسية للنظام الاقتصادي .

وفي القرن الحادي عشر الميلادي ، تصاعدت وتيرة تَحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية عن التجارة واشتغالهم بالربا . وبعد عدة عقود ، كان معظم السكان في أوربا المسيحية ، في غربها ووسطها ، مدينين لليهود الذين أصبحوا مالكين لقرى ومدن بل بعض الأماكن المسيحية المقدَّسة مثل الأضرحة والمزارات . وقد احتكر اليهود عملية الإقراض نظير فائدة عالية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين ، وأصبح الربا هو مصدر حياة معظم يهود أوربا . وأصبحت كلمتا «مرابي» و«يهودي» مترادفتين مع نهاية القرن الثالث عشر الميلادي .

وقد مارس المرابون اليهود نشاطهم في إنجلترا مع بداية القرن الحادي عشر الميلادي حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . أما في فرنسا ، فقد مارسوا نشاطهم في فترات مختلفة من نهاية القرن الثاني عشر الميلادي حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي . واكتسب أعضاء الجماعات اليهودية أهميتهم في ألمانيا ، بوصفهم مرابين ، من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن الخامس عشر الميلادي . ثم امتد نشاطهم بعد ذلك إلى بولندا واستمر حتى القرن التاسع عشر الميلادي . وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن كل أعضاء الجماعات اليهودية تحولوا عن التجارة ، إذ ظل هناك يهود يعملون بها حتى القرن الخامس عشر الميلادي بل وحتى بعد ذلك التاريخ ، خصوصاً في الدول السلافية . كما أن من المعروف أن التجارة اليهودية وصلت قمة ازدهارها في القرن السابع عشر الميلادي أيام يهود البلاط .

وقد كُسر احتكار أعضاء الجماعات اليهودية للربا مع ظهور جماعات من المرابين المسيحيين مثل جماعات فرسان المعبد الألمانية ، واللومبارد في إيطاليا ، والكوهارسين في فرنسا . ويبدو أن الكنيسة الكاثوليكية ذاتها كانت متورطة في عمليات الإقراض بالربا وكانت تلتف حول التحريم الذي أصدرته بأن تقوم بإقراض المال المطلوب للمدين الذي يقدم كضمان قطعة أرض تقوم الكنيسة باستثمارها لحسابها وتستولي على ريعها الذي يشكل الفائدة إلى حين استرداد القرض الأصلي . كما ساندت الكنيسة كثيراً من جماعات المرابين . وقد منح البابا إنوسنت الرابع في عام ١٢٤٨ لقب «أبناء الكنيسة الرومانية المميَّزين» للمرابين المسيحيين . ومع هذا ، كان ارتباط كلمة «المرابي» بكلمة «اليهودي» من القوة حتى أن إحدى القصائد الألمانية تشير إلى «اليهود المسيحيين» أي «المرابين المسيحيين» . وكانت كلمة «لومبارد» أيضاً مرادفة لكلمة «مرابي» ، ولذا يُوجَد نص فرنسي (١٣١٥) يشير إلى «اللومبارد واليهود والمرابين الآخرين » .

وقد احتدمت المنافسة في بداية الأمر بين أعضاء الجماعات اليهودية من جهة ، واللومبارد والكوهارسين من جهة أخرى . فهؤلاء المرابون كانوا يشغلون المكانة نفسها ويضطلعون بالوظيفة نفسها ويتمتعون بالمزايا نفسها وتنزل بهم الكوارث نفسها ، فقامت صراعات بينهم لهذا السبب . وحينما اضطهد هنري الثالث ملك إنجلترا الكوهارسين في عام ١٢٥١ وزج ببعضهم في السجن (وفرَّ البعض الآخر) ، عم الفرح أعضاء الجماعة اليهودية . ولكن بعد عامين ، حينما قام لويس التاسع بطرد اليهود ، استولى الكوهارسين على بيوتهم وممتلكاتهم بحماس غير عادي .

وكانت المواثيق تعامل أعضاء الجماعات اليهودية وغيرهم من المرابين على قدم المساواة ، وكانوا أحياناً يُطرَدون جميعاً كما حدث عام ١٤٢٧ في برن (سويسرا) .

ومع ذلك لم يقوَ المرابون اليهود على الاستمرار في المنافسة ، إذ تمتَّع المرابون المسيحيون بمساندة حكوماتهم التي كانوا يوفرون لها قدراً كبيراً من الأمن اللازم للعمليات المالية . ولكن الأهم من هذا أن جماعات اللومبارد أو الكوهارسين كانت لديهم شبكة اتصال ضخمة ، وكان بوسعهم تدبير قروض ضخمة لم يكن بمقدور اليهود تدبيرها . ومع تراجع الكنيسة باعتبارها أحد المنافسين ، وتأييدها اللومبارد وغيرهم ، ومع تزايد ابتزاز الأمراء لأقنان البلاط ، أي المرابين اليهود ، سقط الربا اليهودي مع نهاية العصور الوسطى ولم تعد لرأس المال اليهودي أهمية كبرى ، كما لم يعد هناك رأسمال يهودي ضخم عند وقوع الثورة التجارية .

وبينما كان المرابي اليهودي في البداية يُقرض الملوك والأباطرة ثم كبار النبلاء الإقطاعيين ، فإنه راح يُقرض صغار النبلاء والفرسان

ثم بعد ذلك الحرفيين والفلاحين والفقراء . وبدلاً من وجوده بجوار الطبقة الحاكمة ، انسحب إلى الهامش حيث لم يَعُد اليهود يشكلون الجماعة الوظيفية الوسيطة الوحيدة . وهبط اليهودي من مرتبة الصيرفي إلى المرابي الذي يُقرض مبالغ صغيرة لمدة قصيرة بفائدة عالية وبضمان رهونات بسيطة مثل درع أو قطعة حلي أو بعض الملابس . ولعل ماحدث في مدينة ريجنزبرج في ألمانيا مثل جيد على هذا التدهور التدريجي التاريخي ، فحتى عام ١٢٥٠ كانت بلدية المدينة هي أهم مدين لليهود ، وحتى عام ١٤٠٠ كان أهم المدينين هم النبلاء ورجال الدين . أما بعد ذلك التاريخ ، فقد احتل الفرسان ومواطنو المدن والحرفيون هذا المكان . وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، كان القرويون في جنوب فرنسا يُشكلون ٦٥٪ من المقترضين حيث اقترضوا ٤٣٪ من المبالغ ، وكان سكان المدينة يشكلون ٣٠٪ من عملاء المرابين اليهود حيث اقترضوا ٤١٪ ، وكان الفرسان والنبلاء يمثلون ٢٪ واقترضوا ٩٪ ، ورجال الدين ١٪ واقترضوا ٥٪ . ولم يكن النمط مختلفاً في إنجلترا ، حيث تخصص المرابي اليهودي في إقراض الطبقات الفقيرة التي يقترض أعضاؤها أموالاً ثم يجدون بعد ذلك في الغالب صعوبة بالغة في تسديد الديون .

وقد امتد نشاط المرابي اليهودي إلى بني جلدته على عكس تصورات المعادين لليهود . ولكن الإقراض في هذه الحالة كان يأخذ شكلاً خاصاً حتى يتم التحايل على أشكال التحريمات الدينية الخاصة بعدم إقراض اليهودي بالربا . فكان المرابي يصبح شريكاً موصياً أو شريكاً يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة ، ولا يخسر شيئاً من ماله إذا لم يربح ، وهذا هو ما تفعله بعض البنوك الإسرائيلية الآن لتتمكن من إقراض الإسرائيليين دون الإخلال بالقواعد الدينية .

وكان المرابي يلعب دوراً اقتصادياً أساسياً في المجتمع الغربي ، فإن أراد الأمير الإقطاعي تزويج ابنته أو تجريد حملة في حروب الفرنجة أو تعمير أرض جديدة ، أو أزمعت دار البلدية بناء كنيسة أو كاتدرائية ، أو واجه أعضاء الطبقات الفقيرة مصاعب شخصية فجائية ، في كل هذه الحالات كان المرابي هو الذي يزود المجتمع بالأموال السائلة التي يحتاج إليها والتي تضمن استمراره . وعلى سبيل المثال ، ساعد هارون (من لنكولن في إنجلترا) في القرن الثاني عشر الميلادي في بناء ما لا يقل عن تسع كاتدرائيات . كما موَّل المرابون اليهود بعض حملات حروب الفرنجة .

والربا اليهودي ، شأنه شأن التجارة اليهودية ، كان عملية هامشية غير منتجة . فالمرابي برغم أهميته لا يلعب دوراً متعيَّناً واضحاً في العملية الإنتاجية ، إذ إن أساس فائض القيمة في النظام الإقطاعي هو نمط الإنتاج الإقطاعي ذاته الذي ينتج قيمة استهلاكية وحسب دون الاهتمام بالقيمة التبادلية . وكان الأمير الإقطاعي والفلاح يشتركان في الإنتاج ، أما المرابي فيظل خارج العملية أو على هامشها . ومن هنا ، فإن الإقراض الربوي ، شأنه شأن التجارة البدائية ، لا يلعب دوراً في العملية الإنتاجية لأنه إقراض من أجل الاستهلاك أو نشاطات أخرى تقع خارج نطاق العملية الإنتاجية ، على عكس الإقراض الرأسمالي الذي يُوظَّف في العملية الإنتاجية ذاتها . بل إن الإقراض هو أحد أسس عملية الإنتاج الرأسمالي . ولا شك في أن هذه الهامشية جعلت عناصر المجتمع تنظر إلى اليهودي على أنه شخصية طفيلية لا تبدع ولا تنتج ، ولكنها تستولي على عائد الإنتاج . بل كان البعض يرون أن الربا ، مثله مثل التجارة البدائية ، يُعَدُّ شكلاً من أشكال السحر ، إذ ينتج المرابي الثروة عن طريق تحريك أمواله لا عن طريق أي جهد إبداعي متعيِّن .

لكن المرابي اليهودي لم يكن سوى أداة في عملية اقتصادية ضخمة إذ كان يُعَدُّ من أقنان البلاط ، أي ملكية خاصة للملك يبيعهم متى شاء . وكانت أموال المرابي تئول إلى الملك من الناحية القانونية ، ولكنه كان من الناحية الفعلية يتركها لأولاد المرابي حتى يستمروا في وظيفتهم . وكان الأمير أو الملك يبيع لليهود المواثيق التي تحميهم، وتحدد حقوقهم وتؤكدها ، وتضمن لهم الأمن اللازم للاستمرار في العمليات المالية . وهذه حقوق لم يكن يتمتع بمثلها سكان المدن أو عامة الشعب . وكانت عملية بيع المواثيق هذه تضمن أن تصب ثمرة العملية الربوية بأسرها في خزانة الملك الذي كان يُسمَّى «شيخ المرابين» . أما اليهود فلم يكونوا سوى الوسيط الذي يلعب دور الإسفنجة ، فهم يمتصون ثروة الشعب التي يعتصرها الحاكم فيما بعد عن طريق منح المواثيق لأعضاء الجماعة اليهودية وفرض الضرائب عليهم . وقد كان اليهود أكبر مصدر دخل للملك في إنجلترا ، حيث كانوا يشكلون حوالي ١٢٪ من كل مصادر دخله . وفي بعض الإمارات المسيحية ، في إسبانيا مثلاً ، كانوا يشكلون نسبة أكبر من ذلك .

وقد اضطر أعضاء الجماعات اليهودية إلى الاعتماد الكامل على الملك أو الأمير الإقطاعي لحمايتهم من غضب الجماهير وفتكها، وكان هو بدوره يفضلهم في مرحلة من المراحل على غيرهم من المرابين نظراً لعجزهم وانفصالهم عن المجتمع ولعدم وجود قاعدة بشرية تدعمهم وتساندهم ، وهو ما جعل منهم جماعة وظيفية

وسيطة مثالية . وهنا لابد من الإشارة إلى أننا نميِّز بين الجماعة الوظيفية الوسيطة والجماعة الوظيفية الوسيطة العميلة . فالجماعة الوسيطة ، رغم قربها من الطبقة الحاكمة ، تؤدي خدمة لكل طبقات المجتمع . أما الجماعة العميلة ، فهي أداة في يد الحاكم يستخدمها لصالحه ضد بقية طبقات المجتمع . وعلى هذا ، كان التاجر اليهودي وسيطاً ، أما المرابي اليهودي فكان عميلاً .

ولكل هذا ، كان الملك يبذل قصارى جهده ليمنع المرابين من اعتناق المسيحية إذ أن هذا يشكل إضعافاً وتبديداً للأداة التي يستخدمها . وكان المرابي الذي يَتنصَّر يفقد كل ثروته التي كانت تئول إلى العرش ، لأنه لا يحق له أن يتمتع بثمرة الرذيلة (أو هكذا كان التبرير والادعاء) . كما كان الملك يمنع اليهود من العمل في أي وظيفة أخرى ، وكانت المواثيق التي تُمنَح لهم تمنع المسيحيين من الاشتغال بالربا . وقد طُرد طبيب ألماني مسيحي من مدينته لأنه تعدى على الحقوق والاختصاصات التجارية والمالية لليهود بأن استثمر أمواله في الربا من خلال صديق يهودي له . وكان الملك يلجأ عند عجزه عن تسديد ديونه ، إلى منح المرابي اليهودي حق جَمْع الضرائب من الفلاحين . ولكنه كان يلقي بالمرابي اليهودي إلى الجماهير الغاضبة ، كبشاً للفداء ، إذا ما ثبت أنه يكلف أكثر مما يفيد . ولعل هذا هو السبب في أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يراكموا قط رأسمالاً كافياً ولم يتحولوا قط إلى طبقة حاكمة ، بل كانوا يعملون دائماً من خلال السلطة الحاكمة وفي خدمتها .

ورغم أن المرابي اليهودي كان مجرد أداة ، إلا أنه أصبح محط كراهية معظم أعضاء المجتمع وطبقاته ، بما في ذلك المستفيدون منه . فقد كانوا يرون الربا شراً لابد منه ، ولكنه شر أكيد ، حيث تُعَدُّ كراهية المرابي أمراً متأصلاً في المجتمعات البشرية . وكان لفظ «سكتور sector» يُطلَق على كل من المرابي والقاتل في الإمبراطورية الرومانية . وربما يُعزَى توجيه تهمة الدم لليهود والقول بأنهم يطبخون عجين عيد الفصح بدم طفل مسيحي إلى اشتغالهم بمهنة الربا ، فهم يمتصون دم ضحاياهم مجازاً . وليس من الصعب على الوجدان الشعبي أن يضع ما هو مجازي مقام الحقيقة الواقعة .

وثمة أسباب متباينة جعلت المرابي اليهودي محط كراهية شديدة من كثير من الطبقات . فبالنسبة للطبقات الفقيرة ، كان المرابي هو أداة الاستغلال المباشرة حيث كان يحتك بهم بشكل دائم ، فضلاً عن أنهم كثيراً ما كانوا يخفقون في تسديد ديونهم فيفقدون مصدر رزقهم ذاته سواء كان هذا المصدر قطعة الأرض أو الآلات التي يعملون بها أو ملابسهم ذاتها . أما كبار النبلاء ، فكانوا يرون في اليهودي قوة مالية ضخمة تساند الملك في صراعه معهم ، كما أن المرابي اليهودي كان يعوق محاولتهم الاستيلاء على أراضي صغار البارونات الذين كان المرابي اليهودي يقرضهم فيحققون البقاء والاستمرار . وكان سكان المدن يرون في المرابي اليهودي غريماً لهم ، وأداة في يد الحاكم الإقطاعي يستخدمها لقمعهم ولإعاقة تطورهم ، خصوصاً أنه كان يتمتع بمزايا لا يتمتعون بها . ثم كان هناك عداء الكنيسة لهم ، وهو عداء له بطبيعة الحال جذوره الدينية العقائدية وإن كان قد اكتسب بعداً اقتصادياً أيضاً لأن الكنيسة كما أسلفنا كانت تقوم هي ذاتها بالإقراض وتساند جماعات من المرابين .

ومن أكبر مصادر الكراهية ، ارتفاع سعر الفائدة عن معدلها المفترض وهو ١٢,٥٪ . لكن المرابي لم يكن يتمتع في العصور الوسطى بضمانات كافية ، بل كان معرضاً باستمرار لخسارة أمواله وفقدان حياته . كما لم يكن في مقدور المرابين على الدوام أن يلزموا مدينيهم بالوفاء بالتزاماتهم عن طريق الالتجاء إلى القانون ، فكانوا دائماً مهدَّدين بالطرد . ويضاف إلى ذلك أن القانون المسيحي في العصور الوسطى ، بتحريمه الربا ، قد اضطر المرابين إلى ابتداع حيل قانونية عديدة من بينها وجود وسيط بين الدائن والمدين ، الأمر الذي كان يؤدي إلى زيادة سعر الفائدة . فوصلت الفائدة في إنجلترا إلى ما بين ٤٣ و٨٦٪ وفي النمسا (في عام ١٢٤٤) إلى ١٧٣٪ وفي بروفانس (فرنسا) إلى ٣٠٠٪ . ومن الصعب على من يقترض بمثل هذه الفائدة أن يسدد ديونه . ولذا ، كانت عملية الإقراض والتسديد تنتهي بتوجيه تهمة السرقة إلى المرابي ، وهي كذلك بشكل من الأشكال . ومما كان يدعم شكوك الناس في المرابي أن المواثيق التي كانت تُمنَح للمرابين اليهود تجعل من حقهم الاستيلاء على الأشياء المرهونة حين يعجز أصحابها عن تسديد القرض والتصرف فيها حتى لو اكتُشف أنها مسروقة ، وكان هذا يتناقض مع القانون والأعراف الألمانية . ومن هنا ، تصورت الجماهير أن المواثيق التي تُمنح لليهود تحابيهم وأنها بمنزلة ستار لتغطية عمليات السرقة الفعلية .

وكان اليهودي يسقط ضحية الثورات الشعبية لأنه قريب ومتاح ومباح باعتباره عضواً في جماعة وظيفية ، على خلاف الملك الموجود في قصره خلف حراسه ، والذي يشكل الهجوم عليه لا مجرد مظاهرة شعبية وإنما ثورة هائلة . ويُلاحَظ في الهجمات الشعبية على المرابين أنها لم تستهدفهم باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم مرابين . ومن هنا كانت الجماهير لا تميِّز بين اليهود أو اللومبارد والكوهارسين أو غيرهم من المرابين مثل أعضاء العصبة الهانسية في إنجلترا (حوالي عام ١٣٨١) . وحينما كانت الجماهير تطلب طرد المرابين ، فإنها لم

تكن تخص المرابين اليهود وحدهم بهذا الطلب بل كان يتم طرد وملاحقة كل المرابين . وحينما كان المرابون اليهود يُطردون «إلى الأبد» من مدينة أو مقاطعة ويحل محلهم مرابون لومبارد أو كوهارسين ، كانت الجماهير تكتشف أن المرابين الجدد ليسوا أفضل من اليهود الأشرار . بل تذكر المصادر أن متوسط معدل الفائدة الذي كان يتقاضاه اليهود كان أقل في العادة من المعدل الذي كان يتقاضاه اللومبارد والكوهارسين ، ربما بسبب ضعف مركزهم . ولكن هناك حالات ، كما حدث في بوهيميا في نهاية القرن الخامس عشر ، تقاضى فيها اليهود ضعف معدل الفائدة الذي كان يتقاضاه المرابي غير اليهودي ، وذلك حتى يمكنهم تسديد الضرائب المفروضة عليهم . وكثيراً ما كانت المدن التي تطرد اليهود تطلب عودتهم من جديد ، وترحب بهم ، وتعتبرهم منقذين ، لتقوم بطردهم مرة أخرى بعد فترة . وفي الفترة من ١٣٠٠ إلى ١٥٠٠ طُرد اليهود مائة وخمسين مرة من أماكن في جنوب ووسط أوربا ، ولكن ورغم ذلك، لم تخل هذه المنطقة منهم في أية لحظة تاريخية .

وقد ترك اشتغال الجماعات اليهودية بالربا أعمق الأثر عليهم ، فقد جعلهم جماعة هامشية مكروهة من المجتمع ، بغيضة لدى معظم طبقاته . وكرد فعل لمشاعر الكراهية ضدهم ولهامشيَّتهم ، نمت في صفوفهم أفكار مثل الشعب المختار الذي لا علاقة له بالتاريخ أو الجغرافيا ، فضلاً عن النزوع إلى تقسيم العالم إلى «يهود أبرار» و«أغيار أشرار» ، وهذه هي التربة التي نمت فيها الصهيونية فيما بعد .

وكان بعض أعضاء الجماعات اليهودية يرون أن الاشتغال بالربا وسيلة من وسائل الانتقام من الأغيار ، وطريقة لتوسيع الهوة بين اليهود وغيرهم . وبالتالي لم يَعُد الربا مجرد مهنة أو مصدر للدخل وإنما أمراً مرغوباً فيه في حد ذاته ، وتَحوَّل من مجرد وظيفة إلى فعل رمزي ذي مضمون نفسي مُحدَّد . وهذه طريقة إنسانية مألوفة يبرر بها الإنسان ما يقوم به من أعمال بغيضة تتنافى مع إنسانيته ، بل إن بعض المفكرين الدينيين وصف الاشتغال بالربا بأنه طريقة مثالية لتحقيق أرباح سريعة دون إنفاق وقت طويل بما يتيح لليهودي التفرغ لأسمى أهداف حياته ، أي دراسة التوراة . وقد فسر بعض الحاخامات ازدهار الدراسات التلمودية في ألمانيا ، والدينية على وجه العموم ، بأن اليهود كانوا يعملون فيها بالربا أكثر من أي بلد آخر .

ومن جهة أخرى ، ترك اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالربا أو الإقراض الربوي أثراً عميقاً في هيكلهم الوظيفي ، فلم تظهر بينهم طبقة رأسمالية ، ولم يحصلوا على قوة سياسية حقيقية بل تزايد ارتباطهم بالمجتمع الإقطاعي واعتمادهم الكامل على القوة السياسية الحاكمة . كما اشتغلوا بحرَف مرتبطة بأعمال الرهونات ، مثل إصلاح الملابس المُستعمَلة وتسويقها وإصلاح الدروع والمجوهرات . وكان من شأن هذا كله أن يؤثر في التطور الاقتصادي اللاحق للجماعات اليهودية في أوربا .

ويرتبط نظام الأرندا بالإقراض الربوي داخل إطار الإقطاع الاستيطاني في أوكرانيا ، فقد كان المرابي اليهودي يقوم بإقراض النبيل الإقطاعي البولندي بضمان ريع ضيعته ثم يتعاقد النبيل مع اليهودي لإدارة الضيعة ، فكان هذا الأخير يلجأ إلى قمع واستغلال الفلاحين الأوكرانيين حتى يسترد قرضه . والواقع أن نظام الأرندا هو أهم مؤسسة في التاريخ الاقتصادي للجماعات اليهودية في الغرب ، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار التطورات اللاحقة وظهور الدولة الصهيونية التي تدخل في علاقة مع الولايات المتحدة من ناحية والعرب من ناحية أخرى ، تشبه في كثير من الوجوه علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالنبلاء البولنديين والفلاحين الأوكرانيين .

غير أن وضع أعضاء الجماعات اليهودية تدهور ، كما أسلفنا ، في معظم أنحاء أوربا ، فاشتغلوا بأعمال الرهونات . ولكن ، مع القرن السابع عشر الميلادي وظهور يهود المارانو السفارد الذين اشتغلوا أيضاً بإقراض الدولة والملكيات المطلقة وتوفير المال اللازم للوفاء باحتياجاتهم ، بدأت طبيعة الربا اليهودي في التغير . فالأمراء الذين يقترضون من يهود البلاط كانوا ينفقون جزءاً من تلك الأموال في الترف والحروب ، ولكنهم كانوا ينفقون الجزء الآخر في تطوير الصناعات في إماراتهم وفي تحديثها . وبذلك نكون قد بدأنا في دخول العصر الحديث . وقد وجد رأس المال اليهودي طريقه إلى النظام المصرفي الحديث ، ولكنه أصبح في أوربا الغربية جزءاً صغيراً من كلٍّ أكبر ، بحيث لا يمكن الحديث عن رأسمال يهودي مستقل . وكان الوضع في ألمانيا مختلفاً حيث تَركَّز اليهود في أهم ثلاثة مصارف بعد الحرب العالمية الأولى . ولكن النازية قضت على هذا الهيكل الاقتصادي .

جماعة وسيطة

Middleman Group

«الجماعة الوسيطة» هي الجماعة الوظيفية التجارية أو المالية التي تضطلع بدور التجارة والإقراض بالربا وبدور الالتزام .

التجارة اليهودية

Jewish Trade

انظر : «جماعة وظيفية يهودية تجارية» .

الربا اليهودي

Jweish Usury

انظر : «جماعة يهودية وظيفية مالية (الربا والإقراض)» .

الضرائب التي يدفعها أعضاء الجماعات اليهودية

Taxes Paid by Members of Jewish Communities

علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالضرائب لها وجهان مترابطان تمام الترابط : فهم من جهة دافعو ضرائب ، ومن جهة أخرى محصلو ضرائب . وقد خلَّفت علاقة الجماعات اليهودية بالضرائب ، سواء في دفعها أو جمعها ، أثراً عميقاً فيهم ، وسنتناول في هذا المدخل الجماعات اليهودية من منظور الضرائب المفروضة على أعضائها .

لم يتمتع العبرانيون باستقلال سياسي إلا لفترات قصيرة للغاية، ولذلك كان أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون دائماً أقلية صغيرة داخل تشكيل إمبراطوري أو حضاري ضخم . وكانت الضرائب دائماً أكبر مصدر للريع بالنسبة للإمبراطوريات في العصور القديمة أو في العصور الوسطى في الغرب ، أو في العصر الإسلامي الأول (الأموي والعباسي) أو في العصر الإسلامي الثاني (العثماني)، أي حتى الثورة الصناعية .

وكانت الضرائب تُفرَض في كثير من الأحيان على الجماعة اليهودية ككل ، لا على أعضائها كل على حدة شأنها في هذا شأن معظم الأقليات والجماعات الأخرى . ويبدو أن إطار السلطة الذاتية للجماعات المحكومة كان أنجع الطرق لضمان تدفُّق الريع الضرائبي ، فكانت الجماعة اليهودية ، وغيرها من الجماعات ، تتمتع باستقلال ذاتي في الأمور الدينية والتربوية والقضائية . وكانت قيادتها تتمتع بسلطات خاصة ، فكانت ، في كثير من الأحيان ، هي التي تحدِّد الضرائب وتقوم بجمعها من أعضاء الجماعة ، بل أصبحت هذه المهمة أهم وظائفها . ولذا ، حاولت السلطة الحاكمة دائماً أن تُقوِّي قبضة القيادات اليهودية وتحقق لها مركزاً متميِّزاً داخل الجماعة ، لتضمن ولاءها لها ولتصبح أداة طيعة في يدها . ومن ثم ، كانت قيادات الجماعة تُعفَى من الضرائب عادةً ، وكان أمير اليهود (الناسي) ، ورأس الجالوت (المَنْفَى) ، وكثير من الحاخامات ، يُعْفَون من الضرائب ، بل وكان يُسمَح لهم بفرض ضريبة خاصة لتمويل منصبهم ذاته . وكثيراً ما كان الحاخامات يحصلون على معاشهم من خلال ضريبة خاصة تُفرَض لهذا الغرض . وكان الهدف من هذا هو تحويل هذه القيادات إلى أداة في يد السلطة الحاكمة وموظفين عندها بحيث يمكنها من خلالهم اعتصار الجماعة اليهودية .

وكانت الضرائب تُفرَض على الجماعة اليهودية أحياناً لا كوسيلة لاعتصار أعضائها وحسب وإنما لاعتصار الجماهير الشعبية ، وبذلك لم يكن أعضاء الجماعة سوى الإسفنجة التي يتم امتصاص هذه الجماهير عن طريقها . فكان الحاكم على سبيل المثال يفرض ضريبة عالية على أعضاء الجماعة اليهودية ، ويمنحهم نظير ذلك مزايا وحقوقاً خاصة تُيسِّر لهم عملية استغلال الجماهير ، كأن يسمح لهم بتحصيل فائدة عالية على القروض أو يصرح لهم بحرية الحركة من مدينة لأخرى دون أن تتصدى لهم السلطات الإقطاعية المختلفة . وقد يسَّر هذا على كل من التاجر والمرابي اليهودي إدارة أعمالهما وجعلهما أكثر كفاءة من نظرائهما المسيحيين . وكلما تزايد السخط الشعبي ، كان يتزايد اعتماد هؤلاء المرابين اليهود على السلطة الحاكمة التي كانت تزيد من اعتصارهم عن طريق فرض ضرائب جديدة عليهم أو تسلمهم للجماهير فتمتص السخط الشعبي وتصادر أموال اليهود وتطردهم ، ثم تستدعيهم مرة أخرى لتبيع لهم من جديد المزايا والمواثيق والحماية ، أي أن جَمْع الضرائب ودفعها ساهم في عملية حوسلة اليهود .

لكن العناصر السابقة لم تتحقق في كل زمان ومكان ، فتعرُّجات التاريخ وتركيبيته تتحدى أي نسق منظم وأية سمات عامة ، وهذا لا يقلل من دلالة وفاعلية النموذج التفسيري . وإذا انتقلنا الآن إلى العرض التاريخي ، يمكننا القول بأن العبرانيين ، حتى انتهاء عصر القضاة ، لم يعرفوا نظاماً ضريبياً بسبب أسلوب حياتهم القَبَلي وبساطته . بل إن الدولة العبرانية المتحدة ذاتها ، إبَّان حكم داود ، كانت أقرب إلى اتحاد القبائل ، ولذا لم تُفرَض أية ضرائب في عهده . ومع حكم سليمان ، بدأت الدولة تصل إلى قدر من التركيب والمركزية ، وظهرت طبقة حاكمة تضم داخلها قطاعات كهنوتية وأخرى عسكرية وثالثة إدارية ، كما بدأت حركة تشييد مبان حكومية من أهمها بناء الهيكل . وقد تطلَّب كل ذلك تمويلاً وهو ما أدَّى إلى فرض الضرائب ، ففُرضت ضريبة الشيقل حيث كان على كل عبراني بالغ أن يدفع للهيكل نصف شيقل (ويتناول التلمود في أحد كتبه الأحكام الخاصة بالشيقل) . كما كانت تُقدَّم للهيكل هدايا وضرائب عينية . ومنذ هذه اللحظة التاريخية ، بدأت الضرائب

تلعب دوراً مهماً في حياة العبرانيين ، ومن المعروف أن من أسباب انقسام الدولة العبرانية المتحدة شكوى قبائل الشمال من فداحة الضرائب التي فرضها سليمان . وبطبيعة الحال ، استمرت المملكتان العبرانيتان ، الشمالية والجنوبية ، في تحصيل الضرائب . وثمة إشارة في العهد القديم إلى أن الملك العبراني كان يأخذ عُشر إنتاج الحقول ، وكان من حقه أن يُجنِّد بعض الرجال والنساء ليعملوا خَدَماً له ، حسب نظام السخرة السائد في الشرق الأدنى القديم والذي طبقه سليمان إبَّان حكمه . كما فرض ملوك المملكتين ضرائب خاصة أثناء الحروب وحينما تعيَّن عليهم دفع جزية للآشوريين أو البابليين .

واستمر هذا الوضع قائماً إلى أن اجتاح الآشوريون ثم البابليون المملكتين وهجَّروا بعض عناصرها إلى بلاد الرافدين . حيث شهدت هذه الفترة تحوُّلاً مهماً ، تمثَّل في بداية تحوُّل العبرانيين إلى جماعة وظيفية . وقد ظهر بيت موراشو في بابل ، فكانت شركتهم تقوم بجباية الضرائب عما تنتجه الأرض من محصولات زراعية ، كما كانت تستوفي بنفسها الضرائب المفروضة على الطرق العامة وقنوات الري لقاء الإفادة منها .

وبعد صدور مرسوم قورش وعودة بعض اليهود ، دخل أعضاء الجماعات النمط الأساسي الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو أنهم أصبحوا جماعة تُفرَض عليها ضرائب جماعية وتتمتع باستقلال ذاتي لتسهيل عملية جَمْع الضرائب ، وقد ترأس هذه الجماعة الكهنة الذين أُعفوا من الضرائب . وقد أصبح الهيكل هو المركز الأساسي للجماعة (ولم تَعُد مؤسسة الملكية تزاحمه) ، فكان يجمع ضريبة نصف الشيقل ويحصل على ضرائب عينية وهدايا من الجماهير . وفي مرحلة لاحقة ، قبل سقوط الهيكل ، كان يجمع ما يُسمَّى بالشيقل المقدَّس ويساوي ضعف الشيقل العادي وهو عبارة عن جزية سنوية يدفعها يهود فلسطين والعالم وتُنقَل إلى الهيكل (مركز العبادة القربانية) . وكان الصدوقيون هم الذين يحصِّلون هذه الضرائب ويحصلون على هذه الهدايا وعلى جزء كبير من القرابين ، وهو ما حوَّلهم إلى أرستقراطية كهنوتية ثرية . ومنذ تلك اللحظة ، أصبحت الضرائب مصدر الشقاق الأساسي بين الأرستقراطية اليهودية (المندمجة في الثقافة الإمبراطورية ، فارسية كانت أم هيلينية) من جهة ، والجماهير اليهودية المتشبعة بالثقافة المحلية (الآرامية) ، ومنهم فقراء رجال الدين ، من جهة أخرى .

وقد اهتم اليونانيون بالريع الضريبي ، فكانوا يفرضون ضرائب متنوعة على اليهود وغيرهم ، بل وضريبة على الزيجات أحياناً . كما أسسوا شبكة ضخمة منظمة لتحصيل الضرائب عمادها أعضاء الطبقات الثرية المحلية . وكان الملتزمون اليهود يحاولون قدر استطاعتهم ، مثلما هو الحال دائماً مع البشر ، أن يحصلوا ضرائب أكثر من المفروضة لأنهم كانوا يحصلون على الفرق بين ما ينبغي عليهم تسديده لخزانة الدولة وما يحصِّلونه بالفعل . وكانت هذه الجماعة الوظيفية المالية ، التي ارتبطت مصالحها بمصالح الدولة الهيلينية (البطلمية أو السلوقية) ، متأغرقة تماماً من الناحية الثقافية ، الأمر الذي زاد الهوة بينها وبين الجماهير . وكان السبب الأساسي للتمردات اليهودية المتتالية هو الضرائب المتزايدة .

ويُلاحَظ أن اليهود في الدولة البطلمية عملوا كملتزمي ضرائب ليس إزاء أعضاء الجماعة اليهودية وحسب وإنما على مستوى المجتمع ككل ، فقد قاموا بتحصيل المكوس الجمركية (وهي مهن مالية ولا شك ، يرى البعض أنها كانت قتالية أيضاً ، إذ كان المحصلون يُطلَق عليهم اسم «حراس النيل») . كما اشتركوا في تحصيل الضرائب على الأسماك والكروم والنخيل والمراعي بل وعلى صناعة الأحذية وهي نشاطات اقتصادية عامة . وكان كبير الموظفين (ألبارخ) ، وهو منصب استمر حتى الدولة البيزنطية ، هو المسئول عن جَمْع الجمارك على السفن . ويبدو أنه كان من أهم المناصب الإدارية المالية ، وكان لمن يشغل هذا المنصب مكانة قيادية . ومع تَزايُد أزمة السلوقيين نتيجة حروبهم مع البطالمة ، ونتيجة تَصاعُد الضغوط الرومانية ، وبعد هزيمتهم على يد الرومان ، كان عليهم دفع تعويض ضخم لهم ، وهو ما اضطر الملوك السلوقيين إلى البحث عن مصادر جديدة للريع ، فتعاونوا مع أثرياء المجتمع اليهودي ، خصوصاً فئة ملتزمي الضرائب الذين تنافسوا على رفع الضرائب إرضاءً للسلطة السلوقية . ويبدو أن الضرائب تحت حكم الأسرتين اليهوديتين ، الحشمونية التي تمتعت بشيء من الاستقلال ، والهيرودية التي حكمت باسم روما ، لم تكن أخف وطأة ، كما هو واضح في التمردات التي حدثت بين جماهير الشعب .

وبعد أن ضُمت فلسطين للدولة الرومانية ، عُيِّن لها حاكم روماني برتبة بريفكتوس ، وكان يُشار له أيضاً باسم «بروكرياتور» والتي تعني حرفياً «الوكيل المالي» أو «محصل الضرائب» ، وذلك باعتبار أن تحصيل الضرائب هو النشاط المالي الأكبر لكل موظفي الإمبراطورية . وفي مصر ، ألغى يوليوس قيصر نظام جمع الضرائب البطلمي ، فانهار الوضع الاقتصادي لليهود ، وخصوصاً أن اليهود أصبح عليهم (رغم عضويتهم في البوليتيوما) أن يدفعوا ضريبة رؤوس كاملة ، الأمر الذي كان يعني مساواتهم النسبية بالمصريين وفقدان غالبيتهم لمكانتهم المتميِّزة ، باستثناء كبار الأثرياء

الذين أصبحوا مواطنين رومانيين . كما تزايدت الضرائب عليهم ، الأمر الذي كان أحد أسباب التمرد اليهودي الأول الذي انتهى بتحطيم الهيكل . وبعد هذا التمرد ، فرض الرومان أول ضريبة مقصورة على اليهود وهي الفيسكوس جواديكوس ، أي الضريبة اليهودية ، وهي عبارة عن الشيقل الذي كان يدفعه اليهود من قبل للهيكل ، واستمرت الإمبراطورية الرومانية في تحصيله وإرساله لمعبد جوبيتر كابيتولينوس .

وبعد انتشار المسيحية والإسلام في الشرق الغربي ، لم يتغيَّر وضع أعضاء الجماعات اليهودية كثيراً من منظور الضرائب ، إذ أنهم كانوا يدفعون للمسلمين ما كان يدفعه أهل الذمة نظير الإعفاء من الخدمة العسكرية .

أما في العالم الغربي ، فقد تغيرت أحوال أعضاء الجماعات اليهودية بالتدريج ، ولم يَعُد الاختلاف بينهم وبين أعضاء المجتمع مجرد ضريبة أو ضريبتين يدفعونهما للنظام الحاكم ، فمع تآكل البقية الباقية من القانون الروماني أصبح أعضاء الجماعة اليهودية حسب العرف الألماني «غرباء» ، وهو ما كان يعني وضعهم تحت الحماية الملكية لأنهم أصبحوا ملكية خاصة للملك أو الإمبراطور ، أي أن أعضاء الجماعة أصبحوا أداة من أدوات الإنتاج ومصدراً من مصادر الريع . وقد كُرِّس هذا الوضع تماماً بعد حروب الفرنجة في نهاية القرن الحادي عشر (١٠٩٦) وأصبح أعضاء الجماعة اليهودية إما فعلاً (أو اسماً وفعلاً) أقنان بلاط يشترون المواثيق والمزايا والحماية من الحاكم . وكانت الضرائب المفروضة عليهم تُعَدُّ مصدراً أساسياً مباشراً للريع الذي كان يُحصِّله الحاكم ، أو وسيلة غير مباشرة لجمع الضرائب ، وكان ذلك يتم من خلال الإقراض بالربا . فكان الحاكم يرفع الضريبة على اليهودي ويجعلها على سبيل المثال ١١٪ ، مقابل ١٠٪ للتاجر المسيحي ، ثم يمنحه حقوقاً مقابل ذلك مثل حق رفع سعر الفائدة على الأموال . ولذا ، نجد أن خُمْس دخل الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة كان مصدره اليهود ، رغم أن عددهم كان لا يزيد عن ١٪ من عدد السكان قبل القرن الرابع عشر . وفي القرن الثالث عشر ، حصلت الحكومة الإنجليزية على ١٣٪ من دخلها من الضرائب التي فرضتها على اليهود رغم أن عددهم كان يتراوح بين ٤ آلاف و١٥ ألفاً في كل إنجلترا . وقد أصبح حق فرض الضرائب على اليهود ، باعتباره مصدراً من أهم مصادر الريع ، محل صراع بين الإمبراطور والنبلاء .

وقد فُرضت على أعضاء الجماعات اليهودية مجموعة متنوعة من الضرائب من بينها ضريبة الرؤوس (وهي استمرار للفيسكوس جوديكوس) التي بُعثت في ألمانيا عام ١٣٤٢ تحت اسم «أبفربفينج Opferpfennig» وتعني «ضريبة المليم» ثم أصبحت تُسمَّى «لايب تسول leibzoll» ، أي «ضريبة الجسد» ، و«يودين تسول Judenzoll» ، أي «ضريبة اليهودي» . وبعد أن حل الأمراء محل الحكم الإمبراطوري (القرن السادس عشر) في فَرْض الضرائب على اليهود، أصبحت الضريبة تُسمَّى «نقود حماية اليهود» . وكان على اليهودي الذي ينتقل من بلد إلى آخر أن يدفع رسم المرور ورسماً للإقامة المؤقتة . ومن الضرائب الأخرى ، ضريبة «يودين جلايت Judengeleit» ، أي «المرور الآمن» ، وهي ضريبة كانت تُفرَض على اليهود الذين يودون الانتقال من مكان إلى آخر ، فكان يدفعها اليهود الأجانب العابرون ، وكانت الضريبة تعطيهم الحق في التعاملات المالية . وكانت تُفرَض ضرائب على اللحم والذبح الشرعي وعلى شموع السبت ، وفُرضت أحياناً ضريبة على الطعام كانت تُسمَّى «ضريبة السلة» . وفُرضت ضريبة تُسمَّى «ضريبة الفم» كان الهدف منها استبعاد اليهود غير النافعين الذين يأكلون ولا ينتجون .

وفي العصر الحديث ، ظلت الضرائب إشكالية أساسية في حياة الجماعات اليهودية . فاختفت الأشكال المختلفة للإدارة الذاتية ، وتكفلت الدولة المركزية التي يتبعها جهاز إداري مركزي قوي بتقدير الضرائب وجمعها ، وأُلغيت بالتدريج الضرائب المفروضة على أعضاء الجماعات اليهودية . وفي محاولة للحد من الانفجار السكاني ، كانت تُفرَض أحياناً ضرائب على طعام اليهود الشرعي وشموع السبت والزواج ، وذلك لجعل هذه الشعائر مُكلِّفة . وكان عدد كبير من اليهود يتهربون من الضرائب ويقومون بتهريب البضائع للتهرب من الجمارك . فوقفت الدول الحديثة ضد هذا الوضع وحاولت تصفيته . وكان من بين إجراءات المنع ، عدم استخدام اليديشية في المعاملات التجارية ، ومطالبة اليهود بإضافة اسم العائلة لأسمائهم إذ كان أعضاء الجماعة اليهودية يكتفون بتسمية الفرد باسمه واسم أبيه بدون اسم العائلة ، الأمر الذي كان يعني وجود عدد كبير من الأشخاص باسم واحد ، مما يُسهِّل عملية التهريب . وقد ارتبط النظام الضريبي بمدى نفع اليهود ، فكانت العناصر النافعة من ذوي المهن التي تحددها الدولة تُعفَى من الضرائب بل وتمنح امتيازات ضريبية خاصة . أما العناصر غير النافعة ، فكانت تُفرَض عليها ضرائب تهدف إلى تشجيعها على الخروج والهجرة . ولكن ، مع تَصاعُد معدلات التحديث في الغرب وفي داخل الجماعات اليهودية ، ألغت الدولة الحديثة بالتدريج الضرائب

الخاصة ، ومنها البدلية العسكرية ، وتم توحيد النظام الضريبي .

وتقوم المنظمة الصهيونية العالمية والدولة الصهيونية بفرض ضرائب منظورة وغير منظورة على أعضاء الجماعات . فسندات إسرائيل والاشتراكات التي تُدفَع والتبرعات التي يتم جمعها من خلال حملات مسعورة جميعها نقود تُدفَع اسماً عن طيب خاطر ولكنها تُدفَع من الناحية الفعلية خوفاً من الفضيحة . ولذلك أشار آرثر هرتزبرج إلى اليهود المؤيدين لإسرائيل بوصفهم «يهود النفقة» ، أي اليهود الذين يدفعون تبرعات تشبه النفقة التي يدفعها الزوج السابق لمطلقته لا حباً فيها وإنما خوفاً منها . كما أشار إلى ما سماه «يهودية دفتر الشيكات» وهي يهودية أولئك اليهود الذين ينصرفون عن ممارسة شعائر دينهم ويحاولون تخفيف الإحساس بالذنب عن طريق دفع التبرعات للدولة الصهيونية . وقد بدأت حركات السلام داخل إسرائيل تُكوِّن جماعات في الخارج مهمتها جمع التبرعات لها خارج نطاق النداء اليهودي الموحَّد والنداء الإسرائيلي الموحَّد ، وهي مؤسسات جمع الضرائب/ التبرعات للمؤسسة الصهيونية .

ويمكننا القول بأن علاقة الإمبريالية الغربية بالدولة الصهيونية علاقة شبيهة بعلاقات الأباطرة بأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية . فالإمبريالية الغربية تمنح العديد من التسهيلات والمزايا للدولة الصهيونية ، مثل الدعم المالي والعسكري ، والمعاهدات والمواثيق ، نظير ضريبة يدفعها المستوطنون الصهاينة وهي القتال . والضريبة قد تكون دموية بعض الشيء ، ولكن لها مردودها الريعي ، وهو فرض السكون والسلام الغربي على المنطقة وضمان تَدفُّق الطاقة الرخيصة ودوران الدول العربية في فلك النظام الاقتصادي العالمي !

أعضاء الجماعات اليهودية كمحصلي ضرائب

Members of Jewish Communities as Tax Collectors

عمل كثير من أعضاء الجماعات اليهودية محصلي ضرائب . ففي عهد شارلمان ، عمل أعضاء الجماعة ملتزمي ضرائب ، وأُعفوا من الضرائب والمكوس المفروضة على المسافرين . وقد اضطلعوا بالمهمة نفسها في إنجلترا وألمانيا . كما أشرف أعضاء الجماعة على جمع الضرائب في إسبانيا المسيحية ، وحينما طُردوا منها واجه النظام الجديد مشكلة البحث عن ملتزمي ضرائب بدلاً منهم . وكان أعضاء الجماعة يضطلعون بكثير من الوظائف المرتبطة بالضرائب في الدولة العثمانية سواء ، باعتبارهم محصلي أو مفتشي ضرائب أو موظفي جمارك أو ملتزمين . وكانت غالبية العاملين في الضرائب في الدولة العثمانية من اليهود ، كما أن الإيصالات كانت تُكتَب أحياناً بحروف عبرية . ومن المعروف أنه عندما ذهب شبتاي تسفي إلى مصر ، ساعده المموِّل روفائيل يوسف شلبي (من حلب) الذي كان من كبار ملتزمي الضرائب في مصر آنذاك .

ولكن بولندا تظل دائماً أهم المناطق بسبب حجم الجماعة اليهودية فيها وبسبب علاقة دورهم فيها بالتطورات اللاحقة في تواريخ الجماعة اليهودية في العصر الحديث . وكانت الضرائب في بولندا تُفرَض من قبل الحكومة على الجماعة اليهودية ككل . ولتحصيلها ، كان القهال يقوم بفرض مجموعة من الضرائب على أعضاء الجماعة ، فكانت هناك ضريبة ملْكية وضريبة رؤوس وضريبة القهال لتمويل الجهاز التنفيذي والإداري والتعليمي والقضائي للقهال . ومع تدهور وضع القهال ، أصبحت هذه الضريبة تُفرَض على الطعام وأُطلق عليها ضرائب السلة . وكان يُباع امتياز تحصيلها في مزاد عام ، وهو ما كان يعني تزايد الضرائب عاماً بعد عام . ولأن المهمة الأساسية للقهال هي جَمْع الضرائب ، باعتباره مؤسسة الإدارة الذاتية ، فقد أُلغي مجلس البلاد الأربعة في بادئ الأمر ثم كل مؤسسات القهال عندما بدأ الريع يتناقص .

وقد اضطلع أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا بوظيفة جمع الضرائب من خلال نظام الأرندا ، إذ كان اليهود يدفعون إيجار الضيعة للنبيل البولندي مقدماً ثم يقومون بتحصيل ريعها ، وكانت الضرائب المختلفة تشكل جزءاً مهماً من هذا الريع . وكلما كان النبلاء البولنديون يزدادون حاجة إلى النقود ، كان على اليهود أن يدفعوا إيجاراً أعلى ويحصلوا على المزيد من الضرائب من الفلاحين والأقنان . بل كان الملتزمون اليهود يحققون مزيداً من الأرباح ويرفعون الضرائب أحياناً دون علم النبيل الإقطاعي ، كما كانوا يعاملون الفلاحين والأقنان بقسوة بالغة لتحصيل هذه الضرائب . ومن أهم هذه الضرائب ضريبة مفتاح الكنيسة ، وكان على الفلاحين الأوكرانيين الأرثوذكس دفعها للمموِّل اليهودي ليدفعها للإقطاعي البولندي الكاثوليكي إن أرادوا أداء الصلاة . وكانت هناك ضريبة أخرى على الرداء الكهنوتي للقس كان عليه أن يدفعها إن أراد إقامة إحدى الشعائر .

وقد أدَّى اضطلاع أعضاء الجماعة بهذه المهمة إلى تَزايُد كراهية الجماهير لهم ، فاضطروا إلى الإقامة في الشتتلات داخل الريف بعيداً عن المراكز التلمودية في المدن . وكانت هذه العناصر سبباً في اقتلاع أعضاء الجماعة اليهودية وتآكل اليهودية الحاخامية .

وفي وسط أوربا ، كان يهود البلاط مصدر دخل كبير للأمراء الألمان والحكام (من حيث هم دافعو ضرائب) . كما قاموا بتنظيم

الإطار الإداري للنظام الضريبي في كثير من الدول التي تواجدوا فيها ، وعملوا كملتزمي ضرائب .

ومع ظهور الدولة الحديثة ، قامت بجمع الضرائب وصدرت قوانين تمنع أعضاء الجماعات اليهودية من الاشتغال بالالتزام ، باعتباره وظيفة طفيلية غير منتجة .

المتعهدون العسكريون

Army Contractors and Suppliers

«المتعهدون العسكريون» هم المموِّلون من أعضاء الجماعات الوظيفية المالية الذين كانوا يزودون الجيوش المتحاربة بالسلاح والعتاد العسكري الذي تحتاج إليه ، وكذلك بالجراية اللازمة ، وقد كانت وظيفة ذات أهمية حيوية لكثير من الدويلات التي لم تكن قد طورت بيروقراطيات متخصصة تتولى هذه المهمة ولم يكن عندها لا رأس المال ولا الاتصالات الدولية اللازمة لإنجاز هذه المهمة .

وقد اضطلع بعض أعضاء الجماعة اليهودية بهذه الوظيفة في إسبانيا المسيحية ، ومن أهمهم يهودا ديلا كفالريا الذي زود ملك أراجون بالسلاح اللازم لحروبه عام ١٢٧٦ ضد المسلمين في بالنسيا . وقام الأخوان رفايا بتمويل الملك بدرو الثالث ملك أراجون (١٢٧٦ ـ ١٢٨٥) في حروبه ضد نبلاء قشطالة . كما قام إسحق أبرابانيل بتزويد فرديناند وإيزابيلا بالسلاح في الفترة من عام ١٤٨٩ إلى عام ١٤٩٢ ، بينما قام أبراهام سنيور بتوفير السلاح اللازم للقوات الإسبانية التي قامت بتصفية الجيب الإسلامي الأخير في غرناطة . ويبدو أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يعملون أيضاً في صناعة السلاح في هذه الفترة ذاتها . ولذا ، فقد عارض بعض أعضاء المجلس الاستشاري لملك البرتغال قرار طردهم حتى لا تقع أسرار المهنة في يد العثمانيين إن استقر اليهود المطرودون في أملاك الدولة العثمانية ، ويُقال إنهم ساهموا بالفعل في تطوير الأسلحة النارية فيها .

واشترك اليهود في تجارة السلاح في وسط أوربا في القرن السادس عشر ، ففي ألمانيا سُمح لإسحق ماير بالاستقرار في هالبرشتات في عام ١٥٣٧ ليُزوِّد أحد الأديرة بالأسلحة . وحصل يوسف جيرشون من الإمبراطور على ميثاق يقضي بحمايته ، وحدَّد الميثاق نشاطاته في توريد السلاح . ومن المعروف أن يهود المارانو (البرتغاليون في أمستردام) اضطلعوا بالوظيفة نفسها ، فزودوا جيوش هولندا وإنجلترا والمغرب بالسلاح . ويبدو أن المتعهدين العسكريين اليهود اغتنموا فرصة الحروب الأهلية في المغرب في القرن السابع عشر وزودوا كل الأطراف المتحاربة بالسلاح . وقام يهود البلاط المتعهدون بتزويد حكومات وسط أوربا بكل اللوازم العسكرية من الخيول والجراية والزي العسكري الرسمي والأسلحة . وقد يسرت هذه المهمة ، ليهود البلاط ولكل الجماعات اليهودية ، الشبكة العالمية الضخمة التي كانت تضم يهود الأرندا في شرق أوربا وصغار التجار المتجولين بل والمتسولين اليهود المنتشرين في كل أرجاء أوربا . كما كانت الشبكة تضم تجار الدولة العثمانية . وكان بوسع هذه الشبكة أن تزود أي جيش بكل ما يريده من جراية ومعادن نفيسة وأموال ، ولذا ساد الاعتقاد آنذاك بأن كل المتعهدين العسكريين يهود وأن كل اليهود متعهدون عسكريون (وقد روج النازيون هذه المقولة فيما بعد في دعاياتهم ضد اليهود باعتبارهم مستفيدين من مآسي الآخرين) . ومن أهم عائلات يهود البلاط التي اضطلعت بهذه الوظيفة عائلات أوبنهايمر وجومبيريز وفيرتايمر ومايير وهيرشيل . ومما زاد من أهمية المتعهدين العسكريين اليهود ظهور الدولة المركزية المطلقة بحكامها المطلقين ، والتي أسست جيوشاً مركزية لتوسيع نفوذها ، ولفرض هيمنتها على مناطق جديدة ، ولتشديد قبضتها على السوق المحلية .

وقد لعب المتعهدون اليهود دوراً مماثلاً في إنجلترا في القرن السابع عشر . فكان أهم المتعهدين العسكريين في عصر كرومويل هو أبراهام إسرائيل كارفاجال الذي اشترك مع خمسة تجار آخرين في تزويد الجيش البريطاني بالقمح عام ١٦٤٩ . وقد تَمكَّن وليام أوف أورانج من أن يبحر إلى إنجلترا عام ١٦٨٨ بعد أن حصل على قرض بدون فوائد من أحد المموِّلين اليهود وهو فرانسيسكو لوبيز سوسو (من لاهاي) . وقام فرانسيسكو دي كورفا وإسحق بريرا بتزويد الحملة بالعتاد العسكري . وكان وليام دي مدينا هو المتعهد العسكري لدوق مارلبورو . أما في أيرلندا ، فقد قامت شركة ماكادو وبريرا بتزويد جيوش دوق شومبرج بالجراية والسلاح .

وقام المتعهدون العسكريون اليهود بالمهمة نفسها في فرنسا . فقد سُمح لعدد من الأسر اليهودية بالاستقرار في ميتز عام ١٥٦٧ شريطة أن يتعهدوا بتزويد القوات الفرنسية بما تحتاج إليه . وكان لبعض الأسر اليهودية الفرنسية دور ملحوظ في المجال نفسه إبان الحكم المطلق لملك فرنسا لويس الرابع عشر . فكان يعقوب ويرمز هو المتعهد العسكري الأساسي في عصره ، وهو دور اضطلع به هرز سرفبي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وكان هذا المتعهد من الأهمية بمكان ، حتى أنه استُثني ، حين تَقرَّر عام ١٧٧٦ إنهاء نظام المتعهدين العسكريين ، واستمر في ممارسة نشاطه في الألزاس

واللورين . و في أواخر القرن الثامن عشر ، اضطلع بهذه الوظيفة موسى بلين (في ميتز) ، وموسى أليعازر لايفمان كالمر (في هانوفر) . ومن أهم المتعهدين العسكريين أبراهام جراديس الذي زود الجيوش الفرنسية بما كانت في حاجة إليه من عتاد وجراية إبَّان حرب الأعوام السبعة (١٧٥٦-١٧٦٣) . كما اشترك معه كلٌّ من روفائيل منديس وبنيامين جراديس ، وبعض مُلاَّك السفن اليهود ، في تنظيم عملية إبحار السفن الفرنسية من أوربا إلى كندا . وقد أعطى فريدريك الأكبر إبان هذه الحرب عدداً من العقود للمتعهدين العسكريين من أعضاء الجماعة اليهودية ، والذين أدوا عملهم بكفاءة عالية وحصلوا على كثير من المزايا وراكموا الثروات . وبدأ بعض أعضاء الأرستقراطية الألمانية في الاقتراض منهم وازداد الاختلاط بين الأرستقراطية وأثرياء اليهود ، وكان هذا أحد الأسباب التي أدَّت إلى ما يُسمَّى «صالونات النساء اليهوديات» .

ولعب بعض أعضاء الجماعة اليهودية دوراً بارزاً في تزويد الجيوش الإنجليزية التي أرسلت إلى المستعمرات بالسلاح والجراية . فزود ماتياس بوش قوات بنسلفانيا في المستعمرات الأمريكية بالسلاح في حربها ضد الفرنسيين . وقامت أسرة فرانكس ، التي كان لها فروع في كل من لندن ونيويورك ، بتزويد الجيش البريطاني في المستعمرات الأمريكية . وبعد الاستقلال ، زودت أسرة شيفتول (من جورجيا) الجيش الأمريكي بالسلاح . واستمرت بعض الأسر اليهودية في القيام بهذا الدور إبَّان الحرب الأهلية ، فزود المتعهدون اليهود الجيشين المتحاربين ، الشمالي والجنوبي ، بالجراية والأزياء العسكرية اللازمة . وقد اضطلع بعض المتعهدين اليهود بالدور نفسه في الدولة العثمانية ، ولذلك كانت تربطهم علاقة وثيقة بالإنكشارية . أما في روسيا (في القرن التاسع عشر) ، فقد قام المتعهدون اليهود بتزويد الجيش بالجراية وبالمساهمة في بناء التحصينات العسكرية والطرق والسكك الحديدية .

وقد انتهى دور المتعهدين العسكريين اليهود تماماً مع ظهور الدولة القومية الحديثة التي كانت تتبعها بيروقراطيات متخصصة تقوم بتزويد الجيش بكل ما يلزم من جراية وعتاد . ونحن لا نعرف الدور الذي يلعبه أعضاء الجماعات اليهودية في تجارة السلاح في الوقت الحاضر ، وإن كان من المعروف أن إسرائيل تلعب دوراً مهماً فيها ، وبخاصة في مجال توريد السلاح للدول الفاشية والعنصرية التي تود الحكومات الغربية مساندتها ولكنها تخشى الرأي العام داخل بلادها وخارجها . ومن ثم تتولى إسرائيل هذه الوظيفة نيابة عنها ، فكانت تقوم مثلاً بتزويد حكومة جنوب أفريقيا العنصرية بالأسلحة ، بما في ذلك المواد والمعلومات اللازمة لإنتاج القنبلة الذرية ، وبذا تعيد إسرائيل إنتاج أحد الأدوار الوظيفية لبعض الجماعات اليهودية في العالم الغربي .

ومما لا شك فيه أن اضطلاع بعض أعضاء الجماعات اليهودية بهذه الوظيفة دعم الصورة الإدراكية السلبية لليهود في ذهن الكثيرين . وكما أسلفنا ، فقد استغل النازيون هذه الحقيقة التاريخية لتوثيق ادعاءاتهم . ولكن مما يجدر ذكره أن اليهود ، مهما بلغت درجة تَورُّطهم في تجارة السلاح ، لم يكونوا قط مسئولين عنها ، فما حدث هو ظهور حاجة لدى بعض المجتمعات الغربية إلى السلاح والعتاد الحربي والجراية اللازمة لتجريد حملات عسكرية كبيرة ومتكررة نتيجة ظهور الدولة المركزية المطلقة . ولكن هذه المجتمعات لم تكن تملك الإمكانات المادية أو الإدارية للوفاء بهذه الحاجة ، ومن ثم نشأت ثغرة كان لا يمكن أن يملأها سوى عنصر وظيفي واحد مثل اليهود الذين كانوا يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية المالية . وهذا ما لم يذكره النازيون . والواقع أن رؤيتهم للأمور ، تماماً مثل رؤية الصهاينة وكل العنصريين ، تجتزئ من الواقع عنصراً - أو بعض العناصر - وتجعله النقطة المرجعية الوحيدة ثم تُوظِّفه في تبرير أي فعل تقوم به ، مع إهمال كامل لكل عناصر الصورة التاريخية المركبة .

جاك بافيا (؟-١٦٨٧)
Jack Pavia

تاجر ماس يهودي من أصل ماراني (برتغالي) ، وهو مؤسس الجماعة اليهودية في إقليم مدراس بالهند . وُلد لعائلة يهودية عاشت في هولندا ، وهاجر إلى إنجلترا ليصبح من أوائل اليهود الذين استوطنوا بها بعد أن أُعيد فتح باب الاستيطان اليهودي في إنجلترا . اهتم بعملية استغلال مناجم الماس في جولكوندا فسافر إلى الهند وأسَّس تجارة له بها ، واشتغل في تصدير الماس إلى إنجلترا واستيراد المرجان عن طريق أفراد أسرته في لندن . وفي عام ١٦٨٣ ، نجح في الحصول على أذون من شركة الهند الشرقية تسمح باستيطان اليهود في مدراس وسافر إلى هناك عام ١٦٨٤ . وأثناء وجوده بها ، نجح في إقناع حاكم الإقليم بتأسيس ميلشيا من الأوربيين . وقام بافيا بتمويل الخيل والسلاح على نفقته الخاصة كعضو في هذه الميليشيا التي ضمت أيضاً عدداً آخر من اليهود ، وقد عُيِّن بافيا قبل عدة أيام من وفاته نائباً للملك بريطانيا في مدراس مدى الحياة .

وتعود أهمية بافيا إلى ما يلي :

١ - تُبيِّن سيرة حياته ذلك الدور الحيوي الذي لعبه يهود المارانو في التشكيل الاستعماري الاستيطاني للغرب .

٢ ـ كما تُبيِّن سيرة حياته الدور الريادي الذي لعبه أعضاء الجماعات اليهودية في هذه العملية .

٣ ـ تُعَدُّ حياة باقيا نموذجاً جيداً لكيفية تَحوُّل جماعة وظيفية وسيطة إلى جماعة عسكرية ، أو لتداخل الدورين المالي والقتالي للجماعات الوظيفية . ومن ثم ، فإن تَطوُّره الشخصي يشبه تَطوُّر الجماعات اليهودية في الغرب ، تلك الجماعات التي كانت جماعات وظيفية مالية في أوربا ثم تحوَّلت إلى جماعة وظيفية في فلسطين .

الأرندا والإقطاع الاستيطاني

Arenda and Settler Feudalism

«أرندا» كلمة بولندية تعني حرفياً «أجرة» تُدفَع مقابل استئجار . وهي ، كمصطلح ، تُستخدَم للإشارة إلى استئجار ممتلكات ثابتة ، مثل الأرض والطواحين والفنادق الصغيرة ومصانع الجعة ومعامل تقطير الكحول ، أو إلى امتيازات أو حقوق خاصة مثل تحصيل الجمارك والضرائب . وقد تم تَبنِّي المصطلح بالمنطوق والمعنى المذكور في اليديشية والعبرية . وكان يُشار إلى المستأجر نفسه ، خصوصاً الصغير ، على أنه «أرندا» ، كما كان يُقال له «الأرنداتور» . وكان المصطلح ذائع الانتشار ويصف واحداً من أهم جوانب الاقتصاد البولندي الليتواني في أواخر العصور الوسطى . وقد ارتبط يهود بولندا بنظام الأرندا من بدايته . فهم ، كجماعة وظيفية وسيطة عميلة ، كانوا مهيأين للاضطلاع بهذا الدور ، خصوصاً أن المؤسسة اليهودية الأرثوذكسية أحلت عمليات الإقراض بالربا بين اليهود من خلال التحلّة ، وهو ما سهَّل لأي يهودي أن يُموِّل يهودياً آخر ويقرضه بربا ، الأمر الذي وفر الاعتمادات اللازمة للاستثمارات . وكان الارتباط بين أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا وهذا النظام من العمق بحيث أن كلمة «أرنداتور» أصبحت مرادفة لكلمة «يهودي» .

وكان يُشار إلى الأرندا ، في بداية الأمر ، بمصطلح «الأرندا الكبرى» أو «الأرندا الملكية» أو «الأرندا الحكومية» . ويشير هذا المصطلح إلى استئجار الاحتكارات العامة والعوائد العامة . وكانت أول أرندا كبرى حصل عليها أعضاء الجماعة اليهودية هو حق تحصيل بعض العوائد الملكية ، أو حق إدارة مؤسسات ملكية مثل دار صك النقود ومناجم الملح والجمارك أو جمع الضرائب . وقد انتشر المستأجرون اليهود من المشتغلين بالأرندا في المقاطعات الشرقية من بولندا في القرن الخامس عشر . أما في غرب بولندا ، حيث كان يتوفر للنبلاء البولنديين (شلاختا) رأسمال كبير ، فقد مُنع اليهود من استئجار حق تحصيل العوائد الملكية باعتبار أن هذه عملية مربحة .

ومع ازدياد نفوذ النبلاء ، اتخذ البرلمان البولندي (سييم) قراراً عام ١٥٣٨ بمنع اليهود من استئجار العوائد والمؤسسات الملكية . وقد اتخذ مجلس البلاد الأربعة قراراً مماثلاً حتى يقلل من الاحتكاك بين اليهود والنبلاء . ولكن القرار لم ينجح في وقف نشاط الأرندا بين اليهود ، فاستمر المموِّلون اليهود في استئجار كثير من المزايا الملكية مثل الجمارك والضرائب على الخدمات ، خصوصاً مطاحن الدقيق وبحيرات الأسماك ، وفي إنتاج وتسويق المشروبات الكحولية . كما كان بعض أعضاء الجماعة اليهودية يستأجرون ضياعاً بأكملها . بل ظلوا ، حتى منتصف القرن السادس عشر ، أهم مستأجري حق جمع الضرائب في المحطات المخصصة لذلك في ليتوانيا وروسيا البيضاء ، كما كان هناك يهود أرندا في جاليشيا . وكان جامعو الضرائب (من اليهود وغير اليهود) يستخدمون أكثر الطرق قسوة للحصول على العائد ، وكثيراً ما كانوا يُحصِّلون ضرائب أكثر من المقررة . وكان من حق جامع الضرائب أن يفتش العربات التي تمر من خلال البوابات وأن يُصادر العربات التي تحاول التهرب من استخدام الطريق العام . وقد حَدَث صراع بين النبلاء الليتوانيين واليهود ، فأصدر البرلمان الليتواني (سييم) قراراً بقصر حق الأرندا على النبلاء . ولكن اليهود تحدوا هذا القرار ، كما أصدر المجلس الليتواني (وهو يقابل مجلس البلاد الأربعة) قراراً يتحدى هذا القرار . وقد اشتغل عدد كبير منهم بالأرندا من الباطن ، عن طريق كفيل مسيحي ، حينما لم تكن تسنح لهم فرصة الاشتغال بها بشكل مباشر .

ولكن ، حدثت عدة تطورات أدَّت إلى ظهور الأرندا الزراعية الإقطاعية الاستيطانية التي تختلف في كثير من الوجوه عن الأرندا الكبرى أو الحكومية أو الملكية . ولعل العنصر الأساسي والحاسم في ظهور الأرندا الزراعية هو إبرام اتحاد برست ليتوفسك (ويُسمَّى أيضاً اتحاد لوبلين) عام ١٥٦٩ بين ليتوانيا وبولندا . وهو الاتفاق الذي حوَّل الوحدة الاسمية (وحدة الأسرتين المالكتين) بين البلدين إلى وحدة حقيقية . وقامت بولندا بضم أوكرانيا نتيجة هذه الوحدة .

ونتيجة عملية الضم هذه ، وقع تحت تصرف النبلاء البولنديين مساحات ضخمة من الأراضي كانت في حاجة إلى رأس مال ضخم لاستثماره لإدارتها ولمد الطرق اللازمة لذلك . وقد تزامن هذا مع تَزايُد الصادرات الزراعية لبولندا إلى غرب أوربا (بسبب الانفجار السكاني وحرب الثلاثين عاماً) ، فأصبحت بولندا في الفترة ١٥٧٧ ـ ١٦٥٤ مصدراً أساسياً للقمح في أوربا . فكان يتم تصدير القمح البولندي إلى فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وإيطاليا ، وأحياناً إلى الشرق

الأوسط من خلال أمستردام حيث كانت هناك أهم بورصة لبيع الحبوب .

كما أخذت بولندا تُصدِّر محصولات زراعية أخرى . وأصبحت جدانسك أهم مدينة تجارية في أوربا بعد أمستردام إذ كانت تُصدِّر مواداً عديدة مثل الحبوب والأخشاب والكتان والقنب والماشية . ومع تزايد الصادرات الزراعية ، حَدَث تطوُّر في الصناعات الغذائية ، وهو ما أدَّى إلى صَبْغ الزراعة في بولندا بصبغة تجارية .

هذه هي الأرضية الاقتصادية المادية لظهور الأرندا الإقطاعية الاستيطانية . ولكن هذا وحده لا يكفي لتفسير ما حدث . فثمة عناصر خاصة بالتركيب الطبقي للشلاختا ورؤيتهم لأعضاء الجماعات اليهودية ووضع اليهود كجماعات وظيفية ساهمت (كلها مجتمعة أو بدرجات متفاوتة) في تشكيل هذه الظاهرة ودفعها من عالم الإمكانية إلى عالم الوجود المتحقق :

١ ـ أول هذه العناصر هو أن النبلاء البولنديين لم يكن لديهم الكفاءات أو رأس المال أو الرغبة في إدارة هذه الضياع البعيدة .

٢ ـ كان النبلاء في بولندا ، برغم سطوتهم وقوة نفوذهم ، خاضعين لقوانين جامدة ، فكانوا يتمتعون بمكانتهم والمزايا الطبقية ماداموا لا يعملون بالتجارة . وكان اشتغالهم بالتجارة يعني ، في واقع الأمر ، فقدانهم مكانتهم ووضعهم . ولذا ، كان يُوجَد نبلاء فقراء (النبلاء الحفاة) معدمون يفضلون الجوع والفاقة على العمل بالتجارة .

٣ ـ كان يتعيَّن على النبلاء أيضاً البقاء في وارسو بالقرب من مراكز السلطة حيث تتم عملية صنع القرار السياسي والعسكري بسبب طبيعة النظام السياسي البولندي كملكية جمهورية ، وحفاظاً على المكانة السياسية والتمتع بمظاهر الأبهة الأرستقراطية .

٤ ـ كانت حاجة النبلاء الإقطاعيين إلى المال تزداد يوماً بعد يوم ، وبخاصة مع تزايد فقر بولندا ، فكانوا يقترضون من المرابين اليهود مبالغ طائلة للوفاء باحتياجاتهم بضمان ضياعهم وغلتها وعوائدها وريعها .

٥ ـ تزامن كل هذا مع تزايد تضييق المدن الملكية الخناق على أعضاء الجماعات اليهودية وممارسة التمييز ضدهم .

٦ ـ شهدت الفترة من ١٥٣٩ ـ ١٥٤٩ تَزايُد التقارب بين النبلاء وأعضاء الجماعات اليهودية الذين لم يعودوا تحت الحماية الملكية . فكان اليهود إذا طردتهم إحدى المدن الملكية انتقلوا منها إلى مدن النبلاء أو إلى الشتتلات داخل ضياع النبلاء .

٧ ـ كان لدى اليهود كل ما يلزم عملية الاستثمار في ضياع النبلاء من الخبرة التجارية والإدارية ورأس المال . كما كانوا مادة بشرية حركية ، ولم يكن لديهم أي مانع من الانتقال إلى أوكرانيا ليكونوا ممثلين للنبلاء البولنديين .

٨ ـ ولم يكن أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون أية خطورة على النبلاء لأنهم لم يكن بوسعهم ، كعنصر غريب أجنبي ، أن يطالبوا بنصيب في السلطة السياسية يتناسب مع وزنهم الاقتصادي ، وذلك على عكس العناصر البورجوازية المحلية التي عادةً ما تطالب بمزيد من الحقوق كلما تزايدت قوتها الاقتصادية .

٩ ـ كان النبلاء البولنديون ينظرون إلى أعضاء الجماعة اليهودية كعنصر ريادي استيطاني كفء ونافع يساهم في تعمير المناطق غير المأهولة بالسكان وكأداة تستخدم لتنشيط الاقتصاد الزراعي الخامل وإدخال بعض النشاطات التجارية فيه حتى يزيد من ريع الأراضي الزراعية .

لكل هذا ، ظهرت الأرندا الزراعية الإقطاعية الاستيطانية وتشكلت علاقة تعاقدية نفعية بين الشلاختا من جهة واليهود كجماعة استيطانية من جهة أخرى .

ومع تَصاعُد نفوذ النبلاء وضعف نفوذ السلطة المركزية الملكية ، تزايد اعتماد الجماعات اليهودية على النبلاء ابتداءً من القرن السابع عشر ، وانتقل مركز الجاذبية بالنسبة إليهم من غرب ووسط بولندا إلى المناطق الشرقية في أوكرانيا وغيرها . ومن منتصف القرن السابع عشر ، أصبحوا الطبقة الثالثة أو الجماعة الوظيفية الوسيطة بين النبلاء والأقنان . وقد أصبح أعضاء الجماعة اليهودية أداة النبلاء في ممارسة سلطتهم .

ونحن نصف نظام الأرندا الزراعي (غير الملكي) بأنه «إقطاع استيطاني» لنميِّزه عن أشكال الإقطاع السائدة في أوربا آنذاك . فالنظام الإقطاعي يتسم ولا شك بالاستغلال الطبقي ، شأنه في هذا شأن النظم الاقتصادية الدنيوية (فهذه هي إحدى سمات البشر) . ولكن نظام الأرندا في أوكرانيا اكتسب أبعاداً استغلالية متطرفة تفوق كثيراً الإقطاع العادي . فالعلاقات السائدة في أوكرانيا كانت ولا شك علاقات إقطاعية بين النبلاء البولنديين (والليتوانيين) من جهة ، والفلاحين والأقنان الأوكرانيين من جهة أخرى ، وذلك فيما يختص بملكية الأراضي وتوزيع غلتها . ولكنه كان إقطاعاً اقتصادياً (مجرداً) بلا علاقات اجتماعية إقطاعية (متعيِّنة) . فالإقطاع التقليدي (في أوربا وفي غيرها من البلاد) يفترض وجود ثقافة مشتركة بين النبيل والقن ، كما يفترض أن النبيل عادةً ما يوجد في ضيعته يديرها بنفسه ويدخل في علاقة مباشرة مع فلاحيه . ولذا ، لم تكن علاقة النبيل

الإقطاعي بأرضه علاقة تجارية خارجية موضوعية برانية وحسب وإنما كانت ذات جانب جواني يأخذ شكل الالتزام بمسئولياته كنبيل إقطاعي بكل ما تقتضيه النبالة وتفترضه وتفرضه من أعباء .

وكانت هذه الروابط الإقطاعية المتعيِّنة تخفف إلى حدٍّ ما من حدة الاستغلال الاقتصادي . أما في حالة النبيل الإقطاعي البولندي، فهذه الشروط لم تكن متوفرة البتة ، فهو كان دائماً غائباً عن ضيعته ، ولم تكن له أية علاقة مباشرة معها أو مع فلاحيها ، وكان يمثله عنصر بشري استيطاني غريب يمثل همزة الوصل بينه وبين فلاحيه . وكان اهتمامه بضيعته اهتماماً مالياً (تجارياً) ضيقاً ، حيث كانت تمثل مصدراً للدخل وحسب (وليست مظهراً من مظاهر الأبهة الإقطاعية والمكانة الأرستقراطية والحسب والنسب) فهو لا يتحدث لغتهم الأوكرانية ولا ينتمي إلى كنيستهم الأرثوذكسية . وأدَّى هذا إلى تَزايُد استغلال النبلاء للفلاحين في أوكرانيا وفي خارجها ، وإلى تَحوُّل نظام الأقنان إلى نظام عبودي إذ لم تكن تُوجَد قوة تقف في وجه النبلاء وتضع حدوداً لاستغلالهم . وقد أصر النبلاء على حقهم المطلق في إقرار الحياة والموت بالنسبة إلى الأقنان .

وما بين النبلاء البولنديين الكاثوليك والأقنان الأوكرانيين الأرثوذكس كان يقف الملتزم (الأرنداتور) اليهودي ، أداة الأول في سحق الثاني . وبذلك تشكلت واحدة من أهم الجماعات الوظيفية المالية الاستيطانية شبه القتالية . وكانت العلاقة بين النبيل ووكيله اليهودي عادةً ما تأخذ شكل قرض يحصل عليه النبيل من اليهودي للوفاء باحتياجاته بضمان ريع ضيعته (التي يديرها اليهودي) أو أي عوائد أخرى مثل عوائد قطع الأخشاب ونقل البضائع وغير ذلك من النشاطات الحرفية والتجارية .

وكان المموِّلون اليهود يستأجرون أحياناً مناطق ومدناً بأكملها ولعدة سنوات . ففي عام ١٥٩٨ ، قام أحد أثرياء اليهود باستئجار جملة الأراضي التي يمتلكها مجموعة من النبلاء بلغت مساحتها مئات الأميال المربعة ، وكان يدفع إيجاراً ضخماً لها . وكان كثير من يهود الأرندا يؤجرون الضياع من الباطن لصغار الممولين اليهود أو يرسلون في طلب أقارب لهم من بولندا ليقوموا بإدارة الضياع نيابة عنهم .

وكان الأرنداتور اليهودي يحصل على كل الامتيازات الممكنة مثل إدارة الحانات وطواحين الغلال ومعامل الألبان ومعامل التقطير وصناعة الكحول ومناجم الملح وقطع الأخشاب والفراء ودبغ الجلود والصباغة وصناعة الزجاج وصنع الصابون (وقد أصبح أعضاء الجماعات اليهودية العنصر الإثني السائد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في مثل هذه القطاعات الاقتصادية) . كما كانوا يجمعون ضرائب المرور على الكباري والبوابات . بل لم يكن من الممكن إقامة الصلوات الأرثوذكسية إلا بعد العودة للوكيل اليهودي إذ لم يكن بمقدور القساوسة الحصول على مفتاح الكنيسة أو استعارة ردائهم الكهنوتي لإقامة شعائر الصلاة إلا بعد دفع ضريبة . وكان اليهود يشترون أيضاً المحصولات من الفلاحين . ولأنهم هم الذين كانوا يمتلكون وسائل النقل النهري ، فكانوا هم أيضاً الذين يقومون بنقلها . كذلك كان أعضاء الجماعة اليهودية تجار القرية الذين يبيعون الفلاحين ما يريدونه من السلع الضرورية مثل الملح والسلع الترفية .

ونظراً لغياب النبيل الإقطاعي ، أصبحت السلطة المباشرة شبه المطلقة في يد اليهودي الذي كان يدير الضيعة ، تسانده في ذلك القوة العسكرية البولندية التي تضمن بقاءه واستمراره في عملية اعتصار الأقنان الأوكرانيين من كل ثمرات عملهم . وبعد الانتهاء من هذه العملية ، كان الأرنداتور يُبقي حصته من الريع ويرسل الباقي إلى النبيل . ولكن كثيراً ما كان الوكيل اليهودي يقوم بتحصيل ضرائب من الأقنان والفلاحين بما يزيد على حقه . وقد كانت جماعة يهود الأرندا تتسم بكثير من الخيلاء والقسوة (كما تقول **الموسوعة العالمية اليهودية**) . وكان يهود الأرندا لا يقومون بأية مهام قتالية بل كانوا جماعة وظيفية متحوسلة تقوم باستغلال الجماهير لحساب الحاكم (شأنهم شأن المماليك في المراحل الأولى من تاريخهم قبل تَحوُّلهم إلى نخبة حاكمة) ؛ وكان رأس المال الربوي والخبرة الإدارية يحلان محل السيف كأداة للاستغلال .

ومع هذا ، لم يكن البُعد العسكري مُفتقَداً تماماً . وقد ترجم الإقطاع الاستيطاني نفسه في ظاهرة الشتتل والمعبد/ القلعة ، فقد قام النبلاء بتشييد العديد من المدن الصغيرة كانت الواحدة منها تُسمَّى «شتتل» ويعيش فيها الملتزمون اليهود وأسرهم وأتباعهم في حماية القوة العسكرية البولندية ، كما كان عليهم هم أنفسهم أن يتدربوا على حمل السلاح . ولذا ، نص القانون على أنه : «يجب على كل رب عائلة يهودية أن يحتفظ ببنادق بعدد الذكور في بيته وبثلاث خرطوشات وثلاثة أرطال من البارود» . كما كانت المعابد اليهودية تأخذ شكل قلاع تُوجَد في حوائطها كوات حتى يمكن أن تخرج منها فوهات البنادق والمدافع . ويتضح مدى تحوُّل اليهود إلى مادة استيطانية شبه قتالية في تحولهم هم أنفسهم إلى موضوع للصراع بين القوى الشعبية الفلاحية الأوكرانية المتنفضة من جهة والقوى الاستغلالية البولندية من جهة أخرى . فحينما حقق بوجدان

شميلنكي (الزعيم الفلاحي الأوكراني) انتصاراً على البولنديين عام ١٦٤٩ ، نصت المعاهدة المبرمة بين الطرفين على عدم السماح لليهود بالاستيطان في أوكرانيا إذ أن وجودهم فيها كان علامة على الهيمنة البولندية فهم أداته الطيعة . ولكن حينما ألحقت القوات البولندية الهزيمة بقوات شميلنكي عام ١٦٥١ ، اضطر إلى الاعتراف بحق اليهود في الاستيطان في ضياع الملك والشلاختا . ولذا ، قد يكون من الأفضل أن نسمي يهود الأرندا «المماليك التجارية الاستيطانية شبه القتالية» . وقد كانت هذه الشتتلات تضم المعبد/ القلعة (وهو معبد يهودي كان مُصمَّماً بحيث يمكن استخدامه كحصن وقلعة عسكرية ، كما كانت تُقام فيه أيضاً الصلاة والدراسة) . وكانت حوائط المعبد/ القلعة سميكة للغاية ، كما أن المتاريس كانت مزودة بكوات لتخرج منها المدافع والبنادق .

وقد أصبح أعضاء الجماعة اليهودية ، بعلاقتهم القوية مع النبلاء والقوى التجارية الدولية ، محميين من تقلبات المجتمع الإقطاعي ومن غش وخداع البلديات والموظفين الملكيين ، ووجدوا المناخ المستقر الذي يحتاج إليه النشاط التجاري والمالي دون ضغوط وتهديد . وتَحسَّن وضعهم كثيراً . وقد أصبح بعض يهود بولندا وروسيا من كبار تجار الأخشاب والحبوب في أوربا .

وكان مسرح نظام الأرندا هو أوكرانيا التي أصبحت النقطة التي التقت فيها عناصر عديدة غير متجانسة أهمها النبلاء البولنديون الإقطاعيون الكاثوليك والفلاحون الأوكرانيون الأرثوذكس (الذين يتحدثون الأوكرانية) والتجار اليهود (الذين يتحدثون اليديشية) غير المنتمين لهذا أو ذاك والذين يشكلون الوسيط التجاري والإداري والمالي بين الطرفين (إلى جانب الغجر والتتار وبعض الأرمن) .

ويُلاحَظ أن التقسيم الطبقي كان أيضاً تقسيماً عرقياً وإثنياً ودينياً . ولم يكن نشاط الأرندا مقصوراً على أوكرانيا وبولندا بل أصبح جزءاً من شبكة تجارة دولية . فكان كبار النبلاء الإقطاعيين البولنديين يمتلكون الأرض في أوكرانيا ويؤجرونها ، والألمان يديرون الموانئ على بحر البلطيق ، والهولنديون يمتلكون السفن البحرية لنقل السلع . أما أعضاء الجماعة اليهودية ، فقد قاموا ببقية العملية ومن بينها نقل المحاصيل بوسائل النقل النهري التي كانوا يمتلكونها . وقد نشأت علاقة قوية بين يهود البلاط في دول أوربا الوسطى ، وبين يهود الأرندا إبان حرب الثلاثين عاماً ، حيث كان يهود البلاط يستوردون الحبوب من بولندا . وكان يهود الأرندا يقومون بتدبير الغلال المطلوبة التي كانت تتزايد حاجة أوربا إليها (وهذا يبين كيف كانت العلاقات بين الجماعات اليهودية تُسهِّل اتصالاتهم وتجعل منهم شبكة قوية ووحيدة للتجارة الدولية) .

وقد ارتبط مصير أعضاء الجماعة اليهودية تماماً بمصير الأرندا (الزراعي الإقطاعي الاستيطاني البولندي) والقوة العسكرية البولندية التي كانت تسانده . وقد كان لنظام الأرندا الإقطاعي الاستيطاني أعمق الأثر في تَطوُّر تاريخ الجماعة اليهودية في بولندا ، وهو ما أثر بدوره في تاريخ الجماعات اليهودية في غرب أوربا وأعطى المسألة اليهودية في شرق أوربا ملامحها الخاصة :

١ ـ وجد اليهود أنفسهم بين مطرقة النبلاء وسندان الفلاحين . وقد كان اليهودي هو ممثل الإقطاع البولندي الشره وأداة الاستغلال المباشرة الواضحة ، إذ تم حوسلته تماماً من قبل النبلاء . وكانت شراهة النبلاء الإقطاعيين تزداد سنة بعد سنة ، فكانوا يزيدون من قيمة الإيجار ، وكان على الوكيل اليهودي أن يزيد بدوره من الضرائب والإيجارات التي يحصلها من الفلاحين . ولكن يهود الأرندا كانوا يعيشون بين الفلاحين في أوكرانيا ، بينما كان النبيل الإقطاعي يعيش في ضيعته أو قصره في بولندا .

٢ ـ حدث ليهود بولندا ، نتيجة نظام الأرندا ، تطوران متناقضان :

أ) انعزل يهود الريف عن المراكز التلمودية في المدن الكبرى ، واكتسبوا ثقافة الفلاحين السلافيين المتخلفة ، وتشبعوا بالفلكلور الريفي بما في ذلك العقائد الشعبية المسيحية ، الأمر الذي أضعف هويتهم اليهودية . وكانت هذه تربة خصبة لنشوء الحركات المشيحانية . ويُلاحَظ أن الحركتين الحسيدية والفرانكية نشأتا في منطقة بودوليا ، وانتشرتا بين يهود أوكرانيا أسرع من انتشارها بين بقية يهود شرق أوربا .

ب) في الوقت نفسه ، ونظراً لتزايد عددهم، كان اليهود يوجدون لا على هيئة أقلية صغيرة تعيش داخل الجيتو في إحدى المدن المسيحية وإنما على هيئة مدن صغيرة (شتتلات) تضم تجمعات بشرية يشكل اليهود فيها نسبة مئوية كبيرة بل الأغلبية العظمى أحياناً ، ومن هنا تكلست هويتهم وانعزلت واحتفظ اليهود برطانتهم الألمانية (اليديشية) . وقد ساهم الانفجار السكاني الذي حدث بينهم في تعميق هذا الاتجاه .

٣ ـ زادت الأرندا من تَشوُّه البناء الطبقي ليهود بولندا بحيث تركزوا في تجارة الخمور التي أصبحت مشكلة أساسية في الريف البولندي (ثم الروسي بعد ذلك) .

٤ ـ وبعد تَشوُّه البناء الوظيفي والعزلة وتزايد الأعداد ، ضُمَّ هذا الجزء من بولندا إلى روسيا ، فوجدت روسيا عندها هذه الكثافة

البشرية التي تتحدث اليديشية وتؤمن بالحسيدية وتتاجر في الخمور ، وهي كتلة كانت مكروهة من السكان المحليين . وكانت البيروقراطية الروسية جاهلة باليهود وبكيفية التعامل معهم ، ذلك لأنه كان مُحرَّماً عليهم دخول الإمبراطورية حتى نهاية القرن الثامن عشر .

٥ ـ كان الوضع الطبقي المميَّز لليهود داخل البناء الاستيطاني للإقطاع يعني أنهم ليسوا عنصراً من التشكيل الحضاري البولندي . ولذا ، حينما نشأت حركات ثورية مثل انتفاضة شميلنكي في أوكرانيا ثم الحركة القومية في بولندا ، كان اليهود يقفون خارجها امتداداً لوضعهم الطبقي الهامشي والطفيلي . فهم لم يكونوا مستغلين فقط ، مثل النبيل الإقطاعي الفرنسي أو التاجر الإنجليزي ، وإنما كانوا غرباء أيضاً فسقطوا مع سقوط نظام الإقطاع الاستيطاني البولندي .

وقد أضفت كل هذه العناصر على المسألة اليهودية في شرق أوربا ملامحها الخاصة .

٦ ـ لم يكن هناك يهود يعيشون بشكل قانوني في إنجلترا أو فرنسا أو هولندا أو إسبانيا أو البرتغال أو الدول الإسكندنافية أو إمارة موسكوفي حتى عام ١٥٥٠ . وكان يهود أوربا كافة مُركَّزين أساساً في بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا أو إيطاليا حتى أنه ، في القرن السابع عشر ، كان هناك مركزان أساسيان في العالم لليهود : أحدهما في الإمبراطورية العثمانية وهو الذي استوعب العديد من اليهود الذين طُردوا من أوربا الغربية وشبه جزيرة أيبريا ، وثانيهما في بولندا وليتوانيا . وقد أخذ غزو يهود بولندا في الزيادة ابتداءً من القرن السادس عشر حتى أن أغلبية يهود العالم كانت في بداية القرن العشرين من نسل يهود بولندا (بل يُقال إن كل يهود العالم الغربي من أصل بولندي باعتبار أن العناصر اليهودية المحلية تم صهرها تماماً في الأغلبية) .

٧ ـ كل هذا يعني ، في واقع الأمر ، أن التجارة والاستيطان والقتال جزء أساسي من التجربة التاريخية للغالبية العظمى من الجماعات اليهودية في الغرب ، وأنهم دخلوا العصر الحديث وعندهم قابلية (تبادل اختياري) للاشتراك في العمليات الاستيطانية القتالية . وفي هذه التربة الخصبة ، ظهر جوزيف فرانك اليهودي البولندي المُتنصِّر الذي طالب بتسليح اليهود وتأسيس دولة مستقلة لهم . كما ظهر الحل الصهيوني للمسألة اليهودية المبني على تصديرها باعتبار أن اليهود عنصر استيطاني غريب (ومن المعروف أن معظم قيادات الصهيونية الاستيطانية من أصل بولندي روسي) .

ويمكن القول بأن الأرندا الإقطاعية الاستيطانية تُكمل الحلقة المفقودة بين تجربة يهود الغرب والتجربة الصهيونية . فالعلاقة الثلاثية (النبلاء البولنديون ـ الوسطاء اليهود المستوطنون ـ أقنان أوكرانيا) تشبه كثيراً العلاقة الثلاثية السائدة في الشرق الأوسط (الإمبريالية الأمريكية ـ الوسطاء الصهاينة المستوطنون - عرب فلسطين) . والعنصر اليهودي في كلتا الحالتين عنصر استيطاني نافع يتم الحفاظ عليه بمقدار نفعه وليست له أهمية في حد ذاته .

وما حدث، بشيء من التبسيط ، هو أن المماليك التجارية الاستيطانية شبه القتالية في أوكرانيا تحولّت إلى مماليك استيطانية قتالية شبه تجارية في فلسطين بعد تأسيس الدولة المملوكية الصهيونية ، وهي دولة ذات قيمة إستراتيجية عسكرية بالنسبة للغرب (بالدرجة الأولى) وذات أهمية تجارية اقتصادية (بالدرجة الثانية) . ومع ظهور النظام العالمي الجديد، قد تتراجع الوظيفة العسكرية القتالية لتشغل المرتبة الثانية بينما تشغل الوظيفة التجارية الاقتصادية الدرجة الأولى، ولذلك سيتطابق وضع الدولة الصهيونية مع يهود الأرندا إذ ستصبح دولة وظيفية تجارية شبه قتالية . ونحن، بهذا، نكون قد اكتشفنا استمرارية تاريخية ونمطاً متكرراً داخل التاريخ الغربي الحقيقي، وليس استمرارية ميتافيزيقية داخل التاريخ اليهودي الوهمي .

الخمور (النبيذ والكحول) والاتجار فيها

Wine and Liquor Trade

«تجارة الخمور والنبيذ» هي تجارة عادةً ما تضطلع بها جماعة وظيفية ، ربما لأن الخمر تُذهب الوعي وترتبط في كثير من العقائد بالمقدَّس والغيب ، أي أن الخمر مرتبطة بمنطقة وجدانية تقع خارج نطاق المألوف والعادي والروتيني ، ومن هنا تظهر ضرورة اللجوء إلى جماعة وظيفية محايدة ، ليس في مقدورها أن تُوظِّف لحظة غياب الوعي هذه لصالحها (بسبب عجزها) ، تماماً مثل الحلاق الذي تُسلِّم له رأسك ليقص الشعر ، ويمكنه أن يقطع رأسك ويسلم من العقوبة إن كانت تسانده مجموعة من البشر لها سلطة . والشيء نفسه ينطبق على الماشطة التي تدخل البيوت وتعرف أخص خصائص النساء ، وهو ما يجعلها مستودعاً لكثير من الأسرار التي يمكن أن تُستخدَم ضد من قالها . ولذا ، فلابد لمن يقوم بمثل هذه الوظائف أن يكون محايَداً مجرَّداً من السلطة تحت رحمة المجتمع تماماً ، حتى لا يسيطر عليه .

ويبدو أن التحريم التلمودي الخاص بتناول خمور الأغيار جعل أعضاء الجماعات اليهودية مضطرين إلى أن يكون لهم كرومهم ومصانع الخمور الخاصة بهم . ولكن ، مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي في الغرب ، كانت كل مزارع الكروم المملوكة لليهود قد تمت

تصفيتها مع انسحابهم التدريجي من مهنة الزراعة . ولكن اتجارهم في النبيذ والمشروبات الكحولية استمر حتى أصبحت هذه المهنة إحدى المهن أو الوظائف اليهودية الأساسية في شرق أوربا وألمانيا .

ومع بداية القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، كان إنتاج المشروبات الكحولية وبيعها في بولندا وليتوانيا عملاً أساسياً يمتهنه أعضاء الجماعات اليهودية ومصدراً من أهم مصادر الدخل بالنسبة لهم ، كما أصبح هذا العمل مهنة أساسية في بوهيميا والمجر . وقد ازداد ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بتجارة الخمور نتيجة لنظام الأرندا . فرغم أن الخمور كانت تمثل الترف الأساسي في حياة الفلاحين ، إلا أنهم كانوا ممنوعين من تقطيرها ، إذ أن هذا الحق كان مقصوراً على النبلاء البولنديين ، وكان تأجير هذا الحق مصدراً أساسياً للريع الذي يحصل عليه النبيل من مستأجر الامتياز (الأرنداتور) . فكان اليهود يستأجرون معامل التخمير والتقطير والحانات ، والتي كانت مرتبطة بنظام الأرندا في بولندا وأوكرانيا وروسيا البيضاء . وقد أصبح اليهودي (صاحب الحانة) شخصية أساسية في الريف الأوكراني وفي المدن الصغيرة . وكان اليهود يحتكرون - تقريباً - إنتاج وبيع المشروبات الكحولية . وكانت نسبة عالية منهم تعمل في هذه التجارة حتى بلغت ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ١٥٪ من مجموع يهود المدن و٨٥٪ من يهود الريف .

وقد تسبَّب اشتغال اليهود بهذه التجارة في نشوء كثير من التوترات بينهم وبين بقية السكان . كما كان الفلاحون السلاف يفرطون في الشرب ، وهو ما كان يزيد من أرباح اليهود ، خصوصاً أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا لا يشربون بهذا الإفراط .

وكان أعداء اليهود بين طبقات المجتمع الأخرى يلقون اللوم على اليهود ، مع أن الإفراط في الشرب كان ظاهرة اجتماعية صاحبت تَدنِّي الأوضاع الاقتصادية والثقافية في شرق أوربا والذي لم يكن اليهود مسئولين عنه بل ضحية له . وكانت الطبقات الحاكمة في شرق أوربا (روسيا وبولندا) ترى أن اليهودي هو سر بلاء الريف وبلاء سكانه ، ولذا كانوا يرون أن إصلاح حال الفلاحين لن يتأتى إلا بطرد اليهود من صناعة الخمور . ومع تدهور الاقتصاد البولندي ابتداءً من القرن الثامن عشر الميلادي ، بدأت العناصر التجارية المسيحية تتجه إلى الهيمنة على تجارة النبيذ والكحوليات المربحة بين السكان . وكلما ازداد إفقار المدن وإفقار سكانها ، كانت المطالبة بتأميم تجارة الخمور تزداد ضراوة . وأصبح استبعاد اليهود من هذه التجارة مطلباً أساسياً تطرحه الطبقة الوسطى البولندية ، ثم أصبح هذا جزءاً من سياسة كثير من الدول المطلقة المستنيرة .

وقد بدأت حركة استبعاد أعضاء الجماعات اليهودية من صناعة الخمور في بولندا وامتدت إلى روسيا واستمرت فيها . ونصت براءة التسامح التي أصدرها جوزيف الثاني على ضرورة طرد اليهود من صناعة الخمور خلال عامين . ومع تفاقم مشكلة سُكْر الفلاحين ، ازدادت ضراوة التشريعات ضد اشتغال اليهود بتجارة الخمور . ولكن كل هذه التشريعات لم تفلح ، إذ أن إدمان الفلاحين السلاف للخمر كان نتاج ظروف حضارية واجتماعية مُركَّبة لم يكن اليهود مسئولين عنها ، وإن كانوا قد استفادوا منها . ولم تُحسَم المسألة نهائياً إلا مع ظهور نظم اشتراكية في روسيا وبولندا أمَّمت كل وسائل الإنتاج ، ومنها صناعة الخمور ، وأوجدت فرصاً بديلة لليهود .

ويبدو أن تقاليد الاشتغال بإنتاج النبيذ وتسويقه استمرت على يد المستوطنين الصهاينة في فلسطين ، إذ زرعوا كثيراً من الكروم وقاموا بتقطير الخمور . وقد قامت مدرسة مكفيه إسرائيل الزراعية بزراعة أول أشجار كروم أوربية ، وأسست أول قبو خمور على الطريقة الأوربية . وكان البارون إدموند دي روتشيلد مهتماً بزراعة الكروم في فلسطين مؤملاً أن تتحوَّل إلى أحد الأسس الاقتصادية للقرية اليهودية في فلسطين ، وقد قام ببناء أقبية كبيرة للخمور . ولكن التجربة لم تنجح ، مثلها مثل كثير من التجارب الاستيطانية الأخرى .

الإعــــلان
Advertising

لعب أعضاء الجماعات اليهودية دوراً مهماً للغاية في صناعة الإعلان ، وخصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية حيث ارتبطت هذه الصناعة بآليات المجتمعات الرأسمالية الحديثة . ويُعتبَر رجال صناعة الإعلان من اليهود من أهم العناصر المسئولة عن تَطوُّر مؤسسة الإعلان الحديثة وعن اتساع نشاطها وتَطوُّر أسلوب عملها .

والواقع أن التبادل التجاري في المجتمعات التقليدية لا يعرف ظاهرة الإعلان ، إذ كان النشاط الاقتصادي محكوماً بمجموعة من القيم الدينية والأخلاقية التي لا تسمح بالتنافس الشديد ولا بمحاولة التأثير على الزبائن واصطيادهم . ومع هذا ، كان كثير من التجار في كثير من بلدان العالم الغربي يجأرون بالشكوى من التجار اليهود بسبب ملاحقتهم الزبائن أمام المحال التجارية وفي الطرقات وحتى في منازلهم . ولعل هذا يعود إلى أن التاجر اليهودي لم يكن ملتزماً بالقيم المسيحية مثل الثمن العادل والمحبة . كما أن أعضاء المجتمع المضيف ، في علاقتهم به كعضو في جماعة وظيفية ، هم مجرد شيء يشكل مصدراً للربح .

وتزايدت أهمية الإعلانات في التجارة مع تزايد علمنة المجتمع وتزايد حدة المنافسة التجارية . لكن النقلة النوعية حدثت مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد أن حقَّقت الثورة الصناعية توسعاً في الإنتاج ، وبعد نمو طبقة وسطى من المستهلكين شكلت السوق الأساسية للمنتجات والسلع الاستهلاكية المختلفة ، حيث أصبحت الإعلانات جزءاً لا يتجزأ من آليات السوق . وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية من العناصر الرائدة في قطاع الإعلان نتيجة ميراثهم التاريخي كجماعات وظيفية تمتلك خبرات تجارية ومالية مهمة أهلتهم لدخول مجالات كانت لا تزال تُعَدُّ جديدة وغير مألوفة وبالتالي تتميَّز بقدر كبير من المخاطرة . وبالإضافة إلى ذلك ، يمكن فهم ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بصناعة الإعلان من خلال ارتباطهم بتجارة التجزئة والصحافة اللتين كانتا أيضاً من الأنشطة الجديدة التي صاحبت نمو المجتمعات الصناعية الرأسمالية ، وهي أنشطة احتل فيها أيضاً أعضاء الجماعات اليهودية مكان الريادة . وبالتالي اكتسبت صناعة الإعلان أهمية كبيرة لتسويق منتجات مؤسسات التجزئة التجارية الجديدة ، في حين شكلت الصحافة الأداة الرئيسية للإعلان عن هذه المنتجات .

ويُعتبَر الأمريكي اليهودي ألبرت لاسكر أباً لصناعة الإعلان الحديثة حيث عمل على تحويل مهمة وكالة الإعلان ، من مجرد وسيط بين المؤسسات التجارية التي كانت تضع برنامج الإعلانات لمنتجاتها من ناحية والصحافة وأجهزة الإعلام من ناحية أخرى ، لتصبح الجهة الرئيسة المسئولة عن رسم وتخطيط ونشر الإعلانات الخاصة بمنتجات هذه المؤسسات . وقد انضم لاسكر عام ١٨٩٨ إلى وكالة إعلان لورد وتوماس في شيكاغو ، وأصبح عام ١٩٠٤ (وعمره ٢٤ سنة) شريكاً بها ، ثم أصبح مالكها الوحيد عام ١٩١٢ . وقد نجح لاسكر خلال ثلاثة عقود في تحويلها إلى واحدة من أهم وكالات الإعلان في الولايات المتحدة .

ويُعتبَر ميلتون بيو Biow المسئول عن تطوير وكالة الإعلان الحديثة لتلبية احتياجات عالم التجارة والأعمال الحديثة . كما أسس إحدى أهم كبريات وكالات الإعلان في الولايات المتحدة والعالم . ويُعَدُّ أول من استخدم الراديو والتليفزيون لتقديم الفقرات الإعلانية القصيرة .

وتُعتبَر وكالة جراي للإعلان ، التي أسسها لورانس فالنستاين ، من أهم مؤسسات الإعلان التي أوجدت فكرة خَلْق الطلب على السلعة قبل طرحها في الأسواق . كما ابتكرت وكالة إعلان أخرى هي وكالة دوتل داين ويرنبارخ التي تأسست في عام ١٩٤٩ أسلوباً جديداً في الإعلان يعتمد على تَبنِّي نبرة هادئة تميل إلى التواضع في تقديم الإعلانات وهو أسلوب تبنته كثير من وكالات الإعلان الأخرى . وابتكرت وكالة أخرى ، وهي وكالة نورمان كرايج وكومل ، أسلوباً جديداً في الإعلان أطلقت عليه اسم «الإعلان العاطفي» ، وهو أسلوب يهدف إلى خَلْق نوع من التماثل والاندماج العاطفي عند المتلقي تجاه السلعة موضوع الإعلان . وكل هذه أساليب تميل إلى اللعب على الجوانب النفسية والعاطفية والحسية لدى المستهلك باعتباره مجرد هدف يتم توظيفه . ومن الجدير بالذكر أن عالم النفس المعروف إرنست ديختر من أهم الشخصيات اليهودية الأمريكية التي كانت لها مساهمات مهمة في صناعة الإعلان والذي أسس معهد بحوث الدوافع .

وفي إنجلترا ، لم يصل أعضاء الجماعة اليهودية إلى مواقع بارزة في صناعة الإعلان إلا بعد الحرب العالمية الثانية . ولم تَنمُ صناعة الإعلان في أوربا إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، بعد أن شهدت وسائل الاتصال نمواً وتوسعاً كبيرين ، إلا أن مشاركة أعضاء الجماعات اليهودية فيها انتهت مع مجيء النازية واندلاع الحرب العالمية الثانية . أما بعد الحرب ، فكان لاتساع وامتداد نشاط وكالات الإعلان الأمريكية والبريطانية إلى أوربا دور في أن يصبح لرجال الإعلان من اليهود شأن بارز في صناعة الإعلان الأوربية .

ويجب التنبه إلى أن اشتراك أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في قطاع الإعلانات لا يجعل منه نشاطاً اقتصادياً يهودياً ، فهو أولاً وأخيراً جزء لا يتجزأ من آليات السوق بكل وحشيته وعدم اكتراثه بالقيم الإنسانية والأخلاقية ، ومحاولته توظيف الدوافع الإنسانية ، خصوصاً الدافع الجنسي ، في محاولة بيع السلع . وقد ظهر قطاع الإعلانات وتَطوَّر بظهور وتَطوُّر الاقتصاد الحديث ، خصوصاً الرأسمالي . ويمكن القول بأن قطاع الإعلان كان سيظهر ويتطور سواء كان هناك يهود أم لا ، تماماً كما ظهر وتَطوَّر في اليابان والهند وهي بلاد لا تُوجَد فيها أقليات يهودية تُذكر . ومع هذا ، يمكن القول بأن وجود أعضاء الجماعة اليهودية داخل هذا القطاع بشكل ملحوظ لا يمكن تفسيره إلا على أساس انتمائهم إلى أقلية تشكل جماعة وظيفية ، أي أن يهوديتهم تفسر تزايد عددهم داخل هذا القطاع الاقتصادي ولكنها لا تفسر وجود هذا القطاع وتطوره وآلياته . وهذا ، على كلٍّ ، هو النمط المهم في كثير من الظواهر في العالم الغربي ابتداءً من الرأسمالية والاستعمار وانتهاءً بالطلاق والإباحية والشذوذ الجنسي .

تجارة الرقيق

Slave Trade

«تجارة الرقيق» هي تجارة تقوم بها عادةً جماعة وظيفية مالية . وتُحرِّم اليهودية على اليهودي استعباد اليهودي مدة تزيد على ستة أعوام ، ولكنها لا تُحرِّم استعباد غير اليهود أو الاتجار فيهم . ويُقال إن العبرانيين القدامى كانوا عبيداً في مصر ، وهو قول غير دقيق . فبرغم أن الاقتصاد المصري كان متقدماً ، فإنه كان يعتمد أساساً على السخرة ، مع عدم استبعاد أن تكون جماعة غريبة مثل العبرانيين قد تحولت إلى عبيد وبخاصة بعد انحسار حكم الهكسوس : حُماتهم . ولم يكن العبرانيون ، عند هجرتهم من مصر وتغلغلهم في كنعان وسكناهم فيها (في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد) ، على مستوى اقتصادي وحضاري متقدم ، ولذا لم تكن لديهم حاجة إلى العبيد . ومن هنا حديث العهد القديم الدائم عن إبادة سكان القرى والمدن التي كان يجتاحها العبرانيون . ولم تكن المملكة العبرانية المتحدة ، هي الأخرى ، في حاجة إلى العبيد بسبب بساطة اقتصادها ، فقد سدت حاجتها من العبيد عن طريق استعباد العبرانيين الذين فشلوا في أداء ديونهم . ولم يختلف الوضع كثيراً في المملكة الشمالية أو المملكة الجنوبية . ولا يُعرف عن العبرانيين أنهم اشتغلوا بتجارة الرقيق أو أنهم كانوا يستعبدون أعضاءً من الشعوب المجاورة . كما أنهم لم يتحولوا إلى عبيد . ولكن هناك إشارة إلى أن بعض فراعنة مصر كانوا يتبادلون مع المملكتين العبرانيتين الأحصنة المصرية بالمقاتلين اليهود ، وأن هؤلاء العبيد هم الذين تحوَّلوا إلى جماعة وظيفية قتالية في جزيرة إلفنتاين . وكان التهجير الآشوري والبابلي عملية نقل كتلة بشرية من مكان إلى آخر ولكنها لم تحوِّل المهجَّرين إلى عبيد ، بل إن بعضهم أصبح من كبار المموِّلين . ولا تختلف الصورة في عصر الإمبراطوريات الفارسية واليونانية (السلوقية والبطلمية) ثم الرومانية .

لكن الصورة تختلف في العصور الوسطى في أوربا . فنظراً لفقر أوربا الشديد ، كان الرقيق أحد السلع القليلة التي يمكنها توريدها إلى الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي حتى يمكنها استيراد البضائع منها . أي أن توريد العبيد كان نوعاً من أنواع تصحيح ميزان المدفوعات . ولذا ، كانت تجارة الرقيق جزءاً أساسياً من التجارة الدولية . ولكن المصدر الأساسي للعبيد كان هو بلاد السلاف الوثنية المشتق اسمها من كلمة «سكلافوس scelavus» من لاتينية العصور الوسطى أي عبد (ومن هنا اسمهم العربي «الصقالبة») ، إذ كانت الدول المسيحية تُحرِّم الاتجار في العبيد المسيحيين كما كانت الدولة الإسلامية تُحرِّم الاتجار في العبيد المسلمين . وكانت قوافل اليهود تنتقل لأخذ العبيد من السلاف لنقلهم وبيعهم . وكان أعضاء الجماعات اليهودية مهيئين أكثر من أي قطاع آخر في المجتمع للاضطلاع بهذه الوظيفة ، فقد كانوا جماعة وظيفية وسيطة يمكنها أن تعيش بين الفراغات وأن تدير مثل هذه التجارة المشينة التي لا يمكن أن يقوم أعضاء المجتمع بإدارتها . كما أن كونهم يهوداً قد زودهم بالحماية في حركتهم الدائبة بين العالمين المسيحي والإسلامي وكان بوسعهم أن يبيعوا عبيداً مسيحيين في العالم الإسلامي وعبيداً مسلمين في العالم المسيحي . ويذكر ابن خرداذبة أن العبيد كانوا من أهم السلع التي يحملها التجار الراذانية .

وقد عملت أعداد كبيرة من التجار اليهود في تجارة الرقيق منذ العصور الوسطى حتى القرن الخامس عشر الميلادي ، وهذا أمر طبيعي ، فتجارة الرقيق كانت جزءاً من التجارة الدولية . وقد مُنح هؤلاء التجار المواثيق التي تحميهم وتحمي سلعهم . وكان من الممنوع تعميد العبد لأن هذا يعني فقدان التاجر اليهودي سلعته . وكان هذا مصدر احتكاك شديد بين التجار اليهود والكنيسة ، بل بين هؤلاء التجار ومعظم طبقات العالم الغربي المسيحي في العصر الوسيط . وبعد الثورة التجارية ، ظهرت تجارة الرقيق – المرتبطة بالنظام الاقتصادي التجاري الجديد – والتي تطلبت إمكانات مادية ضخمة من سفن إلى جنود وحاميات في المستعمرات تحتاج إليها عملية اصطياد العبيد من أفريقيا وتوريدهم إلى المستوطنات في العالم الجديد . وقد انضم بعض كبار المموِّلين اليهود إلى هذه التجارة ولعبوا دوراً نشطاً ، فامتلك يهود المارانو (السفارد) العبيد ، خصوصاً في مستعمرات الكاريبي ، وقاموا بالاتجار فيهم . ومما يسر لهم عملهم هذا ، شبكة الاتصالات اليهودية الضخمة في تلك الآونة ، فقد كان للمارانو قواعد في البرتغال وفي المستعمرات البرتغالية في أفريقيا وفي العالم الجديد وفي هولندا ومستعمراتها ، كما كانت لهم ركائز في الدولة العثمانية وغيرها من الدول .

وكان بعض أعضاء الجماعات اليهودية من كبار تجار العبيد في المستعمرات الهولندية في الأمريكتين ، فكانوا يعملون بهذه المهنة في البرازيل الهولندية (١٦٣٠ ـ ١٦٥٤) ، كما عمل بعضهم بها في القرن الثامن عشر الميلادي في العالم الجديد . فاشتركوا في التجارة المثلثة أي شحن البضائع الأوربية ، مثل الأسلحة والبارود والمشروبات الروحية (الجن) والحلي الرخيصة ، إلى الساحل الأفريقي ، وتحميل هذه السفن بالعبيد الذين كانوا يباعون في المزارع الأمريكية وفي جزر الكاريبي ، ثم تعبئة هذه السفن بالمنتجات

الاستوائية كالسكر والنيلة والتبغ والقهوة وغيرها من السلع لنقلها إلى أوربا . وكان يوجد مثلث آخر يبدأ في نيو إنجلاند في الولايات المتحدة حيث تُحمَّل السفن بشراب الروم وتتجه إلى أفريقيا حيث يباع الروم وتُحمَّل بالعبيد وتتجه لجزر الكاريبي لتُحمَّل بعسل قصب السكر الأسود الذي يُصنَّع منه الروم . وتظهر أسماء تجار يهود بين تجار العبيد في كوراساو ، فيرد اسم مانويل ألفاريس كوريا باعتباره تاجر عبيد نشيطاً اشتغل بهذه المهنة عدة سنوات وعمل وسيطاً عام ١٦٩٩ بين شركة الهند الغربية الهولندية والشركة البرتغالية ، وذلك لنقل العبيد من أفريقيا إلى المكسيك عبر كوراساو حيث كانت تتم مبادلة العبيد بالعسل الأسود الذي يُصدَّر إلى نيو إنجلند ليُستخرَج منه الروم لبيعه في أفريقيا . ومن أهم التجار في أمريكا الشمالية : ديفيد فرانكس وآرون لوبيز وجيكوب رودريجيز . وفي جامايكا ، ترد أسماء ديفيد هنريك وهيمان ليفي وألكسندر ليندو الذين كانوا من كبار تجار العبيد هناك في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي . وكان أعضاء أسرة جراديس اليهودية المقيمة في بوردو نشطاء في تجارة العبيد بالمستعمرات الفرنسية في العالم الجديد مثل سانتو دومينجو . وكان هناك بعض اليهود من أصحاب المزارع الكبيرة في جزر الهند ، وبالتالي فقد كانوا يمتلكون العبيد الذين تعتمد الزراعة عليهم هناك . ومن أهم التجارب الاستيطانية اليهودية تجربة سورينام حيث أسس أعضاء الجماعة اليهودية في بريزدنتس أيلاند ما يشبه الدويلة المستقلة التي كانت تعتمد على العبيد المستَجْلَبين من أفريقيا في الزراعة .

ولم يكن موقف أعضاء الجماعة اليهودية في الجنوب الأمريكي (في الولايات المتحدة) يختلف عن موقف بقية الأمريكيين من مؤسسة الرقيق ، فقد امتلك اليهود فيها العبيد . وبلغت نسبة أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يمتلكون العبيد ٢٥٪ ، وهي نسبة لا تختلف عن نسبة البيض حسب إحصاء ١٨٦٠ . وكان هناك بين مُلاَّك المزارع القليل من أعضاء الجماعة اليهودية .

أما معاملة يهود الجنوب الأمريكي للعبيد ، فلم تختلف عن معاملة المسيحيين لهم . كما أن نسبة عدد العبيد ، الذين كان يعتقهم أعضاء الجماعة اليهودية ، لم تكن تختلف عن النسبة بين المسيحيين ، غير أن أعضاء الجماعة اليهودية اشتغلوا بسائر الأعمال التنفيذية الخاصة بتيسير النظام العبودي . ويُلاحَظ أن العبيد والمُحرَّرين من العبيد السود كانوا يتعاملون بنسبة أعلى مع التجار اليهود ، نظراً لأن هؤلاء كانوا يفتحون محالهم يوم الأحد ، وهو اليوم الوحيد الذي كان بإمكانهم أن يتسوقوا فيه .

وفيما يتعلق بمؤسسات تجارة الرقيق ، فقد اشترك فيها أعضاء الجماعة اليهودية ، شأنهم شأن كل سكان الجنوب ، فعملوا بالمزايدات وتقديم الائتمانات وإنجاز الأعمال التجارية في سوق الرقيق . ويبدو أن نسبة المشتغلين بتسيير تجارة الرقيق منهم كانت أعلى من نسبة المشتغلين بها بين المسيحيين ، نظراً لتركُّز اليهود في الأعمال التجارية والمالية . ولم يقتصر اشتراك أعضاء الجماعات اليهودية على المؤسسات الخاصة بإدارة تجارة الرقيق ، بل تعاملوا في سلعته البشرية الأساسية ، أي الرقيق . فكان لابد لمن يمتلك رقيقاً أن يتاجر فيه بيعاً وشراءً ، لأن الرقيق كان سلعة ثمينة . ومع هذا ، لم يكن يوجد يهودي واحد بين كبار التجار . والواقع أن رأس المال المُركَّز في أيدي ممولين يهود كان ضئيلاً بالنسبة إلى رأس مال العمالقة من المسيحيين البيض . ففي ريتشموند ، كان هناك ثلاثة تجار يهود من بين سبعين تاجراً ، وفي تشارلستون كان يوجد أربعة تجار يهود بين أربعة وأربعين ، وفي ممفيس تاجر واحد بين اثني عشر تاجراً . وبرغم الانخفاض المطلق في عددهم ، فإن نسبة وجودهم في تجارة الرقيق كانت عالية للغاية ، إذ كانوا يشكلون نحو ٨٪ من التجار في المتوسط . وكانت نسبة اليهود إلى عدد السكان ، في الجنوب وفي الولايات المتحدة ، ضئيلة للغاية لأن عصر الهجرة اليهودية من شرق أوربا ، الذي أتى بالكثافة السكانية ، لم يكن قد بدأ بعد . وعلى أية حال ، لم تتجاوز نسبة اليهود في الولايات المتحدة في ذلك الوقت نصفاً في المائة .

ولعل عدم وجود اليهود في هذا القطاع بنسبة كثيفة كان انعكاساً لوضعهم داخل الاقتصاد الأمريكي ، فهم دائماً على مقربة من المستهلك ، بعيدون عن الصناعة الثقيلة وعن المراحل الأولى من الإنتاج ، وقد كان الرقيق جزءاً من المراحل الأولى للإنتاج الزراعي في الجنوب . ولم يكن هناك رفض يهودي لتجارة الرقيق ، إذ كان جيكوب لفين رئيس الجماعة اليهودية في ساوث كارولينا وإسرائيل جونز رئيس الجماعة في موبيل (ألاباما) من تجار العبيد في عام ١٨٥٠ . وقد استمر التجار اليهود مشاركين في تجارة الرقيق حتى نهاية الحرب الأهلية الأمريكية .

وقد أبقى بعض اليهود البيض محظيات سوداوات وعاشروهن جنسياً ، وهذا يعني وجود يهود سود . ولكن من الصعب تحديد عددهم ، خصوصاً أن المؤسسات الدينية اليهودية كانت ترفض السماح للسود بالانتماء إليها . كما أن الأسياد اليهود لم يلقنوا عبيدهم الديانة اليهودية . ومع هذا ، يدَّعي العبرانيون السود أنهم من نسل هؤلاء . وأثناء الحرب الأهلية في الولايات المتحدة ، لم يكن لأعضاء الجماعة اليهودية موقف مستقل عن المناطق الجغرافية



التي كانوا يعيشون فيها ، فتَبنَّى يهود الشمال موقفاً رافضاً لتجارة الرقيق ، وتَبنَّى يهود الجنوب موقفاً مؤيداً لها ، بينما تَبنَّى كثير من يهود الولايات الوسط المجاورة للولايات الجنوبية موقفاً محايداً .

ومع هذا ، لم يلعب أعضاء الجماعة اليهودية بشكلٍ عام دوراً ملحوظاً في حركة تحرير العبيد أو التحريض ضدها ، أو في حركة تهريب العبيد من الجنوب إلى الشمال .



٣
أقنان ويهود البلاط

أقنان البلاط ـ يهود البلاط ـ حسداي بن شفروط ـ يعقوب ابن كلس ـ سليمان ابن صادوق ـ تيكا ـ عائلة ابن شوشان ـ عائلة عطار ـ شيشيت بنفنيستي ـ أبراهام بنفنيستي ـ دونا جراسيا ـ أبنايس ـ بالاشي ـ باسيفي الترويبنبرجي ـ أوبنهايمر ـ فرتايمر ـ ليمان ـ بن وايش ـ هامبرو ـ عائلة بليخرودر ـ عائلة سبير ـ مماليك مالية

أقنان البلاط

Servi Camerae Regis; Kammerknechtschaft; Serfs of the Royal Chamber

«أقنان البلاط» أو «أقنان الخزانة الملكية» تعبير شاع في العصور الوسطى في الغرب، وهو ترجمة العبارة اللاتينية «سرفي كاميراي ريجيس servi camerae regis» وتعني حرفياً «أقنان أو عبيد الغرفة أو الخزانة الملكية». وقد ورد هذا التعبير بأشكال مختلفة، في نحو: «سرفي كاميراي نوستراي سب إمبريالي بروتكتيوني servi camerae nostrae sub imperiale protectione» وتعني «أقنان بلاطنا الموضوعين تحت الحماية الإمبراطورية»، أو «سرفي كاميراي إمبراتوريس إسبسياليس servi camerae imperatoris speciales» وتعني «أقنان البلاط الإمبراطوري الخاصون». وهي بالألمانية «كاميركنختشافت Kammerknechtschaft». والعبارة تُستخدَم لوصف وضع اليهود داخل النظام الإقطاعي الغربي في العصور الوسطى كجماعة وظيفية وسيطة في الغرب، وبخاصة بعد حروب الفرنجة. وكان المصطلح يعني عدة أشياء قد تبدو متناقضة:

١ ـ أن اليهود عبيد الملك أو الإمبراطور أو النبلاء. وهو أمر اختلف باختلاف الفترة الزمنية أو الرقعة الجغرافية.

٢ ـ أنهم ملكية خاصة للملك وحده.

٣ ـ أنهم، لذلك، يتمتعون بحمايته.

٤ ـ و يتمتعون بمزايا خاصة.

٥ ـ وأن أية سلطة غير البلاط الملكي لا يمكنها أن تتعرض لهم.

وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يُعَدُّون غرباء. وحسب القانون (العرف) الألماني، فإن الغريب يتبع الملك ويُوضَع تحت حمايته ويُصبح من أقنانه. ومن هنا، كان لابد أن يستند وجودهم إلى مواثيق خاصة تمنحهم حقوقاً ومزايا معيَّنة نظير اضطلاعهم بوظائف محدَّدة. ومن ناحية الأساس، كانت هذه الوظائف هي التجارة والربا وجمع الضرائب.

ويعود المفهوم (دون المصطلح) إلى أيام شارلمان ولويس التقيّ في القرن التاسع الميلادي حيث منحا اليهود المواثيق. ولكن المصطلح نفسه استُخدم لأول مرة في القرن الثاني عشر الميلادي في مرسوم الإمبراطور فريدريك الأول الصادر في عام ١١٥٧، والذي أكده في عام ١١٨٢. وقد صدر مرسوم ملكي فرنسي عام ١٢٣٠ جاءت فيه إشارة لليهود باعتبارهم من الرقيق بحيث إذا هرب يهودي من مقاطعة أحد البارونات لمقاطعة أخرى فإن من حق البارون أن يسترده «كما لو كان أحد أرقائه» (باللاتينية: تانكوام بروبريوم سيرفيوم tanquam proprium servium). وقد استخدم فريدريك الثاني المصطلح نفسه عام ١٢٣٦ للإشارة إلى كل يهود ألمانيا. ويشير المؤرخون إلى أن أسطورة الشرعية (التي يستند إليها المفهوم) تذهب إلى أن الإمبراطورين الرومانيين فسبسيان وتيتوس قاما عند سقوط القدس باستعباد الشعب اليهودي بعد الهزيمة التي حاقت به عام ٧٠ ميلادية. فأثناء حصار تيتوس للقدس، حسبما جاء في الأسطورة، كان المؤرخ يوسيفوس فلافيوس يقوم بإطعام اليهود على نفقته. وقد مات ثُلثهم جوعاً، وقُتل الثُلث الآخر أثناء الحرب، أما الثُلث الباقي فقد باعهم فلافيوس «للملك» (أي الإمبراطور) تيتوس. وقد زعم أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة (وريثة الإمبراطورية الرومانية) أنهم ورثوا هذا الحق وأن ضريبة اليهود (فيسكوس جودايكوس) هي أيضاً علامة على هذه التبعية.

ويعني مفهوم أقنان البلاط أن أعضاء الجماعات اليهودية، من خلال تبعيتهم المباشرة للملك، يقعون خارج نطاق العلاقات الإقطاعية، وأنهم بذلك أصبحوا جزءاً من الطبقة الحاكمة أو على الأقل أداة في يدها. ولم يكن اليهود ملكية خاصة للملك أو لغيره بالمعنى المجازي، كما قد يتبادر للذهن لأول وهلة، فقد كانوا ملكية خاصة بالمعنى الحرفي كالعبيد أو المماليك. وتعني كلمة «سرفوس servus» اللاتينية «الخادم» أو «العبد» أو «القن». وقد عبَّر قانون إسبانيا الشمالية عن المفهوم حين نص على أن اليهود "عبيد الملك،

وهم دائماً ملك الخزينة الملكية". وفي قانون آخر، يُشار إلى اليهود بأنهم "رجال الملك، يرثهم من يرث العرش". ويستخدم ميثاق ثالث اصطلاحات مثل: «جودايوس هابيري judaeos habere» أي «حق امتلاك اليهود» أو «جودايوس تنيري judaeos tenere» أي «حق الاحتفاظ باليهود» بل وعبارة «جوديي نوستري judei nostri» أي «يهودنا». وقد ورد نص، في أحد القوانين الصادرة في إنجلترا في القرن الثاني عشر الميلادي، يوضح هذا المفهوم تماماً، جاء فيه ما يلي: «كل اليهود حيثما كانوا في المملكة هم موالي الملك وتحت وصايته وحمايته، ولا يستطيع أيٌّ منهم أن يضع نفسه تحت حماية أي شخص قوي دون رخصة بذلك من الملك؛ لأن اليهود أنفسهم وكل منقولاتهم ملْك للملك («تشاتيل chattel»). ولذلك، إن قام أي فرد باحتجازهم أو احتجاز أموالهم فإن من حق الملك، متى شاء واستطاع، أن يطالب بهم باعتبارهم حقاً خالصاً له».

وكان يتم شراء أعضاء الجماعات اليهودية وبيعهم ورهنهم وكأنهم أشياء ثمينة. وفي ألمانيا، أهدى أحد النبلاء عام ١٣٠٠ لأسقف مدينة ميتز كل يهود فرانكفورت. وأحياناً، كان يتم إهداء يهودي واحد إلى صديق معوز، على نحو ما حدث حينما قام إدمون برجندي عام ١١٩٧ بمنح يهودي مع أسرته إلى رجل يدعى فيجيير. وفي عام ١٠٩٨، قدم الملك بدرو (ملك أراجون) نصف الضرائب التي جمعها يهود إحدى المدن التابعة له هديةً لإحدى الكنائس. وكان من الممكن أن يقوم مالك اليهود برهنهم، وقد منح هنري الثالث يهوداً لابنه إدوارد الذي قام برهن اليهود لدى أعدائهم المرابين الكوهارسين. وحينما منح هنرى الثالث (عام ١٢٥٦) القلعة وما حولها من أرض إلى جي دي روكفور، استثنى من ذلك غابة كنجزوود ويهود المدينة. أما ثيوبولد الشامباني، فقد استثنَى من منحة قدَّمها إلى إحدى المدن الأشياء التالية: الكنائس والفرسان والموالي واليهود.

ولأن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا سلعة ثمينة، أمَر هنري الثالث ملك إنجلترا موظفي الحدود التابعين له بفتح الحدود أمام اليهود والترحيب بهم، ولكنه أمر في الوقت نفسه بحظر خروجهم منها. وفي عام ١٢٥٤، قابله وفد من اليهود وطلبوا إليه السماح لهم بمغادرة البلد، ولكنه رفض طلبهم وهددهم بأن من يُضبَط وهو يغادر البلد سيُعاقَب أشد العقاب. كما منعت بلدان وسط أوربا اليهود من مغادرتها حينما سمع هؤلاء بالمعاملة الجيدة التي يلقاها يهود الدولة العثمانية وعقدوا العزم على الرحيل. وفي عام ١٢٣٥، فرَّ يهودي من إنجلترا ومعه أسهمه التجارية، وحينما تم ضبطه قدمه هنري الثالث للمحاكمة بدعوى أنه «سرق ممتلكاتنا»، أي اليهودي نفسه والأسهم. وإذا قُتل يهودي أو أُلحق به الأذى لا تُدفَع ديته أو التعويض عنه لأهله وإنما كانت تُدفَع للملك (شارلمان، مثلاً) باعتباره مالك اليهود. وفي إسبانيا المسيحية، كان من حق المحاكم اليهودية أن تصدر حكمها بالإعدام على أي يهودي، وأن تقوم بتنفيذ الحكم عليه ولكن بعد أن تدفع ثمنه للملك. وإن ألحقت إحدى المدن الأذى باليهود، كان عليها دفع غرامة للإمبراطور. وكان الملك يتدخل بكل قوته لحماية اليهود، فحينما فرض الأسقف فيليب في كولونيا غرامة على اليهود (عام ١١٨٨)، عاقبه فريدريك الأول على فعلته هذه. كما تدخَّل فريدريك الأول بنفسه لحماية اليهود من الغضب الشعبي عليهم. وحينما جردت الحملة الثالثة من حروب الفرنجة، هدد فريدريك بقطع ذراع كل من يؤذي يهودياً وبإعدام كل من يقتل يهودياً لأنهم ملْكه الخاص.

وكان بوسع من ليس لديه يهود أن يقتنيهم وأن يحصل على المواثيق الإمبراطورية التي تخول له ذلك. ففي عام ١٣٨٥، قامت مدن مقاطعة سوابيا بشراء اليهود المقيمين فيها من الإمبراطور حتى يتسنى للمدينة استغلالهم أو استثمارهم بنفسها.

وفي عام ١٤٣٢، أعلن دوق ورتمبرج، كنوع من إغراء اليهود، أنه منحهم حقوقهم المدنية، ولكنه سحبها منهم بعد وصولهم. وكانت بعض المدن تشتري اليهود المقيمين فيها من الإمبراطور حتى يمكنها طردهم والتخلص من منافستهم. وكان من حق الملك أن يتصرف بشكل مطلق في أملاك اليهود، فكان أحياناً يهدي كل ممتلكاتهم إلى أحد أصدقائه دون أن يكلف نفسه عناء إخبارهم. وكان التصرف في ملكية اليهود الذين يموتون أو يُقتَلون أمراً سهلاً للغاية، ففي عام ١٣٤٩ أهدى الإمبراطور تشارلز الخامس أسقف ترير كل بضائع يهود الألزاس واللورين «ممن قُتلوا وممن سيُقتَلون»، وقدَّم إلى آخر «أحسن ثلاثة بيوت يختارها عند وقوع المذبحة التالية ضد اليهود».

وكانت حماية الإمبراطور لليهود تمتد لتشمل حرية الحركة وإعفاءهم من كل القيود التي كانت تعوق التنقل والتجارة، كما كانت تشمل مزايا ضخمة تضعهم في مرتبة أعلى من كل طبقات المجتمع المسيحي في العصور الوسطى ربما باستثناء النبلاء، وكانت هناك حالات يتساوى فيها اليهود مع كبار النبلاء.

وحتى لا يتوهم القارئ أن هذا وضع فريد أو شاذ ومقصور على اليهود، يجب أن نشير إلى أن هذه الظاهرة تتكرر في كثير من المجتمعات البشرية القديمة والحديثة. فالمماليك والخصيان كانوا

ملكية خاصة إما للدولة أو للسلطان . وفي نظام الأقنان ، كانت الأرض ومن عليها ملكية للإقطاعي وتؤول لورثته . بل إن ثمة وضعاً مماثلاً في الدولة الصهيونية ، فالجندي الإسرائيلي الذي يحاول الانتحار ويفشل يُحاكم بتهمة إتلاف ممتلكات الدولة إذ أن الجندي يُعتبَر ملكية للدولة .

وقد أدَّت الحماية والمزايا إلى تحويل اليهود إلى جماعة وظيفية مالية نشطة تساعد في تحويل الثروة الطبيعية للدولة إلى نقود . كما أصبحوا وسيلة لزيادة دخل الأفراد وريع الدولة ، فاليهود ، بوصفهم أقنان بلاط ، كانوا خاضعين تماماً للملك أو لمن يمتلكهم ، إذ كان يفرض عليهم ما يشاء من ضرائب . وفي العادة ، كانت تُفرَض عليهم ضرائب أعلى من تلك التي كانت تُفرَض على التجار المسيحيين . وكان شارلمان يأخذ عُشر أرباح التجار اليهود في حين أنه لم يكن يحصل إلا على جزء واحد من بين كل أحد عشر جزءاً من أرباح التجار المسيحيين . وكان اليهود يشترون المواثيق والمزايا من الملك فتتحقق له الأرباح بهذه الطريقة . كما أن رأس مالهم ذاته كان ملكاً للملك ، وهو الذي كان يحدد سعر فائدة القرض . وكان الملك يصرح لهم أحياناً بفائدة أعلى مما هو مصرح به للمرابي المسيحي ، وذلك لأن ثروة اليهود كانت دائماً تصب ، في نهاية الأمر ، في الخزانة الملكية . وبعبارة أخرى ، كان اليهود مجرد أداة في يد الحاكم يمكنه عن طريقها استغلال سائر طبقات المجتمع . فكان اليهودي يمتص الثروات والأموال من المجتمع ، ثم يقوم الملك بعد ذلك باعتصاره عن طريق الضرائب الباهظة وبيع المواثيق والمزايا له . ومن هنا تشبيه أعضاء الجماعات اليهودية بـ «الإسفنجة» التي تمتص الماء ثم تفقده بالضغط عليها . واليهودي ، بهذا المعنى ، مملوك تستخدمه السلطة لقمع الجماهير . وأداة الاستغلال التي يستخدمها المملوك ، كفرد في جماعة وظيفية قتالية ، هي سيفه . أما أداة الاستغلال التي يستخدمها اليهودي ، فهي رأس المال الربوي . وإذا كان المملوك المقاتل يُريق دم أعدائه بسيفه حتى تستمر السلطة في الاستيلاء على الثروات والأموال ، فإن اليهودي يمتص المال والثروات مباشرةً من رأس المال ، ومن هنا تأتي إشارتنا لليهود بمصطلح «المماليك التجارية» .

وقد أدَّى وضع اليهود بوصفهم أقنان بلاط ، أي أداة في يد الطبقة الحاكمة ، إلى عزلتهم عن بقية طبقات المجتمع ، إذ كانوا في حالة صراع مع قطاعات من طبقة النبلاء والبارونات بسبب علاقتهم الفريدة بالملك ، وبسبب الفائدة التي تعود عليه منهم . وكان الحِرَفيّون أيضاً يناصبون اليهود العداء ، إذ كانت لهم نقاباتهم الخاصة التي تقوم بتجنيد الأعضاء الجدد ونقل أسرار المهنة من جيل إلى جيل ، وكان العنصر اليهودي يشكل تحدياً لهذا الاحتكار . كما كان الفلاحون وأعضاء الطبقات الأخرى يسقطون ضحية المرابي اليهودي الذي يبسط الملك حمايته عليه .

لكن سكان المدن كانوا أكثر الطبقات عداءً لليهود . فالمدن ، نواة الاقتصاد والتجارة في المجتمعات الإقطاعية ، كانت تحاول قدر طاقتها أن تنهض وتطور قوتها الذاتية عن طريق احتكار التجارة وتنظيمها من خلال البلدية . وكانت التجارة اليهودية التي لا تقع داخل شبكة نفوذها تتحدى هذا الحصار . كما أن هذه التجارة ، باعتبارها خاضعة للملك وحده ، كانت تهدد عملية التراكم الرأسمالي . وعلاوة على ذلك ، كانت لليهود اتصالاتهم الدولية التي لم يكن للتجار المحليين مثلها في بداية الأمر . وكما بيَّنا ، خضع اليهود لنظام ضريبي مختلف ، فكانوا في بعض الأحيان لا يدفعون ضرائب المرور التي شكلت عقبة أساسية أمام التجارة في العصور الوسطى الإقطاعية . بل كثيراً ما كان الملك يستخدم العناصر البورجوازية اليهودية المُستَجْلَبة من خارج المجتمع أو التي على علاقة خاصة لضرب العناصر البورجوازية المسيحية .

وتمكن رؤية ظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى في إطار وضع اليهود كأقنان بلاط ، وذلك باعتبارها ضرباً من ضروب الثورة الشعبية ضد الاستغلال . فالجماهير لم تكن تفهم آليات الاستغلال الاقتصادي وطابعها المركب ومستوياتها المباشرة وغير المباشرة ، لأنها لم تكن تدرك سوى أداة الاستغلال الملموسة والموجودة أمامها ، وكانت هذه الأداة هي اليهود : أقنان البلاط الذين يستخدمهم الملك ويقوم بحمايتهم . ولذلك ، كانت الثورة ضد اليهود تندلع في حالة ضعف السلطة أو تَزايُد الاستغلال على معدله المحتمل أو عند غياب الملك في إحدى حملات الفرنجة .

وقد نجم عن وضع اليهود كأقنان بلاط ارتباطهم الشديد بالسلطة ، وهو ارتباط استمر حتى يومنا هذا . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، ظهرت جماعة وظيفية وسيطة أخرى هي يهود البلاط الذين قاموا بخدمة الملكيات المطلقة في وسط أوربا وشرقها في الأمور المالية والتجارية والدبلوماسية ، كما قاموا بتوفير الاعتمادات اللازمة لتمويل الحروب التي لم تكن تنتهي بين الأمراء والملوك .

وفي بولندا ، التي كانت تضم أكبر تَجمُّع يهودي ، والتي جاءت منها الأغلبية الساحقة من يهود العالم ، لعب اليهود شكلاً آخر من أشكال الوساطة من خلال نظام الأرندا ، فكانوا الوكلاء

المالين للنبلاء البولنديين ، حيث كان النبيل يقيم في وارسو ويرسل وكيله اليهودي مع القوات البولندية ليقوم باعتصار الفلاحين الأوكرانيين . وقد جاءت معظم القيادات الصهيونية البولندية من داخل هذا التشكيل الحضاري الذي يلعب فيه أعضاء الجماعة دور أداة الاستغلال المباشرة والمنبوذة التي تمثل الحاكم وتعتمد عليه .

ومن أهم الآثار الأخرى لوضع اليهود كأقنان بلاط أن اليهودي تمت حوسلته فتحوَّل إلى أداة ووسيلة وليس غاية . ومع ظهور الفلسفة النفعية في الغرب ، تعمَّق هذا الاتجاه ونُوقشت مسألة إعتاق اليهود في إطار مدى نفعهم . ويبدو أن أهم آثار وضع اليهود كأقنان بلاط أنهم ظلوا خارج إطار التشكيلات السياسية البورجوازية القومية ، فكانوا يُطرَدون حين تختفي الحاجة إليهم . وفي بولندا ، لم يكن اليهود خارج التشكيل السياسي والاقتصادي وحسب وإنما كانوا خارج التشكيل الحضاري ذاته ، وذلك لأنهم كانوا يتحدثون اليديشية ، كما أن المسيحية الكاثوليكية هي أحد الأبعاد الأساسية للهوية البولندية مقابل الهوية الروسية الأرثوذكسية . ولذا ، حينما ظهرت الحركة القومية البولندية ، استُبعد اليهود منها ، بالإضافة إلى أنهم ظلوا هم أنفسهم بمنأى عنها ينظرون إليها من الخارج ، ولذلك لم يمكن دمجهم داخل هذا الإطار . بل إن العناصر البولندية لم تكن تثق كثيراً في العناصر اليهودية أثناء حركة المقاومة ضد النازي بسبب تراثها الطويل في الاقتراب من السلطة والقوى الحاكمة وبسبب عزلتها عن القوى الشعبية .

وإذا قبلنا مقولة أن اليهود ، بوصفهم أقنان بلاط ، كانوا يشكلون في واقع الأمر ما يشبه المماليك التجارية ، لأمكننا فهم ثورة شميلنكي في أوكرانيا ضدهم ، فقد كانت ثورة تجتث الجماعات اليهودية الواحدة تلو الأخرى (باعتبارها جماعات غريبة أو أدوات استغلال طفيلية دخيلة تماماً) كما اجتث محمد علي المماليك في مذبحة القلعة ليبدأ عملية التحديث .

ونحن نعقد هذه المقارنة بين شميلنكي ومحمد علي من جهة ، وبين اليهود والمماليك من جهة أخرى ، لا لتسويغ عملية الذبح كوسيلة للتغيير ولكن لمحاولة فهم طبيعة وضع أعضاء الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي .

ولا نجد تفسيراً لظهور مفهوم أقنان البلاط في الحضارة الغربية إلا أن المجتمع الغربي الوسيط كان مجتمعاً عضوياً متماسكاً بمعنى الكلمة ، على الرغم من لا مركزية الإقطاع الغربي ، فضلاً عن تداخل السلطة الدنيوية والسلطة الدينية فيه على عكس ما يُقال ، واستناد الشرعية إلى الدين المسيحي ، ومن هنا كان قسم الولاء المسيحي أساساً للانتماء إلى النظام الإقطاعي سواء أكان الشخص نبيلاً محارباً أم حرَفياً أو تاجراً أو فلاحاً . وكانت الجماعات القروية المنغلقة تدور حول طقوس الكنيسة ويرأسها النبيل والقس ، وكلاهما ضمن الدائرة المسيحية .

لكل هذا ، كان لابد من البحث لليهود عن مسوِّغ للوجود خارج هذا الإطار ، وأن يكون المسوِّغ غير مسيحي ، حيث كانت ملكية الملوك (ورثة الإمبراطورية الرومانية الوثنية) لهم تُبقي اليهود خارج الانتماء المسيحي .

ويبدو أن الحركة الصهيونية هي نتاج هذا التراث الغربي القديم ، فالصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ترى اليهود فائضاً بشرياً هامشياً في أوربا يمكن تحويله إلى عنصر نافع منتج وتوظيفه لصالحها خارج حدودها . كما أن تحويلهم إلى مستوطنين يقومون على خدمة الاستعمار والقتال دفاعاً عن مصالحه يُعتبَر جزءاً من هذا النفع . ولكن هذا الاستيطان لا يعني سوى تحول الجماعة الوظيفية المالية إلى جماعة وظيفية قتالية ، أي أن أقنان البلاط الملكي الذين كانوا يضطلعون بوظيفة مالية قد تحوَّلوا إلى أقنان البلاط الإمبريالي الذين يضطلعون بوظيفة قتالية .

يهـــــود البـــــلاط

Court Jews; Hofjuden

«يهود البلاط» هم وكلاء الحكام ومستشاروهم في الأمور التجارية والمالية في العالم الغربي، وهم من أهم الجماعات الوظيفية الوسيطة في عصر الملكيات المطلقة في أوربا، خصوصاً في وسطها في القرن السابع عشر . وقد ظهرت حاجة الأمراء الألمان إلى يهود البلاط لملء الفراغ الذي خلقه تَفتُّت الطبقة الوسطى الألمانية (التي كانت قد وصلت إلى قدر عال من القوة قبل ذلك، ولكنها تفتَّتت إلى بورجوازيات صغيرة تقطن في مدن صغيرة) . وزادت العوائق الإقطاعية وتآكل جهاز الدولة الألمانية ذاته من هذه الحاجة . ومع قيام الإمارات الألمانية، حاول كل أمير على حدة أن يطور إمارته . ولكن الطبقات والنقابات الإقطاعية التقليدية كانت تقف حجر عثرة أمام سعي الأمير إلى فرض هيمنته وهيمنة الدولة على كل رعاياه وكل نواحي حياتهم (وهذا هو هدف الدولة القومية الحديثة) . كما كان الأمير يحتاج إلى رأس مال لتنمية دولته أو إمارته وتنظيم إدارتها، أي أنه كان في حاجة إلى أدوات إنتاج وإدارة . وقد ظهر يهود البلاط ليملأوا هذه الفجوة وليصبحوا أداة إنتاج وأداة إدارة . وكان يهود البلاط مُرَشَّحين لهذا ، أكثر من أية مادة بشرية أخرى ، لعدة أسباب :

١ ـ كان يهود البلاط يمتلكون رأس المال اللازم لعملية التنمية ، كما كانوا جزءاً من شبكة مالية ضخمة تُسهّل لهم عملية اقتراض الأموال المطلوبة .

٢ ـ كان لدى يهود البلاط الخبرة الإدارية اللازمة لإدارة الإمارات الجديدة .

٣ ـ لم يكن يهود البلاط يتمتعون بأية حقوق ، سواء حقوق مواطني المدينة أو حقوق أعضاء نقابات الحرَفيين أو الطبقات والفئات الإقطاعية .

٤ ـ لم يكن هناك مؤسسة ، مثل الكنيسة ، تحميهم وتضعهم تحت رعايتها .

٥ ـ كان يهودي البلاط يعيش في عالمين ، هو في كليهما غريب ، فهو يهودي في المجتمع المسيحي ، ولكنه في الوقت نفسه غريب عن جماعته اليهودية إلى حدّ ما ، فهو في غربة مزدوجة وليست له أية قاعدة جماهيرية أو أساس للقوة .

٦ ـ لم يكن من الممكن أن يرث أبناء يهودي البلاط مكانته كما هو الحلل مع الأرستقراطية ، بل لم يكن بمقدورهم أحياناً أن يرثوا ثروته ، إذ كان الأمير يقوم بمصادرتها . وهذا يعني أن يهودي البلاط لم يكن بمقدوره مراكمة القوة .

٧ ـ كانت كل حقوق يهودي البلاط منحة من الأمير يخلعها عليه حين يشاء ويحجبها عنه حين يقرر ذلك .

لكل ما تقدَّم كان يهود البلاط رجالاً هامشيين لا حقوق لهم ولا أساس من القوة ولا أمل لهم في الحصول عليها . وهم في هذا يشبهون الخصيان ، وكما وصفهم أحد الكُتَّاب فهم خصيان غير مخصيين . ومن ثم فهم لا يهدِّدون الأمير من ناحية ، كما أنهم يشكلون أداته الإنتاجية والإدارية ذات الكفاءة المطلوبة من ناحية أخرى .

وقد كان أول ظهور ليهود البلاط في إسبانيا عام ١٤٩٢ . كما يمكن القول بأن بعض كبار التجار اليهود السفارد في هولندا ، ممن كانوا يعملون وكلاء لبعض الدول ، هم أيضاً من يهود البلاط . وكذلك بعض كبار المموِّلين اليهود في بولندا من يهود الأرندا (مثل موسى ماركوفيتش الذي كانت له معاملات واسعة مع البلاط والوزراء والنبلاء في أوائل القرن السابع عشر) . ولكن المصطلح ، بالمعنى الدقيق ، يُستخدَم في التاريخ الاقتصادي لأوربا للإشارة إلى وكلاء الحاكم في عدد من إمارات وسط وشرق أوربا في الفترة من بداية القرن السابع عشر حتى بداية القرن التاسع عشر . وقد استفاد يهود البلاط أيما استفادة من حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) وظل نفوذهم في التصاعد ووصل إلى قمته مع توقيع معاهدة أوترخت (١٧١٣) ، وكان مركز نشاطهم ألمانيا والنمسا وهولندا ، ولكنه امتد إلى إسبانيا والبرتغال والدنمارك وبولندا . وكان يهود البلاط يعيشون أحياناً خارج الدول التي يخدمونها ، ويعمل الواحد منهم وكيلاً لعدة أمراء أو دويلات في آن واحد .

وقد ساعد يهود البلاط الملك أو الأمير الذي يقومون على خدمته في التخلص من قبضة الأمراء الحديدية وفي بسط نفوذه على أرجاء مملكته من خلال قوته الاقتصادية . وليس من قبيل الصدفة أن هذا النمط انتشر بعد عصر النهضة مباشرة ، وهو العصر الذي بدأ فيه الانتقال (في أوربا) من النمط الإقطاعي في الإنتاج والإدارة وتنظيم المجتمع إلى النمط الرأسمالي الحديث . وقد كان يهود البلاط ينظِّمون الشئون المالية للملك ويشرفون على دار سك النقود ، ويقومون بجمع الضرائب له ، ويشرفون على الاستيراد والتصدير ويشيِّدون المصانع التي تحتاج الدولة إليها ، ومن أهمها الصناعات الحربية مثل صناعة سبك المعادن والبارود . كما قاموا بإدخال منتجات زراعية وصناعية جديدة في البلاد التي كانوا يقومون على خدمتها بهدف زيادة موارد الدولة وتحويل ريعها الطبيعي إلى نقود . وعلاوة على ذلك ، كان يهود البلاط يزودون الحاكم بالسلع التَرفيَّة التي يحتاج إليها فيشترونها له من أسواق فرنسا أو إيطاليا أو هولندا أو الدولة العثمانية . كما كانوا يسدون احتياجاته المالية عن طريق بنوك أوربا حتى يتمكن الأمير من الإنفاق بسخاء على مظاهر التَرف اللازمة للأبهة . وكان يهود البلاط يعقدون الصفقات التجارية نيابة عن الحاكم ، ويتولون البعثات التجارية والدبلوماسية ، ويعدون له الميزانية ، ويمدون الجيوش المتحاربة بالمؤن التي كانوا يحصلون عليها من بولندا وبوهيميا ومورافيا وأوكرانيا ، ويدبرون له السلاح والذخيرة التي يحتاج إليها . ومعنى ذلك أن يهودي البلاط كان يضطلع بوظائف وزراء الخارجية والمالية والحرب ، وأحياناً رئيس المخابرات ، في وقت لم يكن يعرف التقسيم الدقيق للعمل .

وقد لعب يهود البلاط دوراً مهماً للغاية في اقتصاديات الإمارات والدويلات التي كانوا يقومون على خدمتها ، خصوصاً أثناء حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) . وذلك بسبب الشبكة التجارية اليهودية الممتدة في أرجاء العالم الغربي والعالم الإسلامي في ذلك الوقت . ففي القرن السابع عشر الميلادي ، كان هناك نظام يهود الأرندا في بولندا ، التي كانت تُعَدُّ أكبر مصدر للمنتجات الزراعية آنذاك وكان يهود الأرندا يقومون بتصديرها . كما ظهرت في الوقت نفسه الجماعة اليهودية السفاردية القوية في هولندا وغيرها

من الدول الأوربية المهمة والتي كانت تربطها صلات قوية باليهود السفارد في الدولة العثمانية . ومما وسع من نطاق هذه الشبكة أنها ضمت العديد من يهود المارانو الذين كانوا يتحركون بسهولة باعتبارهم من المسيحيين، كما أن عدداً منهم كان مسيحياً فعلاً من أسر يهودية تربطهم صلة قربى وعمل بعائلاتهم اليهودية . وكانت هذه الشبكة السفاردية الإشكنازية متعددة الجنسيات عابرة القارات ظاهرة فريدة من نوعها داخل أوربا آنذاك، فكانت تمتد من شرقها إلى غربها ومن وسطها إلى سواحلها على الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط .

وتشكل حرب الثلاثين عاماً نقطة مهمة وحاسمة في تطور الجماعات اليهودية في أوربا وازدهارها الاقتصادي ، إذ أن كثيراً من يهود البلاط راكموا الثروات أثناء هذه الحرب التي عصفت بأوربا ، فقد كانت الجيوش المتحاربة تحتاج إلى المؤن والمال في غضون فترة وجيزة ، وذلك في عالم لم تكن فيه وسائل الاتصال على درجة كبيرة من الكفاءة والسرعة . ومن هنا لعبت الجماعات اليهودية دوراً حاسماً في خدمة كل الجيوش المتحاربة ، وفي تزويدها بالقمح والماشية والأخشاب والعلف وغيرها من المؤن . وكان يهود الأرندا في بولندا يمدون يهود البلاط بالمنتجات الزراعية التي تحتاج إليها الجيوش المتحاربة ، فيقوم يهود البلاط بتوزيعها وترتيب الاعتمادات المالية اللازمة من خلال أثرياء الجماعة اليهودية في هولندا وغيرها من الجماعات . وكان بمقدورهم الحصول على السلع التَرفيَّة من يهود الشام والدولة العثمانية . كما كان يهود البلاط على استعداد دائم لشراء غنائم الجنود ـ بغض النظر عن انتمائهم ـ بأسعار مخفضة . كما أن هناك صغار التجار اليهود الذين كانوا يسيرون خلف القوات المتحاربة للمتاجرة مع الجنود .

وكانت كل الجيوش المتحاربة تحتاج إلى خدمات أعضاء الجماعات اليهودية ، ولذا لم يمسهم أي من الأطراف المتنازعة بأذى، بل كانت القوى المنتصرة تمنحهم منازل المهزومين أحياناً . ويقول المؤرخ البريطاني اليهودي إسرائيل ولفسون : « إنها حقيقة تاريخية أن يهود أوربا آنذاك استفادوا بالحرب من كل من الطرفين المتنازعين، فبينما كان يتم تمزيق ألمانيا وتدميرها كانوا هم يستفيدون ويراكمون الثروات » . ويُلاحَظ أن هذه الحقيقة صارت جزءاً من الدعاية النازية ضد اليهود ، فهم أغنياء حرب ومستفيدون منها . لكن العنصرية النازية لا تكمن في تقرير الواقعة في حد ذاتها وإنما في نزعها من سياقها التاريخي ، فقد استفاد أعضاء الجماعات اليهودية لا بسبب طبيعتهم الإنسانية الخاصة وإنما بسبب طبيعة وضعهم بوصفهم جماعة وظيفية وسيطة تلعب دوراً أساسياً ومطلوباً داخل المجتمع .

وقد استفادت الجيوش المتحاربة من اليهود بأشكال أخرى، إذ كانت تحوِّل أعضاء الجماعة إلى جواسيس وتستفيد من الشبكة التجارية في توصيل المعلومات . كما كان بوسع شبكة يهود البلاط الممتدة عبر أوربا إلى الشام والتي تملك قاعدة من صغار المموِّلين وكبار وصغار التجار الذين تربطهم علاقة وثيقة بالآلاف من صغار الباعة الجائلين الموجودين في عشرات الجيتوات ، أن تدبر أية كمية من المعادن النفيسة التي يحتاجها أحد الجيوش .

ولكن العلاقة بين يهود البلاط والأمراء كانت علاقة نفعية تماماً، فهم يستفيدون من علاقتهم بالحاكم ليحققوا الثروات ويحصلوا على المزايا . وهو بدوره يبقي عليهم بمقدار ما يستفيد من وجودهم باعتبارهم مصدراً لا ينضب للثروة ، يعتصر كميات كبيرة من أموالهم عن طريق الضرائب التي يفرضها عليهم ومن خلال الهدايا التي كان يحصل عليها منهم في مناسبة تتويجه وفي غير ذلك من المناسبات . كما أنهم كانوا يشترون منه حقوقهم وامتيازاتهم نظير أموال طائلة . وإلى جانب هذا ، كانوا يؤدون العديد من الخدمات للبلاط ، أي أنهم كانوا أداة للتاج لا تربطهم به رابطة وثيقة تتجاوز المستوى الاقتصادي النفعي . وكان كل يهودي بلاط يملأ فجوة وظيفية محدَّدة ، ويرتبط وجوده وكذلك مكانته بها ، فإن انتفى وجود الفجوة انتفى وجوده . لكل هذا ، كان الملك يتخلى عن يهود البلاط ويتخلص منهم عندما يشغل عنصر اقتصادي آخر وظيفتهم ، كأن تنشأ طبقة بورجوازية محلية ، أو يتسع نطاق رغباته بحيث لا يستطيع المموِّلون اليهود أن يفوا بحاجاته . وكان من السهل على الملوك التخلص من يهود البلاط ، بل ومن كل الجماعات اليهودية ، لأنهم لم يكونوا أصحاب رؤوس أموال ضخمة وإنما كانوا أساساً ، وبالدرجة الأولى ، عنصراً اقتصادياً إدارياً كفئاً تتبعهم شبكة اقتصادية ضخمة . ولذا ، لم يكن أعضاء الجماعة يشكلون طبقة تستغل الآخرين لحسابها ذات نفوذ وكيان مستقلين وإنما كانوا أداة استغلال تابعة وعميلة ومرتبطة بإحدى الطبقات أو القطاعات الحاكمة . كما أنهم كانوا مكروهين من الجماهير باعتبارهم أداة الاستغلال المباشرة ، ومن البورجوازية المحلية لأنهم يشكلون غريماً لها ، ومن النبلاء وكثير من أعضاء النخبة الحاكمة لأنهم أداة في يد الملك يستخدمها لتدعيم نفوذه على حسابهم . ولم يكن لأعضاء الجماعات اليهودية أية علاقة حميمة بأيٍّ من فئات المجتمع . وكثيراً ما كانت أموال يهودي البلاط تُصادَر بعد موته ، كما كان الأمير أو الملك يرفض دفع الديون التي عليه . أما الذي لم يفقد ثروته بهذه الطريقة ، فقد أدَّت التحوُّلات الاقتصادية (مثل اتساع نطاق

الرأسمالية الغربية أو تزايد ضخامة مشروعاتها أو ظهور بورجوازيات محلية قوية) إلى تهميشه أو إفلاسه ، حيث لم يكن بمقدوره الصمود في حلبة المنافسة ، وخصوصاً أن استثمارات يهود البلاط كانت دائماً مرتبطة بالدولة ولم تصبح قط مشروعاً خاصاً بمعنى الكلمة . لكل هذا ، لم يلعب يهود البلاط أو أثرياء اليهود على وجه العموم دوراً حاسماً في نشوء الرأسمالية الغربية الرشيدة .

ومع هذا ، لابد أن نقرر أن يهود البلاط بوصفهم جماعة وظيفية وسيطة كانوا أقل هامشية من أقنان البلاط والتجار والمرابين اليهود ، إذ تحركوا نحو المركز قليلاً من الناحية الوظيفية والاقتصادية والحضارية . فكان يهود البلاط يندمجون حضارياً في المجتمع الذي يعيشون فيه فيرتدون رداءً أوربياً ويسلكون سلوكاً أوربياً ويعيشون خارج الجيتو ويتمتعون بحرية الحركة ولا يدفعون أية ضرائب ، ويتمتعون بكثير من الحقوق المدنية التي لا يتمتع بها بقية أعضاء الجماعة اليهودية ، مثل حق شراء الأرض الزراعية ، أو حق ركوب عربات تجرها أربعة أو ستة أحصنة ، وهو حق كان مقصوراً أيضاً على النبلاء . كما كانوا يُمنحون ألقاباً لا تُمنَح إلا للنبلاء . وكانت مصالحهم الاقتصادية مرتبطة تماماً بمصالح الملك أو الحاكم أو الدولة ، وكثيراً ما كانت تتعارض مع مصالح الجماعات اليهودية الأخرى ، بل كان بعضهم يقف ضد هجرة اليهود إلى بلادهم ويؤلبون الملك ضد المهاجرين الجدد . وقد كان يهود البلاط واعين تماماً بالتحولات الثقافية والمالية العميقة في المجتمع الأوربي ، ولذا كانوا من أوائل العناصر التي رحبت بحركة التنوير اليهودية وشجعوا دعاتها . ويُلاحَظ أن كثيراً من أبناء يهود البلاط قد تَنصَّروا ، ربما بسبب الجو الثقافي الاندماجي الذي نشأوا فيه .

ومع هذا ، كان ليهود البلاط موقف القيادة والزعامة بين يهود البلد الذي يعيشون فيه ، ولكنها كانت قيادة مفروضة من الخارج ، من عالم الأغيار ، وتستمد شرعيتها من نجاحها فيه ، وكانت قيادتهم مطلقة حتى أن أحد يهود البلاط أصر على أن تكون كل المناصب القيادية في إحدى الجماعات اليهودية مقصورة على أفراد أسرته ، وهو أمر لم يكن شاذاً في عصر الملكيات المطلقة . وقد وصف أحدهم روتشيلد بأنه « ملك اليهود ، ويهودي الملك » وهو وصف دقيق لوضع يهود البلاط وعلاقتهم بكلٍّ من النخبة الحاكمة غير اليهودية وأعضاء الجماعة اليهودية . وكان يهود البلاط يحتفظون ببعض العادات اليهودية ، مثل اللحية ، لأن وجودهم الاقتصادي كان يتوقف على شبكة الاتصالات اليهودية . وكانوا يحاولون أحياناً الحصول لليهود على حقوقهم ويشفعون لهم عند الحاكم كوسطاء (شتدلان) . وكان أعضاء الجماعة اليهودية يتمتعون بقدر أكبر من الحماية والأمن من عامة الناس بسبب العلاقة المباشرة بين الحاكم ويهودي البلاط الذي يوفر لهم هذه الحماية .

وقد لعب يهود البلاط دور الوسيط (الفعلي والفكري) بين حضارة الأغيار واليهود ، وبذلك مهدوا لظهور حركة التنوير بين اليهود . كما أنهم كانوا دليلاً حياً على أن في وسع اليهودي أن يحقق النجاح خارج الجيتو . وقد أصبحت وظيفة يهود البلاط وراثية وتحولوا إلى أسر مالية أرستقراطية تتصارع فيما بينها على النفوذ والسلطة وأصبحوا طائفة مغلقة يتزاوج أفرادها فيما بينهم ويستبعدون اليهود العاديين . ويمكن القول بأن صورة يهودي البلاط كعبقري ساحر ، وكصاحب نفوذ يُقرض الملوك والأمراء ، قد تجذرت في الوجدان اليهودي في الغرب .

وقد انتهى دور يهود البلاط بسبب تعاظم نفوذ الدولة المطلقة في أوربا وبسبب نجاحها التدريجي في تشديد قبضتها على مواطنيها من خلال مؤسسات رشيدة تضطلع بوظائف يهود البلاط . بالإضافة إلى ظهور بورجوازيات محلية قوية تمتلك من رؤوس الأموال والخبرات الإدارية ما يفوق مثيله لدى يهود البلاط . وأخيراً كان تقسيم بولندا ضربة للشبكة التجارية التي اعتمد عليها يهود البلاط . ثم جاءت الثورة الفرنسية بجيوشها وتقسيمها أوربا إلى معسكرين متنازعين بمثابة الضربة القاصمة .

ومن أشهر أسر يهود البلاط ، أسرة ليفي وأوبنهايمر وجومبيرز ، حيث حققوا ثروات كبيرة أثناء الحرب . ويُلاحَظ أنه مع نهاية القرن الثامن عشر بدأ كثير من أبناء هذه العائلات يتحولون من يهود بلاط إلى أعضاء في الرأسمالية الرشيدة ويتنصَّرون بأعداد كبيرة ، أي يندمجون تماماً في الحضارة الغربية . ومن الأمور التي قد تكون ذات دلالة رمزية أن آخر يهود البلاط كان سولومون روتشيلد ، من عائلة روتشيلد الشهيرة التي مولت النشاط الصهيوني في بدايته وتحالفت مع الإمبريالية لإنشاء الدولة الصهيونية . وسولومون هذا هو الذي ساعد ميترنيخ زعيم الرجعية الأوربية في القرن التاسع عشر على الاختفاء بعد سقوط النظم الرجعية تحت ضغط الحركات الشعبية والثورية . ونحن نرى أن الدولة الإمبريالية حينما تنشئ علاقة قوية يُقال لها إستراتيجية مع الدولة الصهيونية ، فإنها في واقع الأمر علاقة نفعية تُوظِّف الدولة الراعية من خلالها العميل الصهيوني لصالحها ، ولذا يمكننا أن نقول إنها تشبه في كثير من الوجوه علاقة الأمراء الألمان بيهود البلاط ، وإن الدولة الصهيونية هي في واقع الأمر دولة وظيفية ، دولة يهود البلاط الإمبريالي ، إن جاز التعبير .

حسداي بن شفروط (٩١٥-١٠٥٥)

Hisdai Ibn Shaprut

هو إسحق بن عزرا بن شفروط الذي اشتهر باسم «حسداي بن شفروط» ، رئيس الجماعة اليهودية في قرطبة . جاءت أسرته من شرق الأندلس ثم استقرت في قرطبة . ودرس ابن شفروط الطب ثم دخل في خدمة الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) . ولمّا كان الخلفاء الأمويون في الأندلس يعيِّنون أطباءهم في وظائف إدارية ومالية أخرى في أحيان كثيرة ، فقد أوكل الخليفة إلى ابن شفروط مسئولية قسم المكوس الذي كان يُعَدُّ من الوظائف الإدارية العليا . كما عمل مستشاراً في الشئون الخارجية (الدبلوماسية) ، وعمل مترجماً أيضاً . ويُلاحَظ أن كل هذه الوظائف تقريباً تتطلب التعامل مع غير المسلمين ، وهي وظائف تركَّز فيها الذميون . وقد أُرسل في بعثات دبلوماسية إلى ليون عام ٩٥٦ ونافار عام ٩٥٨ . ويمكن القول بأنه بالفعل كان في منزلة وزير الخارجية والتجارة . وقد جمع ثروة طائلة من وراء ذلك .

وكان حسداي بن شفروط يهودياً مُستعرِباً ، مثل معظم أعضاء النخبة العربية اليهودية في زمانه ، فكان يتحدث العربية ويسلك سلوك أثرياء المسلمين . واتخذ شعراء يهوداً ليمدحوه نظير إغداقه العطاء عليهم .

وكان ابن شفروط ، باعتباره ممثلاً للجماعة اليهودية الجديدة في الأندلس ، وراء تأسيس الحلقة التلمودية في قرطبة ، والتي عيَّن موسى بن حنوخ (العالم التلمودي الذي اشتراه من سوق العبيد) رئيساً لها حتى يحقق الاستقلال ليهود الأندلس . وقد نجح في مسعاه إذ فاقت حلقة قرطبة في شهرتها وأهميتها الحلقات التلمودية في العراق . وقد أُطلق على حسداي اسم «ريش كلاه» ، بمعنى : رأس العرش ، وهو لقب كان الغرض منه منافسة لقب «رأس المثيبتا» ، الذي كان يُطلَق على رئيس حلقة سورا .

ويُنسَب إلى ابن شفروط أنه كتب خطاباً إلى يوسف (ملك الخزر) يصف له فيه الأندلس ويطرح عليه بعض الأسئلة الخاصة بيهود الخزر ، وقد رد الملك عليه . وقد سُمِّيت هذه الخطابات بالمراسلات الخزرية ، ولكن ثمة اختلافاً بين العلماء في مدى صدق هذه الواقعة .

يعقوب بن كلس (٩٣٠-٩٩١)

Yaqub Ibn Killis

من رجال المال والتجارة اليهود . خدم في بلاط عدد من حكام مصر . وُلد في بغداد ، ويُقال إنه سليل عائلة السموأل اليهودية التي ينتمي إليها أحد شعراء العرب المشهورين في الجاهلية .

استقر ابن كلس مع والده في مدينة الرملة في فلسطين ، واشتغل بالتجارة والأعمال المصرفية ، وعمل هناك ممثلاً للتجار الأجانب (وهي وظيفة تشبه القنصل التجاري) ، ولكنه أفلس برغم نجاح أعماله عدة سنوات . ثم ذهب إلى مصر حوالي عام ٩٦٠ ، وبعد اتصاله بوالي مصر كافور نجح في الاشتغال في مجال الإمدادات الحكومية . وعندما نفذت خزانة الدولة ، سمح له كافور بتحصيل أمواله من الضرائب المستحقة على المناطق الزراعية ، وقد أتاح له ذلك التعرف على شئون الزراعة في مصر فأصبح المستشار الاقتصادي لكافور ثم مستشاره السياسي أيضاً . وبعد تعيينه رئيساً للإدارة المالية ، اعتنق ابن كلس الإسلام وكاد أن يعيَّن وزيراً ، ولكنه واجه معارضة الوزير جعفر بن الفرات . وبعد وفاة كافور عام ٩٦٨ ، سُجن ابن كلس ولكنه نجح في الفرار وذهب إلى تونس حيث كان الفاطميون يستعدون للاستيلاء على مصر ، وقام بتشجيع المعز في خططه لغزو مصر وقدَّم له كثيراً من المعلومات المهمة عن الأوضاع بها . وبعد سقوط مصر في يد الفاطميين ، عاد ابن كلس إلى مصر وأوكلت إليه مهمة جمع الضرائب . وقد حقق ابن كلس مكانة مهمة في النظام المالي . وبعد تعيينه وزيراً عام ٩٧٧ في عهد الخليفة العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦) ، أعاد تنظيم النظام الإداري ، ولكنه أُقيل من هذا المنصب واعتُقل لمدة شهرين عام ٩٨٣ ، ثم أُعيد إلى منصبه بعد ذلك وظل محتفظاً به حتى وفاته . وقد احتفظ ابن كلس بعلاقته بأعضاء الجماعات اليهودية حتى بعد إسلامه وكان بعض مثقفي الجماعة يحضرون الصالون الثقافي الذي كان يعقده في قصره .

سليمان ابن صادوق (؟ -١٢٧٣)

Solomon Ibn Zadok

يهودي بلاط خدم في بلاط الملك ألفونسو العاشر (الحكيم) ، في قشطالة حيث أسند إليه ألفونسو القيام بعدد من المهام الدبلوماسية وبمهمة تحصيل عوائد المملكة .

وبعد وفاته ، تولى ابنه إسحق بن صادوق (أو إبراهيم إسحق - تُوفي عام ١٢٨٠) مهمة جباية ضرائب مملكة قشطالة خلال عهد ألفونسو العاشر ، كما حصل عام ١٢٧٦ على عدد من عقود الإمدادات الحكومية . وفي عام ١٢٧٨ ، كلفه ألفونسو بإرسال إمدادات مالية لجيشه المعسكر بالقرب من إحدى المدن ، ولكن هذه الإمدادات نُهبت وهي في طريقها ولم تصل إلى قوات ألفونسو التي كادت أن تَهلك

الأمر الذي دفع ألفونسو للانتقام من محصلي الضرائب فألقى القبض على ثلاثة منهم وحكم على إسحق بالإعدام شنقاً.

والأسماء العربية التي يحملها ابن صادوق وابنه تدل على أنهما كانا يتنقلان بين إسبانيا المسيحية والإسلامية ، قبل أن يتم طرد المسلمين منها . وقد قام يهود شبه جزيرة أيبريا بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة بين المعسكرين المتصارعين .

تيكا (النصف الأول من القرن الثالث عشر)

Teka

يهودي من أقنان البلاط من أصل خَزَري، كان يعمل مرابياً ووكيلاً مالياً، حيث التحق بالبلاط المجري في القرن الثالث عشر. وكان أبوه من كبار الملاك، إذ منحه ملك المجر مقاطعة ضخمة ورثها تيكا من بعده. وقد امتلك تيكا مقاطعات أخرى، ويُحتمل أن اسمه مأخوذ من اسم إحدى هذه المقاطعات. وقد عيَّنه الملك أندرو الثاني (١٢٠٥ ـ ١٢٤٥) مسئولاً عن عوائد البلاط الملكي ، ولذا يُشار إلى تيكا في الوثائق اللاتينية المعاصرة بلقب «كوميس كاميراي comes camerae» ومعناها «وكيل مالي للملك» (حرفياً: تابع أو رفيق). ويبدو أن تيكا كان مسئولاً مالياً في غاية الأهمية، إذ يظهر توقيعه على عدة اتفاقيات ومعاهدات سلام واتفاقيات مالية بين ليوبولد الرابع (١١٩٤ ـ ١٢٣٠) وأندرو الثاني (كان الضامن الوحيد لمبلغ كبير من المال اقترضه ليوبولد الرابع عام ١٢٢٥ من أندرو الثاني) . وفي عام ١٢٢٢ ، صدر مرسوم مجري (بناءً على تعليمات من الفاتيكان) يمنع اليهود والإسماعيليين (أي المسلمين والعرب) من تَقلُّد أية مناصب مالية ومن صفة النبالة في المجر، وقد وقَّع الملك القانون كارهاً ، ثم تحدَّاه بإبقاء تيكا . ولكن البابا جريجوري التاسع تدخَّل وأرغم الملك ، وابنه بيلا الرابع (١٢٤٥ ـ ١٢٧٠) من بعده ، على أن يقسم على احترام بنود الدستور الخاصة باليهود. فاضطر تيكا إلى ترك منصبه والسفر إلى النمسا حيث كان يتمتع بسمعة طيبة للغاية. وقام هناك بنشاط مالي مهم ، فعقد قرضاً عام ١٢٤٥ لمجموعة من كبار التجار في فيينا (التي كان يمتلك منزلاً فيها) . وقد نجح بيلا الرابع في التحلل من قسمه الخاص باستبعاد اليهود من الوظائف المالية وذلك بسبب احتياج أوربا للاعتمادات المالية بعد هجمات التتار. فعاد تيكا إلى المجر وأعاد الملك له بعض المقاطعات التي كان قد صادرها. وبعد الغزو التتري، اختفى تيكا تماماً . وتذهب بعض النظريات إلى أنه انسحب مع التتر أبناء عمومته ، فقد كان خَزَرياً ، من أصل تركي مثلهم .

والواقع أن قصة حياة تيكا ذات دلالات كثيرة منها :

١ ـ هو نموذج جيد لأقنان البلاط الذين كانوا يتمتعون بنفوذ واسع نظراً لقربهم من مراكز القوة ، ولكنه نفوذ لا جذور له ، ولذا كان بإمكان السلطة الحاكمة إنهاؤه في أي وقت .

٢ ـ يدل تيكا على أن يهود الخَزَر كانوا لا يزالون منتشرين في أوربا رغم القضاء على دولتهم ، وأنهم لعبوا دوراً أساسياً في تأسيس المجر. ولعل شخصية تيكا تعطي بعض الأسانيد لنظرية كوستلر الخاصة بالشتات الخَزَري .

٣ ـ تدل وقائع حياة تيكا على أن الوجدان الغربي المسيحي قد ربط بين اليهود والمسلمين (الشرقيين) ، وهو ربط له أساس في الواقع ، فمعظم يهود العالم كان متركزاً في العالم العربي الإسلامي ، ومع بداية العصور الوسطى كان نصفهم في الغرب والنصف الثاني في الشرق ، كما أن ثقافة أعضاء الجماعات اليهودية كانت متأثرة بالثقافة الإسلامية . كما أن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية أبقوا على علاقاتهم الثقافية بالعالم الإسلامي ، بل وأبقوا على علاقاتهم الفعلية . ونظراً لعدائهم للعالم المسيحي ، فقد كانوا متهمين بالعمالة للعالم الإسلامي .

عائلة ابن شوشان (القرن الثاني عشر - القرن الرابع عشر)

Ibn Shoshan Family

عائلة يهودية من طليطلة في إسبانيا تمتعت بمكانة مرموقة في الفترة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر في إسبانيا وفي عدد من الدول التي هاجر إليها أفراد العائلة بعد طرد اليهود من إسبانيا ، مثل: تركيا وتونس وفلسطين . وكان من بين أفرادها رجال المال والتجارة ويهود البلاط وعلماء الدين واللغة والشعراء والفلاسفة والأطباء ومن أهمهم :

أبو عمر يوسف (١١٣٥ ـ ١٢٠٥) الذي اتخذ لقب «الناسي» أو الأمير ، وكان صرافاً في بلاط الملك ألفونسو الثامن في قشطالة ، وتمتع بنفوذ واسع في الشئون الداخلية والخارجية ، ومُنح مقابل خدماته للدولة أملاكاً واسعة مع امتيازات الحصانة التي تسمح له بالحرية المطلقة في التصرف والحكم داخل حدود أملاكه .

أما مائير بن شوشان (القرن الثالث عشر) ، فقد وُلد في طليطلة ثم أصبح صراف الملك ألفونسو العاشر (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) . وبعد طرد المسلمين من عدد من مدن الأندلس ، مُنح مائير أملاكاً بها عامي ١٢٥٣ و١٢٦٦ . وفي عام ١٢٧٦ ، أُرسل إلى المغرب في مهمة دبلوماسية ومما يُذكَر أن المراجع العربية تشير له باعتباره وزيراً .

وكان إبراهيم بن شوشان (زوج ابنة مائير) مسئولاً عن جباية الضرائب في طليطلة خلال أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر . وخلال عهد سانشو الرابع (١٢٨٥ – ١٢٩٥) ، عمل مع مدير الشئون المالية للمملكة إبراهيم البارجيلوني ، كما عمل صرافاً للمملكة . وبعد أن تقرَّر عام ١٢٨٦ إعادة أملاك وامتيازات العرش التي فُقدت خلال الحرب الأهلية ، أُسندت إلى إبراهيم مهمة الإشراف على هذه العملية وتنفيذها وإن تم استبداله بإبراهيم البارجيلوني عام ١٢٨٧ . وخلال عهد فرديناند الرابع (١٢٩٥ ـ ١٣١٢) ، مُنح إبراهيم حق جباية الضرائب في قشطالة .

أما يعقوب بن يوسف ، فكان قاضياً شرعياً (ديان) في طليطلة خلال أوائل القرن الرابع عشر ، وكان ممن وقَّعوا عام ١٣٠٦ على قرار بحظر الدراسات العلمانية .

ومما يُذكَر أن عائلة ساسون التجارية المالية والتي ازدهرت خلال القرن التاسع عشر في الهند والصين والشرق الأقصى من نسل عائلة ابن شوشان ، ولعل كلمة «ساسون» مشتقة من كلمة «شوشان» .

عائلة عطــار (القرن السادس عشر - القرن الثامن عشر)

Attar Family

عائلة يهودية من أصول إسبانية هاجر كثير من أعضائها من إسبانيا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر واستقروا بشكل خاص في المغرب ، كما تواجدوا أيضاً في أمستردام وتركيا ثم هامبورج ولندن وكوراساو ـ وبخاصة منذ القرن السابع عشر ـ وكان أغلب حاملي اسم «ابيناتار Abenatar» أو «أبياتار Abiatar» في هذه الدول من أصل مارانى . ومن أبرز أعضاء هذه العائلة : إبراهيم (الأول) بن سولمون بن عطار (يُرجَّح أنه عاش في الفترة ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر) ، وكان شاعراً وعالماً تلمودياً وقبَّالياً ، وعاش في مدينة فاس بالمغرب . أما حاييم (الأول) بن عطار الذي عاش في الفترة نفسها ، فكان من وجهاء الجماعة في المغرب ، وقد أسَّس وترأس مدرسة تلمودية عليا (يشيفا) .

وقد عُيِّن موسى بن عطار (تُوفي حوالي عام ١٧٢٥) سكرتيراً ومستشاراً لنائب الملك في جنوب المغرب . ثم تولى منصب رئيس اليهود (النجيد) خلفاً لوالده ، كما قام بإدارة الأعمال التجارية الواسعة الخاصة بالأسرة وعُيِّن خازناً للملك مولاي إسماعيل . كما اختارته إنجلترا للتوسط بينها وبين المغرب في المفاوضات الرامية لإبرام معاهدة سلام بين البلدين والتي أُبرمت بالفعل عام ١٧٢١ .

وقد حرص موسى على أن تضم المعاهدة فقرة تنص على حق اليهود المغاربة الذين استقروا في أنحاء الإمبراطورية البريطانية في أن يُحاكَموا في محاكمهم اليهودية الخاصة . وقد وُجهت إلى موسى فيما بعد اتهامات الاختلاس ، الأمر الذي اضطره إلى دفع غرامة باهظة للملك حتى ينقذ نفسه من الإعدام . وقد خلفه شقيقه إبراهيم في منصب رئيس اليهود ، أما شقيقه الآخر يعقوب فقد عُيِّن حاكماً على ميناء تطوان . وفي أوائل القرن التاسع عشر ، عُيِّن يوسف بن عطار قنصلاً للبرتغال والدنمارك في الرباط .

شيشيت بنفنيستي (١١٣١-١٢٠٩)

Sheshet Benveneste

ماليٌ طبيبٌ عالمُ تلمود دبلوماسيٌ وشاعر إسباني يهودي . دخل في شبابه في خدمة نبيل من برشلونة ثم خدم ملكي أراجون ألفونسو الثاني ثم بدرو الثاني (من عام ١١٩٦) كطبيب ومستشار سياسي ومبعوث دبلوماسي ومترجم للعربية . وكان علمه بالعربية من أهم أسباب مكانته الرفيعة . وقد لعب بنفنيستي دوراً مهماً أيضاً في الإدارة المالية للمملكة ، كما خُصِّصت له بعض عوائد الدولة مقابل القروض التي كان يقدمها للخزينة الملكية . وتمتع بنفنيستي ، مثل سائر النبلاء في المملكة ، بالإعفاء من الضرائب وبالحصانة القانونية ، كما تلقى منحة ملكية بالامتيازات أعطته سلطة تنظيم شئون المعبد اليهودي في برشلونة . وبالإضافة إلى ذلك ، كان بنفنيستي يكتب الشعر بالعبرية ، وكان على اتصال بالعلماء المسلمين واليهود في شبه جزيرة أيبريا وكان من أشد المدافعين عن أعمال موسى بن ميمون وعن آرائه الفلسفية ، كما كانت له بعض الأعمال في الطب .

إبراهـــام بنفنيســتي (١٤٠٦-١٤٥٤)

Abraham Benveneste

من يهود البلاط في قشطالة بإسبانيا وكبير الحاخامات خلال عهد الملك جون الثاني (١٤٠٦ ـ ١٤٥٤) . عيَّنته حكومة المملكة لإعادة تنظيم شئونها المالية وأُسندت إليه مسئولية تنظيم وجباية الضرائب والرسوم الجمركية . كما قام بإمداد الجيش بالمال والحبوب وتمتع بنفوذ واسع في شئون الدولة . وفي عام ١٤٣٢ ، قام الملك بتعيين بنفنيستي كبيراً للقضاة ومراقب ضرائب للجماعة ، فأصبح يتمتع بالسلطة العليا في المسائل الدينية والتشريعية للجماعة . وفي هذا العام نفسه ، نظم بنفنيستي مؤتمراً لحاخامات الجماعة وممثليها

انتهى بإصدار عدد من اللوائح والتنظيمات الجديدة والقواعد التكميلية (تاقانوت) بغرض تنظيم التعليم الديني ودعمه وتنظيم المحاكم اليهودية وتحقيق عدالة توزيع الضرائب وحماية الجماعة من الوشاية . كما أصدر عدداً من قوانين الترف للحد من الغلو والإفراط في الملبس والاحتفالات ، ذلك الترف الذي كان من أسباب إثارة استياء السكان المسيحيين .

دونا جراسيا (منديسيا) (١٥١٠-١٥٦٩)

Donna Gracia (Mendesia)

هي جراسيا ناسي منديز ، سيدة يهودية ثرية من المارانو عُرفت بنشاطها من أجل يهود المارانو بعد طردهم من إسبانيا والبرتغال ، وتُعتبَر في الأدبيات اليهودية وبين المؤرخين من اليهود من أبرز السيدات اليهوديات خلال الـ ٢٠٠٠ سنة الماضية . وقد وُلدت في الغالب في البرتغال لأسرة بنفينيستي (وهي أسرة من يهود المارانو ذات مكانة مرموقة) ، وعُرفت باسمها المسيحي بياتريس دي لونا . وقد تزوجت جراسيا عام ١٥٢٨ من فرانسيسكو منديز (ناسي) الذي كان ينتمي أيضاً لعائلة ثرية ومرموقة من المارانو . وكان قد أسس مع أخيه ديوجو منديز تجارة للأحجار الكريمة تطورت إلى مؤسسة مالية مهمة كان لها فرع في انتورب بهولندا . وبعد وفاة زوجها في سن مبكرة (عام ١٥٣٥) ، نجحت جراسيا في ترك البرتغال سراً ومعها ابنتها وأعضاء أسرتها وكامل ثروتها ، وانتقلت إلى انتورب حيث انضمت إلى شقيق زوجها ديوجو الذي تزوَّج أختها . وقد تولت جراسيا إدارة مؤسسة منديز المالية بعد وفاة ديوجو ، إلا أنها اضطرت إلى الفرار إلى البندقية مع ابنتها وابنة أختها بعد أن حاول الإمبراطور شارل الخامس الاستيلاء على ثروتها . ولكن تم إلقاء القبض عليها والاستيلاء على ممتلكاتها بعد أن قامت أختها رينا ، والتي يبدو أنها كانت تعاني من تَسلُّط جراسيا عليها ، بإدانتها لدى السلطات باعتبارها يهودية متخفية . إلا أن ابن أخيها يوسف ناسي الذي كان من رعايا الدولة العثمانية ، نجح في الإفراج عنها بفضل علاقته الوثيقة بالسلطان العثماني وتم رد ممتلكاتها بعد ذلك بعامين . وقد استقرت جراسيا فيما بعد مع أسرتها في مدينة فرارا حيث استطاعت التخلي عن اسمها المسيحي وأصبحت تُعرف باسمها اليهودي جراسيا ناسي ، وقد استمرت في بذل جهودها في فرارا من أجل اللاجئين من المارانو .

وفي عام ١٥٥٣ ، انتقلت جراسيا إلى القسطنطينية حيث استقرت حتى آخر أيامها . وقد ارتبطت هناك بشكل وثيق مع ابن أخيها يوسف ناسي الذي تزوَّج ابنتها وتشابك نشاطها التجاري والسياسي مع نشاطه . وقد كان ليوسف ناسي مكانة ونفوذ مهمان لدى الباب العالي ، وخصوصاً في مجال السياسة الخارجية ، بفضل شبكته الواسعة من الوكلاء المنتشرين في العالم الغربي ودرايته ومعرفته الواسعة بالشئون الأوربية وبقادة أوربا . وقد أصبح قصر جراسيا على ضفاف البوسفور مركزاً للسياسة المتعلقة بالشرق الأوسط ومركزاً أيضاً للشئون اليهودية . وقد اهتمت جراسيا ببناء المؤسسات التعليمية والمعابد اليهودية في القسطنطينية وسالونيكا .

وفي الفترة من عام ١٥٥٦ إلى عام ١٥٥٧ ، حاولت جراسيا تنظيم مقاطعة يهودية لميناء أنكونا الإيطالي رداً على اعتقال عدد من يهود المارانو على يد البابا بولس الرابع تمهيداً لإحراقهم . وقد تم إخلاء سبيل الأتراك منهم ومن بينهم وكلاء جراسيا التجاريون بفضل تَدخُّل السلطان العثماني استجابةً لطلب جراسيا .

إلا أن أكثر مشاريعها شهرة كان استئجارها ، بالتعاون من ابن أخيها ، مدينة طبرية الفلسطينية من السلطان العثماني وذلك بهدف إقامة مستوطنة يهودية لتوطين اللاجئين من اليهود . ولكن من المؤكد أن جراسيا ، ومعها يوسف ناسي ، قد اهتما بتنمية المشروع تجارياً حيث أسسا مركزاً لإنتاج الحرير والصوف . وقد دعا يوسف ناسي اللاجئين اليهود في إيطاليا للاستيطان في طبرية لكن دعوته لم تلق استجابة تُذكَر . إلا أن هذا المشروع لم يُستكمل نتيجة عدة أسباب ، منها رفض سكان فلسطين من العرب له ، ونشاط خصوم يوسف ناسي في القسطنطينية ضده ، الأمر الذي دفعه إلى الابتعاد عن المشروع ، وأخيراً وفاة جراسيا عام ١٥٦٩ . وفي الدولة الصهيونية ، قررت مدينة طبرية الاحتفال بذكراها وإنشاء تمثال لها .

سليمان أبنايس (ابن عايش) (١٥٢٠-١٦٠٣)

Solomon Abenaes (Aben-Ayesh)

رجل دولة من يهود المارانو . وُلد في البرتغال تحت اسم ألفارو منديز ، وحقق ثروة من خلال استغلال مناجم الماس في الهند ، ثم عاد إلى أوربا حيث حصل على لقب فارس سانتياجو ، وعاش متنقلاً بين مدريد وفلورنسا وباريس ولندن . وعندما استولت إسبانيا على البرتغال عام ١٥٨٠ ، تَبنَّى أبنايس (أصلها بالعربية : ابن عايش) قضية دوم أنتونيو المطالب بعرش البرتغال ، وكان من أشد وأنشط مناصريه . وفي عام ١٥٨٥ ، استقر في تركيا وعاد ليُظهر يهوديته متخذاً اسم سليمان (أبنايس) . وقد نجح في اكتساب مكانة مهمة في البلاط العثماني بفضل ثرائه وعلاقاته واتصالاته الواسعة ،

وخصوصاً شبكة المعلومات المتطورة والمحكمة التي كانت تتبعه في أوربا والتي استفادت منها الدولة العثمانية خير استفادة . وقد مُنح أبنايس حق جباية عائدات الجمارك ، كما عُيِّن دوقاً لإحدى جزر بحر إيجة .

وقد كرس أبنايس مجهوداته لإقامة تَحالُف تركي بريطاني مضاد لإسبانيا تأييداً لمطالب دوم أنتونيو بعرش البرتغال . وساهم هذا التحالف بالفعل في وقف تَوسُّع القوة الإسبانية خلال أواخر القرن السادس عشر . وقد استعان أبنايس في ذلك بجماعة يهود المارانو في إنجلترا وعلى رأسهم هكتور نونييز وطبيب الملكة رودريجو لوبيز الذي كان أيضاً صهره . وقد وضع أبنايس خطة جريئة لاستيلاء دوم أنتونيو على عرش البرتغال مفادها أن يضع يده على مستعمرات البرتغال في الهند ثم يبحر على رأس قوات ضخمة للاستيلاء على البرتغال . لكن هذه الخطة لم تنجح واختلف أبنايس ودوم أنتونيو ، فتخلى أبنايس عنه ، واتهمه دوم أنتونيو بالخيانة . ودخل الاثنان في مواجهة تخللتها المكائد والمؤامرات لعب فيها بعض اليهود المنافسين لأبنايس في إستنبول دوراً كبيراً ، كما أرسل أبنايس إلى ملكة إنجلترا ممثلين عنه لتوضيح موقفه . ولم يتأثر مركزه حتى بعد اتهام صهره رودريجو لوبيز بمحاولة دس السم للملكة إليزابيث .

وقد نجح أبنايس ، عقب مجيئه إلى تركيا ، في الحصول على ولاية طبرية التي كانت ممنوحة ليوسف ناسي من قبله والذي كان أيضاً مستشاراً يهودياً في البلاط العثماني .

صمويل بالاشي (؟ -١٦١٦)

Samuel Palache

دبلوماسي مغربي يهودي ، وُلد لعائلة من اللاجئين اليهود الإسبان الذين استقروا في المغرب وحققوا مكانة مرموقة بها . كان صمويل وشقيقه يوسف من كبار المستشارين الماليين في المغرب ، وقد اختارهما سلطان المغرب للقيام بمهمة التفاوض مع ملك إسبانيا . وفي إحدى زياراتهما لإسبانيا اتهمتهما محاكم التفتيش بتشجيع المارانو على الرحيل عن إسبانيا والعودة إلى اعتناق اليهودية ، وهو ما اضطرهما إلى الاختباء في بيت السفير الفرنسي قبل أن ينجحا في الفرار من إسبانيا بعد ذلك بقليل . وفي عام ١٦٠٨ ، قام سلطان المغرب بتعيين صمويل سفيراً للمغرب في أمستردام . وقد كان صمويل أول يهودي يستقر في هولندا بشكل علني وينجح في الحصول على إذن يسمح باستيطان اليهود بها . كما انعقد أول منيان (النصاب اللازم لإقامة الصلاة اليهودية) في أمستردام في بيته ، ويُقال إنه ساهم أيضاً في بناء أول معبد يهودي في هولندا . وفي عام ١٦١٠ ، تولَّى صمويل إجراء المفاوضات التي انتهت بإبرام أول معاهدة تحالف بين دولة مسيحية (هولندا) ودولة إسلامية (المغرب) . وفي عام ١٦١٤ ، قام صمويل بإذن من السلطان المغربي بقيادة أسطول مغربي صغير واستولى على عدد من السفن الإسبانية وأخذ حمولتها الثمينة حيث كانت إسبانيا والمغرب آنذاك في حالة حرب . وفي أعقاب ذلك ، نجح السفير الإسباني لدى إنجلترا (أثناء وجود صمويل بها) في إقناع السلطات البريطانية بإلقاء القبض عليه بتهمة القرصنة وكذلك بتهمة الارتداد عن المسيحية والرجوع لاعتناق اليهودية ، وطالب السفير الإسباني بتنفيذ عقوبة الإعدام فيه . وقد أثار ذلك احتجاج هولندا والمطالبة بالإفراج عنه . وفيما بعد قُدِّم صمويل للمحاكمة ولكنه بُرِّئ حيث استند دفاعه إلى أنه رعية مغربية في خدمة السلطان المغربي وفي حالة حرب مع إسبانيا . وقد عاد صمويل بعد ذلك إلى هولندا وقام بالهجوم على سفينة إسبانية في بحر المانش والاستيلاء على حمولتها انتقاماً من إسبانيا . وتُوفي صمويل في هولندا وأُقيمت له جنازة كبيرة .

والواقع أن ارتباط يهودي مثل بالاشي بالمغرب وبالتراث المغربي الإسلامي قد يبدو غريباً في العصر الحديث ، ولكنه كان أمراً مألوفاً في الماضي ، إذ كانت أوربا تنظر إلى اليهودي باعتباره عميلاً للمسلمين العرب . بل يُقال إن جذور معاداة اليهود (أو معاداة السامية) تعود إلى هذا التوحد بين اليهود والعرب المسلمين في الوجدان الغربي .

باسيفي الترويبنيرجي (يعقوب بن صمويل) (١٥٧٠-١٦٣٤)

Bassevi of Treuenberg (Jacob ben Samuel)

من يهود البلاط في براغ ، وأول يهودي في أوربا خارج إيطاليا يُرفَع إلى طبقة النبلاء . كما كان من أبرز يهود البلاط العاملين في مجال سك العملات ، وهو مجال زادت أهميته بشكل كبير في خلال فترة حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ـ١٦٤٨) . وتُعتبَر هذه الحرب بداية تَخصُّص المموِّلين والتجار اليهود في مجال تمويل الحروب وتموين الجيوش في أوربا ، وهو ما ظل حكراً على بعض أعضاء الجماعة اليهودية لمدة قرن من الزمان ، وذلك بفضل تراثهم التجاري وخبراتهم المالية وعلاقتهم الدولية المتشعبة التي أهلتهم لمثل هذا الدور .

وقد شكل باسيفي ، بالتعاون مع أمير ليختنشتاين وولنشتاين قائد الجيوش الإمبراطورية ، اتحاداً مالياً لسك وإصدار العملات

النقدية المغشوشة ، إذ أن قيمتها الحقيقية أقل من القيمة المسكوكة عليها وذلك لسد احتياجات الإمبراطور لتمويل نفقات الحرب .

وقد قدَّم باسيفي خبراته المالية للاتحاد ، وتولى شراء الفضة اللازمة من الخارج . ومقابل خدماته للاتحاد رُفع إلى طبقة النبلاء ، وسُمح له بحرية الاتجار في جميع أنواع السلع ، وبحرية الإقامة في أي مكان ، وهو ما كان محظوراً على يهود الإمبراطورية النمساوية . إلا أن ما تَرتَّب عليه نشاط الاتحاد من خفض حاد لقيمة العملة وتزايد التضخم ، أدَّى إلى تزايد سخط الجماهير والذي انصب بصفة خاصة على باسيفي . وبعد وفاة أمير ليختنشتاين ، اتخذت السلطات إجراءات ضد أعضاء الاتحاد السابقين وتم القبض على باسيفي عام ١٦٣١ والاستيلاء على ممتلكاته . إلا أن مساعي والنشتاين نجحت في الإفراج عنه . وبعد وفاته بعامين ، اعتُبرت جميع الامتيازات التي نالها في حياته باطلة .

صمويل أوبنهايمر (١٦٣٥-١٧٠٣)
Samuel Oppenheimer

من أشهر يهود البلاط . كان يعمل متعهد مؤن وجامعاً للضرائب في إحدى الإمارات الألمانية ، ثم انتقل إلى فيينا حيث حصل على حق الإقامة الدائمة فيها وعلى امتيازات تجارية غير محدَّدة . ولذا ، سُمح له هو وتابعوه بالبقاء فيها حينما طُرد يهود فيينا عام ١٦٧٠ .

عمل أوبنهايمر مدة أربعة وعشرين عاماً بعد ذلك كيهودي بلاط ، فقام بتزويد الجيوش النمساوية والألمانية بالمؤن . واستخدم شبكة الاتصالات التجارية اليهودية بكفاءة ، وأثناء الحرب بين النمسا وفرنسا (١٦٧٣ ـ ١٦٧٩) عهد له الإمبراطور ليوبولد الأول بتزويد كل الجيش النمساوي على نهر الراين بما يحتاج إليه من مؤن . وحصل أوبنهايمر على العقد الوحيد لهذه المهمة ، فأرسل وكلاءه عبر جنوب ألمانيا للحصول على القمح وعلف الماشية وملابس الجنود ، وعلى أحصنة وبارود وذخيرة من التجار اليهود في فرانكفورت . كما اشترى سلعاً أخرى من هامبورج وأمستردام من وكيله موسى جومبيريز الذي كان من كبار المموِّلين السفارد . كما بنى كباري من الطوف (عوامات مطاطية) لنقل البنادق والأحصنة والجند .

وقد ارتبط نفوذ أوبنهايمر تماماً بحالة الحرب . ولذا ، تناقص نفوذه مؤقتاً حينما وُقِّعت اتفاقية سلام بين النمسا وفرنسا عام ١٦٧٩ ، فرفضت الخزانة النمساوية أن تدفع له ما عليها من ديون . فقدَّم التماساً إلى الإمبراطور ولكن لم يدفع له سوى جزء صغير من الديون ، ثم اتُّهم هو وحاشيته بالغش والسرقة . ولكنه اشترى براءته في نهاية الأمر ، كما استرد نفوذه مرة أخرى مع اندلاع الحرب بين النمسا وتركيا عام ١٦٨٢ . وقد قام أوبنهايمر أثناء حصار الأتراك لفيينا بتنظيم خطوط الإمداد . وبعد رفع الحصار ، عُهد إليه بتدبير المؤن لقوات النمسا المتقدمة إلى المجر . وقد وصل نفوذه إلى قمة ازدهاره إبَّان حرب التسعة أعوام (١٦٨٩ ـ ١٦٩٨) حيث تولى توريد مؤن الجيوش النمساوية التي كانت تحارب ضد الفرنسيين . ولم يقم أوبنهايمر بتوفير الضروريات وحسب ، بل إنه زود الضباط بالخمور التي يحتاجون إليها ، والجنود بالتبغ ، كما زوَّد البلاط في فيينا بالنبيذ والتوابل والمجوهرات وأردية سائقي المراكب الملكية والخدم . وقد احتكر أوبنهايمر كل عقود تزويد الجيش بالمؤن والأسلحة والذخائر ، وأصبح متعهد المؤن العسكرية الوحيد للنمسا ، وكان جزء كبير من دخل الخزانة النمساوية يُدْفَع نظير خدماته .

ومرة أخرى ، تناقص نفوذ أوبنهايمر في عام ١٦٩٨ ، عند نهاية الحرب ، ولم يعد الإمبراطور في حاجة إليه . فهاجمت الجماهير الساخطة قصره ودمرت أروقته عام ١٧٠٠ . وعند موته عام ١٧٠٣ ، كانت الخزانة الملكية مدينة له بمبالغ كبيرة ، فأعلنت الدولة أن الدين ملغي تماماً . ولكن يهود البلاط قاموا في عدة إمارات ألمانية بتحريض الأمراء للضغط على الإمبراطور لدفع الديون . وقامت هولندا بممارسة الضغط أيضاً حتى يرد الإمبراطور المبالغ التي اقترضها أوبنهايمر من أمستردام . وفي نهاية الأمر ، سويت الأمور وعُيِّن مكانه وريثه عمانوئيل أوبنهايمر ، فقام بتزويد القوات النمساوية بالمؤن خلال حرب النزاع على العرش الإسباني وبعدها . ولكنه لم يصل إلى مكانة صموئيل قط .

ويُعزَى نجاح صموئيل أوبنهايمر إلى قدراته التنظيمية وشبكة الاتصالات التي أسسها ، والتي كانت تضم مقاولين ومقاولين من الباطن وكان من بين هؤلاء يهود بلاط في إمارات مختلفة . وقد كان صموئيل متزوجاً من ابنة يهودي سفاردي من مانهايم ، وتزوَّج ابنه من ابنة ليفمان بيريز شريكه الذي كان من كبار المموِّلين . وكانت تتبع أوبنهايمر حاشية من المساعدين والوكلاء الذين كانوا موجودين في كل المراكز المالية والتجارية في أوربا ، وكان غريمه سامسون فرتايمر واحداً منهم في وقت من الأوقات .

سامسون فرتايمر (١٦٥٨-١٧٢٤)
Samson Wertheimer

يهودي بلاط ، درس في المدرسة التلمودية العليا في

فرانكفورت . تزوج من أرملة ناثان أوبنهايمر ، وبالتالي تعرَّف على صموئيل أوبنهايمر الذي عيَّنه مديراً لأعماله في فيينا ، وقدَّمه إلى ليوبولد الأول . ويُعدُّ فرتايمر أثرى يهودي في عصره . كما كان المدير المالي للأباطرة : ليوبولد الأول ، جوزيف الأول ، تشارلز الأول . ودبر فرتايمر كثيراً من الاعتمادات المطلوبة لحرب الوراثة الإسبانية والحرب ضد تركيا . وعمل وكيلاً مالياً للإمبراطور ولعدد من حكام المقاطعات الألمانية . وعند موت صموئيل أوبنهايمر عام ١٧٠٣ ، عُيِّن فرتايمر يهودي بلاط بدلاً منه ، وقد أدخل فرتايمر تحسينات على استخراج الملح كما وضع نظاماً لاحتكار تجارته في بولندا ، والتي كان يحتكرها يهود الأرندا . ونظم فرتايمر عملية نقل الملح إلى المجر وسيليزيا إلى جانب عمليات التمويل اللازمة لاستخراجه ونقله .

وكان فرتايمر يقوم بدور الوسيط بين الجماعة اليهودية والنخبة الحاكمة ، وعُيِّن حاخاماً أكبر ليهود المجر . وآلت ثروته إلى ابنه ، ولكنه أفلس عام ١٧٣٣ بعد أن رفضت بافاريا أن تدفع له ديونه ، ولكنها بعد عشرين سنة من التقاضي اعترفت بالدين . ودُفع الدَين على أقساط لأبنائه الذين تنصَّر معظمهم وصاروا أعضاء في الأرستقراطية النمساوية .

برنارد ليمان (١٦٦١-١٧٣٠)

Bernard Lehman

يهودي بلاط من ساكسونيا (ألمانيا) . كان اسمه عند مولده إسخار برمان . جذب اهتمام أوجستوس الثاني (القوي) (١٦٧٠-١٧٣٣) أمير ساكسونيا الذي كان يُخطط ليصبح ملكاً منتخباً لبولندا، فعُهِد إليه بالجانب المالي لهذا المُخطَّط ، فقام ليمان ببيع كثير من ممتلكات ساكسونيا للحصول على المبالغ المطلوبة لرشوة النواب البولنديين . وقد نجح أوجستوس في مساعيه واعتلى عرش بولندا (١٦٩٧ - ١٧٣٣) . وقد أصبح ليمان ممثلاً دبلوماسياً لأوجستوس والمسئول عن جواهره وعن دار سك النقود بل المسئول عن عشيقاته . وكان يعمل كمتعهد عسكري ، فكان يقوم بتزويد الجيش بالجراية والأسلحة . كما كان ليمان يقوم بإقراض حكام هانوفر وبرونزويك مبالغ ضخمة .

وقد زادت ثروة ليمان لدرجة أنه أصبح له بلاطه الخاص المكون من ثلاثين شخصاً من بينهم حاخام وذابح شرعي . وكان يتوسط لأعضاء الجماعات اليهودية للحصول على امتياز الاستيطان في المدن والمناطق المحظور عليهم الاستقرار فيها . وقد وقعت ضمن أملاكه بعض القرى والمدن البولندية التي حظي أعضاء الجماعة اليهودية فيها بامتيازات خاصة نتيجة ذلك . وقد تفتَّت ثروته بعد موته .

ابراهيم بن وايش (القرن السادس عشر - القرن السابع عشر)

Abraham Ben Waish

مالي يهودي مغربي اشتغل مصرفياً لدى سلطان المغرب أحمد المنصور في مراكش ثم مراقباً للمالية حتى عام ١٦٢٧ . وقد تمتع بنفوذ واسع ، ويعود له الفضل في تعيين أعضاء عائلة بالاشي اليهودية سفراء للمغرب لدى هولندا . كما كان وراء إرسال أحد أقاربه إلى البندقية عام ١٦٠٦ لشراء سلع ثمينة للحاكم . وقد عُيِّن رئيساً لليهود (نجيد) في مملكة مراكش .

وفي إطار عمله كمراقب للمالية ، أثار بن وايش احتجاجات الحكومات الأوربية بسبب تحيزه لصالح يهود إنجلترا وهولندا على حساب مسيحيي هاتين الدولتين . وقد اتُهم بالاختلاس ولكنه نجح في تبرئة نفسه .

جوزيف هامبرو (١٧٨٠-١٨٤٨)

Joseph Hambro

تاجر ومالي يهودي دنماركي ومن يهود البلاط . وقد كان والده تاجر أقمشة وحرائر . وبدأ هامبرو حياته بائعاً متجولاً في شوارع كوبنهاجن ، ثم تلقَّى تدريبه التجاري في مؤسسة تجارية في هامبورج وعاد إلى بلده ليحقق ثراءً كبيراً من خلال تجارة الجملة وتجارة جزر الهند الغربية . وقد كان هامبرو أول من أقام في الدنمارك طاحونة تعمل بالبخار . وقد عيِّن يهودي بلاط الملك الدنمارك وممثلاً للحكومة الدنماركية في المفاوضات المالية والاتفاقات التجارية مع بريطانيا والنرويج .

وقد كان هامبرو من اليهود المندمجين ، فتزوج من امرأة غير يهودية ، كما تنصَّر ابنه . وقد انتقل عام ١٨٣١ إلى لندن حيث أسس ابنه كارل (١٨٠٨ - ١٨٧٧) مؤسسة هامبروز المصرفية عام ١٨٣٩ والتي شاركت في تدبير القروض الحكومية وفي تمويل السكك الحديدية الدنماركية .

عائلة بليخرودر

Bleichroeder Family

عائلة من رجال المال الألمان من بقايا يهود البلاط في عصر الرأسمالية الرشيدة . وقد أسس صموئيل بليخرودر (١٧٧٩ -

١٨٥٥) مؤسسة بليخرودر المصرفية في برلين عام ١٨٠٣ ، والتي كانت على علاقة وثيقة ببيت روتشيلد حيث عملت كوكيل له في برلين ، وهو ما ساعد على تزايد أهميتها في السوق المالي والمصرفي ابتداءً من عشرينيات القرن التاسع عشر . وقد تولى إدارة المؤسسة ، بعد وفاة صمويل ، ابنه جرسون فون بليخرودر (١٨٢٢ ـ ١٨٩٣) الذي وصلت مؤسسة بليخرودر في ظل إدارته إلى ذروة قوتها وتحولت إلى أحد أبرز المؤسسات المالية في ألمانيا من خلال مساهمتها في تمويل الحروب وتمويل بناء السكك الحديدية . وقد كان جرسون بليخرودر يهودي بلاط فيلهلم الأول ، وكانت تربطه علاقة وثيقة بيسمارك وأصبح مستشاره المالي والسياسي أيضاً . وقد ساهم في تمويل الحرب النمساوية ـ البروسية عام ١٨٦٦ ، كما اشترك في تحديد حجم التعويضات التي كان على فرنسا دفعها في نهاية الحرب الفرنسية ـ البروسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) وساهم في تمويلها . ومع هذا فنحن نستخدم هنا مصطلح «يهود بلاط» على سبيل المجاز ، إذ أن حجم نفوذ صمويل بليخرودر صغير بالقياس لحجم الرأسمالية الألمانية ومتطلبات الدولة الألمانية ، ولذا قد يكون من الأدق إطلاق مصطلح «رأسمالي ألماني يهودي» عليه . وقد رُفع جرسون بليخرودر عام ١٨٧٢ ، وبتوصية خاصة من بسمارك ، إلى مرتبة النبلاء . وخلال مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ ، استطاع من خلال علاقته ببسمارك انتزاع بعض المكاسب والحقوق ليهود دول البلقان .

وبعد وفاة جرسون بليخرودر ، تولى أبناؤه الثلاثة ، وقد تخلوا جميعاً عن الديانة اليهودية ، إدارة مؤسسة بليخرودر . وقد كان لها نشاط مالي دولي واسع قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى ، كما شاركت في تمويل الصناعة الألمانية عقب الحرب . وقد فقدت الأسرة سيطرتها على المؤسسة في عام ١٩٣٨ بعد استيلاء السلطات النازية عليها .

عائلة سبير

Speyer Family

عائلة يهودية ألمانية وأمريكية من رجال المال والبنوك ، تعود جذورها إلى القرن السابع عشر في فرانكفورت بألمانيا .

وقد كان إسحق مايكل سبير (تُوفي عام ١٨٠٧) ، وهو من أحفاد مؤسِّس العائلة ، من يهود البلاط الإمبراطوري . وقد حققت العائلة بنهاية القرن الثامن عشر ثروة طائلة من خلال نشاطها في مجالي تمويل الجيوش والمبادلات المالية . وقد ارتبطت عائلة سبير بعائلة إليسن اليهودية المالية حينما تزوج يوسف لازاروس سبير (١٧٨٣ ـ ١٨٤٦) منها . وتجسد هذا التحالف في مؤسسة سبير إليسن المصرفية في عام ١٨١٨ والتي أصبحت عام ١٨٣٨ مؤسسة لازارد سبير أليسن المصرفية بعد تولي ابنه لازاروس يوسف سبير (١٨١٠ ـ ١٨٧٦) إدارة أعمال الأسرة . وقد تأسس فرع لبنك سبير في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٧ بعد أن انتقل الأخوان فيليب سبير (١٨١٥ـ ١٨٧١) وجوستاف سبير (١٨٢٥ ـ ١٨٨٣) إليها . كما ساهم هذا الفرع في ربط ألمانيا بصفة خاصة وأوربا بصفة عامة بالسوق الأمريكي . وقد اشترك بالتعاون مع فرع فرانكفورت في تدبير القروض الأمريكية خلال الحرب الأهلية الأمريكية .

وقد وصلت أعمال العائلة إلى ذروتها في ظل إدارة ابني جوستاف : جيمس سبير (١٨٦١ ـ ١٩٤١) الذي أدار الفرع الأمريكي ، وإدجار سبير (١٨٦٢ ـ ١٩٣٢) الذي تولى إدارة الفرع الإنجليزي . وقد ساهم الفرع الأمريكي ، في ظل إدارة جيمس ، في تمويل بناء السكك الحديدية الأمريكية والعديد من المؤسسات الصناعية الأمريكية ، إلى جانب تدبير القروض للحكومات الأجنبية ، وخصوصاً في أمريكا الجنوبية . وكانت الولايات المتحدة تشهد ، في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، توسعاً سريعاً في مؤسساتها الصناعية والتجارية ومؤسسات الخدمات العامة ، الأمر الذي خلق طلباً شديداً على رأس المال . وقد استطاع بنك سبير وغيره من البنوك الأمريكية المملوكة للعائلات اليهودية ذات الأصول الأوربية من تدبير رأس المال اللازم بكميات كبيرة وبشكل سريع نسبياً بفضل علاقتهم المتشعبة في أوربا وعلاقتهم الوثيقة فيما بينهم سواء من خلال الأعمال أو الزواج .

أما بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد اشترك بنك سبير في تدبير القروض ورأس المال الأمريكي للاستثمار في أوربا ، خصوصاً في الصناعة الألمانية . وقد تأثرت مؤسسة سبير بالأزمة المالية العالمية لعام ١٩٢٩ والتي أوقفت تَدفُّق رأس المال بين أوربا والولايات المتحدة . وتمت تصفية فرع ألمانيا عام ١٩٣٤ ، وفرع الولايات المتحدة عام ١٩٣٩ . أما فرع لندن ، فقد صُفِّي خلال الحرب العالمية الأولى بعد أن اتُّهم إدجار بالتعاطف مع ألمانيا .

مماليك مالية

Financial Mamlukes

مصطلح «مماليك مالية» مصطلح قمنا بنحته ونستخدمه لوصف أوضاع أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية ، وذلك انطلاقاً من مفهومنا التحليلي الخاص بالجماعات الوظيفية المالية .

ونحن حين نصف أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية المالية في الحضارة الغربية بأنهم «مماليك مالية» فإننا نستخدم مفهوم الجماعات الوظيفية لنربط بين أقنان البلاط ويهود البلاط وغيرهم من أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب ممن اضطلعوا بوظائف خاصة من جهة ، والمماليك من جهة أخرى ، أي أننا ربطنا الواقعة أو الظاهرة (الخاصة) التي قد تبدو فريدة داخل المجتمع الغربي بوقائع وظواهر مماثلة في مجتمعات أخرى ، ومن ثم فهي تفقد كثيراً من تفردها وإطلاقها (وليس بالضرورة خصوصيتها) ، ويظهر النمط المتكرر الكامن دون السقوط في القوانين العامة المجردة . هذه ، إذن ، محاولة للوصول إلى نمط لا يستند إلى وقائع التاريخ الغربي ولا ينطلق منها بالضرورة ، وإنما يستند إلى وقائع التاريخ الإنساني العام بما في ذلك التاريخ الغربي بالطبع . كما أنها محاولة لتعميق فهم القارئ العربي للظاهرة اليهودية في الحضارة الغربية ، فالمماليك واقع مألوف لديه ، وعن طريق ربط المألوف بغير المألوف والمعلوم بالمجهول يمكن فهم المجهول وغير المألوف . كما أن لمصطلح «مماليك» مقدرة تفسيرية عالية ، حين يُطبَّق على الظاهرة اليهودية ثم الصهيونية وأخيراً على الدولة الصهيونية .

ولنبدأ بمحاولة حصر بعض سمات الجماعات الوظيفية التي يتسم بها كل من المماليك ، باعتبارهم جماعة وظيفية قتالية ، وأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في الحضارة الغربية ، فهذه السمات هي الأرضية المشتركة بين الفريقين . وسنلاحظ أن المماليك وأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية هم جماعات وظيفية عميلة تضطلع بوظيفة متميِّزة أو مشينة أو كريهة (القتال في حالة المماليك ، والتجارة والربا وجمع الضرائب في حالة اليهود) . كما كان يتم استجلاب كل من المماليك وأعضاء الجماعات اليهودية من خارج المجتمع ، ليضطلعوا بوظيفة محدَّدة توكل إليهم ، فهم غرباء نافعون يدخل معهم المجتمع في علاقة تعاقدية محددة . وكان يتم أيضاً عزل كل من المماليك وأعضاء الجماعة اليهودية عن بقية السكان ، بل صارت العزلة الثقافية والإثنية أساس الانخراط في سلك هذه الجماعات . وهي عزلة تظهر في الأزياء التي كان يرتديها كلٌّ من المماليك وأعضاء الجماعات اليهودية ، وفي اللغة التي كانوا يتحدثون بها (اليديشية أو الشركسية أو غيرها من اللغات) ، وفي طريقة قص الشعر أو تصفيفه . وكان يتم عزل أعضاء الجماعات اليهودية في الجيتو وعزل المماليك في الثكنات العسكرية . وكان العزل يتم أصلاً لأن الانتماء العاطفي والحضاري للمجتمع المضيف يجعل من الصعب على المحارب أن يقتل من يحب ويجعل من الصعب أيضاً على التاجر أو المرابي أن يسلب ثروات من تربطه بهم علاقة قرابة ، فالاضطلاع بالمهمة القتالية أو المالية يتطلب الموضوعية والحياد اللذين يتسم بهما الغريب .

وكان أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية في الحضارة الغربية ، والمماليك في المجتمعات العربية ، يُعدّون ملكية خاصة للملك ، وكلمة «مملوك» مشتقة من كلمة «ملْك» وتشير إلى العبد المملوكي وتعني «الخادم» أو «العبد» . أما أعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى ، فكان يُشار إليهم باسم «أقنان البلاط» ، (باللاتينية : «سيرفي كاميراي ريجيس servi camerae regis») وكلمة «سيرفوس servus» اللاتينية تعني «خادم» أو «قن» أو «عبد» . وقد كان كل من المماليك وأعضاء الجماعات اليهودية قريبين من النخبة الحاكمة ، فهم أداتها في الاستغلال والقمع والغزو ، ولذا تَركَّز الفريقان في المدن . ولنا أن نلاحظ أن كلاًّ من المماليك وأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية يؤمن بأنه شعب مختار أو نخبة مختارة ، وكان الإحساس بالحرية والحتمية (أو عبث الوجود) أمراً مشتركاً بينهما . كما أن أعضاء الجماعتين كانوا يطبقون معيارين أخلاقيين مزدوجين : واحد يُطبَّق على الجماعة الوظيفية المقدَّسة ، والآخر على المجتمع المضيف المباح . وكان كل من المماليك وأعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية يمتلك أداة يجيد استخدامها أكثر من أعضاء المجتمع المضيف : السيف في حالة المماليك ، ورأس المال الربوي والخبرة التجارية والإدارية في حالة أعضاء الجماعات اليهودية . ويُلاحَظ أن المماليك وأعضاء الجماعات اليهودية كانوا محط خوف الجماهير وكراهيتها ، وأنهم سقطوا صرعى عمليات التحديث وظهور الدولة القومية الحديثة . ولعلنا لو قارنا إبادة المماليك على يد محمد علي وإبادة يهود الغرب على يد هتلر لاتُّهمنا بالمبالغة والشطط ، ولكنهما مع هذا مبالغة وشطط ينيران جوانب من الواقع .

ومع أن أحداً من الدارسين لم يستخدم اصطلاح «مماليك» لوصف وضع اليهود في الحضارة الغربية ، فإن المؤرخ الأمريكي اليهودي جيكوب أجوس اقترب كثيراً من المصطلح حين قال : « إن مكانة اليهود كغرباء كانت مهمة ، إذ أن الطبقة الحاكمة كانت تستخدمهم كما كانت تستخدم المرتزقة تماماً ، وكانت تفضلهم على الصيارفة المحليين للسبب نفسه الذي كانت من أجله تفضل المرتزقة على الفرق المحلية » .

وعلى كل حال ، يبدو أن فكرة «المماليك» كانت في ذهن المُشرِّع الغربي في العصور الوسطى مع أنه لم يستخدم المصطلح نفسه . فوضع اليهود كأقنان بلاط كان يستند إلى قصة أسطورية

متداولة تهدف إلى إضفاء شيء من الشرعية على وضع فريد داخل المجتمع الإقطاعي الغربي . وتروي القصة أنه أثناء حصار القدس عام ٦٠ ق.م ، مات ثُلث اليهود من الجوع ، وقُتل الثلث الثاني ، أما الثُلث الأخير فقد قام المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس بإطعامهم ثم بيعهم للملك (أي الإمبراطور) تيتوس بعد سقوط القدس . وقد سلمهم الأخير إلى بلاط ملوك الرومان كي يصبحوا خدماً (أقناناً) للإمبراطورية على أن يقوم الملوك الرومان بحمايتهم . وقد بُعثت في القرن الرابع عشر الجزية الرومانية القديمة تحت اسم «ضريبة المليم» (بالألمانية : «أوفربفينج Oferpfennig») دلالة على أن أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة قد ورثوا فسبسيان وتيتوس الهيمنة الكاملة على الشعب الذي هُزم واستُعبد مئات السنين من قبل .

وإذا كانت أسطورة الشرعية هذه طريفة بقدر ما هي ساذجة ، فهذا هو الحال مع معظم أساطير الشرعية . وما يهمنا هو أنها تفترض وجود علاقة مالك ومملوك بين الحاكم وأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في العصور الوسطى في الغرب . وبغض النظر عن سذاجة الأسطورة ، فإن سلوك المجتمع الغربي في العصور الوسطى كان يفترض هذه العلاقة . ففي حالة قتل أحد اليهود ، لم تكن الدّية تُدفَع لأسرة القتيل وإنما للإمبراطور أو الملك . كما كانت المواثيق تتحدث عن أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم أشياء تخص الملك ومن ميراثه ومنقولاته .

وقد أشار أجوس إلى أهم تجارب اليهود (المملوكية) في أوكرانيا . ومن المعروف أن ملوك بولندا لم ينجحوا في تجنيد البورجوازية في عملية تقليم أظافر طبقة النبلاء وتأسيس ملكية مطلقة كما حدث في باقي بلدان أوربا . بل حدث العكس ، إذ استخدم النبلاء أعضاء الجماعة اليهودية أداةً لضرب البورجوازية وإضعاف مؤسسة الملكيَّة . وحينما ضمت بولندا أوكرانيا ، اضطر النبلاء إلى إرسال أعضاء الجماعة اليهودية ليضطلعوا بدور الجماعة الوظيفية الاستيطانية المالية في إطار ما نسميه «الإقطاع الاستيطاني» ، فكان أحد أثرياء اليهود يستأجر الضيعة بكل ما عليها ويدفع مبلغاً للنبيل الإقطاعي (البولندي الكاثوليكي) ثم يقوم هو بإدارتها وتحصيل عوائدها (الأرندا) ، وعادةً ما كان يُحضر أعضاء أسرته وذوي قرابته ويعيشون في مدن صغيرة أسسها لهم النبيل الإقطاعي تُسمَّى «شتتل» . وكان للوكيل اليهودي صلاحيات تقترب من صلاحيات النبيل الإقطاعي ، كما كان يتدخل في كل النشاطات التجارية والحرفية وغيرها ليُوظفها لحسابه وليعتصر من دخل الفلاحين . فكان يفرض ضريبة على الملح وعلى المركبات وحتى على مفتاح الكنيسة ، فإن أراد الفلاحون المسيحيون الأرثوذكس فتح الكنيسة كان عليهم دفع ضريبة للوكيل اليهودي .

وكان الموقف متفجراً تماماً ، ولذا كانت تحمي الجماعة اليهودية الوظيفية الاستيطانية المالية جماعة أخرى وظيفية استيطانية قتالية هي الجيش البولندي ، أي أننا هنا أمام مثل جيد لمماليك مالية لا ينقصها سوى السيف لتصبح مماليك قتالية . بل إن ملامح تحول الجماعة الاستيطانية المالية إلى جماعة استيطانية قتالية كان قد بدأ يتضح ، ولذلك كانت المعابد تُبنَى كالحصون (ولهذا كان يُطلَق عليها «القلعة/ المعبد» [بالإنجليزية : فورتريس سيناجوج fortress synagogue) وتُفتح في جدرانها كوات لإطلاق نيران المدافع وتُنصب فوقها البنادق . وقد نص القانون على أن كل رب عائلة من عائلات يهود الأرندا يتعيَّن عليه أن يحتفظ ببنادق بعدد الذكور وثلاثة أرطال من خراطيش البارود . وقد حاربوا في نهاية الأمر إلى جوار القوات البولندية ضد شميلنكي والقوزاق . ومما يجدر ذكره أن يهود بولندا يشكلون غالبية يهود العالم ، بل هناك نظرية تذهب إلى أن جميع يهود الغرب من نسل هؤلاء لا من نسل اليهود الأصليين في معظم بلاد الغرب الذين تم استيعابهم في مجتمعاتهم .



٤
جماعات وظيفية يهودية أخرى (البغاء ـ الطب ـ الترجمة ... إلخ)

جماعات وظيفية يهودية مختلفة ـ قطاع اللذة ـ البغاء وتجارة الرقيق الأبيض ـ الطب ـ الترجمة ـ الجاسوسية اليهودية والجواسيس اليهود ـ الجواسيس من أعضاء الجماعات اليهودية ـ نيلي ـ قضية لافون ـ قضية بولارد ـ نيشان ـ فاميري ـ أمين باشا ـ رايلي ـ أزيف ـ روزنبرج

جماعات وظيفية يهودية مختلفة

Different Jewish Functional Groups

الجماعات الوظيفية القتالية، هي أهم الجماعات الوظيفية على الإطلاق. ولكن هناك أشكالاً لا حصر لها ولا عد من الجماعات الوظيفية، تختلف باختلاف احتياجات كل مجتمع ومرحلة تطوُّره وخطابه الحضاري. ومن أهمها: الجماعات التي تعمل في قطاع اللذة والطب والترجمة والجاسوسية. ورغم تنوع وظائف هذه الجماعات إلا أنها تتسم بكل أو معظم السمات التي تتسم بها الجماعات الوظيفية الأساسية من تعاقدية ونفعية وحياد إلى عزلة وغربة وحركية وعدم انتماء للمكان والزمان وتمركز حول الذات والموضوع.

قطاع اللـذة

Pleasure Sector

«قطاع اللذة» هو أحد القطاعات التجارية في المجتمع ويؤدي خدمة أساسية هي «الترفيه» وإشباع الملذات بطريقة شرعية أو غير شرعية. ونحن نُدرج تحت قطاع اللذة مهن مثل الراقصات ومهرجي السيرك والمضيفات في الملاهي الليلية و«العوالم» والبغايا وتجار المخدرات. كما يمكن أن يُضم إليه من يعمل في مجال السياحة والجانب الترفيهي من الإعلام ونجوم السينما ومضيفات الطيران.. إلخ.

وإذا كانت وظيفة عضو الجماعة الوظيفية، في وجه من وجوهها، أن يبيع للمجتمع المضيف خدمةً ما نظير مزايا يحصل عليها (فالتاجر والمرابي يمنحان المجتمع صلاتهما التجارية وخبرتهما المالية)، فإن العاملين في قطاع اللذة في المجتمع يفعلون الشيء نفسه، فهو في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، قطاع تجاري مهمته تحقيق الربح لصاحب الاستثمار، دون الالتزام بأية مثاليات أو أخلاقيات، فهو يبيع سلعة تُسمَّى «اللذة» لا تختلف (في نظر البائع) عن أية سلعة أخرى مثل الكوكاكولا أو الخبز. وهو مثل أي تاجر محترف يحاول أن يوفر الخدمة للمستهلك على أحسن مستوى نظير أرخص الأسعار الممكنة. وفي حالة قطاع اللذة فإن صاحب الاستثمار يحقق هدفه عن طريق تنظيم اللذة مثل صناعة السينما (التي أصبحت ثاني أهم صناعة في الولايات المتحدة) والملاهي الليلية والبغاء والسياحة. ويدير قطاع اللذة، عادةً، عناصر مهاجرة أو أعضاء أقليات محلية لا تؤمن بالمنظومة القيمية الحاكمة في المجتمع (نظراً لهامشيتها أو عدم تجذرها) على عكس أعضاء الأغلبية الذين يعيشون داخل هذه المنظومة وحسب قواعدها ويبذلون قصارى جهدهم في الحفاظ عليها. ويتوفر لدى أعضاء هذه الأقلية، عادةً، قدر من الخبرات اللازمة لإدارة هذا القطاع مما قد لا يتوفر لأعضاء الأغلبية. وحتى بعد أن تتآكل المنظومة القيمية الحاكمة في المجتمع، ويكتسب بعض أعضاء الأقليات الخبرات اللازمة، يظل هناك وجود ملحوظ لأعضاء الأقليات من المهاجرين. وقد لوحظ تركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في هذا القطاع (انظر الباب المعنون «الكوميديا والسينما والجماعة اليهودية» في المجلد الثالث).

البغـاء وتجارة الرقيـق الأبيـض

Prostitution and White Slavery

«البغاء» هو أحد الوظائف المندرجة تحت قطاع اللذة. وتعريف البغاء أمر خلافي وإن كان قد تم الاتفاق على أن البغي هي من تقوم بإشباع الرغبات الجنسية لعملائها نظير أجر تتقاضاه، ولذا يرى بعض الدارسين أن البغاء نشاط اقتصادي وحسب، فهو تجاري في جوهره، وأن «البغيّ» إن هي إلا عاملة جنس (بالإنجليزية: «سكس وركر sex worker»). وهم بذلك يرون أنهم قد طوروا مصطلحاً محايداً، منفصلاً عن المنظور القيمي.

وكلمة «البغاء» تقابلها في العبرية كلمة «زينوت» . وقد كانت البغيُّ شخصية مقبولة وإن كانت مُحتقَرة في المجتمع العبراني القديم . ففي سفر التكوين (٣٨/ ١٤ ـ ١٩) جاء أن يهودا عاشر عاهرةً نظير أجر . ولا يوجد في السياق ما يدل على أن هذا أمر مرفوض أخلاقياً (وقد اتضح فيما بعد أن العاهرة هي تامار زوجة ابنه الذي مات ، وقد أنجبت من والد زوجها طفلين) . ويذكر سفر يشوع قصة العاهرة راحاب التي ساعدت العبرانيين على دخول أريحا (يشوع ٢/ ١ ـ حتى نهاية السفر) . وترد في سفر الملوك الأول (٣/ ١٦ ـ ٢٧) قصة سليمان مع الأُمَّين اللتين تنازعتا طفلاً ، وهما في القصة عاهرتان . وتوجد في سفر القضاة (١٦/ ١) إشارة إلى زيارة شمشون لعاهرة في غزة . بل ويمكن أن نفهم من السياق في العهد القديم أن إبراهيم قد استفاد مالياً من العلاقة الجنسية لزوجته بفرعون مصر ، وقد تكررت الحادثة بعد ذلك . كما يبدو أن إستير (البطلة اليهودية التي يُقرأ السفر المسمَّى باسمها في عيد النصيب) هي الأخرى عاهرة . والإشارات والقصص كافة تفترض أن مهنة البغاء مهنة طبيعية ، قد تكون وضيعة ولكنها ، مع هذا ، جزء من البناء الاجتماعي والأخلاقي . وقد ورد في العهد القديم فقرات لا تُحرِّم البغاء في حد ذاته ، وإنما تُحرِّم على العبرانيين أن يدعوا بناتهم يعملن بهذه المهنة : « لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى لئلا تزني الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة » (لاويين ١٩/ ٢٩) ، وهناك فقرات تُحرِّم على الكهنة الزواج من عاهرات : « امرأة زانية أو مدنَّسة لا يأخذ ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها » (لاويين ٢١/ ٧) . وهي تحريمات ليست عامة أو مطلقة وإنما مقصورة على أفراد معيَّنين وتحت ظروف معيَّنة . ولذا ، فإننا نجد إشارات عديدة في العهد القديم إلى عاهرات يقمن بوظيفتهن بشكل شبه عادي (أمثال ٧/ ١٠ ـ ٢٣ ، أشعياء ٢٣/ ١٦ ، ملوك ٢٢/ ٣٨) .

ورغم وجود البغاء بين الذكور والإناث في المملكة العبرانية المتحدة ، ثم في المملكتين الشمالية والجنوبية ، فإن البغاء المقدَّس الذي كان يُمارَس آنذاك في الشرق الأدنى القديم لم يجد طريقه إلى العبادة اليسرائيلية . كما كان يتم طرد البغايا في فترات الإصلاح الديني بسبب ارتباط البغاء بالعبادات الوثنية . وكان الأنبياء يستخدمون الزنى كصورة مجازية للتعبير عن انصراف الشعب عن الإله وخيانته إيَّاه . ومع هذا يبدو أن بعض طقوس العبادات الكنعانية ، ذات الطابع الجنسي الواضح ، قد وجدت طريقها إلى العبادة اليسرائيلية .

ويُحرِّم التلمود البغاء بين اليهود تماماً . وهناك أجزاء كثيرة في التلمود تنعت البغاء بكل الصفات السلبية ، وتبين عقوبة من يعمل بهذه المهنة البغيضة . وبشكل عام ، فقد اختفت المهنة بين اليهود في العصور الوسطى وما بعدها ، لكن هذا لم يمنع وجود حالات من البغايا اليهوديات والقوادين اليهود . ورغم أن المواخير كانت ، في كثير من الأحيان ، تُشيَّد خارج المدينة ، بالقرب من الجيتو ، فإن عدد اليهود الذين اشتغلوا بهذه المهنة كان نادراً بالقياس إلى النسبة السائدة بين الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها . وقد وردت أحكام في الشريعة اليهودية ضد العاهرات اليهوديات ، وضد اليهود الذين يزورون المواخير . ولكن الشريعة اليهودية تقر حق العاهرة في الحصول على أجرها ، كما تعطي حق الطلاق لليهودية التي يذهب زوجها إلى ماخور . ومع هذا ، فإن التلمود يعتبر إناث الأغيار «زوناه» ، أي عاهرات حتى لو تهودن .

وفي العصر الحديث ، ومع مشاكل التحديث في الغرب ، أخذت الصورة تتغيَّر بشكل جوهري . ففي الفترة بين عامي ١٨٨٠ و١٩٣٠ ، عمل عدد كبير من اليهود في تجارة الرقيق الأبيض قوادين وعاهرات ، وأصبحت منطقة الاستيطان في روسيا ، خصوصاً جاليشيا ، أهم مصدر للعاهرات في العالم بأسره ، وامتدت شبكة الرقيق الأبيض اليهودية من شرق أوربا إلى وسطها وغربها ، ومنها إلى الشرق ، فكانت هناك مراكز في جنوب أفريقيا ومصر والهند وسنغافورة والصين . وقد أصبح البغاء جزءاً من حياة قطاعات بعض يهود اليديشية في شرق أوربا حتى صار عملاً محايداً ـ مجرد نشاط اقتصادي ومصدر للرزق ـ وتحولت قطاعات من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تعمل بالبغاء . وقد أشار أحد الأطباء اليهود من غرب أوربا إلى أن كثيراً من أمهات البغايا كن ينظرن إلى البغاء باعتباره مصدراً مشروعاً للرزق . ومسرحية **الانتقام** للكاتب اليديشي شولم آش توضح هذه الصورة ، فبطل المسرحية يدير ماخوراً للدعارة في الدور الأرضي من منزله ، ولكنه يصر على أن هذا لا علاقة له بالقيم الأخلاقية التي تسود بين أعضاء أسرته (وازدواجية الأخلاق هي إحدى سمات الجماعة الوظيفية) . وبغتة تفر ابنته من المنزل وتعمل بالدعارة في ماخور آخر . وحين تعود نادمة على فعلتها ، يرفضها أبوها ويرسلها إلى الدور الأرضي لتعمل فيه مع بقية البغايا . وقد أصبحت البغيّ اليهودية شخصية معروفة في كثير من عواصم أوربا وإلى جوارها القواد اليهودي الذي لم يكن يكتفي بطبيعة الحال بتجنيد البغايا اليهوديات ، وإنما كان يتاجر بفتيات من كل قطاعات المجتمع . وقد أصبح القفطان (زي يهود اليديشية) رمز تجارة الرقيق الأبيض ، كما أصبحت اليديشية لغة هذه التجارة . وقد

زاد عدد البغايا اليهوديات بشكل واضح في النمسا حيث زاد عدد اليهود في فيينا من بضعة آلاف في منتصف القرن التاسع عشر إلى مائة وخمسين ألفاً مع نهايته ، وحيث زادت معدلات العلمنة بشكل واضح وتفشت قيم اللذة .

وقد ذهب هتلر إلى فيينا ، ولاحَظ الوجود اليهودي في هذه التجارة المشينة ، وسجل ملاحظته في كتابه **كفاحي** . كما شهدت ألمانيا نفسها نشاط البغايا والقوادين اليهود بشكل مكثف إذ أنها كانت المعبر بين جاليشيا وبقية العالم . وقد ترك ذلك أثره بطبيعة الحال في أدبيات معاداة اليهود التي وجدت في هذا قرينةً على مؤامرة اليهود على العالم ومحاولتهم إفساده ، وخصوصاً أنهم كانوا مُركَّزين بشكل واضح أيضاً في المجلات الإباحية وفي القطاعات الاقتصادية المماثلة .

وكانت الأرجنتين تُعَدُّ أهم مراكز البغاء اليهودي في العالم (وتوجد هناك ، حتى الآن ، دار للمسنين تضم البغايا اليهوديات المسنات) . وقد بلغ تجار الرقيق الأبيض اليهود درجة من القوة مكنتهم من التحكم في المسرح اليديشي ، وفي جوانب أخرى كثيرة من حياة الجماعة اليهودية . ويرجع هذا إلى وجود قطاع اقتصادي لا بأس به ، من بقالين وأصحاب عقارات وخياطين وغيرهم ، مرتبط بهؤلاء التجار ، ولذا فقد كونوا جماعة ضغط . ولكنهم ، مع هذا ، فشلوا في السيطرة على الجماعة اليهودية بشكل تام ، كما فشلوا في الحصول على القبول الاجتماعي من جانبهم . وقد كانت الجماعة تطلق عليهم مصطلح «تميم» ، أي «المدنَّسين» ، فاضطروا إلى تكوين جماعة يهودية مستقلة . وبرغم اشتغال هؤلاء القوادين بالبغاء ، فإنهم أصروا على التمسك بهويتهم اليهودية ، فكانت لهم معابدهم وحاخاماتهم وقبورهم ، كما كانوا يحتفلون بالأعياد اليهودية . وهكذا كانت بوينس أيريس عاصمة البغاء في العالم .

ولا يمكن إنكار ما يقوله أعداء اليهود عن بروزهم في تجارة الرقيق الأبيض في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ، فهذه حقيقة واقعية نؤثر أن نسميها «واقعة جزئية» مقابل «الحقيقة الشاملة» . ولكن تقرير الواقعة الجزئية دون ذكر الحقيقة الشاملة هو جوهر العنصرية . فهذه الأدبيات لا تحدِّد ما إذا كانت هذه الواقعة مسألة أزلية ثابتة ذات دلالة عامة بالنسبة إلى ما يُسمونه «الطبيعة اليهودية» أم أنها تفصيلة عرضية متغيِّرة ليس لها أية دلالة . كما أن هذه الأدبيات تُخفي بعض الحقائق التي قد تمكِّننا من فهم الحقيقة بشكل أوسع .

وفي محاولة تفسير هذه الواقعة ، يجب أن نشير إلى أن نهايات القرن التاسع عشر كانت مرحلة تَعثُّر التحديث في شرق أوربا حيث أغلقت أبواب الحراك الاجتماعي واضمحل الأمل في المستقبل بالنسبة إلى عدد كبير من اليهود الذين أدَّت عمليات التحديث إلى طردهم من أعمالهم التقليدية . فكان نصف عدد يهود جاليشيا البالغ عددهم ثمانمائة ألف متعطلين عن العمل ، وكان بينهم تسعة وثلاثون ألف أنثى كن مصدراً خصباً للبغايا . ولكن الفقر في حد ذاته لا يؤدي أبداً إلى انتشار ظاهرة كالاشتغال بالبغاء ، إذ لابد أن تصاحب ذلك تحولات في البيئة الاقتصادية (والأخلاقية والنفسية) للمجتمع ، تُطَبِّع إلى حدٍّ ما مثل هذه المهن وتعطيها قسطاً من القبول الاجتماعي . ومع تزايد حركة التصنيع ، شهدت هذه الفترة تركُز أعضاء الجماعات اليهودية في المدن الكبرى . لكن سكنى المدن والتركز فيها ليس مسألة مادية خارجية ، وإنما هو شيء يُحدث تحولات نفسية وأخلاقية عميقة . وقد كانت الفترة التي انتشر فيها الرقيق الأبيض فترة انفجار سكاني بين يهود شرق أوربا ، كما كانت فترة الهجرة الأوربية واليهودية الكبرى إلى الولايات المتحدة ، والهجرة تؤدي عادةً إلى خلخلة الأخلاق . وقد صاحب ذلك تزايد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية ، وهو ما كان يعني زيادة الرغبة في الاستهلاك ونقصان المقدرة على احتمال الفاقة (مع تآكل قيم مثل الزهد والقناعة) . وقد أدَّى كل ذلك إلى تفكك الأسرة ، وفقدان الأب السيطرة والهيبة التقليدية ، كما فقدت المؤسسة الدينية اليهودية ذاتها معظم شرعيتها وسيطرتها بسبب هجمة الدولة القومية العلمانية عليها . وقد ساعدت وسائل الاتصال الحديثة على سرعة انتشار تجارة الرقيق الأبيض ، شأنها في هذا شأن أية تجارة أخرى .

ومن الأسباب الأخرى التي ساعدت على انتشار البغاء بين إناث اليهود تشدُّد العائلات اليهودية ، فكثيراً ما كانت الفتاة تخطئ مرة واحدة فترفض الأسرة السماح لها بالعودة . كما كان التعليم الديني مقصوراً على الذكور ، ولذا كانت الفتيات يتلقين تعليماً علمانياً (خارج المدارس التلمودية العليا) ، وهو ما زاد من معدل علمنتهن . وكان كثير من الفتيات اليهوديات يتسمن بالسذاجة نظراً لأن عزلة الجيتو وقبضة الأسرة اليهودية القوية شكلَّت سياجاً حال بينهن وبين الواقع الأوربي الذي كان يتغيَّر وتتغيَّر أخلاقياته بسرعة غير مألوفة في تاريخ البشرية بأسره .

وقد ساهمت الطقوس اليهودية الخاصة بزواج المطلقة أو الأرملة في انتشار البغاء ، إذ لم يكن يُسمَح للمرأة بأن تتزوج مرة أخرى إلا بعد حصولها على «جيط» وهي شهادة شرعية تصدرها المحاكم الحاخامية . ولكن الحصول على مثل هذه الشهادة كان أمراً

في غاية الصعوبة ، الأمر الذي أدَّى إلى وجود عدد كبير من المطلقات والأرامل ممَّن لا يحق لهن الزواج . وقد بلغ عددهن ٢٥ ألفاً في بولندا (بعد الحرب العالمية الأولى) .

ومن الحقائق المشينة أن الحكومة الروسية كانت تعتبر أن وظيفة البغاء من الوظائف التي تسمح لصاحبتها بمغادرة موطن الاستيطان (باعتبار أن البغاء تجارة متميِّزة ونافعة ، وكان التجار المتميزون والعاملون بوظائف نافعة يتمتعون بحق ترك منطقة الاستيطان متى شاءوا) . وقد خلق هذا وضعاً شاذاً إذ أصبح بوسع الفتاة التي تعمل بهذه الوظيفة أن تترك أسرتها وتذهب إلى موسكو (على سبيل المثال) بعيداً عن سلطة أسرتها ثم تعود بعد فترة ومعها ثروة لا بأس بها ، وهو ما كان يدعم مكانتها داخل الأسرة ويقوِّض هيمنة الأب وشرعيته . ومن الأسباب التي أدَّت إلى انتشار البغاء في الأرجنتين أن التجارب الاستيطانية فيها اتسمت بزيادة عدد الذكور ، وهو ماخلق سوقاً رائجة للبغايا .

ومن أهم العناصر التي أدَّت إلى انتشار تجارة الرقيق الأبيض أن اليهود كانوا يشكلون في الحضارة الغربية جماعةً وظيفية تشتغل بكثير من الأعمال الهامشية في المجتمع ، أو الأعمال المشبوهة من الناحيتين الأدبية والمادية مثل العمل بالمجاري ومثل الأعمال التي تتطلب قدراً كبيراً من الحياد كالتجارة والربا ، كما كانوا يتجهون إلى الأعمال الجديدة التي تتطلب روح الريادة . وتجارة الرقيق الأبيض تنطبق عليها كل هذه المواصفات ، فهي تجارة هامشية تتطلب قدراً كبيراً من الحياد وعدم الالتزام العاطفي أو الأخلاقي تجاه أعضاء المجتمع ، وهي وظيفة مشبوهة أخلاقياً . كما أن الفترة التي راجت فيها هذه التجارة هي فترة مفصلية ، ومثل هذه الفترات تملؤها عادةً الجماعات الوظيفية ، وهي في الواقع مفصلية من ناحيتين : أولاً ، كانت معدلات العلمنة في المجتمع الغربي قد ارتفعت بشدة . ولكن يُلاحَظ أن علمنة الرغبة قد سبقت علمنة السلوك ، وقد نجم عن ذلك أن تفتحت شهية الإنسان الغربي لاستهلاك السلع والنساء . ولكن الحرية الجنسية لم تكن قد انتشرت بعد ، ذلك لأن علمنة الرؤية الأخلاقية وعلمنة السلوك تستغرقان وقتاً أطول . كما أن أعضاء الجماعات اليهودية في هذه المرحلة كانوا قد فقدوا دورهم التقليدي داخل قطاعات اقتصادية معيَّنة ، وفقدوا مكانتهم السياسية ، وكان القهال كتنظيم اجتماعي سياسي قد تآكل تماماً . وفي الوقت نفسه لم يكن قد تم دمجهم في المجتمعات الغربية . وقد تزامنت هذه المرحلة الانتقالية مع المرحلة المفصلية نفسها التي أشرنا إليها . ومن الملاحظ أن هذه المرحلة نفسها هي التي شهدت ازدهار اللغة اليديشية والفكر الصهيوني وحزب البوند . ومع نهاية المرحلة المفصلية ، اختفت معظم هذه الظواهر بسبب اندماج يهود العالم الغربي في مجتمعاتهم ، وكذلك بسبب إبادتهم .

ومن الأمور المهمة التي يُسقطها أعداء اليهود أنه كانت توجد أعداد كبيرة من البغايا غير اليهوديات ، وأن ظاهرة البغيّ اليهودية بدأت تختفي بعد الثلاثينيات كظاهرة متميِّزة لها دلالتها . والأهم من هذا ، أن أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية شنوا حرباً شرسة ضد هذه التجارة المشينة ، وكان هذا من أهم العناصر التي أدَّت إلى القضاء عليها .

أما في إسرائيل ، فإن الصورة مختلفة إلى حدٍّ كبير . فيُلاحَظ زيادة البغاء بشكل واضح حتى بين طالبات المدارس والفتيات القاصرات . بل إن إسرائيل تُصدِّر العاهرات أيضاً إلى دول العالم الغربي . ففي فرانكفورت ، يُلاحَظ وجود عدد كبير من العاهرات الإسرائيليات . وفي أمستردام ، تزايد عدد القوادين الإسرائيليين ، حتى أن لغة الدعارة هناك أصبحت العبرية أو رطانة عبرية . وهناك ، في إسرائيل ، اتجاه لإصدار قانون يبيح البغاء . وبحسب مشروع القانون المذكور ، يُسمَح للمرأة الوحيدة (أي غير المتزوجة) بممارسة البغاء في بيت أو فندق أو سيارة أو قارب ، كما يُسمَح لها بنشر «الإعلانات المعقولة» . وعلى كلٍّ ، فإن الصحافة الإسرائيلية زاخرة بمثل هذه الإعلانات «المعقولة» حتى قبل صدور القانون .

ويبدو أن ما بين ١٥ ـ ٢٠٪ من المهاجرين السوفييت من النساء اشتغلن بالبغاء ـ وهو شكل من أشكال بيع الطاقة العضلية ، حيث يصبح النشاط الجنسي نشاطاً اقتصادياً موضوعياً محايداً ـ فالبغي حالة متطرفة من الإنسان المرتزق . ويبدو أن هذا السلوك كان محايداً للغاية إذ كانت النساء يعملن بعلم أعضاء الأسرة وموافقتهم ، وهو الأمر الذي سبب صدمة للإسرائيليين الذين لم يصلوا بعد إلى هذا المستوى العالي من الحياد والموضوعية والمادية .

الطــب

Medicine

يُلاحَظ أن العمل في القطاع الطبي يُوكَل أحياناً لجماعة وظيفية . وقد كانت مهنة الطب ، في كثير من المجتمعات ، يضطلع بها بعض أعضاء الجماعة اليهودية للأسباب التالية :

١ ـ يتطلب العمل بهذه المهنة معرفة خاصة ومراناً خاصاً ، وهو ما قد لا يتوافر لأعضاء المجتمع .

٢ ـ يطَّلع الطبيب على كثير من الأسرار من خلال احتكاكه

بالمرضى. ولذا ، فإن الطبيب إذا كان عضواً في المجتمع ، فهو يشكل خطراً عليه وعلى ترابطه وتراحمه وعلى أمنه .

٣ـ في حالة الأطباء الذين يعملون في معيَّة أعضاء النخبة الحاكمة ، يمثل هذا الطبيب مشكلة أمنية إذ يمكنه أن يتحول إلى أداة (فتك أو تجسس) في الصراعات الدائرة ، كما يمكنه أن يراكم الأسرار عنده ويستخدمها ضد النخبة الحاكمة . وإن كان ثمة قاعدة شعبية يتركز فيها فقد يتراكم عنده من الأسرار والقوة ما يجعله يهدد نظام الحكم .

لكل هذا ، كانت كثير من المجتمعات التقليدية يعهد بوظيفة الطب إلى بعض أعضاء الجماعة اليهودية باعتبارهم جماعة وظيفية (لأنهم يُستوردَون من خارج المجتمع) ، خصوصاً أن أعضاء الجماعة اليهودية ارتبطوا بالسحر لأسباب تاريخية كثيرة ، فكان يُنظَر إليهم باعتبارهم سحرة قادرين على شفاء الأمراض . وقد كان التلمود يحوي عناصر كثيرة من الطب الشعبي ، كما كان كثير من الحاخامات يمارسون مهنة الطب . ولعل قوانين الطعام اليهودية ، والذبح الشرعي ، ساهمت هي الأخرى في توليد وعي عند أعضاء الجماعة اليهودية بالأمور الطبية . ولكل هذا ، تركَّز أعضاء الجماعة اليهودية في هذه المهنة ، ومن ثم ساهموا في تطوير كثير من الأدوية والممارسات الطبية .

وقد استمر هذا الوضع حتى القرن العشرين ، ولا تزال له فعالية إلى حدٍّ ما ، حتى بعد أن تحول أعضاء الجماعة اليهودية من جماعة وظيفية وسيطة إلى طبقة وسطى . ويعود هذا إلى ميراث الجماعات اليهودية المهني والوظيفي والاقتصادي . كما أن أبناء المهاجرين عادةً ما يتجهون إلى مهن الياقات البيضاء التي تحتاج ممارستها إلى قدر عال من التعليم وإلى رأسمال صغير ، الأمر الذي ينطبق على أعضاء الجماعة اليهودية ، كما ينطبق على غيرهم من الجماعات المهاجرة إلى الولايات المتحدة مثل الهنود والمصريين .

ومما يجدر ذكره ، أن كثيراً من اليهود الألمان الذين كانوا يعملون في قطاع الطب ساهموا في تطوير ما يُسمَّى الآن «قواعد الصحة النازية» ، وهو ذلك الفرع من العلم الطبي الذي كان يهدف إلى توظيف الإنسان بشكل مادي كفء ؛ باعتباره مادة نافعة متحوسلة وبحيث تُطبَّق قوانين الوراثة بشكل منهجي على البشر ويتم القيام بعمليات تفريخ تهدف إلى تحسين النسل ويُطبَّق القتل الرحيم على من يرى العلم الطبي ضرورة قتلهم . كما كانت تجرى على البشر تجارب لا تكترث بهم كثيراً ما دامت ستؤدي إلى مراكمة المعلومات الطبية . وقد ظل هؤلاء الأطباء الألمان اليهود في وظائفهم إلى أن طردهم النازيون منها بعد استيلائهم على الحكم .

ولا يمكن أن نفسر ظاهرة اشتراك الأطباء من أعضاء الجماعة اليهودية في هذا الطب الشيطاني اللا إنساني على أساس بُعْد يهودي خاص ، فقد كانوا يتصرفون كأطباء ألمان يتحركون داخل إطار الحضارة الغربية الملتزمة بقيم الحياد العلمي اللاإنساني .

الترجمـــة

Translation

عادةً ما تقوم بالترجمة شخصيات حركية قادرة على الانتقال من مجتمع إلى آخر تتملك ناصية لغاتها وخطابها الحضاري . وقد لعب بعض أعضاء الجماعات اليهودية دوراً نشيطاً في عمليات الترجمة لعل من أهمها ما تم في أوربا ، في القرن الثاني عشر ، حيث كان بعض يهود شبه جزيرة أيبريا ، ممن نشأوا في إطار الثقافة العربية الإسلامية فيها ، يتنقلون بين القطاعين الإسلامي والمسيحي وبين العالم الإسلامي والعالم المسيحي . وبذا أصبحوا مزدوجي الثقافة . ولا شك في أن تركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في التجارة الدولية بعض الوقت أتاح لهم فرصة تملك ناصية العديد من لغات العالم الإسلامي والمسيحي (والشرق الآسيوي أيضاً) .

وبسبب وجود هذه الخبرة الفريدة عند بعض أعضاء الجماعات اليهودية ، وبسبب إحساس الحاكم بالأمن تجاههم (فليس لهم قاعدة شعبية ، ولا يمكنهم استخدام المعلومات التي يعرفونها من خلاله ضده) ، نجد أن كثيراً من حكام العالم الإسلامي والعالم المسيحي كانوا يستخدمون بعض أعضاء الجماعات اليهودية كمترجمين وكرسل لهم (سفراء) للبلاد الأخرى . ولا يزال يُلاحَظ وجود ملحوظ لأعضاء الجماعات اليهودية في أعمال الترجمة والدراسات اللغوية ، على عكس السلك الدبلوماسي حيث يُلاحَظ تناقص عددهم واختفاؤهم تماماً في بعض البلاد حيث أصبحت الدولة المركزية لا تُوكل مثل هذه الوظائف إلا لأبناء البلد لأسباب أمنية .

الجاسوسية اليهودية والجواسيس اليهود

Jewish Espionage and Jewish Spies

«الجاسوسية اليهودية» مصطلح يفترض أن ثمة نشاطاً يهودياً عالمياً يقوم به أعضاء الجماعات اليهودية وأن ثمة نموذجاً عاماً تفسيرياً وغطاً متكرراً يمكن من خلاله تفسير هذا النشاط ، وهو نموذج يفترض أن يهودية الجواسيس وانتماءهم للجماعات اليهودية هو الذي يفسر اضطلاعهم بهذه الوظيفة ومن ثم فهم «جواسيس يهود» . وحيث إننا لم نعثر على مثل هذا النموذج ، فإننا نفضل أن نتحدث

عن «الجواسيس من أعضاء الجماعات اليهودية» حتى يتم تفسير وتصنيف كل حالة على حدة من خلال ملابساتها الخاصة ، ومن خلال نموذج الجماعة الوظيفية .

الجواسيس من أعضاء الجماعات اليهودية

Spies from Members of Jewish Communities

لا يمكن بداية أن نزعم أن الكثيرين من اليهود يعملون كجواسيس ، إذ أن هذه المسألة لم تُدرَس بطريقة إحصائية تجعل التعميم ممكناً ، ومع ذلك فيمكننا أن نزعم أن الانطباع الأولي يدل على أن سلوك أعضاء الجماعات اليهودية لا يختلف كثيراً في هذا المجال عن سلوك أية جماعة إنسانية أخرى تعيش الظروف نفسها .

ومع هذا ، يمكن تصنيف الجواسيس باعتبارهم من الجماعات الوظيفية . والجاسوس ، أصلاً ، ليس بغريب وإنما هو عضو في الجماعة ، ولكنه يتعاقد مع قوة خارجية توظفه ليعمل لصالحها داخل مجتمعه أو بين أعضاء المجتمع المضيف فيخلق مسافة بينه وبين المجتمع وينظر إليه بحياد شديد ويرصده بموضوعية لحساب القوة الخارجية بحيث تختفي العلاقة التراحمية وتحل محلها علاقة موضوعية باردة .

وقد أصبحت الجماعات اليهودية ، بعد انتشارها في العالم ، ولاسيما العالم الغربي ، جماعات وظيفية . وقد نجم عن ذلك أن أعضاءها أصبحوا عنصراً متحركاً لا يدين بالولاء لأحد ، وأصبحت ثمة قابلية لأن يتم تجنيد الجواسيس من صفوفهم بسهولة ، خصوصاً أنهم تواجدوا في المناطق الحدودية . وقد قام قمبيز ، حسبما جاء في تاريخ هيرودوت ، بإرسال جواسيس يهود إلى مصر قبل أن يقوم بغزوها ليأتوه بالمعلومات . وأدَّى انتشار الجماعات اليهودية إلى قيام شبكة اتصالات يهودية لا تقوم بتسهيل عملية تبادل البضائع والأموال وحسب ، وإنما تقوم أيضاً بتوصيل المعلومات بسرعة . وقد استفاد من ذلك يهود البلاط ، في القرن السابع عشر ، في الحصول على المعلومات وتوصيلها إلى الحكومات التي يدينون لها بالولاء . وقد حاول أوليفر كرومويل الاستفادة من هذه الشبكة لا على المستوى التجاري وحسب وإنما على المستوى المعلوماتي أيضاً ، إذ كان يفكر في توظيف اليهود ليعملوا له كجواسيس .

ويبدو أن نابليون قد فكر في توظيف اليهود ليعملوا جواسيس لحسابه (وقد أخبر هرتزل ملك إيطاليا بهذه الحقيقة) . وإبَّان غزو نابليون لروسيا ، جند نابليون بعض اليهود للتجسس لحسابه ، لكن أغلبية اليهود تجسسوا عليه لحساب الحكومة القيصرية لأن المؤسسة الدينية كانت تعتبره عدوها الأكبر .

وإبَّان الحرب الفرنسية الألمانية ، كانت الاستخبارات الفرنسية تجند يهود الألزاس واللورين الذين يعرفون الألمانية ليتجسسوا لحساب فرنسا . وقد اتُهم دريفوس ، وهو من أصل ألزاسي ، بأنه يتجسس لحساب ألمانيا . بل وكان هرتزل يود ، ضمن مخططه الصهيوني ، أن يحوِّل يهود العالم إلى عملاء لبريطانيا العظمى .

ويفترض الصهاينة أن يهود العالم هم أعضاء في الشعب اليهودي ، ومن ثم فإن ولاءهم لابد أن يتوجه إلى الدولة الصهيونية . وانطلاقاً من هذا المنظور ، تحاول أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية ليعملوا من أجل المصالح الصهيونية . وانطلاقاً من هذا أيضاً ، تم تجنيد بعض يهود البلاد العربية قبل وبعد عام ١٩٤٨ للتجسس لصالح المُستوطَن الصهيوني (جماعة نيلي – حادثة لافون . . . إلخ) . وتبين حادثة بولارد في الولايات المتحدة أن المؤسسة الصهيونية لا تزال تتحرك داخل الإطار نفسه . لكن من الضروري الإشارة إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة رفضوا هذا التعريف الصهيوني لهويتهم .

وتشك المؤسسة الصهيونية في المهاجرين السوفييت ، ولا توظفهم في الأعمال العسكرية خشية أن يكون بينهم جواسيس قام الاتحاد السوفيتي (سابقاً) بتسريبهم إلى صفوفهم .

نيلي

Nili

كلمة «نيلي» هي صيغة اختصار للعبارة العبرية «نيتساح يسرائيل لو يشاكير» أي «مجد إسرائيل لن يسقط» . وهي منظمة استخبارات صهيونية سرية أسسها عام ١٩١٥ في فلسطين أفشالوم فينبرج ، وتولى قيادتها أهارون أرونسون ، وكان من بين أعضائها أخته سارة . وكان الهدف من تشكيل هذه المنظمة مساعدة بريطانيا في صراعها ضد الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى ، باعتبار أن انتصار بريطانيا سيتيح الفرصة لتحقيق المشروع الصهيوني ، وبخاصة بعد فشل هجوم القوات العثمانية على قناة السويس في ربيع عام ١٩١٥ .

وبالتعاون مع الاستخبارات البريطانية ، استطاعت المنظمة (التي بلغ عدد أعضائها نحو ٤٠ فرداً) نشر شبكاتها في العديد من أنحاء فلسطين . ووصل نشاطها إلى ذروته مع تعيين أرونسون مستشاراً للقائد العسكري العثماني جمال باشا ، ومع نجاح المنظمة

في تجنيد أحد ضباط الجيش العثماني وهو نعمان بكليف . ومن خلال هذا التغلغل في أوساط القوات العثمانية ، أمدت نيلي القوات البريطانية بالكثير من المعلومات الحيوية حول استعدادات الجيش العثماني ومواقعه في غزة وبئر سبع ، وهو ما كان له أبلغ الأثر في حسم معركة جنوب فلسطين عام ١٩١٦ لصالح بريطانيا والحلفاء . ورغم ذلك ، نجحت السلطات العثمانية في اكتشاف منظمة نيلي والقبض على أعضائها وتصفيتها عام ١٩١٧ .

وبرغم معارضة قادة التجمع الاستيطاني في فلسطين لنشاط المنظمة أثناء وجودها ، وذلك خوفاً من انتقام السلطات العثمانية في حالة كشفها ، إلا أنهم غيَّروا موقفهم بعد تصفيتها ، وأصبحت جهود نيلي في خدمة بريطانيا إحدى الأوراق المهمة التي لوحت بها الحركة الصهيونية للحصول على وعد بلفور . وعلى هذا النحو ، يُبرز نشاط نيلي الترابط الوثيق بين مصالح الحركة الصهيونية والمصالح الاستعمارية ، كما يوضح سعي الصهاينة الأوائل لوضع حركتهم داخل الإطار الاستعماري الغربي وتقديم أنفسهم للعمل كأداة لهذه القوة الاستعمارية أو تلك ، وهو ما يشكل سمة أساسية للحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى اليوم .

قضية لافون

Lavon Affair

«قضية لافون» نسبة إلى بنحاس لافون ، وهي تشير إلى واحدة من أهم عمليات التخريب التي قامت الدولة الصهيونية بتدبيرها ، ممثلة في تلك التفجيرات التي قام بها بعض أعضاء الجماعة اليهودية في مصر عام ١٩٥٣ . والجدير بالذكر أن دعاة الصهيونية يذهبون إلى أن إسرائيل هي المركز وأن أعضاء الجماعات اليهودية هم الأطراف والهامش ، ولذا فمن حق الحركة الصهيونية (والحكومة الصهيونية) أن تحول يهود العالم إلى أداة توظفها في خدمتها ، أي تحولهم إلى جماعة وظيفية تعمل بالتجسس والإرهاب لصالحها .

وقد كوَّنت الوكالة اليهودية في العشرينيات شبكة تجسس ، كان لها فروع في العالم العربي ، وكانت تعمل سراً تحت ستار تنظيمات شرعية . مثل أندية حركة المكابي الرياضية أو المنظمات الخيرية اليهودية الكثيرة . وفي الثلاثينيات أنشأت الهاجاناه قسماً للاستخبارات برئاسة موشي (شيرتوك) شاريت أول رئيس وزراء لإسرائيل . وأنشأت الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) سنة ١٩٣٧ مركزاً لتدريب اليهود العرب على القيام بأعمال التجسس على مواطنيهم ، وأُطلق على هؤلاء الجواسيس اسم «الأولاد العرب» .

وفي أعقاب قيام دولة إسرائيل ، استمرت عملية تجنيد اليهود العرب للقيام بأعمال التجسس والتخريب . وتخبرنا **الموسوعة اليهودية (جودايكا)** بأنه كانت هناك « حركة صهيونية سرية على درجة عالية من التطور » في مصر تعمل في خدمة الصهيونية . وكان من الشخصيات البارزة في هذه الحركة المواطن اليهودي المصري موشي مرزوق الذي وُلد في القاهرة سنة ١٩٢٦ . وجاء في الموسوعة ذاتها أنه بدلاً من أن يرتبط هذا المواطن اليهودي المصري ببلاده كان «على اقتناع بأن مستقبل جميع اليهود المصريين يكمن في الهجرة إلى أرض إسرائيل التاريخية » . ونتيجةً لهذا ، كرس حياته لتحقيق الأهداف الصهيونية ، فقام بتجنيد اليهود الشبان ليذهبوا إلى إسرائيل . وكان باستطاعته هو نفسه أن يغادر البلاد ، ولكنه قرر أن يبقى في وظيفته بالمستشفى الإسرائيلي بالقاهرة ، وأن يعمل من أجل إسرائيل . وكان من أصدقاء مرزوق شخص يُدعَى صمويل عزار (من مواليد الإسكندرية) حصل على منحة لدراسة الهندسة الألكترونية في الخارج لكنه اختار هو الآخر ـ كما فعل مرزوق ـ أن يبقى في مصر ليؤدي مهمته .

وتُعدُّ فضيحة لافون من أسوأ تلك المهمات ، فقد قام ١٣ يهودياً مصرياً (بناءً على تعليمات من إسرائيل) بوضع متفجرات في مكتبة المركز الإعلامي الأمريكي في القاهرة ، وفي منشآت أخرى مملوكة لأمريكا وبريطانيا في القاهرة والإسكندرية . وكان الهدف من هذه الأعمال خلق التوتر في العلاقات بين مصر وهاتين الدولتين الغربيتين . وكما أوضح يوري إفنيري في كتابه **إسرائيل دون صهاينة** ، كان المقصود من هذا التوتر تمكين العناصر الاستعمارية الرجعية في البرلمان البريطاني من منع إبرام اتفاقية تنص على الجلاء عن قواعد السويس ، وكذلك تقديم سلاح يستطيع معارضو تسليح مصر في الولايات المتحدة استخدامه . ولكن الهدف من هذه العمليات التخريبية كان ، قبل كل شيء ، إضعاف مظهر نظام الحكم الثوري الجديد في مصر ، وإظهار افتقاره إلى الاستقرار أمام العالم . وقد أُلقي القبض على بعض العملاء الصهاينة متلبسين بالجريمة ، الأمر الذي أدَّى إلى القبض على كل المشتركين في المؤامرة . وكان المقبوض عليهم هم : ماكس بنيت (زعيم الشبكة) ، والدكتور مرزوق ، وصمويل عزار ، وعشرة آخرون . وأثناء المحاكمة ، تمكَّن اثنان من الهرب ، وانتحر ماكس بنيت . أما الباقون ، فقد بُرِّئت ساحة اثنين منهم ، وصدرت أحكام بالسجن على سبعة ، وصدر حكم بالإعدام على كلٍّ من مرزوق وعزار اللذين كانا يتزعمان شبكتي القاهرة والإسكندرية . وقد وُجهت إلى مرزوق تهمة تنظيم

مجموعة القاهرة ووضع ترتيبات الاتصال اللاسلكي مع إسرائيل بعد أن أمضى فترة تدريب هناك . أما عزار ، فقد اتُّهم بتزعم مجموعة الإسكندرية وإدارة مصنع سري لتصنيع أجهزة التخريب .

وظلت فضيحة لافون تؤرق القيادة الإسرائيلية لفترة طويلة بعد انتهاء محاكمات القاهرة . وقد أنكر بن جوريون مسئوليته عن إعطاء أوامر العملية ، وألقى اللوم كله على بنحاس لافون (ومن هنا التسمية «حادثة لافون») الذي أصر على براءته إلى النهاية . وعندما برأت لجنة تقصي الحقائق بنحاس لافون ، استقال بن جوريون من حزب الماباي الحاكم وكوَّن (بالاشتراك مع كلٍّ من بيريز وديان) حزب رافي . وبغض النظر عن الضجة السياسية داخل إسرائيل بشأن المسئولية الشخصية عن الموضوع ، فقد كان هناك اعتراف ضمني بتورُّط إسرائيل في فضيحة لافون حيث مُنح اسم الدكتور مرزوق رتبة عسكرية في الجيش الإسرائيلي وأُطلق عليه هو وعزار لقب « شهيدي القاهرة » .

قضية بولارد
Pollard Affair

«قضية بولارد» هي قضية تجسس في الولايات المتحدة الأمريكية ، كان المتهم الأول فيها مواطن أمريكي يهودي هو جوناثان بولارد الذي أُدين بالتجسس لصالح إسرائيل ، هو وزوجته آن بولارد .

وُلد بولارد في ولاية تكساس عام ١٩٥٤ ودرس في جامعة ستانفورد ، ثم التحق بخدمة الاستخبارات البحرية الأمريكية في ولاية مريلاند عام ١٩٧٩ حيث عمل كمحلل استخباراتي مدني ، وتدرج في عمله حتى أصبح له حق الاطلاع على العديد من المعلومات الحساسة . وفي مايو من عام ١٩٨٤ ، جندته المخابرات الإسرائيلية للتجسس لصالحها . وأثناء محاكمته ، أعلن بولارد أنه ، باعتباره صهيونياً متحمساً ، استاء من رفض الحكومة الأمريكية تقديم القدر الكافي من المعلومات الاستخباراتية لإسرائيل والمهمة لأمنها .

ويرجع الفضل في تجنيد بولارد إلى ضابط الاستخبارات الإسرائيلية أفيعام سيلع ، الذي كان ضابطاً في القوات الجوية الإسرائيلية . وقد قدم بولارد لإسرائيل كماً هائلاً من المعلومات الخاصة بإسرائيل والشرق الأوسط ودول أخرى . واستقبلت هذه المعلومات في إسرائيل وحدة استخبارات مستقلة في وزارة الدفاع الإسرائيلية هي وحدة الربط العلمي ، وهي وحدة تعمل منذ الستينيات تحت رئاسة عميل المخابرات السابق رفائيل إيتان . وفي خلال الـ ١٨ شهراً التي عمل خلالها جاسوساً ، سافر بولارد إلى إسرائيل وأوربا ، كما حصل على وعد بحق اللجوء السياسي في حالة افتضاح أمره . وعندما اكتشف مكتب المباحث الفيدرالية الأمريكي أمره وبدأ في مراقبته ، لجأ بولارد وزوجته إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطون وطلبا اللجوء السياسي . إلا أن السفارة رفضت طلبهما وألقتهما خارج مبنى السفارة ، وتم القبض عليه في نوفمبر عام ١٩٨٥ .

وقد أثارت هذه القضية رد فعل عنيفاً داخل الحكومة الأمريكية وبين الرأي العام الأمريكي . كما أثارت قلقاً بالغاً بين أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة لما قد تثيره من اتهامات بازدواج الولاء . وفي إسرائيل ، زاد التخوف من تأثير القضية على علاقتها بالولايات المتحدة ، حليفها الأساسي ، وعلى الثقة المتبادلة بينهما . وقد رضخت إسرائيل ، تحت ضغط من الولايات المتحدة والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، للتعاون في التحقيقات ، والسماح باستجواب الإسرائيليين المتورطين ، وإعادة جميع الوثائق التي أخذها بولارد ، وحل وحدة الربط العلمي ، والموافقة على معاقبة الإسرائيليين المسئولين عن هذه العملية . وقد ساهمت الوثائق التي أعادتها إسرائيل في إدانة بولارد الذي حُكم عليه عام ١٩٨٧ بالسجن مدى الحياة . وقد استثير الرأي العام الأمريكي مرة أخرى بعد أن عينت الحكومة الإسرائيلية كلاًّ من إيتان وسيلع في مراكز مدنية وعسكرية مهمة ، وهو ما كان يعني نوعاً من المكافأة لهما . وقد أدَّى الاحتجاج الأمريكي إلى استقالة سيلع من منصبه العسكري الجديد كقائد لقاعدة جوية كبيرة . كما قامت وزارة الخارجية الأمريكية بسحب التصريحات الأمنية الممنوحة للموظفين اليهود ممن لهم أقارب في إسرائيل ، كما رضخت المؤسسة الأمريكية اليهودية للأمر ولم تصدر الصرخات المعهودة عن معاداة اليهود واضطهادهم .

وبعد صدور الحكم على بولارد ، أسرعت الحكومة الإسرائيلية بتشكيل لجنة للتحقيق في القضية (لجنة تسور ـ روتنسترايخ) وتحديد المسئولية ، كما شكل الكنيست لجنة أخرى برئاسة أبا إيبان للغرض نفسه . وقد توصلت اللجنتان إلى أن المسئولية تقع على عاتق أعضاء مجلس الوزراء والقيادات السياسية العليا بسبب ضعف الرقابة وضعف السيطرة على وحدة الربط العلمي والأنشطة الاستخباراتية المماثلة ، كما اتهمت كلاًّ من إيتان وسيلع بتعدي سلطاتهما والتصرف بدون حكمة . وقد جاءت هذه التحقيقات لإثبات مدى جدية إسرائيل في تحديد ومعاقبة المسئولين ، كما جاءت النتائج

كمحاولة لإبعاد أية مسئولية مباشرة عن القيادات السياسية العليا وبالتالي التخفيف من حدة الانتقادات الأمريكية .

وتثير هذه القضية مسألة ازدواج الولاء لدى أعضاء الجماعة اليهودية وحقيقة ما يُسمَّى «النفوذ الصهيوني» في الولايات المتحدة . فإسرائيل تعتبر أن الجماعات اليهودية في العالم تدين لها وحدها بالولاء ، وتؤمن بمركزيتها في حياة يهود العالم ، وينطبق هذا الاعتقاد بالأخص على اليهود الأمريكيين الذين يشكلون المصدر الأساسي للتبرعات والدعم المالي والسياسي لإسرائيل . ورغم الحماس الشديد لدى كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة في شأن تأييدهم لإسرائيل ، وبرغم وجود جماعة ضغط أو ما يُسمَّى «اللوبي صهيوني» يتسم بنشاطه المكثف ونبرته العالية والحماسية في تأييد إسرائيل وفي التأثير على السياسة الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط وبإسرائيل ، إلا أن هذا التأييد وهذا الدعم نابعان في المقام الأول من انتماء أعضاء الجماعة اليهودية إلى وطنهم الأمريكي ، ومن ارتباط مصالحهم بنظامه الرأسمالي ومصالحه الإمبريالية . ولذلك فإن تأييدهم لإسرائيل مستمر مادام يتفق مع السياسات الأمريكية ، ومادام لا يخلق أية شبهات بعدم الولاء لوطنهم . كما ترحب الولايات المتحدة بهذا التأييد الحماسي ، فهو يعني تدفُّق المعونات والتبرعات على إسرائيل (قاعدتها الأساسية في الشرق العربي) . ولكن عندما تمس إسرائيل مصالح الولايات المتحدة ، مثلما حدث في قضية بولارد ، يجيء الرد الأمريكي سريعاً وحاسماً ولا مكان فيه لضغوط اللوبي الصهيوني أو غيره . وقد أسرعت الجماعة اليهودية بالضغط على إسرائيل للرضوخ للمطالب الأمريكية اتفاقاً مع السياسة والمصالح الأمريكية من ناحية ، ومن ناحية أخرى حمايةً لمصالحهم وسمعتهم في الولايات المتحدة ، تلك السمعة التي قد تتعرض للاتهام بعدم الولاء للوطن . ولهذا ، أصدرت أهم المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة (المجلس القومي الاستشاري لعلاقات الجماعة اليهودية) بياناً قالت فيه : « إن الحكم الصادر على بولارد ليس ثمرة عداء اليهود أو التمييز ضدهم ، بل إنَّ بولارد ارتكب جريمة تجسس خطيرة » . واستخدام كلمة «تجسس» هنا يستهدف التأكيد على انفصال الوطن الأمريكي ، وطن يهود أمريكا ، عن الدولة الصهيونية ، وأن على الجميع أن يدرك ذلك . وقد قام المواطن الأمريكي الحاخام جيكوب نيوزنر ، وهو واحد من أهم علماء التلمود في العالم ، بتلخيص الموقف بقوله : « إن أمريكا أفضل من القدس بالنسبة لليهود . وإذا كانت هناك أرض الميعاد ، فإن الأمريكيين اليهود يعيشون بالفعل فيها ويشعرون بالسلام والأمن على نحو لا يمكن أن يتاح لهم في إسرائيل» .

وقد كتب بولارد نفسه خطاباً يستنكر فيه ما فعله ، ويبين أنه كان مخطئاً ، وأنه مواطن أمريكي يهودي يدين بالولاء لبلده وليس مجرد يهودي يدين بالولاء لإسرائيل . وقد كتب بولارد خطابه هذا على أمل أن تفرج عنه السلطات الأمريكية ولكنها لم تفعل حتى الآن . وقد تأسست منظمة أمريكية يهودية لطلب العفو عنه ، ولكن المنظمات اليهودية الكبرى رفضت تبنِّيها . كما رفض الرئيس بوش ومن بعده كلينتون إصدار عفو عنه قبل انتهاء مدة رئاسته ، تماماً كما فعل مع بعض الجرائم الأخرى . هذا ، وقد طلبت زوجته الطلاق منه وهو في سجنه وحصلت عليه ، ثم أصيبت بما يشبه الانهيار العصبي وأرسلت إلى مصحة نفسية ، ثم قررت الاستيطان في إسرائيل والحصول على الجنسية الإسرائيلية بمقتضى قانون العودة !

إبراهيم نيشان (١٨١٦-١٨٦٨)

Ibrahim Nathan

يهودي إيراني ، وُلد في مشهد في إيران ويُشار إليه بالملا إبراهيم . ترك وطنه والتحق هو وأخوه بخدمة الإمبراطورية البريطانية كجواسيس ، فسافرا إلى أفغانستان وتركستان وبخارى ، ومع كل الحملات البريطانية الأساسية في وسط آسيا . وقد قاما بتوصيل الاعتمادات اللازمة لضباط القوات البريطانية في الحرب الأفغانية الإنجليزية الأولى (١٨٣٩ - ١٨٤٢) في مواقعهم البعيدة ، وبجمع المعلومات للسلطات العسكرية الغازية ، كما قاما بإنقاذ الأسرى البريطانيين ومساعدتهم بعد الكارثة التي حاقت بالقوات الإنجليزية في كابول . وقد ترك الأخوان أفغانستان عام ١٨٤٤ (بعد انتهاء مهمة القوات البريطانية) واستقرا في بومباي عام ١٨٤٤ . وقد قدَّمت لهما الحكومة البريطانية تعويضاً عن خسائرهما أثناء تأدية واجبهما نحوها وأجرت لهما معاشاً شهرياً مدى الحياة . وقد عيِّن مولى إبراهيم في السلك الدبلوماسي البريطاني على أن يكون موقعه مشهد ، ولكنه رفض بطبيعة الحال أن يعود إلى هناك ومكث في بومباي حيث لعب فيها دوراً نشيطاً بين أعضاء جماعة اليهود البغدادية ، كما عيِّن موظفاً في مصلحة الجمارك . وتقول **الموسوعة اليهودية** إنه كان مُعفىً من واجباته في أيام السبت والعطلات .

والملا إبراهيم نيشان هو جزء من نمط متكرر عام في العالم الإسلامي وهو وجود أعضاء الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية في خدمة الاستعمار الغربي (وهذه هي أولى حلقات العملية

الاستعمارية الاستيطانية التي تُوِّجت بإنشاء الدولة الوظيفية الصهيونية) . وقد أهملت **الموسوعة اليهودية** حقيقة أن الملا إبراهيم يمثل نمطاً متكرراً لتُركِّز على عنصر يهودي واحد ، وهو مثل غير عادي على التمركز حول الذات الإثنية اليهودية .

أرمينيوس فامبيري (١٨٣٢ - ١٩١٣)

Arminius Vambery

مستكشف ورحالة ومستشرق مجري . وُلد لعائلة يهودية أرثوذكسية متواضعة ، وكان معتل الصحة كما كان يظلع حين يمشي . وقضى فامبيري عدة سنوات في عدد من المدارس الحكومية العامة والكاثوليكية والبروتستانتية . واتقن عديداً من اللغات (اللاتينية والفرنسية والإيطالية والتشيكية والروسية والتركية والعربية) . وفي عام ١٨٥٤ ، رحل فامبيري إلى القسطنطينية وأمضى هناك ست سنوات عمل في بدايتها معلماً للغات الأوربية . ثم ما لبثت علاقاته أن توطدت بدوائر الحكم في الدولة العثمانية ، فعمل مساعداً لوزير الخارجية محمد فؤاد باشا ، وكان يحظى بعطف السلطان عبد الحميد الثاني . وقد أشهر فامبيري إسلامه في هذه الأثناء لدوافع عملية بحتة ، وعكف على دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية حتى أتقنها ، كما أصبح على دراية تامة بتاريخ هذه المنطقة وبأوضاعها السياسية . ولكنه عرَّف نفسه في مذكراته قائلاً : « إن شخصيتي الشرقية الزائفة التي تبنيتها مقصورة على الجوانب الخارجية ، أما كياني الداخلي فإنه ينضح بروح الغرب » أي أنه كان يرى أن هويته غربية وليست يهودية .

وقد قام فامبيري ، عام ١٨٦٣ ، برحلة مثيرة عبر آسيا الوسطى طاف خلالها بأرمينيا وتركستان وإيران وبخارى ، متخفياً وراء اسم رشيد أفندي ، ويُقال إنه أول أوربي يقطع هذه الرحلة . وقد دوَّن فامبيري ملاحظاته في كتاب نُشر باسم **رحلات في وسط آسيا** (١٨٦٤) ، وذاعت شهرته بعد نشر الكتاب ، وبخاصة في صفوف البريطانيين الذين كانوا في حرب مع الروس للهيمنة على وسط آسيا . ويبدو أن فامبيري ، المتعاطف مع الإمبراطورية البريطانية ، كان يُعدُّ مصدراً جيداً للمعلومات . وفي عام ١٨٦٤ ، عاد فامبيري إلى بودابست ، حيث اعتنق البروتستانتية ، وعمل أستاذاً للغات الشرقية في جامعة بودابست حتى عام ١٩٠٥ .

وأقام فامبيري ، خلال مروره بإيران ، علاقات وثيقة مع البعثة البريطانية هناك . وساعدته ميوله المؤيدة لسياسة بريطانيا ، ومعرفته الواسعة بالشرق الأوسط والهند ، في أن يكون أحد العناصر المهمة والمفيدة للسياسة البريطانية الخارجية ، حيث قام بتوظيف خبراته عن آسيا الوسطى لخدمة الحكومة البريطانية التي اختارته مستشاراً لها لشئون الهند وآسيا ، كما أوكلت إليه عدة مهام دبلوماسية في الشرق الأوسط . وكان فامبيري صديقاً حميماً لأمير ويلز الذي أصبح فيما بعد الملك إدوارد السابع .

وقد أيَّد فامبيري المشروع الصهيوني منذ مراحله الأولى ، ويرجع إليه الفضل في تقديم هرتزل إلى السلطان عبد الحميد عام ١٩٠١ عندما كان هذا الزعيم الصهيوني يسعى إلى استمالة إحدى القوى الاستعمارية الكبرى آنذاك لتبنِّي المشروع الصهيوني . وبعد وفاة هرتزل ، استمر قادة المنظمة الصهيونية العالمية في طلب المشورة والعون من فامبيري .

وقد وضع فامبيري عدة مؤلفات في اللغات الشرقية وفي علم الأجناس ، وذلك فضلاً عن مقالاته السياسية عن الأوضاع في آسيا . كما سجل سيرته الذاتية في كتاب **أرمينيوس فامبيري ، حياته ومغامراته** (١٨٨٣) ، ونُشرت مذكراته في كتابه **قصة كفاحاتي** (١٩٠٤) .

وفامبيري نموذج جيد لليهودي غير اليهودي ، وللمستشرق الغربي الذي يدرس الشرق ليوظف معلوماته في خدمة الغرب ، وهو يخدم المشروع الصهيوني باعتباره جزءاً من المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يرمي لغزو العالم الإسلامي وتقسيم الدولة العثمانية والاستيلاء على أراضيها ، بما في ذلك فلسطين .

أمين باشا (١٨٤٠ - ١٨٩٢)

Emin Pasha

رحالة ومستكشف نمساوي وُلد لأبوين يهوديين ولكنه عُمِّد مسيحياً في طفولته . درس الطب وعمل طبيباً في ألبانيا . وفي عام ١٨٧٠ ، أصبح الطبيب الخاص لحاكمها .

وفي عام ١٨٧٤ ، عمل في خدمة القوات البريطانية في أفريقيا ، وقام بعدة مهام سياسية وعسكرية في مصر والسودان تحت قيادة الجنرال جوردون . وقد أشهر إسلامه عام ١٨٧٨ لدوافع عملية على الأرجح .

تعاون أمين باشا مع جوردون في مقاومة تجارة العبيد في المنطقة الاستوائية في أفريقيا . وفي عام ١٨٨١ ، قاد حملة لإخماد تمرُّد المهديين في السودان ، إلا أن قواته ضلت طريقها وحُوصرت في جنوب السودان إلى أن تمكن المستكشف البريطاني ستانلي من الوصول إليها وإنقاذها عام ١٨٨٨ .

ومنذ عام ١٨٩٠ ، انتقل أمين باشا إلى العمل في خدمة الإمبراطورية الألمانية ، التي كانت تخوض صراعاً مع بريطانيا للتنافس على مناطق النفوذ في أفريقيا ، حيث قاد حملة للسيطرة على منابع النيل . إلا أن اتفاق بريطانيا وألمانيا بشأن هذه المنطقة أودى بطموحاته في أن يكون خادماً للمصالح الألمانية بعد أن فشل من قبل في جني ثمار خدماته للمصالح البريطانية . بل إنه أصبح في نظر الطرفين عميلاً سابقاً لا قيمة له ، بل عميلاً يتبغي التخلص منه . وإزاء هذا الموقف ، ونظراً لتساقط معظم قواته بسبب الانهاك وتفشي الأمراض ، اضطر أمين باشا إلى الهرب إلى الكونغو حيث اغتيل هناك بإيعاز من تجار العبيد .

سيدني رايلي (١٨٧٤ - ١٩٢٠)

Sidney Reilly

اسمه الأصلي سيجموند جورجيفتش روزنبلوم . وُلد في أوديسا (روسيا) . وجندته الاستخبارات البريطانية ، فعمل جاسوساً لبريطانيا ، واتخذ اسم سيدني رايلي . اشتغل رايلي تاجر سلاح في سانت بطرسبرج ، ونجح قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى في كشف النقاب عن كثير من أسرار برنامج التسلح الألماني . وخلال الحرب ، أُرسل إلى ألمانيا حيث تطوع عدة مرات في الجيش الألماني تحت أسماء مستعارة ، ونجح في تنفيذ العديد من المهام من بينها حضور اجتماع ضم القيصر وقادة الجيش الألماني تم فيه استعراض بعض الخطط الحربية المهمة .

وبعد اندلاع الثورة البلشفية ، تورط رايلي (عام ١٩١٨) في محاولة فاشلة لاغتيال لينين وقلب نظام الحكم ، وهرب إلى إنجلترا بعد أن اكتُشف أمره . وفي عام ١٩٢٠ ، أُرسل رايلي في مهمة سرية إلى روسيا للقاء بعض الجماعات المناهضة للبلاشفة ، ويبدو أنه وقع في كمين وضعه له البوليس السري الروسي ، ولم يُعرَف عنه شيء بعد ذلك .

يفنو أزيف (١٨٦٩ - ١٩١٨)

Yevno Azeff

أحد زعماء الحركة الثورية الروسية وعميل للبوليس السري القيصري . وُلد في منطقة الاستيطان لعائلة يهودية فقيرة . وعندما انتقلت العائلة إلى روستوف ، انخرط أزيف في النشاط الثوري واضطر إلى الفرار إلى ألمانيا عام ١٨٩٢ هرباً من السلطات حيث درس الهندسة وانضم إلى مجموعة ثورية . ولكن ، بعد أن نفدت أمواله تماماً ، أرسل خطاباً إلى البوليس السري الروسي يعرض عليهم فيه التعاون معهم وبيع خدماته لهم والتجسس على رفاقه الثوريين . وعندئذ ، بدأ حياته المزدوجة كعميل للبوليس السري وكعضو نشيط في الحركة الثورية الروسية في آن واحد . وفي عام ١٨٩٩ ، عاد إلى روسيا وانضم إلى حزب اتحاد الثوريين الاشتراكيين السري ، ثم أصبح من كبار قادة الحزب الاشتراكي الثوري الجديد وترأس جناحه العسكري . وخلال الأعوام الخمسة عشر (١٨٩٣ ـ ١٩٠٨) التي اشتغل فيها عميلاً للبوليس السري ، خان الكثيرين من رفاقه الثوريين ، فتم إلقاء القبض على أعداد منهم وإعدام أعداد أخرى من قبل البوليس السري . ولإبعاد أية شبهات عنه ، نشط أزيف في مجال الاغتيالات ، فلعب دوراً رئيسياً في تخطيط وتنفيذ عملية اغتيال وزير الداخلية الروسي فون بليفيه عام ١٩٠٤ ، وعملية اغتيال عم القيصر كذلك ، كما خطط لنسف مقر البوليس السري في سانت بطرسبرج (لكن هذه الخطة لم تُنفَّذ أبداً) . وقد أُثيرت بعض الشكوك حول دوره المزدوج داخل الحركة الثورية منذ عام ١٩٠٢ ، ولكن لم تظهر أية دلائل قاطعة ضده إلا عام ١٩٠٨ حينما انضمت بعض العناصر المنشقة من ضباط الشرطة إلى الحزب الاشتراكي الثوري وأكدت وجود جاسوس داخل صفوف الحزب ، فتم فضح نشاطه المزدوج في محاكمة حزبية وتمت إدانته والحكم عليه بالإعدام غيابياً إلا أن أزيف كان قد هرب إلى ألمانيا . وفي ألمانيا ، ألقت السلطات الألمانية القبض عليه عام ١٩١٥ بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى باعتباره عدواً وكذلك باعتباره ثورياً . وتم الإفراج عنه عام ١٩١٧ ليُتوفى بعدها بقليل .

جوليوس (١٩١٨ - ١٩٥٣) وإثيل (١٩١٦ - ١٩٥٣) روزنبرج

Julius and Ethel Rozenberg

زوجان أمريكيان يهوديان ، وأول مدنيين أمريكيين يُنفَذ فيهما حُكم الإعدام بتهمة التجسس في التاريخ الأمريكي ، وذلك في واحدة من أكثر القضايا إثارة للجدل في الولايات المتحدة . وُلدا في مدينة نيويورك وتزوجا بعد أن انتهى جوليوس من دراسته في الهندسة الإلكترونية في جامعة سيتي كوليدج . وقد ارتبط الاثنان بالحزب الشيوعي الأمريكي ، فكان جوليوس عضواً نشيطاً فيه حيث ترأس فرع الحزب في نيويورك . كما عُيِّن موظفاً مدنياً في الجيش الأمريكي ، ولكنه طُرد من وظيفته بعد أن اكتُشفت علاقته بالحزب الشيوعي ، وذلك رغم أن جوليوس وإثيل كانا قد قطعا علاقاتهما بالحزب عام ١٩٤٣ .

وفي عام ١٩٥١ ، ألقت السلطات الفيدرالية الأمريكية القبض على الزوجين ووجهت إليهما تهمة التجسس وسرقة أسرار القنبلة

الذرية بغرض تسليمها للاتحاد السوفيتي . وكان الشاهد الأساسي ضدهما هو شقيق إثيل (ديفيد جرينجلاس) الذي كان مشتركاً في مشروع القنبلة النووية الأمريكية والذي اعترف بأن جوليوس دفعه إلى التجسس . وقد رفض الزوجان الاعتراف بالتهم التي وُجهت إليهما ، كما رفضا الكشف عن أعضاء شبكة التجسس التي قيل إنهما كانا عضوين فيها .

وقد حُكم على الزوجين بالإعدام ، وذلك في فترة كانت الحرب الباردة على أشدها وكان يسود الولايات المتحدة أجواء من الذعر خوفاً من الجواسيس السوفييت . وقد فشل الاستئناف وكذلك جميع الإجراءات القانونية الأخرى التي اتخذها الزوجان سواء لإلغاء الحكم أو لتخفيفه أو تأجيله ، كما رفض الرئيس الأمريكي أيزنهاور إصدار عفو عن المتهمين . ومما يُذكَر أن أغلب الذين ارتبطوا بهذه القضية سواء المتهمون أو الشهود الرئيسيون أو القاضي الذي حكم بالإعدام كانوا من اليهود .

وقد أثارت هذه القضية جدلاً واسعاً ، سواءٌ داخل الولايات المتحدة أو خارجها ، كان لها بعدها السياسي والعقائدي ، وخرجت المظاهرات المؤيدة للزوجين والمطالبة بالإفراج عنهما . ولا يزال الخلاف حول قضية روزنبرج قائماً حتى اليوم حيث يؤكد البعض براءتهما ، في حين يؤكد البعض الآخر أن نشاطهما كان له الأثر في إنهاء احتكار الولايات المتحدة للسلاح النووي . وقد نُفِّذ في الزوجين حُكم الإعدام عام ١٩٥٣ بعد أن فشلت جميع المحاولات التي استهدفت تأجيله .



٥
مسألة الحدودية والهامشية

الحدودية كتعبير عن وظيفية الجماعات اليهودية ـ هامشية اليهود ـ شذوذ اليهود ـ طفيلية اليهود ـ رجال الهواء (لوفتمنش) ـ المتسولون ـ اللغات السرية لبعض الجماعات اليهودية الوظيفية ـ الجرائم المالية لبعض أعضاء الجماعات اليهودية ـ تهريب البضائع وأعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة ـ فضيحة قناة بنما ـ صنبال ـ أننبرج ـ كراون ـ بويسكي

الحدودية كتعبير عن وظيفية الجماعات اليهودية
Peripherality as Manifestation of the Functionality of the Jewish Communities

«الحدودية» مصطلح يُعبِّر عن نموذج ذي مقدرة تفسيرية وتصنيفية عالية، إذ يرصد ويُفسِّر إحدى السمات الأساسية للجماعات اليهودية، ويُقصَد به وجود أعداد ملحوظة منها «على الحدود»، إما بالمعنى الجغرافي (المكان) أو بالمعنى التاريخي (الزمان)، وهو ما يُعبِّر عن وضعها كجماعة وظيفية. فمن الناحية الجغرافية، يُلاحَظ وجود أعضاء الجماعات اليهودية على أطراف أو حدود الدول أو في مناطق تقع بينها أو في الموانئ البحرية أو في الموانئ التجارية التي تكون محطات ومراكز برية أو في جيتو خاص. أما من الناحية التاريخية، فيُلاحَظ ازدهار أعضاء الجماعات اليهودية في مرحلة تاريخية مؤقتة تقع بين مرحلتين. ويمكن أن تكون الحدودية وضعية بمعنى ألا يكون المثقف أو الرأسمالي من أعضاء الجماعات اليهودية منتمياً إلى مركز التجمع وإنما يكون على حدوده أو هامشه. والحدودية تُعبِّر عن وضع الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية تضطلع بوظائف خاصة (مشينة أو متميِّزة)، وهو ما يتطلب عزلها عن المجتمع، أو بوظائف ريادية في الأماكن النائية والمجهولة. والحدودية الجغرافية يمكن أن توجد بدون الحدودية الوظيفية، والعكس صحيح أيضاً. لكن من الواضح أن الواحدة تقود إلى الأخرى، كما أن انفصالهما هو أمر مؤقت وتعبير عن الفجوة الزمنية التي تسم الظواهر الإنسانية.

وينبغي التنبه ابتداءً إلى أن هذه الصفة ليست صفة كامنة في بنية الطبيعة البشرية اليهودية أو لصيقة بها كما قد يتخيل البعض، فهي صفة مُكتسَبة يمكن تفسير كثير من جوانبها في إطار تاريخي واجتماعي. ويجب أيضاً أن نشير إلى أن ثمة جماعات يهودية عديدة لم تتصف بصفة الحدودية هذه. فيهود بابل كانوا دائماً جزءاً من مجتمعهم، كما أن الأمريكيين اليهود أصبحوا جزءاً عضوياً من مجتمعهم لا يقفون على حدوده وإنما يتحركون داخله ويوجدون في صميمه.

ويمكن القول بأن صفة الحدودية هذه تنطبق بشكل عميق وأساسي على أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي، خصوصاً في شرق أوربا قبل الثورة الصناعية. ولأن وضع هذه الجماعات، كجماعات وظيفية، هو ما أفرز الصهيونية التي هيمنت إلى حدٍّ كبير على كل يهود العالم، وهذه الظاهرة تكتسب أهمية خاصة في الوقت الحاضر.

ويُلاحَظ أن أول ذكر للعبرانيين جاء فيه أنهم جماعات بدوية تنتقل من بلد إلى آخر، فتبقى إما على حدوده الفعلية، أو تدخل إليه للسقيا أو الاستقرار المؤقت. وهم بوصفهم بدواً رُحَّلاً يشكلون فئة اجتماعية تعيش على هامش المجتمع وفي ثغراته. وتدل الإشارات التي وردت في العهد القديم على أن العبرانيين كانوا يرابطون على حدود المدن، شأنهم شأن كثير من البدو الذين يحضرون للاتجار وتبادل السلع، أو يسيرون على طرق التجارة التي تمتد من مكان إلى آخر. وحينما نزل العبرانيون مصر، استوطنوا في جوش (محافظة الشرقية الآن)، وهي منطقة متاخمة لكل من شبه جزيرة سيناء وحدود مصر. ومن الواضح أنهم ظلوا اجتماعياً على حدود المجتمع، يعملون عبيداً أو بنائين، ولذا كان من الممكن طردهم. وبعد التغلغل العبراني في أرض كنعان، استقروا فيها، وهي بلدة على الحدود بين القوتين العظميين آنذاك: مصر وبلاد الرافدين. وتاريخ مملكة داود وسليمان هو تاريخ الانكماش المؤقت لهاتين القوتين، تماماً كما أن تاريخ الدويلتين العبرانيتين (المملكة الجنوبية والمملكة الشمالية) هو تعبير عن الصراع بين هاتين القوتين حينما عادت إليهما الحياة والقوة مرة أخرى. ومعنى ذلك أن وجود الدولة العبرانية والدويلتين العبرانيتين كان في مراحل زمنية مفصلية، أي في مرحلة حدودية بين مرحلتين إن صحَّ التعبير.

ويمكن القول بأن موقع فلسطين الجغرافي يجعل منها دولة حدودية . ولكن حدودية فلسطين ليست صفة جغرافية ثابتة وإنما صفة تاريخية عارضة . فحدودية فلسطين لا تظهر إلا مع تجزؤ المنطقة، وفي غياب قوة محلية تقوم بتوحيدها . فهي قريبة من حدود آسيا مع أفريقيا وتطل على حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتُعَدُّ مدخلاً لبلدان وادي الرافدين ومفتاحاً للشام ومصر ، وهي الطريق الذي يصل آسيا بأفريقيا ويربط مصر بإمبراطوريات الشرق . ولذا ، نجد أن معظم الفاتحين منذ عهد الإسكندر (أول غاز غربي للشرق) كانوا يسعون للاستيلاء على فلسطين لتكون ركيزة مشروعهم الاستعماري . وقد كانت هدفاً عَبْر تاريخها للهجرات والغزوات ابتداءً من التسلل العبراني إلى كنعان الذي تزامن مع غزوة شعوب البحر (الفلستيين) . كما كانت هدفاً للغزو الآشوري فالبابلي فالفارسي فاليوناني والروماني ، ثم موضع صراع بين البطالمة والسلوقيين ، ثم هدفاً لحروب الفرنجة . وقد قام بسماتيك الثاني (٥٩٤ ـ ٥٨٨ ق.م) بتوطين بعض الجنود العبرانيين المرتزقة في جزيرة إلفنتاين باعتبارهم جماعة وظيفية استيطانية قتالية . وكانت إلفنتاين تقع على حدود مصر الجنوبية وكانت ذات أهمية إستراتيجية خاصة ، كما كانت مركزاً للمحاجر المصرية .

وتحولت فلسطين ، بعد أن ضمتها الإمبراطورية اليونانية ، إلى مسرح للصراع بين السلوقيين والبطالمة . ومع بداية ظهور الرومان ، تحالف معهم الحشمونيون ، وتمكنوا من تأسيس دولتهم المستقلة في مرحلة مفصلية أو حدودية ثانية . وبعد أن ضمتها الإمبراطورية الرومانية ، صارت فلسطين أحد مسارح الصراع بين الرومان والفرثيين الذين هيمنوا على بلاد الرافدين آنذاك . وقد ظهرت في تلك الفترة إمارة حدياب التي كانت إمارة حدودية تقع بين الدولة الفرثية والإمبراطورية الرومانية . لكن الصراع حُسم لصالح الرومان وقُضيَ على الإمارة اليهودية . وبهذا ، أصبحت فلسطين مقاطعة تابعة يحكمها الحاكم الروماني مباشرةً .

وفي القرن الأول قبل الميلاد ، بدأ اليهود يغادرون فلسطين في أعداد كبيرة وينتشرون في بقاع الأرض ، ولكن هذا الانتشار تركَّز في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط . ولم تَعُد فلسطين المركز الديني أو السكاني لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، لأنها أخذت تفقد الخاصية الحدودية .

وقد فقدت فلسطين حدوديتها تماماً بعد فترة الصراع بين البيزنطيين والفرس ، حيث أصبحت جزءاً عضوياً من التشكيل الحضاري العربي الإسلامي . واستمر هذا الوضع حتى القرن الحادي عشر حيث جاءت حملات الفرنجة وتأسست ممالك الفرنجة في فلسطين . ولكن هذه الحملات فشلت في تحقيق هدفها وهو تحويلها إلى جزء من حدود أوربا في الشرق .

وبالمثل ، تتسم بعض الجماعات اليهودية الأخرى في العالم بهذه «الحدودية» . وإذا صدقنا دعاوى بعض المؤرخين القائلة بأن ملوك حمير قد اعتنقوا اليهودية في القرن السادس ، أثناء صراعهم مع أباطرة إثيوبيا من الأقباط ، فيمكننا اعتبار اليمن آنذاك منطقة حدودية تقع بين التشكيل الحضاري السامي الوثني في الجزيرة العربية وإثيوبيا المسيحية المتحالفة مع بيزنطة . وقد استوطن أعضاء الجماعات اليهودية في الهند : في بومباي وجوا وكوشين ، وكلها موانئ ومناطق للتجارة .

ومن أهم الأمثلة على هذه الصفة الحدودية ، إمبراطورية الخزر اليهودية الصغيرة التي كانت تقع على الحدود بين الإمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية من جهة والسهوب الروسية التي كانت تسكنها قبائل سلافية وثنية من جهة أخرى . وقد اكتسبت هذه الإمبراطورية أهميتها بسبب موقعها الحدودي ودورها بين هذه القوى . ولكن ، حينما تنصَّر الروس في القرن العاشر وتحولوا إلى قوة روسية أرثوذكسية متحالفة مع بيزنطة ، وازداد ضعف المسلمين العرب ، تم القضاء على إمبراطورية الخزر التي لم يعد لها دور تلعبه .

وقد استوطن أعضاء الجماعات اليهودية ، بعد الفتح العربي ، في شبه جزيرة أيبريا ، وهي المقاطعة المتاخمة للحدود مع العالم المسيحي . ومع هذا ، كان أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمع العربي الإسلامي يفتقدون خاصية الحدودية هذه ، حيث كانوا من صميم المجتمع العربي في الأندلس .

وعلى أية حال ، فإن صفة الحدودية لم تتبلور إلا بتحول الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية داخل التشكيل الحضاري الغربي . ومما قد يكون له دلالته وطرافته أن أول وجود لأعضاء الجماعات اليهودية داخل القارة الأوربية كان في روما (العاصمة الإمبريالية) ثم في كولونيا (وهي معسكر روماني أُسِّس في تلك المنطقة التي تتحكم في وادي الراين ، ويعود اسمها إلى كلمة «كولون Colon» اللاتينية ومعناها «مستعمرة» ، وقد أخذت كلمة «كولونيالية» بمعنى «استعمار» من الأصل نفسه) . وقد أصبحت كولونيا ، بسبب موقعها المتميِّز ، مقراً لأحد أهم الأسواق في أوربا . ويمكن القول بأن خاصية الحدودية كانت خاصية جنينية تظهر وتختفي داخل القارة الأوربية وخارجها ، ولم تصبح خاصية عامة وأساسية وثابتة للجماعات اليهودية في أوربا إلا بحلول العصور الوسطى في

الغرب . ولعل هذا يعود إلى التركيب الإقطاعي المسيحي للمجتمع والذي لم يحدد وضع الأقليات غير المسيحية ، وهو ما جعل اليهود وأمثالهم غرباء . لكن هذا المجتمع كان ، مع ذلك ، مجتمعاً يضم النبلاء والفرسان من جهة والفلاحين من جهة أخرى ، بحيث كانت تفصل بين الجانبين هوة لم يكن بوسع التجار المحليين ملؤها . وقد قام اليهود بملء هذه الشقوق والفراغات وتوسيعها حتى أصبحوا الجماعة الوظيفية الوسيطة الأساسية في أوربا في العصور الوسطى . والجماعات الوظيفية الوسيطة تتكون عادةً من أقلية إثنية تقوم بمهام التجارة والربا وغيرها من المهام التي لا تقوم بها الطبقات الأساسية في المجتمع .

وكان اليهود ، بوصفهم جماعة وظيفية مالية وسيطة ، يقومون بما يُسمَّى التجارة البدائية . لكن هذه التجارة البدائية نشاط اقتصادي ليس من صميم العملية الإنتاجية ، ولذا فهي تمثل نشاطاً حدودياً بين الأنشطة المختلفة . إذ كان التاجر البدائي ينقل السلع من مجتمع إلى آخر ، فيحضر السلع التَرَفيَّة مثلاً من الشرق إلى المجتمع الإقطاعي الغربي ويأخذ منه العبيد والفراء . لكن هذا التاجر البدائي لم يكن منتمياً لا إلى هذا العالم ولا إلى ذاك ، لا إلى الشرق ولا إلى الغرب . وقد وضع ماركس يده على هذه الخاصية حينما قال إن اليهود يعيشون في مسام المجتمع الإقطاعي ، أي على حدوده .

ولم يكن النشاط الربوي اليهودي مختلفاً ، فقد كان المرابون اليهود يقفون في واقع الأمر على الحدود بين الأمير الإقطاعي الذي كان يُدعَى شيخ المرابين والفلاحين وأشباههم ومن هم في مكانتهم الاجتماعية . وكان المرابون يمتصون ثروات الفلاحين ثم يقوم الأمير بدوره بامتصاصهم ، ومن هنا كان يُطلَق عليهم «الإسفنجة» . وكانت وظيفة التاجر والمرابي اليهودي تسقط بسد الفجوة الزمنية وظهور طبقة محلية تضطلع بوظيفة الاتجار وأعمال الصيرفة .

وكان من أهم وظائف الجماعة الوظيفية اكتشاف مجالات الاستثمار الخفية ، والقيام بدور ريادي في الأراضي غير المأهولة وفي المشاريع الخطرة إذ تكون الأشكال التقليدية للاستثمار موصدة دونهم . كما أن العناصر الوسيطة عناصر أكثر حركية ولأنها لا تقع تحت طائلة القوانين الإقطاعية الصارمة . وقد اضطلع كثير من الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية ، ومن ثم كانوا يقعون خارج المجتمع وخارج هيكله القانوني ، يرتادون المناطق غير المأهولة والمجالات الاستثمارية غير المألوفة .

وقد عمَّق حدودية اليهود بعض الأفكار الدينية اليهودية والمسيحية الغربية : أولها فكرة الشعب الشاهد (الكاثوليكية) التي ترى ضرورة الحفاظ على اليهود في حالة ضعَة ومذلة ليقفوا شاهداً على عظمة الكنيسة ، والشعب الشاهد ليس جزءاً من المجتمع إذ يجب عليه أن يقف على الحدود كي يشهد على كل شيء ويشاهده . والفكرة الثانية هي فكرة الماشيَّح اليهودية ، أي الملك الذي سيأتي من نسل داود ليخلِّص اليهود من نير الأغيار ويعود بهم إلى وطنهم القومي ، ويقف بذلك شاهداً على عظمة اليهود وعلى ضعَة الآخرين . ولقد ساهمت الفكرتان معاً في تعميق غربة اليهود وانعزالهم وتفكيك أواصر الصلة بينهم وبين البلاد والشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها . ثم جاء الفكر البروتستانتي الاسترجاعي فمزج الفكرتين ، وأصبح الشعب الشاهد هو نفسه الشعب المقدَّس الذي يجب استرجاعه إلى فلسطين لتنصيره حتى يتم التخلص منه والخلاص للجميع . وتنطوي كل هذه الرؤى الكاثوليكية والبروتستانتية واليهودية ، على افتراض مفاده أن اليهود شعب غريب لا جذور له .

ولقد أصبحت حدودية اليهود في المجتمع الغربي وضعاً طبقياً ووظيفياً محدَّداً يسانده بناء فكري وديني ، وهو ما يعني أن هذا الوضع كان قائماً على مستوى الواقع وعلى مستوى الوعي . وبذا تحددت صورتهم وتبلورت ، وتحدَّد دورهم كعنصر وظيفي وسيط . وقد تعاملت معهم أوربا في هذا الإطار حتى عام ١٩٥٠ تقريباً ؛ أي بعد الإبادة النازية وقيام الدولة الصهيونية واندماج يهود الولايات المتحدة .

وكانت حدودية أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية هي العنصر الأساسي الذي حدد مواطن استقرارهم . ففي العصور الوسطى ، استقر اليهود في إنجلترا (مع الغزو النورماندي) في الموانئ والمراكز التجارية مثل لندن . وظل اليهود مرتبطين بالعنصر الفرنسي الغازي إلى أن طُردوا من إنجلترا في القرن الثالث عشر . وفي بقية القارة الأوربية ، اتخذ استقرارهم الشكل نفسه ؛ وقد أشرنا من قبل إلى استيطانهم كولونيا . كما أنهم استوطنوا أيضاً مدناً تقع على نهر الراين مثل فرانكفورت وورمز وسبير ومتز ، أو على أنهار أخرى مثل مدينة أوجسبرج وماجدبرج وبراغ . والأنهار كما هو معروف من أهم طرق النقل والتجارة ، وبخاصة قبل الثورة الصناعية .

واستمر النمط نفسه وتعمَّق في شبه جزيرة أيبريا ، حيث بقي بعض أعضاء الجماعة ، بعد الفتح الإسلامي ، في الجيوب المسيحية في الشمال . وقد أسس شارلمان جيباً يُسمَّى «ماركا هيسبانيكا» في جبال البرانس ووطَّن فيه الرواد اليهود ، ليكون حاجزاً ضد الزحف

الإسلامي . وتدل الوثائق على أن أعضاء الجماعة اليهودية في هذا الجيب كان لهم حق امتلاك الأراضي الزراعية والعمل فيها وشرائها وبيعها واستئجارها وتأجيرها . ونظراً لعدم وجود كثافة بشرية مسيحية ، كان العنصر اليهودي ، أثناء الغزو المسيحي التدريجي لشبه جزيرة أيبريا ، من العناصر الأساسية التي اعتمدت عليها الجيوش الغازية . وقد انخرط اليهود في تلك الجيوش التي كانت تستخدمهم كجماعة وظيفية استيطانية في الأراضي المفتوحة ، حيث كان يتم منحهم مرة أخرى حق امتلاك الأراضي وزراعتها في وقت كانت الأرض فيه مصدر رزقهم الأساسي . وقد تكرر النمط نفسه في مورسيا وبالنسيا ولامنشا ومقاطعة الأندلس وغيرها . كما مُنح اليهود حق فتح محالٍّ تجارية شريطة أن يستوطنوا مع أسرهم . وبعد استقرار الحكم المسيحي في شبه جزيرة أيبريا ، ومع انحسار المد العربي الإسلامي ، فقد شبه الجزيرة صفته الحدودية ، وطُرد أعضاء الجماعة اليهودية بعد زواج فرديناند وإيزابيلا ونجاحهما في استكمال غزو شبه الجزيرة ببضعة أشهر .

وقد انتشر يهود السفارد ويهود المارانو (المتخفون) الذين طُردوا من إسبانيا والبرتغال في أنحاء المعمورة . وكانوا يتسمون بدرجة عالية وحادة من الحدودية ، أي أنهم كانوا على معرفة تامة بالحضارتين السائدتين آنذاك : حضارة المسلمين في الشرق ، وحضارة المسيحيين في الغرب . كما كان يهود المارانو يقفون على الحدود بين العالمين اليهودي والمسيحي ، فهم يهود في الخفاء مسيحيون كاثوليك في الظاهر ، الأمر الذي سهل لهم التحرك بين الجماعتين . هذا إلى جانب أن كثيراً منهم احتفظ برأسماله واتصالاته داخل شبه الجزيرة الأيبيرية ، حتى بعد أن طُردوا منها ، حيث كانوا يعودون إليها ليصرِّفوا أمورهم ، ثم ينتقلون إلى أوطانهم الجديدة . وكانت السلطات الفرنسية والألمانية تعرف أنهم يهود متخفون ، ومع ذلك سمحت لهم هذه السلطات بالاستيطان باعتبارهم كاثوليكيين من البرتغال أو إسبانيا حتى تستفيد من اتصالاتهم الدولية ورأسمالهم . وقد أدَّى طردهم من أيبريا إلى اتساع نطاق نشاطهم الدولي وازدياد نطاق حدوديتهم ، إذ وُجدت أعداد كبيرة منهم في شتى مناطق التجارة العالمية ، وفي المدن والموانئ الأوربية والعثمانية .

كما استقرت أعداد كبيرة منهم في موانئ مثل بايون وبوردو في فرنسا أو في مدن ذات أهمية تجارية خاصة مثل برودي في جاليشيا أو في مدن مثل فرانكفورت وغيرها من المدن الألمانية التي كانوا قد طُردوا منها . ومن أهم المدن التي استقروا فيها مدينة أمستردام عاصمة هولندا ، وهي من أهم الموانئ التي تطل على المحيط الأطلنطي ، أي أنها تقع على حدود العالم القديم المواجهة للعالم الجديد . كما استقروا في لندن ، وهي أحد أهم مراكز التجارة الأطلنطية التي كانت قد بدأت تحل من حيث الأهمية محل التجارة مع الشرق . وكانت كل من أمستردام ولندن عاصمة لامبراطورية صغيرة ناشئة ، وعاصمة الإمبراطورية هي دائماً مفترق الطرق والنقطة التي يتم فيها عقد الصفقات وتوزيع الغنائم ، وهي أيضاً النقطة التي تستأثر بنسبة عالية من الثروات التي تصب من المستعمرات . وحينما استوطن اليهود في العالم الجديد في الفترة نفسها ، استقروا في نيو أمستردام (نيويورك فيما بعد) وجزر الهند الغربية ، أي في مناطق تجارية على حدود العالم الجديد المواجه للعالم القديم . وقد لعب يهود المارانو والسفارد دوراً مهماً في نشأة الرأسمالية بسبب خاصيتهم الحدودية .

وقد وُجدت أعداد كبيرة أيضاً من اليهود في مقاطعتي الألزاس واللورين ، على الحدود بين ألمانيا وفرنسا ، وهما المقاطعتان اللتان تنازعتهما الدولتان حيث ضمتهما فرنسا في القرن الثامن عشر ثم ضمتهما ألمانيا في عام ١٨٧٠ ، واستعادتهما فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى ثم ضمتهما ألمانيا فترة قصيرة أثناء الحرب العالمية الثانية ، إلى أن استرجعتهما فرنسا بعد ذلك .

لكن أكبر تَجمُّع يهودي في أوربا وفي العالم الحديث كان في بولندا ، وهو ما نسميه «يهود اليديشية» . وقد هاجر إليها اليهود للاشتغال بالتجارة ، واستقروا في وارسو وكراكوف وغيرهما من المدن . وبولندا ، من ناحية ما ، بلد حدودي يقع بين روسيا وبحر البلطيق ويربط بين غربي أوربا وشرقيها . وقد ظلت قوة عظمى مادامت الكتلة الروسية منكمشة والقوة الألمانية مقسمة إلى وحدات صغيرة متنازعة . ولكنها فقدت نفوذها ومكانتها بظهور حكومات مركزية قوية في روسيا وألمانيا اللتين أخذتا تتنازعانها فيما بينهما ، وهي في هذا تشبه فلسطين التي تتنازعها الإمبراطوريات العظمى . وتظهر حدودية بولندا بشكل حاد في عملية تقسيمها بين روسيا وألمانيا والنمسا إذ قُسِّمت ثلاثة أقسام حتى أنها اختفت ككتلة سياسية مستقلة طوال القرن التاسع عشر بعد أن كانت أكبر دولة أوربية لها حدود مع الإمبراطورية العثمانية . وقد تم تقسيم أعضاء الجماعة اليهودية بتقسيم بولندا ، فضُم قطاع منها إلى ألمانيا (بوزن أو بوزنان) وضُم قطاع آخر إلى النمسا (جاليشيا) وضُم الجزء الأكبر إلى روسيا .

وإذا كانت بولندا دولة حدودية ، فإن أكثر أقاليمها حدوديةً هو أوكرانيا التي يعني اسمها « البلد الذي على الحدود » . وقد انتقلت أعداد كبيرة من اليهود إليها بعد ضمها إلى بولندا في القرن السادس

عشر ، ليقوموا بدور جماعة وظيفية استيطانية مالية تمثل مصالح النبلاء الإقطاعيين هناك . وتزايد استيطانهم خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد قاموا بدور جمع الضرائب والصيرفة ، فيما يُعرَف باسم نظام الأرندا . وكان أعضاء الجماعة اليهودية على الحدود جغرافياً في أوكرانيا ، وعلى الحدود مجازياً (بين النبلاء الكاثوليك والفلاحين الأرثوذكس) . ولذا ، حينما قامت ثورة شميلنكي الأوكرانية ، اكتسحتهم في طريقها . وضمت روسيا منطقة أوكرانيا فيما ضمت من أراض بولندية .

وعندما قامت الإمبراطورية الروسية بضم الإمارات التركية الموجودة حول البحر الأسود ، وطنت اليهود في المناطق الجديدة المفتوحة التي عُرفت باسم «روسيا الجديدة» وبخاصة في ميناء أوديسا ، وذلك لصبغها بالصبغة الروسية ولنزع الصبغة التركية عنها . وفي عام ١٩٢٨ ، طرحت الحكومة السوفيتية مشروعاً لتوطين اليهود في القرم ، وهي من أكثر المناطق حدوديةً في العالم حيث حكمها اليونان والرومان والقوط والهن ويهود الخزر والبيزنطيون والمغول وجمهورية جنوة والعثمانيون ثم الروس ، كما غزاها الألمان لفترة قصيرة أثناء الحرب العالمية الثانية . ولكن الحكومة السوفيتية تخلت عن المشروع ونفذت مشروع إقليم بيروبيجان . ويبدو أن المشّرع السوفيتي كان واعياً بخاصية الحدودية في الجماعات اليهودية حينما وطنهم في منطقة على الحدود مع الصين غير بعيدة عن اليابان . ولكن السوفييت ، برفضهم توطين اليهود في منطقتي أوكرانيا والقرم ، لقربهما من ألمانيا والدول الغربية التي قد تجندهم لصالحها ، كانوا يتبعون سياسة القياصرة الذين أصدروا قراراً في القرن التاسع عشر بعدم السماح لليهود بالسكنى إلا على مسافة خمسين فرسخاً من الحدود الأوربية ، وذلك خشية تعاونهم مع الدول المعادية ، خصوصاً أن اليهود كانوا يتحدثون اليديشية وهي رطانة ألمانية . كما أن التوجه الثقافي ليهود روسيا في القرن التاسع عشر كان ألمانياً في الأساس .

ويُلاحَظ أن أكبر تجمُّع يهودي في العالم يوجد اليوم في الولايات المتحدة ، كما أن أكبر نقاط تركُّز أعضاء الجماعة هي نيويورك : المنطقة الحدودية بين الولايات المتحدة وأوربا . ولكن يجب التنبه إلى أن الحدودية الوظيفية لليهود في المجتمع الأمريكي قد تضاءلت وربما اختفت تماماً . ولعل هذا يفسر بداية تضاؤل حدوديتهم على الصعيد الجغرافي ، إذ بدأوا يبتعدون عن مراكزهم الحدودية التقليدية وينتشرون في أنحاء أمريكا .

ومع هذا ، يمكن اعتبار اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالبغاء تعبيراً عن الظاهرة نفسها . فمع علمنة الرغبة في المجتمع الغربي ، دون علمنة السلوك ، ظهرت فجوة بين الرغبة الجنسية وإشباعها كان لابد من ملئها عن طريق جماعة وظيفية . وكان اليهود قد فقدوا وظيفتهم كتجار صغار ، فتحولت أعداد كبيرة منهم إلى العمل بهذه التجارة المشينة . وقد قُضي على هذه الظاهرة مع تزايد معدلات علمنة السلوك في المجتمع الغربي ، بحيث أصبح من الممكن تحقيق الإشباع الجنسي من خلال الإناث المحليات ممن يردن تعظيم ربحهن وزيادة دخلهن دون حاجة إلى وساطة عنصر وظيفي .

ويبدو أن اللغات التي تحدَّث بها العبرانيون وأعضاء الجماعات اليهودية تتسم بالحدودية نفسها . فالعبرانيون في مصر كانوا يتحدثون في الغالب لغة المصريين القدامى بعد أن أدخلوا عليها مصطلحات سامية بحيث أصبحت رطانة خاصة بهم ، أو لعلهم كانوا يتحدثون بإحدى اللهجات السامية بعد أن أدخلوا عليها كلمات وتعبيرات مصرية (قديمة) . وقد ظل هذا هو النمط اللغوي بين أعضاء الجماعات : أن يتحدثوا لغة الأقوام التي يعيشون بينها بعد أن يُدخلوا عليها ألفاظاً عبرية بحيث تصبح رطانة خاصة بهم ، وكانوا عادةً يكتبونها بالحروف العبرية . والرطانة هي طريقة في الحديث مختلفة عن النمط اللغوي السائد ، ولكنها لا ترقى إلى مستوى النسق اللغوي المستقل ، أي أنها تقف على «حدود» اللغة الأم : لا تنتمي إليها كليةً وفي الوقت نفسه لا تنفصل عنها ، تماماً كما هو حال الجماعة الوظيفية التي توجد في المجتمع دون أن تكون منه . وقد كان هذا هو حال اللغة اليديشية التي يصنفها علماء اللغة باعتبارها رطانة ألمانية إذ أن بنيتها في الأساس بنية ألمانية العصور الوسطى . وقد دخلت عليها كلمات من السلافية والعبرية وغيرهما بعد أن نقلها اليهود معهم إلى بولندا ، وكانوا يكتبونها بالحروف العبرية . لكن هذه اللغة ظلت مقصورة على الأمور التجارية ، وعلى الاستخدامات اللغوية عند العوام ، إذ كانت المؤلفات الدينية تُكتَب بالعبرية أو الآرامية . ومع بداية تحديث اليهود ، أي مع دمجهم وتحريكهم من أطراف المجتمع ليصبحوا جزءاً عضوياً منه ، طالب دعاة التنوير بالتخلي عن اليديشية لأنها أصبحت لغة الغش التجاري والتهريب بسبب حدوديتها كما كان سكان البلد الأصليون لا يعرفونها . وقد جرَّمت جميع الحكومات التي أعتقت اليهود سياسياً استخدام اليديشية في الأعمال التجارية .

ولم تزدهر اليديشية كلغة أدبية إلا في مرحلة مفصلية من تاريخ شرق أوربا ، وهي مرحلة التحديث المتعثر في أواخر القرن التاسع عشر ، إذ توقفت عمليات الدمج وانصرف أعضاء الجماعة اليهودية

في روسيا وبولندا وغيرهما عن تحديث أنفسهم لغوياً . كما انصرفوا عن دراسة اللغة الأم واهتموا بدلاً من ذلك بدراسة العبرية واليديشية ، فأنتجوا أدباً باليديشية يرى بعض النقاد أنه يرقى إلى مستوى الأعمال الأدبية الجادة . ولكن ، لم يُقدَّر لهذه المرحلة أن تستمر طويلاً ، فبقيام الثورة البلشفية استؤنف التحديث مرة أخرى وأُتيحت فرص الدمج والحراك الاجتماعي أمام أعضاء الجماعة اليهودية ، فانصرفوا عن إرسال أطفالهم إلى المدارس التي تُعلِّم اليديشية . وانخفض عدد المتحدثين بها في الاتحاد السوفيتي من نحو ٩٧٪ مع نهاية القرن التاسع عشر إلى ١٩٪ من أعضاء الجماعات اليهودية في الوقت الحاضر ومعظمهم من المسنين . وقد اختفت اليديشية تقريباً في الولايات المتحدة أيضاً بسبب المعدلات المتزايدة للاندماج بين أعضاء الجماعات اليهودية .

ويُعدُّ الجيتو التجسيد المعماري المتعين لهذه الحدودية الوظيفية ، فهو يقف داخل المدينة ولكنه ليس منها إذ تفصله أسوار عالية عن بقية أجزائها ، وكان الجيتو يقع أحياناً على أطراف المدينة حتى يمكن عزل اليهود داخل حدوده .

وقد كان لحدودية أعضاء الجماعات اليهودية أعمق الأثر فيهم . فنتيجةً لوضعهم هذا ، تزايد التصاقهم بالحاكم إلى أقصى حد ، إذ أنهم باعتبارهم أداته في الاستغلال كانوا عناصر مرفوضة مهددة بالثورات الشعبية ، وهذا ما جعلهم في حاجة دائمة إلى الدعم العسكري من السلطة . ويتجلى مدى التصاقهم بالحاكم في وضعهم القانوني في العصور الوسطى في الغرب ، إذ كانوا يُعدّون ملكية خاصة للملك (أقنان بلاط) يؤدون له الضريبة ويقوم هو بحمايتهم . وكانت دية اليهودي الذي يُقتَل تُدفَع للحاكم وليس لأهل اليهودي ، كما كانت عقوبة قتل اليهودي أو أحد أبنائه في بعض بلاد أوربا مثل عقوبة قتل أو إيذاء الفرسان بل أشد في بعض الأحيان . وقد حاول البعض تخفيض العقوبة بحيث تصبح مساوية لعقوبة قتل أو إيذاء فلاح ! كان هذا هو وضع يهود ألمانيا ويهود بولندا بشكل عام ، ويهود أوكرانيا بشكل خاص إذ كان تميزهم أكثر حدة وإثارة . لقد كانوا ممثلين للقوة الحاكمة بين المحكومين ، ويعيشون داخل مدن صغيرة مقصورة عليهم (الشتتل ، أي الكيان الغريب المشتول) ، ويتعبدون داخل معابد يهودية تشبه القلاع ، تعسكر بالقرب منهم القوات البولندية لحمايتهم !

وبسبب حدودية اليهود ، ونتيجة لها في آن واحد ، كان العالم الغربي يحوسلهم ، أي يحولهم إلى وسيلة ، والوسيلة لا قيمة لها في ذاتها ، بل تكون المحافظة عليها بقدر نفعها وبمقدار تأديتها الوظيفة المنوطة بها . ومن هنا ، كان الحوار الذي بدأ في أواخر القرن الثامن عشر حول حقوق اليهود ، يدور في إطار مدى نفع اليهود وجدواهم .

وقد ساهمت حدودية اليهود داخل الحضارة الغربية في تعميق المسألة اليهودية فيها وفي تحديد شكل الحلول المطروحة لها . فحدوديتهم الوظيفية والمعنوية عزلتهم عن التطورات العميقة التي حدثت داخل المجتمع الغربي ابتداء من القرن السادس عشر . وجاء عصر النهضة ثم عصر الإصلاح الديني وعصر العقل وعصر الرومانسية ، وهي كلها تعبير عن الانقلاب الصناعي الرأسمالي ، بينما كان اليهود معزولين عن مجتمع الغرب معنوياً رغم وجودهم فيه .

كما عمَّقت الحدودية الجغرافية ، وبشكل حاد ، أبعاد المسألة اليهودية . ولنأخذ ، على سبيل المثال ، الألزاس واللورين : كان يهود هذه المنطقة من الإشكناز الذين يتحدثون اليديشية ويشتغلون بالتجارة والربا ولا يندمجون بمحيطهم الثقافي . وكانت الألزاس واللورين تنتميان إلى التشكيل السياسي الألماني ثم انتقلتا إلى التشكيل السياسي الفرنسي ثم عادتا إلى التشكيل السياسي الألماني مرة أخرى ، وانتهى بهما المطاف بعد الحرب العالمية الأولى إلى أن أصبحتا جزءاً من فرنسا . وليس بإمكان أقلية أن تحدِّد ولاءها وهويتها بما يتفق مع متطلبات الدولة القومية في مثل هذا المناخ الذي تتغير فيه هذه المتطلبات .

وكان الوضع أكثر سوءاً في الجيب البولندي الذي ضم معظم يهود العالم ، أي يهود اليديشية . فقد جرى تقسيم بولندا بين ثلاث دول مختلفة : واحدة منها سلافية (روسيا) والاثنتان الأخريان جرمانيتان (ألمانيا والنمسا) . وقد ضمت ألمانيا مقاطعة بوزن (بوزنان) والمنت يهودها ، ولكنهم ظلوا مع هذا شرق أوربيين . وحينما هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى ألمانيا ، أدَّت هجرتهم إلى تغيير طابع يهود ألمانيا من طابع غرب أوربي إلى طابع شرق أوربي . أما يهود جاليشيا التي ضمتها النمسا ، فقد ظهر بينهم من ينادي بالثقافة الألمانية ، وظهر فريق آخر ينادي بالثقافة البولندية ، وفريق ثالث ينادي بالثقافة العبرية . وكان يهود أوكرانيا متعددي الولاءات ومتعددي الثقافات ، فبعضهم أوكراني وبعضهم الآخر روسي والثالث ألماني والرابع بولندي . ولو وُجد اليهود في بقعة جغرافية غير حدودية لكان من السهل تحديثهم ودمجهم كما حدث ليهود ألمانيا قبل الهجرة من شرق أوربا ، وكما حدث ليهود إنجلترا والولايات المتحدة بعد هذه الهجرة .

ويَصدُر الحل الصهيوني بين الصهاينة المسيحيين واليهود عن هذه الخاصية الحدودية ويتقبلها . ولكن ، قبل أن نتناول البنية الحدودية للحل الصهيوني ، قد يكون مما له دلالته وطرافته أن نذكر أن أول مؤتمر عقده أعضاء أحبّاء صهيون هو مؤتمر كاتوفيتش الذي عُقد على الحدود بين ألمانيا وروسيا . كما عُقد أول مؤتمر للمنظمة الصهيونية العالمية في بال السويسرية ، وهي بلد حدودي محايد ، ذلك لأن يهود ميونيخ ، التي كانت تضم واحدة من أكبر الجماعات اليهودية آنذاك ، قد آثروا الاندماج ورفضوا الهامشية التي كانت الصهيونية تطرحها . كما أن هرتزل نفسه ، الذي اكتشف الصيغة الصهيونية بين اليهود ، كان شخصية حدودية بالدرجة الأولى ، فهو من وسط أوربا التي تقع بين شرقها وغربها ، وينتمي إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية متعددة الولاءات . وهو مجري المولد نمساوي النشأة يهودي المنزع ، كما كانت له ثلاثة أسماء : زئيف (مجري) وتيودور (ألماني) وبنيامين (عبري) . وهو ، رغم تعدُّد ولاءاته ، كان هامشياً بالنسبة إلى هذه المجتمعات جميعاً . وربما كان هذا ما رشحه لأن يكتشف الصيغة الصهيونية الحدودية التي ترى اليهود جماعة حدودية . ورغم ادعاء بعض الصهاينة ، على مستوى التصريحات ، أنهم سيطبِّعون اليهود ويخلِّصونهم من هامشيتهم ، فإن البنية الحقيقية للفكرة الصهيونية بنية حدودية إن صح التعبير . فاليهود ، حسب الرؤية الصهيونية المسيحية والرؤية اليهودية ، شعب يقف على هامش التاريخ غير اليهودي ولا يساهم فيه كثيراً . وقد تحولّت هذه الرؤية إلى فكرة الشعب العضوي المنبوذ، أي اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً جذوره ليست في أوربا وإنما في فلسطين ، ومن ثم فليس بالإمكان تحقيق القومية اليهودية إلا خارج أوربا (في فلسطين) . أما إن بقي اليهود داخل تشكيلات حضارية وقومية لا ينتمون إليها ، فإنهم يتحولون إلى شخصيات هامشية طفيلية يجب التخلص منها . وقد كان يُشار إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية يمكنها أن تضطلع بدور ريادي حدودي مفيد للحضارة الغربية . ويُعتبَر ظهور محمد علي والقضاء عليه عام ١٨٤٠ النقطة الحاسمة في تاريخ الصهيونية ، إذ بدأت القوى الاستعمارية تكتشف خطورة وقوع المنطقة في أيدي قيادة محلية ، الأمر الذي سيفقد فلسطين حدوديتها ، فسعت إلى توطين اليهود فيها باعتبارهم عنصراً حدودياً وجماعة وظيفية استيطانية حتى تظل فلسطين منطقة نفوذ غربية . وكان شافتسبري ينوِّه بفائدة العنصر اليهودي في هذا المضمار ، أما لورنس أوليفانت فقد طرح مشروعاً حدودياً مثيراً لمدّ خط سكة حديدية من استبول إلى بغداد على أن تُخصَّص منطقة بعرض كيلو مترين على جانبي الطريق يُوطَّن فيها اليهود .

وقد تقبَّل اليهود الصهاينة هذا الحل الصهيوني غير اليهودي . فهرتزل يتحدث عن الدولة الصهيونية باعتبارها حائطاً غربياً يقف في الشرق ليصد الهمجية ويتمتع بالحماية الغربية بالمقابل (مثلما تمتع يهود أوربا بحماية الملك والحاكم) ، كما يتحدث عن اليهود باعتبارهم مادة نافعة يمكن الاستفادة منها في خدمة إنجلترا وغيرها من الدول الغربية . أما ماكس نوردو ، فكان يرى أن المشروع الصهيوني يرمي إلى مدّ حدود أوربا إلى الشرق وإلى تخليصها من العنصر اليهودي الحدودي . وقد وصف وايزمان الدولة الصهيونية المزمع إنشاؤها بأنها بلجيكا آسيوية . وهو محق في قوله ، فبلجيكا في علاقتها بإنجلترا تشبه علاقة فلسطين بمصر في كثير من الوجوه . وقد أكد جابوتنسكي أن كون اليهود عنصراً حدودياً سيجعلهم يدينون دائماً بالولاء للغرب وسيحول فلسطين إلى دولة حدودية وظيفية . وهذا على عكس فلسطين العربية التي ستدخل الفلك العربي الإسلامي ، وبذا تفقد حدوديتها . وقد نجحت الصهيونية بمساعدة الإمبريالية الغربية في تأسيس الدولة الصهيونية الوظيفية التي تقع بين آسيا وأفريقيا ، وتطل على قناة السويس وتخلق ثغرة بين شرق العالم العربي وغربه ، وهي قاعدة استيطانية قتالية ومالية للإمبريالية الغربية في المنطقة ، ووجودها منوط بحدوديتها الجغرافية والوظيفية ، أي بوجودها في هذه المنطقة الإستراتيجية وبنجاحها في أداء وظيفتها القتالية والاستيطانية .

وقد لاقت فلسفة نيتشه صدى لدى الشباب اليهودي في شرق أوربا ، ثم بين العديد من الصهاينة ، لأنها فلسفة حدودية تنصح الإنسان بأن يعيش في خطر دائم وأن يبني بيته بجوار البركان . وقد وصل هذا التيار النيتشوي الصهيوني الحدودي إلى الذروة في عقيدة جوش إيمونيم الاستيطانية حيث يذهب المستوطن الصهيوني إلى وسط المدينة العربية ويؤسس بيته . ويحلو لأتباع هذا التيار أن يقتبسوا كلمات «بلعم» ، ذلك العراف الوثني الذي دعاه ملك مؤاب ليلعن العبرانيين القدامى عند اقترابهم من مملكته « هو ذا شعب يسكن وحده وبين الشعوب لا يُحسَب » (عدد ٢٣/٩) . وهذا الاقتباس هو جوهر الصهيونية ، فهو يتضمن التقبل غير المشروط للصفة الحدودية على المستويين الوظيفي و الجغرافي .

والقانون العام الذي يمكننا استخلاصه هو أن العنصر اليهودي داخل الحضارة الغربية يُنظَر إليه باعتباره عنصراً وظيفياً حدودياً . ولهذا ، فلابد أن تتحول فلسطين هي الأخرى ، من منظور المصالح

الغربية ، إلى بلد وظيفي حدودي . وهذا يمكن تحقيقه من خلال خَلْق وضع تجزئة دائم في العالم العربي الإسلامي . وحينما تصبح فلسطين بلد حدودياً تسيطر عليها دولة وظيفية ، يمكن توطين العنصر اليهودي الوظيفي الحدودي فيها . ومن هنا كان رفض الدول الغربية جميع المحاولات الرامية إلى توحيد المنطقة ، ابتداءً من محاولة صلاح الدين الأيوبي ، مروراً بمحمد علي ، وانتهاءً بمحاولة جمال عبد الناصر . وربما كان الفارق الأساسي بين هجمة الفرنجة والهجمة الاستعمارية الصهيونية أن الأولى لجأت إلى ديباجات مسيحية لا علاقة لها بالهدف الإستراتيجي النهائي وأنها صدَّرت عناصر بشرية مسيحية . أما الثانية فقد اكتشفت أن العنصر اليهودي عنصر حدودي وظيفي داخل الحضارة الغربية ، ولذا لجأت هي الأخرى إلى ديباجات يهودية لا علاقة لها بالهدف الإستراتيجي النهائي . ويعني وعد بلفور ، في نهاية الأمر ، فرض الصفة الحدودية على فلسطين عن طريق الاستعمار البريطاني ، كما يرمي إلى توطين العنصر اليهودي الحدودي فيها لخدمة مصالح الحضارة الغربية . ولم يكن بلفور في هذا إلا تعبيراً عن نمط كامن في الحضارة الغربية يستند إلى رؤية كاملة لفلسطين باعتبارها حيزاً جغرافياً يجب أن يوظَّف لصالح الحضارة الغربية ، وإلى اليهود باعتبارهم عنصراً استيطانياً يمكن توظيفه في هذه العملية .

ويُلاحَظ أن الجماعات اليهودية في العالم لم تتخلص من حدوديتها تماماً . وقد أدَّى ظهور الدولة الصهيونية إلى تعميق هذه الخاصيَّة ، إذ بدأت تتسع الثغرة التي تفصل بين أعضاء الجماعات اليهودية والأوطان التي يعيشون في كنفها ، وذلك من حيث هم أفراد يدينون بالولاء لوطنهم الأصلي . كما تحاول الحركة الصهيونية تعميق الهوية الإثنية لدى اليهود ، وهي هوية وهمية (حيث لا توجد هوية واحدة) ولكنها مع هذا تنجح في فصلهم عن محيطهم الحضاري . وتلعب مدارس أعضاء الجماعات اليهودية دوراً أساسياً في هذا المضمار . وقد قامت مدارس الأليانس بتحويل يهود الشرق إلى مادة استيطانية .

ورغم اندماج كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم الجديدة ، إلا أنهم استقروا في قطاعات اقتصادية يمكن أن تسميها حدودية (السينما ـ صناعات خفيفة قريبة من المستهلك . . .) وابتعدوا عن الصناعات الثقيلة والزراعة ، وهذا يحدث للمهاجر الذي يأتي إلى بلد قد تم تأسيس بنيته التحتية ويمتلكها أبناء البلدة أنفسهم . ويُلاحَظ وجود أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في الحركات اليسارية (خصوصاً التروتسكية) والعدمية ، ويُقال إن ٣٠٪ من أعضاء الجماعات السرية من أعضاء الجماعات اليهودية . كما يتجذب أعضاء الجماعات اليهودية إلى العبادات الجديدة ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه حدودية دينية وفكرية .

هامشية اليهود

Marginality of the Jews

«هامشية اليهود» مصطلح يُستخدَم في الدراسات التي تدور حول وضع أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية ، خصوصاً شرق أوربا ، وهو مصطلح يتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود ، ويصف وجودهم الاقتصادي والاجتماعي والحضاري كجماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف وحرف ومهن مختلفة ، مثل التجارة البدائية والربا وقد كانتا عمليتين مرتبطتين بالنظام الإقطاعي ولكنهما لم تكونا قط من صميم العملية الإنتاجية ذاتها . بل إن الحرف التي كان يمارسها اليهود أنفسهم ، لم تكن مرتبطة بالفلاحين، وإنما كانت مرتبطة بالتجار اليهود أو الأمراء الإقطاعيين . ولذلك، فحينما ظهرت الرأسمالية المحلية في شرق أوربا مع بدايات القرن التاسع عشر، ثم الدولة القومية والنظام المصرفي الحديث، وجد أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم بلا دور اقتصادي أو إنتاجي يلعبونه، وبالتالي كانوا عرضة لاضطهاد المجتمع الذي لم يَعُد في حاجة إلى خدماتهم ولم يعد يرى لهم نفعاً، الأمر الذي أدَّى إلى زيادة حدة تفاقم المسألة اليهودية وزيادة هجرتهم إلى غرب أوربا . وقد بذلت الحكومة الروسية، وكذلك الحكومة النمساوية التي كانت تتبعها جاليشيا، جهوداً شتى لتحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج عن طريق فتح أبواب مهنة الزراعة أمامهم . وساهم في هذه الجهود مليونيرات الغرب من اليهود، مثل هيرش وروتشيلد، لأن هجرة اليهود من شرق أوربا إلى غربها كانت تسبب لهم الحرج الشديد كما كانت تهدد مواقعهم الاقتصادية والحضارية التي اكتسبوها عن طريق الاندماج . وقد تعثرت هذه المحاولات وهو ما اضطر الحكومة الروسية، على سبيل المثال، إلى أن تلجأ للقمع الاقتصادي عن طريق إصدار قوانين مايو . وهامشية اليهود موضوع أساسي كامن في كتابات الصهاينة العماليين ـ خصوصاً دوف بير بوروخوف، وأهارون جوردون ـ وهم يقترحون تحويل اليهود إلى شعب منتج عن طريق الهجرة واقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج .

والحديث عن هامشية اليهود فيه كثير من التعميم والتجريد . فالهامشية المقصودة هي هامشية يهود شرق أوربا في أواخر القرن

التاسع عشر الميلادي وحسب ، لأن الدور اليهودي (الوظيفي التجاري المالي) في المجتمعات الزراعية التقليدية في الغرب كان دوراً حيوياً ، إذ اضطلع أعضاء الجماعات اليهودية بوظيفة أساسية في المجتمع رغم أنها لم تكن جزءاً من العملية الإنتاجية الرئيسية . أما الوجود اليهودي في العالم الإسلامي فلم يكن هامشياً قط ، حيث تفاعلوا في محيطهم الحضاري واصطبغوا به فأبدعوا من خلاله وانخرطوا في سائر المهن والوظائف . كما أن الوجود اليهودي في الولايات المتحدة لم يكن أبداً هامشياً وإنما كان في صميم المجتمع ذاته من البداية . كما لا يمكننا استخدام مصطلح «هامشي» لوصف الوجود اليهودي في فرنسا أو إنجلترا أو روسيا السوفيتية (سابقاً) ، فالبناء الوظيفي لأعضاء الجماعات اليهودية في كل هذه البلاد لم يَعُد متميزاً كما كان الأمر سابقاً . وإذا كان ثمة تميُّز ، فإنه يعود لكون الجماعة اليهودية أقلية أو جماعة وظيفية وليس لأنها يهودية . وإذا كان هناك أي وجود هامشي غير منتج حتى الآن ، فهو وجود الدولة الصهيونية الوظيفية المموّلة من الخارج التي أُسّست على أرض الفلسطينيين وحولّتهم إلى عمالة رخيصة وتستمر في قمعهم وإجهاض تطلعاتهم وأحلامهم المشروعة .

شــــذوذ اليهــــود

Abnormality of the Jews

«شذوذ اليهود» مصطلح شائع في الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود ويشير إلى بعض السمات التي تُوصَف بأنها غير طبيعية ، والتي يُفترَض أنها تسم أعضاء الجماعات اليهودية الغربية ، والتي يمكن إزالتها عن طريق إصلاح اليهود أو تحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج أو عن طريق دمجهم أو تطبيعهم . ويرى الصهاينة أن وجود اليهود في المنفى والشتات (أي خارج فلسطين) حالة شاذة تسبب شذوذاً للشخصية اليهودية . وبالفعل ، وجه الصهاينة سهام نقدهم إلى هذه الشخصية المريضة الشاذة غير السوية .

ولشذوذ الشخصية اليهودية ، من وجهة نظرهم ، مظهران أساسيان : أحدهما اقتصادي والآخر سياسي . أما المظهر الاقتصادي ، فيتبدَّى في اشتغال اليهود بأعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة ، مثل : التهريب والأعمال المالية والاتجار في العقارات وتجارة الرقيق الأبيض والتسول ، بينما يتمثل المظهر السياسي فيما يُطلَق عليه إشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة . فالصهاينة يرون أن اليهود ، بعد تحطيم الهيكل ، أصبحوا جماعات مشتتة ليس لها سيادة مستقلة ، ويوجد أعضاؤها خارج نطاق مؤسسات صنع القرار ، الأمر الذي كان يعني ، من وجهة نظر الصهاينة ، توقُّف مسار ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» . وقد انعكست الظاهرة أيضاً في ازدواج الولاء عند اليهودي ، فهو نظراً لافتقاره إلى وطن قومي خاص به يضطر إلى أن ينتمي إلى مجتمعات غريبة يحاول أن يندمج فيها . ولكن نزعته القومية الحقيقية تستمر ، مع هذا ، في التعبير عن نفسها رغم أنفه ، فينقسم على نفسه وتتنازعه الولاءات المتناقضة . وقد عبَّر المؤرخ الصهيوني العمالي دوف بير بوروخوف عن القضية نفسها بطريقة أخرى إذ لاحظ أن الهرم الاجتماعي عند اليهود مشوه تماماً . فبدلاً من وجود قاعدة عريضة من العمال والفلاحين والطبقات المنتجة ، وقلة من المفكرين والأطباء والمحامين والوسطاء ، كما هو الحال في معظم المجتمعات ، نجد العكس تماماً عند اليهود . فالهرم الإنتاجي عند اليهود مقلوب رأساً على عقب إذ أن معظم اليهود من الوسطاء .

وغني عن القول إن السمات الشاذة التي تسم أعضاء الجماعات اليهودية هي في واقع الأمر السمات الأساسية لأية جماعة وظيفية ، ومن ثم فهي تمثل ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة لا تتسم بأي شذوذ . ولكن المعادين لليهود والصهاينة يرونها كذلك لأنهم يعزلون أعضاء الجماعات اليهودية عن محيطهم الحضاري والاجتماعي وينظرون إليهم من خلال نماذج اختزالية لا علاقة لها بوضعهم المتعيِّن ، ثم يحكمون عليهم بالشذوذ .

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودي المثالي (المجتمع الصهيوني) كجزء من مشروع حضاري متكامل يهدف إلى تطبيع الشخصية اليهودية ، أي تخليصها من شذوذها المزعوم ، وذلك بتحويل اليهود إلى أشخاص طبيعيين ينتجون ويستهلكون ويتحكمون في مصيرهم السياسي ويشعرون بالولاء نحو دولتهم ، شأنهم في هذا شأن البشر كافة .

وغني عن القول أن مفهوم شذوذ الشخصية اليهودية مفهوم محوري في أدبيات معاداة اليهود ، خصوصاً في الفكر النازي . لكن حل المشكلة بالنسبة إلى النازيين ليس إصلاح الشخصية اليهودية وإنما التخلص منها بأي شكل ممكن ؛ عن طريق إرسالهم عبر الحدود إلى بولندا باعتبار أن أغلبيتهم كانت من يهود شرق أوربا ، أو عن طريق إبادتهم . وقد كانت استجابة الصهاينة لعملية الإبادة نابعة من هذا الإيمان بشذوذ يهود أوربا . فحينما طلب بعض يهود أوربا عام ١٩٤٢ من يتسحاق جرونباوم (أحد أعضاء النخبة الصهيونية في فلسطين) بأن يقوم المُستوطَن الصهيوني باتخاذ خطوات لإيقاف الإبادة ، أخبرهم بأن « من الضروري التخلص من وضع اليهود غير

العادي حتى نصبح أمة مثل الأمم كافة » ، ومن ثم يكون من الأفضل ـ من وجهة نظره ـ التخلي عن يهود أوربا حتى لا يتعرض شيء في المُستوطَن الصهيوني للخطر ، حتى ولو بضع بقرات (على حد قوله).

ويشير بعض المحللين السياسيين إلى الدولة الصهيونية بوصفها من أكثر الدول شذوذاً وأقلها طبيعية . فاقتصادها أصبح اقتصاداً تسولياً يعتمد على الغرب ، ودرجة إنتاجية العمال فيها آخذة في التدني ، وأصبحت صناعة السلاح من الصناعات الأساسية فيها ، كما تحولت هي نفسها إلى دولة شتتل/ قلعة تدخل في حرب تلو حرب ، كما أنها مهددة من الداخل بالانفجار السكاني العربي . وهي توجد في الشرق الأوسط وليست منه ، وهي دولة يهودية فشلت في تعريف من هو اليهودي ، الأمر الذي يشير إلى أن بنيتها أبعد ما تكون عن الطبيعية والسواء . كما أن الإسرائيليين عادوا مرة أخرى إلى الشذوذ والهامشية إذ تنخرط أعداد كبيرة منهم في أعمال السمسرة والجريمة ، وأصبحت الدولة الصهيونية من أكبر مُصدِّري العاهرات إلى الغرب حتى أن لغة القوادين في أمستردام (على سبيل المثال) هي إحدى الرطانات العبرية ، كما أن قطاع الخدمات غير الإنتاجي آخذ في التضخم رغم أن المواطن الإسرائيلي من أكثر المواطنين مديونية في العالم . ونحن نذهب إلى أن الدولة الصهيونية هي في واقع الأمر دولة وظيفية .

وقد طرحت الانتفاضة مرة أخرى ، وبحدة ، قضية شذوذ اليهود والدولة الصهيونية ، إذ اكتشف التجمع الصهيوني مدى اعتماده على العمالة العربية ، خصوصاً بعد أن حقق العمال اليهود من أصل شرقي (من يهود العالم الإسلامي) حراكاً اجتماعياً فتركوا قاعدة الهرم الإنتاجي ليمارسوا وظيفة الوسطاء وغير ذلك من الوظائف ، الأمر الذي ترك هذه القاعدة للعمالة العربية . وقد أدَّت مقاطعة العمال العرب إلى تعطيل كثير من القطاعات الإنتاجية .

طفيلية اليهود

Parasitism of the Jews

كلمة «طفيلية» ترجمة للكلمة الإنجليزية «باراسيتزم parasitism» (من «باراسيت parasite» ومعناها «طفيل» والمأخوذة أصلاً من الكلمة اليونانية «باراسيتوس parasitos» بمعنى «يأكل إلى جانب») . وتُستخدَم الكلمة للإشارة إلى الحيوان أو النبات الذي يعيش على غيره . ويستخدم المعادون لليهود مصطلح «طفيلية اليهود» لوصف ما يتصورون أنه علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالمجتمعات التي يعيشون في كنفها . والكلمة مرادفة لكلمات أخرى مثل «هامشية» أو «شذوذ» أو تشترك معها في بعض المعاني والإيحاءات .

ولعل وصف أعضاء الجماعات اليهودية بالطفيلية يعود إلى كونهم جماعة وظيفية وسيطة موقعها عند حافة المجتمعات وفي الشقوق ، وهو وضع استمر في شرق أوربا ووسطها حتى بداية القرن العشرين . فالجماعة الوظيفية الوسيطة تتركز في الأعمال غير الإنتاجية وتحقق أرباحاً عالية دون أن تنتج شيئاً متعيِّناً أو ملموساً ، على عكس الزارع أو الصانع ، حيث كان أعضاؤها يضطلعون بوظائف مثل الربا والتجارة وتجارة الرقيق والبغاء . ولذا كان يُشار إلى اليهود باعتبارهم «لوفتمنش» ، وهي كلمة ألمانية تعني حرفياً «رجال الهواء» ، ومعنى ذلك أن اليهود شعب يكسب رزقه لا من الإنتاج وإنما من الهواء أي من لا شيء . وقد وُصفت وظيفة اليهود كمرابين ، أو كجماعة وظيفية وسيطة عميلة ، بأنها كالإسفنجة يستخدمها الحاكم لامتصاص فائض القيمة من المجتمع ثم يعتصرها لحسابه . ورغم أن الإسفنجة مختلفة عن الكائن الطفيلي ، إذ أن الكائن الطفيلي يمتص رزق الآخرين لحسابه على حين أن الإسفنجة تمتصها لحساب الآخر ، فإن الجماهير التي جرى امتصاص رزقها لم تر سوى الجزء الأول من عملية الامتصاص . والإسفنجة والكائن الطفيلي يشتركان في أنهما دون أهمية بالنسبة إلى الجسم الذي يعيشان عليه ، بل إنهما يشكلان خطورة شديدة عليه ويهددان حياته . ولعل إدراك الجماهير لليهود في العالم الغربي في العصور الوسطى ، كجسم طفيلي أو كإسفنجة ، هو أصل تهمة الدم ، حيث يُتَّهم اليهود بامتصاص دماء ضحاياهم .

وقد استُخدمت كلمة «طفيلي» في الخطاب الاشتراكي الغربي لوصف اليهود والرأسماليين . فقد وصف المفكر الاشتراكي الفرنسي توسينيل اليهودي بأنه مثل البكتريا التي تنتشر بسرعة .

وطفيلية يهود العالم خارج فلسطين موضوع كامن أساسي في الأدبيات الصهيونية ذات الديباجة الاشتراكية . فقد وصف المفكر الصهيوني العمالي أهارون جوردون يهود العالم خارج فلسطين بأنهم طفيليون ، كما استخدم المفكر الصهيوني الألماني ماكس نوردو كلمة «البكتريا» لوصف وضع اليهود في المنفى ، واستخدمها من بعده الزعيم النازي أدولف هتلر . ومن هنا ، فإن صورة اليهودي كطفيلي صورة أساسية في الخطاب السياسي الغربي ، الرأسمالي والاشتراكي ، الصهيوني والمعادي لليهود .

وقد اقترح نوردو أن يكون حل مشكلة الطفيلية اليهودية من

خلال ظهور اليهودية ذات العضلات . وبالتالي ، يمكن حل إشكالية الشعب الطفيلي عن طريق استيطانه في فلسطين بالعنف ، والاستيلاء على الأرض ، على أن يعمل فيها بنفسه ، فيخلِّصها من العرب ويخلِّص نفسه من الطفيلية ، وهذا هو الخلاص الصهيوني .

ويتواتر موضوع طفيلية اليهود في الأدب العبري الحديث وفي الكتابات الإسرائيلية ، إذ يرى كثير من المحللين الإسرائيليين أن المجتمع الإسرائيلي يسقط مرة أخرى في الطفيلية ، خصوصاً بعد أن تغلغلت العمالة العربية في قطاعات المجتمع الإسرائيلي كافة ، وأن شعب الهواء بدأ يظهر مرة أخرى . كما يرون أن انتشار الجريمة ، والفساد ، وعدم الاكتراث بالإنتاج ، هي من أشكال الطفيلية .

رجال الهواء (لوفتمنش)

Luftmensch

«لوفتمنش» كلمة ألمانية تَصعُب ترجمتها ، ولكنها تعني حرفياً «رجال الهواء» ، وهي تصف أعضاء الجماعات البشرية الذين لا توجد أرض راسخة تحت أقدامهم وليس لديهم خبرة في أي شيء ولا مهنة أو حرفة لهم ولا يمتلكون رأس مال أو عملاً ثابتاً ، فهم يعيشون في الهواء وعلى الهواء . وكانت الكلمة تُستخدَم للإشارة إلى قطاع كبير من يهود شرق أوربا الذين يضطلعون بوظائف الجماعة الوظيفية الوسيطة والذين حلت محلهم الطبقات المحلية والدولة القومية المركزية ، فأصبحوا بلا وظيفة أو مهنة أو عمل ، وتحولوا إلى باعة جائلين ومتسولين وقوادين . كما أن الكلمة تشير أيضاً إلى اشتغال اليهود بالأعمال الفكرية والمالية والتجارية ، وتشير إلى بعدهم عن الأعمال الزراعية أو الصناعية (الإنتاجية أو اليدوية) وإلى اشتغالهم كوسطاء في القطاع العقاري . وهي الظاهرة التي يُطلَق عليها أيضاً «هامشية اليهود وشذوذهم وطفيليتهم» .

ويرى الصهاينة أن اليهود كافة مُعرَّضون دائماً لأن يصبحوا لوفتمنش (رجال هواء) باعتبار أنهم شعب بلا أرض ، وهم للسبب نفسه شعب مُهدَّد دائماً بالأخطار إذ أن الإنسان لا يمكنه أن يحيا حياة كاملة مطمئنة إلا بين جماعته وفي أرضه . بل إن حالة الهوائية الاقتصادية التي يعيشها الفرد اليهودي ليست إلا انعكاساً للهوائية التي يعيشها الشعب اليهودي ككل ، فهي التي حولّت اليهود إلى تجار ومثقفين وأبعدتهم عن الطوائف الراسخة وعن الارتباط بالأرض .

كما يرى الصهاينة أن اليهودية الإصلاحية شكل من أشكال الهوائية ، فهي معلقة بين الأرض والسماء ، ويرون كذلك أن اليهود المندمجين هم أيضاً شخصيات ممزقة هوائية غير منتمية . ويصف الشعار الصهيوني (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) هذه الحالة الهوائية لدى الجماعات اليهودية . ويهدف المشروع الصهيوني إلى تخليص اليهود من هذه الحالة الهوائية بتوفير أرض لهم يعيشون فيها ، وتوفير هرم إنتاجي متكامل ينتمون إليه ويكون مقصوراً عليهم حتى يكون بينهم العامل والفلاح والمثقف .

وقد كان مصطلح «لوفتمنش» شائعاً في الأدبيات النازية ، ولذا قال أيخمان ، في معرض الدفاع عن نفسه أثناء محاكمته ، إنه كان يهدف إلى وضع قليل من الأرض الراسخة تحت أقدام اليهود . وقد نجح المشروع الصهيوني في توفير الأرض ، ولكنه مع هذا لم ينجح في تخليص اليهود من صفة الهوائية ، ومن ثم بدأت الكلمة تظهر مرة أخرى في الصحف الإسرائيلية إذ بدأ المستوطنون الصهاينة يتحولون إلى وسطاء ، يتركون قاعدة الهرم الإنتاجي ويطفون على قمته ويعيشون على الهواء دون عمل إنتاجي أو يدوي .

ويهدف المشروع الصهيوني إلى تحويل الفلسطينيين إلى لوفتمنش ، أي إلى رجال يعيشون في المخيمات والعراء والهواء أو إلى جماعات بشرية تعيش على هوامش المجتمعات . ولكن تَحوُّل الفلسطينيين من لاجئين إلى فدائيين مجاهدين أسقط هذا المخطط الصهيوني .

المتسولون

Schnorers (Beggars)

كلمة «المتسولون» هي المقابل العربي لكلمة «شنوررز schnorers» ، وهي كلمة يديشية في صيغة الجمع مفردها «شنورر schnorer» أي «شحاذ» أو «متسول» . وتتواتر هذه الكلمة في الأدبيات الصهيونية وفي الدراسات عن الجماعات اليهودية ، وبخاصة في القرن التاسع عشر . وتعود الظاهرة إلى العصور الوسطى مع تطبيق قانون تحريم الاستيطان (حيريم هايشيفاه) وهو قانون كان يحق بمقتضاه لكل جماعة يهودية أن تمنع أي يهودي ينتمي إلى أية جماعة أخرى من الإقامة في مدينتها إلا بضعة أيام عليه أن يغادرها بعدها . وقد أدّى هذا الوضع إلى ظهور آلاف اليهود الذين لم يكن لهم حق السكنى في أية مدينة أو قرية رغم أنه كان يتعيَّن عليهم الانتقال دائماً من مكان إلى آخر . ومن المعروف أن التجمعات اليهودية في العصور الوسطى كانت تتكون من أقلية ثرية من كبار المموِّلين والحاخامات وتحتها قاعدة ضخمة من المعدمين أو صغار التجار الذين كان لا يفصل بينهم وبين التسول سوى شعرة .

وكانت أعداد كبيرة منهم تتحول إلى متسولين كل الوقت أو بعضه . بل وكانت تتداخل مهنة التسول مع مهن أخرى ، فعمل المتسولون أحياناً معلمي موسيقى أو تجاراً متجولين أو مهرجين أو حواة . وقد أخذ عدد هؤلاء في التزايد ابتداءً من القرن الثالث عشر .

ويُستخدَم مصطلح «شنورر» بالمعنى الضيق للإشارة إلى المتسول الذي تَلَقَّى شيئاً من التعليم الحاخامي ، وبالتالي فهو ليس متسولاً بالمعنى العادي للكلمة وإنما هو طالب للصدقة ويعتبرها حقه الطبيعي الذي يجب أن يعطيه إياه الأثرياء حتى ينالوا الخلاص . ومثل هذا المتسول المتعلم المتبجح كان يروي في العادة قصة ما تُفسِّر قيامه بالتسول ، فهو يجمع الأموال ليعود إلى تجارته بعد أن أفلس أو ليزوج قريبة فقيرة . وكان هذا المتسول يظهر دائماً يوم السبت أمام المعبد وهو يعلم تمام العلم أن أعضاء الجماعة سيضطرون إلى أن يدفعوا له صدقة حتى لا يظهروا بمظهر سيئ في ذلك اليوم أمام بعضهم البعض ، وحتى لا تظهر الجماعة اليهودية ككل بمظهر سيئ أمام الأغيار . وكان لكل متسول طرق محددة يسلكها ومناطق معروفة يتسول فيها ويزورها في فترات منتظمة لا ينافسه فيها أحد . وكثيراً ما كان يتم بيع هذه المناطق لمتسول آخر (وهذا أمر مألوف بين جماعات المتسولين في كل المجتمعات والذين يشكلون جماعات قريبة الشبه من الجماعات الوظيفية) .

ومع بدايات القرن التاسع عشر ، زادت نسبة العاطلين عن العمل في أوساط اليهود وهو ما اضطرهم للتسول ، وذلك بعد أن فقدت كثير من الجماعات اليهودية في شرق أوربا وظيفتها التقليدية ، وبعد تَصاعُد عمليات التحديث التي اجتثت الملايين (ومن بينهم أعضاء الجماعات اليهودية) من جذورها ، ولم توفر لهم فرصاً جديدة أو وفرت لهم فرصاً لم يستطيعوا التكيف معها ، وبعد الانفجار السكاني بين أعضاء الجماعات . وكان ١٠٪ من جميع يهود أوربا (في العقود الأولى من القرن التاسع عشر) متسولين .

وكان تزايد حدة هذه الظاهرة يسبب كثيراً من الحرج ليهود غرب أوربا المندمجين المستقرين ، إذ كان شرق أوربا يقذف على بلادهم ألوفاً من يهود اليديشية الذين كانوا أساساً متسولين . وقد اضطرت بعض الجماعات اليهودية في غرب أوربا إلى أن تمنع دخول أية عناصر يهودية جديدة فيها ، واستعانت بالحكومات ضد اليهود الوافدين . حيث كانت تصل أحياناً جماعات كبيرة من الفقراء اليهود يطالبون بالمساعدة وبالقوت كحق من حقوقهم .

وقد أدَّى وصول المتسولين إلى ظهور الصهيونية التوطينية ، أي صهيونية يهود الغرب الذين لا يهتمون بالاستيطان في فلسطين إلا باعتباره وسيلة للتخلص من جيوش المتسولين أو الفائض الإنساني اليهودي (على حد قول هرتزل) .

وكان روتشيلد يرى في هرتزل أحد هؤلاء المتسولين الذين يودون الحصول على أمواله . وقد كان محقاً إلى حدٍّ ما ، فالمستوطنون في فلسطين كان كل همهم ، في مرحلة من المراحل (قبل أن يبدأ التمويل الحكومي الغربي) ، الحصول على أكبر قسط من أموال روتشيلد . بل كان هرتزل نفسه يشير إلى المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) باعتباره جيشاً من الشحاذين يقف هو على رأسه ، وكان يخشى أن تشجع الصهيونية الخارجية التوطينية هذا الاتجاه بين اليهود .

وبالإمكان رؤية الدولة الصهيونية ، باعتمادها الكامل على التمويل الغربي ، على اعتبار أنها شنورر بعد أن تم تحديث عملية التسول بحيث تتم بشكل منظم يأخذ شكل اتفاقات تضمن تدفُّق المعونات في موعدها . ويرفض المتحدثون الإسرائيليون بطبيعة الحال صورة المتسول هذه ويشيرون إلى الدور الذي تلعبه الدولة الصهيونية في حماية مصالح الغرب في المنطقة وإلى أن ما تتقاضاه من معونات أقل بكثير من العائد الذي تأتي به ، أي أنهم يُحلّون صورة المملوك محل صورة الشحاذ . ولكن ، في الأونة الأخيرة ، أخذ كثير من المعلقين السياسيين الإسرائيليين في الإشارة إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة شنورر أو دولة شحاذين ، وإلى الاقتصاد الصهيوني باعتباره اقتصاداً تسولياً . ونحن نرى أن هذا المصطلح يُفسِّر كثيراً من جوانب الاقتصاد الإسرائيلي . والفارق بين المتسول والدولة الإسرائيلية هو أن المتسول يأخذ ولا يعطي إلا الدعوات لصاحب الصدقة ، أما الدولة الصهيونية فتأخذ ثم تقوم بدور حيوي للاستعمار الغربي في المنطقة وهو دور كلب الحراسة ، أي دور الجماعة الوظيفية القتالية حيث تتم مقايضة المال بالقتال .

اللغات السرية لبعض الجماعات اليهودية الوظيفية

Secret Languages of Some of the Functional Jewish Communities

«اللغات السرية» هي لهجات ورطانات خاصة ، بل أحياناً لغات ، يستخدمها أعضاء الجماعات الوظيفية . وهذه اللهجة أو الرطانة أو اللغة عادةً ما تختلف عن لغة المجتمع المضيف أو مجتمع الأغلبية . وقد كان تحدُّث هذه اللغة يُعدُّ شرطاً للانخراط في سلك الجماعة . فكان المماليك يتحدثون فيما بينهم الشركسية (أو إحدى اللغات التركية) ، ويتحدث الصينيون من أعضاء الجماعات الوظيفية

الوسيطة في جنوب آسيا لغتهم ، ويتحدث العرب في أفريقيا لغتهم العربية . أما أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة من اليهود في شرق أوربا ، فكانوا يتحدثون اليديشية . ويُلاحَظ أن بعض أعضاء النخبة الحاكمة المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ كانوا يتحدثون التركية (أو العربية المطعمة بالتركية) كمظهر من مظاهر التميز والعزلة والانتماء للجماعة الوظيفية الحاكمة . وهذا هو مصدر النمط السائد في الكوميديا المصرية بعد الثورة - المصري/ التركي منتفخ الأوداج المتعجرف ، الذي يتحدث هذه اللهجة كإحدى علامات التميز . ولكن تعجرفه ليس له ما يسانده في الواقع ، فهو عضو جماعة وظيفية حاكمة فقدت وظيفتها . ويبدو أن التحدث بإحدى اللغات الأوربية بين أعضاء النخب الحاكمة والثقافية في العالم الثالث (والتي تحولّت إلى ما يُشبه الجماعة الوظيفية التي تخدم مصالح الاستعمار والنظام العالمي الجديد) قد أصبح هو الآخر رمز الانتماء للجماعة الوظيفية ، فالمتحدث بهذه اللغة يبيّن كفاءته ، وهو في الوقت نفسه يعزل نفسه عن الجماهير التي لا تتحدث سوى لغة الوطن !

واللغة ، من ثم ، هي وسيلة من وسائل الفصل بين الجماعة وأعضاء المجتمع المضيف ، وأداة للتواصل بين أعضاء الجماعة . ولعل في إصرار الصهاينة على أن تكون لغة الدولة الصهيونية هي العبرية وليس الإنجليزية لغة القوى الإمبريالية العظمى ، أو الإسبرانتو اللغة التي طورها اليهودي الروسي زامنهوف على أمل أن تكون لغة عالمية ولغة يتحدث بها المُستوطَن الصهيوني) إدراكاً من جانبهم لطبيعة الدولة الصهيونية باعتبارها دولة وظيفية .

ومن الأشكال المتطرفة للغات الجماعات الوظيفية اللغات السرية ، فالعوالم والنشالون ، على سبيل المثال ، لهم لغاتهم السرية، وهي في الغالب رطانة تركيبها هو تركيب اللغة الشائعة في المجتمع مع إضافة مفردات لغوية لا يعرفها إلا عضو الجماعة الوظيفية . واللغة السرية فائدة مباشرة إذ تُسهِّل عملية أداء الوظيفة ، وهي وظيفة مشينة في العادة ، ومن ثم تصبح اللغة السرية من علامات الهامشية .

وقد استخدم أعضاء الجماعات اليهودية هذه الآلية للتواصل . وكانت لغاتهم السرية تتكون في العادة من جُمَل باللغة المحلية تحتوي على كلمات عبرية تُعالج حسب قواعد اللغة المحلية ، فكلمة «أخل» مثلاً كلمة عبرية بمعنى «أكل» ، فإن كان المتحدث اليهودي يتحدث بالإنجليزية فإنه يُعبِّر عن معنى أنه «قد أكل بالفعل» على النحو التالي: «هي هاز أوريدي أخلد He has already akhaled» . ولا تُعبِّر هذه الكلمات الداخلية إلا عن الأجزاء المهمة من الأسماء أو الأفعال في الجملة . كما كانت تترجم أسماء الأماكن حرفياً إلى العبرية فكلمة «نيويورك» مثلاً في عبارة «ذهبت إلى نيويورك» ، تصبح «آي وُنت تو يورك حاداش I went to york hadash» حيث جاءت كلمة «حاداش» بديلاً عن الجزء الأول من كلمة نيويورك «نيو» ، ومعناها «جديد» .

وكان أعضاء الجماعة اليهودية يستخدمون اللغة السرية لمناقشة الأمور التي تهمهم دون أن يفهمهم أحد من المحيطين بهم ، بخاصة في الأسواق ، وهو ما كان يُسهِّل عملية الغش التجاري والاحتيال ، وكثيراً ما كان اللصوص يتعلمون هذه اللغة لاستخدامها بين الناس دون أن يفهمهم أحد . فقد قام موظف بروسي بإعداد معجم عن لغة اللصوص السرية في أواخر القرن الثامن عشر ، وظهر أن كثيراً من كلمات هذه اللغة السرية ذات جذور عبرية أو أصل عبري . وقد أُخذ هذا دليلاً على اشتراك أعضاء الجماعة اليهودية وتورطهم في عالم الجريمة .

وفي الوقت الحاضر ، يبدو أن كثيراً من القوادين والقائمين على تجارة الرقيق الأبيض يتحدثون لغة سرية ذات أصول عبرية ، وقد يعود هذا لوجود عدد كبير من أعضاء الجماعة اليهودية ، يعملون قوادين أو بغايا ، في هذه المهنة المشينة حتى ثلاثينيات هذا القرن ، وقد أصبحت إسرائيل مصدراً للبغايا في أوربا في الوقت الحاضر . ويُقال إن لغة القوادين في أمستردام قد دخلتها كلمات عبرية كثيرة .

وقد كانت اليديشية تحل أحياناً محل اللغة السرية ، وهي رطانة ألمانية دخلت عليها مفردات سلافية وعبرية ، فكان لا يفهمها سوى أعضاء الجماعة اليهودية ، فأصبحت اليديشية لغة الغش التجاري في القرن التاسع عشر ، ولذا حرَّمت الحكومات على اليهود استخدامها .

الجرائم المالية لبعض أعضاء الجماعات اليهودية

Financial Crimes of Some Members of Jewish Communities

«الجرائم المالية» هي الجرائم التي يرتكبها بعض كبار المموِّلين ، مثل جرائم التزييف والغش التجاري والتهريب . وقد لُوحظ ازدياد نسبة ارتكاب مثل هذه الجرائم بين أعضاء الجماعات اليهودية ، عن النسبة العامة السائدة في المجتمع . ومن المعروف أن هذه الجرائم انتشرت بين أعضاء الجماعات اليهودية في القرن التاسع عشر إلى درجة اضطرت معها الحكومات إلى استصدار تشريعات خاصة . ويبدو أن تَركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في القطاع التجاري (في

المجتمع التقليدي) ساعد على ذلك، فهو قطاع لم يكن يعرف نظام الضرائب، ولم يكن يرتبط بشبكات الرأسمالية الرشيدة من مصارف ووسائل نقل وغيرها. ولذلك، كان التهرب من الضرائب، وتهريب البضائع، جزءاً عضوياً في مثل هذا النشاط التجاري. كما أن تَرَكُّز كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في المناطق الحدودية والمدن شجع على هذا الاتجاه. ومن المعروف أن اللغة اليديشية التي تُكتَب بالحروف العبرية، والتي لا يعرفها سوى التجار اليهود، أصبحت تشبه اللغة السرية التي يستخدمها اللصوص، وأصبحت بذلك من أهم وسائل الغش التجاري. ولهذا حظرت الحكومات الغربية على التجار اليهود استخدامها في معاملاتهم التجارية. وقد استمر هذا النمط إلى العصر الحديث، فنجد أن نسبة جرائم الغش التجاري والتزييف التي ارتكبها أعضاء الجماعات اليهودية في بولندا وروسيا، وفي ألمانيا وهولندا، تصل إلى ضعفي أو ثلاثة أضعاف نسبتها بين أعضاء الأغلبية. وفي الاتحاد السوفيتي، لُوحظ في الستينيات أن حوالي ٥٠٪ من الجرائم المالية ارتكبها أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانت نسبتهم لا تزيد عن ٢٪ من عدد السكان. ويبدو أن أعضاء الجماعات اليهودية لهم دور ملحوظ في توزيع المخدرات في الولايات المتحدة والدول الغربية. ولا تزال تظهر من آونة إلى أخرى فضيحة مالية ضخمة يتورط فيها أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ.

وقد شهدت أواخر القرن التاسع عشر واحدة من أهم فضائح الفساد المالي والسياسي التي هزت المجتمع الفرنسي، وهي الفضيحة الخاصة بانهيار شركة قناة بنما، والتي اعتُبرت آنذاك أكبر سقطة مالية في تاريخ فرنسا، حيث راح ضحيتها أكثر من ٨٠٠ ألف مواطن فرنسي من المساهمين في الشركة. وقد تورط في هذه الفضيحة التي عُرفت باسم «فضيحة بنما» ثلاث شخصيات يهودية هم: البارون جاك دي رايناخ (الوكيل المالي للشركة)، والفرنسي ليوبولد إميل أرتون، والأمريكي كورنيليوس هرتز.

وفي القرن العشرين، تعددت الفضائح المالية التي تورطت فيها شخصيات يهودية. ففي السبعينيات، أسس الأمريكي برنارد كورنفلد مؤسسة استثمار أموال مشتركة في سويسرا باسم «إنفستورز أوفرسيز سيرفيسيز» ونجح في جذب مستثمرين من أكثر من مائة دولة بلغت قيمة أموالهم المودعة لدى شركته ملياري دولار. ولم تجتذب شركته هذا الحجم من الأموال بفضل خبرتها في إدارة الأموال ولكن بفضل خبرتها في تهريب الأموال والعملات، وبخاصة من دول العالم الثالث. وقد اكتسب كورنفلد عداء كثير من السلطات المالية في دول عديدة، وأثار قلق الدوائر المالية السويسرية الحريصة على صورتها وسمعتها العالمية. وانهارت شركته بعد أن انخفضت قيمة بعض الأصول المهمة المملوكة لها وهبطت سوق الأوراق المالية الأمريكية التي كانت أغلب أموال الشركة مستثمرة فيها. كما نجحت السلطات المالية السويسرية في اتخاذ إجراءات قانونية ضده، فسُجن لمدة عام ثم أُطلق سراحه بكفالة مالية.

وقد كانت تربط كورنفلد علاقة بشخص ساهم في دفع كفالته يُدعَى تيبور بنحاس روزنباوم، والذي تورط هو الآخر في فضيحة مالية كبرى. وروزنباوم يهودي سويسري من أصل مجري، كان والده حاخاماً (كما درس هو أيضاً ليصبح حاخاماً). وخلال الحرب العالمية الثانية، عمل روزنباوم في المقاومة المجرية، وشارك في تهريب اليهود. وبعد الحرب، عمل لصالح الوكالة اليهودية، واشترك في عمليات تهجير وتوطين اليهود في فلسطين. كما كان عضواً في المؤتمر اليهودي العالمي وفي حركة مزراحي الدينية الصهيونية. وعقب إقامة دولة إسرائيل، أسس روزنباوم شركة تجارية سويسرية ـ إسرائيلية.

وكان روزنباوم قد أسس مصرفاً في سويسرا باسم «إنترناشيونال كريديت بنك» اعتمد على الإيداعات السرية لأموال غير معلومة المصدر من اليهود الفرنسيين والمافيا الأمريكية. وكان يتم تحويل هذه الأموال عن طريق فرع المصرف في جزر البهاما. وقد استخدم روزنباوم مصرفه لتحويل بعض الأموال لشركة كورنفلد. كما قدَّم المصرف خدمات مالية لإسرائيل حيث يُقال إنه دبر قرضاً لوزارة الدفاع الإسرائيلية قيمته ٧ ملايين من الدولارات خلال ٢٤ ساعة وتَلقَّى مقابل ذلك عمولة قدرها نصف مليون دولار. وفي الوقت نفسه اشترك روزنباوم في تمويل بعض الشركات الإسرائيلية ومن بينها شركة «إسرائيل كوربوريشن» الذي كان عضواً في مجلس إدارتها، وهي شركة استثمارية أسسها مجموعة من أثرياء اليهود في مقدمتهم البارون إدموند دي روتشيلد الذي ترأس مجلس إدارتها. وقد ترأس الشركة إسرائيلي يُدعى مايكل تسور. وقام روزنباوم وتسور، معاً، بتحويل عشرين مليون دولار من أموال الشركة إلى مصرف روزنباوم في سويسرا دون تفويض من المساهمين أو الأشخاص المعنيين. وقام روزنباوم بتحويلها بدوره إلى إمارة ليختنشتاين، واستخدم الأموال في بعض مشاريعه الخاصة. أما تسور، فكان يتلقى فائدة قدرها ٨٪ على هذه الأموال، بينما كان يدفع للمستثمرين في الشركة ٦,٥٪ فقط ويضع الفارق في جيبه. وقد كشف إدموند دي روتشيلد النقاب عن هذه العمليات وهدَّد

بوقف إنفاقاته الخيرية في إسرائيل إذا لم يتم إجراء تحقيق شامل في الأمر . وقد أدين تسور بأربع عشرة تهمة ، وحُكم عليه بالسجن لمدة ١٥ عاماً . وفي سويسرا ، أُغلق مصرف روزنباوم ، الذي سُجن ثم أفرج عنه بكفالة مالية قيمتها مليونان من الدولارات وهي أعلى كفالة في تاريخ سويسرا .

وقد ارتبطت بعض الأسماء اليهودية بالفضيحة الخاصة بمصرف أميركان بانك آند تروست كومباني أوف نيويورك الذي اعتُبر سقوطه رابع أكبر إفلاس مصرفي في التاريخ الأمريكي . وقد تأسس هذا المصرف عام ١٩٢٩ في نيويورك على يد بنك مكسيكي ، ثم انتقلت ملكيته عام ١٩٦٣ إلى بنك إسرائيلي - سويسري ، ثم انتقلت في أواخر الستينيات إلى ثري من شيلي يُدعَى خوزيه كلاين ، وأخيراً إلى ديفيد جرافيير وهو يهودي أرجنتيني ثري من أصل بولندي . وقد نجح هذا المصرفي في جذب كثير من رجال الأعمال وأثرياء اليهود الأمريكيين ، كما ارتبطت به شخصيات أمريكية سياسية مهمة . ونجح البنك أيضاً في جذب أموال أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية حيث بلغ حجم أموالهم المودعة لدى البنك حوالي ٤٠ مليون دولار في منتصف السبعينيات . ولكن ، في عهد كلاين ، بدأ المصرف في ارتكاب عدة مخالفات مثل التجاوز في منح التسهيلات وتجاوز سقوفها ومنح القروض لشركات يمتلك المسئولون في المصرف حصصاً فيها ، الأمر الذي اضطرت معه السلطات المالية الأمريكية المختصة إلى وضع المصرف تحت رقابتها . ولكن يبدو أن الاعتبارات السياسية حالت دون اتخاذ أية إجراءات ضده . وعند انتقال ملكية المصرف إلى جرافيير ، عمل هو الآخر من خلال سلسلة من العمليات الملتوية على نهب المصرف وإفراغه من ملايين الدولارات وسلب أموال المودعين وودائعهم . وحينما بدأ أمره يفتضح ، لقي جرافيير مصرعه فجأة إثر سقوط طائرته فوق المكسيك عام ١٩٧٦ في حادث يحيط به الكثير من الغموض ، حيث أثيرت التكهنات حول احتمالات أن يكون قد اغتيل . وقد أغلقت السلطات المالية الأمريكية المصرف بعد أن نهب جرافيير منه ٥٠ مليون دولار ، وبعد أن فقد كثير من مودعيه من أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية أموالهم .

أما مارك ريتش ، الذي تورط في أكبر فضيحة تهرب ضريبي في تاريخ الولايات المتحدة ، فهو يهودي أمريكي وُلد في بلجيكا عام ١٩٣٤ من أبوين من أصل ألماني ، وفرَّت أسرته إلى الولايات المتحدة عقب اندلاع الحرب العالمية الثانية . وقد انضم ريتش في سن مبكرة إلى شركة فيليب برادرز ، وهي شركة تعمل في تجارة السلع أسسها يهود ألمان عام ١٩٠١ في ألمانيا ثم في الولايات المتحدة عام ١٩١٤ ، وتدرج بها ريتش سريعاً ، وكان أول من أدخل الشركة مجال تجارة البترول في أواخر الستينيات وحقق لها أرباحاً ضخمة عقب ارتفاع أسعار البترول عام ١٩٧٣ . ولكنه ترك الشركة ، في عام ١٩٧٤ ، إثر خلافات مع الإدارة وأسس شركة خاصة به في سويسرا هي مارك ريتش وشركاه التي أصبحت ، خلال فترة وجيزة، من أكبر الشركات العاملة في مجال تجارة السلع ، خصوصاً البترول والمعادن ، وقُدرت ثروتها عام ١٩٨١ بنحو ٢٠٠ مليون دولار . وقد نجح فرع شركته في الولايات المتحدة في تحقيق إيرادات بلغت ١٠٥ ملايين دولار من خلال الالتفاف حول بعض القوانين الخاصة بضبط أسعار البترول والتي أدخلتها الحكومة الأمريكية عام ١٩٧٣ لحماية صناعة التكرير الأمريكية من الارتفاع المفاجئ في الأسعار . ثم قام ريتش بإخفاء وتهريب أرباحه إلى خارج البلاد من خلال سلسلة من الصفقات الملتوية حتى يتهرب من دفع مبلغ ٤٨ مليون دولار هي قيمة الضرائب المستحقة عليه للحكومة الأمريكية . وقد وُجِّهت إليه عام ١٩٨٢ اتهامات بالتهرب الضريبي وأيضاً بالاتجار مع العدو حيث قام بشراء بترول إيراني أثناء أزمة الرهائن الأمريكية عام ١٩٨٠ بعد أن كانت الحكومة الأمريكية قد أصدرت قراراً بمنع الشركات الأمريكية من التعامل مع النظام الإيراني . إلا أن ريتش فرَّ إلى سويسرا بعد أن أغلق فرع شركته في الولايات المتحدة ، ولا تزال شركته تزاول نشاطها من سويسرا في السوق العالمي .

ويُلاحَظ تورط بعض أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في الفضائح الخاصة بسوق الأوراق المالية في الولايات المتحدة . ومن بين الذين تورطوا في مثل هذه الانحرافات الأمريكي اليهودي لويس وولفسون الذي سطع نجمه في عالم المال خلال الخمسينيات والستينيات ، حيث حقق أول مليون له في سن الثامنة والعشرين من خلال تجارة الخردة ، ثم اتجه إلى شراء الأسهم والحصص في العديد من الشركات وقام ببناء وتطوير شركة «ميريت شابمان آند سكوت كوربوريشن» التي اعتُبرت أولى الشركات الضخمة متعددة النشاطات . ولكن كثيراً من عمليات ولفسون ، لا سيما تلك المتعلقة ببيع وشراء الأسهم ، كانت مخالفة للقوانين الخاصة بهذه العمليات الأمر الذي أوقعه في مواجهات عديدة مع هيئة الأوراق المالية والبورصة الأمريكية التي كانت تسعى إلى الحد من تزايد معدلات الجرائم المالية ، كما كانت تسعى إلى إدانة أحد رموزها البارزين مثل وولفسون لردع المنحرفين في قطاع المال . وقد نجحت الهيئة بالفعل في إدانة وولفسون وحُكم عليه بالسجن لمدة عام

سنة ١٩٦٩ . وصُفِّيت شركته وتفككت إمبراطوريته بعد أن كلفته إجراءات التقاضي مع الحكومة ، والدعاوى التي أقامها ضده المساهمون في شركته ، الملايين من الدولارات .

ومن أكبر الفضائح المالية التي هزت أركان وول ستريت (سوق المال في نيويورك) فضيحة إيفان بويسكي ، وتتلخص جريمته في الحصول مسبقاً على معلومات حول نية بعض الشركات بخصوص بيع أسهمها من مصادر وثيقة الصلة قبل أن يتم الإعلان عن نية البيع للجمهور واستخدام هذه المعلومات لتحقيق المكسب والربح . وقد حقق بويسكي ، الذي كان يمتلك مؤسسة متخصصة في المضاربة في أسهم الشركات التي يوشك أن يستولي عليها ، في الفترة بين ١٩٨٤ و١٩٨٦ أرباحاً بلغت ٥٠ مليون دولار من خلال الحصول على معلومات مسبقة حول نوايا الاستيلاء على بعض الشركات حيث كان يقوم بشراء أسهمها ثم أعاد بيعها بعد أن تقفز أسعارها عقب الإعلان عن هذه المعلومات . وقد فُرضت على بويسكي غرامة قدرها ١٠٠ مليون دولار وحُكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات مع حرمانه مدى الحياة من المتاجرة في سوق الأوراق المالية الأمريكية .

وقد فتحت فضيحة بويسكي الباب على مصراعيه لأكبر قضايا جرائم ذوي الياقات البيضاء في التاريخ الأمريكي حيث كشفت التحقيقات عن تورط واحدة من أكبر المؤسسات الاستثمارية في وول ستريت (وهي دريكسل بورنام لامبيرت) وأحد نجومها ونجوم وول ستريت (وهو مايكل ميلكن) في انحرافات بويسكي حيث قاما بتقديم معلومات تتصل بنوايا عملائهم إلى بويسكي ، واقتسام الأرباح معه . كما تكشف قيامهم بمخالفات وانحرافات مالية خطيرة، منها الاحتيال واستخدام أساليب ملتوية لإخفاء الملكية الحقيقية للأسهم والأوراق المالية بغرض تمرير صفقات غير مشروعة . وكان ميلكن ، الذي قُدرت ثروته عام ١٩٨٨ بنحو مليار دولار ، قد أسس سوقاً ضخمة لما عُرف باسم «سندات الخردة» وهي سندات ذات عائد عال ومخاطر عالية في الوقت نفسه ، وكانت تطرحها عادةً الشركات التي تعاني من أزمات مالية . وقد نجح ميلكن في خَلق سوق ضخمة لهذه السندات وصل حجم التعامل فيها خلال الثمانينيات إلى ١٢٠ مليار دولار ، وذلك من خلال استخدامها كأداة لتدبير التمويل اللازم للشركات الصغيرة ومتوسطة الحجم ولتمويل عمليات الاستيلاء على الشركات . كما خلق ميلكن شبكة واسعة ومتداخلة من المتعاملين في هذه السندات واستطاع من خلالها أن يسيطر ويتلاعب في حجم تداولها وأسعارها . ووُجِّهت إليه اتهامات باللجوء إلى أساليب غير مشروعة مثل الرشوة والابتزاز والتلاعب في الأسعار لتشجيع أو إجبار بعض المؤسسات المالية على شراء سنداته والتعامل فيها . وقد فُرضت على ميلكن غرامة قدرها ٦٠٠ مليون دولار وتُعَدُّ أعلى غرامة من نوعها تُفرَض ضد شخص في الولايات المتحدة ، كما حُكم عليه ، في عام ١٩٩١ ، بالسجن لمدة عشر سنوات .

ويمكن الإشارة أيضاً إلى الفضيحة الخاصة بمؤسسة سالومون برافرز ، وهي ثالث أكبر مؤسسات الاستثمار والخدمات المالية في الولايات المتحدة وحققت هذا المركز بفضل إدارة جون جوتفروند رئيس مجلس إدارتها ورئيسها التنفيذي والملقب بـ «ملك وول ستريت» . وقد تبيَّن عام ١٩٩١ أن مؤسسة سالومون انتهكت القواعد الفيدرالية الخاصة بالتعامل في سندات الخزانة الأمريكية التي تحظر على أية مؤسسة مالية شراء أكثر من ٣٥٪ من السندات المطروحة في مزاد واحد . ويهدف هذا الإجراء إلى تجنب الاحتكار في سوق السندات الحكومية التي يصل حجم التعامل فيها إلى ٢,٢ تريليون دولار . كما تكشَّف أن مؤسسة سالومون اشترت ما يزيد على نسبة قدرها ٥٠٪ من السندات المطروحة في عدة مزادات خلال عام ١٩٩١ حيث قدمت بعض عروضها بأسماء عملائها دون الحصول على تفويض منهم . واستقال جوتفروند من منصبه عقب تَفجُّر الفضيحة وبدء التحقيقات .

ومن أهم الفضائح المالية وأكثرها إثارة ، الفضيحة الخاصة بروبرت ماكسويل اليهودي البريطاني الذي أقام إمبراطورية إعلامية ضخمة والذي تُوفي في ظروف غامضة عام ١٩٩١ ودُفن في إسرائيل . فقد أقام ماكسويل نحو ٤٠٠ شركة أغلبها مسجل في إمارة ليختنشتاين حيث تتوافر قوانين السرية ، ونجح من خلال هذه الشبكة المتداخلة في إخفاء حقيقة الأوضاع المالية لإمبراطوريته التي كانت تنوء تحت ثقل الديون وفي إخفاء بعض عملياته غير المشروعة . وقد تكشَّف عقب وفاته أنه حوَّل أكثر من ٧٠٠ مليون جنيه إسترليني أو ١,٢٧ بليون دولار من صناديق التقاعد في مجموعة شركاته العامة «ميرور جروب» لمساندة إمبراطوريته الإعلامية المتهاوية وتغطية خسائر شركاته الخاصة . كما تبيَّن أنه احتال على مؤسسة مالية سويسرية للحصول على قرض قيمته ١٠٠ مليون دولار ، وأنه استخدم الأصول نفسها لضمان أكثر من قرض . والواقع أن هذه الفضيحة ، التي وُصفت بأنها أكبر فضيحة من نوعها في بريطانيا في هذا القرن ، قد أكسبته لقب «محتال القرن» ، وزادت التكهنات القائلة بأن ماكسويل مات منتحراً ، فلو أنه ظل حياً لاستدعى ذلك

مثوله أمام القضاء بتهم الاحتيال والسرقة والتزوير . كما أن هناك احتمال أنه لم ينتحر وإنما تم اغتياله على يد الموساد .

ومن أهم الفضائح التي تورطت فيها شخصيات يهودية ، الفضيحة الخاصة بمصحات وبيوت المسنين في الولايات المتحدة ، وهي فضيحة لم تقتصر فقط على التورط في أعمال التزوير والاحتيال على السلطات الحكومية ، بل تضمنت أيضاً إساءة معاملة نزلاء هذه المصحات والبيوت من المسنين . وكان أهم المتورطين في هذه الفضيحة برنارد بيرجمان الذي أطلق عليه لقب «ملك بيوت المسنين» ، حيث كان يتمتع بسيطرة شبه احتكارية على هذا القطاع وهو قطاع احتل فيه اليهود الأمريكيون النسبة الأكبر من العاملين . وقد وُلد بيرجمان في المجر وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٩ . وتخرَّج هناك في جامعة يشيفا ليصبح حاخاماً أرثوذكسياً ، إلا أنه ترك العمل الديني واتجه نحو الأعمال التجارية ودخل قطاع ملاجئ ومصحات المسنين وهو قطاع يتمتع بهامش ربح عالي في الولايات المتحدة . ونظراً لأن الدولة كانت تتحمل النسبة الأكبر من نفقات رعاية المسنين في إطار البرامج الحكومية المخصصة ، لجأ بيرجمان إلى تعظيم أرباحه من خلال تضخيم كشوف نفقات هذه الملاجئ والمصحات المقدمة إلى الجهات الحكومية المعنية . وقد تبيَّن من التحقيقات اللاحقة مدى حجم الإهمال والأوضاع المتردية والمعاملة اللا إنسانية التي تلقاها النزلاء المسنون وهو ما أكد وصف بيرجمان بأنه «يهودي يتولى إدارة معسكر اعتقال» (وهي إشارة إلى معسكرات الاعتقال النازية التي تعرَّض فيها اليهود للإبادة) .

ومما يُذكَر أن بيرجمان ، شأنه شأن بويسكي ، كان من كبار المساهمين في الأنشطة الصهيونية والأنشطة «الخيرية» اليهودية . وقد حرص بيرجمان على إقامة علاقات وثيقة بشخصيات سياسية أمريكية واستغلال هذه العلاقات لتمرير بعض مشاريعه أو التغاضي عن تجاوزاته ، كما أنه لم يتردد في اتهام الهيئات أو الجهات المختصة التي عارضت مشاريعه بأنها معادية لليهود ، وذلك في الوقت الذي كان يقوم فيه باستنزاف المسنين من اليهود وغير اليهود وإهدار آدميتهم تحت عباءة اليهودية . وقد بدأ التحقيق مع بيرجمان عام ١٩٧٤ حيث أُدين بتهم الاحتيال والنصب على البرنامج الأمريكي للرعاية الصحية وبتهم الرشوة والتهرب الضريبي . وحُكم عليه بالسجن لمدة عام وأربعة أشهر وبغرامة كبيرة .

وإذا كان ميراث الجماعات اليهودية (باعتبارها جماعات وظيفية وسيطة داخل التشكيل الرأسمالي تعمل وتتركز في قطاعات التجارة والخدمات المالية والسمسرة) يفسر إلى حدٍّ كبير بروزهم في كثير من الفضائح المالية ، فإن هذه الجرائم والانحرافات المهنية ذاتها هي جرائم وانحرافات شائعة في المجتمعات الرأسمالية ، بين اليهود وغير اليهود ، وانعكاس مباشر لآليات هذه المجتمعات التي تحكمها اعتبارات القوة والمال ويسودها الصراع والتنافس الشديدان وتكثُر بها الثغرات التي يمكن استغلالها والتحايل من خلالها على القوانين والتشريعات لتحقيق المكسب والربح . ويجب ملاحظة أن جرائم الغش التجاري التي يرتكبها أعضاء الجماعات اليهودية لا يمكن تفسيرها بأنها جزء من المؤامرة اليهودية الأزلية لإفساد أخلاق الأغيار ، فكثير من ضحايا جرائم الغش التجاري التي يرتكبها اليهود من اليهود (كما هو الحال في حالة جرافيير وبيرجمان) ، فالغش التجاري في عصر الرأسمالية الرشيدة يتسم بالرشد وبعدم التمييز بين البشر على أساس الدين أو اللون أو الجنس ، فهو غش مجرد لا شخصي ، تماماً مثل رأس المال المجرد .

تهريب البضائع وأعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة
Smuggling and the Jewish Communities in the U.S.A.

يوليسيس جرانت (١٨٢٢ ـ ١٨٨٥) هو قائد الجيش الأمريكي الشمالي ضد الجنوب خلال الحرب الأهلية الأمريكية ، والرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين عامي ١٨٦٩ و١٨٧٧ . أصدر عام ١٨٦٢ ، خلال الحرب الأهلية ، الأمر رقم ١١ بشأن طرد أعضاء الجماعة اليهودية خلال أربع وعشرين ساعة من جميع المناطق الخاضعة لسلطاته العسكرية . ويُعتبَر هذا الأمر هو الوحيد من نوعه في التاريخ الأمريكي الذي شمل أعضاء الجماعة اليهودية على هذا النحو السلبي . وكان السبب الرئيسي وراء هذا الأمر هو تورُّط بعض أعضاء الجماعة اليهودية في عمليات التهريب التي كانت جارية بشكل مكثف عبر الخطوط العسكرية بين قوات الشمال وقوات الجنوب . وقد كانت حكومتا الشمال والجنوب تتغاضيان إلى حدٍّ ما عن عمليات التهريب حيث كانتا تسدان من خلالها بعض احتياجاتهما ، كما كان بعض ضباط الجيشين متورطين في هذه العمليات . إلا أن تزايد حجمها واتساع نطاقها أدَّى إلى إصدار هذا الأمر . ورغم أن كثيراً من الأدبيات اليهودية تفسر أمر جرانت هذا بأنه شكل من أشكال معاداة اليهود ، وأنه أصدره استناداً إلى معلومات خاطئة زوَّده بها بعض التجار من غير اليهود الذين كانوا يقومون بعمليات تهريب (وكان متورطاً معهم فيها بعض ضباط الجيش) ، إلا أن الدلائل تشير إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا بالفعل مُمثَّلين بشكل متزايد في عمليات التهريب ، وربما كانوا

يلعبون دوراً رئيسياً فيها . ويمكن فهم هذا الوضع في إطار إدراكنا لميراث الجماعة اليهودية كجماعة وظيفية وسيطة تتميَّز بخبراتها الواسعة في مجال التجارة ولا تتقيد بانتماءات أو ولاءات خارج إطار الجماعة نفسها . ومما يدل على هذا التورط المتزايد لأعضاء الجماعة اليهودية في التهريب ما عبَّر عنه بعض الحاخامات الأمريكيين في تلك الفترة من قلق وتخوف بالغ إزاء اشتراك أعضاء الجماعة في نشاط التهريب والذي اعتبروه (على حد قول الحاخام يعقوب بريز) تدنيساً لاسم الرب . وقد أشار هذا الحاخام في رسالة له لإسحق ليسر إلى أن أكثر من عشرين يهودياً كانوا في سجون مدينة ممفيس بتهمة التهريب . وقال إسحق ليسر نفسه في مقال له رداً على الأمر "إن جموع المغامرين الباحثين عن الربح والخسارة يحومون حول البلاد بطولها وعرضها ، كما أن بعضهم من اليهود الذين يتظاهرون بأنهم يهود صالحون في حين أنهم ليسوا كذلك" . كما قال ديفيد أينهورن : "إن على اليهود استئصال هذه الجرائم من بينهم لأنها لا تجلب سوى العار على الجماعة اليهودية بأكملها" . كما يقول آرثر هرتزبرج في كتابه **يهود أمريكا** "ليس هناك مجال للشك في أن بعض الثروات اليهودية . . تعود جذورها إلى الأرباح التي تحققت عن طريق عمليات التهريب خلال الحرب الأهلية الأمريكية" .

ومن ثم لا يمكن اتهام جرانت بمعاداة اليهود ، وذلك باعتراف بعض اليهود أنفسهم حيث لم يبد جرانت ، قبل هذا الحادث أو بعده، أي عداء تجاه أعضاء الجماعة اليهودية ، بل عمل على تعيين يهود في مراكز مرموقة خلال فترة رئاسته . كما أن الجدل الذي أُثير داخل الكونجرس الأمريكي حول هذا الأمر ، انتهى برفض مشروع قرار بإلغاء الأمر ، وكان قوامه الخلافات الحزبية ، وهو ما يعني أن الاعتبارات الرئيسية كانت اعتبارات سياسية واعتبارات تتصل بمصالح الشمال في حربه مع الجنوب .

وقد ألغى الرئيس لنكولن القرار ، في نهاية الأمر ، بعد الاحتجاجات الواسعة النطاق التي أثارها أعضاء الجماعة اليهودية ومن بينهم بعض المقرَّبين منه والمؤيدين له .

فضيحة قناة بنما

Panama Canal Scandal

من أكبر الفضائح المالية والسياسية التي هزت المجتمع الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر . وهي فضيحة خاصة بانهيار شركة قناة بنما الفرنسية وما تكشَّف في أعقاب ذلك من تجاوزات وفساد مالي وسياسي . وقد تورط في هذه الفضيحة ثلاث شخصيات من أعضاء الجماعات اليهودية هم : البارون جاك دي رايناخ (مصرفي ومالي من أصل ألماني والوكيل المالي للشركة) ، وكورنيليوس هرتز (طبيب أمريكي) ، وليوبولد إميل أرتون (مغامر فرنسي) .

وترجع بدايات الفضيحة إلى عام ١٨٨٨ ، حينما واجهت شركة قناة بنما أزمة مالية حادة نتيجة جملة من العوامل الطبيعية والمشاكل الفنية وسوء الإدارة التي صاحبت عملية شق القناة . وكان المخرج الوحيد أمام الشركة هو طرح سندات يانصيب لجمع الأموال اللازمة . ولكن ذلك كان يستلزم الحصول على موافقة البرلمان الفرنسي في حين كانت بعض الدوائر تؤكد أن وضع الشركة والمشروع أصبح ميئوساً منه وأن طرح سندات اليانصيب لن يجدي فتيلاً .

ولذلك ، لجأت الشركة إلى رشوة بعض أعضاء البرلمان الفرنسي الذين صوتوا بالفعل لصالح مشروع اليانصيب . وكان أداة الشركة في هذه العملية هو وكيلها المالي البارون جاك دي رايناخ . وكان رايناخ ، الألماني الأصل ، قد أقام مؤسسة مصرفية ومالية في فرنسا باسم «كون ورايناخ وشركاهما» . وجمع ليوبولد ثروته من خلال المضاربة في السكك الحديدية الفرنسية وبيع الإمدادات العسكرية للحكومة الفرنسية . ويبدو أن بعض عملياته قد أحاطتها الشبهات وإن لم يتأكد أبداً أنه ارتكب أية انحرافات . وكانت مهمة رايناخ إقامة لوبي (جماعة ضغط) مؤيدة للشركة في الأوساط البرلمانية والسياسية والصحفية وتَلَقَّى من الشركة ملايين الفرنكات لدفع الرشاوى وشراء الأصدقاء .

وقد قام رايناخ باستخدام ليوبولد إميل أرتون (١٨٤٩ـ ١٩٠٥) ليقوم بتوزيع مليون فرنك على أعضاء البرلمان الفرنسي . والمعروف أن أرتون مغامر فرنسي وُلد لعائلة يهودية ألزاسية وعاش طفولة تعسة في فرانكفورت ثم انتقل إلى البرازيل حيث اعتنق الكاثوليكية وغيَّر اسمه من أرون إلى أرتون ، وفي عام ١٨٨٢ عاد إلى فرنسا والتحق بشركة الديناميت التي كانت مشاركة في عمليات شق قناة بنما . وبعد تَفجُّر فضيحة قناة بنما ، فرّ أرتون من البلاد بعد أن اختلس مبلغ ٤,٦ مليون فرنك من شركة الديناميت .

أما كورنيليوس هرتز (١٨٤٥ـ١٨٩٨) ، فقد أبرم اتفاقاً سرياً مع قناة بنما استلم بموجبه ٦٠٠ ألف فرنك مقابل استخدام نفوذه وعلاقاته لدى بعض الشخصيات السياسية الفرنسية المهمة لصالح الشركة . كما نص الاتفاق على أن يتسلم هرتز مبلغ عشرة ملايين فرنك فور إقرار مشروع اليانصيب في البرلمان على أن تتم عمليات

الدفع كلها عن طريق رايناخ . وقد كانت شخصية هرتز شخصية مثيرة للريبة والتكهنات ، فقد وُلد في فرنسا لأبوين ألمانيين ثم هاجرت أسرته إلى الولايات المتحدة . وعاد هرتز في شبابه إلى فرنسا لدراسة الطب ، وانضم كمساعد جراح في الجيش الفرنسي أثناء الحرب الفرنسية البروسية في نيويورك ولكنه ترك الجيش بعد ثلاثة أشهر بعد أن اكتشف المسئولون في المستشفى العسكري أنه لم يتخرج من أية جامعة في فرنسا ولم يحصل على شهادة إتمام دراسة الطب . وقد انتقل هرتز بعد ذلك إلى سان فرانسيسكو حيث افتتح عيادة طبية ، ولكنه سافر عام ١٨٧٧ بشكل مفاجئ مع أسرته إلى فرنسا وتبين فيما بعد أنه احتال على بعض مرضاه وزملائه من الأطباء وأخذ منهم حوالي ١٤٠ ألف دولار . وفي باريس ، استثمر أمواله بمساعدة رايناخ في بعض المشاريع ، وبدأ في بناء شبكة واسعة من العلاقات مع العديد من الشخصيات الفرنسية المهمة من بينها رئيس الدولة ورئيس الوزراء وجورج كليمنصو الذي ساهم هرتز في تأسيس وتمويل جريدته . وقد اتُهم هرتز بأنه كان عميلاً لبريطانيا ، لكن ذلك لم يتأكد قط .

وقد رفضت الشركة أن تدفع له العشرة ملايين فرنك عقب تصويت البرلمان الفرنسي لصالح مشروع اليانصيب ، بدعوى أن هرتز لم يلعب في ذلك دوراً يُذكَر . إلا أن هرتز نجح في أن يستنزف من الشركة ملايين الفرنكات من خلال ابتزاز رايناخ الذي يبدو أن هرتز كان على علم ببعض الأسرار المشينة في حياته ومنها ما قيل من أنه باع أسرار الدولة الفرنسية إلى إيطاليا أو بريطانيا .

وبرغم موافقة البرلمان على مشروع اليانصيب ، فشل هذا المشروع عند طرحه في جمع الأموال اللازمة ، وهو ما ساعد في نهاية الأمر على سقوط الشركة وتصفيتها عام ١٨٨٩ . وكان انهيار الشركة أكبر سقوط مالي في فرنسا حتى ذلك الحين ، حيث أدّى إلى ضياع أموال أكثر من ٨٠٠ ألف من المواطنين الفرنسيين من المساهمين في الشركة .

ولم تتفجر فضيحة قناة بنما إلا بعد سقوط الشركة بثلاث سنوات ، حينما نشرت صحيفة **لا ليبر بارول** التي أسسها إدوارد درومون المعادي لليهود سلسلة من المقالات تحت عنوان « أسرار بنما » ادعى فيها كشف النقاب عن « المؤامرة اليهودية » وراء كارثة بنما واتهم رايناخ بالتورط في رشوة أعضاء البرلمان الفرنسي . وقد كان درومون أشد أعداء الرأسمالية المالية حيث اعتبرها « مرض فرنسا الحديثة وسبب مشاكلها » . ونظراً لارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالقطاع المالي والمصرفي بشكل وثيق ، أصبح اليهود هدف هجومه اللاذع ، حيث حمَّل « النظام الرأسمالي اليهودي » كثيراً من المشاكل التي تواجهها فرنسا الحديثة ومن ذلك كارثة بنما .

وكان من مفاجآت التحقيقات اللاحقة اكتشاف أن رايناخ (محور المؤامرة اليهودية) كان هو نفسه مصدر معلومات درومون ، حيث تبين أنه في أعقاب تفجير القضية على صفحات الجريدة أبرم رايناخ اتفاقاً مع درومون يقضي بإخراج اسمه من موضوعات الصحيفة مقابل قيام رايناخ بتوفير جميع المعلومات المتصلة بالقضية وبتجاوزات الشركة . ومما يذكر أن الحملة التي أثارتها صحيفة درومون وغيرها من الصحف الفرنسية ضد شركة بنما كانت تتم في إطار الصراع السياسي القائم آنذاك بين القوى اليمينية والملكية من جهة والقوى الاشتراكية والنظام الجمهوري من جهة أخرى ، خصوصاً أن كثيراً من رجال السياسة والدولة كانوا متورطين في الفضيحة بشكل أو بآخر .

وقد تُوفي رايناخ في نوفمبر ١٨٩٢ بشكل مفاجئ مع بداية التحقيقات في القضية ، وأُثيرت تكهنات حول مسألة وفاته حيث قيل إنه انتحر أو قُتل . أما هرتز ، فقد فرّ من البلاد إلى لندن حيث ظل فيها حتى وافته المنية وقد حُكم عليه غيابياً بالسجن لمدة خمس سنوات ، بينما ظل أرتون هارباً إلى أن تم إلقاء القبض عليه عام ١٨٩٥ . ثم تُوفي منتحراً عام ١٩٠٥ .

ومن العسير فهم فضيحة قناة بنما إلا في إطار حركيات الرأسمالية الفرنسية والنخبة الحاكمة الفرنسية والعلاقة بينهما في أواخر القرن التاسع عشر . وتُبيِّن أحداث الفضيحة وطأة الاستغلال الواقع على كلٍّ من جماهير الشعب الفرنسي وأعضاء الطبقة الوسطى . ومع هذا ، تحولت الفضيحة إلى قرينة أخرى على المؤامرة اليهودية الأزلية ، وأصبحت من أهم الأحداث التي يشير إليها المعادون لليهود في أدبياتهم . وقد ساعدهم في ذلك أن أبطال الفضيحة كلهم من أعضاء الجماعات اليهودية ، اثنان منهم فرنسيان من أصل ألماني والثالث فرنسي هاجر إلى أمريكا ، وإن كان من العسير الحديث عن شبكة يهودية عالمية تشمل فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة . لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل ينبع غشهم التجاري من يهوديتهم أم من وجودهم داخل مجتمعات فاسدة مستغلة تساعد الإمكانيات الفساد داخل الإنسان على التحقق؟

صمويل صنبال (؟ -١٧٨٢)

Samuel Sunbal

دبلوماسي مغربي يهودي عمل بالتجارة وحقق أرباحاً فيها . ثم

دخل في خدمة السلطان المغربي مترجماً ومستشاراً للسلطان ، وقام بتمثيل المغرب في جميع المفاوضات مع الدول الأوربية . ونظراً لأهمية مركزه ، حرصت الحكومة الإسبانية على منحه علاوة سنوية إدراكاً منها أنه قد يصبح عنصراً نافعاً لها ولمصالحها . وقد أرسل عام ١٧٥١ كسفير للمغرب في الدنمارك للقيام بمهمة خاصة . وكانت لصنبال مكانة متميِّزة داخل الجماعة اليهودية في المغرب ، حيث كان يُنظَر إليه باعتباره رئيس اليهود (النجيد) . وفي عام ١٧٨٠ ، وُجِّهت له اتهامات بتهريب العملة إلى خارج البلاد وسُجن ، ولكنه نجح في الفرار إلى جبل طارق حيث اشترك في توفير الإمدادات للقلعة التي كانت واقعة تحت الحصار آنذاك ، ثم عاد فيما بعد إلى المغرب حيث تُوفي في طنجة .

أما ابنه يوسف حاييم صنبال ، فقد نجح في تأكيد الحقوق والمطالب المالية لوالده في الدنمارك . وكان يتميَّز بشخصية غير عادية . وفي عام ١٧٨٧ ، دعا إلى دين جديد يوفق بين المعتقدات الدينية المتعارضة . وقد استقر يوسف في لندن بعد ذلك حيث عُيِّن عام ١٧٩٤ سفيراً للمغرب في إنجلترا . وفي عام ١٧٩٧ ، تزوج يوسف من ممثلة وصحفية مشهورة اعتنقت اليهودية كما قامت بعد اقترانهما بتسجيل الجوانب المثيرة لحياتها في سيرتها الذاتية . وقد استقر صنبال في نهاية المطاف في هامبورج حيث تُوفي عام ١٨٠٤ .

ولا يمكن تفسير سلوك صنبال في إطار يهوديته وإنما يمكن تفسيرها في إطار وظيفيته التي جعلته غير متجذر في أي مكان أو زمان . ويظهر هذا في سيرة ابنه ودعوته إلى الدين الجديد .

موسى أننبرج (١٨٧٨-١٩٤٢)

Moses Annenberg

مليونير أمريكي يهودي بدأ حياته بائع جرائد ، ثم تدرَّج داخل شبكة توزيع الصحف لمؤسسة هيرش الصحفية ، ولجأ في كثير من الأحيان إلى استخدام أساليب البلطجة ضد موزعي الصحف المنافسة . وقد نجح أننبرج في دخول مجال النشر الصحفي واشترى عام ١٩٣٦ جريدة **فلادلفيا إنكوايرر** وهي أقدم جريدة يومية في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٣٩ ، اتُّهم أننبرج مع ابنه وولتر (١٩٠٨-) بالتهرب من الضرائب . ودخل الأب السجن بعد أن اعترف بالتهمة مقابل إسقاط التهم الموجهة ضد ابنه ، واعتُبر بذلك أكبر متهرب من الضرائب في التاريخ الأمريكي . وقد تولى ابنه وولتر رئاسة مؤسسة ترايئجل للنشر عام ١٩٤٢ . وأضاف إلى المؤسسة جريدة **ديلي نيوز** و٦ محطات إذاعة وتليفزيون ومجلتين إحداهما مجلة **دليل التليفزيون** (تي . في . جايد) وهي أكثر المجلات توزيعاً في العالم وأكثرها ربحاً في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٦٩ ، باع وولتر جريدتي **فلادلفيا إنكوايرر وديلي نيوز** . وتقدر قيمة مؤسسة ترايئجل بحوالي ١,٦ بليون دولار ، ويمتلكها وولتر وشقيقاته الخمس .

وقد اهتم وولتر بالإنفاق الضخم على المشاريع والأنشطة الخيرية من خلال مؤسسة موسى أننبرج . ويُقال إن هذا الاهتمام يرجع في الأساس إلى محاولة وولتر إزالة ما لحق بسمعة العائلة من غبار بعد قضية أبيه . كما اهتم وولتر بدعم إسرائيل حيث قدَّم لها بعد حرب ١٩٦٧ منحة قدرها مليون دولار . وقد عيَّنه الرئيس الأمريكي نيكسون عام ١٩٦٩ سفيراً للولايات المتحدة لدى بريطانيا . وظلت تربطهما علاقة صداقة ، كما كان مقرباً من الرئيس الأمريكي السابق ريجان .

لستر كراون (١٩٢٥-)

Lester Crown

مليونير أمريكي يهودي ينتمي إلى عائلة كراون الأمريكية اليهودية الثرية . وأبوه هو هنري كراون الذي وُلد لأسرة من المهاجرين من يهود اليديشية ، وعمل في عدة مؤسسات تجارية وصناعية حتى أصبح عام ١٩٢١ مديراً لشركة ماتيريل سيرفس ثم رئيساً لمجلس إدارتها . وبعد الحرب العالمية الثانية ، عمل هنري كراون مديراً لعدة مؤسسات كبيرة من أهمها شركة جنرال دايناميكس التي تُعَدُّ أكبر شركة مقاولات أمريكية تعمل في مجال الدفاع .

ويمتلك هنري كراون مع ابنه لستر حوالي ٢٣٪ من هذه الشركة، وتُقدر ثروتهما بحوالي ١,١ بليون دولار . وفي السنة نفسها ، تورَّط لستر كراون عام ١٩٧٤ في فضيحة رشوة . وفي عام ١٩٨٥ ، اتجهت وزارة الدفاع الأمريكية إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لسحب التصريح الأمني الخاص به بسبب إخفائه عنها تورطه في الرشوة . وقد تعرضت شركة جنرال دايناميكس لعدد من قضايا وفضائح الفساد .

ومما يجدر ذكره ، أن شركة جنرال دايناميكس ترتبط بإسرائيل من خلال علاقة التعاون الوثيق بين الولايات المتحدة وإسرائيل في مجال الصناعات العسكرية الإسرائيلية . وفي عام ١٩٨٦ ، خلعت إسرائيل على لستر كراون لقب «زميل شرفي للقدس» بعد أن تبرع بمبلغ غير معروف من أجل إقامة مركز ثقافي ضخم بالمدينة .

إيفان بويسكي (١٩١٧-)

Ivan Boesky

أحد أهم رجال المال اليهود في الولايات المتحدة . وهو ابن مهاجر يهودي من روسيا درس القانون في جامعة ديترويت . بدأ بويسكي يتاجر في الأسهم في وول ستريت ابتداءً من عام ١٩٦٦ ، ثم تخصص في عمليات المضاربة على أسهم الشركات التي توشك على التوسع أو الاندماج مع شركات أخرى أو توشك أن تستولي عليها إحدى الشركات الأخرى . وعادةً ما ترتفع أسعار أسهم هذه الشركات عند إعلان نوايا التوسع أو الدمج أو الاستيلاء .

ويُعَدُّ بويسكي من أهم الشخصيات في المؤسسة الصهيونية واليهودية في الولايات المتحدة ، وكان يتبرع بالملايين للحركة الصهيونية والمؤسسات اليهودية ؛ فقد ساهم بمليوني دولار للكلية اللاهوتية اليهودية من أجل تأسيس مكتبة بويسكي فيها ، كما كان نشيطاً جداً في النداء اليهودي الموحَّد . وكان مارتن بيريتز ، صاحب مجلة **النيو ريابليك** ذات الاتجاه الصهيوني، من كبار المستثمرين لديه .

وقد اكتُشف عام ١٩٨٦ أنه كان يستغل مهنته التي يفترض فيها الحياد والأمانة الشديدان ، فكان يعقد الصفقات بشراء وبيع أسهم الشركات بناءً على ما يرده من معلومات قبل أن تُعلَن للجمهور ويحقق أرباحاً طائلة نتيجةً لذلك ، وهي فضيحة من أخطر الفضائح، فقُبض عليه وحكم عليه بالسجن ويدفع غرامة ضخمة .



الجزء الرابع

عداء الأغيار الأزلي لليهود واليهودية

١
إشكالية معاداة اليهود

معاداة السامية ـ معاداة اليهود : المصطلح ـ المعاداة البنيوية للسامية (أي لليهود واليهودية) ـ معاداة اليهود : الأسباب وتكوين الصور النمطية ـ الصور الإدراكية النمطية وكلاسيكيات وتاريخ معاداة اليهود حتى بداية القرن الثامن عشر ـ فيقركورن ـ مارجريتا ـ الصور الإدراكية النمطية المعادية لليهود منذ القرن الثامن عشر ـ تاريخ معاداة اليهود منذ القرن الثامن عشر ـ كلاسيكيات العداء لليهود في العصر الحديث ـ التحامل على اليهود ـ معاداة السامية الجديدة

معاداة السامية

Anti-Semitism

«معاداة السامية» ترجمة شائعة للمصطلح الإنجليزي «أنتي سيميتزم» . ونستخدم في هذه الموسوعة عبارة «معاداة اليهود» للإشارة إلى هذه الظاهرة .

معاداة اليهود : المصطلح

Anti-Semitism : Terminology

«معاداة اليهود» ترجمة للمفهوم الكامن وراء العبارة الإنجليزية «أنتي سيميتزم» . والمعنى الحرفي أو المعجمي للعبارة هو «ضد السامية» ، وتُترجَم أحياناً إلى «اللاسامية» . وكان الصحفي الألماني اليهودي الأصل ولهلم مار (١٨١٨ ـ ١٩٠٤) أول من استخدم هذا المصطلح عام ١٨٧٩ في كتابه **انتصار اليهودية على الألمانية ـ من منظور غير ديني** . وقد صدر الكتاب بعد المضاربات التي أعقبت الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) والتي أدَّت إلى دمار كثير من المموِّلين الألمان الذين ألقوا باللوم على اليهود . ولو أُخذت العبارة بالمعنى الحرفي ، فإنها تعني العداء للساميين أو لأعضاء الجنس السامي الذي يشكل العرب أغلبيته العظمى ، بينما يُشكك بعض الباحثين في انتماء اليهود إليه . ولكن المصطلح ، في اللغات الأوربية ، يقرن بين الساميين واليهود ويوحد بينهم ، وهذا يعود إلى جهل الباحثين الأوربيين في القرن التاسع عشر بالحضارات الشرقية ، وعدم تكامل معرفتهم بالتشكيل الحضاري السامي أو بتنوع الانتماءات العرْقية والإثنية واللغوية لأعضاء الجماعات اليهودية . وهذا المصطلح يضرب بجذوره في الفكر العنصري الغربي الذي كان يرمي إلى التمييز الحاد بين الحضارات والأعراق ، فميَّز في بداية الأمر بين الآريين والساميين على أساس لغوي ، وهو تمييز أشاعه إرنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) ، ثم انتقل من الحديث عن اللغات السامية إلى الحديث عن الروح السامية والعبقرية السامية مقابل الروح الآرية والعبقرية الآرية التي هي أيضاً الروح الهيلينية أو النابعة منها . ثم سادت الفكرة العضوية الخاصة بالفولك أو الشعب العضوي ، ومفادها أن لكل أمة عبقريتها الخاصة بها ولكل فرد في هذه الأمة سمات أزلية يحملها عن طريق الوراثة ، وانتهى الأمر إلى الحديث عن تفوُّق الآريين على اليهود (الساميين) ، هذا العنصر الآسيوي المغروس في وسط أوربا ، كما دار الحديث عن خطر الروح السامية على المجتمعات الآرية . وشاع المصطلح منذ ذلك الوقت وقام الدارسون العرب باستيراده وترجمته كما فعلوا مع كم هائل من المصطلحات الأخرى . وبدلاً من ترجمة المصطلح ، فقد فضلنا هنا توليد مصطلح جديد هو «معاداة اليهود» لأنه أكثر دقة ودلالة ، كما أنه أكثر حياداً ولا يحمل أية تضمينات عنصرية ولا أية أطروحات خاطئة ، كما هو الحال مع مصطلح «أنتي سيميتزم» .

لكن بعض الكُتَّاب الغربيين يميلون إلى التمييز بين «معاداة اليهودية» و«معاداة السامية» حيث إن معاداة اليهودية ، حسب تصوُّرهم ، هي عداء ديني للعقيدة اليهودية وحدها ، وبالتالي كان بإمكان اليهودي أن يتخلص من عداء المجتمع له باعتناق المسيحية . أما معاداة السامية ، فهي عداء لليهود بوصفهم عرْقاً ، وبالتالي فهي عداء علماني لاديني ظهر بعد إعتاق اليهود وتزايد معدلات اندماجهم . وهذا النوع من العداء يستند إلى نظريات ذات ديباجات ومسوغات علمية عن الأعراق عامة ، وعما يُقال له «العرْق اليهودي» ، وعن السمات السلبية الافتراضية (الاقتصادية والثقافية) الثابتة والحتمية لليهود اللصيقة بعرْقهم ! وتصحب مثل هذه الدراسات إحصاءات عن دور اليهود في التجارة والربا مثلاً ، وفي تجارة الرقيق عامة والرقيق الأبيض على وجه الخصوص ، ومعدلات هجرتهم ، ثم يتم استخلاص نتائج عرْقية منها . وبالتالي ، إذا كانت معاداة اليهودية تعبيراً عن التعصب الديني ، فإن معاداة السامية ،

حسب هذه الرؤية ، هي نتيجة موقف دنيوي بارد يستند إلى حسابات المكسب والخسارة وإلى الرصد «العلمي» لبعض السمات اللصيقة بما يُسمَّى «الشخصية اليهودية» . ويرى المنادون بهذا الرأي أن معاداة السامية بدأت في القرن التاسع عشر (أساساً) وإن كان بعضهم يرى أن عداء الدولة الإسبانية ليهود المارانو (وهم اليهود الذين تنصَّروا) هو عداء ذو دافع دنيوي إذ أن هؤلاء المارانو ، بحسب إحدى النظريات ، كانوا مسيحيين بالفعل . ولكن مقياس النقاء العرْقي (نقاء الدم) الذي حُكم به عليهم ، لم يكن مقياساً دينياً وإنما كان مقياساً عرْقياً ، وكان الدافع وراء اضطهادهم هو رغبة الأرستقراطية الحاكمة ، أو بعض قطاعاتها على الأقل ، في التخلص من طبقة بورجوازية جديدة صاعدة كانت تهددها . ومن هنا ، مُنع المارانو من الاستيطان في المستعمرات البرتغالية والإسبانية لتقليل فرص الحراك أمامهم . وهكذا ، كانت هذه الحركة تعبِّر عن اتجاه دنيوي ، ولكنها تستخدم الخطاب الديني لتبرير غاياتها .

ومن هذا المنظور الطبقي العرْقي ، يصبح اليهودي المندمج هو أكثر اليهود خطورةً ، فهو يهودي (أي بورجوازي) يدَّعي أنه مسيحي ليحقق مزيداً من الحراك والصعود الاجتماعي . ولذا ، لابد من وقفه والحرب ضده برغم تبنيه العقيدة المسيحية .

وهذا الموقف يناقض الموقف القديم لمعاداة اليهود حيث كانت الكنيسة ترحب بمن تنصَّر . فالنبلاء البولنديون المسيحيون ، على سبيل المثال ، كانوا يتزوجون من أعضاء الأسر اليهودية المتنصرة حتى القرن الثامن عشر . وقبل ذلك ، كان الوضع نفسه سائداً في مملكتي قشطالة وأراجون في القرن الخامس عشر . ومن المعروف أن الكنيسة وقفت ضد أي تعريف عرْقي لليهودي يخضعه للحتميات البيولوجية شبه العلمية ، وبالتالي فتحت أمامه أبواب الخلاص . ولتبسيط الأمور ، دون تسطيحها ، سنستخدم عبارة «معاداة اليهود» ثم نضيف إليها عبارات تحدد مجالها الدلالي مثل «على أساس عرْقي» أو «على أساس ديني» . . . إلخ ، إن استدعى السياق ذلك .

وقد اختلط المجال الدلالي للمصطلح تماماً في اللغات الأوربية بعد ظهور الصهيونية . وبعد سيطرة الخطاب الصهيوني على النشاط الإعلامي الغربي ، لم تَعُد هناك تفرقة بين ظاهرة معاداة اليهود في الدولة الرومانية وظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى المسيحية . ولم يَعُد هناك تمييز بين معاداة اليهود على أساس عرْقي وبين معاداة اليهود على أساس ديني . وأصبحت معاداة الصهيونية ، بل والدولة الصهيونية هي الأخرى ، تُصنَّف باعتبارها من ضروب معاداة اليهود . وحينما كانت دول الكتلة الشرقية تصوت ضد إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة ، كان هذا يُعدُّ أيضاً تعبيراً عن تقاليد معاداة اليهودية الراسخة فيها . وبالمثل اعتُبر قيام فرنسا ببيع طائرات الميراج لليبيا تعبيراً عن الظاهرة نفسها . بل ويذهب أنصار هذا الرأي إلى أن نضال الشعب الفلسطيني ضد الاستيطان الصهيوني تعبير عن الظاهرة نفسها . وهكذا اتسع المجال الدلالي للمصطلح واضطرب ليضم عدة ظواهر لا يربطها رابط ، حتى أصبح بلا معنى ، وأصبح أداة للإرهاب والقمع الفكريين .

المعاداة البنيوية للسامية (أي لليهود واليهودية)

Structural Anti-Semitism

«المعاداة البنيوية للسامية» مصطلح يشير إلى بنية المجتمع حين تتشكل علاقاته بطريقة لا تسمح بوجود أعضاء الجماعات اليهودية ، أي أن بنية المجتمع نفسها تلفظ اليهود ، وتحولهم إلى شعب عضوي منبوذ ، بغض النظر عن نية أعضاء المجتمع . ومما لا شك فيه أن علاقات مجتمع ما ممكن أن تتشكل بطريقة تجعل من العسير على أعضاء الجماعات اليهودية الاستمرار فيه ، خصوصاً إذا كانوا أعضاء في جماعة وظيفية .

ويرى الصهاينة أن معظم أشكال معاداة اليهود أشكال بنيوية ، أي لصيقة ببنية المجتمع . وتحاول الصهيونية العمالية أن تبرهن على وجود هذه المعاداة البنيوية للسامية من خلال تحليل علاقات الإنتاج في المجتمع لتصل إلى نتيجة مفادها أن المجتمعات البشرية لا تسمح لليهودي أن يعمل في القطاعات الإنتاجية وأن اليهودي من ثم محكوم عليه بالهامشية والطفيلية ، وأن الحل الوحيد لهذه الهامشية البنيوية أن يؤسس اليهود لهم وطناً يمارسون فيه سيادتهم القومية ويشغلون فيه كل المواقع في الهرم الإنتاجي .

ويذهب الصهاينة إلى أن معاداة اليهود ليست لصيقة ببنية المجتمع وحسب ، بل لصيقة ببنية النفس البشرية . وهذا ما عبَّر عنه شامير بشكل سوقي حين قال إن البولنديين يرضعون معاداة اليهود مع لبن أمهاتهم . ويرى الصهاينة أن العرب والمسلمين يعانون من الظاهرة نفسها ، أي المعاداة البنيوية للسامية .

والعلاقة بين «المعاداة البنيوية للسامية» و«الصهيونية البنيوية» علاقة قوية ، فإذا كانت الأولى تعني ظهور بنية تلفظ اليهود وحسب ، فإن الثانية تعني توظيف عناصر الطرد بحيث يتجه المهاجرون اليهود إلى فلسطين . ولعل ما حدث في العراق في الخمسينيات أنصع مثل لذلك . فحين أدركت الحكومة الإسرائيلية أن يهود العراق لن يهاجروا إليها وأنهم آثروا البقاء في وطنهم ، أرسلت

ميعوثيها فوضعوا المتفجرات في أماكن تجمُّع اليهود ومعابدهم ، لإقناعهم بأن المجتمع العراقي يلفظهم ، أي أنهم أعادوا تشكيل بنية العلاقات السائدة بين أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقلية ، بحيث يصبح المجتمع مجتمعاً طارداً لأعضاء الجماعة اليهودية . وهذه هي معاداة اليهود البنيوية . ولكن الحكومة الإسرائيلية كانت تعرف مسبقاً أن المجال الوحيد المفتوح أمام يهود العراق هو الهجرة إلى فلسطين المحتلة ، وهذه هي الصهيونية البنيوية .

ويمكن القول بأن ألمانيا أسَّست مجتمعاً معادياً لليهود بشكل بنيوي ، ولكن من خلال اتفاقية الهعفراه بين النازيين والصهاينة أصبحت المعاداة البنيوية للسامية صهيونية بنيوية .

معاداة اليهود : الأسباب وتكوين الصور النمطية

Anti-Semitism (Causes and the Process of Stereotyping)

يُفسِّر الصهاينة معاداة اليهود بأنها تعود إلى كُره الأغيار لليهود عبر العصور ، وهو تفسير من العمومية بحيث لا يُفسِّر شيئاً البتة . فإذا كان كره الأغيار لليهود ظاهرة ميتافيزيقية متأصلة ، فإن المنطقي هو أن يُعبِّر هذا الكُره عن نفسه بشكل مطلق ، أي بالطريقة نفسها بغض النظر عن الزمان والمكان . ولكن تاريخ عداء اليهود تاريخ طويل ومتنوع ويفتقر إلى الاستمرار التاريخي كما تختلف دوافعه وأسبابه . ومن المعروف أن الجماعات اليهودية توجد داخل تشكيلات حضارية مختلفة ، وكانت تنشأ توترات مختلفة بينها وبين أعضاء الأغلبية . وبرغم أن سائر أحداث التوتر هذه يُشار إليها بمصطلح «معاداة اليهود» على وجه العموم ، فإن المصطلح يكتسب مضمونه الحقيقي والمحدد من خلال التشكيلات الحضارية المختلفة ، ولذلك ، فإن الدلالة تختلف من تشكيل إلى آخر . والواقع أننا لو أخذنا بالتفسير الصهيوني وجعلنا من مختلف الأحداث التي تُعبِّر عن العداء لليهود ظاهرة واحدة ، لأصبح العنصر الثابت الوحيد هو اليهود ، وحينذاك يصبح اليهود هم المسئولين عن الكراهية التي تلاحقهم والعنف الذي يحيق بهم ، وهو تحليل عنصري مرفوض طرحه محامي أيخمان بشكل خطابي أثناء الدفاع عنه في إسرائيل . فاليهود يُشكِّلون جماعات مختلفة وغير متجانسة لكلٍّ منها ظروفها ومشاكلها .

ويمكن القول بأن العداء لليهود ، بوصفه شكلاً من أشكال العداء للأقليات والغرباء والأجانب (و«الآخر» على وجه العموم) ، هو إمكانية كامنة في النفس البشرية التي تنفر من كل ما هو غير مألوف ، وبالتالي فهو إمكانية كامنة في كل المجتمعات . كما أن هناك بشراً في كل مجتمع لا يقنعون بما لديهم من ثروة أو رزق ، ويرغبون دائماً في الاستيلاء على ما يملكه الآخرون ، وبخاصة ما يمتلكه أعضاء الأقلية الذين لا يتمتعون عادةً بالحصانات نفسها وبالاستقرار نفسه الذي يتمتع به أعضاء الأغلبية . ومع هذا ، تظل هذه الأفكار والدوافع في حالة كمون ولا تعبِّر عن نفسها إلا من خلال أفعال عنف وكره فردية متفرقة أو من خلال أشكال من التحايل على أعضاء الأقلية أو من خلال أعمال أدبية أو قصص أو أساطير ، مادام المجتمع مستقراً ولكل عضو فيه وظيفته . ولكن ثمة عناصر تؤدي إلى تحوُّل هذه الدوافع النفعية من حالة الكمون إلى حالة التحقق حيث تتعدد الأفعال الفردية وتصبح ظاهرة اجتماعية ، وتتغلغل في بنية المجتمع ذاته .

ولعل من أهم الأسباب التي أدَّت إلى ظهور معاداة اليهود وانتقالها من حالة الكمون إلى مستوى البنية الاجتماعية أن معظم الجماعات اليهودية كانت تشكل جماعات وظيفية قتالية وتجارية في المجتمعات القديمة ، وكذلك في المجتمع الغربي في العصر الوسيط حتى القرن التاسع عشر . وقد كانت الجماعات الوظيفية تتكون دائماً من عناصر بشرية غريبة عن المجتمع حتى يمكنها أن تضطلع بوظائف كريهة أو مشبوهة أو متميِّزة تتطلب الموضوعية وعدم الانتماء ، مثل : التجارة والربا والقتال والبغاء . ولذا ، نجد أن موقف أعضاء الجماعات الوظيفية من المجتمع يتسم بالحياد والنفعية ، فهم ينظرون إلى مجتمع الأغلبية باعتباره سوقاً أو مصدراً للربح ، كما ينظر أعضاء المجتمع إليهم باعتبارهم أداة لتنشيط التجارة أو القتال . وكان يُنظَر إليهم في المجتمعات التقليدية باعتبارهم وسيلة لا غاية وأداة من أدوات الإنتاج لا أكثر ، ولذلك كان أعضاء الجماعة لا حرمة لهم في كثير من الأحيان (فهم غرباء) والغريب في معظم الأحوال مباح لا قداسة له . وفي العادة ، يتركز أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة في قطاعات اقتصادية بعينها يبرزون فيها ، الأمر الذي يجعلهم مركزاً للكره والحسد . وعلاوة على ذلك ، يدافع أعضاء الجماعة الوظيفية عن مراكزهم الاقتصادية هذه بشراسة وضراوة غير عادية نظراً لعدم وجود بدائل أخرى متاحة أمامهم ، فهم عادةً ما يفتقدون الخبرة اللازمة للزراعة والصناعة ، ولا يعرفون كثيراً من الحرف بسبب غربتهم وتنقلهم . كما أنهم يدافعون عن مراكزهم الاقتصادية عن طريق شبكة الأقارب والعائلات ، الأمر الذي يثير حولهم الشائعات عن عمق بغضهم وكرههم لأعضاء الأغلبية («الأغيار» في مصطلح الجماعات اليهودية) . وفي كثير من الأحيان ، يحقق أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة ، اليهودية وغير اليهودية ، تراكماً

للثروة بشكل أسرع من أعضاء مجتمع الأغلبية ، نظراً لاستعدادهم لحرمان أنفسهم من كثير من مباهج الحياة ، فهم غير منتمين إلى المجتمع كما أن الثروة هي مصدر قوتهم ومبرر وجودهم . وفي حالة اليهود في بولندا ، على سبيل المثال ، كانت الأرستقراطية البولندية تؤكد مكانتها عن طريق الإنفاق والتبذير ، وأصبح هذا هو المثل الأعلى لقطاعات الشعب البولندي كافة ، الأمر الذي لم يشارك فيه أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يؤثرون الادخار وسرعة تراكم الثروة . وهذا الوضع يزيد ، بلا شك ، حسد الجماهير .

ولكن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة ، برغم غربتهم وتميزهم ، كانوا يجدون أنفسهم في قلب الصراعات المختلفة في المجتمع ، وبخاصة الصراعات الناشبة بين أعضاء النخبة الحاكمة وبين الطبقات الأخرى للمجتمع ، خصوصاً الطبقات الشعبية ، إذ أن قطاعات من النخبة الحاكمة كانت تستخدم أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة لضرب بعض طبقات المجتمع لاستغلالها أو كبح جماحها . فأعضاء الجماعة هم سوط في يد الحاكم ، أو هكذا كان يراهم المحكومون ، ولكنهم أيضاً كبش الفداء الذي يتم التخلص منه عند الحاجة وأمام الهجمات الشعبية ، فالأداة ليست غاية في ذاتها .

ورغم أن هذه الهجمات على الجماعات اليهودية (الوظيفية) في الغرب تُعدُّ هجمات عنصرية ، فيجب ألا نهمل الجانب الشعبي فيها وأنها تمثل جزءاً من تمرُّد الجماهير على عملية الاستغلال ، وإن كان تمرداً قصير النظر ، كما هو الحال عادةً مع الهبّات الشعبية . ولم تكن هذه الثورات ثمرة إدراك عميق لحركيات الاستغلال ، ولذا اقتصرت على تحطيم الأداة الواضحة أمامهم والمباحة لهم . ويقابل الهجمات الشعبية ضد أعضاء الجماعات اليهودية الانفجارات المشيحانية بينهم ، فهي انفجارات تُعبِّر عن ضيق قطاعات أعضاء الجماعات اليهودية بوضعهم الاقتصادي والوظيفي والنفسي .

لكن هذا الوضع ليس وضعاً عاماً ولا عالمياً ينطبق على كل اليهود في كل زمان ومكان ، فهو ينطبق بالأساس على الجماعات اليهودية في العالم الغربي ، وبالذات منذ بداية العصور الوسطى وحتى القرن الثامن عشر كما ينطبق على كثير من الأقليات الأخرى . ولذا ، فهو يَصلُح إطاراً تفسيرياً لمعظم جوانب ظاهرة معاداة اليهود باعتبار أن أغلبية يهود العالم كانوا يوجدون في أوربا مع نهاية القرن الثامن عشر ، وفي بولندا على وجه الخصوص .

والجماعة الوظيفية الوسيطة ـ كما أسلفنا ـ تضطلع بوظيفة مهمة في المجتمع . وبالتالي ، فإن وجودها في حد ذاته لا يؤدي بالضرورة إلى تحوُّل العداء الكامن إلى هجوم شعبي . لكن مثل هذا التحول يحدث في ظروف معينة من بينها ما يلي :

١ ـ في المراحل الانتقالية ، حينما تحل طبقة جديدة محلية أو عالمية محل الجماعة الوظيفية الوسيطة ، أو حينما تطوِّر الدولة أجهزة مركزية تضطلع بوظائف هذه الجماعة .

٢ ـ تزايد نصيب الجماعة الوظيفية الوسيطة من الثروة مع تزايد الفقر في المجتمع أو في بعض شرائحه .

٣ ـ تزايد أعداد أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة وهو ما يزيد من بروزهم .

٤ ـ غياب الأعداء المشتركين للأغلبية ولأعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة ، أو تحالف أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة مع العدو الخارجي .

٥ ـ وضوح أعضاء الجماعة وتميزهم بعلامات عرْقية أو ثقافية لا يمكن محوها مثل اللون أو شكل العيون أو اللغة .

٦ ـ وجود تميز ثقافي أو ديني أو عرْقي أو اجتماعي يساهم في عزل الأقلية عن الأغلبية ، فالعزلة هنا ليست على مستوى واحد وإنما على جميع المستويات .

ولتوضيح النقطة الأخيرة ، يمكن الإشارة إلى وضع الصينيين في إندونيسيا ، والهنود في جنوب أفريقيا ، ويهود اليديشية في أوكرانيا حينما كانت تابعة لبولندا . فالنخبة الحاكمة كانت هولندية مسيحية في إندونسيا ، إنجليزية مسيحية في جنوب أفريقيا ، بولندية كاثوليكية في بولندا . وكانت الجماهير إندونيسية (جاوية) مسلمة أو وثنية في إندونيسيا ، سوداء وثنية في جنوب أفريقيا ، وأوكرانية أرثوذكسية في أوكرانيا . أما الجماعة الوظيفية الوسيطة التجارية ، فكانت صينية كونفوشيوسية في إندونيسيا ، هندية (هندوكية أو مسيحية أو مسلمة) في جنوب أفريقيا ، يهودية في أوكرانيا . كما كانت تفصل الجماعة الوظيفية الوسيطة عن النخبة وعن الجماهير عدة سمات أخرى (لغوية وثقافية) . وحينما يصل التدرج إلى هذه الدرجة من التبلور ، وحينما تدعم الاختلافات الدينية والثقافية والعرْقية الاختلافات الطبقية ، تصبح التربة مهيأة لانفجارات اجتماعية هائلة ذات أبعاد عرْقية كما حدث بالفعل في انتفاضة شميلنكي .

وقد كان يهود بولندا هم أغلبية يهود العالم في أواخر القرن الثامن عشر . وفي هذه المرحلة التاريخية ، حدث بينهم أيضاً انفجار سكاني أدَّى إلى تزايد عددهم خمسة أو ستة أضعاف ، ومن ثم زاد بروزهم العددي والاقتصادي . كما شهد المجتمع البولندي آنذاك

بداية ظهور طبقات محلية بديلة وأجهزة قومية تحل محل الجماعة الوظيفية الوسيطة . وتزايد في هذه المرحلة فقر قطاعات كثيرة من المجتمع البولندي . وفضلاً عن ذلك ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يتحدثون اليديشية ويدينون بشيء من الولاء للثقافة الألمانية ، بينما كان الألمان هم الأعداء التقليديون للسلاف والبولندين . كما أن أعضاء الجماعة اليهودية لم يشاركوا بشكل فعَّال في الحركة الوطنية البولندية التي كانت ذات تَوجُّه معاد لليهود لأسباب تاريخية مركبة (من أهمها اضطلاع اليهود بوظيفة جمع الضرائب وعوائد الضياع فيما يسمى بنظام «الأرندا») . لكل هذا ، تفجرت معاداة اليهودية في بولندا وروسيا بشكل حاد .

ومن القضايا التي يجب أخذها في الاعتبار ، أثناء دراسة ظاهرة معاداة اليهود ، الإطار السياسي العام الذي يتم فيه هذا العداء . ويتضح هذا في موقف الإمبراطورية الرومانية حين صبَّت جام غضبها على العناصر المتمردة في فلسطين التي كانت تهدد السيطرة الإمبراطورية ، ولكنها تحالفت في الوقت نفسه مع أثرياء اليهود الذين كانت مصالحهم مرتبطة بمصلحة الإمبراطورية . ومما يجدر ذكره ، أنه كان يوجد جيش يهودي بقيادة أجريبا الثاني يعمل تحت قيادة تيتوس قائد القوات الرومانية التي حطمت الهيكل . فالمسألة لم تكن إذن عداءً لليهود (أو حباً لهم) بقدر ما هي مسألة مصالح إمبراطورية .

ويتضح الشيء نفسه في موقف الإمبراطورية البريطانية التي قامت بتأييد مشروع الاستيطان الصهيوني ودعمه رغم وجود قطاع داخل أعضاء النخبة الحاكمة الإنجليزية (وبين الطبقات الشعبية) يكن الكراهية لليهود ، خصوصاً المهاجرين . فالمصالح الإمبراطورية (لا حب اليهود) هي التي دفعت إنجلترا إلى تبنِّي المشروع الصهيوني . وفي فترة لاحقة ، نشأ توتر بين المستوطنين الصهاينة والإمبراطورية الراعية (وهو أمر عادةً ما يحدث لأن مصالح الإمبراطورية تكون عادةً أكثر تركيباً وشمولاً واتساعاً من مصالح المستوطنين) . فتعقبت السلطات الإنجليزية من سمَّتهم «العناصر المشاغبة أو المتطرفة» بين المستوطنين ، وقد فُسِّر ذلك بأنه عداء لليهود وهو أبعد ما يكون عن ذلك . ولعل أكبر دليل على هذا أن أعضاء الجماعة اليهودية داخل إنجلترا كانوا يتمتعون بجميع حقوقهم في ذلك الوقت . ولو أن الأمر كان عداء مطلقاً لليهود ، لبدأت عملية التعقب في لندن لا في فلسطين .

ومن العناصر الأخرى التي يجب الانتباه إليها عند تحديد ظاهرة معاداة اليهود : مدى قرب أو بعد أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة اليهودية من النخبة وما إذا كانت ظاهرة معاداة اليهودية ظاهرة رسمية أم شعبية . ويمكن الإشارة إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية في التشكيل الحضاري الغربي كانوا دائماً تحت حماية النخبة الحاكمة حتى نهاية العصور الوسطى (وربما بعدها أيضاً) . وفي روسيا القيصرية ، على سبيل المثال ، لم تشترك المؤسسة الحاكمة في اضطهاد اليهود إلا بعد عام ١٨٨٢ ، مع دخول النظام القيصري أزمته ، وبعد تَعثُّر التحديث ، وهي فترة لم تدم طويلاً . وقد استؤنف التحديث مع ثورة روسيا عام ١٩٠٥ ، ثم الثورة البلشفية ، وأصبحت معاداة اليهود جريمة رسمية يُعاقب عليها القانون . وحتى قبل ذلك التاريخ ، كانت تتم معاقبة من يقومون بالمذابح الشعبية ، وكان التمييز ضد أعضاء الجماعات اليهودية يتم داخل إطار القانون (إن صح التعبير) ويهدف إلى ما كان يُسمَّى «إصلاح اليهود» . كما كان هناك التمييز بين اليهود النافعين واليهود غير النافعين ، وكان النافعون يُعطَون حقوقهم كاملة ويتحركون خارج منطقة الاستيطان . هذا على عكس المعاداة الشعبية لليهود والتي لم يكن ينتظمها إطار ، وكانت عبارة عن تفجرات تُعبِّر عن الإحباط ، ومذابح لا تهدف إلا للتنفيس عن الضغط . ويمكن النظر إلى الظاهرة النازية ، من هذا المنظور ، باعتبارها ظاهرة حديثة . فعملية الذبح والإبادة (هنا) مسألة منهجية ، تتم تحت سمع وبصر الحكومة ، وبحكم القانون ، وعلى أسس علمية ومن خلال بيروقراطيات متخصصة . وقد يكون من المستحسن أن نرى هذا النوع من معاداة اليهود كجزء من سياسة ألمانيا الكولونيالية التي تهدف إلى إبادة الغجر والسلاف وكل من يعيشون في المجال الحيوي لألمانيا ، وهذه عملية تشبه من بعض الوجوه عملية إبادة الجزائريين في فرنسا على يد الفرنسيين ، وسكان الكونغو على يد البلجيك ، والفلسطينيين على يد الصهاينة ، فهي ليست استمراراً لتقاليد معاداة اليهود السابقة . واختلافها الوحيد عن عمليات الإبادة الكولونيالية المشابهة أنها تمت جغرافياً داخل أوربا .

ومن الضروري أن تُدرَس العمليات الفكرية والذهنية التي يتعامل المعادون لليهود من خلالها مع الواقع الإنساني المركب . ويمكن القول بأن الفكر العنصري عامة ، بما في ذلك فكر معاداة اليهود ، فكر اختزالي ينحو نحو تجريد الضحية من خصائصها الإنسانية المركبة والمتعينة بوصفها كياناً إنسانياً له سلبياته وإيجابياته حتى تتحول إلى شيء مجرد يجسد سمة أو جوهراً معيَّناً . وقد يلجأ العنصري إلى اختلاق الحقائق والأكاذيب ، ولكن هذا أمر نادر إذ أن الفكر العنصري ، خصوصاً في عصر العلم ، يحاول أن يُقدِّم قرائن

وحججاً على صدق مقولاته يستخلصها من الواقع ، من خلال عمليات فكرية تنحو نحو التجريد والتبسيط والتسطيح والاختزال ، مثل :

١ ـ التركيز على عنصر من الواقع دون غيره ، كأن يركز العنصري على إحدى سلبيات بعض أعضاء الجماعات اليهودية (كاشتغالهم بتجارة الرقيق الأبيض) وعزلهم عن إيجابياتهم (الحرب الشرسة من جانب الجماعات اليهودية ضد هذه التجارة) .

٢ ـ تعميم ما يرتكبه بعض أعضاء الجماعات اليهودية من جرائم أو أخطاء على كل أعضاء الجماعات اليهودية ، ثم التركيز بعد ذلك على ما يُسمَّى «الشخصية اليهودية» بكل ما تتسم به من شرور وعنف مزعومين .

٣ ـ فصل أعضاء الجماعات اليهودية عن سياقهم الاجتماعي والحضاري الذي قد يفسر سلوكهم السلبي ، عدم الربط بين الجماعات اليهودية وغيرها من الجماعات البشرية التي قد تشترك معها في الصفات السلبية نفسها ، وذلك بهدف خلع صفة الإطلاق على صفات اليهود حتى تكتسب بعداً نهائياً وتبدو كأنها مقصورة عليهم دون سواهم من البشر .

٤ ـ إسقاط عناصر عدم التجانس بين الجماعات اليهودية المختلفة وعناصر الاختلاف والصراع بين أعضائها وإسقاط واقع انقسامهم إلى طبقات وجماعات مختلفة ، فيصبح اليهود كلاً واحداً متجانساً يُسمَّى «الشعب اليهودي» أو «اليهود» .

ولنضرب مثلاً على هذه العمليات الفكرية الاختزالية الأربع بالتهمة التي عادةً ما توجَّه إلى أعضاء الجماعات اليهودية ، أي الاشتغال بالرقيق الأبيض كقوادين أو بغايا . وهذه حقيقة مادية وإحصائية ، ففي الفترة من ١٨٨١ وحتى ١٩٣٥ كان ثمة وجود يهودي ملحوظ في هذه التجارة المشينة . ولكن العمليات الفكرية العنصرية تركز على هذا العنصر السلبي وتعزله عن إيجابيات اليهود (فقد كانت أعداد كبيرة منهم تعمل في مهن شريفة ، كما أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ساهموا بكل قواهم في القضاء على هذه التجارة المشينة بين اليهود) . ومن ناحية أخرى ، يُطلق أعداء اليهود هذه الصفة على كل اليهود أينما كانوا مع أن نسبة اليهود المشتغلين بهذه التجارة قد تكون أعلى من نسبة المشتغلين بها بين الأغلبية ، ولكنها على أية حال كانت نسبة مئوية ضئيلة بالنسبة لعدد أعضاء الجماعة اليهودية . أما العملية الفكرية الثالثة ، أي فصل اليهود عن سياقهم الاجتماعي والتاريخي ، فهي أهم العمليات . وفي الواقع ، فإنه لا يوجد أي ذكر للجماعات البشرية الأخرى التي اشتغلت بتجارة الرقيق الأبيض في الفترة نفسها ، ولا لواقع أن الجماعات اليهودية في أوربا كانت تتمتع حتى منتصف القرن التاسع عشر بمعدلات عالية من التماسك الخلقي والاجتماعي يفوق المعدلات السائدة بين أعضاء الأغلبية ، حتى أن ظاهرة الأطفال غير الشرعيين كانت غير معروفة تقريباً بينهم قبل عمليات التحديث والعلمنة التي حدث بعدها الانحلال الخلقي . أما العملية الرابعة فهي كامنة وراء العمليات السابقة كافةً .

وكثيراً ما تنعكس هذه العمليات الفكرية في أساطير وصور إدراكية ثابتة تنسب إلى اليهود خصائص سلبية ثابتة . كما أن وجود مثل هذه الأساطير والصور يبلور الأفكار العنصرية الكامنة ثم يساعدها على التحقق . ويمكن أن تكون هذه الأنماط الثابتة متناقضة ؛ كأن يتبع فريق داخل المجتمع نمطاً معيَّناً ويتبع فريق آخر نمطاً آخر يناقض النمط الأول ، مثل نمطي اليهودي الجبان الذي يخاف من أي شيء واليهودي العدواني الذي لا يخشى شيئاً . وقد اتضحت هذه الظاهرة في العصر الحديث في الغرب ، فاليهودي هو من كبار المموِّلين وهو أيضاً المتسول ، وهو رمز الجيتوية والتخلف الديني والانفتاح المخيف والعلمانية المتطرفة ، وهو رمز الرجعية والثورة والإقطاعية والليبرالية . فإذا كان كارل ماركس يهودياً وكان روتشيلد يهودياً ومائير كاهانا يهودياً ومارلين مونرو يهودية ، وكذلك فرويد وأينشتاين ونعوم تشومسكي ، فلابد أن هناك ما يجمع بينهم . وحينما يفشل الدارس في العثور على هذا العنصر ، فإنه يكمله من عنده ويفترض وجود مؤامرة خفية تجمع بينهم وأنهم ولا شك يحرصون على إخفائها . ولكن التناقض ، على كلٍّ ، أمر لا يضايق العنصريين بتاتاً ، فالإنسان العنصري إنسان غير عقلاني (فهو مرجعية ذاته) لا يقبل الاحتكام إلى أية قيم أخلاقية تتجاوزه وتتجاوز الآخر ، فهو يؤمن بشكل قاطع بأن تميزه أمر لصيق بكيانه وكامن فيه تماماً مثل تَدَنِّي الآخر ، وبالتالي فإن العنصري يبحث دائماً عن قرائن في الواقع ينقض عليها كالحيوان المفترس أو الطائر الجارح فيلتقطها ويعممها ليبرر حقده . بل ويمكن أن يُوظِّف هذا التناقض ذاته بين الصور الإدراكية بحيث يشير إلى مدى خطورة المؤامرة اليهودية العالمية الأخطبوطية التي تسيطر على سائر مجالات الحياة ، وتسيطر على اليمين واليسار ، وعلى الشمال والجنوب والشرق والغرب .

ولابد أيضاً من دراسة نوعية الفلسفة الاجتماعية (أو العامة) السائدة في المجتمع . فوجود فلسفة اجتماعية عنصرية في المجتمع يخلق تربة خصبة للتفجرات العنصرية . كما أن وجود فلسفات بعينها ـ كأن تكون الفلسفة العامة في المجتمع رؤية علمانية إمبريالية

تتحدث عن التفوق والغزو وإرادة القوة ـ قد يساعد أيضاً على إنبات بذور الفكر العنصري الكامن .

ويمكن القول بأن الفكر العنصري يُعبِّر عن نفسه من خلال أي نسق فكري متاح في المجتمع . فعلى سبيل المثال ، من الثابت أن فلسفة نيتشه زودت العنصريين وأعداء اليهود بإطار فكري يتمتع بالاحترام والمصداقية . ولكن يمكن القول أيضاً بأن العنصريين كانوا سيجدون تسويغاً لفكرهم في أي مصدر وفي أي نسق فكري متاح . ولو لم يُقدِّم نيتشه فلسفته ، لوجد العنصريون تبريراً لمواقفهم من خلال أنساق فلسفية أخرى يستولون عليها ثم يقومون بتطويعها وتوظيفها لخدمة رؤيتهم وأهدافهم . وفي هذا شيء من الحق ، ولكن الأفكار العرْقية المتبلورة التي تأخذ شكل أساطير مثيرة وصور إدراكية ثابتة تظل ، مع ذلك ، تلعب دوراً مهماً . كما أن أنساقاً فلسفية ، مثل التفكير النيتشوي (الدارويني) الذي يسقط حرمة المطلقات كافة ، ومنها الإنسان ، يمكن أن تطوَّع لخدمة الفكر العنصري أكثر من أنساق فكرية أخرى . ولعل المناخ الفكري العام الذي ساد أوربا في القرن التاسع عشر ، بحديثه عن التفوق الآري ورسالة الإنسان الأبيض والبقاء للأصلح ، قد خلق ارتباطاً اختيارياً وتربة خصبة لنمو معاداة اليهود . ومن الثابت الآن أن أكثر الكتب شيوعاً آنذاك ، في أوربا ، كانت الكتب العنصرية . كما أن محاولة تعريف الواقع بأسره (بما في ذلك الإنسان) على أساس مادي ، ساعد على نمو النظريات التي تحاول تعريف الجماعات البشرية من منظور عرْقي . ولكن النظريات المادية نظريات حتمية ، فتطور المادة غير خاضع لعقل الإنسان أو اختياراته ، وإذا عُرِّف الإنسان على أساس عرْقي فهذا يعني أنه يُولَد بصفاته ومن ثم فهو غير مسئول عنها ، ومن هنا فإن شخصيته وهويته في جسده لا في وضعه الاجتماعي . ولذا ، يمكننا القول بأن النظريات البيولوجية التي تحاول تعريف الإنسان في كليته على أساس بيولوجي مادي تخلق قابلية داخل المجتمع للعنصرية والعداء لليهودية ، إذ تصبح الصفات السلبية لليهودي شيئاً حتمياً لصيقاً بجوهره . وتجب الإشارة إلى أن الإيمان بالحتمية المادية ليس مقصوراً على النظريات البيولوجية بل هو كامن في كثير من الأنساق المعرفية التي سادت أوربا في القرن التاسع عشر . بل إن بعض المفكرين المسيحيين يذهبون إلى أن المصدر الأساسي ، بل والنهائي ، لمعاداة اليهود ليس المسيحية ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما العداء للمسيحية وللدين بشكل عام ، إذ أن مثل هذا العداء يحوِّل الآخر إلى شيء ويُنكر عليه إنسانيته ولا يفتح أمامه أبواب الخلاص (وقد لا يكون من قبيل الصدفة أن العنوان الفرعي لكتاب ويلهلم مار **انتصار اليهودية على الألمانية** هو : **من منظور غير ديني**) . كما أن الحركة النازية ، وهي الحركة التي بلورت معاداة اليهودية وأضفت عليها منهجية وشمولاً ، كانت تعادي الكنائس كلها وأرسلت بالعشرات من رجال الدين المسيحيين إلى أفران الغاز وكانت تُحرِّم على أعضاء فرق الإس إس الخاصة الانضمام إلى أية كنائس مسيحية باستثناء الكنيسة القومية التي أسسها النازيون أنفسهم .

ولقد أشرنا من قبل إلى اتجاه العنصريين إلى تجريد اليهود واختزالهم عن طريق عزلهم عن سياقهم التاريخي وعن غيرهم من الجماعات البشرية . وهنا نضيف أن الصهاينة يفعلون الشيء نفسه في دراستهم لما يلحق اليهود من اضطهاد ، فهم يقومون بعزل ظاهرة اضطهاد اليهود عن الظواهر المماثلة أو المختلفة في المجتمع . وبهذه الطريقة ، يصبح هذا الاضطهاد شيئاً فريداً غير مفهوم ويصبح عداء الأغيار لليهود أمراً ثابتاً وتعبيراً عن الطبيعة الشريرة للأغيار . ولذا ، فحينما يُدرَس الاضطهاد ، فإنه لابد من وضعه في سياقه التاريخي حتى يمكننا أن نرى أثر هذا الاضطهاد على جماعات بشرية أخرى . ويمكن القول بأن اضطهاد اليهود في أوربا (بعد القرن الثاني عشر) لم يكن موجَّهاً إليهم باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم مرابين (جماعة وظيفية وسيطة) ، كما أن المرابين من الكوهارسين واللومبارد الذين كانوا يحتلون المكان نفسه ويعملون الوظيفة نفسها كانوا يتعرضون أو لا يتعرضون للاضطهاد حسب مدى احتياج المجتمع إليهم أو عدم احتياجه . وبعد عصر الإعتاق والانعتاق ، قامت الدولة الفرنسية الجديدة بمحاولة دمج كل الأقليات التي كانت تتمتع بأية خصوصية لغوية أو دينية غير فرنسية ، ولم تميِّز في ذلك بين اليهود والبريتون مثلاً . وحينما قامت الإمبراطورية الروسية (القيصرية) بمحاولة فرض الصيغة الروسية على أعضاء الجماعة اليهودية ، كانت تفعل ذلك باعتباره جزءاً من سياسة إمبراطورية عليا كانت موجهة ضد كل الجماعات البشرية في الإمبراطورية ، وبخاصة غير السلافية (الإيروستي) . وقد تعرَّض المسلمون في الإمارات التركية السابقة لدرجة أعلى من الاضطهاد ، فقد كانوا أقل تروُّساً ، كما أن الانتماء الآسيوي للمسلمين الأتراك جعلهم أكثر ابتعاداً عن الحضارة الروسية من اليهود الذين كانوا أكثر قرباً منها . فرطانتهم اليديشية هي ، في نهاية الأمر ، رطانة ألمانية ، كما أن نخبتهم الثقافية كانت جزءاً من التشكيل الحضاري الغربي . وبالمثل ، كان الاضطهاد النازي اضطهاداً علمياً محايداً لا تمييز فيه ولا تحيُّز ، وقد كان موجهاً ضد جميع العناصر « غير المفيدة » التي يصنفها المجتمع باعتبارها

كذلك ، مثل : العجزة ، والأطفال المعوقين الذين صنِّفوا بوصفهم «أفواه تأكل لا نفع لها» ، والغجر ، والسلاف ، واليهود . وهناك هولوكوست ضد البولنديين (على يد كلٍّ من السوفييت والنازيين) راحت ضحيته عدة ملايين .

ويُلاحَظ أن الجماعة الوظيفية الوسيطة الصينية في الفلبين كانت تُعامَل معاملة الجماعة الوظيفية الوسيطة اليهودية في بولندا تماماً ، كما يُلاحَظ أن كل أشكال الاضطهاد التي تعرَّض لها يهود بولندا واجهها الصينيون في الفلبين .

ويمكن القول بأن معاداة اليهود ، كظاهرة ، لن تختفي تماماً من المجتمعات الغربية ، فهي مجتمعات بشرية تتسم بقدر من التوتر والاحتكاك بين أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقلية . ومع هذا ، فعادةً ما تخف حدة معاداة اليهود حين يتحول أعضاء الجماعة اليهودية من جماعة وظيفية وسيطة متميِّزة تميُّزاً واضحاً ، إلى أعضاء في الطبقة الوسطى تتميَّز بشكلٍ أقل وضوحاً ولا تختلف في وظيفتها ولا في قيمها ولا في رؤيتها للعالم عن أعضاء الطبقة الوسطى في المجتمع ككل . وفي هذه الحالة ، عادةً ما يأخذ التعصب الديني أو العرقي ضد أعضاء الجماعة اليهودية شكل سلوك فردي ، من أشخاص متعصبين حقودين ، ولا يشكل ظاهرة اجتماعية تساندها مؤسسات حكومية أو غير حكومية .

الصور الإدراكية النمطية وكلاسيكيات وتاريخ معاداة اليهود حتى بداية القرن الثامن عشر

Anti-Semitic Stereotypes, Classics of Anti-Semitic Literature, and History of Anti-Semitism to the Beginning of the Eighteenth Century

لعل أول هجوم على جماعة يهودية سُجِّل في التاريخ هو هجوم المصريين على المعبد اليهودي في جزيرة إلفنتاين في القرن الخامس قبل الميلاد . وكان هذا الهجوم موجهاً إلى جماعة وظيفية قتالية عميلة من الجنود المرتزقة التي وطَّنها فراعنة مصر هناك لحماية حدود مصر الجنوبية ، ثم انتقل ولاء هؤلاء الجنود إلى الغزاة الفرس . ومن ثم ، فإنه كان هجوماً على عملاء الفرس (الغازي الأجنبي) ، هذا إن أخذنا بالرأي القائل بأنهم كانوا يهوداً ، إذ يميل بعض المؤرخين إلى التشكيك في هذا الرأي .

وبعد دخول الشرق الأدنى القديم إلى محور الحضارة الهيلينية ، نشأ وضع جديد في علاقة اليهود بمن حولهم . ويجب أن نشير ابتداءً إلى أن الرقعة الجغرافية التي تُسمَّى الآن «فلسطين» لم تكن مأهولة بالعنصر العبراني وحسب ، إذ كانت المناطق الساحلية مأهولة بالعناصر الفلستية والفينيقية وغيرها ، وكانت توجد داخل فلسطين أقوام سامية كثيرة ، وكان العنصر اليوناني السائد يهيمن على التجارة ويتركز في المدن ، أما العنصر العبراني اليهودي ، فكان يعمل بالزراعة . وانضمت إلى العنصر التجاري اليوناني قطاعات كبيرة من النخبة اليهودية من كبار ملاك الأراضي وملتزمي الضرائب . وكانت فلسطين محور صراع بين الدولتين البطلمية والسلوقية ، وكان اليهود أحد العناصر المهمة التي يدور حولها الصراع . ويمكن رؤية الهجوم على اليهود في هذه المرحلة باعتباره نتاج هذا المركب التاريخي . فسكان المدن من اليونانيين العاملين بالتجارة كانوا يصطدمون بالجماعة العبرانية اليهودية العاملة بالزراعة . وكانت الدولة السلوقية ، في سعيها لدمج فلسطين بمساعدة النخبة اليهودية المتأغرقة ، تحاول أن تقضي على العبادة القربانية المركزية وعلى الطابع اليهودي في فلسطين . وفي الإسكندرية ، كان السكان اليونانيون يرفضون السماح لليهود بدخول الجيمنازيوم (رمز الانتماء الكامل للبوليس أي المدينة) لعدم مشاركتهم في العبادة اليونانية الوثنية . وقد ساعد على تصعيد حدة معاداة اليهود ، في كل الأحوال ، أن ديانتهم كانت توحيدية تقف ضد عبادة الأصنام ، وكانت بالتالي ديانة فريدة آنذاك من بعض الأوجه . وكان هذا التفرد يُفسَّر من قبل الوثنيين بأنه كُره للبشرية ، خصوصاً وأن الطقوس الدينية اليهودية تنسج حول اليهود شبكة كثيفة من العزلة .

وقد ازدادت معاداة اليهود في بعض المناطق ، مثل الإسكندرية ، لأن أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة رحبوا بالغزو الروماني بل وقدَّموا له يد المساعدة . وقد نتج عن الغزو الروماني أن النخبة الهيلينية فقدت موقعها المتميِّز في المجتمع ، الأمر الذي جعلها تلقي باللوم على أعضاء الجماعة اليهودية . ولذا ، ظهرت مجموعة من الكتاب الهيلينيين في القرن الأول الميلادي ، مثل : خايريمون (أستاذ نيرون) ، وليسيماخوس (أمين عام مكتبة الإسكندرية) ، وآبيون (الخطيب اليوناني) يعادون اليهود . وقد ألَّف آبيون كتاباً من خمسة فصول عن تاريخ مصر يضم جزءاً عن اليهود ، أورد فيه بعض الآراء السائدة عن اليهود في العالم القديم ، من قبيل أنهم شعب بدوي متجول ، وأنهم نُفُوا من مصر لأنهم كانوا مجموعة من المصابين بالبرص الذين دنسوا المعابد المصرية وكان لابد من التخلص منهم ، وقد فُسِّرت واقعة الخروج أو الهجرة من مصر على هذا الأساس . كما يورد آبيون أن العبرانيين كانوا موالين للملوك الرعاة

(الهكسوس) الذين أذلوا المصريين ، ومن ثم تم طردهم عقب طرد الهكسوس ، فالتجأوا إلى أرض كنعان واحتلوها . وفي واقع الأمر ، فإن هذه الأقاويل تهدف جميعاً إلى تقويض فكرة العلاقة الخاصة بين اليهود وفلسطين ، والشرعية التي تتأسس على مثل هذه العلاقة . وقد أضاف آبيون تهماً أخرى ، مثل أن اليهودية تُعلِّم اليهود كره الجنس البشري والعزلة عنه ، وأنهم يذبحون فرداً غير يهودي كل عام ويذوقون أمعاءه ، وأنهم يعبدون الحمار .

وإذا انتقلنا إلى روما ، فإننا سنجد مستويين مختلفين تماماً لمعاداة اليهود : مستوى السياسة الإمبراطورية ، ومستوى موقف الأرستقراطية الرومانية من يهود روما أساساً . أما الإمبراطورية الرومانية فلم تكن تهتم كثيراً بالأخلاق اليهودية أو الدين اليهودي إذ أن اهتمامها كان ينصب على تحقيق السلام الروماني وحسب . ولذا ، نجد أن تيتوس الذي هدم الهيكل الثاني لم يعتبر نفسه قط عدواً لليهود ، بل وكانت عشيقته بيرنيكي أختاً لأجريبا الثاني ملك اليهود . كما حارب في صفوفه جيش يهودي صغير . وقد رفض تيتوس أن يحمل لقب «تيتوس جودايكوس Titus judaocus» ، أي «تيتوس هازم اليهود» ، مثلما سُمِّي «تيتوس أفريكانوس Titus africanus» و«تيتوس جرمانيكوس Titus germanicus» ، أي هازم الأفارقة والألمان ، وذلك بسبب صداقته للقوم أو الإثنوس اليهودي . ولذا ، اكتفى تيتوس بصك عملة ظهرت عليها عبارة «جوديا كابتا judea capta» ، أي «هُزمت يهودا وأُسرت» ، و«يهودا» هنا تشير إلى الأرض لا الشعب .

وكان عداء الأرستقراطية لليهود متبايناً في دوافعه ، ولكنه كان على أية حال يعود إلى سببين أساسيين :

أولاً : رغبة بعض قطاعات من الأرستقراطية الرومانية في تحقيق مكاسب اقتصادية بالتخلص من منافس قوي مثل اليهود .

ثانياً : كان قطاع كبير من المثقفين الرومان يرون أن إصلاح حال روما لا يتم إلا بالعودة إلى الأصالة الأولى ، واجدين أن التنوع الديني ، وبالتالي انتشار اليهودية ، يعوق هذا الاتجاه . ونجد هجوماً على اليهود في كتابات بعض المؤلفين الرومان ، مثل : هوراس وشيشرون . لكنه لم يصبح هجوماً حاداً إلا بعد القرن الأول كما هو الحال في كتابات المؤرخ كورنيليوس تاسيتوس الذي ردَّد بعض أفكار آبيون عن اليهود واليهودية وبيَّن أن تهود الرومان سيؤدي بهم إلى احتقار أرباب أسلافهم وإلى رفض وطنهم وآبائهم وذريتهم وإخوتهم . ويُلاحَظ أن السياسة الإمبراطورية الرومانية ركزت اهتمامها على الجانب السياسي والأمني لفلسطين ، بينما تاسيتوس ، مثله مثل آبيون ، يركز على الجانب الأخلاقي لليهودية التي يرى أنها الخطر الحقيقي على الإمبراطورية . وقد وجه جوفينال هجوماً على الأجانب (اليونانيين والسوريين وكذلك اليهود) لتقويضهم دعائم الفضيلة في المجتمع ، وهو بذلك يتبع نمط آبيون وتاسيتوس نفسه . وبرغم الهجوم الحاد من قبل آبيون وتاسيتوس وجوفينال على اليهود واليهودية ، فلا يمكن القول بأن أقوالهم هذه تشكل جزءاً من رؤية اليونان أو الرومان للكون ، إذ ظلت هذه الرؤية وثنية تعددية عالمية تقبل تعدُّد الآلهة داخل إطار الوحدة الإمبراطورية . ولذا ، وبرغم أحداث الطرد ، ظل اليهود يتمتعون بحقوقهم ولم يشكلوا مركزية خاصة في نظرة اليونان أو الرومان إلى العالم .

فإذا ما انتقلنا إلى العصور الوسطى في الغرب ، فإننا نجد أن مفهوم معاداة اليهود أخذ يكتسب معاني ومدلولات جديدة تماماً . فلم تَعُد اليهودية ديناً توحيدياً في تربة وثنية ، وإنما أصبحت ديناً قديماً مهزوماً في تربة توحيدية يسودها دين جديد منتصر واثق من نفسه يرى أن العهد القديم هو أحد كتبه المقدَّسة يحمله اليهود دون أن يعوا معناه الحقيقي . وهو دين كان يرى أن اليهود يلعبون دوراً مركزياً في نظرته إلى الكون ، فهم قَتَلة الرب ، ولن تتم عملية الخلاص النهائية إلا بعد اعتناقهم المسيحية ، أي أنهم يشغلون موقعاً مركزياً في البداية والنهاية . وكان اليهود من جانبهم يكنون احتقاراً عميقاً للدين الجديد وينكرون أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيَّح . وقد تبدَّى الموقف المسيحي في مفهوم الشعب الشاهد ، وفي جميع التشريعات والمراسيم المسيحية التي تؤكد لليهود حقوقهم ، وفي ضرورة الحفاظ عليهم وعدم تنصيرهم بالقوة ، مع الإبقاء عليهم في وضع هامشي ومتدن كشعب شاهد على أن الكنيسة على حق . فهم يحملون الكتاب المقدَّس الذي يتنبأ بمقدم المسيح ولكنهم لا يعون معنى ما يحملون ، كما أنهم بضعفهم وذلتهم دليل على عظمة الكنيسة وانتصارها . وكان موقف الكنيسة يتمثل فيما يلي : « أن تكون يهودياً جريمة ، ولكنها جريمة ليس بإمكان مسيحي أن ينزل بصاحبها العقاب لأن الأمر متروك للرب » . وقد اعتبرت الكنيسة نفسها إسرائيل الحقيقية (باللاتينية : إسرائيل فيروس Israel verus) ، واعتبر المسيحيون أنفسهم شعب الرب . وكانت الكنيسة ترى نفسها أيضاً إسرائيل الروحية مقابل إسرائيل الجسدية (اليهودية) . وقد تطورت صورة اليهود في الوجدان المسيحي ، فكان يُرمَز لهم بعيسو (مقابل يعقوب المسيحي) ، وبقابيل الذي قتل أخاه هابيل وأصبح كذلك قاتل المسيح . كما ساعدت الشعائر الدينية اليهودية ، المتمثلة في صلاة الجماعة التي تتطلب النصاب (المنيان) وقوانين الطعام

والزواج، على زيادة عزلة اليهود . ولأن النظام الإقطاعي في الغرب كان نظاماً مسيحياً يستند إلى شرعية مسيحية ويتطلب يمين الولاء كشرط أساسي للانتماء إليه ، فقد وجد أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب أنفسهم خارج كثير من المجالات السياسية والاقتصادية والمدنية المشروعة . وكانت هذه الظروف سبباً ونتيجة في آن واحد لتحوُّلهم إلى جماعة وظيفية وسيطة (أقنان البلاط أو يهود الأرندا أو يهود البلاط) تقوم بأعمال التجارة ثم الربا . وربما كان هذا الوضع (وضع اليهود) هو الذي حدَّد موقف أعضاء المجتمع منهم ، فكان يُنظَر إليهم من أعلى باعتبارهم أداة يمكن استخدامها أو استبدالها إن دعت الحاجة ، كما كان يُنظر إليهم من أسفل باعتبارهم وحوشاً لابد من ضربها ، فهم الأداة الواضحة لاستغلال الجماهير التي لم يكن بوسعها فهم آليات الاستغلال والقمع . وتاريخ أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي ، وكذلك العداء لهم ، هو في معظمه تاريخ اليهود كجماعات وظيفية وسيطة تؤدي وظيفتها إلى أن تظهر قوى أخرى تحل محلها في المجتمع ، مُمثَّلة في طبقة وسطى قوية ، أو جهاز إداري مركزي ، أو الدولة القومية الحديثة . كما أن صعود أو هبوط الجماعة اليهودية هو ، في جوهره ، تاريخ صعود أو هبوط الجماعة الوظيفية الوسيطة . فحينما كان اليهود أقنان بلاط ، كانت شرائح من الطبقات الحاكمة تستفيد من الخدمات التي يؤدونها . وبالتالي ، كان اليهود يُمنحون المواثيق التي تضمن لهم الحماية ، وتعطيهم المزايا التي تجعل منهم أفراداً يتمتعون بمستوى معيشي أعلى من مستوى معظم طبقات المجتمع الأخرى . وكما قال أبراهام ليون ، فإن وضع اليهود لم يتوقف عن التحسن منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ ، وبعد الانتصار الكامل للمسيحيين حتى القرن الثاني عشر . ويمكن القول بأن النخبة الحاكمة بكل فئاتها (الإمبراطور ، والكنيسة ، والملوك ، والأمراء ، والشريحة العليا من الأرستقراطية ، وكبار رجال الدين ، والبورجوازية الثرية المستقلة في المدن) كانت كلها تقف إلى جانب أعضاء الجماعات اليهودية لا ضدهم . وكانت هذه النخبة تحمي أعضاء الجماعات بسبب نفعهم لها ، وترى الهجوم عليهم إخلالاً بهيبة النظام وتعويقاً لمساره . وكانت المواثيق التي يحصل عليها أعضاء الجماعات اليهودية تزيد بطبيعة الحال من حدة الغضب الشعبي ، ومن ثم فيمكن النظر إلى الهجوم على اليهود باعتباره ضرباً من الثورات الشعبية . ولهذا نجد أن أعداء اليهود يأتون أساساً من الشريحة الدنيا من رجال الدين ، وصغار التجار في المدن ، والحرفيين . ولكن وصفنا لهذه الهجمات بأنها « ثورة شعبية » لا يخلع عليها صفة إيجابية . ونحن لا نرى أنها عمل مقبول أو شرعي ، وإنما نقول إن هذه الهجمات تحركها جماهير تتصور أن اليهودي هو المستغل الحقيقي . وقد ظل أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب في هذا الوضع حتى حروب الفرنجة في القرن الثاني عشر ، حيث بدأت الحياة الاقتصادية في أوربا في الانتعاش وظهرت قوى مسيحية محلية قادرة على أن تحل محل اليهود كتجار دوليين ومحليين ، فاتجه اليهود إلى الاتجار بالربا ، وتحولوا بالتالي من جماعات وسيطة إلى جماعات وسيطة عميلة ، وزادت غربتهم في المجتمعات التي وجدوا فيها .

وقد تزامنت هذه العملية مع تطوُّر فكري آخر وهو ظهور عقيدة التحوُّل (بالإنجليزية : ترانسبستانشيشن transubstantiation) ، أي الإيمان بتحول القربان (أي الخبز والخمر المقدَّسين) إلى لحم ودم المسيح . وأصبح التناول طقساً دينياً تحيطه هالة من الأساطير . وقد ساهمت هذه الطقوس في ظهور تهمة الدم ، وتهمة تدنيس خبز القربان ، وهي أساطير ساعد على انتشارها احتراف اليهود الربا وامتصاصهم (المجازي) لدم الآخرين ، خصوصاً وأن العمليات التجارية والمالية كانت تؤدي إلى تزايد الثروة دون بذل الجهود (على عكس الفلاح الذي كان يبذل جهداً بدنياً ملحوظاً) . وبالتالي ، كانت هذه العمليات التجارية والمالية يُنظَر إليها كعمليات سحرية من قبَل ضحايا أعمال الربا ومن قبَل أعضاء المجتمع الزراعي الذين يكدحون ساعات طويلة ليحصلوا على قوت يومهم . وفي هذه الفترة ، أصدرت المجامع اللاترانية مجموعة من القرارات أدَّت إلى ازدياد عزلة اليهود مثل تحريم الاشتغال بالربا على المسيحيين ، وضرورة أن يرتدي اليهود شارة مميِّزة . وبدأت تظهر ، في هذه الفترة، صورة سلبية عن اليهود ، وهي في أغلبها أنماط إدراكية عنصرية تتواتر في معظم المجتمعات وترددها كل جماعة بشرية عن الآخرين ؛ فاليهود يشبهون الشيطان أو لهم رائحة مميزة هي ما يُسمَّى « رائحة اليهود » (باللاتينية : الفويتور جوديكوس foetor judaicus) وهي خلاف رائحة القداسة . ومع القرن الثالث عشر ، حيث كانت قد ظهرت بيوتات المال الإيطالية التي كانت أكثر كفاءة في الاضطلاع بمهنة التجارة الدولية ، بدأت ظاهرة طَرْد اليهود من إنجلترا وفرنسا وغيرهما من البلاد ، كما بدأت تظهر صورة اليهودي التائه . وفي القرن الرابع عشر ، بدأ اتهام اليهود بأنهم يسمِّمون الآبار . وكانت العروض المسرحية المسماة « آلام المسيح » (التي كانت تستغرق عدة أيام ، وكانت من أكثر الأشكال الفنية الشعبية شيوعاً) تؤكد قسوة اليهود على المسيح وخيانتهم له ، الأمر الذي كان يعمِّق كره اليهود في الوجدان الشعبي .

وكان كثير من اليهود المتنصرين يساهمون في التهييج ضد أعضاء الجماعات اليهودية ، ويُعرِّفون القيادات المسيحية (وجماعات الرهبان) بما جاء في التلمود (وبعض الكتب الدينية اليهودية الأخرى) من هجوم شرس على المسيح والمسيحية وبعض عادات اليهود الأخرى التي تهدف إلى عزلهم عن مجتمع الأغيار . وكانت تُقام مناظرات بين اليهود والمسيحيين (يمثلهم عادةً يهود مُتنصِّرون) حتى يُثبت كل طرف قوة حججه الدينية . وغني عن القول أن الطرف اليهودي لم يكن حراً تماماً في مثل هذه المناظرات وأنه كان يضطر إلى التعبير عن وجهة نظره بطريقة أكثر حذراً الأمر الذي كان يفقدها كثيراً من قوتها . وعادةً ما كانت تنتهي هذه المناظرات " بانتصار " الطرف المسيحي ، وإصدار الأوامر بإحراق التلمود وربما طرد أعضاء الجماعات اليهودية .

وقد استمرت النخبة الحاكمة (الكنيسة والنبلاء) في حماية اليهود ، كما استمرت الثورة الشعبية ضدهم ، وبخاصة في صفوف أعضاء الطبقة الوسطى ، الندّ الحقيقي للجماعات الوظيفية الوسيطة والمنافس على القطاع الاقتصادي نفسه . ويُلاحَظ أنه أثناء حروب الفرنجة التي اكتسبت بعداً شعبياً ، وهو ما جعلها مستقلة نوعاً ما عن الطبقات الحاكمة ، كانت القوات غير النظامية هي التي ترتكب المذابح ضد اليهود . وفي المدن الحرة ، في ألمانيا وغيرها من البلاد ، كان الهجوم على أعضاء الجماعات اليهودية يبدأ بإسقاط الأقلية الثرية الحاكمة ، ثم تحل محلها نخبة جديدة ذات جذور شعبية ، ويعقب ذلك عمليات طرد وذبح اليهود . وقد انسحب معظم يهود أوربا إلى بولندا حيث لا توجد طبقة وسطى قوية . كما تم طردهم من إسبانيا بعد أن استكمل المسيحيون استرداد إسبانيا من المسلمين بعدة شهور ، إذ اضطلعت الدولة الجديدة بوظائف الجماعة الوظيفية الوسيطة وأرادت أن تؤمِّن نفسها ضد العناصر الغريبة من المسلمين واليهود . ولهذا استمرت في ملاحقة من كانت تتصوَّر أنهم مسلمون أو يهود متخفون . ومع نهاية العصور الوسطى ، كانت كلمة «يهودي» مرادفة في كثير من اللغات الأوربية لكلمة «تاجر» أو «مراب» ، ولكلمات أخرى مثل «بخيل» أو «غشاش» ، وهي الصورة الإدراكية التي ستتبلور في عصر النهضة على يد شكسبير في شخصية «شيلوك» .

وشهد عصر الإصلاح الديني ، في القرن السادس عشر ، كسر الاحتكار الديني الكاثوليكي وتزايد التعددية . وبشكل عام ، يُلاحَظ أن البروتستانتية ، بتأكيدها أن الخلاص يتم خارج الكنيسة ، تؤكد على أهمية الكتاب المقدَّس الذي يضم العهد القديم ، الأمر الذي يعني نظرياً تزايد التعاطف مع اليهود ، أهل هذا الكتاب وحَمَلته . ومع هذا ، يُلاحَظ أن البروتستانتية اللوثرية اتجهت اتجاهاً معادياً لليهود (على عكس الكالفنية) . وفي محاولة تفسير ذلك ، يُقال إن الكالفنية أكدت المسئولية الشخصية للمؤمن ، وذهبت إلى أن ثمرة الفعل الاجتماعي (الثروة مثلاً) قد لا تكون هي سبيل الخلاص ، ولكنها تشكل قرينة مهمة عليه . وهذا، على عكس اللوثرية التي أكدت أن الخلاص من خلال الإيمان، الأمر الذي كان يعني رفض المسئولية المدنية أو الخلاص من خلال الأعمال . ومن ثم، فهناك استعداد عند أتباع كالفن لتقبُّل اليهود والحكم عليهم، لا من خلال ما يؤمنون به وإنما من خلال أفعالهم وثروتهم. فهم كعناصر تجارية نشطة، يحققون الشروط اللازمة لتقبلهم، على عكس اللوثريين الذين يركزون على الدوافع . وقد لعب اليهود المتنصرون في هذه الفترة دوراً كبيراً في بلورة الأطروحات الغربية الأساسية المتصلة باليهود واليهودية، كما ساهموا في صياغة صورة اليهودي في الوجدان الغربي. ومن أهم الشخصيات يوحانيس فيفركورن الذي دخل معركة فكرية كبرى شغلت أوربا بعض الوقت مع يوحانان ريوشلين .

ويُلاحَظ أن هذه الفترة شهدت بداية العقيدة الألفية أو الاسترجاعية التي تتحدث عن رؤية الخلاص وعودة المسيح ، وهي رؤية ترتبط بعودة اليهود إلى أرض الميعاد . ومن ثم ، تظهر صورة اليهودي كعنصر لا جذور له يمكن نقله من مكان إلى مكان . وهذه الصورة هي الصياغة البروتستانتية لفكرة الشعب الشاهد الكاثوليكية والتي تحولت فيما بعد إلى صورة الشعب العضوي المنبوذ ، ويظهر اليهود كعنصر استيطاني وكجواسيس يمكن نقلهم وتحريكهم والاستفادة منهم ، وهي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة .

كما شهدت هذه الفترة ظهور الجيتوات في إيطاليا وفي بعض مدن وسط أوربا ، الأمر الذي كان يعني تراجُع أعضاء الجماعات اليهودية وانكماش دورهم في المجتمع . ولكن هذه الفترة شهدت أيضاً بداية ظهور يهود الأرندا في بولندا واضطلاع اليهود فيها بدور مهم في الاقتصاد التجاري . وقد حصل اليهود على العديد من المزايا التي جعلت مستواهم المعيشي يفوق كثيراً مستوى الأقنان وأعضاء الطبقة الوسطى البولندية ، بل وصغار النبلاء . وفي عام ١٦٤٨ ، اندلعت ثورة شميلنكي ، وهي ثورة شعبية فلاحية شاملة ضد الحكم الإقطاعي البولندي الكاثوليكي الذي كان يمثله العنصر التجاري الوسيط اليهودي في وسط فلاحي أوكراني أرثوذكسي ، فكان هذا الوضع وضعاً تاريخياً يتسم بالتلاقي الكامل بين العداء الطبقي من جهة والعزلة الاجتماعية والثقافية والدينية والعرْقية من جهة أخرى ،

وهو الوضع الأمثل للانفجارات العنصرية . وقد اكتسحت الثورة في طريقها الجيوب البولندية واليهودية . وفي الأدبيات الصهيونية ، يُقرَن شميلنكي بهتلر ، مع أن الأول زعيم ثورة شعبية فلاحية له تمثال في كييف باعتباره قائداً للثورة ، والآخر زعيم نظام شمولي قام بعملية إمبريالية عنصرية .

وفي القرن السابع عشر ، ظهر يهود البلاط في وسط أوربا ، وفي غربها بدرجة أقل ، حيث قدموا الخدمات التجارية والمالية للدول التي ينتمون إليها وحصلوا على مزايا عديدة ، كما قاموا بحماية أعضاء الجماعات اليهودية . وبدأ استيطان اليهود السفارد في هولندا وفي بعض المدن في كلٍّ من فرنسا ووسط أوربا . وكان هؤلاء يتمتعون بحقوق ومزايا لا يتمتع بها كثير من أعضاء الطبقات الأخرى، كما أنهم كانوا يتحدثون باسم أعضاء الجماعة اليهودية لدى الحاكم ويقومون بدور الوسيط بينه وبين الجماعة ، وبعملية المقايضة معه بحيث يحصل أعضاء الجماعة على المزيد من المزايا نظير تقديم المزيد من الخدمات ، أو تثبيت ما حصلوا عليه من مواثيق نظير الاستمرار في الاضطلاع بدورهم . ويمكن القول بأنه ، مع ظهور يهود البلاط ويهود الأرندا ، واستيطان السفارد في أوربا ، تنتهي العصور الوسطى ويبدأ العصر الحديث بكل مظاهره الجديدة .

أما وضع اليهود في العالم الإسلامي ، فلا يمكن القول كما يدَّعي البعض بأنه كان عصراً ذهبياً واحداً طويلاً ، وإن كان من الممكن أن نقول إن العالم الإسلامي لم تظهر فيه نظرة شاملة تضع اليهودي في مركز أحداث الخلاص باعتباره «الشيطان قاتل الرب» . كما أن العالم الإسلامي يتسم بوجود عدد هائل من الأقليات العرْقية والإثنية التي تفرض عليه قبول التعددية (وهي تعددية اعترف بها الإسلام وقننها في مفهوم أهل الذمة الذي حدد لأعضاء الأقليات مكانهم وواجباتهم وحقوقهم) . كما أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يتحولوا جميعاً إلى جماعات وظيفية وسيطة بل كانوا ممثَّلين في معظم النشاطات الاقتصادية والمهيمنة ، فكان منهم الأطباء والوزراء والمترجمون والتجار والحرفيون . وحتى حينما اضطلعوا أحياناً ببعض وظائف الجماعة الوظيفية الوسيطة واكتسبوا خصائصها ، فإن هذا الدور لم يكن مقصوراً عليهم إذ كانت هناك جماعات إثنية ودينية أخرى تشارك في نشاطهم الوظيفي ، كما كان بين هؤلاء المسلمون . كما أن عدد الجماعات اليهودية في العالم العربي ظل صغيراً للغاية بالنسبة إلى عدد السكان . ولكل هذه العناصر المركبة ، نجد أن عداء اليهود في العالم الإسلامي لم يكن بالحدة نفسها التي كان عليها في العالم الغربي الوسيط ، كما أنه ظل في معظم الأحيان إمكاناً كامناً في نفس بعض أعضاء الأغلبية وداخل بعض القطاعات .

يوهانيس فيفركورن (١٤٦٩-١٥٢١)

Johannes Pfefferkorn

ألماني يهودي مُتنصِّر ، ومن أشهر المهيجين ضد الجماعات اليهودية . كان يعمل جزاراً وكان في الوقت نفسه متفقهاً في الدين اليهودي . يُقال إنه قُبض عليه بتهمة السرقة وأنه ، بعد الإفراج عنه ، تنصَّر هو وزوجته وأولاده في كولونيا عام ١٥٠٤ . كتب فيفركورن عدداً من الكتيبات المعادية لليهود : **مرآة اليهود** (الذي هاجم فيه تهمة الدم أيضاً) و **الاعتراف اليهودي** وكتاب **عيد الفصح** و **عدو اليهود** . وقد نُشرت ترجمات لاتينية لكل هذه الأعمال فور نشرها . وقد طالب فيفركورن بحرق التلمود ومنع الربا وأن يعمل اليهود في الأعمال اليدوية الوضيعة وأن يُفرَض عليهم حضور المواعظ المسيحية وإلا طُردوا من المدن الألمانية التي يقيمون فيها .

وفي عام ١٥١٠ ، قام بعض المهيجين ضد الجماعة اليهودية في براندنبرج باتهام أعضاء الجماعة بتدنيس خبز القربان المقدَّس ، كما وجهوا إليهم تهمة الدم . فشُكلت لجنة للتحقيق في الأمر برئاسة أسقف ميتز الذي طلب المشورة من بعض كبار المفكرين الدينيين من بينهم يوحانان ريوشلين . وكان موقف ريوشلين لا يتفق مع موقف فيفركورن ، فكتب هذا الأخير كتيباً بعنوان **مرآة اليد** يهاجم فيه ريوشلين الذي كتب رداً بعنوان **مرآة العين** . وبذلك بدأت واحدة من أكبر المعارك الدينية في عصر النهضة في الغرب . وكانت الحركة الإنسانية الهيومانية قد حققت قدراً كبيراً من الانتشار والإحساس بالقوة ، فألقت بثقلها في صف ريوشلين . ومع أن إيرازموس لم يشترك في المعركة ، إلا أنه وصف فيفركورن بأنه يهودي في غاية الإجرام أصبح مسيحياً في غاية الإجرام . ثم كتب فيفركورن موعظة ضد كتاب ريوشلين **مرآة العين** وضد الاتجاه الليبرالي المسيحي ككل . وقد استمرت المعركة بعض الوقت إلى أن أصدر الإمبراطور أمراً للطرفين بالتزام الصمت . وفي عام ١٥١٤ ، أصدرت محكمة بابوية قراراً يؤيد ريوشلين ، فرفضه فيفركورن ونشر كتاباً آخر بعنوان **جرس الإنذار** . واستمرت المعركة بعض الوقت ولكنها تركت أثراً عميقاً في الكثيرين . وليس من قبيل الصدفة أن يعلن لوثر أطروحاته عام ١٥١٧ إبان الجدل الذي دار بين ريوشلين وفيفركورن .

والحقيقة أن ظهور فيفركورن وشيوع كتاباته هو مؤشر على أن المسألة اليهودية كانت قد بدأت تطرح نفسها ، وبحدة ، على

الوجدان الغربي ، وذلك مع نهاية العصور الوسطى في الغرب ومع ظهور الدولة المركزية وبداية تراجع أهمية دور الجماعات اليهودية الوظيفية . ومما يجدر ذكره أن ريوشلين ، الطرف الآخر في المعركة ، كان يطالب هو الآخر بإصلاح اليهود ، أي بإعادة تعريف دورهم بما يتناسب مع المرحلة الجديدة ، وكان يرى وجوب طردهم إن لم يصلحوا حالهم . وهكذا ، فإنه لا يوجد اختلاف كبير في الرؤية والمقدمات بين فيفركورن وريوشلين إذ أن الاختلاف ينصرف إلى طبيعة الحل المطروح وحسب .

انطون مارجريتا (١٤٩٠ - ؟)

Anton Margarita

كاتب ألماني يهودي وابن حاخام مدينة ريجنسبرج . تكثلك عام ١٥٢٢ ثم أصبح بروتستانتياً بعد ذلك . عُيِّن محاضراً في اللغة العبرية في عدة جامعات ألمانية حتى عام ١٥٣٧ حين عُيِّن في جامعة فيينا التي بقي يعمل فيها حتى وفاته . نشر أول كتبه المعادية لليهود عام ١٥٣٠ والذي حاكى فيه أعمال اليهودي المتنصر فيفركورن حيث اتهم اليهود بأنهم لا يعرفون سوى الكراهية وأنهم يهزأون بالمسيح والمسيحية في أدعيتهم وكتبهم .

عُقدت مناظرة (بأمر الإمبراطور تشارلز الأول) عام ١٥٣٠ بينه وبين جوزيف من روشايم حيث أثبت الأخير زيف بعض ادعاءات مارجريتا ، فأمر الإمبراطور بوضعه في السجن .

تمتعت كتابات مارجريتا بالذيوع وتركت أثراً عميقاً في مارتن لوثر الذي اقتبس منها عدة مرات .

الصور الإدراكية النمطية المعادية لليهود منذ القرن الثامن عشر

Anti-Semitic Stereotypes since the Eighteenth Century

سادت العصور الوسطى في الغرب صور إدراكية ثابتة عن اليهود ، منها أن اليهود شعب شاهد ، ومنها أنهم مصاصو دماء ، ومنها أنهم قتلة المسيح ، وأنهم يدنِّسون خبز القربان ويسمِّمون الآبار . وغني عن القول أن معظم هذه الأفكار فقد كثيراً من البريق والشيوع ، وحلت محله أفكار وصور إدراكية ثابتة أخرى سنكتشف أن معظمها ظهر من خلال علمنة الصور الإدراكية السابقة وإعطائها أساساً علمياً مادياً .

وينطلق فكر عصر الاستنارة (العقلانية المادية) ، وهو إحدى أهم ركائز الفكر الحديث في الغرب ، من فكرة المساواة الكاملة بين البشر ومن كفاية العقل للوصول إلى الحقيقة دون حاجة إلى وحي إلهي . وهذه المساواة تشمل المسيحي واليهودي وكل البشر ، ولكنها في ذات الوقت مساواة لا تعترف بهوية أي منهم ولا تحترم أية خصوصية ، أي أنها مساواة تتم في إطار فكرة الإنسان الطبيعي النافع حيث لا يشكل الإنسان إلا جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة (فهي تسوية أكثر منها مساواة) . ومن ثم ، دافع فلاسفة الاستنارة عن اليهود من منظور المساواة الكاملة ومن منظور نفعهم وإمكانية الاستفادة منهم بعد إصلاحهم وتقويمهم بما يتفق مع المعايير العقلية الطبيعية الجديدة .

أما مفهوم الدفاع عن أعضاء الجماعات اليهودية من منظور نفعهم ، فهو يتضمن قدراً كبيراً من رفضهم وعدم قبولهم باعتبارهم بشراً لهم حقوقهم الإنسانية المطلقة لأن العنصر النافع يجب التخلص منه إن فقد نفعه . وعلى أية حال ، فإن هذا المقياس لم يُطبَّق على اليهود وحدهم وإنما طُبِّق على مختلف أعضاء المجتمع الذي تحكمه الدولة القومية العلمانية . بينما أدَّى إصلاح اليهود إلى ظهور أدبيات شرسة تشير إلى طفيلية اليهود وهامشيتهم وطرق إصلاحهم .

وكان كل هذا يتم في إطار فكرة القانون العام والطبيعة البشرية العامة ، في وقت لم تكن الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية قد أحرزت التقدم الذي أحرزته في أواخر القرن التاسع عشر حيث سقطت فكرة الإنسان الطبيعي والإنسانية العامة وحل محلها إدراك تداخل العناصر التاريخية الخاصة مع الطبيعة البشرية ذاتها .

ومن ثم ، طالب عصر العقل (الطبيعي المادي) اليهود (وغيرهم) بالتخلص من خصوصيتهم ليصبحوا بشراً بالمعنى العام (والطبيعي المادي) للكلمة . وكان يُنظَر إلى اليهود الذين يؤثرون الحفاظ على خصوصيتهم الدينية أو الإثنية باعتبارهم « دولة داخل دولة » ، أو على أنهم جماعة قَبَلية في مجتمع تسود فيه مُثُل الليبرالية والعلمانية والاستنارة . ويجب التنبه إلى أن دعاة الانعتاق كانوا يعادون اللهجات المحلية كافة ، ومختلف الخصوصيات الإثنية ، بل ويُقال إن الكونت دي كليرمونت والأسقف جريجوار (وهما من دعاة إعتاق اليهود شريطة أن يتخلصوا من عزلتهم) كانا يبديان ضيقاً شديداً من الخصوصيات القرنسية الإثنية واللغوية المحلية (البريتون والفلامنج والأوكستانيان والأوفيرنيان) أكثر من ضيقهم بالخصوصية اليهودية . إذ أن فكر الاستنارة كان يحوي هجوماً على اليهود بوصفهم جماعة لها هويتها ، ويغطيه سطح مصقول من القبول العام لليهودي كإنسان طبيعي ، وأي إنسان يتفق مع المواصفات القومية العلمانية الجديدة ، فالتسامح هنا دعوة للتخلي عن الهوية وللقضاء عليها ، وذلك باسم الهوية القومية العضوية الجديدة التي تتجسد في

الدولة القومية المركزية . وأدَّى كل هذا في نهاية الأمر إلى ظهور اليهودي غير اليهودي .

وقد وجد اليهود أنفسهم وسط حلبة الصراع بين المسيحية والعلمانية ، حيث كان العلمانيون يشيرون إلى اليهود باعتبارهم ضحية عصور الظلام المسيحية الوسيطة ، أي أن اليهود تحولوا من شعب شاهد على عظمة الكنيسة إلى شعب شاهد على جبروتها وظلمها . وتحوَّل اليهودي ، لذلك ، إلى بطل من أبطال العلمانية . وأصبح بعض العلمانيين ينظرون إلى اليهودية باعتبارها دين العقل ودين الفلاسفة الذي يؤمن بالرب الواحد دون حاجة إلى طقوس مركبة أو معجزات ، أي أن اليهود واليهودية أصبحا مقولة مجردة تُستخدَم لضرب المسيحية والكنيسة . وقد ولَّد هذا في نفوس المسيحيين صورة غير محببة لليهودي .

ولكن فريقاً آخر من دعاة الاستنارة كان يتبع إستراتيجية مخالفة تماماً ، إذ أنهم بدلاً من أن يضعوا اليهودي مقابل الكنيسة كانوا يحولون اليهودي إلى رمز للدين ، أيِّ دين ، أو إلى ممثل لما كانوا يسمونه «المسيحية البدائية» . وبالتالي ، فإنهم بدلاً من الهجوم على الكنيسة والمسيحية بشكل مباشر ، وهو أمر كانت تحفه المخاطر ، كانوا يسددون سهامهم إلى اليهود واليهودية والعهد القديم في هجوم مقنَّع على المسيحية . وكان هذا الفريق يشير إلى تخلف اليهود والخرافات التي يؤمنون بها مثل تراث القبَّالاه ، وإلى أن الدين اليهودي دين معاد للإنسان يشجع على العزلة وعلى عدم الولاء للدولة في وقت كان المجتمع فيه يتجه نحو العلمانية والتحرر .

لكل هذا ، نجد أن عصر الاستنارة هو العصر الذي تم فيه وضع الأسس الفكرية لمعاداة اليهود (وللصهيونية في الوقت نفسه) في العصر الحديث ، حيث نجد الأطروحات والصور الإدراكية النمطية الثابتة التي تنسب إلى اليهود قدراً كبيراً من الصفات المنفِّرة ، وانطلاقاً من ذلك اقتُرح تهجيرهم إلى مكان آخر حلاً لهذا الوضع (أي أن الصيغة الصهيونية الشاملة يكتمل تبلورها في هذه المرحلة) . ومن باب الهجوم المقنَّع على المسيحية ، كان يُطرَح أن الكتاب المقدَّس وثيقة مزيفة ، وأن أبطال العهد القديم أوغاد لا خلاق لهم (ومتعصبون ضيقو الأفق) مارسوا الاضطهاد الديني ضد الآخرين ، وأن اليهود الذين أتوا بالعهد القديم (وهو أكثر أجزاء الكتاب المقدَّس توحشاً حسب رأيهم) شعب همجي ؛ قاس وفاسد . وقام دعاة الاستنارة ببعث أطروحات الكنيسة ضد اليهود في محاولة ماكرة لاستخدام هذه الأطروحات لا ضد اليهودية وحسب وإنما ضد المسيحية (باعتبار أن اليهودية أم المسيحية) بل وضد كل الأديان الأخرى . ولهذا ، لم يكن الهجوم الاستناري يُشَن على السمات اليهودية في النسق الديني اليهودي وحسب ، وإنما كان يُوجَّه كذلك (وأحياناً بالدرجة الأولى) إلى تلك السمات المشتركة بين اليهودية والأديان السماوية الأخرى . وهذا ما فعله فولتير في معجمه الفلسفي (١٧٥٦) ، فهو في المدخل الخاص باليهود يعتبرهم عنصراً مستقلاً مستمراً منذ أيام العبرانيين القدامى ، ويستبعد أن يكون المصريون القدماء أو الفرس أو اليونان قد أخذوا قوانينهم عن اليهود ، مؤكداً أن اليهود (حين احتكوا بهذه الحضارات) لم يتعلموا غير فنون الربا ، بل ويرى أنهم شعب جاهل تماماً جمع بين البخل والخرافات وكره الأمم التي تسامحت تجاههم . إلا أنه يضيف : «ولكن يجب عدم حرقهم» وكأن الإبادة بديل مطروح للنقاش .

أما الفيلسوف المادي هولباخ ، فقد اتهم موسى بأنه أوجد الشريعة التي فصلت اليهود عن سائر الأمم . وأوضح في هجومه أن اليهود لا يخضعون إلا لكُهانهم ، ولذلك أصبحوا أعداء للجنس البشري بأسره يكنون الاحتقار لأخلاق الأمم الأخرى وقوانينها ، إذ أن شريعتهم تأمرهم بأن يكونوا قساة لصوصاً خونة غادرين ، ومثل هذه الأعمال تُعَدُّ في اليهودية عملاً يرضي الرب . ويُضيف هولباخ أن اليهود اشتهروا ، في الواقع ، بالخداع والغش في التجارة ، ويمكن افتراض أنهم إذا أصبحوا أكثر قوة فسوف يعيثون المآسي التي كثيراً ما وقعت في بلادهم . وإن وُجد بعض اليهود الذين يتسمون بالأمانة والعدل ، فهذا يعني أنهم رفضوا بكل وضوح مبادئ الشريعة اليهودية التي تهدف إلى خلق مثيري المتاعب والأشرار . وكما هو واضح ، يرى هولباخ اليهود عنصراً أو شعباً واحداً .

ولكن فكر الاستنارة لم يكن البُعد الوحيد في الفكر الغربي الحديث . فمعاداة الاستنارة ، والتمرد عليها ، والرومانسية ، كانت أبعاداً ثابتة وأساسية فيها ، ولا تقل عن الاستنارة نفسها في الأهمية . وقد انعكست هذه الرومانسية تجاه اليهود في مواقف متناقضة أيضاً ، فتم بعث فكرة اليهودي التائه وتمجيده باعتباره نموذج البطل الرومانسي الحق . ولكننا نلاحظ أن اليهودي التائه هو ، في واقع الأمر ، اليهودي الهامشي . حتى إذا كان بطلاً ، فهو بطل عجائبي متجرد من صفات إنسانية متعينة . وبالتالي ، فإن تمجيد اليهودي بوصفه بطلاً رومانسياً كان ينزع عنه صفاته الإنسانية وهي الخطوة الإدراكية الأولى نحو معاداة اليهود .

كما وجه فلاسفة الرومانسية النقد إلى اليهودية باعتبارها ديانة لاروح فيها . وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى موقف عمانويل كانط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) وهيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) باعتبارهما ممثلين

أساسيين للرؤية الغربية (شبه الدينية والعلمانية) للعقيدة اليهودية . يَصدُر كانط عن الإيمان بأن المسيحية هي أقرب الديانات إلى الديانة الأخلاقية الطبيعية التي بشَّر بها . وهي ديانة تستند هي وتعاليمها الأخلاقية والروحية إلى الحب الخالص . ويقف هذا على الطرف النقيض من اليهودية ، فهي مجرد كيان قومي سياسي ، وهي ديانة برانية تفتقر إلى المثالية الروحية ؛ لا تنمي الحس الخلقي الداخلي ، وتتطلب الخضوع للقانون والشريعة بشكل جاف . وقد أشار كانط أيضاً إلى أن العقيدة اليهودية عقيدة دنيوية لا تعرف فكرة الخلود (وهي فكرة أساسية عند كانط) ، وأن المشيحانية اليهودية نزعة قومية سياسية منغلقة وأنها حوَّلت الشعب اليهودي إلى عدو لكل الشعوب . وأشار كانط إلى يهود عصره فبيَّن أنهم يشتهرون بالغش والخداع ويشتغلون بالتجارة والربا . ولا يوجد حل للمشكلة إلا من خلال القتل الفكري الرحيم وذلك بالقضاء على اليهودية وإحلال دين صاف طاهر أخلاقي محلها (أي المسيحية) . وقد استقى كانط هذه الفكرة الخاطئة من إسبينوزا ومندلسون . ولكن الموقف السلبي لكانط من اليهودية لم يؤثر على علاقته بمن عرفهم من أعضاء الجماعات اليهودية .

وقد تأثر الفكر الغربي برؤية كانط لليهودية وللدين بشكل عام (بما في ذلك المفكرون الغربيون اليهود) ، فنجد أن كثيراً من مفكري عصر الاستنارة من اليهود يميزون بين الجوهر العقائدي لليهودية ، وهو الجوهر العالمي الذي لا يتنافى مع العقل الإنساني والحس الخلقي من جهة ، والشعائر التي تتسم بالخصوصية والقومية ، من جهة أخرى . كما أن كثيراً من المفكرين الغربيين كانوا يفرقون بشكل ساذج بين المسيحية باعتبارها دين القلب والحس الديني الجواني ، واليهودية بوصفها عقيدة العقل والتعاقد البراني (وهو تمييز امتد ليُطبَّق على الفرق بين المسيحية والإسلام) . وقد ترك فكر كانط أثراً عميقاً في دعاة الاستنارة من اليهود مثل سولومون مايمون ولازاروس بنديفيد وماركوس هرتز ، كما تأثر بفكره في مرحلة لاحقة هرمان كوهين وسولومون ستاينهايم وفرانز روزنزفايج (وإن كان تأثرهم به بدرجة أقل) . وقد تأثر دعاة اليهودية الإصلاحية بكانط ، حيث كانوا يرون أن اليهودية هي أساساً نظام أخلاقي ، وهذا قريب للغاية من تصور كانط للدين المثالي .

وقد استمر هيجل في الاتجاه نفسه حيث تأثر هو الآخر برأي مندلسون القائل بأن اليهودية هي مجموعة من القوانين المُوحَى بها وليست حقيقة موحى بها . ويتسم موقف هيجل من اليهودية ، بقدر من العداء في كتاباته الدينية الأولى ، حيث كان يُفرِّق بين العقيدة الشعبية الوثنية اليونانية القديمة التي تتسم بالكهنوتية (باعتبار أن الإله كامن في الجمال) من جهة ، والمسيحية واليهودية من جهة أخرى ، باعتبارهما عقائد تدور كلها حول كتاب مقدَّس يحتوي على قوانين تُفرض على الإنسان من الخارج في حالة اليهودية أو حول حقيقة مقدَّسة (واقعة الصلب) في حالة المسيحية .

ولكن هيجل تخلى عن موقفه هذا في مرحلة لاحقة وأخذ ينظر إلى تاريخ الأديان بطريقة يُقال لها جدلية . ويرى هيجل أن العقيدة تصبح برانية وجافة إن لم يتحد المقدَّس بالزمني ، ولكنها تفتقر إلى الجدية إن لم يكن هناك انفصال بينهما . ومن ثم ، فإن العبادة اليونانية والإحساس اليهودي بالقداسة يقفان على قدم المساواة ، فالعبادة اليونانية للتماثيل الجميلة تنطوي على قدر من الحقيقة ، فثمة قداسة في الجمال . ولكن الإنسان هو صانع هذه التماثيل ، والإنسان متناه والتماثيل من ثم متناهية ، ولكن تناهيها يجعلها زائفة رغم جمالها . ولذا ، قامت الفلسفة القديمة بنزع القداسة من هذه التماثيل . وهذا أيضاً ما أنجزته اليهودية منذ البداية ، فالإله في اليهودية متجاوز للطبيعة والإنسان ومن ثم تصبح التماثيل (وأشكال الجمال الطبيعي والمادي) غير مقدَّسة . ولكن هذا الإنجاز اليهودي له ثمنه الفادح ، فهو يعني انفصال الإنسان عن الخالق ولا يمكنه أن يمتزج معه ويتحد به من خلال الحب . فعبادته للإله مبعثها الخوف والرهبة . وتأخذ التجربة الدينية اليهودية شكل الطاعة العمياء (البرانية) للقانون (الشريعة) والرغبة في الثواب ولا يوجد فيها أي أساس للروحانية ، فهي تشكل انفصالاً كاملاً للموضوع عن الذات . ويرى هيجل أن هذا هو السبب في أن العالم الوثني الروماني كان يطرح مفهوماً عالمياً للحقيقة على عكس اليهودية التي تؤمن بإله عالمي ولكنها ظلت حبيسة خصوصيتها القَبَلية والقومية . ويرى هيجل أن المسيحية تحقق المثل اليوناني واليهودي معاً ، إذ يخرج الإله من ذاته ليصبح إنساناً ومن ثم يصبح الإنسان إلهاً !

وموقف هيجل من اليهودية يدل على عدم معرفته باليهودية التلمودية والقبَّالية ، التي يتم فيها الاتحاد الكامل بين الخالق والمخلوق ، والتي لا تختلف كثيراً عن القبَّالاه المسيحية والتصوف الحلولي المسيحي التي تأثر بها هيجل (من خلال أعمال جيكوب بوهمه وأوتينجر) . وهذه الرؤية أثرت في كتابات فيبر من بعده (وأثرت كذلك في الموقف المسيحي الغربي من الإسلام ، إذ قُرنت اليهودية بالإسلام) . وقد أثر هيجل بشكل عميق في كثير من المفكرين اليهود مثل صمسون هيرش وصموئيل هيرش وموسى هس وهنريش جرايتس . وثمة مكون هيجلي قوي في الفكر الصهيوني ، خصوصاً التصور الصهيوني للتاريخ .

ولا شك في أن هذا الوصف لليهودية لا يخلق جواً من التعاطف مع أتباع هذه العقيدة . ولكن فكر معاداة الاستنارة (الرومانسي) كان يشكل أساساً قوياً لمعاداة اليهود في جانب آخر من جوانبه . فهو فكر يرفض فكرة الإنسان الطبيعي العام ويؤكد الخصوصية . ويرى أن لكل أمة عبقرية خاصة وسمات أزلية يحملها من ينتمي إلى هذه الأمة عن طريق الوراثة والتنشئة ، وهو ما سميناه بفكرة «الشعب العضوي» التي تبدَّت في تأكيد خصوصية اليهود كشعب عضوي منفصل عن غيره من الشعوب (وهذه علمنة لفكرة الشعب الشاهد) ، فهو شعب ذو خصائص ثقافية واقتصادية ودينية فريدة وله علاقته العضوية بأرضه . ومن ثم ، تنشأ فكرة ضرورة استرجاع اليهود إلى أرضهم (فلسطين) كي يحققوا الوحدة العضوية المطلوبة ويحققوا هويتهم .

ويُلاحَظ أن هذه الرؤية يكسوها سطح مصقول من حب اليهود والتحيز لهم ، ولكنها تُضمر تضمينات معادية لهم أو تفترض أنهم شعب عضوي سامي آسيوي لا ينتمي إلى التشكيلات العضوية الآرية في الغرب ، وأنه لو مكث داخل هذه التشكيلات لأصبح عنصراً مرضياً مخرباً مصاباً بازدواج الولاء ، وبالتالي لا يمكن دمجه في المجتمعات التي يوجد فيها ولابد من طرده ، وهو ما سميناه «الشعب العضوي المنبوذ» . وقد تبنّى دعاة النظريات العرْقية والقومية العضوية الرأي القائل بأن الصراع الحقيقي والحتمي هو الصراع بين الأجناس والقوميات المختلفة وليس الصراع بين الطبقات والفئات المختلفة داخل التشكيل القومي الواحد . ومن ثم ، أصبح اليهود ، كشعب عضوي منبوذ ، عنصراً مهماً ، إذ أن الجماعة العضوية تحتاج إلى جماعة عضوية أخرى تكون بمنزلة الأداة حتى تحدد هويتها من خلال رفضها لها . كما أن اليهودي المندمج الذي يتقمص شخصية غير شخصيته ، على نحو ما يتصور دعاة الفكر القومي العضوي ، يقف بتفككه وفقدانه هويته شاهداً على تماسك الأمم العضوية .

وهكذا ، نجد أن التيارين الأساسيين في الحضارة الغربية الحديثة ينطويان على قدر كبير من العداء لليهود : يتمثل الأول في دعوة اليهود إلى الاندماج بعد أن يفقدوا كل خصوصية وتميُّز ، أما الثاني فيقرر ابتداءً أنهم لا يمكنهم الاندماج . ورغم اختلاف التيارين ظاهرياً ، فإنهما يتفقان على رفض اليهودي .

وهناك عنصر آخر في الفكر الاجتماعي الغربي ساهم بدوره في صياغة الرؤية الغربية الحديثة لليهود ، ويتمثل فيه هذا الانقسام الذي لاحظناه بين مفكري عصر الاستنارة ، إذ كانت بعض العناصر البورجوازية الثورية تنظر إلى اليهود باعتبارهم عنصراً مهماً لاستمرار الوجود الإقطاعي . وكان كبار مموِّلي اليهود قريبين بالفعل من النخبة الحاكمة يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تمد أعضاء هذه النخبة بما يحتاجون إليه من أموال وبضائع ، وهو ما كفل لهم شيئاً من الاستمرار ويسَّر ضرب البورجوازيات الصاعدة . ولكن الفريق الأكبر من المفكرين (من اليمين واليسار) كان يرى أن اليهود مرتبطون عضوياً بالبورجوازية والاقتصاد الجديد والليبرالية السياسية . وكان روتشيلد هناك دائماً ينهض دليلاً عملياً محسوساً يوهم بصدق هذه النظريات . وبطبيعة الحال ، كانت قطاعات المجتمع المرتبطة اقتصادياً أو وجدانياً بالاقتصاد الزراعي القديم تهاجم اليهود كتجار يحملون قيم التنافس والتجارة والعلمانية . وكان دعاة القومية السلافية المعروفة بعدائها للغرب (المنحل) ولأفكار الرأسماليين (الماديين) ، يرون اليهود بتكالبهم المفترض على الثروة وبتفككهم الاجتماعي (والذي كان حقيقة مادية بالنسبة لقطاعات كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية في نهاية القرن التاسع عشر) شاهداً حياً على هذه المادية .

ويجب أن نذكر أن فكر معاداة الاستنارة أفرز مناخاً معادياً لفكر المساواة والمثل الليبرالية والثورة ، فهو يمجد العصور الوسطى وفكرة الجماعة العضوية المترابطة (الجمايتشافت) مقابل الجماعة التعاقدية المفتتة (الجيسيلشافت) ، وهو التمييز الأساسي الكامن في الفكر الألماني الاجتماعي وفي معظم الفكر الغربي الثوري والرجعي . وكان اليهود جماعة وظيفية وسيطة دينامية متحركة مرتبطة بالتجارة والمال ، وبالتالي بالبورجوازية الصاعدة وبالمجتمع الجديد . وقد تمت علمنة اليهود بسرعة مذهلة ربما بسبب الأزمة التي كانت تجتازها اليهودية ، كما أن أعداداً كبيرة من اليهود انخرطت بطبيعة الحال في الأحزاب الليبرالية والحركات الثورية ، وهو ما جعل لليهود بروزاً غير عادي في هذه الحركات وربط بين اليهود والليبرالية والثورة .

وإذا كان هذا هو رأي اليمين ، فإن عينات كبيرة أيضاً من اليسار ربطت بين اليهودي من جهة والرأسمالية والبورجوازية وماديتها الخسيسة من جهة أخرى . وكان العداء للرأسمالية ، يأخذ في كثير من الأحيان شكل معاداة اليهود ، كما هو واضح في كتابات فورييه وتوسونيل وماركس . وقد كتب سومبارت أطروحته المشهورة التي يبين فيها أن اليهود هم المسئولون عن ظهور الرأسمالية (وهذا في رأيه تعبير آخر عن فكرة الصراع بين الساميين والآريين) . والساميون هنا (أي اليهود) هم التجار المتجولون ، والآريون هم الفلاحون المنتجون المرتبطون عضوياً بالأرض . وكانت الأطروحة الاشتراكية تكتسب ،

أحياناً ، بُعداً قومياً متعصباً بحيث نجد أن بعض الكتاب الألمان ، بتوقهم الرومانسي إلى العصور الوسطى العضوية (الجمايتشافت) ، كانوا يرون أن الرأسمالية ظاهرة غير ألمانية (دخيلة) أدخلها العنصر التجاري اليهودي الغريب ، وأخذوا يدعون إلى العودة إلى حياة أكثر ألمانية وبساطة !

ويتضح هذا الخط بوضوح في كتابات دوهرنج الذي كان عداؤه لليهود يستند إلى عداء صريح لليبرالية السياسية والاقتصادية ، إذ كان يرى أن اليهود استغلوا الجو الليبرالي السياسي والاقتصادي ليدمروا المجتمع الألماني المتماسك ويهيمنوا عليه . وقد ذهب دوهرنج إلى أن « جمجمة الإنسان اليهودي ليست جمجمة إنسان مفكر ، فهي ملأى على الدوام بالربا والشئون التجارية » . ويؤلف اليهود في نظره « عرقاً وضيعاً لا مثيل له » . وتكتسب فكرة الحفاظ على الشرف العرْقي بعداً اشتراكياً في كتاباته إذ يؤكد ضرورة إزاحة الهيمنة اليهودية من عالم المال لتحقيق هذا الهدف . ويجب أن نضيف أن ما دعم الصور النمطية الإدراكية هو وضع اليهود المتدني حضارياً واقتصادياً وثقافياً . فالجيتو كان من أقذر الأماكن في أوربا ، كما أن المتسول اليهودي كان ظاهرة عامة . ومع نهاية القرن ، كانت الجماعات اليهودية في الغرب في حالة انكسار وانحلال ، بعد أن تم ضرب قيادتها الدينية التقليدية وبعد أن فُرض عليها التحديث والعلمنة بكل قسوة وسرعة . وكذلك ، كان القوّاد اليهودي والبغي اليهودية يمثلان حقائق مادية صلبة . وكانت الحركات الثورية تضم في صفوفها أعداداً كبيرة من الشباب اليهودي . وكان كثير من الفضائح المالية وأعمال الغش يرتكبها يهود . كل هذا يعني أن الصور الإدراكية كانت ذات أساس واقعي ، ولكنه كان أساساً واقعياً مجرداً تماماً من سياقه التاريخي حتى بدا وكأنه حقيقة كاملة .

لكن العنصر الأساسي الذي ساهم في ترسيخ الصور الإدراكية الكريهة عن اليهود ، وفي تصاعد الهجمات ضدهم ، هو الظاهرة الإمبريالية . فقد كان القرن التاسع عشر هو عصر التوسع الإمبريالي الغربي الذي انتهى بالهيمنة على كل أنحاء المعمورة ووضع الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية موضع التنفيذ على مستوى العالم . وصاحب هذه العملية ظهور مجموعة من الأفكار والنظريات والصور الإدراكية العرْقية التي تحاول تسويغ سيطرة الإنسان الأبيض على بقية الأعراق . فضلاً عن أن الفلسفة النيتشوية كانت تكتسح أوربا ، وهي فلسفة تنظر إلى الواقع باعتباره صراعاً لا يهدأ ، صراع الجميع ضد الجميع ، ويستند فيه البقاء لا إلى الحق والخير والجمال وإنما إلى الحركية والقوة والإرادة . كما سادت أوربا آنذاك الفلسفة الداروينية الاجتماعية ، وهي أساساً رؤية للعلاقات الاجتماعية من خلال نموذج ينقل القيم التي زعم داروين أنه اكتشفها في عالم الطبيعة إلى المجتمع الإنساني . وكانت هذه الداروينية من أهم مصادر الفكر الصهيوني بخاصة ، والفكر الإمبريالي بعامة ، فكان يتم تبرير إبادة الملايين في أفريقيا واستعبادهم في آسيا على أساس أن هذا جزء من عبء الرجل الأبيض ومهمته الحضارية ، فهو يبيد الملايين ليؤسس مجتمعات متقدمة متحضرة ! ولكن الرجل الأبيض هو أساساً الرجل الأقوى الذي لا يكترث كثيراً بالخير أو الشر . ولم يكن من الممكن إدراك الواقع بطريقتين مختلفتين : إحداهما ليبرالية خاصة بأوربا ، والثانية إمبريالية عنصرية خاصة بالمناطق التي تقع خارجها . فالعنصرية رؤية متكاملة للإله والطبيعة والتاريخ والإنسان. وكان محتماً أن تقع أكبر الأقليات في أوربا ، وأكثرها انتشاراً وبروزاً ، ضحيةً لهذا التحول الإدراكي والاجتماعي .

تاريخ معاداة اليهود منذ القرن الثامن عشر

History of Anti-Semitism since the Eighteenth Century

تتمثل السمة الأساسية في أدبيات معاداة اليهود في العصر الحديث أن تُنسَب إلى اليهودي صفات خفية ثابتة لصيقة به لا يمكنه التخلص منها إذا شاء أن يفعل . فبينما كان بوسع اليهودي في الماضي أن يتخلص من هويته تماماً عن طريق التنصر ودخول الكنيسة التي كانت تفتح له دائماً ذراعيها ، فإن هذا البديل لم يَعُد مطروحاً في العصر الحديث ، مع ظهور النظريات المادية التفسيرية (للإنسان والكون) التي تفسر الكون في إطار مجموعة من القوانين المادية الحتمية التي تخضع لها الظاهرة . إذ أن سمات اليهودي وخصائصه أصبحت خصائص وراثية وسمات بيولوجية ذات جذور مادية عرْقية ومن ثم لا يمكنه الفكاك منها مهما بذل من جهود . بل إن اندماج اليهود ، ورغبة بعضهم في الهرب من يهوديتهم تشبُّهاً بالأغلبية ، هما في الواقع (حسب الرؤية الحديثة لمعاداة اليهود) مؤشرات على نجاحهم في التخفي والتمسك بالهوية !

ويمكننا أن نقول إن ثمة أسباباً كثيرة أدّت مجتمعة إلى تَفجُّر موجة معاداة اليهود في أواخر القرن الماضي :

١ ـ أدّت الثورة الصناعية والثورة الليبرالية ، وظهور الدولة القومية ، إلى فقد اليهود لدورهم التقليدي كجماعة وظيفية وسيطة ، إذ ظهرت طبقات محلية يمكنها أن تضطلع بهذا الدور . كما أن الدولة القومية استوعبت كثيراً من الوظائف التي كان يقوم بها أعضاء الجماعة . وقد تحوَّل معظم أعضاء الجماعات اليهودية في

الغرب إلى طبقة وسطى في نهاية الأمر ، ولكن الفجوة الزمنية بين الفترتين أدَّت إلى تَفجُّر مشاعر الكراهية ضد قطاع بشري لم يَعُد له أي نفع ولم يكتسب وظائف جديدة بعد .

٢ ـ تكتسب الدولة القومية شرعيتها من التاريخ المشترك والثقافة المشتركة . ويستند النقد الاجتماعي العلماني (للمجتمع الإقطاعي والديني) إلى هذين العنصرين ، ومن ثم يتحدد الانتماء أو عدم الانتماء بمقدار مشاركة المواطن في هذا التاريخ والثقافة . وقد كانت الجماعات اليهودية عادةً ذات هوية مستقلة نوعاً عن محيطها الثقافي ، الأمر الذي كان يجعلها تقع معنوياً خارج دائرة العقد الاجتماعي مع أنها كانت فعلياً داخل دائرة المجتمع ، وهو ما ولَّد كثيراً من العداء تجاه أعضاء الجماعات اليهودية .

٣ ـ تعثُّر التحديث في وسط أوربا وشرقها في نهاية القرن التاسع عشر .

٤ ـ وجود أغلبية يهود العالم في أوربا الشرقية (يهود اليديشية) في بلاد لم تَسُد فيها المُثُل القومية الليبرالية ، وفي مناطق حدودية مُتنازَع عليها ، وفي روسيا (البلد الذي كانت تحكمه بيروقراطية متخلفة لا تفهم وضع اليهود) .

٥ ـ ارتباط اليهود بالحركات الثورية العلمانية اليمينية واليسارية . فقد كان اليهود رمزاً واضحاً للمجتمع الصناعي الرأسمالي الجديد ، وبالتالي أصبحوا هدفاً للجماهير التي اقتلعها الاقتصاد الجديد وألقى بها في المدن والمصانع للعمل تحت ظروف غير إنسانية . ومن ثم أصبح اليهودي بالنسبة إلى البورجوازيات الصغيرة الضعيفة ، في كلٍّ من ألمانيا وبولندا وروسيا ، هو العائق الأساسي الذي يقف حجر عثرة في طريق نموها الاقتصادي لأنه غريم قوي . كما كان الجميع يرون في اليهودي يسارياً ثورياً يهدد المجتمع من أساسه . ويبدو أن عدداً كبيراً من أعضاء الجماعات اليهودية انضموا للأحزاب الشيوعية الحاكمة في روسيا وشرق أوربا ، واشتركوا في عمليات قمع المعارضة التي قامت بها الأحزاب الشيوعية الحاكمة ، فارتبط أعضاء الجماعات اليهودية في الذهن الشعبي بهذه النظم . ورغم عدم وجود يهود في كثير من بلاد أوربا الشرقية ، إلا أن العداء لليهود لا يزال مستمراً بسبب العداء الراسخ للشيوعية .

٦ ـ مع الإعتاق السياسي والاقتصادي لليهود ، لم تعد الجماعة اليهودية جماعة وسيطة مغلقة تعيش في مسام المجتمع داخل الجيتو ويمكن التسامح معهما ، بل خرج أعضاؤها إلى المجتمع ليلتحموا بالبناء الطبقي والاجتماعي والثقافي للمجتمع ، وقد حققوا حراكاً اجتماعياً وطبقياً كبيراً ، وانتشروا بأعداد كبيرة في أنحاء أوربا بسبب الانفجار السكاني الضخم بينهم . وأدَّى كل هذا إلى احتكاك واسع المدى بين أعضاء الجماعات اليهودية وبين بعض قطاعات المجتمع تحت ظروف لم تكن مواتية تماماً بسبب الثورة الصناعية التي حرمت الملايين من الأمن التقليدي الذي كانوا يتمتعون به في المجتمع الزراعي .

٧ ـ انتشر اليهود في المجتمعات الغربية بعد أن ضعفت هويتهم وقيمهم الدينية ، وبعد أن اقتُلعوا من محيطهم الثقافي المألوف لهم . ولذا ، كانت تنتشر بينهم ظواهر مثل الغش والسرقة ، الأمر الذي عزز من الصور الإدراكية السلبية عنهم .

٨ ـ أصبح كثير من اليهود ممن يمكن تسميتهم «يهود غير يهود» ، أي يهود ليس فيهم من اليهودية سوى الاسم ، فقد تآكلت هويتهم الدينية والإثنية تماماً ، ومع هذا استمرت المجتمعات الغربية في تصنيفهم يهوداً . وهذا أمر جعل الناس يشعرون أن اليهود يوجدون في كل مكان وزمان .

٩ ـ هؤلاء اليهود غير اليهود كان لابد من تعريفهم بطريقة ما . وقد تم تعريفهم بطريقة عرْقية مجردة حيث كان التعريف الديني التقليدي غير ممكن . فالعنصر المشترك بين الشحاذ اليهودي من شرق أوربا والموسيقار اليهودي من غربها والتاجر اليهودي من وسطها ، لم يكن الدين أو حتى هوية قومية بعينها ، وإنما كان خاصية مادية عرْقية افتراضية كامنة غير ظاهرة ولا واضحة المعالم ، وهي الخاصية البيولوجية اليهودية التي كان الجميع يفترضون وجودها برغم عدم ظهورها .

١٠ ـ من المفارقات التي تستحق التسجيل أنه مع تزايد الحقوق المعطاة لأعضاء أية أقلية يزداد العداء لها ؛ ذلك لأن الأقلية حينما يتم حصرها تلزم مكانها ، وحينما تتم عملية القمع بموجب القانون أو بحكم البنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع ، يقل العنف الفردي إذ تتكفل المؤسسات بعملية العنف . ومن هنا ، لم تكن ثمة عمليات اختطاف وشنق للزنوج في جنوب أفريقيا في حين كانت هذه الظاهرة منتشرة في الولايات المتحدة ، ومن هنا أيضاً كان خلو إسرائيل من العنف الشخصي (على الأقل حتى نشوب الانتفاضة) . وقد تزايد الكره الفردي الموجه لليهود مع تزايد معدلات الإعتاق والعلمنة . كما تزايد الهجوم عليهم لأنه هجوم على خطر خفي غير ظاهر ، إذ أن اليهودي المندمج لا يتصرف كما يتصرف اليهودي بشكل يسهل رصده ، وإنما يتصرف بشكل " طبيعي " باعتباره فرداً عادياً في المجتمع ، الأمر الذي يجعل من رصده عملية مستحيلة .

١١ ـ ظهور الإمبريالية الغربية ، والنظريات العرْقية والداروينية التي

صاحبتها ، والتي جعلت من الصراع حقيقة أساسية في الوجود الإنساني وقبلت القوة العضلية معياراً أساسياً .

١٢ ـ من أهم أسباب تزايد مشاعر العداء لليهود الانفجار السكاني بين يهود اليديشية في شرق أوربا في وقت سادت فيه أفكار مالتوس وزاد الحديث عن وجود فائض سكاني لابد من التخلص منه . وقد صدَّرت شرق أوربا ملايين اليهود إلى وسطها وغربها وإلى الولايات المتحدة . وكان يهود شرق أوربا كتلة متميِّزة متخلفة متحللة ، وكان وصولهم يصعِّد مشاعر الكراهية ضدهم . وكان السكان لا يميِّزون بين اليهود الوافدين واليهود الأصليين إذ أن الجميع مجرد «يهود» . ولم يكن الوافدون يهوداً وحسب ، وإنما أجانب وغرباء أيضاً . وكان اليهود مرتبطين أحياناً بالعدو ، كما هو الحال في فرنسا ، وخصوصاً في الألزاس واللورين ، فاليديشية التي كانوا يتحدثون بها كانت رطانة ألمانية .

١٣ ـ أدَّى ظهور وسائل الإعلام الحديثة إلى وجود قنوات تنقل الفكر العنصري بسهولة ويسر إلى ملايين الناس وتشيعه بينهم .

١٤ ـ تزامن كل هذا مع الكساد الاقتصادي في أواخر القرن ، الأمر الذي زاد من حدة التوتر الاجتماعي .

وقد أدَّت كل هذه الأسباب مجتمعةً إلى تحوُّل كُره اليهود من مجرد عواطف إنسانية كامنة إلى حركات سياسية . ويعود التاريخ الحديث لمعاداة اليهود على أساس عرْقي إلى عام ١٨٧٣ (في وسط أوربا) ، وذلك مع انهيار البورصة التي كان لبعض المموِّلين اليهود ضلع فيها ، ومع الصعوبات الاقتصادية التي بدأت تطل برأسها . وقد أسس قس البلاط الألماني ، أدولف ستوكر ، حزباً مسيحياً اجتماعياً عام ١٨٧٨ ، وتوجه إلى البورجوازية الصغيرة وكذلك إلى المهنيين الذين كانوا يتصورون أنهم ضحية هيمنة الرأسمالية اليهودية على الاقتصاد . وطرح الحزب مفهوماً عضوياً للقومية يستبعد اليهود ويراهم خطراً على الأمن . وفي هذه الفترة ، ظهرت كتابات دوهرنج وترايتشكه وغيرهما . وفي عام ١٨٨٠ ، أُسِّست في برلين عصبة المعادين لليهود . وقدَّم المعادون لليهودية عريضة للحكومة الألمانية موقعة من ٢٢٥ ألف شخص تطلب إلى الحكومة أن توقف جميع أشكال الهجرة اليهودية التي كانت تتدفق من الجيب البولندي وأن تصدر تشريعات لاستبعاد اليهود . وقد عُقد أول مؤتمر دولي لمعاداة اليهود في عام ١٨٨٢ وضم ثلاثة آلاف مندوب .

وفي عام ١٨٩٣ ، حققت الأحزاب المعادية لليهود في ألمانيا أكبر نجاح انتخابي لها حين حصلت على ستة عشر مقعداً بعد أن نالت ربع مليون صوت . أما في النمسا ، فقد شهد عام ١٨٧١ نشر كتاب عن التلمود من تأليف أوجست رولنج ، ترك أثراً عميقاً في حركة معاداة اليهود .

وفي عام ١٨٩٥ ، تم انتخاب كارل ليوجر زعيم أعداء اليهود رئيساً للبلدية في فيينا . وقد حاول الإمبراطور أن يوقف تعيينه ورفضت الحكومة المصادقة على التعيين ، ولكنه تقلَّد منصبه في نهاية الأمر عام ١٨٩٧ بعد أن أعيد انتخابه ثلاث مرات . وظل العداء لليهود يتصاعد إلى أن وصل إلى ذروته مع انتخاب هتلر ووصول النازيين إلى الحكم .

وقد كانت معاداة اليهود في فرنسا سلاحاً مهماً في يد بعض العناصر الملكية والكنسية المعادية للثورة الفرنسية ومُثُلها . وشهدت هذه الفترة نشر كتاب درومون **فرنسا اليهودية** . وفي أواخر عام ١٨٩٢ ، وقعت فضيحة قناة بنما التي لعب فيها بعض المموِّلين اليهود دوراً ملحوظاً . وشهد عام ١٨٩٤ حادثة دريفوس أحد ضباط الأركان العامة للجيش الفرنسي والذي أُتهم بأنه خان بلاده وسلم بعض المعلومات المتعلقة بأمنها إلى ألمانيا . وقد دافعت عنه القوى الليبرالية ، في حين وقفت القوى المحافظة والمعادية لليهود ضده .

وشهدت روسيا أشكالاً مختلفة من معاداة اليهود ، وبخاصة بعد اغتيال القيصر ألكسندر الثاني عام ١٨٨١ حيث صدرت قوانين مايو (١٨٨١) ، وانتشرت موجة من المذابح من أشهرها مذبحة كيشينيف عام ١٩٠٣ . وبعد عام ١٩٠٥ ، ظهرت جماعات المائة السود بدعم خفي من الحكومة كما يُقال ، وقامت بالهجوم على اليهود في عدة مدن ، كما وُجِّهت تهمة دم ضد بيليس عام ١٩١١ وبُرِّئ منها .

أما في بولندا ، فإن الطبقة الوسطى الصاعدة ناصبت الجماعة اليهودية الوسيطة العداء بسبب احتفاظها بهوية غربية مستقلة (يديشية) وبسبب تاريخ التحالف الطويل بينها وبين النخبة الإقطاعية الحاكمة . وقد نظم البولنديون حركات مقاطعة ضد اليهود في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وكانت الحكومة تتفاوت في موقفها من التأييد لحركات العداء أو محاولة وقفها . ثم قام النازيون بإبادة أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا ضمن من أبادوا من ملايين أخرى .

وبعد الثورة البلشفية في الاتحاد السوفيتي ، تغيرت بنية المجتمع ومؤسساته وتوجهاته . وواجه أعضاء الجماعات اليهودية شيئاً من التمييز العنصري ، ولكن هذا لم يكن نابعاً من سياسة الدولة التي كانت تُجرِّم معاداة اليهود ، وإنما كان أمراً عادياً يسم علاقة الأقلية بالأغلبية . ولعل أكبر دليل على تَراجُع معاداة اليهود تَزايُد معدلات الاندماج والزواج المختلط .

ومع هجرة يهود اليديشية وحرب البوير (١٨٩٩) التي وقف ضدها كثير من قطاعات الرأي العام في إنجلترا ، شهدت إنجلترا موجة من العداء لليهود ، وقيل إن المصالح المالية اليهودية كانت وراء دخول إنجلترا هذه الحرب . وقد ازداد الحديث عن الخطر اليهودي بشكل مبالغ فيه ، وصدرت قوانين الغرباء عامي ١٩٠٢ و١٩٠٥ لمنع دخول الأجانب ، أي اليهود .

أما في الولايات المتحدة والدول الاستيطانية الأخرى ، مثل : جنوب أفريقيا وكندا وأمريكا اللاتينية ، فلم يجابه اليهود أية معاداة إلا في جنوب أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، بخاصة في الثلاثينيات ، ولكنها تلاشت بمرور الوقت وبتناقص عدد أعضاء الجماعة .

ويمكننا تقسيم بلاد العالم الغربي ، من منظور معاداة اليهود ، إلى أربعة أقسام :

١ ـ بلاد التحديث الحر ، مثل : إنجلترا ، وهولندا ، وبلجيكا ، وفرنسا (إلى حدٍّ ما) . وكلها بلاد لها مستعمرات يُصدَّر لها الفائض البشري والتوترات الاجتماعية ، وفيها طبقة رأسمالية قوية وحكومات ليبرالية منتخبة . وتتسم الجماعات اليهودية فيها بقلة عدد أعضائها . وهذه البلاد لا توجد فيها ظاهرة معاداة اليهود بشكل حاد أو مستمر .

٢ ـ بلاد التحديث الشمولي (تحت رعاية الدولة) - ألمانيا أساساً - وهي بلد ليس لها مستعمرات ، إذ أُجهضت تجربتها الاستعمارية وتحالفت الطبقة الرأسمالية فيها مع الطبقات الإقطاعية لتضمن لنفسها النجاح . وبرغم قلة أعضاء الجماعات اليهودية ، فقد كان لهم بروز واضح في المجالات الاقتصادية والثقافية والإعلامية . وقد ظهر فيها العداء لليهود بشكل واضح .

٣ـ بلاد التحديث المتعثر ، مثل : روسيا وبولندا وبعض بلاد وسط أوربا . وهي بلاد لم يكن لها مستعمرات ، ولم يكن اقتصادها متقدماً ، وكان القطاع الرأسمالي فيها ضعيفاً ، كما كانت هذه البلاد تتسم بأنها تضم جماعات يهودية كبيرة . وقد تعثَّر التحديث في هذه البلاد ، وتفشت فيها ظاهرة عداء اليهود . ومع استئناف التحديث على النمط الاشتراكي ، اختفت الظاهرة أو ضَمُرت ، واتجهت المؤسسات نحو دمج أعضاء الجماعات اليهودية . وكانت الدعاية الصهيونية تتهم الاتحاد السوفيتي بمعاداة اليهود المتمثلة في محاولة دمج اليهود ، بل وأُطلق على ذلك «هولوكوست الاندماج» . ولكن معاداة اليهود تبدو دائماً في شكل النظر إلى اليهود باعتبارهم عنصراً غريباً لا يمكن دمجه ، وبالتالي لابد من طرده أو على الأقل تشجيعه على الهجرة . أما في الاتحاد السوفيتي ، فقد كان الوضع على عكس ذلك تماماً ، إذ حاول المجتمع دمجهم فيه بينما كانت القوى الصهيونية هي التي تحاول إخراجهم منه . وإذا كانت أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية قد تلاشت أو انصهرت ، فإن هذا يرجع إلى آليات اجتماعية وبنيوية مركبة .

٤ ـ المجتمعات الاستيطانية ، مثل : الولايات المتحدة ، وكندا ، وأستراليا ، وجنوب أفريقيا . وهذه مجتمعات لم يعرف معظمها ظاهرة العداء لليهود ، ربما باستثناء أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا . وقد استقر اليهود في هذه البلاد وواجهوا المصاعب التي تواجهها أية جماعة مهاجرة . ومن الطريف أنه برغم وجود عداء لليهود في صفوف الحزب الحاكم في جنوب أفريقيا ، فإن الحكومة لم تلجأ قط إلى تشجيع اليهود على الهجرة ، كما يفعل المعادون لليهود عادةً ، وذلك لأن مجتمع جنوب أفريقيا مجتمع استيطاني في حاجة ماسة إلى العنصر البشري الأبيض . ومن ثم ، تُعَدُّ الهجرة إلى إسرائيل أو إلى أي بلد آخر « خيانة وطنية » .

ويُثير ظهور الدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة قضية مهمة تتصل بالعداء الموجه إليهم من قبل المنظمات الصهيونية التي ترفض مد يد المساعدة لهم في عملية الهجرة والاستقرار هناك . والشيء نفسه ينطبق على المتساقطين ، وهم المهاجرون الروس الذين كانوا يهاجرون من الاتحاد السوفيتي بحجة الذهاب إلى إسرائيل ، ثم يتجهون إلى الولايات المتحدة بدلاً من ذلك . فهل يُعتبَر العداء لمثل هؤلاء وعدم مساعدتهم على الهجرة والاستيطان أينما شاءوا ، بل وإغلاق أبواب الهجرة إلى ألمانيا والولايات المتحدة أمامهم ، ضرباً من معاداة اليهود ؟ !

أما في العالم العربي الإسلامي ، فقد تناقص عدد اليهود بشكل ملحوظ ، كما أن أغلبيتهم العظمى حصلت على جنسيات أجنبية في فترة الهيمنة الاستعمارية ، حتى يتسنى لهم التمتع بالمزايا التي تمنحها القوانين المختلطة للأجانب . ومع ظهور الحركة الصهيونية ، تشابك مصير من تبقَّى من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي مع الدولة الصهيونية ، وانتهى الأمر بتصفية كل هذه الجماعات تقريباً باستثناء المغرب الذي بقيت فيه أقلية صغيرة .

وقد ظهرت في العالم العربي ترجمة للوثيقة المسماة **بروتوكولات حكماء صهيون** وكتب عن تهمة الدم ، وهي أفكار تضرب بجذورها في التشكيل الحضاري الغربي ، ومع هذا يتردد صداها الآن في صفوف بعض العناصر المحبة للإثارة والتي لا تتوانى عن استخدام أنصاف الحقائق لإحراز سبق صحفي أو ذيوع إعلامي . أما مراكز البحوث العربية ، فلا تعير مثل هذه الوثائق ، المشكوك في أمرها ، أي اهتمام .

ولا يمكن فصل تاريخ معاداة اليهود عن تاريخ الصهيونية، فكلاهما ثمرة آليات وحركيات توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي وتنبع منه. والواقع أن مفهوم الشعب العضوي المنبوذ هو القاسم المشترك الذي يصل بين الظاهرتين (معاداة اليهود والصهيونية)، وكل ما هنالك هو أن عداء اليهود الذي كان يهدف إلى تدمير اليهود أصبح أكثر عقلانية ورشداً. وبعد ظهور مفهوم نفع اليهود، أصبح الهدف هو توظيفهم، فظهرت الصيغة الصهيونية الأساسية ثم الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، والتي تم تهويدها حتى يتمكن اليهود من استبطانها. وليس من قبيل الصدفة أن ألمانيا، مهد الفكر العضوي العرْقي والنظرية النازية هي ذاتها مهد الفكر الصهيوني.

كلاسيكيات العداء لليهود منذ القرن الثامن عشر

Classics of Anti-Semitism since the Eighteenth Century

وُلدت الأفكار الحديثة لمعاداة اليهود، وكذلك صورها الإدراكية، داخل هذا الإطار. ومن أهم وأول الإسهامات الغربية في هذا المضمار استخدام التمييز بين الآريين والساميين ونقله من المجال اللغوي إلى المجال الحضاري ثم العرْقي. وهذا ما فعله الكونت جوبينو في كتابه **مقال في التفاوت بين الأعراق الإنسانية** (١٨٥٣ ـ ١٨٥٥)، فبسَّط النظريات السائدة، وقسَّم البشر إلى أعراق: أبيض (آري)، وأصفر، وأسود. وذهب إلى أن الجنس الآري الأبيض هو مؤسس الحضارة، وأن السمات المتفوقة لهذا العرْق لايمكن الحفاظ عليها إلا عن طريق النقاء العنصري. وأكد جوبينو أن التيوتونيين هم أرقى العناصر الآرية لأنهم وحدهم الذين احتفظوا بنقائهم.

وتوالت بعد ذلك الأعمال العرْقية الغربية المعادية لليهود، ومن أهمها كتاب ولهلم مار (١٨١٨ـ١٩٠٤) **انتصار اليهودية على الألمانية: من منظور غير ديني** (١٨٦٢). وكان مار مواطناً ألمانياً (يُقال إنه كان يهودياً)، ثم انضم إلى جماعة فوضوية إلحادية في سويسرا بعد فشل ثورة ١٨٤٨. وقد طُبعت من الكتاب اثنتا عشرة طبعة حتى عام ١٨٧٩. وتحل في كتابه كلمتا «سامي» و«سامية»، محل «يهودي» و«يهودية». وهو الذي أشاع مصطلح «أنتي سيميتزم»، أي «معاداة السامية»، في اللغات الأوربية، وبيَّن في دراسته ما زعم أنه الهيمنة اليهودية على الاقتصاد والثقافة، كما أسس جماعة تضم أعداء اليهود عام ١٨٧٩.

ومن أهم الشخصيات التي أضفت كثيراً من الاحترام على النظريات العرْقية المعادية لليهود الموسيقار الألماني ريتشارد فاجنر (١٨١٣ ـ ١٨٨٣)، وكان صديقاً لجوبينو، وتأثر بكتابات مار. وقد طبع فاجنر كتابه **أضواء على اليهود في الموسيقى** (١٨٥٠، ثم ١٨٦٩)، مصوراً إياهم باعتبارهم تجسيداً لقوة المال والتجارة، ومنكراً عليهم أي إبداع في الموسيقى والثقافة. ثم نشر سلسلة مقالات بعنوان: «الفن الألماني والسياسة» طرح فيها فكرته الخاصة برسالة الشعب الألماني (الخالص) المعادية للمادية الفرنسية واليهودية. وقد اتهم فاجنر اليهود بالهيمنة على الحياة الثقافية في ألمانيا وطالب بحرمانهم من حقوقهم السياسية، كما تحدث عن دمار أو إبادة أو اختفاء (بالألمانية: أونترجانج Untergang) اليهود، أي تخليص الحياة الثقافية من اليهود بالقوة، أو دمجهم تماماً عن طريق الفن والموسيقى. وقد تركت أفكار فاجنر أثراً عميقاً في هتلر، ومن ثم كانت ذات مكانة خاصة في التجربة النازية (ولهذا، كانت موسيقى فاجنر ممنوعة حتى عهد قريب في إسرائيل).

وكان لإسهام المفكر السياسي والمستشرق الألماني بول أنطون دي لاجارد (١٨٢٧ـ ١٨٩١) أبعد الأثر في تضخيم الهالة الثقافية والعلمية حول معاداة اليهود. كان لاجارد يحن إلى حضارة العصور الوسطى التيوتونية الخالصة (العضوية)، كما كان يؤمن بالشعب العضوي (الفولك) الألماني وتفوُّقه على الشعوب الأخرى، ويرفض مبدأ المساواة. بل وكان يرى أن الليبرالية مؤامرة عالمية خطيرة. ولم يشأ التعبير عنها بأي من اللونين الأحمر أو الأسود، فهما لونان لهما شخصيتهما، بل وقع اختياره على الرمادي، وانتهى به المطاف إلى اكتشاف وجود الأممية الرمادية التي استنكرها لأنها تشكل حجر عثرة في سبيل تحقيق خلاص الأمة الجرمانية وأداء رسالتها «نحو العلم»، على حد قوله، كما تقطع الطريق على الأماني والأطماع الجرمانية الرامية إلى إخضاع أوربا الوسطى للسيطرة الألمانية، والتخلص من إمبراطورية هابسبورج، وإجلاء السلاف عن البلاد بالقوة لأنهم ليسوا من سكانها الأصليين. وبطبيعة الحال، ربط لاجارد بين الليبرالية الأممية الرمادية واليهود، الذين وصفهم بأنهم يشكلون عبئاً كريهاً ولا مغزى تاريخي لهم، يهدِّدون رسالة ألمانيا ووحدتها القومية. ولم تكن أفكار لاجارد عنصرية سوقية وإنما كانت عنصرية أكاديمية تستخدم ديباجات علمية، فقد كان يؤكد أنه لا يكن أي عداء لليهود كأفراد وإنما يعادي أمة سامية وثنية غريبة يُعرقل وجودها (الموضوعي) اتحاد أوربا الوسطى تحت قيادة ألمانيا، ولذا فلابد من طرد أعضائها أو ترحيلهم بالقوة.

ومن الشخصيات التي ساهمت في إشاعة هذه الأفكار المعادية

لليهود على أساس عرْقي ، المؤرخ والسياسي الألماني هنريش فون ترايتشكه (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) الذي كان يُعَدُّ من أهم المفكرين الألمان في عصره ، وهو ما أكسب هذه الأفكار قدراً كبيراً من المصداقية والاحترام . وصف ترايتشكه الهجوم على اليهود بأنه هجوم وحشي ، ولكنه رد فعل طبيعي للمشاعر القومية الألمانية ضد عنصر غريب (الشعب العضوي في مواجهة الشعب العضوي المنبوذ) ، ثم طرح الشعار المشهور «اليهود مصيبتنا» . وحذر الألمان من التدفق اليهودي من الخزان البولندي (إشارة إلى الانفجار السكاني بين يهود بولندا) ، وهو تدفُّق لا ينضب ، «جمع من الشباب الطموحين بائعي الملابس القديمة الذين سيسيطر أطفالهم وأطفال أطفالهم يوماً ما على سوق الأوراق المالية والصحف في ألمانيا» . وقد تبدَّى هذا الرفض لليهود في شكل تعاطُف مع المشروع الصهيوني .

ومن الشخصيات الأخرى التي أشاعت الفكر العرْقي المعادي لليهود هيوستون ستيوارت تشامبرلين (١٨٥٥ ـ ١٩٢٧) ، وهو بريطاني المولد فرنسي النشأة ألماني بالاختيار ، فقد كان معجباً بالثقافة الألمانية إعجاباً عميقاً . وقد تصادق مع فاجنر وتزوج ابنته ، وتأثر بأفكار جوبينو ولاجارد ، وألَّف أهم كتب العنصرية الغربية **أسس القرن التاسع عشر** (١٨٩٩) . وقد آمن تشامبرلين بتفوُّق الإنسان النوردي الأشقر ، وبأن قدر التيوتونيين هو قيادة الإنسانية جمعاء ، فكل ما هو عظيم في العالم من إبداعهم . وأكد تشامبرلين أن اختلاط الأجناس هو سبب التخلف . واليهود ، بحسب رأي تشامبرلين ، يشكلون عرْقاً هجيناً متحركاً هامشياً طفيلياً لا جذور له . وهم غير قادرين على الإبداع ، ولا يوجد لديهم إحساس ديني ، بل إن وجودهم ذاته جريمة ضد الإنسانية . وذهب تشامبرلين إلى أن الشخصيات المهمة في بدايات التاريخ اليهودي ، مثل داود والأنبياء والمسيح ، من أصل ألماني ! وتنبأ بالمواجهة الحتمية بين الساميين والآريين .

ومن الملاحَظ أن معظم كتب معاداة اليهود (وأكثرها حدة) ألمانية . ولعل هذا يعود إلى مجاورة ألمانيا للجيب البولندي ، وإلى وجود عنصر يهودي قوي في عالم الاقتصاد الألماني ، وإلى دخول ألمانيا إلى الساحة الإمبريالية متأخرة من الناحية الزمنية ، الأمر الذي أثر في مساحة الرقعة الجغرافية التي استعمرتها . ومن هنا ، اضطرت ألمانيا إلى أن تنفث سمها العنصري في أوربا (ضد اليهود والسلاف) لا خارجها (ضد الأفارقة والآسيويين والمسلمين) . ومع هذا ، فليس بإمكاننا إنكار أن معاداة اليهود ظاهرة غربية تشمل شتى دول العالم الغربي ، شأنها في هذا شأن الصهيونية . ولهذا ، لم تقتصر كُتب معاداة اليهود على ألمانيا . وقد أشرنا من قبل إلى جوبينو الفرنسي ، ويمكن أن نشير الآن إلى إدوار أدولف درومون (١٨٤٤ ـ ١٩١٧) ، وهو أيضاً فرنسي ، وقد ضمن أفكاره كتاب **فرنسا اليهودية** (١٨٨٦) الذي طُبع أكثر من مائة طبعة ، وكان من أكثر الكتب الأوربية رواجاً ومبيعاً في القرن التاسع عشر . وقد ألف درومون كتباً أخرى تتضمن الأفكار نفسها والرؤية نفسها . وكان درومون يرى أن يهود فرنسا عنصر أجنبي غريب يستغل النظام الاقتصادي الفرنسي لتحقيق منافعه الخاصة وبسط سيطرته على العالم ، وأنهم عنصر تجاري بطبيعته ، يسيطر على المشاريع التجارية والصناعية الكبرى التي تعوق نمو الطبقة الوسطى المسيحية الناشئة ، فهم يركزون الثروة في أيديهم (مثل روتشيلد) ويشكلون خطراً على مستقبل الطبقة العاملة في البلاد . وهم يتسمون بخصائص وميزات عرْقية منحطة وغير نقية ، ويعملون على إفساد الروح الفرنسية ، وتقع عليهم تبعة الانهيار والانحطاط السائدين في فرنسا بطولها وعرضها . واليهود يؤلفون «دولة داخل دولة» و«أمة داخل أمة» ، ولذلك فإن اندماجهم ليس ممكناً ، كما أن اختلاطهم بالشعب الفرنسي عن طريق التزاوج أمر غير مرغوب فيه . وهم بلا وطن حقيقي ، ولا يخضعون لأية روابط فعلية ، بل سيبقون إلى الأبد كما كانوا دوماً عنصراً غريباً في جسم الأمة يختلف بصورة جوهرية عن الفرنسيين ، ويجب معاملتهم على الأسس التي يقترحها هو والنظر إليهم من تلك الزاوية . فهم لا يستحقون التحرر مطلقاً ، بل يجب وقف تحرُّرهم ومصادرة ممتلكاتهم وأموالهم على أن يُستخدَم ذلك لإيجاد وسائل إنتاجية للطبقة العاملة التي لا تزال مُستَغَلة . وقد ساهم كتاب درومون في صياغة رؤية كثير من المفكرين اليهود وغير اليهود للمسألة اليهودية ومنهم هرتزل .

ومن المفكرين الإنجليز الذين بادروا إلى معاداة اليهود ، المؤرخ والمصلح التربوي البريطاني جولدوين سميث (١٨٢٣ ـ ١٩١٠) ، فقد نشر عام ١٨٧٨ ، مع بدايات هجرة يهود اليديشية من روسيا إلى إنجلترا ، عملاً حاول فيه أن يبرهن على استحالة أن يصبح اليهود مواطنين في دول أوربا المضيفة ، كما حاول أن يبرهن على أن وجودهم يشكل خطراً سياسياً على بلده . أما اليهودية ، فهي في رأيه دين عنصري يتمسك به اليهود بضراوة ويحل فيه العنصر أو العرْق محل البلد الذي فقدوه . الأمر الذي جعلهم يرفضون الاختلاط بالناس ويجلب عليهم بُغض الشعوب . ولهذا السبب ، نادى سميث بحل صهيوني للمسألة اليهودية .

وقد ظهرت أعمال أدبية أخرى ، مثل **بروتوكولات حكماء**

صـهـيـون ، تردد الأفكار نفسها التي وردت في الكتب السابقة . والواقع أن بروتوكولات حكماء صهيون تصوِّر الأفكار السابقة بطريقة شعبية تصل إلى وجدان البسطاء بسرعة وتجسد المخاطر ، التي تحدَّث عنها تشامبرلين أو ترايتشكه ، في شكل مؤامرة عالمية متعيِّنة ، واجتماعات عقدها الحاخامات للسيطرة على العالم ، أي أن البروتوكولات تشيع الأفكار نفسها بأسلوب يشبه أسلوب صحافة الإثارة والجريمة والجنس .

التحامل على اليهود

Prejudice Against the Jews

«التحامل على اليهود» ـ حسب رأي الحاخام أبا هليل سيلفر ـ يختلف عن «التعصب ضد اليهود» . فالتعصب هو الرفض الجذري والنشط الذي يمارسه بعض أعضاء الأغلبية ضد أقلية إثنية أو دينية ما . وفي حالة أعضاء الجماعة اليهودية ، فإن التعصب يترجم نفسه إلى «معاداة اليهود» وما يصاحبها من أنماط إدراكية ثابتة قد تتحوَّل إلى هجوم شرس عليهم . أما التحامل ، فهو أقرب ما يكون إلى مزاج سلبي ضد أعضاء أقلية ما وعدم تقبُّل لهم ، وهو لا يترجم نفسه إلى إرهاب وعنف بل يأخذ شكل نكتة ساخرة أو تمييز خفيف يتعلق بالتفاصيل وليس بالجوهر والحقوق . والتحامل ظاهرة موجودة في كل المجتمعات البشرية وليس من المحتمل أن تزول إلا في نهاية التاريخ ، فعلاقة الأغلبية بالأقلية سيشوبها دائماً نوع من التوتر .

والتحامل على أعضاء الجماعات اليهودية أمر موجود بطبيعة الحال في معظم المجتمعات التي يوجدون فيها ، ولكن ما يحدث أن كثيراً من الصهاينة يخلطون بين التحامل على اليهود والتعصب ضدهم وتصبح كل الأمور بالنسبة لهم « عداءً للسامية » . والهدف من هذا هو تأكيد عزلة اليهود وتأكيد أن مجتمعات الأغيار تنبذهم بطبيعتها ، ومن ثم لا يوجد حل سوى الحل الصهيوني . وقد بين العالم الإسرائيلي موردخاي ألتشولار أن ما يواجه يهود روسيا وأوكرانيا في الوقت الحالي ليس هو العداء الشرس لليهود وإنما هو شكل من أشكال التحامل عليهم وحسب (ولكنه لم يستخدم المصطلح) . وقد شبه ألتشولار يهود روسيا بيهود الولايات المتحدة ، فاليهود المتعلمون الباحثون عن النجاح المادي والمهني منهم مستعدون للتعايش مع قدر غير محسوس من معاداة اليهود أو التحامل عليهم ، أي إذا لم يكن هذا العداء ملموساً في حياتهم اليومية ولا يعوق تقدُّمهم واندماجهم .

معاداة السامية الجديدة

New Anti-Semitism

«معاداة السامية الجديدة» (أي «معاداة اليهود الجديدة») مصطلح ظهر مؤخراً في المعجم الصهيوني يشير إلى عدة مدلولات من أهمها ما يلي :

١ - ما يزعم الصهاينة أنه أشكال جديدة من معاداة السامية ، هي في حقيقة الأمر إعادة إنتاج للأشكال القديمة . ويضربون مثلاً لهذا بالعداء للدولة الصهيونية . فحينما ترتكب الدولة الصهيونية مذبحة مثل قانا فتدمغها معظم دول العالم ، وحينما تُبنَى مستوطنة جديدة في القدس أو على حدودها وتصدر هيئة الأمم المتحدة قراراً بإدانتها ، فإن هذا يكون تعبيراً عن النمط القديم : عداء الأغيار الأزلي لليهود .

٢ - يُستخدَم المصطلح أيضاً للإشارة إلى ما يسميه الصهاينة «معاداة السامية الإسلامية» ، أي عداء المسلمين لليهود . وهم يرون أن هذا النوع من العنصرية آخذ في التزايد حيث ينظر المسلمون إلى اليهود باعتبارهم " أعداء الله " ، وأن إسرائيل تعبير عن المؤامرة اليهودية الأزلية .





٢
بعض التجليات المتعيِّنة لمعاداة اليهود

بعض التجليات المتعيِّنة لمعاداة اليهود ـ طرد اليهود ـ تدنيس خبز القربان المقدَّس ـ تهمة الدم ـ حادثة دمشق ـ بيليس ـ هجوم أو مذبحة (بوجروم) ـ مذبحة ـ بوجروم ـ اضطرابات فيتميلخ ـ كيشينيف ـ فرانك ـ حادثة دريفوس ـ المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية ـ اليهود كشياطين ـ بروتوكولات حكماء صهيون ـ اليهودي الدولي ـ براقمان ـ اليهودي التائه ـ هب هب ـ كايك وشيني ـ إسرائيل ويست

بعض التجليات المتعينة لمعاداة اليهود
Some Concrete Manifestations of Anti-Semitism

يمكن تفسير ظاهرة معاداة اليهود من خلال نموذج تفسيري وتصنيفي واحد مركب تتفرع عنه عدة نماذج فرعية تتبدَّى ، هي بدورها ، في أحداث ووقائع ومؤلفات بعينها، مثل : اضطرابات فيتميلخ ، وحادثة دريفوس ، وتهمة الدم ، وبروتوكولات حكماء صهيون . وفي كل مدخل ، سنحاول أن نعرض لموقف كلٍّ من الرؤية العرْقية المعادية لليهود والرؤية الصهيونية من الظاهرة أو القضية موضوع الدراسة ثم نحاول أن نقدم تفسيراً أكثر تركيباً وأقل اختزالية .

طرد اليهود
Expulsion of Jews

يُشير مصطلح «طرد اليهود» في الكتابات الصهيونية إلى مجموعة من الوقائع التاريخية التي حدثت في مجتمعات وتشكيلات حضارية مختلفة تحت ظروف مختلفة لا يربطها أي رابط . والواقع أن الحديث عن «طرد اليهود» ، كما لو كان ظاهرة تاريخية واحدة ، هو تعبير عن الإيمان بوجود تاريخ يهودي واحد يُعبِّر عن هوية يهودية واحدة (منبوذة من الأغيار) ، وأن اليهود شعب عضوي منبوذ .

وفيما يلي بعض تواريخ الطرد المهمة :

٧٢٤ ق.م	التهجير (النفي) الآشوري .
٥٨٦ ق.م	التهجير (النفي) البابلي .
١٣٩ ق.م	القاضي (برائيتور) ، هسبالوس يطرد اليهود من روما .
١٩ ق.م	تايبريوس ينفي الأجانب (ومن بينهم اليهود) .
٥٠م	كلوديوس يأمر بطرد اليهود من روما .
٧٠	هدم الهيكل على يد تيتوس وطرد اليهود من فلسطين (وتُعدّ هذه هي أهم حادثة طرد من المنظور اليهودي والمسيحي) .
٩٤	دوميتان يطرد المسيحيين واليهود .
١٣٥	طرد اليهود من القدس وتحريم دخولها عليهم .
٤١٥	الطرد من الإسكندرية .
٦٢٤ـ٦٢٨	الطرد من الجزيرة العربية أيام الرسول .
١٤٦٧	الطرد من تلمسان .

ولكن أهم وقائع الطرد توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي في العصور الوسطى وبعدها :

١٢٩٠	إنجلترا	١٤٩٢	إسبانيا
١٣٠٦ـ١٣٩٤	فرنسا	١٤٩٥	ليتوانيا
١٣٦٧	المجر	١٤٩٧	البرتغال

وقد شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر حوادث طرد من مدن إيطاليا وألمانيا :

١٤٢٦	كولونيا	١٤٥٣	برسلاو
١٤٣٩	أونسبرج	١٦٤٨	ثورة شميلنكي في أوكرانيا

واستمر الطرد حتى العصر الحديث :

١٧٤٤-١٧٥٢ براغ

وبعد ذلك التاريخ ، تأسَّست منطقة الاستيطان ، وهو ما كان يعني :

١٧٧٢	الطرد من بقية روسيا	١٨٩١	الطرد من موسكو

وقام الروس بعد الثورة البلشفية ، والنازيون بعد استيلائهم على الحكم ، بنقل أعداد من اليهود من أماكن إقامتهم إلى أماكن



أخرى . كما هاجر يهود البلاد العربية إلى إسرائيل وأوربا بعد عام ١٩٤٨ . وتُصنِّف **الموسوعة اليهودية** هذه الأحداث التاريخية كافة باعتبارها « حوادث طرد » . وتذكر أنه يمكن تصنيفها على أسس مختلفة إلا أن الدافع الجذري وراءها جميعاً هو كُره اليهود «ومعاداتهم» !

وغني عن القول أن هذه الوقائع لا يربطها رابط ، فالتهجير الآشوري والبابلي شملا أقواماً عديدة أخرى لضمان أمن منطقة عبر النهر ، أي منطقة الشام . وفي كثير من الأحيان ، لم يكن الحكام الآشوريون أو البابليون يعرفون شيئاً عن العبرانيين ، فكانت تَصدُر الأوامر بهدم منطقة أو تهدئتها ، الأمر الذي كان يعني إخلاءها من معظم سكانها وأقوامها ، وبخاصة من أعضاء النخبة . وقد شهد عام ١٣٩ ق . م أول عملية طرد لأعضاء إحدى الجماعات اليهودية ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، حيث إنها لم تكن تهجيراً كالتهجير البابلي مثلاً ، وليست فراراً كما حدث مع ثورة شميلنكي . ويبدو أن سبب عملية الطرد من روما هذه هو الخوف من تحوُّل المواطنين الرومان إلى العقيدة اليهودية . ويبدو ، بالفعل ، أن كثيراً من الرومان المتعلمين كانوا يعجبون باليهودية نظراً لطبيعتها التوحيدية بالقياس إلى التعددية والشرك اللذين يسمان العبادة الوثنية في روما . أما طرد اليهود عام ١٩ ميلادية ، فقد تم بتحريض من سيجانوس رئيس الحرس الإمبراطوري ، غير أن الإمبراطور تايبريوس الذي أصدر أمر الطرد عاد وألغاه بعد اثنى عشر عاماً ، وأمر بألا يُساء إلى اليهود أو إلى شعائرهم الدينية ، وأعلن أن سيجانوس كان قد ضلله لتحقيق مآربه الخاصة . ورغم أن روما اتسمت بالتسامح ، فإن التهود بأعداد كبيرة كان يهدد سلطة الدولة ، ذلك أن شرعية الدولة تستند إلى العبادة الوثنية ، كما أن كثيراً من الوظائف الإدارية كان مرتبطاً بهذه العبادة، وبالتالي فإن التهود كان يعني ضعف الولاء وأزمة الشرعية ، كما كان يهدد ثبات موارد الهياكل المقدَّسة من هبات وقرابين . ويبدو أن رجال المال الرومان كانوا أيضاً وراء طرد اليهود ، حيث كانوا يمارسون الربا بالتحايل على القانون ويودون التخلص من المرابين اليهود الذين يشكلون منافساً قوياً لهم .

أما طرد اليهود من القدس ، فلم يكن جزءاً من سياسة روما الداخلية وإنما جاء في إطار سياستها الإمبراطورية وكمحاولة لتهدئة المنطقة . وكان طرد اليهود من المدينة المنورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يعود إلى أسباب خاصة بحركيات الدين الجديد ومحاولة الدولة الإسلامية الجديدة تأمين مركزها وقلبها بضمان عدم وجود أقليات لا تدين لها بالولاء . وحينما قام شميلنكي بالهجوم على الجماعات اليهودية ، فإنه كان يفعل ذلك في إطار حركة تحرُّر وطني وثورة فلاحية ضد المستغلين البولنديين الذين تَصادَف وجود اليهود كوكلاء لهم . وحينما كتب شميلنكي إلى كرومويل ، في محاولة لتوحيد القوى الأرثوذكسية والبروتستانتية ضد الكاثوليكية ، فإنه لم يذكر اليهود من قريب أو بعيد .

وإن أردنا أن نجد نمطاً متكرراً في ظاهرة طرد اليهود ، فإننا لن نجده على صعيد العالم وإنما داخل التشكيل الحضاري الغربي ، وبخاصة في العصر الوسيط . وسنجد أن السبب وراء طرد اليهود لم يكن كُرههم وإنما كونهم جماعة وظيفية وسيطة تشكل عنصراً استيطانياً غريباً، يُوطَّن (أي يُستورَد) ويُصدَّر ولا يضرب بجذوره في أي مكان، تماماً مثل الجنود المرتزقة . والجماعة الوظيفية الوسيطة تلعب دورها، ثم يستغنى عنها المجتمع فينبذها، فتنتقل إلى مجتمع آخر ، وهكذا . وعادةً ما تستغني المجتمعات عن الجماعة الوظيفية الوسيطة حينما تظهر هياكل مركزية للإدارة (وهذا ما حدث في حالة إنجلترا عام ١٢٩٠ وفي فرنسا في أواخر القرن الرابع عشر وفي إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر) أو حينما تظهر طبقات محلية بديلة (وهذا ما حدث في معظم أوربا بالتدريج ابتداءً من القرن الثاني عشر) .

والجدير بالملاحظة أن المدن في العصور الوسطى كانت صغيرة للغاية وأن عدد أعضاء الجماعات اليهودية في كل مدينة كان صغيراً ولا يُعتد به من الناحية الإحصائية . إذ كان عدد يهود إنجلترا لا يزيد، حسب إحدى الروايات ، على أربعة آلاف . وكانت أية جماعة يهودية لا تزيد على ألفين ، وكانت الجماعة اليهودية تُعدُّ كبيرة إن زاد عدد أعضائها على بضع مئات . ومن هنا ، فإن الحديث عن الطرد هو حديث عن طرد بضع مئات من التجار الغرباء . وكان الاستثناء الوحيد من القاعدة هو طرد اليهود من شبه الجزيرة الأيبيرية ، حيث بلغ عددهم مائة وخمسين أو مائة وعشرين ألفاً ، وقد طُردوا مع مئات الألوف (ويُقال أكثر من مليونين) من المسلمين الذين رفضوا التنصر وفاقت أعدادهم أعداد اليهود . ويُلاحَظ أن اليهود كانوا ، في كثير من الأحيان ، يُطردون أو يفرون لبضعة أشهر ثم يعودون إلى مواقعهم مرة أخرى . ولابد من الإشارة إلى أن اليهود لم يكونوا الجماعة الوحيدة التي يتم طردها ، فقد كان يتم طرد مختلف أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة الأخرى ، مثل اللومبارد والكوهارسين . وأحياناً ، كان يتم طرد إحدى الجماعات لتحل محلها جماعة أخرى تقدم شروطاً ائتمانية أفضل ، فهذه الجماعات لم يكن يُنظَر إلى أعضائها باعتبارهم بشراً وإنما كان يُنظَر إليهم كأدوات إنتاج يمكن أن تحل الواحدة محل الأخرى .

وقد عمَّقت عمليات الطرد عدم تجذر اليهود في الحضارة الغربية وزادت هامشيتهم ، وهي التي حددت إدراك العالم الغربي لهم . وتبدَّى هذا الإدراك في صورة «اليهودي التائه» . ومن هنا ، فإن الحل الصهيوني للمسألة اليهودية (الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة) يَصدُر عن قبول فكرة طرد اليهود من أوربا وحتميتها . ويُعَدُّ وعد بلفور النقطة التي اتفقت فيها أوربا مع قيادات الجماعة اليهودية على أن يتم نقل اليهود من العالم الغربي إلى فلسطين (أي طردهم بطريقة سلمية مؤسسية) باعتبارهم عنصراً نافعاً يمكنه الاضطلاع بوظيفة قتالية دفاعاً عن المصالح الإمبريالية الغربية داخل إطار الدولة الوظيفية . كما أن الإبادة على يد النازيين ، هي الأخرى، شكل من أشكال الطرد (من العالم الغربي إلى العالم الآخر) أخذ شكل التصفية الجسدية ، وذلك بسبب عدم وجود مستعمرات ألمانية يُطرَدون إليها ، وبسبب رفض بولندا السماح بدخول قطارات اليهود المطرودين إليها .

ويتضح قبول الطرد ، كنقطة انطلاق في صهيونية يهود الغرب التوطينية ، من واقع أن اللجان (الأليانس وغيرها) كانت تُشكَّل لنقل اليهود إلى أي مكان في العالم ماعدا المكان الذي استوطنوا فيه بالفعل (في بلاد غرب أوربا) . وقد أيد يهود الغرب الصهيونية الاستيطانية من منظور توطيني . كما أن المنظمات الصهيونية مازالت تشجع اليهود على الهجرة من روسيا وأوكرانيا بدلاً من الدفاع عن حقوقهم السياسية والمدنية وحقهم في التمتع بحياة كريمة في أوطانهم. ومن ثم ، يمكن أيضاً تصنيف ذلك على أنه تقبُّل لحتمية خروج أو طرد اليهود من تلك البلدان ، ويمكننا تصنيف الصهيونية على أنها حركة طاردة لليهود من أوطانهم المختلفة بهدف تجميعهم في بلد واحد ، ويُطلَق على هذه العملية مصطلح «تجميع المنفيين» .

ومما يجدر ذكره أن أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم اشتركوا، أحياناً ، في عملية طرد اليهود . وكان ضمن حقوق الجيتوات ، في العصور الوسطى ، ما يُسمَّى «تحريم الاستيطان» (بالعبرية : حيريم هايشوف) ، أي تحريم استيطان أي يهودي غريب على الجيتو فيه . ومن ثم ، كانت هذه الجيتوات تطرد اليهود الغرباء منها . كما كانت هناك حالات في القرن الثامن عشر طالب فيها اليهود بطرد جماعات يهودية أخرى . فقد قدم يعقوب رودريجيز في عام ١٧٦٠ التماساً إلى لويس الخامس عشر لطرد اليهود الألمان (الإشكناز) ، وأيده في ذلك الطلب المفكِّر والمموِّل اليهودي السفاردي إسحق دي بنتو . ووافقت الحكومة الفرنسية على الطلب ونَفَّذ الاقتراح في العام التالي .

ومن الظواهر التي تُفسَّر على أنها طرد لليهود ، نتيجة العداء الكامن تجاههم ، خروج اليهود من بلاد تأخذ بالنمط الاشتراكي في التنمية . ولعل أكثر الأمثلة بروزاً في هذا المجال هو كوبا . فبعد استيلاء كاسترو على الحكم ، خرجت أعداد هائلة من اليهود حتى أوشكت الجماعة اليهودية على الاختفاء الكامل . وقد حدث الشيء نفسه في البلاد العربية التي نحت منحى اشتراكياً .

وإذا وضعنا هذه الظاهرة في سياقها التاريخي ، يمكننا أن نفسر خروج اليهود بالأسباب التالية :

١ ـ يُلاحَظ أن النمط التنموي الاشتراكي يلجأ إلى تأميم قطاعات من الاقتصاد مثل المصارف ومنافذ التسويق حتى يمكنه التحكم في آليات السوق . ومثل هذه القطاعات هي التي يتركز فيها عادة أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة ، ومن بينهم أعضاء الجماعة اليهودية بطبيعة الحال . كما أن الوضع نفسه ينشأ حينما تظهر الطبقات المحلية الوطنية وتشارك في العملية الاقتصادية وتُسيِّرها كما ترغب .

٢ ـ ويُلاحَظ أن الهجرة اليهودية في العالم ، منذ نهاية القرن الماضي، تتجه من بلاد متخلفة مثل روسيا إلى بلاد متقدمة تتبع الاقتصاد الحر مثل الولايات المتحدة وغيرها من البلاد الاستيطانية (أستراليا وكندا وجنوب أفريقيا) . ومن هنا يمكن تفسير خروج يهود كوبا .

٣ ـ كما يُلاحَظ أن دول العالم الثالث ، التي تخرج عن المسار الغربي ، تمارس نوعاً من التضامن فيما بينها ، وبالتالي فهي تأخذ موقفاً متعاطفاً من الدول العربية ومن منظمة التحرير الفلسطينية ومن كفاح الشعب الفلسطيني ضد الاستعمار الغربي والصهيوني . وقد نجحت المنظمة من جانبها في أن تقيم علاقات مع الحركات الثورية في الأرجنتين ونيكاراجوا واليابان ، وهو ما يخلق خطاباً سياسياً يولد إحساساً بعدم الأمن لدى أعضاء الجماعات اليهودية فتهاجر أعداد منهم ، وتقع كوبا داخل هذا النمط . ومن المعروف أن نظام كاسترو بذل جهوداً غير عادية للدفاع عن حقوق المواطنين اليهود في كوبا ، ولتيسير السبل لهم للتعبير عن هويتهم الدينية ، وهذا يبين مدى تهافت فكرة كره اليهود .

وإذا قبلنا المقولة السابقة ، فمن الممكن إعادة تفسير خروج اليهود من بعض البلاد العربية ، مثل مصر وسوريا والجزائر ، لا باعتباره طرداً وإنما باعتباره اتجاهاً ينتمي إلى الظاهرة نفسها ، أي ظهور حكومات قومية محلية تستولي على الحكم وتعادي الاستعمار . والواقع أن ظهور مثل هذه الحكومات يجيء عادةً تعبيراً عن ظهور قوى محلية تشارك بشكل أكثر نشاطاً في الاقتصاد

الوطني ، وهو ما نجم عنه تأميم (تمصير وتعريب) بعض القطاعات التي كان يتركز فيها أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة (اليهود ، واليونانيون ، والإيطاليون) . كما أن كثيراً من الدول العربية دخلت في صراع ضد الاستعمار الغربي وضد الدولة الصهيونية حليفته الأساسية في المنطقة ، الأمر الذي خلق توتراً شديداً بين الأغلبية وأعضاء الجماعة اليهودية الذين تدّعي الدولة الصهيونية تمثيلهم . وفي بعض الأحيان، كان أعضاء الجماعة اليهودية يتعاونون مع الدولة الصهيونية ـ كما حدث في حادثة لافون ـ كما أن الأغلبية العظمى من يهود العالم العربي ، جاءوا إما من العالم الغربي (أساساً) مع الموجة الاستعمارية أو حصلوا على جوازات غربية للاستفادة من قوانين الامتيازات ، ليلعبوا دور الجماعة الوسيطة بين الاستعمار والسكان المحليين . ومع تراجُع الاستعمار ، كان لابد لهذه الجماعات (مثل اليونانيين والإيطاليين) أن يخرجوا معه . كما أن الدولة الصهيونية ، بالقياس إلى كثير من دول العالم ، تتمتع باقتصاد متقدم توجد فيه فرص كثيرة للنشاطات الاقتصادية المرتبطة بالاقتصاد الحر ، وبالتالي فهي تمثل نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم العربي ، تماماً كما تمثل الولايات المتحدة نقطة جذب بالنسبة إلى اليهود الروس (ولذا ، فهم لا يهاجرون إلى إسرائيل التي لا يمكنها أن تحقق لهم حراكاً اجتماعياً مماثلاً) . والواقع أن خروج اليهود من البلاد العربية هو جزء من حركية مركبة ولا يمكن أن يُسمَّى «طرداً» ببساطة وآلية .

أما يهود العراق ، فإن الأوضاع نفسها السابقة تنطبق عليهم ، إلى جانب قيام العملاء الصهاينة بارتكاب أعمال تخريبية لإجبارهم على الهجرة . وقد نجحت المنظمة الصهيونية ، بسعيها الحثيث ، في تهجير يهود اليمن . ولا يمكن أن نعتبر كل هذه العمليات عمليات طرد !

تدنيس خبز القربان المقدَّس

Desecration of the Host

«تدنيس خبز القربان المقدَّس» عبارة تعني اتهام اليهود بأنهم لم يندموا على قيامهم بصلب المسيح (عيسى بن مريم) بل ويدنسون خبز القربان (الذي يتحول إلى جسد المسيح في القداس المسيحي) فيدوسونه بأقدامهم ثم يضربونه بوخزه وطعنه حتى يجددوا عذاب المسيح . كما تعني اتهام اليهود بالحصول على هذا الخبز عن طريق سرقته . وقد شاع هذا الاتهام في أوائل القرن الثالث عشر بعد أن اعترف المجمع اللاتراني الرابع عام ١٢١٥ بمبدأ تحوُّل خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه . والاتهام مضحك وسخيف ، فهو يفترض أن اليهود يؤمنون بمبدأ تحوُّل خبز القربان ، وهو أمر بطبيعة الحال مستحيل . ولكن من منظور عنصري ، لا يُعَدُّ عدم الاتساق أمراً مهماً ، بل إن عدم الاتساق ذاته قد يُوظَّف لتأكيد صورة اليهودي لا من حيث هو منكر للمسيح وإنما من حيث هو شخص يؤمن فعلاً بالمسيح بل ويرى بنفسه ألوهيته ولكنه ، مع هذا ، ينكره ويتمادى في تعذيبه بعد أن قام بصلبه .

وتهمة تدنيس خبز القربان ، مثل تهمة الدم والتهم الأخرى التي تعبِّر عن معاداة اليهود ، هي نتاج الوجدان الشعبي في لحظات إحباطه وحيرته . فالجماهير البائسة لم تكن تفهم مصدر بؤسها ، فكانت تفسره على أساس أنه من صنع اليهود الأشرار أعداء المسيح ، خصوصاً وأن هؤلاء الأشرار كانوا أيضاً يشتغلون بالتجارة والربا ، كما كانوا قريبين من النخبة الحاكمة التي تستخدمها كأدوات لها .

تهمة الدم

Blood Libel

«تهمة الدم» هي اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبياً مسيحياً في عيد الفصح سخرية واستهزاء من صلب المسيح . ونظراً لأن عيدي الفصح المسيحي واليهودي قريبان ، فقد تطورت التهمة وأصبح الاعتقاد أن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم في شعائرهم الدينية وفي أعيادهم ، وبخاصة في عيد الفصح اليهودي ، حيث أُشيع أن خبز الفطير غير المخمر (ماتزوت) الذي يُؤكل فيه يُعجَن بهذه الدماء . وقد تطورت الإشاعة ، فكان يُقال إن اليهود يُصفّون دم ضحاياهم لأسباب طبية أو لاستخدامه في علاج الجروح الناجمة عن عملية الختان ، بل و لاستخدامه كمنشط جنسي .

وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر اليونان والرومان ، أي إلى ما قبل العصور المسيحية ، فقد أتى في كتابات كلٍّ من الكاتبين اليونانيين آبيون (السكندري) وديموقريطس إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية إلى آلهتهم . ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءاً من الصورة الإدراكية العامة في الوجدان الغربي لليهود ، ولم تُوجَّه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا في العصور الوسطى .

وقد وُجِّهت أول تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية في إنجلترا في القرن الثاني عشر ، في وقت كانوا يمارسون فيه نشاطهم التجاري والمالي والربوي ، وهو ما كان يعني أن هناك أفراداً كثيرين اقترضوا أموالاً من المرابي اليهودي ولم ينجحوا في تسديدها وأن ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم قد آلت إليه . ففي عام ١١٤٤ ،

اتُّهم أعضاء الجماعة اليهودية في نورويتش بأنهم ذبحوا طفلاً يُدعَى ويليام عمره أربعة أعوام ونصف في الجمعة الحزينة (وقد نُصِّب قديساً فيما بعد). كما ذكر أحد اليهود المتنصرين أن من المعتاد أن تقوم إحدى الجماعات اليهودية في إحدى مدن أوربا بذبح طفل مسيحي في يوم عيد الفصح المسيحي (إيستر) الذي يقع عادةً في التاريخ نفسه الذي يقع فيه عيد الفصح اليهودي (بيساح). ثم وُجِّهت تهم دم أخرى في مناطق مختلفة من إنجلترا بين عامي ١١٦٨ و١١٩٢. أما في فرنسا، فقد وُجِّهت التهمة إلى الجماعة اليهودية في بلوا عام ١١٧١. كما وُجِّهت خمس عشرة مرة في القرن الثالث عشر، ومن بينها حالة هيو من بلدة لنكولن عام ١٢٥٥ والتي يذكرها تشوسر في **حكايات كانتربري**. وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين، ومن أشهرها حادثة دمشق عام ١٨٤٠، وقضية بيليس عام ١٩١١. وتُعَدُّ حادثة دمشق التي حدثت في العالم الإسلامي استثناءً، إذ أن الظاهرة تكاد تكون مقصورة على العالم المسيحي.

وكانت تهمة الدم تأخذ الشكل التالي: يختفي شخص مسيحي (في العادة طفل)، أو يوجد مقتولاً، فيتذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل أو الشخص شُوهد آخر مرة بجوار الحي اليهودي، أو أن هناك عيداً يهودياً (عادةً عيد الفصح) تتطلب شعائره دم نصراني، ومن ثم، كانت تُوجَّه لأعضاء الجماعة اليهودية تهمة قتله ويُقبَض على بعضهم، ويتم تعذيبهم ثم يُشنَق عدد منهم أحياناً.

ويُشير الصهاينة إلى تهمة الدم باعتبارها أكبر دليل على أن عالم الأغيار يرفض اليهود ويفتك بهم، وبالتالي لابد أن يكون لهم وطن قومي. ولكننا لو وضعنا هذه الوقائع في سياقها التاريخي، فإنها ستكتسب دلالة جديدة وسيمكننا فهمها بشكل أعمق.

لقد ظهرت تهمة الدم بعد تحوُّل اليهود في العالم الغربي إلى جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا. وكانوا يُشبَّهون آنذاك بالإسفنجة التي تمتص نقود الطبقات كافة، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص، ثم يقوم الإمبراطور أو الأمير أو الحاكم باعتصارهم لحسابه بعد ذلك (وهو الأمر الذي لم تكن تدركه هذه الطبقات الشعبية بطبيعة الحال). ومن هنا، كانت الإشارة إلى اليهود (كجماعة وظيفية وسيطة لا كيهود) على أنهم مصاصو دماء، ولم يكن من الصعب على الوجدان الشعبي أن يسقط في الحرفية ويحوِّل المجاز إلى حقيقة واقعة.

وكان توجيه تهمة الدم يعني، في واقع الأمر، شنق بعض اليهود من بينهم عدد كبير من المرابين، حيث كان الربا من أهم الوظائف التي اضطلع بها اليهود في التشكيل الحضاري الغربي. وكان هذا يعني، في كثير من الأحيان، إسقاط الديون، أي أن توجيه تهمة الدم يشبه، من بعض الوجوه، التخطيط لسرقة بنك من البنوك على يد عصابة شعبية، وكان شنق اليهود بمثابة النجاح في هذه العملية، وهي عملية تشبه أيضاً عمليات روبين هود الذي كان يسرق من الأثرياء ليعطي الفقراء، وهو ما جعل جرائمه تحظى بشعبية كبيرة، بل وكانت الجماهير تحيطه بحمايتها.

وكانت الخزانة الملكية ذاتها تستفيد أحياناً من تهمة الدم حيث ترث ديون المرابي الذي يُشنَق أو يُطرَد، كما أن النخبة الحاكمة كانت تنتهز مثل هذه الفرصة لتعرض على اليهود تجديد المواثيق الممنوحة لهم والتي تتضمن حمايتهم وتكفل لهم المزايا نظير مبالغ جديدة يدفعونها.

ويبدو أن تهمة الدم صورة نمطية تتكرر في الوجدان الشعبي حينما يدرك «الآخر»، وهي عادةً اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم. فقد اتُّهم الغجر بأنهم يخطفون الأطفال ويمصون دمهم. كما وجَّه اليهود التهمة نفسها إلى المسيحيين الأوائل (حسبما جاء في كتابات أوريجين). وجاء في أحد كتب المدراش أن فرعون مصر حاول أن يحصل على الشفاء من البرص بذبح مائة وخمسين طفلاً يهودياً كل صباح وكل ظهر ليستحم في دمهم. كما أن بعض كتب الهاجاداه محلاة بصور لتهمة الدم الموجهة إلى فرعون مصر. وقد وُجِّهت التهمة كذلك إلى الغنوصيين من قِبَل المسيحيين، وإلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية عام ١٤٦٦ من قبل الجماهير. واتُّهم المبشرون المسيحيون في الصين عام ١٨٧٠ بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين ليصنعوا من دمهم دواء سحرياً. واتُّهم الأجانب في مدغشقر عام ١٨٩١ بابتلاع قلوب بعض السكان المحليين. أما الرهبان الدومينكان، فقد اتهموا خصومهم من الرهبان الفرنسيسكان باستخدام دم وحواجب طفل يهودي في بعض شعائرهم السرية! ومعنى هذا كله أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود. وإذا كان مرابون آخرون، مثل اللومبارد والكوهارسين (وهم مسيحيون)، لم تُوجَّه إليهم (بحسب علمنا) تهمة الدم، فقد وُجِّهت إليهم تهم أخرى لا تقل عنها سوءاً، كما أنهم كانوا أيضاً عرضة للطرد والمصادرة والشنق.

وساعد تكرار تصوير الدم والقتل في العهد القديم على إلصاق التهمة باليهود دون المرابين المسيحيين. كما أن شعائر اليهود الدينية، وخصوصاً شعائر عيد الفصح، كانت تثير الريبة في نفوس أعضاء

الأغلبية ، الأمر الذي كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها . هذا ، مع العلم بأن قوانين الطعام اليهودية تمنع شرب الدم كما تمنع أكل اللحم قبل تصفية الدم منه . ويبدو أن ممارسة الختان والذبح الشرعي غذيا هذه الأوهام ، حتى سُمِّي اليهود «أهل السكين» .

ولم يكن اليهود يقفون في مجابهة مع كل الأغيار كما يدَّعي الصهاينة ، فقد كانت النخبة الحاكمة (الكنيسة والإمبراطور والملوك) تدافع عن أعضاء الجماعة ضد هذه التهم التي كان يوجهها إليهم عامة الشعب . فبيَّن البابا إنوسنت الرابع ، في مرسوم صدر عام ١٢٤٥ ، أن التهمة باطلة وحرم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود . ودافع البابا جريجوري العاشر ، في مرسوم صدر عام ١٢٧٤ ، عن اليهود، كما فعل بابوات آخرون الشيء نفسه . وفي عام ١٧٥٨ ، أصدر الكاردينال لورنز جانجانلي (البابا كليمنت الرابع عشر فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم . وقد أصدر التحريم نفسه الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (١١٩٤ ـ ١٢٥٠) ، وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج عام ١٢٧٥ . وحاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة وإقناع الناس ببطلانها ، ولكنهم فشلوا في مسعاهم واستمرت تهمة الدم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصورة اليهودي حتى عهد قريب .

أما في حادثة دمشق ، فقد كانت تهمة الدم مرتبطة بالصراع بين الاستعماريين الإنجليزي والفرنسي اللذين كانا يتنافسان على مد نفوذهما عن طريق حماية أعضاء الأقليات الدينية . فكان الفرنسيون يحمون الكاثوليك والمارونيين الذين وجهوا تهمة الدم . أما الإنجليز ، فإنهم نظراً لعدم وجود مسيحيين بروتستانت بأعداد كبيرة في العالم العربي كانوا يقومون بحماية اليهود ! خصوصاً وأن روسيا ، وهي بلدهم الأصلي ، لم تكن مهتمة بهم كثيراً بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس ، كما أن روسيا لم يكن لها أطماع في الشرق الأوسط إذ أن مشروعها الاستعماري كان موجَّهاً إلى مناطق أخرى . وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً جرَّم فيه تهمة الدم .

حادثة دمشق

Damascus Affair

تُعتبَر حادثة دمشق من أشهر تهم الدم ، وقد وقعت عام ١٨٤٠ حين كانت سوريا تحت الحكم المصري . وتكاد تكون هذه الحالة المرة الوحيدة التي وجِّهت فيها تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي . فقد اتُّهم يهود دمشق بقتل راهب من الفرنسيسكان يُدعَى الأب توماس الكبوشي وخادمه المسلم إبراهيم عمارة لاستخدام دمائهما في أغراض شعائرية وفي صنع خبز عيد الفصح غير المخمر (ماتزوت) . وقد أُشيع أن الأب توماس شوهد آخر مرة وهو يهم بالدخول إلى حارة اليهود ، فتم تفتيش الحي اليهودي بتحريض من الكاثوليك المحليين يتزعمهم القنصل الفرنسي ، وقُبض على زعماء اليهود ومات منهم اثنان أثناء التحقيق ، وأشهر واحد إسلامه وحُكم على الباقين بالإعدام .

وقد تفاقمت ردود فعل هذه القضية بسبب الصراع السياسي للأوربيين للحصول على النفوذ في الشرق الأوسط . ولا يمكن رؤية هذه الحادثة إلا في إطار النشاط التبشيري الاستعماري في فلسطين والشام ، والذي كان تعبيراً عن الصراع بين الدول الاستعمارية الكبرى . إذ كانت كل دولة تحمي أعضاء جماعة دينية بعينها ، فكان الروس يحمون الأرثوذكس وكان الفرنسيون يحمون الكاثوليك . وربما لعدم وجود عدد كبير من البروتستانت ، قام الإنجليز «بحماية» اليهود . ومن هنا ، يُعَد الصراع بين الكاثوليك المحليين (بزعامة القنصل الفرنسي) واليهود تعبيراً عن الصراع على النفوذ . ومما له دلالته أن احتجاج يهود فرنسا ومناشدتهم لحكومتهم لم يأت بنتيجة ، في حين أدى احتجاج يهود إنجلترا إلى تحرك بالمرستون ومطالبته محمد علي بأن يعامل اليهود معاملة حسنة (باعتبارهم عنصراً يهدف إلى حمايته) ، وأدى تدخُّل أدولف كريميه وموسى مونتفيوري ومقابلتهما لمحمد علي في الإسكندرية ، ثم لقاؤهما مع السلطان عبد الحميد في إستنبول إلى الإفراج عن المتهمين وإسقاط التهمة عنهم .

وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً يدين تهمة الدم ويعتبرها قذفاً في حق اليهود .

مندل بيليس (١٨٧٤-١٩٣٤)

Mendel Beilis

عامل بناء روسي وجِّهت إليه تهمة الدم ، حيث اتُّهم عام ١٩١١ بأنه استدرج طفلاً روسياً إلى أحد الكهوف خارج المدينة وقتله بطعنه أربعاً وسبعين طعنة ، ثم صفى كل دمه كما جاء في تقرير الطبيب الشرعي . وكان الجو مواتياً في روسيا لتصديق مثل هذه الافتراءات ، إذ كانت الحكومة القيصرية تلقي باللوم على اليهود في محاولتها تبرير كثير من المشاكل . وتم القبض على بيليس وأُحضر سكيران ليشهدا بأنهما رأياه يختطف الطفل ، واستمر التحقيق عامين. ولكن رئيس البوليس السري الروسي في كييف توصَّل إلى أن عدداً من المجرمين غير اليهود تترأسهم إمرأة هم الذين قاموا

بارتكاب الجريمة لأن الطفل كان قد أخبر الشرطة عن جرائم ارتكبوها. ومع هذا، استمرت المحاكمة لمدة شهر وتحولت إلى قضية تشغل الرأي العام. وبعد أن استجوب محامو المتهم الشاهدين، تراجع الشاهدان عن أقوالهما، واعترفت رئيسة العصابة التي قتلت الطفل بالجريمة. وفي عام ١٩١٣، أُفرج عن بيليس الذي هاجر إلى فلسطين ولكنه لم يستطع الاستمرار فيها، مثله مثل كثيرين غيره من اليهود، فهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٠ ومات هناك.

هجوم أو مذبحة (بوجروم)

Pogrom or Massacre

«بوجروم» كلمة روسية معناها «تدمير» أو «هجوم» أو «فتك» أو «مذبحة». وعادةً ما تكون هذه المذبحة منظمة لتدمير جماعة أو طبقة معيَّنة. وقد دخلت الكلمة اللغات الأوربية بمنطوقها الروسي، وضاق مجالها الدلالي بحيث أصبحت تشير أساساً إلى الهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية، ولكنها تُستعمل مجازاً للإشارة إلى الهجوم على أعضاء الجماعات والأقليات الأخرى. وقد استُخدمت الكلمة للمرة الأولى في الإنجليزية عام ١٩٠٥.

وقد عرف التاريخ القديم والوسيط والحديث مثل هذه الهجمات على أعضاء الجماعة اليهودية. ويمكن القول بأن أول بوجروم في التاريخ الإنساني هو هجوم المصريين على أعضاء الجماعة اليهودية (المرتزقة) في جزيرة إلفنتاين. ومن أشهر الهجمات الأخرى، هجمات بعض جيوش الفرنجة على أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب، وهجمات شميلنكي في بولندا في القرن السابع عشر على أعضاء الجماعة اليهودية في أوكرانيا. وتُعدُّ أهم الهجمات في العصر الحديث تلك التي نظمتها العناصر الرجعية الروسية في أواخر القرن التاسع عشر (خصوصاً جماعة المائة السود) والتي يُقال إنها كانت تتم بموافقة النظام القيصري ومالأة وزراة الداخلية. وقد تصاعدت الهجمات قبل وبعد صدور قوانين مايو عام ١٨٨١، ومن أهمها مذبحة كيشينيف. كما نظَّم النازيون هجوم ليلة الزجاج المحطم (كريستال ناخت) في ٩ - ١٠ نوفمبر ١٩٣٨.

وتجب الإشارة إلى أن معظم هذه الهجمات كانت ذات طابع شعبي وتُعبِّر بشكل مشوه وغير مشروع عن تطلعات مشروعة للجماهير التي لم تكن تفهم آليات الاستغلال. فالهجوم على الحامية اليهودية في إلفنتاين هو هجوم على جماعة وظيفية قتالية موالية لقوة أجنبية غازية (الفرس). كما أن هجمات الجماهير على اليهود في العصور الوسطى في الغرب كانت هجمات على واحدة من أهم أدوات السلطة في استغلال الجماهير، إذ كان اليهود هم المرابون وجامعو الضرائب. وتميل الأدبيات اليهودية المعاصرة إلى المبالغة في أعداد ضحايا هذه الهجمات، بينما تميل الدراسات الحديثة عن هذه الظاهرة إلى الأخذ بأرقام أقل كثيراً.

لكن الهجمات ليست أمراً مقصوراً على أعضاء الجماعة اليهودية، فمن المعروف أن الهجمات ظاهرة لها أسباب اقتصادية واجتماعية وحضارية تسم علاقة الأغلبية بالأقلية في لحظات التطاحن الاجتماعي وفي أوقات الانتقال والانحلال الاقتصادي والاجتماعي. وتُدبَّر هذه الهجمات ضد مختلف الغرباء، خصوصاً إذا كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة مرتبطة بالنخبة الحاكمة وتقوم على خدمتها. فقد نُظِّمت هجمات ضد المرابين غير اليهود في العصور الوسطى مثل الكوهارسين واللومبارد، وضد الصينيين في جنوب شرق آسيا عبر تاريخهم، وقام الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر بتنظيم هجمات على العمال الإيطاليين المهاجرين. وقد نظم الأفارقة السود المسلمون هجوماً (إبادة) على المسلمين الأفارقة من أصل عربي في موزمبيق في العصر الحديث، ونظم السنغاليون هجمات على الموريتانيين واللبنانيين في الآونة الأخيرة.

وبالمثل، تورَّط أعضاء الجماعات اليهودية في شن هجمات على كتل بشرية أخرى معادية لهم، فقد دبر اليهود مذبحة ضد اليونانيين في الإسكندرية في العصر الهيليني، ورد اليونانيون بدورهم على هذه المذبحة. كما قام الصهاينة العلمانيون في الدولة الصهيونية بحرق معبد يهودي في إسرائيل احتجاجاً على تشدد الدينيين. ويقوم المستوطنون الإسرائيليون بالهجوم على قرى الفلسطينيين وتدبير المذابح ضدهم.

وتتجه الكتابات الصهيونية إلى تصوير الهجمات على أعضاء الجماعات اليهودية باعتبار أنها أمر فريد يحدث لهم وحدهم، وأنها تعبير عن كُره أزلي لليهود، ونتيجة حتمية لوضع أعضاء الجماعات خارج فلسطين، وهو وضع يتسم (بحسب تصورهم) بخلل بنيوي أساسي. وتُحوِّل الصهيونية هذه الهجمات إلى مصدر أساسي للهوية اليهودية والوعي اليهودي، وتبين في الوقت نفسه أن تاريخ اليهود في المنفى لا قيمة له. وقد حاول المدعي العام الإسرائيلي في قضية أيخمان أن يستدر العطف على الشعب اليهودي بأن تلا قائمة بالهجمات التي دُبرت ضد اليهود عبر تاريخهم ولكن بعد عزلها عن سياقها التاريخي، فما كان من محامي أيخمان إلا أن أثار تساؤلاً مفاده: لمَ يستفز هذا الشعب كل الشعوب الأخرى عبر التاريخ؟ أوَ

لا يدعو هذا الوضع إلى طرح احتمال أن يكون هذا الشعب مسئولاً عما يلحق به من مذابح ؟

وتُثار ، من آونة إلى أخرى ، قضية دور الدولة اليهودية في صد الهجمات الموجهة ضد اليهود وهل يمكنها أن تقوم بذلك ؟ ولكن النقاش حُسم مؤخراً حين صرح شامير بأن الدولة لا يمكنها أن تدافع عن اليهود أينما كانوا ، كما كانوا يدَّعون ، فأدواتها قاصرة ، كما أن لها أولوياتها التي من أهمها الدفاع عن نفسها . وقد كتب أحد الدراسين بحثاً عن " ليلة الزجاج المحطم " وقد وصفها بأنها كانت هجوماً (بوجروم) تقليدياً إذ قامت السلطات النازية باستثارة غيظ الجماهير وحنقهم على اليهود وتركتهم يقتلون ويحطمون . ويستطرد الكاتب قائلاً إن الهدف من الهجوم (البوجروم) التقليدي هو إرهاب أعضاء الأقلية ووضعهم في مكانهم ، ولكن الدولة النازية كانت تهدف لشيء مغاير تماماً وهو إبادة اليهود ، ومن ثم فإن البوجروم لا يصلح بتاتاً أداة لإنجاز هذا الهدف فإذا كان عدد يهود بولندا ثلاثة ملايين ، فإن إبادتهم تتطلب عدة مئات من السنين باعتبار أن عدد القتلى في ليلة الزجاج المحطم لم يتجاوز الخمسين . فإذا أضفنا إلى ذلك ملايين البولنديين والغجر ، يتضح أن الهجمات العادية غير فعالة على الإطلاق لإنجاز مثل هذا المشروع الإبادي . كما لاحَظ الكاتب أن من المستحيل استثارة عاطفة الكره لدى الجماهير لمدة طويلة إذ لابد أن تفتر أية عاطفة بعد فترة ، ومن المحتمل أن تتحول الاستجابة العاطفية من الكُره إلى التعاطف ، خصوصاً إذا كان الضحايا من الأطفال أو العجزة أو الجيران .

لكل هذا ، استبعدت الدولة النازية نظام الهجمات وتبنت بدلاً منه نموذجاً مختلفاً . فحل محل التلقائية والعاطفية التخطيط والحياد، وحل محل الهجوم المتقطع (الذي لا شكل محدد له) العمل المستمر المتكامل الذي يتبع منهجاً صارماً . وبدلاً من الغوغاء المتعصبة التي تطلق العنان لعواطفها ، ظهرت البيروقراطية التي تكبح عواطفها ولا تكترث بالضحية لا حباً ولا كرهاً وتتبع أحدث أشكال الإدارة . ومن ثم ، فإن الهجوم (البوجروم) ، رغم قسوته ، يختلف في هدفه ومجاله وطبيعته عن عمليات الإبادة .

بوجروم

Pogrom

انظر : «هجوم أو مذبحة (بوجروم)» .

منبحة

Massacre

انظر : «هجوم أو مذبحة (بوجروم)» .

اضطرابات فيتميلخ

Fettmilch Riots

أحداث شغب مناهضة لليهود جرت في مدينة فرانكفورت الألمانية في أوائل القرن السابع عشر . وقد اندلعت هذه الأحداث في الفترة التي أعقبت اندلاع حرب الثلاثين عاماً والتي نتج عنها تدهور حاد في الأوضاع الاقتصادية والمعيشية في البلاد . حيث وجَّه أفراد الشعب ، وخصوصاً نقابات التجار والصناع ، سخطهم لأعضاء الجماعة اليهودية في المدينة . فاليهود باعتبارهم جماعة وظيفية وسيطة مرتبطة بالنخبة الحاكمة ، خصوصاً الإمبراطور ، كانوا محط كراهية مختلف الفئات والطبقات في المجتمع . ومع تأزم الأوضاع الاقتصادية ، ازدادت حدة السخط والكراهية . وقد تزعم فنسنت فيتميلخ زعيم النقابات في فرانكفورت الحملة المناهضة لليهود ، فقدَّم عام ١٦١٢ التماساً للإمبراطور يتهم فيه برلمان فرانكفورت بالفساد ومحاباة اليهود وطالب بفرض قيود اقتصادية على اليهود وتقليص عددهم في المدينة ، ولكن الإمبراطور رفض هذا الالتماس . وفي عام ١٦١٤ ، دخلت بعض العناصر المؤيدة لفيتميلخ مجلس المدينة وطالبت بفرض قيود صارمة على اليهود من بينها طرد كل اليهود الذين يمتلكون أقل من ١٥٠٠ فلورين فوراً . وقد رفض الإمبراطور مرة ثانية هذه المطالب ، ولكن تم طرد ٦٠ أسرة يهودية فقيرة . وإزاء ذلك ، قام فيتميلخ على رأس أنصاره بمهاجمة الجيتو اليهودي وقاموا بنهبه وطرد ١٣٨٠ من اليهود خارج المدينة . وفي أعقاب ذلك ، أصدر الإمبراطور أوامره بإلقاء القبض على فيتميلخ . وفي عام ١٦١٦ ، تم إعدامه مع ستة من أعوانه ، وقُطِّعت أجسادهم إلى أربعة أجزاء وعُلِّق رأس فيتميلخ على مسمار ضخم (ليكون عبرة للجميع) كما دُمِّر منزله وسُوِّي بالأرض وطُردت عائلته من المدينة . وسمح الإمبراطور بعودة اليهود المطرودين للمدينة وأمر بدفع تعويض لهم قدره ١٧٦,٩١٩ فلورينا . وفي أعقاب ذلك ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يحرصون على الاحتفال سنوياً بيوم عودتهم إلى المدينة وأطلقوا على هذا اليوم اسم «بوريم فنسنت» .

وتدل هذه الحادثة على مدى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية كجماعات وظفية ووسيطة بالطبقات الحاكمة والملوك . فقد رفض الإمبراطور الإذعان لمطالب فيتميلخ ولمطالب الجماهير في

فرانكفورت ، ثم أنزل أشد العقاب بفيتميلخ وأعوانه . ويعود كل هذا إلى حوسلة أعضاء الجماعات اليهودية ، حيث كانوا عنصراً نافعاً يؤدي وظيفة اقتصادية مهمة ، وكانوا أداة في يد الطبقة الحاكمة التي استفادت من خدماتهم التجارية والمالية لتكديس الثروات وتدعيم السلطان واستنزاف الجماهير ، ومقابل ذلك كانت الطبقة الحاكمة تزودهم بالحماية والامتيازات التي تؤهلهم للاضطلاع بدورهم الوظيفي بكفاءة عالية .

كيشينيف

Kishinev

«كيشينيف» مدينة روسية في بيساربيا (التي ضُمت إلى روسيا عام ١٨١٢) وأصبحت مركزاً تجارياً وصناعياً مهماً ، وكانت توجد فيها أقلية يهودية كبيرة وصل عددها عام ١٨٤٧ إلى عشرة آلاف ، أي ١٢٪ من مجموع سكان المدينة ، ثم إلى ثمانية عشر ألفاً عام ١٨٦٧ ، أي ٢١٪ من مجموع السكان ، وخمسين ألفاً بعد ذلك التاريخ . وكانت أغلبية اليهود في هذه المدينة تعمل بالتجارة وصناعة الملابس والأخشاب والاتجار في المنتجات الزراعية ، وهي قطاعات اقتصادية كانت مركزة في أيديهم . ومع هذا ، كانت توجد نسبة كبيرة من المتسولين اليهود . وكان سكان كيشينيف من اليهود ينقسمون إلى أغلبية أرثوذكسية ونخبة مثقفة روسية . وقد افتُتحت أول مدرسة يهودية حديثة في روسيا عام ١٨٣٦ . وفي عام ١٩٠٣ (يومي ١٩ ـ ٢٠ إبريل) ، وقع هجوم (بوجروم) ضد أعضاء الجماعة اليهودية ، إثر توجيه تهمة دم لبعضهم ، قُتل فيها واحد وأربعون (٣٢ رجل ـ ٦ نساء ـ ٣ أطفال) وجُرح خمسة وتسعون ودُمر سبعمائة وخمسة وخمسون منزلاً ، ونُهب ستمائة محل ، وحدثت بعض حالات اغتصاب . ويُقال إن الشرطة القيصرية لم تتدخل لحماية أعضاء الجماعة اليهودية .

ويتواتر ذكر هذه الحادثة في الكتابات الصهيونية ، وتُصوَّر كما لو كانت جزءاً من مؤامرة الأغيار ضد اليهود . ولكن قارئ التاريخ الروسي يعرف أن القمع والإرهاب القيصريين كانا موجهين ضد مختلف الأقليات الدينية والعرقية في روسيا ، بل وضد الجماهير الروسية التي كان الحرس القيصري يطلق عليها النار بدون رحمة أو هوادة (كما حدث في مظاهرة الأب جابون التي وقعت في الفترة نفسها عام ١٩٠٥) . ورغم تباكي الصهاينة على ما حدث ، فإن الواقعة حدثت في عهد وزير الداخلية الروسي فون بليفيه الذي تفاوض معه الزعيم الصهيوني هرتزل (في العام نفسه الذي شهد وقوع الحادثة) للحصول على تأييد روسيا للمشروع الصهيوني . ولذا ، يُلاحَظ أن المؤتمرات الصهيونية التي عُقدت آنذاك لم تذكر الحادث من قريب أو بعيد ، ولم تحتج عليها ، بل لزمت الصمت الكامل تجاهها حتى تضمن التأييد الروسي . ولا تزال هناك أقلية يهودية كبيرة نسبياً في كيشينيف في الوقت الحاضر يبلغ عددها اثنين وأربعين ألفاً .

ليو فرانك (١٨٨٤-١٩١٥)

Leo Frank

أمريكي يهودي وُلد في تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونشأ في بروكلين ، أحد أحياء اليهود المهمة في مدينة نيويورك . اتُهم ليو فرانك في قضية عام ١٩٠٨ ، ويُقال إن انتماءه اليهودي كان عنصراً مهماً أثّر في محاكمته وفي الأحداث التي تلتها . كان فرانك يعمل مديراً لمصنع أقلام في أتلانتا (ولاية جورجيا) حيث قُبض عليه بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها ثلاثة عشر عاماً تُدعَى ماري فيجان ، بعد محاولة اغتصابها . وقد حُوكم فرانك وصدر حكم بإعدامه . وحينما خفف حاكم الولاية الحكم إلى السجن مدى الحياة ، هاجمت مجموعة من المواطنين السجن واختطفوا فرانك وشنقوه في المدينة التي وُلدت ودُفنت فيها ضحيته المفترضة ، وهو ما يُسمَّى في اللهجة الإنجليزية الأمريكية «لينشنج Lynching» وهي عملية الاختطاف والشنق . وقد صدر عفو عن فرانك عام ١٩٨٦ وبُرئ اسمه من الجريمة التي نُسبت إليه .

ويُجرد الصهاينة هذه الواقعة من سياقها التاريخي ليفرضوا عليها معنى صهيونياً بحيث يظهر اليهودي وكأنه ضحية عنف الأغيار . ولو نظرنا إلى واقعة ليو فرانك بمنظار تاريخي ، فسنكتشف أنه لم يكن يُنظَر إليه باعتباره يهودياً أساساً وإنما باعتباره رمزاً متبلوراً لعدة عناصر تاريخية واجتماعية وثقافية ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته ، شأنه في هذا شأن دريفوس . وأهم هذه العناصر على الإطلاق هو أن المجتمع ، مسرح الواقعة ، كان يخوض ثورة صناعية حقيقية متأخرة ، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيئة وأمراض اجتماعية عاش في ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المحليين أو المهاجرين المُقتلَعين من جذورهم الزراعية ، سواء في أوربا أو جنوب الولايات المتحدة . والواقع أن من أهم مظاهر الثورة الصناعية تركُّز السكان في المدن ، وقد تضاعف عدد سكان مدينة أتلانتا بين عامي ١٩٠٠ و١٩١٣ ، إذ زاد من نحو ٨٩,٨٧٠ إلى نحو ١٧٣,٧١٣ ، وهو يُعَدُّ أعلى معدل ارتفاع لأي

مدينة أمريكية في الفترة نفسها باستثناء برمنجهم (بولاية ألاباما) . وكان نمو المدينة عشوائياً ، ولذلك لم تكن هناك المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة ، مثل : أماكن الترويح ، أو أماكن السكن ، أو ما يكفي من المستشفيات العامة . . . إلخ . وكانت أتلانتا تعاني من أزمة مساكن ، فقد كان هناك حوالي ٣٠,٣٠٨ من المساكن لنحو ٣٥,٨١٣ أسرة ، وكان نصف المساكن بلا مياه ، وكان نحو ٥٠ ألف شخص يعيشون في منازل لا يوجد بها نظام للصرف الصحي . وكانت نسبة تلوث الجو عالية للغاية ، ولهذا انتشرت الأمراض مثل التيفود وغيره من الأمراض ، وارتفعت معدلات الوفاة ، ويُقال إن ٩٠٪ من المساجين كانوا يُعانون من مرض الزهري . وقد زاد فقر سكان أتلانتا بشكل رهيب ، وكان الأجر اليومي للطفل لا يزيد عن ٢٠ سنتاً ، وكان الأجر الأسبوعي لماري فيجان دولاراً وعشرين سنتاً.

ولم يكن الجو موبوءاً من الناحية المادية وحسب ، وإنما كان موبوءاً من الناحية الأخلاقية أيضاً ، وهذا أمر متوقع في مثل هذا المجتمع ، حيث انتشرت مختلف أنواع الجرائم : السرقة والقتل والدعارة والسكْر . وكانت نسبة الجريمة في أتلانتا من أعلى النسب في الولايات المتحدة وتُعادل نسبتها في شيكاغو عاصمة الجريمة في العالم . وقد قبض البوليس عام ١٩٠٧ على ١٧ ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ١٠٢,٧٠٠ في ذلك العام . ومع هذا، كان جهاز الشرطة هزيلاً للغاية ، إذ أن مجموع عدد العاملين في قوة الشرطة لم يكن يزيد على مائتي شرطي . وكانت توجد في هذه المدينة الواسعة نقطة شرطة واحدة ، ولذا ، كان كثير من المجرمين يفرون من قبضة القانون . وفي عام ١٩١٢/١٩١٣ بالذات، كانت هناك اثنتا عشرة جريمة قتل ، لم يتم الاهتداء إلى مرتكبيها .

هذه هي بعض مظاهر الثورة الصناعية في أتلانتا . ولنا أن نلاحظ أن هذه الثورة كانت في الواقع جزءاً من عملية غزو واسعة ، فالجنوب الأمريكي ، مسرح الواقعة ، كان لا يزال يشعر بمذاق الهزيمة في الحرب الأهلية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) حين هزمه الشمال الصناعي وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات . وقد فقد ما يقرب من ٦٠٠,٠٠٠ شخص حياتهم إبَّان هذه الحرب . وبعد انتصار الشمال فُتحت الولايات الجنوبية (المتخلفة نسبياً وذات الاقتصاد الزراعي) لرأس المال الشمالي والنخبة الشمالية التي أسست الصناعات وغزت السوق . ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقة شبه كولونيالية ، وأن ما يسميه الشماليون «توحيد» الولايات المتحدة هو في واقع الأمر «غزو» شمالي للجنوب وهيمنة عليه . وهو غزو لمجتمع زراعي كانت تسوده علاقات شبه إقطاعية توجد على قمته أرستقراطية تعتز بمكانتها الرفيعة وبقيم الشرف والالتزام الإقطاعي ، وقد كان ذلك المجتمع مجتمعاً أنجلو ساكسونياً بروتستانتياً متجانساً لم يستوطن فيه ملايين المهاجرين كما حدث في بقية الولايات المتحدة، وبخاصة في الساحل الشرقي . وكانت مؤسسة الأسرة قوية جداً في مجتمع الجنوب وتتسم بقدر كبير من التماسك . وكانت المرأة رمز هذا التماسُك الأسري ، ومحط تقديس المجتمع . لكن أعضاء مثل هذا المجتمع الزراعي الأرستقراطي عادةً ما ينظرون بقدر من الاحتقار ، بل والبغض أحياناً ، إلى الاقتصاد النقدي المبني على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب .

وقد كانت شكوكهم في محلها ، فبعد توحيد الشمال مع الجنوب فُتح الجنوب أمام الصناعات الشمالية التي هاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضي قليلة التكاليف والسوق البكر ، وهي صناعات لم تخدم تقاليد المجتمع كثيراً ، بل ساهمت في تفكيك نسيجه المجتمعي وفي تحطيم بناء الأسرة ، فكان الأطفال يعملون في المصانع ساعات طويلة ، وكذا النساء . وأدَّى دخول الصناعات إلى تزايد معدلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبع ذلك من تفكك اجتماعي ، في المراحل الأولى على الأقل ، خصوصاً وأن هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطوُّر عضوي وتفاعُل عناصر محلية وظهور بورجوازية في رحم المجتمع ذاته ، وإنما فُرضت عليها فرضاً من مجتمع اليانكي الشمالي .

كان ليو فرانك رمزاً لهذه القوة الغازية ، فقد كان شمالياً في الجنوب ، صاحب ومدير مصنع في مجتمع زراعي ينظر بعين الشك إلى الصناعة ، يقوم باستئجار النساء والأطفال كعمالة رخيصة في ظل مجتمع يقدس الأسرة حتى عهد قريب . وكان يُشار إلى ماري فيجان على أنها «عاملة المصنع الصغيرة» ، أي أنها تحوَّلت إلى رمز الطفولة البريئة التي استغلها المستثمرون من الشمال . وكان فرانك عضواً في النخبة العلمانية المهيمنة التي لا تكترث كثيراً بالقيم التقليدية في وسط بيئة جنوبية عمالية مقتلعة من بيئتها الزراعية ، لا تزال تؤمن بالقيم التقليدية والمسيحية وتحلم بالمجتمع المتماسك الذي دُمِّر إبَّان الحرب الأهلية . ولم تكن يهودية فرانك سوى البؤرة التي جمعت كل هذه العناصر السابقة وبلورتها ، إذ أن المعركة الحقيقية كانت بين الشمال الصناعي الغازي والجنوب الزراعي الذي تم غزوه، وبين ضحايا التقدم من ناحية والصناعة وممثلي هذا المجتمع الجديد الرهيب من ناحية أخرى .

وقد يكون من المفيد ، عند هذه النقطة ، أن نتناول الانتماء اليهودي لفرانك . كان فرانك يشغل منصب رئيس فرع جماعة أبناء العهد (بناي بريت) اليهودية في المدينة . كذلك لابد أن نعرف ، على وجه الدقة ، موقف الجنوب الأمريكي من اليهود . لقد حدد الجنوب الأمريكي التضامن على أساس عرْقي بسيط (الأبيض مقابل الأسود)، على عكس الشمال الذي حدده على أساس عرْقي ديني إثني مركب : أبيض بروتستانتي من أصل أنجلو ساكسوني ، يليه أبيض كاثوليكي من أصل إيطالي وأيرلندي ، ثم يليهم اليهودي الأبيض في المنزلة ، ثم يأتي الأسود ، كاثوليكياً كان أم بروتستانتياً في أسفل السلم العرْقي . ومن الواضح أن التعريف الجنوبي لم يستبعد اليهود وإنما صنفهم ضمن البيض ، تماماً كما حدث في جنوب أفريقيا . الأمر الذي سمح لهم بدرجة عالية من الاندماج والحراك الاجتماعي ، فأصبحوا جزءاً عضوياً من المجتمع ، كما أصبحوا أعضاء في النخبة الحاكمة وامتلكوا الرقيق وتاجروا فيه ، ولم تكن هناك صورة مستقلة لليهودي في الوجدان الأمريكي الجنوبي التقليدي .

لقد أشرنا من قبل إلى أن ليو فرانك كان رمزاً للقوة الغازية الشمالية . ويمكن أن نضيف هنا أنه ، مع التحولات التي دخلت على الجنوب ، اكتسبت كلمة «يهودي» مدلولاً جديداً . فلم يكن يهود جورجيا هم يهود الجنوب التقليديين القدامى وإنما كانوا عنصراً غريباً جديداً وافداً . وفي عام ١٩١٠ ، كان اليهود في أتلانتا (جورجيا) يشكلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب ، إذ بلغ عددهم ١٣٤٢ ، أي ٢٥٪ من مجموع الأجانب . ورغم أن نسبتهم لم تتجاوز ١٪ من عدد السكان ، فإنهم كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة حققت بروزاً مشيناً . فقد كانوا يمتلكون معظم الحانات ومحلات الرهونات وبيوت الدعارة ، وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادي الأوربي ، وكان زبائنهم من الزنوج أساساً . ويُقال إن بيوت الدعارة التي امتلكها اليهود كانت تزينها « صور نساء بيض لإثارة شهوة الزنوج الذين كانوا يحتسون الخمر في الحانات اليهودية وينطلقون بعدها كالوحوش » ، وهذه صورة إدراكية عنصرية ، ولكنها على أية حال ربطت الجرائم الجنسية في ذهن سكان أتلانتا باليهود . وكان فرانك نفسه مشهوراً بمغازلة العاملات وملاحقتهن ، ويُقال إن ماري فيجان نفسها اشتكت إلى صديقاتها من محاولات فرانك الإباحية . وقد تكون هذه الاتهامات باطلة تماماً، وقد يكون السلوك الإباحي المنسوب إلى فرانك لا يختلف عن سلوك أو حركات أي شخص جاء من مجتمع حضري مفتوح يتصرف بتلقائية في مجتمع مغلق فيُساء فهم سلوكه وحركاته . ولكن المهم إدراك الناس له ولسلوكه ، خصوصاً وأن اشتغال اليهود بالمهن المشينة يدعم هذا الإدراك .

وإلى جانب هذه الخلفية الاجتماعية والتاريخية والثقافية ، ثمة جانب إحصائي مهم . فالدراسات الصهيونية لا تكف عن الإشارة إلى قضية ليو فرانك وإلى الظلم الذي حاق به نتيجة اختطافه من السجن وشنقه بعد أن خفف الحاكم الحكم عليه . ولكن هذه الدراسات لا تذكر الحقائق التالية :

١ ـ لم يكن احترام القانون سمة سائدة في المجتمع الأمريكي ككل ، وفي مجتمع أتلانتا على وجه الخصوص . فعلى سبيل المثال ، قبضت الشرطة ذات مرة على كل الذكور القادرين لأن أتلانتا كانت تعاني من نقص في العمالة . ومن المعروف أن الشرطة اتُهمت عام ١٩٠٩ بضرب أحد الزنوج ضرباً أفضى إلى موته ، وأنهم قاموا بتقييد إمرأة بيضاء إلى الحائط حتى زهقت روحها .

٢ ـ اندلعت عام ١٩٠٦ اضطرابات ، فهاجم السكان البيض حي السود لعدة أيام واشتبكوا معهم ، فقتلوا عشرة زنوج وجرحوا ستين في حين قُتل من بينهم رجلان وجُرح عشرة ، واضطرت المدينة إلى استدعاء الحرس الوطني . ويُقال إن الاضطرابات اندلعت نتيجة تقارير مثيرة نشرت في الصحف عن اعتداء السود على النساء البيض .

٣ ـ كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة ، وبالتالي إلى مزيد من المهاجرين . ولكن كلما زاد عدد المهاجرين ، كانت تزداد نسبة غضب السكان المحليين المقتلعين . ففي عام ١٨٩١ ، تم اختطاف وشنق أحد عشر مهاجراً إيطالياً . وفي عام ١٨٩٩ ، اختُطف خمسة آخرون . وفي عام ١٩٠٠ ، اختفى ثلاثة آخرون في ظروف غامضة .

٤ ـ شهدت الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩١٨ ألفين وخمسمائة حالة اختطاف وشنق (لينشنج) أخرى . وكان معظم ضحايا الاختطاف من السود ، كما تم اختطاف قلة من أعضاء الأقليات الأخرى . ولكن لم يكن هناك سوى حالة واحدة فقط اختطف فيها يهودي وشنق ، وهي حالة ليو فرانك وهي الحالة التي يرد ذكرها في الأدبيات الاختزالية الصهيونية وكأنها ظاهرة عامة متواترة ! وهكذا يتحول الاستثناء إلى قاعدة ، ويتحول الخاص إلى عام ، وتتحول الواقعة العابرة إلى رمز عالمي مركزي !

حادثة دريفوس

Dreyfus Affair

«حادثة دريفوس» يُشار إليها أيضاً بعبارة «واقعة دريفوس» ، وبطلها هو ألفريد دريفوس (١٨٥٦ ـ ١٩٣٥) الذي كان من كبار الضباط الفرنسيين ، واليهودي الوحيد في هيئة أركان الجيش الفرنسي . وُلد في مقاطعة الألزاس باسم «مولهاوزن» لأسرة يهودية ثرية مندمجة في محيطها الفرنسي . ونظراً لأن اسمه ألماني الطابع ، فقد غيره إلى اسمه الذي اشتهر به . وقد اتُّهم دريفوس بسرقة وثائق سرية عسكرية بمساعدة الماسونيين ، وتسليمها إلى الملحق العسكري الألماني في باريس ، فوُجِّهت إليه تهمة الخيانة العظمى والتجسس لحساب ألمانيا عام ١٨٩٤ . وقامت السلطات العسكرية بمحاكمته ، وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث وعبأت الرأي العام ضده ، الأمر الذي خلق جواً غير ملائم لضمان حياد المحاكمة . وفي نهاية الأمر ، قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة ، وجُرِّد من رتبته علناً أمام الجماهير ، ونُفي إلى جزيرة الشيطان (ديفلز أيلاند) التي تقع على الساحل الأفريقي (وكانت مستعمرة فرنسية) . ورحبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم .

ويُقال إن واقعة دريفوس تركت أثراً عميقاً في تيودور هرتزل لدرجة أنه اكتشف عبث محاولة الاندماج ، فتبنَّى بدلاً من ذلك الحل الصهيوني . ولكن هذه الفكرة في حد ذاتها عملية تبسيط فجة للعوامل التي أدَّت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية . والحقيقة التي لا توردها المراجع الصهيونية هي أن هرتزل نفسه كان مقتنعاً في بادئ الأمر بأن دريفوس كان مذنباً وخائناً ، ولا أحد يدري ما الذي جعله يغيِّر رأيه فيما بعد ، ولكن هذا ليس هو موضوعنا الأساسي . وقد يكون من الأجدى وضع واقعة دريفوس في إطارها التاريخي والاجتماعي والإنساني .

ابتداءً ، كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية لأسباب وجيهة . فالقوات الفرنسية ذاتها كانت تجند كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الألزاس واللورين للعمل كجواسيس لحسابها . ولذا ، ساد الاعتقاد بأن ألمانيا أيضاً كانت تقوم بالشيء نفسه ، وهو أمر متوقع . والجدير بالذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوربي لأعضاء الجماعات اليهودية ، وهو إدراك كانت تدعمه بعض الممارسات التاريخية . ففي القرن السابع عشر ، لعب أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا دوراً أساسياً في عملية التجسس بين الدول . كما حاول أوليفر كرومويل أن يخطب ود أعضاء الجماعات اليهودية ويوطنهم في إنجلترا حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له .

ويُلاحَظ أن هذه الفترة شهدت كساداً اقتصادياً في أوربا ، الأمر الذي أدَّى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا ، فجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوربية . وكان عدد العمال الإيطاليين عام ١٨٧٢ نحو ١١٢ ألفاً ، فأصبح ٣٠٠ ألف عام ١٨٩٠ ، وجاء معهم قرويون (من القرى الفرنسية) يتحدثون لهجاتهم المحلية ، مثل البريتون والأفيرنيان . كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكونوا قد اصطبغوا بعد بالصبغة الفرنسية . ووصلت أعداد كبيرة كذلك من يهود شرق أوربا الذين يتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانية) . وقد أدَّى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب . كما أن تزايُد يهود شرق أوربا ويهود الألزاس واللورين ، على حساب العنصر اليهودي الفرنسي المحلي ، أدَّى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب . ومن المعروف أن العناصر الأجنبية عادةً ما تتعرض في فترات الكساد الاقتصادي للهجوم من قبل أعضاء الأغلبية المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنهم سبب الأزمة . كما أن العامل الأجنبي يرضى بأجر أقل ومستوى معيشي أكثر انخفاضاً ، الأمر الذي يثير الحقد عليه .

وعلاوة على هذا ، كان الجو العام في فرنسا آنذاك متوتراً ، وخصوصاً إزاء أعضاء الجماعة اليهودية ، بعد هزيمة الجيش الفرنسي على يد بروسيا عام ١٨٧٠ . وكانت العناصر الليبرالية التي تضم نسبة عالية من أعضاء الجماعة اليهودية تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا . كما كان المد العلماني آخذاً في التزايد وفي الإصرار على فصل الدين عن الدولة . هذا إلى جانب أن الثورة الصناعية اقتلعت الكثيرين من جذورهم وأدَّت إلى إفقارهم وقذفت بهم في المدن الكبرى (مثل باريس) . وكان هؤلاء المُقتلَعون يشعرون بانعدام الأمان في المجتمع الجديد (بعلمانيته وثوريته وقيمه التجارية) والذي كان اليهود يوجدون في مركزه . وإلى جانب كل ذلك ، كان هناك أيضاً عدد كبير من اليهود بين قيادة كومونة باريس في عام ١٨٧١ . وأدَّى هذا كله إلى الربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية والعلمانية والفوضوية في المجتمع . ولكن من المفارقات التي تستحق التأمل أن أعضاء الجماعات اليهودية ارتبطوا في الوقت نفسه في الوجدان الأوربي ، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث ، بالمصالح المالية الكبيرة ، والبنوك والشبكات المالية والتجارية ، وهي صورة دعمها بروز أسرة روتشيلد في عالم التجارة والمال .

وهكذا ، أصبح اليهودي رمزاً متبلوراً لكثير من العناصر محط شك الجماهير وكرهها ، فهو الأجنبي البغيض ، وهو الثوري

العلماني التقدمي الذي يحمل لواء المجتمع الجديد المدمر ، وهو أيضاً رجل المال الذي لا يكترث بأية قيم سوى الربح ، ولا يرتبط بأي أرض سوى السوق . وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره ألزاسياً وأجنبياً وعضواً في طبقة المموّلين الأثرياء .

وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التي كانت تستخدم خليطاً جذاباً ومريحاً من الديباجات المسيحية والاشتراكية والعرْقية وتطرح صورة للمجتمع المبني على التضامن المسيحي والتكافل الاجتماعي والتعاون الاقتصادي (جماينشافت) ، تلك الصورة التي تقف على الطرف النقيض من المجتمع الصناعي الجديد المبني على التنافس والتفاؤل ، الذي يؤمن بإمكانية البقاء للأصلح والأقوى وحسب (جيسيلشافت) . وقد انضمت أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية المتركزون في العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التي أدارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافظة . فاليهودي كان رمزاً مهماً بلا شك للقوى الجديدة ، ولكنه لم يكن قط أحد أطراف المعركة بل كان جزءاً من كل ، فهو جزءٌ من القوى الاجتماعية المتصارعة في المجتمع الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر والتي كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها . وقد حولت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة للصراع فيما بينها .

ففي عام ١٨٩٦ ، اكتشف جورج بيكار رئيس مخابرات الجيش الفرنسي ، وبطل واقعة دريفوس الحقيقي ، أدلة تثبت براءته من التهمة المنسوبة إليه ، وتشير بأصابع الاتهام إلى شخص آخر هو الميجور إسترهازي الذي لعب دوراً مهماً في سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكابتن دريفوس . وحاول بيكار إقناع المسئولين بإعادة المحاكمة ، ولكنه أُمر بالتزام الصمت ونُقل إلى تونس بسبب ذلك .

وقد شُنت حملة إعلامية مكثفة قادها المفكر الفرنسي اليهودي برنارد لازار للمطالبة بإعادة النظر في القضية حيث كتب عدة مقالات دافع فيها بحماس عن دريفوس ، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي بإعادة النظر في القضية لاقتناعه ببراءته . وتحت إلحاح الموقف المتفجر وإصرار بيكار ، قُبض على الميجور إسترهازي وحوكم ذراً للرماد في العيون ولكن سرعان ما بُرئ لعدم كفاية الأدلة . فكتب الروائي الفرنسي إميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان «إني أتهم» هاجم فيها المحاكمتين ، وكانت النتيجة أن اتُهم زولا بالقذف العلني وحكم عليه بالسجن ففر إلى إنجلترا .

وفجأة ، برزت أحداث جديدة غيرت مجرى القضية ، فقد انتحر الكولونيل هيوبرت جوزيف هنري أثناء استجوابه ، وهو شاهد الإثبات الأول في القضية ، بعد أن اعترف بتزويره الوثائق التي أدَّت إلى إدانة دريفوس . وعندما علم إسترهازي بحادث الانتحار اعترف بجريمته وفر إلى إنجلترا . وفي صيف عام ١٨٩٩ ، أمرت محكمة النقض بإعادة محاكمة دريفوس على ضوء الأحداث التي استجدت . وتحت ضغط بعض الشخصيات من ذوي النفوذ في الجيش ، أُعلن مرة أخرى أنه مذنب . وفي هذه المرة حُكم عليه ، مع مراعاة الظروف المخففة ، بالحبس عشر سنوات كان قد قضى خمساً منها في المنفى . وبعد عدة أيام أمر الرئيس الفرنسي إميل لوبيه بالعفو عنه . وقد حثه كثير من أصدقائه والمدافعين عنه على استئناف المعركة لإثبات براءته التامة ، وذلك لأن القضية قضية مبدئية تتجاوز الأشخاص . غير أن ألفريد دريفوس نفسه لم يكن مدركاً للأبعاد السياسية التي اتخذتها هذه القضية ، فكان كل ما يتمناه وتتمناه عائلته الثرية المندمجة هو الإفراج عنه سواء عن طريق العفو أو التبرئة ، ولهذا ، قبل قرار العفو . أما بيكار ، فأصبح بطلاً قومياً ورقاه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بريجادير جنرال ، وعُيِّن فيما بعد وزيراً للحرب .

ثم فتحت محاكمة دريفوس ، مرة أخرى ، عام ١٩٠٣ بضغط من القوى العلمانية والثورية وصدر الحكم بتبرئته ، وأُعيدت له حقوقه السابقة ، وعُيِّن في هيئة الأركان مرة أخرى بوظيفة ميجور ومنح نوط الشرف ، ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة . وقد عُيِّن أثناء الحرب العالمية الأولى قائداً لأحد قطاعات باريس برتبة كولونيل . ثم اعتزل الحياة العامة تماماً بعد ذلك وعاش في منزله بقية حياته غير مدرك للدلالات التاريخية والسياسية للواقعة التي ارتبطت باسمه (حسبما أخبرني أحد أفراد أسرتي الذي قابله في منزله عام ١٩٣٤ حيث كان صديقاً لابنه) .

وقد عمقت هذه القضية الخلافات الموجودة بين مؤيدي وخصوم النظام الجمهوري في فرنسا ، وأدَّت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية ، كما كانت وراء القانون الذي صدر عام ١٩٠٥ بفصل بقايا الدين عن الدولة .

المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية

Grand or World Jewish Conspiracy

يميل العقل الإنساني ، إن لم يجد نموذجاً تفسيرياً ملائماً لواقعة ما ، إلى ردها إلى يد أو أياد خفية تُنسَب إليها التغييرات والأحداث كافة . فالأحداث ـ حسب هذا المنظور ـ ليست نتيجة تفاعل بين

مركب من الظروف والمصالح والتطلعات والعناصر المعروفة والمجهولة من جهة وإرادة إنسانية من جهة أخرى ، وإنما هي نتاج عقل واحد وضع مخططاً جباراً وصاغ الواقع حسب هواه ، وهو ما يعني أن بقية البشر إن هم إلا أدوات . ومن أهم تجليات هذا النموذج الاختزالي ما يُقال له «المؤامرة اليهودية الكبرى» أو «المؤامرة اليهودية العالمية» والتي تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية يُكوِّنون كلاً واحداً متكاملاً متجانساً ، وأن لهم طبيعة واحدة ، وأن اليهودي شخص فريد لا يخضع للحركيات الاجتماعية التي يوجد فيها ، ولا ينتمي إلى الأمة التي يعيش بين ظهرانيها . وهو يقف دائماً مقابل الأغيار (غير اليهود) ، إذ أن ثمة خاصية ما في اليهود ، وخصوصية كامنة فيهم ، تجعل من العسير على كل المجتمعات الإنسانية دمجهم ، أو استيعابهم ، وتجعل اندماجهم فيها عسيراً .

ويتسم اليهود (حسب نموذج المؤامرة الكبرى) بالشر والمكر والرغبة في التدمير (فهذه أمور وُجدت في عقولهم بالفطرة وهي بُعد أساسي وثابت في طبيعتهم) ، وسلوكهم هو تعبير عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودي الذي يخطط ويدبر منذ بداية التاريخ ، والذي وضع تفاصيل المؤامرة الكبرى العالمية لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد كل الشعوب ضعفاً ووهناً بينما يزداد اليهود قوة ، وذلك بهدف السيطرة على العالم (وربما لإنشاء حكومة عالمية يكون مركزها أورشليم القدس) . والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج وعن هذه المؤامرة الأزلية المستمرة ، واليهود من ثم هم المسئولون في كل الأزمنة والأمكنة عن كل الشرور والمنكرات . فهم ، على سبيل المثال ، الذين أراقوا دم المسيح (حسب الرواية المسيحية) ، وهم الذين وضعوا السم للرسول عليه الصلاة والسلام ، وهم وراء مؤامرة عبد الله بن سبأ (ثم أتباعه من بعده) للقضاء على الإسلام ، وهم الذين قاموا بدس الإسرائيليات دساً على الدين الحنيف ، بل يُنسَب إليهم ذبح الأطفال واستخدام دمهم في صنع خبز الفطير الذي يأكلونه في عيد الفصح .

وفي العصر الحديث يرى التآمريون أن اليهود وراء أشكال الانحلال المعروفة والعلنية (وغير المعروفة والخفية) في العالم الغربي والعربي ، بل وفي كل أرجاء العالم . فهم وراء المحافل الماسونية التي أسسوها أداة لمؤامراتهم ، وهم وراء البهائية التي تسعى لإفساد الإسلام وكل العقائد ، وهم الذين أدوا إلى ظهور الرأسمالية بكل بشاعتها ، والبلشفية بكل إرهابها ، والإباحية بكل تدميرها ، وهم يسيطرون على رأس المال العالمي والحركة الشيوعية ويتحكمون في الصحافة ووسائل الإعلام . وهم الذين ضغطوا على الإمبراطورية الإنجليزية وجعلوها تُصدر وعد بلفور . وهم الذين أسقطوا الدولة العثمانية من خلال يهود الدونمه وهم الذين يحركون الآن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية ويوجهون الإعلام الأمريكي ويجندون الصوت اليهودي ، وذلك حتى يُسخِّروا الولايات المتحدة ويُرغموها ، بما لديهم من نفوذ وسطوة وهيمنة ، على تحقيق مآربهم وتنفيذ مصالحهم . وهم على اتصال بعالم الجريمة للمساعدة في إفساد العالم . والصهيونية ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر الغربي ، وليست مرتبطة بظهور الإمبريالية الغربية وهيمنتها على العالم ، وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الأزلي الكامن في النفس اليهودية الذي يتبدَّى في الغزو الصهيوني لفلسطين ، وضرب المفاعل الذري العراقي وغزو لبنان وقمع الانتفاضة والهجرة اليهودية السوفيتية إلى فلسطين والسوق الشرق أوسطية . . . إلخ . ومن أهم إفرازات هذا التصور الاختزالي الوثيقة المسماة **بروتوكولات حكماء صهيون** .

وقد ساعد على نشر التصورات التآمرية عن اليهود ، شعائرهم الدينية المركبة التي لا يستطيع كثير من الناس فهمها . كما ساهمت النزعة الحلولية الانعزالية في الدين اليهودي ، والتصورات اليهودية الخاصة بالشعب المختار ، والمركزية الكونية والتاريخية التي يضفيها اليهود على أنفسهم ، في تعميق شكوك غير اليهود فيهم . ومما لا شك فيه أن وجود اليهود ، بوصفهم جماعات وظيفية متفرقة ، داخل عديد من المجتمعات الغربية ، تنتظمها شبكة من العلاقات التجارية الوثيقة التي تحقق من خلالها قدراً كبيراً من النجاح التجاري والمالي قد عمَّق الرؤية التآمرية لليهود . وقد بلغت هذه الشبكة قمة تماسكها وقوتها في القرن السابع عشر حين كانت تنتظم يهود الأرندا في شرق أوربا ، ويهود البلاط في وسطها وغربها ، ويهود السفارد في البحر الأبيض والدولة العثمانية وشبه جزيرة أيبيريا والعالم الجديد ، وخلق هذا الوجود الإحساس بالتنسيق فيما بينهم . ومع ضعف المجتمعات الغربية وبنائها القيمي ، بسبب انتشار قيم النفعية والعلمانية ، ومع تركُّز اليهود في كثير من الحركات العلمانية والفوضوية ، تعمَّق الإحساس بأن ثمة مؤامرة يهودية تهدف إلى السيطرة على العالم كما تهدف إلى إفساده .

والباحث المدقق سيكتشف أن الرؤية الاختزالية التآمرية لليهود لا تختلف في أساسياتها مطلقاً عن الرؤية الاختزالية الصهيونية لليهود . فكلا الفريقين يرى اليهود من خلال رؤية واحدية اختزالية ساذجة ، تقوم بتبسيط دوافعهم ووجودهم في التاريخ إذ أنها تسقط عنهم زمنيتهم وتركيبيتهم وإنسانيتهم . فبدلاً من رؤية أعضاء

الجماعات اليهودية كجزء من تواريخ بلادهم وحضاراتهم ، فإنها تنظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متماسكاً فريداً يتحرك داخل تاريخه اليهودي الخاص بمعزل عن المجتمعات التي يعيشون فيها . وبسبب هذا الاتفاق بين الفريقين نجد أن كلاً من التآمريين والصهاينة يتحدثون عن «الشعب اليهودي عبر التاريخ» وعن «الشخصية اليهودي في كل العصور» وعن «العبقرية أو الجريمة اليهودية في كل زمان ومكان» وهكذا .

ويُقدِّم كلا الفريقين تصوُّراً لليهود باعتبارهم كيانات بسيطة دوافعها وغاياتها بسيطة . فأعضاء الشعب اليهودي هذا ، حسب رؤية التآمريين والصهاينة ، لا يشعرون بالانتماء لأوطانهم ، إذ أنهم أينما وُجدوا يحنون لصهيون ويدينون لها وحدها أو لحكومتهم اليهودية بالولاء ، ومن ثم فاليهودي عادةً يعاني من ازدواج الولاء ولا يشعر بالاستقرار في وطنه ، ونتيجةً لهذا يصبح شخصية مريضة لا تخضع للقوانين الإنسانية العامة ، يقاوم الاندماج في الأغيار ويقع ضحية فريدة لعنفهم .

والخلاف بين التآمريين والصهاينة لا يوجد في التشخيص أو في الوصف أو في المنطلقات أو المسلمات ولا حتى في الحل وإنما في آليات الحل وحسب، أي أن الاختلاف بينهم اختلاف إجرائي بسيط وليس كلياً وشاملاً، فكلا الفريقين يطرح حلاً بسيطاً لمشكلة الكيان اليهودي المتماسك الفريد الذي يرفض الاندماج، ألا وهو ضرورة «خروج» اليهود من أوطانهم. ولكن بينما يرى التآمريون وأعداء اليهود أنه لا مناص من استخدام العنف في هذه العملية (من طرد وإبادة)، فإن الصهاينة يرون أن الحركة الصهيونية يمكنها أن تشرف على عملية الخروج هذه بطريقة منهجية منظمة، بحيث لا يوجد أي مبرر للعنف. ومع هذا، لا يستبعد الصهاينة استخدام العنف كآلية لإخراج اليهود من أوطانهم، كما حدث عام ١٩٥١، حينما ألقى عملاء إسرائيل القنابل على أماكن تجمُّع أعضاء الجماعة اليهودية في العراق حتى يضطروهم للهجرة منها إلى الدولة الصهيونية الناشئة، وكما يحدث الآن حينما تضغط الحركة الصهيونية على الولايات المتحدة لتغلق أبوابها أمام اليهود السوفييت حتى يضطروا إلى الهجرة إلى إسرائيل.

وفكرة المؤامرة أكذوبة تلائم معظم الأطراف المشتركة في الصراع الإسرائيلي ، فإسرائيل تستفيد كثيراً من هذا الفكر التآمري لأنه يضفي عليها من القوة ما ليس لها ، ومن الرهبة ما لا تستحق ، وهو في نهاية الأمر يجعلها تكسب معارك لم تدخلها قط .

كما أن الحكومات الأمريكية المختلفة تفسر للزعماء العرب عجزها عن مساعدة الحق العربي بتعاظم النفوذ الصهيوني في الكونجرس . أما الحكومات العربية ، فإنها تُفسِّر تخاذلها وهزيمتها أمام العدو الصهيوني على أساس الأسطورة المريحة نفسها . وبالتالي ، يجد كل من أطراف الصراع تفسيراً يبدو معقولاً ومقبولاً لوضعه أمام نفسه وأمام جماهيره .

اليهـــود كشــــياطين

Demonization of the Jews

من الصور الأساسية المتواترة في أدبيات معاداة اليهود تصويرهم على أنهم شياطين ، فالشر لصيق بطبيعتهم ، فهم يخربون أي مجتمع يعيشون في كنفه ، ويحيكون المؤامرات عبر التاريخ للقضاء على الجنس البشري (ربما مثل إبليس منذ أن خرج من الجنة) . وهذا هو المفهوم الكامن وراء **بروتوكولات حكماء صهيون** ووراء فكرة المؤامرة اليهودية العالمية . وهذه الفكرة تفترض وحدة اليهود عبر التاريخ وأنهم يمتلكون قوة سحرية (تماماً مثل الشيطان) ، ولذا فهم لا يُقهرون أو لا يمكن قهرهم إلا باللجوء للحلول السحرية ، إذ لا يهزم السحر إلا السحر . كما لا يمكن هزيمة الشياطين بالجهد البشري العادي ، جهاداً كان أو اجتهاداً ، ولذا في مجابهة الشيطان لا يملك المرء إلا أن يستعيذ بالله أو يفر من الشيطان أو يستسلم له ، ويوقِّع معاهدة سلام واستسلام .

والإيمان بأن اليهود وحدة صلبة متماسكة لا تُقهر ، أو بأن إلحاق الهزيمة بهم في حكم المستحيل ، هي فكرة تروج لها الدعاية الصهيونية الواعية (والدعاية المعادية لليهود غير الواعية) . وتظهر في شعارات مثل «جيش الدفاع الإسرائيلي الذي لا يُقهر» . وفكرة اليهود كشياطين هي مقلوب فكرة اليهود ككتلة صلبة لا تُكسر ، وكلاهما يدور في إطار الحلولية الكمونية الواحدية . فكما أن الفكر الحلولي (الصهيوني) يجعل اليهود موضعاً للحلول الإلهي (باعتبارهم الشعب المختار صاحب الحقوق المطلقة) ، فإن مفهوم اليهود كشياطين يجعلهم موضع الشر الكوني الذي لا يتحول ، فالأول يجعل منهم شعباً مقدَّساً يتجاوز الخير والشر ، والثاني يجعل منهم شعباً شيطانياً يتجاوز الخير والشر أيضاً . وهذه الفكرة لها امتدادها في التراث المسيحي الذي يجعل من اليهودي مركزاً للدراما المسيحية الكونية التي تدور حول صلب المسيح وقيامه والتي يلعب فيها اليهود دور قاتل الرب الذي يقف بعد ذلك ، في ضعته وتدنيه ، شاهداً على انتصار الكنيسة وعظمتها . وقد وجدت هذه الفكرة طريقها إلى العالم الإسلامي وحلّت محل فكرة الفطرة الخيرة التي يولد الإنسان بها .

وإضفاء صفة الإنسانية على أعضاء الجماعات اليهودية (بدلاً من الشيطانية) يعني إمكانية دراستهم وفهمهم والتمييز بين الخيِّر والشرير فيهم ، وبين العدو والصديق ، وفي نهاية الأمر طرح إمكانية الجهاد ضد من يعادينا ويغتصب أرضنا منهم وإلحاق الهزيمة به .

بروتوكولات حكماء صهيون
Protocols of the Elders of Zion

كلمة «بروتوكول» كلمة إنجليزية تعني «اتفاقية» ، و **بروتوكولات حكماء صهيون** وثيقة يُقال إنها كتبت عام ١٨٩٧ في بازل بسويسرا ، أي في العام نفسه الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول . بل يزعم البعض أن تيودور هرتزل تلاها على المؤتمر ، وأنها نوقشت فيه ، بل وتذهب بعض الآراء إلى التأكيد على أن المؤتمرات الصهيونية المختلفة إن هي إلا مؤتمرات حكماء صهيون هذه ، وأن الهدف من المؤتمر السري الأساسي الأول الذي ضم حاخامات اليهود هو وضع خطة محكمة (بالتعاون مع الماسونيين الأحرار والليبراليين والعلمانيين والملحدين) لإقامة إمبراطورية عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة عالمية يكون مقرها القدس . وتقع **البروتوكولات** البالغ عددها أربعاً وعشرين بروتوكولاً في نحو مائة وعشر صفحات ، ونشرت لأول مرة عام ١٩٠٥ ملحقاً لكتاب من تأليف سيرجي نيلوس وهو مواطن روسي ادعى أنه تسلَّم المخطوطة عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من امرأة (مدام ك) ادعت أنها سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا . لكن نيلوس نفسه أخبر أحد النبلاء الروس بأن هذه المرأة أخذتها من رئيس البوليس السري الروسي في فرنسا ، وأن الأخير هو الذي سرقها من أرشيف المحفل الماسوني . وقد كانت لنيلوس اهتمامات صوفية متطرفة ، كما كان غارقاً في الدراسات الخاصة بالدلالات الصوفية للأشكال الهندسية .

وقد لاقت **البروتوكولات** رواجاً كبيراً بعد نشوب الثورة البلشفية التي أسماها البعض آنذاك «الثورة اليهودية» ، إذ عزا الكثيرون الانتفاضات الاجتماعية التي اجتاحت كثيراً من البلدان الأوربية إلى اليهود .

وانتقلت **البروتوكولات** إلى غرب أوربا عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس . وبلغت **البروتوكولات** قمة رواجها في الفترة الواقعة بين الحربين ، حينما حاول كثير من الألمان تبرير هزيمتهم بأنها طعنة نجلاء من الخلف قام بها اليهود المشتركون في المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية . وقد أصبحت **البروتوكولات** من أكثر الكتب رواجاً في العالم الغربي بعد الإنجيل ، وتُرجمت إلى معظم لغات العالم وضمن ذلك العربية حيث ظهرت عدة طبعات منها . وحازت **البروتوكولات** اهتمام بعض المشتغلين بالتأليف وبالإعلام حيث أشاروا إليها باستحسان كبير ، وكأنها وثيقة ذات شأن كبير . ولحسن الحظ ، لا يوجد مركز دراسات عربي واحد أعارها أي اهتمام ، ولا يتم نشرها إلا من خلال دور نشر تجارية .

والرأي السائد الآن في الأوساط العلمية التي قامت بدراسة **البروتوكولات** دراسة علمية متعمقة هو أن **البروتوكولات** وثيقة مزورة ، استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحفي يدعى موريس جولي يسخر فيه من نابليون الثالث بعنوان **حوار في الجحيم بين ماكيافللي ومونتسيكو ، أو السياسة في القرن التاسع عشر** ، نُشر في بروكسل عام ١٨٦٤ ، فتحول الحوار إلى مؤتمر وتحول الفيلسوف إلى حكماء صهيون . وقد اكتُشفت أوجه الشبه بين الكتيب و**البروتوكولات** حيث تضمنت هذه الأخيرة اقتباسات حرفية من الكتاب المذكور ، وأحياناً تعبيرات مجازية وصوراً منه . والرأي السائد الآن أن نشر **البروتوكولات** وإشاعتها إنما تم بإيعاز من الشرطة السياسية الروسية للنيل من الحركات الثورية والليبرالية ومن أجل زيادة التفاف الشعب حول القيصر والأرستقراطية والكنيسة وبتخويفهم من المؤامرة اليهودية الخفية العالمية .

وقد قمنا بدراسة سريعة لعناصر خطاب **البروتوكولات** (الأسلوب والمفردات والصور . . . إلخ) ، فوجدنا أن هناك من الدلائل ما يدعم وجهة النظر القائلة بأنها وثيقة مزيفة :

١ ـ يُلاحَظ أن **البروتوكولات** وثيقة روسية بالدرجة الأولى والأخيرة :

أ) فكاتب الوثيقة لا يعرف شيئاً عن المصطلح الديني اليهودي ولا يستخدم أية كلمات عبرية أو يديشية . وهناك إشارتان للإله الهندي فشنو ، وإشارة واحدة لأسرة داود . وبطبيعة الحال ، يمكن إثارة القضية التالية : إذا كانت **البروتوكولات** وثيقة سرية ، فلماذا لم يكتبها حاخامات اليهود بالعبرية أو الآرامية أو اليديشية ليضمنوا عدم تَسرُّبها ؟ ومما يجدر ذكره أن كثيراً من يهود روسيا آنذاك كانوا يتحدثون اليديشية ولا يعرفون الروسية . وكان حزب البوند ، أكبر الأحزاب العمالية في أوربا يدافع عن حقوق العمال من أعضاء الجماعة اليهودية ويُطالب بالاعتراف باليديشية باعتبارها لغتهم القومية (باعتبارهم أحد «شعوب» الإمبراطورية الروسية) .

ب) الموضوعات الأساسية المتواترة في البروتوكولات موضوعات روسية ، فهناك دفاع عن الاستبداد المطلق وعما يُسمَّى «الأرستقراطية الطبيعية الوراثية» ، وهجوم شرس على الليبرالية والاشتراكية ، وهو ما يبيِّن أن اهتمامات الكاتب روسية تماماً وتعكس رؤية الطبقة الحاكمة الروسية في السنين الأخيرة من حكم النظام القيصري .

جـ) هناك هجوم على الكنيسة الكاثوليكية واليسوعية ، وهو ما يدل على أثر التربة المسيحية الأرثوذكسية السلافية التي كانت تناصب الكاثوليكية العداء .

د) ثمة هجوم شرس على الماسونية ، التي كانت آنذاك جزءاً لا يتجزأ من الحركة الليبرالية والثورية الروسية .

هـ) هناك هجوم شديد على دزرائيلي ، الذي كان شخصية مكروهة تماماً من النخبة الحاكمة في روسيا لأنه كان يساند الدولة العثمانية حتى تظل حاجزاً منيعاً ضد توسُّع الإمبراطورية الروسية .

٢ ـ كما أن نبرة البروتوكولات ساذجة للغاية ، فمن الواضح أن كاتبها الذي زيفها ، لا يجيد التزييف ، فقد حاول أن يبيِّن الخطر العالمي لليهود . وحتى يعطي وثيقته درجة من المصداقية ، جعل حكماء صهيون (لا أحد سواهم) يتحدثون عن الخطر اليهودي ، حتى يبدو الأمر كله وكأنه «شهد شاهد من أهلها» ، غير أنه لم يكن على درجة كبيرة من الذكاء في عملية تزييفه هذه :

أ) ففي الصفحة الأولى من البروتوكول الأول ينطق حكيم صهيون الأول بالكلمات التالية : "يجب أن يُلاحَظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عدداً من ذوي الطبائع النبيلة" . وهذه ملحوظة تبين الشر المتأصل في صاحبها . ولكن السؤال البدهي الذي يطرح نفسه هو : لماذا يصر كبير حكماء صهيون على نقل هذه الآراء لحكماء صهيون ؟ أليس كل الحاضرين من الأشرار الذين لا توجد شبهة في شرهم ؟ والسذاجة نفسها تتبدَّى في الملاحظة التي ترد بعد عدة صفحات حيث يقول كبير الحكماء : "إن الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا (ونحن نضع خططنا) ألا نلتفت إلى ما هو خيِّر وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد !" ومرة أخرى لماذا يكلف كبير الحكماء نفسه بتذكير الحاضرين من الحاخامات بمثل هذه البدهيات المتداولة بين الأشرار في كل زمان ومكان ؟ أم أنه لاحَظ بعض علامات الخير بينهم فأراد أن يحذرهم منها ؟

ب) يحاول واضع البروتوكولات أن يضخم اليهود وقوتهم ليخيف الناس منهم فيجعلهم ينسبون إلى أنفسهم في البروتوكول الثاني كل شر فيقول : "نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل" . ولكنه ينسى نفسه بعد قليل وتتبدل النبرة إذ يبدأ اليهود في توجيه الاتهامات لأنفسهم في البروتوكول الثاني نفسه : "من خلال الصحافة اكتسبنا نفوذنا ، وبقينا نحن وراء الستار ، وبفضل الصحافة كدَّسنا الذهب ، ولو أن ذلك سبَّب أنهاراً من الدم" . وهذه في الواقع عريضة اتهام موجهة للذات ؛ فلماذا يكلف كبير الحكماء خاطره ليقدمها لبقية أعضاء المجتمع الذين يعرفون ذلك مسبقاً ؟ ولماذا يُصر على أن يُخبرهم في البروتوكول الثالث أن "أسرار تنظيم الثورة الفرنسية معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا ، ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قدماً من فشل إلى فشل ، حتى أنهم سوف يتبرأون منا" فمن يمكن أن يصف حركته بأنها حركة لقيادة الأمم من "فشل إلى فشل" ، ويصر على أن هذه الحركة ستودي بهم ؟ ثم يضيف في البروتوكول التاسع : "إن لنا طموحاً لا يُحدّ ، وشرّهاً لا يُشبع ، ونقمة لا تَرحم ، وبغضاء لا تُحس . إننا مصدر إرهاب بعيد المدى . وإننا نُسخِّر في خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب" . ثم يتطوع بالتأكيد على ما يلي : «لقد خدعنا الجيل الناشيء من الأمميِّين ، وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادئ» . ومن الواضح أن التزييف لم يبق منه سوى صيغة المتكلم الجمع ، أما الباقي فهو اتهامات موجهة بالتآمر لليهود ، ينسبها كاتبها لهم حتى تبدو كما لو كانت صادقة .

ويمكننا الآن أن نعرض للأفكار الأساسية في البروتوكولات التي تؤكد أن السياسة لا تخضع للأخلاق ، وأن اليهود سينفذون مخططهم الإرهابي عن طريق الغش والخداع . فعلى مستوى المجتمع ، سيقومون بتقويض دعائم الأسرة وصلات القرابة ، وإشاعة الإباحية ، واستغلال الحريات العامة ، وتخريب المؤسسات المسيحية ، وإفساد أخلاق العالم المسيحي الأوربي . أما على مستوى الدولة ، فإنهم سيسعون إلى تقويض كيان الدول عن طريق الإيقاع بينها بحيث تندلع الحروب ، على ألا تؤدي هذه الحروب إلى تعديلات في حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية ، ليتمكن رأس المال فقط من الخروج بالغنائم . وينبغي التركيز على المنافسة في المجتمع ، وعلى تصعيد الصراع الطبقي ، ليجري الجميع نحو الذهب الذي لابد أن اليهود سيحتكرونه ، وتُصاب المؤسسات الدينية والسياسية بالاهتراء ويسود رأس المال كل شيء .

وتهتم البروتوكولات في المراحل الأولى من المخطَّط بأن يسيطر اليهود على الصحافة ودور النشر وسائر وسائل الإعلام ، حتى لا يتسرب إلى الرأي العام العالمي إلا ما يريدونه . كما أنها ترى ضرورة أن يسيطر اليهود على الدول الاستعمارية وأن يسخروها حسب أهوائهم . كما أنهم سيسيطرون أيضاً ، بطبيعة الحال ، على الدول

الاشتراكية المعادية للاستعمار . و البروتوكولات تجعل اليهود مسئولين عن كل شيء : عن الخير والشر ، والثورة والثورة المضادة ، والاشتراكية والرأسمالية . فالبروتوكول السادس ، مثلاً ، يقول : «كي نخرب [أي نحن اليهود] صناعة الأغيار سنزيد من أجور العمال [اتجاهات اشتراكية] ونعرِّض الصناعة للخراب والعمال للفوضى [اتجاهات فوضوية] » .

ومن الواضح أن البروتوكولات ليست نقداً لليهود بمقدار ما هي تعبير عن إحساس الإنسان الأوربي في أواخر القرن التاسع عشر بأزمته ، و بقدر ما هي تعبير عن إدراكه السطحي المباشر لها بعد تزايد معدلات العلمنة في الغرب وبعد تفكك المجتمع التقليدي الذي كان يوفر له قدراً كبيراً من الطمأنينة ، حتى وإن سلبه حريته وفرصه في الحراك الاقتصادي . فالمجتمع الذي يحاول اليهود فرضه على العالم ، حسبما جاء في البروتوكولات ، ليس عالماً شريراً بشكل شيطاني ميتافيزيقي ، وإنما هو في الواقع العالم الغربي الصناعي الذي سادت فيه قيم العلمانية والنفعية ، ومن هنا كان الجمع بين الرأسمالية والاشتراكية باعتبارهما نظامين يبشر بهما اليهود ، كما كان الجمع بين نيتشه وماركس باعتبارهما فيلسوفين يبشر اليهود بفكرهما . فبرغم الاختلافات العميقة بين النظامين المذكورين ، والاختلاف بين الفيلسوفين ، فإن العامل المشترك الأعظم (أو نقطة البدء أو التلاقي) هو تأسيس مجتمع علماني يستند إلى قيمتي المنفعة واللذة لا إلى القيم الدينية الأخلاقية المطلقة .

وقد وُجد أعضاء الجماعات اليهودية في مختلف القطاعات والاتجاهات ، شأنهم في ذلك شأن أعضاء أية أقلية أخرى ، فكانت توجد أعداد كبيرة من كبار المموِّلين الرأسماليين اليهود ، كما كان كثير من أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالتجارة الصغيرة والربا ، وكان من بينهم عدد كبير من المفكرين الليبراليين بل والرجعيين الذين يدافعون عن حرية التجارة وعن أكثر الأفكار الداروينية الاجتماعية تطرفاً . بل ونجد أن بعض اليهود ارتبطوا بالتجارب الاستعمارية الغربية غير الصهيونية كما حدث في جنوب أفريقيا (في صناعة التعدين) ، أو في شركة الهند الشرقية الهولندية ، أو في شركة قناة بنما . كما تركَّز أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في قطاعات اقتصادية مشينة مثل البغاء (قوادين وعاهرات) ونشر المجلات والمطبوعات الإباحية . وقد ربط هذا بين اليهودي من جهة وكلٍّ من «اليمين» و«التحلل الرأسمالي» و«التفكك الليبرالي» من جهة أخرى .

ولكن ، إلى جانب ذلك ، كانت هناك أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية في حركة اليسار أيضاً : فقد كان أكبر حزب اشتراكي في أوربا هو حزب البوند اليهودي . وقد انخرط الشباب اليهودي بأعداد كبيرة في الحركات الثورية ، حتى أن ٣٠٪ من أعضاء الحركات الثورية في روسيا القيصرية كانوا من الشباب اليهودي . وحينما قامت جمهورية بلشفية في المجر عام ١٩١٩ ، كان رئيس الدولة يهودياً ، وكان عدد اليهود من الوزراء كبيراً لدرجة مدهشة ، وكانت هناك أعداد كبيرة من المفكرين الاشتراكيين والشيوعيين من أصل يهودي . كما كان لليهود حضور واضح في الفكر الفوضوي . وفي نهاية الأمر ، كان كل من روتشيلد رمزاً للارتباط العضوي بين اليهود والرأسمالية ، وماركس رمزاً للارتباط العضوي أيضاً بين اليهود والاشتراكية . ولذا ، كان من الممكن تفسير كل شيء بالرجوع إلى مقولة «يد اليهود الخفية» .

ولعل ما ساعد على إشاعة هذا النموذج التفسيري الساذج أن الوجدان المسيحي كان يجعل من اليهودي قاتل الرب رمزاً لكل الشرور . وقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر عصر الهجرة اليهودية الكبرى ، ولذا كان هناك يهود في كل مكان ، يهود لا جذور لهم في طريقهم من شرق أوربا إلى الولايات المتحدة . وكما هو معروف ، فإن الإنسان المهاجر المتنقل لا يلتزم بكثير من القيم . ولكل هذا ، أصبح اليهودي رمزاً متعيناً لعملية ضخمة لم يكن الإنسان الأوربي يفهمها جيداً رغم شقائه الناجم عنها ، وهي الثورة العلمانية الشاملة الكبرى (بشقيها الاشتراكي والرأسمالي) ، وهي ثورة لم يكن اليهودي يشكل فيها سوى جزء بسيط من كلٍّ ضخم مُركَّب . بل إن العقيدة اليهودية ذاتها سقطت ضحية هذه الثورة ، وفقدت قطاعات كبيرة من الجماعات اليهودية هويتها نتيجةً لها .

والفكرة الأساسية في البروتوكولات هي فكرة الحكومة اليهودية العالمية . لكن المعروف تاريخياً أنه لم تكن هناك سلطة مركزية تجمع سائر يهود العالم بعد تحطيم الهيكل على يد نبختنصر عام ٥٨٦ ق.م ، وذلك بسبب طبيعة الوجود اليهودي في العالم حيث انتشر اليهود على هيئة أقليات دينية لا يربطها رباط قومي ، وقد كان لكل أقلية محاكمها وهيئاتها الخاصة التي تقوم برعاية شئونها . ولكن اليهود لا يختلفون في هذا عن أية أقلية دينية أو جماعة وظيفية أخرى .

وهنا ، يمكن أن نثير قضية مهمة هي قضية الوسائل : هل للجماعات اليهودية في العالم من القوة ما يمكنها من تنفيذ هذا المخطط الإرهابي العالمي الضخم ؟ إن الدارس لتواريخ الجماعات اليهودية يعرف أنها كانت دائماً قريبة من النخبة الحاكمة لا بسبب

سطوتها أو سلطانها وإنما بسبب كونها أداة في يد النُخب ولأنها لم تكن قط قوة مستقلة أو صاحبة قرار مستقل .

والإشارة إلى **البروتوكولات** واستخدامها في الإعلام المضاد للصهيونية أمر غير أخلاقي لأنها وثيقة مزوَّرة ، ولا توجد دراسة علمية واحدة (سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات) تثبت أنها وثيقة صحيحة . ولكن ، وحتى ولو كانت **البروتوكولات** وثيقة صحيحة ، فإن من يستخدمها يفقد مصداقيته وفعاليته أمام الرأي العام الغربي الذي لا يؤمن بصحتها . كما لا يمكن إثبات أن هذه الوثيقة تعبر تعبيراً حقيقياً عن دوافع أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، أو أنهم يأخذون بها كوثيقة ملزمة تحدد سلوكهم وأهدافهم . وبسبب السمعة الشائنة **للبروتوكولات** ، فإن الصهاينة يصفون أي نقد موجَّه إليهم بأنه وقوع في أحابيل **البروتوكولات** . ومن الطريف أن هناك وثائق يتداولها بعض أعضاء الجماعات اليهودية تحتوي على آراء أكثر تآمرية من **البروتوكولات** مثل ما يُسمَّى كتاب **التربية** الذي يوزع في إسرائيل في الوقت الحالي . كما يحوي التلمود وتراث القبَّالاه (وهي كتابات يهودية لا شك فيها) مقطوعات عنصرية إلى أقصى درجة ، ولكن يبدو أن مروِّجي **البروتوكولات** لا يعرفون عنها شيئاً ، وهي على كلٍّ كتابات لا يعرف عنها معظم أعضاء الجماعات اليهودية بدورهم شيئاً ، ولا يتداولها في الغالب إلا بعض العنصريين الموجودين في كل المجتمعات وبين أتباع كل العقائد .

وثمة رأي يذهب إلى أن الصهاينة يقومون بالترويج لهذه **البروتوكولات** لأنها تخدم المشروع الصهيوني الذي يهدف إلى ضرب العزلة على اليهود وتحويلهم إلى مادة خام صالحة للتهجير والتوطين في فلسطين المحتلة . كما أن كثيراً من الافتراضات الكامنة في **البروتوكولات** ، مثل «الشعب اليهودي» و«الشخصية اليهودية» و«المصالح اليهودية» ، هي جميعاً افتراضات صهيونية أساسية والهجوم عليها هو في واقع الأمر تسليم غير مباشر بوجودها .

وسواء أكان هذا الرأي الأخير صحيحاً أم كاذباً ، فإن ترويج **البروتوكولات** يخدم المصالح الصهيونية من الناحية العملية . ويتم الآن ، في العالم العربي ، تداول كم هائل من الكتابات (مثل **أحجار على رقعة الشطرنج** وغيرها) كل هدفها إشاعة الخوف من اليهود والصهيونية بتبنِّي رؤية بروتوكولية تنسب إلى اليهود قوى عجائبية . ويساهم بعض أعضاء النخب الحاكمة في الترويج لهذه **البروتوكولات** لتبرير العجز العربي والتخاذل أمام العدو الصهيوني ، دون أن يدركوا أنهم بهذا إنما يخدمون مصلحة العدو . وقد صرح المعلق السياسي الإسرائيلي يوئيل ماركوس في جريدة **هاآرتس** (٣١ ديسمبر ١٩٩٣) بأن كثيراً من الدول تغازل إسرائيل وتحاول أن تخطب ودها نظراً لأن حكام هذه الدول يؤمنون بأن **البروتوكولات** وثيقة صحيحة وأن ما جاء فيها هو المخطط الذي يتحقق في العالم والذي سيؤدي إلى سيطرة اليهود وأن اليهود يتحكمون بالفعل في رأس المال العالمي وفي حكومة الولايات المتحدة . ومن ثم فالطريق إلى المعونة الأمريكية يمر من خلال اللوبي الصهيوني والدولة الصهيونية . ويضيف ماركوس معلقاً على هذه المفارقة : "إن **البروتوكولات** [بسبب أثرها هذا الذي يولِّد الرهبة في النفوس ويدفع الناس لمغازلة إسرائيل واليهود] تبدو كأن الذي كتبها لم يكن شخصاً معادياً لليهود ، وإنما يهودي ذكي يتسم ببعد النظر" . وقد أثبتت الانتفاضة الفلسطينية أن اليهود بشر وأن إلحاق الأذى بهم وهزيمتهم أمر ممكن ، وأنهم قد يهاجمون عدوهم كالصقور حينما تسنح الفرصة ثم يفرون كالدجاج حينما يدركون مدى قوته وإصراره . والاستمرار في إشاعة الرؤية البروتوكولية هو نوع من الإصرار على مد يد العون للعدو الصهيوني ، وعلى التنكر لإنجازات الانتفاضة .

ولا يمكن للمسلم الملتزم بتعاليم دينه أن يوجه الاتهام إلى أي إنسان جزافاً ودون قرائن ، كما لا يمكن لرؤية دينية حقة أن تحكم على الفرد باعتباره تجسداً لفكرة ، إذ يظل كل إنسان مسئولاً عن أفعاله . وقد عرَّف الإسلام حقوق أعضاء الأقليات ، خصوصاً أهل الكتاب ، فحدّد أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وهي حقوق مطلقة لا يمكن التهاون فيها . وفي الواقع ، فإن استخدام **البروتوكولات** لاتهام اليهود فيه سقوط في العنصرية والعرْقية التي تصنف الناس لا على أساس أفعالهم وإنما على أساس مادي لاديني (علماني) مسبق وحتمي . ولذا ، فهي لا تميِّز بين ما هو خيِّر وما هو شر .

اليهودي الدولي
International Jew

شهدت أوائل العشرينيات في الولايات المتحدة نشر عدة كتب معادية لليهود من بينها **بروتوكولات حكماء صهيون** وكتيب **سبب عدم الاستقرار في العالم** الذي سبق نشره على هيئة سلسلة مقالات في جريدة **المورننج بوست** اللندنية . وقد نشرت مجلة **الديربورن إند بندانت** (١٩٢٠) ، التي كان يمتلكها هنري فورد صاحب مصنع السيارات الشهير ، بعض هذه الأدبيات وغيرها في سلسلة مقالات بعنوان «اليهودي الدولي» . وبدأ نشر المقالات ابتداءً من ٢٢ مايو ١٩٢٢ واستمر لمدة سبع سنوات ثم نُشرت المقالات بعد ذلك على هيئة كتيبات . واتهمت هذه المقالات اليهود بأنهم يحاولون هدم أسس الحياة الأمريكية وأنهم وراء مؤامرة عالمية لتحطيم المسيحية

والهيمنة على العالم وأن الثورة البلشفية ما هي إلا تعبير عن هذه الثورة المستمرة .

والكتاب ، مثله مثل كثير من أدبيات معاداة اليهود في الغرب ، يرى اليهودي ممثلاً للثوري المتطرف والثري فاحش الثراء (البلشفي - الصيرفي ، تروتسكي - روتشيلد) ، وهو في نهاية الأمر خليط من شيلوك وعدو المسيح وقاتل الإله واليهودي التائه .

وقد وجدت هذه الدعاية العنصرية قبولاً واسعاً في الأوساط القروية الريفية وفي المدن الصغيرة وبين بعض أعضاء النخبة الحاكمة . ولكن غالبية أعضاء النخبة والجهاز السياسي في المدن كانوا يعارضون هذه الحملة إذ أنهم أدركوا أن المهاجرين اليهود بدأوا يتخلون عن رؤيتهم وعقائدهم وهويتهم ويندمجون في المجتمع الأمريكي ويتأمركون أسرع من غيرهم ، ولذلك ، نُظِّمت حملة مضادة اضطر هنري فورد بعدها للاعتذار عن الحملة التي شنها ، وذلك من خلال لويس مارشال رئيس اللجنة الأمريكية اليهودية .

جيكوب برافمان (١٨٢٥-١٨٧٩)

Jacob Brafman

روسي يهودي متنصر . وُلد لأسرة يهودية وتيتم في سن مبكرة ، ويبدو أن قيادة الجماعة اليهودية (القهال) في المدينة قرروا أن يرسلوا به ليُجنَّد في القوات القيصرية (ربما بسبب يتمه) الأمر الذي ولَّد في نفسه حقداً كبيراً على اليهود واليهودية . تنصَّر برافمان وهو في سن الرابعة والثلاثين ، وعُيِّن أستاذاً للعبرية في إحدى المدارس الدينية اليهودية التابعة للحكومة القيصرية ، كما عُيِّن رقيباً على الكتب العبرية واليديشية .

هاجم برافمان مؤسسة القهال بشراسة ووصفها هي والمؤسسات اليهودية الأخرى بأنها « دولة داخل دولة » وبأنها جزء من مؤامرة دولية . وفي عام ١٨٦٩ ، أصدر برافمان **كتاب القهال** ، ثم نشر طبعة ثانية موسعة عام ١٨٧٥ . وقد تُرجم الكتاب إلى الفرنسية والبولندية والألمانية . ويهدف الكتاب إلى إعطاء القراء الروس فكرة عن ممارسات اليهود السرية والتي يستخدمونها للهيمنة على الأغيار . وقد أصبح الكتاب من كلاسيكيات العداء لليهود في الغرب .

والكتاب يتكون أساساً من ترجمات لمحاضر جلسات بعض مجالس القهال . وقد اتُّهم برافمان بالتزوير ، ولكن (حسبما جاء في **الموسوعة اليهودية [جودايكا]**) ثبت أن ما ورد في الكتاب هو ترجمة دقيقة لبعض الجلسات ولذا أصبح الكتاب من أهم المراجع العلمية لدراسة حياة الجماعة اليهودية في روسيا القيصرية .

اليهودي التائه

Wandering Jew

«اليهودي التائه» شخصية أسطورية في التراث الشعبي الغربي ، وهو إسكافي يهودي يُدعَى كارتافيلوس ، طلب منه المسيح عليه السلام ، وهو يحمل صليبه ، جرعة ماء ليروي بها عطشه ، ولكن الإسكافي ضربه بدلاً من أن يسقيه ، وقال له : « فلتسرع يا يسوع ، ماذا تنتظر ؟ » ، فأجاب المسيح : « أنا ذاهب ولكنك ستنتظر حتى أعود » ، فحلت على اليهودي لعنة جعلته يجوب بقاع الأرض إلى أن يعود المسيح مرة أخرى ، ومن هنا سُمِّي «اليهودي التائه» . وقد بدأت الأساطير المستوحاة من هذه الشخصية الغريبة في الظهور في القرن الثالث عشر وتحولت إلى إحدى الصور الإدراكية النمطية التي يدرك العالم الغربي اليهود من خلالها . ومن الكتب الأولى التي أشارت إليه كتاب **زهور التاريخ** للراهب الإنجليزي روجر (من وندوفر) عام ١٢٢٨ . وكانت الشائعات تظهر من آونة إلى أخرى ، ومن مكان إلى آخر ، أن اليهودي التائه قد شُوهد يتجول في هذا المكان أو ذاك بلحيته الطويلة البيضاء وعيونه اللامعة الشريرة وعصاه الطويلة . وكانت آخر مرة قيل إنه شُوهد فيها خلال القرن التاسع عشر .

وقد وجدت هذه الأساطير سنداً لها في سفر ماثيو في كلمات المسيح التي تقول : « الحق أقول إن من القيام ها هنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته » (إنجيل متى ١٦ : ٢٨) .

وقد ظل اليهودي التائه رمزاً للشعب اليهودي ، هذا الشعب الشاهد الذي يقف خارج التاريخ شاهداً مقدَّساً على التاريخ من وجهة نظر اليهود ، منبوذاً من الجميع ، ومن وجهة نظر المعادين لليهود شعباً عضوياً منبوذاً . وأساس هذه الصورة هو اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالتجارة والربا كجماعة وظيفية وسيطة ، ووقوفهم خارج العملية الإنتاجية على هامش المجتمع ، وانتقالهم من بلد إلى بلد بسبب طردهم أو سعياً وراء الربح . كما كان أبطال اليهود في العهد القديم رجالاً جوَّالين لا منزل لهم بسبب البيئة الرعوية التي كانوا يتحركون فيها .

وقد استغل تراث معاداة اليهود في الغرب هذه الصورة في ترسيخ سلبيات ما يُسمَّى «الشخصية اليهودية» في الوجدان الشعبي . ورغم أن أسطورة اليهودي التائه اختفت بعض الوقت ، إلا أنها عاودت الظهور في القرن السادس عشر ، مع تصاعد الحمى المشيحانية وانتشار العقيدة الألفية أو الاسترجاعية ، بعدة أسماء من بينها اسم أهازويروس . وبظهور الرؤية الرومانتيكية للعالم وظهور الفلسفات العبثية والعدمية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن

العشرين ، وتحوَّل الاغتراب إلى إحدى علامات التميز والتفوق في الخطاب الفلسفي ، تحوَّل اليهودي التائه بدوره إلى رمز لهذا الإنسان المغترب الذي يرفضه المجتمع بسبب تميُّزه ويتعاطف معه المثقفون الثائرون على مجتمعاتهم ، وهو الأمر الذي أدَّى إلى خلق جوٍّ من التعاطف الرومانسي مع اليهود .

وتجدر الإشارة إلى أن اليهودي التائه ، سواء أكان شخصية سلبية مخربة أم كان شخصية إيجابية عبقرية ، يقف دائماً خارج التاريخ وخارج نطاق ما هو إنساني وسويّ . ومن هنا ، يمكننا أن نرى كيف يمكن أن تتحول الصورة من صورة يستخدمها المعادون لليهود إلى صورة يستخدمها المحبون لليهود ، وذلك دون إدخال أية تغييرات على بنيتها العامة .

هب هب

Hep, Hep

«هب هب» صيحة استهزاء كانت شائعة في ألمانيا والنمسا . ويُقال إنها اختصار للعبارة اللاتينية «هيروسوليما إست برديتا hierosolyma est perdita» ، ومعناها «لقد ضاعت القدس» التي شاعت أثناء حروب الفرنجة . وهناك رأي يذهب إلى أنها مجرد صوت يستخدم لقيادة الحيوانات المستأنسة ، وخصوصاً الكباش والماعز في مقاطعة فراكونيا ، مع افتراض أن اليهود هم الماعز بسبب لحيتهم الطويلة . وهناك نظرية ثالثة ترى أنها اختصار لكلمة «هبرابر hebraer» أي «عبرانيون» . وقد استُخدمت العبارة في اضطرابات عام ١٨١٩ التي يُطلَق عليها «اضطرابات هب هب» والتي كانت تعبيراً عن احتجاج بعض قطاعات الشعب ضد إعتاق اليهود . وتعود الاضطرابات إلى عدة أسباب من بينها أن عام ١٨١٦ كان عام مجاعة للفلاحين ، فاضطروا إلى الاستدانة من المرابين اليهود ، كما عمت البطالة صفوف العمال في ألمانيا آنذاك . وقد رأت العناصر الثورية أن اليهود صنائع لمترنيخ (الذي أشيع عنه أنه كان يتسلم راتباً من كبار المموِّلين اليهود) ، وأن مؤتمر فيينا (١٨١٤ـ ١٨١٥) الذي أوصى بزيادة حقوق اليهود في ألمانيا هو ثمرة هذه العلاقة .

كايك وشيني

Kike and Sheeny

«كايك» هي كلمة تحقير إنجليزية أمريكية ذات نبرة عنصرية فاقعة يستخدمها أعداء اليهود للإشارة إليهم . وقد نحت الكلمة ، في القرن التاسع عشر ، يهود أمريكيون من أصل ألماني لوصف اليهود المهاجرين من شرق أوربا ، وهي إشارة واضحة إلى اللغة اليديشية التي تضم كلمات سلافية كثيرة وإلى اللغة الروسية التي كان يتحدث بها بعضهم ، والتي تحتوي على عدد كبير من الكلمات تنتهي بحرف الكاف ، مثل «تشرنحوفسكي» و«مالينوفسكي» . . . إلخ . كما نحت اليهود من أصل ألماني كلمة «شيني» وهي أيضاً كلمة تحقير أخرى لوصف يهود اليديشية .

إسرائيل ويست

Israel West

«إسرائيل ويست» مصطلح يستخدمه المعادون لليهود في الولايات المتحدة ومعناه «إسرائيل غرب» . وفي الولايات المتحدة ، عادةً ما يشير بعض أعضاء الأغلبية أو أعضاء الأقليات الأخرى إلى المناطق التي يسكن فيها أعضاء الجماعة اليهودية على أنها «إسرائيل» (تماماً كما يُشار إلى أحياء الأمريكيين السود بأنها «أفريقيا») . وقد أشار أحد المتحدثين مرة إلى ما سماه «ذي جويش ستيت أوف نيويورك The Jewish State of New York» أي «ولاية نيويورك اليهودية» . وهو لعب على لفظ «ستيت state» الإنجليزي والذي يعني «ولاية» و«دولة» في آن واحد (وأحياناً لا تحمل الإشارة أي مضمون قدحي بل تكون كما في الإشارة إلى «تشينا تاون Chinatown» أي «مدينة الصينيين» وإلى «ليتل إيجيبت Little Egypt» أي مصر الصغرى) .

وأخيراً ، قام ديفيد ديوك ، أحد زعماء جماعة الكو كلوكس كلان المعادية للأمريكيين السود ، بطرح فكرة بشأن الأقليات التي «لا يمكن دمجها» حسب تعبيره . وسيتم بموجب هذه الخطة نقل (ترانسفير) كل يهود أمريكا إلى «إسرائيل غرب» ، أي في ولاية لونج أيلاند وفي حي مانهاتن في نيويورك (باعتبار أن فلسطين هي إسرائيل شرق) . وقد أشار ديوك إلى أن عملية الترانسفير هذه قد لا تكون مناسبة بالنسبة لبعض اليهود ، ولكنها ـ حسب قوله ـ لن تمس سوى مليوني يهودي ، وهو رقم أقل من الثمانية ملايين من الأمريكيين الذين أُرسلوا إلى خارج الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية . وفي إشارة واضحة إلى الدولة الصهيونية ، قال ديوك : "إن هذا العدد أقل بكثير من الثلاثة ملايين ونصف مليون فلسطيني التي قامت «إسرائيل شرق» بطردهم من ديارهم" .

٣
معاداة اليهود والتحيز لهم

معاداة اليهود (والتعاطف مع الصهيونية) كإمكانية/ إشكالية كامنة منذ العصور الوسطى في الغرب ـ التحيز لليهود (حب السامية) ـ شيلوك ـ دوستويفسكي ـ درومون ـ ليوجر ـ سترندنبرج ـ كراوس ـ فاسيندر ـ معاداة اليهود لكلٍّ من اليهود واليهودية ـ كره اليهودي لنفسه ـ فينينجر ـ تريتش ـ لسنج ـ العداء العربي لليهود واليهودية

معاداة اليهود (والتعاطف مع الصهيونية) كإمكانية/ إشكالية كامنة منذ العصور الوسطى في الغرب

Anti-Semitism (and Pro-Zionism) as a Latent Possibility\ Problematic since the Middle Ages in the West

يُلاحظ الدارس أن كلاً من ظاهرة معاداة اليهود والصهيونية (وهما وجهان لعملة واحدة) متجذّرتان في الحضارة الغربية. وهذا يعود إلى عدة أسباب تراكبت معاً، ويمكن أن نشير إلى بعضها فيما يلي:

١ ـ سيطر على الحضارة الغربية منذ نشأتها نموذج عضوي في التفكير، ومثل هذه النماذج عادةً ما تفضل التجانس على عدم التجانس، والاتساق الداخلي الصارم على عدم الاتساق، والواحدية على التعددية، ومن ثم يكون وضع الأقليات قلقاً وغير مستقر، باعتبارها عنصراً من عناصر عدم التجانس.

٢ ـ تعود جذور الحضارة الغربية إلى المدن/ الدول اليونانية، وهي تشكيلات حضارية صغيرة تتسم بالتجانس الشديد ولا يوجد فيها مكان للغريب، وهو ما دعم هذه الرؤية العضوية، على عكس الحضارات الشرقية التي نشأت في أحضان التشكيلات الإمبراطورية الضخمة فكان عليها أن تتعامل مع عشرات الشعوب والأقليات العرْقية والدينية.

وحينما نشأت الإمبراطورية الرومانية وبسطت نفوذها على الشرق والغرب، فلم تستطع هزيمة التشكيلات الحضارية الشرقية المحلية (الأرمن ـ الأقباط ـ الثقافة الآرامية) بينما قضت على كثير من اللغات والتشكيلات الحضارية في القارة الأوربية وفرضت الثقافة اللاتينية، أي أنها قضت على التنوع الحضاري في القارة الأوربية.

٣ ـ طرح الإسلام من البداية مفاهيم أخلاقية ومقولات قانونية للتعامل مع الأقليات الدينية والعرْقية (وهو في هذا متسق إلى حدٍّ كبير مع التقاليد الحضارية في الشرق الأوسط في كثير من مراحله التاريخية)، بينما فشلت المسيحية الغربية في تطوير أية مقولات بشأن الأقليات، حيث لا يصلح مفهوم المحبة (المسيحي) لتنظيم العلاقة بين الأقلية والأغلبية. وفي الوقت نفسه، ظهر مفهوم الشعب الشاهد (الكاثوليكي) والعقيدة الاسترجاعية (البروتستانتية) وهي مفاهيم تتسم بالإبهام الشديد، فهي من ناحية تضع اليهود في مركز الكون باعتبارهم شعباً مقدَّساً، حَمَلَة الكتاب المقدَّس، ويتوقف خلاص الكون على استرجاعهم، ولكنهم أيضاً هم قتلة الإله، وهم كذلك في شتاتهم وضعَتهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة. كما أن خلاص الكون يتوقف على تنصيرهم. وقد ورثت المسيحية الغربية العرف الألماني حيث طُبِّق قانون الصيد على اليهود، وهو قانون يجعل من الغريب ملكاً للملك ومن ثم أصبح اليهود ملكية للملك، وكذلك كتلة بشرية تتعاقد مع الحكومة وليسوا أهل ذمة، فكانوا يوقعون المواثيق التي تمنحهم الحماية والمزايا نظير خدمات يؤدونها أو ضرائب أو مبالغ مالية يدفعونها.

٤ ـ تحولَت الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تقف على هامش المجتمع دون أن تصبح من صميمه. وحينما بدأت عملية علمنة الفكر والحضارة الغربية، تمت مناقشة المسألة اليهودية في ضوء مفهوم نفع اليهود، وهو أمر منطقي للغاية إذ أن الجماعة الوظيفية هي جماعة يستند بقاؤها إلى مدى نفعها.

٥ ـ ترجم كل هذا نفسه إلى مفهوم الشعب العضوي المنبوذ الذي يشكل إطار كل من العداء العرْقي لليهود والتحيز الصهيوني لهم.

٦ ـ ظل اليهود خارج التشكيل الرأسمالي كرأسمالية منبوذة. كما أن الفكر الاشتراكي، كان ينظر إليهم باعتبارهم عناصر تجارية طفيلية مستغلة.

٧ ـ ارتبط اليهود بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني وجرى النظر إليهم باعتبارهم مادة استيطانية نافعة.

٨ ـ شكلت كل هذه العناصر الإطار الذي تطورت من خلاله الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. ومما له دلالته أن صهيونية غير اليهود

تسبق صهيونية اليهود بعشرات السنين ، فالصهيونية ظاهرة لصيقة بالحضارة الغربية ويقع عقد بلفور في هذا الإطار حيث تقرَّر إخراج اليهود من التشكيل السياسي الغربي ، لأنه لا يطيق وجودهم داخله كعنصر غريب ، وتقرَّر نقلهم إلى أي مكان خارج أوربا كعنصر نافع ، على أن تقوم أوربا (التي طردتهم) بحمايتهم ودعمهم وضمان بقائهم واستمرارهم وتوظيفهم لصالحها داخل إطار الدولة الوظيفية التي تتحرك في الفلك الغربي . فالدولة الصهيونية هي في نهاية الأمر تَحقُّق هذه الإمكانية الكامنة في الحضارة الغربية : العداء العرْقي لليهود والتحيز الصهيوني لهم . وقد استبطنت المادة البشرية اليهودية المُستهدَفة هذه الصيغة فهوَّدتها .

التحيز لليهود (حب السامية)

Philo-Semitism

«التحيز لليهود» ترجمة للمفهوم الكامن وراء الاصطلاح الإنجليزي «فيلو سيميتزم» ، والذي يعني حرفياً «حب السامية» أو «حب الساميين» ، وهو مصطلح شائع في اللغات الأوربية يشير إلى مشاعر الحب التي قد يشعر بها بعض الأغيار تجاه اليهود (مقابل («أنتي سيميتزم» والتي تعني «معاداة اليهود») . ومصطلح «حب اليهود» الذي نشير إليه بعبارة «التحيز لليهود» له من العمومية ما لمصطلح «معاداة اليهود» . فالموسوعات تورد أسماء حيرام ملك صور ، وقورش الأخميني ، والإسكندر المقدوني ، ويوليوس قيصر ، والإمبراطور الروماني جوليان ، وردريجير هاوتسمان أسقف سبير ، وإمبراطور ألمانيا فريدريك باربروسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفريدريك الثاني إمبراطور النمسا ، وكاسيمير الأعظم ملك بولندا ، على اعتبار أنهم جميعاً أصدقاء لليهود ومحبون لهم . وإذا نظرنا إلى كل اسم على حدة ، لوجدنا أن تحيُّزه لليهود (أو أعضاء الجماعات اليهودية في مصطلحنا) ينبع من مواقف تاريخية متباينة . فحيرام ملك صور كان يود تحسين علاقته مع سليمان ملك العبرانيين حتى تُتاح له فرص التجارة . وقورش الأخميني أعاد اليهود وغيرهم من الأقوام المهجَّرة ضمن سياسة الإمبراطورية الفارسية . أما الإسكندر الأكبر فليس له موقف محدد من اليهود ، وهو على كل لم يكن لديه سبب قوي لحبهم أو كرههم . أما يوليوس قيصر ، فكان مديناً لليهود لتأييدهم له في سياساته . أما أصدقاء اليهود في العصور الوسطى في الغرب ، فقد كان اهتمامهم ينصب في معظم الأحوال على اليهود باعتبارهم جماعة وظيفية وسيطة تُنشِّط التجارة وتحقق دخلاً كبيراً لهم .

ويمكن القول بأنه مع عصر النهضة والإصلاح الديني ، بدأ يظهر اهتمام خاص بالثقافة العبرية وباليهود في العالم الغربي . وبدأ التأكيد على أن اليهودية هي أحد مصادر المسيحية ، فبيَّن المفكر الهولندي هوجو غروتيوس المصادر المشتركة بين المسيحية واليهودية في كتابه **حقيقة المسيحية** . وألف لوثر كتاباً بعنوان **المسيح وُلد يهودياً** . وبدأ كثير من الكُتَّاب يهتمون بالتلمود وكتب القبَّالاه والتراث الديني اليهودي . وقد انعكس هذا الاتجاه ، في نهاية الأمر ، في ظهور القبَّالاه المسيحية ومصطلح «التراث اليهودي - المسيحي» الذي اكتسب شيوعاً كبيراً . كما ظهر الاهتمام بالموضوعات اليهودية والعبرية في الآداب والفنون الغربية ، وكان هذا أمراً جديداً إلى حدٍّ كبير . وظهرت معالجة إيجابية لشخصية اليهودي في أعمال ملتون وراسين وباسكال ورمبرانت وسكوت وبايرون وجورج إليوت وغيرهم من الكتاب .

وقد تزايد التحيز لليهود نتيجة عدد مترابط من الأسباب :

١ - طرح الإصلاح الديني في الغرب تصوُّراً جديداً للعلاقة بين الخالق والمخلوق بحيث يتم الخلاص لا من خلال الكنيسة وإنما من خارجها . وأصبح من حق الفرد المسيحي أن يفسر الكتاب المقدَّس بنفسه تفسيراً حرفياً يبتعد عن التفسيرات المجازية والرمزية التي تبنتها الكنيسة الكاثوليكية . وقد اكتسب الكتاب المقدَّس بشقيه (العهد القديم والعهد الجديد) أهمية خاصة في الوجدان الغربي ، وأصبح العهد القديم من أكثر الآثار الأدبية شيوعاً . وقد ساهم كل ذلك في تزايد الاهتمام بأعضاء الجماعات اليهودية وبميراثهم الديني في العالم الغربي .

٢ - منذ نهاية القرن السادس عشر ، ومع تعاظُم انتشار العقيدة البروتستانتية ، شهد العالم الغربي انتشار العقيدة الألفية التي تربط بين رؤية الخلاص وعودة اليهود إلى فلسطين .

٣ - ساهم ظهور الفكر المركنتالي ، الذي أكد أهمية النشاط التجاري، في الاهتمام باليهود كعنصر تجاري نشيط وكواحد من أهم عناصر التجارة الدولية .

٤ - شهد القرن السادس عشر بدايات حركة الاستيطان الغربية . ويبدو أن أسطورة الاستيطان الغربية والصورة الوجدانية الأساسية ، في مراحل الاستيطان الأولى على الأقل ، كانت أسطورة عبرانية . فقد كان المستوطنون البيض في كل أرجاء العالم ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم عبرانيين يخرجون من مصر (بلادهم الأصلية) ثم يصعدون إلى صهيون (البلد الجديد) ويهاجمون الكنعانيين (السكان المحليين) ويبيدونهم عن بكرة أبيهم . وكان المستوطنون الأمريكيون

يشيرون إلى أنفسهم على أنهم «أبناء العهد»، ويشيرون إلى القارة الأمريكية على أنها «صهيون الجديدة»، بل تم التفكير في تبنِّي العبرية كلغة رسمية للولايات المتحدة عند إعلان استقلالها .

٥ ـ انتشر في القرن الثامن عشر فكر الربوبيين، الذين كانوا ينادون بأن العقل قادر على الوصول إلى فكرة الخالق بدون حاجة إلى ديانات منزلة أو معجزات أو وحي خاص، وهو الفكر الذي تطوَّر ليصبح الفكر العلماني فيما بعد . وقد أظهر هؤلاء المفكرون الربوبيون والعلمانيون اهتماماً باليهود من حيث هم أعداء الكنيسة .

ويمكننا القول بأن الاهتمام بالتراث الديني لليهود لا يعني بالضرورة اهتماماً بهم كبشر . إذ كان كثير من المفكرين يهتمون بأبطال العهد القديم ويكنون، مع هذا، احتقاراً عميقاً لليهود بوصفهم جماعات دينية أو إثنية . بل إن عظمة التراث الديني اليهودي في رأي هؤلاء تقف شاهداً على مدى ضعة اليهود . كما أن مناداة المرء بمنح اليهود، وغيرهم من أعضاء الأقليات، حقوقهم السياسية كاملة يُعتبَر جزءاً من فلسفة سياسية ليبرالية عامة، وليس تعبيراً عن حب خاص أو تحيُّز لهم أو ضدهم . كما يمكن الاهتمام بالتراث الديني اليهودي كجزء من الاهتمام بتراث الديانات التوحيدية دون أي تركيز على اليهود ذاتهم، وخصوصاً أن علاقتهم بتراثهم الديني قد تآكلت إلى حدٍّ كبير .

ولذا، سنقصر استخدام مصطلح «التحيز لليهود» على هؤلاء الذين يعطون اليهود مركزية خاصة في رؤيتهم للعالم . ومن أهم هؤلاء اللورد شافتسبري (السابع)، ولورانس أوليفانت، ولورد بلفور، ممن يُطلَق عليهم مصطلح «الصهاينة غير اليهود» . وعند تحليل فكر هؤلاء، سنكتشف أنه فكر معاد لليهود وأن حبهم لليهود ومحاولة مساعدتهم على الهجرة إلى فلسطين هي أيضاً محاولة للتخلص منهم . فالهجرة، التي تُطرَح حلاً للمسألة اليهودية، وتتضمن توظيفاً لليهود باعتبارهم مادة بشرية، هي تهجير وطرد وترحيل . وربما كانت فكرة الشعب العضوي، الذي يُنبَذ بسبب عضويته، هي الأساس الفكري لهذا الحب/ الكره . والتركيز على اليهود كعنصر أساسي في أية عملية استيطانية هو علمنة لفكرة الشعب الشاهد الذي يقف على حافة التاريخ الغربي، والذي ليس له قيمة ذاتية في حد ذاته وإنما يكتسب قيمته بمقدار أدائه لوظيفته وبمقدار نفعه . وقد تبدَّى هذا الحب/ الكره في نهاية الأمر في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة .

شيلوك
Shylock

شخصية أساسية في مسرحية **تاجر البندقية** لوليم شكسبير، وهو يهودي يعمل بالربا . وقد أصبحت الكلمة جزءاً من المعجم الإنجليزي وتعني «الرجل الطماع الشره الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه» . ولا يُعرَف على وجه الدقة أصل هذا الاسم، فهو ليس اسماً يهودياً، ولذا تضاربت النظريات بشأنه، فيُقال إنه مأخوذ من كلمة «شيلوه»، ويُقال أيضاً إنه مأخوذ من كلمة «شالح» وهي شخصية يرد اسمها في سفر التكوين (١١/ ١٤ ـ ١٥) .

ويتسم الفكر العنصري بأنه فكر اختزالي، أي أنه فكر كسول، لا يكد ولا يتعب لكي يحيط بتركيبية الواقع وتعدُّد مستوياته، بل يقنع بإدراك هذا الواقع إما على مستوى واحد أو من خلال صورة إدراكية واحدة بسيطة أو صورة مجازية اختزالية ساذجة . فالعالم كله ذو بُعد واحد، وهو يشبه الساعة أو النبات الذي يتبع دورات طبيعية منتظمة، وهناك منهج واحد لإدراك كل الظواهر إنسانية كانت أم مادية، والبشر دوافعهم كلها مفهومة ويمكن تفسيرها من خلال عامل أو أكثر من العوامل المادية (فالإنسان يمكن رده إلى قوانين الطبيعة)، وكأن العالم (الطبيعة والإنسان) كيان أحادي مكوَّن من ذرات وأرقام، كما يتصور بعض الماديين السذج والعلماء البسطاء من دعاة الواحدية المادية الكونية .

ويتَّسم الأدب العظيم بأنه يرفض هذه الاختزالية والواحدية الكونية، ويحاول أن يعود بالإنسان إلى ذاته ليدركها ويُقدرها حق قدرها، ولذا فهو يقدم صورة للنفس البشرية باعتبارها كياناً مركباً إلى أقصى حدٍّ يستعصي على التفسيرات المادية البسيطة ولا يمكن أن ينضوي تحت القوانين العلمية الرتيبة . فالعالم بالنسبة للأديب العظيم لا يمكن أن يُختزَل في بُعد واحد أو أن يُردَّ إلى مستوى مادي واحد أو أن يسقط في صورة مجازية واحدة ساذجة . واللغة الأدبية المجازية تنفر من لغة الجبر والقوانين الهندسية لأنها تتعامل مع ظاهرة مركبة . وإذا كانت لغة الجبر لغة بسيطة لا تتحمل الإبهام، فلأنها لغة تهدف إلى وصف الأشكال الهندسية وحركة الكواكب وعلاقة الأرقام والذرات وكل ما هو محسوس وقابل للقياس . أما لغة الأدب، فتتعامل مع الإنسان في أفراحه وأتراحه، ومن ثم فهي لغة مجازية تحاول الإفصاح عن المفارقات والتعبير عن الشيء وعكسه في آن واحد وتتعامل مع المحدود واللا محدود والمتناهي واللا متناهي وما يُقاس وما يستعصي على القياس .

والأنماط الإدراكية العنصرية هي أنماط اختزالية تبسيطية تُعبِّر

عن كـل من يستخدمها ، فهي تختزل الآخر في كلمة أو كلمتين وفي صورة بسيطة وفي صورة مجازية أكثر بساطة ، فالآخر «غشاش» ولا يمكن الثقة فيه . والعالم سيصبح مكاناً جميلاً رائعاً فردوسياً لو اختفى منه هذا الآخر ، فالآخر هو الجحيم وهو مصدر كل التعاسة .

ومن أهم الأنماط الإدراكية الاختزالية للآخر ، والتي توجد في كل الأدبيات العنصرية في العالم ، صورة الآخر باعتباره «حريصاً على المال» و«شرهاً بطبعه» ، وهي صورة منتشرة عن الصينيين في جنوب شرق آسيا ، وعن الباكستانيين في إنجلترا ، وعن اليهود في أوربا والعالم العربي .

وهذه الصورة الإدراكية الاختزالية كثيراً ما يكون لها أساس في الواقع ، ولكن ما يفعله العقل العنصري هو أنه يعزل بعض التفاصيل عن واقعها المركب وعن أسبابها وملابساتها ويحولها إلى بنية مجردة ونموذج إدراكي معرفي يفسر به كل الأمور . ولنأخذ تهمة الحرص الزائد هذه التي يدعي العنصري أنها صفة لصيقة بطبيعة الآخر . لو دقق العنصري الاختزالي قليلاً لاكتشف أن الصينيين والباكستانيين أهل كرم في بلادهم ، وأن عقائدهم الدينية تشجع على السخاء وإكرام الضيف ، ولذا فالحرص المتطرف ليس أمراً كامناً في طبيعة الصينيين أو الباكستانيين أو في عقائدهم الدينية ، وإن وُجد مثل هذا الحرص الشديد فيهم فلابد من البحث عن مصدره في مكان آخر . ولو دقق صاحبنا العنصري قليلاً لاكتشف أن هؤلاء الباكستانيين والصينيين واليهود يعيشون في بلاد غير بلادهم ، وأن إحساسهم بالأمن يكون عادةً ضعيفاً بينما يتزايد إحساسهم بالخطر ، وعادةً لا يكون لهؤلاء الغرباء علاقة بالأرض أو الثوابت في المجتمع إذ أن كيانهم ووجودهم في المجتمع يستند إلى الدور الذي يلعبونه وإلى الوظيفة التي يضطلعون بها وإلى الثروة التي يراكمونها ، ولذا يصعب عليهم أخذ موقف متسامح من المال .

كما أن هذا الصيني الشره في علاقته مع الأغلبية ، عادةً ما يكون سخياً جداً مع أعضاء جماعته ومع وطنه الأصلي إن وُجد . فكأن هذا الصيني الشره ، في علاقته مع الأغلبية في المجتمع المضيف، هو نفسه الصيني السخي في علاقته مع أعضاء جماعته . ويختزل العنصري كل هذا ويأبى إلا أن يركز على عنصر واحد منتزع من ملابساته الاجتماعية ولحظته التاريخية ومنفصل عن كل زمان ومكان .

وقد قام شكسبير بتناول هذا النمط الإدراكي الاختزالي العنصري في شخصية شيلوك في مسرحية تاجر البندقية . ولكن تناول شكسبير لهذا النمط الإدراكي هو نموذج جيد للأدب العظيم الذي يتجاوز كل محاولات الاختزال التي يتسم بها الفكر العنصري، فهو يقدم تصويراً مركباً لهذه الشخصية الأمر الذي جعل النقاد يقدمون تفسيرات عديدة لأبعادها وأصلها ودلالتها ويركز كل تفسير على بُعد واحد أو بُعدين ، مع أن كل العناصر متداخلة . ولكن هذه هي حدود اللغة النقدية : إنها تقوم بتفكيك العمل الأدبي ثم تركيبه ، فتقدم كل عنصر على حدة ، وكأنه مستقل بذاته ، على عكس العمل الأدبي الذي يقدِّم العناصر كافة في تداخُلها وتركيبيتها وتزامنها . ورغم إدراكنا لهذه العناصر كافة ، إلا أننا سنقوم بتقديم هذه التفسيرات المختلفة ، كلاً على حدة ، على أن يقوم القارئ برؤيتها في تلاحمها وتمازجها . ولن نُقدِّم هنا قراءة أدبية للنص ذاته ، مسرحية تاجر البندقية ، وإنما سننظر إلى النص باعتباره تعبيراً عن مواقف إنسانية متباينة متنوعة تُعبِّر عن نفسها خلال مستويات مختلفة (اجتماعية وفلسفية ونفسية وتاريخية وأدبية) أي أن اهتمامنا ليس أدبياً صرفاً ، إذ أننا سنستخدم النص في دراسة هذه المواقف الإنسانية . ورغم أن دراستنا ليست أدبية خالصة ، إلا أنها ستنير العمل الأدبي :

١ ـ التفسير التاريخي : من المعروف أنه لم يكن يوجد يهود في إنجلترا زمن كتابة المسرحية (في أواخر القرن السادس عشر الميلادي ـ حوالي ١٥٩٧) إلا بعض يهود المارانو الذين كانوا يقيمون هناك . ويُقال إن رودريجيز لوبيز ، طبيب الملكة إليزابيث ، والذي اتُهم بالتآمر ضدها ثم أُعدم ، هو النموذج الذي استخدمه شكسبير (وكان عدو رودريجيز لوبيز هو دوم أنطونيو ، ومن هنا نجد أن أنطونيو هو أهم شخصية في المسرحية وعدو شيلوك اللدود) . ولكن المؤرخ الأمريكي اليهودي سيسل روث يذهب إلى أن شيلوك يهودي إشكنازي من البندقية . وكانت البندقية تضم في ذلك الوقت ثلاثة أنواع من اليهود كان يُشار إليهم باسم «الأمم الثلاث» : سفارد الشام والمارانو والإشكناز . وكان مصرحاً للسفارد والمارانو بالعمل في التجارة المحلية والدولية وكانوا يمتلكون السفن التجارية ويتاجرون مع الشام . أما الإشكناز ، فكان ممنوعاً عليهم الاتجار ، بل لم يكن مسموحاً لهم إلا بالعمل بالربا وبيع الملابس القديمة (وهي وظيفة مرتبطة تماماً بالربا) .

٢ ـ التفسير الطبقي : يذهب بعض النقاد إلى أن أعضاء الأرستقراطية الإنجليزية الزراعية (الإقطاعيون) ، وكثيرون منهم كانوا يرتادون مسرح جلوب الذي كانت تُعرَض فيه مسرحيات شكسبير ، بدأوا يشعرون بآثار الثورة التجارية وبنمو اقتصاد المدن

والتضخم الذي صاحب ذلك ، الأمر الذي زاد من نفقاتهم ، ولكن لم تكن لديهم الكفاءات اللازمة للاستثمار التجاري باستثناء أقلية صغيرة منهم . ولهذا ، بدأت ديونهم تزداد أكثر فأكثر . وفي الوقت نفسه ، بدأت القيم التجارية التعاقدية تسود في المجتمع وتحل محل قيم الشرف والكرم والأبهة التي كان يؤمن بها هؤلاء الإقطاعيون . ويُجسِّد أنطونيو في المسرحية المذكورة الأخلاقيات الأرستقراطية ، فهو كريم يقرض أمواله بدون فوائد ، يعيش حياة مسرفة ولكنه ليس تاجراً بمعنى الكلمة لأنه غير مشغول بتراكم رأس المال . وهكذا ، فإن أنطونيو يقف على الطرف النقيض من شيلوك عضو الجماعة الوظيفية المالية الذي لايدين بالوفاء إلا لقيمة التراكم ولا يدين بالولاء إلا للمال . ويعرِّف شيلوك الخير تعريفاً نفعياً مادياً حينما يشير إلى أن أنطونيو لديه من الممتلكات ما يسمح له برد الدين ، فكأن حكمه عليه حكم مالي إجرائي ينزع عنه أية قداسة وينظر إليه بشكل موضوعي كمي غير تراحمي . ومقابل العلاقة الحميمة وكلمة الشرف التي يؤمن بها الأرستقراطيون ، هناك العلاقات الموضوعية التعاقدية التي تؤمن بها الطبقة التجارية الجديدة والتي يدافع عنها شيلوك في المسرحية .

٣ ـ التفسير الديني الاقتصادي : وهناك بعد ديني اقتصادي يتمثل في ظهور جماعات البيوريتان البروتستانت من عناصر البورجوازية الجديدة النشطة المؤمنة بتعاليم كالفن ، والتي حوَّلت الزهد المسيحي في الدنيا من أجل الآخرة إلى زهد داخل الدنيا من أجل تراكم رأس المال ، علامةً على الخلاص في الآخرة . ولذلك ، كان هؤلاء يكرهون الملذات والإنفاق وارتياد المسرح والمسرات . ويجيء شيلوك ، في هذه المسرحية ، رمزاً لهذه القطاعات المتزمتة الملتزمة بالتراكم وحسب والتي تنكر العلاقات الإنسانية وخلاص الروح حتى تحقق تزايد الثروة . ولم يكن شكسبير مخطئاً على الإطلاق ، فبعد فترة وجيزة استولى هؤلاء على الحكم في ثورة كرومويل وأغلقوا المسارح كليةً . وكان من المألوف آنذاك أن يتم الربط بين غلاة البروتستانت واليهود .

٤ ـ التفسير اللاهوتي : ولكن هناك بعداً دينياً خالصاً ، فقد أشاع العهد الجديد صورة سلبية للغاية عن الفريسيين (وهي فرقة دينية يهودية ظهرت أيام المسيح) ، وفي هذه المسرحية ارتبطت هذه الصورة باليهود بصورة واضحة تماماً . ويمثل شيلوك الفريسي بالدرجة الأولى ، فهو يحترم حرفية القانون لا روحه ، وهو بلا عاطفة ، كما أنه يجيد استخدام الكتاب المقدَّس لتبرير أفعاله (وهي تهمه وجهها المسيح إلى الفريسيين) . وأخيراً ، ارتبط الفريسيون في الوجدان المسيحي بأنهم المحرضون الحقيقيون على صلب المسيح . ومن هنا ، فإن شيلوك يُماثل الفريسيين ، حين يطالب برطل اللحم ، أما أنطونيو فهو كالمسيح إذ يمثل حَمَل الإله الذي سيُقدَّم للذبح .

بل إن العلاقة بين شيلوك وأنطونيو هي مثل العلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد كما يرى المسيحيون . فاليهودية تمثل لاهوت العدل دون رحمة ، ومن ثم أصبح التعاقد والميثاق مسائل مركزية في العقيدة اليهودية . ولكن العدل بدون رحمة ، حسب رأي المسيحيين، لن يؤدي إلى خلاص . ولهذا ، فإن المسيحية هي لاهوت الرحمة التي لا يمكن للإنسان بدونها أن يصل إلى الخلاص . والمسيحية ترى أن العهد الجديد أكمل العهد القديم بل ربما حل محله ونسخه ، وأصبحت الرحمة لا العدل هي الهدف . وقد أنكر اليهود المسيح واستمروا حبيسي العهد القديم ولاهوت العدل والقانون والتعاقد ، ولكنهم يذوقون في نهاية الأمر أشد ألوان العذاب ويعانون في الدنيا ، وبذلك فإنهم يقفون شاهداً على عظمة المسيحية والكنيسة . ومن هنا ، فإن شيلوك يجسد العنصر اليهودي كما يجسد التعاقدية ولاهوت العدل ، في حين يقف أنطونيو ممثلاً للمسيحية والرحمة ولاهوت المحبة .

ومع هذا ، يُعطي شكسبير الفرصة لشيلوك ليُحاكم المسيحيين من منظور لاهوت الرحمة ، هذا الذي يدَّعون إيمانهم به ، فيُذكِّرهم بما كانوا يلحقونه به من أذى . كما يعطيه الفرصة للحديث عن الجوانب الإيجابية في فكرة التعاقد ولاهوت العدالة ، فالإيمان بالتعاقد وبالعدل هو أيضاً إيمان بأن النفس البشرية ليست منزهة عن الهوى ، وأن الأمور لو تُركَت للمحبة وحسب ، لاختلط الحابل بالنابل لتحولت القيم الأخلاقية ، ذات البُعد الاجتماعي ، إلى تجارب نفسية شعورية . ويمكن القول بأن شكسبير يقترح علينا نموذجاً يجمع بين القانون والرحمة وبين العدالة والمحبة وبين التعاقد والتراحم وبين الذات والموضوع وبين الفرد والمجتمع .

٥ ـ الجماعة الوظيفية : وقد اختلف النقاد في تفسير موقف شكسبير من شخصية شيلوك : هل هو يتعاطف معه جداً أم أنه يرفضه تماماً؟ وهل شيلوك شيطان رجيم يجب أن نفرح لسقوطه ، أم أنه ضحية المجتمع المسيحي المستغل ؟ وربما أمكن حسم هذه القضية بالتأكيد على هوية شيلوك كعضو في جماعة وظيفية أوكل لها المجتمع الاضطلاع بوظيفة الربا الذي يؤدي إلى دمار أعضاء المجتمع ، أي أنه أداة دمار . ولكن عضو الجماعة الوظيفية لم يختر وظيفته ، فوظيفته هي قدره ومصيره الذي اختير له . ومن ثم ، فإن ما يقوله شيلوك عن نفسه باعتباره إنساناً أُهدرت إنسانيته هو أمر حقيقي ، كما أن ما يُقال

من أنه أداة استغلال صماء لا تدخل في علاقة إنسانية مع البشر وتحاول هدمهم هو أيضاً أمر حقيقي . وهذه الصورة المزدوجة التي يتحدث عنها بعض النقاد هي ، في واقع الأمر ، ازدواجية تُعبِّر عن علاقة أعضاء الجماعة الوظيفية بأنفسهم وبالمجتمع ، فهم بشر في علاقتهم بأنفسهم وهكذا يرون أنفسهم ، وهم أدوات في علاقتهم بالمجتمع وهكذا يراهم المجتمع . والواقع أن شكسبير ، وكُتَّاب آخرون من بعده ، حاولوا أن يتعاملوا مع هذه العلاقة في تركيبيتها الصلبة وثنائيتها الحادة .

وشيلوك شخصية فنية تأتي ضمن سلسلة طويلة من الشخصيات الفنية رسمها الفنان الغربي لليهود قبل بعد **تاجر البندقية** (فاليهودي جزء لا يتجزأ من الخطاب الغربي في مشوار اكتشافه لذاته وتحديدها) . ومن أهم الشخصيات الفنية الأخرى شخصية باراباس في مسرحية مارلو **يهودي مالطة** (وهو شيطان صرف لا يتسم بازدواجية شيلوك) . وهناك شخصية اليهودي في رواية وولتر سكوت **إيفانهو** ، وشخصية فاجين في قصة ديكنز **أوليفر تويست** ، وشخصية **دانيل ديروندا** في رواية جورج إليوت التي تحمل هذا الاسم ، والشخصيات اليهودية المختلفة في روايات دزرائيلي . وتوجد إشارات مختلفة في الشعر الإنجليزي ، عن اليهود ، منذ القرن التاسع عشر ، على وجه الخصوص . ويُقال إن الشخصية الأساسية في قصيدة «الملاح القديم» لكوليردج هي أساساً اليهودي التائه . ويتراوح الموقف من اليهود في الأدب الإنجليزي (وفي الآداب الغربية عامة) بين الكره الشديد والحب العميق ، بين النبذ والتقديس ، وكلاهما موقف يستند إلى فكرة الشعب العضوي المنبوذ حيث تتم رؤية أعضاء الجماعات اليهودية لا باعتبارهم بشراً ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإنما باعتبارهم كياناً عضوياً متماسكاً غير منتمٍ للمجتمع ومن ثم لابد من طرده .

وتوجد الظاهرة نفسها في الأدب الأمريكي . ولعل من أهم الكُتَّاب الأمريكيين المعادين لليهود الشاعر عزرا باوند الذي وصل في بعض كتاباته إلى رؤية اليهود كشياطين مسئولين عن كل شرور العالم .

فيودور دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١)

Foyodor Dostoyevsky

روائي روسي ، ومن أهم الروائيين العالميين على الإطلاق . كان موقفه من أعضاء الجماعات اليهودية يتسم بالعنصرية الشديدة . وهناك إشارات عديدة لأعضاء الجماعات اليهودية في كتابات دوستويفسكي غير الروائية ، كما أن هناك إشارات هنا وهناك في أدبه الروائي ، حيث توجد شخصيات يهودية في بعض رواياته ، خصوصاً في **بيت الموتى** (١٨٦١) وهي رواية عن تجربة سجين (غير سياسي) في معتقل في سيبريا ، وورد فيها وصف لسجين يهودي يقيم كل شعائر دينه بحرص شديد . ولكن أهم النصوص التي عبَّر فيها دوستويفسكي عن وجهة نظره العنصرية بشكل واضح ومباشر هي **يوميات كاتب** . ولا يختلف التناول الروائي لدوستويفسكي لليهود عما جاء في يومياته . وهذا يثير إشكالية كبرى وهي كيف يمكن لأديب ، صاحب رؤية إنسانية في أدبه ، أن يتسم موقفه المباشر والمعلن من أقلية دينية أو عرْقية بهذه العنصرية والاختزالية وضيق الأفق . وهذا ما سنحاول تفسيره (لا تبريره) .

ولنبدأ دراستنا بمحاولة استخلاص رؤية دوستويفسكي لليهود كما وردت في **يوميات كاتب** . كان دوستويفسكي يشير إلى اليهود بكلمة «جيد Zhid» الروسية التي تحمل مضموناً قدحياً ، ويرفض استخدام كلمة «يفري Yevrey» أي «عبري» التي تُعَدُّ أكثر حياداً . وكان يذهب إلى أن اليهود شعب واحد له تاريخ يمتد لأربعة آلاف عام ، وهو شعب حيوي طاقته لا تنتهي نجح في الاحتفاظ ببقائه وتماسكه ، ولذا كان يشير إليهم باعتبارهم «القبيلة اليهودية» التي يعيش أفرادها فيما يسميه «حالة الجيتو» ، يربطهم «ميثاق الجيتو» ، وهو ميثاق يطالبهم بعدم إظهار الرحمة نحو الغير وبالتعالي عليهم وبالعيش في عزلة عن كل الشعوب عبر آلاف السنين . ومن أهم عقائد هذا الشعب ـ حسب تصور دوستويفسكي ـ عقيدة الماشيَح ذات المضمون القومي ، وهي عقيدة تذهب إلى أن المسيح المخلِّص اليهودي سيعود ويقود شعبه إلى القدس مرة أخرى ويمنحهم إياها ويرمي جميع الشعوب تحت أقدامهم . وهذا الشعب اليهودي تحركه القسوة والرغبة في شرب الدماء ، ولذا فهم يعملون بالتجارة ، خصوصاً تجارة الذهب ، ويديرون البورصات ويستغلون الطبقات الفقيرة ، خصوصاً الأقنان . ويجأر اليهود بالشكوى من المعاناة التي يلاقونها في روسيا ، ويدَّعون أنهم غير متساوين في الحقوق مع الروس ، مع أن معاناة الأقنان الروس تفوق كثيراً معاناة اليهود .

واليهود ـ حسب رأي دوستويفسكي ـ يوجدون في كل مكان ، فهم يوجدون داخل التشكيل الاستعماري الغربي ويهيمنون على الرأسمالية الغربية ، وهم بطبيعة الحال موجودون في كل الحركات الاشتراكية والثورية والفوضوية والعدمية . وقد جعل اليهود همهم إفساد الشعب العضوي الروسي إذ كانوا يقومون ببيع الكحول لهم وبالشرب من عَرَقهم ودمهم . وحينما أُعتق الأقنان ، انقض عليهم

اليهود واستغلوهم واستفادوا من هفواتهم الإنسانية . وهم في استغلالهم للناس لا يتسمون بالرحمة ، فاستغلالهم للأقنان لا يختلف كثيراً عن استغلالهم للزنوج في الولايات المتحدة بعد إعتاقهم .

ويرى دوستويفسكي أنه حتى لو أُعطيت لليهود حقوقهم كاملة، فإنهم لن يتنازلوا قط عن أن يكونوا دولة داخل دولة . وهم يفعلون ذلك لأن مصالحهم مستقلة عن مصالح المجتمعات التي يعيشون في كنفها . بل إنه يرى أن هناك مؤامرة يهودية عالمية عبر التاريخ لخدمة المصالح اليهودية المستقلة وللدفاع عنها . فهو يشير إلى دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا باعتبار أن دفاعه عن الدولة العثمانية ضد روسيا وهو تعبير آخر عن المؤامرة اليهودية الأزلية ضد روسيا وعن المصالح اليهودية المستقلة (وهذا يختلف تماماً عن موقف المدافعين عن فكرة المؤامرة عندنا إذ يرى هؤلاء أن اليهود هم المسئولون عن سقوط الدولة العثمانية دفاعاً عن المصالح اليهودية) . ويتجاهل دوستويفسكي حقيقة بسيطة واضحة وهي أن دزرائيلي كان يدافع عن الدولة العثمانية ضد روسيا لا حباً في الدولة العثمانية وإنما نكاية في روسيا وحتى تظل عنصر توازن معها ، وتمنعها من التوسع ، الأمر الذي قد يضر بالمصالح الإمبريالية البريطانية .

وفي الماضي ، كان استغلال اليهود للآخرين أمراً تدينه العقيدة المسيحية ، ولكن حدث تطوُّر في المجتمعات الغربية إذ أصبحت هذه المجتمعات تؤمن بمذهب المنفعة المادية . ويميِّز دوستويفسكي بين اليهود وروح اليهودية (وهو في هذا لا يختلف عن ماركس وعن كثير من المفكرين الغربيين في القرن التاسع عشر) ، فقد يوجد يهود طيبون ومع هذا تظل روح اليهودية هي المنفعة المادية . وقد انتشرت هذه الروح اليهودية النفعية المادية في المجتمع المسيحي بحيث أصبح الاستغلال فضيلة (يتحدث ماركس عن "تهويد المجتمع" بهذا المعنى) .

وإذا كانت الروح اليهودية هي الروح النفعية المادية ، فإن حلقات المؤامرة اليهودية أصبحت على وشك الاكتمال ، كما أن حكم اليهود للعالم اقترب وهيمنتهم الكاملة أصبحت أمراً وشيكاً . وقد لخص دوستويفسكي المسألة كلها بقوله إن ثمة تناقضاً أساسياً بين الفكرة السلافية (الروحية المسيحية) والفكرة اليهودية (المادية العلمانية) ، وصعود الفكرة اليهودية يعني تراجُع الفكرة السلافية ، أي أن اليهودي هو الآخر الذي لابد من القضاء عليه !

ويمكننا الآن أن نطرح السؤال التالي : كيف يمكن أن يعتنق أديب إنساني مثل دوستويفسكي مثل هذه الآراء التي لا تختلف كثيراً عما ورد في بروتوكولات حكماء صهيون وكتاب هتلر كفاحي ؟ لمحاولة تفسير هذه الظاهرة ، يمكننا أن نشير إلى بعض الأسباب ، بعضها خاص بدوستويفسكي ورؤيته للكون والبعض الآخر خاص بالمجتمع الروسي ككل وبوضع اليهودية فيه وموقف الروس منهم ، ولنبدأ برؤية دوستويفسكي للكون :

١ ـ كان دوستويفسكي يرى أن روسيا قد تكون امتداداً لأوربا ولكنها في الوقت نفسه نقيضها . ورغم إيمانه بأن روسيا مدينة لأوربا إلا أنه يرى أن "المرحلة الأوربية" في تاريخ روسيا قد انتهت ، وأن أوربا تمثل الماضي ، بينما تمثل روسيا المستقبل .

٢ ـ والغرب ، من منظور دوستويفسكي ، دمرته المادية والقيم الديموقراطية وضمور الحس الخلقي وظهور النفعية والتمركز حول الذات .

٣ ـ كان دوستويفسكي يؤمن بالرسالة الأزلية لروسيا . فكل أمة ، حسب وجهة نظره ، لابد أن ترى أن خلاص العالم يكمن في خلاصها هي ، وأن هدفها لابد أن يكون توحيد شعوب العالم كافة تحت قيادتها (أي أنه كان يؤمن بحتمية المشيحانية السياسية) .

٤ ـ من أهم أفكار دوستويفسكي فكرة الشعب العضوي (بالروسية : نارود) . فالشعب الروسي ، حسب رأيه ، شعب مرتبط بأرض روسيا الأم يستمد منها الطهر والأصالة ، وهو شعب لم تفسده الحضارة الغربية بعد ولم يسقط في القيم التي دمرت هذه الحضارة . وهذا لا يعني عدم وجود فساد في روسيا وإنما يعني أن الفلاح الروسي حينما يرتكب الخطيئة يعرف أنها خطيئة ، فهو لم يفقد بعد مقدرته على التمييز بين الخير والشر (أي أن حسه الخلقي لم يتم تحييده تماماً) .

٥ ـ وتشكل الكنيسة الأرثوذكسية (أطهر أشكال المسيحية) الإطار الديني لهذه الرؤية الكونية ، كما تشكل الجامعة السلافية الإطار الحضاري أو العرْقي لها . ولذا ، فإن مستقبل العالم منوط بإرادة النارود الروسي تحت رعاية الكنيسة الأرثوذكسية وبقيادة القيصر .

وفي مقابل هذه المنظومة الدائرية المتماسكة التي يتداخل فيها الديني والقومي ويحل فيها الإله في الأرض الروسية والشعب الروسي ، ينظر دوستويفسكي إلى الآخر الذي يقع خارج دائرة القداسة ويرفضه : وقد عرَّف الآخر بأنه أوربا الملحدة ، والكاثوليك، والنظام الرأسمالي ، والثورات الاشتراكية ، ولكنه بالدرجة الأولى اليهود . فاليهود هنا ليسوا يهوداً وإنما هم النظام الجديد في العالم الحديث الذي يستند إلى البيع والشراء والمساومة والقيم البرجماتية ولا يعرف المثاليات أو المطلقات الأخلاقية . ولعل

من المفيد الإشارة إلى أن علم الاجتماع الألماني يميِّز بين الجماينشافت (الجماعة المترابطة العضوية) والجيسيلشافت (المجتمع التعاقدي الحديث) . واليهودي هو رمز هذا المجتمع التعاقدي بشقيه الرأسمالي والاشتراكي .

ولا يمكن فهم موقف دوستويفسكي وحدوده إلا بفهم وضع اليهود في روسيا والموقف الروسي منهم والذي يتمثل فيما يلي :

١ ـ كره اليهودي أمر متجذر ومتأصل في الوجدان الروسي (والسلافي على وجه العموم) . فمسرح العرائس الشعبي كان يحوي شخصية اليهودي الجشع الجبان (رغم عدم وجود عدد يُذكَر من اليهود في روسيا) . ولعل هذا الكره لليهود يعود إلى أيام إمبراطورية الخزر اليهودية التركية التي هددت الروس وأخضعتهم لهيمنتها . كما أن العداء التقليدي بين روسيا وتركيا (نظراً لأن صعود الواحد مرتبط تاريخياً بهبوط الآخر) لعب دوراً في ذلك ، خصوصاً أن الوجدان الغربي كثيراً ما يربط بين اليهود والمسلمين (ولذا ، ربط دوستويفسكي بين دزرائيلي اليهودي والعثمانيين) .

٢ ـ ومع ظهور الأدب الروسي الحديث ، ظل هذا النمط الإدراكي مسيطراً إلى حدٍّ بعيد . ومما زاده حدةً ، ضم روسيا لبولندا ولملايين اليهود . والملاحَظ أن مطامح الأرستقراطية الروسية في السيطرة على الريف ، والأحلام الرجعية الروسية المتصلة بقضية الشعب (نارود) كشعب عضوي راض بوضعه ، متسم بالهدوء والاتزان ، ارتطمت كلها بوجود اليهود كعنصر تجاري متحرك داخل الريف الروسي . وحيث إن كثيراً من الكتّاب الروس الأوائل كانوا من الأرستقراطية ، فقد سادت الأنماط المعادية لليهود . ويتضح هذا في موقف أساطين الأدب الروسي ، مثل : تورجنيف (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) وجوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) بل تولستوي الذي كان يهاجم معاداة اليهود باعتبارها تتناقض مع ما ينادي به من ضرورة حب البشر ، ولكنه كان في أماكن أخرى من كتاباته يُظهر موقفه الأرستقراطي الروسي المعادي لليهود . كما ظهر العداء لليهود في كتابات الأدباء النارودنيك مثل نيقولاي بيكراسوف (١٨٤١ ـ ١٨٧٨) وفيودور ريشتنكوف (١٨٤١ ـ ١٨٧١) . وقد تم الهجوم على اليهودي باعتباره مستغلاً للجماهير المسحوقة .

ولعل تشيخوف (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) من الكتّاب الروس القلائل الذين تناولوا شخصية اليهودي تناولاً يتسم بشيء من التعاطف . أما في الأدب السوفيتي ، فقد كانت صورة اليهودي إيجابية على وجه العموم (بما يتفق مع الخط الرسمي للحزب) ، ولا تثير أية مشاكل خاصة . (ومع هذا ، صدرت كتيبات سوفيتية ذات طابع عرقي واضح هي مجرد استمرار للموقف الروسي القديم . كما أن تصريحات بعض القادة السوفييت كانت تنحرف أحياناً عن خط الحزب وتُعبِّر عن الأنماط الإدراكية العرقية القديمة . بل إن بعض سياسات السوفييت لا يمكن تفسيرها إلا باعتبار أنها سياسة معادية لليهود) .

٣ ـ كان المستوى المعيشي لأعضاء الجماعات اليهودية أعلى على وجه العموم من مستوى كثير من الفلاحين الروس ، كما أن مستواهم التعليمي كان أعلى بكثير من مستوى الأغلبية (الروسية) . كما حقق بعض اليهود (مثل عائلة بولياكوف وجونزبرج) ثراءً واضحاً .

٤ ـ كان اليهود في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جماعة وظيفية فقدت وظيفتها وأساس بقائها . ومن ثم ، كان أعضاؤها في حالة تَراجُع أخلاقي وحضاري هائلة . فتركَّزوا في مهن وحرف هامشية (عادةً مشينة) مثل تقطير الخمور وإدارة الحانات وبيع الملابس القديمة ، كما كان عدد البغايا اليهود مرتفعاً إلى درجة كبيرة . وكان عدم تحدُّد ولاء أعضاء الجماعات اليهودية لروسيا أمراً مفهوماً ، حيث كانوا عبر تاريخهم تابعين لبولندا عدو روسيا الأكبر . كما كانوا يتحدثون اليديشية ، وهي لغة عدوهم الآخر : ألمانيا . ولذا ، نجد أن صورة اليهودي كجاسوس صورة متواترة في الأدب الروسي . وهي صورة ذات أساس «مادي صلب» . وما لم يدركه دوستويفسكي وغيره أن هذه الحالة اليهودية لم تظهر إلى الوجود إلا في منتصف القرن التاسع عشر ، وأنها مرتبطة بعمليات التحديث في الإمبراطورية القيصرية ، أي أنها مرتبطة بزمان ومكان محددين ، ورغم أن يهود الإمبراطورية الروسية القيصرية كانوا يشكلون الغالبية الساحقة من يهود العالم ، إلا أن حالتهم الخاصة لا يمكن تعميمها .

وقد كتب تورجنيف قصة قصيرة بعنوان **اليهودي** (١٨٤٧) تُعبِّر بشكل مباشر عن هذا الاشمئزاز من اليهود ، فبطل القصة يُعدَم بعد اتهامه بالجاسوسية . وهذا الموقف لا يختلف كثيراً عن موقف جوجول (١٨٠٩ ـ ١٨٥٢) في **تاراس بولبا** التي تقع أحداثها إبان حرب البولنديين والقوزاق . وتشتمل الرواية على وصف ليهودي صاحب حانة يتسم سلوكه بأنه مرتزق خائن يُشَك في أنه جاسوس للبولنديين (وقد ظهر الموضوع نفسه ، أي اليهودي كجاسوس ، في إحدى قصص الكاتب اليهودي الروسي السوفيتي إيزاك بابل بعنوان «بريستشكو» في مجموعة **الفرسان الحمر**) .

٥ ـ لم تكن عملية التحديث تتم بسرعة كافية في روسيا ، ولذا ظهرت الأمور وكأن اليهود يبذلون قصارى جهدهم للحفاظ على هويتهم والانسحاب من المجتمع الروسي .

٦ ـ كان اليهود متواجدين بالفعل في صفوف الثوريين (تروتسكي) والرأسماليين (جونزبرج) والرجعيين (ستاهل) والمسيحيين (شستوف). كما كان لهم وجود ملحوظ في كل قطاعات المجتمع العلماني الجديد، الوضع الذي يعطي انطباعاً للمراقب السطحي بوجود اليهود في كل مكان وتآمرهم على كل القيم.

٧ ـ كان دوستويفسكي وكل الإنتلجنسيا (بل البيروقراطية الروسية) يعانون من جهل شديد بأحوال اليهود. ويعود هذا إلى أن دخول روسيا كان محرَّماً على اليهود حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولذا لم تكن توجد في روسيا أعداد تُذكَر من اليهود. ثم ضمت روسيا أوكرانيا وبولندا في ذلك التاريخ وضمت مع الأراضي أكبر تجمُّع يهودي على وجه الأرض، وهو تجمُّع كان يتحدث اليديشية وكان له وضع اقتصادي وحضاري متميِّز.

ورغم جهل دوستويفسكي الشديد بالحقائق التاريخية المتنوعة، قام بالتعميم استناداً إلى معرفته المقصورة على زمان ومكان محددين، فأصبح يهود روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هم اليهود كافة، واليهود في كل زمان ومكان. وهذه هي الطريقة التي تُولَد بها الأنماط الإدراكية العنصرية. ودوستويفسكي هو ابن عصره الغربي الذي هيمن عليه فكر عنصري إمبريالي (بالمعنى الحرفي)، يقسم العالم إلى عنصرين اثنين متصارعين (الأنا والآخر)، فيقدِّس الذات ويهدر حقوق الآخر، ولا يدخل في علاقة مركبة مع التاريخ وإنما يجتزئ منه ليدعم وجهة نظره العرْقية. وهذا ما فعله دوستويفسكي وهتلر، والعنصريون كافة قبلهما وبعدهما (وقد لاحَظ أحد الدراسين، بالفعل، السمات المشتركة بين هتلر ودوستويفسكي).

ثم نأتي أخيراً للقضية التي طرحناها في بداية هذا المدخل: التناقض بين رؤية دوستويفسكي الإنسانية العالمية، والتي تتبدى أساساً في أعماله الأدبية، وموقفه العنصري الضيق تجاه اليهود. ودهشتنا لهذا التناقض مردها وهمان آخران:

١ ـ يُسيطر علينا تصوُّر مفاده أن ثمة اتساقاً عضوياً وتكاملاً في حياة البشر، وأن كل إنسان يتبع منطقاً واحداً في حياته. وتبعاً لهذا التصوُّر، لا يمكن أن يكون فرد واحد إنساناً عامر الإنسانية مع بني جلدته وقبيلته، متوحشاً بالغ الوحشية مع مجموعة إنسانية أخرى، ورغم أن هذا التصور منطقي، فإنه أبعد ما يكون عن الحقيقة المتعيِّنة. فالوجود الإنساني يتسم بالتناقض والتركيب، ويجتمع في داخل الإنسان الواحد الخير والشر والنبل والخسة.

٢ ـ يُسيطر علينا أيضاً تصوُّر أن ثمة ارتباطاً (يكاد يكون عضوياً أيضاً) بين الحس الخلقي والحس الجمالي. ومرة أخرى، فإن هذا التصور المنطقي المجرد أبعد ما يكون عن الحقيقة المتعيِّنة. انظر مثلاً إلى أعمال الشاعر الأمريكي روبرت فروست، هنا نجد قصائد رائعة الجمال ترتبط فيها فكرة النظام بالمعنى الجمالي بفكرة النظام بالمعنى الأخلاقي، ولكن يُقال إن حياة هذا الشاعر الشخصية تتسم بكثير من القسوة والوحشية تجاه أقرب أقاربه. ويمكن أن يكتب أديب عملاً فنياً في غاية الرقي الفني ولكنه يدعو إلى الانحطاط. إن الحق والجمال أمران مختلفان، وهو أمر لا شك محزن، ولكن هذه هي سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا. وعلينا أن نتأمل بشيء من التفلسف حينما نعرف أن ضباط فرق الصاعقة النازية كانوا يستمعون إلى موسيقى فاجنر الراقية ويناقشون الأعمال المعمارية الضخمة التي يشيِّدها النظام النازي وهم يشمون رائحة لحم ضحايا المحرقة النازية التي تشوى ضحاياهم. وانظر إلى القاهرة ذاتها تجد أن بعض أجمل المباني شيدها الإنجليز، هؤلاء الذي جيشوا الجيوش وأرسلوا بها إلى بلادنا لتنهبها وتحولها إلى مصدر لفائض القيمة الذي يصبّ في خزائن الإمبراطورية البريطانية.

إدوارد/ادولف درمون (١٨٤٤-١٩١٧)

Edouard-Adolphe Drumont

صحفي فرنسي، وواحد من أهم المفكرين المعادين لليهود في الحضارة الغربية. عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا، وهو عصر الهيمنة الأوربية على العالم واقتسامه بين القوى الإمبريالية المختلفة، وكان معروفاً باتجاهاته اليسارية في مقتبل حياته الصحفية. وقد اضطر درومون إلى الاستقالة من صحيفة **لاليبرتيه** عام ١٨٦٦ وأرجع هذا إلى سيطرة المليونير اليهودي ذي الاتجاهات السان سيمونية إسحق بريير الذي كان يمتلك الجريدة، واتهم اليهود بالسيطرة على الاقتصاد والإعلام، وظهر في العام ذاته كتابه **فرنسا اليهودية** في جزئين، وهو من أهم كلاسيكيات معاداة اليهود في الحضارة الغربية، ويُقال إنه كان أكثر الكتب شيوعاً في أوربا في القرن التاسع عشر إذ طُبع ما يزيد على مائة طبعة، وتُرجم إلى عديد من اللغات.

ويتسم فكر درومون بأنه خليط من الأفكار الدينية الراسخة في الوجدان المسيحي الغربي والأفكار الاشتراكية والشيوعية التي حققت ذيوعاً بين الجماهير الأوربية في القرن التاسع عشر. ويتضح هذا في كتابه **فرنسا اليهودية** الذي يذهب فيه إلى أن اليهود عنصر تجاري هامشي بطبيعته يعوق نمو الطبقة الوسطى المحلية (المسيحية) بسبب سيطرته على المشاريع التجارية والصناعية الكبرى. واليهود لا

يندمجون مع الأمم الأخرى ، فهم عنصر غريب ، يعيشون بين الفرنسيين ولا يندمجون معهم ، فهم لا وطن لهم . بل إن أولئك اليهود الذين يبدو كما لو كانوا مندمجين ، هم في واقع الأمر أكثر العناصر خطراً ، فهم مخادعون يتسللون داخل الأمة لإفسادها وتدميرها . ويُلاحَظ أن وصف درومون لليهود يقترب كثيراً من وصفنا للجماعات الوظيفية التي تعيش في المجتمعات المختلفة دون أن تكون فيها ، والتي تندمج فيها كي تتعامل معها بكفاءة ولكنها تظل منعزلة عنها ، وتحقق تراكماً هائلاً في الثروة . وقد اقترح درومون مصادرة أموال اليهود على أن تُستخدَم هذه الأموال لإيجاد وسائل إنتاجية للطبقة العاملة المُستغَلة .

وفي عام ١٨٩٢ ، أسس درومون جريدة **لا ليبر بارول** والتي أفصح فيها عن رؤيته التي تجمع بين توجه كاثوليكي وتوجه اشتراكي في آن واحد والتي نشر فيها مقالاته عن فضيحة قناة بنما ، وقد سجن لمدة ثلاثة أشهر بسببها . كما أسس جماعة رابطة أعداء اليهود ، ثم كتب ملحقاً لكتاب **فرنسا اليهودية** وعدة كتب أخرى تُعبِّر عن الاتجاه نفسه المعادي لليهود . ورشح نفسه للانتخابات عام ١٨٩٨ وفاز بمقعد في البرلمان . ثم قاد الحملة ضد دريفوس ، ولكن تبرئة دريفوس أدَّت إلى تراجُع نفوذه .

كارل ليوجر (١٨٤٤-١٩١٥)

Karl Lueger

سياسي نمساوي ومؤسس وزعيم الحزب المسيحي الاشتراكي النمساوي الذي اتسم بتوجهه المعادي لليهود . وُلد في فيينا لعائلة متوسطة ودرس القانون . بدأ حياته السياسية مع الجناح اليساري للحزب التقدمي حيث تعاون مع أعضائه من اليهود ومن بينهم أجناز ماندل الذي ظل صديقاً لليوجر ومستشاره السياسي لفترة طويلة . وقد انتخب ليوجر عضواً بمجلس مدينة فيينا عام ١٨٧٥ ودخل البرلمان عام ١٨٨٥ . ورغم أن ليوجر نفسه لم يكن معادياً لليهود ، ولم يكن متحمساً لفكرة الشعب العضوي الألماني ، إلا أنه مثل غيره من السياسيين النمساويين في تلك الفترة ، لم يتردد في استغلال كلا الأمرين من أجل تحقيق أغراضه وطموحاته السياسية . إذ كانت فيينا تضم في تلك الفترة مزيجاً من القوميات المختلفة ، وكان استخدام أي سياسي لمشاعر معاداة اليهود يشكل أداة لتوحيد وكسب تأييد هذه الجماعات المتنافرة ، وكذلك كسب تأييد البورجوازية الصغيرة التي كانت تعاني من المشاكل الاقتصادية . وقد اشترك ليوجر عام ١٨٩٣ في تشكيل الحزب المسيحي الاشتراكي . وكان يسعى لكسب أصوات البورجوازية الصغيرة لهزيمة الحزب الليبرالي الذي تولى السلطة آنذاك وحظي بتأييد يهود فيينا . وبالفعل ، حقق ليوجر شعبية كبيرة بفضل مهاراته كخطيب ، ونجح في أن يجعل حزبه القناة الرئيسية للتعبير عن الاستياء الاجتماعي والسخط العام . وهاجم ليوجر الرأسمالية والماركسية باعتبارهما نتاجاً للعقل اليهودي . وقد نجح حزبه في انتخابات مجلس مدينة فيينا ، وانتُخب ليوجر عام ١٨٩٥ عمدة للمدينة ، إلا أن الإمبراطور النمساوي فرانسيس جوزيف رفض الموافقة على نتيجة الانتخابات ، ربما بسبب نشاط ليوجر المستفز للشعور العام ، ولكنه اضطر تحت ضغط الرأي العام في فيينا وبإيعاز من تيودور هرتزل إلى إقرار تعيينه . وقد عمل ليوجر من خلال منصبه الذي احتفظ به حتى وفاته على إدخال العديد من الإصلاحات الاجتماعية والخدمات العامة .

ورغم أن سياسة إدارته كان لها بعض الآثار الاقتصادية السلبية على أعضاء الجماعة اليهودية في فيينا ، إلا أن موقفه تجاه اليهود أصبح أكثر اعتدالاً بعد وصوله إلى السلطة ، وضمت إدارته صديقه اليهودي ماندل (الذي تنصر وسنه ٧٢ سنة) ، كما أن نائب العمدة كان ذا أصول يهودية . وكان ليوجر يقوم بزيارات للمعابد والأسر اليهودية . وأكثر ما يدل على انتهازية ليوجر واستغلاله لمعاداة اليهود للأغراض السياسية عبارته « أنا الذي أقرر من هو اليهودي » ، وهي عبارة تعكس في الواقع إدراك ليوجر للإبهام وعدم الوضوح الذي يحيط بمسألة تعريف اليهودي في فيينا ، حيث ذهب البعض إلى اعتبار اليهود جماعة دينية ، بينما اعتبرهم البعض الآخر ، مثل القوميين الألمان ، جماعة عرْقية . وقد أتاح ذلك لليوجر إنكار معاداته لليهود أو تأكيدها وفقاً لما تستدعيه مصلحته والمصلحة السياسية لحزبه . إلا أن ترويجه الأفكار المعادية لليهود كان له أثر ، فيما ما يبدو ، على فكر أدولف هتلر إبان نشأته .

اوجست سترندنبرج (١٨٤٩-١٩١٢)

August Strindenberg

أهم كُتَّاب المسرح السويديين ، ومن أهم كُتَّاب الدراما في العالم أجمع . وُلد لأسرة من الطبقة الوسطى في العاصمة السويدية لأب يعمل وكيلاً في النقل البحري وأم خادمة .

ألَّف ما يزيد على الستين عملاً درامياً ، كما كتب مئات المقالات والعشرات من الروايات والمجموعات القصصية القصيرة والسيرة الذاتية . وهو يمثل بالنسبة للأدب السويدي واللغة السويدية ما يمثله شكسبير للأدب الإنجليزي واللغة الإنجليزية .

وترجع علاقة سترندبرج باليهود إلى بدايته الأولى ككاتب واقعي تقدمي هاجم الملكية والمؤسسات الرجعية في السويد في كتابه **الملكية الجديدة** وكتابه **أشعار** (١٨٨٣) . وقد أثار هذان الكتابان القوى المحافظة في السويد ضده ، وهو ما حدا به إلى السفر إلى أوربا متنقلاً بين بلادها . ونشر ، وهو في الخارج ، مجموعة إسكتشات تحت عنوان «الزواج» عام ١٨٨٤ ، وكان ناشرها يهودياً . وفي هذه المجموعة ، هاجم سترندبرج المؤسسات الدينية هجوماً شديداً ودافع عن الجانب الجسدي في الزواج الأمر الذي دفع أعداءه إلى مقاضاته باستخدام فقرة في القانون السويدي تجرِّم التجديف ، وأشاروا إلى اسكتش في المجموعة سماه «شعراء الفضيلة» استخدم فيه إشارات ترمز للعشاء الأخير .

وفي البداية ، رفض سترندبرج العودة والوقوف أمام المحاكمة . إلا أنه عاد فيما بعد عندما بدأ الادعاء في مقاضاة ناشره اليهودي وفقاً للقانون السويدي الذي كان يجيز مقاضاة الناشر في حالة غياب المؤلف . وقد صرح سترندبرج بأن عودته ترجع أساساً لخوفه من تحيُّز القانون ضد الناشر اليهودي لكونه يهودياً حيث إن أوربا كانت تجتاحها في تلك الآونة موجة من العداء لليهودية (على حد قوله) . وقد بُرئ سترندبرج من تهمة التجديف ، إلا أن محاكمته ذاتها جلبت عليه الخراب ، حيث قُوطع من الناشرين وأصحاب المسارح على حدٍّ سواء . وفي هذه الفترة ، كتب سترندبرج مسرحياته الشهيرة **مس جولي** ، و **الأب** ، و **اللعب بالنار** و **الدائنون** ، وغير ذلك مما أعطاه شهرة ككاتب طبيعي النهج . وقد أدَّت الضغوط الاقتصادية إلى رحيله عن السويد مرة ثانية عام ١٨٩٢ والانغماس في الفترة من ١٨٩٢ في محاولات عقيمة لتحويل المعادن وصناعة الذهب حيث ترك الأدب تماماً . وقد تأثر في هذه الفترة بأعمال المتصوف الديني السويدي سويدنبورج ، بعد تأثره العميق بأفكار نيتشه .

وفي هذه الفترة أيضاً ، نشر سترندبرج عدة مقالات في صحف ومجلات الجماعات التي تهتم بالأسرار الروحية والسيميائية في فرنسا ووُجِّهت لها تهمة معاداة اليهود . وتستحق فكرة معاداة سترندبرج لليهود وقفة طويلة . فقد ذاعت تلك الفكرة كما اشتُهر عنه أيضاً بأنه عدو المرأة . ولقد رأينا كيف عاد سترندبرج للسويد ليواجه المحاكمة بتهمة التجديف بدلاً من إعطاء الفرصة لخصومه لمقاضاة ناشره اليهودي . وقد أعرب سترندبرج في كتاباته وخطاباته أكثر من مرة عن كراهيته لناشره واحتقاره له حيث وصفه بأنه «مصاص دماء يثرى على حسابه» ، ويراكم المال بينما يعيش هو « في الفاقة والعوز » . كما ذكر غير مرة أن معاداته لليهود إنما هي معاداة للماليين من اليهود والمرابين الذين يثرون على حساب غيرهم من البشر . وذكر أيضاً في خطابه للناقد الأدبي برانديز عام ١٨٨٢ أن «المسألة ليست اليهود ولا اليهودية ولكنها مسألة أولئك اليهود السويديين الذين يستغلوننا » .

وحتى مقالاته التي نشرها في فرنسا والتي تتسم بعدائها لليهود بين عامي ١٨٩٤ و١٨٩٥ كانت رداً على دفاع زولا عن دريفوس ، وقد كانت هذه المقالات ممتلئة بمعاداة زولا أكثر من معاداة اليهود كجنس في ذاته .

وفي ١٨٩٧ ، نشر سترندبرج انطباعاته عن هذه الفترة في كتابه **الجحيم** وهو دراما خيالية في شكل سيرة ذاتية تمتلئ بالإشارات الباطنية والإحساس المتزايد بارتكاب الذنب الأزلي . وقد عاد سترندبرج ابتداءً من عام ١٨٩٨ إلى الكتابة الدرامية حيث سارت مسرحياته في هذه المرحلة التي يدعوها النقاد «مرحلة ما بعد الجحيم» في مسارين يتقاطعان كثيراً هما رواية **التاريخ السويدي من منظور شعبي** ، والمسرحيات ذات المحتوى الديني . ومن أمثلة ذلك **كارل الثاني عشر** و **سوناتا الشبح** المليئة بالرموز الموحية دينياً . وقد كان سترندبرج في تلك الفترة من حياته يمثل المدافع الأول عن حقوق الطبقات الشعبية من واقع التزام ديني . وقد اتسمت نظرته لليهود في هذه المرحلة بروح التسامح ، كما مثلت فكرة القبول عنده فكرة محورية في معظم المسرحيات ، مثل : **إلى دمشق** و **عيد الفصح** و **مسرحية حلم** .

وتُوفي سترندبرج في أبريل عام ١٩١٢ ، وتحوَّل آخر عيد ميلاد له (في ٢٢ يناير ١٩١٢) إلى مناسبة شعبية تتخللها مظاهرات كبرى هتف فيها المتظاهرون : «عاش شاعر الشعب – عاش شاعر الحرية» .

راينر فاسبيندر (١٩٤٦-١٩٨٢)

Reiner Fassbinder

مخرج ومنتج وكاتب سينمائي ومسرحي ألماني كان طالباً منتظماً في مدرسة تجريبية في ميونيخ ، لكنه ما لبث أن هجرها وعمل بالصحافة ثم تركها والتحق بالفرقة المسرحية البافارية الثورية التي تُسمَّى «مسرح الفعل» . وفي سن التاسعة عشرة ، أخرج فيلمه القصير الأول «صعلوك المدينة» ليبدأ رحلة إبداعه الفني التي استمرت ١٧ عاماً وشملت ٤٣ فيلماً و ٣٠ مسرحية وعدداً هائلاً من الكتابات والتمثيليات الإذاعية كانت جميعها ، تماماً مثل حياته ،

نموذجاً للتمرد والانطلاق والتجريب . وقد تناول في أعماله سلبيات المجتمع الألماني بشكل خاص ، والمجتمعات الغربية الحديثة بشكل عام ، وما يسود هذه المجتمعات من تفكُّك وتحلُّل وإحباط نتيجة اللهاث وراء المادة وغياب أية قيمة أو معنى للحياة سوى القيم والمعاني المادية . وكانت أغلب أعماله مثيرة للجدل ، وتباينت حولها ردود أفعال النقاد ، بل قد وُجِّهت له تهم معاداة اليهود والتعاطف مع الإرهاب وعدم إدانة النازية . وقد أثارت مسرحيته **المدينة والزبالة والموت** (١٩٧٤) ضجة صحفية كبرى داخل ألمانيا وخارجها واتُّهم فاسبندر بمعاداة اليهود نظراً لأن الشرير المرابي المتعاون مع السلطة في المسرحية كان يهودياً . وتكررت هذه التهمة مع فيلمه « ليلى مارلين » (١٩٨٠) حيث توجد أيضاً شخصية اليهودي الشرير . ولم يكن تناول فاسبندر لليهودية في أعماله من منطلق أنها عقيدة دينية وإنما من منطلق أنها نزوع إلى جمع المال والربح والصعود على أكتاف الآخرين (وهذا نمط إدراكي شائع في الأدبيات الاشتراكية الغربية) . فهو يبحث في أفلامه عن أسباب «يهودية» المجتمع (أو تهوده حسب تعبير ماركس ، وهو ما نُعبِّر عنه هنا في هذه الموسوعة باصطلاح «تحوسل المجتمع» ، أي تحوُّل أعضاء المجتمع إلى مجرد وسائل لخدمة أهداف يُقال لها نهائية ولكنها ليست بالضرورة إنسانية) . وعملية التهود والتحوسل هذه تؤدي إلى التفكك والتحلل والهزيمة والعنصرية ومعاداة الأجانب وهو ما نراه في أفلام مثل « الخوف يأكل الرمح » و« لا أبغي إلا أن تحبوني » و«الروليت الصيني » . والواقع أن كل الشخصيات في أفلامه مدانة باليهودية (بالمعنى الذي سبقت الإشارة إليه) . وكل الأبطال يعانون من الشعور بالوحدة والعزلة والإحباط ، فحتى بعد النجاح لا يحقق المرء ذاته ، والسؤال الأساسي «و ماذا بعد النجاح ؟ » غير مطروح في هذا المجتمع كما يتبدَّى لنا من أحداث فيلمه « بائع الفصول الأربعة » (١٩٧١) . وفي هذا الإطار نفسه ، تتعامل جميع أفلام فاسبندر مع موضوع الأسرة وانهيارها وانحلالها ثم اختفائها .

ففي فيلم « زواج ماريا براون » (١٩٧٨) ، وهو أول أفلامه الضخمة ، يتناول قصة امرأة تزوجت لمدة عشرة أيام ثم طُلب زوجها للجيش في الحرب العالمية الثانية ، ولكنها حافظت على زواجها بأمل تكوين الأسرة الناجحة ، ثم فسقت وقتلت واستغلت وسرقت من أجل تحقيق حلم النجاح والاحترام وليس من أجل التوازن المفقود الذي لن يعود .

ويبدو أن تهمة معاداة اليهود كلفت فاسبندر وظيفته وحرمته من نيل أية جائزة من جوائز المهرجانات السينمائية الكبرى (سواء في كان أو في فنيسيا) ، وكانت الجائزة الوحيدة التي حصل عليها من برلين عن فيلمه « فيرونيكا توس » . وقد رفضت لجنة المساعدة الاتحادية التي تقدم العون لإنتاج الأفلام في ألمانيا مشروعين من مشروعات فاسبندر .

وقد أثارت أفلام فاسبندر اتهامات أخرى ضده منها أنه لا يدين النازية ، فهو لا يعتبر النازية وحشاً في حد ذاته ولكنه يبحث دائماً وراء الظاهرة الاجتماعية عن الظاهرة/ الرمز سواء أكانت تلك الصورة هي الصليب المعقوف أم شمعدان المينوراه أم النجمة المسدسة أم المطرقة والمنجل . كما اتُّهم بأنه مرتبط بجماعات الإرهاب نظراً لما أبداه من تعاطف في بداية فيلمه «ألمانيا في الخريف» (١٩٧٧) مع أعضاء جماعة بادر ماينهوف الذين ماتوا في زنازينهم .

وقد تُوفي فاسبندر عن عمر يناهز السادسة والثلاثين بعد أن عاش حياة حافلة بالنشاط وبالإنتاج الفني والسينمائي ، وكان قد اعترف قبل فاته بأنه يتعاطى المنشطات والكوكايين ليستمر في العمل ، كما اعترف بشذوذه الجنسي في فيلم « ألمانيا في الخريف » .

وفي الحقيقة ، فإن اتهام فنان تجريبي حداثي مثل فاسبندر بمعاداة اليهود يُعدُّ أمراً غير مألوف ، إذ أن هذا الاتهام عادةً ما يُوجَّه إلى كُتَّاب «رجعيين» أو «محافظين» يقفون ضد مُثُل التعددية والتجريب . ومع هذا ، فلابد من الإشارة إلى أن ثمة عدداً من الفنانين الحداثيين الذين أخذوا موقفاً معادياً من اليهود باعتبارهم مسئولين عن سقوط الحضارة الغربية وانهيار المجتمع . ومن أهم هؤلاء المفكرين الشاعر عزرا باوند والشاعر وليام بتلر ييتس ، كما أشار ت . س . إليوت إلى اليهودي بطريقة اعتبرها البعض معادية لليهود .

معاداة اليهود لكل من اليهود واليهودية

Jewish Anti-Semitism

يُستخدَم مصطلح «معاداة اليهود لكل من اليهود واليهودية» للإشارة إلى بعض اليهود الذين يستخدمون مقولات تراث معاداة اليهود في الغرب ويطبقون الصور الإدراكية النمطية السلبية على اليهود . ويبدو أن بعض أعضاء الجماعات اليهودية اكتسحهم تيار الاستنارة والاندماج وسلبهم ذاتهم تماماً بحيث أصبحوا يدركون العالم من خلال هذه الرؤية العنصرية . وقد انتشرت هذه الظاهرة بين اليهود المندمجين في ألمانيا ، ويهود الولايات المتحدة من أصل ألماني ، وكان يهود الغرب المندمجون يدركون يهود اليديشية من خلال مقولات معاداة اليهود ، ومن هنا قاموا بصك مصطلحات عنصرية مثل «كايك وشيني» .

ويبدو أن الظاهرة تتبدَّى بشكل متطرف أحياناً ، فهناك نظرية تذهب إلى أن فيلهلم مار الذي صك مصطلح «معاداة السامية» («أنتي سيميتزم») من أصل يهودي ، بل يُقال إن هتلر نفسه كان طفلاً غير شرعي لأب يهودي . ومن المؤكد أنه كانت تجري في عروق أيخمان دماء يهودية . ويمكن القول بأن الصهيونية تعبير مركب عن الظاهرة نفسها ، فهي تَصدُر عن رفض يهود المنفى ، أي يهود العالم كافة حتى تاريخ قريب . كما أن الصهيونية تطالب بتصفية الجماعات اليهودية خارج فلسطين . وهي تقبل أيضاً المقولات الأساسية لمعاداة اليهود وأنماطها الإدراكية لليهود واليهودية . وتستند الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة إلى رؤية تنم عن عدم احترام لأعضاء الجماعات اليهودية . ويُلاحَظ أن الأجيال الجديدة في إسرائيل لا تكن احتراماً كبيراً لنمط « اليهودي» (أي يهودي المنفى) ويرى أعضاء هذه الأجيال أنفسهم باعتبارهم عبرانيين أو إسرائيليين ، وربما كان هذا تعبيراً آخر عن معاداة اليهود لليهود .

كره اليهودي لنفسه

Jewish Self-Hate

«كُره اليهودي لنفسه» مصطلح يُستخدَم لوصف اليهودي الذي يكره نفسه من حيث هو يهودي ، ويود لو أنه كان من « الأغيار» . وهذه ظاهرة شائعة بين بعض أعضاء الأقليات والمقهورين ، فيتمنى الأسود لو كان من البيض ، ويتمنى العربي لو كان غربياً ، وهو شكل من أشكال التوحد مع المعتدي . ويعتقد اليهودي الذي يكره نفسه ، شأنه في هذا شأن الصهاينة وأعداء اليهود ، بوجود جوهر يهودي ثابت لا علاقة له بالملابسات التاريخية والاجتماعية ، وبوجود صفات يهودية ثابتة وخصوصية يهودية لا تتغيَّر ، الأمر الذي يعوقه عن الاندماج الكامل في عالم الأغيار . وهو يصب جام غضبه على اليهود الذين تتجلى فيهم هذه الصفات اليهودية الافتراضية ، معتقداً أن صفاته اليهودية هي سبب شقائه ، وأن اليهود مسئولون عما يحدث لهم وله . ويبدو أن الظاهرة تفاقمت في أوربا بين اليهود مع حركة الإعتاق والتنوير ، حين ضعف الانتماء الديني لليهود فوجدوا أنفسهم في عالم أوربا العلماني الجميل الرائع الذي اكتسحهم تماماً ، وصبوا جام غضبهم على الجيتو وعلى أهلهم وأنفسهم . ولكن أول من صاغ المصطلح هو تيودور لسنج في كتابه **كُره اليهودي لنفسه** (برلين ١٩٣٠) .

ويتبدَّى كُره اليهودي لنفسه في عدة أشكال ، منها محاولة إخفاء الأصول . ويحرص بعض اليهود الكارهين ليهوديتهم على عدم الإنجاب كليةً حتى لا يزيد عدد اليهود ، بل إن بعضهم يضع حداً لحياته بالانتحار . وقد يكون التنصُّر للحصول على تأشيرة دخول إلى الحضارة الغربية (على حد قول هايني) تعبيراً عن الظاهرة نفسها .

وقد يأخذ كُره اليهودي لنفسه شكل إعداد المشاريع المختلفة لإبادة اليهود والتخلص منهم كما لو كانوا حشرات طفيلية ضارة . ومن المعروف أن كثيراً من اليهود اشتركوا مع النازي في عملية الإبادة والإعداد لها ، ومن أشهرهم ألفريد نوسيج الذي أعد للجستابو خطة لإبادة اليهود والذي اكتشف أمره يهود جيتو وارسو فألقوا القبض عليه وأعدموه .

ويمكن أن يأخذ كُره اليهودي لنفسه شكلاً جماعياً ، فيكن يهود ألمانيا البغضاء والاحتقار ليهود اليديشية من شرق أوربا ، ويرفض اليهود الأرثوذكس اليهود الإصلاحيين والمحافظين بل يكفرونهم ، ويُعبِّر اليهود الإشكناز عن كُرههم للسفارد والشرقيين . ومن أهم أشكال كُره اليهود وأكثرها تركيباً ظاهرة اليهودي الذي يحقق النجاح في عالم الأغيار حسب شروطهم ثم يعود إلى جماعته اليهودية متسلحاً بشرعيته الجديدة وكفاءاته ويتولى قيادة جماعته اليهودية بدلاً من القيادة التقليدية ويبدأ في دمجها في المجتمع وفي تخليصها من سماتها اليهودية المفترضة كافة .

ويُستخدم المصطلح في الأدبيات الصهيونية للإشارة إلى اليهودي الذي يأخذ موقفاً معادياً للصهيونية ، وذلك من قبيل إرهابهم أو تهميشهم . وتطرح الصهيونية نفسها باعتبارها العقيدة التي حررت اليهود من كُرههم لأنفسهم وزادت احترام الشعوب لهم، وزادت ، من ثم ، احترامهم لأنفسهم . ولكن الدارس المدقق سيكتشف أن الصهيونية إنما هي تعبير عن كُره اليهودي لذاته :

١ ـ فالصهيونية تَصدُر عن نقد عميق لما يُسمَّى «الشخصية اليهودية التقليدية» ، فهي تحاول إصلاحها وتخليصها مما يتصوره الصهاينة هامشيتها وخضوعها بل تحاول تطبيعها ، بحيث يصبح اليهود مثل الأغيار وبحيث تصبح الدولة الصهيونية دولة مثل كل الدول .

٢ ـ كان واضعا الأطروحات الصهيونية الأولى (هرتزل ونوردو) ، وهما من اليهود الألمان المندمجين ، يفكران في الصيغة الصهيونية خوفاً من توافد يهود اليديشية لا حباً فيهم ، وكانت الصهيونية منذ البداية صهيونية توطينية بالنسبة ليهود الغرب المندمجين واستيطانية بالنسبة ليهود شرق أوربا الذين سيُصدَّرون إلى خارج أوربا حتى يتم التخلص منهم ، وحتى يحافظ يهود الغرب على مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية .

٣ ـ لم يحقق المشروع الصهيوني النجاح إلا بعد أن ظهرت قيادات صهيونية مندمجة تسلمت قيادة الجماعات اليهودية وحلَّت محل القيادات الحاخامية التقليدية و«باعت» المشروع الصهيوني للحضارة الغربية . ولم تنجح هذه القيادة في فرض نفسها إلا بعد أن وافقت عليها السلطات الاستعمارية الغربية ، أي أنها قيادة شبه يهودية تستند إلى شرعية غير يهودية !

٤ ـ المشروع الصهيوني هو في جوهره مشروع لمساعدة أوربا على التخلص من فائضها اليهودي . وتوجد في الكتابات الصهيونية العديد من الإشارات إلى اليهود باعتبارهم باكتريا وحيوانات طفيلية . ويتم التخلص من اليهود بالطريقة البلفورية في معظم الأحيان ، أي عن طريق شحن اليهود إلى فلسطين بدلاً من معسكرات الاعتقال والغاز . ولكن ثمة حالات تعاون فيها الصهاينة في التخلص من اليهود على الطريقة النازية ، ومن هؤلاء رودولف كاستنر ، وكذلك ألفريد نوسيج الذي سبقت الإشارة إليه ، وهو من مؤسسي الحركة الصهيونية .

ومن ثم ، يمكن اعتبار الحركة الصهيونية تعبيراً عن كُره اليهودي لنفسه لا تقبلاً للهويات اليهودية المختلفة . لكن هذا المفهوم، مثل معظم المفاهيم النفسية التي تُستخدَم لتفسير ظواهر اجتماعية ، ليست له مقدرة تفسيرية عالية ، فكُره اليهودي لنفسه ليس سبباً وإنما هو تعبير عن عوامل حضارية واجتماعية أكثر عمقاً .

ويُستخدَم المصطلح الآن للإشارة لأي فنان أو مفكر يهودي يوجه نقداً لأعضاء الجماعة اليهودية ، ومن ثم يُشار إلى وودي ألين وفيليب روث باعتبار أنهما يعانيان من مرض كُره اليهودي لنفسه .

أوتو فينينجر (١٨٨٠-١٩٠٣)

Otto Weininger

فيلسوف وعالم نفس نمساوي وُلد في فيينا . ودرس علم النفس وعلوم الأحياء والطبيعة والرياضة ، إلى جانب دراسته الفلسفة في جامعة فيينا . وتبنَّى في بداية حياته الفلسفة الوضعية والمذهب العقلي ، إلا أنه تخلى عنهما متأثراً بمثالية كانط وأفلاطون وصوفية سانت أوغسطين وفاجنر ، كما تأثر بفيلسوف العنصرية هيوستون تشامبرلين . وقد ساعد ذلك على اعتناقه المسيحية البروتستانتية ، وذلك في اليوم نفسه الذي نال فيه درجة الدكتوراه عام ١٩٠٢ .

وفي عام ١٩٠٣ ، كتب فينينجر عمله الكبير **الجنس والشخصية** الذي تضمن رؤية فلسفية معادية للمرأة ولليهود . وتتلخص نظريته في أن هناك علاقة أساسية بين الجنس والشخصية . فقد اعتبر أن الرجل يضم العناصر الإيجابية والأخلاقية والروحية والفكرية القادرة على الخلق والإبداع ، أما المرأة فتضم العناصر الإدراكية (المادية والحسية واللا أخلاقية) وهي غير قادرة على أية فضيلة أو إبداع . واعتبر أن مأساة البشر تكمن في أنهم يجمعون بين عناصر الذكورة الطيبة والعناصر الأنثوية الشريرة . كما رأى أن علاقة الرجل بالمرأة تؤدي إلى تدهوره وإذلاله ، واعتبر أن التحرر الحقيقي للمرأة لا يكمن في التحرر السياسي بل في تخليها عن ذلك الجانب من طبيعتها الذي تسيطر عليه الرغبات الحسية ، وبالتالي اعتبر أن الامتناع الجنسي هو السبيل الوحيد للنمو الروحي للرجل ولتحرُّر المرأة . وفي تناوله لليهودية ولليهود ، اعتبر فينينجر أن اليهودية تمثل العنصر الأنثوي اللا أخلاقي وغير المقدَّس وهي أيضاً العدم ، في حين أن المسيحية تمثل الذكورة الأسمى وهي الوجود وهي العنصر الآري . واعتبر فينينجر أن اليهودي أسوأ من المرأة لأنه لا يؤمن بشيء ، وبالتالي فإنه ينجذب نحو الفكر الشيوعي والفوضوي والإلحادي والتجريبي . كما رأى أن خلاص اليهودي لا يأتي إلا من خلال تخلصه من يهوديته ، ورأى أن الصهيونية أو القومية اليهودية هي نقيض العقيدة اليهودية ، إلا أنها لن يُكتَب لها النجاح لأن اليهود لا يدركون مفهوم الأمة . وقد أعلن فينينجر أن هناك المخلِّص الحقيقي الذي سيخلص العالم من اليهودية والأنوثة معاً (هل هو هتلر ؟) .

وقد جمعت نظرية فينينجر عناصر من الرومانسية ومن فكر نيتشه ومن علم النفس وعلم الأحياء الحديث ، ويجب فهم عمله في إطار الجدل الذي كان سائداً في عصره حول طبيعة الرجل والمرأة . غير أن فينينجر اتجه إلى استخلاص استنتاجات نهائية وعامة من خلال تجاربه الذاتية الخاصة والمحدودة . وقد اتجه كثير من مفكري النازية إلى الإشارة إلى أفكاره المعادية لليهود واليهودية كتبرير لآرائهم ، ووصفه هتلر بأنه اليهودي الوحيد الذي يستحق الحياة . وكان الفيلسوف اشبنجلر يعتبره أهم ثلاثة قديسين انتجتهم اليهودية (مع إسبينوزا وبعل شيم طوف) .

وقد أُصيب فينينجر باكتئاب شديد ، دفعه في نهاية الأمر إلى الانتحار بعد بضعة أشهر من إصدار كتابه . وقد طُبع كتابه ثلاثين طبعة وتُرجم إلى عدد كبير من اللغات الأوربية (وهو ما يبيِّن مدى هيمنة الفكر النيتشوي والعرْقي على الوجدان الغربي) . كما نُشر لفينينجر كتاب بعد موته بعنوان **عن الأشياء الأخيرة** (١٩١٨) . وقد كتب الكاتب المسرحي يوهو شاوا سوبول مسرحية عن حياته بعنوان

روح يهـودي . ويُعتبَر فينينجر في الأدبيات اليهودية ظاهرة مرضية ومثالاً لليهودي الكاره لنفسه ، ويُعتبَر انتحاره النتيجة الطبيعية لهذه الكراهية .

آرثـر تريبتـش (١٨٨٠-١٩٢٧)

Arthur Trebitsch

كـاتب نمساوي يهودي . تلميـذ أوتو فيتينجر وهيوسـتون تشامبرلين . تنصَّر وأصبح من أعدى أعداء اليهود . كتب كتاباً بعنوان **الروح واليهودية** (١٩١٩) ألقى فيه اللوم على اليهود لهزيمة الألمان وسقوط الأسرة الحاكمة في ألمانيا والنمسا . وفي كتابه **الـروح الألمانية واليهودية** (١٩٢١) ، استخدم تريبتش **بروتوكولات حكماء صهيون** ليثبت وجـود مؤامرة يهودية لإفساد العالم والهيمنة عليه . وطوَّر تريبتش النظرية العرْقية الغربية المعادية لليهود وعرض خدماته على النازيين في النمسا .

تيـودور لسـنج (١٨٧٢ - ١٩٣٣)

Theoder Lessing

مفكر ألماني . ابن طبيب ثري درس التاريخ والفلسفة والطب في بون وميونيخ وتنصَّر (على المذهب البروتستانتي) حينما كـان يدرس في فرايبورج (وكـان هذا أمراً شائعاً بين أعضـاء الجمـاعة اليهودية في ألمانيا آنذاك) . كتب عدة دراسات عن تاريخ الأفكار من ضمنها **شوبنهاور وفاجنر ونيتشه وانحطاط العالم : أوربا وآسيا** .

كان لسنج مهتماً بدراسة ما يُسمَّى «مبادئ الشخصية القومية» ، وهي دراسة كـانت مشبعة آنذاك (في ألمانيا وأوربا على وجه العموم) بالقيم المادية العنصرية التي تحاول تعريف الشخصية بالعودة لبعض مكوناتها المادية (حجم الجمجمة – التراب والدم . . . إلخ) . وكـانت مثل هـذه الدراسات تقسم البشر بشكل صارم وحـاد إلى أقسـام منفصلة فمنهم الأدنى ومنهم الأعلى . وهذا هو الإطار الفلسـفي لفكرة الشعب العضوي (فولك) . وقد هاجم لسنج فرويد باعتباره يهودياً ، وهاجم التحليل النفسي باعتباره علماً يهودياً منحلاً ، كما هاجم الحياة في الشتتل في سلسلة من المقالات .

قدَّم لسنج في كتابه **كُره اليهودي لنفسه** دراسة طبية لليهود الذين يتسمون بكُرههم لذواتهم . واليهود (حسب تصوُّر لسنج) هو شعب آسيوي لا ينتمي إلى أوربا ، جذوره في آسيا (فلسطين) . وتعود قوة اليهود إلى قربهم من الطبيعة والجذور الطبيعية الأولية الكونية (أي أنه تبنَّى رؤية حلولية كمونية تتسم بالواحدية الكونية المادية) . وتكمن مأساة اليهود في أنهم نُزعوا من جذورهم وانفصلوا عن غرائزهم الطبيعية المرتبطة بالأرض بحيث تحوَّل اليهود من كونهم شعباً من الرعاة والفلاحين يعيش في الطبيعة إلى شعب منحل يتسم بالرومانسية الزائدة (يؤمن بأخلاق الضعفاء بدلاً من أخلاق الأقوياء على حد قول نيتشه) . وقد وجد لسنج أن ثمة أقلية من اليهود (المستوطنين الصهاينة) بدأت تعود لتربة فلسطين وأنهم هم الذين يمكنهم أن يبعثوا أمجاد اليهود الغابرة ويمكنهم أن يلعبوا دور الوسيط بين آسيا الروحية وأوربا التكنولوجية . وفكر لسنج في جوهره فكر نازي/ صهيوني يُعبِّر بشكل متبلور عن الرفض الكامل والجذري لكل ما هو يهودي . ومع هذا ، هاجمه المعادون لليهود بضراوة ، وهو ما يدل على غبائهم واختزاليتهم . وقد أُغتيل لسنج على يد النازيين .

العداء العربي لليهود واليهودية

Arab Anti-Semitism

تحاول الأدبيات الصهيونية في الآونة الأخيرة أن تبيِّن أن ظاهرة العداء لليهود واليهودية ظاهرة متأصلة في المجتمعات العربية وفي التراث الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية . وهذه المحاولة جزء من المحاولة الصهيونية المستمرة لتشويه صورة العرب والمسلمين . إلا أنها تعبِّر أيضاً عن رغبة الصهاينة الدفينة في تناسي تاريخ الجماعات اليهودية في الغرب ، وتراث العداء لليهود واليهودية الثري الطويل الممتد ، الذي انتهى بطردهم وإعادة توطينهم في فلسطين في إطار المشروع الصهيوني .

وقضية عداء العرب لليهود واليهودية (عداء العرب للسامية) مسألة مركبة متعددة الأبعاد ، تختلف عن معاداة اليهود واليهودية في الغرب . فتاريخياً تحولَّت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي إلى جماعات وظيفية ، ولكنهم لم يكونوا الأقلية الوحيدة التي تضطلع بهذا الدور . فالعالم الإسلامي ، على عكس الغرب المسيحي ، يضم جماعات دينية وإثنية كثيرة . كما أن النشاط التجاري ، والنشاطات المالية والوسيطة على وجه العموم ، لم تكن مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية دون غيرهم .

ورغم أن اليـهـود (وبني إسـرائيل) أتى ذكـرهم في القـرآن عشرات المرات وتحت مسميات مختلفة في سياقات معظمها سلبي ، إلا أن رؤية الخلاص الإسلامية لم تعط اليهود أية مركزية خاصة ، ولذا لم يكن اليهود يمثلون إشكالية خاصة بالنسبة للفقه الإسلامي . وقـد ظهـرت بعض الأعـمـال الأدبيـة والفكرية داخل التـشكيل الحضاري العربي والإسلامي تحاول اختزال أعضاء الجماعات

اليهودية من خلال صور إدراكية نمطية سلبية ، إلا أن اليهود لم يحتلوا أي مركزية خاصة في الوجدان الأدبي والثقافي العربي والإسلامي . وقد استقر وضع أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة العربية والإسلامية في إطار مفهوم أهل الذمة الذي حدد حقوقهم وواجباتهم . ومن ثم فلم يعرفوا المذابح أو عمليات الطرد المتكررة التي تسم علاقتهم بالحضارة الغربية في بعض الفترات . هذا لا يعني أن تجربة يهود العالم الإسلامي مع المجتمعات الإسلامية التي ينتمون إليها كانت خالية من التدافع أو الصراع والظلم (الذي يتنافى مع تعاليم الإسلام ومفهوم أهل الذمة) وأنها كانت عصراً ذهبياً ممتداً ، فهذا ليس من طبائع البشر ولا من طبيعة المجتمعات البشرية . كل ما نود تأكيده أن أعضاء الجماعات اليهودية تمتعوا بقدر معقول من الاستقرار والطمأنينة ، الأمر الذي أدَّى إلى اندماجهم في مجتمعاتهم .

ولكن الوضع تغيَّر بشكل حاد في العصر الحديث ، فيُلاحَظ انشغال عربي وإسلامي كبير بالشأن اليهودي (وإن كان يُلاحَظ أن الأعمال الأدبية العربية ، بما في ذلك الفلسطينية ، لا تكترث بأعضاء الجماعات اليهودية) . وبدأت تظهر أدبيات كثيرة كتبها عرب ومسلمون تدور في إطار مفاهيم ومقولات عنصرية (معظمها مستورد من العالم الغربي) . ومن بين هذه المقولات أن اليهود مسئولون عن كل أشرار العالم ، كما هو مدوَّن في **بروتوكولات حكماء صهيون** (الذي يقرأه الكثيرون) ، وفي التلمود (الذي لم يقرأه أحد) . وبدأ الحديث عن المؤامرة التي يحيكها اليهود ضد المسلمين والعرب ، وارتبط اليهود بالشيطان وبالصور الإدراكية النمطية الاختزالية السلبية في عقل كثير من العرب والمسلمين . وبدأت تظهر في الصحف والمجلات وعلى أغلفة الكتب صورة اليهودي ذي الأنف المعقوف الذي تقطر أظافره دماً والذي يمتص دماء الآخرين وأموالهم . بل بدأت تظهر تهمة الدم في أرجاء متفرقة ، وهو أمر لم يكن معروفاً في العالم الإسلامي من قبل . وتُرجمت **البروتوكولات** التي يعتقد البعض أنها من كتب اليهود المقدَّسة ، كما نُشرت مقتطفات متفرقة من التلمود . بل بدأ بعض المسلمين يرون أن «اليهودية» صفة بيولوجية تورَّث ، أي أن اليهودي - حسب هذه الرؤية - هو من وُلد لأم يهودية ، وهو تعريف قد يتفق مع العقيدة اليهودية ولكنه لا يتفق ألبتة مع العقيدة الإسلامية التي لا تنظر للدين باعتباره أمراً يورَّث ، وإنما هو رؤية يؤمن بها من شاء .

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أنه كلما ازداد الرعب من إسرائيل و "اليهود" كلما ازدادت صورة اليهودي سوءاً ، وكلما ازداد النموذج التفسيري التآمري الذي ينسب لليهود قوى عجائبية انتشاراً ، وهو نموذج يصوِّر اليهود باعتبارهم قوة أخطبوطية لا تُقهَر ، فهم يمسكون بكل الخيوط ويُحركون كل القوى (الرأسمالية والاشتراكية) حتى ينفذوا مخططهم اليهودي الجهنمي المستقل ، وما اللوبي الصهيوني سوى تعبير جزئي عن مخطط صهيوني أشمل .

وهذه النظرة العنصرية الاختزالية تشكل فشلاً أخلاقياً ، فهي لا تحاول أن تميز بين الخبيث والطيب ، وتضع اليهود ، كل اليهود ، في سلة واحدة بما في ذلك على سبيل المثال أعضاء جماعة الناطوري كارتا الذين يقضون معظم أيامهم في الحرب ضد الصهيونية ، بمثابرة وإخلاص ودأب نفتقدهم في كثير من العرب هذه الأيام ! والرؤية العنصرية حتمية ترى أن من وُلد يهودياً لابد أن يسلك حسب نمط معيَّن وكأن الإله لم يمنحه فطرة سليمة ومقدرة على تمييز الخير من الشر .

والنظرة العنصرية الاختزالية ، تشكل كذلك فشلاً معرفياً لأن الخريطة الإدراكية التي ستفرزها مثل هذه الرؤية ستكون عامة رمادية كالحة سطحية واحدية لا تساعد كثيراً في فَهْم الواقع . فهي على سبيل المثال لن تساعدنا كثيراً في معرفة توجُّهات أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة بكل تنوّعها وتموجاتها . فنحن في حاجة لأن نعرف منْ منهم يساند الصهيونية ومنْ يعارضها ، ومنْ منهم يجاهر بمناصرتها علناً ويبذل قصارى جهده في التملص منها ، ومنْ منهم ناصرها في الماضي ، وتنكَّر لها في الحاضر ، ومنْ منهم تنكَّر لها في الماضي وبدأ يناصرها في الحاضر ، ومنْ منهم توجد لديه إمكانية كامنة لقبولها أو رَفْضها أو التملص منها ، ومنْ منهم تجب محاربته ومنْ منهم يمكن تجنيده ومنْ منهم يمكن تحييده ، فالرؤية التآمرية العرْقية ترى أن كل يهودي صهيوني وكل صهيوني يهودي ، وهي بهذا تتبنَّى الرؤية الصهيونية لليهود ، التي تضع اليهود ، كل اليهود ، في سلة واحدة ، هي سلة الشعب اليهودي .

والرؤية العنصرية في نهاية الأمر لها مردود سلبي من الناحية النفسية ، فهي تنسب لليهود قوة هائلة ، الأمر الذي يُولِّد الرعب في نفوس العرب (ولتخيل صانع القرار العربي الذي يعتقد أن "اليهود" قادرين على كل شيء وأنهم ممسكون بكل الخيوط !) .

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن هذه الرؤية العنصرية تُترجم نفسها إلى كُره أعمى يُطالب بملاحقة اليهود والانتقام منهم وطردهم من أوطانهم والتضييق عليهم . وما ينساه حملة مثل هؤلاء الرؤية أن المواطن اليهودي الذي يتم التضييق عليه وطرده من وطنه يضطر للهجرة إلى فلسطين ليصبح مستوطناً صهيونياً يحمل السلاح

ضدنا ، فكأن العداء العربي لليهود له مردود صهيوني . ومن المعروف أن الحركة الصهيونية قامت بالتضييق على يهود العراق وخلقت وضعاً صهيونياً بنيوياً اضطرهم للاستيطان في فلسطين .

ويحاول بعض المتحدثين العرب رد تهمة العنصرية باللجوء لاعتذاريات أقل ما توصف به أنها مضحكة ، وجميعها له طابع قانوني وكأننا نقدِّم مرافعة قانونية شكلية ، ليس لها سند في الواقع المتعيِّن . فمثلاً هناك من يقول : "كيف يمكن أن نكون لا ساميين ونحن أنفسنا ساميون ؟" وهي حجة واهية مردود عليها ، فالإجابة على هذا السؤال البلاغي الأحمق هي بالإيجاب : "نعم يمكن أن يكون الإنسان سامياً ومعادياً للسامية" ، وهناك شواهد كثيرة على ذلك . فيمكن أن يكون الإنسان عربياً ومعادياً للعرب ، وظاهرة العداء اليهودي لليهود واليهودية ظاهرة معروفة للدارسين .

وهناك حجة أخرى لا تقل تهافتاً عنها وهي أننا لا يمكننا أن نكون "معادين للسامية" لأن اليهود ليسوا ساميين فهم من نسل قبائل الخزر التي تهوَّدت ، والخزر عنصر تركي غير سامي . والرد على هذا أن عبارة «العداء للسامية» تعني في واقع الأمر «العداء لليهود واليهودية» ، فسواء كان اليهود ساميين أم لا ، تظل القضية مطروحة .

وهناك بطبيعة الحال من يشيرون إلى عصر اليهود الذهبي في الحضارة الإسلامية خصوصاً في الأندلس ويستنتجون من هذا العداء أننا بالتالي لسنا معادين لليهود واليهودية باعتبار أنه إذا كان الماضي كذلك ، فلابد أن يكون الحاضر كذلك . وهذه مغالطة ، فلا يوجد استمرار عضوي بين الحاضر والماضي ، ويمكن أن يكون إنسان عنصرياً في مرحلة من حياته ويتخلى عن عنصريته في مرحلة لاحقة ، والعكس بالعكس . ويسري هذا على تواريخ كل الشعوب .

ومما يجدر ذكره أن كل مراكز البحوث العلمية في العالم العربي والمجلات العلمية المسئولة لا تسقط ، إلا فيما ندر وبدون وعي ، في هذا الخطاب العنصري ، فمعظم هذه المراكز تتناول الشأن اليهودي وظاهرة الصهيونية بطريقة علمية ، تحاول تفسيرها وفهمها ولا تختبئ، بطريقة جنينية اختزالية طفولية ، وراء منطق المؤامرة .

ورغم رفضنا المبدئي للخطاب الاختزالي الواحدي العنصري ، ورغم إدراكنا لسلبياته من الناحية الأخلاقية والمعرفية والنفسية ، إلا أننا يجب أن نفهم سر ذيوعه وانتشاره وهيمنته على بعض الكتَّاب الشعبيين (في الصحف والمجلات) وبعض أعضاء النخب العربية السياسية والثقافية .

١ – حينما ظهر «اليهودي» في العصر الحديث على شاشة الوعي العربي والإسلامي فقد ظهر داخل التشكيل الإمبريالي الغربي ، وجاء إلى بلادنا ممثلاً له حاملاً لواءه وعميلاً له . وقد قامت هذه الإمبريالية بغرسه غرساً وسطنا داخل إطار الدولة الوظيفية ليقوم على خدمة مصالحها بعد أن اقتطعت جزءاً من الوطن العربي الإسلامي ، يقع في وسطه تماماً ومن ثم يقسمه قسمين ، وهي منطقة لها دلالة دينية خاصة ، إذ تضم القدس والمسجد الأقصى .

٢ – قامت الإمبريالية الغربية بتحويل يهود البلاد العربية إلى عنصر وظيفي استيطاني يدين لها بالولاء . وشهدت الجماهير العربية أعضاء الجماعات اليهودية وهم ينسلخون تدريجياً عن التشكيل الحضاري العربي والإسلامي . فعلى سبيل المثال أصبح كل يهود الجزائر مواطنين فرنسيين ، واستفاد يهود مصر من الامتيازات الأجنبية وحصلت نسبة مئوية كبيرة منهم على الجنسيات الأجنبية . وقد دعَّم هذا من صورة اليهودي كأجنبي وغريب ومغتصب ومتآمر وعميل ، شخص لا انتماء له يبحث عن مصلحته اليهودية .

٣ – من الملاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي يوجدون بشكل ملحوظ في الحركات الشيوعية العربية (شأنهم في هذا شأن أعضاء الأقليات في كثير من المجتمعات) . كما لوحظ أن عدداً كبيراً من الرأسماليين ممن راكموا ثروات ضخمة هم أيضاً من أعضاء الجماعات اليهودية . ولعل وجود أعضاء الجماعات اليهودية في كل من الحركات الشيوعية والطبقة الرأسمالية قد دعَّم صورة اليهودي اللا منتمي أو المنتمي لمصالحه اليهودية ، ودعَّم فكرة المؤامرة اليهودية .

٤ – من الأمور التي رسَّخت فكرة المؤامرة والهيمنة اليهودية على العالم في الوجدان العربي ، الدعم الغربي للتجمُّع الصهيوني بغير تحفُّظ أو شروط أو حدود أو قيود . وهو دعم سياسي واقتصادي وعسكري . وكثير من العرب يفترضون أن العالم الغربي عالم عقلاني ، تُتخذ فيه القرارات بشكل رشيد يخدم مصالح الدولة ، وأنه عالم ديموقراطي تنتشر فيه مُثُل العدل والمساواة وحقوق الإنسان ، ولذا حين يقوم الغرب العلماني العقلاني الديموقراطي بتأييد ودعم مشروع غير عقلاني ، غير ديموقراطي يستند إلى ديباجات دينية وعلمانية موغلة في الشوفينية ويتسم بضيق الأفق وينكر على الفلسطينيين أبسط حقوقهم ، فإن هذا أمر غير مفهوم ولا يمكن تفسيره بطريقة عقلانية . واهتمام الغرب المحموم بالإبادة النازية لليهود (التي مضى عليها ما يزيد عن خمسين عاماً) والإصرار على الاستمرار في تعويض الضحايا وتقديم الاعتذار لهم والتعبير عن الندم عما بَدَر من الألمان وغيرهم قد يكون أمراً محموداً في حد

ذاته (فهو في نهاية الأمر تعويض لفئة من ضحايا الحضارة الغربية) إلا أن هذه الظاهرة المحمودة في حد ذاتها تثير الشك حين يلاحظ المواطن العـربي والمسلم أن سلسلة كـاملة من المذابح قـد ارتكبت منذ الخمسينيات حتى منتصف التسعينيات (الجزائر - فيتنام - البوسنة - الشيشان) معظمها في العالم الإسلامي وتم التزام الصمت تجاهها ولم يتحدث أحد عن تعويض أو اعتذار أو توبة أو ندم ! هذا في الوقت الذي تستمر الآلة الإعلامية الغربية في التركيز على الهولوكوست دون غيرها . كما أن الزعم الغربي بأن فلسطين في الشرق العربي قُدِّمت لليهود تعويضاً لهم عما حدث لهم في ألمانيا في العالم الغربي، هو أمر يصعُب فهمه .

كل هذه الظواهر تثير التساؤلات في نفوس الناس ، وبما أنهم لا وقت عندهم للبحث والاستقصاء، لذا تظهر الإجابات الاختزالية السهلة، وصيغة المؤامرة اليهودية صيغة تملك مقدرة هائلة على سد الهوة التي تفصل عقلانية الرؤية الغربية عن لاعقلانية الممارسة الغربية . وما لم يخطر ببال هؤلاء أن عقلانية الغرب ودفاعه عن حقوق الإنسان ليسا مطلقين وأنهما لا ينصرفان لحقوق الإنسان العربي أو المسلم على سبيل المثال . وأن العقلانية تدور في إطار المصالح الإستراتيجية الغربية، التي تم تحديدها بطريقة ليست بالضرورة عقلانية وإنما من خلال مقولات قَبْلية متمركزة حول الغرب، معظمها عنصري .

٥ ـ قامت الدولة الصهيونية باعتبارها تعبيراً عن مشروع استيطاني إحلالي عليه أن يلجأ إلى الحد الأقصى من العنف ليتخلص من السكان الأصليين ، بما في ذلك الإبادة والطرد والعزل . وقد سمت هذه الدولة نفسها «الدولة اليهودية» فربطت بين اليهودي والعنف والإرهاب .

والأسوأ من هذا أن هذه الدولة ادَّعت أنها تتحدث باسم كل يهود العالم أينما كانوا ، ومن ثم فهي تتحدث باسم يهود البلاد العربية ، بل تطالب بالتعويضات باسمهم ، فكأن الدولة الصهيونية تنكر أن أعضاء الجماعات اليهودية مواطنين في بلادهم ، وتدعم الصورة الإدراكية العرْقية أن اليهودي لا انتماء له وأنه يدافع عن مصالحه اليهودية وحسب .

هذه هي بعض الأسباب التي أدَّت إلى هيمنة الرؤية التآمرية على إدراكنا لليهود في العالم العربي وإلى ذيوع **البروتوكولات** وغير ذلك من كتابات عنصرية تهدف إلى تفسير الواقع بشكل سريع منهل وإلى تفريغ شحنة الغضب عند كثير من العرب . ولكن تفريغ الشحنة هنا بهذه الطريقة له جوانبه السلبية العديدة ، والمطلوب هو أن نفهم أسباب الغضب ونحاول استثماره في إطار مشروع نضالي إنساني يهدف إلى تصفية الجيب الاستيطاني الصهيوني ولا يسقط في العنصرية العمياء .





٤
الإبادة النازية
والحضارة الغربية الحديثة

الإبادة النازية ليهود أوربا : مشكلة المصطلح ـ الهولوكوست (الإبادة) ـ المحرقة ـ الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية الحديثة ـ الآريون ـ تحول الإمكانية الإبادية إلى حقيقة تاريخية ـ السياق الحضاري الألماني للإبادة ـ النازية والحضارة الغربية ـ السياق السياسي والاجتماعي الألماني للإبادة ـ السياق السياسي والاجتماعي الألماني اليهودي للإبادة ـ الإبادة النازية للغجر ـ مارتن هايدجر والنازية

الإبادة النازية ليهود أوربا : مشكلة المصطلح

Nazi Extermination of Western Jewry :
The Problem of Terminology

يُستخدَم مصطلح «الإبادة» في العصر الحديث ليدل على محاولة القضاء على أقلية أو طائفة أو شعب قضاء كاملاً . ويُطلَق مصطلح «إبادة اليهود» (بالإنجليزية : إكستيرمينيشن أوف ذا جوز extermination of the Jews) في الخطاب السياسي الغربي على محاولة النازيين التخلص أساساً من أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا وفي البلاد الأوربية (التي وقعت في دائرة نفوذ الألمان) عن طريق تصفيتهم جسدياً (من خلال أفران الغاز) . وتُستخدَم أيضاً كلمة «جينوسايد genocide» وهي من مقطعين «جينو» من الكلمة اللاتينية «جيناس genus» بمعنى «نوع» و«كايديس caedes» بمعنى «مذبحة» .

وتُستخدَم أيضاً عبارة «الحل النهائي» للإشارة إلى «المخطط الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود ، أي تصفيتهم جسدياً» .

ويُشار إلى الإبادة في معظم الأحيان بكلمة «هولوكوست» وهي كلمة يونانية تعني «حرق القربان بالكامل» (وتُترجم إلى العبرية بكلمة «شواه» ، وتُترجم إلى العربية أحياناً بكلمة «المحرقة») . وكانت كلمة «هولوكوست» في الأصل مصطلحاً دينياً يهودياً يشير إلى القربان الذي يُضحَّى به للرب ، فلا يُشوى فقط بل يُحرق حرقاً كاملاً غير منقوص على المذبح ، ولا يُترك أي جزء منه لمن قدَّم القربان أو للكهنة الذين كانوا يتعيشون على القرابين المقدمة للرب . ولذلك ، كان الهولوكوست يُعَدُّ من أكثر الطقوس قداسة ، وكان يُقدَّم تكفيراً عن جريمة الكبرياء . ومن ناحية أخرى ، كان الهولوكوست هو القربان الوحيد الذي يمكن للأغيار أن يُقدِّموه .

ومن العسير معرفة سر اختيار هذا المصطلح ، ولكن يمكننا أن نقول إن المقصود عموماً هو تشبيه « الشعب اليهودي » بالقربان المحروق أو المشوي وأنه حُرِق لأنه أكثر الشعوب قداسة . كما أن النازيين ، باعتبارهم من الأغيار ، يحق لهم القيام بهذا الطقس . أو ربما وقع الاختيار على هذا المصطلح ليعني أن يهود غرب أوربا أُحرقوا كقربان الهولوكوست في عملية الإبادة النازية ولم يبق منهم شيء ، فهي إبادة كاملة بالمعنى الحرفي . ولكن حينما تستخدم الجماعات المسيحية الأصولية (الحرفية) في الولايات المتحدة كلمة «هولوكوست» فهي تركز على جريمة الكبرياء ، إذ ترى أن الإبادة عقاب عادل حاق باليهود بسبب صلفهم وغرورهم وكبريائهم .

ويُشار إلى الإبادة أحياناً بأنها «حُربان» وهي كلمة عبرية تُستخدَم للإشارة إلى «هدم الهيكل» ، فكأن الشعب اليهودي هنا هو الهيكل ، أو البيت الذي يحل فيه الإله ، والإبادة هي تهديم بيت الإله . وهذه الكلمة تُدخل حادثة الإبادة التاريخ اليهودي المقدَّس .

وفي الوقت الراهن ، تُستخدَم كلمة «هولوكوست» في اللغات الأوربية للإشارة إلى أية كارثة عظمى . فيشير الصهاينة ، على سبيل المثال ، إلى «الزواج المختلط» بين اليهود بأنه «الهولوكوست الصامت» (بالإنجليزية : سايلانت هولوكوست silent Holocaust) . وحينما يُصعِّد العرب من مقاومتهم للمستوطنين الصهاينة فإنهم ـ حسب المصطلح الصهيوني ـ يهددونهم بالهولوكوست . واستخدمت إحدى الصحف هذا المصطلح للإشارة إلى إحدى صفقات أسلحة الميراج بين ليبيا وفرنسا . كما استخدم أحد المتحدثين الصهاينة كلمة «هولوكوستي » وهي اسم صفة مشتق من هولوكوست فأشار إلى أحد الأفلام بأنه ليس «هولوكوستي Holocausty» بما فيه الكفاية . وهذا الاستخدام المستمر

والممجوج للمصطلح يؤدي إلى نتائج كوميدية أحياناً . إذ تساءل أحد دعاة حماية البيئة في نبرة جادة قائلاً : «كيف يمكن أن نستنكر الهولوكوست ضد اليهود ، ونحن نذبح ستة مليون دجاجة يومياً؟»، أي أنه ساوى بذلك بين الطبيعي والإنساني ، وبين الدجاجة واليهودي ، ودفع بالنموذج العلماني الشامل إلى نتيجته المنطقية وأطلق استنكاره هذا .

ويتم في الوقت الحاضر الاتجار بالهولوكوست وتوظيفها بشكل ممجوج لخدمة الأهداف الصهيونية والتجارية . وقد ظهرت مجموعة من المصطلحات المشتقة من كلمة «هولوكوست» والتي تُعبِّر عن الاستياء العميق من عملية التوظيف هذه . فنحت أحد الكُتَّاب كلمة «هولوكيتش Holokitsch» لوصف الكُتب والأفلام عن موضوع الهولوكوست والتي تُنتَج وتُنشَر بهدف تحقيق الربح ، حيث إنها تحاول إثارة العواطف واستغلالها على أسوأ وجه . وكلمة «كيتش» في اللغة الألمانية تعني الأعمال الفنية الشعبية الرديئة . كما ظهرت عبارة «هولوكوست بيزنس Holocaust business» أي «مشروع الهولوكوست التجاري» ، بمعنى توظيف الهولوكوست تجارياً لتحقيق الأرباح العالية . ومن العبارات الأخرى المتواترة عبارة «هولوكوست مانيا Holocaust mania» ، أي «الإنشغال الجنوني أو المرضي بالإبادة» .

ومن المعروف أن هناك عدة شعوب قامت من قبل بإبادة شعوب أخرى أو على الأقل بإبادة أعداد كبيرة منها . ووردت في العهد القديم أوامر عديدة بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم . ولكن من الثابت تاريخياً أن العبرانيين والكنعانيين تزاوجوا ، وأن معظم ادعاءات الإبادة قد تكون من قبيل التهويلات التي تتواتر في كثير من الوثائق القديمة أو تكون ذات طابع مجازي . وربما يكون قد تم فعلاً إبادة سكان مدينة أو اثنتين ، لكن هذا لم يكن النمط السائد نظراً لتدني المستوى العسكري لدى العبرانيين ، كما أن استيطان العبرانيين لم يتم عن طريق الغزو دفعة واحدة وإنما عن طريق التسلل أيضاً . ويستند الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الغربي إلى الإبادة ، فهذا ما فعله سكان أمريكا الشمالية البيض بالسكان الأصليين ، وهي عملية استمرت حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وفي تصوُّرنا أن ما يميِّز تجربة الإبادة النازية عن التجارب السابقة أنها تمت بشكل واعٍ ومخطط ومنظَّم وشامل ومنهجي ومحايد ، عن طريق استخدام أحدث الوسائل التكنولوجية وأساليب الإدارة الحديثة (أي أنها تجربة حديثة تماماً ، منفصلة عن القيمة) . وهذه السمات مرتبطة بتزايد معدلات الترشيد والعلمنة الشاملة وتحييد الواقع كله (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها قداسة خاصة ، وذلك حتى يمكن التحكم (الإمبريالي) فيه وإخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الإنسان والحيوان أو بين الألماني واليهودي ، وهو ما تسميه في مصطلحنا «الحوسلة» ، أي تحويل كل شيء ، وضمن ذلك الإنسان ، إلى وسيلة . ومن ثم فهناك فارق ضخم بين الإبادة (الحديثة) وبين المذابح في المجتمعات التقليدية ، إذ كانت المذابح تتم عادةً بشكل تلقائي غير منظم وغير منهجي وغير مخطط .

ويمكن في هذا المضمار أن نذكر «ليلة الزجاج المحطم» (بالألمانية : كريستال ناخت Kristallnacht) حينما قامت الجماهير الألمانية في العديد من مدن ألمانيا بالهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية . ويُقال إن الغضب الشعبي لم يكن تلقائياً وإنما تم بتخطيط من القيادات النازية التي كانت مجتمعة في ميونخ . كما أن إلقاء القبض على أعداد من اليهود بعد الحادث يدل على أن الأمر لم يكن تلقائياً تماماً .

ويصف بعض الدارسين ليلة الزجاج المحطم بأنها هجوم شعبي شبه منظَّم على اليهود (بوجروم) ، ولكن نظراً لضآلة عدد الضحايا ، لم يكن بوسع الدولة النازية أن تتخلص من ملايين اليهود باستخدام هذه الآلية البدائية التقليدية التي تعتمد على إثارة غضب الجماهير . ولذا ، كان لابد من اللجوء إلى آليات أخرى أكثر حداثة ، ووجد النازيون ضالتهم في مؤسسات الدولة الحديثة مثل التكنولوجيا المتقدمة التي تمتلكها ، وأجهزة الإعلام التابعة لها ، وأساليب الإدارة الحديثة الرشيدة . ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن الدولة النازية ما كان بوسعها أن تحقق غرضها بهذه السرعة وبهذه الكفاءة بدون هذه الآليات المتقدمة !

ونستخدم في هذه الموسوعة مصطلح «الإبادة النازية ليهود أوربا» ، وهو ـ في تصوُّرنا ـ مصطلح أكثر تفسيرية وحياداً من المصطلحات المستخدمة في اللغات الأوربية والعبرية ، فكلمتا «هولوكوست» و «شواه» تحملان إيحاءات دينية . ومصطلح «الحل النهائي» يحدد مجاله الدلالي بشكل قاطع لا يتفق مع مضمونه الحقيقي . أما مصطلحنا فقد حَدَّد الظاهرة النازية من حيث هي ظاهرة أوربية داخل سياق التاريخ الألماني والأوربي ، ومن حيث هي ظاهرة لم تحدث في سياق التاريخ العالمي . كما أنها تُضمر الإشارة للإبادة النازية للأقليات والشعوب الأخرى .

وكلمة «إبادة» كما نستخدمها لا تعني بالضرورة التصفية الجسدية ، وإنما تعني «استئصال شأفة اليهود» بجميع الطرق وضمنها

التهجير القسري (الترانسفير) وغيره من الطرق . ولذلك فنحن نشير أحياناً «للإبادة بالمعنى الخاص والمحدد للكلمة» ، أي «التصفية الجسدية المتعمَّدة» ، كما نشير «للإبادة بالمعنى العام للكلمة» وهي عملية " إبادة اليهود من خلال التهجير والتجويع وأعمال السخرة ، وأخيراً التصفية الجسدية المتعمَّدة" . ويمكننا هنا أن نقتبس كلمات أحد أهم خبراء الإبادة في التاريخ ، أي الزعيم النازي أدولف هتلر . فقد عبَّر عن إعجابه بإبادة الهنود الحمر (على يد المستوطنين البيض) عن "طريق التجويع أو القتال غير المتكافئ" . (انظر : «إشكالية الحل النهائي ومؤتمر فانسي») . كما أننا لا نهمل ما نسميه «اختفاء اليهود» من خلال عوامل طبيعية مختلفة تقع خارج نطاق الإبادة النازية ، بالمعنى العام أو الخاص (انظر : «موت الشعب اليهودي») .

الهولوكوست (الإبـــــادة)

Holocaust (Extermination)

«هولوكوست» كلمة يونانية تعني «حرق القربان بالكامل» وهي بالعبرية «شواه» ، وتُترجَم إلى العربية أحياناً بكلمة «المحرقة» . وتُستخدَم كلمة «هولوكوست» في العصر الحديث عادةً للإشارة إلى إبادة اليهود ، بمعنى تصفيتهم جسدياً ، على يد النازيين .

المحرقة

Shoah

«المحرقة» ترجمة عربية للمصطلح العبري «شواه» ، وهو بدوره ترجمة للمصطلح اليوناني «هولوكوست» . ويُستخدَم المصطلح للإشارة إلى الإبادة النازية لليهود .

الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربيـة الحديثة

Extermination and Deconstruction of Man as a Potentiality in Modern Western Civilization

لابد أن نؤكد ابتداءً أن التحولات الاقتصادية والسياسية في أي مجتمع لا تتم في فراغ مهما يكن مستوى هذه التحولات عمقاً أو ضحالة . فالمناخ الفكري والثقافي والنفسي يساعد على تحقيق بعض الإمكانات الكامنة في الواقع المادي وإجهاض البعض الآخر ، وعلى تحديد المسار النهائي لهذا الواقع إلى حدٍّ كبير . وتبني ألمانيا النازية لسلاح الإبادة كوسيلة لحل بعض المشاكل التي واجهها المجتمع الألماني لم يكن لينبع من الاعتبارات الاقتصادية أو السياسية وحدها ، فهو أمر مرتبط تماماً بإطار ثقافي وحضاري ونفسي أوسع .

ويمكننا القول بأن ثمة عناصر تسم التشكيل الحضاري الغربي الحديث جعلت الإبادة احتمالاً كامناً فيه وليست مجرد مسألة عَرَضية ، وولَّدت داخله استعداداً للتخلص من العناصر غير المرغوب فيها عن طريق إبادتها بشكل منظم ومخطط . وتحققت هذه الإمكانية بشكل غير متبلور في لحظات متفرقة ، ثم تحققت بشكل شبه كامل في اللحظة النازية النماذجية . وقد قام الإنسان الغربي بعملية الإبادة النازية وغيرها من عمليات الإبادة لا رغم حضارته الغربية وحداثته ، وإنما بسببها .

ولكن قبل أن نتوجه لقضية النزعة الإبادية في الحضارة الغربية ، لابد أن نشير إلى وضع اليهود داخل الحضارة الغربية حتى عصر النهضة . فالمسيحية الغربية لم تُطوِّر مفهوماً واضحاً خاصاً بالأقليات في المجتمع الغربي ولم تُشرِّع لهم ولم تحدد وضعهم القانوني ، واكتفت بمفهوم المحبة إطاراً عاماً . وقد صنَّفت الكاثوليكية الغربية اليهود باعتبارهم شعباً شاهداً ، يقف في تدنيه وضعَته " شاهداً " على عظمة الكنيسة وانتصارها . ولم يكن الأمر مختلفاً كثيراً على المستويين الاجتماعي والاقتصادي ، حيث تحوَّل اليهود إلى جماعة وظيفية ، وهي جماعة تُعرَّف في ضوء وظيفتها وفائدتها ونفعها (فهي مادة استعمالية) لا قداسة لها . وهذه الرؤية تعني «حوسلة» اليهود ، ولكنها في الوقت نفسه تعني ضرورة الحفاظ عليهم وحمايتهم من الهجمات الشعبية . فالكنيسة الكاثوليكية كانت تحتاج إلى هذا الشاهد الأزلي على عظمتها . كما أن الطبقات الحاكمة (النبلاء الإقطاعيون والملوك) كانت في حاجة إلى اليهود كأداة طيعة من أدوات الاستغلال وامتصاص فائض القيمة من الجماهير (كان يُطلَق على اليهود كلمة «الإسفنجة» ، لأنهم يمتصون فائض القيمة من الجماهير ثم يقوم الحاكم الإقطاعي باعتصار ما جمعوه من ثروة من خلال الضرائب) . ولذا ، وعلى عكس ما يتصور البعض ، كان العداء لليهود حركة شعبية موجهة ضد الطبقات الحاكمة وضد الكنيسة مُمثَّلين في الرمز المحسوس المباشر اليهود ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ومعها النبلاء هم حماة اليهود .

وتغيَّر الوضع مع ظهور عصر النهضة وبداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث بشكل جوهري . إذ ظهرت البروتستانتية التي رفضت فكرة الشعب الشاهد ولكنها تبنت بدلاً منها العقيدة الألفية الاسترجاعية التي ترى أن المسيح سيعود مرة أخرى للأرض ويؤسس مملكته على الأرض لمدة ألف عام ، وكان كل هذا مشروطاً بعودة اليهود إلى أرض الميعاد وتنصيرهم . فكأن اليهودي ظل مجرد أداة (كما هو الحال في الرؤية الكاثوليكية) ولكنه أداة لا يتم الحفاظ عليها

وإنما لابد من نقلها (ترانسفير) إلى فلسطين وتذويبها في المنظومة المسيحية . وتزامن هذا مع ظهور البورجوازيات المحلية والدولة القومية التي اضطلعت بكثير من وظائف الجماعة الوظيفية اليهودية التي لم يعد لها نفع . ولذا ، كانت المسألة اليهودية في أوربا تُناقش في إطار مدى نفع اليهود ، فكان أعداء اليهود يبينون أنهم لا فائدة لهم ، أما المدافعون عنهم (ومنهم المتحدثون باسم اليهود) فكانوا يركزون على «فائدة» اليهود ونفعهم . وطُرح تصور مفاده أنه يجب زيادة حقوق اليهود زيادة طردية مع زيادة نفعهم ، فإن زاد الواحد زاد الآخر (وهو ما يعني أن تَناقُص نفعهم يعني تفاقم مشاكلهم) . وقد قُسِّم اليهود إلى أقسام مختلفة تم تنظيمها بشكل هرمي . ففي أعلى الهرم كان يوجد أكثر اليهود نفعاً ، وهؤلاء كانوا يتمتعون بكافة الحقوق التي يتمتع بها أي مواطن ألماني ، وفي قاعدة الهرم كان يوجد اليهود غير النافعين الذين لا يتمتعون بأية حقوق ولذا كانوا يُصنَّفون ضمن من يجب التخلص منه وذلك بترحيلهم (بالإنجليزية : ديسبوزابل ترانسفيرابل disposable transferable) .

وساهمت كل هذه العناصر ولا شك في خلق الاستعداد الكامن والتربة الخصبة والتبادل الاختياري (بالإنجليزية : إليكتيف أفينيتي elective affinity في مصطلح ماكس فيبر) بين الحضارة الغربية وعملية إبادة اليهود . ولكن العنصر الحاسم ـ في تصورنا ـ في ظهور النزعة الإبادية (ضد اليهود وغيرهم من الأقليات والجماعات والشعوب) هو الرؤية الغربية الحديثة للكون . وهي رؤية يمكن وصفها بإيجاز شديد بأنها رؤية مادية واحدية (حلولية كمونية) تعود جذورها إلى عصر النهضة في الغرب . وقد اتسع نطاقها وازدادت هيمنتها إلى أن أصبحت هي النموذج التفسيري الحاكم مع منتصف القرن التاسع عشر ، عصر الإمبريالية والداروينية والعنصرية . وقد بدأت هذه الرؤية بمرحلة إنسانية هيومانية وضعت الإنسان في مركز الكون وتبنت منظومات أخلاقية مطلقة ، تنبع من الإيمان بالإنسان باعتباره كائناً مختلفاً عن الطبيعة/ المادة ، سابقاً عليها ، له معياريته ومرجعيته وغائيته الإنسانية المستقلة عنها (وهذا شكل من أشكال العلمانية الجزئية) . ولكن هذه الرؤية الإنسانية المادية تطورت من خلال منطق النسق المادي الذي يساوي بين الإنسان والطبيعة ومن خلال تَصاعُد معدلات الحلولية والعلمنة وانفصال كثير من مجالات النشاط الإنساني (الاقتصاد ـ السياسة ـ الفلسفة ـ العلم) عن المعيارية والمرجعية والغائية الإنسانية إلى أن فقد الإنسان مركزيته ومطلقيته وأسبقيته على الطبيعة/ المادة وتحوَّل إلى جزء لا يتجزأ منها وأصبح هو الآخر مادة ، منفصلة عن المرجعية والغائية والمعيارية الإنسانية (وهذه هي العلمانية الشاملة) .

وفي هذا الإطار ظهرت الأخلاق النفعية المادية التي تُعفي الإنسان من المسئولية الأخلاقية ، فهي مستمدة من الطبيعة/ المادة ومن قوانينها المتجاوزة للعواطف والغائيات والأخلاقيات الإنسانية . ومن ثم تَحرَّر الإنسان الغربي من أية مفاهيم متجاوزة مثل مفهوم «الإنسان ككل» أو «الإنسانية جمعاء» أو «صالح الإنسانية» ، كما تحرر من القيم المطلقة مثل «مستقبل البشرية» و«المساواة» و«العدل» ، وجعل من نفسه المركز والمطلق المنفصل تماماً عن كل القيم والغائيات الإنسانية العامة ، وأصبح هو نفسه تجسيداً لقانون الطبيعة ولحركة المادة وتحول إلى مرجعية ذاته ، وقانون ذاته ، ومعيارية ذاته ، وغائية ذاته ، ومن ثم أصبح من حقه أن يحوسل العالم كله وجميع شعوب الأرض لخدمة صالحه كما عرَّفه هو . وبذا تحولَّت الإنسانية (الهيومانية) الغربية إلى إمبريالية وأداتية ثم إلى عنصرية ، وانقسم البشر إلى سوبرمن supermen إمبرياليين يتحكمون في كل البشر والطبيعة ، وإلى سبمن subermen دون البشر أداتيين يذعنون لإرادة السوبرمن ولقوانين الطبيعة والمادة . وهذا ما نسميه «النفعية الداروينية» وهي المنظومة التي تذهب إلى أن من يملك القوة له «الحق» في أن يوظِّف الآخرين لخدمة مصالحه ، مستخدماً في ذلك آخر المناهج العلمية وأحدث الوسائل التكنولوجية ، متجرداً من أية عواطف أو أخلاق أو أحاسيس كلية أو إنسانية باعتبار أن الإنسان إن هو إلا مادة في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ، ومن ثم فمثل هذه الأحاسيس هي مجرد أحاسيس ميتافيزيقية أو قيم نسبية مرتبطة بالزمان والمكان ، وليس لها أية ثبات أو عالمية .

وتتبدَّى مادية هذه المنظومة وواحديتها في عدد من المصطلحات التي حققت قدراً من الذيوع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين أخذت المنظومة في التبلور وحينما تحددت معالم المشروع الإمبريالي الغربي والنظرية العرْقية الغربية . ومن أهم هذه المصطلحات ، من منظور هذه الدراسة ، ما يلي : «المادة البشرية» (بالإنجليزية : هيومان ماتيريال human material) ـ «الفائض البشري» (بالإنجليزية : هيومان سيربلاس human surplus) ـ «مادة استعمالية» (بالإنجليزية : يوسفول ماتر useful matter) . فكان يُشار إلى البشر باعتبارهم «مادة بشرية» يمكن توظيفها ، أما من لا يمكن توظيفه فكان يُشار إليه باعتباره «مادة بشرية فائضة» (وأحياناً «غير نافعة») . وهذه المادة الفائضة كان لابد وأن تُخضع لشكل من أشكال المعالجة ، فكانت إما أن تُصدَّر (ترانسفير) أو تُعاد صياغتها أو تُباد إن

فشلت معها كل الحلول السابقة . وترد هذه المصطلحات (وغيرها) في كتابات مفكري العنصرية الغربية مثل ماكس نوردو (قبل اعتناقه الصهيونية) وفي الأدبيات النازية (كان أيخمان يشير إلى اليهود المرحلين إلى فلسطين باعتبارهم « من أفضل المواد البيولوجية ») . وفي الأدبيات الصهيونية (كتاب هرتزل **دولة اليهود**) . ولنلاحظ أن كل المصطلحات تُضمر البُعدين الإمبريالي والأداتي ، الدارويني والبرجماتي ، فالإنسان مادة تُوظَّف ، مجرد موضوع ، ولكن هناك أيضاً من يُوظِّف ، فهو ذات نشطة فعالة . لكن كلاً من الذات الإمبريالية والموضوع الأداتي يدوران في إطار الرؤية المادية الواحدية . فالسوبرمن والسبمن ينتميان إلى عالم وثني حلولي كموني .

ولا يزال هذا هو المفهوم السائد للنفس البشرية ، رغم تواري المصطلحات التي تُعبِّر عن المفهوم بشكل متبلور . ومع هذا يُفصح النموذج عن نفسه بشكل فاضح ، وتعاود المصطلحات الشفافة الظهور . ففي عام ١٩٩٦ تكشفت فضيحة تخلي حكومة الولايات المتحدة عن بعض عملائها من الفيتناميين ممن تم تجنيدهم ليعملوا كجواسيس لحسابها . وممن قبضت عليهم المقاومة الفيتامينية ، إذ أنها بدلاً من أن تحاول العمل على الإفراج عنهم ، آثرت الراحة وأعلنت أنهم لاقوا حتفهم حتى يُغلَق ملفهم تماماً ولا تُصدع رأسها . وقد برَّر أحد الجنرالات الأمريكيين موقف حكومته بقوله إن هؤلاء العملاء أصبحوا بعد القبض عليهم مجرد « ممتلكات لا قيمة لها » (بالإنجليزية : أن فايابل أسّتس unviable assets) ، أي مادة بشرية فائضة لم يعد لها نفع بالنسبة للسوبرمان الذي قام باستخدامها .

وهذه هي النواة المعرفية والأخلاقية الأساسية للحضارة الغربية الحديثة . وهي نواة نمت وترعرعت وعبَّرت عن نفسها من خلال ثنائية الإمبريالي والأداتي ، والسوبرمان والسبمان ، فتزايدت معدلات اليقينية العلمية من ناحية ، الأمر الذي أدَّى إلى تَزايُد إحساس الإنسان الغربي بذاته وبقوة إرادته ومقدرته على البطش (خصوصاً بين النخبة الإمبريالية الحاكمة) . كما تزايدت في الوقت نفسه معدلات النسبية المعرفية والأخلاقية ، الأمر الذي أدَّى إلى ضمور حس الإنسان الغربي الخُلقي وضمور قدرته على اتخاذ القرار ، كما عَمَّقت قابليته للإذعان للقانون الموضوعي العام المجرد (اللاإنساني) كقيمة مطلقة لابد من العمل بمقتضاها والسير بهديها دون تساؤل (خصوصاً بين الجماهير) .

وسنورد فيما يلي بعض العناصر التي ساعدت على تعميق هذا الاتجاه العام في الحضارة الغربية . وتجدر ملاحظة أن كثيراً من العناصر التي سنوردها قد يكون لها وجهان أحدهما إمبريالي (بالنسبة للسوبرمن) والآخر أداتي (بالنسبة للسبمن) ، فالوجهان متداخلان ، وإن كان هناك من يُوظَّف فلابد أن يوجد من يُوظِّف :

١ ـ تصاعدت معدلات المشيحانية (أو المهدوية) العلمية أو العلموية، أي التبشير بأن التراكم المعرفي العلمي والتقدم التكنولوجي والتنظيم التكنوقراطي الدقيق (المنفصل عن القيمة) سيجعل الإنسان قادراً على التحكم في ذاته وفي واقعه تماماً ، وعلى التوصل إلى الحلول النهائية لمشاكله كافة (الاقتصادية والسياسية والفلسفية والنفسية) ، وإلى فرض هذه الحلول النهائية المجردة العلمية الدقيقة (المستمدة من عالم الطبيعة/ المادة البسيطة) على الواقع الاجتماعي والإنساني ، فيتخلص الإنسان من مشاكله (دفعة واحدة أو تدريجياً) ويستأصل كل ما يقع خارج حدود الحل النهائي أو يعوقه عن التحقق أو يعوق ظهور الإنسان الجديد الكامل (الذي يختلف عن الإنسان كما نعرفه) . فهذا الإنسان الكامل يتحكم في نفسه تماماً ، ويبرمجها ، أو يمكن برمجته . ومن هنا ظهر الاهتمام بعلوم جديدة مثل تحسين النسل (والهندسة الوراثية) . ومن هنا العداء الشديد للتشوهات الخلقية وللأمراض النفسية ، بل فكرة المرض نفسها باعتبارها تعبيراً عن الانحراف عن المعيار الطوباوي النهائي . ولكن حينما يُهيمن هذا المعيار يتم تأسيس الفردوس الأرضي ، اليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية ، دولة النعيم المقيم في الأرض المؤسس على العلم والتكنولوجيا ، وتُعلَن نهاية التاريخ والإنسان كما نعرفه . وهذا الحل النهائي سيعفي الإنسان من مسئولية الاختيار الأخلاقي إذ أن كل شيء سيكون مخططاً مبرمجاً ، خاضعاً لهندسة اجتماعية صارمة ، وتحت السيطرة السياسية والتكنوقراطية الكاملة . ولنا أن نلاحظ أنه سيكون هناك دائماً نخبة من السوبرمن تقرر طبيعة الحل أو البرنامج النهائي ومتى يمكن إعلان نهاية التاريخ وكيفية اتخاذ الإجراءات اللازمة للوصول لتلك اللحظة ، وإلى جانب النخبة ستوجد قاعدة عريضة من السبمن يُدْفَع بها دفعاً نحو اليوتوبيا .

٢ ـ ظهور أيديولوجيات علمانية شاملة (مثل الماركسية أو الاشتراكية العلمية والفاشية والنازية) ذات طابع مشيحاني قوي وذات رؤية خلاصية تدور حول مطلق علماني مادي شامل ، وتنطلق من الإيمان بالعلم والتكنولوجيا والتنظيم . هذا لا يعني أن الأيديولوجيات العلمانية الأخرى ترفض العلم مصدراً وحيداً للوصول إلى المعرفة ولتوليد القيم فهذا هو إطارها المرجعي الوحيد ، ولكن ما يحدث مع أيديولوجيات مثل النازية والماركسية (في نزعتها الستالينية) أن منطق العلمانية الشاملة يُعبِّر عن نفسه بشكل كامل يتسم بدرجة عالية من التبلور ، خصوصاً حينما يسانده جهاز الدولة المركزية الحديثة .

٣ ـ مع تَزايُد معدلات العلمنة الشاملة ، لم يَعُد من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني (متجاوز للقوانين الطبيعية/ المادية) ، فلم يكن ثمة مفر من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي كامن (حال) فيهم ، وليس مفارقاً لهم . ولهذا ، طُرح الأساس البيولوجي العرْقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيفهم . وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية ونظرية أخرى شبه علمية وهي الداروينية الاجتماعية ، وكانت الثمرة هي النظرية الغربية في التفاوت بين الأعراق ذات الطابع الدارويني . وتُقسِّم هذه النظرية الجنس البشري بأسره إلى أعراق لكلٍ منها سماته التي يمكن تحديدها علمياً . ومن ثم يمكن تصنيف البشر إلى أعراق راقية عليا : الآريون وبخاصة النورديون ، وأعراق دنيا : الزنوج والعرب واليهود . وتَفوُّق العنصر الآري الأبيض على كل الشعوب الأخرى يعطيه حقوقاً مطلقة كثيرة تتجاوز أية منظومات قيمية وأي حديث عن المساواة . وكلمة «آريان Aryan»، أي «آري» ، مشتقة من اللغة السنسكريتية ومعناها «سيِّد» . وقد استُخدم المصطلح في بداية الأمر للإشارة إلى مجموعة من اللغات الإيرانية ثم الهندية الأوربية ، إذ طرح العالم الألماني ماكس مولر (١٨٢٣ ـ ١٩٠٠) نظرية مفادها أن هناك جنساً يُسمَّى «آرياس» كان يتحدث اللغة الهندية الأوربية التي تفرعت عنها اللغات الهندية الأوربية الأخرى جميعاً ابتداءً بالهندوستانية وانتهاء بالإنجليزية . كما استُخدم المصطلح للإشارة إلى الشعوب الهندية الأوربية التي انتشرت في جنوب آسيا وشمال الهند في العصور القديمة . وكان جوزيف جوبينو (١٨١٦ ـ ١٨٨٢) من أهم المفكرين الذين أشاعوا هذه الفكرة ، فكان عادةً ما يضع الآريين مقابل الساميين ، وكان ثمة تَرادُف مُفترَض بين الآرية والهيلينية مقابل السامية .

وقام المفكرون العرْقيون الغربيون بتطوير المفهوم فذهبوا إلى أن هذا الجنس الآري انتشر من شمال الهند وإيران عبر الإستبس ، إلى أوربا ، وهو جنس يتسم ـ حسب نظريتهم ـ بالجمال والذكاء والشجاعة وعمق التفكير والمقدرة على التنظيم السياسي ، وبأنه المؤسس الحقيقي للحضارة وبتفوقه على الساميين والصفر والسود . ونبه هيوستون ستيوارت تشامبرلين (١٨٥٥ ـ ١٩٢٧) إلى أن النورديين هم أرقى الآريين ، فهم الجنس السيد ، أما اليهود والسود والعرب فيشغلون أدنى درجات السلم العرْقي . بينما ذهب دعاة النظرية العرْقية إلى أن التزاوج بين أعضاء الأجناس المختلفة يؤدي إلى تدهور العرْق الأسمى الذي يجب أن يحتفظ بنفسه قوياً نقياً حتى يضمن لنفسه البقاء والتماسك العضوي . وبطبيعة الحال ، صنِّف أعضاء الأجناس الأدنى باعتبارهم غير نافعين من منظور المطلق العرْقي (الشعب العضوي) لأنهم خطر على تماسك الشعب (أو العرْق) وعلى تجانسه ، وعدم التماسك يؤذي المصلحة العليا للدولة لأن التماسك يؤدي إلى زيادة الكفاءة الإنتاجية ، وإلى زيادة قوة الدولة في مقدرتها على البقاء والانتشار والهيمنة .

٤ ـ مع تَصاعُد معدلات العلمنة ظهرت كذلك فكرة الفولك أو الشعب العضوي الذي تربطه بأرضه وثقافته رابطة عضوية حتمية لا تنفصم عراها ، وهنا تحل الرابطة الإثنية محل الرابطة العرْقية ، ولكنها لا تختلف عنها في كمونيتها وحتميتها وفي تحولها إلى أساس تأكيد التفاوت بين الشعوب . ويُلاحَظ أن الشعب العضوي باعتباره قيمة مطلقة ومرجعية ذاته يتجاوز كل القيم ، ولكن صفة المطلق هنا لا تنسحب على الإنسان باعتباره فرداً قادراً على الاختيار الأخلاقي الحر وإنما على مجموعة من البشر لها سماتها الجماعية ومصالحها المشتركة وحقوقها المطلقة !

٥ ـ تزايدت معدلات النسبية المعرفية ، فعالم الطبيعة/ المادة هو عالم حركي لا ثبات فيه ولا حدود ، بحيث أصبح الإنسان يشك في وجود أية حقيقة يقينية . وهذا الشك لا ينصرف إلى الحقيقة وحسب وإنما إلى الموضوع ثم إلى الذات . وقد انتهى الأمر بالفلسفة الغربية إلى إنكار الكليات والميتافيزيقا وظهرت الفلسفة المعادية للفلسفة والميتافيزيقا وأي شكل من أشكال الثبات ، بما في ذلك ثبات الطبيعة البشرية . وهي فلسفة النسبية المعرفية الكاملة التي تصل إلى حالة من السيولة الكاملة وتنكر الذات والموضوع والمركز ومفهوم الطبيعة البشرية وإمكانية المعرفة والأخلاق وأي شكل من أشكال المعيارية (ما بعد الحداثة) . ورغم أن النازية تسبق ظهور ما بعد الحداثة بعدة أجيال إلا أن كثيراً من العناصر التي أدَّت إلى ظهور ما بعد الحداثة كانت قد تشكلت وتبلورت وكانت الفلسفة الغربية قد دخلت عصر السيولة . ولعله ليس من قبيل الصدفة أن هايدجر ، بنزعته النيتشوية ، والذي خرجت ما بعد الحداثة من تحت عباءته ، أيَّد النازية بلا تحفظ ، وكان النازيون يعتبرونه فيلسوفهم .

٦ ـ تَزايُد معدل انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة ، والتجريب عن العقل ، بحيث أصبح التجريب ، المنفصل عن أية غائيات إنسانية أو أخلاقية ، هدفاً في حد ذاته . وترجم هذا نفسه إلى ما يُسمَّى العلم المحايد ، المتجرد تماماً من القيمة . ولكن هناك دائماً من يقرر القيمة ونوعية التجارب التي ستُجرى .

٧ ـ تعاظمت قوة الدولة المركزية وهيمنتها وتحويلها ذاتها إلى مطلق ، ومن ثم أصبح الدفاع عن مصلحة الدولة القومية (ظالمة كانت أم

مظلومة) مسألة لا تقبل النقاش ولا تخضع لأية معيارية ، والانحراف عن هذا الهدف النهائي المطلق هو الخيانة العظمى وعقوبتها الإعدام . ويُلاحَظ أن مصطلحات مثل «مصلحة الدولة العليا» ليس لها مضمون أخلاقي ، وتَقبُّلها يعني تَقبُّل المجردات غير الإنسانية .

٨ ـ ظهرت مؤسسات بيروقراطية قوية (حكومية وغير حكومية) تولت كثيراً من الوظائف التي كانت تتولاها الأسرة في الماضي، وتقوم بعملية الاختيار بالنيابة عن الإنسان الفرد الأمر الذي يعني تَزايُد ضمور الحس الخلقي وانكماش ما يُسمَّى «رقعة الحياة الخاصة».

٩ ـ كانت هذه المؤسسات ترى نفسها ذاتاً مطلقةً تُعبِّر عن مصلحة الدولة (التي تُعبِّر عن إرادة الشعب) وقد جعلت جل همها أن تنفِّذ المطلوب منها تنفيذه بأقل التكاليف وأكثر الوسائل كفاءة ، دون أخذ أية اعتبارات خُلقية في الاعتبار .

١٠ ـ تزايدت معدلات الترشيد والتنميط والميكنة وهيمنة النماذج الكمية والبيروقراطية على المجتمع بكل ما ينجم عن ذلك من ترشيد للبيئة المادية والاجتماعية وترشيد للإنسان من خارجه وداخله .

١١ ـ تَصاعَد نفوذ مؤسسات الدولة المركزية «الأمنية» البرانية والجوانية وزادت مقدرتها على قمع الأفراد وتوجيههم «وإرشادهم» من الداخل والخارج . ورغم أهمية مؤسسات القمع المباشر البراني مثل المخابرات والبوليس السري ، إلا أن المؤسسات الأمنية الجوانية، مثل المؤسسات التربوية والإعلام ، كانت تفوقها في الأهمية . فإذا كانت المؤسسات البرانية تقوم بتوجيه الفرد بغلظه من الخارج ، فالمؤسسات الثانية تقوم بترشيده من الداخل ببطء وبشكل روتيني يومي لا يشعر هو به حتى يصل به الأمر إلى تَمثُّل ، ثم استبطان ، رؤية الدولة تماماً ، فينظر إلى الواقع من خلال عيونها دون حاجة إلى قمع خارجي ، ويحيِّد ذاته وحسه الخلقي ، ويصبح المجتمع أو الدولة أو العلم الطبيعي المصدرَ الوحيد للقيمة المطلقة ، وفي نهاية الأمر ينظر إلى نفسه باعتباره جزءاً من آلة كبرى ، وتصبح مهمته الأساسية ، وربما الوحيدة ، هي التكيف البرجماتي مع دوران الآلة .

١٢ ـ تزايدت معدلات التجريد في المجتمع ، ومن المعروف أن عمليتي التجريد والترشيد هما عمليتان متلازمتان ، إذ لا يمكن الترشيد دون تجريد ، أي نزع الصفات الخاصة عن الشيء والتركيز على الصفات العامة فيه والتي تجمع بينه وبين الأشياء الأخرى حتى يتسنى استيعابه داخل الآلة الاجتماعية . ويؤدي التجريد إلى ابتعاد الواقع الحي بحيث لا يدركه المرء بشكل مباشر متعين له قيمة ، إذ يصبح شيئاً له مواصفات محددة يمكن تقسيمه إلى أجزاء يمكن استبدال بعضها ، وينطبق هذا على البشر انطباقه على الأشياء . ويرى أورتيجا جاسيت أن عملية التجريد مرتبطة تمام الارتباط بعملية نزع الصبغة الإنسانية (بالإنجليزية : دي هيومانايزيشن dehumanization) .

وقد نجحت عمليات التجريد المتزايدة في جعل القيمة الأخلاقية شيئاً بعيداً للغاية لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر . ولنضرب مثلاً من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة : تُقسَّم عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة ، كل وظيفة تُشكِّل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب . ولأنها مجرد حلقة ، فهي محايدة تماماً ولا معنى لها ، إذ لا يوجد أي مضمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر . ومن ثم ، تظل النهاية الأخلاقية (حرق البشر وإبادتهم) بعيدة للغاية . والعامل أو الموظف المسئول عن هذه الحلقة سيبذل قصارى جهده في أداء عمله الموكل إليه دون أية أعباء أخلاقية ، ومن ثم تستمر الآلة الجهنمية في الدوران من خلال الحلقات والتروس ، ولا يتحمل أي شخص مسئولية إبادة البشر ، إذ أن مسئولية العامل أو الموظف مسئولية فنية تكنوقراطية وليست مسئولية أخلاقية .

١٣ ـ ومن المظاهر الأخرى للتجريد في المجتمع الحديث ممارسة العنف عن طريق مؤسسات متخصصة تقوم بتحقيق أهدافها بشكل مؤسسي رشيد (أي مقنن) ومنظم لا دخل فيه للعواطف . وعادةً ما تتم عمليات التعذيب وغيرها من أعمال العنف بعيداً عن الناس في أطراف المدينة ، داخل مكاتب أنيقة تم تقسيمها بعناية فائقة . وعادةً ما يتم التعذيب بأساليب علمية بحيث لا يترك أثراً على جسد الضحايا . وإن تم قتلهم فعادةً ما يمكن التخلص من جثثهم بطريقة نظيفة عالية الكفاءة .

١٤ ـ تظهر عمليتا التجريد والترشيد في استجابة البشر للعنف والإبادة ، إذ تحل الحسابات الرشيدة محل الاستجابة التلقائية والعواطف بحيث يمكن للإنسان أن يكبت أية أحاسيس بالشفقة أو الانفعال الغريزي داخله أو الإحساس التلقائي المباشر ويَحل محل ذلك كله قدر عال من الانضباط والتخطيط .

ويمكن القول بأن ما تم إنجازه في الحضارة الغربية الحديثة هو القضاء على الشخصية التقليدية ذات الولاء لمطلق خُلقي ثابت يتجاوز عالم المادة والتاريخ (ومن ثم فهي شخصية تعيش في ثنائيات وتعددية) وحلَّت محلها الشخصية الحركية المتغيرة والمتقلبة مع حركة المادة ، التي لا ولاء عندها لأية ثوابت أو مطلقات والتي تحررت من أية قيم أو غائية ، فهي تعيش في عالم الواحدية المادية المعقم من القيم

المتجاوزة . هذه الشخصية يمكن أن تتبدَّى من خلال إمبريالية داروينية مليئة باليقينية العلمية توظِّف الكون (الطبيعة والإنسان) لصالحها ، ويمكن لها أن تتبدَّى من خلال إذعان أداتي فتصبح شخصية نمطية تعاقدية برجماتية ذات بُعد واحد ، تستبطن تماماً النماذج السائدة في المجتمع والتي تروجها الأجهزة الأمنية للمجتمع وضمن ذلك الإعلام ، وهي شخصية نسبية هزيلة مهتزة لا تثق في ذاتها ولا رؤيتها ولا هويتها ولا منظوماتها ولذا يتحدد تَوجُّهها حسب ما يصدر لها من أوامر تأتي لها من عل ، ويتحدد ولاؤها استناداً إلى المصلحة المادية المتغيرة التي يتم تعريفها مدنياً وقومياً وعلمياً وموضوعياً (من خلال الجهات المسئولة واللجان المتخصصة والسوبرمن) ومن ثم يمكنها أن تطيع الأوامر البرانية وتنفذ التعليمات بدقة متناهية . وهي شخصية ذات عقل أداتي لا تفكر في الغايات وإنما في الوسائل والإجراءات وحسب ، وفي أحسن السبل لإنجاز ما أوكل لها من مهام دون تساؤل عن مضمونها الأخلاقي أو هدفها الإنساني .

وحينما ظهرت هذه الشخصية ، أصبح من الممكن أن تقرر الدولة وأعضاء النخبة إبادة عناصر غير نافعة في المجتمع (الفائض البشري) أو في وطن آخر أو قارة بأسرها تشكل مجالاً حيوياً للدولة صاحبة القرار . ولم يعد هذا جريمة إذ لا توجد قوانين مطلقة خارجة عن الدولة ، أو هي « جريمة قانونية مشروعة » ، إن صح القول ، تكتسب مشروعيتها من أن الدولة توافق عليها وتباركها ، بل تشجع عليها وتضرب على يد كل من يعارضها أو يحجم عن اقترافها .

وهناك على كلٍّ المؤسسات المتخصصة لتنفيذ الجريمة ، وهي مؤسسات بيروقراطية منفصلة عن القيمة ، تتجاوز الخير والشر ، ولا تسأل عن السبب وإنما عن الوسيلة (أي أنها ملتزمة بالترشيد الإجرائي وأخلاقيات الصيرورة) ، والعاملون في مثل هذه المؤسسات لا يتخذون قرار قتل الأطفال ، على سبيل المثال ، بأنفسهم ، ولا ينفذون جريمة القتل بأيديهم فاللجان المتخصصة التي تضم السوبرمن تجتمع على أعلى مستوى وتناقش المسألة بطريقة علمية وبيروقراطية وفي لغة محايدة وتتخذ القرارات في ضوء ما تراه هي الصالح العام . ثم يصدر الأمر في نهاية الأمر ، لا بالقتل أو التصفية الجسدية وإنما بالقيام بعمليات «التطهير العرقي» أو «الحل النهائي» أو خدمة «مصلحة الدولة العليا» . ثم يُقسَّم القرار إلى مئات التفاصيل التي يقوم بها آلاف الموظفين التنفيذيين من الجنود والعمال والفلاحين والمهنيين الذين لن يشعروا بهذا الطفل الذي سيُقتَل في غابات فيتنام أو في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين أو في معسكرات الاعتقال النازية .

وحتى إذا شعر الإنسان في أعماق أعماقه بلا أخلاقية القرار ، فسوف يكون قد تعلم من الآليات ما يجعله قادراً على إسكات حسه الخُلقي . فالإنسان الحديث أصبح بوسعه ، بحسه العملي ، ومن خلال الحسابات الرشيدة والتسويغ العلمي الموضوعي المحايد الصارم والنسبية الكاملة التي تجعل الأمور متساوية ، تبرير أي شيء وقبول أي وضع ، فتمكن التضحية بالجزء في سبيل الكل ، والأقلية في سبيل الأغلبية ، والمرضى في سبيل الأصحاء ، والعجزة في سبيل الشباب . ومع سيطرة حب البقاء ، باعتبار أن البقاء قيمة مطلقة ، فإن الجميع يمكن أن يتعاونوا مع الدولة من قبيل تقليل الخسائر (إذ لا توجد قيم مطلقة أو مرجعية متجاوزة يمكن للفرد أن يؤمن بها ويموت من أجلها ويحاكم البشر والأمم كافة من منظورها) . ثم تتكفل المؤسسات الإعلامية للدولة بتصفية كل ما تبقى من أحاسيس إنسانية أو أخلاقية "متخلفة" تشكل ثنائية لا تريد أن تختفي .

وبهذا المعنى يمكن القول بأن الحضارة الغربية الحديثة (في جانب هام من جوانبها) هي تعبير عن التراجع التدريجي والمستمر للفلسفة الإنسانية الهيومانية التي تؤكد استقلالية الإنسان عن الطبيعة/ المادة ومقدرته على تجاوزها وعلى تطوير منظومات قيمية ومعرفية تضعه في مركز الكون . هذا التَراجُع يقابله تَصاعُد مستمر ومطرد للحلولية الكمونية المادية (أي الواحدية المادية أو وحدة الوجود المادية أو العلمانية الشاملة) التي تُهمِّش الإنسان ومنظوماته المعرفية والأخلاقية جميعاً وتُسوِّيه بالظواهر الطبيعية وترده إلى عناصره الأولية المادية ، أي تقوم بتفكيكه وتذويبه تماماً في الطبيعة/ المادة ، فتلغيه وتبيده ككائن له قيمة مطلقة ، مستقل عن قوانين الحركة الطبيعية/ المادية .

وقد يكون من المفيد والطريف في الوقت نفسه أن نربط مصطلحي «الإبادة» (بالإنجليزية : إكسترمينيشن extermination) و«التفكيك» (بالإنجليزية : دي كونستراكشن deconstruction) بمجموعة من المصطلحات الأخرى التي استخدمها علم الاجتماع الغربي لوصف بعض الجوانب السلبية للحداثة الغربية ، وكلها تفيد تهميش وتفكيك وتَراجُع وضمور وذبول وغياب الإنساني والأخلاقي لصالح ما هو غير إنساني ومحايد ومتشيئ :

١ ـ «دي سنترينج مان decentering man» أي «إزاحة الإنسان عن المركز» ، بمعنى «إفقاد الإنسان مركزيته في الكون» .

٢ ـ «دي برسونالايزيشن depersonalization» أي «إسقاط السمات الشخصية» .

٣ ـ «ديس انتشانتمنت أوف ذي ورلد disenchantment of the world» أي «تحرير العالم من سحره وجلاله» ، بمعنى أن يصبح العالم مادة محضة لا أسرار فيها ، يمكن للعقل الإحاطة بها ومعرفة قوانينها والتحكم فيها .

٤ ـ «دي سانكتيفيكيشن desanctification» أو «دي ساكرالايزيشن desacralization» أي «نزع القداسة عن الظواهر كافة [ومنها الإنسان] بحيث تصبح لا حرمة لها وينظر لها نظرة مادية لا علاقة لها بما وراء الطبيعة» .

٥ ـ «دي ميستفيكيشن demystification» أي «نزع السر عن الظواهر [بما في ذلك الإنسان]» .

٦ ـ «دي نيوديننج denuding» أي «تعرية كل الظواهر من أية مثاليات [ومنها الإنسان] حتى تظهر على حقيقتها المادية» .

٧ ـ «دي هيومانايزيشن dehumanization» أي «تجريد الإنسان من خصائصه الإنسانية» .

وهكذا تبدأ عملية العلمنة الشاملة (بعد المرحلة الإنسانية الهيومانية الأولى) بإزاحة الإنسان عن المركز ثم نزع الجوانب الشخصية عنه بحيث يصبح شيئاً ليست له خصوصية أو تفرُّد . ثم «يُحرَّر» العالم من سحره وجماله فيصبح الإنسان والطبيعة مادة محضة ، ثم تنزع عنه كل قداسة وتُهتَك كل أسراره ، ويُعرَّى من أية مثاليات لنصل إلى نوع من أنواع الإباحية الأخلاقية المعرفية إذ يصبح الإنسان لحماً يُوظَّف في مزارع البيض في الجنوب الأمريكي أو مصانع الرأسماليين في لندن أو يُرسل إلى معسكرات السخرة والإبادة في ألمانيا أو يُصوَّر في مجلات إباحية في كل أو أي مكان . والمحصلة النهائية لكل هذا هي نزع الصفة الإنسانية عن الإنسان وتحويله إلى مادة محضة ، قابلة للحوسلة . وهذه هي قمة العلمنة الشاملة والتفكيك الكامل .

ونحن نربط كل هذه المصطلحات وغيرها بمصطلح «نهاية التاريخ» باعتبار أن نهاية التاريخ هي النقطة التي يتم التحكم فيها في كل شيء وينتهي الإنسان كما نعرفه ، أي الإنسان الذي يشغل مركز الكون متجاوزاً النظام الطبيعي .

ونحن لا نزعم أن الرؤية الواحدية المادية تؤدي حتماً وبشكل مطلق إلى الإبادة والتفكيكية . كل ما نؤكده أن مثل هذه الرؤية تخلق التربة الخصبة لانتشار الآراء النفعية الداروينية المادية التي تترعرع فيها الاتجاهات والأفكار الإبادية والتفكيكية وتتحقق .

الآريون

Aryans

انظر : «الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية الحديثة» .

تحول الإمكانية الإبادية إلى حقيقة تاريخية

Historical Realization of the Genocidal Potential

هذه القابلية أو الإمكانية الكامنة للإبادة ، ولتفكيك الإنسان لعناصره المادية الأساسية لاستخدامها على أكمل وجه ، تحققت أول ما تحققت بشكل جزئي وتدريجي في التجربة الاستعمارية الغربية بشقيها الاستيطاني والإمبريالي . فقد خرجت جيوش الدول الغربية الإمبريالية تحمل أسلحة الدمار والفتك والإبادة ، وحَوَّل الإنسان الغربي نفسه إلى سوبرمان له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر ، ومن أهمها حق الاستيلاء على العالم وتحويله إلى مجال حيوي لحركته ونشاطه وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام ، طبيعية أو بشرية . فاعتُبِرت شعوب آسيا وأفريقيا (الصفراء والسوداء المتخلفة) مجرد سبمن ، مادة بشرية تُوظَّف في خدمته ، كما اعتُبر العالم مجرد مادة طبيعية تُوظَّف في خدمة دول أوربا وشعوبها البيضاء المتقدمة ، واعتُبرت الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي له يصدِّر له مشاكله . بل لم تفرق الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وأفريقيا وشعوب العالم الغربي ، فالجميع مادة بشرية ، نافعة أو غير نافعة ، ضرورية أو فائضة . فكان العمال يُنظر لهم باعتبارهم مادة بشرية نافعة ، ومصدراً لفائض القيمة ، أما المتعطلون فهم مادة بشرية فائضة . وصنِّف المجرمون (وفي مرحلة أخرى ، المعوقون والمسنون) مادةً بشريةً غير نافعة . وهذه المادة يجب أن «تُعالج» ، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة البشرية الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد «الحلول الأخرى» إن استلزم الأمر) .

وكانت أولى عمليات "المعالجة" هي نقل الساخطين سياسياً ودينياً (البيوريتان) إلى أمريكا ، والمجرمين والفاشلين في تحقيق الحراك الاجتماعي في أوطانهم إلى أمريكا وأستراليا . وتبعتها عمليات ترانسفير أخرى تهدف جميعاً إلى تحقيق صالح الإنسان الغربي :

ـ نقل سكان أفريقيا إلى الأمريكتين لتحويلهم إلى مادة استعمالية رخيصة .

ـ نقل جيوش أوربا إلى كل أنحاء العالم ، وذلك للهيمنة عليها وتحويلها إلى مادة بشرية وطبيعية تُوظَّف لصالح الغرب .

ـ نقْل الفائض البشري من أوربا إلى جيوب استيطانية غربية في كل أنحاء العالم ، لتكون ركائز للجيوش الغربية والحضارة الغربية (فيما يُعَد أكبر حركة هجرة في التاريخ) .

ـ نقْل كثير من أعضاء الأقليات إلى بلاد أخرى (الصينيين إلى ماليزيا ـ الهنود إلى عدة أماكن ـ اليهود إلى الأرجنتين) كشكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني ، إذ أن هذه الأقليات تشكل جيوباً استيطانية داخل البلاد التي تستقر فيها .

ـ نقْل كثير من العناصر المقاتلة من آسيا وأفريقيا وتحويلهم إلى جنود مرتزقة في الجيوش الغربية الاستعمارية ، مثل الهنود (خصوصاً السيخ) في الجيوش البريطانية . وفي الحرب العالمية الأولى ، تم تهجير ١٣٢ ألفاً من مختلف أقطار المغرب لسد الفراغ الناجم عن تجنيد الفرنسيين ، بالإضافة إلى تجنيد بعضهم مباشرةً للقتال (وهذه هي أول «هجرة» لسكان المغرب العربي ، وقد استمرت بعد ذلك تلقائياً) .

ـ مع ظهور فكر حركة الاستنارة في الغرب تم تعريف الناس حسب نفعهم للمجتمع والدولة وقد طُبِّق هذا المعيار على كل المواطنين وبخاصة أعضاء الأقليات . فتم تقسيم اليهود في كثير من البلاد الغربية ـ كما أسلفنا ـ بحيث أصبح غير النافعين قابلين للترحيل .

ـ في هذا الإطار المعرفي الترانسفيري ، تمت عملية الاستيطان الصهيونية التي هي في جوهرها تصدير لإحدى مشاكل أوربا الاجتماعية (المسألة اليهودية) إلى الشرق . فيهود أوربا هم مجرد مادة (فائض بشري لا نفع له داخل أوربا يمكن توظيفه في خدمتها في فلسطين) ، والعرب أيضاً مادة (كتلة بشرية تقف ضد هذه المصالح الغربية) ، وفلسطين كذلك مادة ، فهي ليست وطناً وإنما هي جزء لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة تُطلَق عليه كلمة «الأرض» . فتم نقل العرب من فلسطين ونُقل اليهود إليها ، وتمت إعادة صياغة كل شيء بما يتلاءم مع مصالح الإنسان الغربي .

ـ تمت عمليات ترانسفير ضخمة بعد الحرب العالمية الأولى ، فنُقل سكان يونانيون من تركيا إلى اليونان ، وسكان أتراك من اليونان إلى تركيا ، كما نُقل سكان ألمان من بروسيا الشرقية بعد ضمها إلى بولندا . وهذه العمليات هي التي أوحت لهتلر بعمليات نقل اليهود خارج الرايخ . بل إنه في السنين الأخيرة من حكم الرايخ طوَّر هملر جنرال بلان أوست Generalplan Ost لنقل ٣١ مليوناً «غير ألمان» من أوربا الشرقية وتوطين ألمان بدلاً منهم .

وما يهمنا في هذا كله هو نزع القداسة عن البشر كافة (في الشرق والغرب) وتحويلهم إلى مادة استعمالية ليست لها قيمة مطلقة ، ولا علاقة لها بأية معيارية . ولكن لنركز على التجربة الاستيطانية الغربية في جميع أنحاء العالم ، خصوصاً في أمريكا الشمالية ، وهي تجربة كانت تفترض ضرورة إبادة تلك العناصر البشرية الثابتة التي كانت تقف عقبة كأداء في طريق الإنسان الغربي وتحقيق مشروعه الإمبريالي . وقد قبلت الجماهير الأوربية عملية الإبادة الإمبريالية وساهمت فيها بحماس شديد ، لأن هذه العملية كانت تخدم مصالحها ، كما أوهمتها الدول الإمبريالية ذات القبضة الحديدية في الداخل والخارج .

وتُعدُّ العقيدة البيوريتانية (أو التطهرية) ، عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية ، هي أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التي كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة . فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهي «أرض بلا شعب» . وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عبرانيين» ، وللسكان الأصليين باعتبارهم «كنعانيين» أو «عماليق» (وكلها مصطلحات توراتية إبادية ، استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد في كل أرجاء العالم متجاهلين تماماً القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء) .

وكان كل هذا يعني في واقع الأمر إبادة السكان الأصليين حتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة ! وقد تم إنجاز هذا من خلال القتل المباشر ، أو نقل الأمراض المختلفة (كأن تُترك أغطية مصابة بالجدري كي يأخذها الهنود فينتشر الوباء بينهم ويتم إبادتهم تماماً) . وكانت الحكومة البريطانية في عصر الملك جورج الثالث تعطي مكافأة مالية لكل من يحضر فروة رأس هندي قرينة على قتله . واستمرت هذه التقاليد الغربية الإبادية بعد استقلال أمريكا ، بل تصاعدت بعد عام ١٨٣٠ حين أصدر الرئيس جاكسون قانون ترحيل الهنود ، والذي تم بمقتضاه تجميع خمسين ألفاً من هنود الشيروكي من جورجيا وترحيلهم (ترانسفير) أثناء فصل الشتاء سيراً على الأقدام إلى معسكر اعتقال خُصِّص لهم في أوكلاهوما . وقد مات أغلبهم في الطريق (وهذا شكل من أشكال الإبادة عن طريق التهجير [ترانسفير] ، فهو شكلاً ترانسفير من مكان لآخر ولكنه فعلاً ترانسفير من هذا العالم للعالم الآخر) . ووصلت العملية الإبادية إلى قمتها في معركة ونديد ني Wounded Knee (الركبة الجريحة) عام ١٨٩٠ . وكانت الثمرة النهائية لعمليات الإبادة هذه أنه لم يبق سوى نصف مليون من مجموع السكان الأصليين الذي كان يُقدر بنحو ٦,٥ مليون عام ١٥٠٠ لدى وصول الإنسان الأبيض ، أي أنه تمت إبادة ستة مليون مواطن أصلي (وهو رقم سحري لا يذكره أحد هذه

الأيام) ، إذا لم نحسب نسبة التزايد الطبيعي (يُقدر البعض أن العدد الفعلي الذي تم إبادته منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد يصل إلى عشرات الملايين) . وقد تكرر نفس النمط في أستراليا التي كان يبلغ عدد سكانها الأصليين ٢ مليون عند استيطان البيض للقارة في عام ١٧٨٨ لم يبق منهم سوى ٣٠٠ ألف . ولا تزال عملية إبادة السكان الأصليين مستمرة في البرازيل وأماكن أخرى (وإن كان بشكل أقل منهجية وخارج نطاق الدولة) .

وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة . وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً ، ومع هذا يجب أن نتذكر أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم إما من خلال أسباب « طبيعية » بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية أو من خلال إلقائهم في البحر لإصابتهم بالمرض .

وكانت أعمال السخرة الاستعمارية في أفريقيا ذاتها لا تقل قسوة . ففي كتابه **رحلة إلى الكونغو** (١٩٢٧) ، يُبيِّن أندريه جيد كيف أن بناء السكة الحديد بين برازفيل والبوانت السوداء (مساحة طولها ١٤٠ كيلو متر) احتاجت إلى سبعة عشر ألف جثة . ويمكن أن نتذكر أيضاً حفر قناة السويس بنفس الطريقة وتحت نفس الظروف وبنفس التكلفة البشرية .

وقد ورد في إحدى الدراسات أن عدد المواطنين الأوربيين الذين لهم علاقة بعمليات التطهير العرْقي والإبادة داخل أوربا (إما كضحايا أو كجزارين) يصل إلى مائة مليون ، فإذا أضفنا إلى هذا عدد المتورطين في عمليات القمع والإبادة الاستعمارية في الكونغو وفلسطين والجزائر وفيتنام وغيرها من البلدان فإن العدد حتماً سوف يتضاعف .

ولكن الإمكانية الإبادية الكامنة التي تحققت بشكل غير متبلور وجزئي في التجربة الإمبريالية والاستيطانية الغربية ، تحققت بشكل نماذجي كامل في الإبادة النازية أو في «اللحظة النازية النماذجية» في الحضارة الغربية ، أي اللحظة التي تبلور فيها النموذج وأفصح عن نفسه بشكل متبلور فاضح ، دون زخارف أو ديباجات (ولذا أذهلت الجميع ، وضمنهم المدافعون عن النموذج في صوره الأقل تبلوراً وأكثر اعتدالاً) .

وكان النازيون يُدركون تمام الإدراك أن نظامهم النازي وممارساته الإبادية هما ثمرة طبيعية للتشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي الحديث . وقد بيَّن كاتبو سيرة حياة هتلر أن أولى تجارب الإنسان الغربي الاستعمارية الاستيطانية ، أي تجربته في أمريكا الشمالية ، كانت تجربة مثالية أوحت له بكثير من أفكاره التي وضعها موضع التنفيذ فيما بعد . وكما يقول المؤرخ جون تولاند إن هتلر ، في أحاديثه الخاصة مع أعضاء الحلقة المقرَّبة إليه ، كثيراً ما كان يعبِّر عن إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين وطريقة "معالجتهم" لقضية الهنود الحمر . فقد قاموا بمحاولة ترويضهم عن طريق الأسر ، أما هؤلاء الذين رفضوا الرضوخ فكان يتم إبادتهم من خلال "التجويع أو القتال غير المتكافئ" . ويقول يواقيم فست إن حروب هتلر القارية المستمرة كانت محاكاة للنموذج الاستعماري الغربي في أمريكا الشمالية . وبالفعل صرح هتلر في إحدى خطبه بأنه حين قام كورتيز وبيزارو (وهما من أوائل القواد الاستعماريين الإسبان) بغزو أمريكا الوسطى والولايات الشمالية من أمريكا الجنوبية ، فهم لم يفعلوا ذلك انطلاقاً من أي سند قانوني وإنما من الإحساس الداخلي المطلق بالتفوق . فاستيطان الإنسان الأبيض لأمريكا الشمالية ، كما أكد هتلر ، لم يكن له أي سند ديموقراطي أو دولي ، وإنما كان ينبع من الإيمان بتفوق الجنس الأبيض . ولذا في مجال تبريره للحرب الشرسة التي شنها على شرق أوربا قال هتلر : " إن هناك واجباً واحداً : أن نؤلمن هذه البلاد من خلال هجرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان الأصليين باعتبارهم هنوداً حمراً " . وأكد هتلر أن الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة في شرق أوربا لا تختلف كثيراً عن كفاح البيض في أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر . ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها "أرضاً عذراء" و"صحراء مهجورة" ("أرض بلا شعب" في المصطلح الصهيوني) . وقد بيَّن ألفريد روزنبرج ، أثناء محاكمته في نورمبرج ، هذه العلاقة العضوية بين العنصرية النازية والمشروع الغربي الإمبريالي ، فأشار مثلاً إلى أنه تعرَّف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماري الإنجليزي كتشنر ، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج ، وأن رؤيته العرْقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية ، فالنازية - كما أكد روزنبرج لمحاكميه - جزء من الحضارة الغربية .

ولعل أكبر دليل على أن الإبادة إمكانية كامنة ، تضرب بجذورها في الحضارة الغربية الحديثة ، أنها لم تكن مقصورة على النازيين وإنما تشكل مرجعية فكر وسلوك الحلفاء ، أعداء النازيين الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب ! فإرنست همنجواي ، الكاتب الأمريكي ، كان يُطالب بتعقيم الألمان بشكل جماعي للقضاء على

العنصر الألماني . وفي عام ١٩٤٠ قال تشرشل إنه ينوي تجويع ألمانيا وتدمير المدن الألمانية وحرقها وحرق غاباتها . وقد عبَّر كاتب يُسمَّى كليفتون فاديمان عن هذا الموقف الإبادي بشكل متبلور . ولم يكن فاديمان هذا شخصية ثانوية في المؤسسة الثقافية الأمريكية فقد كان محرر مجلة **النيو يوركر** (وهي من أهم المجلات الأمريكية) ورئيس إحدى الوكالات الأدبية التي أنشأتها الحكومة الأمريكية إبَّان الحرب بغرض الحرب النفسية . وقد شن حملة كراهية ضارية ضد الألمان (تشبه في كثير من الوجوه الحملة التي شنها الغرب ضد العرب في الستينيات والتي يشنها ضد المسلمين والإسلام في الوقت الحاضر) وجعل الهدف منها " إضرام الكراهية لا ضد القيادة النازية وحسب ، وإنما ضد الألمان ككل . . . فالطريقة الوحيدة لأن يفهم الألمان ما نقول هو قتلهم . . . فالعدوان النازي لا تقوم به عصابة صغيرة . . . وإنما هو التعبير النهائي عن أعمق غرائز الشعب الألماني ، فهتلر هو تَجسُّد لقوى أكبر منه ، والهرطقة التي ينادي بها هتلر عمرها ٢٠٠٠ عام" . ومثل هذا الحديث لا يختلف كثيراً عن الحديث عن عبء الرجل الأبيض وعن الخطر الإسلامي ومن قبله الخطر الأصفر .

وقد اشترك بعض الزعماء والكُتّاب اليهود في هذه الحملة ، فصرح فلاديمير جابوتنسكي عام ١٩٣٤ بأن مصلحة اليهود تتطلب الإبادة النهائية لألمانيا ، « فالشعب الألماني بأسره يُشكِّل تهديداً لنا» . ولكن يمكن القول بأن كتاب الكاتب الأمريكي اليهودي تيودور كاوفمان بعنوان **لابد من إبادة ألمانيا** هو من أهم الكتب المحرضة على الإبادة ، وقد استفادت منه آلة الدعاية النازية وبيَّنت أبعاد المؤامرة الإبادية ضد الألمان ، وهو ما شكَّل تبريراً لفكرة الإبادة النازية نفسها . وقد ورد في هذا الكتاب أن كل الألمان ، مهما كان توجههم السياسي (حتى لو كانوا معادين للنازية ، أو شيوعيين ، أو حتى محبين لليهود) لا يستحقون الحياة ، ولذا لابد من تجنيد آلاف الأطباء بعد الحرب ليقوموا بتعقيمهم حتى يتسنى إبادة الجنس الألماني تماماً خلال ستين عاماً !

وكان هناك حديث متواتر عن ضرورة «هدم ألمانيا» ، وعن «تحويل ألمانيا إلى بلد رعوية» (بالإنجليزية : باستوراليزيشن patsoralization) ، أي هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة (كما حدث لمحمد علي) . ونجحت غارات الحلفاء على المدن الألمانية في إبادة مئات الألوف من المدنيين (من الرجال والأطفال والنساء والعجائز) وتحطيم كل أشكال الحضارة والحياة . وقد بلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحدها ٢٠٠ ألف قتيل . كما استمرت النزعة الإبادية بعد الحرب، فقامت قوات الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان في معسكرات اعتقال وتم إهمالهم عن عمد، فتم تصنيفهم على أساس أنهم DEFS وهي اختصار عبارة «ديس آرميد إنيمي فورسيز disarmed enemy forces» أي «قوات معادية تم نزع سلاحها» بدلاً من تصنيفهم «أسرى حرب» . وإعادة التصنيف هذه كانت تعني في واقع الأمر حرمانهم من المعاملة الإنسانية التي تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب ، وبالفعل قضى ٧٩٣,٢٣٩ جندي ألماني نحبهم في معسكرات الاعتقال الأمريكية عام ١٩٤٥، كما قضى ١٦٧ ألف نحبهم في معسكرات الاعتقال الفرنسية نتيجةً للجوع والمرض والأحوال الصحية السيئة (حسبما جاء في دراسة لجيمس باك James Bacque)، وفي الوقت ذاته كان يوجد ١٣,٥ مليون طرد طعام في مخازن الصليب الأحمر، تعمدت سلطات الحلفاء عدم توزيعها عليهم .

ولم تقتصر الإبادة على التصفية الجسدية بل كانت هناك إبادة ثقافية ، فقد قام الحلفاء بما سُمِّي «عملية نزع الصبغة النازية عن ألمانيا» (بالإنجليزية : دي نازيفيكيشن denazification) للقضاء على النازيين في الحياة العامة ، فأُقيمت ٥٤٥ محكمة دائمة على الأقل يتبعها طاقم من الفنيين والسكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفاً . وقام الأمريكيون بتغطية ثلاثة عشر مليون حالة (أي معظم الذكور الألمان البالغين) ، وتم توجيه الاتهام إلى ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف ، أُجريت لهم محاكمات عاجلة . وأُدين تسعمائة وثلاثون ألفاً منهم ، وصدرت أحكام بشأنهم من بينها ١٦٩,٢٨٢ حكماً بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازي . وأصدر البريطانيون ٢٢,٢٩٦ حكماً والفرنسيون ١٧,٣٥٣ حكماً ، والروس ثمانية عشر ألف حكم . وبحلول عام ١٩٤٥ ، كان قد تم طرد ١٤١ ألف ألماني من وظائفهم ، من بينهم معظم المدرسين في منطقة الاحتلال الأمريكية ، وزُج بعدد أكبر من هؤلاء في السجن .

وتظهر نفس النزعة الإبادية في استجابة الحلفاء لليابان ، فقبل اكتشاف القنبلة الذرية ، كان الجنرال الأمريكي كورتيس لي ماي يقوم بتحطيم مدن اليابان الواحدة تلو الأخرى بشكل منهجي لم يسبق له مثيل في التاريخ . فخلال عشرة أيام في مارس ١٩٤٥ ، قامت الطائرات الأمريكية بطلعات جوية بلغ عددها ١١,٦٠٠ ، تم خلالها إغراق ٣٢ ميل مربع من أكبر أربع مدن يابانية بالقنابل ، وهو ما أدَّى إلى محو هذه المساحات وكل ما عليها من الوجود وتسببت في مقتل ١٥٠,٠٠٠ . أما الغارات الجوية على طوكيو يوم ٢٥ مايو ١٩٤٥ ، فتسببت في اندلاع عاصفة نارية ضخمة حتى أن قائدي الطائرات

المقاتلة كانوا يشمون رائحة لحم البشر المحترق وهم على ارتفاع آلاف الأقدام . وأدَّت هذه الغارات إلى مقتل الآلاف وتشريد مليون شخص على الأقل .

وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان « يخشى » ألا يجد أي هدف سليم يمكن أن يُلقي عليه بقنابله ويدمره . ورغم أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يفكرون بشكل جاد في إنهاء الحرب ، فقد رأى الجنرال جروفز ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر (بعد أن تم إنفاق ٢ بليون دولار في تطويرها وهو ما يُعادل ٢٦ بليون دولار بحسابات اليوم) . كما أن ترومان كان يشعر بعدم الثقة في نفسه أمام تشرشل وستالين ، ولذا كان يود أن يذهب للاجتماع بهم وهو في موقع قوة ، خصوصاً وأن الدب الروسي كان قد بدأ في التضخم . ومن ثم ، كان لابد من إلقاء القنبلة الذرية بغض النظر عن عدد الضحايا أو حجم التدمير . وكان الجنرال جروفز « محظوظاً » (كما تقول بعض الدراسات) إذ وجد ضالته المنشودة في هيروشيما التي كان يقطنها ٢٨٠ ألف نسمة ووجد أنها محاطة بتلال يمكن أن تُحوِّل المدينة إلى جهنم حقيقية بعد الانفجار إذ أنها ستركز الحرارة . وبالفعل قُتل فور وقوع الانفجار ٧٠ ألف مدني ومات ١٣٠ ألف آخرون بعد عدة شهور متأثرين بحروقهم من الإشعاع . وكأن هيروشيما لم تكن كافية ، فأُلقيت قنبلة أخرى على ناجازاكي ، أدَّت هي الأخرى إلى مقتل ٧٠ ألف آخرين ، غير مئات الألوف الآخرين الذين لقوا مصرعهم فيما بعد . فما بين ألمانيا واليابان تم إبادة وإصابة حوالي مليوني شخص معظمهم من المدنيين .

كما يجب أن نتذكر عمليات الإبادة التي قام بها النظام الستاليني ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية) . وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا ، أما الآن فهو لا يكوِّن سوى نسبة مئوية ضئيلة ، ومصيره بهذا لا يختلف كثيراً عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية . وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة لأعدائه الطبقيين مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية ، بل تم إبادة كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور . وكانت الإبادة تأخذ أشكالاً مختلفة مثل الإعدام والعمل في معسكرات السخرة . وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليون مات منهم ١٢ مليون على الأقل في معسكرات الجولاج : هذا حسب التقديرات المحافظة ، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليوناً ! وبعد حوالي نصف قرن لا تزال عمليات الإبادة والتطهير العرْقي على قدم وساق في البوسنة والهرسك والشيشان ولا تزال بعض الدول الغربية تراقب هذا بحياد غير عادي .

إبادة الآخر إذن آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي في تحقيق رؤيته ومثالياته الداروينية ، ومع هذا تظل الإبادة النازية لليهود لها مركزية خاصة ، فكيف نفسِّر هذا ؟ تعود هذه المركزية ، فيما أعتقد ، إلى حداثة الإبادة النازية ومنهجيتها ، الأمر الذي جعلها تقض مضجع الإنسان الغربي ، فمشروعه الحضاري يستند إلى العلم المتجرد من القيمة وعبقرية حضارته تكمن في الترشيد المتزايد . كما أن الإبادة الاستعمارية كانت تتم دائماً "هناك" بعيداً عن أوربا ، في آسيا وأفريقيا ، أما الإبادة النازية فتمت « هنا » على أرض الحضارة الغربية ، وعلى بُعد أمتار من منازل المواطنين العاديين . كما أن العناصر التي أُبيدت لم تكن داكنة اللون أو صفراء ، وإنما « مثلنا تماماً » . وأخيراً يشغل اليهود مكانة خاصة في الوجدان الغربي الديني والحضاري ، فاليهودي يقف دائماً على الهامش ، موضع تقديس وكُره عميقين ، وحينما صرعته الإبادة النازية تنبه الإنسان الغربي إلى الإمكانية الكامنة ، التي تقف فاغرة فاهها ، في قلب حضارته الحديثة .

السياق الحضاري الألماني للإبادة

German Cultural Context of the Extermination

تناولنا في المدخل السابق الإطار الحضاري الغربي العام للإبادة، ويمكننا الآن أن نترك المنظور العام لنركز على حالة محددة وهي الإبادة الألمانية النازية ليهود أوربا . ويمكن القول بأن المنظومة المعرفية العلمانية الإمبريالية اكتسبت حدةً خاصة في ألمانيا لأسباب عديدة من بينها تقاليد وحدة الوجود (الحلولية الكمونية) القوية التي تعود إلى جيكوب بومه والمعلم إيكهارت ، وهي تقاليد ورثتها الفلسفة المثالية الألمانية وعمّقتها ووصلت إلى ذروتها في فلسفة فخته الذي جعل من الذات مركز الكون وتصورها قادرة على خلق العالم. ولكن فخته في الوقت نفسه طالب بالقضاء على الفرد (الشخص الإمبريقي) وكان يحلم « بجمهورية الألمان » التي يُجنَّد كل ذكر فيها من سن العشرين حتى موته ، فهي جمهورية جنود لا مواطنين . وقد ربطت الفلسفة الألمانية المثالية الإنسان الفرد بالمطلق الذي يمكن أن يتجسد في الفرد ، كما يمكن للفرد أن يذوب فيه . وحتى يصل الفرد إلى المطلق أُعيد تعريف العقل وتم توسيع نطاقه ولم تَعُد هناك حدود

تفصل بين عقل الفرد والعقل المطلق ، ففقد العقل هويته وأصبح لاعقلانياً . وقد وصلت الحلولية الألمانية إلى قمتها في منظومة هيجل الشاملة التي تساوي بين المقدّس والزمني ، ثم يبلغ الحلول منتهاه في فلسفة نيتشه وفلسفات الحياة .

في هذا الإطار تم تعيين "مطلقات" مختلفة تكون هي موضع الحلول والكمون . وكان أول المطلقات هو الشعب الألماني العضوي (فولك) موضع الحلول والكمون ، وصاحب الرسالة . وقد وُلدت القومية الألمانية في أتون الحروب وتحت شعار الوحدة والمركزية ، وصاحب ذلك تعميق مفهوم الشعب العضوي ، والإصرار على الانتماء الكامل غير المشروط مقياساً وحيداً للولاء ، وطُرح شعار «ألمانيا فوق الجميع» الذي تبناه أعضاء الشعب الألماني ، وبُذلت المحاولات لإعادة صياغة الشخصية الألمانية لضمان ولائها للدولة المطلقة .

وقد بلغت سطوة هذا المفهوم حداً جعلته يبتلع المنظومة الدينية نفسها ، فاختلطت الديباجات الدينية بالقيم القومية بحيث تطلب الانتماء للشعب العضوي الألماني الانتماء إلى المسيحية البروتستانتية . ولكن مما يجدر ذكره أن هذه البروتستانتية كانت بروتستانتية ثقافية أو إثنية («عقيدة آبائنا») تركز على المشاعر الدينية دون العقيدة الدينية ، ولذا كان بوسعها أن تتصالح ببساطة مع النيتشوية والداروينية (يشير المفكر البروتستانتي الألماني بول تيليخ إلى نيتشه باعتباره مفكراً بروتستانتياً كبيراً) . وقد نتج عن ذلك تَنصُّر أعداد هائلة من يهود ألمانيا حتى يندمجوا "ثقافياً" في مجتمعهم الألماني . ووصلت نسبة هؤلاء أحياناً إلى ما يزيد عن ٥٠٪ من مجموع يهود برلين (الذين كانوا يشكلون معظم يهود ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر) .

ولكن في إطار مفهوم الشعب العضوي يصبح مثل هذا التنصر عملية "تسلل" و"تآمر" ، فصفات الشعب العضوي صفات موروثة تجري في العروق وفي أرض الأجداد . وبالفعل لوحظ تصاعد معدلات العداء لليهود في الفكر الألماني العلماني . فكتب ولهلم مار (١٨١٨ ـ ١٩٠٤) كتابه المهم **انتصار اليهودية على الألمانية: من منظور غير ديني** (١٨٦٢) . كما نشر فاجنر وبول أنطون دي لاجارد وهنريش فون ترايتشكة كتاباتهم المعادية لليهود .

ثم نأتي لأهم المفاهيم في الحلولية الكمونية المادية وهو مفهوم الدولة ، التي تشغل مكاناً خاصاً في التفكير الرومانسي الألماني . وكما تم ربط الفرد بالمطلق ، ثم ربط مفهوم الحرية بالدولة ، بحيث لا تتحقق الحرية إلا من خلال الدولة (ومن هنا جنود فخته الأحرار !) .

ويصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) في فلسفة هيجل حيث تصبح الدولة هي المطلق ، بل تجسيداً له ، وهي الإطار السياسي الذي يمكن للشعب العضوي أن يُعبِّر عن نفسه من خلاله . إن الدولة أصبحت هي المطلق مجازياً وحرفياً ولذا طالب هيجل الإنسان بأن يعبد الدولة كما لو كانت إلهاً سماوياً ، وهذه هي قمة الحلولية الوثنية (التي ستُعبِّر عن نفسها بشكل سوقي من خلال النازية والصهيونية فيما بعد) .

وقد تزامن هذا مع تزايد النزعة التاريخانية (تحت تأثير هيجل وغيره) بحيث لم يعد من الممكن أن يسأل الإنسان هل هذا الفعل خيِّر أم شرير ، إذ أصبح السؤال الوحيد الممكن هو : هل يتفق هذا مع اللحظة التاريخية أو لا ؟ كما انتشرت الأفكار الداروينية بشكل متطرف ، التي تُهمِّش الإنسان الفرد تماماً .

وقد واكب هذه النسبية الأخلاقية تزايد الإيمان بالعلم المنفصل عن القيمة والغائية الإنسانية ، فتعقيم المعوقين كان أمراً مقبولاً في الطب الألماني مع بداية القرن العشرين (الأمر الذي يعني أن أعداداً كبيرة من الأطباء الألمان اليهود كانوا متورطين في هذه الرؤية . ومن المعروف أن الأطباء اليهود لم يُطردوا من مهنة الطب في ألمانيا إلا في عام ١٩٣٣) . كما عرف الألمان أسلوب الانتفاع من الجثث البشرية قبل ظهور النازي ، أي أن تزايد إطلاق الدولة واكبه تهميش الفعل الأخلاقي الفردي والمسئولية الفردية فتم استيعاب الفرد في الكل الشامل .

وكان الشاعر هايني من أكثر المفكرين إدراكاً لخطر الحلولية الكمونية التي تجعل الإنسان إلهاً على الأرض ، وفي الوقت نفسه تجعل الدولة إلهاً على الأرض . فقال إن فيلسوف الطبيعة سيعقد تحالفاً مع قوى الطبيعة الكونية وسيوقظ القوى الشيطانية لوحدة الوجود الألمانية التي ستضرم الشهوة للحرب (التي تسم الألمان القدامى) حيث لا يحارب الجندي ليدمر ويكسب المعركة ، وإنما يحارب من أجل الحرب .

هذه هي بعض مكونات السياق الحضاري الألماني للنازية وللإبادة النازية لليهود (ولغيرهم) . وقد تشابكت هذه المكونات وتصاعدت حدتها وبلغت حداً عالياً من التبلور في العقيدة النازية ، التي تشكل تعبيراً صافياً ونماذجياً عن المُثُل العليا للحضارة العلمانية الغربية وعن النموذج الحاكم الكامن فيها . والعقيدة النازية لم تفعل أكثر من وضع هذه المُثُل موضع التنفيذ بشكل أكثر تطرفاً من المعتاد ، إذ طبقت الأفكار بشكل أكثر ثورية وأكثر منهجية وشمولاً على البشر كافة .

النازيــــة والحضـــارة الغربيــــة

Nazism and Western Civilization

كلمة «نازي» مأخوذة بالاختصار والتصرف (بهدف التهكم) من العبارة الألمانية «ناشيونال سوشياليستيش دويتش أربايتربارتي National Sozialistische Deutsche Arbeiterpartei» (NSDAP) ، أي «الاشتراكية القومية» ، وهي حركة عرْقية داروينية شمولية ، قادها هتلر وهيْمنت على مقاليد الحكم في ألمانيا ، وعلى المجتمع الألماني بأسره . والحركة النازية هي حركة سياسية وفكرية ، ضمن حركات سياسية فكرية أخرى تحمل نفس السمات ، ظهرت داخل التشكيل الحضاري الغربي بعد الحرب العالمية الأولى . كانت النواة الأساسية للحركة النازية هي حزب صغير يُسمَّى «حزب العمال الألمان» أُسِّس في جو البطالة والثورة الاجتماعية عام ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وإذلالها على يد الدول الغربية المنتصرة . وكان المنظِّر الأساسي للحزب هو جوتفريد فيدر الذي نادى بعقيدة لها صبغة قومية قوية وطابع اشتراكي ، تدعو إلى ملكية الدولة للأرض وتأميم البنوك . وكان من أوائل من انضم لعضوية هذا الحزب محاربون قدامى مثل رودولف هس وهرمان جورنج ، ومثقفون محبطون مثل ألفريد روزنبرج و ب .ج . جوبلز وهتلر نفسه ، وشخصيات أخرى مثل يوليوس سترايخر . وقد ازدادت عضوية الحزب لأنه توجه إلى المخاوف الكامنة لدى قطاعات كبيرة من الألمان من الشيوعيين والبلاشفة ، وإلى حنقها على معاهدة فرساي التي أذلت ألمانيا وحولتها إلى ما يشبه المستعمرة ، وعلى جمهورية ڤايمار المتخاذلة التي قبلت هذا الوضع ، وإلى إحساس الجماهير بالضياع في المجتمع الحديث وإحساسهم بالقلق وعدم الطمأنينة نتيجة تآكل المجتمع التقليدي . ورغم أن الحزب كان يُسمَّى «حزب العمال» ، فإنه لم يضم كثيراً من العمال بين أعضائه ، ولم ينضم له من العمال سوى العاطلين عن العمل . وأعيد تنظيم الحزب عام ١٩٢٠ وسُمِّي «حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي» وترأسه هتلر الذي حصل على تأييد لودندورف (بطل الحرب العالمية الأولى) وعديد من رجال الصناعة الذين رأوا أن بإمكان هتلر تقويض دعائم النظام السياسي القائم ، الذي لم يكن يسمح لهم باتباع سياسة رأسمالية حرة تماماً ، كما أنهم رأوا أن وجوده يمثل الفرصة الوحيدة أمامهم لوقف تقدم الشيوعيين . وقد تزايد نفوذ الحزب مع اتساع نطاق الكساد الاقتصادي . وحل كتاب هتلر كفاحي محل برنامج جوتفريد فيدر (الذي تحول إلى مجرد ناطق بلسان هتلر) ، كما تراجع الخطاب الاشتراكي وحل محله خطابٌ نازيٌ أكثر تبلوراً ومادية .

وسار الحزب النازي بخطى واسعة في الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٢ ، ووصلت عضويته إلى مليونين بحيث أصبح الحزب الثاني في ألمانيا أثناء فترة الكساد الكبير الذي بدأ عام ١٩٢٩ ، وهي فترة شهدت تآكل مدخرات الطبقة الوسطى الألمانية وانتشار الحركات الإباحية والبغاء والفوضوية وتَعاظُم نفوذ الشيوعيين . ورغم أن هتلر خسر انتخابات الرئاسة عام ١٩٣٢ أمام هندنبرج ، إلا أن حزبه النازي أصبح أكبر حزب ألماني على الإطلاق . وقد فشل المستشار فون بابن في الاحتفاظ بأغلبية تمكنه من الحكم في البرلمان ، فأجريت انتخابات أخرى . وكان هتلر قد حصل إبّان ذلك على الدعم المالي من رجال المال والصناعة في وادي الراين الذين كانوا يهدفون إلى احتوائه واستخدامه كأداة .

وكان هتلر يستخدم خطابين مختلفين : أحدهما للجماهير ، والآخر لرجال المال . وقد احتجت بعض العناصر الاشتراكية في الحزب على الاتجاه المتزايد نحو اليمين ، ولكن هتلر نجح في القضاء على هذه العناصر . وفي عام ١٩٣٣ ، قام الرئيس هندنبرج بتعيين هتلر مستشاراً . وحينما اندلع حريق في مبنى البرلمان ، قام هتلر بطرد النواب الشيوعيين بعد أن ألقى التبعة عليهم . ثم اقترع البرلمان على منح هتلر سلطات شاملة ، ومن ثم أنجز هتلر ثورته القانونية . وفي يونيه ١٩٣٤ ، أصبح الحزب النازي هو الحزب الأوحد ، وقام هتلر بتصفية البقية الباقية من العناصر العسكرية في حزبه بطريقة دموية ، وكان من بينهم إرنست روم رئيس قوات العاصفة . كما قام هتلر بضرب اليمين ، فأثبت بذلك أنه لم يكن مجرد أداة في يد المموِّلين أو بقايا النظام الملكي فأمم المصارف وبعض الصناعات . ومع هذا ، استفادت العناصر الرأسمالية من خلال سيطرة الدولة على كثير من القطاعات الاقتصادية ، وأُلغيت اتحادات العمال ، وفقد العمال حقوقهم ، وتم استيعابهم في مؤسسات الحزب ، وتم التنسيق بين جميع مؤسسات الدولة والحزب . كما أصبحت الخدمة العامة إجبارية ، ثم فُرض التجنيد الإجباري وأُخضعت ألمانيا كلها لنظام مركزي قوي . وأُلغي استقلال الولايات ، وأُخضعت لهيمنة الفوهرر وأجهزته مباشرة ، بل أسس الحزب كنيسة ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية .

وفي عـــام ١٩٣٦ ، بدأت خطة السنوات الأربع لإعادة تسليح ألمانيا ، وإعادة تنظيم الاقتصاد انطلاقاً من الاعتماد على الذات . وقد حقق النازيون نجاحاً اقتصادياً باهراً ، الأمر الذي زاد من التفاف الجماهير حولهم ، حيث تم القضاء على البطالة وبُنيت منشآت عامة عديدة ، ثم سيطر هتلر على حزبه سيطرة كاملة ،

وتولى هملر رئاسة الجستابو (البوليس السري) عام ١٩٣٦ . وبعد موت هندنبرج ، أصبح هتلر رئيساً للدولة لا يقاسمه السلطة أحد. ونجح في استصدار قرار عام ١٩٣٤ بتأسيس الرايخ الثالث الذي سيدوم ألف عام (والرايخ هو ألمانيا أو الإمبراطورية الألمانية المقدَّسة حيث يمتد الرايخ الأول من تاريخ تأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة عام ٩٦٢ حتى انحلالها عام ١٨٠٦ ، والرايخ الثاني هو الإمبراطورية الألمانية منذ ١٨٧١ وحتى ١٩١٨ ، أما الرايخ الثالث فهو الدولة النازية من ١٩٣٣) ، وأصبح هو حاكم (فوهرر) ألمانيا بلا منازع .

وبدأ هتلر في تنفيذ مخططه الإمبريالي في الداخل والخارج صدوراً عن الرؤية النازية للعالم التي استمدت ملامحها الأساسية من الحضارة الغربية :

١ ـ السمة الأساسية للمنظومة النازية هي علمانيتها الشاملة وواحديتها المادية الصارمة . وقد هاجم ألفريد روزنبرج (أهم «فلاسفة» النازيين) المسيحية باعتبارها عقيدة يهودية تدافع عن المطلقات . وفي كتابه **أسطورة القرن العشرين** حاول أن يُبيِّن بعض الأطروحات الأساسية للنازية ، فالروح والعرْق هما شيء واحد ، فالعرْق إن هو إلا التعبير البراني عن الروح ، والروح إن هي إلا التعبير الجواني عن العرْق (وهذا لا يختلف كثيراً عن تصور الفلسفة الألمانية المثالية عن تماثل الروح والطبيعة) ، والروح العرْقية هي التي تحرك التاريخ . بل إن روزنبرج كان مدركاً للحلولية كنمط نهائي ، إذ يؤكد أن الروح الألمانية تُعبِّر عن انتصار فكرة الحرية وعن التصوف الحقيقي ، تصوف المعلم إيكهارت ، وهي صوفية مسيحية اسماً ومظهراً وحسب ، ولكن يجب أن تُفهم باعتبارها تزايد حرية الروح إلى أن تصل إلى المرحلة التي تتحرر فيها تماماً من الإله نفسه . وكان روزنبرج ، انطلاقاً من عقيدته العرْقية هذه ، يعطي مواعظ نارية عن أسطورة الدم .

ولكن هتلر ، بذكائه الشديد ، حاول أن يُبقي هذه النقطة من برنامجه غامضة حتى لا يستفز الجماهير ولا يواجه الكنيسة بشكل علني . وقد عقد اتفاقاً مع الكنيسة الكاثوليكية غير أنه لم يلتزم به وأرسل بكثير من رجال الدين إلى المحرقة . وقد أسس هتلر "كنيسة" ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية ، وتطهير فكرة القومية الألمانية من العناصر المسيحية التي دخلت عليها . وكان الالتحاق بهذه الكنيسة القومية ـ ومن ثم الانفصال عن المنظومة المسيحية ـ شرطاً أساسياً للانضمام إلى فرق الحرس الخاص المعروفة بالإس . إس . وفي السنوات الأخيرة من حكم النازي ، وضع هتلر مخططاً شاملاً للقضاء على الكنائس المسيحية بشكل كامل ، حتى تسود الواحدية المادية وقيم القومية العضوية والولاء الكامل لألمانيا ولدولة الرايخ الثالث . وكل سمات النازية الأخرى تنبع من رؤيتها العلمانية الإمبريالية الشاملة .

٢ ـ تتضح مادية النازيين الصارمة في إنكارهم للطبيعة البشرية وثباتها فكل شيء من منظورهم خاضع للتغير والحوسلة . ويمكن القول بأن ثمة نزعة مشيحانية علموية مادية قوية هي التي تعطي النازية تفردها واختلافها عن الأيديولوجيات العلمانية الأخرى . فالنازية دفعت بكثير من المقولات الكامنة في الرؤية العلمانية الشاملة إلى نتيجتها المنطقية ، ولم تعد تَقْنَع بتغيير العالم وإنما كانت تطمح إلى تغيير النفس البشرية ذاتها (وعلى كلٍّ ، هذا الاتجاه أمر كامن في كل الطوباويات التكنولوجية التي تعود بداياتها إلى بداية عصر النهضة في الغرب) . ومن هنا اهتمام النازيين بعلم مثل علم تحسين النسل (بالإنجليزية : إيوجينكس eugenics) وإعادة تنظيم العالم من خلال سياسات بيولوجية وضعية . ومن هنا حربهم الشديدة ضد الأمراض النفسية والجسمانية وضد كل انحراف عن المعيارية العلمية الصارمة (ومن هنا نجد أنهم قاموا بإبادة الأقزام !) .

٣ ـ آمن النازيون بفكرة الدولة باعتبارها مطلقاً علمانياً متجاوزاً للخير والشر . وحدَّد هتلر المطلق الأول والأوحد (الدولة) بدقة غير عادية حين قال إنه لابد من تحقيق العدالة وتوظيفها في خدمة الدولة ، أي أنه لا يوجد مفهوم مطلق للعدالة ، وإنما تتحدد العدالة بمقدار تحقيق نفع الدولة . والدولة كمطلق هي الإطار الذي يُعبِّر الشعب العضوي (فولك) الألماني من خلاله عن إرادته .

٤ ـ تبنت النازية النظرية العرْقية الداروينية الغربية ، وأكدت التفوق العرْقي للشعب الألماني على كل شعوب أوربا ، ولشعوب أوربا على كل شعوب العالم . ورفض هتلر فكرة المساواة بين البشر باعتبارها فكرة دينية ("حيلة يهودية مسيحية" ، "نوع من التنويم المغناطيسي تمارسه اليهودية الغازية للعالم بمساعدة الكنائس المسيحية") .

٥ ـ من الأفكار الأساسية في الفكر النازي فكرة الشعب العضوي (فولك) الذي تُوجَد وحدة عضوية بين أعضائه من جهة ، وبين حضارتهم والأرض التي يعيشون عليها من جهة أخرى ، وهي وحدة لا تنفصم عراها . ولا يمكن لهذا الشعب أن يحقق كل إمكانياته إلا بعد أن يضم إليه مجاله الحيوي (الأرض في الثالوث الحلولي العضوي) حتى تكتمل الدائرة العضوية . أما العناصر الغريبة الأجنبية فهي تؤدي إلى إعاقة هذا التكامل العضوي الصارم ، وبالتالي فهي عناصر ضارة لابد من استبعادها .

٦ ـ من العبارات المتواترة في الخطاب العضوي النازي عبارة «الدم والتربة» ، وهي ترجمة للعبارة الألمانية «بلوت أوند بودين Blut und Boden» ، وهي من الشعارات الأساسية للنازية والمرتبطة بفكرة الشعب العضوي . وهذه العبارة النيتشوية تمجد آداب الفلاحين وعواطفهم باعتبارها تجسيداً للصفتين الأساسيتين اللتين يستند إليهما رقي الجنس الألماني ؛ الدم الألماني والتربة الألمانية . وهي تحول الدم والتربة إلى المرجعية أو الركيزة النهائية التي يستند إليها النسق المعرفي والأخلاقي . وشعار «الدم والتربة» هو مثل جيد على ما نسميه «الواحدية المادية الكونية» التي تسم الأنساق الحلولية الكمونية ، حيث يصبح المطلق كامناً في المادة لا متجاوزاً لها ، ويُنصَّب شعبٌ من الشعوب نفسه إلهاً على بقية الشعوب ، فدمه وتربته يحويان كل القداسة ويعطيانه حقوقاً مطلقة لا يمكن النقاش بشأنها . ولكن هذه الحلولية هي حلولية بدون إله ، فثالوث القومية العضوية : الدم ـ التربة ـ الشعب ، ليس إلا صدىً للثالوث الحلولي الوثني : الإله ـ الطبيعة ـ الإنسان . ويبدو أن الدم ، باعتباره حامل القداسة وباعتباره الصلة التي تربط الإنسان والأرض ، يحل محل الإله . (وقد وجدت هذه العبارة طريقها إلى الفكر والخطاب الصهيوني) .

٧ ـ وقد ترجم كل هذا نفسه إلى مفهوم العرْق السيد ، وهو العرْق الآري الألماني التيوتوني الذي سيحتفظ بنقائه العرْقي ويؤسس أمة تتألف من الحكام المحاربين والمفكرين ، قدرها المحتوم أن تحكم الأعراق الدنيا وتعيش على عملها وتحقق السيادة على العالم . وهذه الأمة ستنظم نفسها على شكل هرمي تقف على قمته نخبة تتسم بالصفات العرْقية الأكثر تفوقاً ، وعلى قمة الهرم يقف الفوهرر : التجسد المادي والمحسوس والتاريخي للمطلق العلماني (الشعب العضوي والدولة) . وكان تنظيم الحزب النازي تعبيراً عن نفس الرؤية ، فقد استعار هتلر من التنظيمات الشيوعية فكرة الخلية والتنظيم الهرمي للحزب والانضباط الداخلي ، واستعار من الفاشية الإيطالية فكرة ميليشيا الحزب ذات الزي الموحَّد ، وهؤلاء هم مرتدو القمصان البُنيَّة وكان يُشار إليهم بالحرفين إس . آيه S. A. ، وهما اختصار عبارة «شتورم أبتايلونج Sturm Abteilung» أي «قوات العاصفة» . أما «النخبة» ، فهم فرق الإس . إس S. S. وهما اختصار للعبارة الألمانية «شوتس ستافل Schutz Staffel» ومعناها «نخبة الأمن» أو «الحرس الخاص» ، وكانوا يرتدون قمصاناً سوداء وشارة الموت . وكان للحزب تحيته الخاصة بأن يرفع العضو ذراعه اليمنى ويقول : "هايل هتلر" . وأصبح الصليب المعقوف رمزه ، كما كان له نشيده الخاص .

٨ ـ رأت العقيدة النازية أن هذا الهرم الألماني المنظم ، لابد أن يسيطر على العالم بأسره . وقد استفادت هنا من الفكر الجغرافي السياسي (الجيوبولوتيكي) الغربي . إذ رأى النازيون أن ألمانيا أمة حركية من حقها أن تحصل على مجال يتناسب مع قوتها وحيويتها ، وهو مجال أوسع مما سمحت به معاهدة فرساي .

٩ ـ انطلاقاً من كل هذا وُضعت ألمانيا فوق الجميع وأصبح للألمان حقوق مطلقة فيما تصوروا أنه مجالهم الحيوي . وقد رأى النازيون أنه يجب على الشعب الألماني أن يستيقظ من سباته ويتنبه للخطر ، وأن يغزو مجاله الحيوي حتى يصبح مجالاً ألمانياً صرفاً خالياً من السلاف .

١٠ ـ لكن الشعوب العضوية (فولك) تحتاج دائماً إلى آخر تستمد منه هويتها . والآخر هنا هو كل من يقف في طريق تحقيق الأطروحات النازية ، وهم في هذه الحالة السلاف بالدرجة الأولى ، الذين يشغلون المجال الحيوي في الخارج . أما في الداخل ، فكانت توجد عناصر عديدة غير نافعة مستهلكة دون أن تكون منتجة ، وأحياناً ضارة ، من بينها المعوقون والشواذ جنسياً والشيوعيون والغجر والمصابون بأمراض وراثية مزمنة ، بل الأقزام . ولذا كان النازيون يرون ضرورة إبادة العناصر الضارة في الداخل والخارج : السكان السلاف الذين يعيشون داخل المجال الألماني الحيوي ، والغجر ممن لا نفع لهم ، واليهود خصوصاً الأقلية المالية اليهودية .

١١ ـ ولكن لنركِّز على أعضاء الجماعة اليهودية وحدهم ، لا بسبب أهميتهم المطلقة ولكن بسبب أهميتهم من منظور هذه الموسوعة . كان اليهود ـ حسب التصور النازي ـ من أهم القطاعات غير النافعة ، بل الضارة ، فهم يتركزون في القطاعات الهامشية للاقتصاد ، مثل تجارة الرقيق الأبيض . ورغم أنهم مثل البكتريا والطفيليات التي تعيش على الآخرين ، إلا أنهم يدَّعون أنهم يُشكِّلون عرْقاً سامياً وشعباً مختاراً ، ولذا فهم يحاولون دائماً الهيمنة على الحياة السياسية والاقتصادية للشعوب الأخرى . ويشير هتلر إلى أن اليهود سيطروا على عالم المال في ألمانيا ، وأنهم يحيكون مؤامرة عالمية للسيطرة ولذا فهم يحاولون إشعال الحروب والثورات (وهذه هي الأفكار الأساسية في **بروتوكولات حكماء صهيون** ، وفي كتاب إدموند دروموند **فرنسا اليهودية** ، وهما من أكثر الكتب شيوعاً في أوربا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر) . كما بيَّن هتلر أن الماركسية والماسونية ليستا إلا مجرد حيل يهودية للسيطرة على العالم . وقد صنَّف اليهود أحياناً باعتبارهم سلافيين ، لأن كثيراً منهم كانوا «أوست يودين Ostjuden» ، أي من يهود شرق أوربا .

وأُلقي اللوم على اليهود باعتبارهم مسئولين عن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وعن إذلالها . ولذا قرر الألمان أن يجعلوا المجال الحيوي الألماني «خالياً من اليهود» (بالألمانية : يودين راين Judenrein) .

وقد بدأ النظام النازي حملته على اليهود عقب تعيين هتلر مستشاراً في ٣٠ يناير عام ١٩٣٣ . ففي أبريل عام ١٩٣٣ نُظِّمت مقاطعة للأعمال التجارية اليهودية ، ثم استُبعد اليهود من كثير من الوظائف العامة . وفي أبريل ١٩٣٥ ، استُبعد الأطفال اليهود من النظام التعليمي . وفي سبتمبر من نفس العام ، صدرت قوانين نورمبرج التي نزعت عن أعضاء الجماعة اليهودية حقهم في أن يكونوا مواطنين بالرايخ ، تنفيذاً لفكرة الشعب العضوي والشعب العضوي المنبوذ ، ومُنعت الزيجات المُختلَطة بين اليهود والآريين . وفي عام ١٩٣٨ ، مُنع اليهود من العمل في الوظائف الوسيطة كأن يكونوا وكلاء وبائعين ومديري عقارات ومستشارين في الأعمال التجارية . وأدَّى اغتيال عضو في السفارة الألمانية في باريس على يد يهودي بولندي في ٩ ـ ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ إلى قيام ثورة شعبية ضد اليهود تُعرف باسم «كريستال ناخت» أي «ليلة الزجاج المحطم» أُحرق خلالها أربعمائة معبد ونُهب كثير من المتاجر والمنازل الخاصة ، وتم القبض على الألوف منهم وفُرضت غرامة على اليهود (ككل) . وبعد ذلك بدأ النظام النازي في عملية الإبادة والحل النهائي النازي للمسألة اليهودية والتي استمرت حتى نهاية الحرب .

وكما سنبين فيما بعد لم يكن النظام النازي عشوائياً لاعقلانياً في اضطهاده لأعضاء الجماعات اليهودية ، بل إن كلمة «اضطهاد» ذاتها قد لا تنطبق على علاقة النازيين بأعضاء الجماعات اليهودية إذ أن ما حدد هذه العلاقة هو مدى نفع اليهودي وإمكانية توظيفه .

١٢ ـ أشرنا من قبل إلى تَراجُع الجوانب الاشتراكية (الإنسانية) في برنامج الحزب النازي الذي كان يحوي بلا شك بعض المطلقات الإنسانية (مثل فكرة العدل وضرورة التكافل) ، وظهور رؤية مادية واحدية صارمة في ماديتها وواحديتها تنفي المطلقات والثوابت والماهيات كافة ، رؤية علمانية شاملة تنزع القداسة عن كل شيء بحدة وشراسة وتُسقط تماماً فكرة الحرمات . وهذا التحول عن الإنسانية (الهيومانية) والسقوط التدريجي والمطرد في الواحدية المادية هو نمط التطور الأساسي في الحضارة الغربية الحديثة ، حيث تطورت من رؤية إنسانية (علمانية جزئية) تحوي مطلقات إلى رؤية علمانية إمبريالية شاملة تنفي المطلقات والثوابت والكليات كافة .

١٣ ـ تنطوي الرؤية النازية للكون ، شأنها شأن كل الرؤى المادية ، على إشكالية أساسية داخلها ، وهي مشكلة الأساس الفلسفي والمعرفي الذي تستند إليه منظومات الإنسان الأخلاقية . وقد حسم النازيون هذه القضية بتصورهم أن العلم (الطبيعي) قادر على مساعدة الإنسان على التوصل إلى حلول لجميع المشاكل ، وضمن ذلك المشاكل الإنسانية والأخلاقية والروحية . ومن ثم فالعلم هو وحده القادر على تحديد الصالح والطالح والخيِّر والشرير وهو وحده المرجعية النهائية . ولذا طالب النازيون بضرورة تطبيق قيم العلم والمنفعة المادية على الإنسان والمجتمع ، وآمن النازيون بالمنفعة المادية كمعيار أخلاقي للحكم على الواقع . وبالفعل ، اتسم النازيون بالحياد العلمي الشديد في تعاملهم مع الواقع ومع البشر ، واستخدموا مقاييس علمية رشيدة لا تشوبها أية قيم أخلاقية أو عاطفية أو غائية ، وتحوَّل كل البشر ، وضمن ذلك الألمان ، إلى مادة بشرية . ومن ثم ، قُسِّم العالم كله إلى نافعين وغير نافعين (وهو تقسيم يعود إلى القرن الثامن عشر ، عصر العقل المادي والعقلانية المادية) . وتقرر أنه لا يستحق الحياة إلا من ينتج ويستهلك ، أما من لا ينتج ويستهلك (بالإنجليزية : يوسلس إيترز useless eaters حرفياً «من يأكلون ولا نفع لهم») فمصيره أمر مفروغ منه ، فقد صنِّف على أن حياته لا قيمة لها (بالألمانية : بالاست إكسستينزن Ballastexistenzen) ، وتشكل عبئاً على الاقتصاد الوطني بطبيعة الحال .

١٤ ـ ولكن كما هو الحال دائماً تختبئ الرؤيةُ العلمية النفعية المحايدة أخلاقياً الرؤيةَ الداروينية النيتشوية ، بتأكيدها على فكرة البقاء باعتباره القيمة المطلقة والصراع باعتباره الآلية الوحيدة للبقاء ، وهي عملية مادية محضة . فالبقاء هو البقاء المادي ، والصراع صراع مادي ، والبقاء في هذه الغابة الداروينية الواحدية المادية التي لا تعرف الرحمة أو العدل ليس من نصيب الأرق قلباً أو الأرقى خُلُقاً أو الأكثر تراحماً وإنما هو من نصيب الأصلح والأقوى مادياً (فالقوة هي المطلق النهائي) ، والأقوى هو الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه والذي يتحلى بأخلاق الأقوياء ويضرب بيد من حديد على الضعفاء بدلاً من أن يأخذ بأيديهم .

بعد تَقبُّل النازيين النفع المادي والقوة ، باعتبارهما المعيار الأخلاقي الأوحد في منظومة معرفية علمانية مادية شاملة لا تعرف المطلقات الإنسانية أو الأخلاقية أو الدينية ، قام المفكرون والعلماء النازيون بتقييم الواقع المحيط بهم من خلال هذه المنظومة الفكرية المادية وصنفوا كثيراً من العناصر باعتبارها غير نافعة (السلاف ـ الغجر ـ اليهود ـ المعوقين . . . إلخ) :

ولا يمكن الدفاع عن كل هؤلاء من منظور أخلاقي مطلق ، فهذا أمر مرفوض من منظور علماني شامل ، نفعي نسبي ، مستنير رشيد ، ينطلق من حساب دقيق للمدخلات والمخرجات . ومن يريد الدفاع عن نفسه عليه أن يفعل ذلك من داخل المنظور العلمي النفعي المستنير لا من خارجه .

وكان قد تم إعداد الآلة المادية النفعية ذات الكفاءة العالية ، كما تم تحويل العالم بأسره ، على المستويين المعرفي والوجداني ، إلى مادة استعمالية خام . ومن جهة أخرى ، تم استئناس الشعب الألماني وترشيده وتحييد حسه الخلقي تماماً وإسكات عواطفه ، ليكون في انتظار التعليمات والحلول الواقعية العلمية العملية (المادية) النهائية لمشاكله ، وهي حلول ستأتيه من مجموعة من رجال الحزب والعلماء وأهل التخصص .

وحينما بدأت آلة الإبادة المادية النفعية الموضوعية الجهنمية ذات الكفاءة العالية منقطعة النظير ، في الدوران ، كانت الإبادة قد تحقَّقت معرفياً ووجدانياً ونظرياً ، من خلال النموذج الواحدي المادي ، قبل أن تتحقق فعلياً من خلال معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة .

إن الأطروحات الأساسية للنازية هي ذاتها الأطروحات الأساسية للحضارة الغربية الحديثة والتشكيل الإمبريالي الغربي . وبالفعل حظيت الحركة النازية في البداية بتأييد رأسمالي غربي لأنها كانت تنظر إلى الاتحاد السوفيتي باعتباره العدو الأكبر (السلافي) للحضارة الآرية ، ومن ثم كان الرايخ الثالث من هذا المنظور يشكل قلعة ضد الزحف السلافي الشيوعي . ولكن ستالين كان أكثر دهاءً ، حيث عقد حلفاً مع هتلر اقتسما بمقتضاه بولندا والمجال الحيوي المحيط بهما . ثم تحالف الغرب الرأسمالي مع الشرق الاشتراكي ضد هتلر ، لا دفاعاً عن المبادئ ولكن لأنه بدأ يهدد مصالحهما معاً .

النازية هي وليدة الحضارة الغربية إذن ، ومع هذا يتساءل بعض الدارسين الغربيين للإبادة النازية عن الكيفية التي أمكن بها لمجتمع غربي يُقال إنه «متحضر» مثل المجتمع الألماني (مجتمع هيجل وفاجنر وهايدجر) أن يفرز حركة بربرية تماماً كالحركة النازية ثم يُخضع كل أعضاء المجتمع لها . وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال ، ذهب بعضهم إلى القول بأن النازية هي مجرد انحراف لا عن مسار التاريخ الألماني وحسب وإنما عن مسار التاريخ الغربي ككل .

ويذهب المؤرخ الألماني إرنست نولت Ernest Nolt (وهو أستاذ في جامعة برلين الحرة يمثل تياراً مراجعاً داخل علم التاريخ في ألمانيا) إلى أن المرحلة النازية ليست مرحلة نماذجية ، أي لا ترقى إلى مستوى النموذج والنمط ، وإنما هي مرحلة عرضية غير مُمثِّلة لمسار التاريخ في ألمانيا . وهم يُقارنونها بروسيا الستالينية . ويذهب نولت إلى القول بأن النازيين قاموا بعمليات الإبادة خوفاً من أن تُطبَّق عليهم سياسات الإبادة التي كان يطبقها السوفييت منذ عام ١٩١٧ على الطبقات والشعوب غير المرغوب فيها ، بل يؤكد أن النازيين تعلموا الإبادة والتصفية الجسدية ومعسكرات السخرة من الشيوعية السوفيتية ومن ممارسات ستالين الإبادية ؛ فالأصل هو الجولاج ، وأوشفيتس هي النسخة .

وهناك كثيرون داخل ألمانيا وخارجها يعارضون هذا الرأي ويؤكدون أن سلوك الألمان هو جزء لا يتجزأ من تاريخهم الحضاري (بل هناك من يتطرف إلى درجة القول بأن سلوك الألمان هو في واقع الأمر تعبير عن طبيعتهم الثابتة) . والحوار هنا يتعلق بدلالة الإبادة : هل هي جريمة نازية ضد اليهود ، أم جريمة غربية متكررة (نمط متكرر) يُعبِّر عن نموذج معرفي كامن ، أم أنها مجرد حادثة ؟ ونحن نذهب ـ كما أسلفنا ـ إلى أن الحضارة التي أفرزت الإمبريالية والشمولية والمنفعة المادية والداروينية ، وفلاسفة العرْقية الحديثة ، هي الحضارة التي أفرزت رؤية إبادية وصلت إلى قمتها في اللحظة النازية . ومن ثم ، فإن الإبادة النازية تُعبِّر عن شيء حقيقي أصيل لا في التشكيل الحضاري الألماني وحده وإنما في الحضارة الغربية ، وليست مجرد انحراف عن تاريخ ألمانيا أو تاريخ الغرب الحديث .

إن جوهر الفكر النازي ، متمثلاً في كتابات أدولف هتلر (وغيره من المفكرين النازيين) ، لا يختلف كثيراً عن فكر سير آرثر بلفور صاحب الوعد المشهور (وغيره من الساسة والمفكرين الاستعماريين) . فكلٌ من هتلر وبلفور يدور داخل الإطار الإمبريالي العرقي المبني على الإيمان بالتفاوت بين الأعراق ، وعلى حل مشاكل أوربا عن طريق تصديرها . وكلاهما يؤمن بفكرة الشعب العضوي ، وكلاهما يرى في اليهود عنصراً غير مرغوب فيه ويؤكد ، من ثم ، ضرورة وضع حل نهائي للمسألة اليهودية في أوربا ، وكلاهما لا يلتزم بأية منظومة أخلاقية سوى منظومة المنفعة المادية ومنظومة الصراع الداروينية . وقد تم الحل النهائي في حالة بلفور بنقل (ترانسفير) اليهود خارج إنجلترا وأوربا إلى فلسطين .

وقد حاول هتلر ، في بداية الأمر ، أن يحل مسألته اليهودية بشكل نهائي أيضاً ، بالطرق الاستعمارية السلمية البلفورية التقليدية ، أي التخلص من الفائض البشري اليهودي عن طريق تصديره (ترانسفير) إلى رقعة أخرى خارج ألمانيا . وكان هتلر يدرك أن الترانسفير (تفريغ الأراضي من سكانها ونقلهم) هو جزء من

المنظومة الغربية وطريقة حلها للمشاكل . فقد أشار (في أغسطس ١٩٤٠) إلى أنه تم إفراغ بروسيا الشرقية من سكانها الألمان بعد الحرب العالمية الأولى ، وتساءل عن وجه الضرر في نقل ٦٠٠ ألف يهودي من أراضي الرايخ (وكان هناك مشروع نازي ترانسفيري أكبر وهو نقل ٣١ مليون «غير ألماني» من شرق أوربا ، وهي عبارة بلفورية لا تختلف عن تلك العبارة التي وردت في وعد بلفور حيث تمت الإشارة لسكان فلسطين العرب على أنهم «الجماعات غير اليهودية»).

وداخل هذا التصور الترانسفيري البلفوري الغربي تحرَّك هتلر لتنفيذ خطته :

١ ـ قام هتلر بشحن عشرة آلاف يهودي وأرسلهم عبر الحدود إلى بولندا في ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨ ، ولكن الحدود البولندية كانت موصدة دونهم (فبولندا هي الأخرى كانت تود الدفاع عن مصالحها المادية) .

٢ ـ استمرت المحاولات النازية التي تستهدف تهجير اليهود حتى نهاية الحكم النازي . فبُذلت المحاولة تلو الأخرى لتوطينهم في سوريا وإكوادور وتم تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين . وكان هناك مشروع صهيوني نازي يُسمَّى «مشروع مدغشقر» يهدف إلى تأسيس دولة يهودية في تلك الجزيرة الأفريقية . ولكن معظم هذه المشروعات فشلت . ولم تُطرح بدائل أخرى ، فالمجال الاستعماري الحيوي لألمانيا ، بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، كان محدوداً .

٣ ـ لم تكن الدول الغربية (التي تتباكى حتى الآن على ضحايا الإبادة) ترحب هي الأخرى بالمهاجرين اليهود أو غيرهم (بسبب حالة الكساد الاقتصادي) .

وكان هتلر يسمي خطة الترانسفير هذه «الحل الشامل» و«الحل النهائي» ولكن هذا الحل النهائي البلفوري لم يكن متاحاً لهتلر ، ولذا لم يكن أمامه سوى استبعاد اليهود بطريقة غير بلفورية ، وتتميَّز بكونها أكثر حدة ومنهجية وتبلوراً وسوقية . ومع هذا يميل كثير من العلماء إلى القول بأن «الحل النهائي النازي للمسألة اليهودية» ظل ذا طابع بلفوري حتى النهاية ، أي حل نهائي من خلال الترانسفير ، أو التهجير القسري إما إلى المستعمرات في آسيا وأفريقيا أو إلى معسكرات العمل والسخرة في ألمانيا ، التي لم تكن الأوضاع فيها تختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة في المستعمرات .

وإذا كان فكر هتلر هو نتاج لحضارة الغرب ، خصوصاً في القرن التاسع عشر ، والتي تدور داخل الإطار العرْقي العلماني الإمبريالي الدارويني ، فلابد أن تكون هناك نقط اتفاق بين هذا الفكر والفكر الصهيوني الذي هو أيضاً نتاج المعطيات الفكرية نفسها .

وبالفعل ، نجد أن الفكر الصهيوني يتحدث عن اليهود باعتبارهم عناصر بكتيرية . والواقع أن تعبير البكتريا المجازي (وهو تعبير دارويني لا علاقة له بقيم «بالية» مثل المحبة والمساواة والعدل) يستخدمه كل من هتلر ونوردو وهرتزل ، الذين يتحدثون عن اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً منبوذاً (قارن هذا بكلمات بوبر حيث يتحدث عن اليهود بوصفهم شعباً آسيوياً طُرد من آسيا ولكنها لم تُطرد منه ، أي أن آسيا تجري في دمه) . كما أن الصهيونية ترى ضرورة إخلاء أوربا من اليهود ، ولعل الخلاف الوحيد هو أن الصهاينة يفضلون الطريقة البلفورية على الطريقة الهتلرية .

ويتضح مدى انتماء المنظومة النازية للحضارة الغربية الحديثة في معلومة مخيفة وغريبة ولكنها نماذجية وممثِّلة في ذات الوقت ، وهي أن النازيين كانوا يطلقون عبارة «مسلم» على اليهودي الذي تقرر إبادته . فكأن النازيين هم حملة عبء الرؤية الأوربية في مجابهتها مع أقرب الحضارات الشرقية لهم ، وهي الحضارة الإسلامية ، وهم لم ينسوا قط هذا العبء وهم يبيدون بعضاً من سكان أوربا غير النافعين والذين يقلون تقدماً عن الآخرين .

السياق السياسي والاجتماعي الألماني للإبادة

German Political and Social Context of the Extermination

بعد أن درسنا الإبادة كإمكانية كامنة داخل الحضارة الغربية الحديثة وداخل المجتمع الألماني الحديث ، وبعد أن درسنا العناصر الحضارية التي ساعدت على تَحقُّق الإمكانية ، بوسعنا أن ندرس العناصر السياسية والاجتماعية الألمانية العامة والعناصر الألمانية اليهودية الخاصة ، التي ساهمت بدورها في تحقيق الإمكانية الإبادية . وقد يكون من المنطقي أن نبدأ بتناول أهم العناصر التاريخية في القرن العشرين وأثرها على ألمانيا ، أي عملية التحديث أو تحول المجتمع الغربي من النمط التقليدي إلى ما يُسمَّى «النمط العقلاني (المادي) أو الرشيد» في الإنتاج والإدارة ، والذي يخضع لعمليات الترشيد .

ونحن لا نشير عادةً إلى التحديث إلا عندما نتناول العالم الثالث ، وذلك بسبب وضوح هذه العملية فيه ، وبسبب كونها عملية مازلنا نعيشها في وقتنا الحاضر . لكن عملية التحديث هي المدخل الأساسي لفهم كثير من الظواهر في العالم الغربي منذ القرن الرابع عشر ، برغم أنها تأخذ أشكالاً أكثر تركيباً وتقدماً هناك .

ولعل من أهم الحقائق التي تسم عملية التحديث أو التصنيع في ألمانيا ، أنها بدأت في وقت متأخر قليلاً بالنسبة لغرب أوربا . فالجهود الرامية لتحديث ألمانيا ظلت متعثرة ولم تحرز تقدماً إلا في سبعينيات

القرن الماضي بعد الحرب البروسية الفرنسية نظراً لعدم وجود سلطة مركزية . ولكن الوضع تغيَّر بعد أن أحرزت بروسيا انتصارها الساحق على فرنسا ، وبعد أن ضمت الألزاس واللورين ، إذ قامت بتوحيد ألمانيا ، ثم حققت عملية التحديث من خلال قفزات هائلة في فترة وجيزة نسبياً ، بحيث أصبحت ألمانيا من كبريات الدول الصناعية لا يفوقها سوى إنجلترا ، بل إنها تفوقت على إنجلترا ذاتها في بعض الجوانب .

وعادةً ما يؤدي التحديث السريع إلى اضطرابات اجتماعية ، لأنه لا يتيح الفرصة أمام أعضاء كثير من الجماعات والأقليات الإثنية والدينية للتأقلم مع الوضع الجديد ، بحيث يمكنهم إعادة تحديد ولائهم وإعادة صياغة هويتهم بما يتفق مع متطلبات الولاء للدولة القومية الحديثة . وقد ظهر هذا الوضع ، أول ما ظهر ، حينما سعت الدولة الألمانية الجديدة ، ذات التوجه البروتستانتي الواضح أو ذات الديباجات البروتستانتية ، إلى وضع كل النشاطات الاقتصادية والثقافية تحت سيطرتها ، وهذا أمر أساسي في عملية الترشيد . وعلى سبيل المثال ، حاولت الدولة الجديدة السيطرة على النظام التعليمي بأكمله ، ومن ثم ، تدخلت في عملية تعيين (وفصل) المدرسين في المدارس الكاثوليكية حتى يمتثلوا لأوامرها هي ولا يخضعوا لسلطان الكنيسة ، وحتى تتحول الأقلية الكاثوليكية من جماعة شبه ألمانية لها سماتها الخاصة يتوزع ولاؤها بين القيم الدينية المطلقة والقيم القومية العضوية إلى جماعة ألمانية خالصة تدين بالولاء للدولة وحدها . وقد أدَّى هذا إلى صدام بين الدولة والكتلة الكاثوليكية الضخمة ، وأُطلق على هذا الصدام مصطلح «كولتوركامبف Kulturkampf» أي «الكفاح الثقافي» (وقد وقف أعضاء الجماعة اليهودية إلى جانب الدولة ضد أعضاء الجماعة الكاثوليكية) .

وأدَّى التحديث السريع إلى اقتلاع أعداد كبيرة من الجماهير الريفية من مجتمعاتهم المترابطة (جماينشافت) والإلقاء بهم في المدن الضخمة التي تسود فيها العلاقات التعاقدية (جيسليشافت) . وتزايدت درجة الاغتراب بين أعضاء الطبقة الوسطى وغيرها من الطبقات ، حيث تغيَّر أسلوب حياتهم نتيجةً لازدياد حجم المدن بسرعة مذهلة وظهور مؤسسات قومية رأسمالية ضخمة لم يألفوها . وفي مثل هذه الظروف ، يبحث أعضاء المجتمع في العادة عن عقيدة متكاملة تجيب عن أسئلتهم وتمنحهم الطمأنينة التي يفتقدونها في المجتمع الجديد وتحميهم من وحشية وتائر التغير السريع . وحيث إن العقائد الشمولية تقوم بهذه المهمة على أكمل وجه ، فقد وجدت تربة خصبة في ألمانيا . (ويقف هذا الوضع على الطرف النقيض من التحديث التدريجي البطيء في غرب أوربا الذي سمح بترسيخ قيم الفردية والليبرالية ثم بهيمنة البورجوازية في نهاية الأمر على المجتمع ككل بمختلف أعضائه ومؤسساته) .

وتم التحديث في ألمانيا تحت ظروف خاصة (التحديث المتأخر الذي تزامن مع توحيد ألمانيا) . وقد نجح بسمارك في استغلالها ببراعة فائقة ، حيث اكتشف أن العناصر الثورية في الطبقة الوسطى والبورجوازية تبنَّت قضية توحيد ألمانيا وربطت بينها وبين قضية القضاء على القوى التقليدية والمحافظة في المجتمع والتي كان من صالحها أن تبقي على وضع التجزئة . لكن بسمارك توصل إلى صيغة عقائدية تسمح بفصل الهدف الأول عن الثاني ، كما تسمح باستغلال قضية الوحدة في تصفية العناصر الليبرالية والثورية مثلما يحدث في العالم الثالث في الوقت الحاضر عندما تُطرح قضايا قومية يُقال لها « مصيرية » للتحكم في الجبهة الداخلية ولتصفية أية جيوب معارضة باسم الإجماع القومي ("في تلك اللحظة المصيرية من تاريخ الأمة") . وانطلاقاً من هذا ، تبنت القوى والطبقات المحافظة والأرستقراطية ، بقيادة بسمارك ، قضية توحيد ألمانيا وضرورة قيام سلطة مركزية ، بعد أن أصبحت موضع إجماع قومي ، ثم أنجزت هذا الهدف التاريخي في نهاية الأمر . ولذا ، كان بوسع هذه القوى أن تبرم هدنة بينها وبين البورجوازية بحيث تحتفظ هي بالقيادة السياسية لألمانيا على أن تستفيد البورجوازية من النتائج الاقتصادية لعملية التوحيد ، أي أن عملية التحديث في ألمانيا تمت تحت مظلة القوى التقليدية المحافظة مثلما كان الحال ، وإن تباينت صورته ، في دول شرق أوربا . ومن ثم ، ظهر مجتمع حديث يُدار بشكل حديث من قبَل طبقة تقليدية ذات مُثُل تسلطية شمولية ، وهذا مغاير تماماً لنمط التحديث في كلٍّ من فرنسا وإنجلترا .

ومن الحقائق الأساسية التي كثيراً ما نغفل عنها ، أن التحديث في العالم الغربي ، في أوربا الغربية خاصة ، ارتبط ارتباطاً كاملاً وعضوياً بالمشروع الاستعماري الغربي . ولا يمكن رؤية عملية التحديث (والتراكم الرأسمالي المرتبط به) ، في فرنسا وإنجلترا وهولندا وبلجيكا وأمثالها ، خارج إطار التوسع الاستعماري وتحويل شعوب آسيا وأفريقيا إلى ما يشبه الطبقة العاملة (مصدر فائض القيمة) بالنسبة إلى شعوب الغرب (ولذا فنحن نفضل الحديث عن «التراكم الإمبريالي») . ومما لا شك فيه ، أن التوسع الاستعماري يُساهم في التخفيف من حدة كثير من المشاكل الناجمة عن التحديث مثل الأزمات الاقتصادية والانفجارات السكانية ، وذلك عن طريق

تصديرها إلى المستعمرات . ولكن ألمانيا لم يكن لها مشروع استعماري مستقل نظراً لانقسامها ، وقد مرت عليها مرحلة الاستعمار المركنتالي (التجاري) في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كما مرت عليها مرحلة الاستعمار في إطار المنافسة الحرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولم تدخل ألمانيا الحلبة الاستعمارية إلا في مرحلة الرأسمالية الاحتكارية بعد أن كانت إنجلترا وفرنسا (ومن قبلهما إسبانيا والبرتغال) قد التهمتا معظم أنحاء العالم . وبطبيعة الحال ، سعت ألمانيا ، بعد أن تسارعت وتيرة التحديث داخلها ، إلى بسط نفوذها على بعض مناطق العالم ، فأنشأت علاقات وثيقة مع الدولة العثمانية وحلَّت محل بريطانيا وفرنسا كحليفة كبرى ، كما احتلت بعض المناطق في أفريقيا بل في أوربا ذاتها . وقد تحطم المشروع الاستعماري لألمانيا تماماً في الحرب العالمية الأولى ، إذ اقتسم الحلفاء (المتصرون) مستعمراتها فيما بينهم ولم يعد لها مجال استعماري حيوي تقوم بتصدير مشاكلها إليه .

ويمكن القول بأن معاهدة فرساي لم تحطم المشروع الاستعماري الألماني وحسب ، بل حطمت المشروع التحديثي الألماني ، وحولت ألمانيا نفسها إلى ما يشبه المستعمرة . وقد مُنعت ألمانيا من الاتحاد مع النمسا ، مع أن ذلك كان مطلباً للشعبين الألماني والنمساوي كليهما . كما تم استقطاع أجزاء كبيرة منها ضُمت إلى كلٍّ من الدنمارك وبولندا وفرنسا وبلجيكا وليتوانيا . ووُضعت منطقة السار ، الغنية بالفحم ، تحت إشراف عصبة الأمم لمدة خمسة عشر عاماً أُديرت مناجمها أثناءها عن طريق فرنسا . وعلاوة على هذا ، تم تحديد حجم الجيش الألماني الذي سلَّم كميات هائلة من الزاد والعتاد الحربي للحلفاء ، وخُفِّضت كمية الذخيرة المسموح بإنتاجها ، وخُفِّضت قوة السلاح البحري ولم يُسمَح بوجود قوات جوية بتاتاً ، كما فُرضت غرامة مالية كبيرة على ألمانيا . وفضلاً عن ذلك ، تقرر أن تحتل قوات الحلفاء الضفة اليسرى للراين لمدة خمسة عشر عاماً للتأكد من تنفيذ شروط المعاهدة . وألغى الحلفاء المتصرون المعاهدات التجارية المبرمة بين ألمانيا والدول الأخرى ، وصُودرت الودائع المالية الألمانية في الخارج ، وأُنقص حجم البحرية التجارية الألمانية إلى عُشر حجمها . وكل هذه الإجراءات تذكر المرء بما حدث لمحمد علي ، صاحب أول تجربة تحديث في الشرق العربي ، والذي هدَّد ظهوره الخطط الغربية للاستيلاء على تركة الدولة العثمانية ، رجل أوربا المريض . وفي نهاية الأمر ، كان على ألمانيا أن تدفع غرامة عينية قدرها ٢٠ مليار مارك ذهبي ، على أن تدفع جزءاً منها فوراً وجزءاً منها بعد حين . وتم تحديد الغرامة في نهاية الأمر ، في أبريل ١٩٢١ ، بمقدار ١٣٢ مليار مارك ذهبي . وبرغم معارضة جميع الأحزاب الألمانية لتلك الشروط ، اضطرت جمهورية وايمار في النهاية إلى أن ترضخ . وكما هو الحال في مثل هذه المواقف ، حينما تُجْرح الكبرياء الوطنية لشعب ما ، ذاع بين الألمان الاعتقاد بأن ألمانيا لم تُهزم وإنما طعنها الشوريون والليبراليون واليهود من الخلف .

وأدَّى الوضع المذكور إلى تدهور سعر المارك من ٤,٢٠ مارك للدولار في عام ١٩١٤ إلى ١٦٢ ماركاً للدولار ، ثم إلى سبعة آلاف مارك عام ١٩٢٢ . وقد احتلت فرنسا منطقة الروهر عام ١٩٢٣ بحجة فشل ألمانيا في إرسال شحنة من الخشب على سبيل التعويض العيني ، ثم قامت القوات الفرنسية والبلجيكية بإلقاء القبض على العمال الألمان الذين رفضوا العمل في المناجم ، وفُرض حصار اقتصادي تم بمقتضاه فصل منطقة الروهر وكذلك وادي الراين المحتلين عن ألمانيا ، الأمر الذي كان يشكل ضربة اقتصادية هائلة لألمانيا ، خصوصاً بعد أن تم استقطاع منطقة سيلزيا العليا الغنية بالفحم . وبناءً على ذلك ، هبط المارك إلى ١٦٠ ألفاً للدولار في عام ١٩٢٣ ثم إلى ٤,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ في نوفمبر ١٩٢٣ . ولأن جمهورية وايمار لم تضع أية قيود على حرية رأس المال، فقد استفاد كثير من الرأسماليين (ومنهم أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية) من هذا الوضع ، وحققوا أرباحاً هائلة وراكموا الثروات في وقت كانت فيه معظم طبقات الشعب الألماني تعاني من الفقر والهوان .

وبذلت حكومة ألمانيا قصارى جهدها لإصلاح هذا الوضع . وبالفعل ، تم تحديد ديون ألمانيا وطريقة دفعها ، وبدأت قوات الحلفاء في الانسحاب مع أوائل الثلاثينيات ، ثم عقدت الجمهورية بعض القروض لاستثمارها في الاقتصاد الألماني حتى ظهرت بعض علامات التحسن والاستقرار . ولكن هذا الاستقرار كان يعتمد بالدرجة الأولى على القروض الخارجية ، ومن ثم ، أدَّت أزمة الرأسمالية العالمية عام ١٩٢٩ وانهيار البورصة في نيويورك إلى انهيار الوضع في ألمانيا ، فوصل عدد العاطلين فيها عن العمل إلى ما يزيد على ستة ملايين (أي نحو ثلث مجموع القوى العاملة في الفترة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٢) ، وانخفض الدخل بنسبة ٤٣٪ ، وفقدت الطبقة الوسطى ما تبقى لديها من مدخرات .

هذا هو السياق الاجتماعي والسياسي العام الذي أدَّى إلى احتدام التناقضات والثورات داخل المجتمع الألماني والذي أدَّى في نهاية الأمر إلى تَفَجُّر الوضع الداخلي وظهور الأفكار الشمولية الاستبعادية وإلى ظهور إمبريالية تتجه نحو « الداخل » الأوربي بعد



أن حُرِمت من "الخارج" الآسيوي والإفريقي " العالمي" . فقد اتجه المشروع الاستعماري الألماني بكل قوته ، حينما استعادها ، نحو الداخل ، أي نحو الشعوب السلافية المجاورة والأقليات المختلفة مثل الغجر واليهود ، حيث اعتبر المناطق التي تعيش فيها مجاله الحيوي ، الذي لابد من تفريغه من تلك العناصر التي لا تنتمي إلى الفولك والتي تعوق تحقيقه لمصلحته وأهدافه .

السياق السياسي والاجتماعي الألماني اليهودي للإبادة

Jewish-German Political and Social Context of the Extermination

ولكن إلى جانب هذه الظروف الألمانية العامة ، كانت هناك ظروف خاصة بأعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا ساهمت في تحويل الموقف المتفجر إلى وضع مدمر بالنسبة لهم ولغيرهم من الأقليات ، وهو ما سنتناوله في هذا الجزء .

لم يكن للجماعة اليهودية في ألمانيا وزن عددي يذكر . فمن الناحية الكمية المحضة ، لم يكن أعضاؤها يُشكلون أي تحدٍّ خاص للأغلبية الألمانية الساحقة كما يبيِّن الجدول التالي :

السنة	عدد اليهود	النسبة إلى عدد السكان
١٨٧١	٥١٢,١٥٠	٪١,٢٢
١٨٨٠	٥١٢,٦١٢	٪١,٢٤
١٨٩٠	٥٦٧,٨٨٤	٪١,١٥
١٩٠٠	٥٨٦,٨٣٣	٪١,٠٤
١٩١٠	٦١٥,٠٢١	٪٠,٩٥

ويُلاحَظ من الجدول السابق أن الجماعة اليهودية لم تكن آخذة في التزايد برغم الانفجار السكاني في أوربا في القرن التاسع عشر (زاد عدد يهود شرق أوربا بين عامي ١٨٠٠ و١٩٣٥ بنحو ستة أضعاف) . كما أن نسبة يهود ألمانيا إلى عدد السكان كانت آخذة في التناقص ، وقد تزايد هذا الاتجاه عام ١٩١٠ بسبب التنصُّر والزواج المختلط الذي بلغت نسبته بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٧ نحو ٤٤,٥٪ من جملة الزيجات اليهودية .

ولذا ، لم تكن المسألة اليهودية في ألمانيا كامنة في الكم كما كان الوضع (إلى حدٍّ ما) في شرق أوربا ، وإنما في الكيف ، وعلى وجه التحديد في الوضع الوظيفي المتميِّز لأعضاء الجماعة اليهودية الذي تأثر تأثراً عميقاً بعملية التحديث في ألمانيا . فقد كان أعضاء الجماعة، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، يعيشون أساساً في الريف والمدن الصغيرة . ولكن ، مع بدايات القرن التاسع عشر وظهور الاقتصاد الجديد ، هاجرت أعداد هائلة منهم إلى المدن الكبرى . ومع نهاية القرن ، كانت أغلبيتهم تقيم في المدن الكبرى مثل براسلاو وليبزج وكولونيا ، بالإضافة إلى هامبورج وفرانكفورت ، وكانت برلين تضم ثُلث يهود ألمانيا .

وأدَّى تركز يهود ألمانيا في المدن إلى وضوح تمايزهم الوظيفي والمهني، وهي ظاهرة موغلة في القدم في دول وسط أوربا ، وخصوصاً في ألمانيا . فلقد كان أعضاء الجماعة اليهودية في الإمارات الألمانية يُشكِّلون ، في العصور الوسطى ، جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بدور التاجر والصيرفي والمرابي ، ثم تم طردهم من عدة مدن وإمارات ألمانية ، فهاجروا منها إلى مدن وإمارات ألمانية أخرى . ولكن ، مع حلول القرن السادس عشر ، سُمح لليهود بالاستقرار في كثير من المدن والإمارات التي كانوا قد طُردوا منها ، وتم استقدامهم كعنصر تجاري نشط لديه رأس المال اللازم والاتصالات الدولية . وكان يهود المارانو (الذين طُردوا من شبه جزيرة أيبريا) من أهم هذه العناصر . وعادةً ما كان يتم استقدام اليهود ، سواء في العصور الوسطى أو في القرن السادس عشر ، بأمر من الإمبراطور أو الأمير أو النخبة الحاكمة ، فكان أعضاء الجماعات اليهودية يتبعون النخبة الحاكمة (أو أحد أعضائها) بشكل مباشر ويُشكِّلون مصدر دخل كبير لها ، وكان الممولون اليهود يقومون باعتصار الجماهير من خلال الفوائد الضخمة التي يُحصِّلونها على قروضهم . ولكن النخبة الحاكمة كانت تستولي على نسبة ضخمة من الأرباح في نهاية الأمر عن طريق الضرائب التي تفرضها على أعضاء الجماعات اليهودية . وفي القرن السادس عشر ظهرت مهنة يهودي البلاط الذي يدير الخزانة الملكية ويعقد الصفقات والقروض بالنيابة عن الأمراء ويمول الحروب ويدير الاتصالات التجارية اللازمة ، أي أن أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا كانوا مرتبطين بالحاكم ملتصقين به ومتميِّزين طبقياً ومهنياً عن بقية أفراد الشعب ، وهو وضع ازداد تبلوراً في القرن التاسع عشر ، كما يبيِّن الجدول التالي الخاص بتوزيع أعضاء الجماعة اليهودية في المهن والحرف المختلفة :

المهنة أو الحرفة	١٨٩٥	١٩٠٣
الزراعة	٪١,٤	٪١,٣
الصناعة	٪١٩,٣	٪٢٢,٣
التجارة والنقل	٪٥٦,٠	٪٥٠,٦
عمال أجراء	٪٠,٤	٪٠,٦
مهن حرة	٪٦,١	٪٦,٥
أعمال حرة	٪١٦,٧	٪١٩,٠

وكان وجود بعض أعضاء الجماعة اليهودية كوسطاء أمراً واضحاً جداً ، فقد تركزوا في صناعة الأثاث والملابس الجاهزة وارتبطوا بالصيرفة والمحال التجارية ، الأمر الذي حولهم إلى شخصيات مكروهة من الطبقة الوسطى ، خصوصاً في ظروف الأزمة . واتضح كذلك وجود اليهود في مهنة الإقراض وتحصيل ريع الملكيات الزراعية (بالنيابة عن أصحاب الأملاك) ، كما عملوا تجار مواش ، الأمر الذي جعلهم مكروهين من الفلاحين . وقبل الحرب العالمية الثانية ، كان عدد يهود ألمانيا لا يزيد على ١٪ وكان يهود برلين يُشكِّلون ٥٪ من سكانها ، ومع هذا كانوا يُشكِّلون النسب التالية في بعض القطاعات الاقتصادية في برلين :

النسبة	القطاع الاقتصادي
٧٠٪	من مجموع أصحاب الحوانيت
٣٠٪	من مجموع تجار الملابس
٢٥٪	في تجارة الأثاث
١٧٪	من مجموع العاملين في المصارف
١٠٪	من الأطباء
١٦٪	من المحامين

ومن الإحصاءات الأخرى ذات الدلالة أن يهود برلين الذين كانوا يشكلون ـ كما أسلفنا ـ ٥٪ من سكانها كانوا يدفعون ٣٠٪ من جملة الضرائب ، وكان يهود فرانكفورت الذين يشكلون ٧٪ من سكانها يدفعون ٢٨٪ من ضرائبها ، كما بلغت نسبة أصحاب الأعمال ومديري البنوك من اليهود في برلين ١٥ ,٥٥٪ في عام ١٨٨٢ ، ثم هبطت إلى ٦ ,٣٢٪ في عام ١٩٢٥ (وهي أيضاً نسبة عالية) . وتقول **الموسوعة اليهودية العالمية** إن الهبوط في النسبة المئوية لم يصاحبه هبوط في النفوذ ، إذ كان اليهود ، في بعض السنوات ، يُديرون أهم ثلاثة بنوك تتحكم في ٦٠٪ من نسبة الإقراض في بعض السنوات ، وكانوا يديرون نحو ثلاثة أرباع القروض الأجنبية التي مُنحت لألمانيا من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٩ . كما سيطر اليهود على ٣٢ ,٥٧٪ من صناعة المعادن في عام ١٩٣٠ . وهكذا ، ارتبط اليهود في العقل الألماني بالمشروع الحر والمضاربات والسياسات الليبرالية . ومن جهة أخرى ، كان والتر راتناو (وزير التعمير ثم وزير الخزانة في حكومة وايمار) يهودياً ، كما كان واضع دستور هذه الجمهورية (التي استمرت فترة قصيرة) يهودياً أيضاً .

وكانت هذه الجمهورية ترمز في العقل الألماني لليبرالية المتخاذلة المتهالكة أمام هجوم أعداء ألمانيا . ومن قبيل المفارقات أن أعضاء الجماعة اليهودية ارتبطوا بالمثل الليبرالية في وقت كان فيه المجتمع الألماني (ككل) يتخلى ، بعد تَعثُّر التحديث ، عن هذه المُثُل ليبحث عن طرق أخرى شمولية لحل مشاكله . ولعل في هذا الارتباط الوثيق بين الرأسمالية الألمانية ويهود ألمانيا ما يُفسِّر النقد الاشتراكي الثوري العنيف لليهود باعتبارهم ممثلين للرأسمالية ، ولليهودية باعتبارها دين الاقتصاد الجديد . ولعل هذا يُفسِّر أيضاً السبب في أن ماركس يَقرن اليهودية بروح التجارة ويُوحِّد بينهما ، ويرى أن إله إسرائيل الطماع هو المال . وهذا التراث الاشتراكي في نقد الشخصية اليهودية تابع من تربة ألمانية أساساً ، حيث كان اليهود ممثلين بشكل واضح في الطبقات الرأسمالية . ولا ينطبق هذا ، بأية حال ، على شرق أوربا حيث تحولت البورجوازية الصغيرة والجماعات اليهودية إلى بروليتاريا تعاني من ويلات الفقر .

وبرغم هذا الربط بين الجماعات اليهودية والرأسمالية في ألمانيا ، فقد انضم عدد كبير من المثقفين اليهود إلى الحركات الثورية فيها ، وكان ارتباطهم بها على المستوى الفردي واضحاً وضوح الارتباط الجماعي لليهود بالرأسمالية . فكان رئيس حكومة بافاريا الثورية (البلشفية) يهودياً ، وكان كثير من قيادات الحركة الثورية المتطرفة (مثل روزا لوكسمبرج) من اليهود ، وكان هناك شبح ماركس يرفرف على الجميع . ثم اتضح عام ١٩١٧ الوجود اليهودي الملحوظ في الثورة البلشفية (التي كان يُطلَق عليها في بعض الأوساط «الثورة اليهودية») .

وهكذا ، ارتبط اليهودي بالصناعة والاستغلال والمشروع الحر ، وكذلك بالثورة الاشتراكية المتطرفة والحركات الثورية ، أي أن اليهودي أصبح رمزاً جيداً لهذا المجتمع الحديث (جيسيلشافت) المبني على التعاقد والتنافس ، والذي قوض دعائم المجتمع الألماني المترابط (جماينشافت) ، وأصبح بؤرة تتجمع فيها مخاوف الطبقة الوسطى التي كانت آخذة في التدهور الاجتماعي والطبقي بسبب التضخم والبطالة . بل أصبح رمزاً لكل تلك القوى ، من اليمين واليسار ، التي أودت بألمانيا وفرضت عليها أن تذعن للحلفاء .

وحينما استأنفت ألمانيا عملية التحديث بعد الحرب ، تمت هذه العملية بقروض أجنبية وتحت رعاية الدولة ، أي أن النمط الاقتصادي السائد في ألمانيا لم يكن فيه مجال للرأسمال الحر تماماً ولا للنمط الاشتراكي الجمعي . وارتطمت الدولة النازية بكل من الرأسمال الحر الذي ارتبط به اليهود واليسار المتطرف الذي وُجد فيه اليهود بشكل ملحوظ .

وساهمت العوامل السابقة جميعاً ، بشكلٍ أو بآخر ، في عزل

أعضاء الجماعة اليهودية عن بقية التشكيل السياسي الحضاري الألماني . ولكن العنصرين التاليين كانا حاسمين في فصلهما عن سواد الشعب الألماني ، وفي تهميشهما تماماً . والعنصران هما :

١ ـ العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني :

تعود العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وتُعتبَر امتداداً لظاهرة يهود البلاط ولارتباط أعضاء الجماعة بالحاكم . (تُعَدُّ عائلة روتشيلد مثلاً جيداً على ذلك ، حيث كانت آخر أسرة من أسر يهود البلاط وهي أيضاً أول أسرة يهودية ثرية تتولى مشاريع الاستيطان الصهيوني) .

والجدير بالذكر أن وضع اليهود تحسن كثيراً في منتصف القرن التاسع عشر مع توحيد ألمانيا ، فقد كان ثلاثة من أهم مستشاري بسمارك من اليهود . ويُقال إن اليهودي المتنصِّر فريدريك ستاهل هو مُنظِّر الدعوة إلى العسكرية البروسية . والواقع أن بسمارك كان يفكر، حسب تقاليد النخبة الحاكمة الألمانية ، في استخدام اليهود دائماً في مشاريعه . ويظهر ذلك الاتجاه بشكل أوضح في تفكير إمبراطور ألمانيا (ويلهلم الثاني) الذي كان يرى إمكان استخدام اليهود في مشروعه الاستعماري ، كما كان واعياً بالقدرات المالية لليهود وحجم اتصالاتهم الدولية . وكانت مفاوضات هرتزل ، مع إمبراطور ألمانيا ، تدور داخل هذا الإطار وتنطلق من هذا التفاهم الضمني . وفي الوقت نفسه ، كانت المنظمة الصهيونية في ألمانيا لا تكف عن الحديث عن نفع اليهود وإمكان استخدامهم في المشاريع الاستعمارية الألمانية ، وتوطينهم في فلسطين أو في غيرها تحت راية الاستعمار الألماني . وقامت جمعية الغوث الألمانية اليهودية بالمساهمة في النشاط الاستيطاني الصهيوني باسم الاستعمار الألماني، كما كان يُنظَر إلى العنصر اليهودي من شرق أوربا (المتحدث باليديشية) باعتباره عنصراً ألمانياً ، يمكن تسخيره في صالح المشروع الألماني الاستيطاني .

وكما هو معروف ، صدر وعد بلفور الذي ينطوي ، بشكل ضمني ، على إمكان تحويل اليهود إلى عناصر تدين بالولاء للاستعمار الإنجليزي . ورغم هذا ، استمرت رئاسة المنظمة الصهيونية الموجودة آنذاك في ألمانيا في التقرب إلى النظام الحاكم ، واستمرت في بذل المحاولات لاستصدار وعد بلفوري ألماني . ولكن هذه الجهود لم تُثمر ، بسبب علاقة ألمانيا الخاصة بالدولة العثمانية ورفض الخليفة العثماني الموافقة على المشروع الصهيوني حتى ولو تم في إطار المشروع الاستعماري الألماني . ومع هذا ، أصدرت الحكومة الألمانية (بعد صدور وعد بلفور) تصريحاً مبهماً يشبه وعد بلفور من بعض الوجوه ، تَعد فيه بمساعدة المشروع الصهيوني على أمل أن تجند يهود العالم لصالحها وتكسبهم إلى صفها . وقد جاء هذا التصريح متأخراً ، ولم يؤد في النهاية إلى شيء يُذكر . ولكن ما يهمنا في هذا السياق هو أن التعامل مع اليهود (باعتبارهم جزءاً من المشروع الاستعماري الألماني) يُعتبَر (في جوهره) تهميشاً لهم من منظور المشروع القومي الألماني ، فهو يعطيهم حقوقاً للاستيطان في فلسطين ، كما يمنحهم الحق في التمتع برعاية الحكومة الألمانية « خارج » ألمانيا ، الأمر الذي يعني ضمناً إنكار حقوقهم « داخلها » . فقد كان الاستعمار الاستيطاني هو الإطار الذي يتم من خلاله تصدير الفائض البشري غير المرغوب فيه إلى الشرق . ولكن القيادة الصهيونية ، بقبولها هذا الإطار ، رضيت بالتعريف الضمني الكامن لليهود كعنصر غريب غير منتم يجب أن يتم تصديره عن طريق التهجير . وهذا ، على كل حال ، هو التعريف الصهيوني (الواضح) لليهود .

٢ ـ تهميش اليهود من خلال هجرة يهود شرق أوربا :

تسبَّبت الهجرة الكثيفة ليهود اليديشية في أعقاب تعثُّر التحديث في شرق أوربا في تهميش اليهود وفصلهم عن التشكيل القومي الألماني العضوي . ومن الجدير بالذكر أن الهجرة اليهودية الحديثة اتسمت بأنها هجرة داخلية في أوربا (أي من بلد أوربي إلى آخر) حتى عام ١٨٨٠ . ولم تبدأ الهجرة عبر الأطلنطي بشكل مكثف إلا بعد ذلك التاريخ . وقد هاجر ، في المرحلة الأولى بصفة خاصة ، مئات الألوف ، ووصلت أعداد كبيرة منهم إلى إنجلترا وتسببوا في استصدار وعد بلفور لتحويل سيل الهجرة عنها ، كما وصلت أعداد لا بأس بها إلى ألمانيا .

ومما زاد الأمور سوءاً أن ألمانيا قامت ، في نهاية القرن الثامن عشر ، بضم بولندا التي كانت تضم يهوداً من المتحدثين باليديشية (أوست يودين ، أي يهود شرق أوربا) ، وهو ما كان يعني أن يهاجر هؤلاء إلى المدن الألمانية الكبرى . وبالفعل ، انتقل معظم يهود بوزنان إلى ألمانيا ، وكذا أعداد كبيرة من يهود جاليشيا . ولا شك في أن ظهور هذه الكتلة الضخمة من يهود شرق أوربا ذوي الطابع الجيتوي المنغلق ، والذين لا يوجد لديهم (كغرباء مُقتَلعين) التزام قوي بالمعايير الأخلاقية المحلية أو بالقيم الطويلة ، كما يفتقرون إلى الكفاءات المطلوبة في التعامل مع أوربا الحديثة والاقتصاد الجديد ، كان يمثل تهديداً للموقع الطبقي لليهود ولمكانتهم الاجتماعية . وقد

شهدت سنوات العشرينيات من هذا القرن هجرة يهودية ضخمة من بولندا بسبب الأزمة الاقتصادية . وقد أشرنا من قبل إلى النسبة المرتفعة من الزيجات المُختلَطة بين يهود ألمانيا ، ويمكن أن نضيف هنا أننا نعتقد أن النسبة كانت عالية للغاية بين اليهود من أصل ألماني ، ولكن الإحصاءات لا تذكر سوى المتوسط العام دون أن تُفرِّق بين يهود شرق أوربا المقيمين في ألمانيا واليهود من أصل ألماني . وبوجه عام كان يهود ألمانيا يختفون ، بينما كان يهود الشرق يحلون محلهم ، أي أن الطابع العام للجماعة اليهودية كان آخذاً في التغير وفي اكتساب طابع غير ألماني (كانت نسبة اليهود الأجانب بين يهود ألمانيا هي ٧,٢٪ عام ١٨٨٠ ، ارتفعت إلى ١٢,٨٪ عام ١٩١٠ ، ولا شك أنها استمرت في التزايد بعد هذا التاريخ) .

وتحولت ألمانيا ، بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى مركز للثقافة العبرية نتيجةً لهرب عديد من الكتاب اليهود من روسيا ، فتم تأسيس دار نشر عبرية ، كما أسست الحركة الصهيونية كثيراً من المدارس لتعليم العبرية . (وهو اتجاه أيده النازيون فيما بعد ودعموه لأنهم كانوا يرون ضرورة عبرنة اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً مستقلاً عن الشعب العضوي الألماني . ولنا أن نلاحظ أن الدولة النازية سبقت الدولة الصهيونية في تبنّي كثير من مشاريع العبرنة) . وكان من شأن هذا كله أن أصبح العنصر اليهودي مرة أخرى عنصراً عضوياً متماسكاً غريباً يقف خارج المجتمع أو على هامشه . ولذا ، كان أحد المطالب الأساسية لأعداء اليهود وقف الهجرة من شرق أوربا لأنها تأتي بالغرباء . وكانت حقوق اليهود الأجانب مثار نقاش حتى في عهد جمهورية وايمار الليبرالي ، ولهذا نجد بعض الألمان ، ممن لا يمكن اتهامهم بمعاداة اليهود ، يطالبون بعدم السماح ليهود الشرق بامتلاك عقارات باعتبارهم أجانب لا باعتبارهم يهوداً .

بل لقد طُرحت القضية نفسها داخل المنظمات اليهودية ذاتها : هل يُمنح اليهود الأجانب ، الذين كانوا يشكلون أحياناً الأغلبية في بعض المجتمعات ، حق التصويت في الانتخابات ؟ وبالفعل ، قرر كثير من هذه التجمعات السماح ليهود الشرق بالانضمام إليها بدون ممارسة حق التصويت . ولعل تأسيس جمعية الغوث كان يهدف إلى إبعاد يهود الشرق عن ألمانيا حتى لا يتأثر وضع اليهود داخلها ، كما هو الحال مع جمعيات الغوث الأخرى (التوطينية) التي أنشأها أثرياء اليهود في الغرب (أمثال هيرش وروتشيلد) .

وظهرت في هذه المرحلة جمعيات يهودية ، مثل : التنظيم المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جمعية يهودية تدعو إلى الاندماج) ، وجمعية غوث يهود ألمانيا (وهي جمعية خيرية قامت بنشاط استيطاني في فلسطين كما أشرنا) ، وغير ذلك من جمعيات دينية وثقافية . وتم تأسيس اتحاد عام لهذه الجمعيات في أواخر العشرينيات . ولكن الأمر الذي يجدر ذكره ، من وجهة نظر هذه الدراسة ، هو تأسيس فرع للمنظمة الصهيونية في ألمانيا (بل أصبح المقر الرئيسي داخل ألمانيا منذ عام ١٩٠٤) . وترأس فرع ألمانيا رجل ألماني متزوج من يهودية من شرق أوربا (كورت بلومنفلد) طرح شعارات قومية عضوية كانت تسبب الكثير من الحرج لأعضاء الجماعة الذين كانوا يحاولون الاندماج . وتُوِّجت جهوده باستصدار قرار بوزنان الصهيوني عام ١٩١٢ الذي جعل من الهجرة إلى فلسطين هدفاً أساسياً لكل يهودي . وظل الصهاينة ، ومعظمهم من أصل شرق أوربي ، يتقبلون مختلف المنطلقات القومية العضوية . فدافع مارتن بوبر عن علاقة التربة بالدم ، كما دافع عن أن اليهود شعب آسيوي أساساً . وتحدث ناحوم جولدمان عن اليهود كعنصر هدام في كل المجتمعات لأنهم غرباء ، وتحدث جيكوب كلاتسكين عن ازدواج الولاء عند اليهود ، وتحدث حاييم وايزمان عن اليهود باعتبارهم عنصراً فائضاً يقف في حلق الأمة الألمانية ، وهي شعارات تعود كلها لتيودور هرتزل وماكس نوردو اللذين وضعا أساس الصهيونية الألمانية . وأشاعت هذه الدعاية صورة سلبية للغاية عن أعضاء الجماعة اليهودية وعن عدم إمكان دمجهم في الشعب العضوي الألماني . وفي هذا المناخ ، ظهر هتلر وظهرت النازية . وأثناء محاكمات نورمبرج ، أصر الزعماء النازيون ، الواحد تلو الآخر ، على أنهم تعلموا ما تعلموه عن المسألة اليهودية من أدبيات الصهاينة .

ورغم هذا الجو الهستيري الصهيوني النازي ، ظلت الجماعة اليهودية رافضة للمنطق الصهيوني واستمرت في مقاومة المنطق النازي . ومع وصول هتلر للحكم ، استولى الصهاينة على قيادة الجماعة اليهودية وطرحوا برنامجاً عام ١٩٣٣ لإعادة صياغة الجماعة اليهودية في ألمانيا وتعليم اليهود ما يتفق مع التقاليد الصهيونية ، وذلك عن طريق مزج القومية بالدين بهدف تهجيرهم خارج ألمانيا .

وقد وَصفت جمعية التنظيم المركزي للمواطنين الألمان هذا الموقف من قبل الصهاينة بأنه طعنة في الخلف . أما النازيون ، فوافقوا على الطرح الصهيوني للقضية وقدَّموا التأييد والدعم للأنشطة والمؤسسات الصهيونية .

وكانت كل هذه الأسباب النابعة من الملابسات التاريخية والسياسية والحضارية العامة (أي المرتبطة بالمجتمع الألماني ككل) ، والخاصة (أي المرتبطة بالجماعة اليهودية على وجه التحديد) ، هي

التي أدَّت إلى ارتطامهم بالنظام النازي وإلى إبادة أعداد كبيرة منهم (بالمعنيين العام والخاص اللذين نطرحهما ، أي الإبادة من خلال التجويع والسخرة والتهجير والإبادة من خلال التصفية الجسدية) .

الإبـــادة النازيـــة للغـــجر

Nazi Extermination of Gypsies

ارتبطت عبارة «الإبادة النازية» بكلمة «اليهود» بحيث استقر في الأذهان أن النازيين لم يبيدوا سوى اليهود . وقد ساعد الإعلام الغربي والصهيوني على ترسيخ هذه الفكرة حتى أصبح دور الضحية حكراً على اليهود . بل تطور الأمر إلى حد أنه إذا ما أراد باحث أن يبيِّن أن الإبادة النازية لم تكن مقصورة على اليهود ، وإنما هي ظاهرة شاملة ممتدة تشمل الغجر والسلاف والبولنديين وغيرهم ، فإنه يصبح هدفاً لهجوم شرس .

ونحن نرى أن ثمة اتجاهاً كامناً نحو الإبادة في الحضارة العقلانية المادية الحديثة ، وأنه تحقق بدرجات متفاوتة من الحدة والتبلور واتخذ أشكالاً مختلفة . وإحدى لحظات التحقق المتبلورة هي الإبادة النازية للغجر ، التي ورد الوصف التالي لها في إحدى منشورات اليونسكو .

كانت إبادة الغجر مُدرجة في برنامج ألمانيا النازية . وكان لدى شرطة إقليم بافاريا الألماني منذ عام ١٨٩٩ قسمٌ خاص « بشئون الغجر » يتلقى نسخاً من قرارات المحاكم المكلَّفة بالبت في المخالفات التي يرتكبها الغجر . وتحوَّل هذا القسم عام ١٩٢٩ إلى « مركز وطني »مقره ميونيخ ، وحُظر على الغجر منذ ذلك التاريخ التنقل بدون تصريح الشرطة . وكان الغجر الذين يزيد أعمارهم على السادسة عشرة ولا يعملون يُجبرون على العمل لمدة سنتين في مركز من مراكز التأهيل . وابتداءً من عام ١٩٣٣ ، وهو تاريخ وصول هتلر إلى الحكم ، زادت تلك القيود شدة وصرامة . وطُرد الغجر الذين لا يحملون الجنسية الألمانية ، وزُجّ بالباقين في المعتقلات بحجة أنهم «غير اجتماعيين » .

ثم بدأ الاهتمام بالبحث في الخصائص العرقية للغجر ، فأعلن الدكتور هانز جلوبكه ـ أحد المساهمين في صياغة قوانين نورمبرج ـ عام ١٩٣٦ ـ أن الدم الذي يجري في عروق الغجر « دم أجنبي » . ثم صنَّفهم الأستاذ هانز ف . جيئتر في فئة مستقلة تمثل مزيجاً عرقياً غير محدَّد (إذ لم يستطع نفي أصلهم الآري) . وبلغت الخصائص العرقية لدى الغجر من الأهمية درجة أهلتها لأن تصلح موضوعاً لرسالة دكتوراه . ومما قالته إيفا جوستين مساعدة الدكتور ريتّر في قسم الأبحاث العرقية بوزارة الصحة (عند مناقشة رسالتها) إن الدم الغجري « يُشكِّل خطراً بالغاً على صفاء الجنس الألماني » .

ووجَّه طبيب يُدعَى الدكتور بورتشي مذكرة إلى هتلر يقترح فيها فرض الأشغال الشاقة على الغجر وتعقيمهم بالجملة نظراً لأنهم "يُشكِّلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان" .

وفي ١٤ ديسمبر عام ١٩٣٦ ، صدر قرار أدى إلى تفاقم أوضاع الغجر إذ وصمهم بأنهم « مجرمون معتادون على الإجرام» . وفي نهاية عام ١٩٣٧ وخلال عام ١٩٣٨ شُنت حملات اعتقال جماعية عديدة ضد الغجر وخُصِّص لهم جناح في معتقل بوخنولد ، وكانت قوائم الوفيات في كثير من المعسكرات تحوي أسماء غجرية يُذكَر منها : ماوتهاوسن وجوسن وداوتمرجن وناتلزفايلر وفلوسنبورج . وفي رافنسبروك ، راحت كثيرات من نساء الغجر ضحايا لتجارب أطباء الشرطة العسكرية الهتلرية الإس . إس . (SS) .

وفي عام ١٩٣٨ ، أصدر هملر بنفسه أمراً بنقل مقر المركز الوطني لشئون الغجر إلى برلين . وفي السنة نفسها اعتُقل ثلاثمائة غجري كان قد استقر بهم المقام في قرية مانفويرت حيث كانوا يملكون الحقول والكروم . وقد أمر هملر بتصنيف الغجر في الفئات التالية : غجري صرف (Z) ، وخلاسي يغلب عليه العرْق الغجري (+ZM) ، وخلاسي يغلب عليه العرْق الآري (-ZM) ، وخلاسي يتساوى فيه العرْقان الغجري والآري (ZM) .

ويميِّز المؤرخ ح . بلّنج في كتابه **ألمانيا وإبادة الجنس** بين أساليب مختلفة لإبادة الجنس تتمثل في الإبادة عن طريق إزالة القدرة على الإنجاب واختطاف الأطفال ، والإبادة عن طريق الزج في المعتقلات ، والإبادة عن طريق الإفناء .

وقد عُقِّمت في مستشفى برسلدورف – ليبرنفلد نساء غجريات متزوجات من غير الغجر ، ومات بعضهن على أثر تعقيمهن وهنّ حوامل . وفي رافنسبروك ، قام أطباء الإس . إس . بتعقيم مائة وعشرين فتاة غجرية صغيرة .

وكان من أمثلة الإبادة الجماعية عن طريق الاعتقال ترحيل خمسة آلاف غجري من ألمانيا إلى جيتو لودز في بولندا ، وكانت ظروف المعيشة في هذا الجيتو من الفظاعة بحيث لم ينج أحد من هؤلاء الغجر من الهلاك . ومع ذلك فإن الطريقة التي كان يؤثرها النازيون هي طريقة الإفناء المباشر .

ويُعتقد أن قرار إبادة الغجر بالإفناء اتُخذ في ربيع عام ١٩٤١ عندما شُكِّل ما عُرِف باسم «فرق الإعدام» . ولكي يتحقق ذلك كان

يتعيَّن جمع الغجر في أماكن محددة . فمنذ صدور قرار هملر في ٨ ديسمبر ١٩٣٨ ، كانت أماكن سكنى الغجر قد أصبحت معروفة لدى الشرطة ، ثم جاء قرار ١٧ نوفمبر ١٩٣٩ ليحظر عليهم ترك منازلهم أو ليضعهم تحت طائلة الحبس في معسكرات الاعتقال . ورُحل ثلاثون ألف غجري إلى بولندا فلاقوا حتفهم في معتقلات الموت في بلزك وتربلينكا وسوبيبور ومايدانك ، شأنهم شأن آلاف آخرين رُحلوا من بلجيكا وهولندا وفرنسا إلى معتقل أوشفيتس .

ويروي هويس ، قائد المعتقل ، في مذكراته أنه كان بين المعتقلين شيوخ يناهزون المائة سنة من العمر ونساء حوامل وأعداد كبيرة من الأطفال . كذلك يروي بعض السجناء الذين نجوا من الهلاك ، كما يسرد كولكا وكرواس في كتابهما المعنون **مصنع للموت**، قصة مذبحة الغجر الرهيبة التي وقعت في ليلة ٣١ يوليه عام ١٩٤٤ .

وفي بولندا ، كان الغجر يُقتلون في معسكرات الموت أو يُعدمون في البراري . وامتد نطاق القتل إلى الاتحاد السوفيتي عندما اندلعت نيران الحرب بين الألمان والسوفييت ، فكانت فرق الإعدام التابعة للإس . إس . تسير مع الجيوش الألمانية ، وكانت القبور الجماعية تملأ مناطق البلطيق وأوكرانيا والقرم . وفي ليلة ٢٤ ديسمبر ١٩٤١ أُعدم رمياً بالرصاص في سيمفيروبول ثمانمائة غجري من الرجال والنساء والأطفال . وحينما زحفت الجيوش النازية ، كان الغجر يُعتقلون أو يُرحلون إلى المعسكرات أو يُقتلون . وفي يوغسلافيا ، كان الغجر واليهود يُعدمون في غابة باجنيس .

ومن الصعب تقدير عدد الغجر الذين كانوا يعيشون في أوربا قبل الحرب العالمية الثانية وعدد ضحايا هذه الحرب . ويُقدِّر المؤرخ راؤول هيلبرج عدد الغجر في ألمانيا قبل الحرب بأربعة وثلاثين ألف نسمة ؛ أما عدد من بقي منهم على قيد الحياة بعدها فغير معروف . ويتبيَّن من تقارير فرق الإعدام أن عدد الضحايا في روسيا وأوكرانيا والقرم بلغ ثلاثمائة ألف غجري ، بينما تُقدر السلطات اليوغسلافية عدد القتلى من الغجر بثمانية وعشرين ألفاً في الصرب وحدها . أما عدد الضحايا في بولندا ، فمن الصعب تقديره وإن كان المؤرخ تيتنباوم يؤكد أن الشعب الغجري فقد على الأقل خمسمائة ألف من أبنائه . هذا ، مع العلم بأن الشعب الغجري شعب عريق وكثير النسل (على عكس اليهود) . وعلى كل حال ، ومهما اختلفت النسب ، فإن نسبة من أُبيد من الغجر (إلى عددهم الكلي) يفوق نسبة من أُبيد من اليهود .

مارتن هايدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦) والنازية

Martin Heidegger and Nazism

في كتابه المعنون **الحداثة الرجعية : التكنولوجيا والثقافة والسياسة في جمهورية فايمار والرايخ الثالث** يُبيِّن جيفري هيرف أن الحداثة لم تكن حركة نحو اليمين أو نحو اليسار ، إذ يرى أن هناك حداثة رجعية فاشية هي حداثة انتصار الإرادة على العقل ، والروح المبدعة على الحدود . وفي إطار هذه الحداثة ترتبط الإرادة المنتصرة بالعنصر الجمالي الذي يصبح هو وحده مبرر الحياة ، ولذا تُعلَّق (أي تُعطَّل) كل المعايير الأخلاقية وتهيمن الرغبة التي لا تعرف أية حدود . وفي حديثه عن هذه الحداثة الرجعية يُبيِّن هيرف أن مصادرها متعددة ، يذكر من بينها ما يلي : الرومانسية ـ أيديولوجية الفولك ـ المصطلح الوجودي عن الذات والأصالة ـ الداروينية الاجتماعية ـ فلسفات الحياة Lebensphilosophie ـ احتفاء نيتشه بالجمال الذي يتجاوز الأخلاق أو الذي لا علاقة له بالأخلاق (بالإنجليزية : أمورال amoral) ـ الاحتفال بالجمال باعتباره معياراً « أخلاقياً » ـ تمجيد التكنولوجيا وربطها بالقيم المتجاوزة للأخلاق . ويستمر هيرف ، عبر كتابه ، في تعداد هذه العناصر وغيرها .

ونحن نرى أنه رغم دقة ملاحظاته وجدَّتها إلا أن كتالوج العناصر الذي قدَّمه يتسم بعدم الترابط . وقد يكون من الأجدى أن نرى نمطاً عاماً في الحضارة الغربية : تصاعد معدلات الحلولية الكمونية والانتقال من العقلانية المادية (المتجاوزة للقيمة والأخلاق والغائية الإنسانية) إلى اللاعقلانية المادية (المتجاوزة للقيمة والأخلاق والغائية الإنسانية) والتأرجح بين الذات والموضوع (وهو نمط عام يصل إلى قمته في فلسفة ما بعد الحداثة) .

وفلسفة مارتن هايدجر (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦) ، الوجودي والفينومينولوجي ، هي جزء من هذا النمط العام . وهو يُعَدُّ من أهم فلاسفة القرن العشرين في الغرب ، إن لم يكن أهمهم على الإطلاق، وينزله البعض منزلة أفلاطون وهيجل . وقد تأثر هايدجر بأعمال جيكوب بومه والمعلم إيكهارت ونيتشه وكيركجارد وهوسرل، ويبدو أن الفكر الغنوصي ترك أثراً عميقاً فيه . وكتابه الأساسي : **الوجود والزمن** (١٩٢٧) ، بالإضافة إلى كتبه الأخرى : **كانط ومشكلة الميتافيزيقا** (١٩٢٩) ، و **ماهية الحقيقة** (١٩٤٣) ، و **مدخل إلى الميتافيزيقا** (١٩٣٥) ، و **رسالة حول الإنسانية** (١٩٤٧) ، و **ما الفلسفة** (١٩٥٥) .

ونقطة انطلاق هايدجر هي الوجود ، فالسؤال الأساسي عنده هو : ما معنى الوجود ؟ فهو السؤال الذي يجب أن يسأله كل

إنسان ليصبح إنساناً . ويذهب هايدجر إلى أن الخلل الأساسي في الأنطولوجيا الغربية أنها سقطت في ثنائية راديكالية فظنت أن الوجود هو كيان موضوعي مفارق للذات ثم قامت بفصل الواحد ، وبحدة ، عن الآخر ، فحولَّت العالم الموضوعي إلى مادة لا أسرار فيها ولا سحر خاضعة للحَوْسَلة منفصلة تماماً عن الذات ، كما تحوَّل الإنسان إلى عقل أداتي وذات متعجرفة متكبرة تنفصل تماماً عن واقعها وتتعالى عليه بدلاً من التفاعل معه ، تحاول أن تغزو الكون بدلاً من أن تعيشه ، وتحاول أن تفرض صورتها على الكون وتحتل مركزه وتحوسله . وتتجلى هذه الرؤية من خلال فلسفة ديكارت وفكر حركة الاستنارة والفلسفة الوضعية والنزعة التكنولوجية .

وفي محاولة تجاوز هذه الثنائية يرفض هايدجر العودة للإله ، كما يرفض أن يعود إلى الذات المستقلة ، وبدلاً من ذلك يطرح مشروعه الفلسفي الذي يصفه هو نفسه بأنه عملية هدم (بالإنجليزية : ديستراكشن destruction ـ بالألمانية : ديستروكسيون destruktion) للفلسفات السابقة ، بل لكل الأنطولوجيا الغربية ، أنطولوجيا الذات والموضوع (ويتحول الهدم [ديستراكشن] إلى تفكيك بالإنجليزية : «ديكونستراكشن deconstruction» في خطاب دريدا الفلسفي ، الذي يدين بالكثير لفلسفة هايدجر) .

وجوهر عملية التفكيك أو الهدم هذه هو الاقتراب من الواقع بدون المنظار الديكارتي بحيث يتجاوز الدارس ثنائية الذات والموضوع وينظر إلى الوجود (شأنه في هذا شأن فلاسفة عالم الحياة) باعتباره الاثنين معاً . ومن هنا اهتمام هايدجر (ونيتشه من قبله) بالفلسفة اليونانية قبل سقراط ، وهي فلسفة لم تعان في تصوره من انقسام الذات والموضوع .

ونحن نذهب إلى أن هذا الانقسام الحاد بين الذات والموضوع هو سمة أساسية في كل الرؤى الحلولية الكمونية المادية التي ترفض فكرة المركز المفارق للمادة المنزه عنها ، وتحاول أن تعين مركزاً كامناً أو حالاً فيها ، فتجده إما في الإنسان أو في الطبيعة ، إما في الذات أو في الموضوع . وتحسم هذه الثنائية الصلبة ذاتها إلى واحدية مادية بذوبان الذات في الموضوع ، أو الموضوع في الذات (وإن كان البديل الأول هو الأكثر شيوعاً) . وهو انقسام لم تسلم منه الفلسفة اليونانية أو أية فلسفة حلولية كمونية مادية ، قبل سقراط أو بعده ، في اليونان أو خارجها . ونمط الثنائية الصلبة التي تؤدي إلى واحدية يظهر بوضوح في فلسفة هايدجر .

يتناول هايدجر قضية الوجود من خلال مفهوم «دازاين Dasein» وهي كلمة ألمانية تعني حرفياً «الوجود هناك» (بالإنجليزية : بينج ذير being there) أي «الوجود في العالم» . وفي سياق فلسفة هايدجر يمكن ترجمتها إلى «الإنسان» أو «حالة كون الإنسان إنساناً» (بالإنجليزية : ذي مود أوف بينج هيومان the mode of being human) . وأهم خصائص وجود الإنسان أن وجوده لا يشبه وجود الشيء ، فقانونه هو عدم التعين ، فهو كائن غير ثابت ، ليست له طبيعة محددة . وبما أن لكل فرد الحق في أن يقول « أنا » ، فإن الوجود الإنساني يتغيَّر من فرد لآخر . فهذا الأنا ليس جوهراً ، أي ليس موضوعاً ثابتاً تجرى عليه التغيرات ، بل هو ينبوع للإمكانات واستعداد لتحققها (عبد الرحمن بدوي) .

وتوجد هذه الذات الإنسانية في عالم الصيرورة والزمان ، لا فكاك لها منه ، وليس لها وجود مستقل عنه . بل إن وجودها نفسه هو ثمرة علاقتها مع العالم المادي ومع الآخرين ، ومع هذا لا تُردُّ الذات إلى واقع خارج عنها ولا تُستوعَب تماماً فيه . فالعلاقة بين الذات والموضوع علاقة جدلية . فالواقع الذي نتفاعل معه يصوغنا بقدر ما نصوغه نحن، ونمتلكه بمقدار ما يمتلكنا . والذات هي إمكانية دائمة ومشروع مستمر وحوار مستمر مع العالم . وعملية الحوار هذه تعني الصيرورة الدائمة ، فالواقع الذي نتفاعل معه مركب تماماً ، ولا يمكن إخضاعه لعملية الرد الفينومينولوجي أو التجريد الإيديتيكي التي تعلق الواقع (على الطريقة الهوسرلية) . ولا يمكننا استنفاد معناه تماماً ولا يمكن حوسلته أو استيعابه في مقولات منطقية مجردة عامة (ومن هنا عجز العلم الطبيعي عن فهم الوجود) .

والإنسان كائن أُلقي به في عالم ليس من صنعه ، ولكنه مع هذا عالمه الوحيد ، ولا يمكن للإنسان أن يأخذ موقفاً تأملياً محايداً من هذا العالم ، فنحن نصبح جزءاً من الأشياء التي في وعينا ، ولذا فإن الإنسان ليس كائناً عارفاً وإنما هو كائن قلق بشأن مصيره في عالم غريب عنه . ويتسم الإنسان بأنه ليس لديه ردود فعل (موضوعية) للأحداث ، فهو « يستجيب » لها ، ومن ثم فالإنسان محتم عليه الاختيار ومحاولة فهم العالم .

واللغة من أهم العناصر في الوجود الإنساني ، فهي أساسية له (بل إنها توجد قبل وجود الإنسان الفرد) ، وهي طريقة انفصال الإنسان عن الوجود ليشعر الإنسان بالدهشة تجاهه بل يشعر بوجوده (على عكس الكائنات الأخرى ، والوجود بالنسبة لها كينونة وليس حضوراً ، فهي كائنة في الوجود لا تعيشه) . ولكن اللغة هي أيضاً أداة اتصالنا مع العالم ومع الآخرين . ولكنها أداة ليست موصلة تماماً لا يمكنها الإفصاح تماماً عما لا يمكن تسميته ، ولذا فاللغة لا يمكن أن تمثل الواقع كما أن اللغة تفقد حدتها بسبب تفاهة اللغة السائدة .

ولعل هذا هو الذي حدا بهايدجر أن يحاول تطوير مصطلحه الخاص تماماً وأن ينحت كلمات جديدة ويلجأ للعب بالكلمات حتى يُفصح عن رؤيته الخاصة (كما فعل دريدا بعده متأثراً به) . كما أن هايدجر كان يذهب إلى أن لغة الشعر أكثر قدرة على التوصيل من اللغة العادية . ومع هذا كان يذهب إلى أن بعض الأفعال مثل «يستقر» و«يرى» تكشف عن الحقائق الأولية للوجود الإنساني .

لكن الإنسان كمشروع مستمر وإمكانية غير متحققة قد يفقد ذاته ويصبح «الهُم» . وهي عبارة تعني ببساطة «الشخصية المتوجهة نحو الآخر» (بالإنجليزية : أذر دايركتيد other directed) والإنسان الاجتماعي بالمعنى السلبي ، أو الإنسان المستوعَب تماماً في الأعراف الاجتماعية وآراء الآخرين (ولكن هايدجر يصر دائماً على تحاشي المصطلحات السوسيولوجية ويفضل المصطلحات الفلسفية الأنطولوجية التي ينحتها بسرعة وغزارة تسبب كثيراً من الصداع الذي لا مبرر له) .

هذا « الإنسان الهُم » هو إنسان ذو بُعد واحد يحكم على نفسه بمعايير الآخرين ويُستوعَب في الآخرين ويسقط في لغو الحديث الذي يقف على الطرف النقيض من الحوار ، فالحوار هو أن ترى الآخرين باعتبارهم بشراً (دازاين) لهم وجودهم الخاص المتعين ، لا باعتبارهم أشياء موضوعية (داس مان : الهُم) بحيث يمكن الدخول معهم في علاقة حميمة تكشف شخصيتهم الأصيلة والحقيقية . والإنسان الهُم هذا لا يشعر بالدهشة الحقيقية وإنما يتسم بحب الاستطلاع ، وحب الاستطلاع هو الرغبة في اقتناء الجديد والمختلف دون أي إحساس حقيقي بالدهشة .

وحتى لا يسقط الإنسان في حالة الهُم هذه فهو دائماً في حاجة إلى الإحساس بالرهبة (بالألمانية : أنجست Angst ، وبالإنجليزية : دريد dread) ويظهر هذا الإحساس عندما يدخل الإنسان في علاقة مع العدم من خلال إدراكه للموت (وهي لحظة لا يمكن للعلوم الطبيعية أن تدركها ولا يمكن للحياة اليومية أن تتعايش معها) . وعندما يمارس الإنسان الإحساس بالقلق وبتناهي الوجود الإنساني وبزمنيته ، تسقط التفاصيل اليومية ويتوارى العالم العادي ويتفتح الوجود ويكشف عن نفسه وتكتشف الذات أصالتها وإمكانياتها وضمنها إمكانية الحرية والاختيار ، حرية أن تختار الذات نفسها وأن تمسك بنفسها ، ومن ثم تكتشف الذات قدرتها على تجاوز العالم وعلى الخروج من حدودها الضيقة (الهُم) لا لتعرف العالم وحسب ولتكون فيه وإنما لتوجد فيه ، أي أن يتحقق وجودها الأصيل والحقيقي في العالم في الزمان . وتصل قمة الحرية إلى حرية الإنسان في أن يقابل الموت .

ورغم حديث هايدجر عن العلاقة الجدلية التفاعلية التبادلية بين الذات والموضوع ، ورغم محاولته المستميتة أن يحافظ على المسافة بين الذات والموضوع إلا أنهما يلتحمان (بسبب غياب المركز المفارق) بعد فترة من التأرجح (المأساوي أحياناً ، والملهاوي أحياناً أخرى) بين الذات المطلقة التي لا حدود لها ولا قيود عليها والتي تلتهم الموضوع ، والموضوع المطلق ، الذي يتجاوز كل شيء ، وضمن ذلك الإنسان الفرد ، ويبتلع كل الذوات ، أي أن هايدجر يتأرجح فلسفياً بين العقل الإمبريالي النيتشوي الدارويني والعقل الأداتي البرجماتي . فلنأخذ على سبيل المثال مفهوم هايدجر للتاريخ الإنساني ، التاريخ بالنسبة له ليس تاريخاً متعيناً ، وإنما هو زمان وحسب ، تجربة ذاتية وجودية ، يصبح الوجود من خلالها حضوراً ، أي تجربة فريدة معاشة ، وهكذا يختفي أي مركز مفارق للإنسان ولا تبقى إلا الذات . (وسنرى كيف أن الذات الهتلرية تبتلع الموضوع الألماني بل كل الوجود) .

ويحدث الشيء نفسه للذات ، إذ يذهب هايدجر إلى أن الذات لا يمكن أن تكون نفسها في أية لحظة ، فهي في حالة صيرورة مقلقة ، ولا يمكن للإنسان الفرد أن يمسك بوجوده تماماً ، فوجود الإنسان يسبقه دائماً كمشروع غير متحقق بعد ، وهو مشروع دائم لا ينتهي ، ومن ثم فالوجود الفرد إن هو إلا وهم .

وللخروج من هذه الحالة اقترح هايدجر ، كما أسلفنا ، تجربة الرهبة (أنجست) الناجمة عن مواجهة الموت والعدم والتأمل فيهما . ولكن هذا ليس هو الحل الوحيد ، فهناك الحل الألماني المثالي/المادي المألوف ، أي افتراض أن الذات والوجود هما شيء واحد ، أو أن كليهما موضع الحلول . ولكن هذا الحل الألماني هو حل مؤقت إذ عادةً ما تنحل هذه الوحدة العضوية الكاملة إلى عنصر واحد يغلب الآخر ، وهو عادةً العنصر الموضوعي الذي يطوق الذات ويذيبها فيه ، أي أن الوحدة العضوية تتحول إلى واحدية مادية . وهذا أمر متوقع تماماً ، فالفرد القلق المنعزل الملئ بالقلق والرهبة (أنجست) سيحاول بأقصى جهده أن يخرج من حالة العزلة هذه ، حالة الوهم ، وإحدى وسائل الخروج التوحد بالذات الجماعية ، بالوجود الجمعي بديل الإله (وهذا هو الحل الذي اقترحه هيجل ودوركهايم وغيرهما) .

والعنصر الموضوعي أو الكلي هنا هو الوجود . وقد لاحظ أحد مؤرخي الفلسفة أن مضمون كلمة «وجود» عند هايدجر لا يختلف كثيراً عن مضمون كلمة «إله» في الفكر البروتستانتي . ولذا فهو يتحدث عن أن "الوجود يدعونا" و "يخبئ نفسه" و "يكشف عن

نفسه لنا» . ولكن هذا الإله إله مادي ، ولهذا يأخذ أشكالاً مادية مختلفة ، وهكذا نكتشف أن الوجود يصبح أحياناً الطبيعة ، ومن ثم يطرح هايدجر فكرة المجتمع العضوي الذي يلتحم فيه الإنسان بالطبيعة وبالآخرين (ومن هنا سُمِّي «فيلسوف الغابة السوداء») . وتظهر عملية تطويق الموضوع للذات في أن كلمة «دازاين Dasien» لم تعد تعني «وجود الفرد بشكل متعيِّن في الواقع» بل تصبح «الوجود الفردي باعتباره شكلاً من أشكال الوجود الجماعي» . ويضيق نطاق الحلول ويتركز فبدلاً من الإنسانية ككل باعتبارها مركزاً للحلول (كما كانت تدَّعي الهيومانية الغربية) يصبح مركز الحلول هو «الوجود الألماني» . («الألمان شعب مختار ، مفعم بقوى الأرض والدم ، وعلى الطلبة أن يعلنوا التزامهم بذلك» ـ «لقد أدَّت الثورة الاشتراكية الوطنية إلى انقلاب كامل في الوجود الألماني» ـ «الفرد في حد ذاته [أينما كان] لا قيمة له ، فأهم شيء هو مصير شعبنا» ـ «أيها الطالب الألماني ، خلال تجوالك ومسيراتك الطويلة ، تلمَّس بقدميك أراضي الجبال والغابات والأودية في الغابات السوداء فإنك تلمس الأرض التي أنجبت البطل . دونما سلاح ، أطلق البطل نظراته متحدياً البنادق الموجهة إليه وعانق النهار وجبال موطنه حتى يموت وعيناه مثبتتان على الأرض الألمانية وعلى الشعب الألماني والرايخ») . وتزداد درجات تركز الحلول ويضيق نطاقه وبدلاً من الشعب الألماني تصبح الدولة الألمانية هي موضع الحلول فيتحدث هايدجر عن «وجود الدولة» (بالألمانية : دازاين ديس شتاتيس Dasein des Staates) «أهم شيء هو مصير شعبنا في دولته» . «لقد أيقظ هتلر الإرادة لوجود الدولة في الفولك» . ونصح هايدجر الشباب بأن تنمو شجاعتهم دائماً «لينقذوا جوهر الشعب ولإعلاء القوى الداخلية للشعب في إطار الدولة» .

وهكذا يهيمن الموضوع أو الذات الجماعية تماماً ، ولكن التأرجح مع هذا لا يتوقف إذ تتزايد درجات الحلول تركزاً وضيقاً إلى أن نصل إلى الذروة وننتقل من الموضوع إلى الذات مرة أخرى حين يتم استيعاب الدولة نفسها في الإنسان الفرد الأسمى ، هتلر ، الذي «جمع إرادة الأمة في فرد واحد» . «إن الفوهرر نفسه ، هو وحده ، الحقيقة الألمانية في الحاضر والمستقبل ، وهو قانونها . . . هايل هتلر» ، أي أن المبدأ الواحد ، جوهر وحدة الوجود المادية ، يصبح أولاً الوجود الجمعي والوجود كطبيعة ، ثم يضيق نطاقه ويتركز فيصبح الشعب الألماني ، ثم الدولة الألمانية ، وأخيراً الفوهرر . وكما قال هايدجر ، إن قاعدة وجود الإنسان الألماني «يجب ألا تكون هي فرضيات أو نظريات [رفض الميتافيزيقا] ، فالفوهرر ، هو وحده ، حقيقة الحاضر والمستقبل قانونهما ، فهو منقذ شعبنا . . . هو المعلم ورائد الروح الجديدة» (من رسالة هايدجر إلى الفوهرر) ، هو مركز الحلول ، هو الإله المادي والوثن الأعظم . لكل هذا ينحل الدازاين تماماً في الذات النيتشوية : «إن الفلسفة تقف وراء هتلر ، لأن هتلر يقف إلى جانب الوجود» .

وتظهر علمانية هايدجر الشاملة ، وماديته الراديكالية النيتشوية الجديدة ، في تحريضه الجامعة الألمانية على أن تخوض غمار حرب حاسمة بروح الاشتراكية الديموقراطية (النازية) التي يجب ألا تخنقها أية نزعات إنسانية (هيومانية) أو مفاهيم مسيحية . كما تظهر هذه العلمانية المادية الشاملة في تبنيه للحل الصهيوني للمسألة اليهودية ، إذ كان يرى ضرورة توطين اليهود في فلسطين أو أي مكان آخر خارج ألمانيا وأوربا .

كان النازيون يعتبرون هايدجر فيلسوفهم ، ونحن نرى أنهم كانوا على حق في تصورهم هذا . فقد انضم هايدجر إلى الحزب النازي عام ١٩٣٣ وكان من أعز أصدقائه بيوجين فيشر ، وهو ممن دافعوا عن القتل الموضوعي أو الأداتي للمعوقين وعن إبادة اليهود . وانطلاقاً من رؤيته النازية دافع هايدجر عن المشروع الصهيوني الذي يطالب بطرد اليهود من أوطانهم (باعتبارهم شعباً عضوياً) ليُعاد توطينهم في فلسطين (باعتبارها وطناً قومياً لهم) . كما كانت زوجة هايدجر نفسها ترى أن الأمومة هي الحفاظ على الميراث العرْقي . وقد تنكر هايدجر لأستاذه هوسرل عام ١٩٣٣ لأنه يهودي ، وكان يتجسس على زملائه لحساب السلطة النازية ، وهو ما أدَّى إلى طرد بعضهم . (يُوثق كتاب فيكتور فارياس Victor Farias [عام ١٩٨٧] هذا الجانب من حياة هايدجر الفلسفية) . ومن الجدير بالملاحظة أن أستاذاً ألمانياً اسمه جيدو شنيبرجر Guido Schneeberger نشر عام ١٩٦١ كتاباً يضم ٢١٧ نصاً نازياً لهايدجر .

ويبدو أن هايدجر أدرك خطأه عام ١٩٣٤ ومن ثم استقال من رئاسة جامعة فرايبورج . ولكن من المعروف أنه استمر مع هذا في دفع اشتراكات العضوية في الحزب النازي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وقد كتب المفكر الألماني كارل أوديث في مذكراته أنه تحدث مع هايدجر عام ١٩٣٦ وأن هايدجر عبَّر عن إيمانه الكامل بهتلر ، وأخبره أن الطريقة النازية هي الطريقة الأمثل لألمانيا . وحتى بافتراض أن هايدجر ابتعد عن النازية السياسية ، فمما لا شك فيه أن نسقه الفلسفي ظل كما هو ، يُشكِّل تربة خصبة لظهور الأفكار النازية ، شأنه في هذا شأن كل «فلسفات الحياة» اللاعقلانية المادية .

كان هايدجر يتصور أن النازية هي روح العالم المتجسدة التي ستزاوج بين التكنولوجيا والثقافة («رسالة الشعب الألماني») . وهو

لم يكن مخطئاً تماماً في تصوره ، فقد قام النازيون بالفعل بمزاوجة التكنولوجيا والثقافة الألمانية ، بل إنهم كانوا يرون أن التكنولوجيا هي التعبير البراني عن إرادة القوة الألمانية ، وكانوا يرون أن ألمانيا بوجودها بين روسيا والولايات المتحدة أصبح بوسعها أن تزاوج بين التكنولوجيا وروح الشعب ، فالتكنولوجيا الألمانية تنبع من أعماق الحضارة Kultur الألمانية . وهي روح مطلقة لا تتقيد بأية قيم بورجوازية ، روح لا متناهية لا تعرف سوى القيم الجمالية . وهكذا أمسك بروميثيوس الجديد بالنار ، مسلحاً بحس جمالي عميق وبشهية لا تعرف الحدود وبإدراك للذات كمطلق ، فأحرق الأخضر واليابس . وقد أدرك هايدجر تدريجياً أن هذا الالتحام النازي بين الذات والموضوع وبين التكنولوجيا والثقافة ، خارج إطار المنظومات الأخلاقية ، هو في واقع الأمر مرض وليس حلاً . ولكن إدراكه هذا ظل مقصوراً على الحالة النازية وحسب ، ولهذا لم يراجع منظومته الفلسفية .

ولا تمثل رؤية هايدجر العلمانية الإمبريالية الشاملة انحرافاً عن مسار الحضارة الغربية الحديثة ، فهي جزء من نمط عام متكرر يتمثل في التأرجح بين الذات والموضوع ، وفي حسم هذا الصراع لصالح الموضوع أو لصالح الموضوع متجسداً في الذات الإمبريالية ، كما يتمثل الانتقال التدريجي من العقلانية المادية إلى اللاعقلانية المادية التي تتضح في تقديس هيجل للدولة البروسية (إله يسير على الأرض!) وأفكار نيتشه الداروينية عن إرادة القوة وميول ياسبرز النازية والتوجهات النازية والصهيونية لبول دي مان تلميذ هايدجر النشيط المخلص .

والنازية ما هي إلا تجلٍ متبلور لهذا الاتجاه حين أصبح الدازاين الألماني الجمعي هو الفولك الذي تجسد في هتلر واحد وأصبح الآخرون مثل أيخمان ، منفذين عاديين تسير وراءهم الملايين .

ويمكن فهم نازية هايدجر ، شأنها شأن صهيونيته ، من خلال هذا السياق . فالنازي الإمبريالي الذي يُجسد إرادة القوة يُحوسل الآخرين ويُحركهم ليخدم مصالحه أو مصالح أمنية ، فهو ينقل اليهود إلى فلسطين (أو ينقل الفلسطينيين منها) أو إلى معسكرات الاعتقال واللاجئين ، حسبما تمليه عليه الظروف الطارئة والمصالح المادية الثابتة وموازين القوى ، دون التقيد بأية قيم أخلاقية ، إذ لا توجد إلا قيم جمالية . ومن المعروف أن النازيين تمسكوا بالقيم الجمالية أيما تمسك ، فكانت واجهات معسكرات الاعتقال من الطراز التيرولي ، كما كان الجنود الألمان يسمعون موسيقى موتسارت وفاجنر بينما كان يُساق الملايين إلى معسكرات الاعتقال التي تتسم بالانضباط الشديد .

ولعل إدراك العالم الغربي للنزعة الإمبريالية (الإبادية) الكامنة في مشروع هايدجر الحضاري الحديث هو ما يدفعه لإخفائها بشتى الوسائل والطرق ومن ذلك محاولة إخفاء الحقائق الصلبة . ولهذا تبذل جهود مضنية لإخفاء حقيقة أن دول الحلفاء (التي تتباكى الآن على ضحايا النازية) لم تفتح أبوابها للمهاجرين من المناطق التي وقعت تحت نفوذ النازي ، وأن قوات الحلفاء (بقيادة إيزنهاور) لم تكن متحمسة لضرب السكك الحديدية المؤدية لمعسكرات الاعتقال لتوفير الطاقة العسكرية . وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم ما حدث لجيدو شنيبرجر فقد وجد صعوبة بالغة في نشر كتابه عن نازية هايدجر ، وحينما نشره بطريقته الخاصة ، اختفى الكتاب من أرفف المكتبات ، ثم قوبل بالصمت من المؤسسات الأكاديمية (التي تلتزم الصمت أيضاً تجاه توجهات ياسبرز ودي مان النازية) ، فعدم التزام الصمت يعني فتح باب الاجتهاد فيما يتصل بالنازية ودلالتها المركزية بالنسبة للحضارة الغربية الحديثة ، الأمر الذي لا يمكن لهذه الحضارة تحمله ، إذ قد تشكل ضربة في العمق .



٥
بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا

إشكالية انفصال القيمة الأخلاقية والغائية الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا ـ توظيف الإبادة ـ احتكار الإبادة ـ إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي ـ إشكالية الحل النهائي ومؤتمر فانسي ـ معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) ـ أوشفيتس ـ ستة ملايين يهودي : عدد ضحايا الإبادة النازية ليهود أوربا ؟ ـ اختفاء وموت الشعب اليهودي بعد الحرب العالمية الأولى ـ إشكالية ملاحقة مجرمي الحرب النازيين ـ محاكمة أيخمان ـ محاكمة كلاوس باربي ـ حادثة فالدهايم ـ محاكمة ديانجوك ـ وزنتال ـ بعض التغييرات التي طرأت على الخطاب الغربي فيما يتصل بالإبادة النازية ليهود أوربا

إشكالية انفصال القيمة الأخلاقية والغائية الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا

The Problematic of Value-free Science and Technology Divorced From Human Teleology

رغم هيمنة الرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة على الإنسان الغربي (بجانبيها النفعي المادي الحيادي الأداتي والدارويني الصراعي الإمبريالي) ، ورغم حوسلتها للعالم وتحويلها المنفعة المادية والقوة إلى قيمة مطلقة متجاوزة للخير والشر ، إلا أن هناك من لا يتقبل هذه الرؤية ولا يذعن لها ويثير قضايا مهمة ذات طابع أخلاقي وإنساني من أهمها قضية تطبيق المعايير العلمية المنفصلة عن القيمة وعن الغائية الإنسانية وتطبيق المنظومة الأخلاقية الداروينية النفعية المادية على الإنسان والمجتمع الإنساني . فقد أسس النازيون منظومتهم ـ كما أسلفنا ـ استناداً إلى مفاهيم علمية أو شبه علمية مثل النظرية الداروينية (وما يترتب عليها من مفاهيم مثل التفاوت بين الأعراق والمجال الحيوي والشعب العضوي) ، كما تبنوا الرؤية العلمية المتجردة تماماً من القيمة ومن الغائيات الإنسانية باعتبار أن العلم وما يتولَّد عنه من قوانين وقيم مادية هو القيمة الحاكمة الكبرى والمرجعية النهائية للإنسان . وقد حقق النازيون نجاحاً منقطع النظير في هذا المضمار فركزوا على محاولة التحكم الكامل في كل العناصر البشرية الخاضعة لهم وتطبيق الحسابات الرشيدة المحايدة التي تهدف إلى تعظيم الإنتاج والأرباح وتقليل الاستهلاك والخسائر . ومن ثم يمكن القول بأن الإبادة النازية لليهود وغيرهم هي التحقق الكامل للرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة التي تم من خلالها حوسلة كل شيء بطريقة علمية محايدة رشيدة حديثة . ويتبدَّى هذا في عدة أوجه سنوجزها فيما يلي :

١ ـ كان النظام النازي بمنزلة يوتوبيا تكنولوجية تكنوقراطية حقة تم تنظيمها تنظيماً هرمياً ، ففي قاعدته تقف جماهير الشعب العضوي المتماسك تعلوه نخبة من العلماء والساسة ، يدورون جميعاً في إطار واحد هو الدولة القومية التي تَجُبّ مصالحها كل المصالح . وعلى قمة الهرم يقف الفوهرر : التجسد المادي والمحسوس للمطلق العلماني (الشعب العضوي والدولة) الذي تركزت فيه جميع القوى الحيوية الكامنة في النسق ، وهو القادر على تحريكها ، وهو القادر على حسم كل الاختيارات السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، تساعده النخبة العلمية والسياسية الحاكمة .

هذا الهرم الدارويني المنظم تنظيماً دقيقاً تحرك بشكل محايد ليدافع عن مصلحته ، كما يراها هو ، وعن منفعته ، كما حددها هو ، أو كما حددتها النخبة الحاكمة من علماء وساسة ! وكانت حركة الهرم النازي تتسم بالحياد الصارم ، والتجرد المذهل من القيم والعواطف والغائيات الإنسانية . وكانت واحدة من أهم مؤسسات الإبادة تُدعَى «مؤسسة تدعيم القومية الألمانية» ، وقد أُسِّست عام ١٩٣٩ لتوظيف العناصر الألمانية غير المرغوب فيها . وكان هملر (الذي أُسندت له مهمة إدارة هذه المؤسسة القومية) يرى أنها تجسد قيمة قومية عضوية مطلقة ، فهي تخدم المصالح العليا المطلقة لألمانيا ، وكان رجاله يؤدون واجبهم بأمانة وإخلاص شديدين لوطنهم .

٢ ـ أدار هملر مؤسسته بطريقة حديثة للغاية تبدت في كيفية استخدامه لليهود من خلال واحد من أهم أسس الإدارة الحديثة فيما يُسمَّى «الإدارة الذاتية» ، إذ كوَّن ، انطلاقاً من الرؤية الداروينية النفعية ، نخبة من اليهود نواتها الأساسية أعضاء المجالس اليهودية والموظفون الملحقون بها ، تدور حولها قطاعات أخرى مثل العمال اليهود في مصانع الذخيرة ، وبعض الشخصيات اليهودية العامة ، وتم وصفهم جميعاً بأنهم «يهود يتمتعون بالحماية من الترحيل» نظراً لنفعهم . (وهو امتداد للتقسيم الغربي القديم لليهود والذي ظل

سائداً منذ العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر وإن كان قد اكتسب عمقاً خاصاً في القرن الثامن عشر وعصر الاستنارة وظهور مبدأ المنفعة) . وقد أصبح هؤلاء أداة ذات كفاءة عالية في يد الإدارة النازية وتعاونوا معها تماماً .

٣ ـ وكانت عمليات السخرة والإبادة حديثة رشيدة بمعنى الكلمة يتم إنجازها من خلال إجراءات محايدة . فعلى سبيل المثال ، استُخدم خط التجميع (بالإنجليزية : أسمبلي لاين assembley line) في عملية فرز المساجين (والمعروف أن خط التجميع استُخدم في الأصل في المذبح [السلخانة] في شيكاغو ، حيث رأى أحد مؤسسي علم الإدارة الحديثة أنه يمكن توفير الوقت والجهد بأن تُعلَّق جثث الحيوانات الواحدة تلو الأخرى على سير متحرك أمام الجزارين ، لكي يقوموا بتنظيفها وإعدادها) . وقد طُبِّق نفس الأسلوب على المساجين ، فكانوا يقفون صفاً واحداً ويُعطى كل واحد منهم رقم ، ثم يتم فرزهم ، وهي طريقة أكثر كفاءة من التصنيف على أساس الأسماء . والملاحَظ أن عملية التوحيد والتنميط ، مثلها مثل المركزية ، تُعدُّ خطوة أساسية في عملية الترشيد ويتطلبها النموذج الآلي المادي ، إذ لا تمكن التعامل مع كل المعطيات بكفاءة عالية إن كانت غير متجانسة . فإن اختلفت العناصر أو الوحدات ، الواحدة عن الأخرى ، أدَّى هذا إلى بطء دولاب العمل . والنموذج الآلي المادي الهندسي يفترض تَشابُه جميع العناصر حتى يمكن معالجتها مادياً وآلياً وهندسياً . وقد طبَّق أيخمان هذه الآلية على نطاق واسع ، خصوصاً في حالة ترحيل يهود المجر . ويُقال إنه لم يكن من الممكن إنجاز مهمة الترحيل هذه إلا من خلال خط التجميع .

٤ ـ كانت آليات السخرة والإبادة كلها تتسم بتعظيم الإنتاج والمنفعة . ومن أطرف الآليات وأجداها اقتصادياً وأقلها إيلاماً وأكثرها شيوعاً إرسال اليهود إلى معسكرات العمل بالسخرة لتزويد الشركات الألمانية بالعمالة الرخيصة ، وهو ما أفاد الاقتصاد الوطني الألماني فحقق تقدماً هائلاً لا يمكن للمراقب الموضوعي المحايد المتجرد من كل التحيزات الغائية والأخلاقية إلا أن يقر به . فكان يتم فرز المساجين بعناية شديدة ، حيث يُوجَّه القادرون على العمل إلى أعمال السخرة ، ومن ثم لا يُبدَّد شيء . وكان المعتقلون يعملون لساعات طويلة ، ويعيشون دون حد الكفاف الأمر الذي جعل من الممكن تحقيق أرباح هائلة وإنتاجية منقطعة النظير .

٥ ـ يبدو أن النازيين استفادوا بواحدة من أهم التجارب الحضارية الغربية ، وهي التجربة الإمبريالية ، إذ أُرسل اليهود أحياناً إلى جيتوات ، أسسها النازيون خصيصاً ، وكانت تأخذ شكل مناطق "قومية" مستقلة لها مجالسها التي تحكمها ونظامها المصرفي المستقل وعملتها الخاصة ونظامها التعليمي الخاص ، أي أن كلاً منها كانت جيتو/ دولة أو دولة/ جيتو تدخل في علاقة تبادل كولونيالية مع الدولة النازية . فكانت الجيتوات تزود الدولة النازية بالعمالة والخدمات وبعض السلع نظير أن تزودها الدولة النازية بالغذاء والملابس . ولكن علاقة التبادل كانت غير متكافئة لصالح الدولة النازية بحيث تكون الخدمات والعمالة الخارجة من الجيتو أكبر من قيمة ما يحصل عليه سكان الجيتو من المواد الغذائية التي كانت دائماً أقل من أن تفي باحتياجات العاملين اليهود ، أي أن العلاقة كانت تؤدي إلى انتقال فائض القيمة إلى النازيين وإلى إبادة العاملين واستهلاكهم كأداة إنتاج سريعة . ولذا يمكن القول بأن العلاقة بين الجيتو والدولة النازية كانت علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الولايات المتحدة ببعض الدول العربية وغير العربية التي تسيطر عليها .

٦ ـ لم يتخل النازيون قط عن حداثتهم وحيادهم ، فكان يتم تقرير من يجب إبادته ، ومن يجب الإبقاء عليه وتسخيره بعد دراسة عملية موضوعية ، متمعنة ودقيقة ، تتفق مع القواعد الصارمة للترشيد المادي . فقد قُسِّم أعضاء الجماعات اليهودية إلى يهود نافعين ومن ثم لا يمكن نقلهم ، ويهود غير نافعين ومن ثم يمكن نقلهم والتخلص منهم . ولم تكن ظروف الحرب تعوق الألمان عن التحلي بالموضوعية الكاملة . فعلى سبيل المثال ، حينما وصلت القوات الألمانية إلى شبه جزيرة القرم ووجدت فيها بعض اليهود القرّائين ، بيَّن لهم هؤلاء أنهم ليسوا يهوداً بالمعنى العام والسائد ، وأنهم لا علاقة لهم باليهود من أتباع اليهودية الحاخامية ولا يتسمون بما يتسم به اليهود عموماً من طفيلية (كما تزعم أدبيات العداء لليهود في العالم الغربي) . وأرجأ النازيون تنفيذ عملية الإبادة والتهجير ، وأرسلوا بأحد الضباط إلى برلين ليدرس القضية بشكل موضوعي رغم ظروف الحرب . وبالفعل توصَّل هذا الضابط/ الباحث إلى أن القرّائين لا يتسمون بالسيكولوجية أو الطبيعة اليهودية ، وأخذ النازيون بتقريره ، ولذا لم يُطبَّق على اليهود القرّائين قرار الإبادة . بل قرر النازيون ، انطلاقاً من الرؤية النفعية البرجماتية المرنة ، تجنيد بعض العناصر القادرة من بين اليهود القرّائين في القوات النازية .

وانطلاقاً من الرؤية النفعية المرنة نفسها طوَّر النازيون مقياساً محدداً لتعريف من هو الآري ، ولكنه كان مقياساً مرناً منفتحاً ، ولذا كان الشخص السلافي ، الذي يتسم بقدر كاف من الصفات العرْقية البيولوجية الألمانية (من بينها الطول ولون العيون) ، يُعاد تصنيفه

"آرياً" ثم يُلحق ببرنامج خاص للأريتة (أي التحويل للآرية) ليتعلم الألمانية والسلوك الألماني الأصيل . وكانت هناك مؤسسة خاصة تُسمَّى Ru SHA المكتب الرئيسي للعرْق والتوطين ، كانت مهمتها هي تحديد الصفات الآرية وإمكانية الألمنة . (وانطلاقاً من الرؤية البرجماتية نفسها صنِّف اليابانيون ، حلفاء الألمان ، «آريون شرفيون» رغم انتمائهم للجنس الأصفر !) .

وفي مؤتمر ڤانسي (الذي عُقد في ٢٠ يناير ١٩٤٢) أبدى المجتمعون اهتماماً شديداً بتصنيف الضحايا تصنيفاً دقيقاً إذ قُسِّموا إلى أربعة أقسام : فكان القسم الأول يضم من ستتم إبادته على الفور ، أما القسم الثاني فكان يضم من ستتم إبادته (إنهاكه) من خلال الجوع والعمل بالسخرة . ويضم القسمان الثالث والرابع من يُعقم ومن يمكن أن يؤلمن (على التوالي) . وقد قام النازيون بالتمييز بين الإبادة من خلال الجوع والإبادة من خلال العمل ، ففي عام ١٩٤٢ وجد الجيش الألماني أن المنهج الثاني من الإبادة أكثر رشداً من الأول فقام بتبنيه .

٧ـ كان النازيون حريصين كل الحرص على استخدام مصطلح علمي محايد لا يحمل أية دلالات عاطفية غير علمية ، فإحدى مؤسسات الإبادة كانت تحمل اسم تي فور T4 ، وهو اسم يصلح لأية شركة تجارية أو سياحية أو حتى أي دواء مقو ، وهو منسوب إلى الشارع الذي تقع فيه المؤسسة وإلى رقم المبنى (تيرجارتن شتراسه رقم ٤ 4 Tiergarten Strasse ، أي ٤ شارع حديقة الحيوان) . ومن أسماء المؤسسات الأخرى «جمعية نقل المرضى» أو «المؤسسة الخيرية للعناية المؤسسية» .

وكان يُشار إلى عملية الإبادة بنفس المصطلح ، فيتم أولاً «الإخلاء» ، يليه «النقل» (الترانسفير) ثم «إعادة التوطين» ، وأخيراً «الحل النهائي» . (ويستخدم الصهاينة نفس الخطاب ، فهم يستخدمون كلمة مثل «ترانسفير» للإبعاد . وحينما فر الفلسطينيون من قراهم عام ١٩٤٨ خوفاً من الإرهاب الصهيوني ، وصف وايزمان هذا الفرار بأنه عملية «تنظيف») . وتحييد المصطلح مسألة أساسية في التفكير النازي ، فعملية تسييس العمال وترشيد حياتهم ، أي السيطرة عليهم وعلى حياتهم الخاصة أُطلق عليها اسم «القوة من خلال المرح» ، وكان مكتوباً على معسكر أوشفيتس «العمل سيحقق لك الحرية» . وكما أسلفنا ، فقد جرى الحديث عن إبادة المعوقين وغيرهم باعتبارها نوعاً من «الصحة العرْقية» ومن «علاج الأمراض الوراثية الخطيرة» ، وكانت إبادة المجرمين والمتخلفين تُوصَف بأنها «تجنب العدوى والقضاء على الجراثيم» ، وأفران الغاز هي "أدشاش" ، والعملية كلها هي عملية "تطهير" لا أكثر ولا أقل . ويُلاحَظ أن كل المصطلحات لا تذكر أية إبادة (بالمعنى العام أو الخاص الذي نطرحه) ، ولذا فهي تجعل عملية إبادة البشر تبدو وكأنها مسألة مجردة وبعيدة ، ومن ثم مقبولة تماماً .

٨ - كانت عملية تحييد المصطلح بداية عملية تحييد كامل للإدراك ، فالمصطلح المحايد للغاية يقترب من المصطلح العلمي الدقيق المنفصل عن القيمة ، إذ لا توجد فيه عواطف حُب أو كُره ، وهو يحاول أن يصف الظاهرة من الخارج باعتبارها مجرد موضوع ، دون أن يعطيها أي معنى إنساني داخلي أو أية قيمة خاصة ، بحيث ينظر الموظف النازي أو الألماني إلى الضحية وكأنه ينظر إلى موضوع وحسب ؛ حركة مادية خارجية ومادة استعمالية خام خاضعة للإجراءات . وقد كان المشرفين على عمليات الإبادة المختلفة يتم تدريبهم على التحلي بالبرود والتجرد للحفاظ على الحياد وكفاءة الأداء . وقد حذَّرت القيادة النازية من استخدام العنف بلا مبرر ، فقد كانت تدافع عما سماه أحد المؤرخين «الإرهاب الرشيد» (أدان بن جوريون "تعذيب العرب بلا مبرر" أثناء حرب ١٩٤٨ ، وهو ما يعني أن التعذيب الرشيد مسموح به) . وفي إحدى خطبه بيَّن هتلر أن " الإبادة الشاملة لابد أن تُنفَّذ ببرود وبطريقة نظيفة . . . وأن تصفية العناصر المطلوب تصفيتها لابد أن يتم بطريقة محايدة دون أي نزعات سادية (فمثل هذه النزعات تدل في واقع الأمر على العنف الإنساني الذي يتنافى مع المثل الأعلى النازي) . ولذا كان على رؤساء معسكرات الاعتقال أن يوقِّعوا إقراراً كل ثلاثة شهور بأنهم لم يسيئوا معاملة المساجين" .

وفي خريف عام ١٩٤٢ أعلن هملر أن إطلاق النار على اليهود لأسباب شخصية (أو سادية أو جنسية) يعاقب عليها القانون بالإعدام . وكان الجنود الألمان ممنوعين من إساءة معاملة الضحايا حتى وهم في طريقهم إلى أفران الغاز ، لأن هذا يعني شكلاً من أشكال الانفعال والانغماس العاطفي الذي يتنافى مع الحياد العلمي ، والتجرد من العواطف والتحيزات والقيم أمر أساسي ومطلوب .

وعند اكتشاف أي انحراف عن الخط المحايد ، كانت القيادة النازية تعاقب المنحرفين . وقد أصدر هملر توجيهاً لمن يعملون معه بالتدخل الفوري إذا ما تجاوز أحد قادة معسكرات الاعتقال حدوده . وقد وُجِّه اللوم إلى أحد الضباط لأنه كان يحيط أسر الضحايا علماً بإعدام أقاربهم على كارت بوستال مفتوح بدلاً من ظرف مغلق ! ويبدو أن الدكتور راشر ، العالم النازي ، تجاوز هو الآخر الخطوط المحايدة (!) حتى أنه أغضب هملر الذي أمر بإعدامه هو وزوجته قبل نهاية الحرب بقليل . كما أُعدم قائد معسكر بوخنوالد وزوجته

(عاهرة بوخنوالد) التي كانت مغرمة بصنع الشمعدانات ومنافض السجائر من أشلاء البشر ، الأمر الذي يتجاوز حدود المعقولية والحياد والحوسلة . وقد أوضح المواطن النازي جوزيف كرامر أنه سمَّم ثمانين امرأة بالغاز أثناء خدمته في أوشفيتس . وحينما سُئل عن مشاعره ، صرح ببرود بأنه لم تكن لديه أية مشاعر على الإطلاق ، وقال للقضاة : " لقد تلقيت أمراً بقتل ثمانين من النزلاء بالطريقة التي قلتها لكم . وبالمناسبة هذا هو الأسلوب الذي تدربت عليه " ، فهو يرى نفسه باعتباره «موظفاً فنياً» وحسب ، ملتزماً بالترشيد الإجرائي ولا يصدع مخه بالقيم الأخلاقية أو بالمطلقات (فهذه مجرد ميتافيزيقا !) .

وحينما صدر قانون التعقيم والذي شمل الحالات المتطرفة لإدمان الكحول ، حاول البعض استصدار استثناء للمحاربين القدامى ممن أدمنوا الكحول نتيجة إصابات في المخ لحقت بهم أثناء الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى . ولكن الحياد العلمي لا يعرف أي استثناءات ولذا رُفض الطلب ، « لأنه لو أُعفي هؤلاء لتم إعفاء المحاربين القدامى الذين أصيبوا في شجار في الشارع ، ثم المصابين نتيجة العمل في المصانع » ، الأمر الذي يتناقض مع النموذج العقلاني المادي والنمطية التي يتطلبها الموقف العلمي الصارم .

٩ ـ تبدَّى الموقف الحيادي الدارويني في موقف النازيين من العلم ، وزعمهم انفصاله عن القيمة وعن الغائية الإنسانية ، في واحد من أهم المفاهيم الطبية (العلمية المحايدة) في القرن التاسع عشر ، وهو مفهوم «الصحة العرْقية» ، الذي ينطلق من ضرورة الحفاظ على وحدة الشعب العضوي وعلى بقائه (فهما سر تفوقه ورقيه) عن طريق التخلص من العناصر الضارة أو غير النافعة (التي تُعدُّ تعبيراً عن انهيار العرْق وانحطاطه) ؛ وثمة كتابات عديدة بجميع اللغات الأوربية في هذا الموضوع . ومن أهم المفاهيم المرتبطة بالصحة العرْقية مفهوم اليوثينيجيا euthenesia أو ما يُسمَّى «القتل الرحيم» (وإن كان من الأفضل تسميته «القتل العلمي» أو «القتل المحايد» أو «القتل الأداتي» أو «القتل الموضوعي») ، أي التخلص من المعوقين وغيرهم (مثل المرضى بأمراض مزمنة) عن طريق التصفية الجسدية . وقد يبدو هذا المفهوم لنا مخيفاً ، ولكن في إطار الرؤية المادية الشاملة المحضة ، وفي داخل إطار دارويني نيتشوي ، يصبح الأمر منطقياً ومتسقاً مع نفسه (ولذا ، نجد كاتباً مثل برنارد شو أو هـ . جـ . ويلز يدافع عن مثل هذا المفهوم) .

وقد أصدرت النخبة النازية عدة قوانين لضمان الصحة العرْقية ، فوضعوا البشر تحت تصنيفات مختلفة :

أ) المستهلكون الذين لا نفع اقتصادي لهم : مثل المعتوهين والمتخلفين عقلياً والمصابين بالشيزوفرنيا (انفصام الشخصية) والأطفال المعوقين والأفراد المتقدمين في السن والمصابين بالسل ، والمرضى الميئوس من شفائهم . بل كان يُضَم لهؤلاء الجنود الألمان الذين أصيبوا أثناء العمليات العسكرية ، فعلاجهم كان يُشكِّل عبئاً على ميزانية الدولة .

ب) المنحلون : وهم الشيوعيون والشواذ جنسياً وعدد كبير من أعداء المجتمع الذين يتسمون بالسلوك غير الاجتماعي (مدمنو الكحول والعاهرات والمجرمون ومدمنو المخدرات ومن لا مأوى لهم) .

جـ) أعضاء الأجناس الدنيا : مثل السلاف والغجر واليهود والأقزام ، فهم غرباء داخل الفولك الألماني ولا يوجد مبرر قوي لوجودهم إلا باعتبارهم مادة خاماً تُوظَّف لصالح الجنس الآري الأرقى ، خاصةً أن بعضهم ، مثل البولنديين ، يشغلون المجال الحيوي لألمانيا .

وفي ١٤ يوليه ١٩٣٣ (في اليوم التالي لتوقيع المعاهدة مع الفاتيكان) ، أصدر النازيون قانوناً يُسمَّى «قانون التعقيم» لمنع بعض القطاعات البشرية (المعوقين ـ المرضى النفسيين ـ المرضى بالصرع ـ العمى الوراثي ـ الصمم الوراثي ـ التشوه الخلقي ـ الإدمان المتطرف للكحول) من التكاثر . وبالفعل ، تم تعقيم أربعمائة ألف مواطن ألماني . وفي عام ١٩٣٥ ، صدر قانون بمنع العلاقات الجنسية بين اليهود وأعضاء الأعراق غير الراقية من جهة والألمان من جهة أخرى ، وذلك للحفاظ على النقاء العرْقي . وأعلن عام ١٩٣٩ عاماً يراعي فيه المواطن واجب التمتع بصحة جيدة وطُلب من كل طبيب أو داية أن تُبلغ عن أي مولود جديد معوق . وبدأت عملية القتل الموضوعي (أو العلمي أو المحايد) لهؤلاء الذين لا يمكن شفاؤهم مثل المعوقين وغيرهم (مشروع تي فور T4) . وظهرت وثائق تبين أنه قُتل سبعون ألف معوق وعاجز يأكلون ولا ينتجون (حرفياً : «آكلون غير نافعين» أي «أفراد يأكلون ولا ينتجون» [بالإنجليزية : يوسلس إيترز useless eaters]) يُشكِّلون عبئاً على الاقتصاد الوطني ويعوقون التقدم . وقد تمت إبادتهم بمقتضى برنامج « تجنب العدوى والقضاء على الجرائم » (أي برنامج إبادة المجرمين والمتخلفين وربما المسنين) . وأدَّى ذلك إلى توفير ٠٢٠ , ٠٦٧ , ٢٣٩ كيلو جراماً من المربى في العام (كما جاء في إحدى الدراسات العلمية الألمانية الرصينة) . وأُنشئت لجنة للعلاج العلمي للأمراض الوراثية الخطيرة أوصت بقتل الأطفال المشوهين . وكان هؤلاء وغيرهم يُرسلون إلى مستشفيات . فكانوا يوضعون في عنابر خاصة ثم يتم الإجهاز عليهم عن طريق أفران غاز مخبأة على هيئة أدشاش ، ومحارق لحرق الجثث . وقد طُبِّق المعيار نفسه ،

بعض الوقت ، على الجنود الألمان الجرحى في الحرب ، إذ أن عملية علاجهم كانت ستكلف الدولة الكثير . ثم طُبِّقت عمليات الإبادة هذه بصورة أوسع على أسرى الحرب .

وقد صُنِّف اليهود باعتبارهم مرضى ، وذلك نظراً لعدم نقائهم العرقي . ومن ثم أصبح من الضروري إبادتهم ، شأنهم شأن العناصر الألمانية غير النافعة . ومن جهة أخرى ، تم توسيع نطاق برنامج القتل المحايد أو العلمي ليضم المجرمين كافة ، يهوداً وغير يهود . وكان اليهود يُعتبرون أيضاً ذوي استعداد إجرامي طبيعي بسبب اختلاط خصائصهم الوراثية . ولذا ، طُبِّق البرنامج على اليهود الموجودين في المستشفيات جميعاً .

١٠ ـ ومن أهم تجليات الحياد العلمي ذات العائد المرتفع التي اتسمت بها الإبادة ، تلك التجارب العلمية التي كان النازيون يجرونها على خنازير التجارب البشرية وهي تجارب منفصلة تماماً عن أية منظومات قيمية . فكان النازيون يختارون بعض العناصر التي لها أهمية تجريبية خاصة لإجراء التجارب عليها . وكان هذا يتم بسهولة ويسر وسلاسة ؛ لأن البشر تحولوا إلى موضوع أو مادة محايدة في عقول القائمين على هذه التجارب . فعلى سبيل المثال ، كان طبيب بوخنوالد (الدكتور هانس إيسيل) يقوم بعمليات استئصال دون تخدير ليدرس أثرها . وأُجريت تجارب أخرى على نزلاء معسكرات الاعتقال لا تقل رهبة عن تجارب إيسيل . وكان بعضهم يُطلَق عليه الرصاص لاختبار فعاليته في الحرب ، وعُرِّض آخرون لغازات سامة في عمليات اختبارية . وكان البعض يوضعون في غرفة مفرغة من الهواء لمعرفة المدة التي يستطيع الإنسان خلالها أن يظل حياً وهو على ارتفاعات عالية أو بدون أوكسجين . وكان الأوكسجين يُقلل تدريجياً ويخفض الضغط ، فتزداد آلام خنازير التجارب البشرية شيئاً فشيئاً حتى تصبح آلاماً لا يمكن احتمالها حتى تنفجر رئاتهم . كما كان الضغط الداخلي على أغشية طبلات الآذان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى حد الجنون .

وكان الدكتور راشر ، وهو عالم نازي آخر ، شمولياً في أبحاثه إلى درجة عالية ، فقام بتزويد غرف الضغط في النهاية بمبردات تجبر عيناته على مواجهة شروط أقرب ما تكون إلى الارتفاعات العالية . وكان راشر مسئولاً أيضاً عن الكثير من تجارب التجميد التي يتعرض فيها الأشخاص إلى البرد الشديد المستمر حتى الموت . وكان الهدف معرفة مدة مقاومتهم ، وبقائهم أحياء ، وما الذي يمكن صنعه لإطالة حياة الطيارين الذين يسقطون في مياه متجمدة . وكان بعض نزلاء داخاو ضمن ضحايا راشر أو ضمن خنازير تجارية (إن أردنا التزام الدقة والحياد العلميين) . فكان يتم غمر الضحايا/الخنازير في وعاء ضخم أو كانوا يُتركون عُراة في الخارج طوال الليالي الثلجية . وفي أواخر شتاء عام ١٩٤٣ ، حدثت موجة برد شديدة ، فتُرك بعض السجناء عراة في الخلاء أربع عشرة ساعة ، تجمدت خلالها أطرافهم وسطوح أجسامهم الخارجية وانخفضت درجة حرارتهم الداخلية . وكان أسلوب العمل هو تجميد السجناء تدريجياً مع متابعة النبض والتنفس ودرجة الحرارة وضغط الدم وغير ذلك .

وكانت هناك تجارب أخرى من بينها تدفئة أشخاص مثلجين . وبناءً على تقرير راشر ، أُجريت أكثر من أربعمائة تجربة على ثلاثمائة ضحية . وقد مات من هؤلاء زهاء تسعين شخصاً نتيجةً لمعالجتهم ، وجُنَّ عددٌ ممن بقي . أما الآخرون ، فقد قُتلوا لكيلا يتحولوا إلى شهود مزعجين فيما بعد . وقد توصل راشر إلى حقائق علمية جديدة تتحدى كثيراً من المقولات العلمية السائدة في عصره . وأُجريت بالطبع تجارب لا حصر لها على نزلاء أحياء في معسكرات الاعتقال ، من بينها الحقن بالسم أو بالهواء أو البكتريا ، معظمها مؤلم وكلها قاتلة ، كما أُجريت تجارب زرع الغرغرينا في الجروح وترقيع العظام وتجارب التعقيم .

وفي الإطار التجريبي نفسه كان يتم اختيار التوائم وإرسالهم إلى الطبيب النازي الشهير الدكتور منجل لإجراء تجارب علمية فريدة عليهم ، لا يمكن للعلماء الآخرين القيام بها نظراً لعدم توفر العينات اللازمة . فكان يفصل التوأمين ويضعهما في غرفتين منفصلتين ، ثم يعذب أحدهما أحياناً ليدرس أثر عملية التعذيب على الآخر ، بل كان يقتل أحدهما لدراسة أثر هذه العملية على الآخر . وكما قال بريمو ليفي : إن ألمانيا النازية هي المكان الوحيد الذي كان بوسع العلماء أن يدرسوا فيه جثتي توأمين قُتلا في نفس اللحظة . ويُقال إن دراسات منجل على التوائم لا تزال أهم الدراسات في هذا المجال ، ولا تزال الجامعات الألمانية والأمريكية تستفيد من النتائج التي توصل إليها الباحثون العلميون الألمان في ظروف فريدة لم تُتح لعلماء غيرهم من قبل من بعد . وقد أُثيرت مؤخراً قضية مدى أخلاقية الاستفادة من معلومات تم الحصول عليها في مثل هذه الظروف التجريبية الجهنمية ، وبهذه الطريقة الموضوعية الشيطانية .

وقد أجرى بعض العلماء تجارب على أمخاخ الضحايا وقد اختار د . برجر ، التابع لإدارة الإس . إس . عدداً من العينات البشرية (٧٩ يهودياً ـ بولنديان ـ ٤ آسيويين ـ ٣٠ يهودية) تم إرسالهم لمعسكر أوشفيتس ثم قتلهم بناء على طلب عالم التشريح الأستاذ

الدكتور هيرت الذي أبدى رغبة علمية حقيقية في تكوين مجموعة كاملة وممثلة من الهياكل العظمية اليهودية (كما كان مهتماً بدراسة أثر الغازات الخانقة على الإنسان) . أما الدكتور برجر نفسه فكان مهتماً بالآسيويين وجماجمهم ، وكان يحاول أن يكوِّن مجموعته الخاصة .

ويبدو أن عملية جمع الجماجم هذه وتصنيفها لم تكن نتيجة تخطيط محكم ، وإنما نتيجة عفوية للرؤية النفعية المادية المتجردة من القيمة . إذ ورد إلى علم البروفسور هاليروفوردن أنباء عن إبادة بعض العناصر البشرية « التي لا تستحق الحياة » ، فقال للموظف المسئول بشكل تلقائي : « إن كنتم ستقتلون كل هؤلاء ، فلماذا لا تعطوننا أمخاخهم حتى يمكن استخدامها ؟ » ، فسأله : كم تريد ؟ فأجاب : عدد لا يحصى ، كلما زاد العدد كان أفضل . ويقول البروفسور المذكور إنه أعطاهم بعد ذلك الأحماض اللازمة والقوارير الخاصة بحفظ الأمخاخ . وكم كانت فرحة البروفسور حينما وجد أمخاخ معوقين عقليين (في غاية الجمال ، على حد قوله) و« أمخاخ أطفال مصابة بأمراض الطفولة أو تشوهات خلقية » . وقد لاحظ أحد العاملين في مركز من مراكز البحوث أن عدد أمخاخ الأطفال المتوفرة لإجراء التجارب أخذت تتزايد بشكل ملحوظ ، ونتيجةً لهذا تم الحصول على مواد مهمة تلقي الضوء على أمراض المخ .

ومن أطرف الأمثلة الموضوعية قضية البروفسير النازي كلاوس الذي اكتشف البعض أنه يعيش مع سكرتيرته اليهودية ، وفي «دفاعه» عن نفسه قال إنه يواجه مشكلة في دراسته لليهود وهي أنه لا يمكنه أن يعيش بينهم ولذا كان عليه أن يحصل على « مُخْبِر » أو «دليل » (بالإنجليزية : إنفورمانت informant) أو عينة مُمثِّلة يمكنه دراستها عن قرب ، فهي بالنسبة له لم تكن سوى موضوع للدراسة فكان يراقبها « كيف تأكل وكيف تستجيب للناس وكيف تقوم بتركيب الجُمل بطريقة شرقية عربية » [كذا] .

ويتضح حياد النازيين وحسهم العملي الفائق ، بشكل آخر تماماً. فقد كانوا على استعداد لأن يطوِّعوا النظرية العرْقية ذاتها لمتطلبات الواقع . فاليابانيون (أعضاء الجنس الأصفر ، حسب الرؤية النازية) أعيد تصنيفهم «آريين شرقيين» ، بسبب عمق التحالف بين ألمانيا النازية واليابان ذات النزعة الإمبريالية ، ولم يكن اليابانيون هم وحدهم الذين حظوا بهذا الشرف ، فهناك « برامج الأرينة » للسلاف عمن كانوا يتسمون بنسبة ٨٠٪ من السمات الآرية . بل قد بدأت تظهر قرائن على أن آلاف الجنود الألمان كانوا يهوداً أو نصف يهود ، رغم أن القانون الألماني في ظل الحكم النازي كان يمنع ، اعتباراً من عام ١٩٣٥ ، أي شخص ينحدر عن أجداد يهود أن يشغل وظيفة ضابط في الجيش الألماني (الديلي تلجراف ديسمبر ١٩٩٦) . وكان مكتب الأفراد في الجيش الألماني (عام ١٩٤٤ ، أي قرب نهاية الحرب) على علم بوجود سبع وسبعين ضابطاً من ذوي الرُتب العالية من أصول مُختلَطة يهودية أو متزوجين من يهوديات . ومع هذا وقَّع هتلر شهادات تبيِّن أنهم من « ذوي الدم الألماني » ، أي ينتمون للعرْق الألماني . ومن بين هؤلاء الفيلد مارشال أبرهارد ميلخ ، الذي كان نصف يهودي (حسب التعريف النازي) ومع هذا كان يشغل منصب نائب هرمان جورنج ، قائد السلاح الجوي الألماني ، والخلف المختار لهتلر . وقد غض جورنج الطرف عن هذه الحقيقة ، بل زوَّر المعلومات المتعلقة بوالد نائبه . وتبيِّن الوثائق التي تم كشف النقاب عنها مؤخراً أن القيادة النازية منحت وسام الصليب الفارس ، أعلى وسام عسكري ألماني ، إلى عسكريين سبق أن طُردوا من الخدمة بسبب انحدارهم من أصل يهودي ثم أُعيدوا إليها .

وتتضح المفارقة في تلك الزيارة التي قام بها أحد كبار الضباط الألمان لوالده الذي كان قد نُقل إلى أحد معسكرات الاعتقال والسخرة . وقد حرص الضابط على أن يرتدي النياشين والأوسمة التي مُنحت له بسبب مشاركته في الحملات العسكرية التي شنها النظام النازي ، هذا النظام الذي كان يقوم بإبادة أعضاء كثير من الأقليات الإثنية والدينية ، ومن بينهم أعضاء الجماعات اليهودية .

إن المفارقة هنا تدل على حس عملي عميق مستعد لتجاوز كل الأفكار المسبقة للتعامل بكفاءة مادية بالغة مع الواقع العملي وتجاوز الميتافيزيقا والمطلقات والكليات . وحينما وجد النازيون فرصة للاستفادة من أعضاء الجماعات اليهودية ، هذه المادة البشرية الاستعمالية النافعة ، لم يترددوا في تعديل عقائدهم الدينية العرْقية نفسها .

١١ ـ ولكن إلى جوار المادة البشرية الاستعمالية النافعة التي تُجرى عليها التجارب وتُدرس بعناية وموضوعية وحياد ، كانت هناك المادة التي لا يُرجى منها نفع أو الضارة من منظور النازيين ، وكان أمثال هؤلاء يُبادون ببساطة شديدة من خلال عمليات التصفية الجسدية السريعة ، التي تقوم بها جماعات خاصة أو فرق متنقلة تقف وراء خطوط الجيوش الألمانية (بالألمانية : آينساتس جروبين Einsatzgruppen) . وكانت طريقة الإبادة هذه سريعة وغير مكلفة إذ كانت تُقام مقابر جماعية يُلقى فيها بالضحايا بعد أن يحفروها بأنفسهم . كما كانت الإبادة تتم أحياناً بواسطة سيارات مجهزة بحجرة غاز يتم التخلص فيها من الضحايا دون حاجة إلى نقلهم إلى

معسكرات الإبادة . وقد تم التخلص بهذه الطريقة من جرحى الحرب الألمان ممن لا يُرجى لهم شفاء أو ستتكلف عملية تمريضهم الكثير ، كما تمت إبادة أعداد كبيرة من أعضاء النخبة الثقافية البولندية ، والفائض السكاني الروسي .

١٢ ـ وحتى بعد قرار الإبادة (بمعنى التصفية الجسدية) ، كان ديدن النازيين دائماً هو الحوسلة الكاملة وتعظيم الفائدة والحرص الكامل على ممتلكات الدولة وخدمة مصالحها ، ولذا كان يتم تجريد الضحايا من أية مواد نافعة (حتى من الحشوات الذهبية التي في أسنانهم) ، ولا شك في أن هذا ساهم في تحسين ميزان المدفوعات الألماني . وقد أشرنا من قبل إلى استخدام الأمخاخ البشرية ولكن يبدو أن عملية التوظيف كانت أعمق من ذلك بكثير فقد كانت البقايا البشرية (مثل الشعر) تُستخدَم في حشو المراتب ، ويُقال إنها كانت مريحة للغاية وزهيدة الأسعار . ولم يكن الرماد البشري يُستخدَم كشكل من أشكال السماد وحسب ، وإنما كمادة عازلة أيضاً . وكانت العظام البشرية تُطحن وتُستخدَم في أغراض صناعية مفيدة مختلفة . بل يُقال إن بعض الأنواع الفاخرة من الصابون صُنعت من الشحومات البشرية . (ومع هذا ، صدرت مؤخراً دراسات تشكك في هذا) .

كانت الجدوى الاقتصادية لمعسكرات الإبادة إذن عالية للغاية ، كما كان التحكم كاملاً ، أي أنها عملية رشيدة بالمعنى الفيبري ، إذ يرى ماكس فيبر أن رشد الحضارة الغربية الحديثة ينصرف إلى الإجراءات وحسب ، ولا ينطبق على الأهداف فهو ترشيد مادي إجرائي أداتي ، منفصل عن القيم والعاطفة ، وأنه لهذا السبب سينتهي بالإنسان إلى « القفص الحديدي » حيث يوجد فنيون بلا قلب ؛ حسيّون غير قادرين على الرؤية ، وهذا لا يختلف كثيراً عن معسكرات الاعتقال والإبادة . وقد أشار أحد العلماء الذين درسوا الظاهرة النازية إلى أن العلماء النازيين تبنوا ما سموه موقفاً موضوعياً متجرداً من الأحكام القيمية ، ولكن هذا الموقف العلمي ذاته جعل كل شيء ممكناً . فقتل المصابين بالأمراض العقلية ، إن كان لازماً للبحث العلمي الموضوعي ، يصبح أمراً مقبولاً وربما مرغوباً فيه .

وتتبلور هذه النقطة في قضية المسئولية الخُلقية للتنفيذين النازيين ، فهناك من ينطلق من المنظور الترشيدي المادي الإجرائي المنفصل عن القيمة ويذهب إلى أن المواطن النازي الذي اشترك في عمليات الإبادة لم يكن سوى بيروقراطي ، موظف تنفيذي (« عبد المأمور » ، كما تقول بالعامية المصرية) ، يؤدي عمله بكفاءة عالية ، ويُنفذ ما يصدر إليه من أوامر تأتيه من علٍ ، ولا يتساءل عن مضمونها الأخلاقي ويُنفذها حتى لو تنافت مع القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة . فهذا الموظف لا يدين بالولاء الكامل إلا للدولة والوطن ولا يعيش في ازدواجية الدين والدولة أو الأخلاق والدولة ، فالمطلق الوحيد الذي يؤمن به ، شأنه في هذا شأن أي إنسان علماني شامل ، هو الدولة والوطن ، ولذا فعليه أن يذعن لما يصدر له من أوامر تأتيه من هذه الدولة التي تخدم صالح الوطن . وهذا ينطبق على الأوامر النازية الخاصة بالإبادة !

ولكن هناك آخرون ، ممن يؤمنون بالمطلقات الأخلاقية والإنسانية ، يذهبون إلى أن الإنسان الفرد كائن حر مسئول ، ولذا فعليه أن يتحمل المسئولية الأخلاقية الكاملة لما يأتيه من أفعال ، ومن ثم عليه أن يقف ضد عمليات إبادة الضعفاء (من المسنين والمعوقين وأعضاء الأقليات) ، حتى لو كانت عملية الإبادة تخدم « الصالح العام » أي صالح الدولة والوطن ! أي أن الإنسان الفرد يدين بالولاء لمجموعة من القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة تتجاوز ولاءه للدولة والوطن وكفاءة الأداء في الوظيفة .

وهذه إشكالية فلسفية وأخلاقية وإنسانية عميقة تواجهها المنظومة العلمانية الشاملة ، فهي منظومة فلسفية تنكر الميتافيزيقا والثنائيات والمطلقات وتؤكد نسبية المعرفة وكل القيم الأخلاقية ، وهو ما يعني ، بطبيعة الحال ، غياب المرجعية المتجاوزة (التي تتجاوز الأفراد) وظهور المرجعية المادية الكامنة ، حين يحدد كل إنسان قيمه بنفسه دون العودة إلى أية مطلقات أو ثوابت إنسانية (كما يدعو فكر ما بعد الحداثة) . وإذا كان الألمان ، انطلاقاً من المرجعية المادية الكامنة فيهم ، قد حدَّدوا قيمهم الأخلاقية على أسس نفعية مادية داروينية ، وسلكوا على هذا الأساس ، فكيف يمكن لنا أن نتجاوز ذاتيتهم الكامنة فيهم ؟ وكيف يمكن لنا أن نهيب بقيم أخلاقية وإنسانية ، عامة مطلقة ، تقع خارج نطاق مُثُلهم الذاتية ؟ كيف يمكن أن نفعل ذلك إن كنا نحن أنفسنا نؤمن بالنسبية المطلقة ؟ كيف يمكن اختراق المطلق الذاتي ؟ كيف يمكن أن نبيِّن للشعب المختار ، صاحب الحقوق المطلقة ، المسلح بالمدافع الرشاشة والقنابل النووية ، أن ثمة إنسانية عامة وثمة قيم أخلاقية عامة ، إن كنا نحن أنفسنا نسبيين ، علمانيين شاملين حركيين نرفض الثبات ولا نرى إلا حركة المادة وقوانينها الصماء ؟ يقول البعض ممن يحاول اتخاذ موقف أخلاقي دون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة ، إن الإنسان بوسعه أن يأخذ موقفاً ذاتياً وجودياً ، ويرفض إبادة الآخر بإصرار وعناد ، أي أن الإنسان بوسعه أن يتبنى موقفاً أخلاقياً دون السقوط في الميتافيزيقا ودون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة أو كليات مجردة . ولكن هل يمكن

محاكمة الآخر من هذا المنظور إن كان لا يؤمن به ؟ ألا يعني هذا أنني أفرض ذاتيتي الأخلاقية الوجودية على ذاتيته الداروينية النفعية المادية ؟

هذه هي الإشكالية التي نبهنا لها ماكس فيبر وغيره من علماء الاجتماع والمفكرين الغربيين حينما بدأوا في إطلاق التحذيرات ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، من العلم المنفصل عن القيمة ، وهي إشكالية تثيرها ، وبحدة ، الإبادة النازية لليهود والأطفال والمعوقين والعجزة والعجز ، وكل من لا فائدة له ، من المنظور النازي . والحوار الدائر في الغرب بشأن الإبادة يُركِّز على تفاصيل مثل عدد الضحايا وهل هم يهود فقط أو غيرهم (مما أسميه «لعبة الأرقام») ويهمل قضية إنسانية جوهرية مثل هذه تتجاوز حدود الإبادة النازية لتصل إلى مستوى المجتمع الحديث بأسره ، ومستقبل الإنسان على هذه الأرض .

وقد أثيرت مؤخراً قضية وثيقة الصلة تماماً بقضية انفصال العلم عن القيمة ألا وهي قضية انفصال الإجراءات الديموقراطية عن القيمة . فالديموقراطية هي في واقع الأمر اتفاق على مجموعة من الإجراءات تمكن من خلالها معرفة رأي الأغلبية ، وجوهر هذه الإجراءات كمي ، أي حساب عدد الأصوات المؤيدة والمعارضة ، فإن زادت الأصوات المؤيدة عن الأصوات المعارضة ولو صوتاً واحداً تم تمرير مشروع القانون ، وإن نقصت ولو صوتاً واحداً رُفض المشروع . فالاتفاق هنا اتفاق بشأن الإجراءات وحسب (وقوانين اللعبة ، كما تُسمَّى) ، وليس متصلاً بمضمونها أو اتجاهها ، فهذه أمور تحددها العملية الديموقراطية نفسها ، دون الالتزام بأية قيم أو مرجعيات مسبقة ، أي أن الديموقراطية تدور في إطار النسبية الكاملة ولا تتقيد بأية قيم أخلاقية مطلقة . ومن ثم سُمِّيت الأخلاق الحاكمة للديموقراطية بأنها «أخلاقيات الإجراءات والصيرورة» (بالإنجليزية : إثيكس أوف بروسيس ethics of process) . فالديموقراطية ، شأنها شأن الترشيد الإجرائي ، معقمة من الميتافيزيقا والكليات والمطلقات والثوابت . فكما أن العلم انفصل عن الغائيات والقيم الإنسانية وأصبح مرجعية نفسه ، انفصلت الإجراءات الديموقراطية عن الغائيات والقيم الإنسانية وأصبحت مرجعية ذاتها ، ولا يمكن محاكمتها من خلال مرجعية متجاوزة لها .

والقضية التي تثيرها النازية هي أن هتلر وصل إلى الحكم من خلال إجراءات ديموقراطية سليمة ، تماماً كما أن المشروع الإمبريالي الغربي قامت به حكومات تم انتخابها بطرق ديموقراطية سليمة . ومن المعروف أن عمليات السخرة والإبادة التي قام بها النظام النازي كانت تحظى بموافقة الأغلبية الساحقة للشعب الألماني . وهذا لا يختلف كثيراً عما حدث في الولايات المتحدة حينما قامت الحكومة الأمريكية بوضع ألوف المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات اعتقال إبَّان الحرب العالمية الثانية كإجراء أمني ، وقد حظى القرار العنصري الإرهابي بموافقة الأغلبية . وتصبح القضية أكثر خطورة حينما تظهر بين جماهير الشعب نزعات عسكرية وإمبريالية تتجاوز طموحات النخبة الحاكمة ، الأمر الذي يضطرها إلى القيام بعمليات عسكرية عدوانية لتحظى برضى الجماهير . ويُلاحَظ أثناء حملات الرئاسة الأمريكية أن حكومة الولايات المتحدة تأخذ مواقف عسكرية متشددة قد لا تضطر لاتخاذها بعد الانتخاب . وتظهر المشكلة بشكل أكثر حدة حينما يرى أحد الشعوب أن قطاع الاتجار في المخدرات هو عصب اقتصادها الوطني ، وتُنتخب حكومة تدافع عن مثل هذه السياسة . ومؤخراً رشحت إحدى نجمات أفلام الإباحية نفسها في انتخابات البرلمان الإيطالي ، وكانت حملتها الانتخابية تتلخص في خلعها لملابسها لإقناع وإغواء الناخبين (وقد نجحت في حملتها وتم انتخابها بالفعل بتفوق) . وفي الجيوب الاستيطانية ، مثل إسرائيل وجنوب أفريقيا ، عادةً ما تحكمها حكومات تم انتخابها بطريقة ديموقراطية لا شبهة فيها ، وهذه الجيوب تستند إلى فعل سرقة تاريخي تقبل به أغلبية المستوطنين الساحقة ، وتصوت (بل تقاتل) من أجل استمراره . ففعل الاغتصاب الإرهابي يحظى بدعم سياسي وقبول ديموقراطي .

والسؤال الآن هو : هل علينا أن نقبل بمثل هذه القرارات (ابتداءً من الإبادة النازية وانتهاءً بقبول المخدرات والإباحية واغتصاب الأوطان) باعتبار أنها تعبير عن إرادة الشعب وصوت الجماهير طالما أنها اتبعت الإجراءات الديموقراطية السليمة ، أم ينبغي علينا أن نرفض مثل هذه القرارات الديموقراطية ، استناداً إلى مرجعية أخلاقية متجاوزة للإجراءات الديموقراطية ؟ ولكن هل يحق لنا أن نسأل أي سؤال يقع خارج نطاق أخلاقيات الإجراءات والصيرورة ؟ ألا يُشكِّل هذا سقوطاً في الميتافيزيقا والماهوية والمطلقية ؟

توظيف الإبادة

Instrumentalization of the Holocaust

تتسم المجتمعات الغربية الحديثة بمقدرتها الفائقة على حوسلة كل شيء ، دون أي اعتبار لقداسة أو محرمات ، ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للإبادة . وتبدأ عملية توظيف الإبادة ـ على يد الصهاينة ـ بمحاولتهم فرض معنى صهيوني ضيق عليها باعتبارها

جريمة العصر التي ارتكبها الألمان والأغيار ضد اليهود فحسب . ثم تُعطي واقعة الإبادة مكانة محورية في تاريخ أوربا وتاريخ العالم . ولذا صدرت عشرات الأفلام والدراسات والأعمال الفنية لحفر الإبادة في الذاكرة باعتبارها واقعة حدثت لليهود وحدهم ، لا باعتبارها جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد قطاعات كبيرة من سكانها . وقد دخلت دراسة الهولوكوست عشرات الجامعات والكليات الأمريكية ، وأقيمت نصب تذكارية للإبادة بالعبرية والإنجليزية في واشنطن ونيويورك ولوس أنجلوس وغيرها . وأنشأت الحكومة الأمريكية المجلس الأمريكي للتذكير بالإبادة ، وتم إنشاء متحف تُخلَّد فيه ذكرى الإبادة النازية في واشنطن بجوار المتاحف القومية الأمريكية . وباسم الإبادة ، حاولت المؤسسة الصهيونية التدخل (دون نجاح كبير) في انتخابات الرئاسة في النمسا عام ١٩٨٦ ، واعترضت بشدة (دون نجاح مرة أخرى) على زيارة الرئيس الأمريكي ريجان لمقبرة بتبرج الألمانية التذكارية لمجرد أن بعض المدفونين فيها من رجال قوات الصاعقة النازية .

ومن أهم أشكال توظيف الإبادة لصالح الصهيونية هو استخدامها كسحابة كثيفة لتبرير الفظائع التي ارتكبتها وترتكبها الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين . كما تُوظَّف الإبادة في جمع التعويضات التي تمول الكيان الاستيطاني الصهيوني (بلغ حجم التعويضات الألمانية وحدها ٧٠ بليوناً من الدولارات في ٣٥ عاماً) . ومن المعروف أن هذه التعويضات التي تلقتها الدولة الصهيونية انعشت الاقتصاد الإسرائيلي ، ومكنت الدولة الصهيونية من شراء مزيد من الأسلحة والمستوطنات والقنابل العنقودية !

والتعويضات تعني ، في واقع الأمر ، حصول إسرائيل (وبعض أعضاء الجماعات اليهودية) على مقابل مالي تعويضاً عن الآلام التي لحقت بهم . وهذا يخفف من البُعد الأخلاقي للقضية ، إن لم يكن يلغيه . ففي موقف مماثل رفضت الصين أن تتقاضى تعويضات مالية من اليابان على جرائمها ضد الصينيين باعتبار أن قبول التعويضات فيه تنازل عن الحق الأدبي ، وفيه تخلٍّ عن المنظور الأخلاقي (المطلق) حيث تتحول القضية إلى ما يشبه المقايضة .

ومن الواضح أن عملية توظيف الإبادة تتم من منظور نفعي مادي انتقائي محض ، لا علاقة له بالقيم الأخلاقية . وفي هذا الإطار يثير بعض الدارسين قضية علاقة الدولة الصهيونية مع بعض الشخصيات والدول التي كانت لها علاقة بالنظام النازي . إذ لا تُمانع إسرائيل البتة في توثيق علاقتها مع بعض حكومات دول أمريكا اللاتينية التي تأوي مجرمي الحرب النازيين (الذين تزعم إسرائيل أنها تطاردهم في كل زمان ومكان !) مادام هذا يخدم مصلحتها . وقد تعاونت إسرائيل مع حكومة جنوب أفريقيا العنصرية التي كانت معروفة بتعاطفها الكامل مع النظام النازي . وقامت باستضافة رئيس وزراء جنوب أفريقيا السابق ، بلثازا فورستر ، وهو جنرال سابق في الحركة الوطنية في جنوب أفريقيا الموالية للنازيين والتي كانت تقاوم المجهود الحربي للحلفاء ، وقد اعتُقل لمدة عشرين شهراً بسبب اشتراكه في المقاومة . ورغم مرور عشرات السنين إلا أنه لم يُنكر موقفه الموالي للنازية . وقد سمحت له الحكومة الصهيونية بوضع إكليل من الزهور على ياد فاشيم (النصب التذكاري) المقام لضحايا الإبادة النازية لليهود ، الأمر الذي دفع جريدة **الجيروساليم بوست** (الصهيونية) إلى الاحتجاج وإلى الإشارة إلى الحقيقة البدهية التي أغفلتها إسرائيل وهي أن اليهود ينبغي عليهم ألا يرتبطوا بأحد المؤيدين السابقين للنازية .

وفي مجال توظيف الإبادة يلجأ الصهاينة أحياناً لاختلاق القصص أو تزييف الحقائق كما حدث في حادثة آن فرانك (١٩٢٩ ـ ١٩٤٥) ، وهي فتاة ألمانية هاجرت إلى هولندا مع أسرتها بعد وصول هتلر إلى السلطة في عام ١٩٣٣ . وحينما قرر النازيون إرسال أختها إلى معسكرات العمل ، اضطرت هي وأسرتها إلى الاختباء ، فعاشوا في مخبئهم ما يزيد على عام ، ثم أُلقي القبض عليهم ورُحِّلوا إلى معسكرات الاعتقال حيث لقيت آن وأختها حتفهما بسبب المرض .

ويُقال إن آن فرانك كتبت ، أثناء فترة اختبائها ، مذكراتها التي نُشرت بعد الحرب وتُرجمت إلى الإنجليزية . وهناك الكثير من الشكوك التي تحيط بهذه المذكرات إذ يُقال إنها لم تكتبها بنفسها بل كتبها أبوها (أو بعض من حوله) بعد موتها بطريقة مثيرة ليحقق من ورائها ربحاً مالياً . ولهذا فهي لا تُعتبَر وثيقة تاريخية يُعتد بها . ومع أنها ليست ذات قيمة أدبية كبيرة ، إلا أنها أصبحت مصدراً لعدة أفلام ومسرحيات . كما غدت آن فرانك إحدى الأساطير التي تُستخدَم لتحويل الإبادة النازية من جريمة غربية ضد قطاعات بشرية عديدة داخل التشكيل الحضاري الغربي (تضم السلاف والغجر والجماعات اليهودية) إلى جريمة ألمانية ضد اليهود وحسب . وأصبح المنزل الذي اختبأت فيه أسرة فرانك متحفاً .

وتحاول الدعاية الصهيونية توظيف واقعة الإبادة في تعبئة أعضاء الجماعات اليهودية (باعتبارهم الضحية الوحيدة) وراء الأهداف الصهيونية . ولتحقيق هذا يحاول الصهاينة أن يجعلوا من الإبادة حجر الزاوية الذي تستند إليه الوحدة بين يهود العالم في إسرائيل وخارجها . فالإبادة ، بعد فرض المعنى الصهيوني عليها ،

تنهض دليلاً على رفض العالم لليهود ، وعلى أن الأغيار يتربصون دائماً بالضحية اليهود الذين يُقدَّمون قرباناً على المحرقة . وهذا تأكيد للمقولة الصهيونية الخاصة بأزلية معاداة الأغيار لليهود وحتميتها ، ومن ثم يتعيَّن على يهود العالم الهجرة إلى الوطن القومي . (ولكن يهود العالم ، مع هذا ، يتصرفون على أساس أن الإبادة أمر مستحيل الوقوع مرة أخرى ، ومن الصعب أن يخطط المرء على أساس حادثة استثنائية وفريدة) .

ويحاول الصهاينة تقديم قراءة كاملة لما يسمونه «التاريخ اليهودي» بحيث تصبح الإبادة أهم معلم فيه ، فيُقال «قبل الإبادة» و«بعد الإبادة» ، تماماً مثل «قبل هدم الهيكل» و«بعد هدم الهيكل» . ويُشار للإبادة بأنها «حُربان» وهي كلمة عبرية تستخدم للإشارة إلى «هدم الهيكل» . والإبادة هي إذن هدم الهيكل للمرة الثالثة ، الأمر الذي يدخلها دورة التاريخ اليهودي المقدَّس . بل يذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود إلى أن الإبادة غيَّرت من النسق الديني اليهودي ذاته . ولذا ، فإن من الضروري ، حسب رأيهم ، الحديث عن «لاهوت ما بعد أوشفيتس» ، أو «لاهوت الإبادة» الذي يرى حادثة الإبادة باعتبارها حادثة مطلقة لا يمكن فهمها ، وهي أكثر الحوادث أهمية وقداسة ، ويصبح الشعب اليهودي هو المسيح المصلوب . وينادي هؤلاء المفكرون بحتمية أن تصبح الإبادة هي المرجعية الأساسية لليهود ، ومن ثم ضرورة مناقشة مدى عدالة الرب، وهل هو رب خيِّر أم شرير ، وهل يتدخل في التاريخ بمنحه الغرض والغاية أم يترك التاريخ في حالة فوضى كاملة ؟ كما أن البقاء (بقاء الشعب اليهودي) يصبح هو المطلق الوحيد الذي يَجُبُّ سائر الاعتبارات الأخلاقية الأخرى ويصبح النقطة المرجعية النهائية الوحيدة . ويساعد التركيب الجيولوجي لليهودية على السماح بإفراز مثل هذه الأفكار وإعطائها قسطاً من الشرعية . (ومما يجدر ذكره أن الجماعات الأصولية ذات التوجه الصهيوني المسيحي الواضح ترى أن الإبادة هي بالفعل دليل على أن الرب قد هجر اليهود بسبب الذنوب التي اقترفوها) .

ويذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود (الأرثوذكس) إلى أن الإبادة ذات مغزى ديني عميق ، فيرى بعضهم أن إبادة اليهود هي هدم الهيكل الثالث وأن هتلر هو أداة الخالق في حرق اليهود ، كما يذهبون إلى أنهم بمثابة الماشيَّح المذبوح الذي سيُولَد العالم من جديد بعد ذبحه . (ولكن هناك رأي مغاير لهذا ، إذ يذهب بعض الحاخامات [مثل مناحم هارتوم وإليعازر شاخ ، الأب الروحي لحزبي شاس و ديجيل هاتورا] إلى أن الإبادة لها حقاً مغزى ديني ولكنها عقاب على خطيئة اليهود لابتعادهم عن تنفيذ الأوامر والنواهي ، وسوف يقوم الإله بتدميرهم مرة أخرى إن لم يندموا ويعودوا عن طريق المعصية) .

وقد جعلت المؤسسة العسكرية الخوف من الإبادة أحد أسس الإستراتيجية الصهيونية ، فقد أشار كل من أبا إيبان ورابين إلى حدود إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ بأنها «حدود أوشفيتس» . وهناك قدر كبير من الادعاء في هذه التشبيهات وصل إلى قمته حينما قال مناحيم بيجين إن ياسر عرفات حينما كان مُحاصَراً في بيروت يشبه هتلر في مخبئه ، فالقائد الفلسطيني المحاصر والذي اغتُصبت أرض شعبه يشبه القائد النازي المُحاصَر الذي جيَّش جيوشه وأرسلها إلى الشعوب المجاورة ليستولي على أراضيها ويستعبدهم أو يبيد أعداداً منهم . وفي هذا تزييف كامل للحقائق ، ولكن هذه هي عقلية العنصري الفاشي الذي يرى أنه عضو في الشعب المختار ، ولذا فهو دائماً مضطهد ، حتى حينما يقوم بتدمير الآخرين .

وقد نجح الصهاينة في ترسيخ واقعة الإبادة النازية ليهود أوربا في وجدان الأغلبية العظمى من الإسرائيليين . فالصحف لا تكف عن الكتابة عنها . وهناك يوم محدَّد لإحياء ذكرى الإبادة يُسمَّى «يوم الذكرى (يوم هازكرون)» ويقع في يوم ٤ ايار ، أي قبل عيد الاستقلال والذي يقع في يوم ٥ آيار (وهو اليوم الذي يحتفل فيه المستوطنون بإنشاء الدولة الصهيونية على أرض فلسطين بعد طرد سكانها منها) . ويبدأ اليوم بإطلاق صفارة إنذار في كل أنحاء الدولة في مغرب اليوم السابق فتُنكس الأعلام ، وتُغلَق دور اللهو بأمر القانون ، وتُقام الصلوات في المعابد اليهودية وتُوقد الشموع فيها ، كما تُعلن صفارات الإنذار في الصباح عن دقيقتين حداداً يتوقف فيهما النشاط تماماً في الدولة الصهيونية بكاملها . ثم تُطلَق صفارة إنذار أخرى للإعلان عن انتهاء اليوم وبداية عيد الاستقلال . وقد لاحَظ الفيلسوف الديني الإسرائيلي اليهودي يشياهو لايبوفيتش أن الاحتفال بيوم الذكرى يزداد حدة عاماً بعد عام لأن قائمة أسماء الضحايا تزداد يوماً بعد يوم . بل تؤكد بعض الأبحاث الإسرائيلية أن شبح الكارثة لا يزال منعكساً وجاثماً على عقل الإسرائيليين من الجيل الثاني . ويرى واحد وستون بالمائة من الإسرائيليين أن الكارثة كانت عنصراً أساسياً من عناصر قيام الدولة الإسرائيلية والمسوغ الأساسي له . ويعتقد اثنان وستون بالمائة أن قيام الدولة الإسرائيلية يمنع حدوث كارثة مماثلة في المستقبل .

ومما لا شك فيه أن الإحساس بخطر الإبادة إحساس حقيقي متجذر في الوجدان الإسرائيلي . ولكننا نذهب إلى أن أساسه

الحقيقي ليس خطر الإبادة على يد النازيين ، وإنما هو الطبيعة الاستيطانية للتجمع الصهيوني الذي لم يضرب بجذوره في المنطقة ، وبخاصة أن أصحاب الأرض الأصليين لم تتم إبادتهم ، بل لم يكفوا عن المقاومة ، الأمر الذي يخلق عند الإسرائيليين ما نسميه «عقدة الشرعية» والخوف الدائم من عودة صاحب الأرض الذي يؤكد حضوره كذبهم (أرض بلا شعب) ، بل قد يؤدي إلى غيابهم في نهاية الأمر . ولكن بدلاً من أن يواجه المستوطنون حقيقة وضعهم كمستوطنين ومغتصبين للأرض ، وبدلاً من أن يدركوا الأصل الحقيقي لمشاعرهم ومخاوفهم ، فإنهم يتجاهلونها ويفرضون عليها هذا التفسير الصهيوني . فالإدراك الحقيقي سيُفقدهم ثقتهم بأنفسهم وإحساسهم بشرعية وجودهم وأخلاقيته ، أما التفسير الصهيوني فسيسبغ عليهم المزيد من الشرعية وسيزيد إصرارهم على حقهم في البقاء وإبادة كل من يقف في طريق الضحية الوحيدة للمجازر ؛ المهددة دائماً وأبداً بالإبادة !

وقد لاحظ بعض التربويين أن هذا التركيز على فكرة الإبادة ، كفكرة رئيسية في وجدان أعضاء الجماعات اليهودية داخل وخارج إسرائيل ، يسبب لهم مشاكل نفسية عميقة ، إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان حياة نفسية سوية ، وسط بلاد العالم أو بين أحد الشعوب ، وهو يعتقد أنهم قد يبيدونه تماماً في أية لحظة وأنه الضحية الوحيدة . ولذا ، بدأت ترتفع أصوات للتحذير من خطورة هذا الاتجاه . ولكن الصهيونية عقيدة تستند شرعيتها إلى الكوارث التي حاقت باليهود في الماضي والتي قد تحيق بهم في المستقبل ، ومن ثم ، فإن أية رؤية مُركَّبة للتاريخ تسحب هذه الشرعية منها . وعلى هذا ، فليس من المتوقع أن يتغيَّر هذا الاتجاه في القريب .

احتـــــكار الإبـــــادة

Monopolizing the Holocaust

يحاول الصهاينة احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب ، بحيث تُصوَّر الإبادة النازية باعتبارها جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم . ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيوني أية محاولة لرؤية الإبادة النازية باعتبارها تعبيراً عن نمط تاريخي عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية . كما يرفض الصهاينة تماماً محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين على سبيل المثال ، أو بما حدث لسكان أمريكا الأصليين على يد الإنسان الأبيض أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم .

وتثبت الدراسات التاريخية أن الإبادة النازية لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب ، فعدد ضحايا الحرب العالمية الثانية من جميع الشعوب الأوربية يبلغ ما بين خمسة وثلاثين وخمسين مليوناً . وأظهر معرض لحكومة بولندا كان يطوف أمريكا عام ١٩٨٦ أن أكبر معسكرات الاعتقال هو أوشفيتس وأن التركيز النازي كان أساساً على البولنديين والاشتراكيين واليهود والغجر (بهذا الترتيب) لتفريغ بولندا جزئياً وتوطين الألمان فيها .

وتوحي الأدبيات الصهيونية بأن العالم كله تجاهل اليهود وتركهم يلاقون حتفهم ومصيرهم وحدهم . ولكن من الواضح أن المسألة أكثر تركيباً من ذلك بكثير . فصحيح أن بعض الشعوب ساعدت النازيين ، كما حدث في النمسا ، ولكن البعض الآخر ساعد اليهود وآواهم كما حدث في بلغاريا (خصوصاً بين أعضاء الجماعة الإسلامية) وفي الدنمارك وفنلندا ورومانيا وإيطاليا وهولندا . وفي فرنسا ، تم تسليم خمسة وسبعين ألف يهودي للقوات النازية ، ولكن تمت ، في الوقت نفسه ، حماية أضعاف هذا العدد . كما رفض السلطان محمد الخامس تطبيق القوانين النازية على يهود المغرب رغم مطالبة حكومة فيشي الفرنسية بذلك . ولا يمكن أيضاً تجاهل جهود الحكومة السوفيتية في نقل مئات الآلاف من اليهود بعيداً عن المناطق التي احتلها النازيون (رغم تحالفها في بداية الأمر مع هتلر) . وتتجاهل التواريخ الصهيونية كل هذا ، تماماً مثلما تتجاهل العلاقة الفكرية والفعلية بين النازية والصهيونية والزعامات الصهيونية التي تعاونت مع النازيين .

ولكن هناك من يتحدى هذا الاحتكار الصهيوني للإبادة ، وقد بدأت الكنيسة الكاثوليكية المواجهة حين قامت بتنصيب الأخت تريزا بنديكتا قديسةً . والأخت تريزا هي إيديث شتاين سكرتيرة الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر ، وكانت يهودية . وعندما قرأت قصة حياة القديسة تريزا شعرت بإحساس ديني غامر وتنصرت وتكثلكت ثم ترهبنت ، وقام النازيون باعتقالها وقتلها . ويُصر الصهاينة على أن سبب قتلها هو كونها يهودية بينما ترى الكنيسة أنها راهبة كاثوليكية استُشهدت من أجل عقيدتها . والحادثة الثانية هي الخاصة بدير الراهبات الكرمليات في أوشفيتس ، الذي طالب اليهود بإزالته وتمسكت المؤسسة الكاثوليكية في بولندا بالإبقاء عليه . وقد قامت معركة إعلامية ساخنة بين الطرفين . وكتب باتريك بيوكانان (الصحفي والمرشح الجمهوري في انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٦) ما نتصور أنه خير احتجاج على هذا الموقف في مقال بعنوان «الكاثوليك ليسوا بحاجة إلى محاضرات في الأخلاق من سفاح عصابة شتيرن السابق» جاء فيه :

"وفي متحف المذبحة النازية ، هناك ثلاثة ملايين يهودي بولندي سيظلون في الذاكرة ، ولكن ماذا عن ثلاثة ملايين تقريباً من الأوكرانيين والصرب والليتوانيين والمجريين واللاتفيين والإستونيين ، نُحروا في ساحات القتل على أيدي الوثنيين العنصريين في برلين وعلى أيدي الملحدين المتعاونين معهم في موسكو ؟ وما الذي يتطلبه الأمر حتى يكون المرء ضحية من الدرجة الأولى ؟

فإذا كانت ذكرى الضباط اليهود الذين ماتوا إلى جانب إخوانهم الكاثوليك في كاتين قد خُلدت بنجمة داود ، فلماذا لا يتم تخليد ذكرى المليون كاثوليكي الذين أفنُوا في أوشفيتس بصليب ؟ وإذا كان التذكار حيوياً ، فلماذا يُستثنى المسيحيون ؟" .

ونحن ، بطبيعة الحال ، نرى أن الإبادة لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب ، وإنما ضد سائر العناصر التي اعتُبِرت ، من منظور النازية ، غير نافعة ، خصوصاً وأنه لو انتصرت قوات روميل في العلمين لامتدت آلة الفتك النازية إلى أعراق يعتبرها النازيون متدنية (مثل العرب) . ومن ثم ، فإن احتكار الصهاينة واقعة الإبادة ليس له ما يبرره في الواقع التاريخي .

إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي

Denial of the Holocaust and Western Cultural Discourse

«إنكار الإبادة» مصطلح يتواتر الآن في الصحف الغربية وفي بعض الأدبيات الخاصة بالإبادة النازية لليهود ، وهو يشير إلى أي كتاب أو مؤلف تجرأ صاحبه وكتب دراسة (علمية أو غير علمية) تطعن فيما ذهب إليه الكثيرون من أن عدد ضحايا النازية من اليهود ستة ملايين ، أو تثير الشكوك بخصوص أفران الغاز وغاز زيكلون بي . وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب ودراسات تدور حول هذا المحور :

١ ـ كتب بول راسينيه Paul Rassinier في الخمسينيات دراسة ضخمة بعنوان **أسطورة غرف الغاز** . وكان المؤلف قد رُحِّل إلى أحد معسكرات الاعتقال . وفند في كتابه وجود مثل هذه الغرف أساساً وبيَّن أنها أكذوبة تاريخية وأورد إحصاءات ديموجرافية (رسمية) عن عدد اليهود في كل أوربا قبل الحرب وبعدها ، وعقب صدور الكتاب حُوكم راسينيه وناشره وعُوقب بالسجن (مع إيقاف التنفيذ) كما فُرضت عليه غرامة مالية فادحة .

٢ ـ من أهم الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب البروفسور آرثر باتس Arthur Butz الأستاذ بجامعة نورث ويسترن **أكذوبة القرن العشرين** الذي يثير الشكوك حول عملية الإبادة نفسها . ولا يزال البروفسير باتس يُدرِّس في الجامعة في الولايات المتحدة .

٣ ـ أصدر روبير فوريسون R. Faurisson (أستاذ الأدب في جامعة ليون) سلسلة مقالات ثم مؤلفاً كبيراً كتب مقدمته اللغوي الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي يثبت أنه لم تكن هناك أصلاً أفران غاز .

٤ ـ تقدَّم هنري روكيه Henri Roques برسالة للدكتوراه إلى جامعة نانت يُشكك فيها في وجود غُرف الإعدام بالغاز «زيكلون بي» . وقد أجازت الجامعة الرسالة ومنحته الدرجة العلمية بامتياز . ولكن الحكومة الفرنسية ألغت قرار اللجنة وسحبت منه الدرجة . ويُعَدُّ هذا التدخل سابقة ليس لها مثيل في تاريخ الجامعات الفرنسية الذي يمتد ألف عام .

٥ ـ أصدر ستاجليش Staglish ، أحد قضاة مدينة هامبورج ، كتاباً بعنوان **أسطورة أوشفيتس** . والكتاب هو رسالة للدكتوراه كان القاضي قد قدمها إلى جامعة جوتينجن ، وتوصَّل فيها إلى أن كثيراً من النصوص وشهادات الشهود بخصوص معسكر أوشفيتس أو عما كان يجري فيه غير صحيح بالمرة ومليئة بالتناقضات . وقد أُجيزت الدكتوراه بالفعل . وما إن صدر الكتاب حتى قررت الجامعة سحب الدكتوراه من الرجل . كما أصدرت السلطات القضائية قراراً بخصم ١٠٪ من راتبه .

٦ ـ يتعرض المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج David Irving للمطاردة منذ نهاية الثمانينيات لأنه ينكر الإبادة رغم أن مجلة **ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس The New York Review of Books** وصفته بأنه "يعرف عن الاشتراكية الوطنية (أي النازية) أكثر من أي عالم آخر متخصص في هذا الحقل ، وأشارت إلى كتابه عن **حرب هتلر** بأنه أحسن دراسة عن الجانب الألماني في الحرب" . ورغم كل هذا طُرد من كندا وبعد ذلك من أستراليا ، ومُنع من إلقاء محاضراته فيهما . وأصدرت إحدى المحاكم الألمانية حكماً بتغريمه عشرة آلاف مارك لمجرد أنه نفى أن اليهود كانوا يموتون في غرف الغاز في معسكر أوشفيتس .

وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) مع صدور قانون فابيوس (رقم ٤٣) في مايو ١٩٩٠ المسمى «قانون جيسو» (وهو اسم النائب الشيوعي الذي تَبنَّى هذا القانون) . ويُحرِّم هذا القانون أي تشكيك في الجرائم المقترفة ضد الإنسانية بإضافة المادة ٢٤ مكرر إلى قانون حرية الصحافة عام ١٨٨١ ، جاء فيها : "يُعاقب بإحدى العقوبات المنصوص عليها في الفقرة السادسة من المادة ٢٤ ، كل من ينكر وجود أي من الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية كما وردت في المادة

٦ من النظام الأساسي للمحكمة العسكرية الدولية الملحق باتفاق لندن الموقع في ٨ أغسطس ١٩٤٥" .

وقد يظن المرء لأول وهلة أن كل القضايا المرتبطة بالإبادة النازية مثل : هل هي حقيقة أم مجرد اختلاق ؟ وعدد الضحايا اليهود ، وهل يبلغ عددهم ستة ملايين بالفعل أم أنه أقل من ذلك بكثير ؟ هي قضايا تم حسمها تماماً في الأوساط العلمية . وقد يظن المرء كذلك أن الدراسات السابقة هي دراسات عنصرية تآمرية كتبها مهيجون يحاولون إثبات أن اليهود وراء كل الشرور والجرائم . ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك ، فهي دراسات علمية ، ذات مقدرة تفسيرية معقولة تتناول قضايا خلافية . وهي دراسات تطرح وجهة نظر قد تكون متطرفة أو خاطئة (والوصول إلى قدر من الحقيقة في مثل هذه الأمور الخلافية أمر جد عسير) ، إلا أنها تدلل على وجهة نظرها من خلال الأرقام والحقائق والمعلومات . ومما لا شك فيه أن هناك المئات من الكتب الأخرى التي كتبها بعض المؤلفين العنصريين ، ومثل هذه الكتب لا تستحق القراءة لأنها كتابات عصبية متشنجة لا تبرهن على وجهة نظرها بطريقة علمية تفسيرية هادئة .

ولكن الإعلام الغربي والصهيوني يُهاجم هذه الكتب بشدة ، العلمي منها وغير العلمي ، ويشجبها بعصبية واضحة ، ويهيج ضدها بطريقة غوغائية ، ويوجه الاتهام لكل من تسول له نفسه أن يُنكر الإبادة أو يثير الشكوك حول موضوع الملايين الستة حتى لو كان من العلماء المتخصصين ، مع العلم بأن هناك دراسات كتبها علماء إسرائيليون يُعبِّرون فيها عن شكوكهم بخصوص رقم ستة ملايين . ولعله كان من الأجدى أن يميِّز الإعلام الغربي بين الدراسات العلمية والدراسات غير العلمية ، وأن يُخضع الدراسات العلمية للنقد العلمي الهادئ ، وأن يُطالب بفتح كل الملفات السرية والأرشيفات الغربية والشرقية لتبيِّن مدى صحة هذه الأطروحات . وقد أصبح هذا متيسراً بعد سقوط الاتحاد السوفيتي إذ أصبحت وثائقه متاحة للدراسة . ولعل حالة ديمانجوك الذي اتُهم بأنه « إيفان الرهيب » ، الذي اشترك في إبادة اليهود وغيرهم في معسكر تربلينكا ، تكون مثلاً على الخطوات المطلوب اتخاذها . فقد كانت كل الدلائل التي جمعها الأمريكيون والإسرائيليون تبيِّن أن ديمانجوك هو إيفان الرهيب ، وأصدرت المحاكم الإسرائيلية حكماً ضده بالفعل . ولكن، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، ظهرت وثائق تبيِّن بما لا يقبل الشك أن هناك شخصاً آخر هو الذي قام بعمليات الإبادة فأفرج عن ديمانجوك .

ومن الصعب فهم تلك الاستجابة الهستيرية لدى الإعلام الغربي والصهيوني إزاء عمليات إثارة الشكوك حول الإبادة وعدد الستة ملايين ، ومع هذا فلنحاول تناول هذه الظاهرة غير العقلانية .

ونحن نذهب إلى أن الخطاب الحضاري الغربي له حدوده التي يفرضها على عملية الإدراك . فقد قام الغرب بتحديد معنى الإبادة النازية لليهود ومستواها التعميمي والتخصيصي ، فقام باختزالها وفرض منطق غربي ضيق عليها من خلال التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، ومن خلال نزعها من سياقها الغربي ، الحضاري والسياسي الحديث .

١ ـ بالنسبة للمسئول عن الجريمة : تُخضَع الإبادة النازية لعمليتين متناقضتين :

أ) يتم تضييق نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تصبح الإبادة النازية جريمة ارتكبها الألمان وحدهم ضد اليهود .

ب) يتم توسيع نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تختفي كل الحدود وتصبح الإبادة النازية ليهود أوربا جريمة كل الأغيار بشكل مطلق ، أو جريمة كلٍّ من الألمان والأغيار ، أو الألمان باعتبارهم أغياراً ، أو الألمان بموافقة وممالأة الأغيار .

٢ ـ بالنسبة للضحية : تُخضَع الإبادة كذلك لعمليتين متناقضتين :

أ) يتم تضييق نطاق الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم ، لا ضد الملايين من اليهود وغير اليهود (من الغجر والسلاف وغيرهم) .

ب) يتم تعميم الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود ، كل اليهود، لا يهود العالم الغربي وحسب .

وبعد أن تم تعريف الإبادة بهذه الطريقة ، وبعد أن تم التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية وضبطها بما يتفق مع مصلحة الغرب ، قام الغرب بأيقنة الإبادة ، أي جعلها مثل الأيقونة تشير إلى ذاتها حتى لا يمكن التساؤل بشأنها ، فهي مصدر المعنى النهائي . وكما قال دان داينر إن أوشفيتس هي أرض لا يمتلكها أحد ، هي فراغ يبتلع كل التفسيرات التاريخية (فهو يشبه الثقوب السوداء التي تتحطم فيها قوانين الضوء والزمان) . فأوشفتس هو "المعيار المطلق الذي يُحكَم من خلاله على التاريخ ، ولا يمكن أن يصبح هو نفسه جزءاً من التاريخ" ، وهو كلام لا معنى له بطبيعة الحال ، فأوشفيتس حدث تاريخي ، وقع في الزمان ، ولا يصلح أن يكون معياراً أخلاقياً أو تاريخياً يُحكم به على كل الأمور الإنسانية في كل زمان ومكان (ألا يشكل هذا قمة التمركز الأوربي حول الذات [بالإنجليزية : إيورو سنترستي Euro-Centricity]) . ولكن مثل هذا الكلام الأجوف له معنى داخل الخطاب الحضاري الغربي بسبب عملية الأيقنة التي

أشرنا لها (وتجدر ملاحظة أن الأيقنة ليست مقصورة على المفكرين اليهود وإنما تشمل أعداداً كبيرة من غير اليهود) . فالإبادة بهذا المعنى أصبحت من المسلمات ، التي تُشكِّل فَهْم الإنسان الغربي المسبق ، شأنها في هذا شأن مقولة " عبء الرجل الأبيض " في القرن التاسع عشر ، وشأن إحساس الغرب بمركزيته في القرن العشرين أو الإيمان بالتقدم المادي وتحقيق الذات باعتبارهما الغاية النهائية لوجود الإنسان في الأرض . والمسلمات هي الركيزة الأساسية للنموذج ، فهي التي تحدد حلاله وحرامه ، وما هو مقدَّس وما هو مدنَّس . ومن ثم أصبح التساؤل بشأن الإبادة هو تساؤل بشأن إحدى المسلمات (المقدسات أو المطلقات ، إن شئت) وهو ما لا يمكن لأية حضارة ، مهما بلغت من سعة صدر وليبرالية وتعددية قبوله .

وقد يُقال إنهم في الغرب ينتجون أفلاماً تُعرِّض بالسيد المسيح عليه السلام مثل فيلم سكورسيزي Scorsese " الإغواء الأخير للمسيح " ، وأعمالاً فنية مثل لوحة الفنان أندريه سيرانو Andre Serrano الشهيرة بعنوان " فلتبول على المسيح " (Piss Christ) حيث وَضَع الفنان صورة المسيح على الصليب في البول ، وعرضها في معرض قامت الدولة بتمويله ، إن كانوا يفعلون ذلك فلم لا يقبلون بفتح ملفات الإبادة ؟ والرد على هذا هو أن السيد المسيح لم يعد ضمن المقدسات ، أما الإبادة فقد أصبحت كذلك . وقل الشيء نفسه عن الشذوذ الجنسي ، فحتى الستينيات كان الخطاب الغربي يرى أن ثمة معيارية ما وثمة انحراف عنها ، ولهذا كان هناك مفهوم للشذوذ والانحراف ، ولكن مع غياب المعيارية تآكل بالتالي مفهوم الشذوذ تماماً ، وبالتدريج أصبح الشذوذ شكلاً من أشكال تأكيد الحرية الفردية المطلقة (التي تتجاوز أية معيارية اجتماعية) ، وتعبيراً عن حق الفرد في اختيار الهوية الجنسية التي تعجبه والتي يمكنه من خلالها تحقيق ذاته على أفضل وجه ممكن . وبذلك تحوَّل الشذوذ الجنسي من كونه انحرافاً إلى علامة من علامات التفرد وتعبيراً نماذجياً متبلوراً عن المنظومة الحضارية والأخلاقية السائدة في المجتمع في تمركزها حول الذات والمتعة (وفي عدم اكترائها بالقيم الدينية والاجتماعية أو بأية ثوابت إنسانية) . وأصبح تقبل الشذوذ الجنسي علامة من علامات التحضر وسعة الأفق والتعددية ، وأصبح رفضها دليلاً قاطعاً على تزمت الشخص وتطرفه بل " أصوليته " .

لكل هذا أصبح من الممكن ، داخل الخطاب الحضاري الغربي ، ربط الشذوذ بالمقدسات العلمانية (المادية) الجديدة . وهذا بالضبط ما يفعله الروائي الأمريكي اليهودي ليف روفائيل ، فهو يربط بين الشذوذ الجنسي والهولوكوست ، فبطل إحدى رواياته يهودي يخاف من تأكيد الأبعاد الثلاثة لهويته : هويته اليهودية ، وهويته كشاذ جنسي ، وهويته كأحد ضحايا الهولوكوست . فيقوم صديقه الذي يعيش معه بتشجيعه على تجاوز مخاوفه . ومنذ عدة سنوات أُقيم مؤتمر للشواذ والسحاقيات في إسرائيل ، وأقام أعضاء المؤتمر صلاة القاديش في نصب ياد فاشيم من أجل الشواذ جنسياً والسحاقيات ممن سقطوا ضحايا للاضطهاد النازي . ولا شك في أن ربط الشذوذ الجنسي بالهوية اليهودية بالهولوكوست تصدمنا ، ولكن علينا أن ندرك ما هو مقدَّس وما هو مدنَّس في خطاب الآخر قبل أن نشعر بالصدمة ، والهولوكوست أيقونة مقدَّسة والشذوذ أمر عادي ، بل أمر محبب ، ومن يدري لعله أصبح أمراً له " قداسته " الخاصة ، ونحن لا نعرف بعد ، إذ أننا لا نتابع ما يجري هناك بكفاءة عالية ؟

ولنا الآن أن نطرح السؤال التالي : لم تم تحويل الإبادة إلى أيقونة مقدَّسة ، ومسلمة نهائية ؟ والإجابة على هذا السؤال تتطلب منا الانتقال من عالم القرائن والوثائق والاستشهادات إلى عالم محفوف بالمخاطر وهو عالم الخطاب الحضاري والنماذج الحضارية . ولذا سنحاول أن نقدح زناد الفكر وأن نقنع بإجابات ذات مقدرة تفسيرية معقولة وليست ذات طابع يقيني عال . وسوف نعمد بدايةً إلى استبعاد الصيغة العربية الجاهزة للإجابة على كل الأسئلة ، أي «اللوبي الصهيوني» أو «المؤامرة اليهودية» أو «النفوذ اليهودي» وغير ذلك من مقولات ما أنزل الله بها من سلطان لأنها تُفسِّر كل شيء ببساطة بالغة ، وما يُفسِّر كل شيء بهذه البساطة لا يُفسِّر شيئاً على الإطلاق !

ونحن نذهب إلى أن ثمة خطاباً غربياً واحداً فيما يتصل بالإبادة، يتفرع عنه الخطاب الصهيوني ، وهو خطاب لا يختلف عن الخطاب الغربي العام إلا في التفاصيل ، فهما يكادان يكونان وجهين لعملة واحدة ، وعلاقة الواحد بالآخر هي علاقة الكل بالجزء والأصل بالفرع . وتتلخص خصوصية الخطاب الصهيوني في تعميق الجوانب اليهودية وفي إضافة ديباجات يهودية (دينية وإثنية) كثيفة . فالخطاب الصهيوني ينزع ، هو الآخر ، حادثة الإبادة من سياقها الحضاري والتاريخي الغربي ، ويتلاعب بالمستوى التعميمي والتخصيصي ، فيُحوِّل واقعة الإبادة من جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد مجموعات بشرية داخلها إلى جريمة ألمانية أو جريمة الأغيار ضد اليهود . ولكن الخطاب الصهيوني (انطلاقاً من مفهوم الشعب المختار والحلولية اليهودية التي تسبغ القداسة على اليهود) يُعمِّق عملية التخصيص فتتحوَّل الإبادة من قضية اجتماعية تاريخية

إنسانية إلى إشكالية غير إنسانية تستعصي على الفهم الإنساني ، وإلى سر من الأسرار يتحدى العقل ، وإلى نقطة نهائية ميتافيزيقية تتجاوز الزمان والمكان والتاريخ . والاختلاف هنا هو اختلاف في الدرجة وليس في النوع ، إذ تظل هناك وحدة أساسية ، ولذا لا يجوز في الخطاب السياسي الغربي والصهيوني تشبيه إبادة أية أقلية بإبادة اليهود .

ويمكننا الآن أن ندرج بعض الأبعاد التي أدَّت إلى أيقنة الإبادة :

١ ـ يعيش الغرب في إطار أن الإبادة جريمة ألمانية نازية وحسب ضد اليهود وحدهم ، وليست حلقة في سلسلة الجرائم الإبادية التي ارتكبتها الحضارة الغربية ضد شعوب العالم ، والتي تنبع من رؤيتها النفعية المادية الإمبريالية المتجردة من القيمة . وقد استقر هذا المفهوم وأصبح إطاراً مرجعياً ينظر الإنسان الغربي إلى نفسه وإلى تاريخه من خلاله . وعملية الأيقنة تفصل هذه الجريمة عن نمط حضاري عام منكرو ولا تُذكِّر هذه الحضارة بماضيها الإبادي ، كما تعفيها من مسئولية الجريمة النازية ذاتها .

ورغم أن الإبادة هي إحدى ثمرات النازية والعلم المنفصل عن القيمة ، فإن عملية أيقنة الإبادة تصاحبها عملية أخرى ، وهي عملية تهميش النازية ومنظومتها القيمية رؤيتها للكون ، بحيث تصبح النازية وجرائمها مجرد انحراف عن الحضارة الغربية . والتخلي عن هذا الإطار (الذي يُأيقن الإبادة ويُهمِّش النازية) سيكشف فضيحة الحضارة الغربية ومسئوليتها عن هذه الجريمة البشعة المنظمة وعن غيرها من الجرائم التي هي جزء من نمط عام متكرر .

وفي هذه الإطار يمكن فهم الحرج الزائد الذي يسببه اكتشاف تورط كثير من الشخصيات الفكرية الأساسية في الحضارة الغربية (مثل هايدجر) مع النازيين ، ومحاولة إخفاء هذه الحقيقة وغيرها من الحقائق (مثل تلكؤ أيزنهاور في ضرب القطارات التي كانت تقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال والسخرة ، ورفض الدول الغربية فتح أبوابها للمهاجرين) . فإبراز تورط هايدجر وغيره قد يشير إلى تورط الحضارة بأسرها وقد يقوض المعنى الغربي المفروض على الإبادة .

٢ ـ لا يمكن إنكار الدور الذي يلعبه شعور الغربيين بالذنب تجاه ما حدث لليهود على يد النازيين . ولكن الإحساس بالذنب هنا يوجه نحو الأيقونة (الفريدة التي تشير إلى ذاتها) ومن ثم يتحول من إحساس خُلقي عميق ورغبة في إقامة العدل إلى حالة شعورية تدغدغ الأعصاب بل إلى مصدر راحة ، إذ يمكن للإنسان الغربي أن يهنئ نفسه بأنه لا يزال يمارس مثل هذه المشاعر النبيلة . وبدلاً من أن يحفز الشعور بالذنب الإنسانَ الغربي إلى التصدي لما يجري في العالم من عمليات إبادة (تقوم بها حكوماته أو تقف موقف « الحياد » تجاهها) فإنه يتجه نحو تأكيد تفرد الهولوكوست والمبالغة في أهوالها ، وبالتالي يتحول الحس الخُلقي إلى حس جمالي أو حالة شعورية لا تُترجم نفسها أبداً إلى فعل فاضل ؛ إلى أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . وأيقنة الإبادة بذلك تغطي على ما يجري من مذابح سواء في فيتنام أو البوسنة والهرسك أو الشيشان أو لبنان .

٣ ـ لكن الفضيحة الأساسية التي تغطيها عملية أيقنة الإبادة النازية هي الجريمة التي ارتكبتها الحضارة الغربية في حق الشعب الفلسطيني الذي طُرد من أرضه بموجب وعد بلفور وقرار هيئة الأمم المتحدة وبدعم كل الدول الغربية . فإذا كانت الجريمة هي حقاً جريمة الألمان على وجه الخصوص أو الأغيار على وجه العموم ، وضد اليهود على وجه العموم وضد اليهود وحدهم كما يدَّعي الخطاب الحضاري الغربي ، فلابد إذن من حلها على مستوى عالمي وألماني ، ولابد من تعويض الضحايا اليهود وحسب وإهمال الضحايا الآخرين . ومن ثم ، يصبح من المنطقي أخذ (لا اغتصاب) فلسطين من "الأغيار" وردها «لليهود» بسبب الجرم الذي حاق بهم على يد هؤلاء الأغيار . كما يمكن أخذ التعويضات من الألمان وتمويل المستوطن الصهيوني باعتباره المأوى الذي "عاد" إليه ضحايا الإبادة. وإذا كانت الإبادة هي حقاً جريمة موجهة ضد اليهود وحسب ، فإن المتحدثين اليهود هم وحدهم أصحاب الحق في فرض المعنى الذي يريدونه على الواقعة ، وهم وحدهم أصحاب الحق في التعويض .

٤ ـ ترتكز المنظومة الغربية التحديثية بأسرها إلى العلم المنفصل عن القيمة وعن الغائية الإنسانية . ورغم الإدراك المتزايد لوحشية هذا الافتراض ، فإنه لا يزال هو المقولة المعرفية الحاكمة . وفتح باب الاجتهاد بخصوص الإبادة يعني في واقع الأمر فتح باب الاجتهاد بخصوص الأساس الفلسفي الذي تستند إليه الحداثة الغربية بأسرها.

٥ ـ ويمكننا الآن أن نثير قضية ليست ذات علاقة مباشرة بالإبادة ، إلا أنها قد تلقي الضوء على عملية أيقنتها . فالمجتمعات الغربية مجتمعات تسيطر عليها العلمانية الشاملة ، وتسود فيها النسبية المعرفية والأخلاقية ، ولذا فهي تعيش بلا مقدَّسات أو ميتافيزيقا ، وهو أمر مستحيل بالنسبة لمعظم البشر . إذ يبدو أن حياة الإنسان لابد أن يكون فيها شيء مقدَّس ما ، فإن لم يكن الإله فيمكن أن يكون أي

شيء ، وكل شيء . وما حدث بالنسبة للإنسان الغربي أنه فقد إيمانه بمقدَّساته الدينية التقليدية ، فأخذ يبحث عن مقدَّسات مادية حديثة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس (المصدر الوحيد للمعرفة بالنسبة له) وبوسعه أن يُقسِّم العالم من خلالها إلى مقدَّس ومدنَّس ، وإلى محرَّم ومباح . إن الإنسان الغربي دائب البحث عن ميتافيزيقا علمانية مادية، تريحه نفسياً ولا تُحمِّله أية أعباء أخلاقية (مثل الإيمان بالأطباق الطائرة أو علاقة الأبراج بمصير الإنسان وسلوكه) . ويبدو أنه وجد ضالته في الإبادة النازية لليهود التي تولِّد فيه إحساساً لذيذاً بالذنب ، لا يكلفه أي جهد أخلاقي . وقد تحولت الإبادة إلى أيقونة تجسِّد ميتافيزيقا كاملة من خلال علمنة المفاهيم الدينية المسيحية ، إذ أصبح اليهود (في لاهوت موت الإله وفي الخطاب الحضاري الغربي ككل) هم المسيح المصلوب وأصبح ظهور الدولة اليهودية هو قيامه . والصلب والقيام هنا أمران ماديان يتمان داخل الزمان والتاريخ . فكأن الإبادة النازية لليهود هي الأيقونة العلمانية الشاملة المقدَّسة في الوجدان الغربي ، فهي مفهوم قبلي بُنيت عليها مجموعة من المفاهيم الأخرى ، فإن سقطت الأيقونة سقط كل ما بُني عليها وأصبح من الضروري مراجعة كل شيء ، وهو أمر صعب للغاية على البشر .

وهذا لا يعني بطبيعة الحال إنكار أهمية البُعد الصهيوني للاستجابة الغربية الهستيرية .

١ ـ لا يمكن إنكار وجود قدر كبير من الضغط الذي تمارسه المؤسسات اليهودية والصهيونية للإبقاء على الوضع المعرفي والمعلوماتي القائم ، الذي يُحقق لها فوائد جمّة . كما أن هناك الآلاف من أعضاء الجماعات اليهودية ممن تقاضوا التعويضات الألمانية عما لحق بهم من أذى وممن لا يزالون يطالبون بها ، وهؤلاء أيضاً أصبحوا جزءاً من "جماعة مصالح" تحولت إلى جماعة ضغط . وليس من صالح هؤلاء كشف حقيقة ما حدث .

٢ ـ أصبح الخطاب الصهيوني يستند بشكل شبه كامل إلى الإبادة النازية ، وأصبحت الشرعية الصهيونية ذاتها تستند إلى حادث الإبادة. والشرعية عادةً لا تستند إلا إلى مطلقات ، لا يمكن إخضاعها للتساؤل .

ويميل كاتب هذه الموسوعة إلى القول بأن معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة حقيقة مادية لا شك فيها ، وأن أفران الغاز هي الأخرى حقيقة (ومن ثم لا يمكن إنكار الإبادة باعتبارها تصفية جسدية متعمدة) . ولكن حجم هذه الأفران ومدى كفاءتها وعدد ضحاياها ودلالة هذه الحقائق المادية وتفسيرها تظل كلها موضوعات قابلة للاجتهاد والفحص العلمي والوثائقي بل تتطلبها ، فهي موضوعات خلافية . وهناك فيما يبدو مصلحة للبعض في أن يُضخمها أو يُقلل من أهميتها . فإذا كان الحياد الكامل مستحيلاً في مثل هذه الأمور (كما في غيرها) ، فلابد ، على الأقل ، أن ننفصل إلى حدٍّ ما عن الظاهرة موضع الدراسة ونُعيد قراءة الوثائق المتاحة ونطالب بإتاحة كل الوثائق السرية ، وخصوصاً أن الموضوع أصبح موضوعاً تاريخياً مر عليه أكثر من خمسين عاماً .

إشكالية الحل النهائي ومؤتمر فانسي

The Problematic of the Final Solution and the Wannsee Conference

تزعم الأدبيات الصهيونية أنه في ٢٠ يناير ١٩٤٢ عُقد مؤتمر يُسمَّى «مؤتمر فانسي» بهدف التنسيق بين الوزارات المختلفة التي اشتركت هي والحزب النازي وقوات الإس . إس . في محاولة تنفيذ الحل النهائي ، باعتباره التصفية الجسدية لليهود . ويُقال إن رينهارد هايدريش دعي إلى هذا المؤتمر بناء على خطاب من هرمان جورنج بتاريخ ٣١ يوليه ١٩٤١ ، وأشار إلى «الحل الكامل للمسألة اليهودية» . وقد أعد أيخمان الإحصاءات والبيانات اللازمة لمناقشة الموضوع . وحضر المؤتمر كبار موظفي الدولة والحزب وناقشوا كيفية تهجير اليهود وإرسالهم إلى معتقلات العمل والسخرة .

وعبارة «الحل الكامل» هي صيغة أخرى لعبارة «الحل النهائي» (بالألمانية : إندلوسونج Endlosung) التي ترد في بعض الأدبيات النازية ، وتعني في الأدبيات الغربية التي تتناول الحركة النازية «المخطط الواعي الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود» ، أي بمعنى تصفيتهم جسدياً . والمفترض أن هذا المخطط تم تنفيذه من خلال المؤسسات الحكومية النازية . (وهذا المعنى خلافي كما سنبين فيما بعد) .

ويمكن القول بأن مقولة «الحل النهائي» ، مثلها مثل مقولة «نهاية التاريخ» ، كامنة في بنية الأيديولوجيا النازية ، وفي كثير من الأيديولوجيات الأخرى الشبيهة التي تعتمد العلم الطبيعي مصدراً أساسياً وربما وحيداً للمعرفة والقيم الأخلاقية . فهذه الأيديولوجيات تؤمن بإمكانية ، أو حتى بحتمية ، التقدم الدائم من خلال تراكم المعرفة حتى تتم معرفة قوانين الحركة أو قوانين الضرورة أو القوانين الطبيعية (التي تسري على الطبيعة والإنسان) . ومن خلال هذه المعرفة الكاملة أو شبه الكاملة ، يمكن ترشيد الواقع تماماً والهيمنة عليه ووضع الحلول النهائية لكل المشاكل وإعلان «نهاية

التاريخ» (كما فعل فوكوياما في الولايات المتحدة في أواخر الثمانينيات) . والنازية ، من هذا المنظور ، ما هي إلا إحدى هذه الأيديولوجيات . ومن ثم ، فحتى لو لم يعلن النازيون الحل النهائي، فإن الفكرة كامنة في بنية الفكر الغربي والنازي . وعلى كلٍ، لا يمكن فهم التجارب الاستيطانية الإحلالية ، سواء في الولايات المتحدة أو في أستراليا أو فلسطين ، إلا في إطار فكرة الحل النهائي الذي يُطبَّق على السكان الأصليين ، هنوداً كانوا أم فلسطينيين، ويمكن إنجاز الحل النهائي إما عن طريق الإبادة أو عن طريق التهجير . ووعد بلفور وثيقة سياسية تهدف إلى وضع حل نهائي للمسألة اليهودية عن طريق التهجير . والمسألة الفلسطينية أو العربية ، من هذا المنظور ، هي نتيجة لعدم تطبيق الحل النهائي الصهيوني أو سببها الفشل في تطبيق هذا الحل حتى الآن . وقد عبَّر عن هذا المعنى صراحةً رحبعام زئيف (رئيس حزب موليديت) الذي انضم إلى الوزارة الإسرائيلية وطالب صراحةً بتهجير العرب ، فقد بيَّن بما لا يقبل الشك أن مقولة «الحل النهائي» مقولة أساسية في الفكر الصهيوني ، وتنتمي إلى عائلة من الأيديولوجيات الغربية الحديثة التي تبحث عن حل جذري ونهائي ومنهجي لمشكلتها السكانية كما فعل المستوطنون الأمريكيون من قبل ، وكما فعل النازيون في ألمانيا، وكما يفعل الصرب في البوسنة والهرسك ، وكما يفعل المستوطنون الغربيون في كل زمان ومكان !

ويمكننا الآن أن نثير قضية ترادف عبارة «الحل النهائي» مع عبارة «الإبادة كتصفية جسدية» ، كما تزعم الأدبيات الصهيونية ، وهو ترادف ينكره رجاء جارودي ، وغيره من الدارسين ، للأسباب التالية :

١ ـ لوحظ عدم ورود لفظ «الإبادة كتصفية جسدية» مقروناً بعبارة «الحل النهائي» في أية مذكرة نازية . وقد بيَّن ريمون آرون وجاك فيوريت (عام ١٩٧٩) - في ختام مؤتمر عُقد خصيصاً لهذه القضية وغيرها من القضايا المتعلقة بالإبادة النازية ليهود أوربا - أنه لم يتم العثور على أية مذكرة تحمل هذا المعنى رغم كل الجهود المبذولة . وقد وافقهما المؤرخ الصهيوني النزعة ولتر لاكير على رأيهما هذا (عام ١٩٨١) ، ولذا أضاف أن مثل هذا الأمر لم يَصدُر قط .

٢ ـ يروج بعض الصهاينة فكرة مؤداها أنه لم يتم العثور على مثل هذه المذكرة لسبب بسيط وهو أن النازيين كانوا يستخدمون لغة مشفرة أو رمزية حتى لا يكتشف أحد أمرهم . والرد على مثل هذا الرأي ـ كما بيَّن جارودي ـ هو الإشارة إلى عدد لا حصر له من الوثائق النازية تضم أوامر صريحة بإبادة السكان الذكور في ستالينجراد (على سبيل المثال) وقتل الجنود البريطانيين الذين يتم أسرهم أثناء تأديتهم بعض العمليات الخاصة (الكوماندوز) ، وقتل المسنين بالوسائل العلمية . فلماذا يُشفر النازيون الأوامر الخاصة بإبادة اليهود وحدهم ؟

٣ - حينما يذكر النازيون الإبادة فهي بديل ضمن بدائل عديدة ، كما أنها تتم بعدة طرق . فقد تحدَّث هتلر عن الإبادة من خلال "التجويع والقتال غير المتكافئ" ، بل تحدَّث عن "هجرة الألمان الاستيطانية" في شرق أوربا وحرب ألمانيا ضد عناصر "المقاومة الشعبية" باعتبارها شكلاً من أشكال الإبادة (وهو تعريف جيد للإبادة يخرج بها عن معناها الضيق المباشر ، ويُوسِّع حقلها الدلالي بحيث تصبح الحروب الاستعمارية حروب إبادة ، ويصبح الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي يلجأ إلى التجويع والقتال غير المتكافئ وتهجير اليهود وضرب المقاومة الشعبية أيضاً شكلاً يُصنَّف بكل تأكيد ضمن أشكال الإبادة) .

وبغض النظر عن رؤية هتلر للتاريخ ، فإن مؤتمر فانسي قد قسَّم طريقة التخلص من العناصر غير الاجتماعية غير المرغوب فيها من خلال أربعة طرق مختلفة : التعقيم أو الإبادة بالجوع أو الإبادة بالعمل أو حتى من خلال برنامج الأملة .

٤ ـ كان النازيون يتحركون في إطار الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية وهو تصديرها للخارج . وقد بيَّن هتلر أنه يميِّز بين معاداة اليهود العاطفية ومعاداة اليهود المنهجية ، فالأولى تنتهي بالمجازر ، أما الثانية فتنتهي بتهجير (ترانسفير) اليهود . وقد حدد هتلر مشروعه بالنسبة لليهود باعتباره عملية تهجير . وفي رده على سؤال وُجه إليه في اجتماع عام بشأن حقوق اليهود الإنسانية ، قال : « ليبحث اليهودي عن حقوقه الإنسانية في دولته فلسطين » .

وفي ١٠ أغسطس ١٩٤١ دافع هتلر عن الحل الشامل للمسألة اليهودية باعتباره نقل ٦٠٠ ألف من أراضي الرايخ . وكانت مجلة **الإس . إس .** قد استخدمت العبارة نفسها بهذا المعنى في عددها الصادر في ٢٤ نوفمبر ١٩٣٨ حين تحدثت عن الحل الشامل باعتباره « الفصل والعزل الكلي لليهود » .

٥ ـ طبق النازيون هذه الرؤية الإمبريالية (الصهيونية) على اليهود ، ولذا بدأ الحل النهائي بتهجير اليهود من أصل بولندي إلى بولندا ، ولكن الحدود أُوصدت دونهم . ثم طرح النازيون مشاريع صهيونية عديدة تهدف إلى توطين اليهود وتأسيس وطن قومي لهم في أي مكان خارج أوربا (أكوادور ـ سوريا ـ مدغشقر) .

وقد تعاون النازيون مع الصهاينة انطلاقاً من قبول هذا الحل

الصهيوني النازي للمسألة اليهودية فتم توقيع معاهدة الهعفراة للمساعدة في تهجير اليهود إلى فلسطين . وحقق النازيون بعض النجاح في هذا المضمار إذ بلغ عدد اليهود الذين هاجروا من ألمانيا وحدها حوالي ١٥٠ ألف (بين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٨) وهي نسبة مئوية عالية . وظل النازيون يدافعون عن فكرة تهجير اليهود ، وكانوا لا يكفون عن الشكوى من أن سيل الهجرة لم يكن سريعاً بما فيه الكفاية ، ومن أن الدول الغربية توصد أبوابها في وجه المهاجرين اليهود.

وفي السنين الأخيرة للحرب ، بعد مؤتمر فانسي (يناير ١٩٤٢) وبعد وقوع مساحات شاسعة من الأرض السوفيتية البولندية في أيدي النازيين ، بدأت فكرة توطين اليهود فيها تراود النازيين («ترحيل اليهود إلى الشرق» في المصطلح النازي) . وقد جاء في مذكرة رسمية بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٤٢ صادرة من وزارة الخارجية الألمانية ما يلي : « إن الحرب ضد الاتحاد السوفيتي وفرت لنا أراضي جديدة لتنفيذ الحل النهائي . وقد قرر الفوهرر أنه بدلاً من إرسال اليهود إلى مدغشقر فسيقوم بإرسالهم إلى الشرق . ولذا ليس هناك ما يدعو إلى التفكير في مدغشقر باعتبارها [مجال] الحل النهائي » .

وكل هذا يعني في واقع الأمر أن الحل النهائي هو حل صهيوني إقليمي، يعني التخلص من اليهود عن طريق ترحيلهم (ترانسفير) من مكان لآخر ، تماماً كما فعلت الحضارة الغربية مع اليهود حيث نقلتهم إلى فلسطين ، وكما فعل الصهاينة مع الفلسطينيين بنقلهم منها .

٦ ـ كان النازيون في حاجة ماسة للأيدي العاملة ، فلماذا تُضيِّع آلة الحرب النازية وقتها في إبادة الملايين بدلاً من توظيفهم في أعمال السخرة ؟ ومن الواضح أن النازيين كانوا أكثر رشداً ونفعية مما يتصوره الدارسون الصهاينة . فكانوا يزيدون من عدد العمال الذين يعملون نظير دولار واحد في اليوم للاستفادة من العمالة الرخيصة . وقد أرسل هملر مذكرة إلى أحد رؤساء معسكرات الإبادة (بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٤٢) يخبره فيها أن يستعد لاستقبال ٢٠٠ ألف يهودي حيث ستسند للمعسكر مهام اقتصادية مهمة . وفي مايو ١٩٤٤ أصدر هتلر أمراً باستخدام ٢٠٠ ألف يهودي كعمال في أحد المشاريع الإنسانية . وقد أصدرت قيادة الإس . إس S. S. أمراً بمنح مكافأة لكل السجناء (ومنهم اليهود) الذين أبلوا بلاءً حسناً في العمل . كما وفرت المؤسسات النازية لهؤلاء العاملين كل الأنشطة الترفيهية ، وضمنها بيت دعارة ، لزيادة الإنتاجية .

٧ ـ حينما يرد لفظ «الإبادة» في نصوص نازية فإنه لم يكن يعني دائماً «التصفية الجسدية» ، ففي ٢٦ مارس ١٩٤١ في حفل افتتاح معهد فرانكفورت لدراسة المسألة اليهودية أشار أحد المتحدثين إلى الإبادة (بالألمانية : فولكشتود Volkstod) باعتبارها الحل الشامل للمسألة اليهودية وعُرِّف هذا الحل بأنه « أن يترك اليهود أوربا » . وقد أفاض المتحدث وقال إنه يمكن أن يترك اليهود أوربا عن طريق وضعهم في معسكرات عمل في بولندا (حيث يتم إفقارهم) أو في مستعمرة . ولعل تجربتي جيتو وارسو وتيرس آينشتات (وغيرهما من التجارب) قد تمتا في هذا الإطار .

٨ ـ لوحظ أثناء محاكمات نورمبرج أن المدّعين الذين مثلوا الحلفاء كانوا يحاولون قصارى جهدهم أن يلووا عنق بعض الكلمات الألمانية ليترجموها بكلمة «إبادة» . فكلمة «أوسروتونج Ausrottung» على سبيل المثال ، والتي تعني «استئصال شأفة» شيء ما بأية طريقة فعلية أو مجازية تُرجمت إلى «إبادة» بمعنى «تصفية جسدية متعمدة» ، مع أن النازيين استخدموا في إحدى وثائقهم عبارة «استئصال شأفة المسيحية» ، ولم يُفسِّر أحد هذه العبارة باعتبارها مخططاً نازياً لإبادة المسيحيين .

٩ ـ ما تهمله كثير من الدراسات الغربية هو ما يمكن تسميته «الاختفاء» ، أي اختفاء أعداد كبيرة من اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط والموت بسبب الغازات والأوبئة أثناء الحرب .

لكل هذا فعبارة «الحل النهائي» تعني ما تقول دون زيادة أو نقصان ، ومن ثم فهي لا تعني بالضرورة «تصفية جسدية متعمدة» ، وقد تعني «تصفية من خلال التهجير وأعمال السخرة» .

معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة)

Concentration and Extermination Camps

أُقيمت معسكرات الاعتقال في ألمانيا عام ١٩٣٣ بعد استيلاء النازيين على الحكم ، فكان البوليس السري الألماني (جستابو) يقوم بالقبض على خصوم الحكومة النازية واحتجازهم في هذه المعسكرات . وحين عظم نفوذ الجستابو وأُعطي الحرية المطلقة في التصرف ، أصبحت عمليات القبض تتم على نطاق واسع ، فقُبض على جماعات بأكملها ثم أُرسلت إلى معسكرات الاعتقال . ولم تكن هذه العمليات موجهة ضد اليهود بالذات ، وإنما كان يُعتقل كل من يشكل خطراً على الدولة الجديدة بغض النظر عن دينه أو جنسيته . وقد وقعت أول حادثة موجهة ضد اليهود في نوفمبر ١٩٣٨ عندما وُضع عشرون ألف يهودي في هذه المعسكرات في داخاو وبوخنوالد . ومن معسكرات الاعتقال الشهيرة الأخرى ، معسكر برجن بلسن .

وقد أُقيمت ستة معسكرات للاعتقال والإبادة في بولندا ، وهذه المعسكرات هي :

١ ـ كلمنو (بالقرب من لودز) .

٢ ـ بلزك (بالقرب من لفوف ولوبلين) .

٣ ـ سوبيبور (بالقرب من لوبلين) .

٤ ـ مايدانيك (على حدود لوبلين) .

٥ ـ تربلينكا .

٦ - أوشفيتس ـ بيركناو ، وهو أشهرها جميعاً .

وقد أُرسل إلى هذه المعسكرات كثير من الضحايا اليهود والغجر والسلاف وغيرهم ، من كل أنحاء أوربا . ويُقال إن كل معسكر كان مزوداً بأدوات متنوعة للإبادة مثل فرق إطلاق النيران ، وأدشاش المياه التي تطلق الغاز ، والمحارق . ومع هذا يثير كثير من الباحثين الشكوك حول وجود أفران الغاز أصلاً وقد صدرت عدة دراسات موثقة في هذا الشأن .

كما تُثار الشكوك حول استخدام غاز زايكلون بي .Zyclon B في أفران الغاز . إذ تشير معظم الدراسات إلى أن استخدام مثل هذا الغاز يتطلب احتياطات فنية عالية ، مكلفة للغاية (يجب أن تكون الغرفة محكمة تماماً ـ لابد من تهويتها لمدة عشر ساعات بعد استخدامها ـ يجب أن تكون المفاصل مصنوعة من الإسبستوس أو التيفلون) . ومثل هذه الاحتياطات لم تكن متوفرة للألمان تحت ظروف الحرب ، وهو ما يعني استحالة استخدامه على نطاق واسع . وقد ورد كل هذا في تقرير ليوشتر Leuchter Report ، الذي كان يعمل مستشاراً لولاية ميسوري وكان متخصصاً في مثل هذه الأمور (ومما له دلالته أن كثيراً من حكومات الولايات المتحدة ، التي كانت تستخدم هذا الغاز في عمليات إعدام المجرمين ، قررت الاستغناء عنه ، بسبب تكلفته العالية) .

وثمة نظرية تذهب إلى أن غُرف الغاز الموجودة إنما كانت غُرف غاز لتعقيم الخارجين والداخلين إلى المعسكر . أما المقابر الجماعية فهي مقابر الآلاف الذين لقوا حتفهم بعد انتشار الأوبئة كالملاريا والتيفود ، وهو أمر مُتوقَّع في ظل ظروف الحرب وفقر الرعاية الصحية . ويرى أنصار هذه النظرية أن الإبادة لم تكن عملية منظمة مقصودة تمت دفعة واحدة ، وإنما تمت نتيجةً لعناصر مختلفة فرضت نفسها بسبب ظروف الحرب مثل سوء التغذية والأوبئة وغيرها ، وأن من أُبيدوا بطريقة منهجية منظمة أعداد صغيرة جداً ، وهي قضية خلافية . ويُقال إن كثيرين ممن أُبيدوا بطريقة منظمة لم تكن إبادتهم بدافع الحقد العنصري وإنما كانت جزءاً من محاربة النازيين للمرض وللتشوهات والانحرافات النفسية والخلقية . ولذا حينما كان يندلع وباء في أحد المعسكرات لم يكن النازيون يلجأون لمحاربته (فهذا أمر مكلف ، بخاصة في ظروف الحرب) وإنما كانوا يلجأون للتخلص من المرضى بطريقة عملية سريعة .

ولم تكن معسكرات الاعتقال مخصصة لليهود وحدهم وإنما كانت أداة من أدوات النظام النازي تُستخدَم لتحقيق أهدافه القومية ، بل إن عدد ضحاياها من غير اليهود يفوق عدد ضحاياها من اليهود . ومن المهم بمكان أن نضع معسكرات الاعتقال والإبادة في سياقها الحضاري والمعرفي العام . فمنذ بداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث أصبحت معسكرات الاعتقال والإبادة نمطاً متكرراً ، حيث تم نقل سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) إلى معسكرات اعتقال منعزلة كان يُطلَق على كل واحد منها اسم «ريزيرفيشن reservation» تمهيداً لإبادتهم بشكل مباشر أو غير مباشر . وكانت عملية النقل ذات طابع إبادي . وكان السود ، الذين يجري اصطيادهم في أفريقيا ونقلهم (ترانسفير) إلى أمريكا ، يتم وضعهم في معسكرات أيضاً ويسكنون في مساكن هي أقرب ما تكون إلى معسكرات السخرة . وفي الحرب العالمية الثانية ، وضعت الولايات المتحدة الغالبية الساحقة من المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات مماثلة . وفي جنوب أفريقيا قامت حكومة التفرقة اللونية (الأبارتهايد) البيضاء بوضع المواطنين الأصليين في معازل جماعية يُقال لها "البانتوستان" . وغني عن القول إن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عما يحدث في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ .

ولم تكن الإبادة مصير كل من يذهب إلى معسكرات الاعتقال، التي كانت أساساً معسكرات سخرة ، ولذا نجد أن العدد الأكبر كان يُستخدَم في أعمال السخرة . وقد أُسِّس بجوار أوشفيتس، على سبيل المثال ، ثلاثة مصانع كبرى لإنتاج بعض المواد اللازمة للعمليات العسكرية . وكانت الشركات الألمانية تستأجر المعتقلين عشر ساعات يومياً من العمل الشاق مقابل دولار واحد يومياً (وهو موقف كولونيالي تماماً) ، ونظراً لحرصها الشديد على الأيدي العاملة الرخيصة كانت توفر لهم بعض الأنشطة الترفيهية (ضمنها بيت دعارة) . كما اختير عدد من نزلاء المعسكرات لإجراء التجارب الطبية والعلمية عليهم .

وكانت المعسكرات تدار بطريقة تتسم بنوع من الإدارة الذاتية ، فكان يتم اختيار بعض العناصر من بين المساجين يشكلون نخبة داخل هذه المعسكرات، وتكون بمنزلة حلقة الوصل بين المساجين والألمان . ويُطلَق عليهم اسم «كابو»، وكان بعضهم من اليهود بطبيعة الحال .

وكان كثير من هؤلاء يحرصون على إظهار القسوة نحو المساجين حتى يحظوا برضا الألمان. ومن المعروف أن المساجين الألمان كانوا يُعاملون غالباً بقسوة تفوق ما يعامل به الآخرون لأنهم كانوا يُعتبَرون خونة.

واتسمت معسكرات الاعتقال بكفاءتها الشديدة وتحكُّمها الكامل في المادة البشرية التي كانت تُصنَّف بعناية وتُوظَّف على أحسن وجه. وقد حققت هذه المعسكرات عائداً كبيراً للاقتصاد الوطني الألماني. هذا، بخلاف التخلص من أعداد كبيرة من الأفراد الذين يشكلون عبئاً على ألمانيا، أي أن التجربة لا غبار عليها البتة إن نظرنا إليها من منظور نفعي مادي لا يكترث بالمطلقات. وبالطبع، يختلف الأمر تماماً إن نظرنا للقضية من المنظور غير المادي، أي من منظور قداسة الإنسان وحقوقه المطلقة.

أوشفيتس

Auschwitz

يُعَدُّ «أوشفيتس» أهم معسكرات الاعتقال. وكان يُقال دائماً إن عدد ضحايا أوشفيتس هو أربعة ملايين، منهم مليون ونصف مليون يهودي، والباقون غير يهود. والسند الأساسي لأسطورة إبادة هذه الملايين في أوشفيتس هي اعترافات رودولف هس أثناء محاكمات نورمبرج. وقد ثبت أن كثيراً من " أدلة " الاتهامات في محاكمات نورمبرج هي في معظمها اعترافات يدين خلالها المتهمون أنفسهم، بعد أن ظلوا في الأسر عامين أو يزيد تعرضوا فيها للتعذيب والامتهان. وقد استُبعد عدد كبير من الوثائق والشهادات التي كان من شأنها تحطيم الأساطير التي حاول الحلفاء نسجها. وهناك من البحوث ما يشير إلى أن العدد الإجمالي لا يمكن أن يزيد على ١,٦ مليون، وأنهم قضوا حتفهم لا من خلال أفران الغاز وإنما بسبب الجوع والمرض، والموت أثناء التعذيب، والانتحار. وفي عام ١٩٩٤ تم تغيير اللافتة الموضوعة على المعسكر، فبعد أن كانت اللافتة القديمة تتحدث عن مقتل أربعة ملايين رجل وامرأة وطفل أصبحت اللافتة الجديدة تتحدث عن مليون ونصف فقط.

وقد أصبح معسكر أوشفيتس (في الخطاب السياسي والحضاري الغربي) رمزاً ودالاً على عدة مدلولات. فهو رمز مباشر على الإبادة النازية لليهود (بمعنى التصفية الجسدية المتعمدة)، أي أنه الجزء الذي يتبدَّى الكل من خلاله. كما أصبح معسكر أوشفيتس دالاً يشير إلى كل جرائم الإبادة التي تتم بشكل منهجي لا شخصي بيروقراطي (ولكن الصهاينة يرفضون استخدام الاسم على هذا النحو حتى يحتفظ معسكر أوشفيتس بقداسته اليهودية). ويقول تيودور أدورنو (أحد مفكري مدرسة فرانكفورت): "لا شعر بعد أوشفيتس"، أي لا يمكن لأي إنسان أن يقرض الشعر بعد أن كشفت الإنسانية عن وجهها القبيح في أوشفيتس. وفي هذا تلاعب بمستويات التعميم والتخصيص، ولعله كان من الأجدر بأدورنو أن يتحدث عن حضارة العقلانية المادية، بدلاً من الحديث العام، العائم الغائم، عن الإنسانية جمعاء. وهذا ما فعله فاكيلاف هافيل، المؤلف المسرحي ورئيس جمهورية التشيك، حينما تحدث عن كبرياء العقل المادي الحديث وغروره الذي يطور مخططات علمية مجردة يحاول فرضها على الحياة الإنسانية (بكل ما تحويه من أسرار لا يسبر لها غور) ويفرض عليها التجانس والتنميط وينتهي به الأمر إلى اختزالها وتدميرها. ثم قال: "وماذا يكون معسكر الاعتقال سوى محاولة من جانب دعاة اليوتوبيا [التكنولوجيا البيروقراطية] أن يتخلصوا من العناصر غير الملائمة [للمخطط التكنولوجي]؟".

أما في التفكير الديني (المسيحي واليهودي) في الغرب، فقد أصبح معسكر أوشفيتس رمزاً للعالم المادي الذي لا معنى له والذي لا هدف له ولا غاية، فهو عالم انسحب منه الإله، ولذا يُقال «لاهوت ما بعد أوشفيتس» بمعنى «لاهوت موت الإله». ويذهب البعض إلى أن معسكر أوشفيتس أصبح مدلولاً (متجاوزاً) لا يمكن لأي دال أن يدل عليه. فالتجربة اليهودية في أوشفيتس لا يمكن فهمها أو تفسيرها وإنما يمكن تجربتها وحسب. ومن لم يعش التجربة لن يفهم ما حدث، ومن ثم فإن كلمة «أوشفيتس» بمثابة الأيقونة حيث يلتحم الدال بالمدلول وتختفي المساحة بينهما، وتصبح الأيقونة (الرمز) هي نفسها ما ترمز إليه. إن أوشفيتس تتجاوز اللغة الإنسانية ولذا "لا شعر بعد أوشفيتس".

وفي استخدام مغاير تماماً للكلمة صرح ناحوم جولدمان بأن إسرائيل هي كارثة تاريخية كبرى، تفوق ما حدث في أوشفيتس، ومن ثم تحل الدولة الصهيونية محل أوشفيتس باعتبارها أكبر كارثة حاقت بالجماعات اليهودية في العالم.

وقد أصبح معسكر أوشفيتس موضع جدل كبير في الوقت الحالي فقد أُقيم دير للراهبات الكرمليات في بقعة أباد فيها الألمان كثيراً من البولنديين اليهود وغير اليهود، على أن تُقام الصلوات يومياً من أجل الجميع. ولكن بعض القيادات اليهودية في الولايات المتحدة أصرت على ضرورة أن يُزال هذا الدير حتى نظل أوشفيتس رمزاً يهودياً. وقد أذعنت القيادة الكاثوليكية في نهاية الأمر لهذا المطلب.

ستة ملايين يهودي: عدد ضحايا الإبادة النازية ليهود أوربا؟

Six Milion Jews : Number of European Jewish Victims of Nazi Extermination?

يرد في وسائل الإعلام الغربية رقم «ستة ملايين» باعتباره عدد ضحايا الإبادة النازية لليهود . وقد استقر الرقم تماماً حتى أصبح من البدهيات ، ولكن هناك رفضاً مبدئياً للرقم في الأوساط العلمية اليهودية وغير اليهودية . فعلى سبيل المثال قام راؤول هيلبرج في كتابه **تدمير يهود أوربا** (١٩٨٥) بتخفيض العدد من ستة إلى خمسة ملايين (بعد دراسة إحصائية مستفيضة للموضوع) . وذكر سيسيل روث ، في موسوعته اليهودية ، أن الهولوكوست نُفذ بطريقة يصعب معها التحقق من دقة الأرقام ، وأن العدد يتراوح بين أربعة ملايين ونصف المليون وستة ملايين يهودي . ويميل المؤرخ الأمريكي اليهودي(صهيوني النزعة) هوارد ساخار إلى الأخذ برقم أربعة ملايين ونصف مليون . وهناك من الأدلة الإحصائية ما يرجح الأخذ برأي ساخار ، فالكتاب السنوي **وولد ألمانك** لعام ١٩٣٩ يقدر يهود العالم آنذاك بنحو ١٥,٦ مليون . وفي عام ١٩٥٠ ، قُدِّر عددهم بنحو ١٦,٦ مليوناً ، في حين قدرته صحيفة **نيويورك تايمز** عام ١٩٤٨ بما بين ١٥,٧ و١٨,٦ مليون ، وهناك تقديرات تذهب إلى أن عددهم أقل من ذلك ، وقد يصل إلى ما بين ١٣ و١٤ مليوناً . وفي جميع الحالات ، لا يمكن أن يزيد عدد من اختفوا على أربعة ملايين . ومؤخراً ، ذكر المؤرخ الإسرائيلي يهودا باور ، مدير قسم دراسات الهولوكوست في معهد دراسات اليهود في العصر الحديث التابع للجامعة العبرية ، أن الرقم ستة ملايين لا أساس له من الصحة ، وأن الرقم الحقيقي أقل من ذلك . وبيَّنت بحوث المؤرخ الفرنسي جورج ويلير G. Wellers أن العدد الإجمالي لمن أُبيدوا في أوشفيتس من اليهود وغير اليهود ليس أربعة ملايين وإنما هو ١,٦ مليون وحسب ، وأن هؤلاء لم يقضوا حتفهم من خلال أفران الغاز وحسب وإنما أيضاً بسبب الجوع والمرض والموت أثناء التعذيب والانتحار . ومما يجدر ذكره أن من يتبنون رقم ستة ملايين وغيره من الأرقام لا يشيرون من قريب أو بعيد إلى ظاهرة اختفاء اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط وسوء التغذية والغازات والأوبئة (التي تتزايد بسبب ظروف الحرب) .

وبغض النظر عن الرقم مليون أو الأربعة أو الستة ملايين ، فإن ثمة خللاً أساسياً في المنطق الصهيوني يمكن تلخيص بعض جوانبه فيما يلي :

١ ـ التركيز على اليهود بالذات دون الجماعات الأخرى . فمع أن اليهود عانوا ، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من ضحايا النازية ، إلا أن سياسة هتلر في الإبادة كانت موجهة أيضاً نحو الغجر والكاثوليك والمعارضين السياسيين والمرضى والمتخلفين عقلياً والسلاف عامة والبولنديين والروس على وجه الخصوص . وقد بلغ عدد ضحايا الحرب ما بين خمسة وثلاثين مليوناً وخمسين مليون ، وخسر الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ما بين سبعة عشر وعشرين مليوناً بين مدنيين وعسكريين ، وخسر البولنديون نحو خمسة ملايين بعضهم من اليهود . وخسر الصينيون ما يزيد على عشرة ملايين ماتوا جوعاً أو قتلاً على يد الاحتلال الياباني .

٢ ـ التركيز على المدنيين دون العسكريين . ومع ذلك ، فإنه من بين العشرين مليون سوفيتي الذين قُتلوا في الحرب ، كان هناك أربعة ملايين ونصف مليون مدني والباقون من العسكريين ، ناهيك عن عدة ملايين من الألمان أرسلهم هتلر للموت في ساحة القتال . كما كان هناك كثيرون من جنود الحلفاء ضمن من قُتلوا في الحرب . ويجب ألا ننسى الجنود من الأفارقة والآسيويين الذين جُنِّدوا ، رغم أنفهم ، ليشتركوا في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، حيث كانوا يوضعون في الصفوف الأمامية باعتبارهم مادة بشرية رخيصة .

٣ ـ التركيز على الماضي دون الحاضر ، وعلى ملايين اليهود الذين هلكوا قبل نحو نصف قرن ، دون اهتمام مماثل بالملايين التي أُبيدت بعد ذلك . فقد فقدت كمبوتشيا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية نحو مليوني شخص ، وفقَدت الجزائر أكثر من مليون شخص ، وفقدت أفغانستان منذ الغزو السوفيتي عام ١٩٧٨ نحو مليون قتيل ، فضلاً عن مليوني مهاجر داخل البلد وخمسة ملايين مهاجر إلى خارجها حتى صاروا يمثلون نصف مجموع اللاجئين في العالم .

٤ ـ وهناك ، بطبيعة الحال ، مشكلة ملايين الفلسطينيين الذين طُردوا من ديارهم والذين يخضعون لظروف إرهابية شبه دائمة .

لكن التشكيك في مدى دقة الرقم (الستة ملايين) لا يعني بحال من الأحوال التشكيك في الجريمة النازية ذاتها ، فالجريمة النازية هي إحدى جرائم الحضارة الغربية الحديثة العديدة التي لا يمكن التهوين من شأنها . وما نهدف أساساً إليه من خلال مناقشة هذه الإشكالية هو تصحيح الرقم ووضع الظاهرة في سياق إنساني عام ومنظور تاريخي شامل ، بحيث نُحدِّد هويتها باعتبارها جريمة غربية محددة ضد قطاعات بشرية عديدة بدلاً من أن تكون جريمة ألمانية ضيقة أو جريمة عالمية غير محدَّدة ضد اليهود كلهم ، وضد اليهود دون سواهم . ونحن بهذا ننقذ واقعة الإبادة من سخافات الإعلام الغربي والصهيوني ، ولعبة الأرقام الطفولية التي تخبئ الأبعاد التاريخية والأخلاقية والإنسانية العامة للواقعة .

اختفاء وموت الشعب اليهودي بعد الحرب العالمية الأولى
Disappearance and Death of the Jewish People after the First World War

يروج المدافعون عن الرؤية الصهيونية للإبادة النازية لرقم ستة ملايين ، كجزء من عملية الأيقنة وتحويل الإبادة إلى لغز من الألغاز وسر من الأسرار المقدَّسة . وقد أهمل هؤلاء تماماً بعض العناصر التي أدَّت إلى اختفاء اليهود من خلال عناصر طبيعية مختلفة سنتناولها في هذا القسم .

فمن المعروف أن الفترة ما بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٢ شهدت تَناقُص عدد يهود العالم مليوناً ، فانخفض من ١٣,٨٣٧,٥٠٠ إلى ١٢,٩٨٨,٦٠٠ ، دون حدوث إبادة بل دون حالة حرب أو أوبئة . وقد تناقص عددهم لمركب من الأسباب أدَّى إلى ما يُسمَّى «موت الشعب اليهودي» . ومن الواضح أن يهود أوربا ، أي أغلبية يهود العالم آنذاك ، بدأوا يدخلون في مرحلة التناقص ابتداءً من القرن العشرين ، للأسباب التالية :

١ ـ أسباب تؤدي إلى العزوف عن الإنجاب وإلى تناقص الخصوبة ومعدلات التكاثر :

أ) أدَّت الهجرة اليهودية الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر إلى انتقال أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ويُقال إن هجرة اليهود قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية من عشرين إلى أربعين عاماً ، وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل بإمكان الجماعة أن تُعيد إنتاج نفسها .

ب) كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة ، أي بأعمال التجارة والمال . وكانوا ، لهذا ، مركزين إما في المدن أو المناطق شبه الحضرية . ومع منتصف القرن التاسع عشر ، تصاعد هذا الاتجاه وتزايد تركزهم في المدن بحيث أصبحت أغلبيتهم الساحقة تسكن في المدن عشية الحرب العالمية الثانية ، فقد كان ثلث يهود روسيا يوجدون في خمس مدن وبقيتهم تعيش في مدن صغيرة . وكان أربعة وثمانون في المائة من يهود الولايات المتحدة يعيشون في ثماني عشرة مدينة كبيرة ونصفهم في نيويورك . كما كان معظم يهود النمسا في فيينا ، ومعظم يهود فرنسا في باريس ، وهكذا . ومن المعروف أن سكان المدن من أقل القطاعات البشرية خصوبة .

جـ) كان اليهود ، حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، جماعة بشرية مهاجرة ، ومن المعروف أن أعضاء مثل هذه الجماعات يعزفون عن الإنجاب لعدم استقرارهم .

د) كانت هناك عناصر أخرى أدَّت إلى عزوف اليهود عن الإنجاب ، من بينها تحسن مستواهم المعيشي ، والقلق الذي كان يعيشه أعضاء الجماعات اليهودية في الفترة بين الحربين وإبَّان الحرب العالمية الثانية ، وكذلك تزايد معدلات العلمنة وبالتالي زيادة التوجه نحو اللذة وتحقيق الذات ، الأمر الذي يقوض من الرغبة في إنجاب الأطفال .

وبالفعل ، يُلاحَظ تناقص أعداد اليهود وضمنهم يهود اليديشية . فبعد أن كانوا يتمتعون بأعلى نسبة خصوبة وتكاثُر بين شعوب الإمبراطورية القيصرية في منتصف القرن التاسع عشر ، انخفضت النسبة إلى أقل النسب على الإطلاق في عام ١٩٢٦ . فبعد أن كانت ٣٥,٩ في الألف ، انخفضت إلى ٢٤,٨ في الألف . وفي بولندا ، انخفضت النسبة من ٢٨,٦ في الألف عام ١٩٠٠ إلى ١٢,٣ في الألف عام ١٩٢٥ في وارسو ، وإلى ١١,٦ في الألف في لودز عام ١٩٢٥ . أما يهود المجر ، فقد انخفضت النسبة بينهم من ٣٣,٩١ في الألف في بداية القرن الحالي إلى ١٠,٥ في الألف ، أي أنها انخفضت نحو ٢٣,٤ في الألف . وكانت نسبة المواليد في بروسيا (ألمانيا) ٥,٢ في الألف عام ١٩٣٥ و٢ في الألف في لندن عام ١٩٣٢ . وقد حدا هذا الوضع بالكُتَّاب اليهود إلى التحذير من أن يهود أوربا قد يختفون تماماً لأن معدلات المواليد لا تعوض الوفيات . وعلى مستوى العالم ، كانت النسبة ٣٥,٥ في الألف في الفترة ١٨٢٢ ـ ١٨٤٠ ، انخفضت إلى ١٩,٧ في الألف في الفترة ١٨٩٨ ـ ١٩٠٢ ، ثم إلى ٩,١ في الألف عام ١٩٢٩ . كما أنها انخفضت إلى ما دون ذلك لمدة عشرين عاماً (١٩٢٩ ـ ١٩٤٩) . وكان معدل نسبة المواليد في الفترة ١٩٠٦ ـ ١٩١٠ هو ٣٢ في الألف، ونسبة الوفيات ١٥ في الألف ، والزيادة الطبيعية هي ١٧ في الألف . ثم انخفضت إلى نحو النصف في نحو خمسة وعشرين عاماً ، ففي الفترة ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد هي ٢١ في الألف والوفيات ١٢ في الألف ، والزيادة الطبيعية ٩ في الألف (انخفضت إلى ٨ في الألف عام ١٩٣٢) . ولا توجد إحصاءات عن الفترة ١٩٣٥ ـ ١٩٤٩ لأنها كانت فترة الحرب ، كما أنها أصبحت موضوعاً يحجم كثير من الباحثين عن الخوض فيه .

٢ ـ عوامل تؤدي إلى الاختفاء :

أ) ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر كان يتم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية ، وهو أمر جديد كل الجدة ، إذ كانوا يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية قبل ذلك ، كما سقط منهم ضحايا بأعداد كبيرة في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية . لكن هذا العنصر لا يؤدي إلى انقاص عدد اليهود مباشرة عن طريق

سقوطهم قتلى وحسب وإنما بشكل غير مباشر أيضاً عن طريق زيادة معدل العزوف عن الإنجاب . كما أن العناصر القادرة على القتال هي عادةً من الذكور في سن الخصوبة .

ب) تزايد نسبة الزواج المُختلَط بدرجة عالية كانت تصل إلى أكثر من ٥٠٪ في بعض العواصم الأوربية .

جـ) تَنَصُّر أعداد كبيرة من اليهود، وهو شكل من الأشكال الحادة للاندماج . وقد تزايد المعدل عشية الحرب العالمية الثانية لأسباب عملية منها الهرب من بطش النازي . كما حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتيسر لهم دخول أمريكا اللاتينية . وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر .

د) ينطبق الشيء نفسه على مئات الألوف من الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازي. فكثير منهم لم يفصح عن انتمائه اليهودي، خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان يترك لكل شخص أن يحدد انتماءه ، فلو كان الشخص يهودياً وعرَّف نفسه بأنه «روسي» أو «أوكراني» فإن الأمر متروك له . ومع تآكل الهوية اليهودية ،لم يعد هناك دافع قوي لدى كثير من اليهود للإفصاح عن هويتهم .

وقد أشار عالم الاجتماع اليهودي لوريا أنجلمان ، عشية الحرب العالمية الثانية ، إلى ما سماه «العملية ذات الأبعاد الثلاثة» (تناقص المواليد، وتزايد الوفيات ، وتزايد معدلات الاندماج) باعتبارها العملية التي ستؤدي إلى الاختفاء الكامل لليهود .

٣ـ ظروف الحرب العالمية الثانية :

لابد أن نضيف إلى كل ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التي صعَّدت من كل العناصر السابقة وزادتها حدة ، ولابد أن نأخذ في الاعتبار انتشار الأوبئة وسوء التغذية في نفس الفترة . كما ينبغي الإشارة إلى بعض طرق الإبادة البطيئة غير أفران الغاز ، مثل أعمال السخرة وعزل اليهود في الجيتو بمناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف ، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض . ويُقال إن نحو ثلث سكان جيتو وارسو قضوا نحبهم بهذه الطريقة ، وإنه كان من المتوقع لهم جميعاً أن يُبادوا تماماً خلال عدة أعوام . (وهذا العنصر هو ولا شك عملية إبادة ، إذ لا يهم أن يموت الضحية بأفران الغاز أو عن طريق التجويع . ولكننا نذكر هذا العنصر أيضاً حتى تكتمل الصورة لدينا) . كما هلك الآلاف بسبب حالة الحرب ابتداءً من عدم توفر الرعاية الصحية ، وانتهاءً بالغارات على المدن ، مروراً بأحكام الإعدام التي كان النازيون يصدرونها على اليهود وغيرهم .

وإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه العناصر يصبح من الصعب أن نعزو اختفاء الستة ملايين يهودي (أو حتى الأربعة ملايين حسب بعض الإحصاءات) إلى أفران الغاز وحدها أو عمليات الإبادة كتصفية جسدية متعمدة فحسب .

إشكالية ملاحقة مجرمي الحرب النازيين

The Problematic of Hunting down Nazi War Criminals

تقوم إسرائيل بتعقب مجرمي الحرب النازيين بروح انتقامية مفترسة لا يمكن أن توصف إلا بالتطرف ، خصوصاً أن الحرب انتهت منذ حوالي خمسين عاماً ، أي أن الغالبية الساحقة للشعب الألماني كانوا أطفالاً أثناء الحرب أو لم يكونوا قد وُلدوا بعد . كما أن المحاكمات التي أجراها الحلفاء ، والتي تمت بمنهجية وشمولية كاملتين ، عاقبت الغالبية الساحقة من مجرمي الحرب النازيين والمتعاونين مع النظام النازي . ومع هذا تستمر عمليات الملاحقة والمحاكمة (كما حدث مع أدولف أيخمان وكلاوس باربي وكورت فالدهايم وجون ديمانجوك) .

وتهدف المطاردة المستمرة لمجرمي الحرب النازيين إلى تعميق الإحساس الغربي بالذنب تجاه اليهود وتذكير الشعب الألماني ، والشعوب التي قاتلت إلى جانب ألمانيا ، بمسئوليتها عن هذه الإبادة وإظهار الإبادة كما لو كانت موجهة ضد اليهود وحسب ، وتوظيف هذا الشعور في إضفاء شرعية على الوجود الصهيوني في فلسطين . كما تأتي في سياق السعي إلى تعميق إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بهويتهم اليهودية وبالمصير اليهودي المشترك ، خصوصاً مع تزايد معدلات الاندماج وتآكل الجانب الديني للهوية اليهودية بين أعضاء الجماعات اليهودية في الدول الأوربية والغربية الحديثة . ومن هنا تأتي ضرورة إحياء ذكرى الإبادة بصفة مستمرة عن طريق عمليات المطاردة للنازيين القدامى وتقديمهم إلى المحاكمة في ظل متابعة إعلامية كثيفة . بالإضافة إلى أن التذكير والتلويح بخطر الإبادة قد يدفع أعضاء الجماعات اليهودية إلى الهجرة إلى إسرائيل .

وقد نجحت إسرائيل عام ١٩٧٩ في إلغاء مبدأ تقادم جرائم مجرمي الحرب في ألمانيا الغربية ، ولكنها اعتقلت آلافاً منهم مع أن نسبة إداناتهم في النهاية كانت تتراوح بين تسعة في المائة عام ١٩٦٤ وواحد ونصف في المائة عام ١٩٧٦ . ففي عام ١٩٧٢ ، مثلاً ، اعتُقل ستة عشر شخصاً بشبهة أنهم مارتن بورمان (نائب هتلر) ، ثم ثبتت براءتهم جميعاً . وتحت الضغط اليومي المكثف ، أنشأت وزارة

العدل الأمريكية عام ١٩٨٠ مكتباً للتحقيق مع مئات الأمريكيين من مجرمي الحرب ، ولكنها لم تُوفَّق كثيراً في التوصل إليهم .

وفي كندا ، صرح كثير من الصهاينة بوجود ما لا يقل عن ستة آلاف من مجرمي الحرب ، فأُسِّست في أوائل عام ١٩٨٥ لجنة للبحث عن مجرمي الحرب (لجنة ديشين Deschênes Commission) وقُدِّم لها ٢١١٤ اسماً . كما قدَّم سيمون ويزنتال ، المتخصص في تعقب مجرمي الحرب ، قائمة من ٢١٧ اسماً زعم أنهم أعضاء في فرق الإس . إس . من أوكرانيا وعملوا في جاليشيا . وقد استغرق عمل اللجنة سنتين ثم قدمت تقريرها في ديسمبر ١٩٨٦ ، وتبين أن هناك عشرين اسماً فقط ، من بين ٢١١٤ اسماً ، أوصت اللجنة إما بمحاكمتهم أو بترحيلهم . أما قائمة ويزنتال ، فقد ظهر أن ١٨٧ منهم لم يدخلوا كندا قط . ومن الثلاثين الباقين ، حضر اثنان بالفعل إلى كندا ثم غادراها ، ومات أحد عشر شخصاً ، بينما كان هناك ستة عشر شخصاً لم يثبت أي شيء ضدهم . أما المتهم الوحيد الباقي ، فلم يمكن الاستدلال عليه . وقد طلبت اللجنة من ويزنتال أن يزودها بمزيد من الأسماء ، ولكنه لم يتمكن من ذلك . وهو أمر متوقع بعد أن قام الحلفاء بعملية « نزع الصبغة النازية عن ألمانيا » .

وقد بدأ كثيرون يُعبِّرون عن ضيقهم من عملية الملاحقة . فقد ذكرت صحيفة **التايمز** البريطانية في عام ١٩٧٢ أن ثمة دلائل متزايدة على أن الرأي العام صار ضد تعقب الشيوخ بدعوى أنهم مجرمون نازيون . وأشارت جريدة **ديلي تلغراف** البريطانية إلى أن حراس السجون والكثير من الناس في ألمانيا نفسها يتساءلون عن الحكمة في استمرار محاكمات جرائم النازية بعد مرور كل هذه السنوات على انتهاء الحرب . وعندما زار الكاتب الألماني جونتر جراس إسرائيل عام ١٩٧١ صارح شعبها بأنه لا يحب عقلية التوراة التي تقول إن على الجيلين الثاني والثالث أن يحملا وزر جيل سبقهما .

وتُعدُّ محاكمة أيخمان وكلاوس باربي وديمانجوك وحادثة فالدهايم نموذجاً لعمليات الملاحقة التي تقوم بها إسرائيل ، بكل ما تنطوي عليه من دلالات .

محاكمة أيخمان

Eichmann Trial

أدولف أتو أيخمان (١٩٠٦ ـ ١٩٦٢) مسئول نازي وضابط في فرق العاصفة ، ومن أهم الشخصيات في عملية الإبادة النازية ليهود أوربا . وُلد في ألمانيا لأسرة متواضعة هاجرت إلى النمسا حيث تلقى تعليمه . عمل بائعاً متجولاً ممثلاً لشركة سوكوني فاكوم من عام ١٩٢٨ وحتى ١٩٣٣ . انضم أيخمان للحزب النازي في عام ١٩٣٢ ، وبدأ منذ عام ١٩٣٤ يعمل في قسم اليهود بالمخابرات الألمانية ، حيث أُرسل إلى فلسطين بدعوة من المستوطنين الصهاينة ليدرس التجربة الصهيونية هناك . فبدأ يدرس اليديشية والعبرية والعقيدة اليهودية ، وبحلول عام ١٩٣٨ أصبح حجة في مسألة التنظيمات الصهيونية والهجرة اليهودية ، فأرسله النظام النازي إلى النمسا ليساعد في عملية تهجير أعضاء الجماعة اليهودية . وقد أظهر أيخمان كفاءة غير عادية إذ استخدم أسلوب خطوط التجميع ، المستخدم في المصانع ، لتسهيل العمل . وبعد عودته إلى برلين عام ١٩٣٩ ، عُيِّن مديراً لمركز الرايخ للهجرة اليهودية ، ثم عُيِّن فيما بعد رئيساً لقسم الشئون اليهودية في الجستابو حيث قام بالإشراف على عملية نقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال .

قُبض على أيخمان بعد الحرب ، ولكن لم تُكتشف هويته الحقيقية ، ففر إلى الأرجنتين عام ١٩٤٥ واختبأ فيها إلى أن عثر عليه عملاء المخابرات الإسرائيلية عام ١٩٦٠ . وساهم في عملية اكتشاف شخصية أيخمان في الأرجنتين المدعي العام في ألمانيا الغربية ، الذي وضع المعلومات التي حصل عليها تحت تصرف المخابرات الإسرائيلية ، فأوفدت إسرائيل مجموعة من رجال مخابراتها إلى بيونس أيريس حيث تحققت من شخصية أيخمان ، وتم اختطافه ونقله بعد عشرة أيام مخدَّراً متخفياً في زي مضيف جوي على متن طائرة إسرائيلية كانت قد جاءت إلى الأرجنتين تحت ستار نقل وفد إسرائيلي رسمي للاشتراك في احتفال الأرجنتين بالذكرى المائة والخمسين لاستقلالها .

وبدأت محاكمة أيخمان في ١١ أبريل عام ١٩٦١ بالقدس المحتلة ، حيث وجه إليه المدعي العام الإسرائيلي جدعون هاوزنر تهمة المشاركة في إبادة يهود أوربا ، وتولى الدكتور روبرت سرفاتيوس ، الذي تخصص في الدفاع عن مجرمي الحرب النازيين ، مهمة الدفاع عن أيخمان .

ولم يُنكر أيخمان أو محاميه أياً من الاتهامات الموجهة إليه ، ولكنهما ركزا دفاعهما أساساً على أن أيخمان لم يكن سوى موظف في مؤسسة حديثة ضخمة يقوم بتنفيذ الأوامر التي يصدرها إليه رؤساؤه كما كان يُفترض فيه أن يفعل ، ولذا فهو مجرد بيروقراطي منفذ للإجراءات دون أن يسأل عن الأهداف ، وبالتالي يجب أن يُحاكم على مدى كفاءته أو عدم كفاءته في تنفيذ الأوامر لا على مدى تقييمه الأخلاقي لهذه الأهداف ، أي أن أيخمان طالب بأن يُنظر إليه

باعتباره إنساناً حديثاً أداتياً يهتم بالإجراءات ويدين بالولاء للمؤسسة التي يعمل فيها ولا يكترث بالقضايا الأخلاقية النهائية . ولكن المحكمة رفضت دفعه ، وحكمت عليه بالإعدام .

وكان بن جوريون ، رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك ، يهدف من وراء المحاكمة إلى زيادة الوعي اليهودي بين أعضاء التجمع الاستيطاني وأعضاء الجماعات اليهودية في العالم عن طريق تعميق الإحساس بأنهم الضحية الوحيدة وأن الآخرين أو الأغيار (ممثلين في النازيين) لا تأخذهم الرحمة باليهود . ومع هذا ، فجرت المحاكمة عدة قضايا لم يكن من أعدوا لها قد انتبهوا إليها :

١ ـ بيَّن أيخمان أن الرؤية الصهيونية لليهود لا تختلف كثيراً عن رؤيته هو ، فكلاهما يؤمن بضرورة تهجير اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً منبوذاً إلى أرض خاصة بهم ، كما أشار أيخمان إلى أن المسئولين طلبوا منه ، عند تعيينه في وظيفته ، أن يقرأ كتاب هرتزل **دولة اليهود** ، وأنه تأثر به أيما تأثر ، وأنه ، في هذا ، لا يختلف كثيراً عن الزعماء النازيين الذين تأثروا بالفكر الصهيوني وخصوصاً بوبر .

٢ ـ أشار أيخمان إلى التعاون بين السلطات النازية والصهاينة ، خصوصاً رودولف كاستنر وجويل براند ، وأوضح أنه كانت هناك صفقة هُجِّر بموجبها بضعة يهود « من خيرة العناصر البيولوجية » إلى المستوطَن الصهيوني . كما أُرسلت كميات من البضائع إلى هناك في نظير أن تضمن القيادات الصهيونية هدوء اليهود المرحلين إلى معسكرات الاعتقال .

٣ ـ أثار سلوك الضحايا اليهود كثيراً من الدهشة ، حيث لاقوا حتفهم دون مقاومة ، ولعلهم لو قاوموا لعطلوا آلة الحرب النازية التي كانت مرهَقة . وقد نظر الجيل الجديد من أبناء المستوطن الصهيوني إلى سلوكهم هذا باعتباره سلوكاً نموذجياً ليهودي الجيتو الضعيف (مقابل العبراني الجديد القوي) ، وبالتالي نجم عن المحاكمة مزيد من الرفض ليهود العالم .

٤ ـ أثناء تقديمه لعريضة الاتهام ، بيَّن المدعي العام الإسرائيلي أن الشعب اليهودي تعرض للاضطهاد والطرد والملاحقة في كل البلاد عبر التاريخ . وهنا تلقف محامي الدفاع هذه الأطروحة وتساءل : ما هي طبيعة هذا الشعب الذي يجد نفسه عُرضة للطرد والملاحقة أينما كان ؟ ألا يوجد احتمال أن يكون هذا الشعب مسئولاً عما يلحق به من أذى ، وأنه شعب مستفز يضطر كل الشعوب في كل زمان ومكان لطرده وملاحقته ؟ وقد أُصيب الحاضرون بالذهول من تساؤلات محامي الدفاع .

كما أثارت المحاكمة قضايا أخرى مختلفة مثل دور المجالس اليهودية التي شكلها النازيون وعينوا فيها يهوداً ، فكانوا أداة تنفيذية في يد النازي ، بالإضافة إلى أسئلة أخرى حول دور كثير من الحاخامات الذين لم يشاركوا في تنظيم حركة المقاومة .

وقد كانت المحاكمة محط اهتمام دولي ، وخصوصاً أن الدولة الصهيونية انتهكت القانون الدولي وسيادة عدة دول (الأرجنتين وألمانيا) باختطاف أيخمان الذي حُكم عليه بالإعدام ، ثم أُعدم شنقاً في سجن الرملة وأُحرقت جثته ونُثر رمادها في البحر الأبيض المتوسط .

محاكمة كلاوس باربي
Klaus Barbie Trial

كلاوس باربي ، الذي أُطلق عليه لقب «سفاح ليون» ، هو أحد ضباط الجستابو (البوليس السري الألماني) . وأُدين بارتكاب جرائم الحرب في فرنسا إبَّان الحرب العالمية الثانية . وكان باربي قد تولى عام ١٩٤٢ قيادة قوات الجستابو في مدينة ليون الفرنسية ، كما تولى مهمة تعقب عناصر المقاومة الفرنسية والتصدي لنشاطها . وخلال فترة عمله التي استمرت عامين ، قام باربي بترحيل ٨٤٢ شخصاً من ليون إلى معسكرات الاعتقال النازية ، كان نصفهم من عناصر المقاومة والنصف الآخر من اليهود . كما أُدين كلاوس باربي بارتكاب عمليات التعذيب والمذابح ضد عناصر المقاومة والمدنيين في ليون والمناطق المحيطة بها .

ورغم ذلك ، قامت الاستخبارات المضادة التابعة للجيش الأمريكي المتمركز في ألمانيا بتجنيد باربي للعمل لصالحها عام ١٩٤٧ ، فتحول باربي إلى مصدر مهم وقيم للمعلومات (خصوصاً فيما يتعلق بالعناصر اليسارية والشيوعية) ، وهو ما دفع المسئولين الأمريكيين إلى عدم الاستجابة للمطالب الفرنسية بتسليمه للسلطات الفرنسية . بل قاموا بتهريبه إلى بوليفيا عام ١٩٥١ حيث عاش تحت اسم مستعار هو كلاوس ألتمان . وقد قُدِّم باربي للمحاكمة غيابياً في فرنسا في ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤ حيث أدين بارتكاب المذابح والفظائع وصدر ضده حكم بالإعدام . وفي عام ١٩٧١ ، نجح فرنسيان من جماعة صائدي النازيين من العثور عليه . وأثمرت مساعي فرنسا عن طرده من بوليفيا عام ١٩٨٣ ، ثم تقديمه للمحاكمة في فرنسا عام ١٩٨٧ بتهمتين لم يتم توجيههما إليه من قبل ، وصدر ضده حكم بالسجن مدى الحياة .

غير أن محاكمته أثارت اهتماماً واسعاً داخل فرنسا وخارجها ، حيث تخوَّف بعض أعضاء الجماعة اليهودية من أن ذلك قد يثير

المشـاعر المعادية لهم أو قد تتحول المحاكمـة إلى منبر لنفي الإبادة النازية . ومن ناحية أخرى ، انتقد بعض الفرنسيين المحاكمة باعتبار أن الأعمال التي ارتكبها باربي لا تختلف كثيراً عما ارتكبته قوات الحلفاء حين قتلت المدنيين العزل أثناء قصفها للمدن الألمانية .

حادثة فالدهايم

Waldheim Affair

أثناء حملته الانتخابية لرئاسة النمسا عام ١٩٨٦ ، أثيرت ضد كورت فالدهايم (الأمين العام السابق للأمم المتحدة) قضية ما يُسمَّى «ماضيه النازي» . وقد تزعَّم الحملة ضده المؤتمر اليهودي العالمي الذي اتهم فالدهايم بإخفاء جوانب من ماضيه أثناء الحرب العالمية الثانية وبالكذب حين ادعى عدم ارتباطه بالنازي بأي شكل من الأشكال ، مؤكداً أنه كان عضواً في اتحاد الطلبة النازي ، وأنه التحق (على حد زعم المؤتمر) بإحدى وحدات قوات العاصفة ، بل أُلحق في نهاية عام ١٩٤٢ بالقوات الألمانية في سالونيكا والتي تولَّت ترحيل اليهود من اليونان إلى معسكرات الاعتقال وقامت بعمليات عسكرية وحشية ضد المقاومة اليوغسلافية ومؤيديها من المدنيين . وفي إطار حملته المكثفة ضد فالدهايم ، كشف المؤتمر اليهودي العالمي النقاب عن بعض الوثائق التي ادعى أنها تؤكد إدانة فالدهايم ومن أهمها ملف «أودلو كاغر» (أو القرار) اليوغسلافي الذي ضم قائمة بأسماء الأشخاص الذين كانت السلطات اليوغسلافية تشتبه في تورطهم في ارتكاب جرائم الحرب وكان من بينها اسم فالدهايم . واستناداً إلى هذا الملف ، تم ضم اسم فالدهايم إلى ملف لجنة الامم المتحدة لجرائم الحرب . كما قام المؤتمر بإسناد مهمة البحث في ماضي فالدهايم إلى عَالم في التاريخ أشارت نتائج بحثه إلى أن فالدهايم عمل ضابطاً في قسم الاستخبارات العسكرية للجيش المتمركز في غرب البوسنة والذي كـانت قـواته مسئـولة عن ارتكاب المذابح ضـد آلاف اليوغسلاف في جبال كوزارا عام ١٩٤٢ ، وأن فالدهايم حصل على نوط الشجاعة من الحكومة الكرواتية الموالية لألمانيا في هذه الفترة . وفي ضـوء هذه النتـائج ، حث المؤتمر اليـهـودي العـالمي الحكومـة الأمريكية على وضع كورت فالدهايم على قـائمة الأجانب غير المرغوب في دخولهم إلى الولايات المتحدة . وقد أقدمت الحكومة الأمريكية على ذلك بالفعل في أبريل عام ١٩٨٧ .

ورغم هذه الحملة الإعلامية المكثفة نجح فالدهايم في انتخابات الرئاسة النمساوية ، ولكن هذه القضية تركت آثارها على مكانته الدولية حيث رفض كثير من قادة أوربا والولايات المتحدة الالتقاء به أو حتى زيارة النمسا أثناء توليه رئاسة البلاد . وقد نفى فالدهايم مراراً الاتهامات التي وُجِّهت إليه ونفى اشتراكه في عمليات ترحيل لليهود أو في مذابح ضد المقاومة اليوغسلافية واعتبر هذه الاتهامات جزءاً من حملة تشهير وافتراء دولية بدأتها المعارضة النمساوية وتزعمها المؤتمر اليهودي العالمي والصحافة الدولية ، وأكد أن ماضيه قد بُحث بشكل واف من قبَل الأجهزة الأمنية النمساوية قبل توليه العمل في السلك الدبلوماسي النمساوي وأيضاً من قبَل أجهزة المخابرات الأمريكية (سي . آي . أيه) والسوفيتية (كي . جي . بي) والإسرائيلية (الموساد) عند ترشيحه لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة، ولم تجد أي منها ما يدينه . ولم يتم أبداً إثبات أيٍّ من الاتهامات الموجَّهة ضد فالدهايم ، بل تبيَّن فيما بعد أن ملف أودلو كاغر (أهم وثيقة في القضية) تحيط به الشكوك . وقد قامت ثلاث جهات نمساوية وبريطانية ودولية مستقلة بالتحري والبحث في هذه الاتهامات ولم تجد أيٌّ منها ما يدين فالدهايم بأي عمل إجرامي أو يؤكد تورطه فيما نُسب إليه . وقد ساعد ذلك على فك العزلة المضروبة من حوله إلى حدٍّ ما ، فالتقى به البابا عام ١٩٨٧ ثم رئيسا ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٩٠ ، كما رحَّبت به عدد من الدول العربية .

ومن ناحية أخرى ، كانت هذه القضية محاولة ناجحة إلى حدٍّ كبير للنيل من سمعة كورت فالدهايم التي شهدت الأمم المتحدة خلال فترة توليه منصب الأمين العام (١٩٧١ - ١٩٨٢) دعوة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، ولأول مرة ، لإلقاء كلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكذلك صدور قرار يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية .

محاكمة ديمانجوك

Demanjuk Trial

جون ديمانجوك مواطن أمريكي من أصل أوكراني اتُّهم بارتكاب جرائم حرب إبَّان الحرب العالمية الثانية . وأشارت الاتهامات والادعاءات الموجَّهة إليه ، إلى أنه كان يقاتل في صفوف الجيش السوفيتي حينما وقع في أسر الألمان ورُحِّل إلى أحد معسكرات أسرى الحرب . وأثناء ذلك ، وافق ديمانجوك على الانضمام إلى إحدى الوحدات العسكرية المشكلة من الأجانب والعاملة في خدمة قوات الإس . إس . الألمانية . وقد تدرب أولاً في أعمال الحراسة ثم نُقل إلى معسكر تربلينكا حيث أشرف على غرف الغاز وأُطلق عليه لقب «إيفان الرهيب» بسبب قسوته البالغة ، وظل في المعسكر حتى

إغلاقه عام ١٩٤٣ . ومع انتهاء الحرب ، انتقل ديمانجوك إلى الولايات المتحدة حيث عاش حياة هادئة إلى أن علمت السلطات الأمريكية بماضيه ، فقامت بتجريده من جنسيته الأمريكية . وفي عام ١٩٨٦ ، تم ترحيله إلى إسرائيل حيث قُدِّم للمحاكمة عام ١٩٨٧ بعد أن وُجِّهت إليه اتهامات بالقتل وارتكاب جرائم ضد الإنسانية وارتكاب جرائم ضد الشعب اليهودي . وقد أكد الدفاع أن هناك خطأً ولبساً في شخصية المتهم ، فجون ديمانجوك ليس هو «إيفان الرهيب» ، كما شكك الدفاع في الأدلة المقدمة ضده وفي قدرة الشهود على تذكر أحداث جرت منذ أكثر من ٤٥ عاماً . ورغم ذلك ، أُدين ديمانجوك بالتهم الموجهة إليه وحُكم عليه بالإعدام عام ١٩٨٨ .

وبطبيعة الحال ، حاولت المؤسسة الصهيونية استثمار عملية المحاكمة نفسها ، بغض النظر عن نتائجها ، في تحقيق أهدافها الخاصة برفع ما يُسمَّى «الوعي اليهودي» بين الأجيال الجديدة من أعضاء الجماعات اليهودية . كما حاولت تذكير العالم (الغربي) بالجرم النازي ضد اليهود ، وذلك في محاولة للتغطية على القمع الإرهابي الذي تمارسه إسرائيل للقضاء على الانتفاضة الفلسطينية . ولكن محاكمة ديمانجوك تبين أن هذه العملية تقترب من نهايتها . فقد اعترف بعض المسئولين الأمريكيين (في مكتب التحقيقيات التابع لوزارة العدل الأمريكية) بجرمهم في إخفاء الأوراق التي تثبت أن ديمانجوك ليس إيفان الرهيب . وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وفتح كثير من الملفات السرية ، ظهرت دلائل جديدة تؤكد أن ديمانجوك ليس هو إيفان الرهيب وأنه عمل حارساً في معسكر آخر غير تربلينكا . وكتبت **النيويورك تايمز** تقول إنه لابد من الإفراج عنه لعدم توافر أية أدلة ، ونبه باتريك بوكانان عن الحزب الجمهوري) إلى أن السلطات الإسرائيلية تماطل في إصدار الحكم ببراءة ديمانجوك على أمل أن يموت في السجن ولا تضطر إسرائيل إلى الاعتراف بخطئها . بل إن الصحف الإسرائيلية ذاتها بدأت تنبه إلى أن الاستمرار في مثل هذه المحاكمات قد يؤدي إلى نتائج عكسية . ولعل حكم البراءة الذي اضطرت المحكمة الإسرائيلية العليا إلى إصداره في عام ١٩٩٣ هو نهاية هذه المهزلة . وقد عاد ديمانجوك فيما بعد إلى الولايات المتحدة .

سيمون وزنتال (١٩٠٨-)

Simon Wiesenthal

يهودي من أصل تشيكي تخصص في مطاردة مجرمي الحرب النازيين . وُلد وتعلم في تشيكوسلوفاكيا حيث حصل على شهادة في العمارة عام ١٩٤٠ .

اعتقله النازيون في الفترة ١٩٤١ - ١٩٤٥ . وبعد الحرب ، انضم ويزنتال إلى اللجنة الأمريكية لجرائم الحرب . وأسس عام ١٩٤٦ ، هو وآخرون ، مركز التوثيق التاريخي اليهودي الذي يوجد الآن في فيينا بالنمسا . وقد نجح ويزنتال في المساعدة على القبض على ١١٠٠ مجرم نازي من بينهم أيخمان . وقد نشر ويزنتال مقالاً في **التورنتوستار** (١٩ مايو ١٩٧١) زعم فيه أن « عدة مئات » من مجرمي الحرب النازيين يعيشون في كندا . وحينما شُكِّلت لجنة للتحقيق لم يُقدَّم سوى ٢١٧ اسماً ، ولكن ثبت أن غالبيتهم الساحقة (١٨٧ اسماً) لم يدخلوا كندا قط ، والباقون إما ماتوا أو غادروا كندا أو لم يمكن العثور على أي دليل على تورطهم في جرائم الحرب ، وقد أثر هذا كثيراً في مصداقيته .

بعض التغيرات التي طرأت على الخطاب الغربي فيما يتصل بالإبادة النازية ليهود أوربا

Some Developments of the Western Discourse on the Nazi Extermination of European Jewry

رغم كل الهستريا الإعلامية الصهيونية وغير الصهيونية ضد أية محاولة لتناول ظاهرة الإبادة بعقلانية واتزان ، يمكن أن نلاحظ تغيرات هامة بدأت تدخل على الخطاب الغربي فيما يتصل بالإبادة النازية :

١ ـ بدأت محاولات إسرائيل في استخدام الإبادة لتبرير استمرارها في ارتكاب الجرائم ضد الفلسطينيين تصبح أمراً ممجوجاً ، وبدأ بعض المفكرين اليهود وغير اليهود يُعبِّرون عن رفضهم لمثل هذا المنطق الابتزازي . كما بدأ كثير من يهود العالم يضيقون ذرعاً بجعل الإبادة هي النقطة المرجعية النهائية في رؤيتهم للكون والأغيار .

٢ ـ بدأ الخطاب السياسي في الغرب وفي إسرائيل يرفض التابو (التحريم) الذي يمنع تشبيه الإبادة النازية ليهود الغرب بأحداث مماثلة في التاريخ الماضي والوقت الحاضر . وقد تجرأ عدة متحدثين غربيين (من بينهم يهود) على تشبيه ما يحدث للفلسطينيين على يد الإسرائيليين بما حدث لليهود في أوربا على يد النازيين . فعلى سبيل المثال ، صرح الكاتب الإسرائيلي يهوشاوا بأنه يفهم الآن سبب جهل الألمان بما حدث لليهود بعد أن رأى الإسرائيليين يرفضون معرفة ما يحدث للفلسطينيين . ويشير اليهود السفارد والشرقيون إلى اليهود الغربيين بأنهم « إشكي نازي» وهو نوع من التلاعب بالألفاظ يشير

إلى أن ما كان محرماً أصبح مباحاً . ووصف البروفسير لايبوفيتز سياسة إسرائيل في لبنان بأنها نازية يهودية (بالإنجليزية : جوديو/ نازي Judeo-Nazi) .

٣ ـ نعتقد أن الأمور بعد توحيد ألمانيا وتحوُّلها إلى قوة عظمى ستتغيَّر كثيراً ، وسيُنظَر إلى حادثة الإبادة النازية ليهود أوربا نظرة أكثر تفسيرية وتركيباً واتزاناً . كما أن كثيراً من الوثائق الألمانية والسوفيتية التي لم تُنشَر بعد ستجد طريقها إلى النشر . ولعل هذا يوفر جواً علمياً أكثر استقراراً وطمأنينة ، بعيداً عن هستريا الأيقنة الكاملة للإبادة لصالح اليهود ، وعن هستريا الإنكار الكامل لها (بالمعنى العام ، أي الإبادة عن طريق التجويع والسخرة ؛ والمعنى الخاص ، أي التصفية الجسدية) .





٦
إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين

التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين ـ مقاومة الجماعات اليهودية للنازية ـ الفاشية والصهيونية ـ النازية والصهيونية : الأصول الفكرية المشتركة والتماثل البنيوي ـ النيتشوية والصهيونية ـ النازية والصهيونية : العلاقة الفعلية ـ معاهدة الهعفراه (الترانسفير) ـ المجالس اليهودية ـ رابطة الثقافة اليهودية ـ تيريس آينشتات ـ جيتو وارسو ـ جماعة شتيرن والنازية ـ عصبة الأشداء ـ نوسيج ـ رومكوفسكي ـ تشرنياكوف ـ كابلان ـ بلومنفلد ـ كاستنر ـ العرب والمسلمون والإبادة النازية ليهود أوربا ـ مسلم

التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين

Collaboration between Some Members of the Jewish Communities and the Nazis

من الموضوعات التي لم يتم بحثها بالقدر الكافي ، لأسباب معروفة ، قضية تورُّط بعض أعضاء الجماعات اليهودية (من الصهاينة وغير الصهاينة) في علاقة تعاون وثيقة مع النازيين . وقد أخذ هذا التعاون أشكالاً كثيرة من بينها عدم الاشتراك في المقاومة أو التعاون الاقتصادي والثقافي مع النازيين . ولكن أهم أشكال التعاون وأوثقها هو التعاون المؤسَّسي بين المستوطنين الصهاينة والنظام النازي والنظام الفاشي الذي أخذ شكل معاهدة الهعفراه . ومن أهم الشخصيات الصهيونية التي تعاونت مع النازي ألفريد نوسيج .

مقاومة الجماعات اليهودية للنازية

Jewish Resistance to Nazism

يُثير بعض الدارسين تساؤلاً بخصوص المقاومة اليهودية والصهيونية للنازيين ، وهي مسألة خلافية مركبة . ومما يجدر ذكره أنه حين استولى هتلر على السلطة عام ١٩٣٣ ، ظلت هناك جيوب رافضة داخل المجتمع الألماني صعَّدت المقاومة ضده من منظور ليبرالي . كما كانت هناك حركة مقاومة ثورية نظمتها الأحزاب الشيوعية والاشتراكية ، فالنازية حركة شمولية تقف ضد مصلحة الطبقة العاملة . كما كانت هناك مقاومة من منظور يميني تدعمها قطاعات معينة من الرأسمالية الألمانية الكبيرة . وكانت هناك أيضاً مقاومة من منظور تقليدي أرستقراطي باعتبار أن النازية تقضي على امتيازات الطبقة الأرستقراطية الألمانية التقليدية ومكانتها . إذ كانت النازية ، على مستوى من المستويات ، عملية تحديث سريعة وراديكالية تمت تحت إشراف عناصر من البورجوازية الصغيرة لا تحترم التقاليد وتقضي على سائر الخصوصيات وتحاول أن تنجز في عشرة أعوام ما أنجزته أوربا في مئات الأعوام . وقد تمركزت المقاومة التقليدية في الجيش ووزارة الخارجية ، وكانا يضمان أعداداً كبيرة من أعضاء الطبقة الأرستقراطية . وبالمثل قام البولنديون بحركة مقاومة عنيفة ضد النازيين ، هذا بخلاف حركات المقاومة في فرنسا وغيرها من الدول .

وقد بيَّن كثير من الكُتَّاب أنه لم تنشأ أية مقاومة يهودية في أرجاء أوربا ، مع أن مثل هذه المقاومة كان بوسعها أن تصيب آلة الإبادة النازية بالشلل أو تحد من سرعتها أو تعطلها ، خصوصاً أنها كانت مرهقَة . ولم تبدأ المقاومة اليهودية جدياً في وارسو ، التي كان ٤٥ في المائة من سكانها من اليهود ، إلا في أوائل عام ١٩٤٣ ، عندما بدأت موازين القوى تميل لصالح الحلفاء وحين قررت برلين تدمير حارة اليهود ، وكان الوقت قد فات على إنقاذ نزلاء المعسكرات .

ومن الأسباب الأساسية التي يطرحها البعض لتفسير ضعف المقاومة اليهودية رغم الشراسة النازية هو الموقف الصهيوني ، إذ يبدو أن الصهاينة لم يبدوا حماساً كبيراً في حربهم ضد النازية ، وكانوا غير مكترثين بالمقاومة ضد النازيين . وفي مجال هجومه على المشروع الصهيوني ، حذر المفكر الاشتراكي كارل كاوتسكي من الآثار الضارة للصهيونية التي توجه جهود اليهود وثرواتهم إلى الاتجاه الخاطئ (الاستيطان في فلسطين) في وقت تتقرر فيه مصائرهم في مسرح مختلف تماماً (أوربا وألمانيا) حيث يجب عليهم أن يركزوا فيه كل قواهم . وكان كاوتسكي يشير بذلك إلى أن ملايين اليهود في شرق أوربا (بين ثمانية وعشرة ملايين) لم يكن من الممكن تهجيرهم

إلى فلسطين . وبدلاً من تنظيمهم وتوجيه طاقاتهم ، حتى يكونوا مهيئين للدفاع عن أنفسهم حينما تقع الواقعة ، كانت القيادات الصهيونية تركز على تهجير بضع مئات منهم إلى أرض الميعاد .

ولكن الاعتبارات الصهيونية كانت مختلفة تمام الاختلاف عن ذلك ، إذ قرر الصهاينة اتخاذ موقف الحياد من المقاومة ، باعتبار أن اليهود لهم مصالحهم وحروبهم المختلفة ، وأن هدفهم الوحيد هو تأسيس الدولة الصهيونية . ولذا نادى كثير من الصهاينة بعدم الاشتراك في الحركات المعادية للنازية والفاشية . وقد بيّن ماريك إيديلمان ، أحد قواد تمرد جيتو وارسو ، في حديث له مع مجلة **هـآرتس** أن الأبطال الحقيقيين للمقاومة كانوا أعضاء حزب البوند واليهود المعادين للصهيونية والشيوعيين والتروتسكيين والصهاينة اليساريين ، أما أعضاء التيار الصهيوني الأساسي فكان موقفهم هو موقف الحياد إياه . وكلما كان النضال ضد النازية يزداد ضراوة ، كان الصهاينة يزدادون ابتعاداً عن بقية اليهود . ومن المعروف أن القوات النازية كانت تقيم مجالس لليهود في البلاد التي تحتلها بعد حل كل التنظيمات اليهودية ، ويُقال إن أغلبية أعضاء هذه المجالس كانوا من الصهاينة (وإن كان هذا يحتاج إلى مزيد من التمحيص) . ومن الثابت تاريخياً أن المجالس اليهودية كانت أداة ذات كفاءة عالية في إدارة عملية الإبادة .

وقد تعاون كثير من الأفراد اليهود (غير الصهاينة) مع النازيين ، وهم في هذا لا يختلفون عن مئات الأوربيين الآخرين الذين كانوا مجرد موظفين ينفذون الأوامر التي تَصدُر إليهم . كما لم يكترث يهود فرنسا بنقل اليهود الذين ليسوا من أصل فرنسي ، تماماً مثلما أظهر يهود ألمانيا عدم اكتراث بنقل اليهود الأوست يودين (أي يهود شرق أوربا) . بل إن بعض الكتّاب اليهود أثاروا قضية دور الحاخامات في أوربا وفشلهم في قيادة حركة المقاومة . ومن المعروف أن قساً كاثوليكياً وواعظاً بروتستانتياً تطوعا للذهاب مع المرحلين إلى معسكرات الاعتقال ، بينما لم تلعب الحاخامية دوراً مماثلاً .

والموضوع ، كما أسلفنا ، خلافي للغاية ، فثمة نظرية تذهب إلى أن المقاومة لم تكن على أية حال لتجدي فتيلاً ، وذلك لأن الأغلبية الساحقة من الشعب الألماني لم تكن تمانع في الإبادة ، كما أن آلة الحرب والمخابرات والإبادة الألمانية كانت على درجة عالية من الكفاءة والقدرة على الفتك . ومن الممكن تطبيق نفس المقولة على هؤلاء الأغيار المتهمين بعدم مقاومة النازي ، فلعلهم توصلوا هم أيضاً إلى عدم جدوى المقاومة . ولكن هذا القول الذي ينطبق على الجماعة اليهودية في ألمانيا لا يسري بأية حال على يهود بولندا الذين كانوا يُشكِّلون كثافة سكانية لا بأس بها ، وكان بوسعهم المقاومة والانضمام إلى الشعب البولندي الذي كان يقاوم الغزو النازي .

ومن القضايا الأخرى التي تُثار في هذا السياق موقف المستوطنين الصهاينة . فقد كانت إحدى دعاوى إقامة الدولة الصهيونية أنها ستكون ملجأ لليهود يحميهم من هجمات الأغيار ومذابحهم . ولكن حينما دخلت قوات روميل حدود مصر وبدأت تتقدم نحو الإسكندرية ، اكتشف المستوطنون الصهاينة عبث المقاومة، بل ضعت بعض الكيبوتسات خطة للانتحار . والقدرة على الانتحار تختلف بشكل جوهري (في تصورنا) عن المقاومة والإنقاذ . ولكن ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن الانتحار يفقد الجيب الصهيوني شرعيته كملجأ أخير ونهائي لليهود .

ويبدو أن يهود الولايات المتحدة (الذين يُشكِّلون أكبر جماعة يهودية في العالم) لم يلعبوا دوراً فعالاً بما فيه الكفاية في محاولة حماية يهود ألمانيا . وقد حاولت إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية، عام ١٩٨١ ، فتح ملف تقصير الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، ولكنها أغلقته بسرعة بدعوى أن الموضوع محرج ومؤلم ، وهو كذلك بالفعل . لكن هذا لا يبرر إغلاق التحقيق ، وخصوصاً أن الاتهامات الصهيونية للحكومة الأمريكية والفاتيكان والكنيسة بالتقصير لم تتوقف .

الفاشية والصهيونية

Fascism and Zionism

من أهم الأفكار الغربية التي تبنت الصهيونية في تربتها ، الأفكار السياسية الخاصة بالقومية العضوية وبالدولة القومية باعتبارها المرجعية الوحيدة والركيزة الأساسية للنسق ، وهي الأفكار التي تصبح تقديساً للدولة وانصياعاً لزعيمها في الأنساق الشمولية . وقد تبنت الصهيونية كل هذه الأفكار وتحركت في إطارها ، فأنشأت علاقة مع النظام الفاشي (في إيطاليا) والنظام النازي (في ألمانيا) .

وقد أكد موسوليني منذ بداية حكمه أن الفاشيه لا علاقة لها بالعداء لليهود . وفي ٣٠ أكتوبر ١٩٣٠ أصدر قراراً بدمج كل التجمعات اليهودية في إيطاليا في اتحاد فاشي يمثل كل يهود إيطاليا بغير استثناء ، وأصبح هذا الاتحاد إحدى الوكالات الرسمية للحكومة الفاشية . حيث نصت المادة ٣٥ من قانون تأسيس هذا الاتحاد على أن اليهود هم سفراء الفاشية للعالم ، وعلى ضرورة أن يشترك اتحاد التجمعات اليهودية في إيطاليا في النشاطات الدينية

والاجتماعية ليهود العالم ، وأن يحتفظ بعلاقاته الدينية والثقافية معهم .

وفي يناير ١٩٢٣ قام حاييم وايزمان بوصفه رئيس المنظمة الصهيونية بزيارة موسوليني ، لمحاورته بشأن الصهيونية والدعم الفاشي الممكن تقديمه إلى الحركة . واكتشف الزعيم الصهيوني أن اعتراض موسوليني على الصهيونية مرده إحساسه بأن الصهيونية أداة لإضعاف الدول الإسلامية لصالح الإمبراطورية البريطانية . فرد وايزمان عليه رداً مقنعاً بيَّن له فيه أن إضعاف الدول الإسلامية سيعود أيضاً على إيطاليا بالنفع ، وأضاف أن شروط حكومة الانتداب ذاتها تفتح المجال أمام إيطاليا أو أية دولة أخرى للمشاركة في تطوير هذا البلد (أي تصدير العمالة الفائضة والحصول على امتيازات تجارية ، على حد قول وايزمان) ، وأن في وسع إيطاليا أن تفعل ذلك إذ اعتمدت الميزانية اللازمة . وانتهى الاجتماع بتفاهم كامل بين الطرفين ، سمح موسوليني على أثره بتعيين يهودي إيطالي في الوكالة اليهودية .

وحينما دُعي وايزمان مرة أخرى إلى إيطاليا في سبتمبر ١٩٢٦ ، عرض موسوليني أن يُقدم المساعدة للصهاينة كي يبنوا اقتصادهم ، وقامت الصحافة الفاشية بنشر مقالات مؤيدة للصهاينة . كما قام ناحوم سوكولوف ، باعتباره رئيس اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية ، بزيارة إيطاليا عام ١٩٢٧ وصرح بأنه أدرك الطبيعة الحقة للفاشية ، وأكد أن اليهود الحقيقيين لم يحاربوا قط ضدها . ولا شك في أن كلماته هذه تحمل معنى التأييد الكامل للنظام الفاشي ، وقد تبعته في ذلك المنظمة الصهيونية في إيطاليا . ومن الزعماء الصهاينة الذين زاروا إيطاليا الفاشية ، ناحوم جولدمان الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي الذي استمع إلى الزعيم الإيطالي وهو يُعرب عن حماسه للمشروع الصهيوني وعن استعداده الكامل لمساندته .

وقد تعلم جابوتنسكي الكثير من الفاشية الغربية ، وكان يُعبِّر عن إعجابه الشديد بالدوتشي وفكره ، وبالتنظيمات الشبابية الفاشية التي حاولت المنظمات الشبابية التصحيحية التشبه بها في زيها الرسمي . وكال موسوليني المديح والتقريظ لجابوتنسكي حين قال مرة للحاخام ديفيد براتو الذي أصبح فيما بعد حاخام روما : «كي تنجح الصهيونية يجب أن تحصلوا على دولة يهودية لها علم يهودي ولغة يهودية ، والشخص الذي يفهم ذلك حقاً هو الفاشي جابوتنسكي» . كما نعت موسوليني نفسه ضمناً بأنه صهيوني يدافع عن فكرة الدولة اليهودية . ورغم أن جابوتنسكي لم يكن يرتاح أحياناً إلى وصفه بالفاشي ، فإن موقفه بشكل عام كان موقف المؤيد للفاشية والمعجب بها .

النازية والصهيونية : الأصول الفكرية المشتركة والتماثل البنيوي

Nazism and Zionism (Common Intellectual Origins and Structural Parallelism)

رغم الدعاية الصهيونية الشرسة وتأكيد احتكار اليهود لدور الضحية في عملية الإبادة التي قام بها النازيون ضد كثير من الشعوب والأقليات الإثنية والدينية والعرقية ، فإن ثمة علاقة وطيدة بين الصهيونية والنازية تستحق الدراسة . وقد يكون من المفيد ابتداءً أن نقرر أن النازية والصهيونية ليستا بأية حال انحرافاً عن الحضارة الغربية الحديثة بل يمثلان تيارين أساسيين فيها . ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية جزء أصيل من الحضارة الغربية أن الغرب يحاول تعويض اليهود عما لحق بهم على يد النازيين بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث الفلسطينيين ، وكأن جريمة أوشفيتس يمكن أن تُمحَى بارتكاب جريمة دير ياسين أو مذبحة بيروت أو مذبحة قانا . وقد أنجزت الصهيونية ما أنجزت من اغتصاب للأرض وطرد وإبادة للفلسطينيين من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي ، واستخدمت كل أدواته من غزو وقمع وترحيل وتهجير . والغرب ، الذي أفرز هتلر وغزواته ، هو نفسه الذي نظر بإعجاب إلى الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وأنحاء أخرى من العالم العربي . وهو الذي ينظر بحياد وموضوعية داروينية للجريمة التي ارتكبت والتي تُرتكب يومياً ضد الشعب الفلسطيني .

ولابد أن نقرر أن الصهيونية لم تقم بعملية إبادة شاملة (بمعنى التصفية الجسدية) للفلسطينيين ، إلا أن هذا يرجع إلى اعتبارات عملية عديدة لا علاقة لها بالبنية الإبادية للأيديولوجية الصهيونية ، من بينها تأخر التجربة الصهيونية إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وعدم إعلان الدولة الصهيونية إلا في منتصف القرن العشرين ، وهو ما جعل الإبادة مسألة عسيرة بسبب وجود المنظمات الدولية والإعلام . كما كان شأن الكثافة السكانية العربية وتماسك العرب وانتمائهم إلى تشكيل حضاري مركب ومقدرتهم على التنظيم والمقاومة والانتفاضة أن أصبحت الإبادة حلاً مستحيلاً (ومع هذا لابد من الإشارة إلى عمليات الإبادة الجسدية والتي تمت في صفد ودير ياسين وكفر قاسم ، وغيرها من مدن وقرى في فلسطين ، حيث لم تكن الممارسة الصهيونية تهدف إلى تهجير الفلسطينيين ، بقدر ما كانت تهدف إلى قتلهم وإبادتهم . وبالمثل كانت عملية صابرا

وشاتيلا ذات طابع إبادي واضح) . كما أن الإبادة بمعنى التهجير والتسخير والقمع والاستغلال هي حدث يومي داخل الإطار الصهيوني .

إن الحضارة الغربية الحديثة هي التي أفرزت الإمبريالية والنفعية الداروينية والنازية والصهيونية ، ولذا فليس من المستغرب أن نجد مجموعة من الأفكار المشتركة بين الرؤيتين النازية والصهيونية التي تُشكِّل الإطار الحاكم لكل منهما :

١ ـ القومية العضوية والتأكيد على روابط الدم والتراب ، وهو ما يؤدي إلى استبعاد الآخر (الشعب العضوي المنبوذ) .

٢ ـ النظريات العرْقية .

٣ ـ تقديس الدولة .

٤ ـ النزعة الداروينية النيتشوية .

كما يظهر التماثل البنيوي بين النازية والصهيونية في خطابهما . فكلاهما يستخدم مصطلحات القومية العضوية مثل «الشعب العضوي (فولك)» و«الرابطة الأزلية بين الشعب وتراثه وأرضه» و«الشعب المختار» . وقد سُئل هتلر عن سبب معاداته لليهود ، فكانت إجابته قصيرة بقدر ما كانت قاسية : "لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران . ونحن وحدنا شعب الإله المختار . هل هذه إجابة شافية على السؤال ؟" . ويتحدث مارتن بوبر عن أن الرابطة بين اليهود وأرضهم هي رابطة الدم والتربة ، ومن ثم يطالب بضرورة العودة إلى فلسطين حيث توجد التربة التي يمكن للدم اليهودي أن يتفاعل معها ويبدع من خلالها ، وهي مسألة أشار إليها كل من الكاتبين الصهيونيين ميخا بيرديشفكي وشاؤول تشرنحوفسكي ، حيث تحدثا عن الشعب العضوي اليهودي بالعبارات نفسها ونسبا إليه الخصائص نفسها . كما استخدم الصهاينة مفهوم «الدم اليهودي» لتعريف الهوية اليهودية .

وأثناء محاكمات نورمبرج ، كان الزعماء النازيون يؤكدون ، الواحد تلو الآخر ، أن الموقف النازي من اليهود تمت صياغته من خلال الأدبيات الصهيونية ، خصوصاً كتابات بوبر عن الدم والتربة . وقد أشار ألفريد روزنبرج ، أهم المنظرين النازيين ، إلى أن "بوبر على وجه الخصوص هو الذي أعلن أن اليهود يجب أن يعودوا إلى أرض آسيا ، فهناك فقط يمكنهم العثور على جذور الدم اليهودي" . ولعله ، بهذا ، كان يشير إلى حديث بوبر عن اليهود باعتبارهم آسيويين حيث يقول "لأنهم إذا كانوا قد طُردوا من فلسطين ، ففلسطين لم تُطرد منهم" .

ومن الموضوعات الأساسية المشتركة فكرة النقاء العرْقي .

وكان سترايخر (المُنظر النازي) يؤكد أثناء محاكمته ، أنه تعلم هذه الفكرة من النبي عزرا : لقد أكدت دائماً حقيقة أن اليهود يجب أن يكونوا النموذج الذي يجب أن تحتذيه كل الأجناس ، فلقد خلقوا قانوناً عنصرياً لأنفسهم ، قانون موسى الذي يقول : "إذا دخلت بلداً أجنبياً فلن تتزوج من نساء أجنبيات" . وكانت الأدبيات الصهيونية الخاصة بنقاء اليهود العرْقي ثرية إلى أقصى حد في أوربا حتى نهاية الثلاثينيات .

ويستخدم النازيون والصهاينة على حد سواء الخطاب النيتشوي الدارويني نفسه المبني على تمجيد القوة وإسقاط القيمة الأخلاقية . إذ يستخدم الصهاينة ـ شأنهم في هذا شأن النازيين ـ مصطلحاً محايداً ، فهم لا يتحدثون عن طرد الفلسطينيين وإنما عن "تهجيرهم" أو "دمجهم في المجتمعات العربية" . وهم لا يتحدثون مطلقاً عن «تفتيت العالم العربي» وإنما عن "المنطقة" ، ولا يتحدثون عن «الاستيلاء» على القدس وإنما عن "توحيدها" ولا عن الاستيلاء على فلسطين أو «احتلالها» وإنما عن "استقلال" إسرائيل أو عن "عودة الشعب اليهودي" إلى أرض أجداده .

ويتضح التطابق بين النازيين والصهاينة بكل جلاء في واحد من أهم التنظيمات النازية . فقد كان النازيون ـ شأنهم شأن أية عقيدة تدور في إطار القومية العضوية ـ يؤمنون بوجود دياسبورا ألمانية («أوسلاندويتش Auslandeutsch») تربطها روابط عضوية بالأرض الألمانية . وأعضاء هذا الشتات الألماني مثل أعضاء الشتات اليهودي يدينون بالولاء للوطن الأم ويجب أن يعملوا من أجله . وربما لأن العودة للوطن الأم أمر عسير ، كما هو الحال مع الصهاينة ، اقترح النازيون ما يشبه نازية الشتات (مثل صهيونية الشتات) عن طريق تشجيع الألمان في الخارج على دراسة الحضارة واللغة الألمانيتين . وكان للنازيين ما يشبه المنظمة النازية العالمية التي كانت لها صلاحيات تشبه صلاحيات المنظمة الصهيونية العالمية ، وكانت لها مكانة في ألمانيا تشبه من بعض الوجوه مكانة المنظمة الصهيونية في إسرائيل . وقد تعاون الألمان ، في كل أنحاء العالم مع السفراء والقناصل الألمان ، تماماً كما يتعاون اليهود والصهاينة مع سفراء وقناصل إسرائيل في بلادهم .

ولنا أن نلاحظ الأصول الألمانية الراسخة للزعماء الصهاينة الذين صاغوا الأطروحات الصهيونية الأساسية . فتيودور هرتزل وماكس نوردو وألفريد نوسيج وأوتو ووربورج كانوا إما من ألمانيا أو النمسا يكتبون بالألمانية ويتحدثون بها ، كما كانوا ملمين بالتقاليد الحضارية الألمانية ويكنون لها الإعجاب ولا يكنون احتراماً كبيراً

للحضارات السلافية (وقد غيَّر هرتزل اسمه من «بنيامين» إلى «تيودور» حتى يؤلمن اسمه ، وسمَّى ماكس نوردو نفسه بهذا الاسم لإعجابه الشديد بالنوردين) . ولا يختلف زعماء يهود اليديشية عن ذلك ، فلغتهم اليديشية هي رطانة ألمانية أساساً . ومن جهة أخرى، كانت لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى هي الألمانية ، كما توجه الزعماء الصهاينة أول ما توجهوا لقيصر ألمانيا لكي يتبنى المشروع الصهيوني . وقد أكد جولدمان أن هرتزل قد وصل إلى فكرته القومية (العضوية) من خلال معرفته بالفكر والحضارة الألمانيين . وكان كثير من المستوطنين الصهاينة يكنون الإعجاب للنازية ، وأظهروا تفهماً عميقاً لها ولمُثُلها ولنجاحها في إنقاذ ألمانيا . بل عدوا النازية حركة تحرر وطني . وقد سجل حاييم كابلان ، وهو صهيوني كان موجوداً في جيتو وارسو (حينما كان تحت حكم النازي) ، أنه لا يوجد أي تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين للعالم فيما يخص المسألة اليهودية ، فكلتاهما تهدف إلى الهجرة ، وكلتاهما ترى أن اليهود لا مكان لهم في الحضارات الأجنبية .

وقد ظهرت في ألمانيا ، في الثلاثينيات ، جماعة من المفكرين الدينيين اللوثريين الذين أدركوا العناصر الفكرية المشتركة بين النازية الصهيونية وأبعادها العدمية . ومن هؤلاء هاينريش فريك الذي حذر اليهود من فكرة الشعب العضوي التي يدافع عنها النازيون والصهاينة، كما عَرَّف كلاً من النازية والصهيونية بأنهما حركتان حولتا النزعة الأرضية (الارتباط بالأرض) والدنيوية (الارتباط بالدنيا) ، وهما من الأمور المادية ، إلى كيانات ميتافيزيقية ، أي إلى دين . وأشار إلى أن النازية والصهيونية تتبنيان الرأي القائل بأن ألمانيا لا يمكنها أن تقبل اليهود أو تظهر التسامح تجاههم .

وفي عام ١٩٢٦ ، حدد فيلي ستارك ما تصوره موقف المسيحية من مسألة الشعب العضوي . فأشار إلى نقط التشابه بين الصهيونية والنازية ، فكلتاهما تدور حول قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية ، الدم والتربة ، وهي قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية ، وفي ممالك الأرض بدلاً من مملكة السماء . ومن ثم ، توصَّل فيلي ستارك إلى أنه لا يوجد أي مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي (فولك) الصهيونية أو النازية . كما توصل إلى أن كلاً من الصهيونية (التي تحاول أن تؤسس الهيكل الثالث أي الدولة الصهيونية) والنازية (التي أسست الرايخ الثالث أي الدولة النازية) تجسيد لعدم فهم البُعد المجازي في العقيدة الألفية الاسترجاعية في المسيحية . وبالتالي ، فإن كلتا الحركتين ضرب من ضروب المشيحانية السياسية (الأخروية العلمانية) التي تحوِّل الدنيوي المدنَّس إلى مقدَّس ، وبذلك يُمثل كل منهما تهديداً لليهودية والمسيحية ، بل للجنس البشري بأسره .

النيتشوية والصهيونية

Nietzscheanism and Zionism

تنبع النازية من عدة روافد في الفكر الغربي الحديث لعل أهمها على الإطلاق الفكر الفلسفي الرومانسي الألماني ، وبخاصة الفكر النيتشوي أو النيتشوية . وقد يكون من المفيد أن نشير ابتداءً إلى أننا نميِّز بين الفكر النيتشوي وفلسفة نيتشه . ففلسفة نيتشه توجد في أعماله الفلسفية ، وهي فلسفة متناقضة تحوي الكثير من الأفكار النبيلة والخسيسة والعاقلة والمجنونة . أما الفكر النيتشوي فهو منظومة شبه متكاملة ، استنبطها الإنسان الغربي من أعمال نيتشه وحققت من الذيوع والشيوع ما يفوق أعمال نيتشه الفلسفية . وما يهمنا في دراسة تاريخ الأفكار هو الفكر « النيتشوي » وليس أعماله الفلسفية . فهناك الكثير من النيتشويين ممن لم يقرأوا صفحة واحدة من أعمال نيتشه ، بل الذين اتخذوا مواقفهم النيتشوية قبل أن يخط نيتشه حرفاً واحداً. فالخطاب الإمبريالي ، منذ لحظة ظهوره في القرن السابع عشر ، كان خطاباً نيتشوياً .

يتَّسم موقف نيتشه من اليهود بالغموض ، فهناك رأي يذهب إلى أنه كان معادياً لليهود . ومما ساعد على تدعيم هذا الرأي أن أخته إليزابيث ـ التي نفذت وصيته الأدبية ـ كانت متزوجة من برنارد فوستر وهو من أهم الداعين إلى معاداة اليهود . بل يُقال إن إليزابيث زيَّفت بعض خطابات نيتشه لتشيع هذه الصورة عنه . لكن مما لا شك فيه أن أعمال نيتشه تحتوي على إشارات لليهود واليهودية تحمل دلالات سلبية . وينبع سخطه على اليهودية بالدرجة الأولى من تصوره أن اليهودية هي أحد أشكال أخلاق الضعفاء . فعندما فقد اليهود دولتهم ولاقوا الاضطهاد وحُرموا من حريتهم في العالم الروماني ، تجمَّع لديهم شعور مكبوت بالإساءة وصل إلى أقصى درجات غليانه فوُلدت المسيحية من رحم اليهودية ، فهي ديانة التواضع والضعف والعبودية . وأخلاقيات المسيحية ألحقت ضرراً بالغاً بالحضارة الغربية الوثنية ، ولكن القيم الأرستقراطية ثارت من جديد في عصر النهضة التي عارض رجالها القيم المسيحية التي سادت في العصور الوسطى . ثم عاد الإصلاح الديني يحاول أن يفرض أخلاق العبيد مرة أخرى ، وهذا ما حاولته الثورة الفرنسية بعد ذلك . ووسط ثورة العبيد الأخيرة هذه ، ظهر المثل الأعلى القديم مرة أخرى : نابليون . وبسقوطه سقط آخر شعاع نور صادر عن قيم السادة .

ولكن هناك جانباً آخر لنيتشه وهو رفضه لمعاداة اليهود ، بل إنه اعتبر معاداة اليهود مجرد شكل آخر من أشكال ثورة العبيد الحديثة ضد السادة . كما كان نيتشه معجباً بالعهد القديم وما تصوره أسلوبه غير الأخلاقي ووصاياه التي لا تتضمن أي تهاون أو مساومة . وفي كثير من كتاباته ، تجده يكيل المديح لليهود أكثر من الألمان ، فاليهود عنصر قوي يتمتع بالصحة ، وتدل صلابتهم وإبداعهم على مقدرتهم على القيام بعملية إعادة تقييم القيم . ولكن بغض النظر عن موقف نيتشه من اليهود أو اليهودية يظل ما يعنينا في هذا الجزء من دراستنا هو الفكر النيتشوي وأثره في الفكر الديني اليهودي وفي الفكر الصهيوني .

ولفهم هذا الجانب ، قد يكون من المفيد أن نعرض لآراء المفكر الصهيوني الروسي أحاد هعام في هذا الموضوع ، فهو يرى أن نيتشه لم يفهم اليهودية حق الفهم وخلط بينها وبين المسيحية . والعارفون باليهودية ، حسب رأيه ، سيكتشفون في التو أنه لا توجد أية حاجة لاستحداث نيتشوية يهودية ، ذلك أن الجزء العام (أي الجزء الذي يتجاوز الخصوصية الألمانية) من الفلسفة النيتشوية موجود في اليهودية نفسها منذ قرون عديدة . فاليهودية ديانة لم تستند إلى فكرة الرحمة وحدها ، ولم تُلزم الإنسان الأعلى اليهودي بالخضوع للجماهير ، كما لو كان الهدف الأساسي من وجوده هو مجرد زيادة سعادة الأغلبية . ويمكن أن نضيف عناصر أخرى لم يذكرها أحاد هعام ، فالعقيدة اليهودية ، مثلاً ، أصبحت نسقاً دينياً حلولياً متطرفاً ، وهو ما يعني تحوُّل الشعب اليهودي إلى شعب مقدَّس ، مكتف بذاته ، يحوي مركزه داخله ، لا يمكن الحكم عليه بمعايير أخلاقية خارجة عنه . بل إن الشعب اليهودي ، حسب التراث القبَّالي ، هو امتداد للخالق في الكون . ووجود الخالق ذاته وتوحده بعد تبعثره (كما جاء في التراث الأسطوري القبَّالي) يتوقف على قيام اليهود بممارسة الأوامر والنواهي . ويُبيِّن أحاد هعام أن المقولة الأساسية النيتشوية ، الخاصة بتفوق النموذج الإنساني الأعلى على بقية البشر ، هي نفسها مقولة يهودية . ولكن أحاد هعام يُحل فكرة الأخلاق محل القوة ، ويشير إلى أن نيتشه يشكو من أنه (حتى الآن) لا توجد محاولة واعية لتعليم الناس بطريقة تؤدي لظهور الإنسان الأعلى ، وهو ما يعرقل ظهوره . فالإنسان حيوان اجتماعي ، ولذا فإن روح الإنسان الأعلى نفسها لا يمكنها أن تتحرر من الجو الأخلاقي الذي تعيش فيه . ويخلص أحاد هعام من هذا التحليل إلى أنه إذا كان الهدف من الحياة هو الإنسان الأعلى ، فيجب أن نقبل بارتباط ظهوره بظهور الأمة الممتازة أو الأمة العليا ، أي ينبغي أن تكون هناك أمة لها من السمات الذاتية ما يجعلها على استعداد أكبر للنمو الأخلاقي بالمعنى النيتشوي ، ولتنظيم حياتها على أساس قانون أخلاقي يعلو على النموذج العادي . هذه الأمة هي ولا شك التربة الخصبة التي ينبت فيها الإنسان الأعلى .

وإذا نظرنا إلى اليهودية من زاوية هذه الفلسفة ، لتبين لنا ، على حد قول أحاد هعام ، أن معظم نقائصها ، أو تلك النقائص التي يشير إليها الآخرون والتي يحاول العلماء اليهود أنفسهم إنكارها ، تشكل نقطة قوة ولا تحتاج لإنكار أو اعتذار . ومن المعروف للجميع أن اليهود واعون بأنهم متفوقون أخلاقياً على الأمم كافة ، وهو وعي يجسد نفسه في فكرة الشعب المختار . والاختيار غير مبني على حكم القوة لأن جماعة يسرائيل هي أصغر الأمم . فقد اختار الإله يسرائيل ، لكي يُعبِّر هذا الشعب بشكل متعيِّن في كل جيل عن أعلى نموذج أخلاقي ، ولكي يحمل عبء الواجبات الأخلاقية دون اعتبار للربح والخسارة بالنسبة لبقية البشر ، بل للحفاظ على وجود هذا النموذج الراقي .

ويرى أحاد هعام أن هذه الفكرة تسيطر على الدين اليهودي . ولذلك ، لم يحاول اليهود التبشير بدينهم لا بسبب الغيرة (كما يدَّعي الأعداء) ولا التسامح (كما ينادي المعتذرون) ، ولكن لأنهم لا يقبلون أن يجعلوا واجبهم نحو تجسيد النموذج الراقي هو واجب كل البشر ، ففي هذا خفض لمستواه وتدن له . وهم في محاولتهم هذه ، لن يفرضوا المسئولية على الآخرين ولن يشركوهم فيها ، ووصف أحاد هعام للأمة المختارة هو ذاته وصف نيتشه للإنسان الأعلى .

ويشير أحاد هعام إلى محاولة بعض العلماء اليهود إضفاء غلالة من المعاصرة على فكرة الشعب المختار ، كأن يحاولوا أن يوفقوا بينها وبين فكرة مساواة الشعوب ، حيث يرون أن رسالة الشعب المختار هي نشر الخير وطريقة الحياة الخيرة بين كل الشعوب (كما يرى اليهود الإصلاحيون) . ولكن أحاد هعام يرفض هذه الليبرالية ، فهو يصر على أن رسالة الشعب هي بكل بساطة أن يقوم بواجبه دون أي اعتبار للعالم الخارجي ، لأن تأدية الواجب هي غاية في ذاتها وليست وسيلة لإسعاد العالم . وإذا كان اليهود القدامى قد عبَّروا عن الأمل في أن اليهودية سيكون لها أثر طيب على الأمم الأخرى ، فهذا مجرد نتيجة وليس هدفاً ، إذ يظل الهدف هو الانتماء لمثل أعلى ونموذج متفوق لا ينتمي إليه الآخرون ولا يشاركون فيه .

ويميِّز أحاد هعام بين وحش نيتشه الجميل الأشقر القوي المُدافع عن الجسد والعنف (الذي أصبح المثل الأعلى النازي) وبين الإنسان الأعلى اليهودي الذي يُدافع عن القيم اليهودية الخلقية ويقف ضد

العنف ، وهذا هو الفارق بين النيتشوية الآرية والنيتشوية اليهودية . ولنلاحظ أن أحاد هعام لا يعترض على بنية النيتشوية التي تستند إلى التفاوت بين الناس وإنما على مضمونها وحسب . وحديثه عن الأخلاق اليهودية لا يُغيِّر من البنية في شيء ، فالنيتشوية اليهودية مبنية على فكرة تفوق اليهود وتعاليهم على البشر ، وهو الأمر الذي يميزهم بحقوق مطلقة ، من بينها ، على سبيل المثال ، حقهم في أن يعودوا إلى الأرض المقدَّسة متى شاءوا ذلك ، وأن يؤسسوا فيها مركزاً روحياً إن أرادوا ، وأن يستوطنوها ويعمروها أو يخربوها حسبما تملي مشيئتهم ، باعتبارهم السوبر أمة أو الأمة الأعلى (وهذا هو جوهر كل المنظومات المعرفية والخلقية العلمانية الشاملة ، بل إن أصحاب المنظومة يجسدون المطلق ويصبحون هم المرجعية الذاتية وتصبح إرادتهم هي الحق المطلق) . فإذا جاء الفيلسوف النيتشوي الصهيوني بعد هذا وأضاف زخارف أخلاقية وأصر على أن تكون الدولة الصهيونية تجسيداً للقيم الأخلاقية النبيلة ، فإن الزخارف الأخلاقية تظل مجرد زخارف لا علاقة لها بمنطق النسق العام ، بينما يظل العنف هو الجوهر والمحك وقانون البنية . وقد أثبتت التجربة التاريخية (من دير ياسين إلى صابرا وشاتيلا وقانا) أن الأبعاد الأخلاقية إن هي إلا زخارف وأقوال وديباجات ، وأن وضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ يفترض قتل العرب وسفك دمائهم .

ولم يكن أحاد هعام فريداً في دفاعه عن النيتشوية . فقد تأثر كثير من المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة منهم) بالفكر النيتشوي . ومن بين هؤلاء مؤسسو الحركة الصهيونية : تيودور هرتزل والفريد نوسيج وماكس نوردو ، وكلهم ذوو ثقافة ألمانية ، كما تأثر بها مفكرون صهاينة آخرون ، مثل : ميخا بيرديشفكي وحاييم برنر وشاؤول تشرنحوفسكي .

ولا يمكن فهم كتابات أهم الفلاسفة الدينيين اليهود المحدثين (مارتن بوبر) إلا من خلال نيتشه (وكذا كتابات ليو شستوف) . وتسري القاعدة نفسها على مفكري مدرسة لاهوت موت الإله . وأثر نيتشه على جاك دريدا وإدمون جابيس واضح تماماً . كما أن البُعد النيتشوي في الفكر الصهيوني بُعد أساسي . ولا غرو في هذا فالجميع هم أبناء عصرهم العلماني الإمبريالي الأداتي الشامل . ولكل هذا ، فليس من قبيل الصدفة أن يكون التشابه بين الصهيونية والنيتشوية مدهشاً حقاً ، ويمكننا أن نوجز ذلك في النقاط التالية :

١ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، ديانة ملحدة أو حلولية بدون إله ، أو هي وحدة وجود مادية ترد الكون بأسره إلى مبدأ زمني واحد هو إرادة القوة والإنسان الأعلى عند نيتشه ، وهو إرادة القوة اليهودية وبقاء الشعب اليهودي عند الصهاينة . فبقاء الشعب لا يتحقق إلا من خلال إرادة الشعب ومن خلال قوته الذاتية .

٢ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، تعبير عن توثُّن الذات حينما يحل المطلق في الإنسان ويصبح كامناً فيه ، فيعبد الإنسان ذاته أو يعبد أسلافه ، أي الذات القومية المقدَّسة ، باعتبارها تجسيداً لذاته .

٣ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، نسق عضوي دائري يقرن بين البدايات والنهايات ، وتسود فيه صورة مجازية عضوية .

٤ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، ديانة داروينية تسبغ نوعاً من الروحية والقداسة على قانون التطور ، وتجعل من القوة الأساس الوحيد لأي نسق أخلاقي ، وهو ما يُطلَق عليه في المصطلح السياسي الإسرائيلي والغربي «فرض سياسة الأمر الواقع» و«خلق حقائق جديدة» ، وهو ما نسميه «النفعية الداروينية» .

٥ ـ الحياة بالنسبة للنيتشوية توسع ونمو واستيلاء على الآخر وهزيمة له ، ومعاداة للفكر واحتقار له ، وتمجيد للفعل المباشر ولأخلاق السادة الأقوياء ، وهذا هو جوهر الصهيونية التي لا يمكنها أن تعيش إلا على التوسع وعلى إلغاء الآخر . والآخر هو أولاً الفلسطينيون الذين يجب أن يختفوا من على وجه الأرض ، ثم يهود الدياسبورا الذين يعملون بالأعمال الفكرية ويؤمنون بأخلاق العبيد .

٦ ـ وإذا كان نيتشه قد دعا الإنسان إلى أن يعود لحالة الحيوية والطبيعة المقدَّسة ويكون كالحيوان المفترس الأشقر وينبذ العقائد الدينية وأخلاق الضعفاء (يبني منزله بجوار البركان ويعيش في خطر وفي حالة حرب دائمة) ، فقد طرحت الصهيونية نفسها باعتبارها الأيديولوجية التي ستحول يهود المنفى المترهلين الذين يؤمنون بأخلاق الضعفاء إلى وحوش يهود يؤمنون بأخلاق القوة ، مفتولي عضلات يحسمون كل القضايا بالقوة ويفرضون رؤيتهم ، ولذا فالمستوطنون الصهاينة يعيشون حرفياً بجوار البركان في حالة حرب دائمة .

٧ ـ وتفكير نيتشه تفكير نخبوي إذ يرى أن حركة التطور الحقيقية لابد أن تؤدي إلى ظهور أمة مختارة من هذا النوع من الرجال ، وما الإنسان العادي سوى الحلقة أو الجسر الموصل إلى هذه المرحلة العليا ، التي توجد بطبيعة الحال مرحلة أعلى منها إلى أن نصل إلى الحد الأقصى المطلق غير المعروف . ويسيطر على الصهيونية أيضاً تفكير نخبوي يُحوِّل حياة جماهير اليهود في أرجاء العالم خارج فلسطين إلى مجرد جسر يؤدي إلى ظهور الدولة الصهيونية . كما أن الفكر الصهيوني ، بتحويله الأمة إلى مطلق مكتف بذاته ، كان يتضمن معرفياً عملية نقل العرب وإبادتهم .

٨ ـ وداخل هذه المنظومة ينقسم العالم وبحدة إلى السوبرمن ، السادة الأقوياء من أعضاء الشعب العضوي ، والسبمن ، العبيد الضعفاء الذين ينتمون للفريق الآخر . والسادة الأقوياء لهم حقوق مطلقة فهم يجسدون المبدأ الواحد ، أما الضعفاء فإن مآلهم إلى الاختفاء (عن طريق الإبادة بالمعنى العام والخاص) . وعند نيتشه ، نجد أن هناك الوحوش الشقراء وهناك بقية الشعوب . وفي المنظومة الصهيونية ، هناك من ناحية اليهود أصحاب الحقوق المطلقة ، ومن ناحية أخرى الأغيار (خصوصاً الفلسطينيون) الذين لا حقوق لهم ، وهذه الحقوق اليهودية المقدَّسة المطلقة تَجُبُّ حقوق الآخرين .

٩ ـ الفكر النيتشوي ، مثله مثل الفكر الصهيوني ، فكر تختفي فيه حدود الأشياء ومعالمها ، وهو ينفي التاريخ وحدوده فتظهر حالة من السيولة والنسبية التي لا تحسمها سوى إرادة القوة . ومن هنا حديث بن جوريون عن الجيش الإسرائيلي باعتباره خير مفسر للتوراة ، وهو موقف لا يختلف كثيراً عن موقف نيتشه من تفسير النصوص . والنص هنا هو فلسطين التي تحمل معنى عربياً ، إذ تقطنها أغلبية عربية وتوجد داخل التاريخ العربي . حيث يقرر الصهاينة أن يفصلوا الدال عن المدلول ويعلنوا أن فلسطين ليست وطناً بل أرضاً والبشر الذين يقطنون فيها ليسوا شعباً ، وأن الشعب المرتبط بها هم اليهود وحدهم ، والجيش الإسرائيلي هو خير مفسر لهذا النص ، فهو الذي سيفرض عليه المعنى الصهيوني ! (تماماً كما يفعل نقاد ما بعد الحداثة) .

١٠ ـ يتحدث نيتشه في كتاباته (دائماً) عن الماضي والمستقبل ، ولا يركز عيونه على الحاضر أبداً . ولكن الماضي (دون الحاضر الحي) يتحولَّ إلى أسطورة وأيقونة ، والمستقبل بدوره يتحول إلى عصر ذهبي وفردوس أرضي خال من التاريخ . والصهاينة بدورهم لا يتحدثون عادةً إلا عن الماضي العبري (قبل أن تظهر اليهودية وتفسد الشخصية اليهودية بأخلاق الضعفاء) والمستقبل الصهيوني (حين يعود اليهود إلى صهيون ليؤسسوا الدولة الجيتو المعقمة من التاريخ) .

١١ ـ ونيتشه ، بتفكيره المجرد ، لا يتحدث عن السعادة الفردية أو عن السعادة عامةً . فالسعادة من شيم الضعفاء والعبيد ، أما الإنسان الأعلى فيعلو على الخير والشر ويتجاهل اللذة والألم . وتجاهل السعادة ، كقيمة إنسانية ، هو أيضاً إحدى سمات الفكر الصهيوني ، فالصهاينة مشغولون بتصوراتهم المشيحانية عن الدولة اليهودية والشعب المختار ، وبالتالي فهم ينسون الفرد اليهودي المتعيِّن الذي يعيش في وطنه ، فالصهيونية لا تُشكِّل بالنسبة له سوى أيديولوجية مجردة غريبة ، لا يمكنه أن يُنظم حياته من خلالها . ومع هذا فهم يدعون إلى تصفية الجماعات اليهودية في الخارج وإنهاء التاريخ اليهودي في المنفى ، فهو تاريخ الضعفاء والمهزومين ، من وجهة نظرهم .

وتُفصح كل هذه العناصر النيتشوية عن نفسها تماماً في كتابات هارولد فيش أحد منظري جماعة جوش إيمونيم ، التي تؤمن بضرب من الصهيونية نسميها «الصهيونية الحلولية» أو «الصهيونية العضوية» لأنها نيتشوية كاملة ، حيث يتحد الإله بالإنسان اليهودي وبالأرض اليهودية ليكوِّنوا نظاماً مقدَّساً دائرياً مغلقاً عضوياً يُهلك من يقع خارج دائرة القداسة ، مثل العرب ، ويتمتع بسائر الحقوق من يقع داخلها فيتمتع بسائر الحقوق . ولكن القداسة هي ، في واقع الأمر ، القوة . ولهذا ، يشير أحد مفكري جوش إيمونيم إلى الجيش الإسرائيلي باعتباره القداسة الكاملة . وهذا الخطاب لا يختلف كثيراً عن خطاب الرايخ الثالث .

النازيـة والصهيونيـة : العـلاقة الفعليـة

Nazism and Zionism : Actual Relations

تتعدى العلاقة بين النازية والصهيونية مجرد التماثل البنيوي والتأثير والتأثر الفكريين ، إذ أن ثمة علاقة فعلية على مستويات عدة . ولنبدأ بأدناها ، وهي كيفية استغلال النازيين للدعاية الصهيونية في الترويج لرؤيتهم . فقد نشر الصهاينة في ألمانيا ذاتها المزاعم الصهيونية الخاصة بالتميز اليهودي العرْقي والانفصال القومي العضوي عن كل أوربا ، وذلك حتى قبل ظهور النازيين كقوة سياسية . ففي عام ١٩١٢ ، قدَّم عضوان في المنظمة الصهيونية مشروعاً بإيعاز من كورت بلومنفلد جاء فيه أنه ، نظراً للأهمية القصوى للعمل ذي التوجه الفلسطيني (أي الصهيوني) ، يعلن أن من الواجب على كل صهيوني ، خصوصاً من يتمتع باستقلال اقتصادي ، أن يجعل الهجرة جزءاً عضوياً من برنامج حياته . وقد سُمِّي هذا القرار «قرار بوزن» ، وأصبح منذ ذلك الحين الإطار العقائدي للصهيونية الألمانية التي تخلت بفضله عن أية أبعاد غير قومية ذات طابع خيري أو توطيني ، وأصبحت أيديولوجيا قومية عضوية ذات طابع استيطاني . وكان بلومنفلد خبيراً بالمناورات السياسية ، ولذلك نجح في تمرير قراره من خلال ما سماه بعض معارضيه «الأغلبية الطارئة» ، أي عن طريق تقديم مشروع القرار أثناء وجود المؤيدين وغياب المعارضين والحصول على موافقة الحاضرين . وقد اتهمه المعارضون بالمزايدة ، وفسَّروا تطرفه على أساس أنه يقبض

راتبه من المنظمة الصهيونية وليس من الحكومة الألمانية أو أية هيئة أو مؤسسة ألمانية ، وأن هذا يسمح له بأن يتخذ مثل هذه المواقف وأن يبرر مثل هذه القرارات التي لا تعكس وضع يهود (أو حتى صهاينة) ألمانيا أو تطلعاتهم .

وقد قام الصهاينة الألمان بعد ذلك بتطوير الأيديولوجيا الصهيونية والوصول بأطروحاتها إلى نتائجها المنطقية ، أي تصفية الجماعات اليهودية في المنفى (أي العالم) تماماً وإنشاء الدولة الصهيونية . وابتداءً من العشرينيات ، بدأ الزعماء الصهاينة في ألمانيا يطلقون التصريحات الصهيونية التي تؤكد الهوية اليهودية العضوية الخالصة وتنكر على اليهود انتماءهم إلى الأمة الألمانية . ففي عام ١٩٢٠ (قبل ظهور كتاب هتلر **كفاحي** بثلاثة عشر عاماً) ، ألقى جولدمان خطاباً في جامعة هايدلبرج بيَّن فيه أن اليهود شاركوا بشكل ملحوظ للغاية في الحركات التخريبية ، وفي إسقاط الحكومة في نوفمبر ١٩١٨ ، وأصر على أن يهود ألمانيا والشعب الألماني ليست بينهما عناصر مشتركة ، وعلى أن الألمان يحق لهم أن يمنعوا اليهود من الاشتراك في شئون الفولك الألماني . أما وايزمان ، فقد شبه علاقة الألمان باليهود بصورة مجازية استقاها من عملية الهضم ، فقال : إن أي بلد يود تحاشي الاضطرابات المعوية عليه أن يستوعب عدداً محدوداً فقط من اليهود . وكان يرى أن عدد اليهود في ألمانيا أكبر من اللازم ، أو بعبارة أخرى يوجد فائض بشري يهودي . وفي الفترة نفسها ، وصف كلاتزكين اليهود بأنهم جسم مغروس وسط الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها ، ولذا فإن من حقهم أن يحاربوا ضد اليهود من أجل تماسُكهم القومي . وهذه كلها موضوعات قديمة مطروحة في كتابات هرتزل ونوردو ، الأبوين الروحيين للصهيونية على وجه العموم والصهيونية الألمانية على وجه الخصوص ، ولكنها اكتسبت أهمية خاصة من سياقها الزماني والمكاني في ضوء ما حدث بعد ذلك . وهي لا تختلف في جوهرها عن قول إرنست يونجر (المفكر القومي العضوي الذي ألهم النازيين) أن اليهود يتوهمون أن بوسعهم أن يصبحوا ألمانيين في ألمانيا ، ولكن هذا أمر غير قابل للتحقق . فاليهود يواجهون خياراً نهائياً : إما أن يكونوا يهوداً في ألمانيا ، أو لا يكونوا .

وفي ضوء هذا التوجه الصهيوني ، لم يكن من الغريب أن يرى هتلر حين وصل إلى الحكم أن كثيراً من الصهاينة على استعداد لتَفَهُّم وجهة نظره . فقد صرح الحاخام الصهيوني يواكيم برنز في يناير ١٩٣٣ أنه لا مكان يمكن لليهود أن يختبئوا فيه . وقال : بدلاً من الاندماج ، نرى نحن الصهاينة أنه يجب الاعتراف بالأمة اليهودية وبالعرْق اليهودي . وحينما قام النازيون في ٣١ يناير ١٩٣٣ بحرق الكتب التي كانوا يرونها هدامة ، كتبت **يوديش روندشاو** (المجلة الناطقة باسم الاتحاد الصهيوني) تقول إن كثيراً من المؤلفين اليهود خونة تنكروا لجذورهم لأنهم شتتوا جهودهم بإسهامهم في الثقافة الألمانية غير اليهودية . وفي نبرة ترحيب واضحة ، صرح إميل لودفيج (الكاتب اليهودي الألماني) بأن ظهور النازيين دفع بالآلاف من اليهود إلى حظيرة اليهودية مرة أخرى بعد أن كانوا قد ابتعدوا عنها . وقال : "ولذا ، فأنا شخصياً ممتن لهم" . وترد نفس الفكرة النازية الصهيونية على لسان الشاعر الصهيوني حاييم بياليك إذ يرى أن الهتلرية أنقذت يهود ألمانيا ، ويضيف : "أنا أيضاً مثل هتلر أؤمن بفكرة الدم" . وبكثير من القلق ، لاحظ أعضاء الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جماعة اندماجية تعتبر يهود ألمانيا مواطنين ألمانيين) أنشطة الصهاينة وتصريحاتهم واعتبروها طعنة من الخلف في الحرب ضد الفاشية .

ولكن كل هذه المقالات والتصريحات لم تكن سوى افتتاحيات تمهيدية للإعلان الصهيوني الألماني الرسمي الذي أصدرته المنظمة الصهيونية في ألمانيا ، في ٢١ يونيه ١٩٣٣ ، بعد وصول النازيين إلى السلطة (إعلان الاتحاد الصهيوني بشأن وضع اليهود في دولة ألمانيا الجديدة ، Ausserung der Zionistischen Vereinigung fur Deutschland zur Stellung der Juden im Neuen Deutschen Staat) . والذي حدَّد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازي بشكل واضح لا إبهام فيه . وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أُرسلت مباشرةً إلى الحزب النازي وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة . فقد بدأت المذكرة/ الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حل يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة ، دولة البعث القومي ، ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم . وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجي ، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التي تتسم بالكسل ، وبيَّنت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفي الذي يتبعونه ، ومن الخلل الكامن في كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة في تقاليدهم الحضارية الخاصة (أي أنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها) . وبعد أن تبنت المذكرة هذا النقد النازي لليهود انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية ، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية ، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعي الجمعي يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة في صياغة حياة

اليهود . وتؤكد المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العرْق ، أحد ثوابت الرؤية النازية ، كأساس لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألماني وحقائقه القومية والعرْقية . كما تقوم المذكرة بتعريف اليهود تعريفاً عرْقياً ، مبينة أن هدف الصهيونية هو التصدي للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية .

هذا هو الإطار الفلسفي الذي اقترحته المنظمة الصهيونية لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازي ، مؤكدةً إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات . وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتي بحل للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خُططها ، حل يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية في إطار فكرة الشعب العضوي ويتبع النموذج النازي . وكما تقول المذكرة الإعلامية : "على تربة الدولة الجديدة ، ألمانيا النازية ، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود في المجال المخصص لهم ، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين" . وسيؤدي الإطار النظري الفلسفي المطروح إلى ظهور حقائق اجتماعية جديدة تأخذ شكل نموذج جديد : اليهودي المتجذر في تقاليده الروحية ، الواعي بنفسه الذي لا يحس بالحرج تجاه هويته، وهو نموذج مختلف تماماً عن ذلك اليهودي الذي لا جذور له والذي يهاجم الأسس القومية للجوهر الألماني ، وهو مختلف أيضاً عن اليهود المندمجين الذين يحسون بالضيق لانتمائهم للجماعة اليهودية وللعرْق اليهودي وللماضي اليهودي (ولابد هنا من ملاحظة أن النموذج اليهودي الجديد لا يختلف في أساسياته عن النموذج النازي) . ثم تمضي المذكرة قائلة إن الصهيونية تأمل أن تحظى بالتعاون مع حكومة معادية لليهود بشكلٍ أساسي ، إذ لا مجال للعواطف عند تناول المسألة اليهودية ، فهي مسألة تهم كل الشعوب (وخصوصاً الشعب الألماني) في الوقت الراهن . وفي نهاية المذكرة/ الإعلان، شجب الصهاينة جهود القوى المعادية للنازية وهتلر ، والتي كانت قد طالبت في ربيع عام ١٩٣٣ بمقاطعة ألمانيا النازية اقتصادياً . ومما يجدر ذكره أن هذه الوثيقة لم تُكتَشف إلا عام ١٩٦٢ ولم تُعط الذيوع الذي تستحقه ، رغم أنها تُلقي الكثير من الضوء على علاقة النازيين بالصهاينة . وربما لو عرف مؤرخو الإبادة النازية في الشرق والغرب بها لنظروا إلى الإبادة النازية لليهود نظرة مختلفة بعض الشيء .

ونشرت **يوديش روندشاو** مقالاً تعلن فيه عن استعداد الصهاينة للتعاون مع أصدقاء اليهود وأعدائهم ، حيث إن المسألة اليهودية ليست مسألة عاطفية ، وإنما هي مسألة حقيقية تهتم بها كل الشعوب . وهذا الموقف امتداد لموقف هرتزل حين ميَّز بين التعصب الديني القديم (وهو مجرد تعصب عاطفي غير منهجي) والمعاداة الحديثة لليهود والتي وصفها بأنها حركة بين الشعوب المتحضرة الغربية تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها . ويتضمن التمييز هنا شكلاً من أشكال القبول بالمعاداة المنهجية الرشيدة لليهود أو التي تم ترشيدها . وقد تبنى هتلر موقفاً مماثلاً حين ميَّز هو الآخر بين المعاداة العاطفية لليهود والمعاداة المنهجية لهم ، إذ تنتهي الأولى بالمجازر ، أما الثانية فتنتهي بالحل الصهيوني ، أي تهجير جميع اليهود من ألمانيا إلى « وطنهم » فلسطين . وقد حدَّد هتلر مشروعه بالنسبة إلى اليهود على أسس صهيونية ومنهجية رشيدة (وهي القومية العضوية) . كما قرر روزنبرج ضرورة مساندة الصهيونية بكل نشاط «حتى يتسنى لنا أن نرسل سنوياً عدداً محدداً من اليهود إلى فلسطين ، أو على الأقل عبر الحدود» . وحينما استولى النازيون على السلطة ، سمحوا للصهاينة بالقيام بنشاطاتهم الحزبية ، سواء اتخذت شكل اجتماعات أو إصدار منشورات أو جمع تبرعات أو تشجيع الهجرة أو التدريب على الزراعة والحرف ، أي أنهم سمحوا لهم بنشاط صهيوني خارجي كامل . كما كانت المجلات الصهيونية هي المجلات الوحيدة غير النازية المسموح لها بالصدور في ألمانيا . وقد تمتعت هذه المجلات بحريات غير عادية ، فكان من حقها أن تدافع عن الصهيونية كفلسفة سياسية مستقلة . وحتى عام ١٩٣٧ ، لم يتأثر عدد صفحات **يوديش روندشاو** بالقرارات الاقتصادية التقشفية التي تقرر بمقتضاها إنقاص عدد صفحات كل المجلات (وضمنها المجلات الآرية) . كما نشرت دور النشر الألمانية أعمال حاييم وايزمان وبن جوريون وآرثر روبين . ويقول إدوين بلاك مؤرخ اتفاقية الهعفراه (أي النقل) ، إن "الصهيونية هي الفلسفة السياسية المستقلة الوحيدة التي وافق عليها النازيون" .

وقد بيَّنا من قبل عدم اكتراث الصهاينة بالمقاومة اليهودية وغير اليهودية للنازيين . ولكن يبدو أن المسألة كانت تتخطى مجرد عدم الاكتراث بمصير اليهود وعدم الاشتراك في المقاومة ، إذ يبدو أن الصهاينة اكتشفوا ، أثناء الإرهاب النازي ضد اليهود ، ذلك التناقض العميق بين فكرة الدولة اليهودية ومحاولة إنقاذ اليهود .

وقد حدد بن جوريون القضية بشكل قاطع (في ٧ ديسمبر ١٩٣٧) حين أكد أن المسألة اليهودية لم تَعُد مشكلة آلاف اليهود

المهدَّدين بالإبادة وإنما هي مشكلة الوطن القومي أو المستوطن الصهيوني . وقد أدرك بن جوريون خطورة فصل مشكلة اللاجئين اليهود عن المشروع الصهيوني والتفكير في توطين اللاجئين في أي مكان إن لم تستوعبهم فلسطين . وأكد بن جوريون أنه إن استولت "الرحمة على شعبنا ووجه طاقاته إلى إنقاذ اليهود في مختلف البلاد" فإن ذلك سيؤدي إلى "شطب الصهيونية من التاريخ" . وفي العام التالي صرح بن جوريون أمام زعماء الصهيونية العمالية : « لو عرفت أن من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا بتوصيلهم إلى إنجلترا ، في مقابل أن أنقذ نصفهم وأنقلهم إلى فلسطين ـ فإني أختار الحل الثاني ، إذ يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا ، لا حياة هؤلاء الأطفال وحسب ، بل كذلك تاريخ شعب إسرائيل » . وإذا كان بن جوريون على استعداد بالتضحية بنصف الأطفال اليهود من أجل الوطن القومي الصهيوني فإن إسحق جرونباوم (رئيس لجنة الإنقاذ بالوكالة اليهودية) قد تجاوز الحدود تماماً ، ففي حديث له أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٨ فبراير ١٩٤٣ ، صرح قائلاً إنه لو سُئل إن كان من الممكن التبرع ببعض أموال النداء اليهودي الموحد لإنقاذ اليهود فإن إجابته ستكون « كلاّ ثم كلاّ » بشكل قاطع . وأضاف : "يجب أن نقاوم هذا الاتجاه نحو وضع النشاط الصهيوني في المرتبة الثانية . . . إن بقرة واحدة في فلسطين أثمن من كل اليهود في بولندا" . وكان وايزمان قد عبَّر عن نفس الفكرة النفعية عام ١٩٣٧ حينما قال : "إن العجائز سيموتون ، فهم تراب وسيتحملون مصيرهم ، وينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك" . وانطلاقاً من هذه الرؤية المتمركزة حول المشروع الصهيوني وليس الإنسان اليهودي ، لعبت الحركة الصهيونية دوراً حاسماً في تدمير جميع المحاولات الرامية إلى توطين اليهود في أماكن مختلفة من العالم ، مثل جمهورية الدومينيكان ، حتى يضمن الصهاينة تدفق المادة البشرية اليهودية على فلسطين . ولهذا ، التزمت جولدا مائير ، مندوبة الحركة الصهيونية في فلسطين ، الصمت الكامل حيال مداولات مؤتمر إفيان باعتبارها أمراً لا يخصها (وقد فسَّرت موقفها هذا ، فيما بعد ، بأنها لم تكن تدري شيئاً عن عمليات الإبادة النازية) .

وقد اكتشف النازيون أيضاً عمق تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود واتفاق الموقف النازي مع الموقف الصهيوني . فاليهودي الصهيوني الذي يخدم هويته العضوية هو شخص يستحق الاحترام (لأنه يدرك الواقع من خلال إطار عضوي وثني يشبه الإطار النازي)، على عكس اليهودي المتأملن المندمج الذي يتمسح في الهويات العضوية للآخرين ولا ينجح بطبيعة الحال في اكتسابها ، لأنه حبيس هويته اليهودية ، شاء أم أبى . ولعل هذا يُفسِّر السبب في أن النازيين اعتبروا أن عدوهم الحقيقي هو اليهود الأرثوذكس والجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة اليهودية . ولعله يفسر أيضاً لم كانت علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية تتسم بشيء من الود والتفاهم . فبينما كان الأرثوذكس والإصلاحيون يطالبون بمنح اليهود حقوقهم كمواطنين ، وباندماجهم في مجتمعاتهم ، كان الصهاينة يعارضون الاندماج ويعارضون منح اليهود أي حق ، إلا حق الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي .

لكل هذا قام النظام النازي بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان ونشر مجلاته ، بينما مُنع الاندماجيون والأرثوذكس من إلقاء الخطب ، أو الإدلاء بتصريحات ، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر . وقد قام كورت جروسمان ، في كتاب هرتزل السنوي (الجزء الرابع) ، بدراسة الموضوع ، ونشره تحت عنوان "الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينيات" . وألحق الكاتب بالمقال ثماني وثائق نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانيا النازية . وأول هذه التوجيهات (رقم ٣٦٤٢٠/ ٣٤ ١١ ٨) صادر عن الشرطة السياسية في بافاريا بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٣٥ ، وهو خاص بمنظمات الشباب اليهودي . وجاء فيه أن إعادة بعث المنظمات الصهيونية التي تدرب اليهود تدريباً مهنياً على الزراعة والحرف ، قبل تهجيرهم إلى فلسطين ، هو أمر في صالح الدولة النازية . بينما جاء في توجيه آخر (رقم ١٧١٨٦/ ١١٣٥ ٨١) بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥ أنه "يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانيا" . وقد مُنع مواطن صهيوني (جورج لوبنسكر) عن طريق الخطأ من إلقاء الخطب ، ثم صدر توجيه آخر (رقم ١٩١٠٦/ ١١٣٥١ ب) ليصحح هذا الوضع ، وصدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه « لأنه مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أية عوائق » .

كما اهتم النازيون كثيراً بنشاط التصحيحيين . ولهذا ، صدر تصريح (رقم ١٧٩٢٩/ ١١٣٥ ب) لمنظمتي الشباب القومي الهرتزلي وعصبة الأشداء (بريت هابريونيم) بأن يرتدوا أزياءهم الرسمية أثناء اجتماعاتهم . وقد مُنح التصريح ، كما جاء في التوجيه ، بشكل استثنائي لأن صهاينة الدولة (أي التصحيحيين) برهنوا على أنهم هم الذين يمثلون المنظمة التي تحاول ، بكل السبل ، حتى غير الشرعية منها ، أن ترسل أعضاءها إلى فلسطين . وكان

من شأن التصريح بارتداء الزي أن يحفز أعضاء المنظمات اليهودية الألمانية على الانضمام إلى منظمة الشباب الخاصة بصهاينة الدولة، حيث كان يجري حثهم بشكل أكثر كفاءة على الهجرة إلى فلسطين. وقد صدر تصريح (رقم ١٩٠٥٢/ ١٣٥/ ١١ ب) للمنظمات الصهيونية بتاريخ ٩ يوليه ١٩٣٥ بجمع التبرعات من أجل تشجيع الهجرة والاستقرار في فلسطين ولشراء الأراضي هناك. ومُنح التصريح "لأن هذه التبرعات تساهم في الحل العملي للمسألة اليهودية". كما شجَّع النازيون المدارس العبرية والمؤسسات الثقافية ذات التوجه اليهودي التي تساعد على إظهار الهوية اليهودية والرجوع عن الاندماج، بل منعوا اليهود من رفع الأعلام الألمانية وسُمح لهم برفع «العَلَم اليهودي» (أي عَلَم المنظمة الصهيونية).

والملاحَظ أن أشكال التعاون بين النازيين والصهاينة، والتي تناولناها حتى الآن، تمت بشكل غير مقصود (تصريحات صهيونية يستفيد منها النازيون)، أو هي التقاء عفوي في منتصف الطريق (نشاط صهيوني يشجعه النازيون). ولكن ثمة أشكالاً أخرى من التعاون الواعي. فهناك دلائل تشير إلى أن الجستابو وفرق الإس. إس S.S. (الصاعقة) ساعدت في تهريب المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين، أي أن النازية لم تدعم الصهيونية التوطينية وحسب، بل امتد دعمها إلى الصهيونية الاستيطانية أيضاً. ولكن أهم أشكال التعاون مع الصهاينة الاستيطانيين تم من خلال اتفاقية الهعفراه المبرمة بين النظام النازي وصهاينة المُستوطَن (دون علم الصهاينة التوطينيين أو يهود العالم). ولا تكمن أهمية الاتفاقية في تبيان مدى عمق العلاقة بين الصهاينة والنازيين وحسب، بل إنها تبين أيضاً مدى عمق التناقض بين الصهاينة المستوطنين والصهاينة التوطينيين، وهو تناقض سيطر على الحركة الصهيونية منذ ولادتها ولم تفلح الأيام إلا في زيادته حدة. ويمكن القول بأن إبرام اتفاقية الهعفراه كان أول مواجهة حقيقية بين الفريقين، وقد كسب المستوطنون هذه الجولة الأولى.

وتوجد حالات محددة تعاون فيها الصهاينة مع النازيين في عمليات نقل اليهود وإبادتهم (كاستنر ونوسيج). كما تُوجَد منظمة صهيونية ذات طابع نازي واضح، وهي عصبة الأشداء التي سبقت الإشارة لها. وبالمثل، حاولت منظمة شتيرن تقنين عملية التعاون. وسنتناول أشكال التعاون هذه في بقية هذا الفصل.

معاهدة الهعفراه (الترانسفير)

Haavrah (Transfer) Treaty

«هعفراه» كلمة عبرية تعني «النقل» أو «الترانسفير». والنقل هو أحد مكونات الصيغة الصهيونية الأساسية. والهعفراه هو اسم معاهدة وقعها المستوطنون الصهاينة مع النازيين. وقد كان الصهاينة الاستيطانيون في الثلاثينيات يبحثون عن وسائل لدعم المستوطن وحماية مصالحهم بأية طريقة، ومن ذلك التعاون مع النظام النازي، بينما كان صهاينة الخارج التوطينيون وقادة الجماعات اليهودية مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا، وضمنها تنظيم مقاطعة اقتصادية ضد هذا النظام. ومن أهم الشخصيات القيادية في عملية المقاطعة صموئيل أُنترماير المحامي الأمريكي اليهودي (الصهيوني) الذي نجح في تكوين حركة جماهيرية تضم اليهود وغير اليهود بقيادة الرابطة الأمريكية للدفاع عن حقوق اليهود، وأسس منظمة دولية أطلق عليها «الاتحاد اليهودي الاقتصادي العالمي» في أمستردام للتنسيق بين جميع المنظمات الداعية إلى المقاطعة. وشكلت المقاطعة، وخصوصاً في الشهور الأولى، تهديداً خطيراً للنظام النازي. ويذهب إدوين بلاك (مؤلف كتاب الهعفراه، وهو أهم كتاب صدر في الموضوع في جميع اللغات) إلى أنه لو اتحدت المنظمات اليهودية والصهيونية خلف حركة المقاطعة، فلربما كانت قد نجحت في تعبئة الجماهير غير اليهودية، وانضمت بعض الحكومات إليها، ولما نجح النازيون، وخصوصاً في الأشهر الأولى من تسلمهم السلطة، في الإمساك بزمام الأمور "فاستجابة مباشرة وموحَّدة كان من الممكن أن تقصم ظهر ألمانيا قبل شتاء عام ١٩٣٣".

ولكن المستوطنين الصهاينة كانوا قد قرروا تبني خطة تخدم مصالحهم، فسافر الزعيم العمالي الصهيوني ورئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية حاييم أرلوسوروف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٣) إلى ألمانيا لمناقشة إمكانية التعاون والتبادل الاقتصادي معها. وكانت المسألة بالنسبة إلى المستوطنين ملحة للغاية، فقد فشل المستوطن الصهيوني في اجتذاب المهاجرين ولم يصل إليه رأس المال اليهودي المتوقع (وقد تم اغتيال أرلوسوروف بعد عودته من ألمانيا بعدة أيام). وكان هنريش وولف قنصل ألمانيا العام في القدس قد مهد الجو له وللمبعوثين الصهاينة من بعده عندما كتب مؤيداً وموضحاً المزايا التي سيجنيها النظام النازي من التعاون معهم. وفي النهاية، تم توقيع الاتفاق عام ١٩٣٣ الذي كان يقضي بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يقررون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين بـ «نقل» جزء من أموالهم إلى هناك رغم القيود التي فرضتها ألمانيا على تداول العملة الصعبة. وكان ذلك يتم بتمكين أولئك اليهود من إيداع المبلغ المسموح بتحويله (ألف جنيه إسترليني) في حساب مغلق يفتح في بنك واسرمان في برلين وبنك ووربورج في هامبورج ثم يُسمَح باستعمال هذا المبلغ

فقط لشراء تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا ويتم تصديرها إلى فلسطين . وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع وتسدد بأثمانها المبالغ المستحقة لمودعيها بعد وصولهم كمهاجرين إلى فلسطين ، وتحتفظ بالفرق كعمولة أو ربح لها .

وقد تم تعديل الاتفاقية بحيث أصبح في مقدور اليهود الألمان الذين لا ينوون الهجرة مباشرةً ، ويريدون مع هذا تأسيس بيت في فلسطين والمساهمة في تطويرها ، أن يستعملوا الحساب المغلق وأن يودعوا أموالهم فيه شرط ألا يزيد المبلغ الإجمالي عن ثلاثة ملايين مارك تستعمل لشراء بضائع ألمانية أياً كان نوعها . وأثناء تنفيذ الاتفاقية ، اعترضت بعض العناصر في وزارة الخارجية الألمانية على هذه المساهمة النازية في بناء المُستوطَن الصهيوني . كما قام المستوطنون الألمان في فلسطين (من أتباع جماعة فرسان الهيكل) بالضغط ولكن دون جدوى ، إذ أن هتلر نفسه قرر وجوب الاستمرار في العمل بالاتفاقية .

ويبدو أن الهدف الأساسي والمباشر من الاتفاقية كان (من المنظور النازي) كسر طوق المقاطعة اليهودية في العالم للبضائع الألمانية في أنحاء العالم . وفي محاولة لتوضيح الموقف النازي ، قال وزير الاقتصاد الألماني لوزير الخارجية إن الاتفاقية تقدم أحسن ضمان لأقوى تأثير مضاد لإجراءات المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية . كما أكد القنصل الألماني العام في القدس الفكرة نفسها حين قال : "بهذه الطريقة ، يمكن أن نقوم نحن الألمان بحملة ناجحة في مواجهة المقاطعة اليهودية في الخارج ضد ألمانيا . وقد يمكننا أن نحدث ثغرة في الحائط" . ولاحَظ القنصل أنه في الصراع الدائر ، بين الصهاينة التوطينيين (في الخارج) والصهاينة الاستيطانيين (في فلسطين) ، بدأت موازين القوى تتغيَّر لصالح المستوطنين : «إن فلسطين هي التي تعطي الأوامر ، ومن الأهمية بمكان أن نحطم المقاطعة في فلسطين في المقام الأول ، وسيترك هذا أثره على الجبهة الأساسية في الولايات المتحدة» .

وقد أيَّده في ذلك فريتز رايخرت عميل الجستابو في فلسطين حين قال : "إن مهمتنا الأساسية هي أن نمنع ، انطلاقاً من فلسطين ، توحيد صفوف يهود العالم على أساس العداوة لألمانيا . . . لقد دمرنا مؤتمر المقاطعة في لندن من تل أبيب لأن رئيس الهعفراه في فلسطين، بالتعاون الوثيق مع القنصلية الألمانية في القدس ، أرسل برقيات إلى لندن أحدثت الأثر المطلوب" .

ويقول إدوين بلاك : "إن احتمالات انهيار الاقتصاد الألماني بدأ بالتناقص بسرعة بمرور الوقت . فحينما عقد أنترماير اجتماعاً لاتحاده الدولي في أمستردام في أواخر يوليه ١٩٣٣ ، كانت الفرصة لا تزال جيدة . ومع نهاية أغسطس ، عند انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣) ، كانت الفرصة صعبة لكنها ممكنة" .

فماذا حدث في هذا المؤتمر ؟ لعل دراسة الوقائع وتوقيتها يعطينا صورة دقيقة ومثيرة عن المعركة بين المستوطنين الصهاينة وصهاينة الخارج التوطينيين وكيفية إدارتها ، وكذلك عن بعض الأساليب التي استخدمها المستوطنون لإحكام قبضتهم على الفريق المعادي . فقد وُقِّعت الاتفاقية بشكل مبدئي في ١٧ أغسطس ١٩٣٣ وسُوِّيت كل النقط الفنية المعلقة في ٢٢ أغسطس بعد افتتاح جلسات المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في براغ (تشيكوسلوفاكيا) . وقد أدرك النازيون الأهمية غير العادية للمؤتمر وركزوا كل جهودهم عليه حتى يتسنى إفشال المحاولات الرامية لإصدار قرارات من شأنها دعم المقاطعة اليهودية . وبعد افتتاح جلسات المؤتمر ، ألقى سوكولوف خطبة ملتهبة عن يهود ألمانيا وبؤسهم دون أي ذكر للمقاطعة . ولكن النازيين كانوا يودون إحراز المكاسب الإعلامية التي يطمحون إليها ، ولهذا أعلنوا عن الاتفاقية يوم ٢٤ أغسطس ، وهو اليوم الذي كان محدداً لمناقشة وضع يهود ألمانيا في المؤتمر ، وقد تناقلت صحف أوربا الخبر ، وألقى سوكولوف خطبة ملتهبة قال فيها : "إن اليهود يحترمون إسبانيا القديمة أكثر من ألمانيا الحديثة لأن خروج اليهود جميعاً أفضل من إهانتهم على هذا النحو" . ورغم أن ألفاظه جاءت غاضبة شكلاً إلا أن مضمونها كان نازياً صهيونياً ، فهو لا يتحدث عن حقوق اليهود في أوطانهم وإنما عن حقهم في الخروج الكامل والنهائي منها .

وقدَّم الصهاينة التصحيحيون قراراً محدداً خاصاً بالمقاطعة ، ولكن العماليين نجحوا في فرض قرارهم . وكان النازيون قد أوقفوا مجلة **يوديش روندشاو** عن الصدور مدة ستة أشهر ، فرُفع عنها الحظر وصدرت في اليوم نفسه وهي تحمل مقالاً تتباهى فيه بأن المؤتمر الصهيوني هزم بأغلبية ساحقة اقتراح التصحيحيين الذي كان يهدف إلى تحويل المنظمة الصهيونية إلى وحدة مقاتلة . وصدرت الصحف النازية مرحبة هي الأخرى بالموقف الإيجابي للمؤتمر .

وحينما افتتحت جلسة ٢٥ أغسطس ، انهالت برقيات الاحتجاج من يهود العالم لأن الاتفاقية ستهز مصداقية حركة المقاطعة اليهودية من جذورها وتقضي عليها تماماً في نهاية الأمر . فصعَّد النازيون حملتهم الإعلامية الذكية ، وأعلنوا يوم ٢٧ أغسطس عن صفقة برتقال ضخمة مع المستوطن الصهيوني (أشار إليها أحد صهاينة الخارج بـ«البرتقالة الذهبية» قياساً على «العجل الذهبي») .

وأرسل أُنترماير برقية يطلب فيها أن ينكر المؤتمر أن مثل هذه الصفقة قد أبرمت ، وهدد بأنه إن كان الأمر حقيقة ولم يتم إلغاء الصفقة ، فإن المنظمة الصهيونية الأمريكية ستنسحب من المنظمة الصهيونية . وفي يوم ٣١ أغسطس ، نشرت الحكومة الألمانية النص الكامل لاتفاقية الهعفراه ، فقُوبل الحدث بعدم تصديق من جانب يهود الخارج . ونشرت جويش كرونيكل النص باعتباره نكتة نازية رائعة ، كما أنكرت الدائرة السياسية للوكالة اليهودية أية علاقة لها بالموضوع ، ولكنها تراجعت عن ذلك بالتدريج واعترفت بإبرام الاتفاقية .

وفي يوم ٢ سبتمبر ، طرح العماليون مشروع قرار يحكم سيطرتهم الكاملة على الصهاينة التوطينيين جاء فيه : "كجزء من الانضباط الصهيوني ، لا يُسمَح لأي فرد أو مجموعة داخل المنظمة الصهيونية أن يشتغل بالسياسة الخارجية ، أو أن يتصل بالحكومات الأجنبية أو بعصبة الأمم ، أو أن يقوم بأية نشاطات سياسية من شأنها المساس بصلاحيات اللجنة التنفيذية" . ويتضمن هذا القرار تحريماً لكل أشكال الاحتجاج ضد النازية وضمن ذلك اتفاقية الهعفراه . وقد تم التصويت على القرار الساعة الثالثة صباحاً ووُفق عليه ، وأُجِّل التصويت على الاتفاقية ذاتها حتى آخر يوم . وبعد طرح مشروع قرار عمالي ومشروع قرار مضاد ، قام الزعيم العمالي برل كاتزنلسون فتحدث عن الانضباط وكيف أن مناقشة الهعفراه خرق له ، وبيَّن للمؤتمرين أنه توجد ، في كل الاجتماعات الديموقراطية ، مسائل مهمة لا يمكن مناقشتها . ثم اختتم كلمته قائلاً إن على كل هيئة صهيونية أن تعترف بأن إرتس يسرائيل لها أولوية على أي شيء آخر ، وأهم واجب هو إنقاذ حياة اليهود وممتلكاتهم من الخطر الذي يتعرضون له (ورغم أنه استخدم لغة الإنقاذ والإغاثة إلا أنه أحاطها بالإطار الأيديولوجي بتأكيده أولوية المستوطن على أي شيء آخر) . وقد وافق المؤتمر على مشروع القرار العمالي ، الذي لم يأت فيه سوى أنه لن يتم اتخاذ أي شيء من شأنه أن يتعارض مع موقف المؤتمر فيما يتصل بالمسألة اليهودية الألمانية ، أي أنه لن يقوم أي شخص بأي نشاط وسيُترك الأمر برمته للجنة التنفيذية . وقد وافق المؤتمرون في الجلسة نفسها على أن يصبح علم المنظمة هو علم الدولة ، وأن يصبح نشيد الهاتيكفاه النشيد الوطني للدولة عند إنشائها ، وأنشد المؤتمرون النشيد واختتمت أعمال المؤتمر . وقد أدركت جويش كرونيكل في ٣ سبتمبر أن الاتفاقية لم تكن نكتة نازية خفيفة بل حقيقة صهيونية نازية ثقيلة مريرة ، ونشرت جرائد أخرى أنباء الاتفاقية وما حدث في المؤتمر .

وكان المؤتمر اليهودي العالمي الثالث على وشك الانعقاد في جنيف في ٨ سبتمبر . ولما كانت أنباء الاتفاقية قد أصبحت معروفة ولم يعد هناك أي لبس أو إبهام ، فقد كان من الممكن اتخاذ قرار في هذا الشأن . وكانت هذه الفرصة كما يقول إدوين بلاك ، هي "الفرصة الأخيرة" أمام اليهود والصهاينة لكي يتخذوا قراراً حاسماً (وخصوصاً أن حركة المقاطعة في الأوساط غير اليهودية كانت آخذة في التزايد) . ولكن المؤتمر اليهودي اجتمع وفشل في اتخاذ قرار محدد بخصوص المقاطعة نتيجة الضغط الصهيوني ، واكتفى بتأييد المعارضة التلقائية بين الجماهير . وقد تم إفشال المؤتمر بإشراف الزعيم الصهيوني الأمريكي ستيفن وايز ، وكان قد أفشل قبلاً اجتماع أُنترماير في أمستردام ولندن . وحينما عُرضت الاتفاقية مرة أخرى على المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥) ، بهدف نقضها ، رُفض مشروع القرار وتقرر وضع نشاطات الهعفراه كافة تحت إشراف الإدارة الصهيونية .

وقد حققت اتفاقية الهعفراه نجاحاً باهراً من وجهة نظر النازيين والصهاينة . فقد نجح النازيون في تصديع أسس المقاطعة اليهودية لألمانيا دون أن يضطروا إلى إجراء أي تعديل في سياستهم تجاه اليهود . وأما بالنسبة إلى المستوطنين ، فإن فترة الهعفراه تُعَد أهم فترة في تاريخ المُستوطَن إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية المطلوبة وبرأس المال اللازم للبنية التحتية . وقد بلغ عدد اليهود الألمان الذين هاجروا إلى فلسطين في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤١ (بموجب الاتفاقية) نحو ٥٢,٣٠٠ ويُشكِّلون ٢٥٪ من مجموع المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة نفسها . وكان بينهم ٦,٥٢٩ رأسمالياً يمثلون إضافة اقتصادية ضخمة للمستوطن و٦,٧٠٠ مهاجر من أبناء الطبقة الوسطى المثقفة غالبيتهم من الأطباء والمحامين والمهندسين والصناعيين .

كما ذكر ناحوم جولدمان في مذكراته أنه حينما قابل رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٥ ، اتهم الرئيس الصهاينة برفضهم الاشتراك في المحاولات الرامية إلى مقاطعة هتلر ، بل تخريبها بإبرامهم اتفاقية الهعفراه . وكان تعليق جولدمان الوحيد على ذلك أنه شعر حينذاك بالبؤس والخجل إلى درجة لم يشعر بها من قبل ، وأن رئيس الوزراء كان على حق فيما يقول . ومما يجدر ذكره أن اتفاقية الهعفراه ظلت سارية المفعول حتى عام ١٩٣٩ مع نشوب الحرب العالمية الثانية ، ثم توقف العمل بموجبها ولكن دون أن تُلغى رسمياً .

المجالس اليهودية

Judenrat

«المجالس اليهودية» ترجمة للعبارة الألمانية «يودين رات Judenrat». وهي مجالس كان يقيمها النازيون بين الجماعات اليهودية التي تقع تحت سلطتهم. وكان سلوك أعضاء المجالس يندرج تحت واحد من أربعة أنماط :

١ ـ تعاون من نوع ما في المجالات الاقتصادية والمادية.

٢ ـ استعداد للاستجابة للمطالب النازية حين يتعلق الأمر بمصادرة الممتلكات والأشياء المادية الأخرى، مع رفض كامل لتسليم اليهود.

٣ ـ قبول اضطراري لإبادة جزء من الجماعة اليهودية على أمل إنقاذ الجزء الآخر.

٤ ـ خضوع كامل للمطالب النازية نظير حماية مصالح القيادة اليهودية.

ويبدو أن القيادات اليهودية القديمة كانت تسلك وفق النمطين الأولين. ولكن النمطين الثالث والرابع سادا في المراحل الأخيرة حينما ترأست المجالس اليهودية شخصيات يهودية جديدة لم تضطلع بدور القيادة من قبل.

وكان النازيون يحاولون، قدر المستطاع، أن يضموا إلى هذه المجالس العناصر الصهيونية أو اليهودية القومية باعتبارها عناصر حديثة تشاركهم الرؤية في أن أوربا ليست وطن اليهود، وأنه يجب إخلاؤها منهم، وأن كفاح اليهود (باعتبارهم شعباً عضوياً [فولك]) يجب أن ينصرف إلى الهجرة لا إلى المقاومة والثورة. وقد نجحت هذه المجالس في إدارة أمور الجماعات وضمان سكوتها. وكان كثير من الصهاينة أعضاء في هذه المجالس، بل يُقال إن النازيين كانوا يفضلون الصهاينة على غيرهم من اليهود بسبب اتفاق الفريقين في المنطلقات الفكرية بينهما.

وتُثير المجالس اليهودية قضية التعاون مع النازيين. وقد عرَّفت **الموسوعة اليهودية (جودايكا)** التعاون بأنه علاقة تعني قدراً من المشاركة، وأنها اتفاق إرادي حر بين فريقين. ومن ثم خَلُصت الموسوعة إلى أنه لا يمكن اتهام المجالس اليهودية بالتعاون مع النازيين، لأنها كانت مجرد أداة سلبية خاضعة للضغط النازي تنفذ ما يُطلب منها. كما أن المقاومة على أي حال لم تكن تُجدي فتيلاً لأن المخطط النازي كان لابد أن يُنفَّذ مهما كان حجم المقاومة.

ووجهة النظر التي تطرحها الموسوعة اليهودية مقبولة إلى حدٍّ كبير، وتتسم بشيء من التعاطف الإنساني المطلوب مع أفراد وجدوا أنفسهم تحت سكين الجلاد فسلكوا سلوكاً إجرامياً قد لا يوافقون عليه بالضرورة، ولهذا فلا يمكن أن يُعدوا مسئولين عما ارتكبوه من جرائم. لكن التعاطف الإنساني يجب ألا يعرف أية حدود، ويجب ألا يُميِّز بين اليهود والأغيار، ولذا ينبغي أن يُطبَّق هذا المعيار على كل من تعاون مع النازيين، فهم أيضاً كانوا يعيشون في ظل الإرهاب النازي، وكثيرون منهم نفذوا تعليمات النازي خشية الإرهاب، ومن ثم لم يكن هناك أي قدر من المشاركة والاختيار الحر. وانطلاقاً من ذلك، فإن محاكمة مجرمي الحرب، خصوصاً من صغار الموظفين، تصبح مسألة غير قانونية وغير إنسانية. بل إن قبول مثل هذه الأطروحة يجعل من الممكن استبعاد جميع المتعاونين تقريباً من قوائم الاتهام، بل تبرئة ساحتهم. فالنظام النازي كان نظاماً حديثاً شمولياً حقق مستوى عالياً من الكفاءة العميقة في الوصول إلى جميع الأفراد وفي محاصرتهم إعلامياً، وكان يمتلك جهازاً أمنياً تنفيذياً قادراً على الحركة السريعة، وعلى معاقبة كل المنحرفين. وكان المنحرفون من الألمان يُعاقبون بقسوة بالغة، لأنهم أعضاء في الشعب الألماني العضوي (المختار) وانحرافهم أمر غير مفهوم وغير مبرر، ويتطلب إنزال عقوبات عليهم تفوق ما ينزل على البشر العاديين من عقوبات.

أما افتراض عدم جدوى المقاومة من البداية فهو افتراض خاطئ، إذ يمكن للمرء تخيل ملايين الضحايا من اليهود وغير اليهود وقد رفضوا أن يستقلوا القطارات التي تقلهم إلى معسكرات السخرة والإبادة تحت ظروف الحرب، فلعل مثل هذه المقاومة كانت ستوقف آلة الحرب الألمانية أو على الأقل ترهقها لدرجة تجعل القيادة تعدل عن تنفيذ مخططها الإبادي. وهنا تبرز مسئولية مجالس اليهود، فهي التي قامت بتهدئة الضحايا بشتى الوسائل وبإقناعهم بالرضوخ حتى تم تنفيذ المخطط النازي أو معظمه. ويذهب أيزياه ترانك (في كتاب له صدر عام ١٩٧٢) إلى أن هناك من يرى أنه لو لم يتبع اليهود تعليمات المجالس اليهودية لتمكن ما يزيد عن نصفهم من الهرب من الإبادة.

ويرى المفكر الديني اليهودي ريتشارد روبنشتاين أن تراث يهود العالم، منذ أن تركوا فلسطين بعد تحطيم الهيكل، ولَّد فيهم قابلية للاستسلام والخنوع، وأن هذه القابلية هي التي جعلت بإمكان المجالس اليهودية أن تلعب هذا الدور، وأن تضع أعضاء الجماعات اليهودية في براثن النازي.

رابطة الثقافة اليهودية

Juedischer Kulturbaund

«رابطة الثقافة اليهودية» (بالألمانية : يوديشر كولتوربوند

(Juedischer Kulturbund) منظمة ألمانية يهودية تأسست في ألمانيا النازية عام ١٩٣٣ ، بمبادرة من النظام النازي وبعض المثقفين الألمان اليهود مثل كورت باومان وكورت سنجر ويوليوس باب وفرنر ليفي . وتصدر الجماعة عن الإيمان بفكرة الشعب العضوي والشعب العضوي المنبوذ. حيث ذهبوا إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية هم أعضاء في شعب عضوي (فولك) ، ومن ثم لا يحق لهم المشاركة أو المساهمة في الحياة الثقافية العامة في ألمانيا ، وهو افتراض قبله الصهاينة وكثير من المثقفين اليهود في ألمانيا وخارجها قبولاً تاماً . وكان مفهوم الشعب العضوي هو القيمة الحاكمة والمسلمة النهائية في المنظومة النازية ، ولذا بارك جوبلز وزير الدعاية النازي نفسه فكرة تأسيس الرابطة التي استمرت في نشاطها حتى عام ١٩٤١ ، وكانت بمنزلة المنبر الأساسي للكُتّاب والموسيقيين اليهود . وقد بلغ عدد أعضائها ١٧ ألفاً ثم زاد إلى ١٩ ألفاً بعد عدة شهور ، وكان يعمل فيها عدد كبير من الموظفين و١٢٥ من الموسيقيين والممثلين والمغنين ، وكانت تطبع بعض منشوراتها بالعبرية واليديشية (الوعاء الثقافي لتراث الشعب العضوي) .

ونظراً لنجاح الرابطة ، تم في عام ١٩٣٨ تأسيس شبكة قومية من فروع الرابطة في كل أنحاء ألمانيا بلغ عددها ١٦٨ فرعاً ، وبلغ عدد أعضائها ١٨٠ ألفاً (أي أنها كانت تضم معظم يهود ألمانيا الراشدين) ، بل بلغ حجم العضوية في برلين وحدها ما بين ١٢ ألفاً و١٨ ألفاً . ويبلغ عدد الفنانين اليهود التابعين للرابطة حوالي ألفين . وقامت الرابطة بتنظيم ما يقرب من ٨٤٥٧ برنامجاً تشمل محاضرات وحفلات ومسرحيات وعروضاً فنية . وحققت إيراداً بلغ مليوناً وربع مليون مارك . كما كان لها جريدتها الخاصة . وقد شاركت الرابطة بنشاط ملحوظ في الدعاية النازية ، سواء في الداخل أم في الخارج . ففي الداخل ، قامت الرابطة بزيادة التماسك العضوي والوعي اليهودي بين أعضاء الجماعة اليهودية ، الأمر الذي يعني زيادة عزلتهم وإعطاء مصداقية للرؤية النازية لليهود . أما بالنسبة للخارج ، فكانت تعطي صورة مشرقة للحكم النازي في علاقته باليهود وفي سماحه لهم بالإفصاح عن هويتهم العضوية . ورغم أن أغلب البرامج الثقافية والعلمية المقدمة من قبَل الرابطة كانت تخضع لرقابة البوليس السري (جستابو) وغرفة الفنون والثقافة ثم لرقابة قيادات الحزب النازي في برلين ، إلا أن السلطات النازية حرصت على استمرار نشاط الرابطة حتى بعد أحداث عام ١٩٣٨ ، حينما تم الهجوم على الممتلكات اليهودية وإلقاء أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية في معسكرات الاعتقال ، واستجابت لمطالب رؤساء الرابطة الخاصة بالسماح لهم باستخدام المسارح الألمانية لتقديم عروض الرابطة وتأسيس دور عرض سينمائي خاصة بها . كما عرضت تقديم دعم مالي لها ، وقامت بتقديم الأرباح التي حققتها من خلال جريدتها ودور العرض السينمائي إلى المنظمات المختصة بتنظيم هجرة أعضاء الجماعة اليهودية إلى خارج ألمانيا . وقد نجح بعض قادة الرابطة في الهجرة ، وتم حل الرابطة بشكل نهائي عام ١٩٤١ بأمر من الحكومة .

ولم تكن هذه الرابطة حادثة عرضية في تاريخ علاقة النازيين بالجماعة اليهودية . فقد أظهر النازيون دائماً اهتماماً غير عادي بالثقافة اليهودية باعتبارها تعبيراً عن أن الشعب اليهودي شعب عضوي مستقل . ولذا ، أسست السلطات النازية أهم متحف يهودي في العالم آنذاك في تشيكوسلوفاكيا (ولا يزال هذا المتحف قائماً) . وفي مستوطنة تيريس آينشتات ، ازدهرت الثقافة اليهودية ، وكانت الفرق الموسيقية تقدم عروضاً للزوار الأجانب وتصور الأفلام وتوزعها على العالم .

ولم يكن سلوك النازيين (هذا) ينم عن أي تسامح أو اضطهاد ، وإنما هو تعبير عن إيمان بأن القومية العضوية تشكل أرضية تفاهم مشتركة بينهم وبين الصهاينة ، وهي أرضية لا توجد بينهم وبين أي فريق يهودي آخر .

تيريس آينشتات

Thereseinstadt

«تيريس آينشتات Thereseinstadt» مدينة في تشيكوسلوفاكيا (وتُسمَّى «تيريزين» بالتشيكية) حولها النازيون إلى مستوطنة نموذجية بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥ . رُحِّل إليها حوالي ١٥٠,٠٠٠ يهودي من يهود وسط أوربا وغربها من المتميِّزين أو المسنين أو اليهود من أبناء الزيجات المختلطة . وقد أيد زعماء الجماعة اليهودية في تشيكوسلوفاكيا الخطة ، باعتبار أن هذا يعني بقاء يهود تشيكوسلوفاكيا في وطنهم . ويُقال إن الهدف النازي من تأسيس هذه المستوطنة النموذجية كان إعلامياً بحيث تقدم للإعلام العالمي باعتبارها مثالاً على "حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث" (وهو اسم أحد الأفلام التي صُوِّرت في المستوطنة) .

وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تعينه السلطات الألمانية . وتمتعت المستوطنة بحريات كثيرة ، حيث كان لها نظامها التعليمي ونظامها البريدي المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية . ومن ثم ، كان من

مسئوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام في المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمسنين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافي . كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائي مستقل (أي أن تيريس آينشتات كانت تتمتع بالحكم الذاتي) . وقد سمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء .

وقد رُحِّل حوالي ١٤٠,٩٣٧ يهودياً إلى مستوطنة تيريس آينشتات من بينهم ٣٣,٥٢٩ ماتوا فيها ، أي حوالي ٢٥٪ ، ورُحِّل حوالي ٨٨,١٩٦ إلى معسكرات الاعتقال . وحينما تم تحرير المستوطنة وكان يوجد فيها ١٧,٢٤٧ شخصاً .

وتثير هذه المستوطنة الكثير من القضايا :

١ ـ يُلاحَظ اشتراك المجالس اليهودية مع السلطات النازية في كل الأنشطة سواء الإعداد والتخطيط للمستوطنة أو إدارتها أو مقابلة مندوبي الصليب الأحمر الدولي . وهذا التعاون يثير واحدة من أهم القضايا الأساسية في ظاهرة الإبادة النازية لليهود ، أي مدى اشتراك قيادات الجماعات اليهودية في عملية الإبادة .

٢ ـ وتثير المستوطنة قضية ترشيد الإبادة ، فلم يكن النازيون مجرد جزارين على الطريقة التقليدية ، وإنما كانوا يلجأون إلى التخطيط العلمي الدقيق وإلى التفرقة بين اليهود المتميِّزين واليهود العاديين .

٣ ـ ويمكن التساؤل أيضاً عما إذا كان هدف النازيين هو توظيف اليهود أم إبادتهم .

٤ ـ ولا تختلف علاقة المستوطنة بالسلطات النازية عن علاقة أية دولة في العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التي تحكمها ، والحريات التي كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التي تعرضها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتي ، وهو ما يجعلنا نذهب إلى القول بأن التجربة النازية جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية .

٥ ـ ومن القضايا الأخرى التي تثيرها المستوطنة ، عدد اليهود الذين تمت إبادتهم عن طريق أفران الغاز . **فالموسوعة اليهودية (جودايكا)** تتحدث عن أن ربع سكان هذه المستوطنة المثالية التي تتمتع بظروف خاصة ماتوا بسبب ظروف الحرب ، وأنه في أبريل ١٩٤٥ وصل إلى تيريس آينشتات ١٤,٠٠٠ سجين من معسكرات الاعتقال الأخرى، فاجتاحت الأوبئة سكان المستوطنة وهلك منهم ومن المرحلين الجدد الآلاف ، واستمرت الأوبئة في حصدهم حتى بعد سقوط النظام النازي . فإذا كانت الأوبئة قد حصدت حياة الألوف قبل بعد انتهاء الحرب ، ألا يثير هذا قضية عدد اليهود الذين أُبيدوا عن طريق أفران الغاز ؟

جيتو وارسو

Warsaw Ghetto

أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق قومية تتمتع بقدر كبير من الاستقلال ، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود . ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا ومستوطنة تيريس آينشتات «النموذجية» في بوهيميا .

ومن أهم الجيتوات جيتو وارسو الذي بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالي نصف مليون يهودي يعيشون في رقعة صغيرة حولها حائط ارتفاعه ثمانية أقدام ، وكان له اثنان وعشرون مدخلاً يقف على كلٍّ منها ثلاثة جنود ، أحدهم ألماني والثاني بولندي مسيحي والثالث بولندي يهودي . وكان التعريف الذي تبناه الألمان للهوية اليهودية هو تعريف قوانين نورمبرج وهو أن اليهودي يهودي بالمولد وليس بالعقيدة (وهو التعريف الذي تبنته فيما بعد دولة إسرائيل والذي يستند إليه قانون العودة الصهيوني) .

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه في ضوء المخطط النازي ذي الطابع الصهيوني الواضح الذي ينطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوي منبوذ له شخصيته القومية المستقلة . ولذا كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة ـ وسائل نقل خاصة ـ خدمة بريدية ـ مؤسسات الرفاه الاجتماعي) . كما سُمح لجيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي ، وبأن يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها ، وبأن يصدر جريدته اليومية بل كان له ميليشيا ومحاكم خاصة به ، أي أن الجيتو كان بمثابة دولة صغيرة منعزلة ثقافياً واقتصادياً عما حولها ، وهو بهذا استمرار لتقاليد القهال والإدارة الذاتية والشتتل التي يمجدها الصهاينة في كتاباتهم، وهو يشبه في كثير من الوجوه الدولة الصهيونية المشتولة في الشرق الأوسط .

وكان يدير الدويلة/ الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبراء» ، تُعيِّن السلطات النازية أعضاءه . ولكن استقلالية الدويلة/ الجيتو لم تكن كاملة ، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التي يحتاجها من سلطة الاحتلال النازية على أن يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصنوعات الجلدية) التي كان ينتجها الجيتو . كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يومياً يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو . وكان العامل

البولندي ، يهودياً كان أم غير يهودي ، يتقاضى ربع ما يتقاضاه العامل الألماني .

ولا ندري هل وضع النازيون مخططاً لإبادة يهود جيتو وارسو (بالمعنى الخاص للكلمة ، أي بمعنى التصفية الجسدية) من خلال فرض وضع اقتصادي غير متكافئ عليهم بحيث يمكن استنزافهم لصالح النازيين ، أم أن عملية الإبادة تمت كنتيجة حتمية ، ليست بالضرورة متعمدة ، للبنية الاستغلالية التي فرضها النازيون ؟ فقيمة السلع التي كان ينتجها الجيتو والخدمات التي يقدِّمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفي بالاحتياجات المادية الأساسية للعاملين اليهود الأساسيين ، الأمر الذي كان يعني سوء التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين . وقد أدَّى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والدويلة/ الجيتو اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية ، فكانوا يموتون جوعاً ويهلكون بالتدريج وببطء دون أفران غاز .

وقد قام أحد الباحثين بدراسة إحصائية دقيقة لهذه الإبادة التدريجية البطيئة (عن طريق التجويع) مستخدماً جيتو وارسو أساساً لدراسة الحالة . فأشار إلى أن الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢ ، أي خلال ستة وثلاثين شهراً ، شهدت زيادة عدد الوفيات بشكل ملحوظ . فحسب معدل الوفيات بين أعضاء الجماعة اليهودية قبل الحرب كان من المفروض أن يكون عدد الوفيات ١٢,٦٠٠ في العام . ولكن الجوع والمرض (وكذا غارات الحلفاء وأحكام الإعدام) أدَّت معاً إلى موت ٨٨,٥٦٨ ألفاً في العام ، وهو عدد يشكل ١٩٪ من مجموع سكان جيتو وارسو البالغ عددهم خمسمائة ألف ، الأمر الذي يعني أنه كان من الممكن اختفاء كل سكان الجيتو خلال ثمانية أعوام دون أفران غاز . ويمكن أن نضيف أن هذه العملية كانت ستتسارع في السنوات الأخيرة بسبب زيادة ضعف وهزال سكان الجيتو ، ومن ثم ، فإن خمس أو ست سنوات كانت كافية في تصوُّرنا لإتمام هذه العملية .

وكانت علاقة الدولة النازية بدويلة/ جيتو وارسو علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالسلطة الفلسطينية في غزة وأريحا (كما يتخيلها الصهاينة) . وربما كان الفارق الأساسي هو درجة التحكم ، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً ، ومن ثم كان بالإمكان التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة ، على عكس الضفة الغربية وغزة حيث يوجد كيان حضاري مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتسم بتجذره ، كما أن سكان " المناطق " المحتلة لم يتوقفوا قط عن المقاومة . وكل هذا جعل التحكم في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً .

ويدل سلوك الإسرائيليين تجاه السلطة الفلسطينية في غزة وأريحا أنهم استبطنوا هذا الجانب من تجربة يهود أوربا مع النازية . فهم يحاولون أن تكون علاقتهم مع هذه السلطة تشبه في معظم الوجوه علاقة الحكم النازي بالسلطة اليهودية في جيتو وارسو أو مستعمرة تيريس أينشتات .

جماعة شتيرن والنازية

Stern and Nazism

جماعة صهيونية مراجعة حاولت التعاون مع النازيين باعتبار أن ثمة فارقاً عميقاً بين ما سمته الجماعة «مضطهدي الشعب اليهودي» وأعدائه . فمضطهدو الشعب اليهوي أمثال هامان وهتلر موجودون في كل زمان (فالصهاينة يؤمنون بحتمية العداء لليهود واليهودية) . ولكن الأمر جدُّ مختلف بالنسبة لأعداء اليهود ، فهؤلاء هم الأجانب الذين يهيمنون على فلسطين ويمنعون اليهود من العودة إليها لينهوا حالة المنفى ويؤسسوا وطنهم القومي فيها . وبناءً على هذه الأطروحة الصهيونية الراديكالية لم يجد أعضاء شتيرن أية غضاضة في التفاوض مع النظم الشمولية بهدف التعاون الوثيق معها . فعقدوا اتفاقاً مع حكومة موسوليني تعترف بمقتضاه الحكومة الفاشية بالدولة الصهيونية على أن يقوم أعضاء شتيرن بالتنسيق مع القوات الإيطالية حين تقوم بغزو فلسطين .

ولكن التعاون مع النازيين كان هو الهدف الحقيقي . ولتحقيق هذا الغرض أرسل أعضاء شتيرن مندوباً إلى بيروت (التي كانت تحت سيطرة حكومة فيشي الموالية للنازيين) للتفاوض مع قوات المحور . وقد قابل هذا المندوب ، في يناير ١٩٤١ ، مواطنين ألمانيين أحدهما هو أوتو فون هنتج ، رئيس القسم الشرقي في وزارة الخارجية الألمانية ، والذي كان يشعر بالإعجاب العميق بالصهيونية .

وبعد الحرب اكتُشفت وثيقة (في أرشيف السفارة الألمانية في أنقرة) أرسلتها جماعة شتيرن للحكومة الألمانية تتصل بإيجاد حل للمسألة اليهودية في أوربا واشتراك أعضاء جماعة شتيرن إلى جانب القوات النازية في الحرب ضد قوات الحلفاء . وتنص الوثيقة على أن إجلاء الجماهير اليهودية من أوربا هو شرط مسبق لحل المسألة اليهودية . وقد عبَّر كاتب الوثيقة عن وجود نقط تماثل بين النازية والصهيونية . (وصفت شتيرن نفسها بأنها حركة تشبه الحركات

الشمولية في أوربا في أيديولوجيتها وبنيتها) . كما تذكر الوثيقة وجود مصالح مشتركة بين النازيين والصهيونية ، وتُعبِّر عن تقدير جماعة شتيرن للرايخ الثالث لتشجيعه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا وللهجرة الصهيونية إلى فلسطين . وتؤكد الوثيقة ضرورة التعاون بين ألمانيا الجديدة والفولك العبري في المجال السياسي والعسكري .

ولم يتلق الجانب الصهيوني رداً ، ولذا أرسلت جماعة شتيرن مندوباً آخر في ديسمبر من نفس العام إلى تركيا (بعد احتلال البريطانيين للبنان) ولكن قُبض على هذا العميل .

وكان إسحق شامير ، رئيس وزراء إسرائيل السابق ، عضواً في جماعة شتيرن . ويؤكد الباحث الإسرائيلي باروخ نادل أن شامير كان يعرف بخطة شتيرن للتعاون مع النازيين . وحينما عُيِّن وزيراً للخارجية ثار الرأي العام العالمي بسبب تعيين إرهابي مثله (قام بتدبير عملية اغتيال اللورد موين في القاهرة عام ١٩٤٢ والكونت فولك برنادوت عام ١٩٤٨) ، ولكن أحداً لم يتطرق إلى ماضيه النازي .

عصبة الأشداء

Brit Habiryonim

«عصبة الأشداء» (أي الأقوياء) (بالعبرية : «بريت هابريونيم») جماعة صهيونية مراجعة أسسها آبا أحيمئير (١٨٩٨ ـ ١٩٦٢) ومجموعة من المثقفين الصهاينة مثل الشاعر أوري جرينبرج . وكان معظم مؤسسي الجمعية أعضاء في منظمات صهيونية عمالية ثم استقالوا منها . وقد تبنت الجماعة صياغة صهيونية لا تخفي إعجابها بالفكر النازي أو العنصرية النازية . وكما قال أحد كبار الصهاينة التصحيحيين « نحن التصحيحيين نكن الإعجاب الشديد لهتلر ، فهو الذي أنقذ ألمانيا ولولاه لهلكت خلال أربعة أعوام ، وسنتبعه إن هو تخلى عن معاداته لليهود » . وكانت مجلة **عصبة الأشداء** في فلسطين تزخر بالمقالات التي تمجد هتلر والهتلرية . وكان من بين هتافات أعضاء العصبة « ألمانيا لهتلر ، وإيطاليا لموسوليني ، وفلسطين لجابوتنسكي» . كما مجَّد أعضاء الجمعية الجوانب العسكرية في تاريخ العبرانيين ، فكانوا يشبهون أنفسهم بجماعة حملة الخناجر ، وهم فريق من جماعة الغيورين كانت تغتال الرومان واليهود الذين يتحالفون معهم ، وذلك أثناء التمرد اليهودي الأول في فلسطين بين عامي ٦٦ و٧٣ ميلادية (واسم الجمعية نفسه «بريت هابريونيم» هو اسم إحدى الجمعيات الإرهابية اليهودية في تلك الفترة) . وكان أتباع الجمعية يرون أن الاغتيال السياسي ليس جريمة وإنما هو فعل ذو هدف ومعنى ، وأن الدم والحديد هما الطريق الوحيد للتحرر . وكما قال أحميئير ، فإن "الماشيَّح لن يأتي راكباً على حمار" ، وهو ما يعني أن الماشيَّح الصهيوني سيأتي راكباً دبابة ، حاملاً القنابل العنقودية ! وتعود أهمية الجمعية إلى تأثيرها في حركة التصحيحيين ككل ، فقد تحولت مجلتهم (التي صدرت ابتداءً من يناير ١٩٣٢) إلى لسان حال العمال التصحيحيين ، وشنت حملات شعواء على المعسكر العمالي بأسره .

ورغم أن جابوتنسكي كان يحاول أحياناً أن يحتفظ بمسافة بينه وبين أعضاء الجمعية ، إلا أنه كان يُعبِّر في خطاباته عن إعجابه بهم وتعاطفه معهم . ولم يتخذ أي إجراء تنظيمي ضدهم بل أطلق على أحيمئير (بنبرة لا تخلو من التهكم) اسم «معلمنا ومرشدنا الروحي» ، كما أن الحاخام إسحق كوك دافع عنهم . وتذكر **موسوعة الصهيونية وإسرائيل** أن مناحيم بيجين انضم إلى الجناح الراديكالي لحركة التصحيحيين الذي كان مرتبطاً بعصبة الأشداء (لم تذكر الموسوعة في المدخل عن أحميئير أي شيء عن اتجاهاته النازية المذكورة ، واكتفت بالإشارة إلى أفكاره "الراديكالية") . وقد استمرت العلاقة بين بيجين وأحميئير حتى بعد إعلان الدولة ، فسمح بيجين ، باعتباره رئيس حزب حيروت ، بأن يكتب أحميئير في الجريدة اليومية للحزب ، إلى أن مات عام ١٩٦٢ .

ألفريد نوسيج (١٨٦٤-١٩٤٣)

Alfred Nossig

أحد مؤسسي الحركة الصهيونية مع هرتزل ، وأهم شخصية يهودية صهيونية متورطة في التعاون مع النازيين ، وهو فنان وشاعر وموسيقار من أصل بولندي وخلفية ثقافية ألمانية ، كانت مواهبه متعددة ومتنوعة عبَّر عنها من خلال الأدب (قصائد ومسرحيات ومقالات في النقد الأدبي) والموسيقى (لبريتو لإحدى الأوبرات) والنحت (عُرضَت تماثيله في معظم أرجاء أوربا وذاعت شهرته كنحات) . وقد بدأ حياته ، شأنه شأن معظم الزعماء الصهاينة ، خصوصاً الذين كانوا من أصل ثقافي ألماني ، بالمطالبة بالاندماج الكامل لليهود ، ثم أصبح محرراً في إحدى الصحف البولندية . وفي عام ١٨٨٧ ، نشر كتيبه **محاولة لحل المسألة اليهودية** (بالبولندية) ، حيث اقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين والدول المجاورة . وقد ترك هذا الكتيب أثراً عميقاً على المثقفين اليهود في أوربا وخصوصاً في جاليشيا . ومنذ ذلك التاريخ ، أصبح نوسيج نشيطاً في المجال الصهيوني فألَّف الكتب ودبج المقالات عن موضوع الاستيطان وغيره .

وقد يتصورَّ البعض أن ثمة تناقضاً بين نزعته الاندماجية الأولى ونزعته الصهيونية بعد ذلك . ولكن هذا النمط معروف تماماً بين مؤسسي الحركة الصهيونية ، ولا سيما أصحاب الخلفية الثقافية الألمانية . فهؤلاء يهود غير يهود، بمعنى أنهم حاولوا الاندماج بل الانصهار في الأغلبية لرفضهم لهويتهم اليهودية (الدينية والعرقية). ولكن المجتمع صنفهم «يهوداً» . ولهذا ، أخذوا يبحثون عن طريقة أخرى للتخلص من اليهود ، ووجدوا ضالتهم في الحل الصهيوني ، الذي يرمي إلى نقل (ترانسفير) يهود أوربا خارجها ، إلى أن يفرغها من يهوديها في نهاية الأمر . وهذه عملية ستقضي على الفائض البشري وتُسهِّل اندماج القلة التي ستبقى .

شارك نوسيج في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، واصطدم مع هرتزل لأسباب لا تذكرها المراجع التي عدنا إليها . ولكنه استمر في حضور المؤتمرات الصهيونية ، وصوت ضد مشروع شرق أفريقيا (باعتبار أنه مشروع بريطاني ، بينما كان متحمساً للمشروع الاستعماري الألماني) . ويبدو أن نوسيج كان عضواً في العصبة الديموقراطية ، إذ أنه ساهم (عام ١٩٠٢) مع مارتن بوبر وحاييم وايزمان وليو موتسكين في تأسيس أول دار نشر صهيونية في برلين نشرت العديد من الكتب . ويُعتبَر نوسيج واضع أساس علم الإحصاء الخاص بين الجماعات اليهودية ، فنشر أعمالاً بين عامي ١٨٨٧ و١٩٠٣ ووضع أساس إنشاء المعهد الإحصائي والسكاني (الديموجرافي) اليهودي .

وهدف الصهيونية (حسب تعريف معظم مؤسسيها) هو نقل اليهود من أوربا وإفراغها منهم لحل المسألة اليهودية ، ونوسيج ينتمي إلى هذه المنظومة الفكرية التوطينية (الترانسفيرية) . فكان معظم فكره يدور حول تهجير اليهود ، وكان هذا يأخذ شكل محاولة زيادة وعيهم بهويتهم اليهودية العضوية حتى يَضمُر ويذوي إحساسهم بالانتماء إلى أوربا . وقد أنجز نوسيج ذلك من خلال أعماله الفنية مثل تماثيله : «اليهودي التائه» و«يهودا المكابي» و«الملك سليمان» و«الجبل المقدَّس» (كان نوسيج يود أن توضع على جبل الكرمل رمزاً للدولة اليهودية) . كما أسس عام ١٩٠٨ منظمة استيطانية تُسمَّى إيكو AIKO للتعجيل بنقل اليهود . فهو ، شأنه شأن نوردو ، كان في عجلة من أمره . ولعل طول الانتظار هو الذي دفعه إلى التعاون مع النازيين ، لأنهم أيضاً ذوو نزعة توطينية ترانسفيرية . فعمل كمخبر للسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية ، وعيَّنه تشيرنياكوف ، رئيس مجلس اليهود في وارسو إبان حكم النازي ، عضواً في المجلس ورئيساً لقسم الفنون . ونظراً لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود وتوزعهم ومراحلهم العمرية المختلفة (بسبب دراساته التي أسلفنا الإشارة إليها) ، ونظراً لرغبته العميقة في إفراغ أوربا من يهوديها ، وضع نوسيج خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم . وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية في جيتو وارسو تعاونه مع النازي وأنه عضو في الجستابو ، فحُكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونُفِّذ الحكم في ٢٢ فبراير ١٩٤٣ . وقد اختفى نوسيج تماماً من الأدبيات الصهيونية والغربية .

مردخاي رومكوفسكي (١٨٧٧-١٩٤٤)
Mordechai Rumkowski

صهيوني بولندي ورئيس المجلس اليهودي في جيتو لودز خلال الحرب العالمية الثانية . وُلد في روسيا ثم استقر في مدينة لودز مع بداية القرن العشرين . كان عضواً في الحزب الصهيوني العمومي ، وقام بتمثيله في لجنة الجماعة اليهودية في لودز . كان رومكوفسكي مؤمناً بأن التعاون مع الألمان سيُعزِّز وضع اليهود ، خصوصاً إذا زادت مساهمتهم وأهميتهم بالنسبة للمجهود الحربي الألماني . ولهذا عُيِّن ، بعد احتلال الألمان لمدينة لودز عام ١٩٣٩ ، رئيساً للمجلس اليهودي فيها ، أي كبيراً لليهود ، ومنحه المسئولون الألمان في جيتو لودز (الذي ضم ١٧٠ ألف يهودي) سلطات إدارية واسعة . وتَعزَّز موضعه القيادي بسبب مهارته التنظيمية ، فكان مسئولاً عن إقامة الورش التي أمر الألمان بإنشائها لاستغلال عمل اليهود ، والتي بلغ عددها ١٢٠ ورشة . ومع مرور الوقت ، عمل رومكوفسكي على تركيز جميع السلطات في يده وأصبحت إدارته أكثر استبداداً . وعندما أمرت السلطات الألمانية الجيتو بإصدار عملة نقدية خاصة به (باعتباره كياناً يهودياً مستقلاً بدلاً من استخدام العملة البولندية أو الألمانية) ، طُبعت على الأوراق المالية الجديدة صورته .

اشترك رومكوفسكي في عمليات ترحيل ونقل يهود لودز إلى معسكرات الاعتقال الألمانية ، وكان مسئولاً مع معاونيه عن تحديد من سيتم ترحيله ، الأمر الذي جلب عليه كراهية كثير من سكان الجيتو . وقد ضمت قوائم المرحلين كثيراً من معارضيه داخل الجيتو . وخلال الفترة بين يناير ومايو عام ١٩٤٢ ، تم ترحيل ٥٢ ألف يهودي من الجيتو بمعاونة رومكوفسكي الذي ظل مؤمناً بأن التعاون مع الألمان هو أفضل سبيل لتخفيف وطأة هذه المأساة . وقد قام الألمان بتصفية الجيتو في نهاية الأمر عام ١٩٤٤ ، ورُحِّل رومكوفسكي مع أسرته إلى معسكر أوشفيتس حيث مات .

وتُعَدُّ شخصية رومكوفسكي شخصية مثيرة للجدل في

الأدبيات اليهودية التي تؤرخ لفترة الإبادة النازية ، حيث يحمِّله البعض مسئولية إبادة يهود جيتو لودز . وهو يُعَدُّ مثلاً جيداً على ذلك التعاون بين قيادات الجماعات والمجالس اليهودية من جهة والسلطات النازية من جهة أخرى .

آدم تشرنياكوف (١٨٨٠-١٩٤٢)

Adam Czerniakow

صهيوني بولندي ورئيس مجلس الجماعة اليهودية في وارسو خلال الحرب العالمية الثانية . وأول رئيس للمجلس اليهودي في وارسو ، والذي شكلته سلطات الاحتلال النازية .

كان تشرنياكوف من النشطين في مجال شئون الجماعة اليهودية في بولندا عقب الحرب العالمية الأولى ، واهتم بشكل خاص بشئون الحرفيين اليهود الذين كانوا يشكلون ٤٠٪ من تعداد الجماعة ، وقام بالتدريس في شبكة المدارس اليهودية المهنية في وارسو . وانتُخب في الفترة بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٤ عضواً في مجلس مدينة وارسو ، كما انتُخب قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة عضواً في المجلس التنفيذي للجماعة اليهودية ، ثم عيَّنه عمدة وارسو بعد اندلاع الحرب رئيساً لمجلس الجماعة اليهودية . وبعد احتلال القوات الألمانية للمدينة ، عينته السلطات النازية رئيساً للمجلس اليهودي ، وأوكلت إليه مهمة تنظيم الجماعة اليهودية في جيتو خاص بها ، وكان على اتصال وثيق بالسلطات النازية ، خصوصاً مع قوميسار الجيتو الألماني . وقد وجه بعض أعضاء الجماعة اليهودية انتقادات حادة للمجلس اليهودي ونشاطه وحاول بعضهم إقصاء تشرنياكوف. ويُقال إن تشرنياكوف لم يصدق ، عندما بدأت عمليات ترحيل اليهود إلى معسكرات الاعتقال ، أنه سيتم ترحيل اليهود بالفعل . ولكنه أدرك في نهاية الأمر أبعاد المخطط ، فرفض التعاون مع الألمان ورفض التوقيع على أوامر الترحيل ولم يجد مخرجاً من مأزقه سوى الانتحار .

وقد ترك تشرنياكوف يوميات دوَّن فيها جميع الأحداث الهامة التي جرت داخل الجيتو وجميع ملاحظاته ومشاهداته . وتعتبر هذه اليوميات مرجعاً مهماً لأوضاع وظروف جيتو وارسو إبان الاحتلال النازي .

وتثير حياة تشرنياكوف قضيتين : أولهما قضية مدى مسئولية القيادات اليهودية عن نجاح النازيين في تنفيذ مخططهم . أما القضية الثانية فهي خاصة بمدى معرفة العالم الخارجي بما كان يدور في ألمانيا من عمليات تهجير وقمع وإبادة ، إذ يذهب بعض الدراسين إلى أن العالم بأسره لم يكن يعرف شيئاً عما يدور في ألمانيا النازية وعن عمليات الإبادة ، ومن ثم لم يتخذ أية إجراءات للحيلولة دون وقوع مثل هذه العمليات ، بينما تصر الأدبيات الصهيونية على أن العالم ترك اليهود وحدهم لمصيرهم ، الأمر الذي يعني صدق المعادلة الصهيونية البسيطة : اليهود ضد الأغيار . ولكن تشرنياكوف (وهو ، كما بيَّنا ، واحد من أهم الشخصيات القيادية اليهودية وكان يعيش داخل بولندا ويترأس الجيتو اليهودي في وارسو ، وكانت تربطه علاقة يومية مع السلطات النازية) لم يكن يعرف شيئاً عن الترحيل أو عن أفران الغاز ولم يصدق ما كان يحدث من حوله ، وقد تعاون مع النازيين ، كما تُقرِّر المراجع الصهيونية ، لأنه لم يكن يدرك إطلاقاً ما كان يحدث من حوله ، ولم يصل إلى مسامعه شيء إلا في عام ١٩٤٢ ، أي قرب نهاية الحرب ، فكيف كان يمكن للعالم الخارجي أن يعرف عن الاعتقال والتهجير والإبادة ؟

حاييم كابلان (١٨٨٠-١٩٤٢)

Hayyim Kaplan

مربٍ بولندي صهيوني دوَّن يومياته في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي لبولندا . وُلد في بلوروسيا وتلقى تعليماً تلمودياً في المدرسة التلمودية العليا (يشيفا) ، ثم درس في المعهد الحكومي التربوي في فلنا . وفي عام ١٩٠٢ ، استقر في وارسو حيث أسس مدرسة ابتدائية عبرية كانت جديدة في نوعها ، وظل مديراً لها لمدة أربعين عاماً ، وكان كابلان شديد التحمس للغة العبرية ومن العارفين بها والدارسين لها . وقد تبنى في تدريسه للعبرية الأسلوب أو المنهج المباشر ، فكان يدرسها كلغة حية متداولة باستخدام اللهجة السفاردية . وأصدر كابلان عدة كتب بالعبرية يدعو فيها إلى تبني هذا المنهج في التدريس ، وذلك رغم المعارضة القوية من المؤمنين بالأساليب التقليدية . كما اشترك كابلان بشكل نشط في جمعية الكُتَّاب والصحفيين اليهود في وارسو ونشر العديد من المقالات وأصدر العديد من المجلات العبرية واليديشية على مدى الأعوام الأربعين التي عمل بها في التدريس . كما أصدر ، إلى جانب ذلك ، كتباً خاصة بالنحو العبري وكتباً للأطفال تتناول ما يُسمَّى «الثقافة اليهودية» و«التاريخ اليهودي» . وكان كابلان من المؤمنين بالقومية اليهودية ، أي الصهيونية ، والتاريخ اليهودي الواحد ، وكانت يهوديته ذات طابع قومي حيث لم يكن متمسكاً بممارسة الشعائر والتقاليد الدينية . وقد اتجه إلى فلسطين في عام ١٩٣٦ حيث كان ينوي الاستقرار مع ابنيه اللذين هاجرا للاستيطان بها من قبل ، إلا أنه عاد إلى وارسو بعد أن فشل في العثور على عمل .

وتعود أهمية كابلان إلى أنه دوَّن يومياته وهو في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي لبولندا وقبل أن يُدمَّر الجيتو بأكمله. وقد بدأ كابلان في كتابة يومياته بالعبرية ابتداءً من عام ١٩٣٣ وسجل فيها الأحداث اليومية لمجتمع الجيتو، كما سجل أفكاره وحواراته مع أصدقائه وانطباعاته العديدة. وقد أدان كابلان القيادات اليهودية في الجيتو ومن بينها آدم تشرنياكوف رئيس المجلس اليهودي، الذي كان يقوم بتسليم اليهود إلى النازيين والذي انتحر فيما بعد. وقد نجح كابلان في تهريب يومياته إلى خارج الجيتو قبل أن يلقى حتفه عام ١٩٤٢.

وتتضمن اليوميات إدراكاً كاملاً للتشابه البنيوي بين النازية والصهيونية، إذ يُعبِّر كابلان عن دهشته لاضطهاد النازيين لليهود رغم أن الحل النازي هو نفسه الحل الصهيوني: الاعتراف باليهود كشعب عضوي منبوذ وطنه فلسطين ومن ثم يتعيَّن عليه أن يهاجر إليها. وقد دوَّن كابلان في مذكراته أن هذه الكلمات كانت جديدة على النازيين تماماً، وأنهم لم يصدقوا آذانهم حينما سمعوا ذلك لأول مرة من أحد اليهود. وهذه الملاحظة تدل على مدى جهل كابلان بمستوى المعرفة النازية بالمسألة اليهودية والعقيدة الصهيونية، وتدل على أنه لم يكن متابعاً للتعاون الوثيق بين النازيين والصهاينة في ألمانيا النازية.

وتُرجمت يوميات كابلان إلى لغات عدة منها الإنجليزية والألمانية والفرنسية والدنماركية واليابانية، ونُشرت بالإنجليزية تحت عنوان **مخطوطات العذاب**.

كورت بلومنفلد (١٨٨٤-١٩٦٣)

Kurt Blumenfeld

أحد الزعماء الصهاينة في ألمانيا، والقوة المحركة للمنظمة الصهيونية فيها. وهو يهودي ألماني وُلد لأسرة مندمجة، ولكنه خَلُص إلى أنه لا جدوى من الانعتاق وأن اليهود لن يكون في وسعهم الاندماج في المجتمع الألماني. تزوج بلومنفلد من فتاة من شرق أوربا، وبعد أن درس في كلية الحقوق في إحدى الجامعات الألمانية، انضم إلى المنظمة الصهيونية وأصبح سكرتيرها الأول عام ١٩٠٩، ثم أصبح السكرتير العام للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية (ورئيس قسم النشر)، وترأس تحرير مجلة **دي فيلت** لسان حال المنظمة. وبعد الحرب العالمية الأولى، قام بحملات واسعة لجمع التبرعات للصندوق القومي اليهودي وأصبح رئيساً للمنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩٢٤، وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٣٣، أي عندما تولى هتلر السلطة في ألمانيا. وقد هاجر بلومنفلد عندئذ إلى فلسطين واستوطن فيها وأصبح الرئيس التنفيذي للصندوق القومي اليهودي في فلسطين. ومات بلومنفلد عام ١٩٦٣، ولكن المصادر الصهيونية لا تذكُر شيئاً عن نشاطه السياسي منذ عام ١٩٤٤ حتى وفاته، أي مدة عشرين عاماً، وهو أمر يحتاج إلى دراسة.

كان بلومنفلد يرى نفسه «نبي» الصهيونية الألمانية في عصر ما بعد الاندماج وفشله، وبدأ يعلن عن مواقفه ويقوم بالجولات الإعلامية داخل ألمانيا وخارجها بوصفه مسئولاً صهيونياً، كما دأب على إلقاء خطب نارية ورفع شعارات سببت كثيراً من الحرج لأعضاء الأقلية اليهودية في ألمانيا. وكان بلومنفلد وراء إصدار ما يُسمَّى «قرار بوزن» الذي أصدرته المنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩١٢ وحدَّدت فيه الصهيونية كحركة قومية تُترجم نفسها إلى هجرة إلى فلسطين «الوطن القومي لليهود». ووصف بلومنفلد هذا القرار بأنه كان بمنزلة إعلان للهجوم على صهيونية الإحسان (الغربية)، أي الصهيونية التوطينية، وأن الصهيونية بصدوره أصبحت حركة ذات طابع قومي (استيطاني) واضح (وقد اعترف بلومنفلد أيضاً بأن الأعضاء وافقوا على قراره لأنهم لم يدركوا تضميناته السياسية الراديكالية).

رودولف كاستنر (١٩٠٦-١٩٥٧)

Rudolph Kastner

أحد زعماء الحركة الصهيونية في المجر. ترأس عدداً من المنظمات الشبابية الصهيونية، ورأس تحرير مجلة **أوج كيليت Uj Kelet** (أي «الشرق الجديد»)، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية في المجر، ثم أصبح مسئولاً عن «إنقاذ» المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا، فقد كان يشغل منصب رئيس لجنة الإغاثة في بوادابست التابعة للوكالة اليهودية.

قام كاستنر بالاتصال بالمخابرات المجرية والنازية (التي كان لها عملاء يعملون داخل المجر، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها)، ثم استمر في التعاون مع النازيين بعد احتلالهم للمجر. وتشير بعض الدراسات إلى أن أيخمان حضر إلى المجر ومعه ١٥٠ موظفاً وحسب، وكان يتبعه عدة آلاف من الجنود المجريين، هذا بينما كان يبلغ عدد يهود المجر ما يزيد عن ٨٠٠ ألف، وهو ما يعني استحالة ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) إن قرروا المقاومة. ومع هذا نجح أيخمان في مهمته بفضل تعاون كاستنر معه،

إذ يبدو أن كاستنر أقنع أعضاء الجماعة اليهودية في المجر بأن النازيين سيقومون بنقلهم إلى أماكن جديدة يستقرون فيها أو إلى معسكرات تدريب مهني لإعادة تأهيلهم وليس إلى معسكرات الاعتقال . ومقابل ذلك سمحت السلطات النازية (عام ١٩٤١) بإرسال ٣١٨ يهودياً ثم ١٣٨٦ يهودياً من أحد معسكرات الاعتقال إلى فلسطين («يهود من أفضل المواد البيولوجية» على حد قول أيخمان) .

استقر كاستنر في فلسطين عام ١٩٤٦ ، وانضم إلى قيادة الماباي ورُشّح للكنيست الأول . وانتقلت معه مجلة **أوج كيليت** ، وأصبح رئيساً لتحريرها ، بل كان يُعَدُّ مسئولاً عن شئون يهود المجر (أو من تبقى منهم) في الحزب الحاكم .

ولكن في عام ١٩٥٢ أرسل المواطن الإسرائيلي مايكل جرينولد كتيباً لبعض القيادات الصهيونية اتهم فيها كاستنر بالتعاون مع النازيين ، وأنه قام بالدفاع عن أحد ضباط الحرس الخامس (الإس . إس .) أثناء محاكمات نورمبرج الأمر الذي أدَّى إلى تبرئته وإطلاق سراحه . وقد قام الحزب الحاكم في إسرائيل بمحاولات مضنية لإنقاذ كاستنر وتبرئته . كما بيَّن كاستنر أثناء محاكمته أنه لم يكن يسلك سلوكاً فردياً وإنما تصرَّف بناءً على تفويض من الوكالة اليهودية (التي أصبحت الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨) . ولم يكن كاستنر مبالغاً في قوله فالمواطن الإسرائيلي جويل براند كان على علم ببعض خفايا القضية وبمدى تورط النخبة الحاكمة في عملية المقايضة الشيطانية التي تمت . وقد طُلب منه الإدلاء بشهادته ، ولكنه آثر ألا يفعل وبدلاً من ذلك كتب كتاباً بعنوان **الشيطان والروح** يقول فيه «إن لديه حقائق تبعث على الرعب وتدمغ رؤوس الدولة اليهودية (الذين كانوا رؤساء الوكالة اليهودية)» . وأضاف قائلاً «إنه لو نشر مثل هذه الحقائق لسالت الدماء في تل أبيب» .

وقد قضت المحكمة الإسرائيلية بأن معظم ما جاء في كتيب جرينولد يتطابق مع الواقع . وبعد إشكالات قضائية كثيرة ، حُسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق «أحدهم» الرصاص على كاستنر وهو يسير في الشارع . وقد تمت الجريمة رغم ورود تحذيرات لسلطات الأمن الإسرائيلية عن وجود مؤامرة لاغتيال كاستنر ، بل كانت السلطات تعرف موعد تنفيذ المؤامرة . وقد سجل موشيه شاريت ، رئيس الوزراء الإسرائيلي ، هذه الكلمات في مذكراته : "كاستنر . كابوس مرعب . حزب الماباي يختنق . بوجروم ." . ويشير براند في كتابه إلى أن "رجال السياسة الذين يتسمون بالحذر ، كانوا لا يعرفون ماذا سيفعلون مع هذا الرجل بعد محاكمته" ، وكانوا يفكرون في "إسكاته" .

العرب والمسلمون والإبادة النازية ليهود أوربا

Arabs, Moslems, and the Nazi Extermination of European Jewry

لعل من الضروري أن نتناول إشكالية تخصنا وحدنا كعرب وكمسلمين ومسيحيين وهي موقفنا من الإبادة النازية لليهود . أما موقفنا من الإبادة النازية كمسلمين وكمسيحيين فهو واضح تماماً لا لبس فيه . فالقيم الأخلاقية الدينية (الإسلامية والمسيحية واليهودية) لا تسمح بقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق . وقد جاء في الذكر الحكيم : "من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً" . (المائدة ـ ٣٢) .

ويحاول الغرب إقحام الجريمة النازية داخل التاريخ العربي حتى يُبرِّر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية في وسط الوطن العربي ، تعويضاً لليهود عما لحق بهم من أذى داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل حدود أوربا الجغرافية . وتحاول الدعاية الصهيونية ، بممالأة الغرب ، أن تنجز ذلك من خلال آليتين أساسيتين :

١ ـ تحاول الدعاية الصهيونية جاهدة أن تصوِّر المقاومة العربية للغزو الصهيوني لفلسطين وكأنها دعم مباشر أو غير مباشر للإبادة النازية ، لأنها حالت في بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين . ومثل هذه الحجة لا أساس لها من الصحة . فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها ، تحت رعاية العالم الغربي ، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية (ومن النازيين أنفسهم) ، وفي الوقت الذي كانت الدول الغربية توصد أبوابها دون المهاجرين اليهود . ومهما فعل الصهاينة (يؤيدهم في هذا العالم الغربي دون تحفُّظ) يظل حق المقاومة حقاً إنسانياً مشروعاً بل اجباً على كل إنسان يحترم إنسانيته ، ويظل رفض الإنسان للظلم تعبيراً عن نبله وعظمته ، بل إنسانيته .

٢ ـ تحاول الدعاية الصهيونية أن تبين أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع النظام النازي . وهذه أكذوبة أخرى . فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فالعالم العربي على أية حال كان يقع في دائرة الاستعمار الغربي) . كما أن النظرية النازية العرْقية كانت تضع العرب والمسلمين في مصاف اليهود ، ولذا فأي تحالف مزعوم كان

تحالفاً مؤقتاً لا يختلف عن حلف ستالين/ هتلر . وهؤلاء الساسة (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كُرهاً في اليهود أو حباً في النازيين ، وإنما تعبيراً عن عدائهم للاستعمار الإنجليزي والاستيطان الصهيوني . وهو ، على أية حال ، تعاطف يُعبِّر عن سذاجة وعن عدم مقدرة على القراءة الجيدة للأحداث ، وعن عدم إلمام بطبيعة الغزوة النازية ومدى تَجذُّرها في المشروع الحضاري والإمبريالي الغربي ومدى رفضها العنصري للمسلمين والعرب . ولم يُترجم هذا التعاطف العام نفسه إلى اشتراك فعلي في الجريمة النازية ، التي تحتفظ بخصوصيتها كظاهرة حضارية غربية .

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغيِّر شيئاً من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية ، الدينية والإنسانية . فالإبادة النازية لا تُشكِّل جزءاً من التاريخ العربي أو تواريخ المسلمين ، ولم يلوث العرب والمسلمون أيديهم بدماء ضحايا النازية من يهود أو سلاف أو غجر . وهذه المحاولات تُبيِّن في نهاية الأمر اتساق الغرب مع نفسه ، الذي يُكفر عن جريمة إبادية ارتكبها في ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة في وطننا العربي .

ومن المعروف أنه حينما حدث احتكاك مباشر بين المسلمين والعرب من جهة والإبادة النازية من جهة أخرى فإن موقف المسلمين والعرب كان يتسم بالإنسانية . فعلى سبيل المثال قامت الأقلية المسلمة في بلغاريا بدور كبير في حماية أعضاء الجماعات اليهودية من الإبادة ، كما أن الملك محمد الخامس عاهل المغرب رفض تسليم رعاياه اليهود إلى حكومة فيشي الفرنسية الممالئة للنازي .

وأثناء كتابة هذه الموسوعة لاحظت تكرار كلمة «مسلم» في مقال عن التدرج الاجتماعي في معسكر أوشفيتس ، وقال مرجع آخر إن الضحايا الذين كانوا يُقادون لأفران الغاز كانوا يسمونهم تسمية «غريبة» . وقد تبيَّن بعد قراءة عدة مراجع وموسوعات إلى أنهم كانوا يسمون في واقع الأمر «ميزلمان Muselmann» أي «مسلم» بالألمانية ، وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في الموسوعة اليهودية Encyclopedia Judaica (جزء ١٢ ص ٥٣٧ ، ٥٣٨) عنوانه «مسلم» :

«ميزلمان» أي مسلم بالألمانية ، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تُستخدَم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت ، أي الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي . وكان هذا المصطلح يُستخدَم أساساً في أوشفيتس ولكنه كان يُستخدَم في المعسكرات الأخرى» .

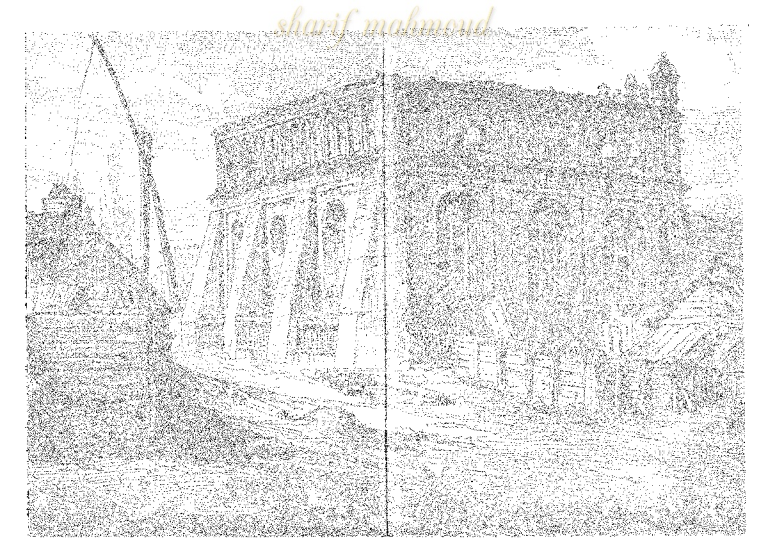
هذه هي المعلومة ، فكأن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر ، والآخر منذ حروب الفرنجة هو المسلم . ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود ، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط .

إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي ، والنازيون هم حملة عبء هذه الرؤية ، وهم مُمثِّلو الحضارة الغربية في مجابهتها مع أقرب الحضارات الشرقية ، أي الحضارة الإسلامية . وهم لم ينسوا قط هذا العبء حتى وهم يبيدون بعضاً من سكان أوربا . وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن الغزاة الأسبان للعالم الجديد الذين كانوا يبيدون سكانه الأصليين وكانوا يسمونهم «الترك» أي «المسلمين» . كل ما في الأمر أن نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» تم توسيعه لتشير "للآخر" على وجه العموم ، سواء أكان من الغجر أم السلاف أم اليهود (وهذا لا يختلف كثيراً عن توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة "عربي" في الخطاب الصهيوني لتصبح "الأغيار") . وقد حاول كاتب مدخل «مسلم» في الموسوعة اليهودية أن يفسر أصل استخدام الكلمة ، فهو يدَّعي أن الضحايا سُموا «مسلمين» استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم : "إنهم كانوا يجلسون القرفصاء وقد ثُنيت أرجلهم بطريقة «شرقية» ويرتسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة" . والكاتب في محاولة التفسير هذه لم يتخل قط عن عنصريته الغربية أو الصور النمطية الإدراكية ، كل ما في الأمر حاول أن يحل كلمة «شرقيين» العامة محل كلمة «مسلمين» المحددة .

مسلم
Muselmann

انظر : «العرب والمسلمون والإبادة النازية ليهود أوربا» .

والله أعلم




Bibliotheca Alexandrina
0604563